سلسلة زاد الداعية المسلم (١٦)

الإحكام والبيان في شرح ثلاثة الأصول

شرحٌ تأصيليٌّ جامعٌ، يقرِّر عقيدةَ السَّلفِ بالأدلَّةِ المعتبرة، ويُبيِّنُ معاني المتنِ، ويكشفُ مقاصِدَهُ وفوائده، يستعينُ بهِ المبتَدي في التَّأسيسِ والبناءِ والتَّرقِّي في مدارجِ العلمِ، ويَجدُ فيهِ الشَّارحُ والمعلِّمُ عونًا على البيانِ والإفهامِ

جمعَهُ الفقيرُ إلى عفوِ ربِّه

أبو عبدِ الله

غفرَ اللهُ لهُ

الإحكام والبيان
في شرح ثلاثة الأصول

جمعه الفقير إلى عفو ربه

أبو عبد الله

غفر الله له

سلسلة زاد الداعية المسلم (١٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

المتن

اعلَم - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّهُ يَجِبُ عَلَينَا تَعَلُّمُ أَربَعِ مَسَائِلَ:

الأُولَى: العِلمُ، وَهُوَ: مَعرِفَةُ اللهِ، وَمَعرِفَةُ نَبِيِّهِ، وَمَعرِفَةُ دِينِ الإِسلَامِ بِالأَدِلَّةِ.

الثَّانِيَةُ: العَمَلُ بِهِ.

الثَّالِثَةُ: الدَّعوَةُ إِلَيهِ.

الرَّابِعَةُ: الصَّبرُ عَلَىٰ الأَذَىٰ فِيهِ.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَٱلْعَصْرِ ١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ٣﴾ [سورة العصر:١-٣].

- **قَالَ الشَّافِعِيُّ:** «لَو مَا أَنزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَىٰ خَلقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةَ، لَكَفَتهُم».

- **وَقَالَ البُخَارِيُّ:** «بَابٌ: العِلمُ قَبلَ القَولِ وَالعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [سورة محمد:١٩]، فَبَدَأَ بِالعِلمِ قَبلَ القَولِ وَالعَمَلِ.

اعلَم - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسلِمٍ وَمُسلِمَةٍ، تَعَلُّمُ ثَلَاثِ هَذِهِ المَسَائِلِ، وَالعَمَلُ بِهِنَّ:

الأُولَى: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَم يَترُكنَا هَمَلاً؛ بَل أَرسَلَ إِلَينَا رَسُولاً، فَمَن

أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [سورة المزمل: ١٥-١٦].

الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللهَ لَا يَرضَىٰ أَن يُشرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرسَلٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن: ١٨].

الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَن أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللهَ، لَا يَجُوزُ لَهُ مُوَالَاةُ مَن حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَو كَانَ أَقرَبَ قَرِيبٍ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة المجادلة: ٢٢].

اعلَم - أَرشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ -: أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ - مِلَّةَ إِبرَاهِيمَ -: أَن تَعبُدَ اللهَ وَحدَهُ مُخلِصًا لَهُ الدِّينَ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُم لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦]، وَمَعنَىٰ «يَعبُدُونِ»: يُوَحِّدُونِ.

وَأَعظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ: التَّوحِيدُ، وَهُوَ: إِفرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ.

وَأَعظَمُ مَا نَهَىٰ عَنهُ: الشِّركُ، وَهُوَ: دَعوَةُ غَيرِهِ مَعَهُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ [سورة النساء: ٣٦].

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَىٰ الإِنسَانِ مَعرِفَتُهَا؟

فَقُل: مَعرِفَةُ العَبدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا - ﷺ -.

الأَصلُ الأَوَّلُ:

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَن رَبُّكَ؟

فَقُل: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّىٰ جَمِيعَ العَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعبُودِي لَيسَ لِي مَعبُودٌ سِوَاهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [سورة الفاتحة:٢]. وَكُلُّ مَا سِوَىٰ اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِن ذَلِكَ العَالَمِ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفتَ رَبَّكَ؟

فَقُل: بِآيَاتِهِ وَمَخلُوقَاتِهِ.

وَمِن آيَاتِهِ: اللَّيلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمسُ، وَالقَمَرُ.

وَمِن مَخلُوقَاتِهِ: السَّمَوَاتُ السَّبعُ وَمَن فِيهِنَّ، وَالأَرَضُونَ السَّبعُ وَمَن فِيهِنَّ، وَمَا بَينَهُمَا.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [سورة فصلت:٣٧].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأعراف:٥٤].

وَالرَّبُّ هُوَ المَعبُودُ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [سورة البقرة:٢١-٢٢].

- قَالَ ابنُ كَثِيرٍ: «الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشيَاءِ، هُوَ المُستَحِقُّ لِلعِبَادَةِ».

وَأَنوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا: - مِثلُ: الإِسلَامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحسَانِ؛ وَمِنهَا: الدُّعَاءُ، وَالخَوفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغبَةُ، وَالرَّهبَةُ، وَالخُشُوعُ، وَالخَشيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالِاستِعَانَةُ، وَالِاستِعَاذَةُ، وَالِاستِغَاثَةُ، وَالذَّبحُ، وَالنَّذرُ، وَغَيرُ ذَلِكَ مِن أَنوَاعِ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا - كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالَىٰ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن:١٨].

فَمَن صَرَفَ مِنهَا شَيئًا لِغَيرِ اللهِ؛ فَهُوَ مُشرِكٌ كَافِرٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون:١١٧].

وَفِي الحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ».

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر:٦٠].

وَدَلِيلُ الخَوفِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران:١٧٥].

وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [سورة الكهف:١١٠].

وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة المائدة:٢٣]، وَقَولُهُ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [سورة الطلاق:٣].

وَدَلِيلُ الرَّغبَةِ، وَالرَّهبَةِ، وَالخُشُوعِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء:٩٠].

وَدَلِيلُ الخَشيَةِ؛ قَولُهُ تعالَىٰ: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾ [سورة المائدة:٣].

وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ؛ قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [سورة الزمر:٥٤].

وَدَلِيلُ الاِستِعَانَةِ؛ قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة:٥]، وَفِي الحَدِيثِ: «إِذَا استَعَنتَ فَاستَعِن بِاللهِ».

وَدَلِيلُ الاِستِعَاذَةِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [سورة الفلق:١]، وَ ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس:١].

وَدَلِيلُ الاِستِغَاثَةِ؛ قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ [سورة الأنفال:٩].

وَدَلِيلُ الذَّبحِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ﴾ [سورة الأنعام:١٦٢-١٦٣]، وَمِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللهُ مَن ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ».

وَدَلِيلُ النَّذرِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [سورة الإنسان:٧].

الأَصلُ الثَّاني:

مَعرِفَةُ دِينِ الإِسلَامِ بِالأَدِلَّةِ، وَهُوَ: الِاستِسلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوحِيدِ، وَالِانقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّركِ وَأَهلِهِ.

وَهُوَ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ: الإِسلَامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحسَانُ.

وَكُلُّ مَرتَبَةٍ لَهَا أَركَانٌ.

فَأَركَانُ الإِسلَامِ خَمسَةٌ: شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَومُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيتِ اللهِ الحَرَامِ.

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران:١٨].

وَمعناهَا: لَا مَعبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ.

«لَا إِلَهَ» نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ.

«إِلَّا اللهُ» مُثبِتًا العِبَادَةَ لِلَّهِ وَحدَهُ.

لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلكِهِ.

وَتَفسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [سورة الزخرف:٢٦-٢٧]، وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران:٦٤].

وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة:١٢٨].

وَمَعنَىٰ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصدِيقُهُ فِيمَا أَخبَرَ، وَاجتِنَابُ مَا عَنهُ نَهَىٰ وَزَجَرَ، وَأَلَّا يُعبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ.

وَدَلِيلُ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفسِيرِ التَّوحِيدِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [سورة البينة:٥].

وَدَلِيلُ الصِّيَامِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة:١٨٣].

وَدَلِيلُ الحَجِّ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران:٩٧].

المَرتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإيمانُ؛ وَهُوَ: بِضعٌ وَسبعُونَ شُعبَةً، أَعلاهَا قَولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ.

وَأَركَانُهُ سِتَّةٌ: أَن تُؤمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ هَذِهِ الأَركَانِ السِّتَّةِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [سورة البقرة:١٧٧].

وَدَلِيلُ القَدَرِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [سورة القمر:٤٩].

المَرتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحسَانُ – رُكنٌ وَاحِدٌ –، وَهُوَ: أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [سورة النحل:١٢٨].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾ [سورة الشعراء:٢١٧-٢١٩].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [سورة يونس:٦١] الآيَةَ.

وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبرِيلَ المَشهُورُ، عَن عُمَرَ –رَضِيَ اللهُ عَنهُ– قَالَ: «بَينَمَا نَحنُ عِندَ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ– ذَاتَ يَومٍ، إِذ طَلَعَ عَلَينَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعرِ، لَا يُرَىٰ عَلَيهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ–، فَأَسنَدَ

رُكبَتَيهِ إِلَىٰ رُكبَتَيهِ، وَوَضَعَ كَفَّيهِ عَلَىٰ فَخِذَيهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ!

أَخبِرنِي عَنِ الإِسلَامِ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: الإِسلَامُ: أَن تَشهَدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيتَ إِنِ استَطَعتَ إِلَيهِ سَبِيلاً، قَالَ: صَدَقتَ - فَعَجِبنَا لَهُ، يَسأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ -.

قَالَ: فَأَخبِرنِي عَنِ الإِيمَانِ؟

قَالَ: أَن تُؤمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ، وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقتَ.

قَالَ: فَأَخبِرنِي عَنِ الإِحسَانِ؟

قَالَ: أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

قَالَ: فَأَخبِرنِي عَنِ السَّاعَةِ؟

قَالَ: مَا المَسؤُولُ عَنهَا بِأَعلَمَ مِنَ السَّائِلِ.

قَالَ: فَأَخبِرنِي عَن أَمَارَاتِهَا؟

قَالَ: أَن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَن تَرَىٰ الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ، يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنيَانِ.

قَالَ: ثُمَّ انطَلَقَ فَلَبِثتُ مَلِيّاً، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا عُمَرُ! أَتَدرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبرِيلُ، أَتَاكُم يُعَلِّمُكُم دِينَكُم».

الأَصلُ الثَّالِثُ:

مَعرِفَةُ نَبِيِّكُم مُحَمَّدٍ -ﷺ-، وَهُوَ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ بنِ هَاشِمٍ،

وَهَاشِمٌ مِن قُرَيشٍ، وَقُرَيشٌ مِنَ العَرَبِ، وَالعَرَبُ مِن ذُرِّيَّةِ إِسمَاعِيلَ بنِ إِبرَاهِيمَ الخَلِيلِ – عَلَيهِ وَعَلَىٰ نَبِيِّنَا أَفضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ –.

وَلَهُ مِنَ العُمُرِ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً – مِنهَا أَربَعُونَ قَبلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلَاثٌ وَعِشرُونَ نَبِيًّا رَسُولاً –.

نُبِّئَ بِاقرَأ، وَأُرسِلَ بِالمُدَّثِّرِ، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ.

بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّركِ، وَيَدعُو إِلَىٰ التَّوحِيدِ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ① قُمۡ فَأَنذِرۡ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ④ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ⑤ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ⑦﴾ [سورة المدثر:١-٧].

وَمَعنَىٰ ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [سورة المدثر:٢]: يُنذِرُ عَنِ الشِّركِ، وَيَدعُو إِلَىٰ التَّوحِيدِ.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ [سورة المدثر:٣] أَي: عَظِّمهُ بِالتَّوحِيدِ.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [سورة المدثر:٤] أَي: طَهِّر أَعمَالَكَ عَنِ الشِّركِ.

﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [سورة المدثر:٥] الرُّجزُ: الأَصنَامُ.

وَهَجرُهَا: تَركُهَا، وَالبَرَاءَةُ مِنهَا وَأَهلِهَا.

أَخَذَ عَلَىٰ هَذَا عَشرَ سِنِينَ يَدعُو إِلَىٰ التَّوحِيدِ، وَبَعدَ العَشرِ عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، وَفُرِضَت عَلَيهِ الصَّلَوَاتُ الخَمسُ، وَصَلَّىٰ فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ سِنِينَ، وَبَعدَهَا أُمِرَ بِالهِجرَةِ إِلَىٰ المَدِينَةِ.

وَالهِجرَةُ: الِانتِقَالُ مِن بَلَدِ الشِّركِ إِلَىٰ بَلَدِ الإِسلَامِ.

وَالهِجرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ هَذِهِ الأُمَّةِ مِن بَلَدِ الشِّركِ إِلَىٰ بَلَدِ الإِسلَامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَىٰ أَن تَقُومَ السَّاعَةُ.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [سورة النساء:٩٧-٩٩].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [سورة العنكبوت:٥٦].

- **قَالَ البَغَوِيُّ:** «سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ: فِي المُسلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَم يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسمِ الإِيمَانِ».

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ الهِجرَةِ مِنَ السُّنَّةِ؛ قَولُهُ -ﷺ-: «لَا تَنقَطِعُ الهِجرَةُ حَتَّىٰ تَنقَطِعَ التَّوبَةُ، وَلَا تَنقَطِعُ التَّوبَةُ حَتَّىٰ تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِهَا».

فَلَمَّا استَقَرَّ بِالمَدِينَةِ؛ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسلَامِ - مِثلُ: الزَّكَاةِ، وَالصَّومِ، وَالحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالجِهَادِ، وَالأَمرِ بِالمَعرُوفِ وَالنَّهيِ عَنِ المُنكَرِ - أَخَذَ عَلَىٰ هَذَا عَشرَ سِنِينَ.

وَتُوُفِّيَ -ﷺ- وَدِينُهُ بَاقٍ، وَهَذَا دِينُهُ، لَا خَيرَ إِلَّا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا مِنهُ.

وَالخَيرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيهِ: التَّوحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرضَاهُ.

وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنهُ: الشِّركُ، وَجَمِيعُ مَا يَكرَهُهُ اللهُ وَيَأبَاهُ.

بَعَثَهُ اللهُ إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً، وَافتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَىٰ جَمِيعِ الثَّقَلَينِ - الجِنِّ وَالإِنسِ -؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [سورة الأعراف:١٥٨].

وَأَكمَلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [سورة المائدة:٣].

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ موتِهِ -ﷺ-؛ قولُهُ تعالَىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾ [سورة الزمر:٣٠-٣١].

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبعَثُونَ؛ وَالدَّلِيلُ قولُهُ تعالَىٰ: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [سورة طه:٥٥]، وَقولُهُ تعالَىٰ: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾ [سورة نوح:١٧-١٨].

وَبعدَ البَعثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجزِيُّونَ بِأَعمَالِهِم؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تعالَىٰ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۝٣١﴾ [سورة النجم:٣١].

وَمَن كَذَّبَ بِالبَعثِ كَفَرَ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تعالَىٰ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة التغابن:٧].

وَأَرسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تعالَىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ﴾ [سورة النساء:١٦٥].

وَأَوَّلُهُم نُوحٌ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

وَآخِرُهُم مُحَمَّدٌ -ﷺ-، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعدَهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تعالَىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ﴾ [سورة الأحزاب:٤٠].

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُم نُوحٌ؛ قَولُهُ تعالَىٰ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ﴾ [سورة النساء:١٦٣].

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيهَا رَسُولاً - مِن نُوحٍ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ - يَأمُرُهُم بِعِبَادَةِ اللهِ وَحدَهُ، وَيَنهَاهُم عَن عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [سورة النحل:٣٦].

وَافتَرَضَ اللهُ عَلَىٰ جَمِيعِ العِبَادِ: الكُفرَ بِالطَّاغُوتِ، وَالإِيمَانَ بِاللهِ.

- **قَالَ ابنُ القَيِّمِ:** «مَعنَىٰ الطَّاغُوتِ: مَا تَجَاوَزَ بِهِ العَبدُ حَدَّهُ - مِن مَعبُودٍ، أَو مَتبُوعٍ، أَو مُطَاعٍ -».

وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرَةٌ، وَرُؤُوسُهُم خَمسَةٌ: إِبلِيسُ - لَعَنَهُ اللهُ -، وَمَن عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَن دَعَا النَّاسَ إِلَىٰ عِبَادَةِ نَفسِهِ، وَمَنِ ادَّعَىٰ شَيئًا مِن عِلمِ الغَيبِ، وَمَن حَكَمَ بِغَيرِ مَا أَنزَلَ اللهُ.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة:٢٥٦]، وَهَذَا مَعنَىٰ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَفِي الحَدِيثِ: «رَأسُ الأَمرِ: الإِسلَامُ، وَعَمُودُهُ: الصَّلَاةُ، وَذِروَةُ سَنَامِهِ: الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ».

قال المؤلف -رَحِمَهُ اللهُ-:

بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيم.
اعلَم -رحِمَكَ اللهُ- أنَّه يجبُ عَلَينَا تعلُّمُ أربعِ مسائل.

الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، بَعَثَ رَسُولَهُ بِالهُدَىٰ وَدِينِ الحَقِّ، فَبَلَّغَ البَلَاغَ المُبِينَ، وَأَرسَىٰ أُصُولَ الدِّينِ، وَتَرَكَ الأُمَّةَ عَلَىٰ المَحَجَّةِ البَيضَاءِ، لَيلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنهَا إِلَّا هَالِكٌ؛ ثُمَّ لَم يُخلِ زَمَانًا مِن بَقِيَّةٍ مِن أَهلِ العِلمِ، يُجَدِّدُونَ لِلأُمَّةِ مَعَالِمَ دِينِهَا، وَيَجلُونَ عَنهَا شُبُهَاتِ أَهلِ الزَّيغِ وَالهَوَىٰ.

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ، وَمَن تَبِعَهُم بِإِحسَانٍ إِلَىٰ يَومِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعدُ، فَنَستَعِينُ بِاللهِ تَعَالَىٰ، وَنَسأَلُهُ التَّيسِيرَ وَالقَبُولَ، فِي شَرحِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ القَيِّمَةِ النَّفِيسَةِ، أَلَا وَهِيَ رِسَالَةُ «الأُصُولِ الثَّلَاثَةِ»، الَّتِي أَلَّفَهَا الشَّيخُ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ الوَهَّابِ التَّمِيمِيُّ، المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ سِتٍّ وَمِئَتَينِ وَأَلفٍ لِلهِجرَةِ.

رِسَالَةٌ قَصُرَ لَفظُهَا وَجَلَّ مَعنَاهَا، وَقَلَّ حَرفُهَا وَعَظُمَ قَدرُهَا؛ إِذ تَضَمَّنَتِ العِلمَ الوَاجِبَ الَّذِي لَا يُعذَرُ المُسلِمُ فِي تَركِ تَعَلُّمِهِ.

فَالقَدرُ المُودَعُ فِيهَا فَرضٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسلِمٍ وَمُسلِمَةٍ، فَهِيَ رِسَالَةٌ مُختَصَرَةٌ، قَرَّرَ فِيهَا

المُصَنِّفُ أُصُولَ الدِّينِ الَّتِي لَا يَسَعُ المُسلِمَ جهلُهَا؛ فَقَرَّرَ الأُصُولَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي يُسأَلُ عَنهَا العَبدُ فِي قَبرِهِ، وَعَلَيهَا مَعقِدُ فَلَاحِهِ أَو خَسَارتِهِ: فَبَيَّنَ مَن هُوَ الرَّبُّ؟ وَبِأَيِّ طَرِيقٍ يُتعَرَّفُ عَلَيهِ؟ وَمَا الَّذِي يَجِبُ لَهُ -جَلَّ وَعَلَا-؟ ثُمَّ بَيَّنَ مَن هُوَ الرَّسُولُ؟ وَمَا نَسَبُهُ؟ وَمَا الَّذِي يَجِبُ لَهُ؟ ثُمَّ أَبَانَ حَقِيقَةَ الإِسلَامِ وَمَرَاتِبَهُ وَأَركَانَهُ، بِعِبَارَةٍ وَاضِحَةٍ، وَأُسلُوبٍ سَهلٍ، مَقرُونٍ بِالأَدِلَّةِ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَمِمَّا يَنبَغِي التَّنبِيهُ عَلَيهِ بَينَ يَدَيِ الشَّرحِ: أَنَّ أَئِمَّةَ أَهلِ السُّنَّةِ جَرَت عَادَتُهُم عَلَىٰ تَحرِيرِ العَقَائِدِ فِي المُتُونِ المُختَصَرَةِ، فَكَتَبَ غَيرُ وَاحِدٍ مِنهُم عَقِيدَتَهُ فِي الوَرَقَةِ وَالوَرَقَتَينِ، يُودِعُونَهَا جَلَائِلَ المَسَائِلِ وَأُمَّهَاتِ الأُصُولِ؛ إِذ كَانَ مِن حِذقِهِم وَفِطنَتِهِم أَن يَعمِدُوا إِلَىٰ المَطَالِبِ الكِبَارِ فَيُودِعُوهَا أَلفَاظًا وَجِيزَةً يَنتَفِعُ بِهَا العَالِمُ وَالمُتَعَلِّمُ وَالعَامِّيُّ.

وَلَعَلَّهُمُ استَرشَدُوا فِي ذَلِكَ بِطَرِيقَةِ القُرآنِ العَظِيمِ؛ فَإِنَّ مِن أَجَلِّ سُوَرِهِ أَخصَرَهَا: فَسُورَةُ الإِخلَاصِ تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ، وَأَعظَمُ آيَةٍ فِيهِ آيَةُ الكُرسِيِّ، وَفَاتِحَةُ الكِتَابِ عَظَمَتُهَا مَعرُوفَةٌ مَعَ قِصَرِهَا.

وَلِهَذَا كَانَ المُفَصَّلُ ـ عَلَىٰ قِصَرِ سُوَرِهِ ـ مِمَّا أَكثَرَ النَّبِيُّ -ﷺ- مِنَ القِرَاءَةِ بِهِ فِي الصَّلَوَاتِ؛ وَفِي ذَلِكَ تَنبِيهٌ عَلَىٰ أَنَّ تَكرَارَ هَذِهِ الأُصُولِ وَإِدمَانَ النَّظَرِ فِيهَا مَطلُوبٌ، لِأَنَّهَا الأُسُسُ الَّتِي يُبنَىٰ عَلَيهَا مَا سِوَاهَا.

فَمِن أَجلِ ذَلِكَ كَانَت مُؤَلَّفَاتُ الشَّيخ مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ الوَهَّابِ أَنفَعَ مِن كَثِيرٍ مِن مُصَنَّفَاتِ مَن عَاصَرَهُ وَمَن تَقَدَّمَهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يُصَنِّفُ لِلعَامَّةِ وَالأَعرَابِ وَصِغَارِ الطَّلَبَةِ، فَيُقَرِّبُ لَهُمُ المَادَّةَ العِلمِيَّةَ تَقرِيبًا بَدِيعًا، مَقرُونًا بِالدَّلِيلِ الشَّرعِيِّ وَضَربِ المَثَلِ

وَتَيسِيرِ العِبَارَةِ؛ وَهذَا مِن عَظِيمِ حِذقِهِ فِي التَّعلِيمِ.

وَبِهذَا عَظُمَ أَثَرُ دَعوَتِهِ وَانتَشَرَ نَفعُهَا فِي الآفَاقِ، حَتَّىٰ شَهِدَ بِأَثَرِهَا فِي إِقَامَةِ التَّوحِيدِ وَإِمَاتَةِ الشِّركِ وَالفَوَاحِشِ مَن لَيسَ مِن أَهلِ مَوَدَّتِهِ، فَكَيفَ بِمَن وَافَقَهُ وَنَصَرَ مَا جَاءَ بِهِ؟!

وَفِي طَرِيقَةِ الشَّيخِ هذِهِ - مِنَ الاختِصَارِ الدَّقِيقِ الجَلِيلِ - هِدَايَةٌ لِطَالِبِ العِلمِ فِي مَبدَأِ أَمرِهِ؛ فَإِنَّهُ يَحتَاجُ ابتِدَاءً إِلَىٰ أُصُولٍ صَافِيَةٍ تُؤَسِّسُهُ وَتُثَبِّتُ قَدَمَهُ.

وَلكِنَّ كَمَالَ الانتِفَاعِ أَن يُسلَكَ بِهِ طَرِيقَانِ مُتَوَازِيَانِ: طَرِيقٌ يُفَصَّلُ لَهُ فِيهِ مَا أُجمِلَ فِي المَتنِ، وَيُبسَطُ لَهُ مَا اختُصِرَ؛ وَطَرِيقٌ يَمُرُّ بِهِ عَلَىٰ سَائِرِ العُلُومِ مُرُورًا.

وَهذَا الجَمعُ بَينَ تَأصِيلِ المَتنِ المُختَصَرِ وَتَفصِيلِ شَرحِهِ هُوَ المَقصُودُ مِن هذَا الكِتَابِ؛ إِذِ المُرَادُ صِيَانَةُ أَلفَاظِ الشيخِ عَلَىٰ وَجازتِها، ثُمَّ بَسطُ مَعَانِيهَا بِالأَدِلَّةِ وَتَقرِيرِ مَسَائِلِهَا عَلَىٰ طَرِيقَةِ السَّلَفِ، لِيَجتَمِعَ لِلنَّاظِرِ نَفعُ الأَصلِ وَنَفعُ الشَّرحِ مَعًا.

وَالوَصِيَّةُ لَكَ -يَا طَالِبَ العِلمِ، بَل يَا أَيُّهَا المُسلِمُ، وَيَا أَيَّتُهَا المُسلِمَةُ-: أَن تَعتَنِيَ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ؛ فَاقرَأهَا، وَتَأَمَّلهَا، وَإِنِ استَطَعتَ فَاحفَظهَا، وَاجتَهِد فِي فَهمِهَا.

فَالكَلَامُ فِي التَّوحِيدِ أَشرَفُ الكَلَامِ وَأَعظَمُهُ؛ لِأَنَّهُ كَلَامٌ فِي حَقِّ اللهِ سُبحَانَهُ الَّذِي خَلَقَ الخَلقَ لِأَجلِهِ، وَأَنزَلَ الكُتُبَ، وَأَرسَلَ الرُّسُلَ لِتَحقِيقِهِ.

وَمِن وَجهِ شَرَفِ هَذَا العِلمِ: أَنَّه أَصلُ المَعارِفِ كلِّها وغايَتُها؛ فكلُّ عِلمٍ سِواهُ مُفتَقِرٌ إِلَيهِ وَهُوَ غَنِيٌّ عنهُ، إِذ مَا مِن عِلمٍ مِن عُلومِ الدُّنيا -طِبٍّ أَو هَندَسَةٍ أَو حِسابٍ- إِلَّا وَهُوَ مُنتَهٍ إِلَىٰ سُؤالٍ لَا يُجيبُ عنهُ إِلَّا الدِّينُ: لِمَ خُلِقَ العبدُ؟ وَإِلَىٰ أينَ مَصيرُهُ؟ فالطَّبيبُ غايَةُ صَنعَتِهِ أَن يُبقِيَ الحياةَ الْحِسِّيَّةَ بِالأَسبابِ، فَإِذا قِيلَ: ولِمَ الحياةُ؟ لَم يكُن عندَ صَنعَتِهِ جوابٌ؛ فظَهَرَ أنَّ العُلومَ آلاتٌ ووَسائِلُ، وأنَّ معرفةَ اللهِ هِيَ الغايَةُ الَّتي بِهَا تُعرَفُ

قيمَةُ كلِّ شيءٍ، وَبِهَا يَنتَظِمُ للعبدِ مَعناهُ ومَسيرُهُ.

ولِهذا كانتِ المعرِفَةُ الإجماليَّةُ باللهِ مَركوزَةً فِي الفِطرَةِ، لَا مَوقوفَةً عَلَىٰ تَعلُّمٍ طارِئٍ؛ فإنَّ النَّفسَ مَجبولَةٌ عَلَىٰ طَلَبِ غايَةٍ تَسكُنُ إِلَيهَا، فَإِذَا عُطِّلَت عَن خالِقِها التَمَسَتِ المَعنىٰ فِيمَا لَا مَعنىٰ فِيهِ، ثمَّ آلَ بِهَا الأمرُ -إِذَا أُشرِبَتِ الفلسَفَةَ المادِّيَّةَ- إِلَىٰ العَدَمِيَّةِ، فَلَا تَرىٰ لِوُجودِها قيمَةً وَلَا لِمَصيرِها غايَةً، حتَّىٰ يَستَوِيَ عندَها الإنسانُ والبَهيمَةُ، إِذ كِلاهُما -فِي زَعمِها- مَظهَرٌ مِن مَظاهِرِ المادَّةِ لَا فَرقَ.

وَهَذَا هُوَ عَينُ الخُسرانِ الَّذِي حذَّرَ اللهُ منهُ مَن لَم يَعمُر عُمُرَهُ بمعرِفَتِهِ وعِبادَتِهِ.

وَفِي هَذَا أبلَغُ رَدٍّ عَلَىٰ مَن غَلَا فِي تعظيمِ العُلومِ التَّجريبيَّةِ وحدَها وزَهِدَ فِي عِلمِ الوَحيِ؛ فإنَّ هَذِهِ العُلومَ -عَلَىٰ نَفعِها- لَا تُثمِرُ غايَةً، وَلَا تُجيبُ عَن أصلِ السُّؤالِ، بَل قَد بُنِيَت فِي كثيرٍ مِن مَدارِسِها عَلَىٰ نَفيِ مَا وَراءَ المادَّةِ، فقادَت أهلَها إِلَىٰ الحَيرَةِ؛ فعُلِمَ أنَّ صلاحَ القلبِ مَنوطٌ بمعرِفَةِ اللهِ أوَّلًا، وأنَّ مَا عَداها تابِعٌ لَهَا لَا مَتبوعٌ.

إذاً: فَالتَّوحِيدُ أَصلُ الدِّينِ وَأَسَاسُ المِلَّةِ، وَأَعظَمُ مَا افتُرِضَ عَلَىٰ العَبدِ تَعَلُّمُهُ وَالاعتِنَاءُ بِهِ، وَفَهمُهُ فَهمًا صَحِيحًا مُستَمَدًّا مِن كِتَابِ اللهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ -ﷺ-، وَفَهمِ سَلَفِ الأُمَّةِ.

وَلَيسَ تَعَلُّمُ التَّوحِيدِ حِكرًا عَلَىٰ طَبَقَةٍ دُونَ طَبَقَةٍ، وَلَا مِمَّا يُوَسَّعُ فِيهِ لِطَائِفَةٍ وَتُحرَمُهُ أُخرَىٰ؛ بَل هُوَ فَرضٌ عَلَىٰ كُلِّ إنسانٍ، ذَكَرًا كَانَ أَو أُنثَىٰ، عَالِمًا أَو عَامِّيًّا، كَبِيرًا أَو صَغِيرًا؛ إِذ لَا تَصِحُّ لِلعَبدِ عِبَادَةٌ، وَلَا يَستَقِيمُ لَهُ دِينٌ، إِلَّا بِصِحَّةِ تَوحِيدِهِ وَسَلَامَةِ اعتِقَادِهِ.

وَلَيسَ التَّوحِيدُ -كَمَا يَتَوَهَّمُ المُتَوَهِّمُونَ- مَسأَلَةً فِكرِيَّةً أَو ثَقَافِيَّةً يَملِكُ المَرءُ فِيهَا خِيَارَ الأَخذِ وَالتَّركِ؛ بَل هُوَ القَضِيَّةُ العُظمَىٰ الَّتِي خَلَقَ اللهُ الخَلقَ لِأَجلِهَا، قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:٥٦].

فَمَا عَدَاهُ مِن شُؤُونِ الدُّنيَا -مِن مَالٍ أَو وَظِيفَةٍ أَو مَصلَحَةٍ أَو مَعَاشٍ- تَابِعٌ لِهَذَا الأَصلِ العَظِيمِ: فَإِن أَعَانَ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ فَمَحمُودٌ، وَإِن شَغَلَ عَنهُ أَو نَاوَأَهُ فَلَا اعتِبَارَ لَهُ أَمَامَ الغَايَةِ العُظمَىٰ، وَهِيَ إِفرَادُ اللهِ بِالعُبُودِيَّةِ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَتَتَأَكَّدُ الحَاجَةُ إِلَىٰ العِنَايَةِ بِالتَّوحِيدِ فِي الأَزمِنَةِ المُتَأَخِّرَةِ الَّتِي كَثُرَت فِيهَا الشُّبُهَاتُ، وَانتَشَرَت فِيهَا وَسَائِلُ الاتِّصَالِ الَّتِي حَمَلَتِ البَاطِلَ إِلَىٰ النَّاسِ فِي عُقرِ دُورِهِم، حَتَّىٰ صَارَ الوَاحِدُ مِنهُم تُعرَضُ عَلَيهِ الشُّبهَةُ فِي أَصلِ دِينِهِ، وَفِي رَبِّهِ سُبحَانَهُ، وَفِي نَبِيِّهِ -ﷺ-، وَفِي شَرَائِعِ الإِسلَامِ، بَل قَد تَتَسَلَّلُ هَذِهِ الشُّبَهُ إِلَىٰ الصِّغَارِ؛ وَفِي ذَلِكَ أَبلَغُ دَلِيلٍ عَلَىٰ شِدَّةِ الحَاجَةِ إِلَىٰ تَرسِيخِ أُصُولِ التَّوحِيدِ فِي النُّفُوسِ، وَتَعَاهُدِهَا بِالتَّعَلُّمِ وَالمُرَاجَعَةِ وَالمُذَاكَرَةِ.

وَلَا يَتَحَقَّقُ الثَّبَاتُ عَلَىٰ التَّوحِيدِ إِلَّا بِتَوفِيقِ اللهِ أَوَّلًا، ثُمَّ بِبَذلِ الأَسبَابِ: مِنَ التَّعَلُّمِ المُستَمِرِّ، وَالعِنَايَةِ بِأُصُولِ الدِّينِ، وَتَكرَارِ مَسَائِلِ الاعتِقَادِ، وَمُلَازَمَةِ أَهلِ العِلمِ؛ فَإِنَّ العِنَايَةَ بِالتَّوحِيدِ مِن أَمنَعِ الحُصُونِ مِنَ الشِّركِ وَالضَّلَالِ.

وَمِن هُنَا كَانَ النَّبِيُّ -ﷺ- يُؤَكِّدُ هَذَا الأَصلَ حَتَّىٰ مَعَ خِيَارِ الأُمَّةِ وَأَفضَلِهَا، فَيَأخُذُ عَلَيهِمُ العَهدَ عَلَىٰ التَّوحِيدِ وَاجتِنَابِ الشِّركِ، مَعَ كَونِهِم أَعظَمَ النَّاسِ إِيمَانًا وَأَبعَدَهُم عَنِ الشِّركِ.

وَمِنَ الخَطَأِ أَن يَظُنَّ العَبدُ أَنَّ مُجَرَّدَ انتِسَابِهِ إِلَىٰ الإِسلَامِ عَاصِمٌ لَهُ مِنَ الانحِرَافِ، أَو أَنَّ الاشتِغَالَ بِالتَّوحِيدِ إِنَّمَا يَكُونُ عِندَ ظُهُورِ الفِتَنِ خَاصَّةً؛ بَلِ الوَاجِبُ دَوَامُ العِنَايَةِ بِهِ تَعَلُّمًا وَتَعلِيمًا وَتَذكِيرًا وَمُرَاجَعَةً؛ لِأَنَّ التَّوحِيدَ أَصلُ الدِّينِ وَأَسَاسُ النَّجَاةِ، وَالكَلَامُ

فِيهِ أَعظَمُ الكَلَامِ؛ لِأَنَّهُ كَلَامٌ فِي حَقِّ اللهِ سُبحَانَهُ.

وَلِهَذَا وَجَبَ عَلَىٰ المُسلِمِ أَن يُقَدِّمَ العِنَايَةَ بِالتَّوحِيدِ عَلَىٰ غَيرِهِ مِنَ العُلُومِ، وَأَن يَعلَمَ أَنَّهُ مَا خُلِقَ لِشَيءٍ أَعظَمَ مِن تَحقِيقِ حَقِّ اللهِ عَلَيهِ، وَأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ تَابِعٌ لِهَذَا الأَصلِ وَمُكَمِّلٌ لَهُ، لَا أَنَّهُ هُوَ الأَصلُ وَالغَايَةُ.

وَوَجهُ تَقدِيمِ التَّوحِيدِ عَلَىٰ كُلِّ عِلمٍ أَنَّهُ الغَايَةُ الَّتِي لِأَجلِهَا خُلِقَ الخَلقُ، وَأُرسِلَتِ الرُّسُلُ، وَأُنزِلَتِ الكُتُبُ؛ فَمَا كَانَ غَايَةَ الإِيجَادِ كَانَ أَولَىٰ مَا صُرِفَت إِلَيهِ العِنَايَةُ، وَصَارَ مَا عَدَاهُ وَسِيلَةً إِلَيهِ لَا غَايَةً قَائِمَةً بِنَفسِهَا.

وَقَد أَقَامَ المُصَنِّفُ بِنَاءَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَركَانٍ:

الأَوَّلُ: ذِكرُ أَربَعِ مَسَائِلَ فِي مُهِمَّاتِ العِلمِ.

الثَّانِي: ذِكرُ ثَلَاثِ مَسَائِلَ عَظِيمَةٍ يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسلِمٍ مَعرِفَتُهَا.

الثَّالِثُ: ذِكرُ الأُصُولِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي لِأَجلِهَا وَضَعَ هَذِهِ الرِّسَالَةَ، وَهِيَ مَقصِدُهَا الأَسنَىٰ.

والأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي افتُرِضَ عَلَىٰ العَبدِ مَعرِفَتُهَا قَد نَطَقَت بِهَا نُصُوصٌ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَمِن أَبرَزِهَا حَدِيثَانِ:

الأَوَّلُ: قَولُهُ -ﷺ- كَمَا عِندَ مُسلِمٍ (٣٤)-: «ذَاقَ طَعمَ الإِيمَانِ مَن رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»، فَمَعرِفَةُ الرَّبِّ فِي قَولِهِ «رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا»، وَمَعرِفَةُ الدِّينِ فِي قَولِهِ «وَبِالإِسلَامِ دِينًا»، وَمَعرِفَةُ الرَّسُولِ فِي قَولِهِ «وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا».

الثَّانِي: حَدِيثُ البَرَاءِ بنِ عَازِبٍ فِي فِتنَةِ القَبرِ -أَخرَجَهُ أَحمَدُ (٤/ ٢٨٧)، وَأَبُو دَاوُدَ (٢/ ٢٨١)، وَالنَّسَائِيُّ (١/ ٢٨٢)، وَابنُ مَاجه (١/ ٤٦٩)، وَالحَاكِمُ (١/ ٣٧-

٤٠)-، وَفِيهِ أَنَّ المَلَكَينِ يَأتِيَانِ المَيِّتَ فَيُسَائِلَانِهِ: «مَن رَبُّكَ؟» فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، «مَا دِينُكَ؟» فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسلَامُ، «مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُم؟» فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-، فَيُقَالُ لَهُ: «وَمَا عِلمُكَ؟» فَيَقُولُ: قَرَأتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنتُ بِهِ وَصَدَّقتُ، وَفِي رِوَايَةٍ: «مَن رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَن نَبِيُّكَ؟» فَيَقُولُ: اللهُ رَبِّي، وَدِينِيَ الإِسلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ -ﷺ-.

فَدَلَّ الحَدِيثَانِ عَلَىٰ أَنَّ أُصُولَ الدِّينِ الَّتِي يُسأَلُ عَنهَا العَبدُ ثَلَاثَةٌ: مَعرِفَةُ الرَّبِّ، وَمَعرِفَةُ الدِّينِ، وَمَعرِفَةُ النَّبِيِّ -ﷺ-.

قُلتُ: وهَذان الحَدِيثان أَصلٌ لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ كُلِّهَا؛ إِذ بَيَّنَ أَحَدُهُمَا أَنَّ هَذِهِ الأُصُولَ الثَّلَاثَةَ مَدَارُ ذَوقِ طَعمِ الإِيمَانِ فِي الدُّنيَا، وَبَيَّنَ الآخَرُ أَنَّهَا مَدَارُ النَّجَاةِ فِي أَوَّلِ مَنَازِلِ الآخِرَةِ؛ فَمَن حَقَّقَهَا عِلمًا وَعَمَلًا فِي الدُّنيَا ثَبَّتَهُ اللهُ عِندَ السُّؤَالِ، فَاجتَمَعَ فِي صَدرِ الرِّسَالَةِ الدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّهَا أُصُولٌ يُحيَا عَلَيهَا، وَيُمَاتُ عَلَيهَا، وَيُسأَلُ عَنهَا.

- **قَالَ سُلَيمَانُ بنُ سَحمَانَ -كَمَا فِي «الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ» (١٠/٥٠٧)-:** «لَا صَلَاحَ لِلخَلِيقَةِ إِلَّا بِأَن يَكُونَ اللهُ مَعبُودَهَا، وَالإِسلَامُ دِينَهَا، وَمُحَمَّدٌ -ﷺ- نَبِيَّهَا الَّذِي تَتَّبِعُهُ وَتَتَحَاكَمُ إِلَىٰ شَرِيعَتِهِ».

إِذاً: هَذِهِ الأُصُولَ الثَّلَاثَةَ عُلق صَلَاحِ الخَلِيقَةِ كُلِّهَا عَلَيهَا؛ فَدَلَّ أَنَّهَا قُطبُ السَّعَادَةِ الَّتِي لَا قِوَامَ لِلعَبدِ بِدُونِهَا، وَهِيَ عَينُ مَا قَرَّرَهُ المُصَنِّفُ فِي رِسَالَتِهِ.

قال المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ -:

بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ

ابتَدَأَ المُصَنِّفُ رِسالَتَهُ بِالبَسمَلَةِ؛ اقتِداءً بِكِتابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، فإنَّ أوَّلَ مَا فِي المُصحَفِ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾ [سورة الفاتحة:١]، وَهِيَ فِي صدرِ كلِّ سُورَةٍ منهُ، عَدَا سُورَةَ التَّوبَةِ؛ لأنَّها نزَلَت بَراءةً مِن أهلِ الزَّيغِ والنِّفاقِ.

وكذلكَ كانَ النَّبيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا كتَبَ إِلَىٰ المُلوكِ والرُّؤَساءِ افتَتَحَ كُتُبَهُ بِالبَسمَلَةِ، كَمَا فِي كِتابِهِ إِلَىٰ هِرَقلَ عظيمِ الرُّومِ.

١ - **رَوَىٰ البُخاريُّ ومُسلِمٌ فِي صحيحَيهِما أنَّ النَّبيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بعَثَ إِلَىٰ هِرَقلَ عظيمِ الرُّومِ:** «بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ، مِن مُحمَّدٍ رسولِ اللهِ إِلَىٰ هِرَقلَ عظيمِ الرُّومِ، سلامٌ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الهُدىٰ، أمَّا بعدُ، فإنِّي أدعوكَ بِدِعايَةِ الإسلامِ، أسلِم تَسلَم، وأسلِم يُؤتِكَ اللهُ أجرَكَ مرَّتَينِ، فَإِنَّ تَوَلَّيتَ فإنَّ عليكَ إثمَ الأَرِيسِيِّينَ، و﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [سورة آل عمران:٦٤]»(١).

---

(١) أخرَجهُ البخاري فِي كتاب تفسير القرآن، باب ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ

٢ - **وروِيَ عَن سعيدِ بنِ المُسَيِّبِ قالَ:** كتَبَ رسولُ اللهِ -ﷺ- إِلَىٰ كِسرىٰ وقَيصَرَ والنَّجاشِيِّ: «أمَّا بعدُ، فَ ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران:٦٤]»، فلمَّا أَتَىٰ كِتابُ النَّبيِّ -ﷺ- قَيصَرَ فقرَأهُ، قالَ: إنَّ هَذَا الكِتابَ لَم أرَهُ بعدَ سُلَيمانَ بنِ داوُدَ: بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيم [(١)].

وكذلكَ كِتابُهُ -ﷺ- فِي صُلحِ الحُدَيبِيَةِ.

٣ - **وَقَد روِيَ فِي ذلكَ مرفوعًا:** «كلُّ أمرٍ ذِي بالٍ لَا يُبدَأُ فيه بِبِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيم فَهُوَ أبتَرُ»، أَي: ذاهِبُ البَرَكَةِ [(٢)].

والحديثُ لَا يثبُتُ، وَهُوَ مُنكَرٌ، أعَلَّهُ الحُفَّاظُ كأحمدَ والدَّارَقُطنيِّ، والصَّحيحُ فيهِ أنَّهُ مُرسَلٌ بِغيرِ لفظِ البَسمَلَةِ، وَهُوَ مُنكَرٌ أيضًا؛ وهِمَ فيهِ مُبَشِّرُ بنُ إسماعيلَ فرواهُ بِلفظِ البَسمَلَةِ، وَقَد رواهُ جماعةٌ -كالوَليدِ بنِ مُسلِمٍ، وبقِيَّةَ، وخارِجَةَ بنِ مُصعَبٍ، وشُعَيبِ بنِ إسحاقَ، ومُحمَّدِ بنِ كثيرٍ، والمُعافَىٰ بنِ عِمرانَ، وعبدِ القُدُّوسِ وغيرِهِم- عنِ

﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [سورة آل عمران:٦٤] برقم (٤٥٥٣) ومسلم فِي كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي -ﷺ- إِلَىٰ هرقل يدعوه إِلَىٰ الإسلام برقم (١٧٧٣) كلاهما من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-.

(١) أخرَجَهُ سعيد بن منصور ٢/ ٢٢٦ - ٢٢٧ (٢٤٨٠)، وابن أَبي شيبة ٧/ ٣٤٧ (٣٦٦٢٧) مطولًا مرسلًا.

(٢) رواهُ الخَطيبُ في «الجامعِ لِأخلاقِ الرَّاوي وآدابِ السَّامعِ» (٢/ ٦٩ رقم ١٢١٠)، ومِن طريقِهِ السَّمعانيُّ في «أدَبِ الإملاءِ والاستِملاءِ» (ص٥٢)، ورواهُ السُّبكيُّ في «طبَقاتِ الشَّافِعِيَّةِ» (١/ ٦)، كلُّهُم مِن طريقِ أحمدَ بنِ مُحمَّدِ بنِ عِمرانَ -وأسقَطَهُ السَّمعانيُّ-، عن مُحمَّدِ بنِ صالِحٍ البَصريِّ، عن عُبَيدِ بنِ عبدِ الواحِدِ بنِ شَريكٍ، عن يعقوبَ بنِ كعبٍ الأنطاكيِّ، عن مُبَشِّرِ بنِ إسماعيلَ، عنِ الأوزاعيِّ، عنِ الزُّهريِّ، عن أبي سلَمَةَ، عن أبي هُرَيرَةَ مرفوعًا.

الأوزاعيِّ بِلفظِ: «كلُّ أمرٍ ذِي بالٍ لَا يُبدَأُ فيهِ بِالحمدِ للهِ...»، والصَّحيحُ فِي هَذَا اللَّفظِ الإرسالُ.

ووهِمَ مَن عزاهُ بِلفظِ البَسملَةِ إِلَىٰ السُّنَنِ كالزَّيلَعيِّ والعِراقيِّ والسُّيوطيِّ، وتَساهَلَ بعضُ المُتأخِّرينَ فحسَّنَهُ كالسُّيوطيِّ، وَهُوَ مِنَ المُتَساهِلينَ جِدًّا فِي تقوِيَةِ الأخبارِ الواهِيَةِ.

قلتُ: المُصنِّفِ أرادَ أَن يُنبِّهَ القارئَ عَلَىٰ أنَّ مشروعِيَّةَ البَسملَةِ ثابِتَةٌ بِالاقتِداءِ بِالكِتابِ وفِعلِ النَّبيِّ -ﷺ- وأصحابِهِ.

وممَّا يشهَدُ لِفِعلِ الصَّحابةِ: مَا كتبَهُ أَبُو بكرٍ لِأنسٍ حينَ وجَّهَهُ إِلَىٰ البَحرَينِ.

٤- رَوَىٰ البُخاريُّ فِي «الزَّكاةِ» (١٤٥٤) عَن أَنَسٍ أَنَّ أَبَا بكرٍ كتَبَ لهُ هَذَا الكِتابَ لمَّا وجَّهَهُ إِلَىٰ البَحرَينِ: «بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ، هذهِ فَريضَةُ الصَّدَقَةِ الَّتي فرَضَ رسولُ اللهِ -ﷺ- عَلَىٰ المُسلِمينَ، والَّتي أمَرَ اللهُ بِها رسولَهُ، فمَن سُئِلَها مِنَ المُسلِمينَ عَلَىٰ وجهِها فليُعطِها، ومَن سُئِلَ فوقَها فَلَا يُعطِ...».

بلِ التَّسمِيَةُ مِن سُنَنِ بعضِ الأنبياءِ، كَمَا قالَ تَعالَىٰ حِكايَةً عَن كِتابِ سُليمانَ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [سورة النمل: ٣٠].

واستَقَرَّ عمَلُ العُلَماءِ وأهلِ التَّصنيفِ عَلَىٰ افتِتاحِ كُتُبِهِم بِـ«بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ»؛ استِعانَةً بِاللهِ، وتبرُّكًا بِاسمِهِ سُبحانَهُ، فإِنَّهُ بِذِكرِهِ تنزِلُ البَركاتُ.

٥- جاءَ فِي «الفَتحِ» (١/ ٩): «وقدِ استَقَرَّ عمَلُ الأئمَّةِ المُصَنِّفينَ عَلَىٰ افتِتاحِ كُتُبِ العِلمِ بِالبَسمَلَةِ، وكَذَا مُعظَمُ كُتُبِ الرَّسائلِ، واختَلَفَ القُدَماءُ فِيمَا إِذَا كانَ الكِتابُ كلُّهُ شِعرًا؛ فجاءَ عنِ الشَّعبيِّ منعُ ذلكَ، وعنِ الزُّهريِّ: مضَتِ السُّنَّةُ أَن لَا يُكتَبَ فِي الشِّعرِ

بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ، وَعَن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ جَوازُ ذلكَ، وتابَعَهُ الجُمهورُ».

مَسأَلَةٌ: معنَى البَسمَلَةِ:

البَسمَلَةُ هِيَ قَولُ المُسلِمِ: «بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ»، وَهِيَ افتِتَاحٌ مَشرُوعٌ لِكُلِّ عَمَلٍ ذِي بَالٍ، لِمَا تَتَضَمَّنُهُ مِنَ الاستِعَانَةِ بِاللهِ وَطَلَبِ البَرَكَةِ مِنهُ سُبحَانَهُ فِي الفِعلِ الَّذِي يَشرَعُ فِيهِ العَبدُ.

فَقَولُهُ: «بِسمِ اللهِ»، جَارٌّ وَمَجرُورٌ مُتَعَلِّقٌ بِمَحذُوفٍ، تَقدِيرُهُ: أَستَعِينُ بِاسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ، أَو: أَبتَدِئُ بِاسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ.

يُفِيدُ قَولُ العَبدِ: «بِسمِ اللهِ» مَعنًى وَهُوَ: أَبتَدِئُ هذَا العَمَلَ مُستَعِينًا بِاللهِ -جَلَّ وَعَلَا-، مُعتَمِدًا عَلَيهِ، طَالِبًا مِنهُ العَونَ وَالتَّوفِيقَ.

فَالعَبدُ ضَعِيفٌ بِطَبعِهِ، لَا يَقدِرُ عَلَىٰ شَيءٍ مِن أَعمَالِهِ إِلَّا بِمَعُونَةِ اللهِ وَمَدَدِهِ وَتَأيِيدِهِ.

فَقَولُهُ: «بِسمِ اللهِ» أَي: أَستَعِينُ بِاسمِ اللهِ، وَأَتَبَرَّكُ بِاسمِ اللهِ فِي كِتَابَتِي، وَكَذلِكَ إِذَا قَالَهَا قَبلَ أَن يَقرَأَ، أَو قَالَهَا قَبلَ أَن يَكتُبَ؛ فَإِنَّهُ يَستَعِينُ بِاللهِ -جَلَّ وَعَلَا-، وَيَتَبَرَّكُ بِذِكرِ اسمِهِ الَّذِي تَحُلُّ البَرَكَةُ بِذِكرِهِ -جَلَّ وَعَلَا-، وَيَفعَلُ ذلِكَ بِالِاستِعَانَةِ بِاللهِ -سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-.

٦ - **قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ:** «بِسمِ اللهِ»، يَقُولُ لَهُ جِبرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، اقرَأ بِذِكرِ اللهِ رَبِّكَ، وَقُم وَاقعُد بِذِكرِ اللهِ.

وَهذَا التَّأوِيلُ مِنِ ابنِ عَبَّاسٍ يُنَبِّئُ عَن صِحَّةِ مَا قُلنَا - مِن أَنَّهُ يُرَادُ بِقَولِ القَائِلِ مُفتَتِحًا قِرَاءَتَهُ: «بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ»: أَقرَأُ بِتَسمِيَةِ اللهِ وَذِكرِهِ، وَأَفتَتِحُ القِرَاءَةَ بِتَسمِيَةِ اللهِ،

بِأَسمَائِهِ الحُسنَىٰ وَصِفَاتِهِ العُلَىٰ...[(١)]

مِثَالُ ذلِكَ: مَن أَرَادَ رَفعَ حَجَرٍ أَوِ القِيَامَ بِعَمَلٍ، ثُمَّ قَالَ: «بِسمِ اللهِ»، فَهُوَ فِي الحَقِيقَةِ يُقَرِّرُ: أَستَعِينُ بِاللهِ عَلَىٰ هذَا العَمَلِ، وَلَولَا عَونُهُ مَا قَدَرتُ عَلَيهِ.

كَمَا تَتَضَمَّنُ البَسمَلَةُ مَعنَىٰ الطَّلَبِ مِنَ اللهِ أَن يُبَارِكَ فِي العَمَلِ؛ فَيَقُولُ العَبدُ عِندَ شُرُوعِهِ فِي طَلَبِ العِلمِ مَثَلًا: أَطلُبُ مِنَ اللهِ فَهمَ المَسَائِلِ، وَبَرَكَةَ العِلمِ، وَتَيسِيرَ الفَهمِ وَالحِفظِ.

فَالبَسمَلَةُ تَجمَعُ مَعنَيَينِ عَظِيمَينِ:

أَوَّلًا: الِاستِعَانَةُ بِاللهِ.

ثَانِيًا: طَلَبُ البَرَكَةِ فِي العَمَلِ.

ثَانِيًا: خَصَائِصُ اسمِ اللهِ تَعَالَىٰ:

- أَنَّهُ أَشهَرُ أَسمَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَعظَمُهَا.
- أَنَّهُ مُختَصٌّ بِاللهِ وَحدَهُ، فَلَا يُسَمَّىٰ بِهِ غَيرُهُ.
- وَقِيلَ: هُوَ اسمُ اللهِ الأَعظَمُ.[(٢)]

---

(١) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (١/ ١١٧ ط التَّربِيَةِ وَالتُّرَاثِ).

(٢) اسمُ «اللهِ» هُوَ أَعظَمُ أَسمَاءِ الرَّبِّ سُبحَانَهُ، وَهُوَ الِاسمُ الجَامِعُ لِكُلِّ صِفَاتِ الكَمَالِ وَالجَلَالِ، وَالأَسمَاءُ الحُسنَىٰ كُلُّهَا تَرجِعُ إِلَيهِ وَتَتبَعُهُ.

رُوِيَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: اسمُ اللهِ الأَعظَمُ هُوَ اللهُ.

«الدُّرُّ المَنثُورُ» (٦/ ٢٠٢).

وَرُوِيَ عَنِ الشَّعبِيِّ قَالَ: اسمُ اللهِ الأَعظَمُ هُوَ اللهُ.

- وقَلَّ أن يُذكَرَ ذِكرٌ إلَّا وَيَقتَرِنَ بِهِ.
- ولَم يُسَمَّ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الخَلقِ.
- وتُضَافُ إِلَيهِ جَمِيعُ الأَسماءِ الحُسنَىٰ.

قَالَ تَعالَىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الحشر:٢٢-٢٤]، وَقَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [سورة الأعراف:١٨٠].

وجَمِيعُ الأَسمَاءِ إِذَا دَخلَ عَلَيهَا النِّدَاءُ سَقطَت مِنهَا الأَلِفُ وَاللَّامُ، إِلَّا اسْمَ اللهِ؛ فَلَا يُقَالُ: يَا الرَّحمَنُ، وَإِنَّمَا يُقَالُ: يَا اللهُ.

وَهُوَ أَكثَرُ أَسمَاءِ اللهِ وُرُودًا فِي القُرآنِ الكَرِيمِ؛ إِذ وَرَدَ نَحوَ (٢٣٦٠) مَرَّةً.

وَمَعنَاهُ: المَعبُودُ الحَقُّ الَّذِي يَستَحِقُّ العِبَادَةَ وَحدَهُ دُونَ شَرِيكٍ، فَهُوَ الإِلَهُ الَّذِي تَأْلَهُهُ القُلُوبُ مَحَبَّةً وَخُضُوعًا وَتَعظِيمًا.

فَاللهُ هُوَ ذُو الأُلُوهِيَّةِ وَالعُبُودِيَّةِ عَلَىٰ خَلقِهِ أَجمَعِينَ.

وإِنَّ مَعرِفَةَ مَعنَىٰ كَلِمَةِ «إِلَهٍ» رُكنٌ أَسَاسِيٌّ فِي فَهمِ مَعنَىٰ التَّوحِيدِ، وَبِسَبَبِ الخَطَأ فِي فَهمِ هذِا الِاسْمِ يَحصُلُ الخَطَأُ فِي فَهمِ كَلِمَةِ التَّوحِيدِ؛ فَالجَهلُ بِمَعنَىٰ الإِلَهِ هُوَ جَهلٌ

أَخرَجَهُ ابنُ أَبِي شَيبَةَ (١٠/ ٢٧٣)، وَالدَّارِمِيُّ فِي «النَّقضِ» (١/ ١٦٨).

وَرُوِيَ عَن جَابِرِ بنِ زَيدٍ قَالَ: اسمُ اللهِ الأَعظَمُ هُوَ اللهُ، أَلَم تَروا أَنَّهُ يُبدَأُ بِهِ قَبلَ الأَسماءِ كُلِّهَا.

أَخرَجَهُ ابنُ أَبِي شَيبَةَ (١٠/ ٢٧٣)، وَالبُخَارِيُّ فِي «تَارِيخِهِ» (١/ ٢٠٩)، وَابنُ الضُّرَيسِ فِي «فَضَائِلِ القُرآنِ» ص (١٥٠)، وَابنُ أَبِي حَاتِمٍ (١/ ٢٥)، وَاللَّفظُ لَهُ.

بِمَعنَىٰ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

وَقَد فَسَّرَ أَهلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ الإِلَهَ بِـ المَعبُودِ، وَهُوَ مَا تَقتَضِيهِ اللُّغَةُ وَالشَّرعُ؛ فَالإِلَهُ فِي اللُّغَةِ هُوَ المَعبُودُ.

٧- **قَالَ الآجُرِّيُّ** -رَحِمَهُ اللهُ-: وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [سورة الزخرف:٨٤]، فَمَعنَاهُ أَنَّهُ - جَلَّ ذِكرُهُ - إِلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ، وَإِلَهُ مَن فِي الأَرضِ، هُوَ الإِلَهُ يُعبَدُ فِي السَّمَاوَاتِ، وَهُوَ الإِلَهُ يُعبَدُ فِي الأَرضِ، **هكَذَا فَسَّرَهُ العُلَمَاءُ.**

ثُمَّ ذَكَرَ مَا رُوِيَ عَن قَتَادَةَ فِي ذلِكَ: قَالَ قَتَادَةُ فِي قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [سورة الزخرف:٨٤]: هُوَ إِلَهٌ يُعبَدُ فِي السَّمَاءِ، وَإِلَهٌ يُعبَدُ فِي الأَرضِ.

قُلتُ: هذَا إِجمَاعٌ عَزِيزٌ فِي تَفسِيرِ الإِلَهِ بِالمَعبُودِ، بِخِلَافِ مَن قَالَ مِنَ الفِرَقِ الضَّالَّةِ إِنَّ مَعنَىٰ الإِلَهِ هُوَ الرَّبُّ، وَتَرَتَّبَ عَلَىٰ تَفسِيرِهِم مَعنَىٰ الإِلَهِ انحِرَافَاتٌ عَظِيمَةٌ فِي الِاعتِقَادِ، بَلِ الوُقُوعُ فِيمَا يُنَاقِضُ مَعنَاهَا.

٨- **وَقَالَ الزَّجَّاجُ:** وَمَعنَىٰ قَولِنَا: إِلَهٌ، إِنَّمَا هُوَ الَّذِي يَستَحِقُّ العِبَادَةَ، وَهُوَ تَعَالَىٰ المُستَحِقُّ لَهَا دُونَ مَن سِوَاهُ.

٩- **وَقَالَ ابنُ فَارِسٍ:** (أَلَهَ): الهَمزَةُ وَاللَّامُ وَالهَاءُ أَصلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ.

فَالإِلَهُ: اللهُ تَعَالَىٰ، وَسُمِّيَ بِذلِكَ لِأَنَّهُ مَعبُودٌ، وَيُقَالُ: تَأَلَّهَ الرَّجُلُ: إِذَا تَعَبَّدَ.

١٠- **وَهُوَ شَرعًا يُطلَقُ عَلَىٰ المَعبُودِ، يَقُولُ الطَّبَرِيُّ:** لَا مَعبُودَ يَستَحِقُّ عَلَيكَ إِخلَاصَ العِبَادَةِ لَهُ إِلَّا اللهُ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَىٰ.

١١- **وَقَالَ النَّحَّاسُ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [سورة الطور:٤٣]: أَي: مَعبُودٌ يَستَحِقُّ العِبَادَةَ.

قلتُ: أَمَّا تَعرِيفُ الأُلُوهِيَّةِ بِتَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ فَهُوَ مُصَادَرَةٌ لُلبِّ التَّوحِيدِ؛ فَمَا بَعَثَ اللهُ الرُّسُلَ، وَأَنزَلَ الكُتُبَ، إِلَّا لِإِفرَادِ اللهِ بِالعِبَادَةِ، وَالأَدِلَّةُ مُتَضَافِرَةٌ عَلَىٰ تَأكِيدِ ذَلِكَ.

وَمِن أَهَمِّهَا بَيَانُ أَنَّ الإِلَهَ فِي القُرآنِ هُوَ المَعبُودُ؛ وَلِذَلِكَ رَبَطَ اللهُ الدَّعوَةَ إِلَىٰ أُلُوهِيَّتِهِ بِالدَّعوَةِ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ؛ فَكَونُهُ إِلَهًا يَعنِي أَنَّهُ المَعبُودُ بِحَقٍّ.

وَأَمَّا تَفسِيرُ الإِلَهِ بِأَنَّهُ القَادِرُ عَلَىٰ الِاختِرَاعِ، فَإِنَّهُ يُؤَدِّي إِلَىٰ عَدَمِ الِاهتِمَامِ بِتَوحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ الَّذِي هُوَ الأَصلُ، وَيَنبَنِي عَلَيهِ عِندَ كَثِيرٍ مِمَّن يَتَبَنَّىٰ هذَا التَّعرِيفِ التَّسَاهُلُ بِمَسَائِلِ العِبَادَةِ والوقوعِ فِيمَا يناقضهُ، كَالِاستِغَاثَةِ بِغَيرِ اللهِ، وَالتَّوَسُّلَاتِ الشِّركِيَّةِ وَالبِدعِيَّةِ، وَالذَّبحِ لِلقُبُورِ وَالأَضرِحَةِ وَالقِبَابِ، وَنَحوِ ذَلِكَ.

وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَن يُسَمِّيَ نَفسَهُ بِـ «اللهِ»، فَهُوَ اسمٌ مُختَصٌّ بِاللهِ تَعَالَىٰ وَحدَهُ، وَمَن ادَّعَىٰ هذَا الِاسمَ أَو أَطلَقَهُ عَلَىٰ نَفسِهِ كَانَ كَافِرًا؛ لِأَنَّهُ ادَّعَىٰ لِنَفسِهِ مَا لَا يَستَحِقُّهُ إِلَّا رَبُّ العَالَمِينَ، وَهُوَ حَقُّ العِبَادَةِ.(١)

فَاسمُ «اللهِ» هُوَ الِاسمُ الجَامِعُ لِمَعَانِي الأُلُوهِيَّةِ كُلِّهَا، وَهُوَ خَاصٌّ بِاللهِ وَحدَهُ، لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ.

مَعنَىٰ (الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ):

---

(١) قَالَ أَبُو منصور الأزهريُّ فِي «تهذيب اللغة» (٥/ ١٢٧): «وأَمَّا اسمُ اللهِ — جلَّ ثناؤه — «أَحَدٌ»، فإنه لَا يُوصَفُ شيءٌ بالأَحَدِيَّةِ غيرُه؛ لَا يُقالُ: رجلٌ أَحَدٌ، وَلَا درهمٌ أَحَدٌ، كَمَا يُقالُ: رجلٌ وَحَدٌ — أَي فَرْدٌ —؛ لأنَّ «أَحدًا» صفةٌ من صفاتِ اللهِ الَّتِي استأثَرَ بِهَا، فَلَا يَشرَكُه فِيهَا شيءٌ.

وليس كقولِك: «اللهُ واحدٌ»، و«هَذَا شيءٌ واحدٌ»؛ لِأَنَّهُ لَا يُقالُ: شيءٌ أَحَدٌ — وَإِن كَانَ بعضُ اللغويين قَالَ: إنَّ الأصلَ فِي «الأَحَدِ» وَحَدٌ —.

وَقَالَ اللِّحيانيُّ، قَالَ الكسائيُّ: «مَا أنتَ إِلَّا مِنَ الأَحَدِ»، أَي: مِنَ الناسِ، وأنشَدَ:

وليسَ يَطلُبُني فِي أمرِ غانيَةٍ ... إِلَّا كعَمرٍو، وَمَا عَمْرٌو مِنَ الأَحَدِ».

وَصَفَ اللهُ تَعَالَىٰ نَفسَهُ بِالرَّحمَةِ فِي مَوَاضِعَ مِن كِتَابِهِ، وَهِيَ صِفَةٌ مِن صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَهُوَ سُبحَانَهُ الرَّحمَنُ وَهُوَ الرَّحِيمُ، وَمِن تِلكَ الآيَاتِ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣﴾ [سورة الأنبياء:٨٣]، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة يوسف:٦٤]، ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف:١٥٦]، ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [سورة الأنعام:١٣٣]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام:٥٤]، وَقَد وَرَدَ اسمَا اللهِ تَعَالَىٰ «الرَّحمَنُ» وَ«الرَّحِيمُ» مُنفَرِدَينِ فِي مَوَاضِعَ مِن كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَاقتَرَنَا فِي مَوَاضِعَ مِن كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، كَمَا اقتَرَنَ اسمُ «الرَّحِيمِ» بِغَيرِهِ مِنَ الأَسمَاءِ الحُسنَىٰ.

وَيَكُونُ الحُسنُ فِي أَسمَاءِ اللهِ بِاعتِبَارِ كُلِّ اسمٍ عَلَىٰ انفِرَادِهِ، فَكَذَلِكَ يَكُونُ بِاعتِبَارِ جَمعِهِ إِلَىٰ غَيرِهِ، فَيَحصُلُ بِجَمعِ الِاسمِ إِلَىٰ الآخَرِ كَمَالٌ فَوقَ كَمَالٍ.

مِثَالُ ذَلِكَ: «العَزِيزُ الحَكِيمُ»؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَجمَعُ بَينَهُمَا فِي القُرآنِ كَثِيرًا، فَيَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنهُمَا دَالًّا عَلَىٰ الكَمَالِ الخَاصِّ الَّذِي يَقتَضِيهِ؛ وَهُوَ: العِزَّةُ فِي «العَزِيزِ»، وَالحُكمُ وَالحِكمَةُ فِي «الحَكِيمِ».

وَالجَمعُ بَينَهُمَا دَالٌّ عَلَىٰ كَمَالٍ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ عِزَّتَهُ تَعَالَىٰ مَقرُونَةٌ بِالحِكمَةِ؛ فَعِزَّتُهُ لَا تَقتَضِي ظُلمًا وَلَا جَورًا وَلَا سُوءَ فِعلٍ، كَمَا قَد يَكُونُ مِن أَعِزَّاءِ المَخلُوقِينَ.

فَإِنَّ العَزِيزَ مِنهُم قَد تَأخُذُهُ العِزَّةُ بِالإِثمِ فَيَظلِمُ وَيَجُورُ وَيُسِيءُ التَّصَرُّفَ.

وَكَذَلِكَ حُكمُهُ تَعَالَىٰ وَحِكمَتُهُ مَقرُونَانِ بِالعِزِّ الكَامِلِ، بِخِلَافِ حُكمِ المَخلُوقِ وَحِكمَتِهِ، فَإِنَّهُمَا يَعتَرِيهِمَا الذُّلُّ.(١)

---

(١) **انظُر:** «مُعتَقَدُ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ فِي أَسمَاءِ اللهِ الحُسنَىٰ» لِمُحَمَّدٍ التَّمِيمِيِّ وفقه الله (ص ١٨٨).

وَهُنَاكَ صِفَةٌ تَحصُلُ مِنِ اقتِرَانِ أَحَدِ الِاسمَينِ وَالوَصفَينِ بِالآخَرِ، وَذلِكَ قَدرٌ زَائِدٌ عَلَىٰ مُفرَدَيهِمَا...(١)

١٢- رُوِيَ عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ - مِن طَرِيقِ أَبِي رَوقٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ - قَالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: الفَعلَانُ مِنَ الرَّحمَةِ، وَ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: الرَّفِيقُ الرَّقِيقُ بِمَن أَحبَّ أَن يَرحَمَهُ، وَالبَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَىٰ مَن أَحبَّ أَن يُضعِّفَ عَلَيهِ العَذَابَ.(٢)

فَالرَّحمَنُ وَالرَّحِيمُ اسمَانِ مُشتَقَّانِ مِنَ الرَّحمَةِ.

وَقِيلَ: إِنَّ اسمَ الرَّحمَنِ لِجَمِيعِ الخَلقِ، وَالرَّحِيمِ خَاصٌّ بِأَهلِ التَّوحِيدِ وَالإِيمَانِ.

١٣- رُوِيَ ذلِكَ عَنِ الضَّحَّاكِ بنِ مُزَاحِمٍ - مِن طَرِيقِ جُوَيبِرٍ - قَالَ: الرَّحمَنُ لِجَمِيعِ الخَلقِ، وَالرَّحِيمُ بِالمُؤمِنِينَ خَاصَّةً.(٣)

وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ كَذلِكَ أَن يَتَسَمَّىٰ بِـ الرَّحمَنِ، لِمَا رُوِيَ عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ - مِن طَرِيقِ عِكرِمَةَ - قَالَ: لَيسَ أَحَدٌ يُسَمَّىٰ الرَّحمَنَ غَيرَهُ.(٤)

١٤- وَهُوَ مَروِيٌّ عَنِ الحَسَنِ - مِن طَرِيقِ أَبِي الأَشهَبِ - أَنَّهُ قَالَ: هذَانِ الِاسمَانِ مِن أَسمَاءِ اللهِ مَمنُوعَانِ، لَم يَستَطِع أَحَدٌ مِنَ الخَلقِ أَن يَنتَحِلَهُمَا: اللهُ، وَالرَّحمَنُ.(٥)

---

(١) انظُر: «بَدَائِعُ الفَوَائِدِ» (١/ ١٦١).

(٢) أَخرَجَهُ ابنُ جَرِيرٍ (١/ ١٢٨-١٢٩)، وَابنُ أَبِي حَاتِمٍ (١/ ٢٦) مُختَصَرًا.

(٣) أَخرَجَهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ (١/ ٢٨) (٢٠).

(٤) أَخرَجَهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ (٨/ ٢٧١٥).

(٥) انظُر: تَفسِيرَ ابنِ جَرِيرٍ (١/ ١٣٤)، وَابنِ أَبِي حَاتِمٍ (١/ ٢٦)، وَتَفسِيرَ يَحيَىٰ بنِ سَلَّامٍ - كَمَا فِي تَفسِيرِ ابنِ أَبِي زَمَنِين (١/ ١١٧).

وانظر: «تيسير العزيز الحميد فِي شرح كتاب التوحيد الذىٰ هُوَ حق الله عَلَىٰ العبيد» (ص١٣).

فَالرَّحمَنُ خَاصٌّ بِاللهِ تَعَالَىٰ، لَا يُسَمَّىٰ بِهِ غَيرُهُ وَلَا يُوصَفُ، بَينَمَا اسمُ الرَّحِيمِ يُوصَفُ بِهِ غَيرُ اللهِ تَعَالَىٰ، فَيُقَالُ: رَجُلٌ رَحِيمٌ، كَمَا وَصَفَ اللهُ تَعَالَىٰ رَسُولَهُ الكَرِيمَ -ﷺ- بِأَنَّهُ: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [سورة التوبة:١٢٨]، وَلَا يُقَالُ: رَحمَانٌ.

وَاختِيَارُ هٰذَينِ الِاسمَينِ، الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ، لِافتِتَاحِ كِتَابِ اللهِ، وَسَنِّهَا لِافتِتَاحِ الكُتُبِ مِن بَينِ سَائِرِ أَسمَاءِ اللهِ الحُسنَىٰ، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ هٰذِهِ الشَّرِيعَةَ شَرِيعَةُ رَحمَةٍ، وَأَنَّ الوَحيَ رَحمَةٌ مُنَزَّلَةٌ مِن عِندِ اللهِ،

١٥ - كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ [سورة الأنعام:١٥٤].

١٦ - وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [سورة الأنعام:١٥٥].

١٧ - وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [سورة الجاثية:٢٠].

١٨ - وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة القصص:٤٣].

١٩ - وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة يونس:٥٧].

٢٠ - وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [سورة الكهف:٦٥]، وَأَنَّ الْعِلمَ الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ -ﷺ- مَبدَؤُهُ الرَّحمَةُ وَغَايَتُهُ الرَّحمَةُ،

٢١ - وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: **"إِنَّمَا أَنَا رَحمَةٌ مُهدَاةٌ".**

٢٢ - وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِلنَّبِيِّ -ﷺ-: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة

الأنبياء:١٠٧]، وَجعَلَ اللهُ تعَالَىٰ مِن صِفَاتِ الْمُؤمِنِينَ أَنَّهُم رُحماءُ فِيمَا بينَهُم فقَالَ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [سورة الفتح:٢٩]، وَقَالَ تعالَىٰ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ [سورة البلد:١٧].

وَالرَّحمَةُ مِمَّا كَتبَهُ اللهُ عَلَىٰ نَفسِهِ، وَسَبقَت رَحمَةُ اللهِ غَضَبهُ، وَاللهُ تعَالَىٰ وَاسِعُ الرَّحمَةِ، لَهُ كَمَالُ الرَّحمَةِ، وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ، وَشَمِلَت كُلَّ شَيءٍ.

وَمِن أَعظَمِ أَسبَابِ الرَّحمَةِ: التَّوحِيدُ وَالإِيمَانُ، وَالِاستِقَامَةُ عَلَىٰ السُّنَّةِ وَالمَنهَجِ السَّلِيمِ وَالطَّرِيقَةِ السَّوِيَّةِ، وَالجِهَادُ فِي سَبيلِ اللهِ، وَالصَّبرُ، وَالعَفوُ، وَالمَوتُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالِاعتِصَامُ بِاللهِ، وَالتَّقوَىٰ، وَقِرَاءَةُ القُرآنِ وَالِاستِمَاعُ لَهُ، وَالبَرَاءَةُ مِن عِبَادَةِ غَيرِ اللهِ وَمِنَ العَابِدِينَ، وَقِيَامُ اللَّيلِ، وَالإِصلَاحُ بَينَ المُؤمِنِينَ.

وَمِن أَسبَابِ اليَأسِ وَالقُنُوطِ مِن رَحمَةِ اللهِ: الجَهلُ بِصِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ وَمَعَانِيهَا الصَّحِيحَةِ، وَمِن ذَٰلِكَ الجَهلُ بِسَعَةِ رَحمَةِ اللهِ، وَإِسرَافُ العَبدِ عَلَىٰ نَفسِهِ بِالمَعَاصِي وَالإِفرَاطُ فِيهَا، وَعَدَمُ حُصُولِ الصَّبرِ عِندَ حُصُولِ المِحَنِ، وَالشُّكرِ عِندَ حُصُولِ المِنَنِ، وَالوُقُوعُ فِي البِدَعِ.

قال المؤلف -رَحِمَهُ اللهُ-:

اعلَم -رَحِمَكَ اللهُ- أَنَّهُ يَجِبُ عَلَينَا تَعَلُّمُ أَربَعِ مَسَائِلَ

العُلَمَاءُ يَفتَتِحُونَ بِلَفظَةِ «اعلَم» تَنبِيهًا لِلسَّامِعِ، كَقَولِهِم: **انتَبِه**، فَالقَادِمُ أَمرٌ مُهِمٌّ يَنبَغِي أَن تَعِيَهُ، فَيُقَالُ لَهُ: اعلَم؛ لِكَي يَجمعَ هَمُّهُ، وَيَتَهَيَّأَ لِمَا سَيُذكَرُ بَعدَ ذلِكَ مِنَ العِلمِ، ثُمَّ دَعَا المُؤَلِّفُ لِقَارِئِ كِتَابِهِ بِقَولِهِ: «رَحِمَكَ اللهُ»، وَفِي ذلِكَ تَلَطُّفٌ مِنَ العَالِمِ بِطَالِبِ العِلمِ، وَبَيَانٌ أَنَّ العِلمَ مَبنَاهُ عَلَىٰ الرَّحمَةِ، وَأَنَّ العَلَاقَةَ بَينَ العَالِمِ وَالمُتَعَلِّمِ قَائِمَةٌ عَلَىٰ هذَا الأَصلِ النَّبِيلِ.

كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة:١٢٨].

٢٣- وَقَد جَرَىٰ عَمَلُ العُلَمَاءِ عَلَىٰ أَن يَروُوا وَيُرَوُّوا لِمَن بَعدَهُم، وَلَا سِيَّمَا لِمَن طَلَبَ الإِجَازَةَ فِي الحَدِيثِ، حَدِيثَ النَّبِيِّ -ﷺ-: «الرَّاحِمُونَ يَرحَمُهُمُ الرَّحمَنُ».(١)

وَالدُّعَاءُ مَطلُوبٌ مِنَ المُسلِمِ لِأَخِيهِ المُسلِمِ.(٢)

---

(١) أَخرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٩٤١)، وَالتِّرمِذِيُّ (١٩٢٤)، وَالإِمَامُ أَحمَدُ فِي المُسنَدِ (٢/ ١٦٠)، مِن حَدِيثِ عَبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العَاصِ -رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا-. قَالَ أَبُو عِيسَىٰ: هٰذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) **رَوَىٰ ابنُ المُنذِرِ بِسَنَدِهِ عَن مُعَاوِيَةَ بنِ قُرَّةَ قَالَ:** «قَالَ أَبُو الدَّردَاءِ: إِنِّي لَأَدعُو لِسَبعِينَ أَخًا مِن إِخوَانِي وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ، أُسَمِّيهِم بِأَسمَائِهِم وَأَسمَاءِ آبَائِهِم».

الأوسط (٣/ ٢٤٤).

وَرَوَاهُ ابنُ أَبِي شَيبَةَ مُختَصَرًا فِي المصنَّف (٢/ ٤٤١)، وَزَادَ فِيهِ: «وَأَنَا سَاجِدٌ».

وجَاءَ فِي طَبَقَاتِ ابنِ سَعدٍ (رقم ٥٦٢١): عَن أُمِّ الدَّردَاءِ قَالَت: كَانَ لِأَبِي الدَّردَاءِ سِتُّونَ وَثَلاثُ مِائَةِ خَلِيلٍ فِي اللهِ، يَدعُو لَهُم فِي الصَّلَاةِ.

قَالَت أُمُّ الدَّردَاءِ: فَقُلتُ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنَّهُ لَيسَ رَجُلٌ يَدعُو لِأَخِيهِ فِي الغَيبِ إِلَّا وَكَّلَ اللهُ بِهِ مَلَكَينِ يَقُولَانِ: وَلَكَ بِمِثلٍ، أَفَلَا أَرغَبُ أَن تَدعُوَ لِيَ المَلَائِكَةُ؟».

وَبِإِسنَادِهِ قَالَ: أَخبَرَنَا عَمرُو بنُ عَاصِمٍ الكِلَابِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا صَالِحُ المُرِّيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا القَاسِمُ بنُ عَمرٍو، عَن مُعَاوِيَةَ بنِ قُرَّةَ — وَرُبَّمَا قَالَ: حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بنُ قُرَّةَ — قَالَ: دَخَلتُ عَلَىٰ أُمِّ الدَّردَاءِ، فَسَمِعتُهَا تَقُولُ: كُنتُ أَسمَعُ سَيِّدِي — تَعنِي أَبَا الدَّردَاءِ — يَدعُو وَهُوَ سَاجِدٌ لِثَلَاثِ مِائَةٍ وَخَمسِينَ اسمًا، يُسَمِّيهِم بِأَسمَائِهِم، يَدعُو لَهُم.

وَرَوَىٰ عَبدُ الرَّزَّاقِ بِسَنَدِهِ عَن حَفصِ بنِ الفَرَافِصَةِ: أَنَّهُ سَمِعَ عُروَةَ بنَ الزُّبَيرِ يَقُولُ فِي صَلَاتِهِ — وَهُوَ سَاجِدٌ: «اللَّهُمَّ اغفِر لِلزُّبَيرِ بنِ العَوَّامِ، وَلِأَسمَاءَ بِنتِ أَبِي بَكرٍ».

المصنَّف لعبد الرزاق (٢/ ٤٤٩–٤٥٠)، وَرَوَاهُ ابنُ أَبِي شَيبَةَ فِي المصنَّف (٢/ ٤٤١–٤٤٢).

وجَاءَ فِي مُصَنَّفِ ابنِ أَبِي شَيبَةَ (٥/ ٢٥٦، ط الشثري): «بَابُ فِي تَسمِيَةِ الرَّجُلِ فِي الدُّعَاءِ».

رُوِيَ عَنِ الشَّعبِيِّ: «أَنَّ عَلِيًّا كَانَ يُسَمِّي الرِّجَالَ بَعدَ الصَّلَاةِ».

وقَالَ المَيمُونِيُّ: سَمِعتُ أَبَا عَبدِ اللهِ يَقُولُ لِابنِ الشَّافِعِيِّ: «أَنَا أَدعُو لِقَومٍ مُنذُ سِنِينَ فِي صَلَاتِي، أَبُوكَ أَحَدُهُم» المغني (٢/ ٢٣٨)، معونة أُولِي النهىٰ (٢/ ١٦٣).

وإِنَّ الأنبياءَ -عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ- لِعَظيمِ شَفَقَتِهِم عَلَىٰ أُمَمِهِم، وصِدقِ نُصحِهِم لِمُجتَمَعاتِهِم، كانَ هَمُّها مَدارَ مُناجاتِهِم، ومَصرِفَ سُؤالِهِم ودُعائِهِم لِرَبِّهِم.

يَقولُ نوحٌ عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [سورة نوح:٢٨].

ويَقولُ شُعَيبٌ عليه السلام: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة الأعراف:٨٩].

ويَقولُ عِيسَىٰ عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [سورة المائدة:١١٨].

فَقَولُهُ: «رَحِمَكَ اللهُ» دُعَاءٌ بِأَن يَقِيكَ اللهُ الجَهلَ وَآثَارَهُ مِنَ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّ مَن -رَحِمَهُ اللهُ- أَدرَكَ السَّعَادَةَ، وَوُفِّقَ لِلعَمَلِ بِأَسبَابِهَا فِي الدُّنيَا، ثُمَّ يُتَوَفَّاهُ اللهُ عَلَىٰ مَا يُرضِيهِ، فَيَكُونُ مِنَ المَرحُومِينَ.

وقَولُهُ: «أَنَّهُ يَجِبُ عَلَينَا» جَاءَ بِضَمِيرِ الجَمعِ؛ وَهُوَ ضَمِيرٌ يَدُلُّ عَلَىٰ العُمُومِ، فَلَيسَ الخِطَابُ لِفِئَةٍ خَاصَّةٍ، وَلَا لِطَبَقَةٍ مُعَيَّنَةٍ، بَل هُوَ خِطَابٌ لِجَمِيعِ المُسلِمِينَ.

فَقَولُهُ: «عَلَينَا» أَي: عَلَينَا مَعشَرَ المُسلِمِينَ؛ رِجَالًا وَنِسَاءً، عُلَمَاءَ وَعَامَّةً.

هَذِهِ المُقَدِّمَةُ الأُولَىٰ، وَهِيَ تَتَضَمَّنُ وُجُوبَ تَعَلُّمِ أَربَعِ مَسَائِلَ، وَبَيَّنَ أَنَّ هَذِهِ الأُمُورَ أَربَعُ مَسَائِلَ يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسلِمٍ تَعَلُّمُهَا وَالعَمَلُ بِهَا؛ لِأَنَّ هَذِهِ المَسَائِلَ تَشمَلُ الدِّينَ كُلَّهُ إِجمَالًا.[1]

وَلَم تَكُن شَفَقَتُهُم مَحصُورَةً بِقَيدِ مَكَانٍ وَلَا زَمَانٍ، بَل تَجَاوَزَت ذَلِكَ حَتَّىٰ دَعَوا لِمَن سَبَقَهُم بِالإِيمَانِ سَبقًا تَارِيخِيًّا، فَقَالَ اللهُ فِي وَصفِ المُؤمِنِينَ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [سورة الحشر: ١٠].

وَمِن أَجَلِّ وَظَائِفِ وَرَثَةِ الأَنبِيَاءِ -بَعدَ نُهُوضِهِم بِأَعبَاءِ الدَّلَالَةِ وَالإِرشَادِ- أَن يُنَاجُوا رَبَّهُم فِي صَلَاحِ مُجتَمَعَاتِهِم، وَأَن يَرفَعُوا إِلَيهِ حَاجَتَهَا.

فَحَقِيقٌ بِمَن وَرِثَ النُّبُوَّةَ أَن يَكُونَ لَهُ مِن هَذَا الدُّعَاءِ وَالمُنَاجَاةِ نَصِيبٌ وَافِرٌ.

(١) **«حَاشِيَةُ ثَلَاثَةِ الأُصُولِ» لابن قاسم (ص ٣٩):** «هَذِهِ الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ ذُكِرَت هُنَا مُجمَلَةً، ثُمَّ ذَكَرَهَا بَعدَ ذَلِكَ مُفَصَّلَةً أَصلًا أَصلًا؛ تَتمِيمًا لِلفَائِدَةِ، وَتَنشِيطًا لِلقَارِئِ، فَإِنَّهُ إِذَا عَرَفَهَا مُجمَلَةً، وَعَرَفَ أَلفَاظَهَا وَضَبَطَهَا، بَقِيَ مُتَشَوِّقًا إِلَىٰ مَعرِفَةِ مَعَانِيهَا؛ وَهِيَ المَقصُودُ بِهَذِهِ النُّبذَةِ، وَبِمَا تَقَدَّمَهَا مِنَ المَسَائِلِ، فَلَعَلَّ بَعضَ تَلَامِيذِهِ قَرَنَهَا بِهَا».

وَهَذِهِ الرَّسَائِلُ الثَّلَاثُ الَّتِي أُلحِقَت بِرِسَالَةِ «الأُصُولِ الثَّلَاثَةِ»: فَالرِّسَالَةُ الأُولَىٰ مِنهَا فِي وُجُوبِ تَعَلُّمِ أَربَعِ مَسَائِلَ، وَهِيَ الَّتِي بَدَأَ بِهَا المُؤَلِّفُ، وَالرِّسَالَةُ الثَّانِيَةُ فِي تَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالأُلُوهِيَّةِ، وَمَسأَلَةِ الوَلَاءِ وَالبَرَاءِ،

وَالرِّسَالَةُ الثَّالِثَةُ فِي بَيَانِ التَّوحِيدِ وَضِدِّهِ.

وَمَن أَلحَقَ هَذِهِ الرَّسَائِلَ الثَّلَاث بِرِسَالَةِ «الأُصُولِ الثَّلَاثَةِ» فَقَد أَحسَنَ صُنعًا؛ لِأَنَّهَا فِي الحَقِيقَةِ مُقَدِّمَاتٌ عِلمِيَّةٌ مُمَهِّدَةٌ لِفَهمِ رِسَالَةِ الأُصُولِ الثَّلَاثَةِ، وَتَهيِئَةٌ لِلطَّالِبِ لِلدُّخُولِ فِي مَقَاصِدِهَا عَلَىٰ بَصِيرَةٍ وَمَنهَجٍ سَلِيمٍ.

وَيَتَبَيَّنُ لِلنَّاظِرِ المُتَأَمِّلِ أَنَّ هَذِهِ الرَّسَائِلَ الثَّلَاث جَاءَت عَلَىٰ نَسَقٍ مَقصُودٍ، تُؤَسِّسُ القَوَاعِدَ الكُلِّيَّةَ الَّتِي بُنِيَت عَلَيهَا رِسَالَةُ الأُصُولِ الثَّلَاثَةِ، وَتَجمَعُ أُصُولَ الدِّينِ الَّتِي لَا يَسَعُ المُسلِمَ جَهلُهَا فِي بَابِ الِاعتِقَادِ.

وَأَمَّا الرِّسَالَةُ الَّتِي بُدِئَ بِهَا، وَهِيَ رِسَالَةُ المَسَائِلِ الأَربَعِ، فَإِنَّهَا فِي حَقِيقَتِهَا تَلخِيصٌ جَامِعٌ لِسُورَةِ العَصرِ؛ إِذ إِنَّ المَسَائِلَ الأَربَعَ الَّتِي أَوجَبَ المُؤَلِّفُ تَعَلُّمَهَا هِيَ بِعَينِهَا المَعَانِي العُظمَىٰ الَّتِي اشتَمَلَت عَلَيهَا سُورَةُ العَصرِ، مِنَ العِلمِ، وَالعَمَلِ، وَالدَّعوَةِ، الصَّبرِ، وَهِيَ أُصُولُ النَّجَاةِ الَّتِي بَيَّنَهَا كِتَابُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَجَعَلَهَا مِيزَانَ الخُسرَانِ وَالفَلَاحِ.

وَاعلَم أَن الأُصُولُ الَّتِي انبَنَىٰ عَلَيها سَعَادَةُ العَبدِ ثَلَاثَةٌ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنها ضِدٌّ؛ فَمَن فَقَدَ ذَلِكَ الأَصلَ حَصَلَ عَلَىٰ ضِدِّهِ:

١- التَّوحِيدُ وَضِدُّهُ الشِّركُ،

٢- وَالسُّنَّةُ وَضِدُّهَا البِدعَةُ،

٣- وَالطَّاعَةُ وَضِدُّهَا المَعصِيَةُ.

وَلِهَذِهِ الثَّلَاثَةِ ضِدٌّ وَاحِدٌ، وَهُوَ: خُلُوُّ القَلبِ مِنَ الرَّغبَةِ فِي اللهِ وَفِيمَا عِندَهُ، وَمِنَ الرَّهبَةِ مِنهُ وَمِمَّا عِندَهُ".

الفَوَائِدُ (١/ ١٥٧).

قال المؤلف -رَحِمَهُ اللهُ-:

الأُولَىٰ: العلمُ، وَهُوَ معرفةُ اللهِ، ومعرفةُ نبيِّهِ، ومعرفةُ دينِ الْإِسلَامِ بِالأَدِلَّةِ.

افتَتَحَ المُصَنِّفُ المسائلَ الأربَعَ بِالعِلمِ؛ إِذ هُوَ رأسُ الأمرِ ومِفتاحُ البابِ، وبهِ مَيَّزَ اللهُ أهلَ الهُدىٰ مِن أهلِ الضَّلالِ.

والعِلمُ المقصودُ هُنَا هُوَ العِلمُ بِاللهِ، وبِنبيِّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وبِدينِ الإسلامِ، عَلَىٰ ضوءِ الدَّليلِ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ وفهمِ السَّلَفِ.

وهذِهِ الأمورُ الثَّلاثَةُ هِيَ عينُ الأصولِ الثَّلاثَةِ الَّتي عقَدَ المُصَنِّفُ هَذَا المتنَ لِبَيانِها؛ فبَدَأَ بِإجمالِها هُنَا، ثمَّ فصَّلَها أصلًا أصلًا فِي آخِرِ الرِّسالَةِ.

قلتُ: ووجهُ تصديرِ المسائلِ بِالعِلمِ أنَّ العمَلَ بِغيرِ عِلمٍ ضلالٌ وخَبطٌ، وأنَّ الدَّعوَةَ بِغيرِ عِلمٍ افتِئاتٌ عَلَىٰ الشَّرعِ، وأنَّ الصَّبرَ إنَّما يُحمَدُ إِذَا كانَ عَلَىٰ بصيرَةٍ؛ فصارَ العِلمُ أساسًا تنبَني عليهِ المسائلُ الثَّلاثُ بعدَهُ.

أقسامُ العِلمِ:

العِلمُ -إجمالًا- نوعانِ: عِلمٌ شرعيٌّ، وعِلمٌ دُنيَويٌّ.

فأمَّا العِلمُ الشَّرعيُّ فينقَسِمُ إِلَىٰ واجِبٍ ومُستَحَبٍّ:

فالعِلمُ الواجِبُ هُوَ مَا لَا يقومُ دينُ العبدِ إلَّا بِهِ؛ كالعِلمِ بِكيفِيَّةِ الطَّهارَةِ والصَّلاةِ،

وأصولِ الاعتِقادِ، ونحوِ ذلكَ.

إذاً: هُوَ مَا يستَقيمُ بِهِ اعتِقادُكَ وعِبادَتُكَ ومُعامَلاتُكَ.

وضابِطُهُ القاعِدَةُ الْمَشهُورَةُ: «مَا لَا يتِمُّ الواجِبُ إلَّا بهِ فَهُوَ واجِبٌ»؛ فلمَّا كانَ الدِّينُ لَا يقومُ، ولَا يكونُ المرءُ مُسلِمًا، إلَّا بِهذهِ الأصولِ، وجَبَ عَلَىٰ المُسلِمِ أَن يتَعلَّمَ مَا يقومُ بهِ دينُهُ.

٢٤ - **قالَ أحمدُ -كَمَا فِي «الفُروعِ» لِابنِ مُفلِحٍ (٢/ ٣٤٢)-:** «يجِبُ عليهِ أَن يطلُبَ مِنَ العِلمِ مَا يقومُ بهِ دينُهُ».

قيلَ لهُ: فكلُّ العِلمِ يقومُ بِهِ دينُهُ؟

قالَ: «الفرضُ الَّذي يجِبُ عليهِ فِي نفسِهِ: صلاتُهُ وصيامُهُ، ونحوُ ذلكَ».

٢٥ - **وقالَ أيضًا -كَمَا فِي «وَرَثَةِ الأنبياءِ» (ص٢٣)-:** «الَّذي يجِبُ عَلَىٰ الإنسانِ مِنَ العِلمِ: مَا لَا بُدَّ لهُ منهُ فِي صلاتِهِ، وإقامَةِ دينِهِ».

إذاً: يجِبُ عَلَىٰ كلِّ إنسانٍ السَّعيُ لِتَحصيلِ العِلمِ بهذهِ الأصولِ، وَأَن يُفرِدَ لَهَا مِن وقتِهِ نصيبًا يتَعاهَدُها فيهِ تعَلُّمًا وضبطًا؛ إِذ هِيَ الَّتي تُميِّزُ المُسلِمَ المُوَحِّدَ مِنَ المُشرِكِ والكافِرِ.

وَاعلَم أنَّ الواجِبَ مِنَ العِلمِ يدورُ مَعَ الحاجَةِ:

٢٦ - **رَوَىٰ عليُّ بنُ الحسَنِ بنِ شَقيقٍ قالَ:** سألتُ عبدَ اللهِ بنَ المُبارَكِ: مَا الَّذي يجِبُ عَلَىٰ النَّاسِ مِن تعليمِ العِلمِ؟ قالَ: «أَن لَا يُقدِمَ الرَّجُلُ عَلَىٰ الشَّيءِ إلَّا بِعِلمٍ؛ يسأَلُ ويتَعَلَّمُ، فَهَذَا الَّذي يجِبُ عَلَىٰ النَّاسِ مِن تعليمِ العِلمِ».

ثمَّ فسَّرَهُ فقالَ: «لَو أنَّ رجُلًا ليسَ لهُ مالٌ، لَم يكُن عليهِ واجِبًا أَن يتَعَلَّمَ الزَّكاةَ، فَإِذَا

كانَ لهُ مِئَتا دِرهَمٍ وجَبَ عليهِ أَن يتَعَلَّمَ: كَم يُخرِجُ، وَمَتَىٰ يُخرِجُ، وأينَ يضَعُ، وسائرَ الأشياءِ عَلَىٰ هَذَا».

قلتُ:

٢٧- **ونحوُهُ مَا رَوَىٰ الخطيبُ فِي «الفقيهِ والمُتَفَقِّهِ» (١/ ١٧١):** عَن عليِّ بنِ أَبِي طالبٍ أَنَّهُ أمَرَ تاجِرًا بِالفِقهِ قبلَ التِّجارَةِ.

ووجهُ الجمعِ بينَهُما أنَّ الواجِبَ العينيَّ مِنَ العِلمِ يدورُ مَعَ حاجَةِ الْإِنسَانِ ومنزِلَتِهِ: فمَن لَا مالَ لهُ لَا يجِبُ عليهِ تعَلُّمُ الزَّكاةِ، فَإِذَا ملَكَ النِّصابَ وجَبَ عليهِ أَن يتَعَلَّمَ كَم يُخرِجُ، وَمَتَىٰ يُخرِجُ، وأينَ يضَعُ؛ وَهَكَذَا فِي سائرِ أبوابِ الدِّينِ، يلزَمُ كلَّ أحَدٍ منهُ مَا باشَرَهُ أَو أرادَ مُباشَرَتَهُ.

٢٨- **وجاءَ فِي «مِفتاحِ دارِ السَّعادَةِ» (١/ ٤٤١) -وَهُوَ** يتكَلَّمُ عَلَىٰ حديثِ أنَسٍ فِي وُجوبِ طلَبِ العِلمِ-: «وَهَذَا وَإِن كانَ فِي سنَدِهِ حفصُ بنُ سُليمانَ وَقد ضُعِّفَ، فمعناهُ صحيحٌ؛ فإنَّ الإيمانَ فرضٌ عَلَىٰ كلِّ واحِدٍ، وَهُوَ ماهِيَّةٌ مُرَكَّبَةٌ مِن عِلمٍ وعمَلٍ، فَلَا يُتَصَوَّرُ وُجودُ الإيمانِ إلَّا بِالعِلمِ والعمَلِ.

ثمَّ شرائعُ الإسلامِ واجِبَةٌ عَلَىٰ كلِّ مُسلِمٍ، وَلَا يُمكِنُ أداؤُها إلَّا بعدَ معرِفَتِها والعِلمِ بِها، واللهُ تَعَالَىٰ أخرَجَ عِبادَهُ مِن بُطونِ أمَّهاتِهِم لَا يعلَمونَ شيئًا؛ فطلَبُ العِلمِ فريضَةٌ عَلَىٰ كلِّ مُسلِمٍ.

وَهَل تُمكِنُ عِبادَةُ اللهِ -الَّتي هِيَ حقُّهُ عَلَىٰ العِبادِ كلِّهِم- إلَّا بِالعِلمِ؟ وَهَل يُنالُ العِلمُ إلَّا بِطلَبِهِ؟.

ثُمَّ إنَّ العِلمَ بِالمَفرُوضِ تَعَلُّمُهُ ضَربَانِ:

الأَوَّل: عِلمُ أُصُولِ الإِيمَانِ الخَمسَةِ: الإِيمَانِ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ؛ فَإِنَّ مَن لَم يُؤمِن بِهَذِهِ الخَمسَةِ لَم يَدخُل فِي بَابِ الإِيمَانِ، وَلَا يَستَحِقُّ اسمَ المُؤمِنِ... وَلَمَّا سَأَلَ جِبرِيلُ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- عَنِ الإِيمَانِ، قَالَ: أَن تُؤمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ.

قَالَ: صَدَقتَ.

فَالإِيمَانُ بِهَذِهِ الأُصُولِ فَرعُ مَعرِفَتِهَا وَالعِلمِ بِهَا.

الثَّانِي: عِلمُ شَرَائِعِ الإِسلَامِ، وَاللَّازِمُ مِنهَا عِلمُ مَا يَخُصُّ العَبدَ مِن فِعلِهَا؛ كَعِلمِ الوُضُوءِ، وَالصَّلَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالحَجِّ، وَالزَّكَاةِ، وَتَوَابِعِهَا، وَشُرُوطِهَا، وَمُبطِلَاتِهَا.

الثَّالِث: عِلمُ المُحَرَّمَاتِ الخَمسِ الَّتِي اتَّفَقَت عَلَيهَا الرُّسُلُ، وَالشَّرَائِعُ، وَالكُتُبُ الإِلَهِيَّةُ، وَهِيَ المَذكُورَةُ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف:٣٣].

فَهَذِهِ مُحَرَّمَاتٌ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ فِي كُلِّ حَالٍ، عَلَىٰ لِسَانِ كُلِّ رَسُولٍ، لَا تُبَاحُ قَطُّ.

الرَّابِع: عِلمُ أَحكَامِ المُعَاشَرَةِ وَالمُعَامَلَةِ الَّتِي تَحصُلُ بَينَهُ وَبَينَ النَّاسِ خُصُوصًا وَعُمُومًا، وَالوَاجِبُ فِي هَذَا النَّوعِ يَختَلِفُ بِاختِلَافِ أَحوَالِ النَّاسِ وَمَنَازِلِهِم.

وَتَفصِيلُ هَذِهِ الجُملَةِ لَا يَنضَبِطُ بِحَدٍّ؛ لِاختِلَافِ النَّاسِ فِي أَسبَابِ العِلمِ الوَاجِبِ، وَذَلِكَ يَرجِعُ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أُصُولٍ: اعتِقَادٍ، وَفِعلٍ، وَتَركٍ.

فَالوَاجِبُ فِي الِاعتِقَادِ: مُطَابَقَتُهُ لِلحَقِّ فِي نَفسِهِ.

وَالوَاجِبُ فِي العَمَلِ: مَعرِفَتُهُ، وَمُوَافَقَةُ حَرَكَاتِ العَبدِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ الِاختِيَارِيَّةِ

لِلشَّرعِ أَمرًا وَإِبَاحَةً.

وَالوَاجِبُ فِي التَّركِ: مَعرِفَةُ مُوَافَقَةِ الكَفِّ وَالسُّكُونِ لِمَرضَاةِ اللهِ، وَأَنَّ المَطلُوبَ مِنهُ إِبقَاءُ هَذَا الفِعلِ عَلَىٰ عَدَمِهِ المُستَصحَبِ، فَلَا يَتَحَرَّكُ فِي طَلَبِهِ، أَو كَفُّ النَّفسِ عَن فِعلِهِ عَلَىٰ الطَّرِيقَتَينِ.

مسألة: أن الإيمان بالأصول لا بُدّ له مِن حَدّ وصِفَةٍ:

اعلَم -رَحِمَكَ اللهُ- أَنَّ مَا لَا يتِمُّ الواجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ واجِبٌ؛ أَي: إِنَّهُ أمرٌ لَا يُعذَرُ فيهِ المرءُ البتَّةَ، فَإِذَا علِمتَ أنَّ شيئًا لَا يقومُ الدِّينُ إِلَّا بِهِ لزِمَكَ طلَبُهُ والاجتِهادُ فِي تحصيلِهِ؛ وهذِهِ قضيَّةٌ لَا خِلافَ فِيهَا بينَ أهلِ العِلمِ.

واعلَم أيضًا أنَّ الإيمانَ بِهذِهِ الأصولِ الَّتي يَأتِي ذِكرُها لهُ حدٌّ وصِفَةٌ؛ فمَن لَم يأتِ بِهذا الحدِّ والصِّفَةِ لَم ينفَعهُ زعمُهُ أنَّهُ مُؤمِنٌ بِها:

فالإيمانُ بِالعرشِ لَا بُدَّ أن يكونَ عَلَىٰ الحدِّ الَّذي اعتَقَدَهُ أهلُ السُّنَّةِ، وَهُوَ أنَّ هَذَا العرشَ هُوَ الَّذي اسْتَوَىٰ عليهِ ربُّنا، وأنَّهُ عرشٌ حقيقيٌّ عظيمٌ.

ومَن زعَمَ أنَّهُ مُؤمِنٌ بِالقدَرِ، لَا بُدَّ أَن يكونَ إيمانُهُ بِهِ عَلَىٰ حدِّ إيمانِ الصَّحابةِ والسَّلَفِ وصِفَتِهِ؛ فيُثبِتُ أنَّ اللهَ علِمَ كلَّ شيءٍ، وكتَبَ مقاديرَ كلِّ شيءٍ فِي اللَّوحِ المحفوظِ، وأنَّ مشيئَتَهُ نافِذَةٌ فِي خلقِهِ، وأنَّ مشيئَةَ العبدِ تبَعٌ لِمشيئَتِهِ، وأنَّهُ خالِقُ كلِّ شيءٍ؛ فالخيرُ والشَّرُّ بِقدَرٍ، وَهَكَذَا فِي الأصولِ كلِّها؛ فإنَّ ادِّعاءَ الإيمانِ بِالقدَرِ مِن غيرِ تحقيقٍ لِهذا الحدِّ والصِّفَةِ المُجزِئَةِ لَا يُعَدُّ إيمانًا صحيحًا.

وَلِهذَا مَن خالَفَ فزعَمَ أنَّ اللهَ لَا يعلَمُ الشَّيءَ قبلَ وُقوعِهِ صارَ مِنَ الكافِرينَ، ومَن قالَ: «أنَا أُؤمِنُ بِالقدَرِ، إلَّا أنَّ الشَّرَّ مِن أنفُسِنا والخيرَ مِنَ اللهِ» صارَ مِنَ المُبتَدِعَةِ

الضَّالِّينَ.

وَهَكَذَا فِي أركانِ الإيمانِ السِّتَّةِ؛ فالإيمانُ اللَّفظيُّ بِها مِن غيرِ تحقيقٍ لِمعانيها المُرادَةِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ لَا ينفَعُ.

فَكَمَا أنَّ الصَّلاةَ فِي الشَّرعِ صِفَةٌ مخصوصَةٌ، بِأقوالٍ وأفعالٍ مخصوصَةٍ، فِي أوقاتٍ مخصوصَةٍ، فمَن لَم يأتِ بِها عَلَىٰ هذهِ الصِّفَةِ لَم يُسَمَّ مُصَلِّيًا؛ فكذلكَ أصولُ الإيمانِ والإسلامِ، لَا يُجزِئُ فِيهَا الانتِسابُ المُجَرَّدُ دونَ تحقيقِ الحدِّ وَالْمَعنَىٰ الَّذي أرادَهُ اللهُ.

مسألة: العلم المُستحَب، والعُلوم الدُّنيَوِيَّةُ:

أمَّا العِلمُ المُستحَبُّ فَهُوَ مَا زادَ عَلَىٰ ذلكَ مِن تفاصيلِ الشَّريعَةِ، وَهُوَ فِي حقِّ آحادِ النَّاسِ مُستَحَبٌّ، وَفِي مجموعِ الأمَّةِ فرضُ كِفايَةٍ؛ لَا بُدَّ أَن يوجَدَ فِي الأمَّةِ مَن يقومُ بِهِ ويحمِلُهُ.

وأمَّا العُلومُ الدُّنيَوِيَّةُ -كالطِّبِّ والصِّناعَةِ- فالأصلُ فِيهَا الإباحَةُ، وَقَد تصيرُ فرضَ كِفايَةٍ إِذَا احتيجَ إِلَيها، وَقَد تصيرُ مُحَرَّمَةً إِن تعلَّقَت بِمُحَرَّمٍ.

لَكِن إِذَا أُطلِقَ لفظُ «العِلمِ» فِي النُّصوصِ فالمرادُ بِهِ غالبًا العِلمُ الشَّرعيُّ؛ عِلمُ الكِتابِ والسُّنَّةِ والآثارِ، وَهُوَ الَّذي فضلُ أهلِهِ عَلَىٰ العابِدِ كفضلِ النَّبيِّ -ﷺ- عَلَىٰ أَدنَىٰ أَحَدٍ مِن أمَّتِهِ، ومَن خرَجَ فِي طلَبِهِ فَهُوَ فِي سبيلِ اللهِ حتَّىٰ يرجِعَ؛ فَلَا يليقُ بِالمُسلِمِ أَن يزهَدَ فيهِ، بَل ينبَغي أَن يجعَلَ لهُ مِن وقتِهِ نصيبًا ثابِتًا.

فالعِلمُ الَّذي يجِبُ عَلَىٰ العبدِ ينقَسِمُ إِلَىٰ قِسمَينِ: فرضِ عينٍ، وفرضِ كِفايَةٍ.

فأمَّا فرضُ العينِ فَهُوَ مَا يتعَيَّنُ عَلَىٰ كلِّ مُسلِمٍ ومُسلِمَةٍ بِعينِهِ؛

٢٩ - **لِقولِهِ** -ﷺ-: «طلَبُ العِلمِ فريضَةٌ عَلَىٰ كلِّ مُسلِمٍ»، ودُخولُ النِّساءِ فِي لفظِ «مُسلِمٍ» ظاهِرٌ.

وَهُوَ العِلمُ الَّذي لَا يسَعُ المُكَلَّفَ جهلُهُ فِي دينِهِ: كمعرِفَةِ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا- معرِفَةً يقينِيَّةً بِالدَّليلِ، ومعرِفَةِ دينِ الإسلامِ وأصولِهِ، ومعرِفَةِ الرَّسولِ -ﷺ-.

ويدخُلُ فيهِ معرِفَةُ أحكامِ العِباداتِ الَّتي تلزَمُهُ: كالصَّلاةِ وشُروطِها وأركانِها، والصِّيامِ، والزَّكاةِ لِمَن ملَكَ نِصابًا، وأحكامِ البيعِ لِمَن يُباشِرُهُ، وأحكامِ النِّكاحِ لِمَن يُريدُهُ؛ فيتَعَلَّمُ مِنَ الدِّينِ مَا تعلَّقَ بِحالِهِ، وَلَا يجوزُ لهُ الاقتِصارُ عَلَىٰ التَّقليدِ فِيمَا لَا بُدَّ لهُ منهُ.

وأمَّا فرضُ الكِفايَةِ فَهُوَ مَا يلزَمُ الأمَّةَ عُمومًا أَن يقومَ بِهِ مَن يَكفِي، كالعُلومِ الشَّرعِيَّةِ الَّتي بِها حِفظُ الدِّينِ: مِن فِقهٍ، وحديثٍ، وفرائضَ، ولُغَةٍ، ومعرِفَةِ النَّاسِخِ والمنسوخِ، والعامِّ والخاصِّ، ونحوِ ذلكَ؛ فَهَذَا يتَعَيَّنُ عَلَىٰ أهلِ القُدرَةِ والاستِعدادِ مِنَ العُلَماءِ، دونَ عامَّةِ النَّاسِ.

قلتُ: وطلَبُ العِلمِ مِن أفضَلِ الأعمالِ إِذَا صلَحَتِ النِّيَّةُ؛ لِما فيهِ مِن حِفظِ الدِّينِ وتبليغِهِ.

فَإِنَّ فسَدَتِ النِّيَّةُ انقلَبَ العِلمُ حُجَّةً عَلَىٰ صاحِبِهِ وسبَبًا لِعِقابِهِ؛ فَمَا أحوَجَ طالِبَهُ إِلَىٰ إخلاصِ القصدِ فيهِ.

أولاً: معرفة الله:

بدَأَ المُصَنِّفُ بِمعرِفَةِ اللهِ؛ لِأَنَّها أعظَمُ العُلومِ وأشرَفُها وأوجَبُها.

ومعرِفَةُ اللهِ تشمَلُ العِلمَ بِأسمائِهِ الحُسنىٰ، وصِفاتِهِ العُلىٰ، وأفعالِهِ، وحقِّهِ عَلَىٰ

عِبادِهِ، وحُدودِ مَا أنزَلَ عَلَىٰ رُسُلِهِ، فمَن وُفِّقَ إِلَىٰ هَذَا العِلمِ فَقَد حازَ السَّعادَةَ مِن أطرافِها؛ إذ كلُّ أبوابِ الخيرِ تُفتَحُ لِمَن عرَفَ اللهَ حقًّا.

ولِهذا ينبَغي لِلمُسلِمِ أن يجعَلَ حياتَهُ كلَّها ساحَةً لِلجِدِّ والاجتِهادِ فِي تحصيلِ هذهِ المعرِفَةِ؛ فإنَّ اللهَ خلقَكَ لِتَعرِفَهُ، ثمَّ تقومَ بِمُقتَضىٰ هذهِ المعرِفَةِ مِن عِبادَتِهِ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ.

فَهَذَا الْعِلمُ علمٌ عَظِيمٌ، وَمَقَامٌ جَلِيلٌ، وَمَنزِلَةٌ شَرِيفَةٌ، فَهُوَ أَسَاسُ الهِدَايَةِ، وَأَصلُ الدِّينِ، وَأَعظَمُ مَا اِكتَسَبَتهُ القُلُوبُ، وَحَصَّلَتهُ النُّفُوسُ، وَأَدرَكَتهُ العُقُولُ.

فَلَيسَتِ النَّفسُ المُؤمِنَةُ أَحوجَ إِلَىٰ شَيءٍ مِنَ الأَشيَاءِ كَحَاجَتِهَا إِلَىٰ مَعرِفَةِ اللهِ بِأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَهَذَا هُوَ أَصلُ العِلمِ، وَهُوَ كُلُّ العِلمِ، فَمَن عَرَفَ اللهَ عَرَفَ مَا سِوَاهُ، وَمَن جَهِلَ اللهَ فَهُوَ لِمَا سِوَاهُ أَجهَلُ.

وَعَلَىٰ أَسَاسِ العِلمِ الصَّحِيحِ بِاللهِ وَأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ يَقُومُ الإِيمَانُ الصَّحِيحُ، وَالتَّوحِيدُ الخَالِصُ، وَتَنبَنِي مَطَالِبُ الرِّسَالَةِ جَمِيعُهَا، فَلَا يَتَصَوَّرُ إِيمَانٌ صَحِيحٌ مِمَّن لَا يَعرِفُ رَبَّهُ.

فَهَذِهِ المَعرِفَةُ لَازِمَةٌ لِانعِقَادِ أَصلِ الإِيمَانِ، وَلَا غِنَىٰ لِلمُؤمِنِ عَنهَا فِي سَلَامَةِ قَلبِهِ، وَصَلَاحِ مُعتَقَدِهِ، وَاستِقَامَةِ جَوَارِحِهِ، إِذ تُوجِبُ لَهُ التَّمييزَ بَينَ الإِيمَانِ وَالكُفرِ، وَالتَّوحِيدِ وَالشِّركِ، وَالإِثبَاتِ وَالتَّعطِيلِ، وَتَنزِيهِ الرَّبِّ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَوَصفِهِ بِمَا هُوَ أَهلُهُ مِن نُعُوتِ الجَلَالِ وَالإِكرَام.

وَهِيَ مَعرِفَةٌ فِطرِيَّةٌ ضَرُورِيَّةٌ، ولَيسَ فِي المَعَارِفِ أَجلَىٰ مِنهَا وَأَظهَرُ، فَإِنَّ الفِطَرَ السَّوِيَّةَ مَجبُولَةٌ عَلَىٰ الإِقرَارِ بِالرَّبِّ المَوصُوفِ بِصِفَاتِ الكَمَالِ، المُنَزَّهِ عَن نُعُوتِ

النَّقصِ، وَلَا يَنحَرِفُ عَنهَا إِلَّا مَن طُمِسَت فِطرَتُهُ بِالشُّبُهَاتِ، وَأَفسَدَهَا تَلبِيسُ المُتَكَلِّمِينَ وَتَخلِيطُ المُعَطِّلَةِ.

وَبِهَذِهِ المَعرِفَةِ تَحصُلُ زِيَادَةُ الإِيمَانِ وَرُسُوخُهُ، فَكُلَّمَا اِزدَادَ العَبدُ عِلمًا بِاللهِ زَادَ إِيمَانُهُ وَخَشيَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ لِرَبِّهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [سورة فاطر:٢٨]، وَتَجلِبُ لَهُ النُّورَ وَالبَصِيرَةَ الَّتِي تُحَصِّنُهُ مِنَ الشُّبُهَاتِ المُضِلَّةِ، وَالشَّهَوَاتِ المُحَرَّمَةِ، فَإِنَّ القَلبَ المَملُوءَ بِمَعرِفَةِ اللهِ لَا يَلتَفِتُ إِلَىٰ مَا سِوَاهُ، بَل يَطمَئِنُّ إِلَىٰ رَبِّهِ، وَيَأنَسُ بِذِكرِهِ، وَيَستَرِيحُ بِمَعرِفَتِهِ.

وَلِذَا كَانَ هَذَا العِلمُ بِحَقٍّ أَفضَلَ مَا اِكتَسَبَتهُ القُلُوبُ، وَلَيسَت إِلَىٰ شَيءٍ أَشوَقَ مِنهَا إِلَىٰ مَعرِفَةِ هَذَا الأَمرِ، وَلَا فَرَحُهَا بِشَيءٍ أَعظَمُ مِن فَرَحِهَا بِالظَّفَرِ بِمَعرِفَةِ الحَقِّ فِيهِ، فَإِنَّهَا غَايَةُ المَطلُوبَاتِ، وَنِهَايَةُ المَقصُودَاتِ، وَالكَنزُ الَّذِي لَا يَفنَىٰ، وَالذَّخِيرَةُ الَّتِي تَبقَىٰ بَعدَ فَنَاءِ كُلِّ ذَخِيرَةٍ.

وَلَا يَختَلِفُ المُسلِمُونَ أَنَّ مَعرِفَةَ أَسمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ أَسَاسُ الدِّينِ، وَأَصلُ الهِدَايَةِ.

وَيَظهَرُ شَرَفُ هَذَا العِلمِ مِن وُجُوهٍ:

الوَجهُ الأَوَّلُ: شَرَفُ المَعلُومِ.

وَوَجهُ ذَلِكَ: أَنَّ العِلمَ يَتَفَاضَلُ بِحَسَبِ المَعلُومِ، وَاللهُ أَشرَفُ مَعلُومٍ، فَالعِلمُ بِهِ أَشرَفُ العُلُومِ، وَاللهُ هُوَ الكَبِيرُ، بَل اللهُ أَكبَرُ مِن كُلِّ شَيءٍ، فَالعِلمُ بِهِ أَكبَرُ مِن كُلِّ عِلمٍ.

وَاللهُ هُوَ العَظِيمُ، فَالعِلمُ بِهِ أَعظَمُ العُلُومِ.

بَل كُلُّ العُلُومِ تَبَعٌ لِهَذِهِ المَعرِفَةِ، وَهِيَ مُرَادَةٌ لِأَجلِهَا، وَهُوَ الغَايَةُ الَّتِي خَلَقَ اللهُ هَذَا الخَلقَ لِأَجلِهَا.

٣٠ - قَالَ أَبُو إِسمَاعِيلَ الأَنصَارِيُّ كَمَا فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (٣/ ١٧٩ ط. عَطَاءَاتِ العِلمِ): «أَشرَفُ عُلُومِ الخَلَائِقِ: عِلمُ الأَمرِ وَالنَّهيِ، وَعِلمُ الأَسمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَالتَّوحِيدِ، وَعِلمُ المَعَادِ وَاليَومِ الآخِرِ».

٣١ - وَقَالَ أَبُو مُوسَىٰ المَدِينِيُّ كَمَا فِي «الطُّوَالَاتِ» (١/ ١٨٨): «وَأَولَىٰ مَا يُعنَىٰ بِهِ صَاحِبُ الحَدِيثِ: مَعرِفَةُ صِفَاتِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-، وَفَهمُ مَعَانِيهَا، فَأَقبِح بِهِ إِذَا سُئِلَ عَن شَيءٍ جَهِلَهُ، أَو عُرِضَ عَلَيهِ لَم يَعرِفهُ».

الوَجهُ الثَّانِي: استِفَاضَةُ الأَمرِ بِهِ فِي الكِتَابِ.

أَنَّ اللهَ سُبحَانَهُ قَد أَكثَرَ فِي كِتَابِهِ مِنَ الأَمرِ بِالعِلمِ بِأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [سورة البقرة:٢٣٥]، وَقَالَ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [سورة البقرة:٢٤٤]، وَقَالَ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [سورة البقرة:٢٣١]، وَقَالَ: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [سورة الطلاق:١٢]، وَقَالَ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [سورة العلق:١٤]، وَقَالَ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨﴾ [سورة المائدة:٩٨]، وَنَحوُ ذَلِكَ.

وَقَد وَرَدَ هَذَا الأَمرُ فِي كِتَابِ اللهِ فِي أَكثَرَ مِن عِشرِينَ مَوضِعًا، وَفِي هَذِهِ الاِستِفَاضَةِ دَلَالَةٌ قَاطِعَةٌ عَلَىٰ عِظَمِ مَنزِلَتِهِ، وَجَلَالَةِ مَقَامِهِ، وَأَنَّهُ مِن أَهَمِّ مَا يَنبَغِي لِلعَبدِ أَن يَشتَغِلَ بِهِ، وَيُفنِيَ عُمُرَهُ فِي تَحصِيلِهِ.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ الغَايَةُ مِن خَلقِ الجِنِّ وَالإِنسِ.

٣٢ - رُوِيَ عَن مُجَاهِدِ بنِ جَبرٍ -مِن طَرِيقِ ابنِ جُرَيجٍ- فِي قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:٥٦]، قَالَ: «إِلَّا لِيَعرِفُونِي».

قُلتُ: واللهُ تَعالَىٰ قَد عرَّفنا نفسَهُ بِأَسمائِهِ وَصِفاتِهِ، فَأَنزَلَ كِتابَهُ مَملُوءًا بِذِكرِها، وبعَثَ رَسُولَهُ -ﷺ- مُبيِّنًا لَها، شَارِحًا لِمَعانِيها، دَالًّا علَىٰ مدلُولاتِها، فَمَا أَعرَضَ المُعرِضُ عَنها إِلَّا وَقَد فوَّتَ علَىٰ نفسِهِ مَقصُودَ خَلقِهِ، وَغايَةَ وُجُودِهِ.

٣٣- **جَاءَ فِي «الحُجَّةِ فِي بَيَانِ المَحَجَّةِ» (١/ ١٣٤)**: «أَوَّلُ فَرضٍ فَرَضَهُ اللهُ تعالَىٰ علَىٰ خلقِهِ معرِفَتُهُ، فَإِذَا عَرَفَهُ النَّاسُ عَبَدُوهُ، قَالَ اللهُ تَعالَىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة محمد:١٩]، فَيَنبَغِي لِلمُسلِمِينَ أَن يَعرِفُوا أَسماءَ اللهِ وَتفسِيرَها، فَيُعظِّمُوا اللهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ».(١)

---

(١) **وقال في «الحُجَّةِ فِي بَيَانِ المَحَجَّةِ» (١/ ١٣٤)**: «لَو أَرَادَ رَجُلٌ أَن يَتَزَوَّجَ إِلَىٰ رَجُلٍ، أَو يُزَوِّجَهُ، أَو يُعامِلَهُ، طَلَبَ أَن يَعرِفَ اسمَهُ وَكُنيَتَهُ، وَاسمَ أَبِيهِ وَجَدِّهِ، وَسَأَلَ عَن صَغِيرِ أَمرِهِ وَكَبِيرِهِ، فَاللهُ الَّذِي خَلَقَنا وَرَزَقَنا، وَنَحنُ نَرجُو رَحمَتَهُ، وَنَخَافُ مِن سَخَطِهِ، أَولَىٰ أَن نَعرِفَ أَسماءَهُ، وَنَعرِفَ تَفسِيرَها».

فَتَأَمَّل -رَعَاكَ اللهُ- هَذَا القِيَاسَ البَدِيعَ، وَهَذَا الاستِنبَاطَ الدَّقِيقَ، فَإِنَّ النَّاسَ يَحرِصُونَ عَلَىٰ مَعرِفَةِ مَن يُعامِلُونَهُم فِي شَأنٍ مِن شُؤُونِ الدُّنيَا الفَانِيَةِ، فَكَيفَ بِالرَّبِّ المَعبُودِ، الَّذِي إِلَيهِ المَآلُ، وَبِيَدِهِ نَوَاصِي الخَلقِ، وَعَلَىٰ قَبُولِهِ وَرِضَاهُ تَقُومُ السَّعَادَةُ الأَبَدِيَّةُ؟! أَلَا يَكُونُ الحِرصُ عَلَىٰ مَعرِفَتِهِ بِأَسمائِهِ وَصِفَاتِهِ أَولَىٰ وَأَوجَبَ وَأَلزَمَ؟ بَلَىٰ وَاللهِ، إِنَّهُ لَأَولَىٰ وَأَوجَبُ، وَإِنَّ الإِعرَاضَ عَن ذَلِكَ -مَعَ هَذَا البَيَانِ الجَلِيِّ- لَدَلِيلٌ عَلَىٰ عَمًىٰ فِي البَصِيرَةِ، وَجَفَاءٍ فِي القَلبِ، وَغَفلَةٍ عَن أَجَلِّ المَطَالِبِ.

وَقَالَ اللَّالَكَائِيُّ: «فَإِنَّ أَوجَبَ مَا عَلَىٰ المَرءِ مَعرِفَةُ اعتِقَادِ الدِّينِ، وَمَا كَلَّفَ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ مِن فَهمِ تَوحِيدِهِ وَصِفَاتِهِ». فَجَعَلَ هَذَا أَوجَبَ الوَاجِبَاتِ، وَأَلزَمَ اللَّازِمَاتِ، فَلَا عُذرَ لِمُعرِضٍ عَنهُ، وَلَا حُجَّةَ لِمُتَهَاوِنٍ بِهِ.

فَمِفتَاحُ دَعوَةِ الرُّسُلِ، وَزُبدَةُ رِسَالَتِهِم، مَعرِفَةُ المَعبُودِ بِأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفعَالِهِ، إِذ عَلَىٰ هَذِهِ المَعرِفَةِ تُبنَىٰ مَطَالِبُ الرِّسَالَةِ كُلُّهَا، مِن أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرِهَا.

وجَاءَ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (٤/ ٣٠١ ط. عَطَاءَاتِ العِلمِ): «فَالإِيمَانُ بِالصِّفَاتِ، وَمَعرِفَتُهَا، وَإِثبَاتُ حَقَائِقِهَا، وَتَعَلُّقُ القَلبِ بِهَا، وَشُهُودُهُ لَهَا، هُوَ مَبدَأُ الطَّرِيقِ وَوَسَطُهُ وَغَايَتُهُ».

الوَجهُ الرَّابِعُ: أَنَّهُ العِلمُ الأَعلَىٰ.

فَالعِلمُ بِاللهِ تَعَالَىٰ وَصِفَاتِهِ هُوَ العِلمُ الأَعلَىٰ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [سورة الأعلى:١]، فَهُوَ سُبحَانَهُ رَبُّ كُلِّ مَا سِوَاهُ، فَكَذَلِكَ العِلمُ بِهِ سَيِّدُ جَمِيعِ العُلُومِ، وَأَصلٌ لَهَا.

٣٤ - **قَالَ الإِمَامُ الآجُرِّيُّ فِي «فَرضِ طَلَبِ العِلمِ» (٣٣٧)**: «اِعلَم -رَحِمَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ- أَنَّهُ وَاجِبٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسلِمٍ عَاقِلٍ بَالِغٍ... فَإِن قَالَ قَائِلٌ: فَإِنَّ العِلمَ كَثِيرٌ لَا يُدرِكُهُ كُلُّ أَحَدٍ، فَفَرضٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسلِمٍ طَلَبُهُ؟

قِيلَ لَهُ: العِلمُ عَلَىٰ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ، فَمِنهُ عِلمٌ لَا يَسَعُ المُسلِمَ جَهلُهُ... وَذَلِكَ مَعرِفَةُ اللهِ بِصِفَاتِهِ، بِصِحَّةِ تَوحِيدِهِ، وَإِخلَاصِهِ فِيهِ».

الوَجهُ الخَامِسُ: أَنَّهُ مَنبَعُ السَّعَادَةِ وَمِفتَاحُ المَحَبَّةِ.

فَإِنَّهُ حَقِيقَةُ مَعرِفَةِ اللهِ الَّتِي لَا سَعَادَةَ لِلعَبدِ، وَلَا فَلَاحَ، وَلَا نَعِيمَ، وَلَا صَلَاحَ فِي دُنيَاهُ وَآخِرَتِهِ إِلَّا بِهَا وَبِالتَّعَبُّدِ لِلَّهِ بِمُقتَضَاهَا.

٣٥ - **رَوَىٰ الدِّينَوَرِيُّ فِي «المُجَالَسَةِ وَجَوَاهِرِ العِلمِ» (٢/ ٩١) عَن مَالِكِ بنِ دِينَارٍ**

وَجَاءَ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (١/ ١٤٨ ط. عَطَاءَاتِ العِلمِ): «فَاعلَم أَنَّ سِرَّ العُبُودِيَّةِ وَغَايَتَهَا وَحِكمَتَهَا إِنَّمَا يَطَّلِعُ عَلَيهِ مَن عَرَفَ صِفَاتِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ، وَلَم يُعَطِّلهَا، وَعَرَفَ مَعنَىٰ الإِلَهِيَّةِ وَحَقِيقَتَهَا».

وَجَاءَ فِي «مَجمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (٥/ ٧): «الَّذِي مَعرِفَتُهُ غَايَةُ المَعَارِفِ، وَعِبَادَتُهُ أَشرَفُ المَقَاصِدِ، وَالوُصُولُ إِلَيهِ غَايَةُ المَطَالِبِ، بَل هَذَا خُلَاصَةُ الدَّعوَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَزُبدَةُ الرِّسَالَةِ الإِلَهِيَّةِ».

وَلِمَن أَرَادَ التَّوَسُّعَ فِي هَذَا البَابِ وَالاِستِزَادَةِ فَلْيُرَاجِع: «مَدَارِجَ السَّالِكِينَ» (١/ ١١٠، ١/ ٤٥٠)، وَ«جَامِعَ العُلُومِ وَالحِكَمِ» (ص٤٤)، وَ«طَرِيقَ الهِجرَتَينِ» (ص٢٢٧-٢٢٨، ص٥٢٧، ص٥٢٠، ص٣٦٢-٣٦٣)، وَ«التِّبيَانَ» (ص١٤٥-١٤٦)، وَ«بَدَائِعَ الفَوَائِدِ» (١/ ١٦٤)، وَ«عُدَّةَ الصَّابِرِينَ» (ص٢٨٦).

قَالَ: «خَرَجَ أَهلُ الدُّنيَا مِنَ الدُّنيَا وَلَم يَذُوقُوا أَطيَبَ شَيءٍ فِيهَا.

قَالُوا: وَمَا هُوَ يَا أَبَا يَحيَىٰ؟ قَالَ: مَعرِفَةُ اللهِ».

٣٦ - **وَرَوَىٰ أَحمَدُ فِي «الزُّهدِ» (ص٢٢٦) عَنِ الحَسَنِ قَالَ:** «مَن عَرَفَ رَبَّهُ أَحَبَّهُ».

٣٧ - **وَقَالَ سُفيَانُ كَمَا فِي «الزُّهدِ وَالرَّقَائِقِ» لِابنِ المُبَارَكِ (ص٦٩):** «كَتَبَ إِلَيَّ حَجَّاجُ بنُ الفَرَافِصَةِ قَالَ: قَالَ بُدَيلٌ: مَن عَرَفَ رَبَّهُ أَحَبَّهُ، وَمَن عَرَفَ الدُّنيَا زَهِدَ فِيهَا، وَالمُؤمِنُ لَا يَلهُو حَتَّىٰ يَغفُلَ، وَإِن تَفَكَّرَ حَزِنَ».

٣٨ - **وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ سُلَيمَانُ -عَلَيهِ السَّلَامُ- كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾ [سورة النمل:٤٢]، أَخرَجَ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «تَفسِيرِهِ» (٩/ ٢٨٩٢) عَن زُهَيرِ بنِ مُحَمَّدٍ التَّمِيمِيِّ العَنبَرِيِّ -مِن طَرِيقِ الوَلِيدِ-: «سُلَيمَانُ يَقُولُهُ: أُوتِينَا مَعرِفَةَ اللهِ وَتَوحِيدَهُ».

الوَجهُ السَّادِسُ: أَنَّ الكُتُبَ المُنَزَّلَةَ مَملُوءَةٌ بِهِ.

فَإِنَّ الكُتُبَ الإِلَهِيَّةَ عَامَّةً، وَالكِتَابَ المُنَزَّلَ بِالحَقِّ المُهَيمِنَ عَلَيهَا خَاصَّةً، قَدِ اشتَمَلَت نُصُوصُهَا عَلَىٰ الإِخبَارِ عَن أَسمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ أَكثَرَ مِنِ اشتِمَالِهَا عَلَىٰ مَا عَدَاهَا، وَنُصُوصُ الصِّفَاتِ هِيَ أَكثَرُ مَا فِي القُرآنِ.

الوَجهُ السَّابِعُ: أَنَّهُ زُبدَةُ رِسَالَةِ الرُّسُلِ.

فَإِنَّ الرُّسُلَ عَامَّةً، وَخَاتِمَهُم وَإِمَامَهُم خَاصَّةً صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيهِم أَجمَعِينَ، جَعَلُوا مِفتَاحَ دَعوَتِهِم، وَزُبدَةَ رِسَالَتِهِم، وَأَسَاسَ مِلَّتِهِم: تَعرِيفَ أُمَمِهِم بِأَسمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ، وَالدَّعوَةَ إِلَىٰ إِخلَاصِ الدِّينِ لَهُ.

الوَجهُ الثَّامِنُ: أَنَّهُ أَحَبُّ الثَّنَاءِ إِلَىٰ الرَّبِّ.

فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَن يُحمَدَ وَيُمَجَّدَ وَيُثنَىٰ عَلَيهِ بِمَا هُوَ أَهلُهُ، وَأَحَبُّ الحَمدِ وَالمَجدِ وَالثَّنَاءِ إِلَىٰ الرَّبِّ ذِكرُهُ بِأَسمَاءِ جَمَالِهِ، وَصِفَاتِ كَمَالِهِ، وَنُعُوتِ جَلَالِهِ،

٣٩ - **قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسلِمٍ» (٢/ ٥١)**: «لَا أُحصِي ثَنَاءً عَلَيكَ، أَنتَ كَمَا أَثنَيتَ عَلَىٰ نَفسِكَ».

الوَجهُ التَّاسِعُ: أَنَّهُ حَيَاةُ القُلُوبِ، وَالأَصلُ الجَامِعُ.

فَهُوَ حَيَاةُ القُلُوبِ، وَأَصلُ العِلمِ الصَّحِيحِ، وَأَصلٌ عَظِيمٌ فِي مَنهَجِ السَّلَفِ، يَفتَحُ عَلَىٰ العَبدِ أَبوَابًا عَظِيمَةً مِن عُبُودِيَّاتِ القَلبِ وَالجَوَارِحِ.

وَمَن سَلِمَت فِطرَتُهُ فِي هَذَا البَابِ اِستَدَلَّ بِصِفَاتِ اللهِ عَلَىٰ أَحكَامِهِ الشَّرعِيَّةِ وَالقَدَرِيَّةِ،

٤٠ - **كَمَا قَالَت خَدِيجَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنهَا - لِلنَّبِيِّ - ﷺ -**: «كَلَّا، أَبشِر، فَوَاللهِ لَا يُخزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحمِلُ الكَلَّ، وَتَكسِبُ المَعدُومَ، وَتَقرِي الضَّيفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ»، عَلِمَت بِفِطرَتِهَا أَنَّ اللهَ حَكِيمٌ، وَمِن حِكمَتِهِ أَنَّهُ لَا يُمكِنُ أَن يُخزِيَ مَن هَذِهِ حَالُهُ.

الوَجهُ العَاشِرُ: أَنَّهُ مِيزَانُ العِبَادَةِ وَالتَّقوَىٰ.

فَكُلَّمَا كَانَ الإِنسَانُ أَعلَمَ بِأَسمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ، كَانَ أَصَحَّ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ تَقوَىٰ، وَلَا تَستَقِيمُ عِبَادَةٌ، وَلَا يَتَحَصَّلُ يَقِينٌ، إِلَّا مِن خِلَالِ هَذَا التَّوحِيدِ.

وَلَمَّا كَانَ نَبِيُّنَا - ﷺ - أَعلَمَ النَّاسِ بِاللهِ، كَانَ أَعظَمَهُم لَهُ خَشيَةً وَتَعَبُّدًا.

الوَجهُ الحَادِيَ عَشَرَ: أَنَّ مُعَطِّلَ الصِّفَاتِ وَاقِعٌ فِي التَّعطِيلِ وَالشِّركِ.

فَإِنَّ مَن عَطَّلَ صِفَاتِ اللهِ لَا بُدَّ أَن يَقَعَ فِي تَعطِيلِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالأُلُوهِيَّةِ، وَيَنتَهِي بِهِ

المَطَافُ إِلَىٰ الإِلحَادِ.

٤١- **قَالَ أَبُو الشَّيخِ فِي «العَظَمَةِ» (٨١)** بِسَنَدِهِ إِلَىٰ سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- قَالَ: «تَكَلَّمَتِ اليَهُودُ فِي صِفَةِ الرَّبِّ، فَقَالُوا مَا لَا يَعلَمُونَ وَلَم يَدرُوا، فَأَنزَلَ اللهُ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [سورة الأنعام:٩١]، ثُمَّ بَيَّنَ عَظَمَتَهُ لِلنَّاسِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [سورة الزمر:٦٧]، فَجَعَلَ صِفَتَهُم الَّتِي وَصَفُوا بِهَا اللهَ شِركًا».

إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا، فَالعِلمُ بِأَسمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ مِنَ الأَمرِ العَظِيمِ المُهِمِّ، الَّذِي يَنبَغِي أَن يَكُونَ أَهَمَّ مَطَالِبِ العَبدِ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ، فَأَيُّ عِبَادَةٍ، وَأَيُّ تَأَلُّهٍ لِلمَعبُودِ سُبحَانَهُ، دُونَ مَعرِفَتِهِ بِأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؟

فَالعَبدُ مُفتَقِرٌ إِلَىٰ مَولَاهُ مِن جِهَتَينِ: مِن حَيثُ كَونُهُ رَبَّهُ الَّذِي خَلَقَهُ وَيَرزُقُهُ وَيُدَبِّرُ أَمرَهُ، وَمِن حَيثُ كَونُهُ إِلَهَهُ الَّذِي يَتَأَلَّهُ لَهُ بِالمَحَبَّةِ وَالخَوفِ وَالرَّجَاءِ.

فَأَيُّ تَحقِيقٍ لِأَيٍّ مِن هَذَينِ الأَمرَينِ دُونَ مَعرِفَةِ اللهِ بِأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؟!

وَإِذَا أَرَدتَ أَن تُحصِيَ شَيئًا مِن نِعَمِ اللهِ عَلَيكَ، فَلَا تَنسَ مَا هُوَ أَجَلُّهَا قَدرًا، وَهُوَ أَن عَرَّفَكَ نَفسَهُ، فَتِلكَ النِّعمَةُ الكُبرَىٰ، وَالمِنَّةُ العُظمَىٰ، الَّتِي لَا تُدَانِيهَا نِعمَةٌ.

وَمِنَ العَجَبِ أَن يَحرِصَ العَبدُ عَلَىٰ مَعرِفَةِ العِبَادَةِ، وَلَا يَحرِص عَلَىٰ مَعرِفَةِ المَعبُودِ، مَعَ أَنَّ مَعرِفَةَ المَعبُودِ مُقَدَّمَةٌ.

فَكَيفَ تَتَعَبَّدُ لَهُ بِالمَحَبَّةِ وَالخَوفِ وَالرَّجَاءِ، وَأَنتَ لَا تَعلَمُ أَنَّهُ الجَمِيلُ، الوَدُودُ، الرَّحمَنُ، الغَفُورُ، شَدِيدُ العِقَابِ؟

وَلِذَا كُلَّمَا كُنتَ بِاللهِ أَعلَمَ، كُنتَ لَهُ أَعبَدَ، وَهَذَا أَصلٌ عَزِيزٌ لَا يَنبَغِي أَن يَغِيبَ عَنكَ.

فَهَذَا الطَّرِيقُ -طَرِيقُ مَعرِفَةِ اللهِ بِأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ- لَيسَ ثَمَّةَ طَرِيقٌ أَفضَلُ مِنهُ يُوصِلُ إِلَىٰ رَحمَةِ اللهِ وَمَرضَاتِهِ وَجَنَّتِهِ، صَاحِبُهُ قَد حِيزَت لَهُ السَّعَادَةُ، وَإِن كَانَ مُستَلقِيًا عَلَىٰ فِرَاشِهِ.

وَمِن نِعمَةِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ أَن بَيَّنَ لَهُم كَثِيرًا مِن أَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ فِي كِتَابِهِ، بَل ضَرَبَ سُبحَانَهُ، وَكَذَا نَبِيُّهُ -ﷺ-، الأَمثَالَ الَّتِي تُعَرِّفُ العِبَادَ بِمَولَاهُم وَمَعبُودِهِم.

وَأَرجُو مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ أَن يَكُونَ هَذَا الكِتَابُ مُبَيِّنًا وَمُوضِّحًا لِطَرِيقَةِ الأَوَّلِينَ، الَّذِينَ لَم يَتَلَوَّثُوا بِشَيءٍ مِن أَوضَارِ هَذِهِ الفِرَقِ وَأَدنَاسِهَا، أَثبَتُوا لِلَّهِ حَقَائِقَ الأَسمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَنَفَوا عَنهُ مُمَاثَلَةَ المَخلُوقَاتِ، فَكَانَ مَذهَبُهُم بَينَ مَذهَبَينِ، وَهُدًىٰ بَينَ ضَلَالَتَينِ، خَرَجَ مِن بَينِ مَذَاهِبِ المُعَطِّلِينَ وَالمُخَيِّلِينَ وَالمُجَهِّلِينَ وَالمُشَبِّهِينَ، كَمَا خَرَجَ اللَّبَنُ مِن بَينِ فَرثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ، وَقَالُوا: «نَصِفُ اللهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ، مِن غَيرِ تَحرِيفٍ وَلَا تَعطِيلٍ، وَمِن غَيرِ تَشبِيهٍ وَلَا تَمثِيلٍ».

وَلِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَبَىٰ أَن يَكُونَ الحَقُّ وَالعَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ إِلَّا مَعَ أَهلِ الحَدِيثِ وَالآثَارِ، فَإِنَّهُم أَخَذُوا دِينَهُم خَلَفًا عَن سَلَفٍ، وَقَرنًا عَن قَرنٍ، إِلَىٰ أَنِ انتَهَوا إِلَىٰ التَّابِعِينَ، وَأَخَذَهُ التَّابِعُونَ عَنِ الصَّحَابَةِ، وَأَخَذَهُ الصَّحَابَةُ عَن رَسُولِ اللهِ -ﷺ-.

وَلَا طَرِيقَ إِلَىٰ مَعرِفَةِ مَا دَعَا إِلَيهِ -ﷺ- مِنَ الدِّينِ المُستَقِيمِ إِلَّا هَذَا الطَّرِيقُ الَّذِي سَلَكَهُ أَصحَابُ الحَدِيثِ.

وَأَمَّا سَائِرُ الفِرَقِ، فَطَلَبُوا الدِّينَ لَا بِطَرِيقِهِ، فَرَجَعُوا إِلَىٰ مَعقُولِهِم وَخَوَاطِرِهِم، فَإِذَا سَمِعُوا شَيئًا مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، عَرَضُوهُ عَلَىٰ مِعيَارِ عُقُولِهِم، فَإِنِ استَقَامَ قَبِلُوهُ، وَإِلَّا رَدُّوهُ، أَو حَرَّفُوهُ بِالتَّأوِيلَاتِ البَعِيدَةِ، فَحَادُوا عَنِ الحَقِّ، وَجَعَلُوا السُّنَّةَ تَحتَ أَقدَامِهِم،

تَعَالَىٰ اللهُ عَمَّا يَصِفُونَ.

وَأَمَّا أَهلُ الحَقِّ، فَجَعَلُوا الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ إِمَامَهُم، فَمَا وَافَقَ مَعقُولَهُم مِنهُمَا قَبِلُوهُ، وَمَا خَالَفَ مَعقُولَهُم تَرَكُوا مَعقُولَهُم وَأَقبَلُوا عَلَىٰ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَرَجَعُوا بِالتُّهمَةِ عَلَىٰ أَنفُسِهِم، فَإِنَّ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ لَا يَهدِيَانِ إِلَّا إِلَىٰ الحَقِّ، وَرَأيُ الإِنسَانِ قَد يُرِيهِ الحَقَّ، وَقَد يُرِيهِ البَاطِلَ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ أَهلَ الحَدِيثِ عَلَىٰ الحَقِّ: أَنَّكَ لَو طَالَعتَ جَمِيعَ كُتُبِهِم مِن أَوَّلِهِم إِلَىٰ آخِرِهِم، مَعَ اختِلَافِ بُلدَانِهِم وَأَزمِنَتِهِم، وَجَدتَهُم فِي بَيَانِ الاِعتِقَادِ عَلَىٰ وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، وَنَمَطٍ وَاحِدٍ، لَا يَحِيدُونَ عَنهُ، وَلَا يَمِيلُونَ فِيهِ، قَولُهُم وَاحِدٌ، وَفِعلُهُم وَاحِدٌ، بَل لَو جَمَعتَ جَمِيعَ مَا جَرَىٰ عَلَىٰ أَلسِنَتِهِم وَنَقَلُوهُ عَن سَلَفِهِم، وَجَدتَهُ كَأَنَّهُ جَاءَ مِن قَلبٍ وَاحِدٍ، وَجَرَىٰ عَلَىٰ لِسَانٍ وَاحِدٍ.

وَهَل عَلَىٰ الحَقِّ دَلِيلٌ أَبيَنُ مِن هَذَا؟!

وَبَابُ الأَسمَاءِ وَالصِّفَاتِ مِنَ الأَبوَابِ الَّتِي كَثُرَ فِيهَا القَولُ بِالبَاطِلِ، فَإِنَّ الخِلَافَ فِيهِ قَدِيمٌ، وَكَثُرَت الفِرَقُ الَّتِي خَالَفَت الحَقَّ فِيهِ، حَتَّىٰ عَظُمَت البَلِيَّةُ بِهِم، وَوَقَعَ الخَلَلُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الكُتُبِ الَّتِي بِأَيدِي النَّاسِ اليَومَ.

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَالمُتَعَيِّنُ عَلَىٰ المُسلِمِ -لَا سِيَّمَا طَالِبَ العِلمِ- أَن يَعتَنِيَ بِتَحقِيقِ هَذَا البَابِ وَفقَ دَلَالَاتِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمَا كَانَ عَلَيهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ.

فَإِنَّ الخَطَأَ هَهُنَا لَيسَ كَالخَطَأِ فِي غَيرِهِ، إِذِ المُعَارِضُ لِلَّهِ فِي ثُبُوتِ مَا أَثبَتَ لِنَفسِهِ مِنَ الصِّفَاتِ قَد وَقَعَ فِي أَمرٍ عَظِيمٍ.

٤٢- **قَالَ ابنُ بَطَّةَ** -رحمه الله-: «ثُمَّ الإِيمَانُ وَالقَبُولُ وَالتَّصدِيقُ بِكُلِّ مَا رَوَتهُ العُلَمَاءُ،

وَنَقَلَهُ الثِّقَاتُ أَهلُ الآثَارِ عَن رَسُولِ اللهِ -ﷺ-، يَلقَاهَا بِالقَبُولِ، وَلَا تُرَدُّ بِالمَعَارِيضِ، وَلَا يُقَالُ: لِمَ وَكَيفَ؟ وَلَا تُحمَلُ عَلَىٰ المَعقُولِ، وَلَا تُضرَبُ لَهَا المَقَايِيسُ، وَلَا يُعمَلُ لَهَا التَّفَاسِيرُ إِلَّا مَا فَسَّرَهُ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-، أَو رَجُلٌ مِن عُلَمَاءِ الأُمَّةِ مِمَّن قَولُهُ شِفَاءٌ وَحُجَّةٌ، مِثلُ أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ وَالرُّؤيَةِ... قَد رَوَىٰ هَذِهِ الأَحَادِيثَ الثِّقَاتُ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَالسَّادَاتُ مِنَ العُلَمَاءِ مِن بَعدِهِم؛ مِثلُ اِبنِ عُمَرَ وَعَائِشَةَ وَأَبِي هُرَيرَةَ وَابنِ عَبَّاسٍ وَجَرِيرِ بنِ عَبدِ اللهِ وَأَنَسِ بنِ مَالِكٍ وَغَيرِهِم... لَا يُقَالُ لِهَذَا كُلِّهِ: كَيفَ وَلَا لِمَ؟ بَل تَسلِيمُهَا لِلقُدرَةِ، وَإِيمَانًا بِالغَيبِ، كُلُّ مَا عَجَزَتِ العُقُولُ عَن مَعرِفَتِهِ، فَالعِلمُ بِهِ وَعَينُ الهِدَايَةِ فِيهِ: الإِيمَانُ بِهِ، وَالتَّسلِيمُ لَهُ، وَتَصدِيقُ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- فِيمَا قَالَهُ هُوَ أَصلُ العِلمِ، وَعَينُ الهِدَايَةِ، لَا تُضرَبُ لِهَذِهِ الأَحَادِيثِ وَمَا شَاكَلَهَا المَقَايِيسُ، وَلَا تُعَارَضُ بِالأَمثَالِ وَالنَّظَائِرِ».

وَبِهَذَا تَعلَمُ -أَيُّهَا النَّاظِرُ المُوَفَّقُ- أَنَّ هَذَا البَابَ هُوَ مَدَارُ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، وَأَنَّ التَّحَرِّيَ فِيهِ وَالتَّحَوُّطَ مِن أَوجَبِ الوَاجِبَاتِ، وَأَنَّ تَركَ التَّكَلُّفِ، وَالتَّسلِيمَ لِنُصُوصِ الوَحيَينِ، عَلَىٰ فَهمِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، هُوَ النَّجَاةُ الَّتِي لَا نَجَاةَ سِوَاهَا، وَالطَّرِيقُ الَّتِي لَا تَنتَهِي بِسَالِكِهَا إِلَّا إِلَىٰ رِضوَانِ اللهِ وَجَنَّتِهِ، نَسأَلُ اللهَ مِن فَضلِهِ، وَأَن يَجعَلَنَا مِن أَهلِ هَذَا الطَّرِيقِ، السَّالِكِينَ سَبِيلَهُ، الذَّابِّينَ عَن حِيَاضِهِ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالقَادِرُ عَلَيهِ.

ثانيًا: معرفةُ النبيِّ -ﷺ-:

بعدَ معرِفَةِ اللهِ تَأتِي معرِفَةُ رسولِهِ -ﷺ-؛ إِذ هُوَ الواسِطَةُ بينَ اللهِ وعِبادِهِ فِي تبليغِ الدِّينِ، ووجهُ اقترانِ هذينِ الأصلَينِ -معرِفَةِ اللهِ ومعرِفَةِ نبيِّهِ -ﷺ- أَنَّ التَّوحيدَ لا يتِمُّ إِلَّا بِركنَيهِ: إخلاصِ العِبادَةِ لِلَّهِ، ومُتابَعَةِ رسولِهِ -ﷺ- فِيهَا؛ فبالأوَّلِ يُعلَمُ المعبودُ،

وبِالثَّانِي تُعلَمُ كيفِيَّةُ عِبادَتِهِ.

ولِذا قرَنَ اللهُ بينَ شهادَةِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وشهادَةِ أَنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ، فَلَا تنفَعُ إحداهُما دونَ الأُخرَىٰ.

ووجهُ افتِقارِ الخلقِ إِلَىٰ النُّبُوَّةِ يَظهَرُ بأصلَينِ يُسَلِّمُ بِهِمَا كلُّ عاقِلٍ:

أوَّلُهما: أَنَّ عُقولَ البَشَرِ ناقِصَةٌ غيرُ مُحيطَةٍ، لَا يَستَقِلُّ أَحَدُها بإدراكِ مَا يُصلِحُ المَعاشَ والمَعادَ.

والثَّاني: أنَّ الحقَّ فِي الجُملَةِ مُمكِنُ الإدراكِ لَا يَمتَنِعُ الوُصولُ إِلَيهِ.

والدَّليلُ عَلَىٰ الأصلَينِ مَعًا قائِمٌ فِي نفسِ كلِّ مُتَناظِرَينِ: فإنَّهُما مَا تَناظَرا إِلَّا لأنَّ عَقلَ كلٍّ مِنهُمَا غيرُ كامِلٍ يَحتاجُ إِلَىٰ الآخَرِ -وَلَو كانَ مُطلَقًا لاستَغنَىٰ-، وَمَا تَناظَرا إِلَّا لأَنَّهُما يَرجُوانِ بُلوغَ الحقِّ -وَلَو كانَ مُتَعذِّرًا لَما تَناظَرا-.

فَإِذَا ثبَتَ نَقصُ العقلِ مَعَ إمكانِ إدراكِ الحقِّ، لَزِمَ افتِقارُ العبدِ إِلَىٰ مَن يُمِدُّهُ بعِلمٍ مِن عندِ اللهِ يُكَمِّلُ بِهِ نَقصَهُ، ويَدُلُّهُ عَلَىٰ مَا لَا سَبيلَ إِلَىٰ مَعرِفَتِهِ بمُجَرَّدِ نَظَرِهِ، مِن صِفَةِ مَعبودِهِ وكيفِيَّةِ عِبادَتِهِ ومَصيرِهِ بعدَ مَوتِهِ؛ وَهَذَا هُوَ النَّبيُّ الَّذي جاءَ يقولُ للنَّاسِ: إنَّ عِلمَكُم قاصِرٌ، وإنَّكُم مُفتَقِرونَ إِلَىٰ مَدَدٍ مِنَ اللهِ، وَأَنَا مُبَلِّغُهُ إليكُم؛ وَلَولَا ذلكَ لَتُهتُم.

فبَطَلَ بِهَذَا قولُ مَن زَعَمَ أنَّ العقلَ يُغني عنِ الرُّسُلِ، إِذ لَو أَغنَىٰ لَما احتاجَ النَّاسُ بعضُهُم إِلَىٰ بعضٍ فِي أَدنَىٰ العُلومِ، فكيفَ بأجَلِّها؟

ومِن هُنَا فُهِمَ سِرُّ اقتِرانِ مَعرِفَةِ الرَّسولِ بمعرِفَةِ اللهِ فِي كلامِ المُصَنِّفِ؛ فإنَّ معرِفَةَ اللهِ تُثبِتُ المعبودَ، وَلَا سَبيلَ إِلَىٰ مَعرِفَةِ مَا يَرضاهُ مِنَ العِبادَةِ إِلَّا بواسِطَةِ رَسولِهِ؛ فالعقلُ يَدُلُّ عَلَىٰ وُجوبِ عِبادَتِهِ فِي الجُملَةِ، وَلَكِن لَا يُدرِكُ تفصيلَهَا إِلَّا بالوَحيِ، فكانَتِ النُّبُوَّةُ

ضرورةً لازِمَةً لِتَمامِ هَذَا الأصلِ.

مَا يجِبُ مِن معرِفَتِهِ -ﷺ-:

يجِبُ عَلَىٰ كلِّ مُسلِمٍ أَن يعرِفَ مِن أمرِ نبيِّهِ -ﷺ- جُملَةً، مِنهَا: اسمُهُ ونسَبُهُ، وسيرَتُهُ وشمائلُهُ، ودلائلُ نبُوَّتِهِ، وحُقوقُهُ، وَمَا يجِبُ لهُ مِنَ المحبَّةِ والطَّاعَةِ والاتِّباعِ.(١)

---

(١) ومِلاكُ القولِ فِي حقِّه -ﷺ- أَن يُنزَّلَ منزلتَه الَّتِي أنزلَه اللهُ إياها، لَا يُرفَعُ فوقَها بغلوٍّ، وَلَا يُحَطُّ عَنهَا بجفاءٍ؛ فإنَّ الحقوقَ فِي هَذَا البابِ ثلاثةٌ يَعرِفُ أهلُ السنةِ الفرقانَ بينها: حقٌّ خاصٌّ باللهِ لَا يشارِكُه فِيهِ مخلوقٌ، وَهُوَ إفرادُه بالعبادةِ والتألُّهِ والرغبةِ والإنابةِ والخوفِ والرجاءِ؛ وحقٌّ خاصٌّ بالرسلِ، وَهُوَ توقيرُهم وتعزيرُهم والقيامُ بحقوقِهم الخاصةِ بِهِم؛ وحقٌّ مشتركٌ، وَهُوَ الإيمانُ بِهِم ومحبتُهم وطاعتُهم، غيرَ أَنَّهُ للهِ أصالةً وللرسلِ تَبَعًا لحقِّ اللهِ.

فمن خَلَطَ الحقَّ الخاصَّ باللهِ بحقِّ رسولِه فصرفَ إِلَيهِ شيئًا من العبادةِ فَقَد غلا، ومن نَقَصَه حقَّه الخاصَّ من التوقيرِ والاتباعِ فَقَد جَفا؛ والوسطُ العدلُ أَن يُحَبَّ ويُوقَّرَ ويُتَّبَعَ من غيرِ أَن يُعبَدَ أَو يُدْعىٰ أَو يُستغاثَ بِهِ.

والغلوُّ فِي أصلِه مجاوزةُ الحدِّ فِي العبادةِ قولًا أَو فعلًا، والإطراءُ مجاوزةُ الحدِّ فِي المدحِ؛ ومن هُنَا جَاءَ النهيُ فِي قَولُهُ -ﷺ-: «لَا تُطروني كَمَا أطرتِ النصارىٰ ابنَ مريمَ» سَدًّا لذريعةِ الغلوِّ الَّذِي هَلَكَت بِهِ الأممُ قبلَنا.

جَاءَ فِي «الكافية الشافية – ط عطاءات العلم» (المتن/ ٢١٥):

وَلَقَــدْ نَهَــىٰ ذَا الخَلْــقَ عَــن إطرَائِــهِ	فِعــلَ النَّصَــارَىٰ عَابِــدِي الصُّــلبَانِ
وَلَقَـــدْ نَهَانَـــا أَن نُصَـــيِّرَ قَبْـــرَهُ	عِيـــدًا حِـــذَارَ الشِّـــرْكِ بِـــالرَّحمنِ
وَدَعَـــا بِـــأَلَّا يُجعَـــلَ القَـــبرُ الَّـــذِي	قَـــد ضَـــمَّهُ وَثَنًـــا مِـــنَ الأَوثَـــانِ
فَأَجَـــابَ رَبُّ العَـــالمِينَ دُعَـــاءَهُ	وَأَحَاطَـــهُ بِثَلَاثَـــةِ الجُـــدرَانِ
حَتَّـــىٰ اغتَـــدَت أَرْجَـــاؤهُ بِدُعَائِـــهِ	فِـــي عِـــزَّةٍ وحِمَايَـــةٍ وَصِـــيَانِ

وَهَذَا فِي عصرِنا أشَدُّ وُجوبًا وأوكَدُ؛ لِكثرَةِ الشُّبُهاتِ الَّتي تُثارُ حولَ النُّبُوَّةِ، وَلَا سيَّما عبرَ وسائلِ التَّواصُلِ الَّتي صارَت تحمِلُ الباطِلَ إِلَىٰ النَّاسِ فِي بيوتِهِم؛ فالعِلمُ الصَّحيحُ هُوَ السِّلاحُ الَّذي تُدرَأُ بِهِ هذهِ الشُّبَهُ، وتُحصَّنُ بِهِ القُلوبُ.

والشُّبهَة كَانَت قديمًا لَا تبلُغُ العامِّيَّ إلَّا بعدَ مُؤنَةٍ، فأمَّا اليوم فَهِيَ تُعرَضُ عليهِ فِي مجلِسِهِ بِلا طلَبٍ؛ فَلَم يبقَ لِلعبدِ عاصِمٌ بعدَ توفيقِ اللهِ إلَّا أَن يتَسَلَّحَ بِالعِلمِ الرَّاسِخِ بِنبيِّهِ -ﷺ- ودلائلِ صِدقِهِ.

فالواجِبُ عَلَىٰ المُسلِمِ تُجاهَ نبيِّهِ -ﷺ- ثلاثَةُ أمورٍ، عَلَيهَا مدارُ تحقيقِ شهادَةِ أَنَّهُ رسولُ اللهِ:

الأَوَّلُ: أَن يعتَقِدَ أَنَّهُ -ﷺ- عبدٌ لِلَّهِ لَا يُعبَدُ، ورسولٌ لَا يُكَذَّبُ؛ فَلَا يُرفَعُ فوقَ منزِلَتِهِ الَّتي أنزَلَهُ اللهُ إيَّاها، وَلَا يُحطُّ عَنها.

الثَّاني: محبَّتُهُ وولاؤُهُ وطاعَتُهُ؛ فيُقدِّمُ محبتَهُ عَلَىٰ النَّفسِ والولَدِ والنَّاسِ أجمَعينَ، ويُوالي مَن والاهُ، ويُعادي مَن عاداهُ.

الثَّالثُ: أَن يُصَدِّقَهُ فِي أخبارِهِ، ويُطيعَهُ فِي أوامِرِهِ، ويجتَنِبَ مَا نَهَىٰ عنهُ وزجَرَ،

وَلَقَــد غَــدَا عِنــدَ الوَفَــاةِ مُصَــرِّحًا ... بـــاللَّعنِ يَصــرُخُ فِـــيهِمُ بـــأذَانِ
وَعَنَــىٰ الأُلَــىٰ جَعَلُــوا القُبُــورَ مَسَـاجدًا ... وَهُـــمُ اليَهُـــودُ وَعابِـــدُو الصُّـــلبَانِ
واللهِ لَــــولَا ذَاكَ أُبــــرِزَ قَبــرُهُ ... لَكِـــنَّهُم حَجَبُـــوهُ بالحِيطَـــانِ
قَصَـــدُوا إِلَــىٰ تَسـنِيم حُجرَتِــه لِيمـــ ... ـتَنِـعَ السُّــجُودُ لَــهُ عَلَــىٰ الأذقَـانِ
قَصَـدُوا مُوَافَقَــةَ الرَّسُــولِ وَقَصـدُهُ التَّـ ... ـجرِيـــدُ لِلتَّوحِيـــدِ لِلـــرَّحمنِ.

ويتَّبِعَهُ فِي هديِهِ، فَلَا يعبُدُ اللهَ إلَّا بِما شرَعَ.

ووجهُ انتِظامِ هذهِ الثَّلاثَةِ أنَّها حقيقَةُ شهادَةِ أنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ؛ فالأوَّلُ تحقيقُ مقامِ العُبودِيَّةِ والرِّسالَةِ فيهِ -ﷺ-، وَهُوَ وسَطٌ بينَ غُلُوِّ مَن رفعَهُ فوقَ قدرِهِ فعبَدَهُ أَو دعاهُ، وجَفاءِ مَن كذَّبَهُ أو ردَّ سُنَّتَهُ؛ والثَّاني عمَلُ القلبِ مِنَ المحبَّةِ والوَلاءِ؛ والثَّالثُ عمَلُ الجوارِحِ مِنَ التَّصديقِ والطَّاعَةِ والاتِّباعِ.

فهذهِ الثَّلاثَةِ جَمَعَت بينَ الاعتِقادِ والقلبِ وَالْجَوَارِحِ، فمَن أخَلَّ بِأصلٍ واحِدٍ مِنهَا لَم يكُن مُحَقِّقًا لِشهادَتِهِ عَلَىٰ وجهِها.

ثالثًا: معرفةُ دين الإسلام بالأدلّة:

معرِفَةُ دينِ الإسلامِ مِن علاماتِ الخيرِ الَّذي يُرادُ بِالعبدِ؛ لِقولِهِ -ﷺ- فيما رواهُ البُخاريُّ (٧١) ومُسلِمٌ (١٠٣٧) مِن حديثِ مُعاوِيَةَ-: «مَن يُرِدِ اللهُ بِهِ خيرًا يُفَقِّهُهُ فِي الدِّينِ».

وَهِيَ كذلكَ مِنَ الواجِباتِ المُحَتَّماتِ عَلَىٰ النَّاسِ؛ فيجِبُ أَن يعقِدَ قلبَهُ عَلَىٰ أنَّ الإسلامَ هُوَ الدِّينُ الحقُّ مِن عندِ اللهِ، وأنَّ شريعَتَهُ بِها خُتِمَتِ الشَّرائعُ ونُسِخَ مَا قبلَها، وأنَّ الإسلامَ -بِمعناهُ العامِّ، وَهُوَ إفرادُ اللهِ بِالعِبادَةِ- دينُ جميعِ الأنبياءِ، فَلَا يقبَلُ اللهُ مِن أحَدٍ دينًا سِواهُ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران:٨٥].

ويجِبُ عَلَىٰ العبدِ معرِفَةُ أحكامِ الإسلامِ الَّتي لَا يتَحَقَّقُ الإسلامُ الحقُّ إلَّا بِها؛ كَمَعنَىٰ «لَا إلَهَ إلَّا اللهُ» وشُروطِها، ونواقِضِ الإسلامِ، وغيرِ ذلكَ ممَّا لَا يسَعُ المُكَلَّفَ جهلُهُ.

معنىٰ قولِهِ: «بِالأدلَّةِ»:

أَكَّدَ المُصنِّفُ عَلَىٰ أَن يكونَ هَذَا العِلمُ «بِالأدلَّةِ»؛ أَي: أَن تكونَ معرِفَتُك مقرونَةً بِما يدُلُّ عَلَيها مِن كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ -ﷺ-، بِفهمِ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ فليسَ العِلمُ حِفظَ مسائلَ مُجرَّدَةً، وإنَّما هُوَ نورٌ يُهتَدىٰ بِهِ، وبصيرَةٌ يُميِّزُ بِها العبدُ الحقَّ مِنَ الباطِلِ.

ووجهُ اشتِراطِ المُصنِّفِ الدَّليلَ أنَّ الفرقَ بينَ عِلمِ الرَّاسِخِ وحِفظِ المُقلِّدِ إنَّما هُوَ الدَّليلُ؛ فالمُقلِّدُ يقولُ مَا سمِعَ، فَإِذَا ورَدَت عليهِ الشُّبهَةُ زلَّ؛ وأمَّا مَن عرَفَ المسألَةَ بِدليلِها مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ وَالْآثَارِ فإنَّهُ يثبُتُ ثباتَ الجبَلِ، لِأَنَّهُ بَنَىٰ دينَهُ عَلَىٰ بُرهانٍ، لَا عَلَىٰ عادَةٍ وَلَا تقليدٍ، ولِذا كانَ هَذَا القيدُ -«بِالأدلَّةِ»- هُوَ روحُ الرِّسالَةِ كلِّها، إِذ بِهِ يُفارِقُ المُوَحِّدُ عَلَىٰ بصيرَةٍ مَن دينُهُ نشأةٌ وبيئَةٌ.

وليسَ مُرادُ المُصنِّفِ بِـ«الأدلَّةِ» الأدلَّةَ الكلاميَّةَ الْفَلسَفِيَّةَ الَّتي بَنَىٰ عَلَيها أهلُ الكلامِ عِلمَهُم، حتَّىٰ يُظَنَّ أنَّه وافَقَ مَن أوجبَ النَّظَرَ والاستِدلالَ عَلَىٰ طريقَتِهِم؛ بَل مُرادُهُ الدَّليلُ الشَّرعيُّ مِن كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ -ﷺ- بفهمِ السَّلَفِ.[1]

---

(١) **قلتُ**: وَزَعَمَ المُتكَلِّمُونَ أَنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ عَلَىٰ المُكَلَّفِ النَّظَرُ وَالاستِدلَالُ، وَاحتَجَّ الإِيجِيُّ بِدَعوَىٰ الإِجمَاعِ: أَنَّ مَعرِفَةَ اللهِ وَاجِبَةٌ، وَمَا لَا يَتِمُّ الوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ، وَالنَّظَرُ كَذَلِكَ.

وَالحَقُّ أَنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ تَوحِيدُ اللهِ وَإِفرَادُهُ بِالعِبَادَةِ، وَهُوَ مَعنَىٰ الشَّهَادَتَينِ؛ وَالجَوَابُ مِن وُجُوهٍ: أَنَّ مَعرِفَةَ اللهِ فِطرِيَّةٌ لَا تَفتَقِرُ إِلَىٰ نَظَرٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: «أَفِي اللهِ شَكٌّ».

وَأَنَّ ذَلِكَ الإِجمَاعَ لَا يَستَنِدُ إِلَىٰ دَلِيلٍ، بَل حَكَىٰ غَيرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّ أَوَّلَ الوَاجِبَاتِ الشَّهَادَتَانِ.

وَأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِهَديِ النَّبِيِّ -ﷺ- وَأَصحَابِهِ؛ فَمَا نُقِلَ أَنَّهُ وَقَفَ إِسلَامَ أَحَدٍ عَلَىٰ نَظَرٍ، وَإِنَّمَا دَعَا النَّاسَ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحدَهُ.

وَأَمَّا النُّصُوصُ الآمِرَةُ بِالنَّظَرِ فَلَيسَت مَحَلَّ نِزَاعٍ، لَكِنَّهَا لَا تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الإِسلَامَ لَا يُقبَلُ إِلَّا بِهِ.

فإنَّ لفظَ «الدَّليلِ» عندَ المُتكَلِّمِ غيرُهُ عندَ أهلِ الأثَرِ: فَهُوَ عندَ الأوَّلِ بُرهانٌ عقليٌّ فَلسَفِيٌّ مُجَرَّدٌ، وَهُوَ عندَ الثَّاني النَّصُّ المعصومُ بِفَهمِ السَّلَفِ؛ وَالشَّيخ إنَّما أرادَ الثَّانيَ، إذ كانَ يُخاطِبُ قومًا أكثَرُهُم بينَ مُقَلِّدٍ فِي الفُروعِ لَا يَلتَفِتُ إِلَىٰ دليلٍ، ومُشتَغِلٍ بالمنطِقِ والكلامِ يَحسَبُهُ هُوَ العِلمَ.

وأمَّا تَوَهُّمُ أنَّ هَذَا القَيدَ يُوجِبُ عَلَىٰ كلِّ أحَدٍ تحصيلَ الأدلَّةِ التَّفصيليَّةِ حتَّىٰ لَا يَصِحَّ إيمانُ مَن لَم يُحصِّلها، فغلَطٌ؛ فإنَّ العامِّيَّ الَّذِي اطمَأنَّ قلبُهُ بالحقِّ مُؤمِنٌ صحيحُ الإيمانِ وَإن لَم يُحسِن نَصبَ الأدلَّةِ، لكنَّ كَمالَ العِلمِ ورُسوخَهُ أَن يُقرَنَ بدليلِهِ؛ فالقَيدُ لِبَيانِ الكمالِ المطلوبِ ودَفعِ التَّقليدِ المَذمومِ، لَا لِنَفيِ أصلِ الإيمانِ عمَّن قَصُرَ عنهُ.

ثمَّ إنَّ التَّقليدَ المَحضَ غيرُ مُتَصَوَّرٍ فِي أصولِ الاعتِقادِ كتَصَوُّرِهِ فِي فُروعِ الفِقهِ؛ لأنَّ مسائِلَ الأصولِ أدلَّتُها ظاهِرَةٌ فِي النُّصوصِ قويَّةٌ مُتَظاهِرَةٌ، لَا تَحتاجُ إِلَىٰ دَقائِقِ النَّظَرِ؛ وَاعلَم أَن مَا كانَ مِنَ المطالِبِ أعظَمَ والنَّاسُ إِلَيهِ أحوَجَ كانَ دليلُهُ فِي الوَحيِ أظهَرَ وَأَقوَىٰ، رحمةً مِنَ اللهِ بعِبادِهِ؛ فعُلُوُّ اللهِ -مثلًا- تَشهَدُ لَهُ الفِطرَةُ، وتَنطِقُ بِهِ النُّصوصُ الكثيرَةُ نُطقًا بيِّنًا.

فمَن رأيتَهُ يَصرِفُ أعظَمَ الأصولِ إِلَىٰ مَباحِثَ غامِضَةٍ دقيقَةٍ لَا يَرُدُّها إِلَىٰ أصلٍ واضِحٍ، فاعلَم أنَّه أدخَلَكَ فِي بابِ الكلامِ، وأنَّ ذلكَ ليسَ طريقَةَ القرآنِ وَلَا طريقَةَ السَّلَفِ.

وَأَمَّا ذَمُّ التَّقلِيدِ فَإِنَّمَا وَرَدَ فِي تَقلِيدِ أَهلِ الضَّلَالِ كَمُتَابَعَةِ الآبَاءِ فِي الشِّركِ، لَا فِي اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ – فَإِنَّهُ تَصدِيقٌ وَإِيمَانٌ.

إذاً: العِلمُ هُوَ النُّورُ الَّذي يسيرُ المُسلِمُ فِي ضوئهِ فِي هذهِ الحياةِ، طريقُهُ رحبٌ واسِعٌ يقودُ إِلَىٰ جنَّةِ الخُلدِ، قالَ تعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٢٩﴾ [سورة الإنسان:٢٩].

لكنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ اليومَ زهِدوا فِي العِلمِ الشَّرعيِّ؛ فوقَعَ كثيرٌ مِنهُم فِي ضلالاتٍ ونواقِضَ وأخطاءَ تمَسُّ التَّوحيدَ، ومَا ذاكَ إلَّا مِن تركِ التَّعلُّمِ، أَو الإعراضِ عنِ المنهَجِ الصَّحيحِ فِي تلَقِّيهِ.

ووجهُ ذلكَ أنَّ العِلمَ شِفاءُ القلوبِ مِن داءِ الجهلِ، فَإِذَا تُرِكَ التَّداوي بهِ استَحكَمَ الدَّاءُ؛ فَمَا وقَعَ مَن وقَعَ فِي الشِّركِ والبِدعَةِ إلَّا لِجهلِهِ بِالتَّوحيدِ وأدلَّتِهِ، فثبَتَ أنَّ الزُّهدَ فِي العِلمِ الشَّرعيِّ بابٌ إِلَىٰ الضَّلالِ، وأنَّ العِنايَةَ بِهِ عِصمَةٌ بعدَ توفيقِ اللهِ.

٤٣ - وَقَد جاءَ فِي «الكافِيَةِ الشَّافِيَةِ» (المتن/ ٢٢٥):

وَالجَهـلُ دَاءٌ قَاتِـلٌ وَشِـفَاؤُهُ ... أَمـرَانِ فِـي التَّركِيـبِ مُتَّفِقَـانِ
نَـصٌّ القُـرآنِ أَوِ الحَـدِيثِ وَمَـن ... طَبَّـا لَـهُ فَالعَـالِمُ الرَّبَّـانِي
وَالعِلـمُ أَقسَـامٌ ثَـلاثٌ مَـا لَهَـا ... مِـن رَابِـعٍ وَالحَـقُّ ذُو تِبيَـانِ
عِلـمٌ بِأَوصَـافِ الإِلَـهِ وَفِعلِـهِ ... وَكَـذَلِكَ الأَسـمَاءُ لِلـرَّحمَنِ
وَالأَمـرُ وَالنَّهـيُ الَّـذِي هُـوَ دِينُـهُ ... وَجَـزَاؤُهُ يَـومَ المَعَـادِ الثَّـانِي
وَالكُـلُّ فِـي القُـرَآنِ وَالسُّـنَنِ الَّتِـي ... جَـاءَت عَـنِ المَبعُـوثِ بِـالقُرآنِ

قال المؤلف -رحمه الله-:

الثانية: العَمَلُ بِهِ

العِلمُ لَا ينفَعُ بِلا عمَلٍ، والعمَلُ لَا يُقبَلُ بِلا عِلمٍ، وهُما مُتَلازِمانِ لَا ينفَكُّ أحَدُهُما عنِ الآخَرِ؛ فالعِلمُ إمامٌ، والعمَلُ تابعٌ، ومَن عمِلَ بِلا عِلمٍ ضلَّ، ومَن علِمَ وَلَم يعمَل هلَكَ.

ولِهذا لمَّا كانَ عندَ اليهودِ عِلمٌ بِلا عمَلٍ كَانُوا مِنَ المغضوبِ عليهِم، ولمَّا كانَ عندَ النَّصارىٰ عمَلٌ بِلا عِلمٍ كَانُوا مِنَ الضَّالِّينَ؛ فأمَّا المُهتَدونَ فهُمُ الَّذينَ جمَعوا بينَ الأمرَينِ: العِلمِ والعمَلِ، وهُم أهلُ الصِّراطِ المُستَقيمِ الَّذينَ نسألُ اللهَ هِدايَتَهُم فِي كلِّ صلاةٍ.

فاليهودُ عندَهُم عِلمٌ بِلا عمَلٍ، فغضِبَ اللهُ عليهِم، وضرَبَ لهُم مثَلَ الحِمارِ يحمِلُ الأسفارَ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [سورة الجمعة:٥].

٤٤- **قالَ ابنُ عبَّاسٍ:** المقصودُ بِالآيَةِ اليهودُ؛ «حُمِّلوا التَّوراةَ» أي: كُلِّفوا العمَلَ بِما فِيهَا، و«ثمَّ لَم يحمِلوها» أي: لَم يعمَلوا بِما فِيهَا، و«أسفارًا» أي: كُتُبًا؛ فمثَلُهُم كمثَلِ مَن يقرَأُ الكِتابَ وَلَا يتَّبِعُ مَا فيهِ، كالحِمارِ يحمِلُ الكُتُبَ وَلَا يدرِي مَا فِيهَا.

٤٥- **وقالَ الضَّحَّاكُ بنُ مُزاحِمٍ:** وَفِي الآيَةِ تحذيرٌ لِهذهِ الأمَّةِ، فَإِنَّ لَم تعمَل بِالكِتابِ كانَ مثَلُها كمثَلِهِم، وقالَ عبدُ الرَّحمَنِ بنُ زيدِ بنِ أسلَمَ: الأسفارُ كُتُبُ التَّوراةِ تُحمَلُ عَلَىٰ ظهرِ الحِمارِ، والحِمارُ لَا ينتَفِعُ بِما يحمِلُهُ، وكذلكَ مَن أوتيَ الكِتابَ وَلَم يعمَل بهِ لَا ينتَفِعُ بهِ.

قلتُ: ووجهُ هَذَا المثَلِ أنَّ اللهَ شبَّهَ حامِلَ العِلمِ غيرَ العامِلِ بهِ بِالحِمارِ يحمِلُ عَلَىٰ ظهرِهِ أسفارًا مِنَ الحِكمَةِ، فَهُوَ يكِدُّ فِي حملِها وَلَا يَدرِي مَا فِيهَا، وَلَا ينالُهُ مِن ثقلِها إلَّا التَّعَبُ؛ فكذلكَ مَن حمَلَ العِلمَ وَلَم يعمَل بهِ، لَم ينَل منهُ إلَّا الحُجَّةَ عليهِ يومَ القِيامَةِ، وَفِي الآيَةِ -كَمَا نبَّهَ الضَّحَّاكُ- وعيدٌ لِهذهِ الأمَّةِ أَن تسلُكَ سبيلَهُم فتُشابِهَهُم فِي الوصفِ فتُشابِهَهُم فِي الذَّمِّ.

فالعِلمُ مقصودٌ لِلعمَلِ، لَا لِمُجَرَّدِ المعرِفَةِ؛ فليسَ النَّافِعُ هُوَ العِلمَ بِصورَتِهِ المُجَرَّدَةِ، وإنَّما يُنالُ معناهُ ممَّن تعلَّمَهُ لِيعمَلَ بهِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [سورة النساء:٦٦].

٤٦- **وَرَوَىٰ ابنُ جريرٍ (٧/ ٢٠٧)** عَن أَبِي إسحاقَ السَّبيعيِّ قالَ: لمَّا نزلَت: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [سورة النساء:٦٦]، قالَ رجُلٌ: لَو أُمِرنا لفَعَلنا، والحمدُ لِلَّهِ الَّذي عَافَانَا.

فبلَغَ ذلكَ النَّبيَّ -ﷺ-، فقالَ: «إنَّ مِن أُمَّتي لَرِجالًا الإيمانُ أثبَتُ فِي قُلوبِهِم مِنَ الجِبالِ الرَّواسي».

قلتُ: ووجهُ الدلالَةِ أنَّ اللهَ علَّقَ التَّثبيتَ عَلَىٰ الفِعلِ، فقالَ: «وأشَدَّ تثبيتًا»، فدلَّ أنَّ العمَلَ بِالعِلمِ مِن أعظَمِ أسبابِ الثَّباتِ؛ ولِذا أثنَىٰ النَّبيُّ -ﷺ- عَلَىٰ مَن صدَقَت نيَّتُهُ

فِي الامتِثالِ حتَّىٰ صارَ إيمانُهُ أثبَتَ مِنَ الجِبالِ الرَّواسي.[(١)]

وقالَ تعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [سورة الصف:٢-٣].

٤٧- **وَرَوَىٰ مُسلِمٌ فِي «صحيحِهِ»** -فِي كِتابِ الزُّهدِ، بابِ عُقوبَةِ مَن يأمُرُ بالمعروفِ ولَا يأتيهِ (٤/ ٢٢٩٠ / ٥١)- عَن أُسامَةَ بنِ زيدٍ قالَ: سمِعتُ رسولَ اللهِ -ﷺ- يقولُ: «يُؤتىٰ بِالرَّجُلِ يومَ القِيامَةِ فيُلقىٰ فِي النَّارِ، فتَندَلِقُ أقتابُ بطنِهِ، فيَدورُ بِها كَما يدورُ الحِمارُ بِالرَّحىٰ، فيَجتَمِعُ إليهِ أهلُ النَّارِ فيقولونَ: يَا فُلانُ، مَا لكَ؟ أَلَم تكُن تأمُرُ بِالمعروفِ وتَنهَىٰ عنِ المُنكرِ؟ فيقولُ: بَلَىٰ، قَد كنتُ آمُرُ بِالمعروفِ ولَا آتيهِ، وأَنهَىٰ عنِ المُنكرِ وآتيهِ».

قلتُ: ووجهُ مُطابَقَةِ هَذَا الحديثِ لِلمثَلِ المُتَقَدِّمِ أنَّ اللهَ جعَلَ عاقِبَةَ مَن علِمَ ولَم يعمَل أَن يدورَ بِأقتابِ بطنِهِ فِي النَّارِ كَما يدورُ الحِمارُ بِالرَّحىٰ؛ فناسَبَ عذابُهُ مثلَهُ فِي الدُّنيا، إذ شُبِّهَ بِالحِمارِ يحمِلُ الأسفارَ، فعوقِبَ بِأن صارَ كالحِمارِ يدورُ بِالرَّحىٰ، جزاءً وِفاقًا.

٤٨- **وَرَوَىٰ عَن أَبِي بَرزَةَ الأسلَمِيِّ قالَ:** قالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «لَا تزولُ قدَما عبدٍ يومَ القِيامَةِ حتَّىٰ يُسألَ عَن أربَعٍ: عَن عُمُرِهِ فيمَ أفناهُ، وعَن عِلمِهِ مَاذَا عمِلَ فيهِ، وعَن مالِهِ مِن أينَ اكتَسَبَهُ وفيمَ أنفَقَهُ، وعَن جِسمِهِ فيمَ أبلاهُ»،[(٢)]

---

(١) وانظُر بابَ الخطيبِ في «اقتِضاءِ العِلمِ العمَلَ» (ص٤٦): «بابٌ في التَّغليظِ علىٰ مَن ترَكَ العمَلَ بِالعِلمِ».

(٢) أخرَجَهُ التِّرمِذيُّ في «القِيامَةِ» (٤/ ٦١١ رقم ٢٤١٧) وقالَ: حسَنٌ صحيحٌ، والدَّارِميُّ (رقم ٥٤٣)، والخطيبُ في «اقتِضاءِ العِلمِ العمَلَ» (ص١٦ رقم ١).

قلتُ: ووجهُ الدلالَةِ أنَّ اللهَ أفرَدَ العِلمَ بِسؤالٍ مُستَقِلٍّ مِن بينِ الأربَعِ، فَلَم يسألْهُ عَن عِلمِهِ كَم حصَّلَ، بَل: «مَاذَا عمِلَ فيهِ»؛ فدلَّ أنَّ مناطَ النَّجاةِ ليسَ تحصيلَ العِلمِ، بَل العمَلَ بهِ؛ ولِذا بوَّبَ الآجُرِّيُّ فِي «أخلاقِ العُلَماءِ» (ص٧٧): «ذِكرُ سُؤالِ اللهِ لِأهلِ العِلمِ عَن عِلمِهِم مَاذَا عمِلوا فيهِ».

٤٩- **وَرَوَىٰ نُعَيمُ بنُ حمَّادٍ فِي «الفِتَنِ» (٢/٥٩٨)** عَن حُذَيفَةَ بنِ اليَمانِ قالَ: «يَدرُسُ الإسلامُ كَمَا يَدرُسُ وَشيُ الثَّوبِ، حتَّىٰ لَا يُدرىٰ مَا صيامٌ، وَلَا صدَقَةٌ، وَلَا نُسُكٌ، ويُسرىٰ عَلَىٰ كِتابِ اللهِ فِي ليلَةٍ، فَلَا يُترَكُ فِي الأرضِ منهُ آيَةٌ، وَتبقَىٰ طوائفُ مِنَ النَّاسِ، فيهِمُ الشَّيخُ الكبيرُ والعجوزُ الكبيرَةُ، يقولونَ: أدركنا آباءَنا عَلَىٰ هذهِ الكلِمَةِ: لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، فنحنُ نقولُها».

قلتُ: وَفِي هَذَا الأثرِ إشارَةٌ بيِّنَةٌ إِلَىٰ أنَّ اندراسَ العِلمِ لَا يكونُ إلَّا بِسبَبِ ضَعفِ العمَلِ وضَعفِ البَلاغِ؛ فإنَّ القومَ بَقِيَ معهُمُ اللَّفظُ -«لَا إلَهَ إلَّا اللهُ»- بعدَ أن ذهَبَ عنهُمُ العِلمُ بِمعناها والعمَلُ بِمُقتَضاها، فَلَم ينفَعهُمُ المُجَرَّدُ مِنهَا؛ وَهَذَا أبلَغُ شاهِدٍ عَلَىٰ أنَّ حِفظَ اللَّفظِ دونَ عِلمٍ وعمَلٍ لَا يَعصِمُ.

ولِهذا قالَ -ﷺ- كما فِي الصَّحيحِ مِن حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو-: «إنَّ اللهَ لَا يقبِضُ العِلمَ انتِزاعًا ينتَزِعُهُ مِن صُدورِ العِبادِ، وَلَكِن يقبِضُ العِلمَ بِقبضِ العُلَماءِ»؛ فالعُلَماءُ هُمُ المُبَلِّغونَ، فَإِذَا قصَّروا فِي البَلاغِ، أَو قلَّ وُجودُهُم، ضعُفَ العِلمُ فِي النَّاسِ؛ لِأنَّ العِلمَ إنَّما ينتَشِرُ بِالبَلاغِ، وينتَشِرُ كذلكَ بِالعمَلِ.

ومَن تأمَّلَ هديَ النَّبيِّ -ﷺ- وجدَ أنَّ شطرًا مِن سُنَّتِهِ نُقِلَ بِالبَلاغِ والقولِ، وشطرًا آخرَ نُقِلَ بِالعمَلِ والفِعلِ؛ فأعظَمُ الأعمالِ -كالصَّلاةِ- إنَّما نُقِلَ عنهُ -ﷺ- غالبًا

بِفعلِهِ، إذ يقولُ الرَّاوي: «كانَ النَّبيُّ -ﷺ- يفعَلُ كَذَا وكَذَا»؛ ولِذا قالَ -ﷺ-: «صلُّوا كَمَا رأيتُموني أُصَلِّي»، ثمَّ فعَلَ الصَّلَواتِ، فنُقِلَت إِلَينَا بِأركانِها وواجِباتِها وشُروطِها وسُنَنِها ومُبطِلاتِها؛ وكذلكَ أفعالُهُ فِي الصَّلاةِ حضَرًا وسفَرًا، وَفِي الوُضوءِ، فإنَّ جُلَّها إنَّما نُقِلَ مِن طريقِ الفِعلِ.

قلتُ: ووجهُ هَذَا أنَّ العمَلَ ليسَ ثمَرَةَ العِلمِ فحسبُ، بَل هُوَ طريقٌ مِن طُرُقِ نقلِهِ وحِفظِهِ؛ فلمَّا كانَ شطرٌ عظيمٌ مِنَ الدِّينِ لَا يُنقَلُ إلَّا بِالعمَلِ، صارَ تركُ العمَلِ سببًا لِانطِماسِ ذلكَ الشَّطرِ؛ ولِذا كانَ القُدوَةُ لَا بُدَّ أَن يكونَ عامِلًا بِعِلمِهِ لِيَنشُرَهُ، فإنَّ العِلمَ بِلا عمَلٍ لَا ينتَشِرُ، والعمَلَ بِلا عِلمٍ لَا ينضَبِطُ.

وَقَد تواتَرَ عنِ السَّلَفِ الحثُّ عَلَىٰ هَذَا الأصلِ، وأنَّهُم مَا طلَبوا العِلمَ إلَّا لِيعمَلوا بِهِ:

٥٠- **قالَ الزُّهريُّ:** «إنَّ لِلعِلمِ غوائلَ؛ فمِن غوائلِهِ أَن يُترَكَ العمَلُ بِهِ حتَّىٰ يذهَبَ، ومِن غوائلِهِ النِّسيانُ، ومِن غوائلِهِ الكذِبُ فيهِ، وَهُوَ شرُّ غوائلِهِ». (١)

٥١- **وقالَ الشَّعبيُّ:** «كنَّا نستَعينُ عَلَىٰ حِفظِ الحديثِ بِالعمَلِ بهِ، وكنَّا نستَعينُ عَلَىٰ طلَبِهِ بِالصَّومِ». (٢)

٥٢- **وقالَ أَبُو قِلابَةَ مُوَجِّهًا أَيُّوبَ السَّختِيانِيَّ:** «إِذَا أحدَثَ اللهُ لكَ عِلمًا فأحدِث لهُ عِبادَةً، وَلَا يكُن همُّكَ أَن تُحدِّثَ بِهِ النَّاسَ». (٣)

---

(١) أخرَجَهُ ابنُ عبدِ البَرِّ في «جامعِ بيانِ العِلمِ» (١/ ١٠٧-١٠٨).

(٢) أخرَجَهُ ابنُ عبدِ البَرِّ والخطيبُ في «الجامعِ» (٢/ ٢٥٨-٢٥٩).

(٣) أخرَجَهُ ابنُ عبدِ البَرِّ، والخطيبُ في «اقتِضاءِ العِلمِ العمَلَ» (ص ٣٤-٣٥ رقم ٣٨).

٥٣- **وقالَ الحسَنُ البَصريُّ:** «كانَ الرَّجُلُ يطلُبُ العِلمَ، فَلَا يلبَثُ أَن يُرىٰ ذلكَ فِي تخَشُّعِهِ وهديِهِ ولِسانِهِ ويدِهِ»(١).

٥٤- **وسُئِلَ الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ:** طلَبُ العِلمِ أحبُّ إليكَ أمِ العمَلُ؟ فقالَ: «إنَّما يُرادُ العِلمُ لِلعمَلِ، فَلَا تدَعْ طلَبَ العِلمِ بِحُجَّةِ العمَلِ، وَلَا تدَعِ العمَلَ بِحُجَّةِ طلَبِ العِلمِ»(٢).

٥٥- **وقالَ المرُّوذيُّ:** قالَ لي أحمدُ: «مَا كتَبتُ حديثًا عنِ النَّبيِّ -ﷺ- إلَّا وَقَد عمِلتُ بهِ، حتَّىٰ مرَّ بي الحديثُ: أنَّ النَّبيَّ -ﷺ- احتجَمَ وأعطىٰ أَبَا طيبَةَ الحجَّامَ دينارًا، فاحتجَمتُ وأعطَيتُ الحجَّامَ دينارًا»(٣).

٥٦- **وقالَ عمرُو بنُ قيسٍ المُلائيُّ:** «إِذَا بلَغَكَ شيءٌ مِنَ الخيرِ فاعمَل بهِ ولو مرَّةً تكُن مِن أهلِهِ»(٤).

قلتُ: ووجهُ هذهِ الآثارِ أنَّ القومَ لَم يكونوا يرونَ العِلمَ غايَةً تُطلَبُ لِذاتِها، بَل وسيلَةً إِلَىٰ العمَلِ؛ فجعَلوا العمَلَ مِيزانًا يَزِنونَ بهِ عِلمَهُم، وحارِسًا يحفَظونَ بهِ مَا حصَّلوا، كَمَا قيلَ: «العِلمُ يهتِفُ بِالعمَلِ، فَإِنْ أجابَهُ وإلَّا ارتحَلَ»؛ فمَن لَم يعمَل بِعلمِهِ خِيفَ عليهِ أَن يُسلَبَهُ.

---

(١) أخرَجَهُ ابنُ المُبارَكِ فِي «الزُّهدِ» (ص٢٦ رقم ٧٩)، والدَّارِميُّ (١/ ٨٩ رقم ٣٩١)، وزادا: «وصلاتِهِ وزُهدِهِ».

(٢) عزاهُ الخطيبُ في «اقتِضاءِ العِلمِ العمَلَ» (ص٣٧ رقم ٤٤) إليهِ.

(٣) أخرَجَهُ الخطيبُ في «الجامعِ» (١/ ١٤٤ رقم ١٨٤)، والذَّهبيُّ في «السِّيَرِ» (١١/ ٢١٣).

(٤) أخرَجَهُ أبو نُعَيمٍ في «الحِليَةِ» (٥/ ١٠٢).

وكانَ بعضُهُم يقولُ: «الدَّاعي بِلا عمَلٍ كالرَّامي بِلا وتَرٍ».[(١)]

٥٧- **ومِن جليلِ مَا روي فِي ذلكَ مَا أخرَجَهُ الدَّارِميُّ فِي «مُسنَدِهِ» (١/ ٣١٦) - فِي «بابِ العمَلِ بِالعِلمِ وحُسنِ النِّيَّةِ فيهِ»-: عَن أَبِي الدَّرداءِ قالَ:** «مَن يزدَد عِلمًا يزدَد وجَعًا»، وهذهِ كلِمَةٌ جامِعَةٌ، فِيهَا دلالَةٌ بليغَةٌ تضيقُ عَنهَا عِباراتُ المُعَبِّرينَ؛ فَمَا أحكَمَ عِلمَ السَّلَفِ وأجمَعَهُ!

قلتُ: ووجهُ كونِ العِلمِ يورِثُ صاحِبَهُ وجَعًا مِن وُجوهٍ: أنَّهُ يزدادُ وجَعًا لِاستِكثارِهِ مِن حُجَجِ اللهِ عليهِ، مَعَ قِلَّةِ احتِفالِهِ بِها والعمَلِ بِها؛ ويزدادُ وجَعًا إِذَا رأىٰ أنَّ عِلمَهُ قد زادَ ولَم تزِد خشيَتُهُ؛ ويزدادُ وجَعًا إِذَا أشغَلَتهُ رُسومُ العِلمِ عَن مقاصِدِهِ وغاياتِهِ؛ ويزدادُ وجَعًا إِذَا اطَّلَعَ عَلَىٰ كثيرٍ مِنَ العواقِبِ المُخَوِّفَةِ والحقائقِ المُؤلِمَةِ، عَلَىٰ مِثلِ قولِهِ - ﷺ -: «لَو تعلَمونَ مَا أعلَمُ لضَحِكتُم قليلًا ولبَكَيتُم كثيرًا»؛ ويزدادُ وجَعًا إِذَا كانَ منهومًا بِالعِلمِ لَا يشبَعُ منهُ، يرىٰ العِلمَ لَا حدَّ لهُ، كلَّما ازدادَ منهُ بَقِيَ مُقَصِّرًا؛ ويزدادُ وجَعًا إِذَا أبصَرَ جَلالَةَ العِلمِ وعظيمَ أثَرِهِ، ثمَّ صادَفَ إعراضَ النَّاسِ عنهُ وصُدوفَهُم عَن سبيلِهِ.

فَهَذَا وجَعُ العُلَماءِ العامِلينَ، وَهُوَ عينُ شرَفِهِم؛ إِذِ الغافِلُ لَا يجِدُ مِن ذلكَ شيئًا.

٥٨- **وَقَد قالَ سفيانُ الثَّوريُّ:** رحِمَ اللهُ أَبَا حازِمٍ، قالَ: «رَضِيَ النَّاسُ اليومَ بِالعِلمِ وترَكوا العمَلَ».[(٢)]

٥٩- **وَرَوَىٰ الآجُرِّيُّ فِي «أخلاقِ العُلَماءِ»، والخطيبُ فِي «اقتِضاءِ العِلمِ العمَلَ»،**

---

(١) ذكَرَهُ ابنُ عبدِ البَرِّ في «التَّمهيدِ» (١٠/ ٢٩٨).

(٢) أخرَجَهُ عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ في «العِلَلِ ومعرِفَةِ الرِّجالِ» (رقم ٢٦٥٩ و٥٢٤٦).

عَن عطاءٍ قالَ: «كانَ فتًى يختَلِفُ إِلَىٰ أمِّ المؤمنينَ فيسألُها وتُحَدِّثُهُ، فجاءَ ذاتَ يومٍ يسألُها، فقالَت: يَا بُنَيَّ، هَل عمِلتَ بِما سمِعتَ؟ فقالَ: لَا واللهِ يَا أُمَّاه.

فقالَت: يَا بُنَيَّ، ففيمَ تستكثِرُ مِن حُجَجِ اللهِ عَلَينَا وعليكَ؟».

قلتُ: ووجهُ مُطابَقَةِ هَذَا الأثرِ لِكلِمَةِ أَبِي الدَّرداءِ أنَّ أمَّ المؤمنينَ نبَّهَتِ الفتىٰ عَلَىٰ أنَّ العِلمَ حُجَّةٌ؛ فمَن استكثَرَ منهُ وَلَم يعمَل بِهِ فإنَّما يستكثِرُ مِنَ الحُجَجِ عَلَىٰ نفسِهِ، فيَزدادُ وجعًا يومَ القِيامَةِ كلَّما زادَ عِلمًا لَم يعمَل بِهِ؛ فبانَ أنَّ سلامَةَ صاحِبِ العِلمِ فِي العمَلِ بِهِ لَا فِي تكثيرِهِ.

فالعِلمُ بِلا عمَلٍ حُجَّةٌ عَلَىٰ صاحِبِهِ، والعمَلُ بِلا عِلمٍ ضلالٌ وانحِرافٌ، وَلَا نجاةَ وَلَا فلاحَ إلَّا بِاجتِماعِهِما.

فَإِذَا تقرَّرَ هَذَا، فخُلاصَةُ العمَلِ الَّذي يحتاجُهُ المُسلِمُ فِي الأصولِ الثَّلاثَةِ الَّتي أشارَ إِلَيها المُصَنِّفُ:

أمَّا الرَّبُّ: فيَعبُدُهُ وحدَهُ، وَلَا يُشرِكُ بِهِ شيئًا، ويُثبِتُ صِفاتِهِ العُليا وأسماءَهُ الحُسنىٰ عَلَىٰ معناها اللَّائقِ بِجَلالِهِ؛ لِأنَّ الإيمانَ بِها عَلَىٰ وجهِهِ الصَّحيحِ يُثمِرُ العمَلَ النَّافِعَ.

وأمَّا الرَّسولُ -ﷺ-: فيُطيعُهُ فِيمَا أمَرَ، ويُصَدِّقُهُ فِيمَا أخبَرَ، ويجتَنِبُ مَا نهىٰ عنهُ وزجَرَ، وَلَا يعبُدُ اللهَ إلَّا بِما شرَعَ.

وأمَّا الدِّينُ: فَلَا يبتَغي بِهِ بدَلًا، ويرضىٰ بِهِ، ويوقِنُ أنَّهُ الدِّينُ الحقُّ الَّذي لَا يقبَلُ اللهُ مِن أحَدٍ سِواهُ، ويأتي بِما لَا يسَعُهُ تركُهُ منهُ، قالَ تعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [سورة آل عمران:١٩]، وقالَ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران:٨٥].

وللعمَلِ بالعِلمِ ثمَراتٌ عظيمَةٌ وفوائدُ جليلَةٌ تعودُ عَلَىٰ صاحِبِهِ فِي دينِهِ ودُنياهُ، وترفَعُهُ درَجاتٍ فِي الدَّارَينِ، ومِن أبرَزِها:

الأولىٰ: أنَّهُ يَعصِمُ صاحِبَهُ مِن فِتنَةِ العِلمِ؛ فالعِلمُ حُجَّةٌ، لكنَّ لهُ آفَةً: فالعالِمُ الَّذي يعمَلُ بِعِلمِهِ تكونُ الحُجَّةُ لهُ عندَ اللهِ، وأمَّا مَن عُرِضَت عليهِ أحكامُهُ فلَم يعمَل بِها صارَ العِلمُ حُجَّةً عليهِ؛ ولِذا قالَ -ﷺ-: «والقُرآنُ حُجَّةٌ لكَ أو عليكَ»، فالعِلمُ إمَّا أن يرفَعَ صاحِبَهُ بالعمَلِ، وإمَّا أن يكونَ سببًا لِهلاكِهِ إذَا ترَكَهُ.

الثَّانيةُ: أنَّهُ هُوَ الَّذي يجعَلُ صاحِبَهُ عالِمًا حقًّا؛ فليسَ العِلمُ كثرَةَ المحفوظاتِ وَلَا غزارَةَ المعلوماتِ، وإنَّما العِلمُ مَا أورثَ عمَلًا، قالَ الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: «لَا يزالُ العالِمُ جاهِلًا حتَّىٰ يعمَلَ بعِلمِهِ، فَإذَا عمِلَ بهِ صارَ عالِمًا»، وقيلَ لِلحسَنِ البَصريِّ: هَذَا أحَدُ الفُقَهاءِ، فقالَ: «وَهَل رأيتَ فقيهًا قطُّ؟ إنَّما الفقيهُ مَن حمَلَهُ عِلمُهُ عَلَىٰ الخوفِ مِنَ اللهِ»؛ فالفِقهُ الحقيقيُّ مَا يُثمِرُ خشيَةً واستِقامَةً وعمَلًا.

الثَّالثةُ: أنَّهُ يورِثُ برَكَةَ العِلمِ؛ فَلَا يُبارَكُ لِلعبدِ فِي عِلمِهِ إلَّا إذَا عمِلَ بهِ، فيُبارَكُ لهُ فِي نفسِهِ وأعمالِهِ ووقتِهِ، ويصيرُ عِلمُهُ نافِعًا مُؤَثِّرًا، ويجعَلُهُ اللهُ قُدوَةً؛ لِأنَّهُ سبَقَ بالتَّطبيقِ قبلَ القولِ.

الرَّابعةُ: أنَّهُ مِن أعظَمِ أسبابِ الثَّباتِ عَلَىٰ الدِّينِ؛ والثَّباتُ مطلَبٌ عظيمٌ، ولِذا كانَ النَّبيُّ -ﷺ- يُكثِرُ مِنَ الدُّعاءِ بِهِ: «يَا مُقَلِّبَ القُلوبِ، ثبِّت قلبي عَلَىٰ دينِكَ»؛ فكلَّما كانَ العبدُ أحرَصَ عَلَىٰ تطبيقِ مَا يعلَمُ كانَ أقرَبَ إِلَىٰ الثَّباتِ والسَّلامَةِ.

الخامِسَةُ: أنَّهُ يفتَحُ لِلعبدِ أبوابًا جديدَةً مِنَ العِلمِ؛ فمَن عمِلَ بِما علِمَ وفَّقَهُ اللهُ لِما لَم يعلَم، وزادَهُ فهمًا ونورًا وبصيرَةً، وَهَذَا معنىٰ قولِ السَّلَفِ: «مَن عمِلَ بِما علِمَ أورَثَهُ

اللهُ عِلمَ مَا لَم يعلَم».

السَّادِسَةُ: أنَّهُ يُثبِّتُ العِلمَ فِي القلبِ؛ فمِن أعظَمِ أسبابِ رُسوخِهِ أَن يُترجَمَ إِلَىٰ عمَلٍ وسُلوكٍ؛ وأمَّا مَن يُكَدِّسُ المعلوماتِ دونَ تطبيقٍ فَقَد حُرِمَ أعظَمَ ثمَراتِ العِلمِ، وَهِيَ الهِدايَةُ والعمَلُ والاستِقامَةُ.

قلتُ: وأصلُ هذهِ الفوائدِ كلِّها يرجِعُ إِلَىٰ أنَّ العمَلَ روحُ العِلمِ، فَإِذَا فارَقَهُ العمَلُ صارَ جسَدًا بِلا روحٍ؛ فبِالعمَلِ يثبُتُ، وبهِ يُبارَكُ، وبهِ يزكو، وبهِ يُفتَحُ لِصاحِبِهِ، وبهِ يُؤمَنُ شرُّهُ، وَهَذَا تصديقُ مَا قرَّرَهُ المُصَنِّفُ مِن إيجابِ العمَلِ بعدَ العِلمِ، إِذ جعَلَهُما مسألَتَينِ مُتَلازِمَتَينِ، فَلَا تنفَكُّ إحداهُما عنِ الأُخرَىٰ.

٦٠- **وَقَد أحسَنَ ابنُ قاسِمٍ فِي «حاشِيَةِ كِتابِ التَّوحيدِ» (ص٢٥) فِي شرحِ قولِهِ -ﷺ-: «مَن شهِدَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ...» الحديثَ، فقالَ:** «أَي: مَن تكَلَّمَ بِها عارِفًا لِمعناها، عامِلًا بِمُقتَضاها باطِنًا وظاهِرًا؛ فإنَّ الشَّهادَةَ تقتَضي العِلمَ بِالمشهودِ بِهِ، فلو كانَ عَن جهلٍ لَم تكُن شهادَةً، وتقتَضي الصِّدقَ، وتقتَضي العمَلَ بِذلكَ؛ وبِهذا يتبَيَّنُ أنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ العِلمِ بِها والعمَلِ والصِّدقِ: فبِالعِلمِ ينجو مِن طريقَةِ النَّصارىٰ، وبِالعمَلِ ينجو مِن طريقَةِ اليهودِ، وبِالصِّدقِ ينجو مِن طريقَةِ المُنافِقينَ».

قلتُ: وَهَذَا تقريرٌ بديعٌ يجمَعُ شتاتَ البابِ؛ فإنَّ الفِرَقَ الثَّلاثَ الهالِكَةَ إنَّما هلَكَت بِفقدِ واحِدٍ مِن هذهِ الثَّلاثَةِ: فالنَّصارىٰ عبَدوا عَلَىٰ جهلٍ فضلُّوا، واليهودُ علِموا وَلَم يعمَلوا فغضِبَ عليهِم، والمُنافِقونَ قالوا بِأفواهِهِم مَا ليسَ فِي قُلوبِهِم فكذَبوا؛ فَلَا نجاةَ إِلَّا بِاجتِماعِ العِلمِ والعمَلِ والصِّدقِ، وَهِيَ عينُ مَا قرَّرَتهُ سورَةُ العصرِ فِي الإيمانِ والعمَلِ الصَّالِحِ والتَّواصي.

مسألةٌ: تنوُّعُ حُكمِ تركِ العمَلِ بِحسَبِ موضوعِ العِلمِ:

العمَلُ بِالعِلمِ يتنَوَّعُ حُكمُهُ بِحسَبِ موضوعِهِ، عَلَىٰ أربَعِ مراتِبَ:

الأولىٰ: مَا يكونُ تركُهُ كُفرًا؛ كالعِلمِ بِالتَّوحيدِ، فمَن علِمَ أنَّ اللهَ هُوَ المُستَحِقُّ لِلعِبادَةِ وحدَهُ، ثمَّ لَم يعمَل بِهِ فأشرَكَ، لَم ينفَعهُ عِلمُهُ، وكانَ تركُ العمَلِ فِي حقِّهِ كُفرًا، كتَركِ الصَّلاةِ.

الثَّانيَةُ: مَا يكونُ تركُهُ معصيَةً؛ كأن يعلَمَ حُرمَةَ الخمرِ ثمَّ يقَعَ فِيهَا مَعَ عِلمِهِ، فتكونَ مُخالَفَتُهُ معصيَةً.

الثَّالثَةُ: مَا يكونُ تركُهُ مكروهًا؛ وذلكَ فِي السُّنَنِ غيرِ الواجِبَةِ، فمَن علِمَ سُنَّةً ثمَّ تَرَكَها كانَ تركُهُ مكروهًا، والعمَلُ بها مُستَحَبًّا.

الرَّابِعَةُ: مَا يكونُ فِعلُهُ وتركُهُ مُباحًا؛ وذلكَ فِي الأمورِ الجِبِلِّيَّةِ والعاداتِ.

فالعمَلُ هُوَ ثمَرَةُ العِلمِ ومقصودُهُ، فَلَا قيمَةَ لِعِلمٍ بِلا عمَلٍ؛ فيجِبُ عَلَىٰ العبدِ أَن يعمَلَ بِما علِمَ، مُخلِصًا العِبادَةَ لِلَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- فِي جميعِ أنواعِها، فهذهِ مرتَبَةُ العمَلِ بِما تعَلَّمَهُ مِن هذهِ الأصولِ، واللهُ المُستَعانُ.

قال المؤلف -رحمه الله-:

الثَّالِثَةُ: الدَّعوَةُ إليهِ.

هذهِ هِيَ المسألَةُ الثَّالثَةُ مِنَ المسائلِ الأربعِ الَّتي أشارَ إِلَيهَا المُصَنِّفُ؛ ووجهُ تأخيرِها عنِ العِلمِ والعمَلِ أنَّ الدَّاعيَ لَا يدعو إلَّا إِلَىٰ مَا علِمَهُ وعمِلَ بهِ، فبَنَى الدَّعوَةَ عَلَىٰ أصلَيها اللَّذَينِ تقدَّما.(١)

---

(١) **قالَ المُصَنِّفُ -كَمَا فِي «الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ» (١/ ٦٣)-:** «أعظَمُ المراتِبِ وأجلُّها عندَ اللهِ الدَّعوَةُ إليهِ، قالَ اللهُ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة فصلت:٣٣] الآيَةَ، وَفِي الحديثِ: واللهِ لَأن يهديَ اللهُ بِكَ رجُلًا واحِدًا خيرٌ لكَ مِن حُمرِ النَّعَمِ».

وجاء فِي «مجموعِ الفتاوىٰ» (١٥/ ١٥٧-١٥٨)-: «الدَّعوَةُ إِلَىٰ الإيمانِ بهِ وبما جاءَت بهِ رُسُلُهُ، وتصديقِهِم فِيمَا أخبَروا بهِ، وطاعَتِهِم فِيمَا أمَروا بهِ؛ وذلكَ يتضَمَّنُ الدَّعوَةَ إِلَىٰ الشَّهادَتَينِ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وصومِ رمَضانَ، وحجِّ البيتِ، والدَّعوَةَ إِلَىٰ الإيمانِ باللهِ وملائكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ، والبَعثِ بعدَ الموتِ، والإيمانِ بالقدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ، والدَّعوَةَ إِلَىٰ أن يعبُدَ ربَّهُ كأنَّهُ يراهُ».

وَهِيَ تَتَضَمَّنُ أمرَينِ: الدَّعوَةَ إِلَىٰ طلَبِ العِلمِ، والدَّعوَةَ إِلَىٰ العمَلِ بهِ؛ فَإِنْ كانَ المدعوُّ جاهِلًا دُعِيَ إِلَىٰ طلَبِ العِلمِ ورفعِ الجهلِ، وَإِن كانَ عالِمًا غيرَ عامِلٍ دُعِيَ إِلَىٰ العمَلِ بِعلمِهِ.

وقالَ سُلَيمانُ بنُ عبدِ اللهِ آلِ الشَّيخِ فِي «تيسيرِ العزيزِ الحميدِ» (١/ ٢٥٧): «وَإِذَا أرادَ الدَّعوَةَ إِلَىٰ ذلكَ فليَبدَأ بِالدَّعوَةِ إِلَىٰ التَّوحيدِ الَّذي هُوَ مَعنَىٰ شهادَةِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ إِذ لَا تَصِحُّ الأعمالُ إِلَّا بهِ، فَهُوَ أصلُها الَّذي تُبنَىٰ عليهِ، وَمَتَىٰ لَم يوجد لَم ينفعِ العمَلُ، بَل هُوَ حابِطٌ، إِذ لَا تصِحُّ العِبادَةُ مَعَ الشِّركِ، كَمَا قالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ

مسألة: أنّ الدّعوة واجبة على كلّ مسلمٍ بحسب قدرته:

الدَّعوةُ إِلَىٰ اللهِ واجبَةٌ عَلَىٰ كلِّ مُسلِمٍ بِحسَبِ قُدرَتِهِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران:١١٠]؛ فالإسلامُ دينُ رحمَةٍ وخيرٍ، يدعو المُسلِمَ كي ينجوَ بِنفسِهِ، وَأَن يكونَ سببًا فِي نجاةِ غيرِهِ.

فَإِذَا عرَفَ العبدُ هذهِ الأصولَ، وأنَّ النَّجاةَ مرهونَةٌ بِها، وأنَّ الهلاكَ كلَّ الهلاكِ بِتَركِها أَو جهلِها أوِ الإعراضِ عَنهَا؛ فعليهِ أَن يسعىٰ لِإنقاذِ النَّاسِ مِنَ الكُفرِ والضَّلالِ والبِدَعِ، فيَدعوَهُم إِلَىٰ معرِفَتِها؛ لِأنَّها معقِدُ الفَلاحِ.

والدَّعوَةُ إِلَىٰ اللهِ وظيفَةُ المُرسَلينَ الكُبرىٰ، فَمَا مِن نبيٍّ إلَّا دعا إليهِ؛ وَهَكَذا يجِبُ عَلَىٰ أتباعِهِم أَن يقوموا بِها، قالَ تَعالَىٰ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل:١٢٥]، وقالَ: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة يوسف:١٠٨].

خَالِدُونَ﴾ [سورة التوبة:١٧]؛ ولِأنَّ معرِفَةَ مَعنَىٰ هذهِ الشَّهادَةِ هُوَ أوَّلُ واجِبٍ عَلَىٰ العِبادِ، فكانَ أوَّلَ مَا يُبدَأُ بِهِ فِي الدَّعوَةِ».

وقالَ المُصَنِّفُ -كمَا فِي «الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ» (١/ ٧٦)-: «لَا ينبَغي لِرجُلٍ يُؤمِنُ بِاللهِ واليومِ الآخِرِ أَن يُعرِضَ عنهُ -أَي: التَّوحيدِ- لِأَجلِ أهلِ زمانِهِ، أَو أهلِ بلَدِهِ، وأنَّ أكثَرَ النَّاسِ فِي زمانِهِ أعرَضوا عنهُ».

قلتُ: ووجهُ تصديرِ الدَّعوَةِ بِالتَّوحيدِ أنَّ العمَلَ كلَّهُ فرعٌ عنهُ، فَإِنَّ صحَّ التَّوحيدُ قُبِلَ العمَلُ، وَإِن فسَدَ بِالشِّركِ حبِطَ وَإِن كثُرَ؛ فَلَا يُعقَلُ أَن يُدعىٰ النَّاسُ إِلَىٰ فروعِ الشَّرائعِ قبلَ تصحيحِ أصلِها الَّذي تُبنىٰ عليهِ.

وَهَذا عينُ مَا أوصىٰ بِهِ النَّبيُّ -ﷺ- مُعاذًا حينَ بعثَهُ إِلَىٰ اليمنِ، فأمَرَهُ أن يبدَأَ بِالشَّهادتَينِ قبلَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ؛ فدلَّ عَلَىٰ أنَّ هَذَا هُوَ منهاجُ الأنبياءِ فِي الدَّعوَةِ، لَا يحيدونَ عنهُ.

قلتُ: وَفِي آيَةِ يوسُفَ إشارَةٌ بديعَةٌ إِلَىٰ الأصولِ الثَّلاثَةِ الَّتي عقدَ لَهَا المُصَنِّفُ رسالَتَهُ: فقولُهُ ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [سورة يوسف:١٠٨] إشارَةٌ إِلَىٰ العِلمِ، إِذ كيفَ عرَفَ سبيلَهُ بِلا عِلمٍ؟ وقولُهُ ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [سورة يوسف:١٠٨] تصريحٌ بِالعِلمِ، فالبَصيرَةُ هِيَ العِلمُ ووُضوحُ المنهَجِ؛ وقولُهُ ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف:١٠٨] دلَّ عَلَىٰ أنَّ الدَّعوَةَ إِلَىٰ اللهِ منهاجُ المُسلِمِ التَّابعِ لِنبيِّهِ -ﷺ-، فجمَعَتِ الآيَةُ العِلمَ والعمَلَ والدَّعوَةَ، وَهِيَ ميراثُ النُّبُوَّةِ.

مسألة: أنّ الدّعوةَ ميراثُ النُّبُوّة، وأنّها لكلّ أحدٍ بحسَبِه:

فالنَّبيُّ -ﷺ- أُرسِلَ آمِرًا ومُبَشِّرًا ونذيرًا وداعيًا إِلَىٰ اللهِ بإذنِهِ وسِراجًا مُنيرًا؛ فمَن أرادَ وِراثَةَ النُّبُوَّةِ فعليهِ أَن يسلُكَ منهاجَ النَّبيِّ -ﷺ-، وَهُوَ العِلمُ والعمَلُ والدَّعوَةُ.

والدَّعوَةُ ليسَت مقصورَةً عَلَىٰ العُلَماءِ فحسبُ، بَل تشمَلُ الطَّائعَ والعاصيَ، والعالِمَ والعامِّيَّ؛ كلٌّ يدعو بِما علِمَ، وَلَا يُكَلَّفُ إِلَّا وُسعَهُ.

فَإِذَا علَّمَكَ اللهُ، وفقَّهَكَ فِي الدِّينِ، وعمِلتَ بِعِلمِكَ، فَقَد كمُلَت نفسُكَ، وبَقِيَ عليكَ أَن تُكَمِّلَ غيرَكَ: تأمُرُ بِالمعروفِ، وَتَنهَىٰ عنِ المُنكَرِ، وتُبَشِّرُ بِالخيرِ، وتدعو إِلَىٰ التَّوحيدِ والسُّنَّةِ.

ووجهُ كونِ الدَّعوَةِ لازِمَةً لِكلِّ مَن حصَّلَ العِلمَ أنَّ العِلمَ النَّافِعَ إِذَا رسَخَ فِي القلبِ حمَلَ صاحِبَهُ عَلَىٰ الدَّعوَةِ طبعًا، كَمَا تفوحُ الزَّهرَةُ بِأريجِها فَلَا تُمسِكُهُ؛ فمَن كتَمَ مَا علِمَ مَعَ الحاجَةِ إليهِ فقَد خالَفَ مُقتَضىٰ العِلمِ، إِذ هُوَ أمانَةٌ فِي عُنُقِهِ، لَا مِلكٌ يختَزِنُهُ.

والدَّعوَةُ تشمَلُ دعوَةَ المُسلِمِ المُقَصِّرِ إِلَىٰ التَّوبَةِ والثَّباتِ، ودعوَةَ الكافِرِ إِلَىٰ الدُّخولِ فِي الإِسلامِ؛ فالعالِمُ يُبَيِّنُ الحقَّ بِنفسِهِ وَيَدعُو النَّاسَ إِلَىٰ اتِّباعِهِ، كَمَا قالَ مُؤمِنُ

آلِ فِرعونَ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾ [سورة غافر:٣٨-٣٩]؛ وغيرُ العالِمِ يأمُرُ النَّاسَ ويدعوهُم إِلَىٰ اتِّباعِ الرُّسُلِ والعُلَماءِ، كَمَا قالَ تَعالَىٰ عَن صاحِبِ يس: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾ [سورة يس:٢٠-٢١].

ووجهُ الجمعِ بينَ هذينِ المثَلَينِ القُرآنيَّينِ أنَّ اللهَ ضرَبَ بِمؤمِنِ آلِ فِرعَونَ مثلًا لِلعالِمِ الَّذي يُبَيِّنُ الحقَّ وَيَدعُو إليهِ بنفسِهِ، وبِصاحِبِ يس مثَلًا لِلمؤمِنِ الَّذي يُرشِدُ إِلَىٰ اتِّباعِ المُرسَلينَ؛ فدلَّ المثَلانِ عَلَىٰ أنَّ الدَّعوَةَ لَا تسقُطُ عنِ العامِّيِّ بِحُجَّةِ أنَّهُ ليسَ عالِمًا، بَل يَدعُو بِما يُحسِنُ، وَلَو بِالدَّلالَةِ عَلَىٰ أهلِ العِلمِ.

فالكلُّ يقومُ بِالدَّعوَةِ إِلَىٰ اللهِ لِيُعبَدَ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ؛ فقولُهُ: «الدَّعوَةُ إليهِ» أَي: لَا يكفي أَن يتعَلَّمَ العبدُ ويعمَلَ فِي نفسِهِ، بَل لَا بُدَّ أَن يدعوَ غيرَهُ، فيكونَ نافِعًا لِنفسِهِ ولِغيرِهِ؛ لِأنَّ هَذَا العِلمَ أمانَةٌ، ليسَ مِلكًا يختَزِنُهُ ويحرِمُ النَّاسَ منهُ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [سورة آل عمران:١٨٧].

فكيفَ إِذَا علِمتَ أنَّ الدَّاعيَ إِلَىٰ سبيلِ اللهِ هُوَ حبيبُ اللهِ ووَلِيُّهُ؟

٦١ - **فقَد رَوَىٰ ابنُ المُبارَكِ فِي «الزُّهدِ والرَّقائقِ» (ص٥٠٧) أنَّ الحسَنَ البَصريَّ كانَ إِذَا تلا:** ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [سورة فصلت:٣٣]، قالَ: «هَذَا حبيبُ اللهِ، هَذَا وَليُّ اللهِ، هَذَا صَفوَةُ اللهِ، هَذَا خِيرَةُ اللهِ، هَذَا أحَبُّ أهلِ الأرضِ إِلَىٰ اللهِ؛ أجابَ اللهَ فِي دعوَتِهِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَىٰ مَا أجابَ اللهَ فيهِ مِن دعوَتِهِ، وعمِلَ صالِحًا فِي إجابَتِهِ، وقالَ: إنَّني مِنَ المُسلِمينَ؛ هَذَا خليفَةُ

اللهِ».

وَهَذِهِ الآيَةَ الَّتِي ذَكَرَهَا الْحَسَنُ جمعَتِ الأصولَ الثَّلاثَةَ فِي الدَّاعيَةِ الكامِلِ: العِلمَ والدَّعوَةَ فِي قولِهِ ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة فصلت:٣٣]، والعمَلَ فِي قولِهِ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، والصِّدقَ والإخلاصَ فِي قولِهِ ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة فصلت:٣٣]؛ فلمَّا اجتَمَعَت فيهِ هذهِ الثَّلاثَةُ استَحَقَّ أَن يكونَ مِن أحسَنِ النَّاسِ قولًا، وأحَبِّهِم إِلَىٰ اللهِ.

٦٢- **ولِذا رَوَىٰ ابنُ المُبارَكِ أيضًا (ص٣٦٥) عنِ الأوزاعيِّ عَن حسَّانَ بنِ عطيَّةَ فِي الحديثِ القُدسيِّ:** «وَمَا تقَرَّبَ إليَّ عبدي بِشيءٍ أفضَلَ مِنَ النَّصيحَةِ»، والدَّعوَةُ هِيَ رأسُ النَّصيحَةِ.

ومِن هُنَا يَظهَرُ الفرقُ بينَ العالِمِ الرَّبَّانيِّ الدَّاعيَةِ، والعالِمِ المُنكَفِئِ عَلَىٰ نفسِهِ القانِعِ بعِلمِهِ؛ فالأوَّلُ هُوَ الوارِثُ حقًّا، والثَّاني قَد حبَسَ مَا اؤتُمِنَ عَلَىٰ تبليغِهِ.

ووجهُ ذلكَ أنَّ العِلمَ أمانَةٌ، وأنَّ كِتمانَهُ بعدَ ظُهورِ الحاجَةِ إِلَيهِ مِن أعظَمِ الجِنايَةِ، فالعِلمُ إِن لَم يُبَلَّغ صارَ حُجَّةً عَلَىٰ صاحِبِهِ لَا لَهُ، إِذ نِعمَةُ العِلمِ تَستَوجِبُ شُكرَها بَبَذلِها، ومَنعُها كُفرانٌ لَهَا.

مَسألَة: بَواعِثُ القِيامِ بالدّعوَةِ إلى الله:

البَواعِثُ الحامِلَةُ عَلَىٰ الدَّعوَةِ تنتَظِمُ فِي أصولٍ:

الأوَّلُ: تعظيمُ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

وَهُوَ أعظَمُ باعِثٍ لِلدَّاعيَةِ، ومعرِفَةُ حقِّهِ سُبحانَهُ؛ فإنَّ مَن قدَرَهُ حقَّ قدرِهِ علِمَ أنَّهُ يُطاعُ فَلَا يُعصىٰ، ويُذكَرُ فَلَا يُنسىٰ، ويُشكَرُ فَلَا يُكفَرُ، وتُفدىٰ محارِمُهُ بِالأنفُسِ والأموالِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [سورة نوح:١٣]

٦٣- **قَالَ ابنُ عبَّاسٍ -مِن طريقِ سعيدِ بنِ جُبَيرٍ-:** «مَا لكُم لَا تُعَظِّمونَ اللهَ حقَّ عظَمَتِهِ» (١).

الثَّاني: الرَّحمَةُ بِالخلقِ والشَّفَقَةُ عليهِم.

وَهِيَ مِن أعظَمِ الدَّوافِعِ الَّتي تحمِلُ الدَّاعيَةَ عَلَىٰ بذلِ الجُهدِ فِي هِدايَةِ الخلقِ.

٦٤- **قالَ -ﷺ- فِيمَا رواهُ أحمدُ (٦٤٩٤)، وأبو داوُدَ (٤٩٤١)، والتِّرمِذيُّ (١٩٢٤) مِن حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو-:** «الرَّاحِمونَ يرحَمُهُمُ الرَّحمَنُ، ارحَموا أهلَ الأرضِ يرحَمكُم مَن فِي السَّماءِ»، فأهلُ السُّنَّةِ أرحَمُ النَّاسِ بِالخلقِ؛ لِأنَّهُم أعلَمُهُم بِاللهِ، وأتبَعُهُم لِنبيِّهِ -ﷺ-، وأصدَقُهُم فِي إرادَةِ الخيرِ لِلنَّاسِ، وأشَدُّهُم شفَقَةً عَلَىٰ الخلقِ مِنَ النَّارِ.

قلتُ: ووجهُ كونِ أهلِ السُّنَّةِ أرحَمَ النَّاسِ أنَّ الرَّحمَةَ ثمَرَةُ العِلمِ بِاللهِ؛ فلمَّا كَانُوا أعلَمَ النَّاسِ بِهِ كَانُوا أرحَمَهُم بِخلقِهِ، فاجتَمَعَ لَهُمُ العِلمُ بِالحقِّ والرَّحمَةُ بِالخلقِ؛ بِخِلافِ مَن غلا فقسا، أَو جفا فأهمَلَ، فإنَّهُما طرَفانِ ذميمانِ، وأهلُ السُّنَّةِ وسَطٌ بينَهُما، ومِن أعظَمِ مَا يُحَرِّكُ الدَّاعيَةَ عَلَىٰ بذلِ وُسعِهِ فِي الدَّعوَةِ: أَن يستَشعِرَ فِي كلِّ عاصٍ أَو ضالٍّ أنَّهُ واحِدٌ مِن خاصَّتِهِ، فيَحرِصَ عَلَىٰ صلاحِهِ حِرصَهُ عَلَىٰ ولَدِهِ وأخيهِ ومَن يعنيهِ أمرُهُ؛ فإنَّ هَذَا الاستِشعارَ يبعَثُ فِي القلبِ مِنَ الشَّفَقَةِ مَا لَا يبعَثُهُ النَّظَرُ إِلَىٰ النَّاسِ نظرَ الغريبِ عنهُم.

ولِهذا تجِدُ كثيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يفطَنُ لِعِظَمِ شأنِ الدَّعوَةِ والتَّوعيَةِ حتَّىٰ تنزِلَ البليَّةُ

---

(١) أخرَجَهُ ابنُ أبي شيبَةَ (١٣/ ٤٧٣)، وابنُ جريرٍ (٢٣/ ٢٩٦).

بِعُقرِ دارِهِ، فيُفجَأَ بِمَن يعولُهُ قَد وقَعَ فِيمَا يُهلِكُهُ مِن كبائرِ الفواحِشِ والمعاصي؛ فعندَها يعلَمُ أنَّ التَّفريطَ فِي الدَّعوَةِ والإصلاحِ لَا يقِفُ ضرَرُهُ عندَ غيرِهِ، بَل يرتَدُّ إليهِ وَإِلَىٰ أهلِ بيتِهِ.

ووجهُ تأكيدِ هَذَا الباعِثِ أنَّ النَّبيَّ -ﷺ- علَّقَ كمالَ الإيمانِ عَلَىٰ أَن يُحِبَّ المرءُ لِأخيهِ مَا يُحِبُّ لِنفسِهِ.

٦٥ - **فقالَ -فِيمَا رواهُ البُخاريُّ (١٣) ومُسلِمٌ (٤٥) مِن حديثِ أنَسٍ-**: «لَا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حتَّىٰ يُحِبَّ لِأخيهِ مَا يُحِبُّ لِنفسِهِ»؛ فَإِذَا أحبَّ الدَّاعيةُ لِلنَّاسِ النَّجاةَ كَمَا يُحِبُّها لِنفسِهِ، حمَلَهُ ذلكَ عَلَىٰ أَن يبذُلَ فِي هِدايَتِهِم مَا يبذُلُهُ فِي صلاحِ خاصَّتِهِ؛ فكانَ صِدقُ الرَّحمَةِ بِالخلقِ ثمَرَةً مِن ثمَراتِ كمالِ الإيمانِ، لَا مُجَرَّدَ عاطِفَةٍ عارِضَةٍ.

فالواجِبُ عَلَىٰ العبدِ أَن يُعنىٰ بِكلِّ سبَبٍ يُبلِّغُ بِهِ الحقَّ، ويأخُذَ بِكلِّ أسلوبٍ نافِعٍ فِي الإصلاحِ، والتَّوفيقُ بِيَدِ اللهِ ربِّ العالمينَ.

الثَّالثُ: الخوفُ مِنَ التَّقصيرِ واستِشعارُ المسؤوليَّةِ.

فالدَّاعيةُ الحقُّ يستَحضِرُ أنَّهُ مسؤولٌ أمامَ اللهِ عنِ البَلاغِ والنُّصحِ، قالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ [سورة الصافات:٢٤]؛ وَهَذَا الاستِشعارُ يورِثُهُ صِدقًا وجِدًّا وإصرارًا عَلَىٰ إيصالِ الحقِّ.

الرَّابعُ: رجاءُ الأجرِ العظيمِ، فهِدايَةُ النَّاسِ مِن أعظَمِ أبوابِ الثَّوابِ، قالَ -ﷺ-: «مَن دعا إِلَىٰ هُدًىٰ كانَ لهُ مِنَ الأجرِ مِثلُ أُجورِ مَن تبِعَهُ، لَا ينقُصُ ذلكَ مِن أُجورِهِم شيئًا»، وقالَ لِعليٍّ يومَ خيبَرَ: «فواللهِ لَأن يهديَ اللهُ بِكَ رجُلًا واحِدًا خيرٌ لكَ مِن حُمرِ النَّعَمِ».

الخامِسُ: الاقتِداءُ بِالنَّبيِّ -ﷺ- فِي شِدَّةِ حِرصِهِ.

٦٦ - كموقِفِهِ -ﷺ- فِي الطَّائفِ حينَ عُرِضَ عليهِ أَن يُطبِقَ المَلَكُ عليهِمُ الأخشَبَينِ، فقالَ: «بَل أَرجُو أَن يُخرِجَ اللهُ مِن أصلابِهِم مَن يعبُدُهُ وحدَهُ لَا يُشرِكُ بِهِ شيئًا»؛ وكطوافِهِ عَلَىٰ القبائلِ يقولُ: «قُولُوا لَا إلَهَ إلَّا اللهُ تُفلِحوا»، كَمَا فِي حديثِ رَبيعَةَ بنِ عِبادٍ.

قلتُ: ومدارُ هذهِ البَواعِثِ عَلَىٰ أصلَينِ: تعظيمِ الخالِقِ، ورحمَةِ المخلوقِ؛ فبِالأوَّلِ يَعظُمُ فِي قلبِهِ حقُّ اللهِ أَن يُعصىٰ، وبِالثَّاني يَعظُمُ عندَهُ أمرُ نجاةِ العبدِ مِنَ النَّارِ، فيجتَمِعُ لهُ الباعِثانِ، فَلَا يقعُدُ عنِ الدَّعوَةِ.

مسألة: ثمَراتُ الحِرصِ عَلَى الدّعوَةِ:

ولِلحِرصِ عَلَىٰ الدَّعوَةِ ثمَراتٌ تعودُ عَلَىٰ الدَّاعيَةِ نفسِهِ:

الأولىٰ: تحصيلُ العُبوديَّةِ لِلَّهِ؛ لِقولِهِ تعالَىٰ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [سورة يوسف:١٠٨]، فالدَّعوَةُ عُبوديَّةٌ عظيمَةٌ تجمَعُ بينَ العِلمِ والعمَلِ والإخلاصِ.

الثَّانيَةُ: زيادَةُ الإيمانِ والبَصيرَةِ؛ لِقولِهِ تعالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [سورة العنكبوت:٦٩].

الثَّالثَةُ: تزكيَةُ النَّفسِ وتهذيبُ القلبِ؛ لِأنَّ الدَّاعيَةَ لَا يدعو الخلقَ إلَّا وَهُوَ أشَدُّ النَّاسِ مُحاسَبَةً لِنفسِهِ.

قلتُ: ووجهُ كونِ الدَّعوَةِ تزكِّي نفسَ الدَّاعيَةِ أنَّهُ يستَحيي أَن يدعوَ النَّاسَ إلَىٰ مَا لَا يفعَلُ، فتَحمِلُهُ الدَّعوَةُ عَلَىٰ إصلاحِ نفسِهِ أوَّلًا؛ فيعودُ نفعُ دعوَتِهِ عليهِ قبلَ أَن يعودَ عَلَىٰ غيرِهِ، وَهَذَا مِن لطيفِ تدبيرِ اللهِ، إذ جعلَ نفعَ الطَّاعَةِ راجِعًا إلَىٰ صاحِبِها.

وممَّا يَشهَدُ لِصدقِ الدَّعوةِ إِلَىٰ التَّوحيدِ أثَرُها فِي إصلاحِ النَّاسِ؛ فإنَّ الدَّعوةَ الحقَّةَ إِلَىٰ إفرادِ اللهِ بالعِبادَةِ تُثمِرُ فِي الواقِعِ صلاحًا ظاهِرًا: مُحافَظَةً عَلَىٰ الفرائِضِ، وتركًا للفواحِشِ والمظالِمِ؛ إذِ التَّوحيدُ أصلٌ إِذَا رسَخَ فِي القلبِ انبَعَثَتِ الجوارِحُ للطَّاعَةِ.

وَفِي هَذَا تنبيهٌ لطالِبِ العِلمِ أنَّ ميزانَ الدَّعوةِ الصَّحيحَةِ ثَمرَتُها، وأنَّ مَا لَا يُثمِرُ عملًا وإصلاحًا فمَدخولٌ؛ وأنَّ الباطِلَ إنَّما يَنتَشِرُ بقَدرِ تقاعُسِ أهلِ الحقِّ عنِ الدَّعوَةِ، فمتىٰ نهَضَ أهلُ التَّوحيدِ بواجِبِ البَلاغِ انحَسَرَ الباطِلُ بقَدرِ نُهوضِهِم.

مسألة: الوَصايا المركَزيّةُ لِلدُّعاةِ:

اعلَم رَحِمَكَ اللهُ أن لِلدَّعوةِ دعائمَ لَا تستقيمُ إلَّا بِها:

الأولىٰ: العِلمُ الرَّاسِخُ.

فَلَا دعوةَ بِلا عِلمٍ؛ لِأنَّ الدَّعوةَ دلالَةٌ وإرشادٌ إِلَىٰ أمرٍ معيَّنٍ، فكيفَ يدُلُّ الإنسانُ عَلَىٰ مَا لَا يعرِفُ؟

ولِهذا كانَ الَّذي يدعو بِلا عِلمٍ ضرَرُهُ أكثَرَ مِن نفعِهِ، وإفسادُهُ أعظَمَ مِن إصلاحِهِ، إذ قَد يُحرِّفُ المعانيَ، أَو يلبِسُ الحقَّ بِالباطِلِ، أَو يصُدُّ النَّاسَ عنِ الحقِّ مِن حيثُ لَا يشعُرُ؛ فالدَّاعيةُ لَا بُدَّ أَن يكونَ عالِمًا بِالشَّيءِ قبلَ أَن يدعوَ إِليهِ، ففاقِدُ الشَّيءِ لَا يُعطيهِ، فيَبدَأُ بِنفسِهِ عِلمًا وتعَلُّمًا.

والتَّوحيدُ أوَّلُ العُلومِ وأعظَمُها، وَهُوَ أساسُ الرِّسالاتِ.

الثَّانيةُ: الرَّحمَةُ بِالخلقِ.

فيَحتاجُ الدَّاعيةُ إِلَىٰ الرِّفقِ واللِّينِ، واجتِنابِ الشِّدَّةِ والغِلظَةِ؛ فإنَّ اللهَ أرسَلَ مُوسَىٰ إِلَىٰ فِرعَونَ -وَهُوَ مِن أعتَىٰ الجبابِرَةِ، حتَّىٰ قالَ: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [سورة النازعات:٢٤] -

وَمَعَ ذلكَ قالَ لهُ ولِأخيهِ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [سورة طه:٤٤]؛ وقالَ -ﷺ-: «مَا كانَ الرِّفقُ فِي شيءٍ إلَّا زانَهُ، وَلَا نُزِعَ مِن شيءٍ إلَّا شانَهُ».

قلتُ: ووجهُ تقديمِ اللِّينِ أنَّ المقصودَ مِنَ الدَّعوَةِ هِدايَةُ المدعوِّ لَا قهرُهُ؛ فمَن دَعَا بِالغِلظَةِ نفَّرَ، ومَن دَعَا بِالرِّفقِ أَلَّفَ القُلوبَ؛ ولِذا أمَرَ اللهُ بِاللِّينِ مَعَ أَطغَىٰ أهلِ الأرضِ، تعليمًا لِلدُّعاةِ أنَّ اللِّينَ هُوَ الأصلُ، وَيبقَىٰ الحزمُ فِي موضِعِهِ عندَ الحاجَةِ.

ومِن تمامِ هَذَا أنَّ الدَّاعيَةَ يُفرِّقُ بينَ الحُكمِ الشَّرعيِّ والنَّظَرِ القدَريِّ: فيُبغِضُ -شرعًا- الكُفرَ والمعصيَةَ والبِدعَةَ، ويرحَمُ -قدَرًا- مَنِ ابتُلِيَ بِها وضلَّ؛ كَمَا كانَ النَّبيُّ -ﷺ- يَحكِي نبيًّا ضرَبَهُ قومُهُ فأدمَوهُ، وَهُوَ يمسَحُ الدَّمَ ويقولُ: «اللهمَّ اغفِر لِقومي فإنَّهُم لَا يعلَمونَ».

الثَّالثَةُ: الحِكمَةُ فِي الدَّعوَةِ.

والحِكمَةُ وضعُ الأمورِ فِي مواضِعِها، وَتَعنِي الرِّفقَ والتَّدرُّجَ ومعرِفَةَ أحوالِ المدعوِّينَ؛ فليسَتِ الدَّعوَةُ كلِماتٍ تُقالُ، بَل فِقهٌ وبَصيرَةٌ، واختيارٌ لِأفضَلِ الأساليبِ وأكثَرِها تأثيرًا، ولِلوقتِ والوسيلَةِ المُناسِبَينِ؛ فَقَد يكونُ الرَّجُلُ صاحِبَ عِلمٍ لكنَّهُ يفتَقِدُ الحِكمَةَ فِي تنزيلِهِ: مَتَىٰ يتكلَّمُ؟ وَمعَ مَن؟ وبِأيِّ أسلوبٍ؟ وَمَا مقدارُ مَا يُقالُ؟

وَقَد تجلَّتِ الحِكمَةُ أوضَحَ مَا تكونُ فِي منهَجِ النَّبيِّ -ﷺ-؛ فكانَ يدعو تارَةً بِضربِ الأمثالِ، وتارَةً بِإرسالِ الرُّسُلِ، وتارَةً بِكِتابَةِ الكُتُبِ، وتارَةً بِالسُّؤالِ فيُلقيهِ ثمَّ ينتَظِرُ الجوابَ حتَّىٰ تتَشَوَّفَ النُّفوسُ، وتارَةً بِالعمَلِ التَّطبيقيِّ فيَفعَلُ أمامَهُم لِيَقتَدوا بهِ، كَمَا قالَ: «صلُّوا كَمَا رأيتُموني أُصلِّي»، وقالَ فِي الحجِّ: «خُذوا عنِّي مناسِكَكُم».

الرَّابِعَةُ: الكرَمُ وبذلُ الجُهدِ والوقتِ.

فالدَّعوةُ تحتاجُ إِلَىٰ بذلٍ وسخاءٍ، ومَنِ اقتَصَرَ عَلَىٰ فُضولِ وقتِهِ لَم ينجَح؛ فالدَّعوةُ وظيفَةُ العُمُرِ، لَا وظيفَةُ الفَراغِ، وكانَ السَّلَفُ يبذُلونَ كلَّ شيءٍ فِي سبيلِ نشرِ التَّوحيدِ وَالسُّنَّةِ.

الخامِسَةُ: سلامَةُ الصَّدرِ واجتِماعُ الكلِمَةِ.

فَلَا يكونُ الدَّاعيَةُ سليمَ القلبِ حتَّىٰ يُطَهِّرَ نيَّتَهُ مِنَ الحسَدِ وَالْهَوَىٰ، ويقصِدَ وجهَ اللهِ لَا الشُّهرَةَ وَلَا الغلَبَةَ؛ وليَعلَمِ الدُّعاةُ أنَّ اختِلافَهُم يُفرِحُ الشَّيطانَ ويُقَوِّي أهلَ البِدَعِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [سورة الأنفال:٤٦].

٦٧ - **وقالَ** -ﷺ- **لِمُعاذٍ وَأَبِي مُوسَىٰ:** «تطاوَعا وَلَا تختَلِفا».

السَّادِسَةُ: الصَّبرُ واليقينُ.

فبِهِما تُنالُ الإمامَةُ فِي الدِّينِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة:٢٤]؛ فإنَّ الدَّعوَةَ فِي حقيقَتِها مُعاكِسَةٌ لِأهواءِ البشَرِ، فمَن دعا النَّاسَ إِلَىٰ مُخالَفَةِ أهوائِهِم لَقِيَ منهُمُ المُمانَعَةَ والعداوَةَ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ [سورة الأنعام:١١٢]؛ فبِغيرِ الصَّبرِ لَا يبلُغُ العبدُ دينَ اللهِ.

السَّابِعَةُ: مُراعاةُ الأولوياتِ.

فَلَا يُقَدِّمُ مفضولًا مَعَ وُجودِ مَا هُوَ أَولَىٰ منهُ؛ ودليلُهُ قولُهُ -ﷺ- لِمُعاذٍ حينَ بعَثَهُ إِلَىٰ اليمَنِ: «إنَّكَ تَأتِي قومًا أهلَ كِتابٍ، فليَكُن أوَّلَ مَا تدعوهُم إليهِ شهادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ -وَفِي روايَةٍ: أَن يُوَحِّدوا اللهَ-، فَإِنَّ هُم أَطَاعُوا لكَ بِذلكَ فأعلِمهُم أنَّ اللهَ افترَضَ عليهِم خمسَ صلَواتٍ فِي كلِّ يومٍ وليلَةٍ...» الحديثَ.

قلتُ: ووجهُ الدلالَةِ مِن حديثِ مُعاذٍ أنَّ النَّبيَّ -ﷺ- رتَّبَ الدَّعوَةَ تَرتيبًا مقصودًا: التَّوحيدُ، فالصَّلاةُ، فالزَّكاةُ؛ فبَدَأَ بالأهَمِّ فالمُهِمِّ، وَلَم يدعُهُم إِلَىٰ الفروعِ قبلَ تصحيحِ الأصلِ.

فدلَّ عَلَىٰ أنَّ الدَّاعيَةَ لَا ينبَغي لهُ أَن ينشَغِلَ بِالفروعِ مَعَ إهمالِ الأصولِ، وأنَّ أعظَمَ مَا يُدعىٰ إليهِ ابتِداءً توحيدُ اللهِ، ثمَّ سائرُ الشَّرائعِ؛ وَهَذا عينُ مَا قرَّرَهُ سُلَيمانُ بنُ عبدِ اللهِ فِي تصديرِ التَّوحيدِ فِي أوَّلِ البابِ، فاتَّسَقَ آخِرُ الكلامِ مَعَ أوَّلِهِ.

فالدَّعوةُ إِلَىٰ مَا تعَلَّمَهُ العبدُ سبيلُ الرُّسُلِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف:١٠٨]؛ فَهِيَ دعوَةٌ إِلَىٰ اللهِ لَا إِلَىٰ النَّفسِ، وَعَلَىٰ بصيرَةٍ -أَي: عَلَىٰ عِلمٍ ويقينٍ- مَعَ الإخلاصِ فِي القصدِ.

وتكونُ بِالقولِ والتَّعليمِ، وبِالعمَلِ قُدوَةً، وبِالمالِ، وبِالكِتابَةِ والبَيانِ.

ومِنَ المُؤلِمِ أَن يُقَصِّرَ بعضُ النَّاسِ فِي الدَّعوَةِ، فيأتِيَ الكافِرُ بيوتَهُم أَو يُخالِطَهُم فَلَا يسمَعُ منهُم كلامَ اللهِ، مَعَ قولِهِ تَعالَىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة:٦]؛ وأشَدُّ منهُ حالًا مَن يذهَبُ إِلَىٰ بِلادِ الكُفَّارِ الأَصليِّينَ ثمَّ يعودُ ناقِلًا أفكارَهُم مُرَوِّجًا لِمبادِئِهِم، فبَدَلًا مِنَ الدَّعوةِ إِلَىٰ الحقِّ يَدعُو إِلَىٰ ضِدِّهِ؛ نسأَلُ اللهَ السَّلامَةَ.

وَاعلَم أَن الدَّعوَةَ الدَّعوَةُ لَيسَت مُجَرَّدَ كَلَامٍ يُقَالُ، وَلَا حَمَاسَةً تَظهَرُ، وَلَا كَثرَةَ أَتبَاعٍ، وَلَا صَخَبَ مَجَالِسَ، وَلَا تَصَدُّرَ مَنَابِرَ، بَل هِيَ دِينٌ، وَأَمَانَةٌ، وَبَلَاغٌ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ -ﷺ-، فَلَا بُدَّ لَهَا مِن إِخلَاصٍ يُطَهِّرُهَا، وَعِلمٍ يَضبِطُهَا، وَعَقلٍ يُحكِمُهَا، وَصَبرٍ يَحمِلُ صَاحِبَهَا عَلَىٰ الثَّبَاتِ وَالرِّفقِ وَالحِكمَةِ.

وَلَقَد قَرَّرَ أَهلُ العِلمِ أَنَّ أُصُولَ الخَلَلِ فِي الدَّعوَةِ، وَالآفَاتِ الَّتِي تَعرِضُ لِأَهلِهَا، تَرجِعُ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ: ضَعفِ الدِّينِ عِندَ الدَّاعِيَةِ، وَضَعفِ العِلمِ عِندَهُ، وَضَعفِ العَقلِ عِندَهُ.

فَإِذَا ضَعُفَ الدِّينُ دَخَلَ الرِّيَاءُ، وَحُبُّ الشُّهرَةِ، وَطَلَبُ المَدحِ، وَالمُنَافَسَةُ عَلَىٰ الصَّدَارَةِ، وَالصِّرَاعُ عَلَىٰ زَعَامَةِ الدَّعوَةِ وَرِئَاسَتِهَا، وَتَجمِيعُ النَّاسِ عَلَىٰ الذَّاتِ لَا عَلَىٰ الحَقِّ، وَالتَّحَاسُدُ بَينَ الإِخوَانِ، وَتَصيِيرُ الخِلَافَاتِ الشَّخصِيَّةِ إِلَىٰ نِزَاعَاتٍ عَقَدِيَّةٍ مَنهَجِيَّةٍ، حَتَّىٰ يُسَارَ بِهَا مَسَارَ الخُصُومَةِ عَلَىٰ الدِّينِ.

وَمِن أَخطَرِ ذَلِكَ: السُّكُوتُ عَنِ المُوَافِقِ وَلَو أَخطَأَ، وَالقَدحُ فِي المُخَالِفِ وَلَو أَصَابَ، وَالكَيلُ بِمِكيَالَينِ.

وَتَتَبُّعُ العَثَرَاتِ فِي حَالِ الخِلَافِ، وَالسُّكُوتُ عَنهَا فِي حَالِ الِائتِلَافِ.

والاغتِرَارُ بِالجُمُوعِ وَالكَثرَةِ.

وَجَعلُ النَّفسِ مِيزَانًا لِلسُّنَّةِ: مَن قَارَبَهَا قَرَّبَهَا، وَمَن بَاعَدَهَا أَبعَدَهَا.

وَكَم مِن كَلِمَةٍ ظَاهِرُهَا الغَيرَةُ وَبَاطِنُهَا حَظٌّ خَفِيٌّ! وَكَم مِن إِنكَارٍ ظَاهِرُهُ النَّصِيحَةُ وَبَاطِنُهُ التَّشَفِّي!

وَكَم مِن شِدَّةٍ يَظُنُّ صَاحِبُهَا أَنَّهَا قُوَّةٌ فِي الحَقِّ، وَهِيَ فِي الحَقِيقَةِ فَظَاظَةٌ نَفَّرَت القُلُوبَ، وَقَطَعَت طَرِيقَ الِانتِفَاعِ.

وَإِذَا ضَعُفَ العِلمُ دَخَلَ التَّعَالُمُ، وَالقَولُ عَلَىٰ اللهِ بِغَيرِ عِلمٍ، وَسُوءُ الفَهمِ، وَتَنزِيلُ النُّصُوصِ فِي غَيرِ مَوَاضِعِهَا، وَخَلطُ المَسَائِلِ، وَمُزَاحَمَةُ العُلَمَاءِ، وَالِاستِقلَالُ بِالرَّأيِ، **وَمِنهُ:** عَدَمُ الحِكمَةِ فِي الدَّعوَةِ إِلَىٰ اللهِ، وَضَعفُ الخِبرَةِ وَالبَصِيرَةِ، وَعَدَمُ التَّدَرُّجِ، وَعَدَمُ

تَقدِيمِ الأَولَوِيَّاتِ، وَعَدَمُ التَّفرِيقِ بَينَ النَّصِيحَةِ وَالفَضِيحَةِ، وَبَينَ جِهَادِ الدَّعوَةِ وَجِهَادِ السَّيفِ، وَالمُجَاوَزَةُ وَالمُجَازَفَةُ فِي الرُّدُودِ، وَعَدَمُ الالتِزَامِ بِالأَدَبِ وَضَبطِ النَّفسِ.

وَإِذَا ضَعُفَ العَقلُ دَخَلَ التَّسَرُّعُ، وَسُوءُ التَّقدِيرِ، وَالطَّيشُ فِي مُعَالَجَةِ النَّوَازِلِ، وَتَكبِيرُ الصَّغِيرِ، وَتَصغِيرُ الكَبِيرِ، وَإِثَارَةُ الفِتَنِ بِاسمِ النَّصِيحَةِ، وَتَمزِيقُ الصَّفِّ بِاسمِ الغَيرَةِ، وَالشِّدَّةُ فِي مَوطِنِ اللِّينِ، وَاللِّينُ فِي مَوطِنِ الشِّدَّةِ، وَعَدَمُ التَّثَبُّتِ فِي نَقلِ الأَخبَارِ، وَالخَلطُ بَينَ المُدَارَاةِ المَشرُوعَةِ وَالمُدَاهَنَةِ المَذمُومَةِ، وَالغَفلَةُ عَنِ المَدسُوسِينَ وَالمُنَافِقِينَ يُلقُونَ بَينَ الدُّعَاةِ نَارَ الفِتنَةِ، وَالاعتِدَادُ بِالرَّأيِ، وَتَركُ مُشَاوَرَةِ أَهلِ المَشُورَةِ، وَالغُلُوُّ فِي المَدحِ، وَالجَفَاءُ المُقَابِلُ لَهُ، وَمُحَاوَلَةُ إِسقَاطِ رُمُوزِ الدَّعوَةِ لِأَتفَهِ الأَسبَابِ، وَتَغلِيبُ جَانِبِ العِلمِ عَلَىٰ جَانِبِ الأَدَبِ وَالتَّربِيَةِ، فَيَخرُجُ الطَّالِبُ كَثِيرَ المَسَائِلِ قَلِيلَ الأَدَبِ.

وَالدَّاعِيَةُ إِذَا لَم يُفَتِّش قَلبَهُ قَبلَ أَن يُفَتِّشَ أَخطَاءَ النَّاسِ، وَلَم يُحَاسِب نَفسَهُ قَبلَ أَن يُحَاسِبَ غَيرَهُ، خِيفَ عَلَيهِ أَن يَجعَلَ الدَّعوَةَ سُلَّمًا لِحُظُوظِ النَّفسِ، وَأَن يَتَّخِذَ مِن نُصرَةِ الحَقِّ بَابًا لِلانتِصَارِ لِلذَّاتِ.

وَمِنَ الزَّغَلِ الَّذِي يَعتَرِضُ الدَّعوَةَ: أَن يَظُنَّ الدَّاعِيَةُ أَنَّ كُلَّ مَا عَرَفَهُ يَجِبُ أَن يَقُولَهُ، وَكُلَّ خَطَأٍ رَآهُ يَجِبُ أَن يُعلِنَهُ، وَكُلَّ مُخَالِفٍ يَجِبُ أَن يُشَهِّرَ بِهِ، وَكُلَّ نَازِلَةٍ يَجِبُ أَن يَتَكَلَّمَ فِيهَا.

وَهَذَا بَابٌ عَظِيمٌ مِن أَبوَابِ الفِتنَةِ، فَإِنَّ الكَلَامَ فِي مَوضِعِ السُّكُوتِ فِتنَةٌ، وَالسُّكُوتَ فِي مَوضِعِ البَيَانِ خِذلَانٌ، وَلَا يُمَيِّزُ هَذَا مِن هَذَا إِلَّا عِلمٌ رَاسِخٌ، وَفِقهٌ بِالنُّصُوصِ، وَمَعرِفَةٌ بِالمَصَالِحِ وَالمَفَاسِدِ، وَرُجُوعٌ إِلَىٰ أَهلِ العِلمِ.

وَمِنَ الزَّغَلِ كَذَلِكَ: أَن يَشتَغِلَ الدَّاعِيَةُ بِالنَّاسِ عَن نَفسِهِ، وَبِالخُصُومَاتِ عَنِ العِلمِ، وَبِالمُتَابَعَاتِ عَنِ العِبَادَةِ، وَبِالشُّهرَةِ عَنِ الإِخلَاصِ.

فَإِذَا جَفَّ القَلبُ، وَضَعُفَ الوَرَعُ، وَقَلَّتِ الخَلوَةُ بِاللهِ، صَارَ اللِّسَانُ أَسبَقَ مِنَ البَصِيرَةِ، وَالغَضَبُ أَسبَقَ مِنَ الحِكمَةِ، وَالإِنكَارُ أَسبَقَ مِنَ الفِقهِ، فَوَقَعَ مِنَ الفَسَادِ فِي الدَّعوَةِ بِقَدرِ مَا نَقَصَ مِن إِصلَاحِهِ لِنَفسِهِ.

وَالدَّاعِيَةُ الصَّادِقُ لَا يَفرَحُ بِكَثرَةِ الكَلَامِ، بَل يَفرَحُ بِقَبُولِ الحَقِّ، وَلَا يَطلُبُ أَن يَنتَصِرَ قَولُهُ، بَل أَن يَظهَرَ دِينُ اللهِ، وَلَا يُحِبُّ أَن يُعرَفَ، بَل أَن يَهتَدِيَ النَّاسُ.

فَإِن ظَهَرَ الحَقُّ عَلَىٰ يَدِهِ حَمِدَ اللهَ، وَإِن ظَهَرَ عَلَىٰ يَدِ غَيرِهِ فَرِحَ بِهِ، لِأَنَّ مَقصُودَهُ نُصرَةُ السُّنَّةِ لَا نُصرَةُ نَفسِهِ.

وَهَذَا بَابٌ دَقِيقٌ لَا يَنجُو مِنهُ إِلَّا مَن جَاهَدَ نَفسَهُ، وَرَاقَبَ نِيَّتَهُ، وَعَرَفَ قَدرَهُ، وَلَزِمَ أَهلَ العِلمِ، وَخَافَ مِنَ العُجبِ كَمَا يَخَافُ مِنَ المَعصِيَةِ الظَّاهِرَةِ.

فَإِنَّ آفَاتِ القُلُوبِ قَد تُهلِكُ صَاحِبَهَا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ مِنَ النَّاصِحِينَ، وَقَد يَحتَرِقُ العَمَلُ مِن دَاخِلِهِ قَبلَ أَن يَنتَفِعَ بِهِ النَّاسُ مِن خَارِجِهِ.

فَالوَاجِبُ عَلَىٰ الدُّعَاةِ وَطُلَّابِ العِلمِ أَن يَجمَعُوا بَينَ شِدَّةِ التَّمَسُّكِ بِالحَقِّ وَرَحمَةِ الخَلقِ، وَبَينَ نُصرَةِ السُّنَّةِ وَحِفظِ حُرمَةِ أَهلِهَا، وَبَينَ البَيَانِ الشَّرعِيِّ وَالعَدلِ فِي الحُكمِ، وَبَينَ الحَزمِ فِي الأُصُولِ وَالرِّفقِ فِي التَّعلِيمِ، وَبَينَ الإِنكَارِ عَلَىٰ الخَطَأِ وَعَدَمِ تَحوِيلِ الدَّعوَةِ إِلَىٰ مَعَارِكَ شَخصِيَّةٍ.

وَليعلَمُوا أَنَّ الدَّعوَةَ لَا تُنصَرُ بِالتَّهَوُّرِ، وَلَا بِالتَّحَزُّبِ، وَلَا بِالِاستِعجَالِ، وَلَا بِتكثِيرِ الخُصُومَاتِ، بَل تُنصَرُ بِالعِلمِ وَالعَدلِ، وَالصَّبرِ وَالرِّفقِ، وَالصِّدقِ وَالإِخلَاصِ، وَلُزُومِ غَرزِ أَهلِ العِلمِ.

وَخُلَاصَةُ الأَمرِ: أَنَّ الدَّعوَةَ لَا تَصلُحُ إِلَّا بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ: دِينٍ صَحِيحٍ يُورِثُ الإِخلَاصَ، وَعِلمٍ رَاسِخٍ يُورِثُ البَصِيرَةَ، وَعَقلٍ رَاجِحٍ يُورِثُ الحِكمَةَ، فَمَن جَمَعَهَا كَانَ مِن أَنفَعِ النَّاسِ لِدَعوَةِ الحَقِّ، وَمَن نَقَصَ مِنهَا بِقَدرٍ وَقَعَ فِي الزَّغَلِ بِقَدرِ نَقصِهِ، وَأَدخَلَ عَلَىٰ الدَّعوَةِ مِنَ الخَلَلِ بِحَسَبِهِ.

فَليَتَّقِ اللهَ الدَّاعِيَةُ فِي دَعوَتِهِ، وَليَعلَم أَنَّ النَّاسَ قَد تَنخَدِعُ بِفَصَاحَتِهِ، أَو شُهرَتِهِ، أَو شِدَّتِهِ، أَو كَثرَةِ أَتبَاعِهِ، وَلَكِنَّ اللهَ لَا تَخفَىٰ عَلَيهِ خَافِيَةٌ.

فَالعِبرَةُ عِندَ اللهِ لَيسَت بِكَثرَةِ الظُّهُورِ، بَل بِصِدقِ القَصدِ، وَصِحَّةِ الطَّرِيقِ، وَمُوَافَقَةِ السُّنَّةِ، وَسَلَامَةِ القَلبِ.

فَيَا طَالِبَ العِلمِ، وَيَا دَاعِيَةً إِلَىٰ اللهِ: إِنَّ الدَّعوَةَ أَمَانَةٌ فِي عُنُقِكَ، فَلَا تَجعَلهَا سُلَّمًا لِحُظُوظِ نَفسِكَ، وَلَا بَابًا لِانتِصَارِ ذَاتِكَ، وَلَا سَاحَةً لِتَصفِيَةِ خِلَافَاتِكَ.

ثمَّ وصيَّتي لكَ -يَا أَيُّها الدَّاعيةُ-: اعلَم يَا عبدَ اللهِ أَنَّكَ إِلَىٰ الدَّعوَةِ إِلَىٰ التَّوحيدِ أحوجُ مِنهَا إليكَ؛ فَإِنَّ كنتَ تظُنُّ أَنَّكَ ستَدعو لِأَنَّ الدَّعوَةَ بحاجَةٍ إليكَ، فالنَّصيحَةُ أَن تجلِسَ وَلَا تصنَعَ شيئًا؛ فدينُ اللهِ منصورٌ بكَ وبغيرِكَ، لَا نشُكُّ فِي ذلكَ ألبَتَّةَ.

وإنَّما عليكَ أَن تدعوَ إِلَىٰ اللهِ لِأَنَّكَ أنتَ المُحتاجُ إِلَىٰ الدَّعوَةِ: مُحتاجٌ أَن تقومَ بِالواجِبِ المُلقىٰ عَلَىٰ عاتِقِكَ، مُحتاجٌ إِلَىٰ فضلِ اللهِ وثوابِهِ.

فالدِّينَ قائمٌ منصورٌ؛ فيَدعو الدَّاعِيَةُ افتِقارًا إِلَىٰ ربِّهِ وطلَبًا لِفضلِهِ، لَا استِكبارًا وَلَا

استِعلاءً؛ وبِهذا تصلُحُ نيَّتُهُ، ويسلَمُ مِن آفاتِ النَّفسِ الَّتي تُفسِدُ عَلَىٰ الدُّعاةِ دعوَتَهُم.

وَاستَحضِر قبلَ أَن تكتُبَ كَلِمَةً، أَو تُنكِرَ مَسأَلَةً، أَو تَرُدَّ عَلَىٰ مُخَالِفٍ: هَل تُرِيدُ بِذَلِكَ وَجهَ اللهِ، أَم تُرِيدُ ظُهُورَ نَفسِكَ؟

هَل تتَكَلَّمُ بِعِلمٍ رَاسِخٍ، أَم بِهَوًىٰ خَفِيٍّ تَلَبَّسَ بِلِبَاسِ الغَيرَةِ؟

فَإِن سَلِمَت لَكَ هَذِهِ الثَّلاثُ، سَلِمَت لَكَ دَعوَتُكَ، وَنَفَعَ اللهُ بِكَ عِبَادَهُ، وَكُنتَ مِن وَرَثَةِ الأَنبِيَاءِ حَقًّا.

ومَن أرادَ الاتِّزانَ فِي فِقهِ الدَّعوَةِ فعليهِ بِكِتابِ اللهِ وَمَا فيهِ مِن آياتِ الدَّعوَةِ وأساليبِها، ثمَّ بِالسُّنَّةِ والسِّيرَةِ النَّبوِيَّةِ، فَهِيَ المصدَرُ العمَليُّ والتَّطبيقُ الفِعليُّ مِنَ النَّبيِّ -ﷺ-، المُؤَيَّدِ بِالوحيِ، المُبَيِّنِ لِلقُرآنِ؛ ثمَّ بِسِيَرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، فَفِيهَا برَكَةٌ وعِلمٌ ومنهَجٌ فذٌّ، إِذ همُ التَّطبيقُ العمَليُّ لِطريقَةِ الأنبياءِ.

قال المؤلف -رحمه الله-:

الرابعة: الصبرُ عَلَىٰ الأذىٰ فِيهِ.

الصَّبرُ فِي اللُّغَةِ: المنعُ والحبسُ؛ وَهُوَ حبسُ النَّفسِ عنِ الجزَعِ، وحبسُ اللِّسانِ عنِ التَّشَكِّي، وحبسُ الجوارِحِ عَن لطمِ الخُدودِ وشقِّ الثِّيابِ ونحوِها.

وحقيقَتُهُ: خُلُقٌ فاضِلٌ يمنَعُ صاحِبَهُ مِن فِعلِ مَا لَا يحسُنُ وَلَا يجمُلُ.

٦٨- **جَاءَ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (٢/ ٤٤٥ ط عَطَاءَاتِ العِلمِ):** «قَالَ الإِمَامُ أَحمَدُ: ذَكَرَ اللهُ الصَّبرَ فِي القُرآنِ فِي نَحوٍ مِن تِسعِينَ مَوضِعًا.

وَهُوَ وَاجِبٌ بِإِجمَاعِ الأُمَّةِ.

وَهُوَ نِصفُ الإِيمَانِ، فَإِنَّ الإِيمَانَ نِصفَانِ: نِصفٌ صَبرٌ، وَنِصفٌ شُكرٌ.

وَهُوَ فِي القُرآنِ عَلَىٰ سِتَّةَ عَشَرَ نَوعًا».

ووجهُ ذِكرِ هذهِ المسأَلَةِ الرَّابِعَةِ أمورٌ: أنَّها ذُكِرَت فِي آيَةِ العصرِ الَّتي بُنِيَت عَلَيهَا الرِّسالَةُ، وأنَّ طريقَ الحقِّ لَا يخلو مِن أذًىٰ مُتَوقَّعٍ، وأنَّ الأذىٰ ملازِمٌ لِهذا السَّبيلِ ملازَمَةً لَا تنفكُّ؛ فَإِذَا تعَلَّمتَ العِلمَ الصَّحيحَ، ثمَّ عمِلتَ بهِ، ثمَّ دعوتَ إليهِ، فتَوَقَّعِ الأذىٰ؛ فَهَذَا هُوَ طريقُ المُرسَلينَ، وأُولو العزمِ منهُم أكثَرُ مَن تأذَّوا فِي هَذَا السَّبيلِ.

ووجهُ ترتيبِ الصَّبرِ بعدَ العِلمِ والعمَلِ والدَّعوَةِ أنَّ هذهِ الثَّلاثَةَ تستَلزِمُ الأذىٰ استِلزامًا، فمَن قامَ بِها وُوجِهَ بِمُعاداةِ أهلِ الباطِلِ؛ فلَزِمَ أَن يُختَمَ بِالصَّبرِ، إِذ لَا قِوامَ

لِلأصولِ الثَّلاثَةِ قبلَهُ إلَّا بهِ؛ فكانَ الصَّبرُ حارِسًا لِلثَّلاثَةِ وعاصِمًا لَهَا مِنَ الانهيارِ عندَ أوَّلِ مِحنَةٍ، وبِهذا تمَّت سورَةُ العصرِ: إيمانٌ، وعمَلٌ، وتواصٍ بِالحقِّ، وتواصٍ بِالصَّبرِ.

مسألة: أنّ الصّبرَ يعصمُ الدّاعيةَ مِنَ الانحرافِ:

فالمُسلِمُ لَا بُدَّ أن يُوطِّنَ نفسَهُ عَلَىٰ تحَمُّلِ الأذىٰ فِي سبيلِ نشرِ الدِّينِ؛ فطريقُ الدَّعوَةِ شاقٌّ محفوفٌ بِالعَقَباتِ، إِذ يحمِلُ الدَّاعيَةُ همَّ هِدايَةِ الخلقِ ناصِحًا لهُم، بينَما يغلِبُ عَلَىٰ النَّاسِ الانشِغالُ بِمصالِحِ الدُّنيا، غيرَ مُكتَرِثينَ -إلَّا مَن رحِمَ اللهُ- بِمآلِ الآخِرَةِ.

وَهُنَا قد يجِدُ الدَّاعيَةُ نفسَهُ أمامَ مُفترَقِ طُرُقٍ: إمَّا أَن ينجَرِفَ مَعَ التَّيَّارِ فيَفقِدَ روحَهُ الدَّعويَّةَ، وإمَّا أَن ينقِمَ عَلَىٰ الواقِعِ فيَنزَوِيَ عنِ النَّاسِ، ورُبَّما تمَلَّكَهُ شُعورٌ بِالاستِعلاءِ والنَّظَرِ إليهِم بِازدِراءٍ، فيَقَعَ فِي آفَةِ التَّقصيرِ فِي حقِّهِم.

غيرَ أنَّ الدَّاعيَةَ الحقَّ يُدرِكُ أنَّ مُهِمَّتَهُ البَلاغُ والبَيانُ، لَا تحقيقُ النَّتائِجِ؛ فيَلزَمُ الصَّبرَ والرِّفقَ، مُستَنيرًا بِالبَصيرَةِ الَّتي أمَرَ اللهُ بِها، وَهِيَ العِلمُ بِواقِعِ النَّاسِ، وفهمُ مَا يُناسِبُهُم مِنَ الوسائِلِ.

ووجهُ هَذَا التَّقريرِ أنَّ المُفَرِّطَ والمُفرِطَ كِلاهُما زائِغٌ عنِ القصدِ؛ فمَنِ انجَرَفَ ضيَّعَ دينَهُ، ومَنِ استَعلىٰ ازدَرىٰ الخلقَ فنفَّرَهُم؛ والوسَطُ العدلُ أَن يصبِرَ ويرفُقَ، ويعلَمَ أنَّ الَّذي عليهِ البَلاغُ، فَإِذَا استَقَرَّ هَذَا فِي قلبِهِ، أمِنَ مِن آفَتَيِ اليأسِ والكِبرِ جميعًا، وعاشَ فِي طُمَأنينَةٍ، إذ غايَتُهُ رِضا اللهِ، فيُثمِرُ جُهدُهُ ولو بعدَ حينٍ.

وليسَ الصَّبرُ عَلَىٰ الدَّعوَةِ مُجَرَّدَ تركِ التَّشَكِّي، بَل هُوَ مَعَ ذلكَ مُواصَلَةُ العمَلِ؛

٦٩ - **قالَ ابنُ المُبارَكِ -كَمَا فِي «ذمِّ الْهَوَىٰ» (ص٤٧)-:** «إنَّ الصَّالِحينَ فِيمَا

مَضَىٰ كانَت أنفُسُهُم تُواتيهِم عَلَىٰ الخيرِ عفوًا، وإنَّ أنفُسَنا لَا تكادُ تُواتينا إلَّا عَلَىٰ كُرهٍ، فينبَغي لَنَا أَن نُكرِهَها».

مسألة: أقسامُ الصّبرِ الثّلاثةُ:

الصَّبرُ ثلاثةُ أقسامٍ:

الأوَّلُ: صَبرٌ عَلَىٰ طاعَةِ اللهِ؛ فالمُداوَمَةُ عَلَىٰ الطَّاعَةِ تحتاجُ إِلَىٰ صَبرٍ ومُصابَرَةٍ.

الثَّاني: صَبرٌ عَن محارِمِ اللهِ؛ فمُجانَبَتُها والبُعدُ عَنهَا يحتاجُ إِلَىٰ صَبرٍ، وأيِّ صَبرٍ!

الثَّالثُ: صَبرٌ عَلَىٰ أقدارِ اللهِ، وَهُوَ الَّذي يُرادُ عُمومًا إِذَا أُطلِقَ الصَّبرُ، والنَّوعانِ الأوَّلانِ لَيسَا بِأقَلَّ منهُ.

ووجهُ حصرِ الصَّبرِ فِي هذهِ الثَّلاثَةِ أنَّ العبدَ لَا يَخلُو مِن ثلاثِ حالاتٍ: إمَّا فِي طاعَةٍ يُؤمَرُ بِها فيَصبِرُ عَلَىٰ أَدائِهَا، وإمَّا فِي معصيَةٍ يُنهىٰ عَنهَا فيَصبِرُ عَن مُقارَفتِها، وإمَّا فِي قدَرٍ يَجرِي عليهِ فيَصبِرُ عَلَىٰ احتِمالِهِ؛ فاستوعَبَتِ الأقسامُ الثَّلاثَةُ أحوالَ العبدِ كلَّها، وأشَدُّها عَلَىٰ النَّفسِ الصَّبرُ عنِ المحارِمِ، إِذ يُنازِعُهُ هواهُ.

ولِذا يجِبُ عَلَىٰ الدَّاعيَةِ أَن يُوطِّنَ نفسَهُ عَلَىٰ الصَّبرِ عَلَىٰ الأذىٰ، قالَ تعالَىٰ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [سورة الأحقاف:٣٥]؛ وأُولو العزمِ إنَّما سُمُّوا بِذلكَ لِصَبرِهِمُ العظيمِ فِي تبليغِ دينِ اللهِ؛ ولِهذا كانَ الدُّعاةُ أحَقَّ النَّاسِ بِالتَّخلُّقِ بِالصَّبرِ.

مسألة: أنّ الأذى سُنّةٌ ماضيةٌ فِي الأنبياءِ وأتباعِهم:

اعلَم سَدَّدَكَ اللهُ لِكُلِّ خَيرٍ أَنَ الأنبياءَ أُوذوا فِي سبيلِ اللهِ؛ فمنهُم مَن قُتِلَ، ومنهُم مَن جُلِدَ، ومنهُم مَن سُجِنَ، ومنهُم مَن طُرِدَ، وكلُّهُم عُودوا وحورِبوا؛ وَهَكَذَا أتباعُهُم أصابَهُم مَا أصابَهُم فصبَروا، قالَ تعالَىٰ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ

مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [سورة البقرة:٢١٤]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾ [سورة الأنعام:٣٤].

فالصَّبرُ منهجُ الأنبياءِ؛ ولِلصَّابِرينَ أجرٌ لَا يُحدُّ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [سورة الزمر:١٠].

٧٠ - **قالَ عليٌّ:** «كلُّ مُطيعٍ يُكالُ لهُ كيلًا، ويُوزَنُ لهُ وزنًا، إلَّا الصَّابِرونَ، فإنَّهُ يُحثىٰ لهُم حثيًا».

٧١ - **ورُوي عنِ ابنِ مسعودٍ -مِن طريقِ رجُلٍ مِنَ النَّخَعِ-:** «يودُّ أهلُ البَلاءِ يومَ القِيامَةِ أنَّ جُلودَهُم كَانَت تُقرَضُ بِالمقاريضِ» لِما يرونَ مِن جزيلِ الثَّوابِ.

ووجهُ كونِ أجرِ الصَّابِرِ بِغيرِ حِسابٍ أنَّ سائرَ الأعمالِ تُوزَنُ وتُكالُ بِأمثالِها المعلومَةِ، فأمَّا الصَّبرُ فلمَّا كانَ احتِمالًا لِما تكرَهُهُ النَّفسُ، ومُجاهَدَةً لَهَا فِي كلِّ حالٍ، عظُمَ قدرُهُ عندَ اللهِ، فوُفِّيَ أهلُهُ أجرَهُم بِلا كيلٍ وَلَا وزنٍ، فضلًا مِنهُ سُبحانَهُ وكرَمًا.

مسألة: أنّ النبيّ -ﷺ- أوذي فصبر، فهو القدوة

اعلَم أرشَدَكَ اللهُ لِلحُسنَىٰ أن النَّبيُّ -ﷺ- قَد أُوذيَ أعظَمَ الْأَذَىٰ، فكانَ القُدوَةَ فِي الصَّبرِ؛

٧٢ - **رَوَىٰ البُخاريُّ (١/ ٧) أنَّ ورقَةَ بنَ نوفَلٍ قالَ لهُ -ﷺ- فِي مبدَإِ الوحيِ:** «لَم يأتِ رجُلٌ قطُّ بِمِثلِ مَا جئتَ بهِ إلَّا عُودِيَ».

فلمَّا ذكَرَ لهُ ورَقَةُ أنَّ قومَهُ سيُخرِجونَهُ، استغرَبَ -ﷺ- فقالَ: «أوَمُخرِجِيَّ هم؟»؛ إذ لَم يكُن يظُنُّ أنَّ قومَهُ يُخرِجونَ مَن جاءَهُم بِالحقِّ.

ووجهُ الدلالَةِ مِن خبرِ ورقَةَ أنَّ معاداةَ أهلِ الحقِّ سُنَّةٌ كونيَّةٌ مطَّرِدَةٌ فِي كلِّ مَن جاءَ

بِالهدىٰ، لَا تختَصُّ بِنبيٍّ دونَ نبيٍّ، وَلَا بِزمانٍ دونَ زمانٍ؛ فلمَّا كانَ هَذَا حالَ سيِّدِ الرُّسُلِ -ﷺ-، فمَن دونَهُ مِنَ الدُّعاةِ أَولَىٰ بِأن يَلقَىٰ مِثلَ ذلكَ، فَلَا ينبَغِي لهُ أَن يستَغرِبَ الْأَذَىٰ، بَل يُوَطِّنَ نفسَهُ عليهِ، ويعلَمَ أنَّهُ عَلَىٰ إِثرِ الأنبياءِ.

فكلُّ مَن دعا إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ المنهَجِ الصَّحيحِ، وَلَم يَحِد عنهُ، وَلَم يُبالِ بِأحَدٍ، فَلَا بُدَّ أَن يتوَقَّعَ الأذىٰ؛ فَمَا واجِبُهُ حينَئذٍ؟ أَن يصبِرَ.

فعليهِ أَن يتَجَمَّلَ بِالصَّبرِ عَلَىٰ مَا يُلاقِي مِنَ النَّاسِ؛ فكلُّ مَا يُصيبُهُ فِي هَذَا السَّبيلِ مأجورٌ عليهِ، ولهُ قُدوَةٌ بِالأنبياءِ.

مسألة: ضرورَةُ الصّبرِ فِي العلمِ:

طَلَبُ العِلمِ طريقٌ طويلٌ شاقٌّ، لَا يتَحَمَّلُهُ إِلَّا أصحابُ الهِمَمِ العاليَةِ، وَلَولَا المشَقَّةُ لكانَ النَّاسُ كلُّهُم عُلَماءَ.

وَمَعَ المشَقَّةِ توجَدُ حلاوَةٌ تُسهِّلُ الطَّرِيقَ، وكلَّما تقدَّمَ الطَّالِبُ زادَ ذوقُهُ لَهَا، فدَفَعَتهُ إِلَىٰ المُواصَلَةِ؛ فالصَّبرُ عَلَىٰ ذلكَ أوَّلُهُ مُرٌّ، وآخِرُهُ أَحلَىٰ مِنَ الشَّهدِ.

والفارِقُ بينَ طالِبِ العِلمِ وأشباهِ الطُّلَّابِ هُوَ الصَّبرُ؛ فَلَا عِلمَ وَلَا فهمَ وَلَا رُسوخَ إِلَّا بِمُصابَرَةٍ طويلَةٍ، ولِذا قالَ موسىٰ لِلخَضِرِ: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ۝٦٩﴾ [سورة الكهف:٦٩].

ووجهُ كونِ الصَّبرِ فِي طلَبِ العِلمِ أصلًا لِلصَّبرِ عَلَىٰ العمَلِ أنَّ العبدَ إِذَا لَم يصبِر عَلَىٰ قِراءَةِ سطرَينِ فِي مسائلِ الاعتِقادِ، فأنَّىٰ لهُ أَن يصبِرَ عَلَىٰ القِيامِ بِمُقتَضاهُما إِذَا نزَلَتِ الفِتَنُ واشتَدَّ البَلاءُ؟

فإنَّ الصَّبرَ عَلَىٰ الطَّلَبِ يورِثُ بصيرَةً، والبَصيرَةُ تورِثُ ثباتًا عندَ المِحنَةِ؛ ولِهذا

كانَ السَّلَفُ يتواصَونَ بِالعِلمِ قبلَ القولِ والعمَلِ، لِأنَّ مَن ضعُفَ عِلمُهُ ضعُفَ صبرُهُ، ومَن لَم يعرِفِ الحقَّ معرِفَةً راسِخَةً لَم يثبُت عليهِ عندَ وُرودِ الشُّبُهاتِ والشَّهَواتِ.

وَفِي زمانٍ غلَبَت فيهِ البِدَعُ، وظهَرَ فيهِ الشِّركُ، وغابَت معالِمُ التَّوحيدِ والسُّنَّةِ، وكثُرَ المُخالِفُ، وقلَّ النَّاصِرُ؛ صارَ المُوَحِّدُ السُّنِّيُّ أحوَجَ مَا يكونُ إِلَىٰ عِلمٍ يُقَوِّي يقينَهُ، ويُثَبِّتُ قلبَهُ عَلَىٰ صِراطِ اللهِ المُستَقيمِ.

اللهمَّ ارزُقنا عِلمًا نافِعًا، وعمَلًا صالِحًا، وثباتًا عَلَىٰ الحقِّ، وصَبرًا عَلَىٰ البَلاءِ، حتَّىٰ نلقاكَ وأنتَ راضٍ عنَّا.

٧٣ - ومِن جميلِ مَا قيلَ فِي الصَّبرِ عَلَىٰ الطَّلَبِ مَا جاء فِي «الجامِعِ لِأخلاقِ الرَّاوي» (٢/ ١٨٠):

اصبِر عَلَىٰ مضَضِ الإدلاجِ ... وبِالرَّواحِ عَلَىٰ الحاجاتِ
لَا تعجِزَنَّ وَلَا يُضجِرك ... فالنُّجحُ يتلَفُ بينَ العجزِ
إنِّي رأيتُ وَفِي الأيَّامِ تجرِبَةٌ ... لِلصَّبرِ عاقِبَةً محمودَةَ الأثَرِ
وقلَّ مَن جدَّ فِي أمرٍ يُطالِبُهُ ... واستَصحَبَ الصَّبرَ إلَّا فازَ

٧٤ - وكانَ مالِكُ بنُ دينارٍ يَبكِي وَيَبكِي أصحابُهُ، ويقولُ فِي خِلالِ بُكائِهِ: «اصبِروا عَلَىٰ طاعَتِهِ، فإنَّما هُوَ صَبرٌ قليلٌ وغُنمٌ طويلٌ، والأمرُ أعجَلُ مِن ذلكَ».

٧٥ - وقالَ ابنُ المُبارَكِ: «مَن صبرَ فَمَا أقَلَّ مَا يصبِرُ، ومَن جزِعَ فَمَا أقَلَّ مَا يتَمَتَّعُ»[(١)].

---

(١) أخرَجَهُما ابنُ أبي الدُّنيا في «الصَّبرِ والثَّوابِ عليهِ» (ص١٠١).

مسألة: ضرورة الصّبرِ فِي العمَلِ الصّالِحِ:

الصَّبرُ فِي العمَلِ عَلَىٰ ثلاثِ مراتِبَ:

الأولىٰ: الصَّبرُ قبلَ العمَلِ؛ فَلَا يصِحُّ أَن يعبُدَ العبدُ ربَّهُ عَلَىٰ جهلٍ، بَل يصبِرُ حتَّىٰ يتعَلَّمَ العِبادَةَ كَمَا شرَعها النَّبيُّ -ﷺ-؛ فالعِباداتُ لَا تُؤَدَّىٰ عَلَىٰ الهوىٰ، بَل عَلَىٰ قولِهِ -ﷺ-: «صلُّوا كَمَا رأيتُموني أُصَلِّي»، وقولِهِ: «خُذوا عنِّي مناسِكَكُم».

الثَّانيَةُ: الصَّبرُ أثناءَ العمَلِ، وَهُوَ نوعانِ: صَبرٌ عَلَىٰ أداءِ العِبادَةِ كَمَا يُحِبُّ اللهُ بِلا تهاوُنٍ وَلَا استِعجالٍ، وصَبرٌ عَلَىٰ حُضورِ القلبِ؛ لِأَنَّ العِبادَةَ بِلا خُشوعٍ قليلَةُ الأثَرِ، ورُبَّما لَم يُكتَب لِلعبدِ مِنهَا إِلَّا نِصفُها أَو ثُلثُها أَو أقَلُّ.

الثَّالثَةُ: الصَّبرُ بعدَ العمَلِ، ويتَجلَّىٰ فِي أمرَينِ: الصَّبرُ عَن فِعلِ مَا يُحبِطُ ثوابَهُ، فإنَّ السَّيِّئاتِ اللَّاحِقَةَ قَد تذهَبُ بِالحسَناتِ السَّابِقَةِ، قالَ تعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [سورة محمد:٣٣]؛ والصَّبرُ عنِ التَّسميعِ بِالعمَلِ وإظهارِهِ، فالنَّفسُ تتَشَوَّفُ لِمدحِ النَّاسِ، لكنَّ إخفاءَ الطَّاعاتِ أعظَمُ لِلأجرِ، ومَن سمَّعَ سمَّعَ اللهُ بِهِ.

ووجهُ انتِظامِ الصَّبرِ فِي هذهِ المراتِبِ الثَّلاثِ أَنَّ العمَلَ لهُ ابتِداءٌ وأثناءٌ وانتِهاءٌ، والصَّبرُ مطلوبٌ فِي كلِّ طورٍ مِنهَا: قبلَهُ لِتَصحيحِهِ بِالعِلمِ، وفيهِ لِإتقانِهِ وإحضارِ القلبِ، وبعدَهُ لِحفظِهِ مِنَ الإحباطِ والرِّياءِ؛ فمَن حفِظَ هذهِ المراتِبَ سلِمَ لهُ عمَلُهُ مِن أوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ، فالدَّعوَةُ تحتاجُ صَبرًا، والعِلمُ يحتاجُ صَبرًا، والعمَلُ يحتاجُ صَبرًا؛ فمَن جمَعَها قامَ بِالدِّينِ حقًّا عَلَىٰ الوجهِ الَّذي يُحِبُّهُ اللهُ.

مسألة: أنَّ الصّبرَ عُمدَةُ الطَّريقِ، وأنّ جهادَ النّفسِ أربعُ مراتِبَ:

اعلَم رَحِمَنِي اللهُ وَإِيَّاكَ أَنَّ الصَّبرَ هُوَ العُمدَةُ فِي طريقِ الدَّعوَةِ والعِلمِ والعمَلِ؛ فَلَا يقومُ الدَّاعيَةُ بِالدَّعوَةِ إِلَّا بِعِلمٍ يسبِقُها، ورِفقٍ يُصاحِبُها، وصَبرٍ يتبَعُها؛ وَلَا يبلُغُ العبدُ

مراتِبَ الإيمانِ وَلَا الإمامَةَ فِي الدِّينِ إلَّا بأصلَينِ: الصَّبرِ واليقينِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة:٢٤].

ووجهُ اقترانِ الصَّبرِ باليقينِ فِي نيلِ الإمامَةِ أنَّ الدِّينَ كلَّهُ يدورُ عَلَىٰ أصلَينِ: عِلمٍ يُثبِتُ الحقَّ، وعمَلٍ يحتَمِلُ مشاقَّهُ؛ فاليقينُ يُثمِرُ العِلمَ الرَّاسِخَ الَّذي لَا تزلزِلُهُ الشُّبُهاتُ، والصَّبرُ يُثمِرُ الثَّباتَ الَّذي لَا تكسِرُهُ الشَّهَواتُ والمِحَنُ؛ فمَن جمَعَهُما استَحَقَّ الإمامَةَ فِي الدِّينِ، إذ باليقينِ يهتَدي، وبالصَّبرِ يهدي ويثبُتُ.

٧٦ - وَقَد لخَّصَ فِي «زادِ المعادِ» (٣/ ١١) جِهادَ النَّفسِ فِي أربَعِ مراتِبَ، هِيَ بِعَينِها المسائلُ الأربَعُ الَّتي عقَدَ لَهَا المُصَنِّفُ رسالَتَهُ، فقالَ مَا حاصِلُهُ:

الأولىٰ: أن يُجاهِدَها علىٰ تعَلُّمِ الهُدىٰ ودينِ الحقِّ الَّذي لا فلاحَ لها ولا سعادَةَ في معاشِها ومعادِها إلَّا بهِ، ومتىٰ فاتَها عِلمُهُ شَقِيَت في الدَّارَينِ.

الثَّانيةُ: أن يُجاهِدَها علىٰ العمَلِ بهِ بعدَ عِلمِهِ، وإلَّا فمُجَرَّدُ العِلمِ بِلا عمَلٍ إن لم يضُرَّها لم ينفَعها.

الثَّالثةُ: أن يُجاهِدَها علىٰ الدَّعوَةِ إليهِ، وتعليمِ مَن لا يعلَمُهُ، وإلَّا كانَ مِنَ الَّذينَ يكتُمونَ ما أنزَلَ اللهُ مِنَ الهُدىٰ والبيِّناتِ.

الرَّابعَةُ: أن يُجاهِدَها علىٰ الصَّبرِ علىٰ مشاقِّ الدَّعوَةِ وأذىٰ الخلقِ، ويتَحَمَّلَ ذلكَ كلَّهُ لِلَّهِ.

فإذَا استكمَلَ هذهِ المراتِبَ الأربَعَ صارَ مِنَ الرَّبَّانيِّينَ؛ فإنَّ السَّلَفَ مُجمِعونَ عَلَىٰ أنَّ العالِمَ لَا يستَحِقُّ أن يُسَمَّىٰ ربَّانيًّا حتَّىٰ يعرِفَ الحقَّ، ويعمَلَ بهِ، ويُعَلِّمَهُ؛ فمَن عَلِمَ وعمِلَ وعلَّمَ فذاكَ يُدعىٰ عظيمًا فِي ملَكوتِ السَّماواتِ.

فهذهِ القواعِدُ الأربَعُ الَّتي عَلَىٰ المُسلِمِ أَن يفقَهَها ويتأمَّلَها، ويسأَلَ نفسَهُ عَن حظِّهِ مِنهَا؛ فَقَد أقسَمَ اللهُ أنَّ جِنسَ الإنسانِ فِي خُسرانٍ، إلَّا مَن عرَفَ الحقَّ، وعمِلَ بِهِ، ودعا إليهِ، وصبَرَ عَلَىٰ الْأَذَىٰ فيهِ؛ فتَوَفَّرَت فيهِمُ الخِصالُ الأربَعُ، وَهِيَ: الإيمانُ، والعمَلُ الصَّالِحُ، والتَّواصي بِالحقِّ والدَّعوَةُ إليهِ، والصَّبرُ عَلَىٰ مَا يُلاقونَ والتَّواصي بهِ.

وَهَذَا هُوَ السِّرُّ فِي كونِ هذهِ الرِّسالَةِ تلخيصًا لِسورَةِ العصرِ؛ فإنَّ اللهَ استَثنىٰ مِنَ الخُسرانِ أصحابَ هذهِ الأربَعِ بِعَينِها: فالإيمانُ ثمَرَةُ العِلمِ، والعمَلُ الصَّالِحُ هُوَ العمَلُ بِهِ، والتَّواصي بِالحقِّ هُوَ الدَّعوَةُ إليهِ، والتَّواصي بِالصَّبرِ هُوَ الصَّبرُ عَلَىٰ الْأَذَىٰ فيهِ؛ فجاءَتِ المسائلُ الأربَعُ مُطابِقَةً لِمعاني السُّورَةِ حذوًا بِحذوٍ، حتَّىٰ قالَ الشَّافِعِيُّ: لَو مَا أنزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَىٰ خلقِهِ إلَّا هذهِ السُّورَةَ لكَفَتهُم.

فالصَّبرُ أمرُهُ عظيمٌ، وَلَن تستَطيعَ أن تصبِرَ إن لَم تكُن مُخلِصًا لِلَّهِ؛ فالإخلاصُ وإرادَةُ وجهِ اللهِ مِن أعظَمِ مَا يُعينُ العبدَ عَلَىٰ الصَّبرِ.

وذلكَ أنَّكَ تعلَمُ أنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عليكَ، وأنَّكَ تُريدُ بِعمَلِكَ وجهَهُ، وأنَّهُ لَن يُضيعَ أجرَكَ وَلَا تعَبَكَ.

فمَنِ الَّذي يفقِدُ صَبرَهُ؟ هُوَ الَّذي يُريدُ وجهَ النَّاسِ، فتَعظُمُ عندَهُ ردَّةُ فِعلِهِم، فَإِذَا قابَلوهُ بِشِدَّةٍ أَو عداوَةٍ انزعَجَ.

وأمَّا الَّذي يُريدُ وجهَ اللهِ فيَستَوي عندَهُ القادِحُ والمادِحُ، ويَستَوي أنِ استَجابَ النَّاسُ لهُ أم لَم يستَجيبوا، آذَوهُ أم لَم يُؤذوهُ؛ لِأَنَّهُ يُقَدِّمُ وجهَ اللهِ وأوامِرَهُ عَلَىٰ نفسِهِ، فيُورِثُهُ ذلكَ الصَّبرَ.

ووجهُ كونِ الإخلاصِ أصلًا لِلصَّبرِ أنَّ الجزَعَ إنَّما يدخُلُ عَلَىٰ العبدِ مِن بابِ

التِفاتِهِ إِلَىٰ الخلقِ؛ فمَنِ التفَتَ إليهِم تألَّمَ بِقدحِهِم، وفرِحَ بِمدحِهِم، فصارَ أسيرًا لِأهوائِهِم، ينقَطِعُ صَبرُهُ بِانقِطاعِ ثنائِهِم؛ وأمَّا مَن أخلَصَ لِلَّهِ فَقَد تحَرَّرَ مِن رِقِّ الخلقِ، فَلَم يبقَ لِأذاهُم عليهِ سُلطانٌ، إِذ ليسَ يعمَلُ لهُم حتَّىٰ ينكَسِرَ بِإعراضِهِم؛ فبانَ أنَّ الإخلاصَ هُوَ منبَعُ الصَّبرِ، وأنَّ الرِّياءَ مِن أعظَمِ أسبابِ الجزَعِ.

والنَّاسُ يتفاوَتونَ فِي ذلكَ بِحسَبِ عِلمِهِم وعمَلِهِم وقوَّةِ إيمانِهِم؛ والأذىٰ والمشاقُّ لَا تدُلُّ عَلَىٰ أنَّ صاحِبَها مُهانٌ عندَ اللهِ، بَل عَلَىٰ العكسِ.

فَلَا ينبَغي لِأهلِ التَّوحيدِ أَن يظُنُّوا أنَّ نصرَ الدِّينِ وتبليغَهُ يحصُلُ بِالرَّاحَةِ واللَّهوِ، بَل لَا بُدَّ فيهِ مِنَ الصَّبرِ والمُجاهَدَةِ واحتِمالِ الْأَذىٰ؛ فكم مِن أُناسٍ ثبَتوا مَا دامَ الطَّريقُ سهلًا، فلمَّا لَقُوا الْأَذىٰ ضعُفوا وانقَلَبوا عَلَىٰ أعقابِهِم، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ﴾ [سورة العنكبوت:١٠].

فليَتَنَبَّه أهلُ الدِّينِ لِهذا، وليُجاهِدوا فِي اللهِ حقَّ الجِهادِ، وليَصبِروا عَلَىٰ مَا يلقَونَ؛ فإنَّ العاقِبَةَ لِلمُتَّقينَ، وليَعلَموا أنَّ الإمامَةَ فِي الدِّينِ لَا تُنالُ إلَّا بِالصَّبرِ واليقينِ، وأنَّ النَّصرَ مَعَ الصَّبرِ؛

٧٧ - **كَمَا قالَ** -ﷺ-: «واعلَم أنَّ النَّصرَ مَعَ الصَّبرِ، وأنَّ الفرَجَ مَعَ الكربِ، وأنَّ مَعَ العُسرِ يُسرًا».

فهذِهِ هِيَ المسائلُ الأربَعُ الَّتي يجِبُ تعَلُّمُها، واللهُ المُستَعانُ، وعليهِ التُّكلانُ.

قال المؤلف - رحمه الله -:

والدليل قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر: ١-٣].

استَدَلَّ المُصَنِّفُ عَلَىٰ وُجوبِ تعَلُّمِ المسائلِ الأربَعِ بِسورَةِ العصرِ، وَهِيَ سورَةٌ عظيمَةٌ مَعَ وِجازَتِها؛ إذ جمَعَت أصولَ النَّجاةِ الأربَعَةَ: الإيمانَ، وَهُوَ العِلمُ؛ والعمَلَ الصَّالِحَ، وَهُوَ العمَلُ بهِ؛ والتَّواصيَ بِالحقِّ، وَهُوَ الدَّعوَةُ؛ والتَّواصيَ بِالصَّبرِ، وَهُوَ الصَّبرُ عَلَىٰ الأَذَىٰ.

٧٨ - **وقالَ الشَّافِعيُّ:** «لَو مَا أنزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَىٰ خلقِهِ إلَّا هذهِ السُّورَةَ لكَفَتهُم»؛ أَي: مَن تدَبَّرَها عرَفَ حقائقَ الدِّينِ الكُبرىٰ.

ووجهُ استِدلالِ المُصَنِّفِ بهذهِ السُّورَةِ عَلَىٰ المسائلِ الأربَعِ أنَّهُ بنىٰ رسالَتَهُ عَلَىٰ ميزانٍ قُرآنيٍّ مُحكَمٍ، لَا عَلَىٰ مُجرَّدِ تقسيمٍ اصطِلاحيٍّ؛ فأقامَ كلَّ مسألَةٍ عَلَىٰ مَا يُقابِلُها مِن خِصالِ النَّاجينَ فِي السُّورَةِ، حتَّىٰ صارَتِ الرِّسالَةُ كالشَّرحِ لَهَا؛ وَفِي هَذَا تعليمٌ لِطالِبِ العِلمِ أَن يربِطَ الأصولَ بِأدلَّتِها مِنَ الوحيِ.

مسألة: القسم بالعصر، وما يتعلق به:

قولُهُ: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [سورة العصر: ١]: الواوُ لِلقَسَمِ، أَي: أُقسِمُ بِالعصرِ.

وقدِ اختَلَفَ المُفَسِّرونَ فِي مَعنَىٰ «العصرِ» عَلَىٰ أقوالٍ:

الأوَّلُ -وَهُوَ أشهَرُها وعليهِ أكثَرُ المُفَسِّرينَ-: أنَّهُ الدَّهرُ والزَّمانُ كلُّهُ؛ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: «العصرُ: الدَّهرُ»، وقالَ زيدُ بنُ أسلَمَ: «العصرُ فِي كلامِ العرَبِ: الدَّهرُ»، ورجَّحَهُ ابنُ جريرٍ فقالَ: «هُوَ العشيُّ واللَّيلُ والنَّهارُ، وَلَم يُخصَّ منهُ شيءٌ».

الثَّاني: أنَّهُ آخِرُ النَّهارِ (العشيُّ)؛ رُوِيَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ فِي روايَةٍ: «مَا قبلَ مغيبِ الشَّمسِ مِنَ العشيِّ»، وقالَ الحسَنُ: «العصرُ: العشيُّ».

الثَّالثُ: أنَّها صلاةُ العصرِ؛ ذكَرَهُ مُقاتِلٌ، وليسَ بِمشهورٍ.

والصَّوابُ -واللهُ أعلَمُ- أنَّهُ الزَّمانُ؛ لِأنَّ اللهَ أقسَمَ بِهِ تفخيمًا لِأمرِهِ.

والزَّمانُ أشرَفُ مَا أُعطِيَ الإنسانُ؛ لِأنَّهُ الظَّرفُ الَّذي يتقَرَّبُ فيهِ إِلَىٰ اللهِ، ويجمَعُ فيهِ رصيدَهُ مِنَ العمَلِ؛ فَلَو أُعطِيَ المرءُ جميعَ مَا فِي الدُّنيا وليسَ عندَهُ وقتٌ، لَم يستَطِع أَن يُقَدِّمَ شيئًا؛ فَهُوَ محَلُّ الأعمالِ ومخزَنُها، فيهِ تُعمَلُ الصَّالِحاتُ الَّتي يدخُلُ بِها الجنَّةَ، وفيهِ تُعمَلُ السَّيِّئاتُ الَّتي يستَوجِبُ بِها العِقابَ.

وَقَد أقسَمَ اللهُ بِالزَّمانِ فِي مواضِعَ، كقولِهِ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، و﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾، و﴿وَٱلَّيۡلِ﴾.

ووجهُ ترجيحِ حملِ العصرِ عَلَىٰ الزَّمانِ أنَّ السُّورَةَ سيقَت لِبيانِ خُسرانِ الإنسانِ ونجاتِهِ، ومدارُ ذلكَ عَلَىٰ مَا يُودِعُهُ فِي زمانِهِ مِن عمَلٍ؛ فناسَبَ أَن يُقسِمَ بِالظَّرفِ الَّذي فيهِ مدارُ الرِّبحِ والخُسرانِ، تنبيهًا عَلَىٰ أنَّ رأسَ مالِ العبدِ أنفاسُهُ وأوقاتُهُ، فمَن أضاعَها خسِرَ، ومَن عمَرَها بِالطَّاعَةِ رَبِحَ.

مسألة: أنّ القسَمَ بالمخلوقِ خاصٌّ بالله:

لاحِظ يَا رَعاكَ اللهُ أنَّ اللهَ أقسَمَ بِالعصرِ وَهُوَ مخلوقٌ، ولهُ سُبحانَهُ أَن يُقسِمَ بِما

شاءَ مِن خلقِهِ تعظيمًا لهُ، كَمَا أقسَمَ بِـ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾ و﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ و﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾.

وأمَّا المخلوقُ فَلَا يجوزُ لهُ أن يحلِفَ إلَّا باللهِ؛ لِقولِهِ -ﷺ- فِي الصَّحيحَينِ: «مَن كانَ حالِفًا فليَحلِف باللهِ أو لِيَصمُت»، **وثبَتَ عنهُ:** «مَن حلَفَ بِغيرِ اللهِ فَقَد كفَرَ أَو أشرَكَ».

٧٩- **وَفِي حديثِ عمرَ -عندَ البُخاريِّ (٦٢٧١) ومُسلِمٍ (١٦٤٦)-:** قالَ لِي رسولُ اللهِ -ﷺ-: «إنَّ اللهَ ينهاكُم أَن تحلِفوا بِآبائكُم»، قالَ عمرُ: فواللهِ مَا حلَفتُ بِها مُنذُ سمِعتُ النَّبيَّ -ﷺ- ذاكِرًا وَلَا آثِرًا.

٨٠- **وَرَوَىٰ مُسلِمٌ (١٦٤٨) عَن عبدِ الرَّحمَنِ بنِ سمُرَةَ:** «لَا تحلِفوا بِالطَّواغي وَلَا بِآبائكُم».

٨١- **وَرَوَىٰ النَّسائيُّ (٦/٧) وأحمدُ (رقم ٢٦٥٥٣) والحاكِمُ (رقم ٧٨١٥ وصحَّحَهُ) عَن قُتيلَةَ بنتِ صَيفيٍّ أنَّ يهوديًّا قالَ لِلنَّبيِّ -ﷺ-:** إنَّكُم تُندِّدونَ وتُشرِكونَ، تقولونَ: مَا شاءَ اللهُ وشِئتَ، وتقولونَ: والكعبَةِ؛ فأمَرَهُم -ﷺ- إِذَا أَرَادُوا الحلِفَ أَن يَقُولُوا: «وربِّ الكعبَةِ»، وَأَن يَقُولُوا: «مَا شاءَ اللهُ ثمَّ شِئتَ».

ووجهُ الجمعِ بينَ إقسامِ اللهِ بِمخلوقاتِهِ ونهيِ العبدِ عَن ذلكَ أنَّ القَسَمَ تعظيمٌ لِلمُقسَمِ بِهِ، فَإِذَا أقسَمَ اللهُ بِشيءٍ مِن خلقِهِ دلَّ عَلَىٰ عِظَمِ آيَتِهِ فيهِ، وَهُوَ سُبحانَهُ لهُ أن يُعظِّمَ مَا شاءَ؛ وأمَّا العبدُ فَإِنَّ أقسَمَ بِمخلوقٍ فَقَد سوَّىٰ المخلوقَ بِالخالِقِ فِي التَّعظيمِ، وذلكَ شركٌ؛ فافترَقَ الأمرانِ.

٨٢- **قالَ الشَّعبيُّ:** «الخالِقُ يُقسِمُ بِما شاءَ مِن خلقِهِ، والمخلوقُ لَا ينبَغي لهُ أَن

يُقسِمَ إلَّا بِالخالِقِ». (١)

٨٣- **وقالَ مُطَرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ:** «إنَّما أقسَمَ اللهُ بِهذهِ الأشياءِ لِيُعَرِّفَ المخلوقينَ قدرَتَهُ، ولِدَلالَتِها عَلَىٰ خالِقِها». (٢)

مسألة: جواب القسم، ومؤكداته الثلاثة:

قالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [سورة العصر:٢]، وَهُوَ جوابُ القَسَمِ؛ و«إنَّ» مِن أدواتِ التَّوكيدِ.

٨٤- **قالَ أَبُو البَقاءِ العُكبَرِيُّ فِي «اللُّبابِ» (١/ ٢٠٥):** «إنَّما دخلَت (إنَّ) عَلَىٰ الكلامِ لِلتَّوكيدِ عوضًا عَن تكريرِ الجُملَةِ، وَفِي ذلكَ اختِصارٌ تامٌّ مَعَ حُصولِ الغرَضِ مِنَ التَّوكيدِ؛ فَإِنَّ دخلَتِ اللَّامُ فِي خبرِها كانَ آكَدَ، وصارَت (إنَّ واللَّامُ) عوضًا مِن تكريرِ الجُملَةِ ثلاثَ مرَّاتٍ».

وقولُهُ: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ [سورة العصر:٢]: اللَّامُ تُسَمَّىٰ المُزَحلَقَةَ، وَهِيَ لِلتَّوكيدِ؛ فاجتَمَعَ هُنَا ثلاثَةُ مؤكِّداتٍ: القَسَمُ، و«إنَّ»، واللَّامُ المُزَحلَقَةُ.

وسُمِّيَت مُزَحلَقَةً؛ لِأَنَّ حقَّها أَن تدخُلَ عَلَىٰ المُبتَدَأ، فيُقالُ: «لَلإنسانُ فِي خُسرٍ»، لَكِن لمَّا اجتَمَعَت مَعَ «إنَّ» أُخِّرَت إِلَىٰ الخبَرِ، فزُحلِقَت.

ووجهُ اجتِماعِ هذهِ المؤكِّداتِ الثَّلاثَةِ أنَّ التَّوكيدَ يشتَدُّ بِحسَبِ إنكارِ المُخاطَبِ؛ فمَن كانَ خاليَ الذِّهنِ يُخبَرُ بِلا تأكيدٍ، ومَن كانَ مُنكِرًا -أَو مُنَزَّلًا منزِلَةَ المُنكِرِ- أُكِّدَ لهُ الكلامُ؛ ولمَّا كانَ المُشرِكونَ فِي غُرورِهِم يرَونَ أنَّهُم أهلُ النَّجاةِ، ويُنكِرونَ أنَّهُم فِي

---

(١) أخرجَهُ ابنُ المُنذِرِ في «الأوسَطِ» (١٢/ ٩٧).

(٢) ذكرَهُ في «المُغني» (١١/ ١٦٣).

خُسرانٍ، بَل يُنكِرُ بعضُهُم أصلَ البَعثِ والحِسابِ، أُكِّدَ الخبَرُ فِي حقِّهِم بِثلاثَةِ مؤكِّداتٍ، تنبيهًا لهُم وقطعًا لِعُذرِهِم.

مسألة: المراد بالإنسان، وأنّ الاستثناء معيار العموم:

المرادُ بِالإنسانِ هُنَا جِنسُ الإنسانِ كلُّهُ؛ ويدُلُّ عليهِ الاستِثناءُ الوارِدُ بعدَهُ، فإنَّ الاستِثناءَ معيارُ العُمومِ.

وقدِ اتَّفقَ السَّلَفُ عَلَىٰ أنَّ الخُسرانَ وصفٌ عامٌّ لِجِنسِ الإنسانِ؛ فالألِفُ واللَّامُ فِي «الإنسانِ» لِلاستِغراقِ والشُّمولِ، أَي: كلُّ إنسانٍ واقِعٌ فِي الهلاكِ والخسارَةِ إلَّا مَنِ استَثناهُ اللهُ.

٨٥ - **رَوَىٰ عبدُ الرَّزَّاقِ (٢/ ٣٩٤) عَن محمدِ بنِ كعبٍ القُرَظيِّ -مِن طريقِ عبدِ العزيزِ بنِ أَبِي روَّادٍ- فِي الآيَةِ قالَ:** «النَّاسُ كلُّهُم»، وروي نحوُهُ عَن مُجاهِدٍ.

٨٦ - **وَرَوَىٰ أيضًا عنِ النَّخَعيِّ -مِن طريقِ ابنِ عَونٍ- قالَ:** «أرادَ أنَّ الإنسانَ إذَا عُمِّرَ فِي الدُّنيا وهرِمَ لفي نقصٍ وضعفٍ وتراجُعٍ، إلَّا المؤمنينَ، فإنَّهُ يُكتَبُ لهُم أجورُ محاسِنِ أعمالِهِمُ الَّتي كَانُوا يعمَلونَهَا فِي حالِ شبابِهِم وقوَّتِهِم»؛ وَهُوَ نظيرُ قولِهِ تَعالَىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [سورة التين: ٤-٦].

مسألة: أنواع الخسارة:

الخسارَةُ نوعانِ:

الأوَّلُ: الخُسرانُ المُطلَقُ، وَهُوَ خُسرانُ الكُفَّارِ الَّذينَ خسِروا أنفُسَهُم وأهليهِم يومَ القِيامَةِ.

الثَّاني: الخُسرانُ الجُزئيُّ النِّسبيُّ، وَهُوَ خُسرانُ أهلِ المعاصي الَّذينَ لَم يغفِرِ اللهُ

لهُم؛ فهؤلاءِ يُعاقَبونَ بِقدرِ جرائمِهِم، وخُسرانُهُم ليسَ كلِّيًّا كخُسرانِ الكُفَّارِ.

ووجهُ هَذَا التَّقسيمِ أنَّ الاستِثناءَ فِي الآيَةِ علَّقَ النَّجاةَ عَلَىٰ أربعِ خِصالٍ، فمَن فقدَها كلَّها -وهمُ الكُفَّارُ- خسِرَ خُسرانًا مُطلَقًا لَا ربحَ معهُ؛ ومَن فقدَ بعضَها -وهمُ العُصاةُ مِنَ المُوحِّدينَ- خسِرَ بِقدرِ مَا فقدَ، لَا خُسرانًا كلِّيًّا؛ فدلَّتِ الآيَةُ بِمنطوقِها ومفهومِها عَلَىٰ مراتِبِ النَّاسِ فِي الرِّبحِ والخُسرانِ.

ثمَّ استَثنىٰ اللهُ أهلَ الفَلاحِ فقالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [سورة العصر:٣]؛ وهذهِ الأربعُ تُقابِلُ المسائلَ الأربعَ الَّتي ذكرَها المُصنِّفُ:

المسألَةُ الأولىٰ: العِلمُ، ويُقابِلُها قولُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ وذلكَ أنَّ الإيمانَ لَا يتَحقَّقُ إلَّا بِالعِلمِ، إذ لَا يُمكِنُ أن يعبُدَ العبدُ ربَّهُ وَهُوَ لَا يعرِفُهُ، وَلَا يعرِفُ رسولَهُ، وَلَا يعرِفُ مَا شرَعَ لهُ؛ فالإيمانُ مُستَلزِمٌ لِلعِلمِ، فذكَرَ سُبحانَهُ اللَّازِمَ (الإيمانَ) لِلدَّلالَةِ عَلَىٰ الملزومِ (العِلمِ).

المسألَةُ الثَّانيَةُ: العمَلُ، ويُقابِلُها قولُهُ: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ والإيمانُ عندَ أهلِ السُّنَّةِ اعتِقادٌ بِالجَنانِ، وقولٌ بِاللِّسانِ، وعمَلٌ بِالأركانِ، فالعمَلُ داخِلٌ فِي الإيمانِ؛ وَلَو لَم تُذكَر ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لكانت مُتَضَمَّنَةً فِي ﴿ءَامَنُواْ﴾، لكنَّ اللهَ أفرَدَها مِن بابِ عطفِ الخاصِّ عَلَىٰ العامِّ، بَيانًا لِشرَفِها وتأكيدًا لِوُجوبِ العِنايَةِ بِها.

المسألَةُ الثَّالثَةُ: الدَّعوَةُ، ويُقابِلُها قولُهُ: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾ [سورة العصر:٣]؛ أَي: دَعَا بعضُهُم بعضًا إِلَىٰ الحقِّ، وَهُوَ يشمَلُ توحيدَ اللهِ وشرائعَهُ وكلَّ مَا جاءَ بِهِ الرَّسولُ -ﷺ-؛ وبابُ المُفاعَلَةِ يكونُ مِنَ الطَّرَفَينِ، فَهَذَا يُوصي وذاكَ يُوصي.

وَقَد رُوِيَ فِي تفسيرِ «الحقِّ» أقوالٌ: أنَّهُ اللهُ (قالَهُ يحيىٰ بنُ سلَّامٍ)، أَو كِتابُهُ (قالَهُ الحسَنُ وقتادَةُ)، أَو التَّوحيدُ (قالَهُ مُقاتِلٌ)، وروي عَن أُبَيٍّ وابنِ عبَّاسٍ تمثيلُهُ بِعُثمانَ، وكلُّها متَقارِبَةٌ تعودُ إِلَىٰ الحقِّ الَّذي جاءَ بِهِ الرَّسولُ -ﷺ-.

المسأَلَةُ الرَّابِعَةُ: الصَّبرُ، ويُقابِلُها قولُهُ: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾؛ أَي: صبَروا عَلَىٰ طلَبِ العِلمِ والعمَلِ بِهِ والدَّعوَةِ إليهِ والأذىٰ الواقِعِ فِي سبيلِهِ، ويُذَكِّرُ بعضُهُم بعضًا بِوُجوبِ الصَّبرِ.

وَقَد رُوِيَ فِي تفسيرِهِ: أنَّهُ الصَّبرُ عَلَىٰ الفرائضِ والأقدارِ، أَو عَلَىٰ الطَّاعَةِ، أَو عَلَىٰ أمرِ اللهِ عُمومًا، وروي عَن أُبَيٍّ وابنِ عبَّاسٍ تمثيلُهُ بِعليٍّ.

ووجهُ مُطابَقَةِ المسائلِ الأربَعِ لِخِصالِ النَّاجينَ أنَّ المُصَنِّفَ لاحَظَ أنَّ الخصلَتَينِ الأُولَيَينِ -الإيمانَ والعمَلَ- بِهما يُكَمِّلُ المرءُ نفسَهُ، والأخرَيَينِ -التَّواصيَ بِالحقِّ والصَّبرِ- بِهما يُكَمِّلُ غيرَهُ؛ فجاءَتِ المسائلُ الأربعُ عَلَىٰ هَذَا التَّرتيبِ عينِهِ: عِلمٌ وعمَلٌ يُصلِحُ بِهما نفسَهُ، ثمَّ دعوَةٌ وصَبرٌ يُصلِحُ بِهما غيرَهُ؛ وبِتكميلِ غيرِهِ يرتَفِعُ هُوَ، إِذ لِكلِّ مَن عمِلَ بِتَعليمِهِ أجرٌ يجري إليهِ.

مسألة: أنّ سائر الخصال داخلة في العمل الصالح:

ممَّا ينبَغي التَّنَبُّهُ لهُ أنَّ التَّواصيَ بِالحقِّ والتَّواصيَ بِالصَّبرِ داخِلانِ فِي عُمومِ العمَلِ الصَّالِحِ؛ إِذ همَا مِن جُملَةِ الأعمالِ الصَّالِحَةِ، لكنَّ اللهَ أفرَدَهُما بِالذِّكرِ عطفًا لِلخاصِّ عَلَىٰ العامِّ، تنويهًا بِشأنِهما، وبَيانًا لِعِظَمِ موقِعِهما فِي الدِّينِ.

ووجهُ إفرادِ هذهِ الخِصالِ الثَّلاثِ -العمَلِ الصَّالِحِ، والتَّواصي بِالحقِّ، والتَّواصي بِالصَّبرِ- بعدَ دُخولِها فِي الإيمانِ، أنَّ المقصودَ تمييزُ كلِّ ركنٍ مِن أركانِ النَّجاةِ لِيَستَقِلَّ

بِالعِنايَةِ بِهِ؛ فَلَو طُوِيَت فِي لفظِ الإيمانِ لخَفِيَ عَلَىٰ كثيرٍ مِنَ النَّاسِ أنَّها مِن لوازِمِهِ، فأبرَزَها اللهُ واحِدَةً واحِدَة لِئَلَّا يظُنَّ ظانٌّ أنَّ الإيمانَ قولٌ بِلا عمَلٍ، أَو عمَلٌ لِلنَّفسِ بِلا دعوَةٍ، أَو دعوَةٌ بِلا صَبرٍ؛ فكانَ فِي تفصيلِها بعدَ إجمالِها أبلَغُ البَيانِ.

٨٧- **وَقَد قالَ الشَّافِعِيُّ: «لَو مَا أنزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَىٰ خلقِهِ إلَّا هذهِ السُّورَةَ لكَفَتهُم»؛** ومرادُهُ أنَّها تكفي فِي بَيانِ هذهِ الأصولِ الأربَعَةِ العظيمَةِ: العِلمِ، والعمَلِ، والدَّعوَةِ، والصَّبرِ؛ وليسَ مرادُهُ أنَّها تُغني عَن بَقيَّةِ الشَّرائعِ مِن صلاةٍ وزكاةٍ وصوم.

٨٨- **وروي عنهُ أيضًا:** «لَو تدبَّرَ النَّاسُ هذهِ السُّورَةَ لكَفَتهُم»؛ لِأنَّها دالَّةٌ عَلَىٰ الدِّينِ كلِّهِ بِدَلالَةِ المُطابَقَةِ أوِ التَّضمُّنِ أوِ اللُّزومِ.

ووجهُ كونِ السُّورَةِ دالَّةً عَلَىٰ الدِّينِ بِالدَّلالاتِ الثَّلاثِ أنَّها صرَّحَت بِالإيمانِ والعمَلِ الصَّالِحِ والتَّواصي بِالحقِّ والصَّبرِ مُطابَقَةً؛ وتضَمَّنَتِ العِلمَ فِي ضِمنِ الإيمانِ، إذ لَا إيمانَ بِلا عِلمٍ؛ ولزِمَ مِنهَا سائرُ الشَّرائعِ، إذِ العملُ الصَّالِحُ لَا يتِمُّ إلَّا بِها.

فجمَعَتِ السُّورَةُ -مَعَ وِجازَتِها- أصولَ الدِّينِ ومقاصِدَهُ، فحَقَّ لَهَا أَن تكونَ حُجَّةً كافيَةً فِي بَيانِ سبيلِ النَّجاةِ مِنَ الخُسرانِ.

فهذهِ سورَةٌ عظيمَةٌ، فِيهَا بَيانُ سبيلِ النَّجاةِ مِنَ الخُسرانِ، وبَيانُ أسبابِ الفَلاحِ والهلاكِ؛ فَقَد جمَعَت طريقَ النَّجاةِ كلَّهُ: عِلمٌ نافِعٌ، وعمَلٌ صالِحٌ، ودعوَةٌ إِلَىٰ الحقِّ، وصَبرٌ عَلَىٰ ذلكَ.

فمَن وحَّدَ اللهَ، واتَّبَعَ الرَّسولَ -ﷺ-، وعمِلَ بِالحقِّ، وصبرَ عَلَىٰ الأَذَىٰ فيهِ، فَهُوَ مِن أهلِ الرِّبحِ والنَّجاةِ؛ قالَ مُقاتِلٌ فِي قولِهِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

«فليسوا فِي خُسرانٍ».[(١)]

ومَن فقدَ واحِدَةً مِنهَا نالَ مِنَ الخُسرانِ نصيبًا بِقدرِ مَا فقدَ.

فهذهِ هِيَ المسائلُ الأربعُ الَّتي يجِبُ تعلُّمُها، والَّتي عَلَىٰ المُسلِمِ أَن يفقهَها ويتأمَّلَها، ويسأَلَ نفسَهُ عَن حظِّهِ مِنهَا؛ فَقَد أقسَمَ اللهُ أنَّ جِنسَ الإنسانِ فِي خُسرانٍ، إلَّا مَن عرَفَ الحقَّ، وعمِلَ بهِ، ودعا إليهِ، وصبرَ عَلَىٰ الْأَذىٰ فيهِ.

وخِتامُ القولِ فِي هَذَا الأصلِ أنَّ السَّعادَةَ كلَّها انتظَمَت فِي هذهِ الأربَعِ، فمَن جمَعَها فَقَد كمُلَت نفسُهُ وكمَّلَ غيرَهُ، فاستَحَقَّ أَن يكونَ مِنَ الرَّبَّانيِّينَ؛ فإنَّ السَّلَفَ مُجمِعونَ عَلَىٰ أنَّ العالِمَ لَا يستَحِقُّ أَن يُسَمَّىٰ ربَّانيًّا حتَّىٰ يعرِفَ الحقَّ ويعمَلَ بِهِ ويُعَلِّمَهُ؛ فمَن علِمَ وعمِلَ وعلَّمَ فذاكَ يُدعىٰ عظيمًا فِي ملَكوتِ السَّماواتِ.

وهذِهِ السُّورَةُ علىٰ وِجازَتِها ميزانٌ يَزِنُ بِهِ العبدُ نفسَهُ، فليَنظُرْ كلٌّ أينَ موقِعُهُ مِن هذهِ الخِصالِ الأربَعِ، واللهُ المُستَعانُ، وعليهِ التُّكلانُ.

---

(١) ذكَرَهُ في «تفسيرِهِ» (٤/ ٨٢٩).

قال المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ -:

وَقَالَ البخاريُّ: بابُ: العِلمُ قبلَ القَولِ والعَمَلِ؛ والدَّليلُ قولُه تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [سورة محمد:١٩] فبَدَأَ بالعِلمِ قبلَ القَولِ والعَمَلِ.

إنَّ أُسُسَ الدِّينِ لَا تقومُ إلَّا عَلَىٰ العِلمِ الصَّحيحِ، وَهُوَ كِتابُ اللهِ وسُنَّةُ رسولِهِ - ﷺ - بِفهمِ أصحابِهِ وأتباعِهِم.

ومِن أعظَمِ قواعِدِ الشَّرعِ الحكيمَةِ: «العِلمُ قبلَ القولِ والعمَلِ»؛ قاعِدَةٌ تحفَظُ الدِّينَ مِنَ التَّبَدُّلِ والتَّقَلُّبِ، وتَصونُ الأمَّةَ مِن شرارِ الفِتَنِ.

وَقَد وضَعَ البُخاريُّ صاحِبُ «الصَّحيح» هَذَا البابَ عُنوانًا فِي كِتابِ العِلمِ، وَهُوَ قاعِدَةٌ كُبرىٰ فِي الدِّينِ: تتَعَلَّمُ أوَّلًا، ثمَّ تعمَلُ، ثمَّ تدعو، ثمَّ تصبِرُ؛ فَلَا قولَ صحيحٌ إلَّا بعدَ عِلمٍ، وَلَا عملَ مقبولٌ إلَّا بعدَ عِلمٍ، وَلَا عِبادَةَ مُهتَدِيَةٌ إلَّا عَلَىٰ بصيرَةٍ.

واستَدَلَّ بِقولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [سورة محمد:١٩]؛ فقَدَّمَ سُبحانَهُ العِلمَ عَلَىٰ الاستِغفارِ الَّذي هُوَ مِن أجَلِّ الأعمالِ.

ووجهُ الدلالَةِ مِنَ الآيَةِ أنَّ قولَهُ ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾ عِلمٌ، وقولَهُ ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة محمد:١٩] هُوَ المعلومُ، وَهُوَ التَّوحيدُ، وقولَهُ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ عمَلٌ؛ فرتَّبَ العمَلَ عَلَىٰ العِلمِ بِفاءِ التَّعقيبِ، فدلَّ أنَّ العِلمَ أصلٌ يُبنىٰ عليهِ الدِّينُ، وأنَّ الجهلَ آفَةٌ تُفسِدُ الأعمالَ وتُضِلُّ الأقوالَ؛ وَلِهَذَا ترجَمَ بِهِ البُخاريُّ، إذِ استَنبَطَ مِن تقديمِ المعلومِ عَلَىٰ العمَلِ فِي

الآيَةِ تقديمَ العِلمِ عَلَىٰ القولِ والعمَلِ فِي الرُّتبَةِ.

وَاعلَم سلكَ اللهُ بكَ سبيلَ الرشادِ أنَّ السُّلوكَ عَلَىٰ بصيرَةٍ هُوَ العِلمُ بِالدَّليلِ، فَقَد أمَرَ اللهُ بِسُلوكِ الطَّريقِ عَلَىٰ بصيرَةٍ فقالَ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [سورة يوسف:١٠٨]؛ وَمَا معَنىٰ البَصيرَةِ إلَّا العِلمُ والتَّمَكُّنُ مِنَ الدَّليلِ قبلَ الدَّعوىٰ والعمَلِ.

٨٩- **رَوَىٰ ابنُ أَبِي حاتِمٍ (٧/ ٢٢٠٩)** عَن قتادَةَ -مِن طريقِ سعيدٍ- فِي قولِهِ ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [سورة يوسف:١٠٨] قالَ: «عَلَىٰ هُدًىٰ».

٩٠- **وقالَ مُقاتِلٌ فِي «تفسيرِهِ» (٢/ ٣٥٣):** ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [سورة يوسف:١٠٨] يعني: إِلَىٰ معرِفتِهِ، وَهُوَ التَّوحيدُ، ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ يعني: عَلَىٰ بَيانٍ.

قلتُ: والعِلمُ الحقُّ هُوَ عِلمُ الصَّحابةِ، لَا كلُّ مَا يُدَّعىٰ أنَّهُ عِلمٌ؛

٩١- **فَقَد فسَّرَ ابنُ عبَّاسٍ قولَهُ** ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ﴾ [سورة يوسف:١٠٨] **بِأصحابِ محمدٍ** -ﷺ- **قالَ:** «كَانُوا عَلَىٰ أحسَنِ طريقَةٍ، وأقصَدِ هِدايَةٍ، معدِنَ العِلمِ، وكنزَ الإيمانِ، وجُندَ الرَّحمَنِ»(١).

فأصحابُ النَّبيِّ -ﷺ- همُ المرادُ بِأهلِ العِلمِ فِي غيرِ مَا آيَةٍ:

---

(١) تفسيرُ البغويِّ (٤/ ٢٨٤).

فالبصيرةُ أعلَىٰ درجاتِ العلمِ، نسبتُها إِلَىٰ القلبِ كنسبةِ الرؤيةِ إِلَىٰ البصرِ؛ فَكَمَا يُدرِكُ البصرُ المرئيَّ عِيانًا لَا يخالِطُه شكٌّ، كَذَلِك يُدرِكُ القلبُ ذو البصيرةِ الحقَّ يقينًا لَا يخالِطُه ارتيابٌ.

وَهِيَ الخصيصةُ الَّتِي اختصَّ بِهَا الصحابةُ -رضي الله عنهم- عَن سائرِ الأمةِ، وَهِيَ أعلَىٰ مراتبِ العلماءِ؛ وَلِذَلِك دلَّ عطفُ ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ﴾ عَلَىٰ الضميرِ فِي ﴿أَدْعُوٓاْ﴾ عَلَىٰ أنَّ أتباعَه -ﷺ- حقًّا هُم أهلُ البصيرةِ الداعون إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ بصيرةٍ، لَا كلُّ من انتسبَ إِلَىٰ الاتباعِ؛ فالدعوةُ لَا تصِحُّ بمجردِ الحماسةِ والقصدِ، بَل لَا بدَّ فِيهَا من هَذَا النورِ العلميِّ اليقينيِّ الَّذِي يُبصِرُ بِهِ الداعي موضعَ قدمِه.

٩٢ - **وقالَ ابنُ زيدٍ في** ﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [سورة محمد:١٦]: هُمُ الصَّحابةُ [(١)]

٩٣ - **وقالَ قتادةُ في** ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [سورة سبأ:٦]: هُمُ الصَّحابةُ [(٢)]

ولِهذا أرشَدَ السَّلَفُ إِلَىٰ أنَّ العِلمَ المُعتبَرَ مَا رُدَّ إِلَىٰ الصَّحابةِ والآثارِ:

٩٤ - **قالَ ابنُ مسعودٍ**: «لَا يزالُ النَّاسُ صالِحينَ مُتَماسِكينَ مَا أتاهُمُ العِلمُ مِن أصحابِ محمدٍ -ﷺ- ومِن أكابِرِهِم، فَإِذَا أتاهُم مِن أصاغِرِهِم هلَكوا» [(٣)]

٩٥ - **وقالَ الأوزاعيُّ**: «العِلمُ مَا جاءَ عَن أصحابِ محمدٍ -ﷺ-، وَمَا لَم يجِئ عَن واحِدٍ منهُم فليسَ بِعِلمٍ» [(٤)]

٩٦ - وقالَ سفيانُ الثَّوريُّ: «إنَّما العِلمُ كلُّهُ العِلمُ بالآثارِ» [(٥)]

مسألة: النّهي عن القول والعمَل بلا علم:

اعلَم وفقكَ اللهُ وسددكَ أنَّ اللهَ نَهَىٰ عنِ التَّقَدُّمِ بالقولِ أوِ العمَلِ بِلا عِلمٍ فقالَ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [سورة الإسراء:٣٦]؛ وَهُوَ نهيٌ عامٌّ عَن سبقِ الكلامِ والمعارَضَةِ بِلا عِلمٍ، وأصلٌ عمَليٌّ لِمنعِ الجهلِ مِن أَن يُستَثمَرَ فِي الأقوالِ والأعمالِ.

٩٧ - **رَوَىٰ ابنُ جريرٍ (١٤/ ٥٩٣) عنِ ابنِ عبَّاسٍ -مِن طريقِ عليٍّ- في** ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ [سورة الإسراء:٣٦] **قالَ**: «لَا تَقُل».

---

(١) تفسيرُ الطَّبَريِّ (٢٢/ ١٧٠).

(٢) الطَّبَريُّ (٢٠/ ٣٥٢).

(٣) رواهُ معمَرٌ في «جامِعِهِ» (٢٠٤٤٦)، وابنُ المُبارَكِ في «الزُّهدِ» رقم (٨١٥).

(٤) (رواهُ ابنُ عبدِ البَرِّ في «الجامِعِ» رقم (١٤٢١).

(٥) المدخَلُ لِلبَيهَقيِّ (٢٣٥).

٩٨ - **وروى البيهقيُّ في «الزُّهدِ» (رقم ٩٣٢)** عنِ الفُضَيلِ بنِ عِياضٍ قالَ: «ليسَ لِأحَدٍ أن يقولَ ما لَا يعلَمُ؛ لِأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [سورة الإسراء:٣٦]».

ووجهُ كونِ هذهِ الآيَةِ أصلًا فِي البابِ أنَّ اللهَ نَهَىٰ عَن اتِّباعِ مَا لَا عِلمَ بِهِ، ثمَّ أتبعَهُ بِذكرِ السَّمعِ والبصَرِ والفُؤادِ وأنَّها مسؤولَةٌ؛ فدلَّ أنَّ العبدَ مُحاسَبٌ عَلَىٰ مَا يتَلَقَّاهُ بِحَواسِّهِ ويعتَقِدُهُ بِقلبِهِ إِن بناهُ عَلَىٰ غيرِ عِلمٍ.

فبانَ أنَّ الكِتابَ كلَّهُ يُدَلِّلُ عَلَىٰ أنَّ العِلمَ هُوَ الخطوَةُ الأُولَىٰ، وأنَّ العمَلَ إِذَا لَم يُبنَ عَلَىٰ عِلمٍ سليمٍ كانَ أهوَنَ مِن أَن يُقبَلَ أَو يصيرَ هاديًا.

ولِهذا ينبَغي لِطالِبِ العِلمِ أَن يجعَلَ هذهِ القاعِدَةَ نُصبَ عينَيهِ: العِلمُ قبلَ العمَلِ، سُئِلَ سفيانُ بنُ عُيَينَةَ عَن فضلِ العِلمِ فقالَ: «ألم تسمَع إِلَىٰ قولِهِ حينَ بدَأَ بِهِ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة محمد:١٩]، ثمَّ أمرَهُ بِالعمَلِ فقالَ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾؟»(١).

٩٩ - **وقالَ سفيانُ الثَّوريُّ -كَمَا فِي «مُسنَدِ الدَّارِميِّ» (١/ ٥١٠)-:** «اتَّهِموا رأيَكُم ورأيَ أهلِ زمانِكُم، وتَثَبَّتوا قبلَ أَن تتكَلَّموا، وتَعَلَّموا قبلَ أَن تعمَلوا؛ فإِنَّهُ يَأتِي زمانٌ يشتَبِهُ فيهِ الحقُّ والباطِلُ، ويكونُ المعروفُ فيهِ مُنكَرًا والمُنكَرُ فيهِ معروفًا، فكم مِن مُتَقَرِّبٍ إِلَى اللهِ بما يُباعِدُهُ، ومُتَحَبِّبٍ إِليهِ بِما يُبَغِّضُهُ عليهِ؛ قالَ تَعالَىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾ [سورة فاطر:٨] الآيَةَ؛ فعليكُم بِالوُقوفِ عندَ الشُّبُهاتِ حتَّىٰ يبرُزَ لكُم واضِحُ الحقِّ بِالبَيِّنَةِ، فإِنَّ الدَّاخِلَ فِيمَا لَا يعلَمُ بِغيرِ عِلمٍ آثِمٌ».

ووجهُ هَذَا الأثرِ النَّفيسِ أنَّ الثَّوريَّ ربطَ النَّجاةَ فِي زمَنِ الفِتنَةِ بِأصلَينِ: التَّثَبُّتِ قبلَ

---

(١) أخرجَهُ أبو نُعَيمٍ في «الحِليَةِ» (٧/ ٢٨٥).

القولِ، والتَّعَلُّمِ قبلَ العمَلِ؛ ثمَّ بيَّنَ أنَّ الجهلَ قَد يقلِبُ عَلَىٰ صاحِبِهِ الموازينَ، فيحسَبُ المُباعِدَ مُقرِّبًا والمُبغِضَ مُحَبِّبًا؛ فَلَا عاصِمَ مِن هَذَا الانتِكاسِ إلَّا العِلمُ، وَهُوَ عينُ مَا قرَّرَهُ البُخاريُّ فِي ترجَمَتِهِ.

وَلَا سبيلَ إِلَىٰ معرِفَةِ الفِتنَةِ والسَّلامَةِ مِنهَا إلَّا بِالعِلمِ النَّافِعِ، عُلومِ القُرآنِ والسُّنَّةِ والآثارِ؛

١٠٠ - **رَوَىٰ نُعَيمٌ فِي «الفِتَنِ» (رقم ٥) وابنُ أَبِي شيبَةَ (رقم ٣٧١٩٥) عَن حُذَيفَةَ قالَ:** «هذهِ فِتَنٌ قَد أظَلَّت كجِباهِ البقَرِ، يهلِكُ فِيهَا أكثَرُ النَّاسِ إلَّا مَن كانَ يعرِفُها قبلَ ذلِكَ».

١٠١ - **وقالَ الآجُرِّيُّ فِي «فرضِ طلَبِ العِلمِ»:** «رأسُ مالِ المؤمِنِ دينُهُ، حيثُما زالَ زالَ معهُ، لَا يُخَلِّفُهُ فِي الرِّحالِ، وَلَا يأمَنُ عليهِ الرِّجالَ... وإنَّا وإيَّاكَ فِي زمانٍ كثيرِ الفِتَنِ، إن لَم يكُن مَعَ الإنسانِ عِلمٌ بِالخَلاصِ مِن كلِّ فِتنَةٍ تَرِدُ عليهِ، وإلَّا فَقَد هلَكَ».

١٠٢ - **وَرَوَىٰ الدَّارِميُّ فِي «مُسنَدِهِ» (رقم ٣٥٠)** عَن أَبِي أُمامَةَ أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قالَ: «ستكونُ فِتَنٌ يُصبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مؤمِنًا ويُمسي كافِرًا، إلَّا مَن أحياهُ اللهُ بِالعِلمِ».

ووجهُ الدلالَةِ مِن حديثِ أَبِي أُمامَةَ أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - جعَلَ العِلمَ حياةً لِلقلبِ، كَمَا أنَّ الرُّوحَ حياةٌ لِلبَدَنِ؛ فمَن فقَدَهُ عندَ الفِتنَةِ مات قلبُهُ فتَقَلَّبَ بينَ الإيمانِ والكُفرِ، ومَن أحياهُ اللهُ بِالعِلمِ ثبَتَ وَلَم تزلزِلهُ الفِتَنُ.

فاجتَمَعَ فِي هذهِ الآثارِ أنَّ العِلمَ ليسَ فضيلَةً فحسبُ، بَل هُوَ شرطُ النَّجاةِ عندَ اشتِباهِ الأمورِ.

وَإِذَا تقرَّرَ هَذَا، فإنَّ لِلقولِ والعمَلِ بِغيرِ عِلمٍ عواقِبَ وخيمَةً:

الأولىٰ: البِدَعُ الاعتِقاديَّةُ بِاعتِقادِ خِلافِ الحقِّ، ومنشَؤُها مِنَ القولِ علىٰ اللهِ بِغيرِ عِلمٍ، قالَ تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف:٣٣]؛ فجعَلَ القولَ علىٰ اللهِ بِلا عِلمٍ قرينَ الشِّركِ، بل ختَمَ بِهِ المُحَرَّماتِ تنبيهًا علىٰ أنَّهُ أصلُها.

الثَّانيةُ: التَّعَبُّدُ لِلَّهِ بِما لم يشرَعهُ مِنَ الأوضاعِ والرُّسومِ المُحدَثَةِ، قالَ تعالىٰ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [سورة الشورى:٢١]؛ أو فسادُ العِباداتِ لِأنَّها لم تُبنَ علىٰ الصِّفَةِ الَّتي شرَعَها اللهُ.

١٠٣ - **رَوىٰ عبدُ الرَّزَّاقِ (٣/ ٥٢)** أنَّ سعيدَ بنَ المُسَيِّبِ رَأىٰ رجُلًا يُكَرِّرُ الرُّكوعَ بعدَ طُلوعِ الفجرِ فنَهاهُ، فقالَ: يا أَبَا محمدٍ، أيُعَذِّبُني اللهُ عَلَىٰ الصَّلاةِ؟ قالَ: «لَا، وَلَكِن يُعَذِّبُكَ عَلَىٰ خِلافِ السُّنَّةِ».

ظنَّ أنَّ كثرَةَ العمَلِ تُقَرِّبُ وَلَو خالَفَتِ السُّنَّةَ، فبيَّنَ لهُ سعيدٌ أنَّ مدارَ القَبولِ عَلَىٰ المُتابَعَةِ لَا عَلَىٰ مُجَرَّدِ كثرَةِ العمَلِ؛ فالعِبادَةُ المبنيَّةُ عَلَىٰ الجهلِ مردودَةٌ وَإِن كثُرَت، إذِ العمَلُ لَا يُقبَلُ إلَّا بِشرطَينِ: الإخلاصِ، والمُتابَعَةِ القائمَةِ عَلَىٰ العِلمِ.

قلتُ: وَمَثَلُ هَؤُلَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ وَجَدَ فِي نَفسِهِ قُوَّةً وَنَشاطًا، فَقَالَ لِمَن مَعَهُ: هَلُمَّ نُصَلِّ العِشَاءَ خَمسَ رَكَعاتٍ! فَهَل تَرىٰ أَحَدًا مِنَ العُقَلَاءِ يُوَافِقُهُ عَلَىٰ صَنِيعِهِ، وَيَرىٰ أَنَّهُ بِزِيَادَةِ الرَّكعَةِ عَمدًا مُتَقَرِّبٌ إِلَىٰ اللهِ؟ بَل صَلَاتُهُ كُلُّهَا بَاطِلَةٌ بِإِجماعِ المُسلِمِينَ.

هَل نَفَعَهُ حُسنُ قَصدِهِ، وَهَل انتَفَعَ بِمَا صَرَفَ مِن قُوَّتِهِ فِي طَاعَةِ اللهِ كَمَا زَعَمَ؟

١٠٤ - **وقالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ:** «لَا عُذرَ لِأَحَدٍ فِي ضلالَةٍ رَكِبَها حسِبَها هُدًىٰ، وَلَا فِي هُدًىٰ ترَكَهُ حسِبَهُ ضلالَةً؛ فَقَد بُيِّنَتِ الأمورُ، وثبَتَتِ الحُجَّةُ، وانقَطَعَ العُذرُ، وذلكَ

أنَّ السُّنَّةَ والجماعَةَ قَد أحكَمَت أمرَ الدِّينِ كلَّهُ، وتبيَّنَت لِلنَّاسِ، فَعَلَىٰ النَّاسِ الاتِّباعُ».

ويُضافُ إِلَىٰ مَا تقدَّمَ أثَرٌ جليلٌ يُجَلِّي خطَرَ البِدعَةِ وَلَو حسُنَ مقصِدُ صاحِبِها: وَهُوَ مَا رواهُ الدَّارِميُّ أنَّ ابنَ مسعودٍ - مرَّ بِقومٍ فِي المسجِدِ حِلَقًا، فِي كلِّ حلقَةٍ رجُلٌ وبِأيديهِمُ الحَصىٰ، يقولُ: كبِّروا مِائَةً، هلِّلوا مِائَةً، سبِّحوا مِائَةً، فيَفعَلونَ؛ فوقَفَ عليهِم مُنكِرًا، فقالوا: يَا أَبَا عبدِ الرَّحمنِ، مَا أرَدنا إلَّا الخيرَ!

فقالَ: «وكم مِن مُريدٍ لِلخيرِ لَن يُصيبَهُ»، وذكَّرَهُم أنَّ صحابَةَ نبيِّهِم مُتَوافِرونَ، وثيابَهُ لَم تبلَ، وآنيتَهُ لَم تُكسَر، وأنَّهُم بينَ أمرَينِ: إمَّا عَلَىٰ مِلَّةٍ أهدىٰ مِن مِلَّةِ محمدٍ، أَو مُفتَتِحو بابِ ضلالَةٍ.

قالَ الرَّاوي: فرأينا عامَّةَ أولئكَ يُطاعِنونَنا يومَ النَّهرَوانِ معَ الخوارِجِ.

وفيهِ أبلَغُ شاهِدٍ عَلَىٰ أنَّ حُسنَ النِّيَّةِ لَا يُجوِّزُ البِدعَةَ، وأنَّ البِدعَةَ بريدُ الكُفرِ، وأنَّ أسرَعَ النَّاسِ رِدَّةً أهلُ البِدَعِ.

فقاعِدَةُ: «العِلمِ قبلَ القولِ والعمَلِ» ليسَت شِعارًا يُدَّعىٰ، بَل هِيَ قلبُ الدِّينِ وروحُهُ؛ بِها تُحفَظُ العِباداتُ وتُؤَدَّىٰ عَلَىٰ بصيرَةٍ، وبِها تُحاطُ القُلوبُ مِنَ الفِتَنِ.

والمرادُ بِالعِلمِ هُنَا عِلمُ الكِتابِ والسُّنَّةِ بِفهمِ الصَّحابَةِ والسَّلَفِ؛ فمَن سارَ عَلَىٰ هَذَا المنهَجِ نجا بِفضلِ اللهِ، ومَن جحَدَهُ حاقَ بِهِ مَا حاقَ بِمَن سبَقَ مِنَ الأمَمِ حينَ تولَّوا أمورًا بِغيرِ عِلمٍ فهلَكوا.

فحَقيقَةُ الإسلامِ وروحُهُ تتَمَثَّلُ فِي الغاياتِ الثَّلاثِ: غايَةِ الخلقِ، وغايَةِ الدِّينِ، وغايَةِ الدَّعوَةِ؛ وَهَذَا أساسُ العَلاقَةِ بينَ العبدِ وربِّهِ؛

١٠٥ - **كَمَا قالَ - ﷺ - فِيمَا رواهُ البُخاريُّ (٢٨٥٦) ومُسلِمٌ (٣٠) مِن حديثِ**

مُعاذٍ-: «حقُّ اللهِ عَلَىٰ العِبادِ أَن يعبُدوهُ وَلَا يُشرِكوا بهِ شيئًا، وحقُّ العِبادِ عَلَىٰ اللهِ أَن لَا يُعَذِّبَ مَن لَا يُشرِكُ بهِ شيئًا».

ووجهُ رجوعِ الدِّينِ إِلَىٰ هذهِ الغاياتِ الثَّلاثِ أَنَّ غايَةَ الخلقِ عِبادَةُ اللهِ وحدَهُ -وَهِيَ مضمونُ معرِفَةِ الرَّبِّ-، وغايَةَ الدِّينِ إفرادُهُ بِالطَّاعَةِ عَلَىٰ مَا شرَعَ -وَهِيَ مضمونُ معرِفَةِ الدِّينِ والنبيِّ -ﷺ-، وغايَةَ الدَّعوَةِ تبليغُ ذلكَ لِلخلقِ؛ فعادَتِ الغاياتُ الثَّلاثُ إِلَىٰ الأصولِ الثَّلاثَةِ الَّتي عقَدَ المُصَنِّفُ رسالَتَهُ لَهَا، وَإِلَىٰ المسائلِ الأربَعِ الَّتي صدَّرَ بِها؛ فاتَّسَقَ بناءُ الرِّسالَةِ مِن أَوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ عَلَىٰ نسَقٍ واحِدٍ، مدارُهُ تحقيقُ عِبادَةِ اللهِ وحدَهُ عَلَىٰ بصيرَةٍ.

فهكذا كانَ اهتِمامُ النَّبيِّ -ﷺ- فِي خاصَّةِ نفسِهِ، وَفِي تعليمِهِ أهلَ بيتِهِ وخواصَّ أصحابِهِ، وَفِي دعوَتِهِ عامَّةَ النَّاسِ: تحقيقُ هذينِ الحقَّينِ؛ القِيامُ بِحقِّ اللهِ فِي الدُّنيا بِعِبادَتِهِ والإخلاصِ لهُ وطاعَتِهِ، تصديقًا بِوَعدِهِ، وطمَعًا فِي ثوابِهِ، وحُسنِ جزائهِ فِي الآخِرَةِ بِالفوزِ بِالجنَّةِ والنَّجاةِ مِنَ النَّارِ.

قال المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ -:

اعلَم - أَرشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ - أَنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسلِمٍ ومُسلِمَةٍ تَعلُّمُ ثَلاثِ هَذِهِ المَسَائِلِ والعملُ بِهِنَّ.

الأُولَىٰ: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَم يَترُكنَا هَمَلاً؛ بَل أَرسَلَ إِلَينَا رَسُولاً، فَمَن أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾﴾ [سورة المزمل:١٥-١٦].

الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللهَ لَا يَرضَىٰ أَن يُشرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرسَلٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [سورة الجن:١٨].

الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَن أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللهَ، لَا يَجُوزُ لَهُ مُوَالَاةُ مَن حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَو كَانَ أَقرَبَ قَرِيبٍ.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة المجادلة:٢٢].

تدورُ هذهِ المُقَدِّمَةُ عَلَىٰ الانقيادِ لِلتَّوحيدِ، وقدِ اشتَمَلَت عَلَىٰ ثلاثِ مسائلَ عِظامٍ:

الأولىٰ: توحيدُ الرُّبوبيَّةِ؛ وهو الإقرارُ بأنَّ اللهَ خلَقَ الخلقَ لِحِكمَةٍ، لا عبثًا ولا هَمَلًا، بل أرسَلَ الرُّسُلَ لِهدايَتِهِم، فمَن أطاعَهُم فازَ بالنَّجاةِ.

الثَّانيَةُ: توحيدُ الأُلوهيَّةِ؛ وهو إفرادُ اللهِ بالعِبادَةِ وتركُ الشِّركِ، وهو الغايَةُ الَّتي خُلِقَ لها الخلقُ.

الثَّالثَةُ: الوَلاءُ والبَراءُ؛ ويكونُ بِمُوالاةِ المؤمِنينَ والبَراءةِ مِنَ الشِّركِ وأهلِهِ.

وهذهِ المسائلُ يجِبُ تعَلُّمُها والعمَلُ بِها، وَلَا يكفي فِيهَا مُجَرَّدُ العِلمِ، بَل هِيَ مِن أصولِ الدِّينِ الَّتي يشتَرِكُ فِي معرِفَتِها الرِّجالُ والنِّساءُ.

ووجهُ جمعِ المُصَنِّفِ بينَ هذهِ الثَّلاثِ أنَّها تستَوعِبُ مراتِبَ التَّوحيدِ وثمَرَتَهُ؛ فبَدَأ بِتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ، إِذ هُوَ المدخَلُ الفِطريُّ الَّذي يُقِرُّ بِهِ حتَّىٰ المُشرِكونَ، ثمَّ ثنَّىٰ بِتوحيدِ الأُلوهيَّةِ، وَهُوَ المقصودُ الَّذي خاصَمَ النَّبيُّ -ﷺ- قومَهُ عليهِ، ثمَّ ثلَّثَ بِالوَلاءِ والبَراءِ، وَهُوَ ثمَرَةُ التَّوحيدِ ولازِمُهُ؛ فمَن وحَّدَ اللهَ لزِمَهُ أَن يُحِبَّ فِي اللهِ ويُبغِضَ فيهِ.

فجاءَتِ الثَّلاثُ مُتَرَتِّبَةً: إقرارٌ، فإفرادٌ، فموالاةٌ ومُعاداةٌ عليهِ.

وَيَدعُو المُصَنِّفُ لِقارِئِ كِتابِهِ بِقولِهِ: «أرشَدَكَ اللهُ لِطاعَتِهِ»، وَهَذَا مِن جميلِ أدَبِ العُلَماءِ؛ إِذ يبدَؤونَ النَّصيحَةَ بِالدُّعاءِ، لِأنَّ الهِدايَةَ بِيَدِ اللهِ، ومَن أُرشِدَ إِلَىٰ طاعَةِ اللهِ فقَد فازَ فوزًا عظيمًا.

ثمَّ قالَ: «اعلَم رَحِمَكَ اللهُ أنَّهُ يجِبُ عَلَىٰ كلِّ مُسلِمٍ ومُسلِمَةٍ»؛ فالمرادُ بِالوُجوبِ هُنَا الأمرُ اللَّازِمُ المُتَحَتِّمُ الَّذي لَا يسَعُ المُسلِمَ تركُهُ، ويأثَمُ بِتَركِهِ مَعَ القُدرَةِ والعِلمِ؛ وليسَ المقصودُ بِهِ الاستِحبابَ وَلَا النَّدبَ، بَل هُوَ إلزامٌ شرعيٌّ يُطالَبُ بِهِ العبدُ بينَ يدَي

اللهِ.

وقولُهُ: «عَلَىٰ كلِّ مُسلِمٍ ومُسلِمَةٍ»، يدُلُّ عَلَىٰ أنَّ هَذَا الوُجوبَ عامٌّ شامِلٌ، لَا يختَصُّ بِالرِّجالِ دونَ النِّساءِ، وَلَا بِطائفَةٍ دونَ أُخرىٰ، بَل هُوَ واجِبٌ عينيٌّ يتَوَجَّهُ إِلَىٰ كلِّ فردٍ، ذكَرًا كانَ أَو أُنثىٰ؛ ولِهذا صرَّحَ بِذِكرِ المُسلِمِ والمُسلِمَةِ معًا، تأكيدًا لِعُمومِ الحُكمِ، وقطعًا لِكلِّ توهُّمٍ فِي التَّخصيصِ.

ووجهُ تنصيصِ المُصَنِّفِ عَلَىٰ المُسلِمَةِ -مَعَ أنَّ خِطابَ التَّكليفِ يعُمُّ الجِنسَينِ- أنَّ بعضَ النَّاسِ قَد يتوَهَّمُ أنَّ طلَبَ العِلمِ فِي الاعتِقادِ خاصٌّ بِالرِّجالِ، فقطَعَ هَذَا الوهمَ بِالتَّصريحِ؛ إذِ المرأةُ مُكَلَّفَةٌ كالرَّجُلِ، تُسأَلُ فِي قبرِها عَن ربِّها ودينِها ونبيِّها -ﷺ- كَمَا يُسأَلُ، فلَزِمَها مِنَ العِلمِ بِهذهِ الأصولِ مَا يلزَمُهُ سواءً بِسواءٍ.

ثمَّ قالَ: «تعَلُّمُ ثلاثِ هذهِ المسائلِ»، أَي: يجِبُ عَلَىٰ كلِّ مُسلِمٍ ومُسلِمَةٍ أَن يتَعَلَّماها تعلُّمًا يُحقِّقُ الفهمَ والإدراكَ، لَا مُجَرَّدَ الحِفظِ والتَّرديدِ؛ لِأنَّ المقصودَ مِنَ العِلمِ العمَلُ، لَا مُجَرَّدُ المعرِفَةِ الذِّهنيَّةِ.

ولِذلكَ عقَّبَ بِقولِهِ: «والعمَلُ بِهِنَّ»، فنبَّهَ عَلَىٰ أنَّ العِلمَ وحدَهُ لَا يكفي، بَل لَا بُدَّ أَن يُثمِرَ عمَلًا؛ إذِ العمَلُ ثمَرَةُ العِلمِ ونتيجَتُهُ، وبِدونِهِ يكونُ العِلمُ حُجَّةً عَلَىٰ صاحِبِهِ لَا لهُ.

فقولُهُ: «تعلُّمُ» لَا يُرادُ بِهِ مُجَرَّدُ التَّعَلُّمِ عَلَىٰ سبيلِ الاستِحبابِ، بَل المرادُ أنَّ عِلمَ ذلكَ واجِبٌ فيتَعَيَّنُ تعلُّمُهُ؛ لِأنَّهُ لَا يجوزُ أَن يبقىٰ المُكَلَّفُ جاهِلًا بهِ، فَهُوَ يتعَلَّمُهُ لِأنَّ عِلمَهُ فرضٌ مُتعَيِّنٌ عليهِ، لَا لِمُجَرَّدِ طلَبِ العِلمِ.

ومِن خِلالِ هذهِ العِبارَةِ يتبَيَّنُ أنَّ العِلمَ -مِن حيثُ الوُجوبُ- ينقَسِمُ قِسمَينِ:

الأوَّلُ: العِلمُ الواجِبُ عيناً؛ وَهُوَ مَا يجِبُ عَلَىٰ كلِّ مُكَلَّفٍ بِعَينِهِ أَن يتعَلَّمَهُ، وَلَا يُعذَرُ أحَدٌ بِجهلِهِ.

ويدخُلُ فيهِ: معرِفَةُ اللهِ عَلَىٰ الوجهِ الصَّحيحِ، ومعرِفَةُ النَّبيِّ -ﷺ-، ومعرِفَةُ التَّوحيدِ وَمَا يُضادُّهُ، وأحكامُ الصَّلاةِ، وأحكامُ الزَّكاةِ لِمَن لهُ مالٌ، وأحكامُ الحجِّ لِمَن توَفَّرَت فيهِ شُروطُهُ.

وضابِطُهُ: أنَّ كلَّ مَا كُلِّفَ بِهِ الإنسانُ عَلَىٰ وجهِ التَّعيينِ وجَبَ عليهِ أَن يتعَلَّمَ حُكمَهُ؛ فمَن وجَبَت عليهِ الصَّلاةُ وجَبَ عليهِ أَن يتعَلَّمَ كيفِيَّتَها وشُروطَها، وَهَكَذَا.

الثَّاني: العِلمُ الواجِبُ كِفايَةً؛ وَهُوَ مَا يجِبُ عَلَىٰ الأمَّةِ بِمجموعِها لَا عَلَىٰ كلِّ فردٍ بِعَينِهِ، بِحيثُ إِذَا قامَ بِهِ مَن يكفي سقَطَ الإثمُ عنِ الباقينَ.

ومِن أمثِلَتِهِ: عِلمُ الفرائضِ، وبعضُ أبوابِ المُعامَلاتِ، والتَّخَصُّصُ فِي القضاءِ والفتوىٰ، ونحوُ ذلكَ ممَّا تحتاجُهُ الأمَّةُ وَلَا يُطالَبُ بهِ كلُّ فردٍ.

ولِهذا خصَّ المُصَنِّفُ ذِكرَ الواجِبِ العينيِّ فِي هذهِ الرِّسالَةِ، وقصَرَهُ عَلَىٰ هذهِ المسائلِ الثَّلاثِ؛ لِأَنَّها أساسُ الدِّينِ، وعليها يتوَقَّفُ صِحَّةُ العمَلِ والنَّجاةُ فِي الدَّارَينِ.

قلتُ: ووجهُ اقتِصارِ المُصَنِّفِ عَلَىٰ الواجِبِ العينيِّ فِي رسالَتِهِ أنَّهُ قصَدَ أَن يُقَرِّرَ القدرَ الَّذي لَا يسَعُ مُسلِمًا جهلُهُ، وَلَا يُعذَرُ أحَدٌ بتَركِهِ؛ فَلَم يشتَغِل بِفُروعِ العِلمِ الكِفائيِّ الَّتي يقومُ بِها بعضُ الأمَّةِ، بَل حصَرَ الكلامَ فِي الأصولِ الَّتي يُسأَلُ عَنهَا كلُّ عبدٍ فِي قبرِهِ؛ وَهَذَا مِن فِقهِ المُصَنِّفِ فِي ترتيبِ الأهَمِّ، إِذ بدَأَ بِما تتوَقَّفُ عليهِ النَّجاةُ قبلَ مَا عداهُ.

المسألة الأولى: أَنَّ اللهَ خَلقَنَا، ورَزَقنَا، ولَم يَترُكنَا هَمَلاً؛ بَل أَرسَلَ إِلَينَا رَسُولاً، فَمَن أَطَاعَهُ دَخلَ الجَنَّةَ، ومَن عَصاهُ دَخلَ النَّارَ.

والدَّلِيلُ قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾ [سورة المزمل:١٥-١٦].

قولُهُ: (أنَّ اللهَ خلقَنا).

ومعناهُ أنَّ اللهَ سُبحانَهُ هُوَ الَّذي أوجَدَنا مِنَ العدَمِ؛ فَقَد كنَّا غيرَ موجودينَ، ثمَّ تفضَّلَ علَينَا بِالخلقِ والإيجادِ، فأخرَجَنا مِنَ العدَمِ إِلَىٰ الوُجودِ، وَهَذَا مِن أعظَمِ نِعَمِهِ علَىٰ عِبادِهِ، فهُوَ الَّذي خلَقَ الخلقَ كلَّهُم، والمُتَفَرِّدُ بِذلكَ، قالَ سُبحانَهُ: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [سورة فاطر:٣]، وقالَ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ [سورة الزمر:٦٢]، وقالَ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة الصافات:٩٦]، وقالَ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:٥٦].

فهذِهِ الآياتُ وأمثالُها تدُلُّ دلالَةً قاطِعَةً علَىٰ أنَّ اللهَ هُوَ المُنفَرِدُ بِالخلقِ والإيجادِ، وأنَّهُ لَا خالِقَ سِواهُ، ولَا موجِدَ غيرُهُ.

وأمَّا الآلِهَةُ الباطِلَةُ وكلُّ مَا سِوىٰ اللهِ فلَم يخلُقوا مِنَ الكائناتِ شيئًا، قالَ تعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ

ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [سورة الحج:٧٣].

ووجهُ هَذَا التَّقريرِ أنَّ الموجوداتِ لَا تخرُجُ عَن أمرَينِ: خالِقٍ أَو مخلوقٍ؛ فالخالِقُ هُوَ اللهُ وحدَهُ، وَمَا سِواهُ فمخلوقٌ.

فَإِذَا تقرَّرَ أنَّهُ المُنفرِدُ بِالخلقِ والرِّزقِ، لزِمَ أنَّهُ المُستَحِقُّ لِلعِبادَةِ وحدَهُ؛ إذِ المُنعِمُ بِالإيجادِ والإمدادِ هُوَ الَّذي يستَحِقُّ أَن يُعبَدَ، لَا مَن لَا يخلُقُ وَلَا يرزُقُ؛ فكانَ توحيدُ الرُّبوبيَّةِ حُجَّةً عَلَىٰ توحيدِ الأُلوهيَّةِ، وَهَذَا مسلَكُ القُرآنِ فِي الاحتِجاجِ.

والمرادُ بِالخلقِ هُنَا: الإيجادُ مِنَ العدَمِ، أَي: إخراجُ الشَّيءِ مِن حالِ العدَمِ المحضِ إِلَىٰ حالِ الوُجودِ، وَهَذَا نوعٌ خاصٌّ لَا يقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ، والخلقُ -مِن حيثُ المعنىٰ- ينقَسِمُ قِسمَينِ:

الأَوَّلُ: الإيجادُ مِنَ العدَمِ؛ وَهُوَ أَن يوجِدَ الخالِقُ شيئًا لَم يكُن موجودًا أصلًا، لَا أصلَ لهُ وَلَا مادَّةَ سابِقَةَ؛ وَهَذَا خاصٌّ بِاللهِ، لَا يُشارِكُهُ فيهِ أحَدٌ، وَلَا يقدِرُ عليهِ ملَكٌ مُقرَّبٌ وَلَا نبيٌّ مُرسَلٌ؛ ودليلُهُ قولُهُ: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [سورة فاطر:٣]، فَنَفَىٰ أَن يكونَ ثَمَّ خالِقٌ سِواهُ.

الثَّاني: تحويلُ شيءٍ موجودٍ إِلَىٰ شيءٍ آخَرَ، كتَحويلِ الخشَبِ بابًا، والطِّينِ إناءً؛ فَهَذَا فِعلٌ يقدِرُ عليهِ المخلوقُ، ويُسَمَّىٰ خلقًا مِن حيثُ التَّسميَةُ اللُّغَويَّةُ لَا الحقيقَةُ الشَّرعيَّةُ؛ إِذ ليسَ إيجادًا مِنَ العدَمِ، بَل نقلٌ وتصريفٌ وتشكيلٌ لِمادَّةٍ موجودَةٍ، فَلَا يُنافي اختِصاصَ اللهِ بِالخلقِ الحقيقيِّ.

ويشهَدُ لِهذا التَّفريقِ كلامُ أهلِ اللُّغَةِ:

١٠٦ - **فَفِي «تفسيرِ الطَّبَريِّ» (١٧/ ٢٥):** «العرَبُ تُسَمِّي كلَّ صانِعٍ خالِقًا، ومنهُ

قولُ زُهَيرٍ: ولأنتَ تَفري مَا خلَقتَ، وبعـ... ـضُ القومِ يخلُقُ ثمَّ لَا يَفري».

١٠٧- **وقالَ الأزهَريُّ فِي «تهذيبِ اللُّغَةِ» (٧/ ١٦):** «ومِن صِفاتِ اللهِ: الخالِقُ والخلَّاقُ، وَلَا تجوزُ هذهِ الصِّفَةُ بالألِفِ واللَّامِ لِغيرِ اللهِ؛ والخلقُ فِي كلامِ العرَبِ: ابتِداعُ الشَّيءِ عَلَىٰ مثالٍ لَم يُسبَق إليهِ».

١٠٨- **وقالَ ابنُ فارِسٍ فِي «المقاييسِ» (٢/ ٢١٣):** «الخاءُ واللَّامُ والقافُ أصلانِ: أحَدُهما تقديرُ الشَّيءِ، والآخَرُ مَلاسَتُهُ».

قلتُ: ومحصولُ هَذَا أنَّ نِسبَةَ الخلقِ إِلَىٰ المخلوقِ إنَّما هِيَ مِن بابِ النِّسبَةِ اللُّغَويَّةِ، وَهِيَ تفيدُ نِسبَةَ الفِعلِ إليهِ نِسبَةً حقيقيَّةً تليقُ بهِ، وَهِيَ فِي مقدورِهِ؛ ولِهذا قيَّدَها اللهُ فِي حقِّ عيسىٰ فقالَ: ﴿أَنِّىٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ [سورة آل عمران:٤٩]، فقيَّدَهُ بِـ«بإذنِ اللهِ» إظهارًا لِلعُبوديَّةِ، ونفيًا لِتَوهُّمِ المُشارَكَةِ فِي خلقِ الكائناتِ؛ فبانَ أنَّ الخلقَ المُطلَقَ -الإيجادَ مِنَ العدَمِ- لَا يكونُ إلَّا لِلَّهِ، وأنَّ مَا نُسِبَ إِلَىٰ غيرِهِ مُقَيَّدٌ بِإذنِهِ ومشيئَتِهِ.

إذاً: المرادُ بِقولِ المُصنِّفِ «أنَّ اللهَ خلَقَنا» هُوَ القِسمُ الأوَّلُ: أنَّهُ أوجَدَنا مِنَ العدَمِ، لَا أنَّهُ صرَّفَ شيئًا موجودًا فحسبُ؛ وَهَذَا هُوَ الْمَعنَىٰ المُتَعَلِّقُ بِتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ، وَسَيَأتِي الكلامُ عليهِ تفصيلًا فِي موضِعِهِ.

قولُهُ: (ورزَقَنا):

يدُلُّ عَلَىٰ أنَّ اللهَ سُبحانَهُ هُوَ المُنعِمُ عَلَىٰ عِبادِهِ بِأصنافِ الرِّزقِ كلِّها؛ فكلُّ مَا ينتَفِعُ بِهِ العبدُ مِن مطعَمٍ أَو مشرَبٍ، أَو مَا يقوتُ بِهِ بدَنَهُ وتقومُ بِهِ حياتُهُ، فَهُوَ رِزقٌ ساقَهُ اللهُ إليهِ وتفَضَّلَ بِهِ عليهِ.

وَلَا يقتَصِرُ الرِّزقُ عَلَىٰ مَا يتعَلَّقُ بالأجسادِ، بَل يشمَلُ كلَّ مَا ينفَعُ العبدَ فِي دينِهِ ودُنياهُ؛ فالرِّزقُ الدِّينيُّ -كالإيمانِ والعِلمِ والهُدىٰ والتَّوفيقِ- كلُّهُ مِن عطاءِ اللهِ وفضلِهِ، كَمَا أنَّ الرِّزقَ الدُّنيويَّ -مِن مالٍ وصِحَّةٍ وأمنٍ- إنَّما هُوَ مِن عندِهِ سُبحانَهُ.

فاللهُ هُوَ الرَّازِقُ عَلَىٰ الحقيقَةِ، لَا شريكَ لهُ فِي رِزقِهِ، وَلَا يملِكُ أحَدٌ أَن يمنَحَ رِزقًا أو يمنَعَهُ إلَّا بِما قدَّرَهُ اللهُ وشاءَهُ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ [سورة هود:٦]؛ فَهُوَ الَّذي يرزُقُ الطَّيرَ فِي أوكارِها، والحيتانَ فِي بِحارِها، والنَّملَ فِي جُحورِها، والأجِنَّةَ فِي بُطونِ أمَّهاتِها، وَقَد كتَبَ رِزقَ كلِّ دابَّةٍ قبلَ إيجادِها، فَلَا يحصُلُ غيرُ مَا قدَّرَ.

١٠٩ - **رَوَىٰ مُسلِمٌ (رقم ٢٦٥٣) عَن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو قالَ: سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ:** «كتَبَ اللهُ مقاديرَ الخلائقِ قبلَ أَن يخلُقَ السَّماواتِ والأرضَ بِخمسينَ ألفَ سنَةٍ، وعرشُهُ عَلَىٰ الماءِ».

ووجهُ اقتِرانِ الرِّزقِ بِالخلقِ فِي كلامِ المُصَنِّفِ أَنَّهُما متَلازِمانِ: فمَن خلَقَ تكفَّلَ بِرزقِ مَا خلَقَ؛ وَفِي هَذَا مِن حِكمَةِ اللهِ أَن لَا ينشَغِلَ العبدُ بِطلَبِ الرِّزقِ عَن عِبادَةِ رازِقِهِ، إذ قَد ضمِنَهُ لهُ وكتَبَهُ قبلَ إيجادِهِ.

ولِذا رزَقَ سُبحانَهُ حتَّىٰ الكافِرَ -وَإِن كانَ بعيدًا عنهُ- إتمامًا لِلحُجَّةِ وإقامَةً لِسُنَّةِ الابتِلاءِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [سورة الملك:٢]؛ فمَن أيقَنَ أنَّ رِزقَهُ مكتوبٌ مضمونٌ لَم يحمِل همَّهُ، وتفَرَّغَ قلبُهُ لِعِبادَةِ ربِّهِ.

ورِزقُ الدُّنيا يشتَرِكُ فيهِ الكافِرُ والمُسلِمُ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [سورة الأعراف:٣٢]؛ فأمَّا فِي الآخِرَةِ فيُفرِدُ اللهُ الرِّزقَ لِلمؤمِنينَ.

قولُهُ: (وَلَم يترُكنا هَمَلًا):

أَي: لمَّا خلقَ الثَّقلَينِ لَم يترُكهُم مُهمَلينَ مُعطَّلينَ سُدًى، بَل أرسَلَ الرُّسُلَ وأنزَلَ الكُتُبَ، لِيُبيِّنوا مَا يُحِبُّ وَمَا يُبغِضُ، وَمَا يُرضيهِ وَمَا يُسخِطُهُ، ووعَدَ مَن أطاعَهُ بِالجنَّةِ ومَن عصاهُ بِالنَّارِ، وأوجَدَهُم لِلابتِلاءِ والاختِبارِ، قالَ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة الملك:٢].

فمَن أطاعَ المُرسَلينَ وأطاعَ ربَّ العالمينَ فالجنَّةُ موعِدُهُ، ومَن عصاهُم فالعَذابُ ينتَظِرُهُ، قالَ تَعالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا﴾ [سورة النساء:١٣-١٤].

١١٠ - **وَرَوَىٰ البُخاريُّ (رقم ٧٢٨٠)** عَن أَبِي هُرَيرَةَ أنَّ رسولَ اللهِ - ﷺ - قالَ: «كلُّ أُمَّتي يدخُلونَ الجنَّةَ إلَّا مَن أَبَىٰ».

قَالُوا: يَا رسولَ اللهِ، ومَن يَأبَىٰ؟ قالَ: «مَن أطاعَني دخَلَ الجنَّةَ، ومَن عَصَانِي فقَد أَبَىٰ».

فاللهُ مَا خلَقَ الخلقَ إلَّا لِحِكمَةٍ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة المؤمنون:١١٥-١١٦]، وقالَ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [سورة القيامة:٣٦]، قالَ السَّلَفُ: أَي: لَا يُؤمَرُ وَلَا يُنهىٰ.

ووجهُ الدلالَةِ مِنَ الآيَتَينِ أنَّ اللهَ أنكرَ عَلَىٰ مَن ظنَّ أنَّهُ خُلِقَ عبثًا، أَو أنَّهُ يُترَكُ سُدًىٰ لَا يُؤمَرُ وَلَا يُنهىٰ؛ فدلَّ أنَّ نفيَ العبَثِ يستَلزِمُ إثباتَ أمرَينِ: الشَّرعَ فِي الدُّنيا (بِالأمرِ

والنَّهي)، والجزاءَ فِي الآخِرَةِ (بِالبَعثِ والحِسابِ)؛ فمَن أقرَّ بِأنَّ اللهَ خلَقَهُ ورزَقَهُ، لزِمَهُ أَن يُقرَّ بِأنَّهُ مَا ترَكَهُ هَمَلًا، بَل أرسَلَ إليهِ رسولًا يُبَلِّغُهُ مرادَهُ.

وَهذَا الظَّنُّ -أنَّ الخلقَ بِلا حِكمَةٍ- هُوَ ظنُّ الكُفَّارِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [سورة ص:٢٧].

فأمَّا المؤمِنُ فيستَقِرُّ فِي قلبِهِ يقينٌ لَا يتَزَعزَعُ أنَّ اللهَ حكيمٌ فِي جميعِ شُؤونِهِ: يخلُقُ بِحِكمَةٍ، ويشرَعُ بِحِكمَةٍ، ويُقدِّرُ بِحِكمَةٍ بالِغَةٍ؛ فليسَ فِيمَا يُقدِّرُهُ وَلَا فِيمَا يقضيهِ شيءٌ خالٍ مِنَ الحِكمَةِ.

وَمَا ظهَرَ لَنَا وجهُهُ حمِدناهُ عليهِ، وَمَا خفِيَ عنَّا ردَدناهُ إِلَىٰ مَا ثبَتَ يقينًا: أنَّ لهُ الحِكمَةَ فِي كلِّ أحوالِهِ، عَلِمناها أَو جَهِلناها.

فَإِذَا وسوَسَ الشَّيطانُ فِي نفسِ العبدِ: لِمَ قدَّرَ اللهُ عليَّ كَذَا؟ ولِمَ ابتَلاني؟ ولِمَ هَدىٰ فُلانًا وأضَلَّ فُلانًا؟ فليَستَحضِر أمرَينِ: أوَّلُهما أَن يستَيقِنَ أنَّ اللهَ عدلٌ لَا يظلِمُ أحَدًا، وَلَا يضَعُ شيئًا فِي غيرِ موضِعِهِ؛ والثَّاني أَن يوقِنَ أنَّ لِلَّهِ فِي ذلكَ كلِّهِ حِكمَةً بالِغَةً، أدركَها العبدُ أَو خفِيَت عليهِ.

ووجهُ هَذَا الأصلِ أنَّ اللهَ لَا يشاءُ الأمورَ لِمُجَرَّدِ المشيئَةِ -كَمَا زعَمَتِ الجَبريَّةُ-، بَل لَا يشاءُ شيئًا إلَّا لِحِكمَةٍ يعلَمُها وَإن خفِيَت عَلَىٰ العِبادِ؛ فَهُوَ يُضِلُّ مَن يشاءُ عدلًا، إذ لَا يُضِلُّ إلَّا مَن قامَت فيهِ أسبابُ الضَّلالِ، وَيَهدِي مَن يشاءُ فضلًا، فهِدايَتُهُ محضُ تفَضُّلٍ وإحسانٍ، لَا يجِبُ عليهِ سُبحانَهُ لِأحَدٍ شيءٌ.

وَلَو شاءَ لَهدىٰ النَّاسَ جميعًا، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [سورة يونس:٩٩]؛ لكنَّ حِكمَتَهُ اقتَضَت أَن ينقَسِمَ النَّاسُ إِلَىٰ سعيدٍ وشقيٍّ، وَلَم يكُن

ظالِمًا لِلشَّقيِّ حينَ أضَلَّهُ، إذ أضَلَّهُ بِعَدلِهِ بعدَ قِيامِ أسبابِ الضَّلالِ فيهِ.

فكُلُّ عُقوبَةٍ يُنزِلُها اللهُ فَهِيَ عدلٌ محضٌ، وكلُّ نِعمَةٍ يُفيضُها فَهِيَ فضلٌ ومِنَّةٌ.

فالواجِبُ عَلَىٰ العبدِ أن يقِفَ عندَ مَا دلَّت عليهِ النُّصوصُ، وَلَا يخوضَ فِيمَا وراءَهُ؛ فإنَّ مَا لَم يُخبِرنا اللهُ بِهِ فقدِ استَأثَرَ بِعِلمِهِ، والقدَرُ سِرُّ اللهِ فِي خلقِهِ.

فَإِذَا أشكَلَ عليهِ أمرٌ فليَلتَجِئ إِلَىٰ المُحكَماتِ وليَعتَصِم بِأصلَينِ عظيمَينِ: أنَّ اللهَ عدلٌ لَا يظلِمُ أحَدًا، وأنَّ لهُ الحِكمَةَ البالِغَةَ فِي كلِّ مَا يقضي ويُقَدِّرُ.

الأدلَّةُ عَلَىٰ إثباتِ الحِكمَةِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ:

تثبُتُ حِكمَةُ اللهِ بِأدلَّةٍ متنَوِّعَةٍ، تتآزَرُ وتدُلُّ دلالَةً قاطِعَةً عَلَىٰ أنَّهُ حكيمٌ فِي خلقِهِ وفِعلِهِ وشرعِهِ، ومِن أهَمِّها:

الأوَّلُ: الإجماعُ؛ فَقَد أجمَعَ السَّلَفُ، وأجمَعَ المُسلِمونَ -سِوىٰ الجَهميَّةِ أهلِ الضَّلالِ- عَلَىٰ أنَّ اللهَ مُتَّصِفٌ بِالحِكمَةِ، وأنَّهُ لَا يصدُرُ عنهُ شيءٌ إلَّا وَهُوَ مبنيٌّ عَلَىٰ حِكمَةٍ بالِغَةٍ؛ ومَن ثبتَت لهُ صِفَةُ الحِكمَةِ لَم يكُن فِعلُهُ عبثًا وَلَا لعِبًا.

الثَّاني: دلالَةُ العقلِ الصَّريحِ؛ فإنَّ العقلَ السَّليمَ يشهَدُ بِإحكامِ صُنعِ اللهِ، وبَديعِ خلقِهِ، وعظيمِ إتقانِهِ لِما أوجَدَ؛ والمُتَّصِفُ بِهذا الإحكامِ يمتَنِعُ فِي حقِّهِ أن تكونَ أفعالُهُ خالِيَةً مِنَ الحِكمَةِ، أو صادِرَةً عَلَىٰ وجهِ العبَثِ، بَل يقضي العقلُ قطعًا بِأنَّها لَا تكونُ إلَّا لِغايَةٍ حكيمَةٍ.

الثَّالثُ: النُّصوصُ الشَّرعيَّةُ؛ فَقَد جاءَ فِي كِتابِ اللهِ نُصوصٌ كثيرَةٌ تُثبِتُ صِفَةَ الحِكمَةِ، وتُقَرِّرُ أنَّ أفعالَهُ وأحكامَهُ دائرَةٌ بينَ الحِكمَةِ والعدلِ والرَّحمَةِ، وَهِيَ عَلَىٰ وجهَينِ:

أحَدُهُما: التَّصريحُ بِذِكرِ الحِكمَةِ، كقولِهِ تعالَىٰ: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [سورة القمر:٥].

والثَّاني: التَّعليلُ، كقولِهِ تعالَىٰ: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [سورة النساء:١٦٥]، وقولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:٥٦]؛ فهذهِ اللَّامُ لامُ التَّعليلِ، وتُسمَّىٰ لامَ الحِكمَةِ، تدُلُّ علَىٰ أنَّ خلقَهُ لِلعِبادِ لَم يكُن عبثًا، بَل لِغايَةٍ مقصودَةٍ.

وقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾ [سورة النور:١]، **وقوله**: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ [سورة الحشر:٧]، **وقوله**: ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾ [سورة طه:٤٠]، **وقوله**: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٣﴾ [سورة القصص:١٣]، **وقوله**: ﴿وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [سورة الأنعام:١٥٥]، **وقوله**: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣﴾ [سورة الزخرف:٣]، **وقوله**: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٣٢﴾ [سورة آل عمران:١٣٢]، **وقوله**: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [سورة الأنعام:١٥٥]، **وقوله**: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [سورة الأعراف:٦٣]، **وقوله**: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٢٠٤﴾ [سورة الأعراف:٢٠٤]، **وقوله**: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [سورة المائدة:٣٢].

ومن الْأَدِلَّةِ علَىٰ إثْباتِ الْحِكمَةِ لِلَّهِ وَإنكَارِ الْعَبَثِ كما فِي قَولُهُ: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦﴾ [سورة الأنبياء:١٦]، **وَقَولُهُ**: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٥﴾

[سورة القلم:٣٥]، وَقَولُهُ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [سورة المؤمنون:١١٥].

فاجتَمَعَت طُرُقُ العِلمِ الثَّلاثُ عَلَىٰ إثباتِ الحِكمَةِ، فصارَتِ المسألَةُ مِن أبيَنِ المسائلِ؛ ولِذا لَم يُخالِف فِيهَا إلَّا مَن عطَّلَ الصِّفاتِ كالجَهميَّةِ، فزعَموا أنَّ اللهَ يفعَلُ لِمَحضِ المشيئَةِ بِلا حِكمَةٍ، وَهُوَ قولٌ يردُّهُ النَّقلُ والعقلُ معًا.

وأمَّا الغايَةُ مِن خلقِ العِبادِ فترجعُ إِلَىٰ أمرَينِ عظيمَينِ:

الأَوَّلُ: غايَةٌ مُرادَةٌ مِنَ العِبادِ أنفُسِهِم؛ وَهِيَ أَن يَقُومُوا بِما خُلِقوا لهُ، وَهُوَ عِبادَةُ اللهِ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، بِإخلاصِ الدِّينِ لهُ، وإفرادِهِ بالطَّاعَةِ والانقيادِ.

قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:٥٦]، وقالَ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الطلاق:١٢].

فاللَّامُ فِي ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:٥٦] و﴿لِتَعْلَمُوا﴾ لامُ التَّعليلِ، دالَّةٌ عَلَىٰ أنَّ خلقَهُم لَم يكُن عبثًا، بَل لِغايَةٍ بالِغَةٍ.

وَقَد حصَرَ اللهُ غايَةَ خلقِهِم فِي هَذَا بِأبلَغِ أسلوبٍ، فقالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:٥٦]؛ فـ«مَا» نافِيَةٌ، واجتِماعُها مَعَ «إلَّا» أسلوبٌ يفيدُ الحصرَ والقصرَ، أَي: مَا خلَقتُهُم لِشيءٍ مِنَ الغاياتِ إلَّا لِهذِهِ الغايَةِ العُظمىٰ.

ووجهُ ترتيبِ العِبادَةِ عَلَىٰ المعرِفَةِ أنَّ اللهَ خلَقَنا لِنَعرِفَهُ بِأسمائِهِ وصِفاتِهِ، ثمَّ نَنطَلِقَ مِن هذهِ المعرِفَةِ إِلَىٰ عِبادَتِهِ وحدَهُ؛ فالمعرِفَةُ سابِقَةٌ، والعِبادَةُ ثمرَتُها، إذ لَا يُعبَدُ مَن لَا يُعرَفُ؛ فعادَ الأمرُ إِلَىٰ مَا تقرَّرَ فِي صدرِ الرِّسالَةِ مِن تقديمِ العِلمِ باللهِ عَلَىٰ عِبادَتِهِ، فاطَّرَدَ نسَقُ الكِتابِ.

الثَّاني: غايَةٌ مُرادَةٌ بِالعِبادِ؛ وَهِيَ مُجازاةُ اللهِ لهُم عَلَىٰ أعمالِهِم، فَلَا يكونُ خلقُهُم سُدًى، بَل يُحاسَبونَ ويُجازَونَ عَلَىٰ مَا قدَّموا؛ فيكونُ جزاءُ أهلِ الإيمانِ والتَّوحيدِ فضلًا -وَهُوَ دُخولُ الجنَّةِ-، وجزاءُ أهلِ الكُفرِ والمعصيةِ عدلًا -وَهُوَ دُخولُ النَّارِ-، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [سورة الجاثية:٢٢].

فَعَلَىٰ المُسلِمِ أن يعرِفَ هذهِ الغايَةَ الَّتي خُلِقَ لَهَا، وَأَن يستَحضِرَها دائمًا، فَلَا يغفُلَ عَنهَا، وَلَا ينصَرِفَ إِلَىٰ اللَّهوِ واللَّعِبِ؛ وليَعلَم أنَّ الشَّيطانَ حريصٌ عَلَىٰ صرفِهِ عمَّا خُلِقَ لهُ، فَلَا يسلَمُ مِن مكرِهِ إلَّا مَن عصَمَهُ اللهُ، قالَ تَعالَىٰ حِكايَةً عَن إبليسَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٨٣﴾ [سورة ص:٨٢-٨٣]؛ فهؤلاءِ المُخلَصونَ هُمُ الَّذينَ عَلِموا الغايَةَ، وعمِلوا لَهَا، وثَبَتوا عَلَيهَا، فعصَمَهُمُ اللهُ مِنَ الضَّلالِ.

فتَلَخَّصَ أنَّ اللهَ سُبحانَهُ خلَقَنا، ورزَقَنا، وَلَم يترُكنا سُدًى وَلَا هَمَلًا؛ وأنَّهُ خلَقَ الخلقَ لِحِكمَةٍ بالِغَةٍ، ترجِعُ إِلَىٰ أمرَينِ:

غايَةٍ مُرادَةٍ مِنَ العِبادِ: وَهِيَ أَن يعرِفوا اللهَ ثمَّ يعبُدوهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ.

وغايَةٍ مُرادَةٍ بِالعِبادِ: وَهِيَ أَن يُجازِيَهُمُ اللهُ عَلَىٰ أعمالِهِم، فضلًا لِلمُحسِنينَ، وعدلًا فِي حقِّ المُسيئينَ.

وخِتامُ هذهِ المسألَةِ أنَّها قرَّرَت أصلَ توحيدِ الرُّبوبيَّةِ -الخلقَ والرِّزقَ والتَّدبيرَ-، ثمَّ بنَت عليهِ مَا هُوَ المقصودُ: أنَّ هَذَا الرَّبَّ الخالِقَ الرَّازِقَ لَم يترُك عِبادَهُ هَمَلًا، بَل أرسَلَ إليهِم رسولًا، وكلَّفَهُم بِعِبادَتِهِ، وجازاهُم عَلَىٰ أعمالِهِم؛ فمَن أقَرَّ بِالرُّبوبيَّةِ لزِمَهُ الإقرارُ بِالأُلوهيَّةِ والجزاءِ، إذ لَا ينفَكُّ أحَدُهُما عنِ الآخَرِ.

وبِهذا تكونُ المسألَةُ الأُولَىٰ تمهيدًا مُحكمًا لِلمسألَةِ الثَّانيَةِ: أنَّ اللهَ لَا يَرضَىٰ أَن يُشرَكَ معهُ أحَدٌ فِي عِبادَتِهِ.

قولُهُ: (بَل أرسَلَ إلينا رسولًا، فمَن أطاعَهُ دخَلَ الجنَّةَ، ومَن عصاهُ دخَلَ النَّارَ):

مِن كمالِ رحمَةِ اللهِ بِعبادِهِ أنَّهُ لَم يترُكهُم حَيارىٰ وَلَا مُهمَلينَ، بَل تفَضَّلَ عليهِم فأرسَلَ إليهِمُ الرُّسُلَ، وأنزَلَ عليهِمُ الكُتُبَ؛ لِيَكونَ الرُّسُلُ وُسَطاءَ بَلاغٍ وهِدايَةٍ بينَ الخلقِ وربِّهِم، فمُهِمَّةُ الرُّسُلِ ليسَتِ التَّصرُّفَ مِن قِبَلِ أنفُسِهِم، وَلَا التَّشريعَ مِن عندِ ذواتِهِم، وإنَّما وظيفَتُهُم أَن يُبَلِّغوا عنِ اللهِ، وَيَهدُوا النَّاسَ إِلَىٰ مَا أُمِروا بهِ.

وَعَلَىٰ هَذَا فإنَّ رِسالاتِ الأنبياءِ تنحَصِرُ فِي ثلاثَةِ أصولٍ عِظامٍ:

الأَوَّلُ: تعريفُ العِبادِ بربِّهِم؛ فيُعَرِّفونَهُم باللهِ، بأسمائهِ الحُسنىٰ وصِفاتِهِ العُلىٰ، ويُبَيِّنونَ لهُم حقَّهُ عليهِم، وَمَا يجِبُ مِن إفرادِهِ بالعِبادَةِ وتجريدِ التَّوحيدِ لهُ وحدَهُ.

الثَّاني: تعريفُهُم بِالطَّريقِ الموصِلَةِ إليهِ؛ فيُبَيِّنونَ لهُم مَا يُقَرِّبُهُم مِن ربِّهِم، فيأمُرونَهُم بِما يُحِبُّهُ اللهُ، وينهَونَهُم عمَّا يكرَهُهُ، ويدخُلُ فيهِ الأوامِرُ والنَّواهي، والحلالُ والحرامُ، وبَيانُ الصِّراطِ المُستَقيمِ.

الثَّالثُ: تعريفُهُم بِمآلِهِم وجزائهِم؛ فيُبَصِّرونَ النَّاسَ بعاقِبَةِ أعمالِهِم، وَمَا ينتَظِرُهُم عندَ الطَّاعَةِ مِنَ الثَّوابِ، وَمَا يلحَقُهُم عندَ المعصيَةِ مِنَ العِقابِ، لِيَكونوا عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن أمرِهِم.

فمَن أطاعَ الرَّسولَ فَقَد أطاعَ اللهَ، ومَن أعرَضَ عنهُ فَقَد أعرَضَ عنِ الهُدىٰ؛ فكانَ الجزاءُ دُخولَ الجنَّةِ لِأهلِ الطَّاعَةِ، ودُخولَ النَّارِ لِأهلِ المعصيَةِ.

١١١ - قَالَ ابنُ القَيِّمِ، كَمَا فِي «إغَاثَةِ اللَّهفَانِ فِي مَصَايِدِ الشَّيطَانِ» (٢/ ١٠١٢ ط

عَطَاءَاتِ العِلمِ): الأَصلَينِ اللَّذينِ جَاءَت بِهِمَا جَمِيعُ الرُّسُلِ وَالأَنبِيَاءِ، مِن أَوَّلِهِم إِلَىٰ آخِرِهِم:

أَحَدُهُمَا: عِبَادَةُ اللهِ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالكُفرُ بِمَا يُعبَدُ مِن دُونِهِ مِن إِلَهٍ.

وَالثَّانِي: الإِيمَانُ بِرُسُلِهِ، وَمَا جَاءُوا بِهِ مِن عِندِ اللهِ تَصدِيقًا وَإِقرَارًا، وَانقِيَادًا وَامتِثَالًا».

وهذهِ خُلاصَةُ دعوَةِ جميعِ الرُّسُلِ مِن أَوَّلِهِم إِلَىٰ آخِرِهِم، لَا تختَلِفُ فِي أصولِها وإنِ اختَلَفَت شرائعُها.

ثمَّ استدَلَّ المُصنِّفُ بِقولِهِ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾ [سورة المزمل:١٥-١٦]؛ وهذهِ الآيةُ دليلٌ صريحٌ عَلَىٰ أمرَينِ: الأوَّلِ أنَّ اللهَ بعثَ إِلَىٰ هذهِ الأمَّةِ رسولًا، والثَّاني أنَّ النَّجاةَ مرهونَةٌ بِطاعَتِهِ، والهلاكَ بِمُخالَفتِهِ.

١١٢- **قالَ مُقاتِلٌ فِي «تفسيرِهِ»**: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾ [سورة المزمل:١٥] أَي: يَا أهلَ مكَّةَ، ﴿رَسُولٗا﴾ أَي: محمدًا -ﷺ-، ﴿شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ أَي: شاهِدًا بِأنَّهُ بلَّغَكُمُ الرِّسالَةَ وأقامَ عليكُمُ الحُجَّةَ؛ ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾ وهو مُوسَىٰ، وَقَد كانَ مِن قومِهِ، فاستكبَروا عَن قَبولِ دعوَتِهِ، فانظُر إِلَىٰ عاقِبَةِ مَن كذَّبَ وَعَصَىٰ: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ [سورة المزمل:١٦]، أَي: أخذًا شديدًا مُهلِكًا، جمَعَ اللهُ لهُ فيهِ بينَ العَذابِ الدُّنيويِّ والبَرزَخيِّ والأُخرَويِّ: فأمَّا فِي الدُّنيا فأُغرِقَ، وأمَّا فِي البرزَخِ فقالَ تَعالَىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾ [سورة غافر:٤٦]، وأمَّا فِي الآخِرةِ فقالَ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [سورة غافر:٤٦].

ووجهُ تشبيهِ إرسالِ نبيِّنا -ﷺ- بِإرسالِ مُوسَىٰ إِلَىٰ فِرعَونَ أنَّ اللهَ أرادَ أَن يُحَذِّرَ قُرَيشًا وهذهِ الأمَّةَ أَن تسلُكَ مسلَكَ فِرعَونَ فِي التَّكذيبِ، فيَلحَقَها مَا لحِقَهُ؛ فإنَّ سُنَّةَ اللهِ فِي المُكَذِّبينَ واحِدَةٌ لَا تتَخَلَّفُ.

وَفِي ذِكرِ هذهِ العُقوباتِ الثَّلاثِ -الدُّنيَوِيَّةِ والبَرزَخيَّةِ والأُخرَوِيَّةِ- بَيانُ أنَّ مَن عَصَىٰ الرَّسولَ لَم ينجُ مِن عذابِ اللهِ فِي طورٍ مِن أطوارِهِ؛ فَهُوَ وعيدٌ مُتَتابِعٌ يقطَعُ عَلَىٰ المُعرِضِ كلَّ رجاءٍ فِي النَّجاةِ مَعَ الإصرارِ.

وَهَذَا المصيرُ ليسَ خاصًّا بِفِرعَونَ، بَل سُنَّةٌ جارِيَةٌ فِي كلِّ مَن أعرَضَ عَن دعوَةِ الرُّسُلِ؛ فمَن لَم يُلقِ لِدَعوَةِ النَّبِيِّ -ﷺ- بالًا، وَلَم يستَجِب لَهَا، فَهُوَ عَلَىٰ خطَرٍ عظيمٍ أَن يلحَقَهُ مَا لحِقَ المُكَذِّبينَ قبلَهُ.

وَفِي هذهِ الآياتِ تحذيرٌ بالِغٌ لِهذهِ الأمَّةِ أَن تسلُكَ مسالِكَ الأمَمِ السَّالِفَةِ الَّتي عصَت أنبياءَها فهلَكَت.

وَمَا زالَ اللهُ يبعَثُ فِي كلِّ أُمَّةٍ رسولًا، لِيُحَقِّقَ الغايَةَ الَّتي مِن أجلِها خُلِقَ الخلقُ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [سورة النحل:٣٦]، وقالَ: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [سورة فاطر:٢٤]، وأمَرَ نبيَّهُ -ﷺ- أَن يقولَ: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [سورة الأحقاف:٩]؛ فبِعثَةُ محمدٍ -ﷺ- ليسَت أمرًا طارِئًا وَلَا شاذًّا، بَل هِيَ امتِدادٌ لِسلسِلَةِ النُّبُوَّاتِ، وخاتِمَتُها، وأعظَمُها أثَرًا.

فاجعَل -يَا عبدَ اللهِ- هَذَا المعنىٰ نَصبَ عينَيكَ: أنَّ اللهَ لَم يخلُقكَ لِتَأكُلَ وتشرَبَ وتنغَمِسَ فِي الدُّنيا، بَل خلَقَكَ لِتَعبُدَهُ وتُطيعَ رسولَهُ؛ وكلُّ نِعمَةٍ أنعَمَ بِها عليكَ -مِن صِحَّةٍ أَو رِزقٍ أَو حياةٍ- إنَّما هِيَ وسيلَةٌ لِتَقومَ بحقِّ العُبوديَّةِ.

فاجعَل كلَّ حرَكَةٍ وسُكونٍ مُنطَلِقَةً مِن هَذَا الأصلِ: أنَّكَ عبدٌ لِلَّهِ، مُتَّبِعٌ لِرَسولِهِ -ﷺ-، مُنتَظِرٌ لِلجَزاءِ يومَ القِيامَةِ؛ فَإِنَّ أطَعتَ فأبشِر بِالفوزِ والنَّجاةِ، وَإِن أعرَضتَ فاعلَم أنَّ سُنَنَ اللهِ لَا تتخَلَّفُ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [سورة المزمل:١٦].

فقولُهُ: «أنَّ اللهَ خلَقَنا ورزَقَنا وَلَم يترُكنا هَمَلًا بَل أرسَلَ إلينا رسولًا» جُملَةٌ تجمَعُ فِي طيَّاتِها الأصولَ الثَّلاثَةَ الَّتي يتَعَيَّنُ عَلَىٰ المُسلِمِ تعَلُّمُها:

معرِفَةُ الرَّبِّ: فإنَّ مَن عَلِمَ أنَّ اللهَ خلَقَهُ ورزَقَهُ، لزِمَهُ أن يُفرِدَهُ بِالعِبادَةِ، وَأَن يعلَمَ أنَّهُ لَا يُترَكُ هَمَلًا بِلا أمرٍ وَلَا نهيٍ.

ومعرِفَةُ الدِّينِ: وَهِيَ أنَّ العِبادَةَ لَا تكونُ شرعيَّةً إلَّا بِالانقيادِ لِأمرِ اللهِ ونهيِهِ؛ فَمَا أمَرَ بِهِ فَهُوَ الدِّينُ، وَمَا نَهَىٰ عنهُ فاجتِنابُهُ مِنَ الدِّينِ.

ومعرِفَةُ الرَّسولِ -ﷺ-: لِأنَّ طريقَ معرِفَةِ الأمرِ والنَّهيِ إنَّما هُوَ بِواسِطَتِهِ -ﷺ-؛ فبِإرسالِهِ يتَبَيَّنُ لِلعِبادِ مَا يجِبُ عليهِم وَمَا يحرُمُ.

فَإِذَا تحَقَّقَ أنَّ اللهَ خالِقٌ رازِقٌ، تحَقَّقَ أنَّهُ لَا يترُكُ العِبادَ سُدًىٰ، بَل يُكَلِّفُهُم، وتكونُ طاعَتُهُم لِلرَّسولِ طريقَ النَّجاةِ؛ فمَن أطاعَهُ فِيمَا جاءَ بِهِ نجا، ومَن عصاهُ وردَّ أمرَهُ ونهيَهُ كانَ عَلَىٰ خطَرٍ عظيمٍ.

المسألة الثانية: أَنَّ اللهَ لَا يَرضَىٰ أَن يُشرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرسَلٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن:١٨].

هذهِ المسألَةُ مرتَبِطَةٌ ارتباطًا وثيقًا بالأولىٰ؛ إذِ المسألَةُ الأولىٰ تتعَلَّقُ ببيانِ وُجوبِ عِبادَةِ اللهِ وحدَهُ ووُجوبِ اتِّباعِ رسولِهِ -ﷺ-، وَهُوَ الْمَعنَىٰ الَّذي تتَضَمَّنُهُ الشَّهادَتانِ: فشَهادَةُ «أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» تقتَضي إفرادَ اللهِ بالعِبادَةِ ونفيَها عمَّا سِواهُ، وشَهادَةُ «أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ» تقتَضي مُتابَعتَهُ -ﷺ- فيمَا أمَرَ، واجتِنابَ مَا نَهَىٰ عنهُ، وَأَن لَا يُعبَدَ اللهُ إلَّا بما شرَعَ.

أمَّا المسأَلَةُ الثَّانيةُ فتُقَرِّرُ أصلًا عظيمًا، وَهُوَ أنَّ العِبادَةَ لَا تُقبَلُ إذَا خالَطَها شِركٌ؛ لِأنَّ مِن شرطِ قَبولِها أمرَينِ: الإخلاصَ لِلَّهِ، والمُتابَعَةَ لِرَسولِهِ -ﷺ-، فَإِذَا دخَلَ الشِّركُ فِي العِبادَةِ نَافَىٰ الإخلاصَ، وبِانتِفائهِ تنتَفي صِحَّتُها وقَبولُها؛ إذ لَا بُدَّ أَن تكونَ خالِصَةً لِوَجهِ اللهِ، لَا يُرادُ بها سِواهُ، وَلَا يُشرَكُ معهُ فِيهَا غيرُهُ.

فالحقيقَةُ الثَّانيَةُ الَّتي ينبَغي أَن تستَقِرَّ فِي قلبِ العبدِ: أنَّ اللهَ لَا يَرضَىٰ الشِّركَ بِحالٍ، بَل يُبغِضُهُ أَشَدَّ البُغضِ، وَهُوَ رأسُ الذُّنوبِ وأعظَمُ الجرائمِ.

فَهُوَ أعظَمُ مَا يُسخِطُ الرَّبَّ، وأكبَرُ مَا يوجِبُ غضَبَهُ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سورة النساء:٤٨]؛ فدلَّت دلالَةً واضِحَةً عَلَىٰ أنَّ

الشِّركَ ذنبٌ لَا يُغفَرُ لِصاحِبِهِ إِذَا لقِيَ اللهَ عليهِ، بِخِلافِ مَا دونَهُ مِنَ الذُّنوبِ، فإنَّها داخِلَةٌ تحتَ المشيئَةِ.

١١٣- **وثبَتَ فِي «صحيحِ البُخاريِّ» (رقم ٤٤٧٧) عنِ ابنِ مسعودٍ قالَ:** سألتُ النَّبيَّ -ﷺ-: أيُّ الذَّنبِ أعظَمُ عندَ اللهِ؟ قالَ: «أَن تجعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خلَقَكَ»، قالَ ابنُ مسعودٍ: فقلتُ: إنَّ ذلكَ لعَظيمٌ.

فَهَذَا الحديثُ يقطَعُ بِأنَّ أعظَمَ الذُّنوبِ عَلَىٰ الإطلاقِ هُوَ الشِّركُ بِاللهِ، أَي: أَن تجعَلَ لهُ شريكًا فِي عِبادَتِهِ، مَعَ أَنَّهُ هُوَ الَّذي خلَقَكَ مِن عدَمٍ، ورزَقَكَ، وربَّاكَ.

قلتُ: ووجهُ كونِ الشِّركِ أعظَمَ الذُّنوبِ أنَّ سائرَ الذُّنوبِ -كقتلِ النَّفسِ والزِّنا وشُربِ الخمرِ- اعتِداءٌ عَلَىٰ حقوقِ الخلقِ، وأمَّا الشِّركُ فاعتِداءٌ عَلَىٰ حقِّ الخالِقِ سُبحانَهُ؛ وحقُّ الخالِقِ أعظَمُ مِن حقِّ المخلوقِ.

ووجهُ التَّقبيحِ فِي الحديثِ أبلَغُ مَا يكونُ، إِذ قابَلَ بينَ إنعامِ اللهِ بِالخلقِ -وَهُوَ **خلَقَكَ**- وبينَ مُقابَلَتِهِ بِأقبَحِ الجزاءِ، وَهُوَ جعلُ النِّدِّ لهُ؛ فجمَعَ المُشرِكُ بينَ كُفرِ النِّعمَةِ وأعظَمِ الظُّلمِ.

واللهُ هُوَ الغنيُّ عَلَىٰ الإطلاقِ، غنيٌّ عَن عِبادَةِ العِبادِ وطاعَتِهِم وشِركِ المُشرِكينَ؛ فمَن أشرَكَ معهُ غيرَهُ ترَكَهُ اللهُ وشِركَهُ، فَلَا يقبَلُ منهُ عمَلًا، وَلَا يرضىٰ عنهُ بِحالٍ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [سورة الزمر:٧].

١١٤- **ورَوَىٰ مُسلِمٌ (رقم ٢٩٨٥)** عَن أَبِي هُرَيرَةَ مرفوعًا، قالَ اللهُ تَعالَىٰ: «أَنَا أَغنَىٰ الشُّركاءِ عنِ الشِّركِ، مَن عمِلَ عمَلًا أشرَكَ فيهِ مَعِي غَيرِي ترَكتُهُ وشِركَهُ».

١١٥- **وثبَتَ عَن أَبِي مُوسَىٰ أَنَّ رسولَ اللهِ -ﷺ- قالَ:** «لَا أحَدَ أصبَرُ عَلَىٰ أذًىٰ

يسمَعُهُ مِنَ اللهِ؛ يجعَلونَ لهُ ولَدًا، وَهُوَ يرزُقُهُم ويُعافيهِم».

١١٦- **وَرَوَىٰ أَبُو هُرَيرَةَ مرفوعًا:** «إنَّ اللهَ يرضىٰ لكُم ثلاثًا، ويسخَطُ لكُم ثلاثًا: يرضىٰ لكُم أَن تعبُدوهُ وَلَا تُشرِكوا بهِ شيئًا، وَأَن تعتَصِموا بِحَبلِ اللهِ جميعًا وَلَا تفرَّقوا، وَأَن تُناصِحوا مَن ولَّاهُ اللهُ أمرَكُم؛ ويسخَطُ لكُم قيلَ وقالَ، وكثرَةَ السُّؤالِ، وإضاعَةَ المالِ».

قلتُ: ووجهُ الجمعِ بينَ غِنىٰ اللهِ عنِ الشِّركِ وسَعَةِ حِلمِهِ عَلَىٰ المُشرِكِ أنَّ تركَهُ سُبحانَهُ مُعاجَلَةَ المُشرِكِ بِالعُقوبَةِ -مَعَ كونِهِ أعظَمَ مَا يُسخِطُهُ- إنَّما هُوَ مِن كمالِ حِلمِهِ، لَا مِن رِضاهُ بِفِعلِهِ؛ فَهُوَ يرزُقُهُم ويُعافيهِم وهم يسُبُّونَهُ ويجعَلونَ لهُ الولَدَ، استِدراجًا وإمهالًا، لَا إقرارًا.

وَفِي حديثِ: «يرضىٰ لكُم ثلاثًا» جعَلَ أعظَمَ مَا يرضاهُ توحيدَهُ، وأعظَمَ مَا يسخَطُهُ ضِدَّهُ؛ فبانَ أنَّ مدارَ الرِّضا والسُّخطِ عَلَىٰ التَّوحيدِ والشِّركِ.

مسألة: معنى الشرك:

الشِّركُ فِي حقيقَتِهِ: صرفُ شيءٍ مِنَ العِبادَةِ لِغيرِ اللهِ -كالدُّعاءِ، أوِ الذَّبحِ، أوِ النَّذرِ، أوِ الرَّجاءِ، أوِ التَّوكُّلِ-؛ أَو تسويَةُ غيرِ اللهِ باللهِ فِيمَا هُوَ مِن خصائصِهِ سُبحانَهُ؛ أَو مُنازَعَتُهُ فِي حقوقِهِ وصِفاتِهِ وأفعالِهِ الَّتي لَا تليقُ إلَّا بهِ.

وخصائصُ اللهِ تنقَسِمُ نوعَينِ:

الأوَّلُ: خصائصُ يختَصُّ بِها سُبحانَهُ دونَ خلقِهِ؛ وَهِيَ الصِّفاتُ الَّتي لَا يجوزُ أَن يتَّصِفَ بِها أحَدٌ سِواهُ، كالأُلوهيَّةِ؛ فَلَا إلَهَ إلَّا هُوَ، وَلَا شريكَ لهُ فِي عِبادَتِهِ، وَلَا نِدَّ لهُ فِي رُبوبيَّتِهِ، وَلَا مِثلَ لهُ فِي كمالِهِ؛ فهذِهِ خاصَّةٌ بهِ، لَا يُنازِعُهُ فِيهَا ملَكٌ مُقرَّبٌ وَلَا نبيٌّ

مُرسَلٌ، ومَن نازَعَهُ فِيهَا وقعَ فِي أعظَمِ الشِّركِ.

الثَّاني: صِفاتٌ يُوصَفُ بِها العبدُ عَلَىٰ وجهٍ ناقِصٍ موهوبٍ، ويختَصُّ اللهُ بِكَمالِها؛ كالعِلمِ والرَّحمَةِ والحِكمَةِ والقُدرَةِ؛ فالعبدُ يتَّصِفُ بِها عَلَىٰ قدرِ مَا وهَبَهُ اللهُ، وأمَّا اللهُ فَهُوَ العليمُ الَّذي أحاطَ بِكلِّ شيءٍ عِلمًا، الرَّحيمُ الَّذي وسِعَت رحمَتُهُ كلَّ شيءٍ، الحكيمُ الَّذي لَا يَخلُو فِعلُهُ عَن حِكمَةٍ.

قلتُ: ووجهُ هَذَا التَّقسيمِ أنَّ الشِّركَ يقَعُ بِالاعتِداءِ عَلَىٰ القِسمَينِ معًا: فمَن صرَفَ خصيصَةً مِنَ القِسمِ الأوَّلِ -كالأُلوهيَّةِ- لِغيرِ اللهِ فَقَد أشرَكَ فِي الأُلوهيَّةِ، ومَن أثبَتَ لِمَخلوقٍ كمالًا مِنَ القِسمِ الثَّاني -كعِلمِ الغيبِ المُطلَقِ أوِ القُدرَةِ عَلَىٰ النَّفعِ والضُّرِّ استِقلالًا- فَقَد أشرَكَ فِي الرُّبوبيَّةِ؛ فضَبطُ خصائصِ الرَّبِّ هُوَ المعيارُ الَّذي يُعرَفُ بِهِ الشِّركُ مِنَ التَّوحيدِ.

وَقَد جاءَ عَنِ السلفِ فِي تحديدِ الشركِ آثارٌ نفيسةٌ:

١١٧ - **رَوَىٰ عبدُ الرَّزَّاقِ (٣/ ٢٥٢) عَن أَبِي مِجلَزٍ قالَ:** كنتُ جالِسًا عندَ ابنِ عمرَ، فدخَلَ عليهِ رجُلٌ فقالَ: يَا أَبَا عبدِ الرَّحمَنِ، مَا الإشراكُ بِاللهِ؟ قالَ: «أَن تجعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ»، وَفِي روايَةٍ: «أَن تتَّخِذَ مِن دونِ اللهِ أندادًا».

١١٨ - **وَرَوَىٰ ابنُ بطَّةَ فِي «الإبانَةِ» (رقم ١٦٤٣)** عنِ ابنِ عمرَ قالَ: «مَن زعَمَ أنَّ مَعَ اللهِ خالِقًا، أَو رازِقًا، أَو قاضيًا، أَو أنَّهُ يملِكُ لِنَفسِهِ ضَرًّا أَو نفعًا؛ فأخرَسَ اللهُ لِسانَهُ، وجعَلَ صلاتَهُ وصيامَهُ هباءً».

١١٩ - **وقالَ السَّمعانيُّ فِي «تفسيرِهِ» (٢/ ١٢١):** «فالإشراكُ بِاللهِ هُوَ أَن يُجمَعَ مَعَ اللهِ غيرُ اللهِ فِيمَا لَا يجوزُ إِلَّا لِلَّهِ».

فَهُوَ: أَن يَجعَلَ لِلَّهِ نِدًّا، أَي: مِثلًا فِي عِبادَتِهِ، أَو مَحَبَّتِهِ، أَو خَوفِهِ، أَو رَجائِهِ، أَو

إِنَابَتِهِ؛ فَهَذَا هُوَ الشِّركُ الَّذِي لَا يَغفِرُهُ اللهُ إِلَّا بِالتَّوبَةِ مِنهُ.(١)

---

(١) **قَالَ أَبُو عُبَيدٍ فِي كِتَابِ «الإِيمَانِ» (ص ٤٧):** حَدَّثَنَا عَبَّادُ بنُ عَبَّادٍ، عَنِ الصَّلتِ بنِ دِينَارٍ، عَن أَبِي عُثمَانَ النَّهدِيِّ قَالَ: دَخَلتُ عَلَىٰ ابنِ مَسعُودٍ -وَهُوَ فِي بَيتِ مَالِ الكُوفَةِ- فَسَمِعتُهُ يَقُولُ: لَا يَبلُغُ بِعَبدٍ كُفرًا وَلَا شِركًا حَتَّىٰ يَذبَحَ لِغَيرِ اللهِ أَو يُصَلِّيَ لِغَيرِهِ.

وَجَاءَ فِي «شَرحِ أُصُولِ اعتِقَادِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ» (٤/ ٧٧٢): أَخبَرَنَا الحَسَنُ بنُ القَاسِمِ بنِ العَلَاءِ، قَالَ: ثَنَا أَحمَدُ بنُ عَبدِ اللهِ الوَكِيلُ، قَالَ: ثَنَا عَلِيُّ بنُ مُسلِمٍ، قَالَ: ثَنَا عَبدُ المَجِيدِ بنُ عَبدِ العَزِيزِ بنِ أَبِي رَوَّادٍ، عَن عُمَرَ بنِ مُحَمَّدٍ، عَن نَافِعٍ، عَن عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ، قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا عَبدِ الرَّحمَنِ إِنَّ قَومًا يَتَكَلَّمُونَ فِي القَدَرِ بِشَيءٍ، فَقَالَ: أُولَئِكَ يَصِيرُونَ إِلَىٰ أَن يَكُونُوا مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ، فَمَن زَعَمَ أَنَّ مَعَ اللهِ قَاضِيًا، أَو قَادِرًا، أَو رَازِقًا، أَو يَملِكُ لِنَفسِهِ خَيرًا، أَو نَفعًا، أَو مَوتًا، أَو حَيَاةً، أَو نُشُورًا لَعَنَهُ اللهُ، وَأَخرَسَ لِسَانَهُ، وَأَعمَىٰ بَصَرَهُ، وَجَعَلَ صَلَاتَهُ وَصِيَامَهُ هَبَاءً مَنثُورًا، وَقَطَعَ بِهِ الأَسبَابَ وَكَبَّهُ عَلَىٰ وَجهِهِ فِي النَّارِ.

وَرُوِيَ عَن قَتَادَةَ كَمَا فِي تفسير الطبري (٩/ ٥٢٥) قَولُهُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [سورة الأنعام:١٢١]، الآيَةَ، يَعْنِي: " عَدُوُّ اللهِ إِبْلِيسُ أَوْحَىٰ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالَةِ فَقَالَ لَهُمْ: خَاصِمُوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ فِي الْمَيْتَةِ فَقُولُوا: أَمَّا مَا ذَبَحْتُمْ وَقَتَلْتُمْ فَتَأْكُلُونَ، وَأَمَّا مَا قَتَلَ اللهُ فَلَا تَأْكُلُونَ، وَأَنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ تَتَّبِعُونَ أَمْرَ اللهِ؟

فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [سورة الأنعام:١٢١]، وَإِنَّا وَاللهِ مَا نَعْلَمُهُ كَانَ شِرْكٌ قَطُّ إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: أَنْ يَدْعُوَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، أَوْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللهِ، أَوْ يُسَمِّيَ الذَّبَائِحَ لِغَيْرِ اللهِ.

قَالَ البَربَهَارِيُّ فِي «شَرحِ السُّنَّةِ» (ص ٦٤): وَلَا نُخرِجُ أَحَدًا مِن أَهلِ القِبلَةِ مِنَ الإِسلَامِ حَتَّىٰ يَرُدَّ آيَةً مِن كِتَابِ اللهِ، أَو يَرُدَّ شَيئًا مِن آثَارِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-، أَو يَذبَحَ لِغَيرِ اللهِ، أَو يُصَلِّيَ لِغَيرِ اللهِ، فَإِذَا فَعَلَ شَيئًا مِن ذَلِكَ فَقَد وَجَبَ عَلَيكَ أَن تُخرِجَهُ مِنَ الإِسلَامِ، وَإِذَا لَم يَفعَل شَيئًا مِن ذَلِكَ فَهُوَ مُؤمِنٌ مُسلِمٌ بِالِاسمِ لَا بِالحَقِيقَةِ.

وَجَاءَ فِي «شَرحِ أُصُولِ اعتِقَادِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ» (٢/ ٢٣٠): قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة النساء:٣٦].

مسألة: خطورة الشرك:

كُن - أَيُّهَا المُسلِمُ - عَلَىٰ حَذَرٍ؛ فَإِنَّ مَن وَقَعَ فِي الشِّركِ فَقَدِ انتَقَضَ إِيمَانُهُ، وَلَم يَكُن مُؤمِنًا بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ الوَاحِدُ الأَحَدُ.

فَمَن دَعَا غَيرَ اللهِ، أَو سَجَدَ لِغَيرِ اللهِ، أَو أَحَبَّ غَيرَ اللهِ كَحُبِّ اللهِ، أَو نَذَرَ لِغَيرِ اللهِ، أَو فَعَلَ غَيرَ ذَلِكَ مِن أَنوَاعِ العِبَادَةِ وَالتَّعَلُّقِ بِغَيرِ اللهِ؛ فَقَد وَقَعَ فِي حُفرَةٍ عَظِيمَةٍ مِن حُفَرِ

وَمِن أَعظَمِ الشِّركِ أَن يُقَالَ: إِنَّ العِبَادَةَ لِاسمِهِ، وَاسمُهُ مَخلُوقٌ، وَقَد أَمَرَ بِالعِبَادَةِ لِلمَخلُوقِ.

قَالَ الإِمَامُ نُعَيمُ بنُ حَمَّادٍ الخُزَاعِيُّ (ت: ٢٢٨هـ): "دَلَّت هَذِهِ الأَحَادِيثُ ... عَلَىٰ أَنَّ القُرآنَ غَيرُ مَخلُوقٍ إِذ لَو كَانَ مَخلُوقًا لَم يُستَعَذ بِهَا إِذ لَا يُستَعَاذُ بِمَخلُوقٍ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فَاستَعِذ بِاللهِ وَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ- وَإِذَا استَعَذتَ فَاستَعِذ بِاللهِ".

وَقَالَ أَيضًا: "لَا يُستَعَاذُ بِالمَخلُوقِ وَلَا بِكَلَامِ العِبَادِ وَالجِنِّ وَالإِنسِ وَالمَلَائِكَةِ وَفِي هَذَا دَلِيلٌ أَنَّ كَلَامَ اللهِ غَيرُ مَخلُوقٍ وَأَنَّ سِوَاهُ خَلقٌ".

قَالَ الإِمَامُ أَحمَدُ بنُ حَنبَلٍ (ت: ٢٤١هـ): "وَلَا يَجُوزُ أَن يُقَالَ: أُعِيذُكَ بِالنَّبِيِّ، أَو بِالجِبَالِ، أَو بِالأَنبِيَاءِ، أَو بِالمَلَائِكَةِ، أَو بِالعَرشِ، أَو بِالأَرضِ، أَو بِشَيءٍ مِمَّا خَلَقَ اللهُ، لَا يُتَعَوَّذُ إِلَّا بِاللهِ أَو بِكَلِمَاتِهِ".

قَالَ البُخَارِيُّ: "بَابُ مَا كَانَ النَّبِيُّ -ﷺ- يَستَعِيذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ لَا بِكَلَامِ غَيرِهِ وَقَالَ نُعَيمٌ: لَا يُستَعَاذُ بِالمَخلُوقِ وَلَا بِكَلَامِ العِبَادِ وَالجِنِّ وَالإِنسِ وَالمَلَائِكَةِ وَفِي هَذَا دَلِيلٌ أَنَّ كَلَامَ اللهِ غَيرُ مَخلُوقٍ وَأَنَّ سِوَاهُ خَلقٌ".

وَقَالَ الإِمَامُ عُثمَانُ الدَّارِمِيُّ: "لَا يَجُوزُ أَن يُستَعَاذَ بِوَجهِ شَيءٍ غَيرَ وَجهِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَبِكَلِمَاتِهِ، لَا يُستَعَاذُ بِوَجهِ مَخلُوقٍ".

قَالَ ابنُ خُزَيمَةَ: "هَل سَمِعتُم عَالِمًا يُجِيزُ أَن يَقُولَ الدَّاعِي: أَعُوذُ بِالكَعبَةِ مِن شَرِّ خَلقِ اللهِ؟ أَو يُجِيزُ أَن يَقُولَ: أَعُوذُ بِالصَّفَا وَالمَروَةِ، أَو أَعُوذُ بِعَرَفَاتٍ وَمِنًىٰ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ؟ هَذَا لَا يَقُولُهُ وَلَا يُجِيزُ القَولَ بِهِ مُسلِمٌ يَعرِفُ دِينَ اللهِ، مُحَالٌ أَن يَستَعِيذَ مُسلِمٌ بِخَلقِ اللهِ مِن شَرِّ خَلقِهِ".

وَقَالَ ابنُ قُتَيبَةَ: وَمَن وَحَّدَ اللهَ فَقَد عَبَدَهُ، وَمَن جَعَلَ لَهُ وَلَدًا [أَو نِدًّا] فَلَيسَ مِنَ العَابِدِينَ، وَإِنِ اجتَهَدَ. «تَأوِيلُ مُشكِلِ القُرآنِ» (ص ٢١٧).

الكُفرِ وَالخُسرَانِ وَالنِّيرَانِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء:٤٨]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [سورة الحج:٣١].

فَالشِّركُ أَكبَرُ جَرِيمَةٍ عَلَىٰ وَجهِ الأَرضِ؛ فَأَيُّ جَرِيمَةٍ يَتَصَوَّرُهَا الإِنسَانُ فِي ذِهنِهِ فَالشِّركُ أَعظَمُ مِنهَا.

وَالشِّركُ هُوَ الذَّنبُ الَّذِي لَا تَدعُو إِلَيهِ شَهوَةٌ، وَلَا تَحمِلُ عَلَيهِ غَرِيزَةٌ، وَلِذَلِكَ كَانَ أَعظَمَ مِن غَيرِهِ؛ إِذ هُوَ مَرَضٌ مَحضٌ، وَفَسَادٌ خَالِصٌ فِي قَلبِ مَن قَامَ بِهِ، فَصَدَرَ عَنهُ الشِّركُ.

وَفَوقَ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَهُوَ مُعَارِضٌ وَمُخَالِفٌ، بَل مُنَاقِضٌ لِلفِطرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ الخَلقَ عَلَيهَا؛ فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلقَ وَقَد فَطَرَهُم عَلَىٰ التَّوحِيدِ، وَعَلَىٰ مَعرِفَتِهِ، وَعَلَىٰ إِفرَادِهِ بِالعِبَادَةِ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ المُشرِكِينَ تَغَيَّرَت عِندَهُمُ الفِطرَةُ وَفَسَدَت، فَحَذَارِ - يَا عِبَادَ اللهِ - فَإِنَّ الجَنَّةَ غَالِيَةٌ، وَلَا يُمكِنُ أَن يَصِلَ إِلَيهَا المَرءُ إِلَّا بِالإِيمَانِ بِاللهِ وَحدَهُ، وَتَوحِيدِهِ؛ وَالمُشرِكُ آيِسٌ مِن رَحمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، إِذ لَا يَدخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا نَفسٌ مُؤمِنَةٌ مُوَحِّدَةٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ۝٧٢﴾ [سورة المائدة:٧٢]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [سورة النساء:١١٦].

١٢٠- **وَرُوِيَ فِي «سُنَنِ التِّرمِذِيِّ» (٦/ ١٤٣)** عَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ-، قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «قَالَ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: يَا ابنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوتَنِي

وَرَجوتَنِي غفرتُ لَكَ عَلَىٰ مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابنَ آدَمَ، لَو بَلَغت ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ استَغفَرتَنِي، غَفَرتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَو أَتَيتَنِي بِقُرَابِ الأَرضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشرِكُ بِي شَيئًا، لَأَتَيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغفِرَةً».

١٢١ - **وَرُوِيَ فِي «صَحِيحِ مُسلِمٍ» (١/ ١٣١)** عَن أَبِي هُرَيرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعوَةٌ مُستَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعوَتَهُ، وَإِنِّي اختَبَأتُ دَعوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَومَ القِيَامَةِ؛ فَهِيَ نَائِلَةٌ - إِن شَاءَ اللهُ - مَن مَاتَ مِن أُمَّتِي لَا يُشرِكُ بِاللهِ شَيئًا».

١٢٢ - **وَرُوِيَ عَن أَنَسٍ** -رَضِيَ اللهُ عَنهُ-، **عَنِ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **أَنَّهُ قَالَ:** «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِن أَهلِ النَّارِ يَومَ القِيَامَةِ: أَرَأَيتَ لَو كَانَ لَكَ مَا عَلَىٰ الأَرضِ مِن شَيءٍ، أَكُنتَ مُفتَدِيًا بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَم، فَيَقُولُ: قَد أَرَدتُ مِنكَ أَهوَنَ مِن ذَلِكَ؛ قَد أَخَذتُ عَلَيكَ فِي ظَهرِ أَبِيكَ آدَمَ أَلَّا تُشرِكَ بِي، فَأَبَيتَ إِلَّا أَن تُشرِكَ بِي».(١)

١٢٣ - **وَرَوَىٰ اللَّالِكَائِيُّ (٨٦٤) عَن مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ** -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- **قَالَ:** يُحبَسُ النَّاسُ يَومَ القِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: أَينَ المُتَّقُونَ؟ فَيَقُومُونَ فِي كَنَفٍ مِنَ الرَّحمَنِ، لَا يَحتَجِبُ مِنهُم وَلَا يَستَتِرُ.

قُلتُ: مَنِ المُتَّقُونَ؟

قَالَ: قَومٌ اتَّقَوُا الشِّركَ وَعِبَادَةَ الأَوثَانِ، وَأَخلَصُوا لِلَّهِ العِبَادَةَ، فَيَمُرُّونَ إِلَىٰ الجَنَّةِ، فَحَذَارِ أَن يُضِلَّكَ إِبلِيسُ، أَو يُلَبِّسَ عَلَيكَ، أَو يُشَبِّهَ عَلَيكَ شَيَاطِينُ الإِنسِ؛ فَيُزَيِّنُونَ

---

(١) أَخرَجَهُ البُخَارِيُّ ٤/ ١٣٣ (٣٣٣٤)، (٨/ ١١٥) (٦٥٥٧)، وَمُسلِمٌ (٤/ ٢١٦٠) (٢٨٠٥)، وَأَحمَدُ (١٩/ ٣٠٢) (١٢٢٨٩).

الشِّركَ فِي صُورَةِ تَعظِيمِ الأَولِيَاءِ، وَمَحَبَّةِ الأَنبِيَاءِ، وَالتَّوَسُّلِ بِهِم.

فَهَذَا مِن زُخرُفِ الشَّيطَانِ الَّذِي يُضِلُّ بِهِ جُهَّالَ النَّاسِ عَلَىٰ أَلسِنَةِ أَولِيَائِهِ، لِيَقَعُوا فِي البَلَاءِ العَظِيمِ.

فَإِنَّ الشِّركَ خَطَرُهُ عَظِيمٌ، وَهُوَ أَعظَمُ الذُّنُوبِ عَلَىٰ الإِطلَاقِ؛ فَلَا تُعَانِد، وَلَا تُغَامِر، وَاخضَع لِسُلطَانِ الحَقِّ، وَإِيَّاكَ أَن تَأخُذَكَ حَمِيَّةُ الجَاهِلِيَّةِ، أَو عِزَّةُ الإِثمِ؛ فَالخَسَارَةُ هُنَا لَيسَت قَابِلَةً لِلاستِدرَاكِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧﴾ [سورة الزمر: ١٤-١٧].

١٢٤ - وَرَوَىٰ أَحمَدُ فِي «المُسنَدِ» (٣٦/ ٣٩٢ الرِّسَالَةِ) عَن مُعَاذٍ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- قَالَ:

أَوصَانِي رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بِعَشرِ كَلِمَاتٍ، قَالَ: «لَا تُشرِك بِاللهِ شَيئًا، وَإِن قُتِلتَ وَحُرِّقتَ».

وَذَلِكَ لِأَنَّ الشِّركَ بِاللهِ ظُلمٌ عَظِيمٌ، بَل هُوَ أَعظَمُ الظُّلمِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ حَاكِيًا قَولَ لُقمَانَ لِابنِهِ: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾

[سورة لقمان: ١٣].

١٢٥ - رُوِيَ عَنِ الحَسَنِ البَصرِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ- أَنَّهُ قَالَ: قَالَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا-: «يَا ابنَ آدَمَ، خَلَقتُكَ وَتَعبُدُ غَيرِي! وَتَدعُونِي وَتَفِرُّ مِنِّي! وَتُذكَّرُ بِي وَتَنسَانِي!».

هَذَا أَظلَمُ الظُّلمِ فِي الأَرضِ.

ثُمَّ كَانَ الحَسَنُ يَتلُو: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [سورة لقمان:١٣].(١)

١٢٦- **وَرُوِيَ عَنِ ابنِ مَسعُودٍ قَالَ:** لَمَّا نَزَلَت هَذِهِ الآيَةُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [سورة الأنعام:٨٢] شَقَّ ذَلِكَ عَلَىٰ النَّاسِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ!! أَيُّنَا لَا يَظلِمُ نَفسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: إِنَّهُ لَيسَ الَّذِي تَعنُونَ، أَلَم تَسمَعُوا إِلَىٰ مَا قَالَ العَبدُ الصَّالِحُ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [سورة لقمان:١٣].(٢)

١٢٧- **وروَىٰ الطَّبَرِيُّ (١٣٤٧٤) قَالَ:** قَالَ ابنُ زَيدٍ فِي قَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿بِظُلۡمٍ﴾ أَي: بِشِركٍ، فَأَمَّا الذُّنُوبُ فَلَيسَ يَبرأُ مِنهَا أَحَدٌ.

وَقَد فَسَّرَهَا بِالشِّركِ جَمعٌ مِنَ السَّلَفِ، مِنهُم: أَبُو بَكرٍ، وَعُمَرُ، وَابنُ مَسعُودٍ، وَأُبَيُّ بنُ كَعبٍ، وَسَلمَانُ، وَحُذَيفَةُ، وَابنُ عَبَّاسٍ، وَابنُ عُمَرَ، وَعَمرُو بنُ شُرَحبِيلَ، وَعَلقَمَةُ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بنُ جُبَيرٍ، وَأَبُو عَبدِ الرَّحمَنِ السُّلَمِيُّ، وَقَتَادَةُ، وَأَبُو مَيسَرَةَ، وَإِبرَاهِيمُ، وَأَبُو بَكرِ بنُ أَبِي مُوسَىٰ، وَعِكرِمَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ، وَابنُ زَيدٍ، وَابنُ إِسحَاقَ، وَابنُ جُرَيجٍ.

١٢٨- **وقَالَ الطَّبَرِيُّ: وَقَولُهُ:** ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾ [سورة طه:١١١]، يَقُولُ تَعالَىٰ ذِكرُهُ: وَلَم يَظفَر بِحَاجَتِهِ وَطَلِبَتِهِ مَن حَمَلَ إِلَىٰ مَوقِفِ القِيَامَةِ شِركًا بِاللهِ، وَكُفرًا بِهِ، وَعَمَلًا بِمَعصِيَتِهِ.

وَبِنَحوِ الَّذِي قُلنَا فِي تَأوِيلِ ذَلِكَ، قَالَ أَهلُ التَّأوِيلِ، ذِكرُ مَن قَالَ ذَلِكَ: حَدَّثَنَا الحَسَنُ بنُ يَحيَىٰ، قَالَ: أَخبَرَنَا عَبدُ الرَّزَّاقِ، قَالَ: أَخبَرَنَا مَعمَرٌ، عَن قَتَادَةَ، فِي قَولِهِ: ﴿وَقَدۡ

---

(١) أَخرَجَهُ عَبدُ اللهِ بنُ أَحمَدَ فِي زَوَائِدِ الزُّهدِ (٨٥).

(٢) البُخَارِيُّ (٣٢) وَمُسلِمٌ (١٩٧).

خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [سورة طه:١١١]، قَالَ: مَن حَمَلَ شِركًا.

وَالشِّركُ أَعظَمُ المُحَرَّمَاتِ وَأَوَّلُهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ [سورة الأنعام:١٥١].

١٢٩- **قَالَ الكَرَجِيُّ فِي «النُّكَتِ» (١/ ١٠٣):** وَإِن كَانَتِ العِبَادَةُ لَا تَصلُحُ إِلَّا لَهُ، فَإِعدَادُ غَيرِهِ نِدًّا مَعَهُ مِن أَنكَرِ المُنكَرِ وَأَبيَنِ الكُفرِ.

وَهُوَ أَعظَمُ الضَّلَالِ وَأَعظَمُ الإِثمِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [سورة النساء:١١٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء:٤٨].

١٣٠- **وَهُوَ أَكبَرُ الكَبَائِرِ وَأَعظَمُهَا عَلَىٰ الإِطلَاقِ، رُوِيَ عَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ:** «أَكبَرُ الكَبَائِرِ: الإِشرَاكُ بِاللهِ».

١٣١- **وَهُوَ أَعظَمُ الذُّنُوبِ، رُوِيَ عَن عَبدِ اللهِ قَالَ:** سَأَلتُ النَّبِيَّ -ﷺ-: أَيُّ الذَّنبِ أَعظَمُ عِندَ اللهِ؟ قَالَ: «أَن تَجعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ».(١)

وَالشِّركُ يُحبِطُ الأَعمَالَ الصَّالِحَةَ، فَإِذَا أَشرَكَ العَبدُ بَعدَ أَن كَانَت لَهُ أَعمَالٌ صَالِحَةٌ مِن جِهَادٍ، وَصَلَاةٍ، وَطَلَبِ عِلمٍ، وَصَدَقَةٍ، وَغَيرِ ذَلِكَ مِنَ الأَعمَالِ وَالعِبَادَاتِ، فَإِنَّ وُقُوعَهُ فِي الشِّركِ بَعدَ ذَلِكَ سَبَبٌ فِي ذَهَابِ أَجرِهَا وَحُبُوطِهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام:٨٨]، وَقَالَ تَعَالَىٰ مُخَاطِبًا النَّبِيَّ -ﷺ- وَالأَنبِيَاءَ جَمِيعًا: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ

---

(١) «صَحِيحُ البُخَارِيِّ» (٤/ ١٦٢٦).

وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة الزمر:٦٥]، وقَالَ تعَالَىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر:٢٩]، ضَرَبَ اللهُ هَذَا المَثَلَ لَكُم - يَا مَعشَرَ أُولِي العُقُولِ - رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ، عَبدًا أَو خَادِمًا لَيسَ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ وَلَا لِسَيِّدٍ وَحِيدٍ، بَل لِجَمعٍ مِنَ السَّادَةِ.

وَالعَجِيبُ فِي شَأنِهِم أَنَّهُم مُتَشَاكِسُونَ؛ أَي: مُتَخَاصِمُونَ، فَهَذَا يُرضِيهِ مَا يُغضِبُ ذَاكَ، وَهَذَا يَقُولُ لَهُ: أَقبِل، وَالآخَرُ يَقُولُ لَهُ: أَدبِر، وَهَذَا يَقُولُ: افعَل، وَذَاكَ يَقُولُ: لَا تَفعَل.

فَبِاللهِ عَلَيكُم، مَا حَالُ هَذَا العَبدِ أَوِ الخَادِمِ؟

وَأَيُّ تَعَاسَةٍ، وَأَيُّ حَالٍ فَاسِدَةٍ هُوَ عَلَيهَا؟

هَكَذَا هُوَ الشَّأنُ فِي المُشرِكِينَ الَّذِينَ لَم يُفرِدُوا اللهَ وَحدَهُ بِالعِبَادَةِ؛ فَقُلُوبُهُم مُوَزَّعَةٌ بَينَ شُرَكَاءَ مُتَشَاكِسِينَ مُختَلِفِينَ، فَفَقَدُوا الرَّاحَةَ، وَفَقَدُوا الطُّمَأنِينَةَ، وَفَقَدُوا السَّكِينَةَ، وَفَقَدُوا السَّعَادَةَ.

أَمَّا الرَّجُلُ الآخَرُ، فَهُوَ رَجُلٌ كَانَ سَلَمًا لِرَجُلٍ وَاحِدٍ؛ أَي: عَبدًا أَو خَادِمًا لِسَيِّدٍ وَاحِدٍ، يَعرِفُهُ وَيَعرِفُ مَا هُوَ المَطلُوبُ مِنهُ، فَيَخدِمُهُ وَيُطِيعُهُ، فَتَتَحَقَّقُ لَهُ الطُّمَأنِينَةُ وَالسَّكِينَةُ.

وَهَذِهِ هِيَ حَالُ أَهلِ التَّوحِيدِ؛ لَا يَستَسلِمُونَ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يَعبُدُونَ إِلَّا اللهَ.

أَمَّا المُشرِكُونَ، فَإِنَّ قُلُوبَهُم - وَاللهِ - فِي ظُلُمَاتٍ، وَحَالَهُم - وَاللهِ - فِي أَشَدِّ الحَالِ سُوءًا.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ

ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [سورة الحج:٣١].

وَالشِّركُ هُوَ الذَّنبُ الوَحِيدُ الَّذِي يُحبِطُ جَمِيعَ الأَعمَالِ؛ فَكُلُّ حَسَنَةٍ قَدَّمَهَا الإِنسَانُ، وَكُلُّ عَمَلٍ صَالِحٍ تَقَدَّمَ بِهِ، إِذَا كَانَ فِي آخِرِ أَمرِهِ قَد أَشرَكَ مَعَ اللهِ، فَإِنَّ جَمِيعَ مَا تَقَدَّمَ مِنهُ يَصِيرُ هَبَاءً مَنثُورًا.

لَو قُدِّرَ أَنَّ إِنسَانًا عَاشَ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ سَبعِينَ أَو ثَمَانِينَ أَو تِسعِينَ سَنَةً، أَمضَىٰ أَكثَرَهَا فِي طَاعَةِ اللهِ، فِي ذِكرٍ وَتَسبِيحٍ وَتَهلِيلٍ، وَصَدَقَةٍ وَصِيَامٍ، وَصَلَاةٍ وَقِيَامٍ، وَتِلَاوَةِ قُرآنٍ؛

مَا النَّتِيجَةُ إِذَا مَاتَ عَلَىٰ الشِّركِ وَلَم يَتُب إِلَىٰ اللهِ؟

وَمَا حَالُ، وَمَا مَصِيرُ، ثَمَانِينَ أَو تِسعِينَ سَنَةً مِنَ الأَعمَالِ الصَّالِحَةِ؟

بَيَّنَ اللهُ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [سورة الفرقان:٢٣]،

إِذًا: فَالشِّركُ الأَكبَرُ، قَطرَةٌ مِنهُ تُفسِدُ بِحَارَ الأَعمَالِ الصَّالِحَةِ، بَل تُفسِدُ مُحِيطَاتٍ مِنَ الطَّاعَاتِ.

أَرَأَيتَ ذَنبًا كَهَذَا الذَّنبِ؟

قَطرَةٌ مِنهُ لَا تَستَغرِقُ شَيئًا مِنَ الزَّمَنِ، وَلَكِنَّ نَتِيجَتَهَا - وَالعِيَاذُ بِاللهِ - أَنَّهَا تُفسِدُ بِحَارًا وَمُحِيطَاتٍ مِنَ الأَعمَالِ الصَّالِحَةِ.

مسألة: أضرار الشرك وأخطاره ومفاسده:

لِلشِّركِ مِنَ الأَضرارِ وَالأَخطَارِ وَالمَفَاسِدِ مَا يَطُولُ تَعدَادُهُ، وَمِنهَا:

الأَوَّلُ: أَنَّ اللهَ لَا يَغفِرُهُ.

الثَّانِي: أَنَّهُ يُحبِطُ جَمِيعَ الأَعمَالِ.

الثَّالثُ: أنَّ المُشرِكَ مُحَرَّمَةٌ عليهِ الجنَّةُ، ومأواهُ النَّارُ خالِدًا فِيهَا.

الرَّابِعُ: أنَّ الشِّركَ سببٌ لِضيقِ العَيشِ والوَحشَةِ وضيقِ الصَّدرِ.

الخامِسُ: ذَهابُ الرِّزقِ والبَرَكَةِ الَّتي سببُها التَّوحيدُ.

السَّادِسُ: التَّفرُّقُ والاختِلافُ والعداوَةُ؛ فإنَّ التَّوحيدَ يجمَعُ النَّاسَ عَلَىٰ الأُلفَةِ والمحَبَّةِ، إذ ربُّهُم واحِدٌ، ومعبودُهُم واحِدٌ، ومَتبوعُهُم واحِدٌ، وطريقُهُم واحِدٌ، فَلَا تنازُعَ وَلَا عداءَ، بِخِلافِ الشِّركِ.

السَّابِعُ: استِباحَةُ المالِ والدَّمِ بِضَوابِطَ ذَلِكَ.

الثَّامِنُ: أنَّ فاعِلَهُ يكفُرُ بِمُجَرَّدِ فِعلِهِ، وَلَا يُعذَرُ بِجهلِهِ وَلَا بِتَأويلِهِ، بِخِلافِ غيرِهِ مِنَ الذُّنوبِ؛ فمَن وقَعَ فِي الشِّركِ الأكبَرِ جهلًا أَو تأوُّلًا فَهُوَ كافِرٌ وليسَ بِمُسلِمٍ.

التَّاسِعُ: أنَّ فيهِ انتِكاسًا لِلفِطرَةِ.

العاشِرُ: فيهِ هَوانٌ وإذلالٌ لِفاعِلِهِ؛ إذ ترَكَ عِبادَةَ اللهِ فعبَدَ المخلوقَ الضَّعيفَ.

الحادي عشَرَ: أنَّ الشِّركَ موردٌ لِلأوهامِ والوساوِسِ والمخاوِفِ وذَهابِ الأمنِ؛ فالمُشرِكُ مُتَعَلِّقٌ بِكلِّ شيءٍ لِيَدفَعَ عَن نفسِهِ الضُّرَّ ويجلِبَ لَهَا النَّفعَ.

الثَّاني عشَرَ: أنَّ الشِّركَ سبَبٌ لِهَلاكِ الشُّعوبِ، وذَهابِ خيراتِها، وتسليطِ الأعداءِ عَلَيهَا.

الثَّالثَ عشَرَ: فيهِ ضَياعُ التَّوحيدِ ودينِ اللهِ وأمرِهِ.

الرَّابِعَ عشَرَ: فيهِ شكوىٰ اللهِ الرَّحيمِ الودودِ عَلَىٰ خلقِهِ، وَهَذَا حالُ مَن يَدعُو غيرَ اللهِ.

الخامِسَ عشَرَ: أنَّ الشِّركَ قائِمٌ عَلَىٰ سوءِ الظَّنِّ بِاللهِ، واعتِقادِ أنَّهُ لَا يرحَمُ وَلَا يعلَمُ،

وَلَا يفعَلُ إلَّا بِمُحَرِّكٍ لهُ وواسِطَةٍ عندَهُ.

السَّادِسَ عشَرَ: فيهِ تعطيلٌ لِلَّهِ عَن كمالِهِ المُقَدَّسِ.

السَّابِعَ عشَرَ: فيهِ تشبيهُ الخالِقِ بِالمخلوقِ، بِاعتِقادِ أنَّهُ مُحتاجٌ إِلَىٰ واسِطَةٍ تشفَعُ عندَهُ، وكذلكَ تشبيهُ المخلوقِ بِالخالِقِ.

ووجهُ انتِظامِ هذهِ المفاسِدِ أنَّها ترجِعُ إِلَىٰ ثلاثَةِ أصولٍ: مفاسِدَ فِي حقِّ اللهِ (كالتَّعطيلِ عَن كمالِهِ، وتشبيهِهِ بِخلقِهِ، وسوءِ الظَّنِّ بهِ)؛ ومفاسِدَ فِي حقِّ المُشرِكِ نفسِهِ (كحُبوطِ عمَلِهِ، وتحريمِ الجنَّةِ عليهِ، وذُلِّهِ، وضيقِ صدرِهِ، وامتِلاءِ قلبِهِ بِالمخاوِفِ)؛ ومفاسِدَ فِي حقِّ الأمَّةِ (كالتَّفرُّقِ والعداوَةِ، وهلاكِ الشُّعوبِ، واستِباحَةِ الدِّماءِ)؛ فَهُوَ فسادٌ شامِلٌ لَا يدَعُ صلاحًا فِي دينٍ وَلَا دُنيا.

مسألة: أنّ عبادة غير الله أشد من إنكار الرسالة:

وعِلَّةُ ذلكَ أنَّ إنكارَ الرِّسالَةِ أَو سبَّ الرَّسولِ -ﷺ- فيهِ اعتِداءٌ عَلَىٰ حقِّ الرَّسولِ -ﷺ-؛ وأمَّا مَن دَعَا غيرَ اللهِ وعبَدَهُ فقدِ اعتَدىٰ عَلَىٰ حقِّ اللهِ، وحقُّ اللهِ أعظَمُ مِن حقِّ الرَّسولِ -ﷺ-.

وَقَد يوجَدُ فِي النَّاسِ مَن يُظهِرُ شعائرَ الإِسلامِ؛ فيُصَلِّي ويصومُ ويحُجُّ، ويشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، ويُكثِرُ مِنَ الأذكارِ والطَّاعاتِ، لكنَّهُ فِي الوقتِ نفسِهِ يَدعُو غيرَ اللهِ، أَو يستَغيثُ بِالأمواتِ، أَو يتَوَجَّهُ إِلَىٰ الأضرِحَةِ طالِبًا مِنهَا جلبَ النَّفعِ أَو دفعَ الضُّرِّ، كدُعاءِ بعضِ الصَّالِحينَ أَوِ الأولياءِ بعدَ موتِهِم؛ وَهَذَا شركٌ أكبرُ، لِأنَّ حقيقَةَ التَّوحيدِ لَا تقومُ مَعَ صرفِ شيءٍ مِنَ العِبادَةِ لِغيرِ اللهِ.

فالدُّعاءُ والاستِغاثَةُ والذَّبحُ والنَّذرُ والخوفُ والرَّجاءُ والتَّوَكُّلُ كلُّها عِباداتٌ، لَا

يجوزُ صرفُها إلَّا لِلَّهِ وحدَهُ؛ فَإِذَا خالَطَ الشِّركُ العِبادَةَ أفسَدَها، إِذ مِن شرطِ قَبولِها الإخلاصُ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة البينة:٥].

وَقَد يحتَجُّ بعضُهُم بِأَنَّهُم لَا يعبُدونَ الأصنامَ كَمَا كانَ أهلُ الجاهِلِيَّةِ، وإنَّما يتَّخِذونَ الصَّالِحينَ شُفعاءَ ووُسَطاءَ عندَ اللهِ؛ فيُقالُ لهُم: إنَّ هَذَا بِعَينِهِ مسلَكُ المُشرِكينَ الأوَّلينَ؛ فَقَد قَالُوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر:٣]، وقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [سورة يونس:١٨]؛ فَلَم يَكُونُوا يعتَقِدونَ أنَّ أوثانَهُم تخلُقُ أَو ترزُقُ، وإنَّما اتَّخذوها وسائطَ، وَمَعَ ذلكَ حكَمَ اللهُ عليهِم بِالشِّركِ، لِأَنَّهُم صرَفوا نوعًا مِنَ العِبادَةِ لِغيرِهِ.

وَكَذَلِكَ النُّصوصُ العامَّةُ الَّتِي حرَّمَت دُعاءَ غيرِ اللهِ مُطلَقًا، كقولِهِ تَعالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [سورة الجن:١٨]؛ فإنَّ «أحَدًا» نكِرَةٌ فِي سِياقِ النَّهيِ تُفيدُ العمومَ، فدخَلَ فِيهَا الصَّالِحُ والطَّالِحُ، والنَّبيُّ والوَليُّ والمَلَكُ؛ فَلَا يُخرِجُ أحَدًا مِن هَذَا العمومِ صلاحُهُ وَلَا مَكانَتُهُ.

وَهَكَذَا النُّصوصُ الخاصَّةُ الَّتِي نَصَّت عَلَىٰ أجَلِّ مَن يُدعىٰ مِن دونِ اللهِ، فبيَّنَت عَجزَهُم؛ كقولِهِ فِي عيسىٰ عليه السلام والملائِكَةِ: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ﴾ [سورة آل عمران:٨٠]، وقولِهِ للنَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- نفسِهِ: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾ [سورة الجن:٢١]؛ فَإِذَا انتَفَتِ المِلكِيَّةُ عمَّن هُوَ أشرَفُ الخلقِ، فمَن دونَهُ أَولَىٰ.

وَكَذَلِكَ مَا جاء فِي التَّنبيهُ عَلَىٰ أنَّ الشِّركَ الأوَّلَ فِي الأرضِ إنَّما دخَلَ مِن بابِ تعظيمِ الصَّالِحينَ؛ فإنَّ ودًّا وسُواعًا ويَغوثَ ويَعوقَ ونَسرًا كَانُوا رِجالًا صالِحينَ فِي قومِ نوحٍ، فلمَّا ماتوا زيَّنَ لهمُ الشَّيطانُ أَن يُصوِّروا صُورَهُم لِيَنشَطوا بِهَا عَلَىٰ العِبادَةِ، فلمَّا

تَطاوَلَ العهدُ ونُسِيَ العِلمُ عُبِدَت مِن دونِ اللهِ؛ كَمَا ثبَتَ فِي أثَرِ ابنِ عبَّاسٍ عندَ البخاريِّ.

فعُلِمَ أنَّ دَعوىٰ الصَّلاحِ هِيَ عينُ البابِ الَّذِي دخَلَ منهُ أوَّلُ شِركٍ، لَا أنَّها مانِعَةٌ منهُ؛ بَل كثيرٌ ممَّا يُعبَدُ اليومَ مِنَ القُبورِ والأضرِحَةِ مَبناهُ عَلَىٰ هَذَا الأصلِ بعينِهِ: غُلُوٌّ فِي صالِحٍ -أَو مَن يُظَنُّ صلاحُهُ- أفضىٰ إِلَىٰ صَرفِ العِبادَةِ لهُ.

قلتُ: وَفِي هَذَا الأصلِ ضابِطٌ منهَجِيٌّ نفيسٌ: أنَّ الباطِلَ لَا يَأتِي النَّاسَ صِرفًا خالِصًا فيَنفِرونَ منهُ، وإنَّما يُزَفُّ إليهِم مَشوبًا بِشيءٍ مِنَ الحقِّ، مُلَبَّسًا بِلِباسِهِ؛ ولِذا حذَّرَ اللهُ مِن صنيعِ أهلِ الكِتابِ فقالَ: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ [سورة البقرة:٤٢]؛ فإنَّ خلطَ الحقِّ بِالباطِلِ هُوَ البابُ الَّذي تَلِجُ منهُ البِدَعُ والشِّركيَّاتُ.

وتأمَّل أوَّلَ شِركٍ وقَعَ فِي الأرضِ، كيفَ امتزَجَ فيهِ حقٌّ بباطِلٍ: فالحقُّ محبَّةُ الصَّالِحينَ وتعظيمُهُم فِي مواضِعِهِ، والباطِلُ مَا زيَّنَهُ الشَّيطانُ مِنَ الغُلُوِّ فِيهِم؛ بَل إنَّ الَّذينَ صوَّروا صُوَرَ ودٍّ وسُواعٍ ومَن معَهُما إنَّما أَرادُوا -فِي زعمِهِم- خيرًا: أَن تنشَطَ النُّفوسُ بِرُؤيَتِها عَلَىٰ العِبادَةِ، فلمَّا تطاوَلَ العهدُ وجاءَ مَن بعدَهُم ظنُّوا أنَّهُم أَرادُوا التَّعَلُّقَ بِهَا، فعُبِدَت مِن دونِ اللهِ.

فعُلِمَ أنَّ حُسنَ القصدِ لَا يُصَحِّحُ العمَلَ إِذَا خالَفَ الشَّرعَ، وأنَّ مدخَلَ الشَّيطانِ إنَّما هُوَ مِن هَذَا البابِ: تزيينُ الباطِلِ بِما فيهِ مِن شائِبَةِ حقٍّ.

إذاً: فالعِلَّةُ فِي التَّحريمِ هِيَ صَرفُ العِبادَةِ لغيرِ اللهِ، لَا كونُ المعبودِ حَجَرًا أَو صالِحًا؛ فاستَوىٰ فِي المَنعِ الوَثَنُ والوَليُّ، إِذِ المَدارُ عَلَىٰ المَصروفِ لَا عَلَىٰ المَصروفِ إِلَيهِ.

وعليهِ، فكلُّ عِبادَةٍ لَا تُخلَصُ لِلَّهِ فَهِيَ مردودَةٌ عَلَىٰ صاحِبِها، بَل إنَّ الشِّركَ الأكبَرَ

يُحبِطُ العمَلَ كلَّهُ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام:٨٨]، فالواجِبُ عَلَىٰ المُسلِمِ أَن يُحَقِّقَ التَّوحيدَ الخالِصَ، وَأَن يُفرِدَ اللهَ بِجميعِ أنواعِ العِبادَةِ ظاهِرِها وباطِنِها، وَأَن يحذَرَ مِن كلِّ وسيلَةٍ تُفضي إِلَىٰ الشِّرْكِ، صغيرِهِ وكبيرِهِ؛ فإنَّ اللهَ لَا يرضَىٰ أَن يُشرَكَ معهُ أحَدٌ، كائنًا مَن كانَ، صالِحًا أَو غيرَ صالِحٍ.

فمدارُ الحُكمِ بِالشِّركِ ليسَ عَلَىٰ اعتِقادِ أَنَّ المدعوَّ يخلُقُ أَو يرزُقُ استِقلالًا، بَل عَلَىٰ مُجَرَّدِ صرفِ العِبادَةِ لهُ وَلَو بِنيَّةِ التَّقَرُّبِ والتَّوَسُّطِ؛ فإنَّ مُشرِكي قُرَيشٍ كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الخالِقُ الرَّازِقُ، وإِنَّما أشرَكوا فِي الأُلوهيَّةِ بِاتِّخاذِ الوسائطِ، فحكَمَ اللهُ عليهِم بِالشِّركِ؛ فبطَلَ فرقُ مَن فرَّقَ بينَ عبادَةِ الأصنامِ وعبادَةِ الصَّالِحينَ بِحُجَّةِ القصدِ، إِذِ الفِعلُ واحِدٌ والحُكمُ واحِدٌ.

قال المؤلف: والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن:١٨].

قلت: اللَّامُ فِي قولِهِ ﴿لِلَّهِ﴾ لامُ اختِصاصٍ، أَي: خالِصَةٌ لهُ سُبحانَهُ.

ومِن لطائفِ القُرآنِ فِي تقريرِ الحصرِ: تقديمُ مَا حقُّه التأخيرُ؛ فإنّ تقديمَ المعمولِ يُفيدُ قصرَ الحُكمِ عَلَىٰ المذكورِ ونفيَه عمّا سِواه.

ومِنه قولُه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [سورة الفاتحة:٥]؛ فإنّ أصلَه «نَعبُدُكَ»، فلمّا قُدِّمَ المفعولُ أفادَ: لَا نَعبُدُ إلّا إيّاكَ، فكانَ هَذَا التقديمُ بِعَينِه مفهومَ «لَا إلَهَ إلّا اللهُ» إثباتًا ونفيًا؛ فاجتَمَعَ فِي الفاتحةِ مَعنَىٰ كلِمةِ التوحيدِ مِن جِهةِ النَّظمِ، كَمَا اجتَمَعَ مِن جِهةِ الْمَعنَىٰ.

ثمَّ قالَ: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن:١٨]، ولفظُ «أحَدًا» نكِرَةٌ فِي سياقِ النَّهيِ، وَهِيَ مِن صِيَغِ العُمومِ؛ أَي: لَا تدعوا مَعَ اللهِ أحَدًا كائنًا مَن كانَ، لَا نبيًّا وَلَا وليًّا وَلَا ملكًا

وَلَا مخلوقًا مِنَ المخلوقينَ، لَا يُستَثنىٰ أحدٌ؛ فَهِيَ تعُمُّ كلَّ مَن دُعِيَ مِن دونِ اللهِ، فدلَّتِ الآيَةُ عَلَىٰ أنَّ العِبادَةَ لَا تنفعُ إلَّا مَعَ التَّوحيدِ، وأنَّها إِذَا خالَطَها شِركٌ بطَلَت، وكانت وبالًا عَلَىٰ صاحِبِها.

ووقوعُ «أحدًا» نكِرَةً فِي سياقِ النَّهيِ أفادَ العُمومَ المُستَغرِقَ، فَلَم يبقَ فردٌ مِن أفرادِ المدعوِّينَ إلَّا دخَلَ فِي النَّهيِ، فانسَدَّ بابُ دعوىٰ التَّخصيصِ لِنَبيٍّ أَو ملَكٍ أَو وليٍّ.

وقالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [سورة طه:١٤]، قالَ الطَّبَريُّ فِي «تفسيرِهِ» عندَ هذهِ الآيَةِ: «﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [سورة طه:١٤] يقولُ تَعالَىٰ ذِكرُهُ: إنَّني أنَا المعبودُ الَّذي لَا تصلُحُ العِبادَةُ إلَّا لهُ، لَا إلَهَ إلَّا أنَا فلَا تعبُد غيري، فإنَّهُ لَا معبودَ تجوزُ أَو تصلُحُ لهُ العِبادَةُ سِوايَ، ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ [سورة طه:١٤] يقولُ: فأخلِصِ العِبادَةَ لِي دونَ كلِّ مَا عُبِدَ مِن دوني».

وقالَ تَعالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [سورة الزمر:٦٥].

١٣٢- **قالَ مُقاتِلٌ:** «أَي: أُوحِيَ إليكَ وَإِلَىٰ الأنبياءِ قبلَكَ بِالتَّوحيدِ».

١٣٣- **وقالَ الطَّبَريُّ:** «﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [سورة الزمر:٦٥] يقولُ: لَئِن أشرَكتَ بِاللهِ شيئًا يا محمدُ، ليَبطُل عمَلُكَ، وَلَا تنالُ بِهِ ثوابًا».

١٣٤- **وقالَ المُصَنِّفُ فِي رسالَةِ «القواعِدِ الأربَعِ»:** «فَإِذَا عرفتَ أنَّ اللهَ خلَقَكَ لِعِبادَتِهِ، فاعلَم أنَّ العِبادَةَ لَا تُسَمَّىٰ عِبادَةً إلَّا مَعَ التَّوحيدِ، كَمَا أنَّ الصَّلاةَ لَا تُسَمَّىٰ صلاةً إلَّا مَعَ الطَّهارَةِ؛ فَإِذَا دخَلَ الشِّركُ فِي العِبادَةِ فسَدَت، كالحدَثِ إِذَا دخَلَ فِي الطَّهارَةِ».

قلتُ: شبَّهَ الشِّركَ فِي العِبادَةِ بِالحدَثِ فِي الطَّهارَةِ؛ فَكَمَا أَنَّ الوُضوءَ مهما كمُلَت صورَتُهُ يبطُلُ بالحدَث، فكذلكَ العِبادَةُ مهما عظُمَت تبطُلُ بِأدنىٰ شِركٍ؛ فالتَّوحيدُ لِلعِبادَةِ كالطَّهارَةِ لِلصَّلاةِ: شرطٌ فِي الصِّحَّةِ، لَا تتِمُّ وَلَا تُقبَلُ بِدونِهِ.

فجميعُ الأعمالِ والأقوالِ -ظاهِرِها وباطِنِها- متوَقِّفَةٌ فِي قَبولِها وكمالِها وترَتُّبِ الثَّوابِ عَلَيهَا عَلَىٰ التَّوحيدِ؛ فكلَّما قوِيَ التَّوحيدُ والإخلاصُ كمُلَت هذهِ الأمورُ وتمَّت.

١٣٥- **رَوَىٰ يَحيَىٰ بنُ سلَّامٍ -كَمَا فِي «تفسيرِ ابنِ أَبِي زَمَنِينَ» (٥/ ٤٦)- عنِ الحسَنِ البَصريِّ فِي قولِهِ** ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن:١٨] **قالَ:** «ليسَ مِن قومٍ غيرِ المُسلِمينَ يقومونَ فِي مساجِدِهِم إلَّا وهم يُشرِكونَ بِاللهِ فِيهَا، فأخلِصوا لِلَّهِ».

١٣٦- **ورَوَىٰ عبدُ الرَّزَّاقِ (٢/ ٣٢٣) وابنُ جريرٍ (٢٣/ ٣٤١) عَن قتادَةَ -مِن طريقِ معمَرٍ- فِي الآيَةِ قالَ:** «كانتِ اليهودُ والنَّصارىٰ إِذَا دخَلوا بِيَعَهُم وكنائسَهُم أشرَكوا بِاللهِ، فأمَرَ اللهُ نبيَّهُ -ﷺ- أَن يُخلِصَ الدُّعاءَ لِلَّهِ إِذَا دخَلَ المسجِدَ».

١٣٧- **وقالَ مُقاتِلٌ فِي «تفسيرِهِ» (٤/ ٤٦٤):** ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [سورة الجن:١٨] أَي: الكنائسُ والبِيَعُ والمساجِدُ لِلَّهِ، ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن:١٨]؛ وذلكَ أَنَّ اليهودَ والنَّصارىٰ يُشرِكونَ فِي صلاتِهِم فِي البِيَعِ والكنائسِ، فأمَرَ اللهُ المؤمِنينَ أَن يُوَحِّدوهُ.

١٣٨- **ورُوِيَ عنِ ابنِ جُرَيجٍ نحوُهُ:** «إِنَّ اليهودَ والنَّصارىٰ إِذَا دخَلوا بِيَعَهُم وكنائسَهُم أشرَكوا بِرَبِّهِم، فأمَرَهُم أَن يُوَحِّدوهُ».

١٣٩- **وجاءَ فِي «الدَّاءِ والدَّواءِ» (ص٣١٢):** «فالسُّجودُ، والعِبادَةُ، والتَّوَكُّلُ، والإنابَةُ، والتَّقوىٰ، والخَشيَةُ، والتَّوبَةُ، والنَّذرُ، والحلِفُ، والتَّسبيحُ، والتَّكبيرُ،

والتَّهليلُ، والتَّحميدُ، والاستِغفارُ، والطَّوافُ بِالبَيتِ، والدُّعاءُ؛ كلُّ ذلكَ محضُ حقِّ اللهِ الَّذي لَا يصلُحُ وَلَا ينبَغي لِسِواهُ، مِن ملَكٍ مُقرَّبٍ وَلَا نبيٍّ مُرسَلٍ».

قلتُ: ووجهُ اتِّفاقِ هذهِ الأقوالِ أنَّها فسَّرتِ الآيَةَ بِأنَّ المساجِدَ -وَهِيَ محَلُّ العِبادَةِ- يجِبُ أَن يُخلَصَ فِيهَا الدُّعاءُ لِلَّهِ، خِلافًا لِأهلِ الكِتابِ الَّذينَ أشرَكوا فِي معابِدِهِم؛ وثبَتَ أنَّ أرفَعَ المخلوقاتِ -الأنبياءَ والملائكَةَ- لَا يجوزُ أَن يُصرَفَ لهُم شيءٌ مِنَ العِبادَةِ، فكيفَ بِمَن دونَهُم؟

مسألة: نوعا الدُّعاءِ في الآيَةِ:

قولُهُ: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [سورة الجن:١٨] يشمَلُ نوعَينِ مِنَ الدُّعاءِ:

الأوَّلُ: دُعاءُ العِبادَةِ؛ وَهُوَ كلُّ عِبادَةٍ تقومُ بِها مِن صلاةٍ وصيامٍ وذَبحٍ ونذرٍ وطوافٍ وذِكرٍ؛ فَهِيَ فِي حقيقَتِها دُعاءٌ بِلِسانِ الحالِ، كأنَّكَ تقولُ: يَا ربِّ اغفِر لِي بِهذهِ الصَّلاةِ، يَا ربِّ ارحَمني بِهذا الصِّيامِ؛ ولِهذا قيلَ: كلُّ عِبادَةٍ دُعاءٌ عمَليٌّ.

الثَّاني: دُعاءُ المسألَةِ؛ وَهُوَ السُّؤالُ المُباشِرُ، كقولِكَ: يَا اللهُ اغفِر لِي، ارحَمني، ارزُقني.

وَقَد بيَّنَ النَّبيُّ -ﷺ- أنَّ الدُّعاءَ عِبادَةٌ فقالَ: «الدُّعاءُ هُوَ العِبادَةُ»، فكلُّ دُعاءٍ عِبادَةٌ، وكلُّ عِبادَةٍ هِيَ فِي حقيقَتِها دُعاءٌ، وَلَا يجوزُ صرفُ شيءٍ مِن ذلكَ لِغيرِ اللهِ.

فاللهُ سُبحانَهُ خلَقَكَ لِعِبادَتِهِ وحدَهُ، وَلَا يَرضَىٰ أَن يُشرَكَ معهُ غيرُهُ فِي شيءٍ مِن أنواعِ العِبادَةِ: لَا نبيٌّ، وَلَا ملَكٌ، وَلَا وليٌّ، وَلَا صالِحٌ، وَلَا قبرٌ، وَلَا روحٌ؛ وكلُّ دُعاءٍ أَو عِبادَةٍ صُرِفَت لِغيرِ اللهِ فَهِيَ شِركٌ أكبَرُ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [سورة الجن:١٨].

والمُحَصَّلُ: أنَّ صرفَ العِبادَةِ لِغيرِ اللهِ -كالذَّبحِ لِلقُبورِ، والنَّذرِ لَهَا، والطَّوافِ حولَها، والعُكوفِ عندَها، والاستِغاثَةِ بِأهلِها، وطلَبِ قضاءِ الحوائجِ منهُم- شِركٌ مُخرِجٌ مِنَ المِلَّةِ، وَلَا يُشترَطُ فِي الحُكمِ عليهِ بِالشِّركِ شيءٌ مِنَ المعاني القلبيَّةِ؛ لَا نِيَّةُ العِبادَةِ، وَلَا غايَةُ الذُّلِّ ونِهايَةُ الخُضوعِ، وَلَا اعتِقادُ شيءٍ مِن خصائصِ الرُّبوبيَّةِ؛ فإنَّ هذهِ المعاني مُنفكَّةٌ عنِ العمَلِ الظَّاهِرِ فِي تحقُّقِ الشِّركِ.

فمَن صرَفَ العِبادَةَ لِلقُبورِ فَقَد أشرَكَ فِي الألُوهيَّةِ، ومنِ اعتَقَدَ فيهِم خصائصَ الرُّبوبيَّةِ فَقَد أشرَكَ فِي الرُّبوبيَّةِ وَإِن لَم يتَلَبَّس بِعَمَلٍ ظاهِرٍ، ومَن جمَعَ بينَ الاعتِقادِ والعمَلِ فقَد وقَعَ فِي الشِّركَينِ معًا.

فَإِذَا كَانَ الفِعلُ نَفسُهُ خَاصِّيَّةً مِن خَصَائِصِ الأُلُوهِيَّةِ، فَإِنَّ مُجَرَّدَ صَرفِهِ لِمَخلُوقٍ هُوَ بِعَينِهِ «نِسبَةُ خَاصِّيَّةٍ مِن خَصَائِصِ الأُلُوهِيَّةِ» إِلَىٰ ذَلِكَ المَخلُوقِ؛ فَيَتَحَقَّقُ بِنَفسِ العَمَلِ الظَّاهِرِ، لَا بِمَعنًىٰ قَلبِيٍّ زَائِدٍ يُحتَاجُ إِلَىٰ إِثبَاتِهِ!

فَالفَاعِلُ حِينَ يَذبَحُ لِقَبرٍ أَو يَنذُرُ لَهُ أَو يَدعُوهُ، إِنَّمَا يُعَامِلُهُ -بِنَفسِ فِعلِهِ الظَّاهِرِ، بِصَرفِ النَّظَرِ عَمَّا يَخفِيهِ فِي قَلبِهِ- مُعَامَلَةَ مَن يَستَحِقُّ خَاصَّةً مِن خَصَائِصِ الأُلُوهِيَّةِ، وَهَذَا هُوَ عَينُ الشِّركِ.

وزَعَمَ بَعضُ المُتَأَخِّرِينَ أَنَّ شِركَ العِبَادَةِ لَا يَتَحَقَّقُ بِمُجَرَّدِ صَرفِ العَمَلِ الظَّاهِرِ -كَالذَّبحِ وَالنَّذرِ وَالطَّوَافِ وَالاستِغَاثَةِ وَالسُّجُودِ- لِغَيرِ اللهِ، وَإِنَّمَا يُشتَرَطُ لِتَحَقُّقِهِ مَنَاطٌ قَلبِيٌّ، كَاعتِقَادِ الرُّبُوبِيَّةِ فِي المَخلُوقِ، أَو نِيَّةِ التَّعَبُّدِ وَالتَّقَرُّبِ، أَو قِيَامِ غَايَةِ الذُّلِّ وَنِهَايَةِ الخُضُوعِ.

وَهَذَا قَولٌ بَاطِلٌ مِن وُجُوهٍ:

أَوَّلًا: أَنَّ الإِقرَارَ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ فِطرَةٌ رَكَزَهَا اللهُ فِي كُلِّ مَخلُوقٍ، وَأَخَذَ بِهَا المِيثَاقَ عَلَىٰ بَنِي آدَمَ يَومَ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف:١٧٢]، وَشَهِدَ القُرآنُ أَنَّ مُشرِكِي العَرَبِ -مَعَ إِشرَاكِهِم- كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الخَالِقُ الرَّازِقُ المُدَبِّرُ، كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾؛ فَلَو كَانَ الشِّركُ مُقَيَّدًا بِاعتِقَادِ الرُّبُوبِيَّةِ لَمَا استَحَقُّوا هَذَا الاِسمَ وَهُم مُقِرُّونَ بِهَا إِقرَارًا فِطرِيًّا لَا يَتَخَلَّفُ.

ثَانِيًا: أَنَّ اللهَ وَصَفَ صَرفَ العِبَادَةِ الظَّاهِرَةِ لِغَيرِهِ بِأَنَّهُ شِركٌ مِن غَيرِ اشتِرَاطِ اعتِقَادٍ زَائِدٍ، كَقَولِهِ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [سورة النساء:٣٦]، فَجَعَلَ ضِدَّ العِبَادَةِ الوَاجِبَةِ هُوَ الإِشرَاكَ بِمُجَرَّدِ الصَّرفِ، وَقَد أَجمَعَ أَئِمَّةُ اللُّغَةِ وَالتَّفسِيرِ عَلَىٰ أَنَّ حَقِيقَةَ الشِّركِ: (اتِّخَاذُ مَعَ اللهِ مَعبُودًا)، أَو (عِبَادَةُ غَيرِ اللهِ)، لَا (اعتِقَادُ الرُّبُوبِيَّةِ فِي غَيرِ اللهِ).

١٤٠ - **قَالَ قَتَادَةُ كَمَا رَوَاهُ عَنهُ الطَّبَرِيُّ فِي "جَامِعِ البَيَانِ" (١٢/ ٨١):** «وَإِنَّا وَاللهِ مَا نَعلَمُهُ كَانَ شِركٌ قَطُّ إِلَّا بِإِحدَىٰ ثَلَاثٍ: أَن يَدعُوَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، أَو يَسجُدَ لِغَيرِ اللهِ، أَو يُسَمِّيَ الذَّبَائِحَ لِغَيرِ اللهِ».

فَأَينَ اشتِرَاطُ الرُّبُوبِيَّةِ الَّتِي يَدَّعِيهَا القُبُورِيُّونَ!

١٤١ - **وَقَالَ القَصَّابُ الكَرَجِيُّ فِي "النُّكَتِ" (١/ ٤٨١):** «... مَا بَالُهُ إِذَا تَرَكَ الإِيمَانَ بِأَن يَدعُوَ مَعَ اللهِ شَرِيكًا، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَىٰ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ يَكُونُ كَافِرًا؟».

١٤٢ - **وَقَالَ ابنُ خُزَيمَةَ فِي "التَّوحِيدِ" (ص٥٣٤):** «فَكَيفَ يَجُوزُ أَن يَتَوَهَّمَ مُسلِمٌ أَنَّ أَهلَ التَّوحِيدِ يَجتَمِعُونَ فِي النَّارِ فِي الدَّرَجَةِ مَعَ مَن كَانَ يَفتَرِي عَلَىٰ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ- فَيَدعُو لَهُ شَرِيكًا أَو شُرَكَاءَ، فَيَدعُو لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا، وَيَكفُرُ بِهِ وَيُشرِكُ، وَيَكفُرُ بِكُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بِالإِيمَانِ بِهِ، وَيُكَذِّبُ جَمِيعَ الرُّسُلِ، وَيَترُكُ جَمِيعَ الفَرَائِضِ،

وَيرتكِبُ جَمِيعَ المَعَاصِي، فَيَعبُدُ النِّيرَانَ، وَيَسجُدُ لِلأَصنَامِ وَالصُّلبَانِ؟».

فَفَرَّق بَينَ شِركِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهِيَ دَعوَىٰ (الشَّرِيكِ وَالصَّاحِبَةِ وَالوَلَدِ) لِلَّهِ، وَبَينَ شِركِ العِبَادَةِ وَمِنهُ (السُّجُودُ لِلأَصنَامِ وَالصُّلبَانِ)!

١٤٣- **وَقَالَ البَربَهَارِيُّ فِي "شَرحِ السُّنَّةِ" (ص٦٤):** «وَلَا نُخرِجُ أَحَدًا مِن أَهلِ القِبلَةِ مِنَ الإِسلَامِ حَتَّىٰ يَرُدَّ آيَةً مِن كِتَابِ اللهِ، أَو يَرُدَّ شَيئًا مِن آثَارِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-، أَو يَذبَحَ لِغَيرِ اللهِ، أَو يُصَلِّيَ لِغَيرِ اللهِ، فَإِذَا فَعَلَ شَيئًا مِن ذَلِكَ فَقَد وَجَبَ عَلَيكَ أَن تُخرِجَهُ مِنَ الإِسلَامِ».

١٤٤- **وقَالَ أَبُو عُبَيدٍ القَاسِمُ بنُ سَلَّامٍ فِي "الإِيمَانِ" (ص٨٩):** «وَهِيَ غَيرُ الإِشرَاكِ الَّتِي يُتَّخَذُ لَهَا مَعَ اللهِ إِلَهٌ غَيرُهُ».

فَقَد عَرَّفَ الشِّركَ بِاتِّخَاذِ مَعَ اللهِ مَعبُودًا، وَهَذَا مَعنَاهُ: أَنَّ الشِّركَ هُوَ عِبَادَةُ غَيرِ اللهِ مَعَهُ، أَو صَرفُ العِبَادَةِ لِغَيرِ اللهِ، وَهَذَا مَحَلُّ إِجمَاعٍ عِندَ العُلَمَاءِ، وَعَلَيهِ نُصُوصُ الشَّرِيعَةِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ [سورة الأنعام:١٤٨]، وَقَولُهُ سُبحَانَهُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ [سورة النحل:٣٥]، فَفَسَّرَ الشِّركَ بِعِبَادَةِ غَيرِهِ مِنَ الأَوثَانِ.

١٤٥- **قَالَ أَبُو جَعفَرٍ النَّحَّاسُ فِي "النَّاسِخِ وَالمَنسُوخِ" (ص١٩٧):** «وَإِنَّمَا المُشرِكُ مَن عَبَدَ وَثَنًا مَعَ اللهِ -جَلَّ وَعَزَّ- فَأَشرَكَ بِهِ».

١٤٦- **وَقَالَ أَبُو أَحمَدَ القَصَّابُ فِي "النُّكَتِ" (١/ ٤٥٩):** «الشِّركُ عَلَىٰ وَجهَينِ: فَشِركٌ فِي طَاعَةٍ، وَشِركٌ فِي كُفرٍ وَعِبَادَةٍ؛ وَهُوَ فِعلُ الكُفَّارِ فِي عِبَادَةِ الأَصنَامِ».

١٤٧- **وَقَالَ فِي "النُّكَتِ" (١/ ٥٢١):** «تَحلِيلُ الشَّيءِ وَتَحرِيمُهُ لَا يَصلُحُ إِلَّا لِلَّهِ،

كَمَا لَا يَصلُحُ السُّجُودُ وَدَعوَىٰ الإِلَهِيَّةِ إِلَّا لَهُ».

١٤٨ - **وَقَالَ السَّمعَانِيُّ فِي "تَفسِيرِه" (١/ ٣٢٩):** «فَإِنَّ مَن سَجَدَ لِغَيرِهِ فَقَد اتَّخَذَهُ رَبًّا».

١٤٩ - **وَقَالَ أَبُو المُظَفَّرِ السَّمعَانِيُّ فِي "تَفسِيرِه" (٢/ ١٢١):** «فَالإِشرَاكُ بِاللهِ: هُوَ أَن يُجمَعَ مَعَ اللهِ غَيرُ اللهِ فِيمَا لَا يَجُوزُ إِلَّا لِلَّهِ».

١٥٠ - **وَقَالَ الزَّجَّاجُ فِي "مَعَانِي القُرآنِ وَإِعرَابِهِ":** «فَيَجعَلُ مَا لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ لِغَيرِ اللهِ، فَيَصِيرُ مُشرِكًا».

رَابِعًا: أَنَّ هَذَا التَّقيِيدَ يَهدِمُ حِكمَةَ بَعثَةِ الرُّسُلِ؛ إِذ لَو كَانَ الشِّركُ مَحصُورًا فِي اعتِقَادِ الرُّبُوبِيَّةِ، لَكَانَ التَّوحِيدُ الَّذِي بُعِثَ بِهِ الأَنبِيَاءُ جَمِيعًا مَحصُورًا فِي هَذَا النَّوعِ، وَهَذَا لَم يَقُل بِهِ أَحَدٌ مِن أَهلِ العِلمِ.

خَامِسًا: أَنَّ اشتِرَاطَ نِيَّةِ التَّعَبُّدِ وَالتَّقَرُّبِ فِي تَحَقُّقِ الشِّركِ تَنَاقُضٌ ظَاهِرٌ؛ إِذ لَا مَعنَىٰ لِلتَّقَرُّبِ سِوَىٰ نَفسِ صَرفِ العَمَلِ لِلمَخلُوقِ؛ فَمَن ذَبَحَ لِصَاحِبِ قَبرٍ فَقَد تَقَرَّبَ إِلَيهِ بِذَاتِ ذَبحِهِ، وَلَا يُتَصَوَّرُ ذَبحٌ لَهُ خَالٍ عَنِ التَّقَرُّبِ حَتَّىٰ يُبحَثَ عَنهُ زِيَادَةً عَلَىٰ الفِعلِ، وَبِهَذَا يَنحَسِمُ النِّزَاعُ فِي أَصلِ هَذِهِ المَسأَلَةِ.

سادسًا: ينبني عَلَىٰ قولهم أَن يَكُونَ التَّوحِيدُ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ رُسُلَهُ مَحصُورًا فِي الرُّبُوبِيَّةِ فَحسبُ، وَهَذَا لَم يَقُل بِهِ أَحَدٌ مِن أَهلِ العِلمِ.

سابعًا: أَن تَكُونَ حَقِيقَةُ العِبَادَةِ مُجَرَّدَ اعتِقَادِ القَلبِ بِالرُّبُوبِيَّةِ، لَا فِعلَ الجَوَارِحِ وَاللِّسَانِ.

ثامنًا: أَن يَكُونَ شِركُ مُشرِكِي العَرَبِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمُ النَّبِيُّ عَلَىٰ شِركِهِم فِي الرُّبُوبِيَّةِ

فَقَط، وَهَذَا خِلَافُ المَعلُومِ بِالضَّرُورَةِ مِن أَنَّهُم كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الخَالِقُ الرَّازِقُ المُدبِّرُ، كَمَا حَكَىٰ اللهُ عَنهُم ذَلِكَ فِي غَيرِ مَوضِعٍ مِن كِتَابِهِ.

تاسعـًا: أَن يَكُونَ تَكفِيرُ اللهِ لَهُم وَقِتَالُ النَّبِيِّ إِيَّاهُم كَانَ لِأَجلِ شِركِهِم فِي الرُّبُوبِيَّةِ فَقَط، وَهَذِهِ دَعوَىٰ بَاطِلَةٌ ضَرُورَةً.

وَمِن أَعجَبِ مَا يَحتَجُّ بِهِ القُبُورِيُّونَ فِي تَقيِيدِ الشِّركِ بِاعتِقَادِ الرُّبُوبِيَّةِ: أَنَّهُم يَقِيسُونَ بَابَ النَّهيِ عَلَىٰ بَابِ الأَمرِ، فَيَقُولُونَ: كَمَا أَنَّ عِبَادَةَ اللهِ لَا تَصِحُّ إِلَّا بِاعتِقَادِ رُبُوبِيَّتِهِ، فَكَذَلِكَ الشِّركُ لَا يَتَحَقَّقُ بِصَرفِ العِبَادَةِ لِلمَخلُوقِ إِلَّا بِاعتِقَادِ رُبُوبِيَّتِهِ!

وَهَذَا خَلطٌ فَاسِدٌ بَينَ حَقِيقَتَينِ مُتَبَايِنَتَينِ: شَرطُ صِحَّةِ الفِعلِ الوُجُودِيِّ إِذَا صُرِفَ لِلَّهِ، وَتَحَقُّقُ التَّحرِيمِ إِذَا صُرِفَ الفِعلُ لِغَيرِهِ؛ وَهُمَا بَابَانِ لَا يَصِحُّ اطِّرَادُ أَحَدِهِمَا فِي الآخَرِ.

وَبَيَانُهُ: أَنَّ العِبَادَةَ الوَاحِدَةَ قَد يُشتَرَطُ لِصِحَّتِهَا للهِ شُرُوطٌ عِدَّةٌ -كَاعتِقَادِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَالإِقرَارِ بِرِسَالَةِ نَبِيِّهِ -ﷺ-، وَالطَّهَارَةِ مِنَ الحَدَثِ، وَنَحوِ ذَلِكَ- فَلَو صَلَّىٰ يَهُودِيٌّ لِلَّهِ مُقِرًّا بِرُبُوبِيَّتِهِ، أَو صَلَّت حَائِضٌ مُوَحِّدَةٌ، لَم تَصِحَّ صَلَاتُهُمَا، مَعَ تَحَقُّقِ اعتِقَادِ الرُّبُوبِيَّةِ فِيهِمَا؛ فَعُلِمَ أَنَّ اعتِقَادَ الرُّبُوبِيَّةِ شَرطٌ وَاحِدٌ مِن شُرُوطٍ، لَا الشَّرطُ الوَحِيدُ.

فَلَو طُرِدَ قِيَاسُ القُبُورِيِّينَ عَلَىٰ وَجهِهِ، لَلَزِمَهُم أَن يَشتَرِطُوا فِي تَحَقُّقِ الشِّركِ بِالصَّنَمِ جَمِيعَ مَا يُشتَرَطُ فِي صِحَّةِ العِبَادَةِ لِلَّهِ؛ فَلَا يَكفِي اعتِقَادُ رُبُوبِيَّةِ الصَّنَمِ وَحدَهُ، بَل لَا بُدَّ أَن يَعتَقِدَ فِيهِ أَيضًا أَنَّهُ أَرسَلَ مُحَمَّدًا -ﷺ- رَسُولًا!

وَلَلَزِمَهُم أَنَّ الحَائِضَ إِذَا سَجَدَت لِلصَّنَمِ مُعتَقِدَةً رُبُوبِيَّتَهُ لَم تَكُن مُشرِكَةً، إِذ سُجُودُهَا -كَمَا لَو كَانَ لِلَّهِ- بَاطِلٌ لِفَقدِ شَرطِ الطَّهَارَةِ!

وَلَلَزِمَهُم أَنَّ مَن نَذَرَ لِلصَّنَمِ ذَبحَ خِنزِيرٍ مُعتَقِدًا رُبُوبِيَّتَهُ لَم يُشرِك، كَمَا لَا يَصِحُّ نَذرُ ذَبحِ الخِنزِيرِ لَو كَانَ لِلَّهِ!

وَهَكَذَا فِي كُلِّ عِبَادَةٍ لَهَا شُرُوطُ صِحَّةٍ.

وَهَذِهِ اللَّوَازِمُ الَّتِي لَا يَقُولُ بِهَا عَاقِلٌ، تَكشِفُ فَسَادَ الأَصلِ الَّذِي بُنِيَت عَلَيهِ؛ إِذ حَقِيقَةُ الأَمرِ أَنَّ شُرُوطَ الصِّحَّةِ إِنَّمَا تُعتَبَرُ فِي جَانِبِ الأَمرِ حِينَ يُرَادُ امتِثَالُهُ للهِ، وَأَمَّا جَانِبُ النَّهيِ فَمَدَارُهُ عَلَىٰ مُجَرَّدِ الصَّرفِ وَالِارتِكَابِ، لَا عَلَىٰ صِحَّةِ الفِعلِ مِن فَسَادِهِ؛ فَمَن صَرَفَ إِلَىٰ الصَّنَمِ عَمَلًا مِن جِنسِ العِبَادَةِ -كَالسُّجُودِ وَالذَّبحِ وَالنَّذرِ- فَقَد وَقَعَ فِي الشرك بِذَاتِ الصَّرفِ، سَوَاءٌ كَانَ هَذَا العَمَلُ لَو أُرِيدَ بِهِ اللهُ صَحِيحًا أَم فَاسِدًا، وَسَوَاءٌ اعتَقَدَ فِي المَصرُوفِ إِلَيهِ رُبُوبِيَّةً أَم لَم يَعتَقِد.

فَتَبَيَّنَ: أَنَّ قِيَاسَ القُبُورِيِّينَ بَابَ النَّهيِ عَلَىٰ بَابِ الأَمرِ قِيَاسٌ فَاسِدُ الوَضعِ مِن أَصلِهِ، وَأَنَّهُ لَو أُجرِيَ عَلَىٰ اطِّرَادِهِ لَأَفضَىٰ إِلَىٰ إِسقَاطِ حُكمِ الشِّركِ عَن أَكثَرِ صُوَرِهِ الوَاقِعَةِ، وَهُوَ عَينُ مَا يَرمِي إِلَيهِ هَؤُلَاءِ مِن تَعطِيلِ أَصلِ التَّوحِيدِ، وَاللهُ المُستَعَانُ.

وَمِمَّا يَحتَجُّ بِهِ القُبُورِيُّونَ عَلَىٰ أَنَّ السُّجُودَ لَيسَ عِبَادَةً بِذَاتِهِ -وَإِنَّمَا يَصِيرُ شِركًا بِاعتِقَادِ الرُّبُوبِيَّةِ فِي المَسجُودِ لَهُ- سُجُودُ المَلَائِكَةِ لِآدَمَ، وَسُجُودُ إِخوَةِ يُوسُفَ لَهُ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ [سورة يوسف:١٠٠].

هَذَا استِدلَالٌ سَاقِطٌ مِن وَجهَينِ:

الأَوَّلُ: أَنَّ سُجُودَ المَلَائِكَةِ لِآدَمَ كَانَ بِأَمرِ اللهِ لَهُم، فَهُوَ عِبَادَةٌ للهِ لَا لِآدَمَ، إِذِ العِبَادَةُ طَاعَةُ اللهِ فِيمَا أَمَرَ بِهِ؛ قَالَ قَتَادَةُ: "فَكَانَتِ الطَّاعَةُ للهِ، وَالسَّجدَةُ لِآدَمَ، أَكرَمَ اللهُ آدَمَ أَن أَسجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ"؛ فَهُوَ نَظِيرُ طَوَافِ النُّسَّاكِ بِالبَيتِ، عِبَادَةً للهِ لَا لِلحِجَارَةِ، وَلَو أَمَرَنَا

اللهُ أَن نَسجُدَ لِأَحَدٍ مِن خَلقِهِ لَسَجدنَا لَهُ طَاعَةً لِلَّهِ، لَا اسْتِقلَالًا بِتَعظِيمِهِ.

الثَّانِي: أَنَّ سُجُودَ إِخوَةِ يُوسُفَ آيَةٌ مُجمَلَةٌ لَا يَصِحُّ الِاحتِجَاجُ بِهَا، لِوُقُوعِ الِاحتِمَالِ فِيهَا مِن وَجهَينِ: أَحَدُهُمَا فِي عَودِ الضَّمِيرِ فِي ﴿لَهُۥ﴾ -هَل هُوَ لِيُوسُفَ أَم للهِ شُكرًا عَلَىٰ جَمعِ الشَّملِ- وَالآخَرُ فِي حَقِيقَةِ هَذَا السُّجُودِ، هَل هُوَ سُجُودٌ حَقِيقِيٌّ، أَم مُجَرَّدُ انحِنَاءٍ وَتَكَفٍّ كَانَ تَحِيَّةَ المُلُوكِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، عَلَىٰ مَا اختَلَفَ فِيهِ المُفَسِّرُونَ.

وَالقَاعِدَةُ المُقَرَّرَةُ: "إِذَا وُجِدَ الِاحتِمَالُ بَطَلَ الِاستِدلَالُ"؛ فَكَيفَ يُبنَىٰ عَلَىٰ مِثلِ هَذَا المُجمَلِ المُختَلَفِ فِيهِ نَقضُ أَصلٍ مُحكَمٍ قَاطِعٍ، وَهُوَ أَنَّ صَرفَ العِبَادَةِ لِغَيرِ اللهِ شِركٌ بِمُجَرَّدِهِ؟!

وَهَذَا عَلَىٰ فَرضِ كَونِهِ سُجُودَ عِبَادَةٍ حَقِيقَةً، وَإِنَّمَا سَاغَ -لَو سَاغَ- بِكَونِهِ لَم يُنسَخ بَعدُ فِي شَرعِهِم، لَا لِخُلُوِّهِ مِنِ اعتِقَادِ الرُّبُوبِيَّةِ فِي المَسجُودِ لَهُ.

وَالمُحَصَّلُ: أَنَّ هَذَينِ المِثَالَينِ بَعِيدَانِ كُلَّ البُعدِ عَمَّا يَحتَجُّونَ بِهِ؛ فَالأَوَّلُ عِبَادَةٌ للهِ بِنَصِّ الأَمرِ، وَالثَّانِي مُجمَلٌ مُحتَمِلٌ لَا يَصلُحُ نَاسِخًا لِمُحكَمِ الشَّرعِ فِي تَحرِيمِ صَرفِ العِبَادَةِ لِغَيرِ اللهِ، وَاللهُ أَعلَمُ.

وَالمُحَصَّلُ: أَنَّ الضَّابِطَ الَّذِي عَلَيهِ أَهلُ السُّنَّةِ أَنَّ كُلَّ اعتِقَادٍ أَو قَولٍ أَو عَمَلٍ ثَبَتَ أَنَّهُ مِن جِنسِ العِبَادَةِ، فَصَرفُهُ لِلَّهِ تَوحِيدٌ، وَصَرفُهُ لِغَيرِهِ شِركٌ أَكبَرُ مُخرِجٌ مِنَ المِلَّةِ، مِن غَيرِ حَاجَةٍ إِلَىٰ مَنَاطٍ قَلبِيٍّ زَائِدٍ عَلَىٰ ذَاتِ الفِعلِ، وَبِهَذَا يَستَبِينُ بُطلَانُ تَقيِيدِ الشِّركِ بِاعتِقَادِ الرُّبُوبِيَّةِ، أَو بِأَيِّ مَنَاطٍ قَلبِيٍّ آخَرَ، وَاللهُ أَعلَمُ.

وَمَن تَأَمَّلَ حَقِيقَةَ هَذَا التَّقيِيدِ وَجَدَهُ فَرعًا عَن أَصلٍ إِرجَائِيٍّ غَالٍ قَدِيمٍ، لَا اجتِهَادًا مُستَقِلًّا مُحدَثًا، بَل هُوَ امتِدَادٌ لِأَصلِ الجَهمِيَّةِ فِي حَصرِ الإِيمَانِ وَالعِبَادَةِ بِمَعرِفَةِ القَلبِ

وَتَصدِيقِهِ، فَقَد قَالَت الجَهمِيَّةُ: "الإِيمَانُ هُوَ المَعرِفَةُ بِالقَلبِ فَقَط"، وَجَعَلُوا العَمَلَ الظَّاهِرَ -كَالسُّجُودِ لِلشَّمسِ- مُجَرَّدَ عَلَامَةٍ عَلَىٰ كُفرِ القَلبِ، لَا كُفرًا بِذَاتِهِ؛ وَهَذَا بِعَينِهِ حَقِيقَةُ قَولِ مَن يُقَيِّدُ شِركَ العِبَادَةِ بِاعتِقَادِ الرُّبُوبِيَّةِ: أَنَّ العَمَلَ الظَّاهِرَ -كَالذَّبحِ وَالنَّذرِ وَالطَّوَافِ لِلقُبُورِ- لَيسَ شِركًا فِي ذَاتِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمَارَةٌ وَقَرِينَةٌ عَلَىٰ اعتِقَادٍ قَلبِيٍّ مُستَتِرٍ.

وَالمُحَصَّلُ: أَنَّ أَهلَ السُّنَّةِ يُقَرِّرُونَ أَنَّ الإِيمَانَ قَولٌ وَعَمَلٌ وَاعتِقَادٌ، وَأَنَّ العَمَلَ الظَّاهِرَ دَاخِلٌ فِي حَقِيقَةِ الإِيمَانِ وَالعِبَادَةِ لَا خَارِجٌ عَنهُمَا؛ فَإِذَا صُرِفَ هَذَا العَمَلُ لِغَيرِ اللهِ كَانَ شِركًا بِذَاتِهِ، كَمَا أَنَّهُ إِيمَانٌ بِذَاتِهِ إِذَا صُرِفَ للهِ، مِن غَيرِ حَاجَةٍ إِلَىٰ تَنقِيبٍ عَن مَعنًىٰ قَلبِيٍّ زَائِدٍ؛ وَلَم يَزَل دُعَاةُ الرُّسُلِ إِلَىٰ التَّوحِيدِ فِي الأَرضِ مَعلُومًا لِأَهلِهَا، فَالمُشرِكُ يَستَحِقُّ العَذَابَ بِمُخَالَفَتِهِ دَعوَةَ الرُّسُلِ"؛ وَلَم تَكُن دَعوَتُهُم إِلَىٰ إِصلَاحِ اعتِقَادِ الرُّبُوبِيَّةِ -وَهُوَ مُقَرَّرٌ عِندَ أُمَمِهِم أَصلًا- وَإِنَّمَا كَانَت إِلَىٰ إِفرَادِ اللهِ بِالعِبَادَةِ؛ فَبَطَلَ بِهَذَا كُلِّهِ تَقيِيدُ شِركِ العِبَادَةِ بِاعتِقَادِ الرُّبُوبِيَّةِ أَو أَيِّ مَنَاطٍ قَلبِيٍّ سِوَاهُ، وَاللهُ أَعلَمُ.

وخِتامُ هذهِ المسألَةِ أنَّها قرَّرَتِ الرُّكنَ الثَّانيَ مِن أركانِ التَّوحيدِ بعدَ المسألَةِ الأولىٰ: فَالأَولَىٰ أثبَتَت أنَّ اللهَ هُوَ الخالِقُ الرَّازِقُ المُستَحِقُّ لِلعِبادَةِ، وهذهِ نفَت أَن يُشارَكَ فِي تلكَ العِبادَةِ؛ فاجتَمَعَ فِي المسأَلَتَينِ إثباتُ المعبودِ ونفيُ الشَّريكِ، وَهُمَا مضمونُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

وبِتَقريرِ أنَّ الشِّركَ يقَعُ بِمُجَرَّدِ صرفِ العِبادَةِ الظَّاهِرَةِ -وَلَو بِدَعوىٰ التَّوَسُّلِ والتَّقَرُّبِ- انسَدَّ بابُ التَّحايُلِ الَّذي دخَلَ منهُ عُبَّادُ القُبورِ؛ فتمَّ بِذلك بَيانُ أنَّ التَّوحيدَ لَا يصِحُّ إلَّا بِنَفيِ الشِّركِ كلِّهِ، دقيقِهِ وجليلِهِ.

المسألة الثالثة: أَنَّ مَن أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللهَ لَا يَجُوزُ لَهُ مُوَالَاةُ مَن حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَو كَانَ أَقرَبَ قَرِيبٍ.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة المجادلة:٢٢].

هذهِ المسألَةُ الثَّالثَةُ فِي الوَلاءِ والبَراءِ، فكَأنَّهُ يقولُ لكَ: أنتَ مُوَحِّدٌ، وغيرُكَ مُشرِكٌ، فاحذَر أَن تُوالِيَ المُشرِكينَ.

ولِذا اعلَم -رحِمَكَ اللهُ وجعَلَكَ مُبارَكًا حيثُما كنتَ وحلَلتَ- أنَّهُ يجِبُ علَىٰ كلِّ مُسلِمٍ أن يُوالِيَ المؤمِنينَ، وَأن يتَخلَّىٰ عَن مُوالاةِ الكافِرينَ؛ ومِن أعظَمِ المُحَرَّماتِ بعدَ الشِّركِ: تولِّي أعداءِ اللهِ الكافِرينَ بِهِ علَىٰ دينِهِم وضَلالِهِم، ومُعاداةُ أوليائهِ المؤمِنينَ بِهِ.

وَهَذَا الأمرُ عزيزٌ فِي الأزمانِ المُتأَخِّرَةِ.

فالواجِبُ علَىٰ المُسلِمينَ أَن يَكُونُوا كالجسَدِ الواحِدِ، فِي الأُخُوَّةِ والتَّناصُرِ كَمَا أَمَرَهُم ربُّهُم ونبيُّهُم -ﷺ-: «المُسلِمُ أخو المُسلِمِ»، و«المؤمِنُ لِلمؤمِنِ كالبُنيانِ»؛ قالَ تَعالَىٰ: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ [سورة النساء:١٣٨-١٣٩].

فالواجِبُ المُتعَيِّنُ عَلَىٰ كلِّ مُسلِمٍ البَراءةُ مِنَ المُشرِكينَ؛ فكَمَا يجِبُ عليهِ أن يتبَرَّأَ مِنَ الشِّركِ، يجِبُ عليهِ أن يتبَرَّأَ مِنَ المُشرِكينَ.

ووجهُ كونِ البَراءةِ مِنَ المُشرِكينَ لازِمًا لِلبَراءةِ مِنَ الشِّركِ أنَّ الشِّركَ وصفٌ قائمٌ بِالمُشرِكِ، والبُغضُ يتوَجَّهُ إِلَىٰ الفِعلِ وفاعِلِهِ معًا؛ فمَن أبغَضَ الشِّركَ ولَم يُبغِض أهلَهُ فقَد ناقَضَ نفسَهُ، إذ لَا يستَقيمُ أن يُبغِضَ المرءُ شيئًا ويُحِبَّ القائمَ بِهِ المُصِرَّ عليهِ.

ولِهذا قرَنَ المُصنِّفُ هذهِ المسألَةَ بِما قبلَها: فلمَّا قرَّرَ فِي الثَّانيَةِ أنَّ اللهَ لَا يَرضَىٰ الشِّركَ، أتبَعَهُ بِأنَّ مُقتَضىٰ ذلكَ معاداةُ أهلِهِ، إذِ الرِّضا بِأهلِ الشِّركِ ومُوالاتُهُم يُناقِضُ بُغضَ الشِّركِ.

والإيمانُ بِاللهِ لهُ لوازِمُ، ومِن لوازِمِهِ أن يُحِبَّ الإنسانُ مَا يُحِبُّهُ ربُّهُ؛ فإنَّ الواجِبَ أن يكونَ اللهُ فِي قلبِ كلِّ مُسلِمٍ أحَبَّ حبيبٍ عَلَىٰ الإطلاقِ، لَا يجوزُ بِحالٍ أن يُشرَكَ معهُ فِي هذهِ المحَبَّةِ العُظمىٰ الَّتي يجِبُ أن ينطَويَ عَلَيهَا قلبُ كلِّ مُسلِمٍ.

فَإذَا بلَغَتِ المحَبَّةُ هَذَا القدرَ الواجِبَ، فمِن لوازِمِ ذلكَ أمرانِ: أَن يُحِبَّ الإنسانُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ، وأَن يُبغِضَ مَا يُبغِضُهُ اللهُ.

والَّذينَ أشرَكوا مَعَ اللهِ، ولَم يأتوا بِحقِّهِ عَلَىٰ عِبادِهِ، وهم أعداءُ اللهِ، لَا يجوزُ لِلمُسلِمِ أن يُحِبَّهُم؛ فكيفَ يجوزُ لهُ أن يجمَعَ بينَ محَبَّةِ اللهِ ومحَبَّةِ أعدائهِ؟

إذ هؤلاءِ الَّذينَ أشرَكوا أعداءٌ لِلَّهِ، اتَّخَذَهُمُ اللهُ أعداءً لهُ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [سورة الممتحنة: ١].

فالمحَبَّةَ التَّامَّةَ لِلَّهِ تستَلزِمُ موافقَتَهُ فِيمَا يُحِبُّ ويُبغِضُ؛ فمَن أحَبَّ اللهَ حقًّا أحَبَّ

مَا يُحِبُّهُ مِنَ التَّوحيدِ وأهلِهِ، وأبغَضَ مَا يُبغِضُهُ مِنَ الشِّركِ وأهلِهِ؛ فَلو والىٰ أعداءَهُ عَلَىٰ دينهم لكانَ ذلكَ دليلًا عَلَىٰ خللٍ فِي أصلِ المحَبَّةِ، إِذ يستَحيلُ أَن يجتَمِعَ فِي القلبِ الواحِدِ محَبَّةُ المحبوبِ ومحَبَّةُ عدوِّهِ عَلَىٰ الكمالِ.

فبانَ أنَّ الوَلاءَ والبَراءَ ثمَرَةٌ ضروريَّةٌ لِصِدقِ المحَبَّةِ، لَا أمرٌ زائدٌ عَلَيهَا.

وقالَ تعَالَىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [سورة الممتحنة:٤].

فحقيقَةُ التَّوحيدِ -أيُّها المُسلِمُ- قائمَةٌ عَلَىٰ البَراءِ والوَلاءِ: البَراءةِ مِن عِبادَةِ غيرِ اللهِ، والوَلاءِ لِلَّهِ، كَمَا قالَ تَعالَىٰ عَن إبراهيمَ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الزخرف:٢٦-٢٧].

وقالَ تَعالَىٰ عَن إبراهيمَ أيضًا: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الأنعام:٨١-٨٢].

فيَجِبُ عَلَىٰ المُسلِمِ أن يتَجَرَّدَ عَن عِبادَةِ مَا سِوىٰ العزيزِ الحكيمِ سُبحانَهُ، ويُفرِدَ اللهَ بِالعِبادَةِ؛ فالتَّجريدُ نفيٌ، والتَّفريدُ إثباتٌ، ومجموعُهُما التَّوحيدُ.

وَهَذَا هُوَ التَّوحيدُ المُنجي الَّذي تُنالُ بهِ السَّعادَةُ.

١٥١ - **رَوَىٰ الإمامُ أحمدُ فِي «المُسنَدِ» (٣١/ ٤٩١ ط الرسالة) عَن جريرِ بنِ عبدِ اللهِ البَجَليِّ قالَ:** قلتُ: يَا رسولَ اللهِ، اشترِط عليَّ، فقالَ -ﷺ-: «تعبُدُ اللهَ ولَا تُشرِكُ

بِهِ شيئًا، وتُصَلِّي الصَّلَواتِ المكتوبَةَ، وتُؤَدِّي الزَّكاةَ المفروضَةَ، وتَنصَحُ لِلمُسلِمِ، وتَبرأُ مِنَ الكافِرِ»، وَفِي رواياتٍ أُخرىٰ عندَ أحمدَ وغيرِهِ: «وَعَلَىٰ فِراقِ المُشرِكِ»، و«ويُفارِقُ المُشرِكَ»؛ وبوَّبَ لهُ النَّسائيُّ بِقولِهِ: «البيعَةُ عَلَىٰ فِراقِ المُشرِكِ».

قلتُ: ووجهُ الدلالَةِ مِن حديثِ جريرٍ أنَّ النَّبيَّ -ﷺ- جعَلَ البَراءةَ مِنَ الكافِرِ ومُفارَقَةَ المُشرِكِ شرطًا فِي البيعَةِ، مقرونًا بِأركانِ الإسلامِ مِنَ التَّوحيدِ والصَّلاةِ والزَّكاةِ؛ فدلَّ أنَّ الوَلاءَ والبَراءَ ليسَ أمرًا مُستَحبًّا، بَل هُوَ مِن صُلبِ مَا يُبايَعُ عليهِ المُسلِمُ، ومِن مُقتَضىٰ دُخولِهِ فِي الدِّينِ.

ولِذا بوَّبَ لهُ النَّسائيُّ بِالبَيعَةِ عَلَىٰ فِراقِ المُشرِكِ، تنبيهًا عَلَىٰ أنَّ هَذَا أصلٌ مِن أصولِ الانتِماءِ إِلَىٰ الإسلامِ.

وقالَ تعَالَىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ [سورة المجادلة:٢٢].

فَهَذَا الَّذي يكفُرُ بِاللهِ ويُشرِكُ بِهِ، وَلَا يؤمِنُ بِرَسولِ اللهِ، وجوبًا لَا خِيارَ فيهِ أَن يكونَ مبغوضًا فِي قلبِ المؤمِنِ؛ لَا حدَّ لِهذا إلَّا فِي حالَةٍ واحِدَةٍ فقط: ﴿حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [سورة الممتحنة:٤].

هذهِ عقيدَةٌ يُطالَبُ بِها كلُّ مُسلِمٍ، إِن كانَ فِي قلبِهِ الإيمانُ بِاللهِ عظيمًا، والإيمانُ بِرَسولِهِ -ﷺ-، فالوَلاءُ والبَراءُ مِن صميمِ مِلَّةِ إبراهيمَ، ومُقتَضىٰ كلِمَةِ التَّوحيدِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

مسألة: قبح الشرك وبشاعته:

مَن تفَكَّرَ فِي قُبحِ الشِّركِ فِي ذاتِهِ، علِمَ أنَّهُ أقبَحُ شيءٍ فِي الوُجودِ؛ لِأنَّهُ غايَةُ النَّذالَةِ

والظُّلمِ وكُفرِ النِّعمَةِ.

فَإِذَا استقَرَّ فِي قلبك قُبحُهُ أبغَضتَهُ.

١٥٢- **قالَ أَبُو عثمانَ النَّهديُّ:** «كنَّا فِي الجاهِليَّةِ نعمِدُ إِلَىٰ النَّاقَةِ الصَّعبَةِ الَّتي لَم يحمِل عَلَيهَا فحلٌ قطُّ، فنَحمِلُ عَلَيهَا أصنامًا، فَلَا تكونُ فِي القومِ ناقَةٌ أذَلَّ مِنهَا».

ومِن أقبَحِ المشاهِدِ فِي الدُّنيا أَن تَرَىٰ رجُلًا يَأتِي أعظَمَ الفواحِشِ وأشنَعَها عَلَىٰ أُمِّهِ فِي جوفِ الكعبَةِ أمامَ النَّاسِ؛ فهذِهِ صورَةٌ بشِعَةٌ جدًّا، وأكثَرُ النَّاسِ لَو ظَفِروا بِفاعِلِها لقتَلوهُ ومزَّقوهُ، وأبغَضوهُ أشَدَّ البُغضِ وعادَوهُ.

فَإِذَا جاءَتِ الصُّورَةُ الَّتي لَا أبشَعَ وَلَا أقبَحَ فِي الوُجودِ مِنهَا -وَهِيَ أَن يجعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خلَقَهُ- رأيتَ أكثَرَ النَّاسِ لَا يستَقذِرونَها وَلَا يُبغِضونَ أهلَها، بَل يتَعذَّرونَ لهُم ويُبَرِّرونَ شِركَهُم؛ قالَ تعَالَىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [سورة عبس:١٧].

ولِذا فإنَّ لفتَ الأنظارِ إِلَىٰ قُبحِ الشِّركِ وبَشاعَتِهِ وشِدَّةِ الظُّلمِ فيهِ ممَّا يفتَحُ اللهُ بِهِ قلوبًا غُلفًا، وأعيُنًا عُميًا، وآذانًا صُمًّا؛ فإِنَّ الفِطَرَ والأفئدَةَ قَد فطَرَها اللهُ عَلَىٰ بُغضِ الظُّلمِ وأهلِهِ، لكنَّ شياطينَ الإنسِ والجِنِّ يُنسونَهُم أشَدَّ أنواعِ الظُّلمِ فِي الوُجودِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة لقمان:١٣].

فالنُّفوسَ تستَبشِعُ الفواحِشَ -كقتلِ الولَدِ والزِّنا بِالمَحارِمِ- وَهِيَ دونَ الشِّركِ فِي القُبحِ؛ فإنَّ تلكَ جناياتٌ عَلَىٰ حقوقِ الخلقِ، والشِّركُ جنايَةٌ عَلَىٰ حقِّ الخالِقِ.

فمِنَ العجَبِ أَن تثورَ الفِطَرُ لِلأدنىٰ وتسكُنَ عنِ الْأَعلَىٰ؛ وَمَا ذاكَ إِلَّا لِتَزيينِ

الشَّياطينِ وتلبيسِهِم.(١)

---

(١) **قالَ محمدُ بنُ إبراهيمَ آلُ الشَّيخِ فِي «شرحِ كشفِ الشُّبُهاتِ» (ص١٠)**: «وممَّا يُذكَرُ عنِ المؤلِّفِ أنَّهُ قالَ يومًا: يُذكَرُ البارِحَةَ أنَّهُ وُجِدَ رجُلٌ عَلَىٰ أُمِّهِ يُجامِعُها، فاستَعظَمَ الحاضِرونَ ذلكَ وضجُّوا منهُ، رأوا أنَّهُ مُنكَرٌ كبيرٌ، وَهُوَ كبيرٌ.

ثمَّ قالَ لهُم مرَّةً أُخرىٰ: واحِدٌ أُصيبَ بِمَرَضٍ شديدٍ، فقيلَ لهُ: اذبَح دِيكًا لِفُلانٍ الوليِّ، فَلَم يستَعظِموهُ.

ثمَّ بيَّنَ لهُم أنَّ الأوَّلَ فاحِشَةٌ يَبقَىٰ معها التَّوحيدُ، والآخَرَ يُنافي التَّوحيدَ كلَّهُ، وَهَذَا لَم يستَعظِموهُ مِثلَ ذاكَ.

وَهَذَا هُوَ الواقِعُ مِن أكثَرِ النَّاسِ، فإنَّ النُّفوسَ تستَبشِعُ أشياءَ أعظَمَ مِنَ استِبشاعِها مَا هُوَ ضِدُّ التَّوحيدِ».

ووجهُ هَذَا المثَلِ الَّذي ضرَبَهُ المُصَنِّفُ لِطَلَبَتِهِ أنَّهُ أرادَ أن يُقَرِّرَ فِي نُفوسِهِم ميزانَ الشَّرعِ فِي تفاوُتِ الذُّنوبِ، لَا ميزانَ العادَةِ والطَّبعِ؛ فإنَّ النُّفوسَ تنفِرُ مِنَ الفاحِشَةِ لِما رُكِزَ فِيهَا مِن قُبحِها، وتسكُنُ عنِ الشِّركِ لِأُلفَةِ النَّاسِ لهُ وتزيينِ الشَّياطينِ، مَعَ أنَّ الشِّركَ أعظَمُ جُرمًا؛ إذِ الفاحِشَةُ كبيرَةٌ يَبقَىٰ معها أصلُ الدِّينِ، والشِّركُ يهدِمُ الدِّينَ مِن أساسِهِ.

فأرادَ المُصَنِّفُ أن يُعيدَ الموازينَ إِلَىٰ نِصابِها الشَّرعيِّ، وَأن يُنَبِّهَ طلَبَتَهُ أنَّ مدارَ العِظَمِ عَلَىٰ مُخالَفَةِ حقِّ اللهِ، لَا عَلَىٰ مَا تنفِرُ منهُ الطِّباعُ.

وكانَ المُصَنِّفُ قد ألَّفَ «كِتابَ التَّوحيدِ»، وأخَذَ يشرَحُهُ لِطُلَّابِهِ، ويُعيدُ ويُكَرِّرُ مسائلَهُ عليهِم، فَقَالُوا لهُ يومًا: يَا شيخُ، نُريدُ أن تُغَيِّرَ لَنَا الدَّرسَ إِلَىٰ مواضيعَ أُخرىٰ: سيرَةٍ وتاريخٍ.

قالَ: سننظُرُ فِي ذلكَ إن شاءَ اللهُ. ثمَّ خرَجَ إليهِم مِنَ الغدِ مهمومًا مُفكِّرًا، فسألوهُ عَن سبَبِ حُزنِهِ، فقالَ لهُم: سمِعتُ أنَّ رجُلًا فِي قريَةٍ مُجاوِرَةٍ سكَنَ بيتًا جديدًا، وخافَ مِن تعَرُّضِ الجِنِّ لهُ فذبَحَ ديكًا عندَ عتَبَةِ البابِ تقرُّبًا إِلَىٰ الجِنِّ، وَقَد أرسَلتُ مَن يتَثَبَّتُ لِي مِنَ الأمرِ. فَلَم يتأثَّرِ الطُّلَّابُ كثيرًا، وإنَّما دعَوا لِذاكَ الرَّجُلِ بِالهِدايَةِ وسكَتوا.

وَفِي الغدِ لقِيَهُمُ الشَّيخُ فقالَ: تثَبَّتنا مِن خبَرِ البارِحَةِ، فَإِذَا الأمرُ عَلَىٰ خِلافِ مَا نُقِلَ إليَّ؛ فإنَّ الرَّجُلَ لَم يذبَح ديكًا تقرُّبًا إِلَىٰ الجِنِّ، ولكنَّهُ أتَىٰ فاحِشَةً عظيمَةً بِأقرَبِ النَّاسِ إليهِ. فثارَ الطُّلَّابُ وانفَعلوا، وَقَالُوا: لَا بُدَّ مِنَ الإنكارِ عليهِ ومُناصَحَتِهِ وعُقوبَتِهِ، وكثُرَ هرجُهُم.

فكانَ مِن أنفعِ الدَّعوَةِ كشفُ قُبحِ الشِّركِ لِلفِطَرِ، إِذ هِيَ مفطورَةٌ عَلَىٰ بُغضِ الظُّلمِ، فَإِذَا تبيَّنَ لَهَا أنَّ الشِّركَ أعظَمُ الظُّلمِ نفَرَت منهُ بِطَبعِها.

فَإِذَا كانَ مِن أقبَحِ المسَبَّةِ لِأبِي بكرٍ أَن يُسَوَّىٰ بينَهُ وبينَ بعضِ المُلوكِ فِي زمانِنا، فكيفَ يُجعَلُ لِمَخلوقٍ مِنَ الماءِ المهينِ بعضُ حقوقِ مَن عظَمَتُهُ وجلالُهُ تخلَعُ الأفئدَةَ؟!

أَن يُدعىٰ كَمَا يُدعىٰ اللهُ، أَو يُخافَ كَمَا يُخافُ، أَو يُعتَمَدَ عليهِ كَمَا يُعتَمَدُ عليهِ؟ هَذَا أعظَمُ الظُّلمِ، وأقبَحُ المسَبَّةِ لِرَبِّ العالمينَ.

فالمُشرِكُ يسلُبُ الرَّبَّ سُبحانَهُ صِفاتِهِ العُليا مِن عِلمٍ وإحاطَةٍ وإدراكٍ ورحمَةٍ وكرَمٍ وقُدرَةٍ، وينسُبُ إليهِ ضِدَّها مِنَ الجهلِ والعجزِ والبُخلِ، تَعَالَىٰ اللهُ عَن ذلكَ؛ ذلكَ لِأنَّ حقيقَةَ الشِّركِ يَتَرَتَّبُ عَلَيهَا أنَّ اللهَ لَا يرحَمُ إلَّا بِالوسائطِ والشُّفعاءِ، وَلَا يعلَمُ بِأحوالِ عِبادِهِ إلَّا بِهؤلاءِ الشُّرَكاءِ، وَلَا يقدِرُ إلَّا ثانيًا.

ثُمَّ إنَّ المُشرِكَ -بعدَ وُقوعِهِ فِي تنقيصِ اللهِ وسوءِ ظنِّهِ بِهِ- يُشَبِّهُ الرَّبَّ بِمُلوكِ

فقالَ الشَّيخُ: مَا أعجَبَ أمرَكُم!

تُنكِرونَ هَذَا الإنكارَ عَلَىٰ مَن وقَعَ فِي كبيرَةٍ مِنَ الكبائرِ -وَهِيَ لَم تُخرِجهُ مِنَ الإسلامِ- وَلَا تُنكِرونَ عَلَىٰ مَن وقَعَ فِي الشِّركِ، وذبَحَ لِغيرِ اللهِ، وصرَفَ العِبادَةَ لِغيرِ اللهِ! فسكَتَ الطُّلَّابُ، فأشارَ الشَّيخُ إِلَىٰ أحَدِهِم وقالَ: قُم ناوِلنا «كِتابَ التَّوحيدِ» نشرَحهُ مِن جديدٍ.

قلتُ: ووجهُ إيرادِ هاتَينِ القِصَّتَينِ أنَّهُما تُصَوِّرانِ غايَةَ المقصودِ فِي هذهِ المسألَةِ: أنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ اليومَ لَا يعتَنونَ بِمَعرِفَةِ الشِّركِ ونواقِضِ التَّوحيدِ، ويهتَمُّونَ بِما هُوَ دونَهُ؛ فجاءَ صنيعُ المُصَنِّفِ مَعَ طلَبَتِهِ تنبيهًا عَلَىٰ أنَّ تعَلُّمَ التَّوحيدِ ومعرِفَةَ ضِدِّهِ أوكَدُ مِن كثيرٍ مِمَّا تشتاقُ إليهِ النُّفوسُ مِن أخبارٍ وسِيَرٍ؛ ولِهذا أبَىٰ أَن يعدِلَ عَن «كِتابِ التَّوحيدِ» حتَّىٰ رسَخَ فِي نُفوسِهِم قُبحُ الشِّركِ وعِظَمُ خطَرِهِ.

الأرضِ أهلِ الجهلِ والعجزِ والذِّلَّةِ؛ فيُعَظِّمُ المخلوقَ ويرفَعُهُ عَن درَجَتِهِ اللائقَةِ بِهِ - الَّتي تُناسِبُ نقصَهُ وضعفَهُ وفقرَهُ- إِلَىٰ درَجَةِ الإلَهِ الخالِقِ القادِرِ.

فهل هناكَ ذنبٌ أعظَمُ مِن تسويَةِ ربِّ الأربابِ بِالمَخلوقِ مِن تُرابٍ، وتنقيصِ الإلَهِ العزيزِ الحكيمِ، وتعظيمِ المخلوقِ الفقيرِ الذَّليلِ؟ تَعَالَىٰ اللهُ عَن ذلكَ عُلُوًّا كبيرًا.[(١)]

ولِذا، فإنَّ الشِّركَ وأهلَهُ إنَّما كَانُوا مبغوضينَ لِأَنَّهُ أعظَمُ مُعانَدَةٍ لِلَّهِ، وأشنَعُ الذُّنوبِ عَلَىٰ الإطلاقِ، لَا تَدعُو إليهِ شهوَةٌ، بَل هُوَ فسادٌ محضٌ فِي القلبِ؛ فالإنسانُ يَزنِي لِأَنَّهُ يشتَهي، ويسرِقُ لِأَنَّهُ يتَمَنَّىٰ المالَ، وأمَّا المُشرِكُ فبِلا شهوَةٍ، إنَّما هُوَ مرَضٌ فِي القلبِ وفسادٌ فِي الفِطرَةِ؛ ولِذا كانَ الشِّركُ أعظَمَ الذُّنوبِ، وكانَ أهلُهُ أحَقَّ النَّاسِ بِالبَراءةِ.

مسألة: فوائدُ الولاءِ والبَراءِ:

الأولىٰ: إرضاءُ اللهِ وكسبُ محَبَّتِهِ ونَيلُ رِضوانِهِ.

---

(١) انظُر: لزاماً الداء والدواء (ص٢٩٥) الفصل بطوله.

وقالَ المُصَنِّفُ: «فَلَا يصِحُّ لِلمؤمِنِ دينٌ إلَّا بِمُوالاةِ أهلِ التَّوحيدِ، ومعاداةِ أهلِ الضَّلالِ وبُغضِهِم والبَراءةِ منهُم، كَمَا تبَرَّأ إبراهيمُ والَّذينَ معهُ مِنَ الكُفَّارِ، وَكَمَا تبَرَّأ نبيُّنا محمدٌ -ﷺ- وصحبُهُ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ ومَن حذا حذوَهُم؛ وهذهِ هِيَ المُوالاةُ لِلمؤمِنينَ، والمعاداةُ لِلمُشرِكينَ الَّتي هِيَ أصلُ عُرىٰ الإيمانِ وأوثَقُها» ذكَرَهُ فِي «الدُّرَرِ السَّنيَّةِ» (٢/ ٩٥).

وقالَ إسحاقُ بنُ عبدِ الرَّحمَنِ آلُ الشَّيخِ فِي «رسالَةِ تكفيرِ المُعَيَّنِ» (ص٢٦): «فاللَّجَا اللَّجَا إلَىٰ حِصنِ الدِّينِ، والاعتِصامُ بِحَبلِ اللهِ المتينِ، والانحيازُ إلَىٰ أوليائهِ المؤمِنينَ، والحذَرُ الحذَرُ مِن أعدائهِ المُخالِفينَ؛ فأفضَلُ القُرَبِ إلَىٰ اللهِ مقتُ مَن حادَّ اللهَ ورسولَهُ، وجِهادُهُ بِاليَدِ واللِّسانِ والجَنانِ بِقدرِ الإمكانِ، وَمَا يُنجي العبدَ مِنَ النِّيرانِ. ومَن كانَ اللهُ ورسولُهُ أحَبَّ إليهِ ممَّا سِواهُما فَلَا بُدَّ أَن ينقادَ لِأوامِرِ القُرآنِ والسُّنَّةِ، ويتبَرَّأ مِن كلِّ مُعتَقَدٍ يُخالِفُ مَا عليهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِن ساداتِ الأُمَّةِ».

الثَّانيَةُ: دُخولُ الجنَّةِ والنَّجاةُ مِنَ النَّارِ.

الثَّالثَةُ: تحقيقُ التَّوحيدِ.

الرَّابِعَةُ: تقويَةُ المؤمِنينَ وشدُّ أزرِهِم.

الخامِسَةُ: تمكينُ دينِ اللهِ في الأرضِ.

السَّادِسَةُ: حُصولُ البَرَكاتِ.

وممَّا يحصُلُ لِلمؤمِنِ إِذَا اعتزَلَ الكُفَّارَ وعادَاهُم مَا أخبرَ بِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [سورة مريم:٤٩-٥٠].

قلتُ: ووجهُ الدلالَةِ مِن قِصَّةِ إبراهيمَ أنَّ اللهَ رتَّبَ عَلَىٰ اعتِزالِهِ قومَهُ المُشرِكينَ هِباتٍ عِظامًا: الذُّرِّيَّةَ الصَّالِحَةَ، والنُّبُوَّةَ فيهِم، والثَّناءَ الحسَنَ الباقيَ؛ فدلَّ أنَّ البَراءةَ مِن أهلِ الشِّركِ بابٌ لِلبَركاتِ والنِّعَمِ فِي العاجِلِ والآجِلِ.

فجمَعَ اللهُ لِأهلِ الوَلاءِ والبَراءِ بينَ رِضوانِهِ فِي الآخِرَةِ، والتَّمكينِ والبَرَكَةِ فِي الدُّنيا؛ خِلافًا لِما يتوَهَّمُهُ بعضُ النَّاسِ مِن أنَّ مُداهَنَةَ أهلِ الباطِلِ أجلَبُ لِلمَصالِحِ.

وَإِلَيكَ جملة من أدلَّةُ الوَلاءِ والبَراءِ مِنَ الكِتابِ:

أدلَّةُ هَذَا الأصلِ مِنَ القُرآنِ كثيرَةٌ، مِنهَا:

- قولُهُ تعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [سورة التوبة:٢٣].
- وقولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [سورة النساء:١٣٩].

• وقوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [سورة المجادلة:٢٢].

• وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [سورة هود:١١٣].

• وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [سورة الممتحنة:١].

• وقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [سورة الممتحنة:٤].

• وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [سورة الأنفال:٧٣].

• وقوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [سورة آل عمران:٢٨].

• وقوله: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [سورة النساء:١٣٨-١٣٩].

• وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة المائدة:٥٧].

• وقوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [سورة المائدة:٨٠].

• وقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ

﴿رَٰكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٥٦﴾ [سورة المائدة:٥٥-٥٦].

• وقولُهُ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [سورة التوبة:٧١].

ووجهُ تضافُرِ هذهِ الآياتِ أنَّها قسمَتِ النَّاسَ فريقَينِ لَا ثالثَ لهُما: أولياءَ اللهِ المؤمِنينَ، وأولياءَ الشَّيطانِ الكافِرينَ؛ فجعلَتِ المؤمِنينَ بعضَهُم أولياءَ بعضٍ، والكافِرينَ بعضَهُم أولياءَ بعضٍ، ونهَتِ المؤمِنينَ عَن تولِّي الكافِرينَ وَلَو كَانُوا آباءً أَو إخوانًا؛ فدلَّ مجموعُها عَلَىٰ أنَّ الوَلاءَ والبَراءَ ميزانٌ تنفَصِلُ بهِ الصُّفوفُ، وأنَّ مَن خلطَ الصَّفَّينِ فَقَد ناقَضَ مُقتَضىٰ إيمانِهِ.

وتأمَّل كيفَ ختَمَ كثيرًا منهَا بِالوعيدِ الشَّديدِ -كقولِهِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٢٩﴾ [سورة البقرة:٢٢٩]، و﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [سورة آل عمران:٢٨]- تعظيمًا لِشَأنِ هَذَا الأصلِ.

ومن أدلَّةُ الوَلاءِ والبَراءِ مِنَ السُّنَّةِ:

١٥٣ - **قولُهُ** -ﷺ-: «مثَلُ المؤمنينَ فِي تَوادِّهِم وتَراحُمِهِم وتَعاطُفِهِم مثَلُ الجسَدِ، إِذَا اشتكَىٰ منهُ عُضوٌ تَداعَىٰ لهُ سائرُ الجسَدِ بِالسَّهَرِ والحُمَّىٰ».(١)

١٥٤ - **وقولُهُ:** «المؤمِنُ لِلمؤمِنِ كالبُنيانِ يشُدُّ بعضُهُ بعضًا».(٢)

١٥٥ - **وقولُهُ:** «المُسلِمُ أخو المُسلِمِ، لَا يظلِمُهُ وَلَا يُسلِمُهُ».(٣)

١٥٦ - **وقولُهُ:** «والَّذي نَفسِي بِيَدِهِ، لَا تدخُلونَ الجنَّةَ حتَّىٰ تؤمِنوا، وَلَا تؤمِنوا حتَّىٰ

---

(١) أَخرَجَهُ البخاري (رقم ٦٠١١)، ومسلم (رقم ٢٥٨٦).

(٢) أَخرَجَهُ البخاري (رقم ٢٤٤٦)، ومسلم (رقم ٢٥٨٥).

(٣) أَخرَجَهُ البخاري (رقم ٢٤٤٢، ٦٩٥١)، ومسلم (رقم ٢٥٨٠).

تحابُّوا؛ أوَلا أدُلُّكم عَلَىٰ شيءٍ إِذَا فعَلتُموهُ تحابَبتُم؟ أفشُوا السَّلامَ بينكُم».(١)

١٥٧ - **وأمَّا فِي البَراءِ، فقولُهُ -ﷺ- فِي حديثِ جريرٍ -لمَّا جاءَ يُبايِعُهُ-:** «أُبايِعُكَ عَلَىٰ أَن تعبُدَ اللهَ وَلَا تُشرِكَ بِهِ شيئًا، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وتُؤتيَ الزَّكاةَ، وتَنصَحَ المُسلِمَ، وتُفارِقَ المُشرِكَ».

١٥٨ - **وَفِي روايَةٍ:** «وتَبرأَ مِنَ الكافِرِ».

١٥٩ - **وقولُهُ -ﷺ-:** «أوثَقُ عُرىٰ الإيمانِ الحُبُّ فِي اللهِ والبُغضُ فيهِ».

١٦٠ - **وقولُهُ:** «مَن أحبَّ لِلَّهِ، وأبغَضَ لِلَّهِ، وَأَعطَىٰ لِلَّهِ، ومنعَ لِلَّهِ، فقدِ استكمَلَ الإيمانَ».(٢)

١٦١ - **وقولُهُ:** «مَن تشَبَّهَ بِقَومٍ فَهُوَ منهُم».(٣)

١٦٢ - **وقولُهُ:** «خالِفوا المُشرِكينَ».(٤)

١٦٣ - **وقولُهُ:** «المرءُ مَعَ مَن أحَبَّ».(٥)

١٦٤ - **وأخرَجَ النَّسائيُّ عَن بَهزِ بنِ حكيمٍ عَن أبيهِ عَن جدِّهِ أنَّ رسولَ اللهِ -ﷺ-**

---

(١) أَخرَجَهُ مسلم (رقم ٥٤)

(٢) سنن أَبِي داود كتاب السنة، باب الدليل عَلَىٰ زيادة الإيمان، (٤٦٨٣)، والترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق، باب حدثنا أَبُو حفص، (٢٥٢١)، ومسند أحمد (٢٤/ ٣٨٣)، مصنف عبد الرزاق، (٣/ ١٩٧)، وابن أَبِي شيبة، (١١/ ٤٧).

(٣) «مسند أحمد» (٩/ ١٢٦ ط الرسالة).

(٤) «صحيح البخاري» (٧/ ٤٦٥).

(٥) «صحيح البخاري» (٥/ ٣١١).

قالَ: «لَا يقبَلُ اللهُ مِن مُشرِكٍ بعدَما أسلَمَ عمَلًا، أَو يُفارِقَ المُشرِكينَ إِلَىٰ المُسلِمينَ».

١٦٥ - **وقالَ** -ﷺ-: «الرَّجُلُ عَلَىٰ دينِ خليلِهِ، فليَنظُر أحَدُكُم مَن يُخالِلُ»(١).

١٦٦ - **وَرُوِيَ عَن يزيدَ بنِ الشِّخِّيرِ قالَ:** بينا أَنَا مَعَ مُطَرِّفٍ بِالمِربَدِ إِذ دخَلَ رجُلٌ معهُ قِطعَةُ أُدمٍ، قالَ: كتَبَ لِي هذهِ رسولُ اللهِ -ﷺ-، فهَل أحَدٌ منكُم يقرَأُ؟ قلتُ: أَنَا أقرَأُ، فَإِذَا فِيهَا: «مِن محمدٍ النَّبيِّ -ﷺ- لِبَني زُهَيرِ بنِ أُقَيشٍ، أنَّهُم إِن شهِدوا أَن لَا إلَهَ إِلَّا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وفارَقوا المُشرِكينَ، وأقَرُّوا بِالخُمُسِ فِي غنائمِهِم، وسهمِ النَّبيِّ -ﷺ- وصَفيِّهِ، فإنَّهُم آمِنونَ بِأمانِ اللهِ ورسولِهِ»(٢).

١٦٧ - **وقالَ** -ﷺ-: «جاهِدوا المُشرِكينَ بِأموالِكُم وأنفُسِكُم وألسِنَتِكُم»(٣).

قلتُ: وَمَا الجِهادُ فِي سبيلِ اللهِ -الَّذي هُوَ أفضَلُ الأعمالِ- إِلَّا قِتالُ الكُفَّارِ؛ وَفِي هذهِ الأحاديثِ بيانُ طرَفَيِ الأصلِ: فأمَّا الوَلاءُ فجاءَ فِي أحاديثِ التَّوادِّ والتَّراحُمِ والأُخُوَّةِ بينَ المؤمِنينَ، وأنَّ الإيمانَ لَا يكمُلُ إِلَّا بِالتَّحابِّ؛ وأمَّا البَراءُ فجاءَ فِي اشتِراطِ مُفارَقَةِ المُشرِكِ فِي البيعَةِ والكِتابِ النَّبويِّ، وَفِي الأمرِ بِمُخالَفَتِهِم والنَّهيِ عَن مُشابَهَتِهِم؛ فاجتَمَعَ مِنَ السُّنَّةِ مَا يُقَرِّرُ أنَّ الإيمانَ حُبٌّ وبُغضٌ، وموالاةٌ ومعاداةٌ، لَا تتِمُّ حقيقَتُهُ إِلَّا بِهما.(٤)

---

(١) النسائي (٥/ ٨٢ - ٨٣)، وابن ماجه (٢٥٣٦)، وأحمد (٢٠٠٣٧).

(٢) أخرَجَهُ أبُو داود (٢٩٩٢)، والنسائي (٤١٥٧).

(٣) «مسند أحمد» (١٩/ ٢٧٢ ط الرسالة).

(٤) وَمِن صُوَرِ المُعَادَاةِ فِي اللهِ - وَهِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا - مَا يَلِي:

قَتلُ النَّبِيِّ -ﷺ- لِأَبِي عَزَّةَ الْجُمَحِيِّ: قَتَلَهُ رَغمَ تَرَجِّيهِ وَطَلَبِهِ العَفوَ، وَكَذَلِكَ أَمَرَ بِقَتلِ ابنِ خَطَلٍ وَغيرِه

وَإِلَيكَ بعض الآثارُ فِي الوَلاءِ والبَراءِ:

١٦٨- **رَوَىٰ أَبُو نُعَيمٍ فِي «حِلِيَةِ الأولياءِ» (٦/ ٩٩)** عَن مكحولٍ عَن واثِلَةَ بنِ الأسقَعِ مرفوعًا: «يُؤتىٰ بِعَبدٍ مُحسِنٍ فِي نفسِهِ، لَا يَرَىٰ أنَّ لهُ ذنبًا، فيُقالُ لهُ: هَل كنتَ تُوالي أوليائي؟ قالَ: كنتُ مِنَ النَّاسِ سَلَمًا.

قالَ: فَهَل كنتَ تُعادي أَعدَائِي؟ قالَ: ربِّ، لَم يكُن بَينِي وبينَ أَحَدٍ شيءٌ، فيقولُ اللهُ: لَا ينالُ رحمَتي مَن لَم يُوالِ أَولِيَائِي ويُعادِ أَعدَائِي».

١٦٩- **وَرُوِيَ عنِ ابنِ مسعودٍ قالَ:** «أَوحَىٰ اللهُ إِلَىٰ نبيٍّ مِنَ الأنبياءِ: قُل لِفُلانٍ العابِدِ: أمَّا زُهدُكَ فِي الدُّنيا فتَعَجَّلتَ بهِ راحَةَ نفسِكَ، وأمَّا انقِطاعُكَ إليَّ فتَعَزَّزتَ بهِ، فَمَاذَا عمِلتَ فِيمَا لِي عليكَ؟ قالَ: يَا ربِّ، فَمَا لكَ عليَّ؟ قالَ: هَل واليتَ لِي وليًّا، أَو

عِندَ فَتحِ مَكَّةَ.

مَوقِفُ أَبِي بَكرٍ -رضي الله عنه-: صَكَّ وَجهَ أَبِيهِ لَمَّا سَبَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم-، وَقِصَّتُهُ مَعَ ابنِهِ لَمَّا أَرَادَ قَتلَهُ، وَكَذَلِكَ خَبَرُهُ مَعَ المُرتَدِّينَ.

قَتلُ أَبِي عُبَيدَةَ لِوَالِدِهِ يَومَ بَدرٍ: وَفِيهَا أُنزِلَت آيَةُ المُجَادَلَةِ.

رَأيُ عُمَرَ فِي أَسرَىٰ بَدرٍ: طَلَبَ أَن يُسَلِّمَ كُلُّ قَرِيبٍ لِقَرِيبِهِ فَيَقتُلَهُ، وَمَا حَصَلَ مِنَ الوَعِيدِ لَمَّا خُولِفَ رَأيُهُ كَمَا فِي سُورَةِ الأَنفَالِ.

قِصَّةُ سَعدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ مَعَ أُمِّهِ: لَمَّا امتَنَعَت عَنِ الطَّعَامِ بَعدَ إِسلَامِهِ، قَالَ لَهَا: «وَاللهِ لَو كَانَ لَكِ أَلفُ نَفسٍ فَخَرَجَت نَفسًا نَفسًا مَا تَرَكتُ دِينِي هَذَا».

قَتلُ مُحَيِّصَةَ بنِ مَسعُودٍ لِابنِ سُنَينَةَ اليَهُودِيِّ: لَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- بِقَتلِ اليَهُودِ.

قِصَّةُ أُمِّ المُؤمِنِينَ أُمِّ حَبِيبَةَ مَعَ وَالِدِهَا أَبِي سُفيَانَ: رَفَعَت عَنهُ فِرَاشَ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- لَمَّا كَانَ مُشرِكًا.

مَوقِفُ عُمَرَ مَعَ أَبِي مُوسَىٰ الأَشعَرِيِّ: لَمَّا اتَّخَذَ كَاتِبًا نَصرَانِيًّا، وَقِصَّتُهُ مَعَ عُمَيرِ بنِ وَهبٍ.

قِصَّةُ عَبدِ اللهِ بنِ حُذَافَةَ السَّهمِيِّ مَعَ قَيصَرَ.

عاديتَ لِي عدُوًّا؟»(١).

١٧٠ - **وقالَ الحسَنُ البَصريُّ:** «لَا تغترَّ بِقَولِكَ: المرءُ مَعَ مَن أحَبَّ؛ فإنَّ مَن أحَبَّ قومًا اتَّبعَ آثارَهُم، وَلَن تلحَقَ الأبرارَ حتَّىٰ تتَّبعَ آثارَهُم، وتأخُذَ بِهَديِهِم، وتقتَديَ بِسُنَّتِهِم، وتُمسيَ وتُصبِحَ وأنتَ عَلَىٰ مِنهاجِهِم، حريصًا أَن تكونَ منهُم، وتسلُكَ سبيلَهُم، وتأخُذَ طريقَهُم، وَإِن كنتَ مُقصِّرًا فِي العمَلِ، فإنَّ مِلاكَ الأمرِ أَن تكونَ عَلَىٰ استِقامَةٍ.(٢)

أمَا رأيتَ اليهودَ والنَّصارىٰ وأهلَ الأهواءِ الرَّديئَةِ يُحِبُّونَ أنبياءَهُم وَلَيسُوا معهُم؛ لِأَنَّهُم خالَفوهُم فِي القولِ والعمَلِ، وسلَكوا غيرَ طريقَتِهِم، فصارَ مورِدُهُمُ النَّارَ؟».

١٧١ - **وقيلَ لِعَبدِ اللهِ بنِ عمرَ -كَمَا فِي «صحيحِ مُسلِمٍ» (مقدمة، رقم ٨)-:** إنَّهُ قَد ظهَرَ قِبَلَنا ناسٌ يقرَؤونَ القُرآنَ ويتَقَفَّرونَ العِلمَ، وأنَّهُم يزعُمونَ أَن لَا قدَرَ، وأنَّ الأمرَ أُنُفٌ، قالَ: «فَإِذَا لقيتَ أولئكَ فأخبِرهُم أنِّي بريءٌ منهُم، وأنَّهُم بُرَآءُ منِّي».

قلتُ: ووجهُ الدلالَةِ مِن هذهِ الآثارِ أنَّها رفعَت توَهُّمَ مَن يظُنُّ أنَّ مُجرَّدَ العِبادَةِ والزُّهدِ يُغني عنِ الوَلاءِ والبَراءِ؛ فأثَرُ واثِلَةَ صرَّحَ بِأنَّ المُحسِنَ فِي نفسِهِ لَا ينالُ الرَّحمَةَ إِن لَم يُوالِ أولياءَ اللهِ ويُعادِ أعداءَهُ، وأثَرُ ابنِ مسعودٍ بيَّنَ أنَّ الزُّهدَ والانقِطاعَ حظُّ النَّفسِ مَا لَم يقتَرِنا بِحَقِّ اللهِ فِي الوَلاءِ والبَراءِ.

---

(١) **انظُر:** الزهدِ لابنِ المبارَكِ (رقم ١٠٢٧).

(٢) **انظُر:** تفسيرِ ابنِ أَبِي حاتمٍ (رقم ١٩٢٣٤) والزهدِ لهنادِ بنِ السريِّ (رقم ٤١٢) وَالْحِكَمِ الْجَدِيرَةِ بِالْإِذَاعَةِ مِن قَولِ النَّبِيِّ: بُعِثتُ بِالسَّيفِ بَينَ يَدَيِ السَّاعَةِ لِابنِ رَجَبٍ (ص١٣٣) تَحقِيقُ مُحَمَّدٍ حَامِدٍ الْفِقِّي.

وَقَالَ ابنُ مَسعُودٍ -رضي الله عنه-: لَو أنَّ رجلاً قَامَ يَعبُدُ اللهَ بَينَ الرُّكنِ وَالْمَقَامِ سَبعِينَ سَنَةً لَبَعَثَهُ اللهُ مَعَ مَن يُحِبُّ يَومَ الْقِيَامَةِ.

وأمَّا كلامُ الحسَنِ فقطَعَ ذريعةَ مَن يحتَجُّ بِحديثِ «المرءُ مَعَ مَن أحَبَّ» عَلَىٰ مُجَرَّدِ دعوىٰ المحَبَّةِ، فبَيَّنَ أنَّ المحَبَّةَ الصَّادِقَةَ تستَلزِمُ الاتِّبَاعَ فِي الهَدي والعمَلِ، لَا مُجَرَّدَ ميلِ القلبِ.

وأمَّا براءةُ ابنِ عمرَ مِنَ القدَريَّةِ فدليلٌ عَلَىٰ أنَّ البَراءةَ تجري فِي أهلِ البِدَعِ كَمَا تجري فِي أهلِ الشِّركِ، بِحَسَبِ مَا معهُم مِنَ المُخالَفَةِ.

الإجماعُ عَلَىٰ الوَلاءِ والبَراءِ:

١٧٢- **قالَ ابنُ بطَّةَ فِي «الإبانَةِ»:** «وتُبغِضُ فِي اللهِ مَن عصاهُ ووالىٰ أعداءَهُ، وَإِن كانَ قريبًا منكَ»[(١)].

١٧٣- **وقالَ البَربَهاريُّ:** «وَإِذَا فعَلَ شيئًا مِن ذلكَ -الكُفرِ والبِدَعِ- وجَبَ عليكَ أَن تُخرِجَهُ مِنَ الإسلامِ»[(٢)].

١٧٤- **وقالَ الصَّابونيُّ فِي مُقَدِّمَةِ «عقيدَةِ السَّلَفِ وأصحابِ الحديثِ»:** «سألَني إخوَانِي فِي الدِّينِ أَن أجمَعَ لهُم فُصولًا فِي أصولِ الدِّينِ الَّتي استَمسَكَ بِها الَّذينَ

---

(١) الإبانة الصغرىٰ (١٧٨).

(٢) شَرحُ السُّنَّةِ (٧٣).

وَانظُر: «شَرحَ السُّنَّةِ لِلبَربَهَارِيِّ» (ص١٣٥): أَقوَالُ الْفُضَيلِ فِي مُعَامَلَةِ أَهلِ الْبِدَعِ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ فِي عَقِيدَتِهِ (ص٧٧): وَيَجِبُ: مُوَالَاةُ أَولِيَاءِ‍هُ وَمُعَادَاةُ أَعدَائِهِ.

وَقَالَ الْكَرَجِيُّ فِي «النُّكَتِ» (١/ ١٣١): قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ [سورة البقرة:٩٧]. إِلَىٰ قَولُهُ: فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلكَافِرِينَ (٩٨)

حُجَّةٌ عَلَىٰ الْجَهمِيَّةِ وَالْمُعتَزِلَةِ: لِوَصفِهِ نَفسَهُ بِعَدَاوَةِ مَن يُعَادِيهِ، وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ، مِنَ الْكُفَّارِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُنكِرُونَهُ أَشَدَّ الإِنكَارِ.

مضَوا مِن أئمَّةِ الدِّينِ وعُلَماءِ المُسلِمينَ والسَّلَفِ الصَّالِحينَ... ووالَوا فِي اتِّباعِها، وعادَوا فِيهَا، وبدَّعوا وكفَّروا مَنِ اعتَقَدَ غيرَها».

قلتُ: يظهَرُ مِن كلامِ الصَّابونيِّ أنَّ أصولَ الدِّينِ هِيَ معقِدُ الوَلاءِ والبَراءِ والحُبِّ والبُغضِ؛ فَقَد جعَلَ السَّلَفُ الموالاةَ والمعاداةَ منوطَةً بِالاعتِقادِ، يُوالونَ عَلَىٰ أصولِ السُّنَّةِ ويُعادونَ عَلَىٰ مُخالَفَتِها؛ فدلَّ أنَّ الوَلاءَ والبَراءَ ليسَ مسألَةً فرعيَّةً، بَل هُوَ منتَظِمٌ فِي صُلبِ أصولِ الدِّينِ، حتَّىٰ صارَ ميزانًا يُعرَفُ بِهِ أهلُ السُّنَّةِ مِن أهلِ البِدعَةِ.

١٧٥- **وَرُوِيَ عَن قتادَةَ فِي قولِهِ تَعالَىٰ:** ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأنعام:١٢٩] قالَ: «وإنَّما يُوَلِّي اللهُ بينَ النَّاسِ بِأعمالِهِم، فالمؤمِنُ وليُّ المؤمِنِ أينَ كانَ وحيثُما كانَ، والكافِرُ وليُّ الكافِرِ مِن أينَ كانَ وحيثُما كانَ»(١)

قلتُ: الوَلاءُ لِلمُسلِمِ أينَما كانَ وحيثُما كانَ، والبَراءةُ مِنَ الكافِرِ أينَما كانَ وحيثُما كانَ، وَلَو كانَ أقرَبَ القريبِ؛ والوَلاءُ والبَراءُ موجودانِ حتَّىٰ مَعَ الحيواناتِ عَلَىٰ أساسِ التَّوحيدِ والنُّصرَةِ.

مسألَةٌ: أقسامُ المحبّة:

أصلُ الدِّينِ أنَّ مَن قالَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وجَبَ عليهِ محَبَّتُها، ومحَبَّةُ مَا دلَّت عليهِ مِنَ التَّوحيدِ، ومحَبَّةُ أهلِها، وبُغضُ الشِّركِ وأهلِهِ.

والوَلاءُ والبَراءُ، والمُوالاةُ والمعاداةُ، والحُبُّ والبُغضُ فِي اللهِ؛ ألفاظٌ لِمَعنًىٰ واحِدٍ، وأصلُهُ القلبُ.

---

(١) «تفسير ابن أَبِي حاتم» (٤/ ١٣٨٨).

فبِحَسَبِ مَا يُحِبُّهُ القلبُ تكونُ المُوالاةُ: فَإِنَّ أَحَبَّ الإيمانَ وأهلَهُ كانَ مُواليًا لهُم، وَإِن أَحَبَّ الشِّركَ وأهلَهُ كانَ مُواليًا لهُم.

والمحَبَّةُ قِسمانِ:

الأَوَّلُ: المحَبَّةُ الدِّينيَّةُ؛ وَهِيَ المُتَعَلِّقَةُ بِالدِّينِ والعقيدَةِ، الَّتي تقتَضي الرِّضا والتَّوالِيَ والنُّصرَةَ عَلَىٰ سبيلِ التَّدَيُّنِ والاعتِقادِ.

فمَن أَحَبَّ الكافِرَ لِدينِهِ، أَو أَحَبَّ دينَهُ الكُفريَّ، فَقَد كفَرَ بِاللهِ؛ لِأَنَّ هذهِ المحَبَّةَ تستَلزِمُ الرِّضا بِالكُفرِ والمُوافَقَةَ عَلَىٰ مَا يُناقِضُ الإسلامَ؛ وكلُّ محَبَّةٍ تقتَضي الرِّضا بالكُفرِ فَهِيَ مُكَفِّرَةٌ، لِأَنَّ الرِّضا بالكُفرِ كُفرٌ بِإجماعِ أهلِ العِلمِ.

الثَّاني: المحَبَّةُ الطَّبعيَّةُ (الجِبِلِّيَّةُ)؛ وَهِيَ الَّتي تنشَأُ بِحُكمِ الفِطرَةِ والجِبِلَّةِ، لَا يقصِدُ بِها صاحِبُها تدَيُّنًا وَلَا تقرُّبًا، وَلَا يملِكُ دفعَ أصلِها عَن نفسِهِ فِي الغالِبِ.

وَهِيَ ثلاثَةُ أنواعٍ: محَبَّةُ إجلالٍ وتعظيمٍ كمحَبَّةِ الوالِدَينِ؛ ومحَبَّةُ رحمَةٍ وعطفٍ كمحَبَّةِ الولَدِ؛ ومحَبَّةُ مصلَحَةٍ وإحسانٍ كَأَنَّ يُحِبَّ مَن يُحسِنُ إليهِ أَو يدفَعُ عنهُ ضرَرًا أَو يُحَقِّقُ لهُ منفَعَةً مُباحَةً.

وضابِطُ المحَبَّةِ الطَّبعيَّةِ أنَّها جائزَةٌ شرعًا بِشرطَينِ مُتلازِمَينِ: أَن لَا تتَحَوَّلَ إِلَىٰ محَبَّةٍ دينيَّةٍ تقتَضي الرِّضا بالكُفرِ أَو نُصرَتَهُ، وَأَن لَا تحمِلَ المُسلِمَ عَلَىٰ مُخالَفَةِ أمرِ اللهِ.

وَهَذَا مَعنَىٰ قولِهِ -ﷺ-: «لَا يؤمِنُ أَحَدُكُم حتَّىٰ أكونَ أَحَبَّ إليهِ مِن والِدِهِ ووَلَدِهِ والنَّاسِ أجمَعينَ»، أَي: محَبَّةً دينيَّةً مُقَدَّمَةً عندَ التَّزاحُمِ.

وعليهِ فَلَا تلازُمَ بينَ المحَبَّتَينِ؛ فَقَد يُحِبُّ المُسلِمُ شخصًا محَبَّةً طبعيَّةً، ويُبغِضُهُ دينيًّا، وَلَا مانِعَ مِن ذلكَ شرعًا.

ومن أمثِلَةِ ذلكَ: الزَّوجَةُ الكِتابيَّةُ، فَهِيَ كافِرَةٌ، وَمَعَ ذلكَ أُبيحَ نِكاحُها، فيَقَعُ بينَ الزَّوجَينِ حُبٌّ طبعيٌّ مَعَ وُجوبِ بُغضِها دينيًّا لِكُفرِها؛ والوالِدُ الكافِرُ يلزَمُ بُغضُهُ دينيًّا مَعَ بقاءِ مُعامَلَتِهِ بالمعروفِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [سورة لقمان:١٥]؛ ومحَبَّةُ النَّبيِّ -ﷺ- لِأبي طالِبٍ كانَت محَبَّةً طبعيَّةً لَا دينيَّةً، قالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [سورة القصص:٥٦].

قلتُ: ووجهُ هَذَا التَّفصيلِ أنَّ النُّصوصَ جاءَت بِبُغضِ الكافِرِ والبَراءةِ منهُ، وجاءَت أيضًا بِالأمرِ ببِرِّ الوالِدَينِ الكافِرَينِ ومُصاحَبَتِهِما بِالمعروفِ، وبِإباحَةِ نِكاحِ الكِتابيَّةِ؛ فَلَا يُجمَعُ بينَها إلَّا بِالتَّفريقِ بينَ المحَبَّةِ الدِّينيَّةِ -الَّتي مدارُها الرِّضا بِالدِّينِ، وَهِيَ مُكَفِّرَةٌ فِي حقِّ الكافِرِ- والمحَبَّةِ الطَّبعيَّةِ -الَّتي مدارُها الجِبلَّةُ، وَهِيَ مُباحَةٌ مَا لَم تُفضِ إِلَىٰ مُحَرَّمٍ-.

فبِهذا التَّفصيلِ تأتَلِفُ النُّصوصُ وَلَا تتعارَضُ، ويسلَمُ المُسلِمُ مِنَ الغُلُوِّ فِي البَراءةِ والتَّفريطِ فِيهَا معًا.

مسألة: أقسام موالاة الكُفَّارِ ودرَجاتُها

المُوالاةُ فِي الشَّرعِ ثلاثَةُ أقسامٍ:

الأوَّلُ: المُوالاةُ التَّامَّةُ (المُكَفِّرَةُ)؛ وَهِيَ الاصطِفافُ مَعَ الكُفَّارِ ضِدَّ المُسلِمينَ، ومحَبَّتُهُم لِدينِهِم، ونُصرَتُهُم عَلَىٰ الإسلامِ؛ وَهَذَا كُفرٌ ورِدَّةٌ بِاتِّفاقِ العُلَماءِ.

وضابِطُها أَن تكونَ المحَبَّةُ والنُّصرَةُ لِأجلِ دينِهِم وعقيدَتِهِم.

الثَّاني: المُوالاةُ النَّاقِصَةُ؛ وَهِيَ مُعاوَنَةٌ جُزئيَّةٌ لِغَرَضٍ دُنيَويٍّ، مَعَ بقاءِ بُغضِ الكُفرِ فِي القلبِ؛ ومِن صُوَرِها: التَّجسُّسُ، وبَيعُ السِّلاحِ وَمَا يُقَوِّيهِم، والتَّشَبُّهُ بِهِم فِيمَا هُوَ مِن

خصائصِهِم؛ وهذهِ كبيرَةٌ مِنَ الكبائرِ وَلَا يُكَفَّرُ بِها صاحِبُها.

الثَّالِثُ: المُعامَلَةُ المُباحَةُ؛ كالتِّجارَةِ والبَيعِ والشِّراءِ، بِشرطِ أَن لَا يترَتَّبَ عَلَيهَا ضَرَرٌ دينيٌّ أَو دُنيَويٌّ عَلَىٰ المُسلِمينَ.

وفَرقٌ بينَ الموالاةِ المُحرَّمةِ والمعاملةِ المباحةِ؛ فالموالاةُ أصلُها المحبّةُ والنُّصرةُ ومَيلُ القلبِ، ومحَلُّها القلبُ ثُمَّ تَظهَرُ عَلَىٰ الجوارح، وَهِيَ المنهيُّ عَنهَا.

وأمّا المعاملةُ فِي أمورِ الدُّنيا -مِن بَيعٍ وشِراءٍ وإجارةٍ وحُسنِ جِوارٍ- فليست مِن جِنسِ الموالاةِ المُحرَّمةِ؛ فَقَد عامَلَ النبيُّ -ﷺ- اليهودَ، وأكَلَ مِن طعامِهِم، ورَهَنَ دِرعَه عندَ يهوديٍّ، فَلَا يَلزَمُ مِنَ البَراءِ القلبيِّ قطعُ المعاملةِ المُباحةِ، وَلَا مِنَ المعاملةِ المباحةِ مُوالاةٌ؛ فليُحرَّرِ الفرقُ، فإنّ الخَلطَ فِيهِ أوقَعَ طائفتَينِ فِي طرفَينِ: غالٍ يُحرِّمُ المباحَ، وجافٍ يُجيزُ المحبّةَ والنُّصرة.

فمُعامَلَةُ المُسلِمِ لِلكافِرِ قَد تكونُ كُفرًا، أَو معصيَةً، أَو مُباحَةً، بِحَسَبِ حالِها ومقصودِها وأثَرِها.

فَقَد يظهَرُ مِنَ المُسلِمِ نوعٌ مِنَ الوَلاءِ الظَّاهِرِ لِلكافِرينَ، أَو تركُ الوَلاءِ الظَّاهِرِ لِلمُسلِمينَ، فيَكونُ فِي أصلِ فِعلِهِ عاصيًا لَا كافِرًا؛ لَكِن لَا تكونُ هذهِ المُوالاةُ كُفرًا أكبَرَ مُخرِجًا مِنَ المِلَّةِ إلَّا بِشرطٍ مُعَيَّنٍ، وَهُوَ: إِذَا كانتِ المُوالاةُ تامَّةً مُطلَقَةً، فإنّها تكونُ كُفرًا.

وأصلُ المُوالاةِ هُوَ المحَبَّةُ، وَلَهَا بعدَ ذلكَ ثمَراتٌ كالمُعاوَنَةِ والنُّصرَةِ والمُصادَقَةِ والتَّشَبُّهِ؛ فَإِذَا كَانَت هذهِ المُوالاةُ تامَّةً كَانَت كُفرًا بِاللهِ.

ومِن صُوَرِ المُوالاةِ الكُفرِيَّةِ: السُّرورُ بِارتِفاعِ دينِ الكُفَّارِ أَوِ انخِفاضِ دينِ

المُسلِمينَ؛ ومحَبَّةُ الكافِرِ لِأجلِ كُفرِهِ، كَأَنَّ يُحِبَّ كافِرًا لِأنَّهُ مُلتَزِمٌ بِدينِهِ الباطِلِ، أَو لِأَنَّهُ يسجُدُ لِلأصنامِ، فَهَذا مِنَ المُوالاةِ الكُفرِيَّةِ.

فمَن أعانَ أَو نصَرَ كافِرًا لِأجلِ كُفرِهِ فقَد كفَرَ، ومَن أَحَبَّ كافِرًا لِأجلِ كُفرِهِ فقد كفَرَ؛ فالقَيدُ المُكَفِّرُ فِي بابِ المُوالاةِ هُوَ أَن تكونَ عَلَىٰ الدِّينِ الكُفرِيِّ.

وأمَّا مَن أعانَ كافِرًا أَو والاهُ أَو نصَرَهُ لِغَرَضٍ دُنيَوِيٍّ، مَعَ سلامَةِ الاعتِقادِ وبُغضِ الكُفرِ وأهلِهِ، أَو لِمَصلَحَةٍ شخصيَّةٍ أَو خوفٍ أَو عداوَةٍ دُنيَوِيَّةٍ، فهذِهِ كبيرَةٌ مِن كبائِرِ الذُّنوبِ، لَا تُخرِجُ صاحِبَها مِنَ الإسلامِ؛ ذلكَ لِأَنَّ مُجَرَّدَ النُّصرَةِ العمَليَّةِ لِلكُفَّارِ عَلَىٰ المُسلِمينَ -دونَ عقيدَةِ القلبِ أَو تصريحٍ أَو صورَةٍ صريحَةٍ لَا تحتَمِلُ التَّأويلَ- لَا يُكَفِّرُ بِها، لِاحتِمالِ أَن يكونَ ذلكَ عَن ضعفِ إيمانٍ مَعَ بُغضِ الكُفرِ وأهلِهِ.

١٧٦- **جاءَ فِي «مجموعَةِ الرَّسائِلِ والمسائِلِ النَّجديَّةِ» (٣/ ٣٨):** «وَقَد عرَفتُم أنَّ مُسَمَّىٰ المُوالاةِ يقَعُ عَلَىٰ شُعَبٍ مُتَفاوِتَةٍ؛ مِنهَا مَا يوجِبُ الرِّدَّةَ، كذَهابِ الإسلامِ بِالكُلِّيَّةِ، وَمِنهَا مَا هُوَ دونَ ذلكَ مِنَ الكبائِرِ والمُحَرَّماتِ، فمُوالاةُ الكافِرِ لِدينِهِ -يُواليهِ ويُحِبُّهُ ويُوادُّهُ وينصُرُهُ لِأجلِ مَا عليهِ مِنَ الشِّركِ والوَثَنِيَّةِ، يَعني محَبَّةً لِدينِهِ- فَهَذَا مُوالاةٌ مُكَفِّرَةٌ».

قلتُ: ووجهُ هَذَا التَّفصيلِ أنَّ لفظَ «المُوالاةِ» يقَعُ عَلَىٰ درَجاتٍ مُتَفاوِتَةٍ، فَلَا يصِحُّ إطلاقُ التَّكفيرِ عَلَىٰ كلِّ صورَةٍ مِنهَا؛ بَل المَناطُ الَّذي يدورُ عليهِ التَّكفيرُ هُوَ أَن تكونَ المُوالاةُ لِأجلِ الدِّينِ -محَبَّةً لِلكُفرِ ونُصرَةً لهُ مِن حيثُ هُوَ كُفرٌ-، فهذِهِ هِيَ الرِّدَّةُ؛ وأَمَّا مَا كانَ لِغَرَضٍ دُنيَوِيٍّ مَعَ بُغضِ الكُفرِ فكبيرَةٌ لَا تبلُغُ الكُفرَ الأكبَرَ.

وَهَذَا التَّفصيلُ هُوَ الَّذي يُمَيِّزُ مذهَبَ أهلِ السُّنَّةِ مِن غُلُوِّ الخوارِجِ الَّذينَ يُكَفِّرونَ

بِمُطلَقِ المُعامَلَةِ، ومِن إرجاءِ مَن يُهَوِّنُ شأنَ المُوالاةِ جُملَةً؛ فأهلُ السُّنَّةِ يُنزِلونَ كلَّ صورةٍ منزِلَتَها، فَلَا يُكَفِّرونَ بِغَيرِ مُكَفِّرٍ، وَلَا يُهَوِّنونَ مَا هُوَ كُفرٌ.

فالإيمانُ الحقُّ يقتَضي: محَبَّةَ المؤمِنينَ، وبُغضَ الشِّركِ وأهلِهِ، والبَراءةَ مِن دينِ المُشرِكينَ، وعدَمَ موالاةِ مَن حادَّ اللهَ ورسولَهُ، مَعَ العدلِ والإحسانِ فِي المُعامَلَةِ لِمَن لَم يُقاتِل وَلَم يُعادِ؛ ولِذا قالَ النَّبيُّ -ﷺ-: «أوثَقُ عُرىٰ الإيمانِ الحُبُّ فِي اللهِ والبُغضُ فِي اللهِ». والرَّشيدُ —

١٧٧ - **كَمَا جَاءَ فِي «مدارِجِ السَّالِكينَ» (٤/ ٤٩٨ ط عطاءات العلم)-:** «مَن تبَرَّأَ مِنَ الشِّركِ قولًا وعمَلًا وحالًا، فكانَ قولُهُ توحيدًا، وعمَلُهُ توحيدًا، وحالُهُ توحيدًا، ودعوَتُهُ إِلَىٰ التَّوحيدِ».

فالوَلاءُ والبَراءُ أصلٌ مِن أصولِ الإيمانِ، يقومُ عَلَىٰ محَبَّةِ المؤمِنينَ ونُصرَتِهِم، وبُغضِ الكُفرِ وأهلِهِ ومُعاداتِهِم، وَهُوَ مرتَبِطٌ بِالتَّوحيدِ ارتباطًا وثيقًا، وتنقَسِمُ مُوالاةُ الكُفَّارِ إِلَىٰ: مُوالاةٍ كُبرىٰ مُكفِّرَةٍ، ومُوالاةٍ صُغرىٰ مُحَرَّمَةٍ.

الخاتِمَةُ الجامِعَةُ لِلمَسائلِ الثَّلاثِ:

فهذِهِ ثلاثُ مسائلَ عظيماتٍ تُعَدُّ مِن أصولِ الإسلامِ:

الأولىٰ: أن يعلَمَ الإنسانُ الغايَةَ الَّتي خُلِقَ مِن أجلِها، وهي عِبادَةُ اللهِ وحدَهُ؛ فإذا عرَفَ الغايَةَ عرَفَ الطَّريقَ الموصِلَ إليها، وهو اتِّباعُ ما جاءَ بِهِ الرُّسُلُ.

الثَّانيَةُ: أنَّ طريقَ النَّجاةِ واحِدٌ لا يتَعَدَّدُ، وهو توحيدُ اللهِ وإفرادُهُ بِالعِبادَةِ، وأنَّ اللهَ لا يرضىٰ الشِّركَ بِهِ بِحالٍ، لا مِن بعيدٍ ولا مِن قريبٍ، ولا مِن أحَدٍ كائنًا مَن كانَ، ولو كانَ مِنَ المُقَرَّبينَ وأصحابِ المقاماتِ.

الثَّالثةُ: أن يَخلُصَ قلبُ المُوَحِّدِ -الَّذي وحَّدَ اللهَ وأطاعَ الرَّسولَ -ﷺ- مِن محبَّةِ المُشرِكينَ؛ لِأنَّ اجتِماعَ التَّوحيدِ الصَّافي مع محَبَّةِ الشِّركِ وأهلِهِ تناقُضٌ في أصلِ الدِّينِ.

فهذِهِ المسائلُ الثَّلاثُ تجمَعُ حقيقَةَ الإسلامِ: عِلمًا بِالغايَةِ والطَّريقِ، واعتِقادًا بِالتَّوحيدِ، وعمَلًا وانقيادًا ظاهِرًا وباطِنًا.

قلتُ: وخِتامُ القولِ فِي هذهِ المسائلِ الثَّلاثِ أنَّها انتَظَمَت أركانَ التَّوحيدِ الثَّلاثَةَ الَّتي صدَّرَ بِها المُصَنِّفُ هَذَا القِسمَ: فالأولىٰ قرَّرَت توحيدَ الرُّبوبيَّةِ وثمَرَتَهُ فِي وُجوبِ العِبادَةِ واتِّباعِ الرَّسولِ؛ والثَّانيَةُ قرَّرَت توحيدَ الأُلوهيَّةِ بِنَفيِ الشَّريكِ فِي العِبادَةِ؛ والثَّالثَةُ قرَّرَت لازِمَ التَّوحيدِ، وَهُوَ الوَلاءُ والبَراءُ.

فعادَ آخِرُ القِسمِ عَلَىٰ أوَّلِهِ بِالتَّصديقِ، واتَّسَقَ بناؤُهُ عَلَىٰ نسَقٍ واحِدٍ: معرِفَةٌ تُثمِرُ عِبادَةً، وعِبادَةٌ تُثمِرُ ولاءً وبراءً؛ فمَن حقَّقَ الثَّلاثَ فقَد حقَّقَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» عِلمًا وعمَلًا وحالًا ودعوَةً.

قال المؤلف -رحمه الله-:

«اعلَم - أَرشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ - أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبرَاهِيمَ: أَن تَعبُدَ اللهَ وَحدَهُ مُخلِصًا لَهُ الدِّينَ.

وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُم لَهَا، كَمَا قَالَ تعالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:٥٦].

وَأَعظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ: التَّوحِيدُ، وَهُوَ إِفرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ.

وَأَعظَمُ مَا نَهَىٰ عَنه: الشِّركُ، وَهُوَ دَعوَةُ غَيرِهِ مَعَهُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة النساء:٣٦].

أَهَمُّ المَسَائِلِ الَّتِي تَنَاوَلَتهَا هَذِهِ الفِقرَةُ:

- التَّعرِيفُ بِمِلَّةِ إِبرَاهِيمَ، وَأَنَّهَا تَقُومُ عَلَىٰ التَّوحِيدِ وَإِخلَاصِ العِبَادَةِ لِلَّهِ وَالكُفرِ بِالطَّاغُوتِ.
- بَيَانُ حَقِيقَةِ الإِخلَاصِ، وَأَنَّهُ قَصدُ اللهِ بِالعِبَادَةِ وَتَخلِيصُ العَمَلِ مِنَ الشِّركِ وَالرِّيَاءِ.
- بَيَانُ الحِكمَةِ مِن خَلقِ الخَلقِ، وَهِيَ عِبَادَةُ اللهِ وَحدَهُ وَمَعرِفَتُهُ.
- تَوضِيحُ أَنَّ العِبَادَةَ لَا تَصِحُّ إِلَّا بِالتَّوحِيدِ، وَأَنَّ مَعنَىٰ العِبَادَةِ هُوَ إِفرَادُ اللهِ بِهَا.

○ بَيَانُ حَقِيقَةِ التَّوحِيدِ وَالشِّركِ، وَأَنَّ التَّوحِيدَ إِفرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ، وَالشِّركَ صَرفُ شَيءٍ مِنَ العِبَادَةِ لِغَيرِهِ.

أولاً: معنى «اعلَم» و«أرشَدَكَ اللهُ لِطاعَتِهِ»:

قولُهُ: «اعلَم»، يَعنِي: اعلَم عِلمَ اليَقِينِ، واجزِم بِما أُخاطِبُكَ بِهِ، وَلَا تكُن جاهِلًا بِما سأقولُهُ لكَ، وقولُهُ: «أرشَدَكَ اللهُ لِطاعَتِهِ»، أَي: وفَّقَكَ اللهُ، وسلَكَ بِكَ طريقَ الهِدايَةِ، ودلَّكَ عَلَىٰ سُبُلِ طاعَتِهِ؛ والرَّشادُ مأخوذٌ مِنَ الرُّشدِ، وَهُوَ ضِدُّ الغوايَةِ.

وَهَذَا أُسلوبٌ تشويقيٌّ، وَهُوَ مِنَ الأساليبِ الدَّعَويَّةِ الَّتي استَعمَلَها النَّبيُّ -ﷺ-؛

١٧٨ - **رُوِيَ عَن مُعاذِ بنِ جبَلٍ أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- أَخَذَ بِيَدِهِ يومًا ثمَّ قالَ:** «يا مُعاذُ، إنِّي لأُحِبُّكَ»، فقالَ لهُ مُعاذٌ: بِأبي أنتَ وأُمِّي يَا رسولَ اللهِ، وأنا أُحِبُّكَ، **قالَ:** «أُوصيكَ يَا مُعاذُ، لَا تدَعَنَّ فِي دُبُرِ كلِّ صلاةٍ أَن تقولَ: اللهمَّ أعِنِّي عَلَىٰ ذِكرِكَ وشُكرِكَ وحُسنِ عِبادَتِكَ».

ووجهُ افتِتاحِ المُصَنِّفِ بِهذا الدُّعاءِ قبلَ تقريرِ المسألَةِ أَنَّهُ سلَكَ مسلَكَ الأنبياءِ والعُلَماءِ فِي تأليفِ القلبِ قبلَ إلقاءِ العِلمِ؛ فكَمَا مهَّدَ النَّبيُّ -ﷺ- لِوَصيَّتِهِ مُعاذًا بِإعلامِهِ محبَّتَهُ لهُ، مهَّدَ المُصَنِّفُ لِمَسائلِهِ بِالدُّعاءِ لِقارِئِهِ بِالرَّشادِ؛ لِيُقبِلَ القلبُ عَلَىٰ مَا يُلقىٰ إليهِ بِمَحَبَّةٍ وقَبولٍ، لَا بِنُفورٍ.

وَفِي قولِهِ: «اعلَم» تنبيهٌ عَلَىٰ أَنَّ المطلوبَ عِلمُ يقينٍ يُثمِرُ العمَلَ، لَا مُجَرَّدُ تصَوُّرٍ ذِهنيٍّ.

مسألة: حقيقةُ الحنيفيّةِ في الاصطِلاحِ الشّرعيّ:

الحنيفيَّةُ فِي الاصطِلاحِ الشَّرعيِّ هِيَ: الاستِقامَةُ التَّامَّةُ عَلَىٰ دينِ اللهِ ظاهِرًا وباطِنًا، واللُّزومُ المُطلَقُ لِلتَّوحيدِ، مَعَ البَراءةِ الكامِلَةِ مِنَ الشِّركِ وأهلِهِ، واتِّباعُ الحقِّ، وتركُ الباطِلِ فِي جميعِ أبوابِ الدِّينِ.

فليسَتِ الحنيفيَّةُ مُجَرَّدَ ميلٍ عنِ الباطِلِ فحسبُ، بَل هِيَ ثُبوتٌ عَلَىٰ الحقِّ، ولُزومٌ لهُ، واستِقامَةٌ عليهِ، مَعَ مُفاصَلَةٍ تامَّةٍ لِكلِّ مَا يُضادُّهُ.

ومعنىٰ الحنيفِ فِي كلامِ السَّلَفِ ورَدَ عَلَىٰ معانٍ مُتَقارِبَةٍ يجمَعُها أصلٌ واحِدٌ، وَهُوَ: الاستِقامَةُ، والسَّلامَةُ، والاتِّباعُ.

فالحنيفُ هُوَ المُستَقيمُ السَّالِمُ -كَمَا رُوِيَ عَن محمدِ بنِ كعبٍ القُرَظيِّ-، أَي: السَّالِمُ مِنَ الشِّركِ والزَّيغِ والانحِرافِ.

وقيلَ: سُمِّيَ حنيفًا مِن جِهَةِ السَّلامَةِ، كَمَا قيلَ لِلرَّجُلِ الَّذي فِي رِجلِهِ ميلٌ: أحنَفُ، وقيلَ لِلمَهلَكَةِ: مفازَةٌ، مِن بابِ التَّفاؤُلِ.

وقيلَ: الحنيفُ هُوَ المُتَّبِعُ -كَمَا رُوِيَ عَن مُجاهِدٍ-، أَي: المُتَّبِعُ لِلحَقِّ ولِما جاءَت بِهِ الرُّسُلُ.

وقيلَ: الحنيفُ هُوَ المُخلِصُ -كَمَا قالَ عطاءٌ-، أَي: الَّذي أخلَصَ دينَهُ لِلَّهِ وحدَهُ فَلَم يُشرِك بِهِ شيئًا.

وهذِهِ الأقوالُ ليسَت مُتعارِضَةً، بَل مُتَلازِمَةٌ؛ لِأنَّ الاستِقامَةَ لَا تكونُ إِلَّا مَعَ الإخلاصِ والاتِّباعِ والسَّلامَةِ مِنَ الشِّركِ، وأمَّا تفسيرُ الحنيفِ بِـ«المائلِ» فتَفسيرٌ اشتَهَرَ عندَ بعضِ مُتَأخِّري أهلِ اللُّغَةِ، وَهُوَ تفسيرٌ بِلازِمِ المَعنَىٰ لَا بِحَقيقَتِهِ؛ لِأنَّ الحنيفَ إنَّما

يُوصَفُ بِالميلِ عنِ الشِّركِ إِلَىٰ التَّوحيدِ، فالميلُ هُنَا وصفٌ عارِضٌ، لَا حقيقَةُ اللَّفظِ وَلَا موضوعُهُ الأصليُّ، فالصَّحيحُ أَن يُقالَ: الحنيفُ مُستَقيمٌ عَلَىٰ التَّوحيدِ، لَا مُجَرَّدُ مائلٍ عنِ الشِّركِ.

قلتُ: ووجهُ تقديمِ مَعنَىٰ الاستِقامَةِ عَلَىٰ مَعنَىٰ الميلِ أنَّ الحنيفيَّةَ وصفُ مدحٍ وثناءٍ فِي الشَّرعِ، والمدحُ إنَّما يكونُ بِالأمرِ الثُّبوتيِّ -وَهُوَ لُزومُ التَّوحيدِ والاستِقامَةُ عليهِ- لَا بِمُجَرَّدِ أمرٍ سلبيٍّ، وَهُوَ الميلُ عنِ الشِّركِ؛ فإنَّ الانصِرافَ عنِ الباطِلِ لَا يكونُ كمالًا حتَّىٰ يقترِنَ بِالثَّباتِ عَلَىٰ الحقِّ.

ولِذا فسَّرَهُ السَّلَفُ بِالسَّلامَةِ والاتِّباعِ والإخلاصِ، وكلُّها معانٍ ثُبوتيَّةٌ تجتَمِعُ فِي مَعنَىٰ الاستِقامَةِ عَلَىٰ التَّوحيدِ.

وَهَذَا الْمَعنَىٰ هُوَ الَّذي تحقَّقَ واقِعًا فِي إمامِ الحُنَفاءِ إبراهيمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-؛ فإنَّهُ بُعِثَ فِي أُمَمٍ غارِقَةٍ فِي الشِّركِ، مُتَلَبِّسَةٍ بِعِبادَةِ الأصنامِ والكواكِبِ والمُلوكِ، فَلَم يكُن موقِفُهُ مُجَرَّدَ إنكارٍ جُزئيٍّ، بَل كانَ استِقامَةً شامِلَةً عَلَىٰ التَّوحيدِ، ومُفاصَلَةً كامِلَةً مَعَ الشِّركِ وأهلِهِ، فاستَقامَ إبراهيمُ عَلَىٰ الحقِّ فِي اعتِقادِهِ، وعِبادَتِهِ، ودُعائِهِ، وبَراءَتِهِ مِنَ المُشرِكينَ، وَفِي بذلِ نفسِهِ ووَلَدِهِ وحياتِهِ لِلَّهِ.

ولِهذا صارَتِ الحنيفيَّةُ كلِمَةَ مدحٍ وثناءٍ فِي الشَّرعِ، لَا مُجَرَّدَ وصفٍ لُغَويٍّ، فكلُّ مَن كانَ حنيفًا عَلَىٰ الحقيقَةِ فَهُوَ مُتَّبِعٌ لِإبراهيمَ، ومُتَّبِعٌ لِمُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِن بابٍ أَولَىٰ.

ولِذا إِذَا ذُكِرَ التَّوحيدُ الخالِصُ، والبَذلُ فِي سبيلِ اللهِ، والبَراءةُ مِنَ الشِّركِ وأهلِهِ، والكعبَةُ الَّتي بَنَاهَا إبراهيمُ بِأمرِ اللهِ عَلَىٰ أساسِ التَّوحيدِ؛ فإنَّما يُستَحضَرُ إبراهيمُ: أَبُو الأنبياءِ، إمامُ الحُنَفاءِ، مُكَسِّرُ الأصنامِ، الدَّاعي إِلَىٰ التَّوحيدِ، الَّذي بذَلَ كلَّ مَا يملِكُ لِلَّهِ

حتَّىٰ بلَغَ مقامَ الخُلَّةِ؛ فاتَّخذَهُ اللهُ خليلًا، وكذلكَ اتَّخذَ محمدًا -ﷺ- خليلًا، ولَا يُعلَمُ فِي النُّصوصِ الصَّحيحةِ أنَّ أحدًا نالَ هذهِ المنزِلَةَ العُظمىٰ غيرَهُما.

ووجهُ كونِ إبراهيمَ -عليه السلام- عَلَمًا لِلحنيفيَّةِ أنَّ اللهَ جمعَ فيهِ ركنَيِ الحنيفيَّةِ علَىٰ أكمَلِ وجهٍ: الإثباتَ -وهُوَ إفرادُ اللهِ بالعِبادةِ والبَذلِ فِي سبيلِهِ-، والنَّفيَ -وهُوَ تكسيرُ الأصنامِ والمُفاصَلَةُ مِنَ المُشرِكينَ-؛ فلَم تكُن حنيفيَّتُهُ دعوىٰ مُجرَّدةً، بَل كانَت تطبيقًا عمليًّا شمِلَ القلبَ واللِّسانَ والجوارِحَ.

ولِهذا استحَقَّ أن يكونَ إمامًا يُؤتَسىٰ بهِ، وأن يُؤمَرَ خاتَمُ الرُّسُلِ -ﷺ- بِاتِّباعِ مِلَّتِهِ، مَعَ عُلُوِّ قدرِ نبيِّنا -ﷺ-؛ إذِ المِلَّةُ واحِدةٌ، وإنِ اختَلَفَتِ الشَّرائعُ.

فالحنيفيَّةُ الَّتي هِيَ مِلَّةُ إبراهيمَ: تطهيرٌ قبلَ تحليَةٍ، ومُفاصَلَةٌ قبلَ مُوالاةٍ، وكُفرٌ بِالطَّاغوتِ قبلَ الإيمانِ باللهِ، ولَا تُغرَسُ شجَرَةُ التَّوحيدِ فِي قلبٍ لَم يُنزَع منهُ الشِّركُ، ولَم تُقلَع جُذورُهُ، ولَم تُكسَر أصنامُهُ الباطِنَةُ؛ فإنَّ التَّوحيدَ شجَرَةٌ لَا تقبَلُ أرضًا مُشتَرَكَةً، ولَا تَنمُو فِي قلبٍ فيهِ ولاءٌ لِغيرِ اللهِ، ولَا تثبُتُ مَعَ بقاءِ شيءٍ مِن آثارِ الشِّركِ، ولَا تستقيمُ إلَّا فِي قلبٍ مُفرَدٍ لِلَّهِ، مُتبرِّئٍ ممَّا سِواهُ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الصف:٧].

قلتُ: ووجهُ تقديمِ التَّخليَةِ علَىٰ التَّحليَةِ -أي تطهيرِ القلبِ مِنَ الشِّركِ قبلَ غرسِ التَّوحيدِ فيهِ- أنَّ كلِمَةَ «لَا إلَهَ إلَّا اللهُ» بدأت بِالنَّفيِ قبلَ الإثباتِ؛ فبَدَأَت بِنفيِ الأُلوهيَّةِ عمَّا سِوىٰ اللهِ، ثمَّ أثبَتَتها لهُ وحدَهُ.

فدلَّ هَذا التَّرتيبُ علَىٰ أنَّ القلبَ لَا يَسعُ التَّوحيدَ وفيهِ بقايا الشِّركِ، كَمَا لَا تنبُتُ الزَّرعَةُ الطَّيِّبَةُ فِي أرضٍ لَم تُنَقَّ مِنَ الشَّوكِ والحشائشِ الضَّارَّةِ؛ ولِهذا صدَّرَ إبراهيمُ

دعوَتَهُ بِالبَراءةِ: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [سورة الزخرف:٢٦]، ثمَّ أثبَتَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [سورة الزخرف:٢٧]؛ فكانَ النَّفيُ سابِقًا لِلإثباتِ فِي مِلَّةِ الحُنَفاءِ كلِّها.

فَالكُفرُ بِالطَّاغُوتِ هُوَ مَعنَىٰ النَّفيِ، وَالإيمانُ بِاللهِ هُوَ مَعنَىٰ الإثباتِ.

قُلتُ: وَمَن أتَىٰ بِالإثباتِ دُونَ النَّفيِ لَم يَكُن مُوَحِّدًا؛ إِذ لَو أَقَرَّ بِأَنَّ اللهَ مَعبُودٌ، وَلَم يَتبَرَّأ مِمَّا يُعبَدُ مِن دُونِهِ، لَكانَ مُشرِكًا لَا مُوَحِّدًا.

فَلا يَنفَعُ الإثباتُ حَتَّىٰ يَتَقَدَّمَهُ النَّفيُ وَالخَلعُ وَالبَراءةُ.

ومِن ثَمراتِ تقديمِ النَّفيِ عَلَىٰ الإثباتِ فِي كلِمَةِ التَّوحيدِ ردُّ شُبهَةٍ معاصِرَةٍ يرفَعُها دُعاةُ مَا يُسَمَّىٰ بِـ«الحُرِّيَّةِ الفكريَّةِ»، مِمَّن يجعَلونَ الانسِلاخَ مِنَ الدِّينِ ونبذَ أحكامِهِ ضربًا مِنَ التَّحَرُّرِ؛ فإنَّ حقيقَةَ التَّوحيدِ أَن يكفُرَ العبدُ بِكلِّ طاغوتٍ يُعبَدُ أَو يُطاعُ مِن دونِ اللهِ، ثمَّ يُخلِصَ العِبادَةَ لِلَّهِ وحدَهُ؛ فمَن زعَمَ أنَّ كمالَ الإنسانِ فِي انعِتاقِهِ مِن أمرِ اللهِ ونهيِهِ فَقَد قلَبَ الحقيقَةَ، وجعَلَ عينَ العُبوديَّةِ لِلطَّاغوتِ حُرِّيَّةً، وعينَ الحُرِّيَّةِ — وَهِيَ العُبوديَّةُ لِلَّهِ — قيدًا؛ والحقُّ أنَّ العبدَ لَا ينفَكُّ عنِ العُبوديَّةِ ألبَتَّةَ: فإمَّا عبدٌ لِلَّهِ مُتحَرِّرٌ مِن رِقِّ مَا سِواهُ، وإمَّا عبدٌ لِهَواهُ والطَّاغوتِ وَإِن زعَمَ أَنَّهُ حُرٌّ؛ ولِذا لَم يصِحَّ وصفُ الإيمانِ إلَّا لِمَن كفَرَ بِالطَّاغوتِ أوَّلًا.

وَقَد وصَفَ اللهُ فِي آيَةِ الصَّفِّ مَنِ افترَىٰ عَلَىٰ اللهِ الكَذِبَ وَهُوَ يُدعىٰ إِلَىٰ الإسلامِ بِأنَّهُ أظلَمُ النَّاسِ، وَلَا افتِراءَ أعظَمُ مِنَ الشِّركِ بِاللهِ، أَوِ الدِّفاعِ عَن أهلِهِ، أَو تزيينِ باطِلِهِم؛ وأخبَرَ أَنَّهُ لَا يَهدِي مَن كانَ هَذَا شأنَهُ حتَّىٰ يُقلِعَ عَن أظلَمِ الظُّلمِ الَّذي ارتكَبَهُ فِي حقِّ ربِّهِ، وَهُوَ مُنازَعَتُهُ حقَّهُ الخالِصَ فِي العِبادَةِ والتَّوحيدِ.

مسألة: أنّ الحنيفيّةَ لا تتمُّ إلَّا بعمَلٍ ظاهِرٍ:

لَا يكفِي فِي هَذَا البابِ مُجَرَّدُ الاعتِقادِ القلبيِّ، بَل لَا بُدَّ أَن يتبعَهُ عملٌ ظاهِرٌ صادِقٌ، يتَمَثَّلُ فِي: مُفارَقَةِ الشِّركِ وأهلِهِ، ومُجانبَةِ ديارِ الشِّركِ عندَ القُدرَةِ، والبَراءةِ العمَليَّةِ مِن أنظِمَتِهِ وطُرُقِهِ وشعائرِهِ؛ كَمَا كانَ رسولُ اللهِ -ﷺ- يُبايعُ الدَّاخِلينَ فِي الإسلامِ -أفرادًا ووُفودًا- عَلَىٰ البَراءةِ مِنَ الشِّركِ وأهلِهِ، والالتِزامِ بِالتَّوحيدِ ظاهِرًا وباطِنًا.

ولِهذا يجِبُ عَلَىٰ المؤمِنِ أَن يبحَثَ عَن تُربَةٍ زكيَّةٍ وبلدَةٍ طيِّبَةٍ يغرِسُ فِيهَا شجَرَةَ إيمانِهِ، لِتكونَ أصولُها ثابِتَةً وفُروعُها فِي السَّماءِ؛ كَمَا قالَ كعبُ بنُ زُهَيرٍ واصِفًا رسولَ اللهِ -ﷺ- وأصحابَهُ:

فِي عُصبَةٍ مِن قُرَيشٍ قالَ قائلُهُم ... بِبَطنِ مكَّةَ لَمَّا أسلَموا: زولوا
زالوا فَمَا زالَ أنكاسٌ وَلَا ... عندَ اللِّقاءِ وَلَا ميلٌ معازيلُ

وَهُوَ وصفٌ دقيقٌ لِحَقيقَةِ الهِجرَةِ والمُفاصَلَةِ العقَديَّةِ، لَا لِمُجَرَّدِ انتِقالٍ مكانيٍّ.

وَفِي أبياتِ كعبٍ تصويرٌ لِهذهِ المُفاصَلَةِ: فإِنَّ الصَّحابَةَ لمَّا أسلَموا «زالوا» -أَي فارَقوا قومَهُم ودينَهُم- فَمَا كَانُوا أنكاسًا (ضُعفاءَ) وَلَا كُشُفًا (فِرارًا) وَلَا ميلًا معازيلَ (عُزَّلًا متخاذِلينَ)، بَل ثبَتوا عَلَىٰ الحقِّ وفارَقوا الباطِلَ؛ فدلَّ أَنَّ الهِجرَةَ فِي حقيقَتِها مُفاصَلَةٌ عقَديَّةٌ، لَا مُجَرَّدُ انتِقالٍ بِالبَدَنِ.

قلتُ: ووجهُ اشتِراطِ العمَلِ الظَّاهِرِ مَعَ الاعتِقادِ القلبيِّ أَنَّ الإيمانَ قولٌ واعتِقادٌ وعمَلٌ، لَا يتِمُّ بعضُهُ دونَ بعضٍ؛ فالبَراءةُ مِنَ الشِّركِ إِن بقِيَت فِي القلبِ دونَ أثَرٍ ظاهِرٍ لَم تكُن تامَّةً، بَل لَا بُدَّ أَن تظهَرَ فِي المُفارَقَةِ والمُجانبَةِ والمُفاصَلَةِ؛ ولِهذا أخَذَ النَّبيُّ -ﷺ- عَلَىٰ الدَّاخِلينَ فِي الإسلامِ البيعَةَ عَلَىٰ البَراءةِ عملًا لَا قلبًا فقَط.

ومِن لوازِمِ الحنيفيَّةِ الصَّادِقَةِ: البُغضُ الشَّديدُ العميقُ لِلشِّركِ وأهلِهِ، بُغضًا يفوقُ

بُغضَكَ لِقاتِلِ أبيكَ وأبنائكَ؛ لِأنَّ الشِّركَ اعتِداءٌ عَلَىٰ حقِّ اللهِ الأعظَمِ، واستِهزاءٌ بِرُبوبيَّتِهِ وأُلوهيَّتِهِ، وإفسادٌ لِلفِطرَةِ الَّتي فطَرَ اللهُ النَّاسَ عَلَيها.

فَإنَّ قيلَ: كيفَ يُزرَعُ هَذَا البُغضُ فِي القلبِ وَيَقوَىٰ؟

فالجوابُ مِن وجهَينِ عظيمَينِ:

الأوَّلُ: صِدقُ الالتِجاءِ إِلَىٰ اللهِ، وسُؤالُهُ أَن يُبَغِّضَ إليكَ الشِّركَ وأهلَهُ، ويُزَيِّنَ فِي قلبِكَ التَّوحيدَ والإيمانَ.

الثَّاني: الإكثارُ مِنَ العمَلِ الصَّالِحِ؛ فإنَّ الإيمانَ يزيدُ بِالطَّاعَةِ، وكلَّما ازدادَت محَبَّةُ العبدِ لِرَبِّهِ ازدادَ بُغضُهُ لِأعدائهِ الَّذينَ يعتَدونَ عَلَىٰ حقِّهِ، ويُشرِكونَ بِهِ، ويستَهزِئونَ بِدينِهِ.

قلتُ: ووجهُ كونِ بُغضِ الشِّركِ يَقوَىٰ بِهذينِ الأمرَينِ أنَّ المحَبَّةَ والبُغضَ مِن أعمالِ القلبِ، وأعمالُ القلبِ تُستَجلَبُ بِالدُّعاءِ وتُقوَّىٰ بِالعمَلِ؛ فالدُّعاءُ يفتَحُ بابَ التَّوفيقِ، إذِ القلوبُ بينَ أصبُعَينِ مِن أصابعِ الرَّحمَنِ يُقَلِّبُها كيفَ يشاءُ، والعمَلُ الصَّالِحُ يُغَذِّي المحبَّةَ، وكلَّما قوِيَت محَبَّةُ اللهِ فِي القلبِ لزِمَ مِنهَا بِالضَّرورةِ بُغضُ مَا يُضادُّها مِنَ الشِّركِ وأهلِهِ؛ إذِ القلبُ الواحِدُ لَا يجتَمِعُ فيهِ حُبُّ الشَّيءِ وحُبُّ ضِدِّهِ عَلَىٰ الكمالِ.

مسألة: معنى المِلَّةِ في الاصطلاح الشّرعي:

المِلَّةُ هِيَ: أصولُ الدِّينِ، ومبانيهِ الكُبرىٰ، ومعاقِدُهُ الكُلِّيَّةُ.

وَلَا تُطلَقُ المِلَّةُ فِي الاستِعمالِ الشَّرعيِّ إلَّا مُضافَةً إِلَىٰ نبيٍّ؛ لِأنَّها طريقٌ موحًىٰ بِها، لَا اجتِهادًا بشَريًّا، قالَ تَعالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [سورة النحل:١٢٣]، وقالَ يوسُفُ: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ [سورة يوسف:٣٨]، فمِلَّةُ

إبراهيمَ هِيَ: التَّوحيدُ الخالِصُ، والبَراءةُ التَّامَّةُ مِن كلِّ معبودٍ سِوىٰ اللهِ.

وَقد أُمِرَ النَّبيُّ -ﷺ- باتِّباعِ مِلَّةِ إبراهيمَ لِحِكَمٍ عظيمَةٍ، مِنهَا: أنَّ إبراهيمَ سابِقٌ لَهُ فِي الزَّمانِ؛ وأنَّ هَذَا الدِّينَ امتِدادٌ لِدينِ إبراهيمَ لَا دينٌ مُستَحدَثٌ؛ وإلزامُ اليهودِ والنَّصارىٰ والمُشرِكينَ جميعًا، إذ كلٌّ منهُم يزعُمُ الانتِسابَ إلَىٰ إبراهيمَ، فقطعَ اللهُ النِّزاعَ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [سورة آل عمران:٦٥]، وقالَ: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾ [سورة آل عمران:٦٧-٦٨].

قلتُ: ووجهُ كونِ المِلَّةِ لَا تُضافُ إلَّا إلَىٰ نبيٍّ أنَّها أصولُ الدِّينِ ومعاقِدُهُ الكُبرىٰ، وهذِهِ لَا تُتَلَقَّىٰ إلَّا بِالوحيِ، لَا بِالعقلِ وَلَا بِالاجتِهادِ؛ فلمَّا كانتِ المِلَّةُ طريقًا موحًىٰ بِهِ نُسِبَت إلَىٰ المُبَلِّغِ عنِ اللهِ، وَهُوَ النَّبيُّ.

وأمَّا قطعُ اللهِ النِّزاعَ بينَ المُتَنازِعينَ فِي إبراهيمَ، فوجهُهُ أنَّ كلًّا مِنَ اليهودِ والنَّصارىٰ وقُرَيشٍ ادَّعىٰ الانتِسابَ إليهِ، فبَيَّنَ اللهُ أنَّ المِلَّةَ ليسَت بِالدَّعوىٰ، بَل بِالتَّحقيقِ: التَّوحيدِ الخالِصِ والاتِّباعِ والبَراءةِ؛ فلمَّا تبيَّنَ ذلكَ حصَلَتِ المُفاصَلَةُ بينَ المَعنَىٰ الشِّركيِّ الَّذي عليهِ المُنتَسِبونَ زُورًا، والمعنىٰ التَّوحيديِّ الَّذي جاءَ بِهِ محمدٌ -ﷺ- مُجَدِّدًا لِمِلَّةِ إبراهيمَ.

فمَنِ ادَّعىٰ الانتِسابَ إلَىٰ إبراهيمَ أو إلَىٰ الإسلامِ، ثمَّ لَم يتبرَّأ مِنَ الشِّركِ وأهلِهِ، فَقَد كذَّبَ دعواهُ بِعَمَلِهِ، وكانَ مِن أظلَمِ النَّاسِ، وَقَد جعَلَ اللهُ إبراهيمَ عَلَمًا فِي التَّوحيدِ: فَهُوَ مُكَسِّرُ الأصنامِ، وَبَانِي البَيتِ، والمُظهِرُ لِلبَراءةِ مِنَ الشِّركِ والمُشرِكينَ؛ وَهُوَ الَّذي

سمَّىٰ هذهِ الأمَّةَ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [سورة الحج:٧٨].

وَقد أخبرَ تعالَىٰ عنهُ أنَّهُ قال لِقومِهِ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾ [سورة الشعراء:٧٥-٧٧] إلَىٰ قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [سورة الشعراء:٨٢].

ولِهذا كانَ النَّبيُّ -ﷺ- يُعلِّمُ أصحابَهُ ذِكرًا جامِعًا يُجدِّدُ الانتِسابَ العقَديَّ، فيقولُ: «أصبَحنا علَىٰ فِطرَةِ الإسلامِ، وكلِمَةِ الإخلاصِ، وعَلَىٰ دينِ نبيِّنا محمدٍ -ﷺ- وعَلَىٰ مِلَّةِ أَبينا إبراهيمَ، حنيفًا، ومَا كانَ مِنَ المُشرِكينَ»، وهَذَا الذِّكرُ ليسَ ألفاظًا مُجرَّدَةً، بَل إعلانٌ يوميٌّ لِلهُويَّةِ العقَديَّةِ، وتجديدٌ لِلتَّوحيدِ، وتجديدٌ لِلبَراءةِ مِنَ الشِّركِ وأهلِهِ.

قلتُ: ووجهُ كونِ هَذَا الذِّكرِ تجديدًا لِلهُويَّةِ أنَّ النَّبيَّ -ﷺ- جمَعَ فيهِ أصولَ الانتِماءِ الأربعَةَ: الفِطرَةَ، وكلِمَةَ الإخلاصِ، ودينَ محمدٍ -ﷺ-، ومِلَّةَ إبراهيمَ، ثمَّ ختمَ بِالبَراءةِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٣٥﴾؛ فجعلَ المُسلِمَ يستفتِحُ يومَهُ بِتقريرِ توحيدِهِ وبَراءَتِهِ مِنَ الشِّركِ، لِيَكونَ ذلكَ راسِخًا فِي قلبِهِ، مُستَحضَرًا فِي يومِهِ.

وَفِي خَتمِهِ بِما خُتِمَت بِهِ آيَةُ آلِ عمرانَ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٣٥﴾ إشارَةٌ إِلَىٰ أنَّ تمامَ الانتِسابِ إِلَىٰ مِلَّةِ إبراهيمَ لَا يحصُلُ إلَّا بِالبَراءةِ مِنَ الشِّركِ، فَلَا يَكفِي الإثباتُ دونَ النَّفيِ.

قولُهُ: «وبِذلكَ أمَرَ اللهُ جميعَ النَّاسِ وخلَقَهُم لَهَا»

أَي: بِعِبادَةِ اللهِ مُخلِصًا لهُ الدِّينَ أمَرَ اللهُ جميعَ النَّاسِ أمرَ إيجابٍ، بَل أعلىٰ درَجاتِ الإيجابِ، إذ هُوَ أصلُ الدِّينِ ومعقِدُهُ، وبِذلكَ خلقَهُم، قالَ تعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ

﴿وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:٥٦]؛ فالحِكمَةُ مِن خلقِ الجِنِّ والإنسِ هِيَ عِبادَةُ اللهِ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وَهُوَ الَّذي بعثَ اللهُ بِهِ جميعَ رُسُلِهِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء:٢٥].

فَمَا اختلَفَت شرائعُ الأنبياءِ فِي هَذَا الأصلِ قطُّ، وإنَّما التَّوحيدُ الخالِصُ مِلَّةٌ واحِدَةٌ مِن آدمَ إلَىٰ خاتَمِ الرُّسُلِ.

ومعنىٰ ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:٥٦]: يُوَحِّدونِ؛ قالَهُ ابنُ عبَّاسٍ، وقالَ: «كلُّ عِبادَةٍ فِي القُرآنِ فَهُوَ التَّوحيدُ»[(١)].

---

(١) (الجامعُ لِأحكامِ القُرآنِ ١٨/ ١٩٣) وانظر: زاد المسير (١/ ١٤، ٤/ ٧٥).

قالَ الرَّبيعُ بنُ أنَسٍ كَمَا فِي تفسيرِ ابنِ كَثيرٍ (٤/ ٢٣٩): «أي: إلّا لِلعِبادَةِ».

وقالَ سَعيدُ بنُ المُسَيِّبِ كَمَا فِي زادِ المَسيرِ لابنِ الجَوزيِّ (٨/ ٤٢): «مَا خَلَقتُ مَن يَعبُدُني إلّا لِيَعبُدَني». وعَنِ الضَّحّاكِ فِي المَوضِعِ نَفسِهِ: «هٰذا خاصٌّ لأهلِ طاعَتِهِ».

وقالَ البُخاريُّ فِي صَحيحِهِ (٤/ ١٨٣٧): «مَا خَلَقتُ أهلَ السَّعادَةِ مِن أهلِ الفَريقَينِ إلّا لِيُوَحِّدونِ».

ورُوِيَ عَن عَلِيٍّ ومُجاهِدٍ كَمَا فِي تفسيرِ السَّمعانيِّ (٥/ ٢٦٤): «أيْ إلّا لِآمُرَهُم بِعِبادَتي».

وعَن زَيدِ بنِ أسلَمَ كَمَا فِي تفسيرِ الطَّبَريِّ (٢٧/ ١١): «مَا جُبِلوا عَلَيهِ مِنَ الشَّقاءِ والسَّعادَةِ».

وعَن مُجاهِدٍ كَمَا فِي تفسيرِ الثَّعلَبيِّ (٩/ ١٢٠): «إلّا لِيَعرِفونِ».

وَقَالَ الشافعي كَمَا فِي «أحكام القرآن» (ص٢٧٠): «قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [سورة الذاريات:٥٦]، قَالَ الشافعي رَحِمَهُٱللَّهُ: خَلق اللهُ الخَلق لعبادته...

وَقد قَالَ فِي الآية: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾، ولَم يَقُل: «لِأجعلَهُم عابِدينَ»؛ فأخبَرَ أنَّهُ فَعَلَ الأوَّلَ — وَهُوَ الخَلقُ — لِيَفعَلوا هُمُ الثّانِي — وَهُوَ العِبادَةُ — فَهُوَ خَلقُ تَكليفٍ واختِيارٍ لَا خَلقُ جَبرٍ وإجبارٍ.

ومَن فَسَّرَ ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ بقَهرِهِ لَهُم ونَفاذِ قُدرَتِهِ فيهِم فقَد غَلِطَ؛ إذِ المَخلوقاتُ كُلُّها — حتّىٰ البَهائِمُ والجَماداتُ — داخِلَةٌ تَحتَ هَذَا القَهرِ، وليسَ ذلكَ عِبادَةً.

١٧٩ - **وقالَ السَّمعانيُّ فِي «تفسيرِه» (٤/ ١٧٣):** «وَقَد قيلَ: إنَّ قولَهُ ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة المائدة:٧٢]، أَي: وحِّدوا اللهَ، وكلُّ عِبادَةٍ فِي القُرآنِ بِمَعنىٰ التَّوحيدِ».

واللَّامُ فِي قولِهِ: ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:٥٦] لامُ التَّعليلِ، تُفيدُ بَيانَ الحِكمَةِ مِنَ الخلقِ، وليسَت لامَ الصَّيرورَةِ والعاقِبَةِ؛ فَلَو كَانَت لامَ صيرورَةٍ لزِمَ أَن يكونَ كلُّ إنسٍ وجنٍّ قَد عبَدَ اللهَ فِي الواقِعِ، وَهَذَا باطِلٌ بِالمُشاهَدَةِ والنَّصِّ، إِذ كثيرٌ منهُم أشرَكوا وعصَوا.

فاللهُ خلقَهُم لِهذهِ الغايَةِ، وأمَرَهُم بِها، وأرادَها منهُم إرادَةً شرعيَّةً دينيَّةً، لَا إرادَةً كونيَّةً قدريَّةً تستَلزِمُ الوُقوعَ؛ وَهَذَا كقولِهِ تعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [سورة النساء:٦٤]، ثمَّ قَد يُطاعُ الرَّسولُ وَقَد يُعصىٰ.

فمَن أطاعَ أمرَ اللهِ وَأَتىٰ بِما أُمِرَ بِهِ فلهُ الرِّضا والجنَّةُ، ومَن خالَفَ فلهُ السُّخطُ والنَّارُ.

واللَّامُ فِي ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:٥٦] لِلإرادَةِ الدينيَّةِ الشَّرعيَّةِ المُلازِمَةِ لِلأمرِ، وَهِيَ قَد يَقَعُ مُرادُها وقَد لَا يَقعُ؛ ولِذا عبَدَ قومٌ وَأَبىٰ آخرونَ.

وأمّا الكَونيَّةُ القَدَرِيَّةُ فَلَا تتَخلَّفُ، قالَ تعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ [سورة هود:١١٨-١١٩]، فَلَا يَلزَمُ مِنِ انتِفاءِ وُقوعِ العِبادَةِ مِن بَعضِهِم أنَّها ليسَت غايَةً مَطلوبَةً مِنهُم شَرعًا.

والعِبادَةُ نوعانِ:

الأوَّلُ: عِبادَةٌ شرعيَّةٌ، وَهِيَ الخُضوعُ لِأمرِ اللهِ الشَّرعيِّ، فِعلًا لِلمَأموراتِ وتركًا

ولَفظُ العِبادَةِ فِي عامَّةِ سُوَرِ القُرآنِ إنَّما يُرادُ بِهِ مَا أمَرَت بِهِ الرُّسُلُ: إفرادُهُ بالخُضوعِ والطّاعَةِ عَن إرادَةٍ واختيارٍ، لَا مُجَرَّدُ جَرَيانِ القَدَرِ.

لِلمَنهيَّاتِ، وَهِيَ خاصَّةٌ بِمَنِ اتَّبعَ الرُّسُلَ وأطاعَ اللهَ، وتُسمَّىٰ عِبادَةَ الطَّاعَةِ والامتِثالِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [سورة الفرقان:٦٣].

الثَّاني: عِبادَةٌ كونيَّةٌ، وَهِيَ الخُضوعُ لِقَضاءِ اللهِ وقدَرِهِ الكونيِّ، وتُسَمَّىٰ عُبوديَّةَ الرُّبوبيَّةِ، وَهِيَ شامِلَةٌ لِلخَلقِ أجمَعينَ، مؤمِنِهِم وكافِرِهِم، برِّهِم وفاجِرِهِم، لَا يخرُجُ عَنها أحَدٌ أبَدًا، قالَ تَعالَىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [سورة مريم:٩٣]، والمرادُ فِي قولِهِ ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:٥٦] هِيَ العِبادَةُ الشَّرعيَّةُ لَا الكونيَّةُ.

مسألة: ميزان الإيمان الصّحيح:

١٨٠ - **قالَ ابنُ عبَّاسٍ فِي قولِهِ تَعالَىٰ:** ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [سورة البقرة:١٣٧]، أَي: أنَّ الإيمانَ المقبولَ هُوَ المُوافِقُ لِإيمانِ الصَّحابةِ، لَا مَا خالَفَهُ أَو ناقَضَهُ.

وبِهذا جاءَ الحديثُ المشهورُ فِي افتِراقِ الأمَّةِ، حيثُ قالَ -ﷺ-: «ستَفترِقُ أُمَّتي عَلَىٰ ثلاثٍ وسبعينَ فِرقَةً، كلُّها فِي النَّارِ إلَّا واحِدَةً».

قيلَ: مَن هِيَ يَا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «مَا أَنَا عليهِ اليومَ وأصحابي».

فجعَلَ -ﷺ- ميزانَ النَّجاةِ: موافقَةَ مَا كانَ عليهِ هُوَ وأصحابُهُ عِلمًا واعتِقادًا وعمَلًا.

وَقَد جمَعَ السَّلَفُ فِي تفسيرِ قولِهِ تَعالَىٰ: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾ [سورة البقرة:١٣٧] أنَّ الآيَةَ تَظهَرُ نتيجَتَينِ لَا ثالثَ لهُما:

الأولىٰ: الهِدايَةُ، وهي لِمَن آمَنَ علىٰ مِثلِ إيمانِ الصَّحابةِ؛

والثَّانيَةُ: الشِّقاقُ والفُرقَةُ، وَهِيَ لِمَن أعرَضَ وتولَّىٰ.

وفسَّرَها السَّلَفُ بِمَعانٍ مُتَقارِبَةٍ: كُفرٌ، وخِلافٌ، وفِراقٌ، ومُحارَبَةٌ، وتعادٍ إِلَىٰ يوم

القِيامَةِ.

١٨١ - **وقالَ أَبُو إسماعيلَ الهَرَويُّ:** «أَصَحُّ الطُّرُقِ إِلَىٰ اللهِ، وأبعَدُها مِنَ الشُّبُهاتِ: اتِّباعُ الكِتابِ والسُّنَّةِ، ولُزومُ مَا كانَ عليهِ الصَّدرُ الأوَّلُ».

فمِلَّةُ إبراهيمَ ليسَت دَعوَىٰ، بَل توحيدٌ واتِّباعٌ وبَراءةٌ؛ وأقرَبُ النَّاسِ إِلَىٰ إبراهيمَ: محمدٌ -ﷺ- وأصحابُهُ ومَن سارَ عَلَىٰ طريقِهِم؛ وكلُّ طريقٍ خالَفَ مَا كَانُوا عليهِ فَهُوَ شِقاقٌ وضلالٌ، وَإِن تسَمَّىٰ بِأحسَنِ الأسماءِ.

ووجهُ جعلِ إيمانِ الصَّحابةِ ميزانًا لِلإيمانِ الصَّحيحِ أنَّ اللهَ قالَ ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [سورة البقرة:١٣٧]، فجعَلَ إيمانَهُمُ المعيارَ الَّذي يُقاسُ عليهِ؛ ولِذا فسَّرَ النَّبيُّ -ﷺ- الفِرقَةَ النَّاجيَةَ بِـ«مَا أَنَا عليهِ اليومَ وأصحابي»، فردَّ الأمرَ إِلَىٰ مَا كانَ عليهِ هُوَ وأصحابُهُ.

فبانَ أنَّ مُجَرَّدَ دَعوَىٰ الإيمانِ أَو الانتِسابِ إِلَىٰ المِلَّةِ لَا يَكفِي، بَل لَا بُدَّ مِن مُوافقَةِ القرنِ الأوَّلِ فِي العِلمِ والاعتِقادِ والعمَلِ؛ فكلُّ مَن خالَفَهُم فهُوَ فِي شِقاقٍ وَإِن زعَمَ أَنَّهُ عَلَىٰ مِلَّةِ إبراهيمَ.

وبِهذا ارتَبَطَت هذهِ المسألَةُ بِما قبلَها: فَكَمَا أنَّ مِلَّةَ إبراهيمَ تحقيقٌ لَا دعوىٰ، فكذلكَ الإيمانُ المقبولُ اتِّباعٌ لَا انتِسابٌ مُجَرَّدٌ.

واعلَم -وفَّقَكَ اللهُ- أنَّ مِن أعظَمِ أصولِ الدِّينِ وأرسَخِ قواعِدِ المِلَّةِ: أنَّ الإسلامَ والسُّنَّةَ حقيقَةٌ واحِدَةٌ لَا ينفَكُّ أحَدُهُما عنِ الآخَرِ، وَلَا يقومُ دينُ اللهِ إلَّا بِاجتِماعِهِما.

وَقَد عبَّرَ السَّلَفُ عَن هَذا الأصلِ بِكَلِمَةٍ جامِعَةٍ بالِغَةٍ، قالَها بِشرُ بنُ الحارِثِ: «الإسلامُ هُوَ السُّنَّةُ، والسُّنَّةُ هِيَ الإسلامُ، وَلَا يقومُ أحَدُهُما إلَّا بالآخَرِ».

وهذِهِ الكلِمَةُ ليسَت شِعارًا مُجَرَّدًا، بَل ميزانٌ شرعيٌّ يُعرَفُ بِهِ حقيقَةُ الدِّينِ،

ويُكشَفُ بِهِ زَيغُ أهلِ الأهواءِ والبِدَعِ.

ومِن أعظَمِ الأخطاءِ الَّتي وقَعَ فِيهَا كثيرٌ مِنَ النَّاسِ: التَّفريقُ بينَ التَّوحيدِ والسُّنَّةِ، أَو بينَ الأصولِ والمنهَجِ، فيُقالُ: هَذَا قويٌّ فِي التَّوحيدِ ضعيفٌ فِي السُّنَّةِ، أَو قويٌّ فِي السُّنَّةِ ضعيفٌ فِي التَّوحيدِ.

وَهَذَا التَّقسيمُ فِي نفسِهِ باطِلٌ؛ لِأنَّ التَّوحيدَ لَا يصِحُّ إلَّا بِسُنَّةٍ، والسُّنَّةَ لَا تُفهَمُ وَلَا تُقامُ إلَّا عَلَىٰ توحيدٍ.

فمَن فرَّقَ بينَهُما فَقَد فرَّقَ الدِّينَ، وهدَمَ أصلَهُ مِن حيثُ يظُنُّ أنَّهُ يُقيمُهُ.

ولِهذا كانَ السَّلَفُ يُحَذِّرونَ أشَدَّ التَّحذيرِ مِنَ الأهواءِ؛ لِأنَّها مفاتيحُ الخُروجِ عنِ السُّنَّةِ، والسُّنَّةُ مِفتاحُ الخُروجِ عنِ الإسلامِ.

١٨٢- **قالَ محمدُ بنُ سيرينَ:** «إنَّ أسرَعَ النَّاسِ رِدَّةً أهلُ الأهواءِ»، وقالَ: «كَانُوا يرونَ أهلَ الأهواءِ أهلَ رِدَّةٍ وتقَحُّمٍ لِلكُفرِ»، وقالَ: «لَو خرَجَ الدَّجَّالُ لكانَ أوَّلَ مَن يتَّبِعُهُ أهلُ الأهواءِ».

وَقَد بلَغَ تعظيمُ السَّلَفِ لِلسُّنَّةِ أَن جعَلوها أحَدَ ركنَيِ الدِّينِ اللَّذَينِ لَا يتِمُّ الإسلامُ إلَّا بِهما.

١٨٣- **قالَ ابنُ عمرَ:** «مَن خالَفَ السُّنَّةَ كفَرَ»، وجاءَ عنهُ بِلَفظٍ آخَرَ: «مَن ترَكَ السُّنَّةَ كفَرَ»؛ وَهَذَا الْمَعنَىٰ موافِقٌ لِقولِهِ -ﷺ-: «مَن رغِبَ عَن سُنَّتي فليسَ منِّي».

١٨٤- **وقالَ مكحولٌ:** «السُّنَّةُ سُنَّتانِ: سُنَّةٌ الأخذُ بِها فريضَةٌ وتركُها كُفرٌ، وسُنَّةٌ الأخذُ بِها فضيلَةٌ وتركُها إلَىٰ غيرِ حرَجٍ».

١٨٥- **وقالَ ابنُ بطَّةَ مُعَلِّقًا:** «فإنَّها أحَدُ الأصلَينِ اللَّذَينِ أكمَلَ اللهُ بِهما الدِّينَ،

فصارَ الأخذُ بِها فرضًا، وتركُها كُفرًا».

ولمَّا كانتِ السُّنَّةُ هِيَ حِصنَ الإسلامِ، كانَ السَّلَفُ يفرَحونَ بِالسَّلامَةِ مِنَ الأهواءِ أكثَرَ مِن فرَحِهِم بِكثيرٍ مِنَ الأعمالِ.

١٨٦ - **قالَ ابنُ عمرَ:** «مَا فرِحتُ بِشيءٍ مِنَ الإسلامِ أشَدَّ فرَحًا مِن أنَّ قَلبِي لَم يدخُلهُ شيءٌ مِنَ الأهواءِ».

١٨٧ - **وقالَ أَبُو العاليَةِ:** «مَا أَدرِي أيُّ النِّعمَتَينِ أعظَمُ: أَن أخرَجَني اللهُ مِنَ الشِّركِ إِلَىٰ الإسلامِ، أَو أَن عصَمَني فِي الإسلامِ مِنَ الْهَوَىٰ».

١٨٨ - **وقالَ أَبُو بكرِ بنُ عيَّاشٍ:** «السُّنَّةُ فِي الإسلامِ أعَزُّ مِنَ الإسلامِ فِي سائرِ الأديانِ».

فالسُّنَّةُ داخِلَةٌ فِي مُسَمَّىٰ الإسلامِ دُخولَ الرُّوحِ فِي الجسَدِ، فَلَا إسلامَ بِلا سُنَّةٍ، وَلَا سُنَّةَ بِلا إسلامٍ؛ ومَن ظنَّ أنَّهُ يُقيمُ الدِّينَ بِتَوحيدٍ بِلا سُنَّةٍ، أَو بِسُنَّةٍ بِلا توحيدٍ، فَقَد جهِلَ الدِّينَ مِن أصلِهِ.

وبِهذا يلتَئِمُ مقصودُ البابِ: أنَّ مِلَّةَ إبراهيمَ توحيدٌ واتِّباعٌ معًا، لَا ينفَكُّ أحَدُهُما عنِ الآخَرِ.

قال المؤلف -رحمه الله-:

وَأعظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوحِيدُ، وَهُوَ إِفرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ.

وَأعظَمُ مَا نَهَىٰ عَنهُ الشِّركُ، وَهُوَ دَعوَةُ غَيرِهِ مَعَهُ.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ﴾ [سورة النساء:٣٦].

هذهِ قاعِدَةٌ عظيمَةٌ مِن قواعِدِ الدِّينِ، يجِبُ أَن تكونَ حاضِرَةً فِي قلبِ كلِّ مُسلِمٍ: أنَّ أعظَمَ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ هُوَ التَّوحيدُ، وَهُوَ أعظَمُ مَا يُؤمَرُ الإنسانُ بِالإتيانِ به.

فالتَّوحيدُ أوَّلُ الدِّينِ وآخِرُهُ، وظاهِرُهُ وباطِنُهُ، وَهُوَ أعلىٰ أصولِ الإيمانِ وأفضَلُها.[(١)]

(١) ولِإدرَاكِ حَقِيقَةِ هَذَا الأَصلِ عَلَىٰ وَجهِهِ، يَحسُنُ أَن يُعلَمَ أَنَّ كَلِمَةَ «التَّوحِيدِ» فِي أَصلِ لِسَانِ العَرَبِ لَا تَخرُجُ عَن مَعنَىٰ الإِفرَادِ وَنَفيِ المُشَارَكَةِ؛ فَمَادَّتُهَا اللُّغَوِيَّةُ «وَحَّدَ» تَدُلُّ عَلَىٰ أَن يَجعَلَ المَرءُ الشَّيءَ وَاحِدًا لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا شَرِيكَ مَعَهُ، وَهَذَا الجَعلُ تَارَةً يَكُونُ بِعَقدِ القَلبِ وَاعتِقَادِهِ، وَتَارَةً يَكُونُ بِنُطقِ اللِّسَانِ وَشَهَادَتِهِ، وَتَارَةً يَكُونُ بِعَمَلِ الجَوَارِحِ وَانقِيَادِهَا؛ فَإِذَا اجتَمَعَتْ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ، كَانَ العَبدُ مُوَحِّدًا حَقًّا. وَمِن هُنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ التَّوحِيدَ الشَّرعِيَّ إِنَّمَا هُوَ استِعمَالٌ لِهَذَا المَعنَىٰ اللُّغَوِيِّ بِعَينِهِ، مَنقُولٌ مِن مُطلَقِ الإِفرَادِ إِلَىٰ إِفرَادٍ خَاصٍّ، هُوَ إِفرَادُ اللهِ وَحدَهُ بِالعِبَادَةِ كَمَا انفَرَدَ بِذَاتِهِ وَأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ فَلَا يَنفَكُّ لَفظُ الشَّرعِ عَن أَصلِهِ فِي اللُّغَةِ، بَل يَزِيدُهُ تَخصِيصًا وَبَيَانًا.

١) ما يدلُّ مِن القُرآنِ علىٰ توحيدِ اللهِ بالعبادةِ وقصرِها عليهِ سُبحانَهُ وحصرِها فيهِ:

قَالَ سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران:٦٤].

وَقَالَ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ [سورة النساء:٣٦].

وَقَالَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة التوبة:٣١].

وَقَالَ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾ [سورة هود:١-٢].

وَقَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [سورة الرعد:٣٦].

وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [سورة النحل:٣٦].

وَقَالَ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء:٢٣].

وَقَالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء:٢٥].

وَقَالَ: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [سورة الأحقاف:٢١].

وقَالَ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [سورة البينة:٥].

٢) مَا يدلُّ عَلَىٰ نَفيِ الشَّراكَةِ عَن اللهِ سُبحَانَهُ الَّتِي تُنَاقِضُ التَّوحِيدَ:

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [سورة الكهف:٣٨].

وقَالَ: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [سورة الأنعام:١٥١].

وقَالَ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء:٤٨].

وقَالَ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [سورة الأنعام:١٩].

٣) مَا يدلُّ عَلَىٰ تفرُّد اللهِ بِالأُلُوهِيَّةِ وَتَوحِيدِهِ بِهَا وَأَنَّهَا لَا تَجُوزُ لأحدٍ غَيرِهِ سُبحَانَهُ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ [سورة فاطر:٣].

وقَالَ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [سورة ص:٦٥].

وقَالَ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [سورة محمد:١٩].

وقَالَ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [سورة الكهف:١١٠].

وقَالَ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ۝٤٢ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤٣﴾ [سورة الإسراء:٤٢-٤٣].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء:٢٢].

٤) مَا يدلُّ عَلَىٰ تفرُّد اللهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَتَوحِيدِهِ بِهَا:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [سورة الفاتحة:٢].

وَقَالَ: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [سورة الرعد:١٦].

وَقَالَ: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾ [سورة الأنعام:١٦٤].

وَقَالَ: ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾ [سورة البقرة:١٣٩].

وَقَالَ: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ [سورة الأنبياء:٥٦].

وَقَالَ: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [سورة يوسف:٣٩].

٥) مَا يدلُّ عَلَىٰ تفرُّد اللهِ بِالْإِيمَانِ وَحدَهُ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾ [سورة غافر:٨٤-٨٥].

وَقَالَ: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [سورة الممتحنة:٤].

وَقَالَ سُبحَانَهُ عَن الموحِّدين أُولِي الْأَلْبَابِ الرَّجِيحَةِ: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ﴾ [سورة آل عمران:١٩٣].

وَقَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [سورة

الأنعام:٨٢].

وَقَالَ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة المائدة:٥].

٦) مَا يدلُّ عَلَىٰ أن الإِسلَامَ يَكُونُ لَهُ وَحدَهُ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة غافر:٦٦].

وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [سورة البقرة:٢٠٨].

وَقَالَ: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [سورة لقمان:٢٢]

وَقَالَ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [سورة آل عمران:١٩].

٧) مَا يدلُّ عَلَىٰ أن الدِّين يكون لَهُ وحده:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [سورة البقرة:١٩٣].

وَقَالَ: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة الأعراف:٢٩].

وَقَالَ: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [سورة يوسف:٤٠].

وَقَالَ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [سورة الزمر:٢].

وَقَالَ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [سورة آل عمران:٨٥].

وَقَالَ: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [سورة الزمر:٣].

٨) مَا يدلُّ عَلَىٰ تفرُّده سُبحَانَهُ بِالْوِلَايَةِ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام:١٤].

وَقَالَ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة البقرة:١٠٧].

وَقَالَ: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [سورة الفرقان:١٨].

٩) مَا يدلُّ عَلَىٰ تفرُّده بِالْحُكمِ وَتوحِيدِهِ بِهِ:

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [سورة يوسف:٦٧].

وَقَالَ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [سورة الأنعام:٥٧].

وَقَالَ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [سورة المائدة:٤٤].

وَقَالَ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [سورة الأنعام:١١٤].

١٠) وَمَا ذَكَرَهُ اللهُ مِمَّا يدلُّ عَلَىٰ توحِيدِهِ عَلَىٰ تفرُّده بِالْخَلقِ وَالْمُلكِ وَالتَّدبِيرِ وَالرِّزقِ وَالْإِحياءِ وَالْإِمَاتَةِ وَمُلكِ النَّفعِ وَالضَّرِّ، وَالْأَدِلَّةُ عَلَىٰ هَذَا الْمَطلَبِ عظيمةٌ كثيرةٌ لَا تَخلُو مِنهَا سورةٌ مِن الْقُرآنِ:

قَالَ سُبحَانَهُ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأعراف:٥٤].

وَقَالَ سُبحَانَهُ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الملك:١].

وَقَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة يونس:٣].

وَقَالَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة آل عمران:٢٦-٢٧].

وَقَالَ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾

[سورة الفرقان:٥٥].

١١) وَمَا ذَكَرَهُ اللهُ مِمَّا يدلُّ عَلَىٰ تَوحِيدِهِ أَن جَمِيعَ الْمَعبُودَاتِ ناقصةٌ فَهِيَ عاجزةٌ عَن نَفعِ نَفسِهَا فضلاً عَن غيرِهَا، وَلَا تَملِكُ لِنَفسِهَا حياةً وَلَا موتًا وَلَا رزقًا، بَل هِيَ محتاجةٌ فقيرةٌ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [سورة الأعراف:١٩١-١٩٥].

وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [سورة الحج:٧٣].

وَقَالَ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة العنكبوت:٤١-٤٢].

وَقَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [سورة فاطر:١٣-١٤].

وَقَالَ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا

فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة سبأ:٢٢-٢٣].

١٢) مَا ذَكَرَهُ اللهُ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَىٰ اتِّفَاقِ كُتُبِهِ وَرُسُلِهِ عَلَىٰ تَوحِيدِ اللهِ ﷻ:

قَالَ سُبحَانَهُ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [سورة إبراهيم:١٠].

وَقَالَ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [سورة فاطر:٢٥].

فَكُلُّ هَذِهِ النُّصُوصِ تَدُلُّ عَلَىٰ هَذَا الأَصلِ العَظِيمِ مِن أُصُولِ الإِسلَامِ، وَكَونِهِ مِن أَفرَضِ الفُرُوضِ، وَأَكبَرِ الوَاجِبَاتِ عَلَىٰ المُسلِمِ.

بَل كُلُّ آيَةٍ فِي القُرآنِ فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِلتَّوحِيدِ، شَاهِدَةٌ بِهِ، دَاعِيَةٌ إِلَيهِ؛ فَإِنَّ القُرآنَ إِمَّا خَبَرٌ عَنِ اللهِ وَأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفعَالِهِ، فَهُوَ التَّوحِيدُ العِلمِيُّ الخَبَرِيُّ، وَإِمَّا دَعوَةٌ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ وَحدَهُ وَخَلعِ كُلِّ مَا يُعبَدُ مِن دُونِهِ، فَهُوَ التَّوحِيدُ الإِرَادِيُّ الطَّلَبِيُّ، وَإِمَّا أَمرٌ وَنَهيٌ وَإِلزَامٌ بِطَاعَتِهِ فِي نَهيِهِ وَأَمرِهِ، فَهِيَ حُقُوقُ التَّوحِيدِ وَمُكَمِّلَاتُهُ، وَإِمَّا خَبَرٌ عَن كَرَامَةِ اللهِ لِأَهلِ تَوحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ وَمَا فَعَلَ بِهِم فِي الدُّنيَا وَمَا يُكرِمُهُم بِهِ فِي الآخِرَةِ، فَهُوَ جَزَاءُ تَوحِيدِهِ، وَإِمَّا خَبَرٌ عَن أَهلِ الشِّركِ وَمَا فَعَلَ بِهِم فِي الدُّنيَا مِنَ النَّكَالِ وَمَا يَحِلُّ بِهِم فِي العُقبَىٰ مِنَ العَذَابِ، فَهُوَ خَبَرٌ عَمَّن خَرَجَ عَن حُكمِ التَّوحِيدِ.

فَالتَّوحِيدُ مِفتَاحُ دَعوَةِ الرُّسُلِ، وَأَوَّلُ فَرضٍ فَرَضَهُ اللهُ عَلَىٰ العِبَادِ.

وَإِذَا أَرَدتَ فَهمَ ذَلِكَ فَانظُر فِي فَاتِحَةِ الكِتَابِ وَالسُّورَةِ الَّتِي خُتِمَ فِيهَا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [سورة الفاتحة:٢-٥].

فَقَولُهُ تَعَالَىٰ: «رَبِّ العَالَمِينَ» دَالٌّ عَلَىٰ الرُّبُوبِيَّةِ، وَقَولُهُ: «الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَومِ الدِّينِ» دَالٌّ عَلَىٰ أَسمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ.

وَقَولُهُ: «إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ» دَالٌّ عَلَىٰ الأُلُوهِيَّةِ.

وَالحَمدُ دَالٌّ عَلَىٰ هَذِهِ المَعَانِي كُلِّهَا.

هَذَا فِي فَاتِحَةِ الكِتَابِ، وَمِثلُهُ مَا خُتِمَ بِهِ الكِتَابُ العَزِيزُ مِن سُورَةِ النَّاسِ، فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [سورة الناس: ١-٣].

فَقَولُهُ تَعَالَىٰ: «رَبِّ النَّاسِ» دَالٌّ عَلَىٰ تَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَقَولُهُ: «مَلِكِ النَّاسِ» دَالٌّ عَلَىٰ تَوحِيدِ الأَسمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَقَولُهُ: «إِلَهِ النَّاسِ» دَالٌّ عَلَىٰ تَوحِيدِ العِبَادَةِ.

وَاعدُد بَينَ هَاتَينِ السُّورَتَينِ (الفَاتِحَةِ وَالنَّاسِ) مَا شِئتَ مِنَ الآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ التَّوحِيدِ، فَلَا تَكَادُ تَمُرُّ بِآيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ إِلَّا وَفِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَىٰ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَاتِّصَافِهِ تَعَالَىٰ بِالأَسمَاءِ وَالصِّفَاتِ اللَّائِقَةِ بِجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ، إِمَّا بِطَرِيقِ التَّضَمُّنِ أَوِ الاقتِضَاءِ أَوِ اللُّزُومِ، فَلَا تَخلُو سُورَةٌ مِنَ القُرآنِ مِنَ التَّوحِيدِ بِإِشَارَةٍ أَو بِصَرِيحِ عِبَارَةٍ، فَكُلُّ دَعوَةٍ مَهمَا ضَاقَت يَجِبُ أَن تَتَّسِعَ لِلتَّوحِيدِ، فَمَا زَادَ فَلِغَيرِهِ.

وَالتَّوحِيدُ عِلمٌ فِطرِيٌّ تُدرِكُهُ العُقُولُ السَّلِيمَةُ، وَقَد أَخَذَ اللهُ تَعَالَىٰ المِيثَاقَ عَلَيهِ، وَجَعَلَ آيَاتِهِ الَّتِي فِي السَّمَاءِ وَالأَرضِ وَمَا بَينَهُمَا كُلَّهَا دَالَّةً عَلَيهِ، التَّوحِيدُ الَّذِي هُوَ إِفرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الإِلَهُ المُستَحِقُّ لِلعِبَادَةِ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ لَهُ الرُّبُوبِيَّةُ المُطلَقَةُ وَالقُدرَةُ التَّامَّةُ، وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ لَهُ الكَمَالُ فِي صِفَاتِهِ وَأَسمَائِهِ.

١٨٩ - **قالَ الشَّيخُ محمدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ كما في «الدُّرَرِ السَّنيَّةِ» (١/ ١٠٧):** «فأهَمُّ ما عليكَ: معرِفَةُ التَّوحيدِ، قبلَ معرفةِ العِباداتِ كلِّها، حتَّىٰ الصَّلاةِ».

١٩٠- وَرَوَىٰ البُخاريُّ (١٤٥٨) عنِ ابنِ عبَّاسٍ أنَّ رسولَ اللهِ -ﷺ- لمَّا بعَثَ مُعاذًا إِلَىٰ اليَمَنِ قالَ: «إنَّكَ تقدَمُ عَلَىٰ قومٍ أهلِ كِتابٍ، فليَكُن أوَّلَ مَا تدعوهُم إليهِ عِبادَةُ اللهِ»، وَفِي روايَةٍ: «إِلَىٰ أَن يُوَحِّدوا اللهَ»، وَفِي روايَةٍ: «فليَكُن أوَّلَ مَا تدعوهُم إليهِ شهادَةُ أَن لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ».

ووجهُ الدلالَةِ مِن حديثِ مُعاذٍ أنَّ النَّبيَّ -ﷺ- أمَرَهُ أن يجعَلَ التَّوحيدَ أوَّلَ مَا يَدعُو إليهِ، مَعَ أنَّ القومَ أهلُ كِتابٍ يُقِرُّونَ بِوُجودِ اللهِ؛ فدلَّ أنَّ المطلوبَ أوَّلًا ليسَ مُجَرَّدَ الإقرارِ بِالرُّبوبيَّةِ، بَل إفرادُ اللهِ بِالعِبادَةِ، وَهُوَ توحيدُ الأُلوهيَّةِ.

وَفِي تقديمِهِ عَلَىٰ الصَّلاةِ والزَّكاةِ -وَهُمَا أعظَمُ أركانِ العمَلِ- بَيانٌ أنَّ التَّوحيدَ هُوَ الأصلُ الَّذي تُبنَىٰ عليهِ سائرُ الفرائضِ، فَلَا تصِحُّ عِبادَةٌ إلَّا بعدَ تصحيحِهِ.

وأوامِرُ اللهِ ليسَت عَلَىٰ مرتَبَةٍ واحِدَةٍ، بَل بعضُها يفوقُ بعضًا فِي العظمَةِ والمنزِلَةِ، كَمَا تتَفاوَتُ الواجِباتُ فِي التَّأكيدِ، وتتَفاوَتُ المُحَرَّماتُ فِي شِدَّةِ التَّحريمِ؛ وأعظَمُ هذهِ الأوامِرِ عَلَىٰ الإطلاقِ هُوَ التَّوحيدُ، وأعظَمُ مَا نُهِيَ عنهُ ضِدُّهُ وَهُوَ الشِّركُ.

وإنَّما كانَ التَّوحيدُ أعظَمَ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ لِوُجوهٍ ظاهِرَةٍ بيِّنَةٍ: فَلَا يدخُلُ العبدُ فِي الإسلامِ إلَّا بهِ، وَلَا يخرُجُ منهُ إلَّا بِضِدِّهِ؛ وَلَا يُزحزَحُ عنِ النَّارِ ويدخُلُ الجنَّةَ إلَّا بهِ، وَلَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ ويُحرَمُ الجنَّةَ إلَّا بِضِدِّهِ؛ وَلَم تدعُ الرُّسُلُ والأنبياءُ إِلَىٰ شيءٍ قبلَهُ، وَلَم تنهَ عَن شيءٍ قبلَ النَّهيِ عَن ضِدِّهِ.

وَكَانَت كلِمَةُ التَّوحيدِ هِيَ مِفتاحَ الدَّعوَةِ فِي كلِّ زمانٍ، ولِذا كانَ النَّبيُّ -ﷺ- إذَا أرسَلَ أحدًا يَدعُو إِلَىٰ اللهِ قالَ: «فليَكُن أوَّلَ مَا تدعوهُم إليهِ شهادَةُ أَن لَا إلَهَ إلَّا اللهُ»؛ فجعَلَ التَّوحيدَ مبدَأَ الدَّعوَةِ وأساسَها، قبلَ سائرِ الفرائضِ والشَّعائرِ.

فالتَّوحيدُ أعظَمُ مَا أمَرَ اللهُ بهِ؛ لِأنَّهُ غايَةُ خلقِ العالمينَ، وأصلُ دعوَةِ المُرسَلينَ، وأوَّلُ مَا يُخاطَبُ بِهِ النَّاسُ مِن أصولِ الدِّينِ، وسبَبُ العِصمَةِ والأمنِ فِي الدُّنيا، وسبَبُ النَّجاةِ والفوزِ فِي الآخِرَةِ، والشَّرطُ لِصِحَّةِ سائِرِ الطَّاعاتِ وقَبولِها.

فدلَّ هَذَا كلُّهُ عَلَىٰ أنَّ التَّوحيدَ هُوَ أصلُ الدِّينِ الَّذي لَا يقومُ إلَّا عليهِ، وأنَّ سائرَ الأعمالِ لَا تُقبَلُ إلَّا بهِ، وأنَّ فسادَهُ فسادٌ لِكلِّ عمَلٍ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [سورة الزمر:٦٥].

قلتُ: ووجهُ كونِ التَّوحيدِ أعظَمَ الأوامِرِ عَلَىٰ الإطلاقِ أنَّ مدارَ الفلاحِ والخُسرانِ عليهِ: فَهُوَ شرطُ الدُّخولِ فِي الإسلامِ، وشرطُ النَّجاةِ مِنَ النَّارِ، وشرطُ قَبولِ العمَلِ؛ فلمَّا تعلَّقَت بِهِ هذهِ الأمورُ العِظامُ كلُّها كانَ أوكَدَ المأموراتِ.

وَفِي مُقابِلِهِ كانَ الشِّركُ أعظَمَ المنهيَّاتِ، إِذ هُوَ ضِدُّهُ، وبِهِ يخرُجُ مِنَ الإسلامِ، ويُحبَطُ العمَلُ، ويُخَلَّدُ فِي النَّارِ؛ فعَظُمَ الأمرُ بِالتَّوحيدِ بِقَدرِ مَا تعلَّقَ بهِ مِنَ المصالِحِ، وعظُمَ النَّهيُ عنِ الشِّركِ بِقَدرِ مَا يترَتَّبُ عليهِ مِنَ المفاسِدِ.

مَعنَىٰ التَّوحيدِ لُغَةً:

١٩١- **قالَ ابنُ فارِسٍ فِي «معجَمِ المقاييسِ» (٦/ ٩٠):** «(وَحَّدَ) الواوُ والحاءُ والدَّالُ: أصلٌ واحِدٌ يدُلُّ عَلَىٰ الانفِرادِ».

١٩٢- **وقالَ أَبُو القاسِمِ التَّيميُّ فِي «الحُجَّةِ فِي بَيانِ المحَجَّةِ» (١/ ٣٣٢):** «التَّوحيدُ عَلَىٰ وزنِ التَّفعيلِ، وَهُوَ مصدَرُ وحَّدتُهُ توحيدًا... ومَعنَىٰ وحَّدتُهُ: جعلتُهُ منفَرِدًا عمَّا يُشارِكُهُ أَو يُشبِهُهُ فِي ذاتِهِ وصِفاتِهِ... فاللهُ تَعالَىٰ واحِدٌ، أَي: منفَرِدٌ عنِ

الأندادِ والأشكالِ فِي جميعِ الأحوالِ».

فالتَّوحيدُ مأخوذٌ مِنَ الوحدَةِ، وَهِيَ الانفِرادُ؛ تقولُ: جاءَ الرَّجُلُ وحدَهُ، أَي منفَرِدًا، وفُلانٌ واحِدُ دهرِهِ، أَي لَا نظيرَ لهُ وَلَا شبيهَ، وَمَعنَىٰ وحَّدتُ اللهَ: نسَبتُهُ إِلَىٰ الوحدانيَّةِ والانفِرادِ، لَا أنَّكَ جعَلتَهُ واحِدًا مِن عدَمٍ؛ إذِ الوحدانيَّةُ صِفَةٌ ثابِتَةٌ لِلَّهِ لَا بِجَعلِ جاعِلٍ وَلَا بِفعلِ أحَدٍ مِنَ المخلوقينَ، فَهُوَ سُبحانَهُ منفَرِدٌ فِي ذاتِهِ وصِفاتِهِ وأفعالِهِ، متَعالٍ عنِ المِثلِ والنَّظيرِ؛ وإنَّما يجعَلُهُ المُكَلَّفُ واحِدًا فِي اعتِقادِهِ، فيُقِرُّ بِهذهِ الصِّفَةِ ويُثبِتُها لِرَبِّهِ، ويَنسِبُها إليهِ.

قلتُ: ووجهُ التَّفريقِ بينَ الوحدانيَّةِ والتَّوحيدِ أنَّ الوحدانيَّةَ صِفَةٌ أزَليَّةٌ لِلَّهِ، لَا تزيدُها طاعَةُ المُطيعينَ وَلَا تنقُصُها معصيَةُ العاصينَ؛ وأمَّا التَّوحيدُ فعِبادَةٌ يَأتِي بِها العبدُ حينَ يُفرِدُ ربَّهُ بِجميعِ أنواعِ العِبادَةِ، ويصرِفُها إليهِ وحدَهُ دونَ مَا سِواهُ.

فاللهُ واحِدٌ سواءٌ وحَّدَهُ العِبادُ أَم لَم يُوَحِّدوهُ، لكنَّ العبدَ مأمورٌ بِأن يُحقِّقَ هذهِ الوحدانيَّةَ فِي عمَلِهِ، فيَعبُدَهُ وحدَهُ؛ فالوحدانيَّةُ وصفُ الرَّبِّ، والتَّوحيدُ فِعلُ العبدِ المبنيُّ عَلَىٰ الإقرارِ بِذلكَ الوصفِ.

مَعنَىٰ التَّوحيدِ شرعًا:

أَمَّا فِي الشَّرعِ فَهُوَ: إفرادُ اللهِ بِالعِبادَةِ، مَعَ الإيمانِ بِرُبوبيَّتِهِ وأسمائِهِ وصِفاتِهِ كَمَا أنزَلَ فِي كِتابِهِ.

١٩٣ - **قالَ الإمامُ الدَّارِميُّ فِي «النَّقضِ» (ص٦):** «وتفسيرُ التَّوحيدِ عندَ الأمَّةِ، وصوابُهُ: قولُ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ».

١٩٤ - **وقالَ أَبُو العبَّاسِ بنُ سُرَيجٍ:** «توحيدُ أهلِ العِلمِ وجماعَةِ المُسلِمينَ: أشهَدُ

أَن لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ».[(١)]

١٩٥ - **وقالَ الطَّبَرِيُّ فِي «جامعِ البيانِ» (١/ ٥٦٢)** فِي تفسيرِ ﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [سورة البقرة:١٣٣]: «أَي: نُخلِصُ لهُ العِبادَةَ، ونُوحِّدُ لهُ الرُّبوبيَّةَ، فَلَا نُشرِكُ بهِ شيئًا، وَلَا نتَّخِذُ دونَهُ ربًّا».

١٩٦ - **وقالَ الآجُرِّيُّ فِي «الشَّريعَةِ» (ص١٠١)**: «إنَّ التَّوحيدَ هُوَ قولُ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ، موقِنًا مِن قلبِهِ».

فالتَّوحيدُ الَّذي هُوَ حقُّ اللهِ عَلَىٰ العِبادِ: أَن يُعبَدَ اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، وَأَن يُتقَرَّبَ إليهِ بما يُحِبُّ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ، وَلَا يُصرَفَ مِنها شيءٌ لِغيرِه.

قلتُ: ووجهُ جمعِ هذهِ الْمَعَانِي أنَّها تدورُ عَلَىٰ معنًىٰ واحِدٍ: إفرادِ اللهِ بِما يختَصُّ بهِ مِنَ الرُّبوبيَّةِ والأُلوهيَّةِ والأسماءِ والصِّفاتِ؛ فقولُ الدَّارِميِّ وابنِ سُرَيجٍ والآجُرِّيِّ يرجِعُ إِلَىٰ تحقيقِ شهادَةِ «لَا إلَهَ إلَّا اللهُ» الَّتي هِيَ إفرادُ اللهِ بِالأُلوهيَّةِ، وقولُ الطَّبَرِيِّ

---

(١) انظُر: الحُجَّةُ فِي بَيَانِ المَحجَّةِ لِأَبِي القَاسِمِ التَّيمِيِّ (١/ ٩٦-٩٧)، بَيَانُ تَلبِيسِ الجَهمِيَّةِ (١/ ٤٨٧)، التِّسعِينِيَّةُ ضِمنَ الفَتَاوَىٰ الكُبرَىٰ (٥/ ٢٠٦)، إِعلَامُ المُوَقِّعِينَ عَن رَبِّ العَالَمِينَ (٤/ ١٩١).

وجَاءَ فِي «مَجمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (١٤/ ٣٧٨): «وَهَذَا التَّوحِيدُ: هُوَ عِبَادَةُ اللهِ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَن لَا نَعبُدَهُ إِلَّا بِمَا أَحَبَّهُ، وَمَا رَضِيَهُ، وَهُوَ مَا أَمَرَ بِهِ وَشَرَعَهُ عَلَىٰ أَلسُنِ رُسُلِهِ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيهِم-، فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَمُوَالَاةِ أَولِيَائِهِ، وَمُعَادَاةِ أَعدَائِهِ، وَأَن يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَىٰ العَبدِ مِن كُلِّ مَا سِوَاهُمَا، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ أَن يُحِبَّ اللهَ حُبًّا لَا يُمَاثِلُهُ وَلَا يُسَاوِيهِ فِيهِ غَيرُهُ، بَل يَقتَضِي أَن يَكُونَ رَسُولُهُ -ﷺ- أَحَبَّ إِلَيهِ مِن نَفسِهِ، فَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ -لِأَجلِ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ- يَجِبُ أَن يَكُونَ أَحَبَّ إِلَىٰ المُؤمِنِ مِن نَفسِهِ، فَكَيفَ بِرَبِّهِ سُبحَانَهُ؟».

وَانظُر: «مَجمُوعُ الفَتَاوَىٰ» (٣/ ١٠٦)، وَ«تَيسِير العَزِيزِ الحَمِيدِ» (ص ٢٨).

جمَعَ بينَ إخلاصِ العِبادَةِ (الأُلوهيَّةِ) وتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ؛ فبانَ أنَّ التَّوحيدَ الشَّرعيَّ يجمَعُ الأقسامَ الثَّلاثَةَ، وأنَّ عمودَهُ ومقصودَهُ الأعظَمَ إفرادُ اللهِ بِالعِبادَةِ، إِذ هُوَ الَّذي خاصَمَ الرُّسُلُ أقوامَهُم عليهِ.

مسألة: أنّ التّوحيدَ يُنجي صاحِبَهُ:

دلَّتِ النُّصوصُ عَلَىٰ أنَّ التَّوحيدَ يُنجي صاحِبَهُ وَلَو كانَ قليلًا؛ فمَن جاءَ بِقَدرٍ مِنَ التَّوحيدِ نَجَا مِنَ الخُلودِ فِي النَّارِ، ومَن جاءَ بِالتَّوحيدِ الخالِصِ الكامِلِ فَهُوَ مِن أهلِ النَّجاةِ المُطلَقَةِ، بَل حتَّىٰ الْعَاصِي المُذنِبُ، إِذَا لقِيَ اللهَ مُوَحِّدًا غيرَ مُشرِكٍ، فَهُوَ بينَ أمرَينِ: إمَّا أَن يعفوَ اللهُ عنهُ ابتِداءً، وإمَّا أَن يُدخِلَهُ النَّارَ دُخولًا مؤقَّتًا ثمَّ يُخرِجَهُ مِنهَا.

فالتَّوحيدُ مِفتاحُ النَّجاةِ، ورأسُ مالِ العبدِ، وأعظَمُ مَا يُرجىٰ بِهِ الفلاحُ؛ لِأَنَّهُ الحِكمَةُ مِن خلقِ الخلقِ، ولِذلكَ كانَ أعظَمَ فريضَةٍ عَلَىٰ العِبادِ عِلمًا وعمَلًا؛ مِن أجلِهِ أُرسِلَتِ الرُّسُلُ، وأُنزِلَتِ الكُتُبُ، ونُصِبَتِ الموازينُ، وقامَت سوقُ الجنَّةِ والنَّارِ، وانقَسَمَ النَّاسُ إِلَىٰ مؤمِنينَ وكافِرينَ.

مسألة: فضائلُ التّوحيدِ:

هذِهِ -بِاختِصارٍ- أهَمُّ فضائلِ التَّوحيدِ:

الأولىٰ: التَّوحيدُ أعظَمُ أركانِ الإسلامِ وأساسُهُ.

الثَّانيةُ: التَّوحيدُ سبَبُ دُخولِ الجنَّةِ والنَّجاةِ مِنَ النَّارِ.

الثَّالثةُ: التَّوحيدُ هو الحِكمَةُ مِن خلقِ الإنسِ والجِنِّ.

الرَّابِعَةُ: التَّوحيدُ أهَمُّ المُهِمَّاتِ وأوَّلُ الواجِباتِ.

الخامِسَةُ: التَّوحيدُ نجاةٌ مِن كُرُباتِ الدُّنيا والآخِرَةِ.

السَّادِسَةُ: التَّوحيدُ سبَبٌ فِي الأمنِ والاهتِداءِ فِي الدُّنيا والآخِرَةِ.

السَّابِعَةُ: التَّوحيدُ يُسَهِّلُ عَلَىٰ العبدِ فِعلَ الخيراتِ وتركَ المُنكَراتِ، ويُسَلِّيهِ عندَ المُصيباتِ.

الثَّامِنَةُ: التَّوحيدُ مِن أعظَمِ أسبابِ انشِراحِ الصَّدرِ، ويُخَفِّفُ عنِ العبدِ المكارِهَ، ويُهَوِّنُ عليهِ المصائبَ والآلامَ.

التَّاسِعَةُ: التَّوحيدُ مِن أعظَمِ أسبابِ المغفِرَةِ؛ فمَن فقَدَهُ فقَدَ المغفِرَةَ، ومنِ استيقَنَهُ فَقَد أَتَىٰ بِأعظَمِ أسبابِ المغفِرَةِ.

العاشِرَةُ: العِباداتُ لَا تُقبَلُ إلَّا بِالتَّوحيدِ والإخلاصِ.

الحاديَةَ عشرَةَ: التَّوحيدُ سبَبٌ لِلفَتحِ والنَّصرِ والتَّمكينِ فِي الدُّنيا.

الثَّانيَةَ عشرَةَ: التَّوحيدُ حِصنُ اللهِ الأعظَمُ؛ مَن دخَلَهُ كانَ مِنَ الآمِنينَ.

الثَّالثَةَ عشرَةَ: التَّوحيدُ أوَّلُ مَا يُدخَلُ بهِ فِي الإسلامِ، وآخِرُ مَا يُخرَجُ بِهِ مِنَ الدُّنيا؛ فَهُوَ أوَّلُ واجِبٍ وآخِرُ واجِبٍ، فالتَّوحيدُ أوَّلُ الأمرِ وآخِرُهُ.

قلتُ: ووجهُ انتِظامِ هذهِ الفضائلِ أنَّها ترجِعُ إِلَىٰ ثلاثَةِ مقاصِدَ: فضائلَ فِي الدُّنيا (كانشِراحِ الصَّدرِ، والأمنِ، والنَّصرِ، والتَّمكينِ)؛ وفضائلَ فِي الآخِرَةِ (كالمغفِرَةِ، ودُخولِ الجنَّةِ، والنَّجاةِ مِنَ النَّارِ)؛ وفضائلَ تعودُ إِلَىٰ أصلِ الدِّينِ (كونِهِ أساسَ الإسلامِ، وأوَّلَ الواجِباتِ وآخِرَها، وشرطَ قَبولِ العمَلِ).

فجمَعَ التَّوحيدُ خيرَيِ الدَّارَينِ، فَلَا سعادَةَ لِلعَبدِ فِي عاجِلِهِ وَلَا آجِلِهِ إلَّا بهِ.

مسألة: أقسامُ التَّوحيدِ الثَّلاثَةُ:

الاعتِقاد يتَعَلَّقُ بِالرَّبِّ مِن ثلاثَةِ أوجُهٍ، وبِحَسَبِها ينقَسِمُ التَّوحيدُ ثلاثَةَ أقسامٍ:

الأوَّلُ: توحيدُ الرُّبوبيَّةِ، وَهُوَ اعتِقادُ انفِرادِ اللهِ بِأفعالِهِ مِنَ الخلقِ والرِّزقِ والتَّدبيرِ،

لَا شريكَ لهُ فِي ذلكَ.

الثَّاني: توحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ، وَهُوَ اعتِقادُ انفرادِهِ سُبحانَهُ بِكَمالِ أسمائِهِ وصِفاتِهِ، لَا مثيلَ لهُ فِيهَا وَلَا نظيرَ.

الثَّالثُ: توحيدُ الأُلوهيَّةِ، وَهُوَ إفرادُ اللهِ بالعِبادَةِ، ويُسَمَّىٰ أيضًا توحيدَ العِبادَةِ؛ فَإِنَّ نُظِرَ فيهِ إِلَىٰ الرَّبِّ مِن حيثُ كونُهُ معبودًا سُمِّيَ توحيدَ الأُلوهيَّةِ، وَإِن نُظِرَ فيهِ إِلَىٰ العبدِ مِن حيثُ فِعلُهُ سُمِّيَ توحيدَ العِبادَةِ.

وَهَذَا التَّقسيمُ الثُّلاثيُّ حقيقَةٌ شرعيَّةٌ، أجمَعَ عَلَيهَا السَّلَفُ ومَن تبِعَهُم، مستَنَدُهُ التَّتَبُّعُ والاستِقراءُ لِنُصوصِ الوحيَينِ.

وَلَا يكمُلُ توحيدُ العبدِ إلَّا باستِكمالِ هذهِ الأقسامِ كلِّها، إذ هِيَ مُتَرابطَةٌ مُتَلازِمَةٌ؛ فتَوحيدُ الرُّبوبيَّةِ وتوحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ يستَلزِمانِ توحيدَ الأُلوهيَّةِ، إذ لَا يُتَصَوَّرُ أن يُقِرَّ بِكَمالِ الرُّبوبيَّةِ والأسماءِ والصِّفاتِ ثمَّ لَا يُفرِدَ اللهَ بِالعِبادَةِ؛ وتوحيدُ الأُلوهيَّةِ يتَضمَّنُ النَّوعَينِ الآخَرَينِ، لِأَنَّ مَن أفرَدَ اللهَ بِالعِبادَةِ فَقَد أقَرَّ بِكَمالِ رُبوبيَّتِهِ وكمالِ أسمائِهِ وصِفاتِهِ.

قَالَ ابنُ بَطَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «أَنَّ أَصلَ الإِيمَانِ باللهِ الَّذِي يَجِبُ عَلَىٰ الخَلقِ اعتِقَادُهُ فِي إِثبَاتِ الإِيمَانِ بِهِ ثَلَاثَةُ أَشيَاءَ:

أَحَدُهَا: أَن يَعتَقِدَ العَبدُ آنِيَّتَهُ، لِيَكُونَ بِذَلِكَ مُبَايِنًا لِمَذهَبِ أَهلِ التَّعطِيلِ الَّذِينَ لَا يُثبِتُونَ صَانِعًا.

الثَّانِي: أَن يَعتَقِدَ وَحدَانِيَّتَهُ، لِيَكُونَ مُبَايِنًا بِذَلِكَ مَذَاهِبَ أَهلِ الشِّركِ الَّذِينَ أَقَرُّوا بِالصَّانِعِ وَأَشرَكُوا مَعَهُ فِي العِبَادَةِ غَيرَهُ.

وَالثَّالِثُ: أَن يَعتَقِدَهُ مَوصُوفًا بِالصِّفَاتِ الَّتِي لَا يَجُوزُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَوصُوفًا بِهَا مِنَ العِلمِ وَالقُدرَةِ وَالحِكمَةِ وَسَائِرِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ فِي كِتَابِهِ، إِذ قَد عَلِمنَا أَنَّ كَثِيرًا مِمَّن يُقِرُّ بِهِ وَيُوَحِّدُهُ بِالقَولِ المُطلَقِ قَد يُلحِدُ فِي صِفَاتِهِ، فَيَكُونُ إِلحَادُهُ فِي صِفَاتِهِ قَادِحًا فِي تَوحِيدِهِ، وَلِأَنَّا نَجِدُ اللهَ تَعَالَىٰ قَد خَاطَبَ عِبَادَهُ بِدُعَائِهِم إِلَىٰ اعتِقَادِ كُلِّ وَاحِدَةٍ فِي هَذِهِ الثَّلَاثِ وَالإِيمَانِ بِهَا».

مسألة: الأمران اللَّذان يقتَضيهما إفرادُ الله بالعبادَة:

إفرادُ اللهِ بِالعِبادَةِ يقتَضي مِنَ العبدِ أمرَينِ لَا غِنىٰ عنهُما:

أَوَّلُهما: أَن يتوَجَّهَ بِجميعِ أنواعِ العِبادَةِ لِلَّهِ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، لَا يصرِفُ مِنهَا شيئًا لِغيرِهِ، قالَ تعَالَىٰ: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [سورة الأنفال:٣٩]، قالَ ابنُ عبَّاسٍ: «يُخلِصُ لهُ التَّوحيدَ»، فالدِّينُ عندَهُ هُوَ التَّوحيدُ.[1]

وثانيهما: أَن يعرِفَ مَا هِيَ العِبادَةُ، إِذِ العمَلُ بِالشَّيءِ فرعٌ عنِ العِلمِ بهِ، فمَن لَم يعرِفِ العِبادَةَ تعَذَّرَ عليهِ أَن يُخلِصَها لِلَّهِ، ورُبَّما صرَفَ شيئًا مِن أنواعِها لِغيرِ اللهِ وَهُوَ لَا يشعُرُ.

قلتُ: ووجهُ كونِ هذينِ الأمرَينِ لَا غِنىٰ عنهُما أنَّ الإخلاصَ فرعٌ عنِ العِلمِ بِالمعبودِ، وعنِ العِلمِ بِأنواعِ العِبادَةِ؛ فَلَا يَكفِي أَن يقصِدَ العبدُ الإخلاصَ مَا لَم يعرِفِ مَا الَّذي يجِبُ إخلاصُهُ لِلَّهِ.

فمَن جهِلَ أنَّ الدُّعاءَ والذَّبحَ والنَّذرَ والاستِعاذَةَ عِباداتٌ، قَد يصرِفُ بعضَها لِغيرِ اللهِ وَهُوَ يحسَبُ أنَّهُ عَلَىٰ توحيدٍ؛ فلِذا لزِمَ أَن يجمَعَ العبدُ بينَ أمرَينِ: قصدِ الإخلاصِ،

---

(١) (زاد المسير ١/ ٢٠٠).

ومعرِفَةِ مَا يُخلِصُهُ.

وَهَذَا يربِطُ هذهِ المسألَةَ بِأصلِ الرِّسالَةِ كلِّها: أنَّ العِلمَ قبلَ العمَلِ، فَلَا يصِحُّ توحيدُ العامِلِ حتَّىٰ يعلَمَ مَا هِيَ العِبادَةُ الَّتي يُفرِدُ اللهَ بِها.

مسألة: أعظَمُ ما نهى اللهُ عنهُ: الشِّركُ:

قولُهُ: «وأعظَمُ مَا نَهَىٰ عنهُ»؛

الشِّركُ لُغَةً: هُوَ الضَّمُّ والخلطُ والمُشارَكَةُ، وَهُوَ ضِدُّ التَّوحيدِ والإفرادِ.

وشرعًا: صرفُ شيءٍ مِنَ العِبادَةِ لِغيرِ اللهِ، أَو تسويَةُ غيرِ اللهِ بِاللهِ فِيمَا هُوَ مِن خصائصِهِ، وَقَد عبَّرَ الشَّرعُ عنِ الشِّركِ بِعِدَّةِ ألفاظٍ، مِنهَا: التَّنديدُ (جعلُ الأندادِ لِلَّهِ)، والعُدولُ (العُدولُ عَن عِبادَةِ اللهِ إِلَىٰ غيرِهِ)، والتَّسويَةُ (تسويَةُ المخلوقِ بِالخالِقِ)، والكُفءُ (جعلُ مِثلٍ أَو نظيرٍ لِلَّهِ).

ولمَّا كانَ أعظَمُ مَا أُمِرَ بِهِ العِبادُ هُوَ التَّوحيدَ، كانَ ضِدُّهُ -وَهُوَ الشِّركُ- أعظَمَ مَا نُهِيَ عنهُ؛ فالشِّركُ مُضادٌّ لِلتَّوحيدِ، لِأنَّ التَّوحيدَ قائمٌ عَلَىٰ إفرادِ اللهِ، بينَما الشِّركُ قائمٌ عَلَىٰ التَّشريكِ والتَّسويَةِ.

وَمَعنَىٰ قولِهِ: «وَهُوَ دعوَةُ غيرِهِ معهُ» أَي: عِبادَةُ غيرِ اللهِ مَعَ اللهِ؛ فالمُشرِكُ قَد يعبُدُ اللهَ ويُحِبُّهُ ويتَقَرَّبُ إليهِ بِأنواعٍ مِنَ القُرُباتِ، إلَّا أنَّهُ لَا يُفرِدُهُ بِالعِبادَةِ، بَل يُشرِكُ معهُ غيرَهُ، زعمًا منهُ أنَّ أولئكَ يُقرِّبونَهُ إِلَىٰ اللهِ زُلفىٰ، قالَ تعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر:٣].

وَهَذَا الظَّنُّ الفاسِدُ هُوَ عينُ الشِّركِ؛ لِأنَّ طلَبَ التَّقريبِ إِلَىٰ اللهِ، أَو دفعَ الضُّرِّ، أَو جلبَ النَّفعِ، لَا يكونُ إلَّا مِنَ اللهِ وحدَهُ، فمَن طلَبَ ذلكَ مِن غيرِ اللهِ فَقَد أشرَكَ.

مسألة: انفرادُ الشِّركِ عن سائرِ الكبائرِ بثلاثةِ أمورٍ:

الشِّركُ أعظَمَ الكبائرِ، بَل هُوَ أكبَرُ الكبائرِ، كَمَا ورَدَ فِي الحديثِ: «أكبَرُ الكبائرِ: الإشراكُ باللهِ».

وينفَرِدُ الشِّركُ عَن سائرِ الكبائرِ بثلاثَةِ أمورٍ عظيمَةٍ:

الأوَّلُ: أنَّهُ لَا يُغفرُ لِمَن ماتَ عليهِ ولَم يتُب، قالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [سورة النساء:٤٨]؛ وأمَّا مَن تابَ مِنَ الشِّركِ فإنَّ اللهَ يتوبُ عليهِ، فإنَّ التَّوبَةَ تَجُبُّ مَا قبلَها.

الثَّاني: أنَّهُ يُحبِطُ جميعَ الأعمالِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [سورة الفرقان:٢٣]؛ لِأنَّ العمَلَ إِذَا لَم يُبنَ عَلَىٰ التَّوحيدِ فَلَا قيمَةَ لهُ شرعًا.

الثَّالثُ: أنَّهُ موجِبٌ لِلخُلودِ فِي النَّارِ لِمَن ماتَ عليهِ ولَم يتُب؛ وَقَد سُئِلَ النَّبيُّ -ﷺ-: أيُّ الذَّنبِ أعظَمُ؟ فقالَ: «أَن تجعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خلَقَكَ».

قلتُ: ووجهُ انفِرادِ الشِّركِ بهذِهِ الثَّلاثَةِ أنَّ سائرَ الكبائرِ -وَإِن عظُمَت- داخِلَةٌ تحتَ المشيئَةِ، وَلَا تُحبِطُ جميعَ العمَلِ، وَلَا تُوجِبُ الخُلودَ؛ وأمَّا الشِّركُ فجمَعَ الثَّلاثَةَ: انتِفاءَ المغفِرَةِ مَعَ الموتِ عليهِ، وإحباطَ العمَلِ كلِّهِ، والخُلودَ فِي النَّارِ، وَهَذَا أبلَغُ مَا يكونُ فِي تعظيمِ خطَرِهِ؛ فإنَّ كلَّ واحِدٍ مِن هذهِ الثَّلاثَةِ كافٍ فِي الزَّجرِ، فكيفَ باجتِماعِها؟

فَهُوَ أعظَمُ الذُّنوبِ وأكبَرُ الجرائمِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [سورة لقمان:١٣]، وقالَ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [سورة النساء:١١٦].

مسألة: لِمَ كانَ الشِّركُ أعظمَ الذُّنوبِ؟

لِمَ كانَ الشِّركُ أعظمَ الذُّنوبِ؟ لِأمورٍ عظيمَةٍ:

أوَّلًا: أنَّهُ انتِقاصٌ لِحَقِّ اللهِ؛ فالمُشرِكُ جعَلَ المخلوقَ -أيًّا كانَ- في مرتَبَةِ الخالِقِ، وهذا أعظَمُ الظُّلمِ؛ ولِذلكَ إذا ذكَرَ اللهُ الشِّركَ قالَ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [سورة الأعراف:١٩٠]، ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾ [سورة يونس:١٨].

ثانيًا: أنَّهُ مُضادَّةٌ لِلَّهِ في غايَةِ الخلقِ؛ فاللهُ خلَقَ الخلقَ لِتَوحيدِهِ وعِبادَتِهِ، والمُشرِكُ خالَفَ أصلَ فِطرَتِهِ وغايَةَ خلقِهِ.

ثالثًا: أنَّهُ تسويَةٌ لِلمَخلوقِ بِالخالِقِ؛ قالَ تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [سورة الأنعام:١]، أي: يُسَوُّونَ غيرَ اللهِ بِاللهِ.

رابِعًا: أنَّ عُقوبَتَهُ أعظَمُ العُقوباتِ؛ فهو لا يُغفَرُ لِصاحِبِهِ إن ماتَ عليهِ، قالَ تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [سورة النساء:٤٨]، وقالَ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ [سورة المائدة:٧٢]؛ ويُحبِطُ جميعَ الأعمالِ، قالَ تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام:٨٨]، وقالَ -علىٰ سبيلِ الفرضِ في حقِّ النَّبيِّ -ﷺ-: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [سورة الزمر:٦٥]؛ فلو كانَ الإنسانُ يقومُ اللَّيلَ ويصومُ النَّهارَ ثمَّ أشرَكَ بِاللهِ وماتَ علىٰ ذلكَ، حبِطَ عمَلُهُ كلُّهُ، ويوجِبُ الخُلودَ الأبديَّ في النَّارِ -نسألُ اللهَ العافيَةَ-؛ ولهُ آثارٌ شرعيَّةٌ تتعَلَّقُ بِأحكامِ الدُّنيا في حقِّ مَن ماتَ عليهِ.

قلتُ: ووجهُ رجوعِ هذهِ الوُجوهِ الأربعَةِ إِلَىٰ أصلٍ واحِدٍ أنَّ الشِّركَ فِي حقيقَتِهِ تسويَةٌ بينَ مَن لهُ الكمالُ المُطلَقُ ومَن لهُ النَّقصُ المُطلَقُ؛ فَهُوَ انتِقاصٌ لِحَقِّ اللهِ (بِصَرفِ حقِّهِ لِغيرِهِ)، ومُضادَّةٌ لهُ فِي غايَةِ الخلقِ (بِتَركِ مَا خُلِقَ لهُ)، وتسويَةٌ لِلمَخلوقِ بِالخالِقِ

(بِجَعلِهِ نِدًّا)؛ فلمَّا جمَعَ هذهِ القبائحَ كلَّها استحَقَّ أعظَمَ العُقوباتِ، ومِن لطائفِ القُرآنِ أنَّهُ كثيرًا مَا يُعَقِّبُ ذِكرَ الشِّركِ بِالتَّنزيهِ ﴿سُبْحَانَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٨﴾ [سورة يونس:١٨]، تنبيهًا عَلَىٰ أنَّ الشِّركَ يتضَمَّنُ نسبَةَ النَّقصِ إليهِ سُبحانَهُ، فيَجِبُ تنزيهُهُ عنهُ.

مسألة: عُمومُ النّهيِ عنِ الشّركِ، والاستِدلالُ بآيَةِ النِّساءِ:

دليلُ عُمومِ النَّهيِ عنِ الشِّركِ قولُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة النساء:٣٦]، فـ«شيئًا» نكِرَةٌ فِي سياقِ النَّهيِ، فتُفيدُ العُمومَ؛ فتَعُمُّ كلَّ مَا سِوىٰ اللهِ، مَهمَا كانَ عظيمًا: نبيًّا، أَو ملكًا، أَو وليًّا، أَو حجرًا، أَو قبرًا، أَو شجرَةً؛ فلَا يُشرَكُ باللهِ أحَدٌ كائنًا مَن كانَ.

وَقد استَدَلَّ المُصَنِّفُ بِآيَةِ ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة النساء:٣٦] عَلَىٰ المسألتَينِ معًا: الأمرِ بِالتَّوحيدِ، والنَّهيِ عنِ الشِّركِ.

١٩٧- قالَ عبدُ الرَّحمَنِ بنُ قاسِمٍ فِي «حاشيَةِ الأصولِ الثَّلاثَةِ» (ص٣٤):

«وتُسَمَّىٰ هذهِ الآيَةُ آيَةَ الحقوقِ العشرَةِ، وابتِداؤُهُ تَعالَىٰ بِالأمرِ بِالتَّوحيدِ والنَّهيِ عنِ الشِّركِ أدَلُّ دليلٍ عَلَىٰ أنَّهُ هُوَ أهَمُّها؛ فإنَّهُ لَا يبدأُ إلَّا بِالأهَمِّ فالأهَمِّ، فدلَّت عَلَىٰ أنَّ التَّوحيدَ أوجَبُ الواجِباتِ».

فقولُهُ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء:٣٦] أمرٌ يقتَضي الوُجوبَ، والخِطابُ موجَّهٌ لِلنَّاسِ جميعًا مُسلِمِهِم وكافِرِهِم، إذ لَم يختَلِف أهلُ العِلمِ فِي أنَّ كلَّ مَا ورَدَ فِي القُرآنِ والسُّنَّةِ مِنَ الأمرِ بِالتَّوحيدِ والمُعتقَدِ فَهُوَ خِطابٌ عامٌّ لَا يختَصُّ بِالمُسلِمينَ دونَ غيرِهِم.

والمرادُ بِالعِبادَةِ هُنَا العِبادَةُ الشَّرعيَّةُ المبنيَّةُ عَلَىٰ الإخلاصِ والمُتابَعَةِ، لِأنَّ اللهَ لَا يأمُرُ بِعِبادَةٍ يُخالِطُها شِركٌ البتَّةَ، فمتىٰ انتفَىٰ التَّوحيدُ انتفَتِ العِبادَةُ، كَمَا ينتَقِضُ الوُضوءُ بِالحدَثِ، فالشِّركُ فِي العِبادَةِ ناقِضٌ لَهَا.

والعبادةُ الَّتِي يُجابُ بِهَا عَن سؤالِ القبرِ لَا تُقبَلُ حتَّىٰ تجتمعَ فِيهَا رُكنانِ: إخلاصٌ للهِ، ومتابعةٌ لرسولِه -ﷺ-.

فبالإخلاصِ تتميَّزُ عَن الشركِ، وبالمتابعةِ تتميَّزُ عَن البدعةِ؛ فمَن عبدَ اللهَ بغيرِ إخلاصٍ فعبادتُه شركٌ، ومَن عبدَه بغيرِ مَا شرعَ فعبادتُه بدعةٌ مردودةٌ.

وَلِذَلِكَ قُرِنَ فِي الكتابِ بَينَ الأمرينِ فِي قولِه: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ [سورة الكهف:١١٠] — وَهُوَ المتابعةُ — ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [سورة الكهف:١١٠] — وَهُوَ الإخلاصُ.

فَلَا يُجيبُ عَن «من ربك؟» إلَّا مَن أخلصَ الوجهةَ وأتبعَ السُّنَّةَ».

وقولُهُ: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [سورة النساء:٣٦] نهيٌ يقتَضي التَّحريمَ، وَهُوَ تأكيدٌ لِما تضَمَّنَهُ الأمرُ بِالعِبادَةِ لَا تأسيسٌ لِحُكمٍ جديدٍ، إذ إفرادُ اللهِ بِالعِبادَةِ يستَلزِمُ النَّهيَ عنِ الشِّركِ بِهِ.

والنَّهيُ هُنَا عامٌّ يشمَلُ الشِّركَ الأكبَرَ والأصغَرَ، لِأنَّ لفظَ الشِّركِ الواقِعَ فِي سياقِ النَّهيِ يعُمُّ أنواعَهُ كلَّها؛ وكذلكَ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ نكِرَةٌ فِي سياقِ النَّهيِ فتعُمُّ كلَّ مُشرَكٍ بِهِ، ملَكًا كانَ أم نبيًّا أم صنمًا أم هوًى، فَلَا يجوزُ صرفُ شيءٍ مِنَ العِبادَةِ لِغيرِ اللهِ.

قلتُ: ووجهُ دلالَةِ الآيَةِ عَلَىٰ المسألتَينِ معًا أنَّها جمَعَت بينَ الأمرِ بِالعِبادَةِ ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء:٣٦] -وَهُوَ التَّوحيدُ-، والنَّهيِ عنِ الشِّركِ ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [سورة النساء:٣٦]؛ فطابَقَت قولَ المُصَنِّفِ: «أعظَمُ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ التَّوحيدُ، وأعظَمُ مَا نَهَىٰ عنهُ الشِّركُ».

وَلَم يَكتَفِ الشَّارِعُ بِتَحرِيمِ الشِّركِ نَفسِهِ، بَل حَمَىٰ جَنَابَ التَّوحِيدِ بِأَن سَدَّ كُلَّ

ذَرِيعَةٍ تُفضِي إِلَيهِ، وَقَطَعَ كُلَّ سَبَبٍ يُوصِلُ إِلَيهِ؛ فَنَهَىٰ عَن أَقوَالٍ وَأَفعَالٍ لَيسَت شِركًا فِي نَفسِهَا، لٰكِنَّهَا تُفضِي إِلَيهِ أَو تُشبِهُ صَنِيعَ أَهلِهِ.

فَنَهَىٰ عَنِ الغُلُوِّ فِي الصَّالِحِينَ لِأَنَّهُ بَابُ عِبادَتِهِم، وَنَهَىٰ عَنِ البِنَاءِ عَلَىٰ القُبُورِ وَتَجصِيصِهَا وَإِسرَاجِهَا لِأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إِلَىٰ تَعظِيمِهَا، وَنَهَىٰ عَنِ الحَلِفِ بِغَيرِ اللهِ لِأَنَّهُ تَعظِيمٌ لِغَيرِهِ، وَنَهَىٰ عَن أَلفَاظٍ مُوهِمَةٍ كَقَولِ القَائِلِ: «مَا شَاءَ اللهُ وَشِئتَ» لِمَا فِيهَا مِنَ التَّسوِيَةِ.(١)

---

(١) **فَفِي الصَّحيحَينِ (البخاري ١٣٣٠، مسلم ٥٢٩) عَن عائِشَةَ أَنَّهُ قالَ فِي مَرَضِهِ:** «لَعَنَ اللهُ اليَهودَ والنَّصارىٰ؛ اتَّخَذوا قُبورَ أنبيائِهِم مَساجِدَ»، قالَت: فلَولا ذاكَ أُبرِزَ قَبرُهُ، غَيرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَن يُتَّخَذَ مَسجِدًا.

وَفِي الصَّحيحَينِ (البخاري ٤٢٧، مسلم ٥٢٨) عَن عائِشَةَ، لَمّا ذُكِرَت كَنيسَةٌ بالحَبَشَةِ فِيهَا تَصاويرُ قالَ -ﷺ-: «إِنَّ أُولٰئِكَ إِذَا كانَ فيهِمُ الرَّجُلُ الصّالِحُ فماتَ بَنَوا عَلَىٰ قَبرِهِ مَسجِدًا، وصَوَّروا فيهِ تِلكَ الصُّوَرَ، فأولئِكَ شِرارُ الخَلقِ عِندَ اللهِ يَومَ القِيامَةِ». وَفِي هَذا رَدٌّ عَلَىٰ مَن زَعَمَ أَنَّ مَعنىٰ الاتِّخاذِ هُوَ السُّجودُ لَها فَقَط.

وَفِي الصَّحيحَينِ (البخاري ٤٣٥، مسلم ٥٣١) عَن عائِشَةَ وابنِ عَبّاسٍ: «لَعنَةُ اللهِ عَلَىٰ اليَهودِ والنَّصارىٰ؛ اتَّخَذوا قُبورَ أنبيائِهِم مَساجِدَ».

قالَ ابنُ عَبدِ البَرِّ فِي التَّمهيدِ (٥/ ٤٥): كانَ -ﷺ- يُحَذِّرُ أُمَّتَهُ مِن صَنيعِ الأُمَمِ قَبلَهُ الَّذينَ صَلَّوا إِلَىٰ قُبورِ أَنبيائِهِمُ واتَّخَذوها قِبلَةً ومَسجِدًا، كَمَا صَنَعَتِ الوَثَنِيَّةُ بالأوثانِ، وذلكَ الشِّركُ الأكبَرُ.

وَفِي صَحيحِ مُسلِمٍ (٥٣٢) عَن جُندَبِ بنِ عَبدِ اللهِ، سَمِعتُ رَسولَ اللهِ -ﷺ- قَبلَ أَن يَموتَ بخَمسٍ يَقولُ: «أَلَا وإِنَّ مَن كانَ قَبلَكُم كانُوا يَتَّخِذونَ قُبورَ أَنبيائِهِم مَساجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذوا القُبورَ مَساجِدَ؛ فإِنِّي أَنهاكُم عَن ذٰلكَ».

وقالَ أَبُو مِجلَزٍ: «تَسوِيَةُ القُبُورِ مِنَ السُّنَّةِ» (مُصَنَّفُ ابنِ أَبِي شَيبَةَ ١١٧٩٨).

وقالَ طاوُسٌ لِرَجُلٍ: «خَيرٌ لَكَ أَلَّا تَعرِفَ قَبرَهُ إِلَّا أَن تَأتِيَهُ فَتَستَغفِرَ لَهُ وتَدعُوَ لَهُ، أَمَا عَلِمتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- نَهَىٰ عَن قُبُورِ المُسلِمِينَ أَن يُبنَىٰ عَلَيهَا أَو تُجَصَّصَ أَو تُزدَرَعَ، فَإِنَّ خَيرَ قُبُورِكُمُ الَّتِي لَا تُعرَفُ»

(مُصَنَّفُ عَبدِ الرَّزَّاقِ ٦٤٩٥).

وصَحَّ عَنِ ابنِ عُمَرَ -رضي الله عنه- أَنَّهُ مَرَّ عَلَىٰ قَبرِ عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ أَبِي بَكرٍ أَخِي عَائِشَةَ، وَعَلَيهِ فُسطَاطٌ مَضرُوبٌ، فَقَالَ لِلغُلَامِ: انزِعهُ، فَإِنَّمَا يُظِلُّهُ عَمَلُهُ.

قَالَ الغُلَامُ: يَضرِبُنِي مَولَايَ. قَالَ: كَلَّا، فَنَزَعَهُ.

علّقه البخاريّ (٩٥/ ٢)، ووصله ابن سعد فِي طبقاته كَمَا قَالَ ابن كثير فِي البداية والنهاية (٨٩/ ٨).

وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ كَعبٍ: «هَذِهِ الفَسَاطِيطُ الَّتِي عَلَىٰ القُبُورِ مُحدَثَةٌ».

مُصَنَّفُ ابنِ أَبِي شَيبَةَ (١١٧٥٢).

وقَالَ إِبرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: «كَانُوا إِذَا خَرَجُوا مَعَ جِنَازَةٍ فَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ تَنَحَّوا عَنِ القُبُورِ» (مُصَنَّفُ ابنِ أَبِي شَيبَةَ ٧٥٨١)، يُرِيدُ أَصحَابَ ابنِ مَسعُودٍ -رضي الله عنه-.

وَكَانَ ابنُ سِيرِينَ يَقُولُ فِي القَبرِ: «بَيتُ نَارٍ» (مُصَنَّفُ ابنِ أَبِي شَيبَةَ ٧٥٨٣).

وَكَرِهَ طَاوُسٌ «أَن يُستَسقَىٰ مِنَ الآبَارِ الَّتِي تَكُونُ بَينَ ظَهرَانَي المَقَابِرِ».

مُصَنَّفُ ابنِ أَبِي شَيبَةَ (١٢١٤٤).

وَجَاءَ فِي «إِغَاثَةِ اللَّهفَانِ فِي مَصَايِدِ الشَّيطَانِ» (١/ ٣٦٩ ط عَطَاءَاتِ العِلمِ): «فَلَو كَانَ الدُّعَاءُ عِندَ القُبُورِ، وَالصَّلَاةُ عِندَهَا، وَالتَّبَرُّكُ بِهَا فَضِيلَةً أَو سُنَّةً أَو مُبَاحًا، لَنَصَبَ المُهَاجِرُونَ وَالأَنصَارُ هَذَا القَبرَ عَلَمًا لِذَلِكَ، وَدَعَوا عِندَهُ، وَسَنُّوا ذَلِكَ لِمَن بَعدَهُم، وَلَكِن كَانُوا أَعلَمَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَدِينِهِ مِنَ الخُلُوفِ الَّتِي خَلَفَت بَعدَهُم.

وَكَذَلِكَ التَّابِعُونَ لَهُم بِإِحسَانٍ رَاحُوا عَلَىٰ هَذَا السَّبِيلِ، وَقَد كَانَ عِندَهُم مِن قُبُورِ أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- بِالأَمصَارِ عَدَدٌ كَثِيرٌ، وَهُم مُتَوَافِرُونَ، فَمَا مِنهُم مَن استَغَاثَ عِندَ قَبرِ صَاحِبٍ، وَلَا دَعَاهُ، وَلَا دَعَا بِهِ، وَلَا دَعَا عِندَهُ، وَلَا استَسقَىٰ بِهِ، وَلَا استَنصَرَ بِهِ، وَمِنَ المَعلُومِ أَنَّ مِثلَ هَذَا مِمَّا تَتَوَفَّرُ الهِمَمُ وَالدَّوَاعِي عَلَىٰ نَقلِهِ، بَل عَلَىٰ نَقلِ مَا هُوَ دُونَهُ.

وَحِينَئِذٍ فَلَا يَخلُو: إِمَّا أَن يَكُونَ الدُّعَاءُ عِندَهَا وَالدُّعَاءُ بِأَربَابِهَا أَفضَلَ مِنهُ فِي غَيرِ تِلكَ البُقعَةِ، أَو لَا يَكُونَ:

فَإِن كَانَ أَفضَلَ فَكَيفَ خَفِيَ عِلمًا وَعَمَلًا عَلَىٰ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِم؟ فَتَكُونُ القُرُونُ الثَّلَاثَةُ

الفَاضِلَةُ جَاهِلَةً بِهَذَا الفَضلِ العَظِيمِ، وَتَظفَرُ بِهِ الخُلُوفُ عِلمًا وَعَمَلًا؟ وَلَا يَجُوزُ أَن يَعلَمُوهُ وَيَزهَدُوا فِيهِ، مَعَ حِرصِهِم عَلَىٰ كُلِّ خَيرٍ، لَا سِيَّمَا الدُّعَاءُ؛ فَإِنَّ المُضطَرَّ يَتَشَبَّثُ بِكُلِّ سَبَبٍ، وَإِن كَانَ فِيهِ كَرَاهَةٌ مَا، فَكَيفَ يَكُونُونَ مُضطَرِّينَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الدُّعَاءِ، وَهُم يَعلَمُونَ فَضلَ الدُّعَاءِ عِندَ القُبُورِ، ثُمَّ لَا يَقصِدُونَهُ؟ هَذَا مُحَالٌ طَبعًا وَشَرعًا.

فَتَعَيَّنَ القِسمُ الآخَرُ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا فَضلَ لِلدُّعَاءِ عِندَهَا، وَلَا هُوَ مَشرُوعٌ، وَلَا مَأذُونٌ فِيهِ بِقَصدِ الخُصُوصِ، بَل تَخصِيصُهَا بِالدُّعَاءِ عِندَهَا ذَرِيعَةٌ إِلَىٰ مَا تَقَدَّمَ مِنَ المَفَاسِدِ، وَمِثلُ هَذَا مِمَّا لَا يُشَرِّعُهُ اللهُ وَرَسُولُهُ البَتَّةَ، بَل استِحبَابُ الدُّعَاءِ عِندَهَا شَرعُ عِبَادَةٍ لَم يَشرَعهَا اللهُ، وَلَم يُنَزِّل بِهَا سُلطَانًا، وَقَد أَنكَرَ الصَّحَابَةُ مَا هُوَ دُونَ هَذَا بِكَثِيرٍ.»

غَيرَ أَنَّ بَعضَ مَن يُعَظِّمُ القُبورَ يُجادِلُ بأَنَّ المَسجِدَ النَّبَوِيَّ بِهِ قَبرُ النَّبِيِّ -ﷺ-، فيَجعَلونَ ذلك ذَرِيعَةً لِبناءِ المَساجِدِ عَلَىٰ القُبورِ، زاعِمينَ أَنَّهُ لَو حَرُمَ لَما كانَ قَبرُهُ فِي مَسجِدِهِ. والجَوابُ فِي نِقاطٍ:

أَوَّلًا: مَوضِعُ القَبرِ تَوقِيفٌ، وكانَ خارِجَ المَسجِدِ:

لَمّا ماتَ النَّبِيُّ -ﷺ- فِي حُجرَةِ عائِشَةَ اختَلَفَ الصَّحابَةُ فِي مَوضِعِ دَفنِهِ؛ فَفِي سُنَنِ التِّرمِذِيِّ (١٠١٨) عَن عائِشَةَ قالَ أَبُو بَكرٍ: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ -ﷺ- يَقولُ: «مَا قَبَضَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي المَوضِعِ الَّذي يُحِبُّ أَن يُدفَنَ فيهِ»، فدُفِنَ فِي مَوضِعِ فِراشِهِ.

وحُجَرُ نِسائِهِ لَيسَت مِنَ المَسجِدِ، فكانَ القَبرُ بجِوارِهِ لا فيهِ.

ثانِيًا: إنَّما أُحيطَ بالقَبرِ بسَبَبِ التَّوسِعَةِ:

وُسِّعَ المَسجِدُ فِي عَهدِ عُمَرَ وعُثمانَ مِنَ النَّواحي الثَّلاثِ، وتُرِكَتِ الناحِيَةُ الَّتِي مِن جِهَةِ القَبرِ؛ كَمَا يَدُلُّ عَلَيهِ قَولُ عُمَرَ لِلعَبّاسِ — كَمَا فِي الطَّبَقاتِ الكُبرىٰ لابنِ سَعدٍ (٤/ ١٥): «أمّا حُجَرُ أُمَّهاتِ المُؤمِنينَ فَلَا سَبيلَ إِلَيها».

ثُمَّ فِي تَوسِعَةِ عُمَرَ بنِ عَبدِ العَزيزِ سَنَةَ ٨٨هـ أُدخِلَتِ الحُجَرُ فِي المَسجِدِ، فبُنِيَت عَلَىٰ القَبرِ حيطانٌ مُستَديرَةٌ حولَهُ، وحُرِّفَ جِدارانِ حتّىٰ التَقيا لِئَلّا يَستَقبِلَهُ أَحَدٌ.

ولَم يَكُن بالمَدينَةِ حينَئِذٍ صَحابِيٌّ؛ إذ آخِرُهُم مَوتًا جابِرُ بنُ عَبدِ اللهِ، ماتَ سَنَةَ ٧٨هـ.

ثالِثًا: المَسجِدُ لَم يُبنَ عَلَىٰ القَبرِ:

فالمَسجِدُ فِي الأصلِ لَا عَلاقَةَ لَهُ بالقَبرِ، والقَبرُ كَذلكَ، وإنَّما اجتَمعا بالتَّوسِعَةِ.

والأرضُ المَدفونُ بِهَا ثَبَتَ لَها حُكمُ القَبرِ، والأرضُ المَبنيُّ عَلَيها ثَبَتَ لَها حُكمُ المَسجِدِ، فبَقِيَ كُلٌّ عَلَىٰ حالِهِ.

فَلَا حُجَّةَ فيهِ عَلَىٰ جَوازِ الدَّفنِ فِي المَساجِدِ.

وإنَّما لَم يُنقَلِ القَبرُ لأنَّ مَوضِعَهُ تَوقيفٌ ولِحُرمَتِهِ -ﷺ-.

رابِعًا: لَا يُقاسُ عَلَيهِ غَيرُهُ عَلَىٰ فَرضِ التَّسليمِ:

لأمرَينِ: أنَّ المَسجِدَ النَّبَويَّ اختَصَّهُ اللهُ بفَضيلَةٍ ليسَت لِغَيرِهِ سِوىٰ المَسجِدِ الحَرامِ، وَهِيَ مُضاعَفَةُ الصَّلاةِ بألفٍ.

والثّاني أنَّ قَبرَهُ -ﷺ- لَا يُمكِنُ نَقلُهُ، بخِلافِ سائِرِ المَساجِدِ المَقبورَةِ فَلَا مانِعَ مِن نَقلِ قَبرِها، فَلَا يُقاسُ عَلَيهِ مَا خالَفَ حالَهُ.

خامِسًا: كَيفَ كانَت عائِشَةُ تُصَلّي فِي حُجرَتِها؟

قَسَمَت بَيتَها قِسمَينِ بحائِطٍ: قِسمٌ فيهِ القَبرُ، وقِسمٌ تَسكُنُ فيهِ وتُصَلّي؛ قالَ مالِكُ بنُ أنَسٍ كَمَا فِي الطَّبَقاتِ الكُبرىٰ (٢/ ٢٢٤): «قُسِمَ بَيتُ عائِشَةَ باثنَينِ: قِسمٌ كانَ فيهِ القَبرُ، وقِسمٌ تكونُ فيهِ عائِشَةُ، وبَينَهُما حائِطٌ».

سادِسًا: دَعوىٰ أنَّ المُنكِرَ سَعيدُ بنُ المُسَيِّبِ وَحدَهُ:

هٰذا تَلبيسٌ؛ فالمَنقولُ أنَّ أهلَ المَدينَةِ والفُقَهاءَ العَشَرَةَ كُلَّهُم أنكَروا لَمّا قُرِئَ عَلَيهِم كِتابُ الوَليدِ.

سابِعًا: دَعوىٰ أنَّهُم هَمّوا بالدَّفنِ عِندَ المِنبَرِ:

مَا رُوِيَ أنَّ ناسًا قالُوا: يُدفَنُ عِندَ المِنبَرِ، لَا يَدُلُّ عَلَىٰ جَوازِ الدَّفنِ بالمَسجِدِ؛ فرُبَّما قالَ أحَدٌ رَأيًا ورَدَّهُ آخَرونَ.

ويُبَيِّنُهُ مَا رُوِيَ أنَّ قائِلًا قالَ: نَدفِنُهُ حَيثُ كانَ يُصَلّي، فقالَ أَبُو بَكرٍ: «مَعاذَ اللهِ أن نَجعَلَهُ وَثَنًا يُعبَدُ».

إذاً: المَسجِدُ وُجِدَ قَبلَ القَبرِ، والقَبرُ وُجِدَ دونَ ضَمٍّ إلَيهِ، ومَكانُهُ تَوقيفٌ، وإدخالُ الحُجَرِ استَلزَمَ إحاطَةَ المَسجِدِ بِهِ مَعَ فَصلِهِ بحائِطَينِ، فَلَا يَكونُ داخِلَهُ.

وَعَلَىٰ فَرضِ الضَّمِّ، لَا يُقاسُ عَلَيهِ غَيرُهُ؛ لِفَضيلَتِهِ، ولِتَعَذُّرِ نَقلِ قَبرِهِ -ﷺ- واللهُ تَعَالَىٰ أعلَمُ.

فَكانَ هذَا أصلًا عَظِيمًا فِي الشَّرِيعَةِ: أَنَّ مَا أَفضَىٰ إِلَىٰ الحَرَامِ فَهُوَ حَرَامٌ، وَأَنَّ حِمَايَةَ التَّوحِيدِ تَكُونُ بِقَطعِ أَسبَابِ الشِّركِ قَبلَ الوُقُوعِ فِيهِ؛ كَمَا يُحمَىٰ الحِمَىٰ بِالبُعدِ عَن أَطرَافِهِ، وَبِهذَا يُعلَمُ أَنَّ مَن تَهَاوَنَ بِالوَسَائِلِ وَالذَّرَائِعِ فَقَد عَرَّضَ تَوحِيدَهُ لِلنَّقضِ مِن حَيثُ لَا يَشعُرُ.

فَعَلَىٰ المُسلِمِ أَن يحرِصَ كلَّ الحِرصِ عَلَىٰ تحقيقِ التَّوحيدِ لِرَبِّ العالمينَ فِي حياتِهِ: اعتِقادًا وقولًا وعمَلًا، وَأَن يبتَعِدَ عَن مواطِنِ الشِّركِ صغيرِها وكبيرِها، وَأَن يلجَأَ إِلَىٰ اللهِ أَن يُخَلِّصَهُ مِنَ الشِّركِ، كَمَا دَعَا الأنبياءُ ربَّهُم: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [سورة إبراهيم:٣٥].

١٩٨- **وَرَوَىٰ ابنُ جريرٍ (١٣/ ٦٨٧)** عَن إبراهيمَ التَّيميِّ -مِن طريقِ مُغيرَةَ- قالَ: «مَن يأمَنُ البَلاءَ بعدَ قولِ إبراهيمَ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [سورة إبراهيم:٣٥]؟!».

قُلتُ: فالشِّركُ بابٌ خَفِيُّ المَدخَلِ، حَتَّىٰ إِنَّ أَخفاهُ أَدَقُّ مِن دَبِيبِ النَّملِ عَلَىٰ الصَّفاةِ السَّوداءِ فِي ظُلمَةِ اللَّيلِ، وَفِي الحَدِيثِ: «**إِنَّ أَخوَفَ مَا أَخافُ عَلَيكُمُ الشِّركُ الأَصغَرُ**»، قَالَهُ -ﷺ- لِأَصحابِهِ مَعَ كَمالِ إِيمانِهِم.

قُلتُ: فَإِذا كَانَ الشِّركُ الأَصغَرُ مَخُوفًا عَلَىٰ أَهلِ الإِيمانِ الكَامِلِ، فَكَيفَ بِمَن دُونَهُم؟ وَهَذا يُوجِبُ عَلَىٰ المُوَحِّدِ أَن يَكُونَ دَائِمَ الخَوفِ مِنَ الشِّركِ، حَرِيصًا عَلَىٰ مَعرِفَتِهِ وَمَعرِفَةِ وَسائِلِهِ لِيَجتَنِبَها؛ إِذ لَا يَتَّقِي المَرءُ مَا لَا يَعرِفُهُ.

وَعَلَىٰ المُسلِمِ أَن يخافَ عَلَىٰ نفسِهِ مِن صغيرِ الشِّركِ أَشَدَّ مِن خوفِهِ مِن كبائِرِ الْمَعَاصِي الأُخرىٰ؛ لِأَنَّ الشِّركَ أصلُ الهلاكِ، ومنبَعُ الضَّلالِ، وأعظَمُ مَا يُناقِضُ حقَّ اللهِ عَلَىٰ عِبادِهِ.

قلتُ: وَفِي هَذَا قطعٌ لِغُرورِ مَن يأمَنُ عَلَىٰ نفسِهِ الشِّركَ ويظُنُّ أنَّهُ بِمَنأىٰ عنهُ؛ فإنَّ أبوابَ الشِّركِ خفيَّةٌ دقيقةٌ، لَا يأمَنُها إلَّا مَن غفَلَ عَن خطرِها.

وَاعلَم أَن المُشرِكُ حُرِّمَت عليهِ الجنَّةُ، وَهُوَ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ -والعِياذُ بِاللهِ-، قالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [سورة المائدة:٧٢].

١٩٩- **وقالَ رسولُ اللهِ** -ﷺ-: «مَن لقِيَ اللهَ لَا يُشرِكُ بِهِ شيئًا دخَلَ الجنَّةَ، ومَن لقِيَهُ يُشرِكُ بهِ شيئًا دخَلَ النَّارَ».

٢٠٠- **وقالَ الشَّيخُ محمدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ:** «إنَّ مَن لقِيَ اللهَ لَا يُشرِكُ بهِ شيئًا دخلَ الجنَّةَ، ومَن لقِيَهُ يُشرِكُ بهِ شيئًا دخلَ النَّارَ، وَلَو كانَ أعبدَ النَّاسِ».

٢٠١- **وقالَ عبدُ الرَّحمَنِ بنُ حسَنٍ آلُ الشَّيخِ فِي «الدُّرَرِ السَّنيَّةِ» (٢/ ٢٦٨):** «وأمَّا مَن لَم يعرِف حقيقَةَ الشِّركِ، لِإعراضِهِ عَن فهمِ الأدلَّةِ الواضِحَةِ والبَراهينِ القاطِعَةِ، فكيفَ يعرِفُ التَّوحيدَ؟

ومَن كانَ كذلكَ لَم يكُن مِنَ الإسلامِ فِي شيءٍ، وَإن صامَ وصلَّىٰ وزعَمَ أنَّهُ مُسلِمٌ».

٢٠٢- **وَفِي حديثِ عائشَةَ قالَت:** قالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «الدَّواوينُ عندَ اللهِ ثلاثَةٌ: ديوانٌ لَا يعبأُ اللهُ بِهِ شيئًا، وديوانٌ لَا يترُكُ اللهُ منهُ شيئًا، وديوانٌ لَا يغفِرُهُ اللهُ؛ فأمَّا الدِّيوانُ الَّذي لَا يغفِرُهُ اللهُ فالشِّركُ بِاللهِ».

قلتُ: ووجهُ كلامِ عبدِ الرَّحمَنِ بنِ حسَنٍ أنَّ معرِفَةَ التَّوحيدِ لَا تتِمُّ إلَّا بِمَعرِفَةِ ضِدِّهِ، وَهُوَ الشِّركُ؛ إذِ الأشياءُ تتبَيَّنُ بِأضدادِها، فمَن جهِلَ الشِّركَ لَم يأمَن أن يقَعَ فيهِ وَهُوَ لَا يشعُرُ، فلَا يستَقيمُ لهُ توحيدٌ.

وَفِي حديثِ الدَّواوينِ بيانُ أنَّ الذُّنوبَ ثلاثُ مراتِبَ: مَا لَا يعبأُ اللهُ بِهِ (مِن صغائرَ ولمَمٍ)، وَمَا لَا يترُكُهُ (مِن مظالِمِ العِبادِ الَّتي لَا بُدَّ مِنَ القِصاصِ فِيهَا)، وَمَا لَا يغفِرُهُ (وَهُوَ الشِّركُ)؛ فجعَلَ الشِّركَ فِي أَعلَىٰ مراتِبِ الخطَرِ، إِذ هُوَ الوحيدُ الَّذي حُكِمَ بِأنَّهُ لَا يُغفَرُ مَعَ الموتِ عليهِ.

وَإِذَا ماتَ المُشرِكُ: لَا يُغسَّلُ، وَلَا يُكفَّنُ، وَلَا يُصَلَّىٰ عليهِ، وَلَا يُدفَنُ فِي مقابِرِ المُسلِمينَ، وَلَا يرِثُ وَلَا يُورَثُ، ومالُهُ فيءٌ لِبيتِ مالِ المُسلِمينَ؛ وَلَا يَتَرَحَّمُ عَلَيهِ وَلَا يَستَغفِرُ لَهُ، لِأَنَّهُ ارتكَبَ أعظَمَ الإثمِ وأفظَعَ الظُّلمِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء:٤٨].

مسألة: أنواعُ الشِّركِ:

ينقَسِمُ الشِّركُ بِاعتِباراتٍ مُختَلِفَةٍ، مِنهَا:

الأَوَّلُ: بِاعتِبارِ خطَرِهِ: شِركٌ أكبَرُ يُخرِجُ مِنَ الإِسلامِ، وشِركٌ أصغَرُ يُنقِصُ التَّوحيدَ وَلَا يُخرِجُ مِنَ المِلَّةِ.

الثَّاني: بِاعتِبارِ نوعِهِ: شِركٌ فِي الأُلوهيَّةِ، وشِركٌ فِي الرُّبوبيَّةِ، وشِركٌ فِي الأسماءِ والصِّفاتِ.

الثَّالثُ: بِاعتِبارِ ظُهورِهِ: شِركٌ ظاهِرٌ، وشِركٌ خفيٌّ أَو باطِنٌ.

الرَّابِعُ: بِاعتِبارِ محَلِّهِ: شِركٌ اعتِقاديٌّ، وشِركٌ قوليٌّ، وشِركٌ عمَليٌّ.

ومِن أسبابِ الوُقوعِ فِي الشِّركِ: الجهلُ بِالتَّوحيدِ وَمَعنَىٰ العِبادَةِ، والغُلُوُّ فِي الصَّالِحينَ، والتَّقليدُ الأَعمَىٰ لِلآباءِ والعاداتِ، وَالْهَوَىٰ والكِبرُ والعِنادُ، وانتِشارُ البِدَعِ والوسائلِ المُفضيَةِ إِلَىٰ الشِّركِ، وتعظيمُ القُبورِ والبِناءُ عَلَيهَا، والتَّبرُّكُ بِالآثارِ والأماكِنِ،

والتَّمائمُ والرُّقىٰ الشِّركيَّةُ، والحلِفُ بِغيرِ اللهِ، والرِّياءُ ونسبَةُ النِّعَمِ لِغيرِ اللهِ.

ووجهُ العِنايَةِ بِتَقسيمِ الشِّركِ ومعرِفَةِ أسبابِهِ أنَّ المرءَ لَا يتَّقي الشَّيءَ حتَّىٰ يعرِفَهُ ويعرِفَ مداخِلَهُ؛ فبِمَعرِفَةِ أقسامِهِ يُميِّزُ بينَ مَا يُخرِجُ مِنَ المِلَّةِ (الأكبَرِ) وَمَا لَا يُخرِجُ (الأصغَرِ)، وبينَ مَا يقَعُ فِي الأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ والصِّفاتِ؛ وبِمَعرِفَةِ أسبابِهِ يسُدُّ الذَّرائعَ المُفضيَةَ إليهِ، كالغُلُوِّ فِي الصَّالِحينَ وتعظيمِ القُبورِ، فإنَّهما أعظَمُ مَا دخَلَ منهُ الشِّركُ عَلَىٰ الأمَمِ.

فكانَ العِلمُ بِالشِّركِ وأقسامِهِ وأسبابِهِ مِن تمامِ تحقيقِ التَّوحيدِ.

وهذِهِ -بِاختِصارٍ- أهَمُّ أضرارِ الشِّركِ وعواقِبِهِ: أنَّهُ السَّبَبُ الأعظَمُ لِحِرمانِ الجنَّةِ، ولِدُخولِ النَّارِ والخُلودِ فِيهَا، ولِحُبوطِ العمَلِ؛ وأنَّهُ سببُ الهَزائمِ وتسَلُّطِ الأعداءِ، وأعظَمُ أسبابِ الشَّقاءِ فِي الدُّنيا؛ وأنَّهُ يُطفِئُ نورَ الفِطرَةِ، وسبَبُ الفُرقَةِ والتَّناحُرِ، وسبَبُ التَّخَلُّفِ فِي شتَّىٰ المَيادينِ، ويَقضِي عَلَىٰ عِزَّةِ النَّفسِ والأخلاقِ الفاضِلَةِ؛ وأنَّ المُشرِكينَ أكثَرُ النَّاسِ خوفًا ورُعبًا وهَلَعًا؛ وأنَّهُ افتِراءٌ وضلالٌ بعيدٌ، ومانِعٌ مِن مغفِرَةِ الذُّنوبِ.

الاستِدلالُ بِآيَةِ ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة النساء:٣٦]

قالَ المُصَنِّفُ: والدَّليلُ قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة النساء:٣٦].

استَدَلَّ المُصَنِّفُ بِهذِهِ الآيَةِ عَلَىٰ المسألتَينِ معًا: الأمرِ بِالتَّوحيدِ، والنَّهيِ عنِ الشِّركِ.

٢٠٣ - **قالَ عبدُ الرَّحمَنِ بنُ قاسِمٍ فِي «حاشيَةِ الأصولِ الثَّلاثَةِ» (ص٣٤):** «وتُسَمَّىٰ

هذهِ الآيَةُ آيَةَ الحقوقِ العشرَةِ، وابتِداؤُهُ تَعَالَىٰ بِالأمرِ بِالتَّوحيدِ والنَّهي عنِ الشِّركِ أدَلُّ دليلٍ عَلَىٰ أنَّهُ هُوَ أهمُّها؛ فإنَّهُ لَا يبدَأُ إلَّا بِالأهَمِّ فالأهَمِّ، فدلَّت عَلَىٰ أنَّ التَّوحيدَ أوجَبُ الواجِباتِ».

دلالَةُ شطرَيِ الآيَةِ:

فقولُهُ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء:٣٦] أمرٌ يقتَضي الوُجوبَ، والخِطابُ موجَّهٌ لِلنَّاسِ جميعًا مُسلِمِهِم وكافِرِهِم؛ إذ لَم يختَلِف أهلُ العِلمِ فِي أنَّ كلَّ مَا ورَدَ فِي القُرآنِ والسُّنَّةِ مِنَ الأمرِ بِالتَّوحيدِ والمُعتَقَدِ فَهُوَ خِطابٌ عامٌّ لَا يختَصُّ بِالمُسلِمينَ دونَ غيرِهِم، والمرادُ بِالعِبادَةِ هُنَا العِبادَةُ الشَّرعيَّةُ المبنيَّةُ عَلَىٰ الإخلاصِ والمُتابَعَةِ؛ لِأنَّ اللهَ لَا يأمُرُ بِعِبادَةٍ يُخالِطُها شِركٌ البتَّةَ، فمتىٰ انتفَىٰ التَّوحيدُ انتفَتِ العِبادَةُ، كَمَا ينتَقِضُ الوُضوءُ بِالحدَثِ، فالشِّركُ فِي العِبادَةِ ناقِضٌ لَهَا.

وقولُهُ: ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة النساء:٣٦] نهيٌ يقتَضي التَّحريمَ، وَهُوَ تأكيدٌ لِما تضَمَّنَهُ الأمرُ بِالعِبادَةِ لَا تأسيسٌ لِحُكمٍ جديدٍ، إذ إفرادُ اللهِ بِالعِبادَةِ يستَلزِمُ النَّهيَ عنِ الشِّركِ بِهِ، والنَّهيُ هُنَا عامٌّ يشمَلُ الشِّركَ الأكبَرَ والأصغَرَ، لِأنَّ لفظَ الشِّركِ الواقِعَ فِي سياقِ النَّهيِ يعُمُّ أنواعَهُ كلَّها؛ وكذلكَ قولُهُ: ﴿شَيْـًٔا﴾ نكِرَةٌ فِي سياقِ النَّهيِ، فتَعُمُّ كلَّ مُشرَكٍ بِهِ، ملَكًا كانَ أَم نبيًّا أَم صنمًا أَم هوًىٰ، فلَا يجوزُ صرفُ شيءٍ مِنَ العِبادَةِ لِغيرِ اللهِ.

وحاصِلُ دلالَةِ الآيَةِ أنَّ العِبادَةَ لَا تتِمُّ وَلَا تصِحُّ إلَّا بِاجتِنابِ الشِّركِ قليلِهِ وكثيرِهِ، ظاهِرِهِ وخفيِّهِ، فاجتِنابُ الشِّركِ شرطٌ فِي صِحَّةِ العِبادَةِ.

ومِن ثَمَّ ينقَسِمُ النَّاسُ ثلاثَةَ أقسامٍ:

فمَن لَم يعبُدِ اللهَ فَهُوَ كافِرٌ مُستكبِرٌ.

ومَن عبَدَ اللهَ وأشرَكَ معهُ غيرَهُ فَهُوَ كافِرٌ مُشرِكٌ، وعِبادَتُهُ باطِلَةٌ لَا تُنسَبُ إِلَىٰ اللهِ حقيقَةً.

ومَن عبَدَ اللهَ وحدَهُ مُخلِصًا لهُ الدِّينَ فَهُوَ المُسلِمُ المُخلِصُ الَّذي حقَّقَ مَا أُمِرَ بهِ.

قلتُ: وخِتامُ القولِ فِي هذهِ الفقرَةِ أنَّ المُصنِّفَ بَنَىٰ الدِّينَ كلَّهُ عَلَىٰ أصلَينِ مُتَقابِلَينِ: أعظَمِ مأمورٍ -وَهُوَ التَّوحيدُ-، وأعظَمِ منهيٍّ -وَهُوَ الشِّركُ-؛ فمَن حقَّقَ الأوَّلَ واجتَنَبَ الثَّاني فَقَد قامَ بِأصلِ الدِّينِ.

وانقِسامُ النَّاسِ إِلَىٰ هذهِ الأقسامِ الثَّلاثَةِ مأخوذٌ مِنَ الآيَةِ نفسِها: فمَن ترَكَ الأمرَ ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء:٣٦] بِالكُلِّيَّةِ فمُستكبِرٌ، ومَن ترَكَ النَّهيَ ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ﴾ [سورة النساء:٣٦] فمُشرِكٌ، ومَن جمَعَ بينَ امتِثالِ الأمرِ واجتِنابِ النَّهيِ فَهُوَ المُوَحِّدُ النَّاجي، فرجَعَتِ الآيَةُ إِلَىٰ تقريرِ مَا صدَّرَ بِهِ المُصَنِّفُ: أنَّ مدارَ الفلاحِ عَلَىٰ إفرادِ اللهِ بِالعِبادَةِ وتركِ الإشراكِ بهِ.

قال المؤلف -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-:

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأصول الثلاثة الَّتِي يجب عَلَىٰ الإنسان معرفتها؟

فَقُل: معرفةُ العبد ربَّه، ودينَه، ونبيَّه محمدًا -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

لمَّا فرَغَ الْمُصَنِّفُ مِنَ الْمُقَدِّماتِ السَّابِقَةِ الَّتي مهَّدَ بِها لِكِتابِهِ، شَرَعَ فِي بَيانِ المقصودِ مِن تصنيفِ هذهِ الرِّسالَةِ، وَهُوَ تفصيلُ الأصولِ الثَّلاثَةِ الَّتي أجمَلَها فِي قولِهِ: «**العِلمُ هُوَ معرِفَةُ اللهِ، ومعرِفَةُ نبيِّهِ، ومعرِفَةُ دينِ الإسلامِ بِالأدِلَّةِ**».

وطريقَتُهُ طريقَةٌ تعليميَّةٌ عظيمَةٌ؛ إذ يعرِضُ المسائلَ فِي صورَةِ سؤالٍ وجوابٍ، لِيَثبُتَ الْمَعنَىٰ فِي ذِهنِ الطَّالِبِ، ويسهُلَ حِفظُهُ واستِحضارُهُ عندَ الحاجَةِ.

قولُهُ: «فَإِذَا قيلَ لكَ»؛ أَي: إِذَا سألَكَ سائلٌ، أَو وُجِّهَ إليكَ السُّؤالُ توجيهًا مُباشِرًا، سواءٌ كانَ سؤالَ تعليمٍ فِي الدُّنيا، أَو سؤالَ امتِحانٍ فِي الآخِرَةِ.

وقولُهُ: «مَا الأصولُ الثَّلاثَةُ؟»؛ أَي: مَا هِيَ الأصولُ العظيمَةُ الَّتي يُبنىٰ عَلَيهَا دينُ الإنسانِ، والَّتي لَا يصِحُّ إسلامُهُ وَلَا يثبُتُ إيمانُهُ إِلَّا بِمَعرِفَتِها عِلمًا، واعتِقادِها يقينًا، والعمَلِ بِمُقتَضاها.

وقولُهُ: «الَّتي يجِبُ عَلَىٰ الإنسانِ معرِفَتُها»؛ فيهِ تقريرٌ صريحٌ بِأَنَّ معرِفَةَ هذهِ الأصولِ واجِبٌ عينيٌّ متحَتِّمٌ عَلَىٰ كلِّ مُكَلَّفٍ، لَا يسَعُهُ الجهلُ بِها، وَلَا يُعذَرُ بِتركِ تعَلُّمِها؛ لِأَنَّها أصلُ الدِّينِ وأساسُ النَّجاةِ.

فقولُهُ: «يجِبُ عَلَىٰ الإنسانِ» حكمٌ بِالوُجوبِ، والمرادُ بِهِ أَعلَىٰ مراتِبِ الوُجوبِ، وَهُوَ الرُّكنيَّةُ والأساسيَّةُ فِي الدِّينِ، لَا الوُجوبُ الاصطِلاحيُّ عندَ الفُقهاءِ الَّذي قَد يُختَلَفُ فيهِ كالتَّشَهُّدِ الأوَّلِ.

وقولُهُ: «عَلَىٰ الإنسانِ» الألِفُ واللَّامُ فيهِ لِلعُمومِ، تشمَلُ المُسلِمَ والكافِرَ، لِأنَّ الخِطابَ بِهذهِ الأصولِ موجَّهٌ لِلكُلِّ.

قلتُ: ووجهُ سُلوكِ المُصَنِّفِ طريقَةَ السُّؤالِ والجوابِ أنَّها أرسَخُ فِي تثبيتِ العِلمِ، وأقرَبُ إِلَىٰ استِحضارِهِ وقتَ الحاجَةِ؛ ولِذا جاءَت بِها السُّنَّةُ، كحديثِ جبريلَ لمَّا سألَ النَّبيَّ -ﷺ- عنِ الإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ.

ثمَّ إنَّ فِي اختيارِهِ صيغَةَ الشَّرطِ «فَإِذَا قيلَ لكَ» نُكتَةً بديعَةً، وَهِيَ الإيماءُ إِلَىٰ أنَّ هَذَا السُّؤالَ واقِعٌ لَا محالَةَ -فِي الدُّنيا تعليمًا، وَفِي القبرِ امتِحانًا-؛ فكأنَّهُ يُعِدُّ الطَّالِبَ لِجوابٍ سيُسألُهُ يومًا لَا مفرَّ منهُ.

وَاعلَم أَن هذهِ الأصولُ الثَّلاثَةُ ليسَت مسائلَ نظَريَّةً مُجَرَّدَةً، بَل هِيَ أعظَمُ مَا يُسأَلُ عنهُ العبدُ بعدَ موتِهِ؛ فإنَّ الإنسانَ إِذَا أُدخِلَ قبرَهُ، وتوَلَّىٰ عنهُ أهلُهُ وأصحابُهُ، أتاهُ الملَكانِ فأقعَداهُ، وسألاهُ سؤالَ امتِحانٍ وابتِلاءٍ، فيُقالُ لهُ: مَن ربُّكَ؟ مَا دينُكَ؟ مَن نبيُّكَ؟

فهذهِ الأسئلَةُ الثَّلاثَةُ هِيَ بِعَينِها الأصولُ الثَّلاثَةُ: معرِفَةُ العبدِ ربَّهُ الَّذي يعبُدُهُ، ومعرِفَةُ دينِهِ الَّذي دانَ اللهَ بِهِ، ومعرِفَةُ نبيِّهِ الَّذي اتَّبَعَهُ واقتَدَىٰ بِهِ.

فهذهِ هِيَ المسائلُ الثَّلاثُ الَّتي لِأجلِها أَلَّفَ المؤلِّفُ هذهِ الرِّسالَةَ، وَهِيَ بِعَينِها مسائلُ القبرِ.

٢٠٤ - **وَقَد ورَدَت مُجتَمِعَةً فِي حديثٍ واحِدٍ، وَهُوَ حديثُ العبَّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ**

مرفوعًا، أخرَجَهُ مُسلِمٌ (رقم ٣٤) أنَّ النَّبيَّ -ﷺ- قالَ: «ذاقَ طعمَ الإيمانِ مَن رضِيَ بِاللهِ ربًّا، وبِالإسلامِ دينًا، وبِمُحَمَّدٍ رسولًا».

قلتُ: ووجهُ كونِ هذهِ الأصولِ مسائلَ القبرِ أنَّ اللهَ يمتَحِنُ العبدَ فِي برزخِهِ بِأصلِ مَا كُلِّفَ بِهِ فِي دُنياهُ؛ فلمَّا كانَ أصلُ التَّكليفِ معرِفَةَ الرَّبِّ والدِّينِ والنَّبيِّ، كانَ السُّؤالُ فِي القبرِ عَنهَا بِعَينِها.

وَفِي حديثِ العبَّاسِ شاهِدٌ بديعٌ، إِذ جمَعَ النَّبيُّ -ﷺ- بينَ الأصولِ الثَّلاثَةِ فِي سياقِ الرِّضا: رضِيَ بِاللهِ ربًّا -وَهُوَ معرِفَةُ الرَّبِّ-، وبِالإسلامِ دينًا -وَهُوَ معرِفَةُ الدِّينِ-، وبِمُحَمَّدٍ رسولًا -وَهُوَ معرِفَةُ النَّبيِّ-؛ فدلَّ أنَّ هذهِ الأصولَ لَا يَكفِي العِلمُ المُجرَّدُ بِها، بَل لَا بُدَّ مِنَ الرِّضا بِها والإذعانِ لَهَا، إِذ بِهِ يُذاقُ طعمُ الإيمانِ.

فمَن كانَ فِي الدُّنيا عالِمًا بِهذهِ الأصولِ، مُعتَقِدًا لَهَا، عامِلًا بِمُقتَضاها، ثبَّتَهُ اللهُ عندَ السُّؤالِ، وألهَمَهُ الجوابَ الصَّحيحَ؛ ومَن عاشَ جاهِلًا بِها، أَو مُعرِضًا عنهَا، أَو مُخالِفًا لِمُقتَضاها، عجَزَ عنِ الجوابِ، فكَانَت فِتنَةُ القبرِ عليهِ شديدَةً.

ولِهذا بدَأَ المُصنِّفُ بِهذا الأُسلوبِ الشَّرطيِّ: «فَإِذَا قيلَ لكَ»؛ تنبيهًا إِلَىٰ أنَّ الأمرَ ليسَ مُجرَّدَ عِلمٍ يُتعَلَّمُ، بَل هُوَ سؤالٌ واقِعٌ لَا محالَةَ، وموقِفٌ لَا بُدَّ أَن يمُرَّ بِهِ كلُّ إنسانٍ.

فالسَّعيدُ مَن أعدَّ لهُ الجوابَ قبلَ أَن يُسأَلَ؛ ومَن لَم يكُن عالِمًا بِهذهِ الثَّلاثِ، عامِلًا بِها، ثابِتًا عَلَيهَا، أُبهِتَ وعجَزَ عنِ الجوابِ، وكانتِ الخَسارَةُ الَّتي لَا تُستَدرَكُ.

لَا يوجَدُ «دورٌ ثانٍ» وَلَا إعادَةُ امتِحانٍ، بَل سؤالٌ واحِدٌ وجوابٌ واحِدٌ: إمَّا نجاةٌ، وإمَّا هلاكٌ.

٢٠٥ - وَقَد جاءَت هذهِ الأصولُ الثَّلاثَةُ مُصَوَّرَةً أتَمَّ تصويرٍ فِي حديثِ البَراءِ بنِ

عازِبٍ الطَّويلِ، رواهُ الإمامُ أحمدُ فِي «المُسنَدِ» (٣٠/ ٥٧٦ ط الرسالة) قالَ: خرَجنا مَعَ رسولِ اللهِ -ﷺ- إِلَىٰ جِنازَةٍ، فجلَسَ رسولُ اللهِ -ﷺ- عَلَىٰ القبرِ، وجلَسنا حولَهُ كأنَّ عَلَىٰ رُؤوسِنا الطَّيرَ، وَهُوَ يُلحَدُ لهُ، فقالَ: «أعوذُ بِاللهِ مِن عذابِ القبرِ» ثلاثَ مرَّاتٍ.

ثمَّ قالَ: «إنَّ المؤمِنَ إِذَا كانَ فِي إقبالٍ مِنَ الآخِرَةِ وانقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا، تنزَّلَت إليهِ الملائكَةُ كأنَّ عَلَىٰ وُجوهِهِمُ الشَّمسَ، مَعَ كلِّ واحِدٍ منهُم كفَنٌ وحَنوطٌ، فجَلَسوا منهُ مَدَّ البَصَرِ، حتَّىٰ إِذَا خرَجَت روحُهُ صلَّىٰ عليهِ كلُّ ملَكٍ بينَ السَّماءِ والأرضِ، وكلُّ ملَكٍ فِي السَّماءِ، وفُتِحَت لهُ أبوابُ السَّماءِ، ليسَ مِن أهلِ بابٍ إلَّا وَهُم يدعونَ اللهَ أَن يُعرَجَ بِرُوحِهِ مِن قِبَلِهِم، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ قَالُوا: ربِّ، عبدُكَ فُلانٌ، فيقولُ: أرجِعوهُ، فإِنِّي عهِدتُ إليهِم أنِّي مِنهَا خلَقتُهُم، وَفِيهَا أُعيدُهُم، وَمِنهَا أُخرِجُهُم تارَةً أُخرىٰ».

قالَ: «فإنَّهُ يسمَعُ خَفقَ نِعالِ أصحابِهِ إِذَا ولَّوا عنهُ، فيأتيهِ آتٍ فيقولُ: مَن ربُّكَ؟ مَا دينُكَ؟ مَن نبيُّكَ؟ فيقولُ: ربِّيَ اللهُ، وديني الإسلامُ، ونبيِّي محمدٌ -ﷺ-.

فيَنتَهِرُهُ فيقولُ: مَن ربُّكَ؟ مَا دينُكَ؟ مَن نبيُّكَ؟ -وَهِيَ آخِرُ فِتنَةٍ تُعرَضُ عَلَىٰ المؤمِنِ- فذلكَ حينَ يقولُ اللهُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [سورة إبراهيم:٢٧]، فيقولُ: ربِّيَ اللهُ، وديني الإسلامُ، ونبيِّي محمدٌ -ﷺ-، فيقولُ لهُ: صدَقتَ».

«ثمَّ يأتيهِ آتٍ حسَنُ الوجهِ، طيِّبُ الرِّيحِ، حسَنُ الثِّيابِ، فيقولُ: أبشِر بِكَرامَةٍ مِنَ اللهِ ونعيمٍ مُقيمٍ، فيقولُ: وأنتَ فبَشَّرَكَ اللهُ بِخَيرٍ، مَن أنتَ؟ فيقولُ: أَنَا عمَلُكَ الصَّالِحُ؛ كنتَ واللهِ سريعًا فِي طاعَةِ اللهِ، بطيئًا عَن معصيَةِ اللهِ، فجزاكَ اللهُ خيرًا.

ثمَّ يُفتَحُ لهُ بابٌ مِنَ الجنَّةِ، وبابٌ مِنَ النَّارِ، فيُقالُ: هَذا كانَ منزِلَكَ لَو عصَيتَ اللهَ، أبدَلَكَ اللهُ بِهِ هَذا.

فَإذَا رَأَىٰ مَا فِي الجنَّةِ قالَ: ربِّ عجِّل قِيامَ السَّاعَةِ، كَيما أرجِعَ إِلَىٰ أَهلِي وَمَالِي، فيُقالُ لهُ: اسكُن».

«وإنَّ الكافِرَ إذَا كانَ فِي انقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا وإقبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نزَلَت عليهِ ملائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ، فانتَزَعوا روحَهُ كَمَا يُنتَزَعُ السَّفُّودُ الكثيرُ الشُّعَبِ مِنَ الصُّوفِ المُبتَلِّ، وتُنزَعُ نفسُهُ مَعَ العُروقِ، فيَلعَنُهُ كلُّ ملَكٍ بينَ السَّماءِ والأرضِ، وكلُّ ملَكٍ فِي السَّماءِ، وتُغلَقُ أبوابُ السَّماءِ، ليسَ مِن أهلِ بابٍ إلَّا وَهُم يدعونَ اللهَ أَن لَا تَعرُجَ روحُهُ مِن قِبَلِهِم.

فَإذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ قَالُوا: ربِّ، فُلانُ بنُ فُلانٍ عبدُكَ.

قالَ: أرجِعوهُ؛ فإنِّي عهِدتُ إليهِم أنِّي مِنهَا خلَقتُهُم، وَفِيهَا أُعيدُهُم، وَمِنهَا أُخرِجُهُم تارَةً أُخرىٰ».

قُلتُ: فهذِهِ الأصولُ الثَّلاثَةُ -معرِفَةُ الرَّبِّ، والدِّينِ، والنَّبِيِّ -ﷺ- هِيَ مدارُ سعادَةِ العبدِ فِي الدُّنيا والبرزخِ والآخِرَةِ؛ بِها يُفتَتَحُ التَّكليفُ، وَعَنهَا يكونُ السُّؤالُ فِي القبرِ، وَعَلَىٰ تحقيقِها مدارُ النَّجاةِ أوِ الهلاكِ.

فحَقيقٌ بِالعَبدِ أَن يُعنىٰ بِمَعرِفَتِها عِلمًا وعمَلًا واعتِقادًا، وَأَن يُعِدَّ لِكُلِّ سؤالٍ جوابَهُ قبلَ أَن يُفاجَأَ بِهِ فِي موطِنٍ لَا تنفَعُ فيهِ معذِرَةٌ وَلَا يُقبَلُ فيهِ استِئنافٌ.

قلتُ: وخِتامُ القولِ أنَّ المُصَنِّفَ -بِحِكمَتِهِ فِي التَّعليمِ- جعَلَ هذهِ الأصولَ الثَّلاثَةَ هِيَ هيكلَ رِسالَتِهِ كلِّها؛ فَمَا تقَدَّمَ مِنَ المسائلِ الأربَعِ والمسائلِ الثَّلاثِ ومِلَّةِ إبراهيمَ

كانَ توطِئَةً لَهَا، وَمَا يَأتِي بعدَها تفصيلٌ لِكُلِّ أصلٍ مِنهَا.

فبَدَأَ بِإجمالِها سؤالًا وجوابًا، ثمَّ أخَذَ يُفصِّلُها أصلًا أصلًا: معرِفَةَ الرَّبِّ، ثمَّ الدِّينِ، ثمَّ النَّبيِّ -ﷺ-؛ لِيَخرُجَ الطَّالِبُ وَقَد أحكَمَ جوابَ مسائلِ القبرِ عِلمًا وبُرهانًا، فيكونَ مِنَ الَّذين يُثَبِّتُهُمُ اللهُ بِالقَولِ الثَّابِتِ.

قال المؤلف -رَحِمَهُ اللهُ-:

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَن رَبُّكَ؟

فَقُل: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّىٰ جَمِيعَ العَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعبُودِي لَيسَ لِي مَعبُودٌ سِوَاهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [سورة الفاتحة:٢].

وَكُلُّ مَا سِوَىٰ اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِن ذَلِكَ العَالَمِ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفتَ رَبَّكَ؟

فَقُل: بِآيَاتِهِ وَمَخلُوقَاتِهِ.

وَمِن آيَاتِهِ: اللَّيلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمسُ، وَالقَمَرُ.

وَمِن مَخلُوقَاتِهِ: السَّمَوَاتُ السَّبعُ وَمَن فِيهِنَّ، وَالأَرَضُونَ السَّبعُ وَمَن فِيهِنَّ، وَمَا بَينَهُمَا.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [سورة فصلت:٣٧].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأعراف:٥٤].

مَعنَىٰ «مَن ربُّكَ؟» وجوابِهِ:

قولُهُ: «فَإِذَا قيلَ لكَ: مَن ربُّكَ؟»؛ أَي: إِذَا وُجِّهَ إليكَ السُّؤالُ فقيلَ لكَ: مَن ربُّكَ؟ و«مَن» هُنَا استِفهاميَّةٌ تُستَعمَلُ لِمَن يعقِلُ.

والمقصودُ بِهذا السُّؤالِ: مَن هُوَ الَّذي خلَقَكَ فأوجَدَكَ مِنَ العدَمِ، وتوَلَّاكَ بِالتَّربيَةِ والتَّدبيرِ؟

ومَن هُوَ معبودُكَ الَّذي تتَوَجَّهُ إليهِ بِالعِبادَةِ، وتُفرِدُهُ بِالطَّاعَةِ والخُضوعِ والإنابَةِ؟

قولُهُ: «فقُل: ربِّيَ اللهُ»؛ أَي: فقُل جوابًا قاطِعًا جازِمًا لَا ترَدُّدَ فيهِ لِهذا السَّائلِ: ربِّيَ اللهُ الَّذي ربَّاني، وربَّىٰ جميعَ العالمينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ معبودي ليسَ لِي معبودٌ سِواهُ.

وَمَعنَىٰ «ربِّيَ اللهُ»: أَي ربِّي هُوَ اللهُ وحدَهُ، الَّذي أوجَدَني مِنَ العدَمِ وَلَم أكُن شيئًا مذكورًا، فَهُوَ خالِقي وموجِدي، والمُتَصَرِّفُ فِي شَأنِي كلِّهِ؛ فَهُوَ ربِّي وربُّ كلِّ شيءٍ، ومليكُهُ، وخالِقُهُ، فقولُهُ: «مَن ربُّكَ؟ فقُل: ربِّيَ اللهُ» يُقَرِّرُ توحيدَ الرُّبوبيَّةِ؛ فَهُوَ الَّذي ربَّاني وربَّىٰ جميعَ العالمينَ بِنِعمَتِهِ، وَهُوَ مَعبُودِي لَا معبودَ لِي سِواهُ.

قلتُ: ووجهُ الجمعِ فِي الجوابِ بينَ «ربَّاني» و«هُوَ معبودي» أنَّ المُصَنِّفَ نبَّهَ عَلَىٰ أنَّ الإقرارَ بِالرُّبوبيَّةِ مُستَلزِمٌ لِإفرادِ المعبودِ بالأُلوهيَّةِ؛ فَلَم يكتَفِ بِقولِهِ «ربِّيَ اللهُ» -وَهُوَ إقرارٌ بِالرُّبوبيَّةِ-، بَل أردَفَهُ بِقولِهِ «وَهُوَ معبودي ليسَ لِي معبودٌ سِواهُ» -وَهُوَ إفرادٌ بِالأُلوهيَّةِ-؛ فأشارَ بِذلكَ إِلَىٰ أنَّ السُّؤالَ فِي القبرِ «مَن ربُّكَ؟» لَا يُرادُ بِهِ مُجَرَّدُ الإقرارِ بِالخالِقِ، إِذِ المُشرِكونَ يُقِرُّونَ بِهِ، بَل يُرادُ بِهِ الإقرارُ المُستَلزِمُ لِإفرادِ اللهِ بِالعِبادَةِ.

قلتُ: وتأمَّل لِمَ كَانَ أوَّلَ مَا يُفتَتَحُ بِهِ امتحانُ القبرِ السؤالُ عَن الربِّ، لَا عَن النبيِّ وَلَا عَن الدِّينِ؛ فإنَّ معرفةَ الربِّ هِيَ الأصلُ الَّذِي تَنبَنِي عَلَيهِ المعرفتانِ بعدَه، إِذ لَا

يُعرَفُ نبيٌّ إلَّا بوصفِه رسولًا مِنَ الربِّ، وَلَا يُعرَفُ دينٌ إلَّا بوصفِه شرعًا مِنَ الربِّ، فمَن صحَّ عندَه الجوابُ عَن الأوَّلِ انفتحَ لَهُ مَا بعدَه، ومَن زاغَ فِي معرفةِ ربِّه لَم يَنفعُهُ مَا يُجيبُ بِهِ فِي النبيِّ والدِّينِ، وَلِذَلِكَ جاءَ ترتيبُ القبرِ عَلَىٰ ترتيبِ الغايةِ الَّتِي خُلِقَ لَهَا العبدُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:٥٦].

وَفِي هَذَا ردٌّ عَلَىٰ مَن ظنَّ أنَّ التوحيدَ هُوَ الإقرارُ بأنَّ اللهَ خالقٌ رازقٌ مدبِّرٌ؛ فإنَّ هَذَا القدرَ أقرَّ بِهِ مشركو العربِ، وَمَا أدخلَهم فِي الإسلامِ، بَل قاتَلَهم النبيُّ -ﷺ- وَهُم مُقِرُّونَ بِهِ.

فالربوبيةُ العامَّةُ — وَهِيَ الخلقُ والرزقُ والإحياءُ والإماتةُ والتدبيرُ — حُجَّةٌ عَلَىٰ الخلقِ لَا غايةٌ يُكتفَىٰ بِهَا؛ فإنَّ اللهَ احتجَّ بإقرارِهم بِهَا عَلَيهِم فِي إفرادِه بالعبادةِ، كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١﴾ [سورة يونس:٣١].

فالامتحانُ فِي القبرِ إنَّما هُوَ عَن الربوبيةِ الخاصَّةِ الَّتِي هِيَ العبادةُ، لَا عمَّا أقرَّ بِهِ المخالفُ والموافقُ».

مَعنَىٰ «الَّذي ربَّاني»:

قولُهُ: «الَّذي ربَّاني»؛ أَي: تولَّاني بالتَّربيةِ.

والتَّربيةُ مَعنَاهَا: التَّنشِئَةُ شيئًا فشيئًا فِي جميعِ أطوارِ الحياةِ، ظاهِرًا وباطِنًا، بدَنًا وروحًا، خلقًا وهدًى، ورِزقًا وتدبيرًا.

ربَّاني بِالصِّحَّةِ، وربَّاني بِالغِذاءِ، وربَّاني بِالمالِ والمسكَنِ، وربَّاني بِالحرَكةِ والقِيامِ

والقُعودِ، وربَّاني أعظَمَ تربيةٍ إذ هداني إِلَىٰ الإسلامِ، وساقَني إِلَىٰ هَذَا الطَّريقِ المُبارَكِ، ويسَّرَهُ لِي، وجعَلَني مِن أهلِهِ؛ والتَّربيةُ أنواعٌ كثيرةٌ: مِنهَا تربيةُ الأجسامِ، وتربيَةُ العقلِ، وتربيَةُ الفِكرِ، كلُّ هَذَا مِنَ اللهِ بِهِ عَلَىٰ ابنِ آدَمَ.

قلتُ: وأعظَمُ هذهِ التَّربيَةِ تربيَةُ الهِدايَةِ إِلَىٰ الإسلامِ، إِذ هِيَ التَّربيَةُ الخاصَّةُ الَّتي ينفَرِدُ بِها أولياؤُهُ، وبِها تحصُلُ السَّعادَةُ الأبَدِيَّةُ؛ فجمَعَ المُصَنِّفُ بينَ التَّربيَةِ العامَّةِ (فِي البدَنِ والرِّزقِ) والخاصَّةِ (فِي الدِّينِ والهُدىٰ).

رَبٌّ يُرَبِّــي العَــالَمينَ بِبِــرِّهِ ... ونَوَالُــهُ أبَــدًا إِلَــيهِم وَاصِــلُ
تَعصِـيهِ وهُـوَ يسُـوقُ نَحـوَكَ دَائِمًـا ... مَـا لَا تَكُـونُ لبَعضِـهِ تَسـتَأهِلُ (١)

مَعنَىٰ «وربَّىٰ جميعَ العالمينَ» و«بِنِعَمِهِ»:

قولُهُ: «وربَّىٰ جميعَ العالمينَ»؛ هَذَا تعميمٌ بعدَ تخصيصٍ، إِذ بدَأَ بِنَفسِهِ ثُمَّ عمَّمَ لِجميعِ العالمينَ، لِأَنَّ الأقرَبَ إِلَىٰ الإنسانِ أوقَعُ فِي نفسِهِ دلالَةً عَلَىٰ خالِقِهِ.

أَي: لَم يختَصَّني وحدي بِالتَّربيَةِ، بَل هُوَ ربُّ جميعِ العالمينَ.

والعالَمونَ: كلُّ مَا سِوىٰ اللهِ، مِنَ الإنسِ والجِنِّ والملائكَةِ وسائرِ المخلوقاتِ.

فاللهُ هُوَ الخالِقُ الرَّازِقُ المُدَبِّرُ، وَهُوَ ربُّ كلِّ شيءٍ، لَا يخرُجُ شيءٌ عَن رُبوبيَّتِهِ.

قولُهُ: «بِنِعَمِهِ»؛ الباءُ سببيَّةٌ، يَعنِي أنَّ التَّربيَةَ حصَلَت بِسَبَبِ نِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ.

أَي: أنَّ تربيتَهُ لِعبادِهِ قائمَةٌ عَلَىٰ النِّعَمِ، الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ، الدِّينيَّةِ والدُّنيَويَّةِ.

وَهِيَ بِلَفظِ الجمعِ «نِعَمِهِ» تعُمُّ جميعَ النِّعَمِ، كَمَا قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [سورة النحل:٥٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [سورة إبراهيم:٣٤].

---

(١) تعظيم الله -جَلَّ جَلَالُهُ- «تأملات وقصائد» (ص١٧٩).

مَعنَىٰ «وَهُوَ معبودي ليسَ لِي معبودٌ سِواهُ»:

قولُهُ: «وَهُوَ معبودي»؛ عرَّفَ طرَفَي الجملَةِ -وَهُمَا المُبتَدَأُ والخبَرُ-، والتَّعريفُ يُفيدُ الحصرَ، أَي: وَهُوَ معبودي لَا غيرُهُ.

أَي: هُوَ وحدَهُ الَّذي أتَوَجَّهُ إليهِ بِالعِبادَةِ، وأُفرِدُهُ بِجميعِ أنواعِها: مِن دُعاءٍ، وخوفٍ، ورجاءٍ، ومحَبَّةٍ، وذبحٍ، ونذرٍ، واستِعانَةٍ، وغيرِ ذلكَ.

قولُهُ: «ليسَ لِي معبودٌ سِواهُ»؛ أَي: لَا أعبُدُ غيرَهُ، وَلَا أتَوَجَّهُ بِعِبادَةٍ لِغيرِهِ، وَلَا أعتَقِدُ أنَّ أحَدًا سِواهُ يستَحِقُّ شيئًا مِنَ العِبادَةِ، كائنًا مَن كانَ.

وَهَذَا يتَضَمَّنُ أمرَينِ عظيمَينِ: إفرادَ اللهِ بِالعِبادَةِ، ونفيَ العِبادَةِ عمَّا سِواهُ؛ فَلَا بُدَّ لِلعَبدِ أَن يعتَقِدَ اعتِقادًا جازِمًا أنَّ كلَّ مَا سِوىٰ اللهِ لَا يستَحِقُّ العِبادَةَ، وأنَّ صرفَ شيءٍ مِنهَا لِغيرِ اللهِ شِركٌ باطِلٌ.

وأكَّدَ هَذَا الحصرَ بِقولِهِ: «ليسَ لِي معبودٌ سِواهُ»، وفيهِ جمعٌ بينَ النَّفيِ والإثباتِ، وَهُمَا ركنا شهادَةِ التَّوحيدِ الَّتي لَا تتِمُّ إلَّا بِهِما معًا: إثباتُ العِبادَةِ لِلَّهِ، ونفيُها عمَّا سِواهُ.

قلتُ: ووجهُ تضَمُّنِ هذهِ الجملَةِ لِركنَيِ الشَّهادَةِ أنَّ قولَهُ «هُوَ معبودي» إثباتٌ يُقابِلُ «إلَّا اللهُ»، وقولَهُ «ليسَ لِي معبودٌ سِواهُ» نفيٌ يُقابِلُ «لَا إلَهَ»؛ فجاءَ جوابُ المُصَنِّفِ عَلَىٰ نسَقِ كلِمَةِ التَّوحيدِ نفسِها، مُتَضَمِّنًا نفيَها وإثباتَها.

وَفِي هَذَا أنَّ توحيدَ الرُّبوبيَّةِ -وَإِن كانَ هُوَ المسؤولَ عنهُ ظاهِرًا فِي «مَن ربُّكَ؟»- لَا يُقبَلُ مُجَرَّدًا، بَل لَا بُدَّ أَن يقتَرِنَ بِتَوحيدِ الأُلوهيَّةِ؛ ولِذا ساقَ المُصَنِّفُ الجوابَ مُتَضَمِّنًا الأمرَينِ معًا.

مسألة: شرحُ الدّليلِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [سورة الفاتحة:٢].

قالَ المُصَنِّفُ: والدَّليلُ قولُهُ تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾

الألِفُ واللَّامُ فِي كلِمَةِ «الحمدِ» هِيَ ألِفُ ولامُ الاستِغراقِ؛ أَي: استِغراقُ جميعِ أنواعِ الحمدِ وأفرادِهِ، فتُفيدُ استِغراقَ أنواعِ الحمدِ؛ فجميعُ المحامِدِ عَلَىٰ الإطلاقِ - ظاهِرَةً وباطِنَةً، دينيَّةً ودُنيويَّةً- هِيَ خالِصَةٌ لِلَّهِ مِلكًا واستِحقاقًا، فَهُوَ المُستَحِقُّ لِلحَمدِ المُطلَقِ، والحمدُ هُوَ وصفُ المحمودِ بِالكَمالِ مَعَ المحَبَّةِ والتَّعظيمِ؛ فَلَا يكونُ حمدًا مُجَرَّدُ ثناءٍ بِلِسانٍ دونَ قلبٍ.

واللهُ يُحمَدُ عَلَىٰ أمرَينِ عظيمَينِ:

الأَوَّلُ: كمالُ صِفاتِهِ؛ فصِفاتُهُ كلُّها كمالٌ مُطلَقٌ، يُحمَدُ عَلَىٰ عِلمِهِ، وقُدرَتِهِ، وحِكمَتِهِ، ورحمَتِهِ، وعِزَّتِهِ، وسائرِ أسمائهِ وصِفاتِهِ.

الثَّاني: جزيلُ نِعَمِهِ وإحسانِهِ؛ فكلُّ نِعمَةٍ فِي الوُجودِ فَهِيَ مِنَ اللهِ وحدَهُ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [سورة النحل:٥٣].

قلتُ: ووجهُ كونِ الحمدِ يجمَعُ الأمرَينِ -الكمالَ والإنعامَ- أنَّ المحبوبَ يُحمَدُ إمَّا لِذاتِهِ وصِفاتِهِ، وإمَّا لِإحسانِهِ وعطائهِ؛ واللهُ سُبحانَهُ كامِلٌ فِي ذاتِهِ وصِفاتِهِ، مُنعِمٌ عَلَىٰ خلقِهِ بِجميعِ النِّعَمِ، فاجتَمَعَ لهُ موجِبا الحمدِ عَلَىٰ أتَمِّ الوُجوهِ.

فمَن حمِدَهُ لِكَمالِهِ فقَد حمِدَهُ عَلَىٰ مَا هُوَ أهلُهُ، ومَن حمِدَهُ لِإنعامِهِ فقَد حمِدَهُ عَلَىٰ إحسانِهِ؛ ولِذا استَحَقَّ الحمدَ المُطلَقَ الَّذي لَا يستَحِقُّهُ سِواهُ.

مسألة: معنى اللّامِ في «لِلَّهِ»:

قولُهُ: «لِلَّهِ»؛ اللَّامُ تُفيدُ الاستِحقاقَ والاختِصاصَ معًا.

فلامُ الاستِحقاقِ: أَي أنَّ الحمدَ الكامِلَ حقٌّ لِلَّهِ، فكلُّ أنواعِ الحمدِ وجميعُ المحامِدِ مُستَحَقَّةٌ لِلَّهِ.

ولامُ الاختِصاصِ: أَي أَنَّهُ مُختَصٌّ بهِ وحدَهُ.[1]

٢٠٦- **وقالَ ابنُ القيِّمِ فِي «النُّونيَّةِ» (المتن/ ١٧٦ ط عطاءات العلم):**

وَهُوَ الحميدُ فكلُّ حمدٍ واقِعٍ ... أَو كانَ مفروضًا مدَىٰ
مِلأَ الوُجودَ جميعَهُ ونظيرَهُ ... مِن غيرِ مَا عَدٍّ وَلَا حُسبانِ
هُوَ أهلُهُ سُبحانَهُ وبِحَمدِهِ ... كلُّ المحامِدِ وصفُ ذِي

قلتُ: كلَّ حمدٍ فِي الوُجودِ -ماضيهِ ومُستقبَلِهِ- فاللهُ أهلُهُ ومُستَحِقُّهُ؛ إذِ المحامِدُ كلُّها راجِعَةٌ إِلَىٰ كمالِهِ وإحسانِهِ.

مسألة: معنى «ربِّ العالمينَ»

قولُهُ: «ربِّ العالمينَ»؛ أَي: هُوَ الرَّبُّ الخالِقُ الرَّازِقُ المُدَبِّرُ لِجميعِ العالمينَ.

٢٠٧- **وَرَوَىٰ ابنُ جريرٍ (١/ ١٤٥) وابنُ أَبِي حاتِمٍ (١/ ٢٧) عنِ ابنِ عبَّاسٍ -مِن طريقِ أَبِي رَوقٍ عنِ الضَّحَّاكِ- قالَ:** قالَ جبريلُ لِمُحَمَّدٍ -ﷺ-: «يَا محمدُ، قُل: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»، قالَ ابنُ عبَّاسٍ: يقولُ: قُلِ الحمدُ لِلَّهِ الَّذي لهُ الخلقُ كلُّهُ، السَّماواتُ كلُّهُنَّ ومَن فيهِنَّ، والأَرَضونَ كلُّهُنَّ ومَن فيهِنَّ وَمَا بينَهُنَّ، ممَّا يُعلَمُ وممَّا لَا يُعلَمُ؛ يقولُ: اعلَم يَا محمدُ أنَّ ربَّكَ هَذَا لَا يُشبِهُهُ شيءٌ.

٢٠٨- **وَرَوَىٰ ابنُ أَبِي حاتِمٍ (١/ ٢٧) وأبو الشَّيخِ (٩٤٩) عَن تُبيعٍ الحِميَرِيِّ -مِن طريقِ مُعَتِّبِ بنِ سُمَيٍّ- قالَ:** العالَمونَ ألفُ أُمَّةٍ؛ فستُّمائةٍ فِي البحرِ، وأربعُمائةٍ فِي

---

(١) **قالَ فِي «مُغني اللَّبيبِ» (ص٢٧٥):** «وللَّامِ الجارَّةِ اثنانِ وعِشرونَ معنًىٰ: أَحَدُها الاستِحقاقُ، وهي الواقِعَةُ بينَ معنًىٰ وذاتٍ، نحوُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [سورة الفاتحة:٢]».

البرّ.

٢٠٩ - **وَرَوَىٰ ابنُ جريرٍ (١/ ١٤٧) وابنُ أَبِي حاتِمٍ (١/ ٢٧) عَن أَبِي العاليَةِ -مِن طريقِ الرَّبيعِ بنِ أنسٍ- فِي قولِهِ** ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **قالَ:** الإنسُ عالَمٌ، والجِنُّ عالَمٌ، وَمَا سِوىٰ ذلكَ ثمانيَةَ عشَرَ ألفَ عالَمٍ مِنَ الملائكَةِ، ولِلأرضِ أربعُ زوايا، فِي كلِّ زاويَةٍ ثلاثَةُ آلافِ عالَمٍ وخمسُمائةِ عالَمٍ خلَقَهُم لِعِبادَتِهِ.

فجَمَعَتِ الآيَةُ بينَ عُمومِ رُبوبيَّتِهِ وكمالِ استِحقاقِهِ لِلحَمدِ؛ فدلَّ ذلكَ دلالَةً بيِّنَةً عَلَىٰ أنَّهُ المعبودُ الحقُّ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ.

يَعنِي: جميعَ المحامِدِ لِلَّهِ مِلكًا واستِحقاقًا، فَهُوَ المُستَحِقُّ لِلحَمدِ المُطلَقِ؛ وأمَّا غيرُهُ فيُحمَدُ عَلَىٰ قدرِ مَا يفعَلُ مِنَ الجميلِ والخيرِ، وأمَّا الحمدُ المُطلَقُ الكامِلُ فلِلَّهِ؛ لِأنَّ النِّعَمَ كلَّها منهُ.

وحتَّىٰ المخلوقُ إِذَا أسدىٰ إليكَ شيئًا مِنَ الإحسانِ فإنَّما هُوَ اللهُ الَّذي سخَّرَ لكَ هَذَا المخلوقَ، وَهُوَ الَّذي مكَّنَهُ مِن أَن يُحسِنَ إليكَ؛ فالحمدُ لِلَّهِ.

قلتُ: ووجهُ استِدلالِ المُصَنِّفِ بِآيَةِ الحمدِ عَلَىٰ معرِفَةِ الرَّبِّ أنَّها جمَعَت بينَ مقامَينِ: عُمومِ الرُّبوبيَّةِ فِي قولِهِ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، واستِحقاقِ الحمدِ فِي قولِهِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ فمَن كانَ ربًّا لِكُلِّ شيءٍ، خالِقًا رازِقًا مُدبِّرًا، فَهُوَ المُستَحِقُّ لِكُلِّ حمدٍ، وَهُوَ المعبودُ الحقُّ دونَ مَا سِواهُ.

فالآيَةُ حُجَّةٌ عَلَىٰ توحيدِ الأُلوهيَّةِ بِما تضَمَّنَتهُ مِن توحيدِ الرُّبوبيَّةِ؛ إذ لَا يستَحِقُّ العِبادَةَ إلَّا مَن لهُ الخلقُ والرِّزقُ والتَّدبيرُ والحمدُ.

مسألة: تعريفُ توحيدِ الرُّبوبيّةِ وأدِلّتُهُ:

توحيدُ الرُّبوبيَّةِ هُوَ: الاعتِقادُ والإقرارُ بِأنَّ اللهَ ربُّ كلِّ شيءٍ، ومالِكُهُ، وخالِقُهُ،

ورازِقُهُ، والمُحيي والمُميتُ، والنَّافِعُ الضَّارُّ، والمُتَفَرِّدُ بِإجابَةِ الدُّعاءِ، لهُ الأمرُ كلُّهُ، وبِيَدِهِ الخيرُ كلُّهُ، لَا شريكَ لهُ فِي ذلكَ.

فَهُوَ إفرادُ اللهِ بِأفعالِهِ الَّتي لَا تليقُ إلَّا بهِ، وَلَا تصلُحُ لِمَخلوقٍ مربوبٍ مملوكٍ وكل مَا سواه فَهُوَ كَذَلِكَ.

ومِن أدِلَّتِهِ: قولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقولُهُ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وقولُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة يس:٨٢]، وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات:٥٨]، وقولُهُ: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [سورة يونس:٣١].

ومِن أسمائِهِ: توحيدُ أفعالِ الرَّبِّ؛ لِأنَّ الرُّبوبيَّةَ حقيقَتُها أفعالُ الرَّبِّ.

والتَّوحيدُ الاعتِقاديُّ؛ لِأنَّ محَلَّهُ الاعتِقادُ، فِي مُقابَلَةِ التَّوحيدِ العمَليِّ الَّذي هُوَ توحيدُ الأُلوهيَّةِ، وتوحيدُ المعرِفَةِ والإثباتِ؛ لِأنَّهُ مُتعَلِّقٌ بِمَعرِفَةِ اللهِ وإثباتِ الكمالِ لهُ.

قلتُ: ووجهُ تسميَةِ توحيدِ الرُّبوبيَّةِ بِهذهِ الأسماءِ أنَّها أُخِذَت مِن حقيقَتِهِ ومتعَلَّقِهِ؛ فلمَّا كانَ مدارُهُ عَلَىٰ أفعالِ الرَّبِّ (الخلقِ والرِّزقِ والتَّدبيرِ) سُمِّيَ توحيدَ الأفعالِ، ولمَّا كانَ محَلُّهُ القلبَ اعتِقادًا سُمِّيَ التَّوحيدَ الاعتِقاديَّ، ولمَّا كانَ مضمونُهُ معرِفَةَ الرَّبِّ وإثباتَ كمالِهِ سُمِّيَ توحيدَ المعرِفَةِ والإثباتِ.

وهذهِ الأسماءُ يُقابِلُها فِي توحيدِ الأُلوهيَّةِ: توحيدُ أفعالِ العبدِ، والتَّوحيدُ العمَليُّ، وتوحيدُ القصدِ والطَّلَبِ؛ فبَانَ أنَّ التَّوحيدَ نوعانِ: توحيدٌ فِي المعرِفَةِ والإثباتِ، وتوحيدٌ فِي القصدِ والطَّلَبِ.

مسألة: إطلاقُ لفظِ «الرَّبِّ»:

كلِمَةُ «الرَّبِّ» معرِفَةً بالألِفِ واللَّامِ لَا تُطلَقُ إلَّا عَلَىٰ اللهِ؛ فالرَّبُّ هُوَ اللهُ، هُوَ ربُّ كلِّ شيءٍ، أَي مالِكُهُ، ولهُ الرُّبوبيَّةُ عَلَىٰ جميعِ الخلقِ لَا شريكَ لهُ، وَهُوَ ربُّ الأربابِ، ومالِكُ المُلوكِ والأملاكِ.

وذلكَ لِأنَّ دُخولَ الألِفِ واللَّامِ عَلَىٰ كلِمَةِ «ربٍّ» يدُلُّ عَلَىٰ العُمومِ، فَهُوَ ربُّ كلِّ شيءٍ، بِخِلافِ مَا إِذَا خُصِّصَت بِشيءٍ، كَرَبِّ الدَّارِ ونحوِ ذلكَ.

و«الرَّبُّ» اسمٌ مِن أسماءِ اللهِ، وَلَا يُطلَقُ هَذَا الاسمُ غيرَ مُضافٍ إلَّا عَلَىٰ اللهِ؛ وَإِذَا أُطلِقَ عَلَىٰ غيرِهِ أُضيفَ، فقيلَ: ربُّ كَذَا.

وَقَد جاءَ فِي الشِّعرِ مُطلَقًا عَلَىٰ غيرِ اللهِ، وليسَ بِالكَثيرِ، وَلَم يُذكَر فِي غيرِ الشِّعرِ، ولعَلَّهُ مِنَ التَّجوُّزِ فِي الشِّعرِ الَّذي تَتَسامَحُ فيهِ العرَبُ؛ إِذ لَم يأتِ فِي منثورِ كلامِها، وَلَا سيَّما أَنَّهُ لَم يُسمَع إلَّا مِن شاعِرٍ واحِدٍ، والشَّرعُ حاكِمٌ عَلَىٰ اللُّغَةِ ومُخَصِّصٌ لِمَعانيها.

٢١٠ - **قالَ أَبُو البَقاءِ العُكبَريُّ:** «والرَّبُّ: الصَّاحِبُ المالِكُ، وَلَا يُقالُ لِغيرِ اللهِ إلَّا بِالإضافَةِ، لَا يُقالُ: زيدٌ الرَّبُّ، وَقَد قالوهُ فِي الجاهِلِيَّةِ لِلمَلِكِ، قالَ الحارِثُ بنُ حِلِّزَةَ:

وَهُوَ الرَّبُّ والشَّهيدُ عَلَىٰ يَو ... مِ الحِيارَينِ والبَلاءُ بَلاءُ

فكلِمَةُ «الرَّبِّ» عندَ الإطلاقِ والتَّعريفِ بالألِفِ واللَّامِ، فالأصلُ فِي الاستِعمالِ الشَّرعِيِّ واللُّغَوِيِّ الغالِبِ: أَنَّهُ لَا يُطلَقُ معرَّفًا إلَّا عَلَىٰ اللهِ؛ لِدلالَتِهِ عَلَىٰ العُمومِ والشُّمولِ، أَي: هُوَ ربُّ كلِّ شيءٍ عَلَىٰ الحقيقَةِ.

أَمَّا إِذَا أُضيفَ فيُقالُ: «ربُّ الدَّارِ»، «ربُّ الإبِلِ»؛ فيَجوزُ إطلاقُهُ عَلَىٰ غيرِ اللهِ إضافَةً، بِمَعنىٰ: المالِكِ أوِ القائمِ عَلَىٰ الشَّيءِ وسيِّدِهِ فِي نِطاقٍ مخصوصٍ.

قلتُ: ووجهُ اختِصاصِ «الرَّبِّ» معرَّفًا بِاللهِ أنَّ التَّعريفَ بِالألِفِ واللَّامِ يُفيدُ العُمومَ

والاستِغراقَ، فَلَا يكونُ ربًّا لِكُلِّ شيءٍ إلَّا اللهُ؛ وأمَّا المخلوقُ فرُبوبيَّتُهُ مُقيَّدَةٌ مخصوصَةٌ (كرَبِّ الدَّارِ)، فَلَا يصِحُّ إطلاقُها عليهِ إلَّا بالإضافَةِ.

مسألة: معاني «الرَّبِّ» عندَ أهلِ اللُّغَةِ:

٢١١ - **قالَ ابنُ الأنباريِّ**: إنَّ «الرَّبَّ» يُطلَقُ عَلَىٰ ثلاثَةِ معانٍ: المالِكِ، والسَّيِّدِ المُطاعِ، والمُصلِحِ المُدَبِّرِ.

وذكَرَ ابنُ فارِسٍ أنَّ مادَّةَ «ربَّ» فِي العرَبيَّةِ ترجعُ إِلَىٰ أصولٍ ثلاثَةٍ مُتَقارِبَةِ الْمَعنَىٰ، وَهِيَ: إصلاحُ الشَّيءِ والقِيامُ عليهِ، ولُزومُ الشَّيءِ والإقامَةُ عليهِ (وَهُوَ مُناسِبٌ لِلأصلِ الأوَّلِ)، وضمُّ الشَّيءِ إِلَىٰ الشَّيءِ (وَهُوَ أيضًا مُناسِبٌ لِما قبلَهُ).

ومآلُ هذهِ الأصولِ إِلَىٰ معنًىٰ جامِعٍ هُوَ: التَّربيَةُ والإصلاحُ مَعَ القِيامِ والرِّعايَةِ.

فالأوَّلُ: الرَّبُّ بِمعنىٰ المالِكِ؛ فَهُوَ المالِكُ سُبحانَهُ، قالَ تعالَىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الملك:١]، وقالَ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة المائدة:١٧]، ومِن شواهِدِهِ حديثُ ضالَّةِ الإبِلِ: «حتَّىٰ يلقاها ربُّها».

والثَّاني: الرَّبُّ بِمَعنىٰ السَّيِّدِ المُطاعِ الآمِرِ؛ أَي المُشَرِّعِ الحاكِمِ، ذِي الأمرِ والتَّصرُّفِ، والمُحَلِّلِ والمُحَرِّمِ، ومِن شواهِدِهِ حديثُ أشراطِ السَّاعَةِ: «أَن تلِدَ الأمَةُ ربَّتَها»، أَي سيِّدَتَها.

والثَّالثُ: الرَّبُّ بِمعنىٰ المُدبِّرِ المُربِّي المُصلِحِ؛ وَهُوَ لُبُّ مَعنَىٰ التَّربيَةِ: القِيامُ عَلَىٰ الشَّيءِ سياسَةً ورِعايَةً وتدبيرًا، قالَ تَعالَىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة السجدة:٥]، ويتفَرَّعُ عنهُ صُوَرٌ كُبرىٰ مِنَ التَّدبيرِ: كتَدبيرِ الكونِ، والقدَرِ، ثمَّ البَعثِ والجزاءِ؛ وَهَذَا الْمَعنَىٰ يدُلُّ عليهِ قولُهُ تَعالَىٰ فِي جوابِ مُوسَىٰ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا

﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [سورة طه:٤٩-٥٠].

٢١٢- **ومِن أجمَعِ التَّعاريفِ فِي مَعنَىٰ «الرَّبِّ» مَا قالَهُ الطَّبَريُّ فِي «تفسيرِهِ» (١/ ١٤٣):** «السَّيِّدُ الَّذي لَا شِبهَ لهُ وَلَا مِثلَ فِي مِثلِ سُؤدُدِهِ، والمُصلحُ أمرَ خلقِهِ بِما أسبَغَ عليهِم مِن نِعَمِهِ، والمالِكُ الَّذي لهُ الخلقُ والأمرُ».

٢١٣- **وقالَ ابنُ تيميَّةَ فِي «مجموعِ الفتاوىٰ» (١/ ٢٢):** «والرَّبُّ هُوَ الَّذي يُرَبِّي عبدَهُ فيُعطيهِ خلقَهُ ثمَّ يهديهِ إِلَىٰ جميعِ أحوالِهِ مِنَ العِبادَةِ وغيرِها».

قلتُ: ووجهُ رجوعِ معاني «الرَّبِّ» الثَّلاثَةِ إِلَىٰ أصلٍ جامعٍ أنَّ المالِكَ والسَّيِّدَ المُطاعَ والمُدَبِّرَ كلُّها تجتَمعُ فِي مَعنَىٰ القِيامِ عَلَىٰ المربوبِ بِالرِّعايَةِ والتَّصَرُّفِ؛ فالمالِكُ يتصَرَّفُ فِي مِلكِهِ، والسَّيِّدُ يأمُرُ عبدَهُ، والمُدَبِّرُ يُصلِحُ شأنَهُ.

واللهُ سُبحانَهُ جمَعَ هذهِ الْمَعَانِي كلَّها عَلَىٰ الكمالِ المُطلَقِ: فَهُوَ المالِكُ لِكُلِّ شيءٍ، السَّيِّدُ المُطاعُ بِحَقٍّ، المُدَبِّرُ لِجميعِ الأمورِ.

مسألة: أفعالُ الرُّبوبيّةِ، ومرجعُها إلى التّدبيرِ:

مِن أفعالِ الرُّبوبِيَّةِ: الخلقُ، والمُلكُ، والتَّدبيرُ، والتَّصرُّفُ فِي الأمرِ، والنَّفعُ والضَّرُّ، والإحياءُ والإماتَةُ، والبَعثُ والحِسابُ، وعِلمُ الغيبِ، والتَّصويرُ والإبراءُ، والرِّزقُ، والنَّصرُ، والإنعامُ، والإغناءُ، والمُعافاةُ، وإنزالُ المطَرِ، والقَضاءُ والقدَرُ، والهُدىٰ والإضلالُ، والأمرُ والنَّهيُ، والحُكمُ والتَّشريعُ، وسَنُّ الدِّينِ، والتَّحليلُ والتَّحريمُ، وغيرُ ذلكَ مِن أفعالِ اللهِ الَّتي لَا يُحصيها إلَّا هُوَ.

ومَرَدُّ مُعظَمِ هذهِ الأفعالِ إِلَىٰ صِفَةٍ جامِعَةٍ هِيَ: التَّدبيرُ.

قلتُ: ووجهُ رجوعِ أفعالِ الرُّبوبيَّةِ إِلَىٰ التَّدبيرِ أنَّ التَّدبيرَ هُوَ القِيامُ عَلَىٰ الشَّيءِ بِما

يُصلِحُهُ؛ فالخلقُ تدبيرٌ فِي الإيجادِ، والرِّزقُ تدبيرٌ فِي الإمدادِ، والإحياءُ والإماتَةُ تدبيرٌ فِي الآجالِ، والحُكمُ والتَّشريعُ تدبيرٌ فِي الأمرِ الدِّينيِّ.

فجَميعُ أفعالِهِ سُبحانَهُ راجِعَةٌ إِلَىٰ تدبيرِهِ لِخَلقِهِ، الكونيِّ منهُ والشَّرعيِّ؛ ولِهذا كانَ مِن أعظَمِ مَا يُحتجُّ بِهِ عَلَىٰ المُشرِكينَ: أَنَّهُم أقرُّوا بِأنَّ اللهَ هُوَ المُدَبِّرُ، فلزِمَهُم أَن يُفرِدوهُ بِالعِبادَةِ، إِذِ المُدَبِّرُ وحدَهُ هُوَ المُستَحِقُّ لِأن يُعبَدَ.

مسألة: أنواعُ رُبوبيّةِ اللهِ تعالى:

رُبوبيَّةُ اللهِ نوعانِ:

الأوَّلُ: رُبوبيَّةٌ عامَّةٌ؛ تشمَلُ جميعَ الخلقِ: خلقًا، ورِزقًا، ومُلكًا، وتدبيرًا.

ومِن شواهِدِها: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [سورة الفاتحة:٢]، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [سورة الأعراف:٥٤].

الثَّاني: رُبوبيَّةٌ خاصَّةٌ؛ وَهِيَ لِأوليائهِ، وتتَضمَّنُ التَّوفيقَ والهِدايَةَ والنَّصرَ والحِفظَ.

ومِن شواهِدِها: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [سورة الضحى:٣]، وحقيقَتُها: تربيَةُ التَّوفيقِ لِكُلِّ خيرٍ، والعِصمَةُ مِن كلِّ شرٍّ.

قلتُ: فَالأولَى مُقتَضىٰ رُبوبيَّتِهِ العامَّةِ، والثَّانيَةُ مُقتَضىٰ رحمَتِهِ الخاصَّةِ بِالمؤمِنينَ؛ ولِهذا كانَ إضافَةُ الرَّبِّ إِلَىٰ النَّبيِّ -ﷺ- فِي ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ [سورة الضحى:٣] إضافَةَ تشريفٍ واختِصاصٍ، تدُلُّ عَلَىٰ عِنايَةٍ خاصَّةٍ بِهِ زائدَةٍ عَلَىٰ الرُّبوبيَّةِ العامَّةِ.

مسألَة: مُخالَفاتُ الرُّبوبيّةِ والقوادِحُ فيها

ممَّا يُؤَكِّدُ ضرورَةَ معرِفَةِ قوادِحِ الرُّبوبيَّةِ ونواقِضِها ظُهورُ نواقِضِ توحيدِ الرُّبوبيَّةِ فِي العصرِ الحديثِ ظُهورًا غيرَ مسبوقٍ، لَا سيَّما فِي صُوَرِ الإلحادِ، والعِلمانيَّةِ، والعقلانيَّةِ المُتَطَرِّفَةِ، والفلسَفاتِ المادِّيَّةِ، والمدارِسِ الفِكريَّةِ الحديثَةِ؛ ونواقِضُ

الرُّبوبيَّةِ المُعاصِرةُ أخطَرُ مِن كثيرٍ مِن صُوَرِ الشِّركِ القديمَةِ، لِكَونِها تلبَسُ لِباسَ العِلمِ والعقلِ والتَّقَدُّمِ.

فكثيرٌ مِنَ الانحِرافاتِ الفِكريَّةِ الحديثَةِ ترجِعُ فِي حقيقَتِها إِلَىٰ قوادِحَ فِي توحيدِ الرُّبوبيَّةِ، وإنِ اختَلَفَت مُسَمَّياتُها؛ وحِمايَةُ التَّوحيدِ اليومَ تقتَضي فِقهَ هذهِ النَّواقِضِ، ومعرِفَةَ صُوَرِها وأساليبِها المُعاصِرَةِ، ورَبطَها بِأصولِها العقَديَّةِ؛ لِأنَّ الانحِرافَ فِي بابِ الرُّبوبيَّةِ يتَغَذَّىٰ مِن تصَوُّراتٍ وافِدَةٍ أو فلسَفاتٍ قديمَةٍ تُستَعادُ فِي قوالِبَ جديدَةٍ.

قلتُ: ووجهُ العِنايَةِ بِقوادِحِ الرُّبوبيَّةِ -مَعَ أنَّ المُشرِكينَ الأوَّلينَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِها- أنَّ كلَّ زمانٍ لهُ مِن صُوَرِ الانحِرافِ مَا يُناسِبُهُ؛ فلمَّا كانَ الغالِبُ عَلَىٰ الأوَّلينَ الإقرارَ بِالرُّبوبيَّةِ والشِّركَ فِي الأُلوهيَّةِ، صارَ الغالِبُ فِي العصرِ الحديثِ القدحَ فِي الرُّبوبيَّةِ نفسِها بِالإلحادِ والتَّعطيلِ.

فاحتاجَ المُوَحِّدُ أن يعرِفَ نواقِضَ الرُّبوبيَّةِ كَمَا عرَفَ نواقِضَ الأُلوهيَّةِ، وَهَذَا مِن فِقهِ الدَّعوَةِ ومُراعاةِ حالِ المُخاطَبينَ.

مسألة: أقسامُ قوادحِ الرُّبوبيّة:

قوادِحُها الرُّبوبيَّةِ ترجِعُ إِلَىٰ أربَعَةِ أقسامٍ:

الأوَّلُ: شِركُ التَّعطيلِ (إنكارٌ ونفيٌ).

ومعناهُ: نفيُ مَا يختَصُّ بِهِ اللهُ مِن أفعالِ الرُّبوبيَّةِ أو صِفاتِ كمالِهِ، أو تعطيلُهُ عمَّا وصَفَ بِهِ نفسَهُ.

وصُوَرُهُ: إنكارُ وُجودِ اللهِ أصلًا (الإلحادُ، وَسَيَأتِي الكلام عَلَيهِ)، وإنكارُ بعضِ أفعالِهِ كإنكارِ البَعثِ، أو إنكارِ أن يكونَ اللهُ يأمُرُ ويحكُمُ ويُشَرِّعُ، وإنكارُ صِفاتِ كمالِهِ أو تحريفُها وتعطيلُ معانيها، وإنكارُ القدَرِ أو بعضِ مراتِبِهِ (العِلمِ، والكِتابَةِ، والمشيئَةِ،

والخلقِ) فإنَّها راجِعَةٌ إِلَىٰ رُبوبيَّتِهِ.

وضابِطُهُ: كلُّ مَن نفىٰ عنِ اللهِ مَا هُوَ مِن خصائصِ رُبوبيَّتِهِ أَو كمالِهِ فَقَد وقَعَ فِي تعطيلٍ يقدَحُ فِي الرُّبوبيَّةِ.

الثَّاني: شِركُ التَّمثيلِ والإثباتِ لِغيرِ اللهِ (إثباتٌ لِما لَا يجوزُ).

ومعناهُ: إثباتُ شيءٍ مِن خصائصِ الرَّبِّ لِمَخلوقٍ؛ إمَّا بِالاستِقلالِ، أَو بِالشِّركَةِ، أَو بِادِّعاءِ تفويضِ ذلكَ لهُ.

وصُوَرُهُ: إثباتُ العِلمِ بِالغيبِ لِمَخلوقٍ بِالاستِقلالِ، وإثباتُ النَّفعِ والضَّرِّ المُطلَقِ لِغيرِ اللهِ، وإثباتُ التَّصَرُّفِ الكونيِّ (تدبيرِ الأمورِ، تصريفِ الأكوانِ) لِوَليٍّ أَو قُطبٍ أَو نحوِ ذلكَ، وشِركُ التَّشريعِ والحُكمِ (جعلُ الحقِّ فِي سَنِّ الدِّينِ والتَّحليلِ والتَّحريمِ لِغيرِ اللهِ، فإنَّ الأمرَ والحُكمَ مِن خصائصِ الرُّبوبيَّةِ)، وإثباتُ الخلقِ أَوِ الرِّزقِ لِمَخلوقٍ عَلَىٰ وجهِ الاستِقلالِ أَوِ الشِّركَةِ.

الثَّالثُ: القدحُ فِي أفعالِ الرَّبِّ (طعنٌ واعتِراضٌ).

ومعناهُ: الاعتِراضُ عَلَىٰ أفعالِ اللهِ وحِكمَتِهِ وتدبيرِهِ، أَو نسبَةُ النَّقصِ إليهِ فِي فِعلِهِ أَو قضائهِ.

وضابِطُهُ: كلُّ قدحٍ يتَضَمَّنُ طعنًا صريحًا عرفًا أَو لغة أَو شرعًا فِي حِكمَةِ اللهِ أَو عدلِهِ أَو تدبيرِهِ فَهُوَ قادِحٌ فِي الرُّبوبيَّةِ، يتَفاوَتُ حُكمُهُ بِحَسَبِ الدَّرَجَةِ والمعنىٰ.

الرَّابعُ: شِركُ الأسبابِ (أَدَقُّ القوادِحِ تفصيلًا).

ومعناهُ: جعلُ مَا ليسَ سبَبًا شرعًا وَلَا قدرًا سببًا، أَو تعَلُّقُ القلبِ بِسَبَبٍ عَلَىٰ وجهٍ يُنازِعُ التَّوَكُّلَ وإفرادَ اللهِ بِالنَّفعِ والضَّرِّ.

والقاعِدَةُ الضَّابِطَةُ أنَّ الأسبابَ ثلاثَةُ أحوالٍ:

سببٌ شرعيٌّ (ثبتَ بِالشَّرعِ) كالرُّقيَةِ الشَّرعيَّةِ بِشُروطِها، وسبَبٌ قدَريٌّ حِسِّيٌّ (ثبتَ بِالتَّجرِبَةِ والعادَةِ) كالدَّواءِ، وسبَبٌ وهميٌّ مُبتَدَعٌ لَا دليلَ عليهِ، وهنا يقَعُ شِركُ الأسبابِ.

وتفصيلُ الدَّرَجاتِ فيهِ: إنِ اعتقَدَ أنَّ هَذَا السَّبَبَ يُؤَثِّرُ بِذاتِهِ أَو يدفَعُ ويجلِبُ مُستَقِلًّا، فَهُوَ شِركٌ أكبَرُ (لِأَنَّهُ أثبَتَ خاصِّيَّةً رَبَّانيَّةً لِغيرِ اللهِ).

وإنِ اعتقَدَ أنَّهُ مُجَرَّدُ سبَبٍ، مَعَ أنَّهُ ليسَ سببًا شرعًا وَلَا قدرًا، فَهُوَ شِركٌ أصغَرُ (لِأَنَّهُ جعَلَ مَا ليسَ سببًا سببًا).

وَإِن كانَ سببًا صحيحًا (شرعيًّا أَو حِسِّيًّا) لَكِن تعلَّقَ بِهِ القلبُ تعلُّقًا يُضادُّ التَّوَكُّلَ، فَهُوَ قادِحٌ فِي كمالِ التَّوكُّلِ، وفيهِ تفصيلٌ بِحَسَبِ درَجَتِهِ.

ومِن أمثِلَةِ شِركِ الأسبابِ: التَّطَيُّرُ والتَّشاؤُمُ (تعليقُ الحوادِثِ بِطَيرٍ أَو يومٍ أَو رقمٍ)، والتَّمائمُ والحَلَقَةُ والخيطُ (لِدَفعِ العَينِ أَو جلبِ النَّفعِ)، والتَّبَرُّكُ المُبتَدَعُ بِأحجارٍ أَو أشجارٍ أَو آثارٍ لَا دليلَ عَلَيهَا، (١)

---

(١) وَمِن حِمايَةِ التَّوحِيدِ: إِنكارُ النَّبِيِّ -ﷺ- عَلَىٰ مَن طَلَبَ التَّبَرُّكَ بِالأَشجارِ وَالآثارِ؛ فَإِنَّ البَرَكَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنَ اللهِ، أَو مِنَ الأَسبابِ الَّتِي شَرَعَهَا.

فَلَمَّا خَرَجَ -ﷺ- إِلَىٰ حُنَينٍ، وَمَرَّ بِسِدرَةٍ يُعَلِّقُ المُشرِكُونَ بِهَا أَسلِحَتَهُم يُقَالُ لَهَا «ذَاتُ أَنوَاطٍ»، قَالَ بَعضُ مَن مَعَهُ: اجعَل لَنَا ذَاتَ أَنوَاطٍ كَمَا لَهُم ذَاتُ أَنوَاطٍ؛ فَأَنكَرَ عَلَيهِم وَقَالَ: «اللهُ أَكبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلتُم وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَت بَنُو إِسرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [سورة الأعراف:١٣٨]».

فَجَعَلَ مُجَرَّدَ طَلَبِ التَّبَرُّكِ بِالشَّجَرَةِ ذَرِيعَةً إِلَىٰ الشِّركِ، وَإِن لَم يَكُن شِركًا أَكبَرَ فِي نَفسِهِ؛ فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ التَّعَلُّقَ بِالآثَارِ وَطَلَبَ البَرَكَةِ مِنهَا بَابٌ مِن أَبوَابِ الشِّركِ يَجِبُ سَدُّهُ.

ويشهدُ لِهَذَا الأصلِ موقفُ عمرَ -رضي الله عنه- عِندَ الحجرِ الأسودِ، حين قبَّلَه ثُمَّ قَالَ: «حجر لَا تضر وَلَا تنفع، وَلَولَا أني رأيتُ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- يُقبِّلُك مَا قبَّلتُك»

«أَخرَجَهُ البخاري (١٦٠٥)، ومسلم (١٢٧٠).»

فدلَّ عَلَىٰ أنَّ السلفَ لَم يكُونُوا يُقبِّلونَ شيئًا من الجماداتِ تعبُّدًا إِلَّا حيثُ وردَ الشرعُ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الحجرِ الَّذِي جاءَ النصُّ بتقبيلِه، فَمَا لَا نصَّ فِيهِ أحرىٰ بالمنعِ.

وَرُوِيَ فِي «جزء محمد بن عاصم الثقفي» (ص١٠٦): حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَاصِمٍ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ عَنْ عُبَيْدِ اللهِ عَنْ نَافِعٍ: أَنَّ ابْنَ عُمَرَ، «كَانَ يَكْرَهُ مَسَّ قَبْرِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-»

وَقَالَ عَبدُ اللهِ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: سَمِعتُ أَبَا زَيدٍ حَمَّادَ بنَ دَلِيلٍ قَالَ لِسُفيَانَ: قَالَ: كَانَ أَحَدٌ يَتَمَسَّحُ بِالقَبرِ؟ قَالَ: «وَلَا يَلتَزِمُ القَبرَ وَلَكِن يَدنُو».

قَالَ أَبِي: يَعنِي: الإِعظَامَ لِرَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-.

«الإِخنائِيَّة» (٤١٥)

وَرَوَىٰ عَبدُ اللهِ، عَن أَبِيهِ، عَنِ النُّوحِ بنِ يَزِيدَ قَالَ: أَخبَرَنَا أَبُو إِسحَاقَ -يَعنِي: إِبرَاهِيمَ بنَ سَعدٍ- قَالَ: «مَا رَأَيتُ أَبِي قَطُّ يَأتِي قَبرَ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-»، وَكَانَ يَكرَهُ إِتيَانَهُ.

«الإِخنائِيَّة» (٤١٥، ٤١٦).

وَرُوِيَ أَنَّ أَنَسَ بنَ مَالِكٍ رَأَىٰ رَجُلًا وَضَعَ يَدَهُ عَلَىٰ قَبرِهِ -صلى الله عليه وسلم-، فَنَهَاهُ وَقَالَ: «مَا كُنَّا نَعرِفُ هَذَا عَلَىٰ عَهدِ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-».

وَقَالَ: أَنكَرَهُ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحمَدُ أَشَدَّ الإِنكَارِ.

«وَفَاءُ الوَفَاءِ» (٤/ ١٤٠٢).

وَرُوِيَ عَن مُجَاهِدٍ قَالَ: «لَا تُقَبِّلِ المَقَامَ، وَلَا تَلمَسهُ».

«مُصَنَّفُ ابنِ أَبِي شَيبَةَ» (٣/ ٤١٦).

وَقَالَ عَبدُ اللهِ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: سَمِعتُ أَبَا زَيدٍ حَمَّادَ بنَ دَلِيلٍ قَالَ لِسُفيَانَ: قَالَ: كَانَ أَحَدٌ يَتَمَسَّحُ بِالقَبرِ؟ قَالَ: «وَلَا يَلتَزِمُ القَبرَ وَلَكِن يَدنُو».

قَالَ أَبِي: يَعنِي: الإِعظَامَ لِرَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-.

«الإِخنَائِيَّة» (٤١٥)

وَرَوَىٰ عَبدُ اللهِ، عَن أَبِيهِ، عَنِ النُّوحِ بنِ يَزِيدَ قَالَ: أَخبَرَنَا أَبُو إِسحَاقَ -يَعنِي: إِبرَاهِيمَ بنَ سَعدٍ- قَالَ: «مَا رَأَيتُ أَبِي قَطُّ يَأتِي قَبرَ النَّبِيِّ -ﷺ-»، وَكَانَ يَكرَهُ إِتيَانَهُ.

«الإِخنَائِيَّة» (٤١٥، ٤١٦).

وَرُوِيَ أَنَّ أَنَسَ بنَ مَالِكٍ رَأَىٰ رَجُلًا وَضَعَ يَدَهُ عَلَىٰ قَبرِهِ -ﷺ-، فَنَهَاهُ وَقَالَ: «مَا كُنَّا نَعرِفُ هَذَا عَلَىٰ عَهدِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-».

وَقَالَ: أَنكَرَهُ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحمَدُ أَشَدَّ الإِنكَارِ.

«وَفَاءُ الوَفَاءِ» (٤/ ١٤٠٢).

وَرُوِيَ عَن مُجَاهِدٍ قَالَ: «لَا تُقَبِّلِ المَقَامَ، وَلَا تَلمَسهُ».

«مُصَنَّفُ ابنِ أَبِي شَيبَةَ» (٣/ ٤١٦).

وَنَقَلَ الأَثرَمُ: قُلتُ لِأَبِي عَبدِ اللهِ: قَبرُ النَّبِيِّ -ﷺ- يُمَسُّ وَيُتَمَسَّحُ بِهِ؟

فَقَالَ: مَا أَعرِفُ هَذَا. قُلتُ لَهُ: فَالمِنبَرُ؟ قَالَ: أَمَّا المِنبَرُ فَنَعَم قَد جَاءَ فِيهِ. قِيلَ لِأَبِي عَبدِ اللهِ: إِنَّهُم يُلصِقُونَ بُطُونَهُم بِجِدَارِ القَبرِ. وَقِيلَ لَهُ: رَأَيتُ مِن أَهلِ العِلمِ مِن أَهلِ المَدِينَةِ لَا يَمَسُّونَ وَيَقُومُونَ نَاحِيَةً فَيُسَلِّمُونَ.

قَالَ أَبُو عَبدِ اللهِ: نَعَم، وَهَكَذَا كَانَ ابنُ عُمَرَ يَفعَلُ.

«الرِّوَايَتَينِ وَالوَجهَينِ» (١/ ٢١٤، ٢١٥).

وَقَالَ أَحمَدُ: «أَهلُ العِلمِ كَانُوا لَا يَمَسُّونَهُ»، نَقَلَ أَبُو الحَارِثِ: يَدنُو مِنهُ وَلَا يَتَمَسَّحُ بِهِ، يَقُومُ حِذَاءَهُ فَيُسَلِّمُ، كَفِعلِ ابنِ عُمَرَ.

قُلتُ: فَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ أَيُّهَا القَارِئُ نَهيُ وَإِنكَارُ الإِمَامِ أَحمَدَ لِلتَّمَسُّحِ بِقَبرِ النَّبِيِّ -ﷺ-، فَمَا كَانَ دُونَ الأَنبِيَاءِ فَمِن بَابِ أَولَىٰ.

قُلتُ: وَمَدَارُ هَذِهِ النُّقُولِ عَلَىٰ أَصلٍ وَاحِدٍ تَنتَظِمُ فِيهِ: أَنَّ التَّعَبُّدَ تَوقِيفٌ، فَلَا يُتَقَرَّبُ إِلَىٰ اللهِ بِتَقبِيلِ جَمَادٍ وَلَا التَّمَسُّحِ بِهِ إِلَّا بِدَلِيلٍ، وَقَدِ انحَصَرَ الدَّلِيلُ فِي الحَجَرِ الأَسوَدِ؛ فَمَا عَدَاهُ — وَلَو كَانَ قَبرَ نَبِيٍّ — فَالتَّمَسُّحُ بِهِ وَتَقبِيلُهُ مُحدَثٌ مَردُودٌ، وَذَرِيعَةٌ تُفضِي بِصَاحِبِهَا إِلَىٰ مَا هُوَ أَعظَمُ مِن دُعَاءِ المَيِّتِ وَالاستِغَاثَةِ

والاستِمطارُ بِالنَّوءِ ونسبَةُ الأثَرِ إِلَىٰ الكواكِبِ عَلَىٰ وجهِ التَّعليقِ، وقولُ: «لولا فُلانٌ لهَلكتُ» عَلَىٰ وجهٍ يُفهِمُ الاستِقلالَ أَو يُعَظِّمُ السَّبَبَ تعظيمًا يُنازِعُ التَّوحيدَ.

فقَوادِحُ الرُّبوبيَّةِ تدورُ عَلَىٰ: تعطيلٍ (نفيِ خصائصِ الرَّبِّ)، وتمثيلٍ وإثباتٍ لِغيرِ اللهِ (مُنازَعَةِ خصائصِ الرَّبِّ)، وقدحٍ فِي فِعلِ اللهِ وقدَرِهِ (اعتِراضٍ وتسَخُّطٍ)، وشِركٍ

بِهِ؛ فكَانَ سَدُّ هَذَا البَابِ مِن تَمَامِ حِمَايَةِ جَنَابِ التَّوحِيدِ.

وَيلتَحِقُ بِهذَا البَابِ النَّهيُ عَن شَدِّ الرِّحَالِ إِلَىٰ القُبُورِ لِلتَّعبُّدِ عِندَهَا؛ لِقَولِهِ -ﷺ-: «لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَىٰ ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسجِدِ الحَرَامِ، وَمَسجِدِي هَذَا، وَالمَسجِدِ الأَقصَىٰ»، وَفِي رِوَايَةٍ بِصِيغَةِ الحَصرِ: «إِنَّمَا يُسافَرُ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ».

وَقَد فَهِمَ الصَّحَابَةُ — كَابنِ عُمَرَ وَأَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي بَصرَةَ رَاوِي الحَدِيثِ — أَنَّ النَّهيَ يَعُمُّ كُلَّ بُقعَةٍ تُقصَدُ بِالسَّفرِ لِلتَّعبُّدِ، حَتَّىٰ نَهَوا عَن شَدِّ الرَّحلِ إِلَىٰ الطُّورِ — مَعَ أَنَّهُ «الوَادِي المُقَدَّسُ» الَّذِي كَلَّمَ اللهُ عَلَيهِ مُوسَىٰ —، وَلَم يُعرَف عَن أَحَدٍ مِنهُم أَنَّهُ سَافَرَ إِلَىٰ قَبرِ الخَلِيلِ إِبرَاهِيمَ مَعَ كَثرَةِ تَرَدُّدِهِم عَلَىٰ الشَّامِ وَبَيتِ المَقدِسِ؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّ تَخصِيصَ المَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ بِجَوَازِ الشَّدِّ إِلَيهَا يَقتَضِي المَنعَ مِمَّا سِوَاهَا، وَمِنهُ القُبُورُ وَالمَشَاهِدُ.

وَمِن فِقهِ سَلَفِ الأُمَّةِ فِي سَدِّ هَذَا البَابِ مَا فَعَلَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ لَمَّا ظَهَرَ قَبرُ دَانِيَالَ وَصَارَ النَّاسُ يَستَسقُونَ بِهِ: فَكَتَبَ إِلَىٰ أَبِي مُوسَىٰ الأَشعَرِيِّ أَن يَحفِرَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ قَبرًا نَهَارًا، وَيَدفِنَهُ لَيلًا فِي وَاحِدٍ مِنهَا، وَيُعَفِّيَ القُبُورَ كُلَّهَا؛ لِئَلَّا يُفتَنَ بِهِ النَّاسُ — حَسمًا لِمَادَّةِ الغُلُوِّ قَبلَ أَن تَستَحكِمَ.

وَأَختِمُهَا بِكَلِمَةٍ لِابنِ القَيِّمِ، فَإِنَّهَا تَجمَعُ بُرهَانَ البَابِ كُلَّهُ؛ قَالَ فِي «إِغَاثَةِ اللَّهفَانِ»: إِنَّهُ لَو كَانَ الدُّعَاءُ عِندَ القُبُورِ وَالصَّلَاةُ عِندَهَا وَالتَّبَرُّكُ بِهَا فَضِيلَةً أَو سُنَّةً أَو مُبَاحًا، لَنَصَبَ المُهَاجِرُونَ وَالأَنصَارُ هَذَا القَبرَ عَلَمًا لِذَلِكَ، وَدَعَوا عِندَهُ، وَسَنُّوا ذَلِكَ لِمَن بَعدَهُم؛ وَلَكِنَّهُم كَانُوا أَعلَمَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَدِينِهِ مِنَ الخُلُوفِ الَّتِي خَلَفَت بَعدَهُم، وَكَذَلِكَ التَّابِعُونَ لَهُم بِإِحسَانٍ؛ وَقَد كَانَ عِندَهُم مِن قُبُورِ أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- فِي الأَمصَارِ عَدَدٌ كَثِيرٌ وَهُم مُتَوَافِرُونَ، فَمَا مِنهُم مَن استَغَاثَ عِندَ قَبرِ صَاحِبٍ، وَلَا دَعَاهُ، وَلَا دَعَا بِهِ، وَلَا دَعَا عِندَهُ، وَلَا استَسقَىٰ بِهِ، وَلَا انتَصَرَ بِهِ؛ وَمِنَ المَعلُومِ أَنَّ مِثلَ هَذَا مِمَّا تَتَوَفَّرُ الهِمَمُ وَالدَّوَاعِي عَلَىٰ نَقلِهِ، بَل عَلَىٰ نَقلِ مَا هُوَ دُونَهُ؛ فَدَلَّ سُكُوتُهُم عَنهُ عَلَىٰ أَنَّهُ لَيسَ مِنَ الدِّينِ فِي شَيءٍ.

أسبابٍ (جعلِ الوَهمِ سببًا أو تعليقِ القلبِ بِالسَّبَبِ).

قلتُ: ووجهُ حصرِ القوادِحِ فِي هذهِ الأربَعَةِ أنَّ حقَّ الرَّبِّ فِي رُبوبيَّتِهِ يُقابِلُهُ أربَعُ جناياتٍ: فإمَّا أن يُنفىٰ عنهُ مَا هُوَ لهُ (وَهُوَ التَّعطيلُ)، وإمَّا أن يُثبتَ مَا هُوَ لهُ لِغيرِهِ (وَهُوَ التَّمثيلُ)، وإمَّا أن يُطعَنَ فِي فِعلِهِ وحِكمَتِهِ (وَهُوَ القدحُ)، وإمَّا أن يُجعَلَ لِغيرِهِ تأثيرٌ فِي النَّفعِ والضَّرِّ (وَهُوَ شِركُ الأسبابِ).

فالأوَّلانِ فِي الإثباتِ والنَّفيِ، والثَّالثُ فِي الأفعالِ، والرَّابعُ فِي الأسبابِ؛ فانتظَمَت بِها أبوابُ القدحِ كلُّها، وأدقُّها شِركُ الأسبابِ، إذ يخفىٰ عَلَىٰ كثيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَلَا يُميِّزُ بينَ درَجاتِهِ إلَّا مَن فقِهَ بابَ الأسبابِ والتَّوكُّلِ.

مسألة: وُقوعُ الشِّركِ الأصغَرِ في الربوبيّة:

يقَعُ الشِّركُ الأصغَرُ فِي الرُّبوبيَّةِ فِي صُوَرٍ، مِنهَا: تعليقُ التَّمائمِ، وسَبُّ الدَّهرِ وسَبُّ الرِّيحِ، والجزَعُ والتَّسَخُّطُ عَلَىٰ القدَرِ، وقولُ: «مَا شاءَ اللهُ وشِئتَ» أو «لولا اللهُ وأنتَ»، والتَّطَيُّرُ والتَّشاؤُمُ، ونسبَةُ المطَرِ لِلكَواكِبِ والنُّجومِ والفُصولِ نسبَةَ سببٍ، والتَّبَرُّكُ المُبتَدَعُ بِآثارِ الصَّالِحينَ، والتَّصويرُ؛ وكلُّها شِركيَّاتٌ عمَليَّةٌ مُتعَلِّقَةٌ بِالرُّبوبيَّةِ، وَهِيَ مِنَ الشِّركِ الأصغرِ.

قلتُ: ووجهُ كونِ هذهِ الصُّوَرِ مِنَ الشِّركِ الأصغَرِ -لَا الأكبَرِ- أنَّ صاحِبَها لَم يعتَقِد فِي غيرِ اللهِ رُبوبيَّةً مُستَقِلَّةً، وإنَّما تعلَّقَ بِالسَّبَبِ تعلُّقًا ناقِصًا، أو نسبَ الأثَرَ إلَىٰ غيرِ اللهِ نسبَةً لَا تبلُغُ اعتِقادَ التَّأثيرِ المُستقِلِّ؛ فمَن نسَبَ المطَرَ إلَىٰ النَّوءِ نسبَةَ سببٍ -مَعَ اعتِقادِهِ أنَّ اللهَ هُوَ المُنزِلُ- فهُوَ شِركٌ أصغَرُ، ومَن اعتقَدَ أنَّ النَّوءَ يُنزِلُ المطَرَ استِقلالًا فهُوَ شِركٌ أكبَرُ.

فالفارِقُ بينَ الأكبَرِ والأصغَرِ فِي هَذَا البابِ هُوَ اعتِقادُ التَّأثيرِ المُستَقِلِّ مِن عدَمِهِ؛

ولِهذا وجَبَ عَلَىٰ المُوَحِّدِ أَن يحفَظَ لِسانَهُ وقلبَهُ مِن هذهِ الصُّوَرِ، فإنَّها مدارِجُ تُفضي إِلَىٰ الأكبَرِ إن لَم تُجتَنَب.

مسألة: أعظَمُ نواقِضِ الربوبيّةِ: إنكارُ وُجودِ الربِّ:

مِن أعظَمِ نواقِضِ الرُّبوبيَّةِ: إنكارُ وُجودِ الرَّبِّ، والأصلُ أنَّ الإقرارَ بِالخالِقِ فِطريٌّ، وإنكارُهُ فِي التَّاريخِ القديمِ كانَ فِي الغالِبِ نادِرًا أَو شاذًّا، وَهُوَ فِي حقيقته يرجِعُ إِلَىٰ الجُحودِ والعِنادِ لَا إِلَىٰ فقدِ الدَّليلِ؛ كَمَا قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل:١٤].

وكانَ الغالِبُ عَلَىٰ البشَرِ اتِّخاذُ آلِهَةٍ مَعَ اللهِ مَعَ الاعتِرافِ بِرُبوبيَّةِ اللهِ إجمالًا، فجاءَتِ الرُّسُلُ لِتَقريرِ حقِّ اللهِ فِي العِبادَةِ وإبطالِ الشِّركِ.

ومِنَ الأمثِلَةِ:

مُحاجَّةُ إبراهيمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لِمَنِ ادَّعىٰ قُدرَةً فِي الإحياءِ والإماتَةِ، فانتَقَلَ بِهِ إبراهيمُ إِلَىٰ بُرهانٍ كونيٍّ قاطِعٍ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾ [سورة البقرة:٢٥٨]، ودعوىٰ فِرعَونَ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الشعراء:٢٣].

وَقَد يفرَّقُ بينَ الإلحادِ الماضي والإلحادِ المُعاصِرِ فِي ثلاثِ نِقاطٍ: مِن حيثُ الظَّاهِرَةُ والانتِشارُ؛ فالإلحادُ القديمُ لَم يكُن ظاهِرَةً عامَّةً واسِعَةً، بينَما المُعاصِرُ اتَّخذَ صُوَرًا مُتَعَدِّدَةً وانتَشَرَ عبرَ تيَّاراتٍ فِكريَّةٍ وإعلاميَّةٍ وتعليميَّةٍ.

ومِن حيثُ التَّنظيمُ والتَّسويقُ؛ فَهُوَ يُقَدَّمُ أحيانًا فِي قوالِبَ «فلسَفيَّةٍ» أَو «عِلمَويَّةٍ» أَو «تحَرُّريَّةٍ»، ويُسَوَّقُ بِوَصفِهِ تفسيرًا شامِلًا لِلوُجودِ.

ومِن حيثُ دَعوَىٰ المنهَجِ؛ فكثيرٌ مِنَ المُلحِدينَ المُعاصِرينَ يربِطونَ موقِفَهُم

بِمَفهومِ «العِلمِ التَّجريبيِّ»، ويقصُرونَ المعرِفةَ عَلَىٰ مَا يُختبَرُ تجريبيًّا، فيُقصون قضايا الغيبِ والوحيِ مِن مجالِ النَّظَرِ.

٢١٤ - **قالَ الشَّهرَستانيُّ فِي «نِهايَةِ الإقدامِ» (ص١٢٣-١٢٤):** «أمَّا تعطيلُ العالَمِ عنِ الصَّانِعِ العالِمِ القادِرِ الحكيمِ فلستُ أراها مقالَةً لِأحَدٍ، وَلَا أعرِفُ عَلَيهَا صاحِبَ مقالَةٍ إلَّا مَا نُقِلَ عَن شِرذِمَةٍ قليلَةٍ مِنَ الدَّهريَّةِ... فَمَا عدَدتُ هذهِ المسألَةَ مِنَ النَّظَريَّاتِ الَّتي يُقامُ عَلَيهَا بُرهانٌ، فإنَّ الفِطَرَ السَّليمَةَ الإنسانيَّةَ شهِدَت بِضَرورَةِ فِطرَتِها وبَداهَةِ فِكرَتِها عَلَىٰ صانِعٍ حكيمٍ عالِمٍ قديرٍ: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [سورة إبراهيم:١٠]... ولِهذا لَم يرِدِ التَّكليفُ بِمَعرِفَةِ وُجودِ الصَّانِعِ، وإنَّما ورَدَ بِمَعرِفَةِ التَّوحيدِ ونفيِ الشِّركِ، "أُمِرتُ أَن أُقاتِلَ النَّاسَ حتَّىٰ يَقُولُوا لا إلَهَ إلَّا اللهُ"، ولِهذا جُعِلَ محَلُّ النِّزاعِ بينَ الرُّسُلِ وبينَ الخلقِ التَّوحيدَ».

فأصلُ النِّزاعِ بَينَ الرُّسُلِ وأقوامِهِم لَم يَكُن فِي وُجودِ اللهِ وَلَا فِي رُبوبِيَّتِهِ — فقَد كَانُوا مُقِرِّينَ بِهَا — وَلَا فِي كَونِهِ يُعبَدُ فِي الجُملَةِ، فإنَّهُم مَا تَرَكوا عِبادَتَهُ بالكُلِّيَّةِ، بَل كانَ النِّزاعُ فِي إفرادِهِ بالعِبادَةِ وتَخصيصِهِ بِهَا دونَ كُلِّ مَا سِواهُ.

وَكَمَا قيلَ:

ولَيسَ يصِحُّ فِي الأذهانِ شيءٌ   إِذَا احتاجَ النَّهارُ إلَىٰ دليلِ

ومعلومٌ أنَّ وُجودَ الرَّبِّ تَعَالَىٰ أظهَرُ لِلعُقولِ والفِطَرِ مِن وُجودِ النَّهارِ، ومَن لَم يرَ ذلكَ فِي عقلِهِ وفِطرَتِهِ فليَتَّهِمهُما.

فإنكارُ وُجودِ اللهِ فِي التَّاريخِ القديمِ كانَ عِنادًا مُستكبِرًا أَو دهريَّةً محدودَةً، أمَّا فِي العصرِ الحديثِ فَقَد صارَ مشروعًا فِكريًّا مُنَظَّمًا يقومُ عَلَىٰ المادِّيَّةِ، ويلبَسُ لِباسَ العِلمِ

والحُرِّيَّةِ، ووُجودُ اللهِ، والإقرارُ بِرُبوبيَّتِهِ، وإفرادُهُ بِالعِبادَةِ أمرٌ مُدرَكٌ بِالفِطرَةِ، وبِالعَقلِ، وبِآياتِ الآفاقِ والأنفُسِ، وبِالوحيِ.

فمَن أنكَرَ وُجودَهُ فإنَّما أتَىٰ مِن قِبَلِ العِنادِ والاستِكبارِ أَو اتِّباعِ الْهَوَىٰ، لَا مِن قِبَلِ ضَعفِ الدَّليلِ؛ كَمَا قالَ تَعالَىٰ عنهُم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [سورة النمل:١٤]، فأثبَتَ لهُمُ الاستيقانَ الباطِنَ مَعَ الجُحودِ الظَّاهِرِ.

مسألة: أسبابُ ظُهورِ نواقِضِ الربوبيّةِ في العصرِ الحديث:

يقَعُ الانحِرافُ فِي بابِ الرُّبوبيَّةِ طُغيانًا أَو جهلًا أَو تقليدًا؛ وَمَا ظهَرَ فِي هَذَا العصرِ مِن نواقِضِها وقوادِحِها فلهُ أصولٌ ترجعُ إِلَىٰ مَا يَأتِي:

أَوَّلًا: الجهلُ بِاللهِ تعالىٰ وبِأسمائهِ وصِفاتِهِ، وأعظَمُ الجهلِ الجهلُ بِاللهِ؛ فإنَّ مَن جهِلَ ربَّهُ لم يُقَدِّرهُ حقَّ قدرِهِ، فسَوَّىٰ بِهِ غيرَهُ، أو نسَبَ إليهِ ما لا يليقُ بهِ، أو نفىٰ عنهُ ما هو مِن كمالِهِ، **والجهلُ يُفضي إلىٰ أحَدِ أمرَينِ**: تعطيلٍ كنَفيِ الصِّفاتِ، أو إنكارِ الخلقِ، أو نسبَةِ الأزَليَّةِ لِغيرِ اللهِ؛ وتشبيهٍ وغُلُوٍّ بِإلحاقِ خصائصِ الرُّبوبيَّةِ بِبَعضِ المخلوقينَ.

فَإِذَا ضعُفَ العِلمُ الصحيحُ بِاللهِ قوِيَ موجِبُ الشِّركِ.

ثانيًا: الجُرأةُ العقليَّةُ والجدَلُ المذمومُ في ذاتِ اللهِ.

فالعقلُ نِعمَةٌ، لكنَّهُ محدودٌ؛ فَإِذَا تُرِكَ لِلوَهمِ والجدَلِ فِي الغيبِ الَّذي لَا تُدرِكُهُ العُقولُ، وقَعَ صاحِبُهُ فِي الحَيرَةِ، ثمَّ فِي التَّعطيلِ أوِ الإنكارِ.

وطريقَةُ السَّلَفِ: الإمساكُ عمَّا لَم يُؤمَر بِالخوضِ فيهِ، والإيمانُ والتسليم لما جاءَ بِهِ الوحيُ.

ثالثًا: الغُلُوُّ في الصَّالِحينَ ورَفعُهُم فوقَ منازِلِهِم.

فأصلُ الشِّركِ فِي بَني آدَمَ الغُلُوُّ فِي الصَّالِحينَ؛ فَمَتَىٰ أُعطِيَ المخلوقُ شيئًا مِن خصائصِ الرُّبوبيَّةِ -كالتَّصرُّفِ فِي الكونِ، أَو عِلمِ الغيبِ، أَو كشفِ الضُّرِّ استِقلالًا- وقَعَ الشِّركُ فِي الرُّبوبيَّةِ، وَلَو زُعِمَ أَنَّهُ توَسُّلٌ أَو محَبَّةٌ.

فَأَوَّلُ شِركٍ وَقَعَ فِي الأَرضِ كَانَ مِنَ الغُلُوِّ فِي قَومٍ صَالِحِينَ مِن قَومِ نُوحٍ - وَدٍّ وَسُوَاعٍ وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسرٍ - لَمَّا مَاتُوا صَوَّرُوا صُورَهُم، ثُمَّ طَالَ الأَمَدُ فَعَبَدُوا.

وَكَذلِكَ غَلَتِ النَّصَارَىٰ فِي عِيسَىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- حَتَّىٰ رَفَعُوهُ إِلَىٰ مَنزِلَةِ الإِلهِيَّةِ؛ فَلِهذَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا تُطرُونِي كَمَا أَطرَتِ النَّصَارَىٰ ابنَ مَريَمَ»، وَقَالَ: «إِيَّاكُم وَالغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهلَكَ مَن كَانَ قَبلَكُمُ الغُلُوُّ فِي الدِّينِ»، فَكَانَ سَدُّ بَابِ الغُلُوِّ حِمَايَةً لِلتَّوحِيدِ مِن أَن يَنقَلِبَ تَعظِيمُ الصَّالِحِينَ عِبَادَةً لَهُم.

قلتُ: فحَسَمَ بابَ الغُلُوِّ فِي حقِّهِ - معَ كونِهِ أفضَلَ الخلقِ، لِئَلَّا يُفضيَ إِلَىٰ مَا وقَعَت فيهِ النَّصارىٰ مِن رفعِ نبيِّهِم فوقَ مَنزِلَةِ العُبوديَّةِ.

ولمَّا قالَ لهُ قومٌ: «يَا خيرَنا وابنَ خيرِنا، وسيِّدَنا وابنَ سيِّدِنا» قالَ: «يَا أَيُّها النَّاسُ، قولوا بِقَولِكُم، وَلَا يستَهوِيَنَّكُمُ الشَّيطانُ»؛ فردَّهُم إِلَىٰ القصدِ فِي الثَّناءِ، وحذَّرَهُم أَن يَجُرَّهُمُ الغُلُوُّ فِي المدحِ إِلَىٰ مَا لَا يُرضي اللهَ؛ فالغُلُوُّ فِي الألفاظِ بريدٌ إِلَىٰ الغُلُوِّ فِي الاعتِقادِ، ومِنهُ تسَلَّلَ الشِّركُ إِلَىٰ الأُمَمِ قبلَنا.

رابِعًا: الخلَلُ في فهمِ التَّوحيدِ والإيمانِ.

ومِن أعظَمِ أسبابِ الانحِرافِ قصرُ التَّوحيدِ عَلَىٰ مُجَرَّدِ الإقرارِ بأَنَّ اللهَ خالِقٌ رازِقٌ، دونَ تحقيقِ مَعنَىٰ العِبادَةِ وإفرادِ اللهِ بِها؛ فَإِذَا فُهِمَ التَّوحيدُ عَلَىٰ أَنَّهُ مُجَرَّدُ «توحيدِ الخالِقيَّةِ» لَم يُستَنكَر صرفُ أنواعٍ مِنَ العِبادَةِ لِغيرِ اللهِ، وَلَا اعتِقادُ بعضِ خصائصِ

الرُّبوبيَّةِ فِي غيرِهِ.

خامِسًا: التَّأَثُّرُ بِالفلسَفاتِ والمِلَلِ المُحَرَّفَةِ.

فَقَد دخَلَت عَلَىٰ الأمَّةِ -فِي عُصورِ التَّرجَمَةِ ثمَّ فِي العصرِ الحديثِ- مقالاتٌ فلسَفيَّةٌ ودياناتٌ مُحَرَّفَةٌ، فِيهَا القولُ بِقِدَمِ العالَمِ، أَو أزَليَّةِ المادَّةِ، أوِ الحُلولِ والاتِّحادِ، أَو تعَدُّدِ القُوىٰ المُدَبِّرَةِ؛ فلبِسَ بعضُ الزنادقة تلكَ المقالاتِ لِباسًا إسلاميًّا، فوَقَعَ التَّعطيلُ مِن جِهَةٍ، أوِ الشِّركُ مِن جِهَةٍ أُخرىٰ.

سادِسًا: الاغترارُ بِالعِلمِ التَّجريبيِّ والحضارَةِ المادِّيَّةِ.

ومِن أسبابِ الانحِرافِ المُعاصِرِ جعلُ الحِسِّ والتَّجرِبَةِ ميزانًا لِلغَيبِ، فَإِذَا لَم يُدرَكِ الشَّيءُ بِالحَواسِّ نُفِيَ؛ وَهَذَا قلبٌ لِلميزانِ، فإنَّ الغيبَ يُتَلَقَّىٰ بِالوحيِ لَا بِالمِجهَرِ والمَخبَرِ، فالاغترارُ بِالمُكتَشَفاتِ حمَلَ بعضَ النَّاسِ عَلَىٰ نسبَةِ الإيجادِ لِلطَّبيعَةِ، أوِ المُصادَفَةِ، أوِ التَّطَوُّرِ الذَّاتيِّ، وكلُّها عباراتٌ تتَضَمَّنُ سلبَ الخلقِ عنِ اللهِ تعالىٰ.(١)

---

(١) **وَإِلَيكَ مُسلَّماتٌ يضبطُ بِهَا المسلمُ منهجَ العلمِ التجريبيِّ:**

أولًا: الكونُ بيدِ اللهِ، لَا بيدِ القانونِ.

أحكمَ اللهُ خلقَه، وأجرىٰ فِيهِ سننًا ثابتةً بحكمتِه، سخَّرها لَنَا نبلغُ بِهَا مصالحَنا.

والفاعلُ هُوَ اللهُ وحدَه؛ يفعلُ مَا يشاءُ، لَا مُكرِهَ لَهُ وَلَا مُوجِبَ عَلَيهِ.

ثانيًا: السببُ المحسوسُ بعضُ السببِ، لَا كلُّه.

مَا تراهُ سببًا — وَإِن عظُمَ — قطرةٌ مِن بحرِ أسبابٍ لَا يُحصيها إلَّا اللهُ، إذ لَا يملكُ الضرَّ والنفعَ عَلَىٰ التمامِ إلَّا اللهُ.

ثالثًا: مَا فوقَ حِسِّنا غيبٌ.

نحنُ فِي سماءٍ مِن سبعٍ، وأرضٍ مِن سبعٍ، لَا نعلمُ مِن حقائقِها إلَّا مَا أخبرَ بِهِ النصُّ.

سابعًا: اتِّباعُ الْهَوَىٰ ومحبَّةُ الانفلاتِ مِنَ التَّكليفِ.

فالإلحادُ المُعاصِرُ ليسَ بحثًا عِلميًّا مُجَرَّدًا، بَل رغبَةً فِي إسقاطِ حُكمِ الرَّبِّ، ودفعِ شرعِ اللهِ تَعَالَىٰ، والتحرُّرِ من حاكميَّةِ اللهِ، وردِّ أمرِ اللهِ وحُكمِهِ، والتفلُّتِ من الانقيادِ لأمرِ اللهِ تَعَالَىٰ، والتَّحَرُّرِ مِنَ الأمرِ والنَّهيِ؛ فكانَ إنكارُ الخالِقِ، أَو نفيُ تدبيرِه، أوِ ادِّعاءُ «موتِ الإلَهِ» -عندَ بعضِهِم- تعبيرًا عنِ التَّمَرُّدِ، لَا عنِ البُرهانِ.

قلتُ: ووجهُ رجوعِ هذهِ الأسبابِ السَّبعَةِ إِلَىٰ أصلَينِ أنَّ مِنهَا مَا يرجِعُ إِلَىٰ

فَمَا جاوزَ الحسَّ هاهنا غيبٌ، لَا نقولُ فِيهِ إلَّا بأثرٍ.

رابعــًا: الفطرةُ حقٌّ لَا تُردُّ بنظريَّةٍ.

مَا أدركته الفطرةُ السليمةُ والعقلُ الصريحُ فحقٌّ مطابقٌ للواقعِ.

والنظرُ كلُّه مبنيٌّ عَلَىٰ البدهيَّاتِ؛ فمَن نقضَ البدهيَّ بالنظريِّ هدمَ أصلَ المعرفةِ مِن أساسِه.

خامسـًا: الحسُّ والسمعُ لَا يُغني أحدُهما عَن الآخرِ.

لكلٍّ منهما عِلمُه النافعُ؛ غيرَ أنَّ علمَ الوحيِ أَعلَىٰ، إِذ يتعلَّقُ بالآخرةِ، والآخرةُ خيرٌ وَأَبقَىٰ.

سادسـًا: النصُّ مُقدَّمٌ عَلَىٰ كلِّ نظريَّةٍ.

لَا تُقدَّمُ نظريَّةُ التجريبيِّينَ عَلَىٰ النصِّ، وَلَو كانَ فِي أدنَىٰ الصحَّةِ؛ فعلمُ البشرِ ناقصٌ أبدًا.

وَمَا يُزعَمُ مخالفًا للنصِّ ليس مشاهَدةً، بَل ظنًّا مبنيًّا عَلَىٰ ظنونٍ، لَا يُوازِنُ أثرًا عَن مجاهدٍ — فكيف بنصِّ الكتابِ والسُّنَّةِ الَّذِي أجمعَ السلفُ عَلَىٰ دلالتِه؟

سابعـًا: لَا عِلمَ إلَّا فِيمَا نفعَ.

كلُّ بحثٍ يُعرَضُ عَلَىٰ الكتابِ والسُّنَّةِ وفهمِ السلفِ؛ فَمَا خالفَ العقيدةَ أَو عَرِيَ عَن النفعِ فمردودٌ لَا يُخاضُ فِيهِ.

فالمسلمُ لَا يطلبُ إلَّا مَا ينفعُه فِي دينِه أَو دنياه، وَلَا يُنفِقُ عمرَه فِيمَا لَا ثمرةَ تحتَه؛ وأمَّا "الفضائيُّونَ" ونحوُهم فترَفٌ يتنزَّهُ عَنهُ.

وَبِهَذَا يحفظُ الباحثُ المسلمُ دينَه ودنياه فِي خوضِ هَذِهِ العلومِ.

(الجهلِ، والجدَلِ، والتَّأَثُّرِ بِالفلسَفاتِ، والاغتِرارِ بِالتَّجريبِ)، وَمِنهَا مَا يرجِعُ إِلَىٰ شهوَةٍ (كاتِّباعِ الْهَوَىٰ والانفِلاتِ مِنَ التَّكليفِ)؛ فالأَوَّلُ مرَضُ العِلمِ، والثَّاني مرَضُ الإرادَةِ.

وَهَذَا مُطابِقٌ لِما تقرر فِي الأصول مِن أنَّ مدارَ الضَّلالِ عَلَىٰ الشُّبُهاتِ والشَّهَواتِ؛ فمَن سلِمَ مِنهما سلِمَ دينُهُ.

والغُلُوُّ فِي الصَّالِحينَ -وَهُوَ الثَّالثُ- جامِعٌ بينَ الأمرَينِ غالِبًا: شُبهَةٍ فِي فهمِ مكانَةِ الصَّالِحينَ، وهوًىٰ فِي تعظيمِهِم؛ ولِذا كانَ أصلَ الشِّركِ فِي بَني آدَمَ، كَمَا وقَعَ فِي قومِ نوحٍ.

مسألَة: أنواعُ الأدِلّةِ على إقرارِ المُشركِينَ بِرُبوبيّةِ الله:

قَد أقرَّ المُشرِكونَ بِهذا التَّوحيدِ فِي الجملَةِ، كَمَا قالَ تعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [سورة العنكبوت:٦١]، وقالَ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [سورة العنكبوت:٦٣]؛ وكذلكَ أقرَّت بِهِ الأمَمُ ظاهِرًا أَو باطِنًا، ومنهُم فِرعَونُ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [سورة النمل:١٤].

ومِن أنواعِ الأدِلَّةِ عَلَىٰ إقرارِهِم بِهذا التَّوحيدِ فِي الجملَةِ:

الأوَّلُ: الأدِلَّةُ الَّتي فِيهَا تصريحُهُم بِاعتِقادِهِم أنَّ اللهَ مُنفَرِدٌ بِالخلقِ والمُلكِ والتَّدبيرِ والهِدايَةِ والإحياءِ والإماتَةِ، والأدِلَّةُ عَلَىٰ هَذَا كثيرَةٌ.

الثَّاني: أنَّهُم فِي الشَّدائدِ يتضَرَّعونَ إِلَىٰ اللهِ وحدَهُ، قالَ تعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة العنكبوت:٦٥]، ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة لقمان:٣٢]، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء:٦٧].

ولِمَ لَم يَدعُوا معبوداتِهِم الَّتي يعبُدونَها مَعَ اللهِ؟ لِمَ لَم يَقُولُوا: يَا هُبَلُ، يَا عُزَّىٰ، يَا سُواعُ؟ هَل كَانُوا يُبغِضونَهُم؟ لَا، بَل كَانُوا يُحِبُّونَهُم كحُبِّ اللهِ، هَل كَانُوا لَا يُعَظِّمونَهُم؟ بَلَىٰ، كَانُوا يُعَظِّمونَهُم، فلِمَ لَم يسألوهُم فِي الشَّدائدِ؟ لِأَنَّهُم يعتَقِدونَ أَنَّهُم لَن ينفَعوهُم، وأنَّ الَّذي بِيَدِهِ ذلكَ هُوَ الَّذي بِيَدِهِ مُلكُ كلِّ شيءٍ، وَهُوَ اللهُ وحدَهُ، فالمقامُ مقامُ شِدَّةٍ، وَلَا يُنقِذُهُم إلَّا القويُّ القادِرُ المُدبِّرُ؛ فلِذلكَ ضلَّ عنهُم مَا كَانُوا يدعونَ فِي الرَّخاءِ، وصاروا يلجَؤونَ إِلَىٰ اللهِ وحدَهُ.

وَهَذَا دليلٌ عَلَىٰ أنَّهُم لَم يعتَقِدوا الرُّبوبيَّةَ فِي آلِهَتِهِم.

الثَّالثُ: إقرارُهُم بِعَجزِ آلِهَتِهِم، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة لقمان:٣٢]؛ ويُستَفادُ مِنهَا وجهانِ: أَنَّهُم اعتَقَدوا انفِرادَ اللهِ ولِذلكَ دعَوهُ، وأنَّ دعاءَهُم اللهَ وتركَهُم دعاءَ آلِهَتِهِم دليلٌ عَلَىٰ أنَّهُمُ اعتَقَدوا العجزَ فِي آلِهَتِهِم، والعاجِزُ لَا يكونُ ربًّا.

الرَّابعُ: أنَّهُم يُقِرُّونَ أنَّ آلِهَتَهُم لَا تعدو أَن تكونَ شُفَعاءَ عندَ اللهِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر:٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [سورة يونس:١٨].

الخامِسُ: أنَّهُم كَانُوا يعتَقِدونَ أنَّ آلِهَتَهُم مملوكَةٌ لِلَّهِ لَا تملِكُ شيئًا.

٢١٥ - **رَوَىٰ مُسلِمٌ (رقم ١١٨٥) عنِ ابنِ عبَّاسٍ قالَ:** «كانَ المُشرِكونَ يقولونَ: لبَّيكَ لَا شريكَ لكَ، فيقولُ رسولُ اللهِ -ﷺ-: ويلَكُم، قَد قَد! فيقولونَ: إلَّا شريكًا هُوَ لكَ، تملِكُهُ وَمَا ملَكَ»، فَهَذَا دليلٌ واضِحٌ أَنَّهُم يرَونَها مملوكَةً، والمملوكُ لَا يكونُ ربًّا.

السَّادِسُ: أنَّ اللهَ أثبَتَ لهُم إيمانًا وشِركًا معًا، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [سورة يوسف:١٠٦]، فسَّرَها ابنُ عبَّاسٍ وقتادَةُ وعِكرِمَةُ وغيرُهُم: أنَّهُم كَانُوا إِذَا سُئِلوا: مَن خلَقَ السَّماواتِ؟ مَن خلَقَ الأرضَ؟ مَن خلَقَ الجِبالَ؟ قَالُوا: اللهُ، وَهُم مُشرِكونَ فِي العِبادَةِ.

السَّابِعُ: أنَّا لَا نجِدُ فِي القُرآنِ أمرًا لهُم بِأن يُوَحِّدوا اللهَ فِي الخلقِ والرِّزقِ والتَّدبيرِ؛ فَلَم يرِد خِطابٌ يقولُ لهُم: اعتَقِدوا أنَّ اللهَ هُوَ الخالِقُ وحدَهُ، وإنَّما جاءَ الخِطابُ بِقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [سورة البقرة:٢١]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [سورة البقرة:٢٢].

الثَّامِنُ: أدِلَّةُ القُرآنِ الَّتي تحتَجُّ عليهِم فِي الأُلوهيَّةِ بِإقرارِهِم بِالرُّبوبيَّةِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [سورة البقرة:٢١]، ثمَّ ساقَ الدَّليلَ عَلَىٰ وُجوبِ عِبادَتِهِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [سورة البقرة:٢٢]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة:٢٢].

٢١٦ - **قالَ ابنُ عبَّاسٍ:** «وأنتُم تعلَمونَ أنَّ اللهَ هُوَ الَّذي خلَقَ تلكَ الأشياءَ».

التَّاسِعُ: اعتِرافُهُم بِأنَّ الشِّركَ كانَ فِي العِبادَةِ دونَ الرُّبوبيَّةِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [سورة الأنعام:١٤٨]؛ فإثباتُهُم مشيئَةَ اللهِ دليلٌ عَلَىٰ إقرارِهِم بِالرُّبوبيَّةِ، وأنَّ التَّدبيرَ لِلَّهِ، لكنَّهُم يُشرِكونَ فِي الأُلوهيَّةِ.

فهذِهِ مجموعَةٌ مِنَ الأدِلَّةِ تدُلُّ عَلَىٰ أنَّ المُشرِكينَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِرُبوبيَّةِ اللهِ فِي الجملَةِ، وينبَغي التَّنبيهُ: ليسَ فِي هَذَا مدحٌ لهُم، بَل هُوَ أعظَمُ الذَّمِّ لهُم؛ لِأنَّهُم مَعَ إقرارِهِم بِرُبوبيَّةِ اللهِ أشرَكوا معهُ فِي الأُلوهيَّةِ، والكلامُ هُنَا عنِ الغالِبِ، وإلَّا فَقَد وُجِدَ فِي النَّاسِ مَن كانَ مُشرِكًا فِي الرُّبوبيَّةِ أيضًا؛ مثلَ النَّصارىٰ، وبعضِ القبائلِ المُتَنَصِّرَةِ،

والمَجوسِ، والدَّهريَّةِ المُنكِرينَ لِوُجودِ اللهِ أصلًا.

فالمقصودُ تقريرُ الحالِ الغالِبَةِ كَمَا بيَّنَها اللهُ فِي كِتابِهِ.

قلتُ: ووجهُ سَوقِ هذهِ الأدِلَّةِ التِّسعَةِ أنَّها تُقرِّرُ أصلًا عظيمًا فِي الدَّعوةِ: أنَّ توحيدَ الرُّبوبيَّةِ الَّذي أقَرَّ بهِ المُشرِكونَ ليسَ هُوَ التَّوحيدَ الَّذي بُعِثَت بهِ الرُّسُلُ؛ فإنَّ القومَ كَانُوا يُقرُّونَ بِأنَّ اللهَ هُوَ الخالِقُ الرَّازِقُ المُدبِّرُ، ويلجَؤونَ إليهِ وحدَهُ فِي الشَّدائِدِ، ويعترِفونَ بِعَجزِ آلِهَتِهِم وكونِها مملوكَةً مربوبَةً؛ وَمَعَ ذلكَ لَم يُدخِلهُم هَذَا الإقرارُ فِي الإسلامِ، بَل قاتَلَهُمُ النَّبيُّ -ﷺ-.

فدلَّ أنَّ مناطَ النَّجاةِ توحيدُ الأُلوهيَّةِ، وَهُوَ إفرادُ اللهِ بِالعِبادَةِ، لَا مُجَرَّدُ الإقرارِ بِالرُّبوبيَّةِ؛ وَهَذَا هُوَ مقصودُ المُصَنِّفِ مِن هَذَا الأصلِ.

ومِنَ المُخالَفاتِ الَّتي وقَعَ فِيهَا بعضُهُم فِي توحيدِ الرُّبوبيَّةِ -مَعَ إقرارِهِم بِهِ فِي الجملَةِ-: اعتِقادُ بعضِ النَّفعِ والضَّرِّ لِلآلِهَةِ، وإنكارُ الرِّسالَةِ، وإنكارُ البَعثِ، والتَّحليلُ والتَّحريمُ بِغيرِ مَا أنزَلَ اللهُ، وعدَمُ الالتِزامِ بِلازِمِ الرُّبوبيَّةِ وَهُوَ توحيدُ العِبادَةِ، واعتِقادُ أنَّ بعضَ السَّحَرَةِ والكُهَّانِ يعلَمونَ الغيبَ، والتَّشاؤُمُ والتَّطَيُّرُ والتَّعَلُّقُ بِالتَّمائمِ، والتَّبَرُّكُ بِالأحجارِ والأشجارِ، والاستِمطارُ بِالنُّجومِ.

وَمَعَ هَذَا فتوحيدُ الرُّبوبيَّةِ لَا يَكفِي وحدَهُ فِي دُخولِ الإسلامِ؛ ولِذلكَ قاتَلَ رسولُ اللهِ -ﷺ- مَن أقَرَّ بِهِ وصرَفَ العِبادَةَ لِغيرِ اللهِ.

٢١٧ - **جاءَ فِي «مدارِجِ السَّالِكينَ» (١/ ٥٠٤):** «وَلَو أنجىٰ هَذَا التَّوحيدُ -توحيدُ الرُّبوبيَّةِ- وحدَهُ، لأنجىٰ عُبَّادَ الأصنامِ؛ والشَّأنُ فِي توحيدِ الإلَهيَّةِ الَّذي هُوَ الفارِقُ بينَ المُشرِكينَ والمُوَحِّدينَ».

قلتُ: ووجهُ كونِ توحيدِ الرُّبوبيَّةِ لَا يَكفِي وحدَهُ أنَّ المُشرِكينَ أقرُّوا بهِ وَلَم يُدخِلهُمُ الإسلامَ؛ فَلَو كانَ كافيًا لكانوا مُسلِمينَ، ولَما قاتَلَهُمُ النَّبيُّ -ﷺ-.

فبانَ أنَّ التَّوحيدَ المطلوبَ -الَّذي هُوَ الفارِقُ بينَ أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النَّارِ- هُوَ توحيدُ الأُلوهيَّةِ، أَي إفرادُ اللهِ بالعِبادَةِ.

وَهَذَا هُوَ المقصودُ من قَولُهُ: أنَّ الإقرارَ بِالخالِقِ لَا يُنجي مَا لَم يقترِن بِإفرادِهِ بالعِبادَةِ؛ فالرُّبوبيَّةُ مُستلزِمَةٌ لِلأُلوهيَّةِ، فمَن أقرَّ بالأولىٰ وَلَم يأتِ بِالثَّانيَةِ فَقَد ناقَضَ مُقتَضىٰ إقرارِهِ.(١)

(١) **قَالَ ابن تيمية فِي مجموع الفتاوىٰ (٨ / ٦٣ - ٦٤):** " وَهَؤُلَاءِ غَايَةُ تَوحِيدِهِم هُوَ تَوحِيدُ المُشرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَعبُدُونَ الأَصنامَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ عَنهُم: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ٨٩﴾ [سورة المؤمنون:٨٤-٨٩]،

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٦٣﴾ [سورة العنكبوت:٦١-٦٣]

وَقَالَ تعَالَىٰ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة لقمان:٢٥]،

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [سورة الزخرف:٨٧]،

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣٤ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ

قُلتُ: فَهَذَا هُوَ الأصلُ الأوَّلُ: معرِفةُ العبدِ ربَّهُ؛ وَقَد تبيَّنَ أنَّهُ يقومُ عَلَىٰ أمرَينِ: الإقرارِ بتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ -وَهُوَ انفِرادُ اللهِ بِالخلقِ والرِّزقِ والتَّدبيرِ-، وأنَّ هَذَا الإقرارَ مُستَلزِمٌ لِإفرادِ اللهِ بِالعِبادَةِ، وَهُوَ توحيدُ الأُلوهيَّةِ.

فمَن عرَفَ ربَّهُ حقَّ المعرِفَةِ أفرَدَهُ بِالعِبادَةِ، وَلَم يصرِف شيئًا مِنهَا لِغيرِهِ.

وخِتامُ القولِ فِي هَذَا الأصلِ أنَّ المُصنِّفَ بدَأَ بِمَعرِفَةِ الرَّبِّ لِأنَّها أصلُ الأصولِ، وأوَّلُ مسائلِ القبرِ؛ فبَنَىٰ الجوابَ عَلَىٰ قاعِدَتَينِ: تقريرِ الرُّبوبيَّةِ بِالآياتِ والمخلوقاتِ، ثمَّ بيانِ أنَّها تستَلزِمُ الأُلوهيَّةَ.

فجَمَعَ فِي جوابِ «مَن ربُّكَ؟» بينَ النَّوعَينِ: «ربِّيَ اللهُ الَّذي ربَّاني» (رُبوبيَّةٌ)، «وَهُوَ مَعبُودِي ليسَ لِي معبودٌ سِواهُ» (أُلوهيَّةٌ)؛ لِيُقَرِّرَ أنَّ معرِفةَ الرَّبِّ الحقَّةَ لَا تنفكُّ عَن إفرادِهِ بِالعِبادَةِ.

﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٥﴾ [سورة يونس:٣١-٣٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٣ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤﴾ [سورة النمل:٦٠-٦٤]، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ المُشرِكِينَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ وَخَالِقُهُم وَبِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيءٍ بَل كَانُوا مُقِرِّينَ بِالقَدَرِ أَيضًا فَإِنَّ العَرَبَ كَانُوا يُثبِتُونَ القَدَرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ وَهُوَ مَعرُوفٌ عَنهُم فِي النَّظمِ وَالنَّثرِ وَمَعَ هَذَا فَلَمَّا لَم يَكُونُوا يَعبُدُونَ اللهَ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ بَل عَبَدُوا غَيرَهُ كَانُوا مُشرِكِينَ شَرًّا مِن اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ. فَمَن كَانَ غَايَةُ تَوحِيدِهِ وَتَحقِيقِهِ هُوَ هَذَا التَّوحِيدَ كَانَ غَايَةُ تَوحِيدِهِ تَوحِيدَ المُشرِكِينَ".

وبِهذا يتَّصِلُ هَذَا الأصلُ بِما بعدَهُ: فإنَّ مَن عرَفَ ربَّهُ ودانَ لهُ بِالعِبادَةِ، احتاجَ أَن يعرِفَ الدِّينَ الَّذي يعبُدُهُ بهِ، وَهُوَ الأصلُ الثَّاني.

قال المؤلف - رحمه الله -:

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفتَ رَبَّكَ؟

فَقُل: بِآيَاتِهِ وَمَخلُوقَاتِه.

وَمِن آيَاتِهِ: اللَّيلُ، وَالنَّهارُ، وَالشَّمسُ، وَالقَمرُ.

وَمِن مَخلُوقَاتِهِ: السَّموَاتُ السَّبعُ وَمَن فِيهِنَّ، وَالأَرَضُونَ السَّبعُ وَمَن فِيهِنَّ، وَمَا بَينَهُمَا.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [سورة فصلت:٣٧].

وَقَولُهُ تَعالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [سورة الأعراف:٥٤].

أَي: إِذَا سُئِلتَ: كيفَ عرفتَ ربَّكَ؟ وبماذا عرفتَهُ؟ فاعلَم أنَّ معرِفَةَ اللهِ ومعرِفَةَ الرَّبِّ سُبحانَهُ معرِفَةٌ فِطرِيَّةٌ، يُسمِّيها أهلُ السُّنَّةِ والجماعَةِ: المعرِفَةَ الفِطرِيَّةَ.

وَمَعنَىٰ كونِها فِطرِيَّةً: أنَّ النَّاسَ مفطورونَ عَلَىٰ معرِفَةِ ربِّهِم مِن حيثُ الجملَةُ، فهذِهِ المعرِفَةُ مُرتَكِزَةٌ فِي الفِطَرِ، وتأتِي الرُّسُلُ لِتُعرِّفَ النَّاسَ بِرَبِّهِم تعريفًا مُفَصَّلًا،

وتدعوهُم إِلَىٰ عِبادَتِهِ عَلَىٰ بصيرةٍ؛ وأمَّا معرِفَةُ الرَّبِّ مِن حيثُ الإجمالُ فَهِيَ موجودَةٌ فِي الفِطَرِ.

وَمَعَ ذلكَ فإنَّ لِمَعرِفَةِ اللهِ أدِلَّةً أُخرىٰ، وَهِيَ أَدِلَّةٌ شرعيَّةٌ وعقليَّةٌ.

وقدِ ابتَدَأَ الشَّيخُ فِي هَذَا الموضِعِ بِذِكرِ الأدِلَّةِ العقليَّةِ، وَهِيَ أَدِلَّةٌ مُتَنَوِّعَةٌ؛ فمنها مَا يتعَلَّقُ بِالآفاقِ، وَمِنهَا مَا يتعَلَّقُ بِالأنفُسِ.

لكنَّ الفِطرَةَ قَد يطرَأُ عَلَيهَا مَا يُغَطِّيها مِن شُبهَةٍ أَو هوًىٰ، فجاءَتِ الأدِلَّةُ العقليَّةُ والشَّرعيَّةُ لِتَجليَةِ مَا رانَ عَليهَا، وتثبيتِ مَا فِيهَا؛ فَهِيَ مُوقِظَةٌ لِلفِطرَةِ، لَا مُنشِئَةٌ لها.[(١)]

---

(١) جاءَ فِي «مِفتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ وَمَنشُورِ وِلَايَةِ العِلمِ وَالإِرَادَةِ» (٢/ ١٠٧٨): حَتَّىٰ إِنَّهُ لَو قُدِّرَ أَنَّهُ لَم يُرسِل رُسُلَهُ وَلَم يُنزِل كُتُبَهُ لَكَانَ فِي الفِطرَةِ وَالعَقلِ مَا يَقتَضِي شُكرَهُ وَإِفرَادَهُ بِالعِبَادَةِ، كَمَا [أَنَّ] فِيهِمَا مَا يَقتَضِي تَنَاوُلَ المَنَافِعِ وَاجتِنَابَ المَضَارِّ، وَلَا فرقَ بَينَهُمَا فِي الفِطرَةِ وَالعَقلِ؛ فَإِنَّ اللهَ فَطَرَ خَلِيقَتَهُ عَلَىٰ مَحَبَّتِهِ وَالإِقبَالِ عَلَيهِ، وَابتِغَاءِ الوَسِيلَةِ إِلَيهِ، وَأَنَّهُ لَا شَيءَ عَلَىٰ الإِطلَاقِ أَحَبُّ إِلَيهَا مِنهُ، وَإِن فَسَدَت فِطَرُ أَكثَرِ الخَلقِ بِمَا طَرَأَ عَلَيهَا مِمَّا اقتَطَعَهَا وَاجتَالَهَا عَمَّا خُلِقَ فِيهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٠ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ [سورة الروم: ٣٠-٣١].

فَبَيَّنَ سُبحَانَهُ أَنَّ إِقَامَةَ الوَجهِ ـ وَهُوَ إِخلَاصُ القَصدِ، وَبَذلُ الوُسعِ لِدِينِهِ، المُتَضَمِّنُ مَحَبَّتَهُ وَعِبَادَتَهُ، حَنِيفًا، مُقبِلًا عَلَيهِ، مُعرِضًا عَمَّا سِوَاهُ ـ هُوَ فِطرَتُهُ الَّتِي فَطَرَ عَلَيهَا عِبَادَهُ، فَلَو خُلُّوا وَدَوَاعِيَ فِطَرِهِم لَمَا رَغِبُوا عَن ذَلِكَ، وَلَا اختَارُوا سِوَاهُ، وَلَكِن غُيِّرَتِ الفِطَرُ وَأُفسِدَت، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «مَا مِن مَولُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَىٰ الفِطرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمعَاءَ، هَل تُحِسُّونَ فِيهَا مِن جَدعَاءَ؟ حَتَّىٰ تَكُونُوا أَنتُم تَجدَعُونَهَا»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيرَةَ: اقرَؤُوا إِن شِئتُم: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [سورة الروم: ٣٠].

وَقَالَ فِي «مِفتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ وَمَنشُورِ وِلَايَةِ العِلمِ وَالإِرَادَةِ» (٢/ ٢٣): «وَهَل جَعَلَ اللهُ سُبحَانَهُ فِي فِطَرِ العِبَادِ استِوَاءَ العَدلِ وَالظُّلمِ وَالصِّدقِ وَالكَذِبِ وَالفُجُورِ وَالعِفَّةِ وَالإِحسَانِ وَالإِسَاءَةِ وَالصَّبرِ وَالعَفوِ

وَفي ابتداءِ المُصَنِّفِ بالأدِلَّةِ العقليَّةِ (الآياتِ والمخلوقاتِ) مُناسَبَةٌ لِحالِ السَّائلِ، إذ هِيَ أقرَبُ إِلَىٰ كلِّ أحدٍ، يُدرِكُها العاميُّ والعالِمُ.

مسألة: أنّ آياتِ الآفاقِ والأنفسِ عِصمَةٌ مِنَ الشّركِ:

فإنَّ ممَّا عصمَ اللهُ بِهِ عبادَهُ عنِ الوُقوعِ فِي الشِّركِ -عِصمَةً عامَّةً لِلخَلقِ كلِّهِم، ينتَفِعُ بِها مَن شاءَ اللهُ هِدايَتَهُ، ويُعرِضُ عَنهَا مَن خذَلَهُ-: آياتُهُ المنثورَةُ فِي الآفاقِ وَفِي الأنفُسِ، الدَّالَّةُ عَلَىٰ وُجوبِ توحيدِهِ، وقُبحِ الشِّركِ بِهِ، وعِظَمِ عُقوبَتِهِ.

فهذِهِ الآياتُ، مَن فتحَ اللهُ بصيرَتَهُ لَهَا، وجَدَها تُحرِقُ كلَّ شُبهَةٍ، وتُخرِسُ كلَّ كَفورٍ، وتُرغِمُ كلَّ مُكابِرٍ عنيدٍ، وتُحطِّمُ كلَّ عقبَةٍ أمامَ التَّوحيدِ.

وَالاحتِمَالِ وَالطَّيشِ وَالانتِقَامِ وَالحِدَّةِ وَالكَرَمِ وَالسَّمَاحَةِ وَالبَذلِ وَالبُخلِ وَالشُّحِّ وَالإِمسَاكِ، بَلِ الفِطرَةُ عَلَىٰ الفُرقَانِ بَينَ ذَلِكَ كَالفِطرَةِ عَلَىٰ قَبُولِ الأَغذِيَةِ النَّافِعَةِ وَتَركِ مَا لَا يَنفَعُ وَلَا يُغَذِّي، وَلَا فَرقَ فِي الفِطرَةِ بَينَهُمَا أَصلًا، وَإِذَا تَأَمَّلتَ الشَّرِيعَةَ الَّتِي بَعَثَ اللهُ بِهَا رَسُولَهُ حَقَّ التَّأَمُّلِ وَجَدتَهَا مِن أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرِهَا شَاهِدَةً بِذَلِكَ نَاطِقَةً بِهِ».

وَجَاءَ فِي «مِفتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ وَمَنشُورِ وِلَايَةِ العِلمِ وَالإِرَادَةِ» (٢/ ١٠٢٧): «الشَّرَائِعُ إِنَّمَا جَاءَت بِتَكمِيلِ الفِطَرِ وَتَقرِيرِهَا، لَا بِتَحوِيلِهَا وَتَغيِيرِهَا، فَمَا كَانَ فِي الفِطرَةِ مُستَحسَنًا جَاءَتِ الشَّرِيعَةُ بِاستِحسَانِهِ، فَكَسَتهُ حُسنًا إِلَىٰ حُسنِهِ، فَصَارَ حَسَنًا مِنَ الجِهَتَينِ، وَمَا كَانَ فِي الفِطرَةِ مُستَقبَحًا جَاءَتِ الشَّرِيعَةُ بِاستِقبَاحِهِ، فَكَسَتهُ قُبحًا إِلَىٰ قُبحِهِ، فَصَارَ قَبِيحًا مِنَ الجِهَتَينِ.

وَأَيضًا؛ فَهَذِهِ القَضَايَا مُستَحسَنَةٌ وَمُستَقبَحَةٌ عِندَ مَن لَم تَبلُغهُ الدَّعوَةُ، وَلَم يُقِرَّ بِنُبُوَّةٍ.

وَأَيضًا؛ فَمَجِيءُ الرَّسُولِ بِالأَمرِ بِحَسَنِهَا، وَالنَّهيِ عَن قَبِيحِهَا دَلِيلٌ عَلَىٰ نُبُوَّتِهِ، وَعَلَمٌ عَلَىٰ رِسَالَتِهِ، كَمَا قَالَ بَعضُ الصَّحَابَةِ وَقَد سُئِلَ عَمَّا أَوجَبَ إِسلَامَهُ؛ فَقَالَ: «مَا أَمَرَ بِشَيءٍ فَقَالَ العَقلُ: لَيتَهُ نَهَىٰ عَنهُ، وَلَا نَهَىٰ عَن شَيءٍ فَقَالَ العَقلُ: لَيتَهُ أَمَرَ بِهِ».

فَلَو كَانَ الحُسنُ وَالقُبحُ لَم يَكُن مَركُوزًا فِي الفِطَرِ وَالعُقُولِ لَم يَكُن مَا أَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ وَنَهَىٰ عَنهُ عَلَمًا مِن أَعلَامِ صِدقِهِ، وَمَعلُومٌ أَنَّ شَرعَهُ وَدِينَهُ عِندَ الخَاصَّةِ مِن أَكبَرِ أَعلَامِ صِدقِهِ وَشَوَاهِدِ نُبُوَّتِهِ، كَمَا تَقَدَّمَ.

وإعمالُ النَّظَرِ والفِكرِ فِي هَذَا الكونِ الفسيحِ، ومشاهَدَةُ آياتِ اللهِ العظيمَةِ فِي الأنفُسِ والآفاقِ، يوجِبُ لِلإنسانِ معرِفَةَ اللهِ ورُبوبيَّتَهُ ووحدانيَّتَهُ، وبُطلانَ مَا يُعبَدُ مِن دونِهِ مِنَ الشُّرَكاءِ والأندادِ؛ فإنَّ عظمَةَ المخلوقِ دليلٌ عَلَىٰ عظمَةِ الخالِقِ وقُدرَتِهِ، وكلَّما تعرَّفَ الإنسانُ عَلَىٰ شيءٍ مِن مخلوقاتِ اللهِ، ومظاهِرِ عظمَتِهِ فِي هَذَا الكونِ، ازدادَ خوفًا منهُ، وحُبًّا لهُ، وإيمانًا بِأنَّهُ المُستَحِقُّ لِلعِبادَةِ وحدَهُ دونَ سِواهُ.

وَقَد حثَّ اللهُ عَلَىٰ التَّفَكُّرِ فِي آياتِهِ الكونِيَّةِ، وأثنىٰ عَلَىٰ المُتَفَكِّرينَ والمُستبصِرينَ بِها، فقالَ فِي آيَةٍ جامِعَةٍ لِآياتِ الآفاقِ والأنفُسِ والعقلِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة:١٦٤].

٢١٨ - **رَوَىٰ ابنُ جريرٍ عَن عطاءِ بنِ أَبِي رَباحٍ -مِن طريقِ ابنِ أَبِي نجيحٍ- قالَ:** نزَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ -ﷺ- بِالمدينَةِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [سورة البقرة:١٦٣]، فقالَ كُفَّارُ قُرَيشٍ بِمَكَّةَ: كيفَ يسَعُ النَّاسَ إلَهٌ واحِدٌ؟! فأنزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إِلَىٰ قولِهِ: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، فبِهذا يعلَمونَ أنَّهُ إلَهٌ واحِدٌ، وإلَهُ كلِّ شيءٍ، وخالِقُ كلِّ شيءٍ.

قلتُ: ووجهُ كونِ آياتِ الآفاقِ والأنفُسِ عِصمَةً مِنَ الشِّركِ أنَّها براهينُ ناطِقَةٌ بِوَحدانيَّةِ الخالِقِ، مبثوثَةٌ فِي كلِّ مَا يقَعُ عليهِ بصَرُ الإنسانِ؛ فَلَا يُعذَرُ أحَدٌ فِي الإعراضِ عَنهَا، إذ هِيَ حُجَّةٌ قائمَةٌ عَلَىٰ الخلقِ كلِّهِم.

وَفِي أثَرِ عطاءٍ بيانُ سببِ النُّزولِ: أنَّ المُشرِكينَ استكثَروا أَن يكونَ الإلَهُ واحِدًا يسَعُ النَّاسَ كلَّهُم، فأجابَهُمُ اللهُ بِآيَةِ الخلقِ، إذِ الَّذي خلقَ هَذَا الكونَ العظيمَ بِما فيهِ قادِرٌ

عَلَىٰ أَن يسَعَ النَّاسَ بِأُلوهيَّتِهِ؛ فكانتِ الآيَةُ حُجَّةً عقليَّةً عَلَىٰ وحدانيَّتِهِ فِي الألُوهيَّةِ، مأخوذَةً مِن وحدانيَّتِهِ فِي الرُّبوبيَّةِ والخلقِ.

ومن الأدلة: دليلُ السَّبرِ والتَّقسيمِ فِي آيَةِ الطُّورِ:

قالَ تعالَىٰ: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦﴾ [سورة الطور: ٣٥-٣٦].

٢١٩ - **قالَ مقاتِلُ بنُ سُليمانَ:** ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾ أي: أكانوا خُلِقوا مِن غيرِ خالِقٍ؟ ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ أَي: أَم هُم خلقوا الخلقَ؟ ﴿أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ﴾ أَي: أخلَقوا السَّماواتِ والأرضَ؟ ثمَّ قالَ: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أَي: لَا يوقِنونَ بِتَوحيدِ اللهِ الَّذي خلَقَهُما، وأنَّهُ واحِدٌ لَا شريكَ لهُ.

قلتُ: ووجهُ الدلالَةِ مِن آيَةِ الطُّورِ أنَّها حصَرَتِ الاحتِمالاتِ العقليَّةَ فِي وُجودِ الإنسانِ ثمَّ أبطَلَتها إلَّا واحِدًا؛ فإمَّا أن يكونَ الإنسانُ خُلِقَ مِن غيرِ خالِقٍ -وَهَذَا محالٌ، إذِ المُحدَثُ لَا بُدَّ لهُ مِن مُحدِثٍ-، وإمَّا أَن يَكُونُوا هُم خلَقوا أنفُسَهُم -وَهَذَا أمحَلُ، إذِ المعدومُ لَا يخلُقُ-، وإمَّا أَن يَكُونُوا خلَقوا السَّماواتِ والأرضَ -وَهُم لَا يدَّعونَ ذلكَ-؛ فَلَم يبقَ إلَّا أنَّ لهُم خالِقًا خلَقَهُم وخلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، وَهُوَ اللهُ، وَهَذَا مِن أبلَغِ الحُجَجِ العقليَّةِ، دليل: «السَّبرَ والتَّقسيمَ»، وَهُوَ حصرُ الأقسامِ ثمَّ إبطالُ الباطِلِ مِنهَا حتَّىٰ يتعَيَّنَ الحقُّ.

ومن الأدلة: دليلُ الخلقِ:

مِن آياتِ اللهِ فِي الآفاقِ أنَّ مَن نظَرَ فِي هَذَا الكونِ -بِما فيهِ ومَن فيهِ- وجَدَ أربعَةَ أدِلَّةٍ عظيمَةٍ تهديهِ إِلَىٰ التَّوحيدِ:

وَهُوَ مِن أظهَرِ الأدِلَّةِ وأبيَنِها عَلَىٰ التَّوحيدِ، سواءٌ بِالنَّظَرِ فِي خلقِ الإنسانِ، أَو فِي خلقِ مَا فِي الآفاقِ كلِّها، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [سورة الذاريات:٢٠].

٢٢٠- قالَ قتادَةُ -مِن طريقِ معمَرٍ-: «مُعتبَرٌ لِمَنِ اعتبَرَ»، وقالَ -مِن طريقِ سعيدٍ: «إِذَا سارَ فِي أرضِ اللهِ رَأَىٰ عِبرًا، وآياتٍ عِظامًا»، وقالَ مقاتِلُ بنُ سُليمانَ: يَعنِي: مَا فِيهَا مِنَ الجِبالِ، والبِحارِ، والأشجارِ، والثِّمارِ، والنَّبتِ عامًا بعدَ عامٍ، فَفِي ذلكَ كلِّهِ آياتٌ، أَي: عِبرَةٌ لِلموقِنينَ بِالرَّبِّ تَعالَىٰ؛ لِتَعرِفوا صُنعَهُ فتُوَحِّدوهُ.

ومن الأدلة: دليلُ التَّسويَةِ:

دليلُ التَّسويَةِ؛ والمقصودُ بِالتَّسويَةِ: إتقانُ الخلقِ، وإحسانُ الصَّنعَةِ، وإكمالُ التَّهيِئَةِ بِحَيثُ يُؤَدِّي كلُّ مخلوقٍ وظيفَتَهُ عَلَىٰ أكمَلِ وجهٍ، بِلا تفاوُتٍ وَلَا خلَلٍ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [سورة النمل:٨٨]، ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [سورة السجدة:٧]، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [سورة الملك:٣].

ومن الأدلة: دليلُ التَّقديرِ:

دليلُ التَّقديرِ؛ وَهُوَ خلقُ كلِّ شيءٍ بِمِقدارٍ وميزانٍ وحِسابٍ، يُناسِبُ مكانَهُ وزمانَهُ، ويتَناسَقُ مَعَ سائِرِ الموجوداتِ.

قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [سورة الفرقان:٢]، وقالَ قتادَةُ -مِن طريقِ سعيدٍ-: هِيَ هذهِ الأوثانُ الَّتِي تُعبَدُ مِن دونِ اللهِ، واللهُ هُوَ الخالِقُ الرَّازِقُ، وهذهِ الأوثانُ تُخلَقُ وَلَا تَخلُقُ، وَلَا تضُرُّ وَلَا تنفَعُ، وَلَا تملِكُ موتًا وَلَا حياةً.

ومن الأدلة: دليلُ الهِدايَةِ:

دليلُ الهِدايَةِ؛ وَهِيَ مِن أظهَرِ الأدِلَّةِ الكونيَّةِ عَلَىٰ وحدانيَّةِ اللهِ، ومعناها: أنَّ كلَّ

مخلوقٍ قَد أُلهِمَ مَا خُلِقَ لهُ، وهُدِيَ إِلَىٰ مَا يُصلِحُهُ، واجتَنَبَ مَا يضُرُّهُ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [سورة الأعلى:٢-٣].

٢٢١- **وقالَ مقاتِلُ بنُ سُليمانَ فِي** ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلى:١]: أَي: نزِّه ربَّكَ عنِ الشِّركِ، بِشَهادَةِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

فَهَذا بحرٌ لَا ساحِلَ لهُ، وكلُّ مَا يُرىٰ فِي هَذا الكونِ دليلٌ عَلَىٰ الوحدانيَّةِ، وَقَد ختمَ اللهُ كثيرًا مِن آياتِ الآفاقِ بِقولِهِ: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٢١﴾؛ فهذِهِ الأدِلَّةُ حُجَّةُ اللهِ عَلَىٰ خلقِهِ أجمَعينَ، وأمَّا الهِدايَةُ فَهِيَ فضلٌ مِنَ اللهِ يؤتيهِ مَن يشاءُ، وَهُوَ أعلَمُ بِالمُهتَدينَ.

قلتُ: ووجهُ انتِظامِ هذهِ الأدِلَّةِ الأربَعَةِ -الخلقِ والتَّسويَةِ والتَّقديرِ والهِدايَةِ- أنَّها مراتِبُ مُتَدَرِّجَةٌ فِي صُنعِ اللهِ: فالخلقُ إيجادٌ بعدَ عدَمٍ، والتَّسويَةُ إتقانٌ لِلمَخلوقِ، والتَّقديرُ تخصيصٌ لهُ بِمقدارٍ معلومٍ، والهِدايَةُ إرشادٌ لهُ إِلَىٰ مَا خُلِقَ لهُ.

فاجتَمَعَ فِي كلِّ مخلوقٍ أربَعُ دلالاتٍ عَلَىٰ خالِقِهِ، يستَحيلُ اجتِماعُها بِالمُصادَفَةِ أوِ الطَّبيعَةِ؛ إذِ الإتقانُ والتَّقديرُ والهِدايَةُ أفعالُ حكيمٍ عليمٍ قادرٍ، لَا أفعالُ طبيعَةٍ عمياءَ.

وَقَد جمَعَ اللهُ هذهِ الأربَعَةَ فِي قولِهِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾، فَكَانَت آيَةً جامِعَةً لِبَراهينِ التَّوحيدِ فِي الآفاقِ.

مسألة: التّفكُّر في السّماءِ والأرضِ والنّفس:

النَّظَرُ فِي آياتِ اللهِ الكونيَّةِ، ومخلوقاتِهِ، ودِقَّةِ نِظامِها، وإتقانِ صَنعَتِها، وتمامِ خلقِها وجمالِها وبَهائِها؛ فكلُّها ناطِقَةٌ بِرُبوبيَّتِهِ ووحدانيَّتِهِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون:١٤].

فيَتَأمَّلُ فِي السَّماءِ وحُسنِها وارتِفاعِها وسُمكِها: هَل يَرَىٰ فِيهَا مِن فُطورٍ؟! وينظُرُ إِلَىٰ النُّجومِ فِيهَا، وَإِلَىٰ الشَّمسِ والقمَرِ فِي حُسنِهِما الباهِرِ ودِقَّةِ سيرِهِما؛ لَا يقِفانِ أبَدًا، وَلَا يتَأخَّرانِ أبَدًا منذُ أَن خلَقَ اللهُ الدُّنيا؛

قالَ تَعالَىٰ: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [سورة يس:٤٠]، وقالَ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [سورة فصلت:٣٧]، وقالَ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [سورة آل عمران:١٩٠].

وينظُرُ إِلَىٰ الأرضِ كيفَ دحاها بِكُلِّ مَا هُوَ ضروريٌّ لِلحَياةِ، وجعَلَ فِيهَا أنواعَ الحيَوانِ والطَّيرِ والنَّباتِ والكائناتِ، وقسَّمَ كلَّ شيءٍ ورِزقَهُ، فأحسَنَ كلَّ خلقِهِ، وَأَعطَىٰ كلًّا رِزقَهُ، ثمَّ هداهُ إِلَىٰ تحصيلِهِ فِي نِظامٍ بديعٍ وإحكامٍ باهِرٍ.

وَفِي نفسِ الإنسانِ مِنَ العِبَرِ مَا يُبهِرُ الألبابَ ويجعَلُها تُقِرُّ أَن لَا يكونَ هَذَا إلَّا بِتَدبيرِ العزيزِ الحكيمِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ [سورة الذاريات:٢١-٢٣]، ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [سورة الطارق:٥].

٢٢٢ - **وسُئِلَ أعرابيٌّ:** بِمَ عرَفتَ ربَّكَ؟ فقالَ: «البَعرَةُ تدُلُّ عَلَىٰ البعيرِ، والأثَرُ يدُلُّ عَلَىٰ المسيرِ، فسَماءٌ ذاتُ أبراجٍ، وأرضٌ ذاتُ فِجاجٍ، وبِحارٌ ذاتُ أمواجٍ، ألا تدُلُّ عَلَىٰ اللَّطيفِ الخبيرِ؟!».

قلتُ: ووجهُ بَلاغَةِ جوابِ الأعرابيِّ أنَّهُ احتجَّ بِأبسَطِ مَا تُدرِكُهُ الفِطرَةُ: أنَّ الأثَرَ

يدُلُّ عَلَىٰ المُؤَثِّرِ؛ فكَمَا أنَّ البَعرَةَ تدُلُّ عَلَىٰ وُجودِ بعيرٍ مرَّ، والأثَرَ فِي الرَّملِ يدُلُّ عَلَىٰ ماشٍ سارَ، فَهَذَا الكونُ العظيمُ -بِسَمائهِ وأرضِهِ وبِحارِهِ- أدَلُّ وأظهَرُ عَلَىٰ وُجودِ خالِقٍ لطيفٍ خبيرٍ.

وَهَذَا هُوَ عينُ دليلِ «الأثرِ عَلَىٰ المُؤَثِّرِ» الَّذي هُوَ من أصول الأدِلَّةِ العقليَّةِ عَلَىٰ وُجودِ الرَّبِّ؛ نطَقَت بهِ فِطرَةُ الأعرابيِّ بِلا تعَلُّمٍ، إِذ هُوَ مَركوزٌ فِي الفِطَرِ.

ولِذا فإنَّ عدَدًا مِن عُلَماءِ الطَّبيعَةِ والفلَكِ، لمَّا اطَّلَعوا عَلَىٰ دِقَّةِ خلقِ الكونِ أيقَنوا أنَّهُ لَا يكونُ إلَّا مِن عندِ أحكَمِ الحاكِمينَ.

ولمَّا أظهَروا بعضَ اكتِشافاتِهِم وانبَهَرَ النَّاسُ مِنهَا، قالَ أحَدُهُم: إنَّ مَا اطَّلَعنا عليهِ وانبَهَرَ النَّاسُ بِهِ، بِالنِّسبَةِ لِما لَم نعلَمهُ مِن هَذَا العِلمِ، مِثلُ الطِّفلِ الَّذي يلعَبُ عَلَىٰ شاطِئِ المُحيطِ؛ وصدَقَ اللهُ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [سورة الإسراء:٨٥].

ومَن أعمَلَ الفِكرَ فِي المخلوقاتِ رَأَىٰ ممَّا يُرَسِّخُ اليقينَ بِاللهِ الشَّيءَ الكثيرَ، كَمَا قالَ الحسَنُ البَصريُّ: «إنَّ أهلَ العقلِ لَم يزالوا يعودونَ بِالذِّكرِ عَلَىٰ الفِكرِ، وبِالفِكرِ عَلَىٰ الذِّكرِ، حتَّىٰ استَيقَظَت قلوبُهُم فنَطَقَت بِالحِكمَةِ».

وَهَذَا بابٌ يطولُ، فمَن أرادَ أمثِلَةً لهُ فليَتَأمَّلِ القُرآنَ يجِد فيهِ مَا يشفي ويكفي فِي بابِ التَّفكُّرِ فِي حُسنِ صُنعِ اللهِ فِي المخلوقاتِ.

فاحِرص عَلَىٰ التَّفَكُّرِ فِي المخلوقاتِ؛ فالفِكرَةُ مُخُّ العقلِ، وتفَكُّرُ ساعَةٍ خيرٌ مِن قِيامِ ليلَةٍ؛ لِأنَّ أثَرَ التَّفَكُّرِ عَلَىٰ القلبِ عظيمٌ وظاهِرٌ، وقيلَ:

إِذَا المرءُ كَانَت لهُ فِكرَةٌ... فَفِي كلِّ شيءٍ لهُ عِبرَةٌ.

وَلَا يملِكُ المُسلِمُ بعدَ هَذَا إلَّا أَن يقولَ: مَا أعظَمَ جهلَ مَن أنكَروا وُجودَ اللهِ، أَو

تنقَّصوا مِن قُدرَتِهِ وحِكمَتِهِ، وأشرَكوا بِهِ غيرَهُ! ولكنَّ اللهَ قالَ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [سورة الحج:٤٦]، وقيلَ:

فيا عجبًا كيفَ يُعصى الإلَهُ ... أم كيفَ يجحَدُهُ الجاحِدُ
ولِلَّهِ فِي كلِّ تحريكَةٍ ... وَفِي كلِّ تسكينَةٍ شاهِدُ
وَفِي كلِّ شيءٍ لهُ آيَةٌ ... تدُلُّ علَىٰ أنَّهُ واحِدُ.

قلتُ: وَهَذَا تقريرٌ لِما تقدَّمَ: أنَّ التَّفكُّرَ فِي الآياتِ يُوقِظُ الفِطرَةَ ويُرسِّخُ اليقينَ؛ ولِذا كانَ تفكُّرُ ساعَةٍ خيرًا مِن قِيامِ ليلَةٍ، لِأنَّهُ يُثمِرُ معرِفَةَ اللهِ الَّتي هِيَ أصلُ كلِّ عمَلٍ.

ومِن دلالاتِ الكونِ عَلَىٰ التَّوحيدِ -زيادَةً عَلَىٰ مَا تقدَّمَ-:

دلالَةُ التَّسخيرِ والتَّدبيرِ؛ قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [سورة النحل:١٢].

دلالَةُ القُدرَةِ والاختِصاصِ؛ قالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [سورة المعارج:٤٠-٤١].

دليلُ التَّمانُعِ؛ وَهُوَ مِن أعظَمِ الأدِلَّةِ عَلَىٰ التَّوحيدِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء:٢٢].

دلالَةُ الانفِرادِ بِالكَمالِ؛ قالَ تَعالَىٰ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [سورة الحشر:٢٣].

دلالَةُ افتِقارِ الخلقِ إليهِ؛ قالَ تَعالَىٰ: ﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [سورة فاطر:١٥].

قلتُ: وهذِهِ الأدِلَّةُ التِّسعَةُ -الأربَعَةُ الأولىٰ والخمسَةُ الزَّائدَةُ- تجتَمِعُ عَلَىٰ

مقصودٍ واحِدٍ: أنَّ مَنِ انفَرَدَ بِالخلقِ والتَّدبيرِ والكمالِ والغِنىٰ هُوَ المُستَحِقُّ لِلعِبادَةِ وحدَهُ، فدلَّ توحيدُ الرُّبوبيَّةِ عَلَىٰ توحيدِ الأُلوهيَّةِ.

وأَمَّا النَّظَرُ فِي آياتِهِ الشَّرعيَّةِ؛ فالقُرآنُ ناطِقٌ بِوَحدانيَّةِ اللهِ، لِما تضَمَّنَهُ مِنَ الحِكمَةِ البالِغَةِ، والحُجَجِ الباهِرَةِ، والأدِلَّةِ القاطِعَةِ عَلَىٰ وحدانيَّتِهِ، والقِيامِ بِمَصالِحِ العِبادِ والبِلادِ، وعدَمِ التَّناقُضِ، مَعَ التَّحدِّي أَن يَأتُوا بِسورَةٍ مِن مِثلِ القُرآنِ.

وَمَا مِن مُعضِلَةٍ إلَّا وَفِي القُرآنِ شِفاؤُها؛ فَهَذَا دليلٌ عَلَىٰ أنَّهُ مِن عندِ اللهِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء:٨٢].

فتَدَبُّرُ القُرآنِ لهُ أثَرٌ فِي معرِفَةِ العبدِ ربَّهُ وزيادَةِ اليقينِ بهِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس:٥٧]، فالقُرآنُ هُوَ الهُدىٰ والشِّفاءُ: مَن تدَبَّرَهُ طالِبًا لِلهُدىٰ هداهُ اللهُ إِلَىٰ الحقِّ؛ وليسَ فِي العُلومِ والكُتُبِ مَا هُوَ أدَلُّ عَلَىٰ الصِّراطِ المُستَقيمِ، وأهدىٰ لِلقُلوبِ، وأزكىٰ لِلنُّفوسِ، وأجلَبُ لِلسَّعادَةِ، وأطرَدُ لِلهُمومِ، وأشرَحُ لِلصُّدورِ، وأعمَقُ عِلمًا، وأوضَحُ فهمًا، وأرسَخُ لِلعَقائِدِ، وأجلَبُ لِلإيمانِ، وأعظَمُ ترقيقًا لِلقُلوبِ وتثبيتًا لَهَا عَلَىٰ الإيمانِ -مِنَ القُرآنِ، وتَدَبُّرُهُ وتفَهُّمُهُ والعيشُ معهُ يدُلُّ العبدَ عَلَىٰ كلِّ خيرٍ؛ فَلَو عِلِمَ الخلقُ مَا فِي القُرآنِ مِنَ الخيرِ والبَرَكَةِ لأقبَلوا عليهِ، واشتَغَلوا بِهِ عمَّا سِواهُ؛ ففيهِ كلُّ الخيرِ، فمَن تدَبَّرَ كِتابَ اللهِ وسُنَّةَ نبيِّهِ وقصَدَ اتِّباعَ الحقِّ حصَلَ لهُ كمالُ النُّورِ والهُدىٰ.

ومَن أصغىٰ إِلَىٰ كلامِ اللهِ وكلامِ رسولِهِ بِعَقلِهِ وتدَبَّرَهُ بِقَلبِهِ، وجَدَ فيهِ مِنَ الفهمِ والحلاوَةِ والبَرَكَةِ والمنفَعَةِ مَا لَا يجِدُهُ فِي شيءٍ مِنَ الكلامِ، لَا منظومِهِ وَلَا منثورِهِ،

فتبارَكَ الَّذي جعَلَ كلامَهُ حياةً لِلقُلوبِ، وشِفاءً لِما فِي الصُّدورِ.

وبِالجملَةِ فَلَا شيءَ أنفَعُ لِلقَلبِ مِن قِراءَةِ القُرآنِ بِالتَّدَبُّرِ والتَّفَكُّرِ؛ فإنَّهُ جامِعٌ لِجميعِ منازِلِ السَّائرينَ، وأحوالِ العامِلينَ، ومقاماتِ العارِفينَ، وَهُوَ الَّذي يورِثُ المحبَّةَ والشَّوقَ، والخوفَ والرَّجاءَ، والإنابَةَ، والتَّوكُّلَ، والرِّضا، والتَّفويضَ، والشُّكرَ، والصَّبرَ، وسائرَ الأحوالِ الَّتي بِها حياةُ القلبِ وكمالُهُ؛ وكذلكَ يزجُرُ عَن جميعِ الصِّفاتِ والأفعالِ المذمومَةِ الَّتي بِها فسادُ القلبِ وهلاكُهُ، وَقَد قيلَ:

فتَــدَبَّرِ القُــرآنَ إِن رُمــتَ الهُــدىٰ ... فــالعِلمُ تحــتَ تــدَبُّرِ القُــرآنِ

والآياتُ هِيَ العلاماتُ الواضِحَةُ الَّتي تدُلُّ عَلَىٰ وحدانيَّتِهِ ووُجودِهِ وتفَرُّدِهِ بِالرُّبوبيَّةِ والألُوهيَّةِ.

وقيلَ:

تأمَّــلْ سُــطورَ الكائنــاتِ فإنَّهــا ... مِــنَ المَلِــكِ الأعلــىٰ إليــكَ

وَقَـد كـانَ فِيهَـا لَـو تأمَّلـتَ خطَّهـا ... ألا كـلُّ شـيءٍ مَـا خَـلَا اللهَ باطِـلُ

وقدِ استَدَلَّ القُرآنُ عَلَىٰ التَّوحيدِ بِطُرُقٍ عقليَّةٍ وفِطريَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، مِنهَا:

الأولىٰ: ضربُ الأمثالِ؛ وهو تقريبُ المعنىٰ بِتَمثيلٍ يُظهِرُ بُطلانَ الشِّركِ، قالَ تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ [سورة الرعد:١٤]؛ فشَبَّهَ اللهُ دُعاءَ المُشرِكينَ لِآلِهَتِهِم بِمَن يُريدُ أن يبلُغَ الماءُ فاهُ بِمُجَرَّدِ بسطِ كفَّيهِ، وهو مثَلٌ في غايَةِ البُطلانِ.

الثَّانيَةُ: قِياسُ الأولىٰ؛ وهو إثباتُ أنَّ اللهَ أولىٰ بِالكَمالِ مِن خلقِهِ، قالَ تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰٓۚ﴾ [سورة النحل:٦٠]؛ فمَن كانَ أكمَلَ وأعظَمَ فهو أولىٰ بِالعِبادَةِ.

الثَّالثَةُ: نفيُ الدَّليلِ والحُجَّةِ عنِ الشِّركِ؛ قالَ تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [سورة الأحقاف:٤]؛ فلم يقُم دليلٌ علىٰ صِحَّةِ الشِّركِ.

الرَّابِعَةُ: السَّبرُ والتَّقسيمُ؛ وهو حصرُ الاحتِمالاتِ ثمَّ إبطالُها إلَّا واحِدًا، قالَ تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [سورة الطور:٣٥]؛ فيَبقىٰ الاحتِمالُ الصَّحيحُ، وهو أنَّ اللهَ هو الخالِقُ.

الخامِسَةُ: دلالَةُ الأثَرِ علىٰ المُؤَثِّرِ؛ فكلُّ مخلوقٍ يدُلُّ علىٰ خالِقٍ، وكلُّ فِعلٍ يدُلُّ علىٰ فاعِلٍ.

السَّادِسَةُ: الجِدالُ وإقامَةُ الحُجَّةِ؛ ومِن طُرُقِ القرآنِ فيهِ: إفحامُ المُشرِكينَ بِالأسئلَةِ الإلزاميَّةِ، وكشفُ الشُّبُهاتِ، وإظهارُ تناقُضِ أهلِ الشِّركِ.

السَّابِعَةُ: دلالَةُ آياتِ الأنبياءِ؛ فَهِيَ دليلٌ عَلَىٰ صِدقِهِم وصِحَّةِ مَا جاؤوا بِهِ مِنَ التَّوحيدِ.

الثَّامِنَةُ: دلالَةُ الفِطرَةِ؛ قالَ تَعالَىٰ: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة إبراهيم:١٠]؛ فِطرَةُ الإنسانِ تدُلُّ عَلَىٰ وُجودِ ربِّهِ.

التَّاسِعَةُ: دليلُ الميثاقِ؛ قالَ تَعالَىٰ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف:١٧٢]، وَهُوَ الميثاقُ الَّذي أخَذَهُ اللهُ عَلَىٰ بَني آدَمَ.

قلتُ: ووجهُ تنوُّعِ طُرُقِ القُرآنِ فِي الاستِدلالِ عَلَىٰ التَّوحيدِ أنَّ المُخاطَبينَ مُتَفاوِتونَ فِي عُقولِهِم وأفهامِهِم وشُبُهاتِهِم؛ فجاءَ القُرآنُ بِما يُناسِبُ كلَّ صِنفٍ: فلِأصحابِ الأمثالِ ضربُ الأمثالِ، ولِأهلِ النَّظَرِ قِياسُ الأولىٰ والسَّبرُ والتَّقسيمُ،

ولِأصحابِ الفِطَرِ السَّليمَةِ دلالَةُ الفِطرَةِ والميثاقِ.

فاجتَمَعَت هذهِ الطُّرُقُ عَلَىٰ تقريرِ التَّوحيدِ مِن كلِّ بابٍ، حتَّىٰ لَا يَبقَىٰ لِمُعانِدٍ حُجَّةٌ.

وَهَذَا مِن كمالِ بَيانِ القُرآنِ وإقامَتِهِ الحُجَّةَ عَلَىٰ الخلقِ بِشتَّىٰ المسالِكِ؛ ولِذا كانَ النَّظَرُ فِي الآياتِ الشَّرعيَّةِ -كالنَّظَرِ فِي الآياتِ الكونيَّةِ- مُوصِلًا إِلَىٰ معرِفَةِ الرَّبِّ وإفرادِهِ بِالعِبادَةِ.

قال المؤلف - رحمه الله - :

وَالرَّبُّ هُوَ المَعبُودُ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [سورة البقرة:٢١-٢٢].

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ: «الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشياءِ، هُوَ المُستَحِقُّ لِلعِبادَةِ».

مسألة: المعبود لابد أن يكون خالقًا.

وَهَذا أصلٌ عظيمٌ: أنَّ المعبودَ لَا بُدَّ أن يكونَ خالِقًا؛ قال تعالَىٰ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [سورة فاطر:٤٠]، ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سورة الأحقاف:٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ [سورة الحج:٧٣]، ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [سورة الرعد:١٦]، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ [سورة الأنعام:١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [سورة فاطر:٣]، ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [سورة الصافات:١٢٥].

قلتُ: ووجهُ هذهِ القاعِدَةِ -أنَّ المعبودَ لَا بُدَّ أَن يكونَ خالِقًا- أَنَّ العِبادَةَ غايَتُها التَّعَلُّقُ بِمَن يملِكُ النَّفعَ والضَّرَّ، وذلكَ فرعٌ عنِ الخلقِ والمُلكِ؛ فمَن لَا يخلُقُ شيئًا، بَل هُوَ مخلوقٌ، عاجِزٌ عَن أَن يدفعَ عَن نفسِهِ -كهذهِ الآلِهَةِ الَّتي لَا تستَنقِذُ مَا يسلُبُها الذُّبابُ- فكيفَ يستَحِقُّ أَن يُعبَدَ؟

فاحتجَّ اللهُ عَلَىٰ المُشرِكينَ بِأبلَغِ حُجَّةٍ: أَنَّ معبوداتِهِم لَا تخلُقُ ذُبابًا -وهُوَ أحقَرُ المخلوقاتِ- بَل لَو سلَبَها الذُّبابُ شيئًا لَم تقدِر عَلَىٰ استِرجاعِهِ؛ فبَطَلَ أَن تكونَ آلِهَةً، إذِ الإلَهُ الحقُّ لَا بُدَّ أَن يكونَ خالِقًا قادِرًا.

وَاعلَم أنَّ القُرآنَ علَّقَ الأمرَ بِالعِبادَةِ عَلَىٰ وصفِ الرُّبوبِيَّةِ:

قالَ تَعالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة:٢١]؛ وَهَذَا أوَّلُ أمرٍ فِي القُرآنِ بِحَسَبِ التَّرتيبِ، فقالَ ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [سورة البقرة:٢١] وَلَم يقُل «اعبُدوا معبودَكُم»، فدلالَتُها واضِحَةٌ، لِأنَّ ربَّكَ هُوَ الَّذي خلَقَكَ، وأمَّا مَن لَا يخلُقُ فلَا يُعبَدُ، وكذلكَ قالَ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء:٩٢]، ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [سورة العنكبوت:٥٦]، ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [سورة آل عمران:٥١]، ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة يونس:٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [سورة الزخرف:٦٤]، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة هود:١٢٣]، ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [سورة مريم:٦٥]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة الأحقاف:١٣]، أَي: معبودُنا المُستَحِقُّ لِلعِبادَةِ هُوَ اللهُ.

فكلُّ هذهِ الآياتِ يأمُرُ اللهُ فِيهَا عبادَهُ بِعِبادَتِهِ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ؛ لِأَنَّهُ الرَّبُّ الخالِقُ، فإنَّ الإلَهَ الحقَّ لَا بُدَّ أَن يكونَ خالِقًا فاعِلًا يوصِلُ إِلَىٰ عابِدِهِ النَّفعَ ويدفَعُ عنهُ الضُّرَّ.

قلتُ: ووجهُ تكرارِ هَذَا الأُسلوبِ فِي القُرآنِ -ربطِ الأمرِ بالعِبادَةِ بِوَصفِ الرُّبوبيَّةِ- أنَّ اللهَ احتجَّ عَلَىٰ المُشرِكينَ بِما أقَرُّوا بِهِ عَلَىٰ مَا أنكَروهُ؛ فإنَّهُم أقَرُّوا بِأَنَّهُ ربُّهُمُ الخالِقُ، فألزَمَهُم أَن يُفرِدوهُ بالعِبادَةِ، إذِ الرُّبوبيَّةُ تستَلزِمُ الأُلوهيَّةَ.

ولِذا قالَ ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [سورة البقرة:٢١] وَلَم يقُل «اعبُدوا معبودَكُم»، إذِ العِلَّةُ فِي وُجوبِ العِبادَةِ هِيَ كونُهُ ربًّا خالِقًا؛ فالوصفُ المُناسِبُ لِلحُكمِ هُوَ الرُّبوبيَّةُ، فعُلِّقَ بِهِ الأمرُ تنبيهًا عَلَىٰ أنَّ مَن خلَقَ ورزَقَ هُوَ وحدَهُ المُستَحِقُّ لِلعِبادَةِ.

٢٢٣ - رَوَىٰ ابنُ عبَّاسٍ فِي قولِهِ تعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة البقرة:٢٢]: أَي: لَا تُشرِكوا بِاللهِ غيرَهُ مِنَ الأندادِ الَّتي لَا تنفَعُ وَلَا تضُرُّ، وأنتُم تعلَمونَ أنَّهُ لَا ربَّ لكُم يرزُقُكُم غيرُهُ، وَقَد علِمتُمُ الَّذي يدعوكُم إليهِ الرَّسولُ مِن توحيدِهِ هُوَ الحقُّ لَا شكَّ فيهِ.

٢٢٤ - وقالَ قتادَةُ: أَي: تعلَمونَ أنَّ اللهَ خلَقَكُم وخلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، ثمَّ تجعَلونَ لهُ أندادًا.

٢٢٥ - وقالَ مقاتِلُ بنُ سُليمانَ فِي قولِهِ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ﴾ [سورة الزخرف:٨٧] يَعنِي أهلَ مكَّةَ كُفَّارَهُم ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾: وذلكَ أنَّهُ لمَّا نزَلَت فِي أوَّلِ هذهِ السُّورَةِ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [سورة الزخرف:٩]، نزَلَت فِي آخِرِها ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [سورة الزخرف:٨٧]؛ فقالَ لهُمُ النَّبيُّ -ﷺ-: «مَن خلَقَكُم ورزَقَكُم وخلَقَ السَّماواتِ

والأرض؟» فَقَالُوا: اللهُ خالِقُ الأشياءِ كلِّها وَهُوَ خلقَنا؛ فقالَ اللهُ لِنبيِّهِ -ﷺ-: قُل لهُم ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة الزخرف:٨٧]، يقولُ: مِن أينَ يكذِبونَ بِأنَّهُ واحِدٌ لَا شريكَ لهُ، وأنتُم مُقِرُّونَ أنَّ اللهَ خالِقُ الأشياءِ وخلَقَكُم، وَلَم يُشارِكهُ أحَدٌ فِي مُلكِهِ فِيمَا خلَقَ؟! فكيفَ تعبُدونَ غيرَهُ؟!

٢٢٦- **وقالَ ابنُ جريرٍ**: فأعلَمَهُم أنَّ الَّذي خلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، وخلَقَ جميعَ مَا فيهِما، وَمَا هُم فيهِ مِنَ النِّعَمِ، هُوَ المُستَحِقُّ عليهِمُ الطَّاعَةَ، والمُستوجِبُ منهُمُ الشُّكرَ والعِبادَةَ، دونَ الأصنامِ والأوثانِ الَّتي لَا تضُرُّ وَلَا تنفَعُ... فنَهاهُمُ اللهُ أن يُشرِكوا بهِ شيئًا، وَأَن يعبُدوا غيرَهُ، أَو يتَّخِذوا لهُ نِدًّا أَو عِدلًا فِي الطَّاعَةِ، فقالَ: كَمَا لَا شريكَ لِي فِي خلقِكُم، وَفِي رِزقِي الَّذي أرزُقُكُم، ومُلكي إيَّاكُم، ونِعمَتيَ الَّتي أنعَمتُها عليكُم، فكذلكَ فأفرِدوا لِيَ الطَّاعَةَ، وأخلِصوا لِيَ العِبادَةَ، وَلَا تجعَلوا لِي شريكًا ونِدًّا مِن خلقي؛ فإنَّكُم تعلَمونَ أنَّ كلَّ نِعمَةٍ عليكُم فمِنِّي.

قلتُ: ووجهُ اتِّفاقِهم عَلَىٰ هَذَا الْمَعنَىٰ أنَّ الآيَةَ علَّقَتِ النَّهيَ عنِ التَّنديدِ بِقولِهِ ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فدلَّ أنَّ المُشرِكينَ كَانُوا يعلَمونَ أنَّ اللهَ وحدَهُ الخالِقُ الرَّازِقُ؛ فجعَلَ علمَهُم بِالرُّبوبيَّةِ حُجَّةً عليهِم فِي إبطالِ شِركِهِم فِي الأُلوهيَّةِ.

فكأنَّهُ قيلَ لهُم: كيفَ تجعَلونَ لهُ أندادًا فِي العِبادَةِ وأنتُم تعلَمونَ أنَّهُ لَا نِدَّ لهُ فِي الخلقِ والرِّزقِ؟

فَهَذَا تناقُضٌ ظاهِرٌ: إقرارٌ بِالتَّفَرُّدِ فِي الرُّبوبيَّةِ، وإشراكٌ فِي الأُلوهيَّةِ؛ ولِذا كانَ احتِجاجُ ابنِ جريرٍ بليغًا: أنَّ مَنِ انفرَدَ بِالخلقِ والرِّزقِ والمُلكِ والإنعامِ، حقيقٌ بِأن يُفرَدَ بِالطَّاعَةِ والعِبادَةِ.

فالرُّبوبيَّةُ تستَلزِمُ الأُلوهيَّةَ، بِمَعنىٰ أنَّ مَن أقرَّ بِأنَّ اللهَ لهُ الرُّبوبيَّةُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، فلازِمُ ذلكَ أنَّهُ مُلزَمٌ أَن يعبُدَ اللهَ وَلَا يُشرِكَ معهُ أحدًا فِي العِبادَةِ.

وَهَذَا مَا يقتَضيهِ العقلُ الصَّريحُ: كيفَ يخلُقُكَ اللهُ، ويرزُقُكَ، ويُحييكَ، ويُميتُكَ، ثمَّ تتَوجَّهُ بالعِبادَةِ لِغيرِهِ؟!

هَذَا أمرٌ لَا يتأتَّىٰ عندَ أصحابِ العُقولِ السَّليمَةِ الَّذينَ تجرَّدوا مِنَ الأهواءِ.

فبِما أنَّ اللهَ خالِقُكَ، إذًا يجِبُ أَن يكونَ معبودَكَ.

وقالَ -ﷺ-: «إنَّ اللهَ أمَرَني بِخَمسِ كلِماتٍ، أَن أعمَلَ بِهِنَّ وآمُرَكُم أَن تعمَلوا بِهِنَّ: أُولاهُنَّ: أَن تعبُدوا اللهَ وَلَا تُشرِكوا بهِ شيئًا، فإنَّ مثَلَ ذلكَ مثَلُ رجُلٍ اشترَىٰ عبدًا مِن خالِصِ مالِهِ بِورِقٍ أَو ذهَبٍ، فجعَلَ يعمَلُ ويُؤدِّي عمَلَهُ إِلَىٰ غيرِ سيِّدِهِ؛ فأيُّكم يسُرُّهُ أَن يكونَ عبدُهُ كذلكَ؟ وإنَّ اللهَ خلَقَكُم ورزَقَكُم، فاعبُدوهُ وَلَا تُشرِكوا بهِ شيئًا».

قلتُ: النَّبيّ -ﷺ- ضرَبَ لِلمُشرِكِ مثَلًا بِعَبدٍ اشترَاهُ سيِّدُهُ بِخالِصِ مالِهِ، ثمَّ صارَ يُؤدِّي عمَلَهُ وخِدمَتَهُ إِلَىٰ غيرِ سيِّدِهِ؛ فكَمَا يستَقبِحُ كلُّ أحدٍ أَن يفعَلَ عبدُهُ ذلكَ، فكذلكَ المُشرِكُ يصرِفُ عِبادَتَهُ -الَّتي هِيَ حقُّ خالِقِهِ ورازِقِهِ- إِلَىٰ غيرِهِ.

فالحُجَّةُ مأخوذَةٌ مِن مُقتَضىٰ المُلكِ: فكَمَا أنَّ العبدَ مِلكٌ لِسَيِّدِهِ يجِبُ أَن يخدُمَهُ، فالخلقُ عبيدُ اللهِ يجِبُ أَن يعبُدوهُ وحدَهُ، وَهَذَا تقريرٌ لِلازِمِ الرُّبوبيَّةِ: أنَّ مَن خلَقَ ورزَقَ هُوَ المُستَحِقُّ لِأن يُعبَدَ، كَمَا قرَّرَهُ السَّمعانيُّ بِأنَّ الإلَهيَّةَ لَا تستَحَقُّ إلَّا لِمَن يقدِرُ عَلَىٰ الإحياءِ والإيجادِ.

فَإِذَا كانَ اللهُ قَد خلَقَنا ورزَقَنا، إذًا يجِبُ أَن نعبُدَهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ؛ فمَن أقرَّ بِرُبوبيَّةِ اللهِ، فلازِمُ ذلكَ أَن يُذعِنَ ويُقِرَّ بِأُلوهيَّةِ اللهِ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ.

٢٢٧ - **وقالَ السَّمعانيُّ فِي «التَّفسيرِ» (٣/ ٣٧٣)**: «وَلَا يستَحِقُّ الإلَهيَّةَ إلَّا مَن يقدِرُ عَلَىٰ الإحياءِ والإيجادِ مِنَ العدَمِ؛ لِأنَّهُ الإنعامُ بِأبلَغِ وُجوهِ النِّعَمِ، وَهَذَا لَا يليقُ بِوَصفِ البشَرِ وكلِّ مُحدَثٍ».

٢٢٨ - **جَاءَ فِي «طَرِيقِ الْهِجرَتَينِ» (ص ٨٠)**: "فَتَوحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ أَعظَمُ دَلِيلٍ عَلَىٰ تَوحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ، وَلِذَلِكَ وَقعَ الِاحتِجَاجُ بِهِ فِي الْقُرآنِ أَكثَرَ مِمَّا وَقعَ بِغَيرِهِ؛ لِصِحَّةِ دَلَالَتِهِ، وَظُهُورِهَا، وَقَبُولِ الْعُقُولِ وَالْفِطَرِ لَهَا، وَلِاعتِرَافِ أَهلِ الْأَرضِ بِتَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَكَذَلِكَ كَانَ عُبَّادُ الْأَصنامِ يُقِرُّونَ بِهِ وَيُنكِرُونَ تَوحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ، وَيَقُولُونَ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [سورة ص:٥]، مَعَ اعتِرَافِهِم بِأَنَّ اللهَ وَحدَهُ هُوَ الْخَالِقُ لَهُم، وَلِلسَّمَوَاتِ وَالْأَرضِ وَمَا بَينَهُمَا، وَأَنَّهُ الْمُنفَرِدُ بِمُلكِ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَأَرسَلَ اللهُ تَعَالَىٰ يُذَكِّرُ بِمَا فِي فِطرَتِهِم الْإِقرَارَ بِهِ؛ مِن تَوحِيدِهِ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّهُم لَو رَجَعُوا إِلَىٰ فِطَرِهِم وَعُقُولِهِم لَدَلَّتهُم عَلَىٰ امتِنَاعِ إِلَهٍ آخَرَ مَعَهُ، وَاستِحَالَتِهِ وَبُطلَانِهِ".

ويدلُّ القُرآنُ عَلَىٰ توحيدِ الأُلوهيَّةِ بِأدِلَّةٍ عديدَةٍ، مِنهَا مَا تقدَّمَ مِن أدِلَّةِ الرُّبوبيَّةِ، ويُضافُ إِلَيهَا مَا يلي:

الأوَّلُ: إلزامُ المُشرِكينَ بِإقرارِهِم بِالرُّبوبيَّةِ؛ فَقَد كَانُوا يُقِرُّون بِأنَّ اللهَ الخالِقُ المالِكُ المُدبِّرُ، فيُلزِمُهُمُ القُرآنُ أَن يُفرِدوهُ بِالعِبادَةِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾ [سورة يونس:٣١]؛ فمَن تفرَّدَ بِالخلقِ والتَّدبيرِ فَهُوَ المُستَحِقُّ لِلعِبادَةِ وحدَهُ.

الثَّاني: دليلُ الإخلاصِ عندَ الشِّدَّةِ؛ فإنَّ المُشرِكينَ يُخلِصونَ الدُّعاءَ لِلَّهِ عندَ

الشَّدائِد، قالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة العنكبوت:٦٥]؛ وَهَذَا دليلٌ عَلَىٰ أنَّ الفِطرَةَ تدُلُّ عَلَىٰ أنَّ اللهَ وحدَهُ هُوَ المُستَحِقُّ لِلعِبادَةِ.

الثَّالثُ: إثباتُ عجزِ الآلِهَةِ الباطِلَةِ؛ يُبيِّنُ القُرآنُ عجزَ الآلِهَةِ الَّتي تُعبَدُ مِن دونِ اللهِ، فَهِيَ لَا تخلُقُ، وَلَا تملِكُ، وَلَا ترزُقُ، وَلَا تنفعُ وَلَا تضُرُّ، وَلَا تملِكُ الشَّفاعَةَ، وَلَا تسمَعُ وَلَا تتكَلَّمُ، وَهِيَ ميِّتَةٌ غيرُ حيَّةٍ، وَلَا تنصُرُ عابِديها؛ فكلُّ مَن كانَ كذلكَ لَا يستَحِقُّ العِبادَةَ.

الرَّابعُ: مُطالَبَةُ المُشرِكينَ بِالدَّليلِ؛ قالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ [سورة البقرة:١١١]، فَلَا دليلَ لهُم عَلَىٰ صِحَّةِ الشِّركِ.

الخامِسُ: الأمرُ بِعِبادَةِ اللهِ وحدَهُ مَعَ بَيانِ مفاسِدِ الشِّركِ وعُقوباتِهِ؛ قالَ تعَالَىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة النساء:٣٦].

قلتُ: ووجهُ كونِ هذهِ الأدِلَّةِ راجِعَةً إِلَىٰ أصلٍ واحِدٍ أنَّها كلَّها تُقرِّرُ أنَّ استِحقاقَ العِبادَةِ فرعٌ عنِ الكمالِ والقُدرَةِ؛ فمَن أقرَّ بِالرُّبوبيَّةِ لزِمَهُ إفرادُ المعبودِ (الأوَّلُ)، ومَن رجعَ إِلَىٰ فِطرَتِهِ عندَ الشِّدَّةِ دعَا اللهَ وحدَهُ (الثَّاني)، ومَن نظَرَ فِي عجزِ الآلِهَةِ علِمَ أنَّها لَا تستَحِقُّ العِبادَةَ (الثَّالثُ)، ومَن طُولِبَ بِالبُرهانِ لَم يجِد لِشِركِهِ حُجَّةً (الرَّابعُ)، فلَم يبقَ إلَّا امتِثالُ الأمرِ بإفرادِ اللهِ واجتِنابِ الشِّركِ (الخامِسُ).

فاجتَمَعَت هذهِ المسالِكُ عَلَىٰ إبطالِ الشِّركِ مِن كلِّ وجهٍ: مِن جِهَةِ العقلِ، والفِطرَةِ، وعجزِ المعبوداتِ، وانتِفاءِ الحُجَّةِ، وصريحِ الأمرِ.

قال المؤلف - رحمه الله -:

وَأَنوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا: - مِثلُ: الإِسلَامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحسَانِ؛ وَمِنهَا: الدُّعَاءُ، وَالخَوفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغبَةُ، وَالرَّهبَةُ، وَالخُشُوعُ، وَالخَشيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالِاستِعَانَةُ، وَالِاستِعَاذَةُ، وَالِاستِغَاثَةُ، وَالذَّبحُ، وَالنَّذرُ، وَغَيرُ ذَلِكَ مِن أَنوَاعِ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا - كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالَىٰ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن:١٨].

لمَّا تقرَّرَ أنَّ الرَّبَّ هُوَ المُستَحِقُّ لِلعِبادَةِ، كانَ مِنَ المُناسِبِ بَيانُ أنواعِ العِباداتِ الَّتي يتعَبَّدُ بِها العِبادُ لِرَبِّهِم، والَّتي يجِبُ إفرادُ اللهِ بِها دونَ سِواهُ.

ومِنَ المُهِمِّ أَن تُضبطَ هاهُنا قواعِدُ فِي غايَةِ الأَهَمِّيَّةِ، عَلَيهَا مدارُ هَذَا البابِ كلِّهِ.

وإنَّما احتاجَ هَذَا البابُ إِلَىٰ تأصيلٍ بِالقواعِدِ -دونَ الاكتِفاءِ بِسَردِ الأنواعِ- لِأَنَّ المُصَنِّفَ عدَّ أنواعًا مِنَ العِبادَةِ ثمَّ قالَ: «وغيرُ ذلكَ»؛ فدلَّ أنَّ مرادَهُ لَم يكُن حصرَ الأفرادِ، بَل تقريرَ ضابِطٍ يُعرَفُ بِهِ كلُّ مَا هُوَ عِبادَةٌ، لِيَطَّرِدَ الحُكمُ فِي المذكورِ وغيرِ المذكورِ.

وَهَذَا أنفعُ لِطالِبِ العِلمِ مِن مُجَرَّدِ العَدِّ، إِذِ الأنواعُ لَا تنحَصِرُ، والقاعِدَةُ تجمَعُ المُتَفَرِّقَ؛ فمَن ضبطَ القاعِدَةَ استغنَىٰ بِها عَن تتَبُّعِ الأفرادِ، وعرَفَ مناطَ الحُكمِ فِي كلِّ

مَا يستَجِدُّ.(١)

القاعِدَةُ الأولىٰ: فِي معرِفَةِ مَا هِيَ العِبادَةُ

العِبادَةُ هِيَ مَا أَحَبَّهُ اللهُ وشرَعَهُ لِعِبادِهِ، ويُعرفُ هَذَا بِأوجُهٍ مِنَ الدَّلالاتِ: مِنهَا أمرُ اللهِ بِالشَّيءِ، فَهَذَا دليلٌ عَلَىٰ أنَّهُ يُحِبُّهُ ويشرَعُهُ لِعِبادِهِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [سورة البقرة:٤٣]، فعرَفنا أنَّ الصَّلاةَ والزَّكاةَ عِبادَةٌ لِأنَّ اللهَ أمَرَ بِهِما؛ وَمِنها الثَّناءُ عَلَىٰ فِعلِها؛ وَمِنهَا ترتيبُ الثَّوابِ عَلَىٰ فِعلِها.

فهذِهِ العلاماتُ وغيرُها مِن أوجُهِ الدَّلالاتِ يُستَدَلُّ بِها عَلَىٰ أنَّ هذهِ عِبادَةٌ مِنَ العِباداتِ.

ووجهُ ضبطِ العِبادَةِ بِأنَّها «مَا أحَبَّهُ اللهُ وشرَعَهُ» أنَّ مدارَها عَلَىٰ أمرَينِ لَا يقومُ التَّعبُّدُ إلَّا بِهما: محبَّةِ اللهِ لِلفِعلِ، ومشروعيَّتِهِ؛ فخرَجَ بِالأوَّلِ مَا لَا يُحِبُّهُ اللهُ وَلَو فعَلَهُ النَّاسُ تقرُّبًا، وخرَجَ بِالثَّانِي مَا أحدَثوهُ مِنَ البِدَعِ زاعِمينَ أنَّهُ قُربَةٌ.

---

(١) جاءَ فِي «مجموع الفتاوىٰ (١/ ٣١٣): «"فإنَّ هذهِ القَواعِدَ المُتعَلِّقَةَ بِتَقْرِيرِ التَّوْحِيدِ وَحَسْمِ مادةِ الشِّرْكِ، والغُلُوِّ، كُلَّما تنوَّعَ بيانُها، وَوَضَحَتْ عِباراتُها، كَانَ ذَلِكَ نورًا عَلَىٰ نورٍ، واللهُ المستعانُ.»

وَيَقُولُ الشَّيخُ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ الوَهَّابِ: «وَمِن أَعظَمِ مَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيهِ -ﷺ- وَعَلَىٰ أُمَّتِهِ إِعطاءُ جَوامِعِ الكَلِمِ، فَيَذكُرُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَكُونُ قَاعِدَةً جَامِعَةً يَدخُلُ تَحتَهَا مِنَ المَسَائِلِ مَا لَا يُحصَرُ، وَكَذَلِكَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- فَقَد خَصَّهُ اللهُ بِالحِكمَةِ الجَامِعَةِ، وَمَن فَهِمَ هَذِهِ المَسأَلَةَ فَهمًا جَيِّدًا فَهِمَ قَولَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [سورة المائدة:٣]، وَهَذِهِ الكَلِمَةُ أَيضًا مِن جَوامِعِ الكَلِمِ؛ إِذِ الكَامِلُ لَا يَحتَاجُ إِلَىٰ زِيَادَةٍ، فَعُلِمَ مِنهُ بُطلَانُ كُلِّ مُحدَثٍ بَعدَ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- وَأَصحَابِهِ».

«أَربَعُ قَوَاعِدَ تَدُورُ الأَحكَامُ عَلَيهَا»، لِلإِمَامِ مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ الوَهَّابِ (ص ١٠).

وَانظُر: «الدُّرَرُ السَّنِيَّةُ فِي الأَجوِبَةِ النَّجدِيَّةِ» (١١/ ٣٦٥-٣٦٨).

وأمَّا هذهِ العلاماتُ الثَّلاثُ -الأمرُ، والثَّناءُ، وترتيبُ الثَّوابِ- فَهِيَ طُرُقٌ كاشِفَةٌ عَن محبَّةِ اللهِ لِلفعلِ، فمَتىٰ وجَدنا أحَدَ هذهِ الأماراتِ علِمنا أنَّ الفِعلَ محبوبٌ لِلَّهِ، فهُوَ عِبادَةٌ يجِبُ إفرادُهُ بها.

وبِهذا يتبَيَّنُ أنَّ العِبادَةَ توقيفيَّةٌ، لَا تُؤخَذُ إلَّا عنِ الشَّارعِ.

تنبيهٌ: شُمولُ العِبادَةِ لِجميعِ الحياةِ:

العِبادَةُ فِي الإسلامِ شامِلَةٌ لِجميعِ جوانِبِ الحياةِ؛ فَكَمَا أنَّ النُّسُكَ والشَّعائرَ التَّعَبُّدِيَّةَ يجِبُ أَن تكونَ لِلَّهِ وحدَهُ، فكذلكَ سائرُ أعمالِ الإنسانِ وتصَرُّفاتِهِ فِي الحياةِ الاجتِماعيَّةِ والاقتِصاديَّةِ والسِّياسيَّةِ وغيرِها يجِبُ أَن تكونَ لِلَّهِ، قالَ تعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنعام:١٦٢]، فدلَّتِ الآيَةُ عَلَىٰ أنَّ جميعَ أحوالِ العبدِ وأعمالِهِ يجِبُ أَن تكونَ خالِصَةً لِلَّهِ.

فالمُوَحِّدُ مَن جعَلَ حياتَهُ كلَّها لِلَّهِ، لَا مَن أفرَدَهُ فِي المسجِدِ ثمَّ نازَعَهُ فِي شرعه خارِجَهُ؛ أو فِي بيوعه ومعاملاته، ولِذا كانَ مِن تمامِ التَّوحيدِ أن يكونَ الحُكمُ والتَّحاكُمُ والولاءُ والبَراءُ كلُّها لِلَّهِ، إذ هِيَ داخِلَةٌ فِي عُمومِ ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ [سورة الأنعام:١٦٢].

القاعِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِي معرِفَةِ مَا هُوَ الشِّركُ:

الشِّركُ -كَمَا تقَدَّمَ- نقيضُ التَّوحيدِ وضِدُّهُ، فهُما أمرانِ لَا يجتَمِعانِ: إمَّا أَن تكونَ عِبادَةٌ، وإمَّا أَن يكونَ شِركٌ، قالَ تعَالَىٰ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة النساء:٣٦]؛ فإمَّا أن يكونَ الإنسانُ عابِدًا لِلَّهِ، وإمَّا أَن يكونَ مُشرِكًا بِاللهِ.

وضابِطُ الشِّركِ: أَن يتَوجَّهَ العبدُ بِالعِبادَةِ لِغيرِ اللهِ؛ فكلُّ مَا عُلِمَ أنَّهُ عِبادَةٌ فصَرفُهُ لِغيرِ اللهِ شِركٌ.

وهذهِ قاعِدَةٌ ينبَغي أَن يتَنَبَّهَ لَهَا المُسلِمُ: كلُّ مَا عُلِمَ أنَّهُ عِبادَةٌ فصَرفُهُ لِغيرِ اللهِ شِركٌ. وَهَذَا هُوَ الشِّركُ الَّذي أكثَرَ اللهُ فِي كِتابِهِ مِنَ التَّحذيرِ منهُ، وتوارَدَتِ الأحاديثُ الكثيرَةُ عَن رسولِ اللهِ -ﷺ- فِي بَيانِ خطَرِهِ، وأنَّهُ موجِبٌ لِلخُلودِ فِي النَّارِ، وموجِبٌ لِغَضَبِ الجبَّارِ.

القاعِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّهُ لَا فرقَ بينَ صرفِ نوعٍ واحِدٍ وصرفِ الجميعِ:

مِنَ القواعِدِ المُهِمَّةِ فِي هَذَا البابِ: أنَّهُ لَا فرقَ بينَ صرفِ نوعٍ واحِدٍ مِنَ العِبادَةِ لِغيرِ اللهِ، أَو صرفِها جميعًا؛ فكلُّ مَا ثبَتَ أنَّهُ عِبادَةٌ، فإنَّهُ لَا فرقَ فِي حقِّ صاحِبِهِ -أَي فِي الحُكمِ عليهِ- بينَ أَن يصرِفَ نوعًا واحِدًا مِنهَا، أَو فردًا مِن نوعٍ مِنهَا، وبينَ أَن يصرِفَها جميعًا لِغيرِ اللهِ، فالمُشرِكُ مُشرِكٌ، وَلَو أنَّهُ عبَدَ اللهَ بِكُلِّ أنواعِ العِبادَةِ، إلَّا نوعًا واحِدًا يصرِفُهُ لِغيرِهِ.

فمَن كَانَت صلاتُهُ لِلَّهِ، وزكاتُهُ لِلَّهِ، وصيامُهُ لِلَّهِ، وحجُّهُ لِلَّهِ، ودُعاؤُهُ لِلَّهِ، ولكنَّ ذبحَهُ لِغيرِ اللهِ، حكَمنا عليهِ بِأنَّهُ مُشرِكٌ؛ فَلَا فرقَ بينَ أَن يصرِفَ العبدُ نوعًا مِن أنواعِ العِبادَةِ، وبينَ أَن يصرِفَ كلَّ أنواعِها لِغيرِ اللهِ.

بَل لَو أنَّ إنسانًا توَجَّهَ بِكُلِّ أنواعِ العِبادَةِ لِلَّهِ، ونوعًا واحِدًا خلَطَ فيهِ الأمرَ: تارَةً يذبَحُ لِلَّهِ، وتارَةً يذبَحُ لِغيرِ اللهِ؛ فالجوابُ أَن نقولَ: إنَّهُ مُشرِكٌ بِاللهِ بعينه.

فَلَا فرقَ بينَ قليلِ الشِّركِ وكثيرِهِ؛ كلُّ ذلكَ يوجِبُ مَا يترَتَّبُ عَلَىٰ وُقوعِ الشِّركِ مِنَ الأحكامِ: مِنَ الخُروجِ مِنَ المِلَّةِ، وحُبوطِ جميعِ الأعمالِ، ووُجوبِ النَّارِ المُخَلَّدَةِ أبَدًا -والعِياذُ بِاللهِ- لِمَن وقَعَ فِي ذلكَ.

ومَن أدرَكَ هَذَا الأمرَ عرَفَ خُطورَتَهُ، وعرَفَ حقيقَةَ الإسلامِ، وحقيقَةَ مَا أمَرَ اللهُ

بِهِ.

واللهُ يقولُ عَن نفسِهِ فِي الحديثِ القُدسيِّ: «أَنَا أغنىٰ الشُّرَكاءِ عنِ الشِّركِ، مَن عمِلَ عملًا أشرَكَ فيهِ معي غَيرِي ترَكتُهُ وشِركَهُ»، وَهَكَذَا دلَّت دلائلُ كثيرَةٌ فِي كِتابِ اللهِ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [سورة النساء:٣٦]، أَي: أيَّ شيءٍ، لَا يجوزُ أَن يُشرَكَ مَعَ اللهِ.

قلتُ: ووجهُ هذهِ القاعِدَةِ -أنَّ صرفَ نوعٍ واحِدٍ كصَرفِ الجميعِ- أنَّ الشِّركَ مُناقَضَةٌ لِحَقِّ اللهِ فِي الإفرادِ، وَهَذَا الحقُّ لَا يتَجزَّأُ؛ فإنَّ اللهَ إنَّما استَحَقَّ العِبادَةَ كلَّها لِكَمالِهِ المُطلَقِ، فمَن صرَفَ مِنهَا نوعًا واحِدًا لِغيرِهِ فَقَد سوَّىٰ ذلكَ الغيرَ باللهِ فِي ذلكَ النَّوعِ، والتَّسويَةُ فِي البعضِ تسويَةٌ تُناقِضُ التَّوحيدِ.

ومِن لطائفِ دلالة الحديثِ القُدسيِّ أنَّ اللهَ لَم يقُل «رددتُ عمَلَهُ» فحَسبُ، بَل قالَ «ترَكتُهُ وشِركَهُ»، أَي: ترَكتُ نصيبي مِنهُ لِشَريكِهِ؛ فدلَّ أنَّ العمَلَ المخلوطَ بالشِّركِ مردودٌ بِجُملَتِهِ، لَا يُقبَلُ منهُ القدرُ الَّذي لِلَّهِ، لِأنَّ اللهَ أَغنَىٰ الشُّرَكاءِ، لَا يقبَلُ الشَّرِكَةَ بِحالٍ.

إذاً: فالعِبادَةُ حقُّ اللهِ عَلَىٰ العبدِ، لَا يجوزُ أَن يُزاحِمَ اللهَ فِي حقِّهِ، وَلَا يجوزُ أَن يُشرَكَ مَعَ اللهِ أحَدٌ فِيهَا.

والَّذي يتَوجَّهُ بِالعِبادَةِ لِغيرِ اللهِ يُحكَمُ عليهِ بِالشِّركِ، ويُحكَمُ عليهِ بِالكُفرِ؛ فالَّذي يتَوجَّهُ بأيِّ عِبادَةٍ لِغيرِ اللهِ يُقالُ فِي حقِّهِ: إنَّهُ مُشرِكٌ، ويُقالُ فِي حقِّهِ: إنَّهُ كافِرٌ.

مسألة عبادةُ الدُّعاءِ: أعظَمُ أنواعِ العِبادَةِ

مِن أعظَمِ العِباداتِ الَّتي أمَرَنا اللهُ أَن نُفرِدَهُ بِها: عِبادَةُ الدُّعاءِ والاستِغاثَةِ، قالَ

تَعالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر:٦٠].

والنَّبيُّ -ﷺ- كما فِي حديثِ ابنِ عبَّاسٍ، حينَ كانَ رديفَهُ عَلَىٰ الحِمارِ- قالَ لهُ: «يا غُلامُ، إنِّي أُعَلِّمُكَ كلِماتٍ: احفَظِ اللهَ يحفَظْكَ، احفَظِ اللهَ تجِدهُ تُجاهَكَ، إذَا سألتَ فاسأَلِ اللهَ، وَإِذَا استعَنتَ فاستَعِن بِاللهِ»؛ أَي: أفرِدِ اللهَ بِهذهِ العِبادَةِ العظيمَةِ، وَهِيَ عِبادَةُ الدُّعاءِ.

فالمُسلِمُ لَا يَدعُو غيرَ اللهِ، أيًّا كانَ هَذَا المدعوُّ، سواءٌ كانَ ملَكًا مِنَ الملائكَةِ، أَو رسولًا مِنَ الرُّسُلِ، أَو صالِحًا مِنَ الصَّالِحينَ، أَو شجَرًا، أَو حجَرًا، أَو ضريحًا، أَو قبرًا؛ لِأنَّ مَن صرَفَ أيَّ نوعٍ مِنَ العِبادَةِ لِغيرِ اللهِ فقَد وقَعَ فِي الشِّركِ الأكبَرِ المُخرِجِ مِنَ الإسلامِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون:١١٧].

فهذِهِ الآيَةُ دليلٌ عَلَىٰ وُجوبِ إخلاصِ الدُّعاءِ لِلَّهِ، وَعَلَىٰ النَّهيِ عَن دُعاءِ غيرِهِ، بَل دليلٌ عَلَىٰ أنَّ دُعاءَ غيرِ اللهِ كُفرٌ بِهِ؛ لِقولِهِ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون:١١٧].

فالدعاء مُخُّ العِبادَةِ ولُبُّها، إذ هُوَ إظهارُ غايَةِ الفقرِ والذُّلِّ والافتِقارِ مِنَ العبدِ، وغايَةِ الغِنىٰ والقُدرَةِ فِي المدعوِّ؛ فمَن دَعَا أحَدًا فقَد شهِدَ لهُ بالقُدرَةِ عَلَىٰ مَا لَا يقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ، وأظهَرَ لهُ مِنَ الذُّلِّ والخُضوعِ مَا هُوَ خالِصُ حقِّ الرُّبوبيَّةِ.

وتأمَّل بَديعَ دلالَةِ الآيَةِ ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [سورة غافر:٦٠]، إذ سمَّىٰ الدُّعاءَ فِي آخِرِها عِبادَةً ﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [سورة غافر:٦٠]؛ فدلَّ أنَّ الدُّعاءَ هُوَ العِبادَةُ، فمَن صرَفَهُ لِغيرِ اللهِ فقَد صرَفَ العِبادَةَ لِغيرِهِ.

ثمَّ تأمَّل كيفَ ختَمَ آيَةَ المؤمِنينَ بِقولِهِ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون:١١٧] بعدَ قولِهِ ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [سورة المؤمنون:١١٧]: فسَمَّىٰ الدَّاعيَ غيرَ اللهِ كافِرًا، تصريحًا بِأنَّ دُعاءَ غيرِ اللهِ كُفرٌ، لَا مُجرَّدَ معصيةٍ.

وَفي قولِهِ ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون:١١٧] نُكتَةٌ لطيفَةٌ: أنَّ كلَّ مَن دَعَا غيرَ اللهِ فَلَا بُرهانَ لهُ ألبتَّةَ، إذِ البُرهانُ عَلَىٰ بُطلانِهِ قائمٌ، فجاءَ الوصفُ بِـ«لَا بُرهانَ لهُ» جاريًا مجرىٰ اللَّازِمِ، لَا مفهومَ لهُ يُوهِمُ جوازَ دُعاءِ مَن لهُ بُرهانٌ.

فدُعاءُ غيرِ اللهِ أعظَمُ مُنكَرٍ عَلَىٰ وجهِ الأرضِ، وَهُوَ أعظَمُ أنواعِ الشِّركِ وأكثَرُها؛ فأكثَرُ شِركِ الأوَّلينَ والآخِرينَ يتعَلَّقُ بِهذا النَّوعِ مِنَ العِبادَةِ، وَهُوَ الدُّعاءُ، بَل هَذَا أصلُ شِركِ العالَمِ.

فمَن دَعَا غيرَ اللهِ فقَد كفَرَ بِنصِّ كِتابِ اللهِ.

فَهَذَا أمرٌ عظيمٌ، وَهُوَ عُبوديَّةُ الدُّعاءِ لِلَّهِ، ووُجوبُ إخلاصِ هذهِ العِبادَةِ لهُ، ووُجوبُ الاجتِنابِ عَن دُعاءِ غيرِ اللهِ؛ فإنَّ هَذَا ذنبٌ ليسَ بعدَهُ ذنبٌ.

قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [سورة الأحقاف:٥-٦].

فسَمَّىٰ اللهُ الدُّعاءَ عِبادَةً، ومعلومٌ بِالضَّرورَةِ أنَّ كلَّ مَا ثبتَ أنَّهُ عِبادَةٌ فإنَّ التَّوَجُّهَ بِهِ لِغيرِ اللهِ شِركٌ.

فَلَا أحَدَ أضَلُّ ممَّن يَدعُو مَعَ اللهِ غيرَهُ، وَإِذَا لَم يكُن هَذَا شِركًا فليسَ عَلَىٰ وجهِ الأرضِ شِركٌ.

وتأمَّل بَديعَ مَا فِي آيَةِ الأحقافِ مِن وُجوهِ الذَّمِّ المُتكاثِرَةِ عَلَىٰ الدَّاعي غيرَ اللهِ: فأوَّلُها أنَّهُ صدَّرَها بِأبلَغِ صيغَةِ التَّفضيلِ فِي الضَّلالِ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾، فَلَا ضلالَ فوقَهُ؛ والثَّاني أنَّ مدعوَّهُ ﴿لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [سورة الأحقاف:٥]، أَي أبدًا، فَلَا انتِفاعَ بِهِ فِي الدُّنيا؛ والثَّالثُ أنَّهُ "غافِلٌ عَن دُعائِهِ"، فَلَا يسمَعُهُ سَمِعَ إجابة، فكيفَ يُرجىٰ منهُ نفعٌ؟

والرَّابعُ أنَّ هَذَا المعبودَ ينقَلِبُ يومَ القِيامَةِ عدُوًّا لِعابِدِهِ ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ [سورة الأحقاف:٦]؛ والخامِسُ أنَّهُ يتبَرَّأُ مِن عِبادَتِهِ ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [سورة الأحقاف:٦]، فاجتَمَعَ فِي الآيَةِ خمسَةُ أوجُهٍ تُبطِلُ دُعاءَ غيرِ اللهِ مِن أصلِهِ: غايَةُ الضَّلالِ، وانتِفاءُ الاستِجابَةِ، والغَفلَةُ، وانقِلابُ العداوَةِ، والتَّبَرُّؤُ، وَفِي تسميَتِهِ الدُّعاءَ «عِبادَةً» فِي قولِهِ: ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ بعدَ قولِهِ: ﴿يَدْعُوا۟﴾ تصريحٌ بِأنَّ الدُّعاءَ عِبادَةٌ، فصَرفُهُ لِغيرِ اللهِ شِركٌ، وَهُوَ عينُ مَا قرَّرَهُ المُصَنِّفُ.

وَلَو تأمَّلتَ نُصوصَ القُرآنِ وأدِلَّةَ السُّنَّةِ لوَجَدتَ أنَّ النَّهيَ عَن دُعاءِ غيرِ اللهِ، ووصفَ ذلكَ بِأنَّهُ شِركٌ وكُفرٌ، أعظَمُ وأكثَرُ مِن بقيَّةِ الأدِلَّةِ الَّتي دلَّت عَلَىٰ غيرِ ذلكَ مِن أنواعِ العِبادَةِ؛ فالأدِلَّةُ عَلَىٰ النَّهيِ عَن دُعاءِ غيرِ اللهِ أكثَرُ مِنَ الأدِلَّةِ عَلَىٰ أنَّ السُّجودَ أوِ الرُّكوعَ أوِ الصَّلاةَ لِغيرِ اللهِ شِركٌ، وَهَذَا بيِّنٌ ظاهِرٌ لِمَن فتَحَ اللهُ عَلَىٰ قلبِهِ.

فمَن قالَ مثلًا: يَا رسولَ اللهِ أغِثني، أَو: يَا فُلانُ المدَدَ المدَدَ، فكلُّ هَذَا مِنَ الشِّركِ الأكبَرِ؛ لِأنَّ الهِدايَةَ، وطلَبَ الحاجاتِ، وتفريجَ الكُرُباتِ، والشِّفاءَ مِنَ الأمراضِ، مِنَ الأمورِ الَّتي لَا يقدِرُ عَلَيهَا إلَّا اللهُ، قالَ تَعَالَىٰ عَن إبراهيمَ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [سورة الشعراء:٨٠]، وقالَ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [سورة الأنفال:٩].

وبِهذِهِ الآيَةِ قطَعَ اللهُ الوسائطَ بينَهُ وبينَ خلقِهِ؛ فَلَا وُسَطاءَ بينَهُ وبينَهُم، لَا نبيٌّ، وَلَا ملَكٌ، وَلَا صالِحٌ، وَلَا إمامٌ معصومٌ؛ بَل مُباشَرَةً تدعُو اللهَ.

ولِهذا جاءَ القُرآنُ فأكّدَ عَلَىٰ نفيِ الشِّركِ عنِ اللهِ فِي مواضِعَ كثيرَةٍ، وخاصَّةً مَا يتعَلَّقُ بِالوَساطَةِ والقُربَةِ والشَّفاعَةِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [سورة يونس:١٨].

واليومَ عُبَّادُ القُبورِ ومَن يستَغيثونَ بِغيرِ اللهِ يقولونَ: هؤلاءِ وُسَطاءُ بينَنا وبينَ اللهِ، فنقولُ: إنَّ اللهَ حينَ أمَرَكَ أَن تدعوَهُ، ووعَدَكَ أَن يستَجيبَ لكَ، لَم يجعَل بينَكَ وبينَهُ واسِطَةً، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [سورة غافر:٦٠]، وَفِي حديثِ ابنِ عبَّاسٍ: «إِذَا سألتَ فاسأَلِ اللهَ، وَإِذَا استَعَنتَ فاستَعِن بِاللهِ».

قلتُ: ووجهُ بُطلانِ شُبهَةِ الوَساطَةِ -وَهِيَ عُمدَةُ المُشرِكينَ قديمًا وحديثًا- أنَّ الوَساطَةَ إنَّما تُحتاجُ فِي حقِّ المُلوكِ لِأمرَينِ: جهلِهِم بِأحوالِ الرَّعيَّةِ حتَّىٰ يُعَرِّفَهُمُ الوسيطُ، وحاجَتِهِم إِلَىٰ مَن يُعينُهُم ويشفَعُ عندَهُم؛ وكِلا الأمرَينِ مُنتَفٍ فِي حقِّ اللهِ، فإِنَّهُ سُبحانَهُ عليمٌ بِأحوالِ عبادِهِ لَا يخفىٰ عليهِ شيءٌ، غنيٌّ عَن كلِّ أحَدٍ لَا يحتاجُ إِلَىٰ مُعينٍ وَلَا شفيعٍ يُكرِهُهُ عَلَىٰ شيءٍ.

فلمَّا انتَفَت علَّةُ الوَساطَةِ فِي حقِّهِ، بطَلَ قياسُهُ عَلَىٰ المُلوكِ؛ ولِذا قطَعَها اللهُ بِقولِهِ ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [سورة غافر:٦٠]، فجَعَلَ الدُّعاءَ مُباشَرَةً بِلا حِجابٍ وَلَا واسِطَةٍ، وَهَذَا مِن كمالِ قُربِهِ مِن عبادِهِ وغِناهُ عمَّا سِواهُ.

فمَن أثبَتَ الوسائطَ فِي العِبادَةِ فقَد قاسَ الخالِقَ عَلَىٰ المخلوقِ، وَهُوَ عينُ مَا عابَهُ اللهُ عَلَىٰ المُشركينَ.

ولِهذا كانَ تعريفُ العِبادَةِ: «هِيَ اسمٌ جامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاهُ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ».

فالأعمالُ الظَّاهِرَةُ مثلُ الدُّعاءِ، فَلَا تَدعُو إلَّا اللهَ؛ والاستِغاثَةِ، فَلَا تستَغيثُ إلَّا بِاللهِ فِي الأمورِ الَّتي لَا يقدِرُ عَلَيهَا إلَّا اللهُ، مثلَ هِدايَةِ القلوبِ -فمَن يملِكُها؟ اللهُ وحدَهُ-، ومغفِرَةِ الذُّنوبِ، قالَ تعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران:١٣٥]، فحَصَرَ مغفِرَةَ الذُّنوبِ فيهِ سُبحانَهُ؛ والشِّفاءِ مِن كلِّ داءٍ، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [سورة الشعراء:٨٠].

ولِهذا أكَّدَ سُبحانَهُ عَلَىٰ هَذَا النَّوعِ مِنَ التَّوحيدِ -وَهُوَ توحيدُ الأُلوهيَّةِ- فِي سورَةِ الفاتِحَةِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة:٥]، أي: نخُصُّكَ يَا ربَّنا وحدَكَ بِالعِبادَةِ، وتقديرُ الآيَةِ: نعبُدُ إيَّاكَ.

وتأمَّل مَا فِي تقديمِ المعمولِ ﴿إِيَّاكَ﴾ [سورة الفاتحة:٥] عَلَىٰ عامِلِهِ ﴿نَعْبُدُ﴾ مِن إفادَةِ الحصرِ والاختِصاصِ؛ فإنَّ تقديمَ مَا حقُّهُ التَّأخيرُ يُفيدُ القصرَ عندَ أهلِ البَيانِ، فكأنَّهُ قيلَ: نعبُدُكَ وَلَا نعبُدُ سِواكَ، ونستَعينُكَ وَلَا نستَعينُ بِغَيرِكَ.

وَفِي تكرارِ الضَّميرِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة:٥] -وَلَم يقُل «إيَّاكَ نعبُدُ ونستَعينُ»- زيادَةُ تأكيدٍ لِلحَصرِ فِي كلٍّ مِنهُما عَلَىٰ حِدَةٍ؛ فأفرَدَ العِبادَةَ بِالحَصرِ، وأفرَدَ الاستِعانَةَ بِالحَصرِ، تنبيهًا عَلَىٰ أنَّ كُلًّا منهُما حقٌّ خالِصٌ لِلَّهِ لَا يُشرَكُ فيهِ.

وبِهذا يتِمُّ مقصودُ البابِ: أنَّ العِبادَةَ بِجميعِ أنواعِها -ظاهِرِها وباطِنِها، وَمِنهَا الدُّعاءُ والاستِعانَةُ- حقٌّ لِلَّهِ وحدَهُ، فمَن صرَفَ مِنهَا شيئًا لِغيرِهِ فَقَد أشرَكَ.

قال المؤلف - رحمه الله - :

فَمَن صَرف مِنهَا شَيئًا لِغَيرِ اللهِ؛ فَهُوَ مُشرِكٌ كَافِرٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون:١١٧].

وَفِي الحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ».

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر:٦٠].

مِن أكثَرِ أنواعِ الشِّركِ الَّتي انتَشَرَت فِي زمانِنا: شِركُ الدُّعاءِ والاستِغاثَةِ؛ وسيأتي الكلامُ عَلَىٰ الاستِغاثَةِ، ويُخَصَّصُ هَذَا الفصلُ لِعبادَةِ الدُّعاءِ.

الدُّعاءُ لُغَةً وشرعًا:

٢٢٩ - **قالَ ابنُ فارِسٍ فِي «معجَمِ المقاييسِ» (٢/ ٢٧٩):** «الدَّالُ والعَينُ والحرفُ المُعتَلُّ أصلٌ واحِدٌ، وَهُوَ أن تميلَ الشَّيءَ إليكَ بِصَوتٍ وكلامٍ يكونُ منكَ»؛ تقولُ: دعَوتُ أدعو دُعاءً.

٢٣٠ - **وقالَ السَّمعانيُّ فِي «التَّفسيرِ» (٢/ ٤٠٩)** فِي قولِهِ تعَالَىٰ ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ﴾ [سورة يونس:١٠٦]: الدُّعاءُ يكونُ بِمَعنيَينِ: أحَدُهُما بِمَعنىٰ النِّداءِ، كقولِكَ: يَا زيدُ ويا عمرُو؛ والآخَرُ بِمَعنىٰ الطَّلَبِ؛ وقولُهُ ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ﴾

[سورة يونس:١٠٦] معناهُ: أنَّهُ لَا ينفعُكَ إن دعوتَهُ، وَلَا يضُرُّكَ إن تركتَ دُعاءَهُ.

٢٣١- **وجاءَ فِي «المُفرَداتِ» (ص٣١٥)**: «الدُّعاءُ كالنِّداءِ».

٢٣٢- **وقالَ ابنُ رجَبٍ فِي «الفتحِ» (١/ ٢٠)**: «اعلَم أنَّ أصلَ الدُّعاءِ فِي اللُّغَةِ الطَّلَبُ؛ فَهُوَ استِدعاءٌ لِما يطلُبُهُ الدَّاعي ويُؤثِرُ حُصولَهُ».

قلتُ: ووجهُ الجمعِ بينَ معنيَي الدُّعاءِ -النِّداءِ والطَّلَبِ- أنَّ كلَّ دُعاءٍ يجتَمِعُ فيهِ الأمرانِ غالِبًا؛ فإنَّ الدَّاعيَ يُنادي مدعوَّهُ ثمَّ يطلُبُ منهُ حاجَتَهُ، كقولِ الدَّاعي: «يا ربِّ اغفِر لِي»، فـ«يا ربِّ» نِداءٌ، و«اغفِر لِي» طلَبٌ.

ولِهذا انقَسَمَ الدُّعاءُ عندَ أهلِ العِلمِ قِسمَينِ: دُعاءَ مسألَةٍ (وَهُوَ الطَّلَبُ)، ودُعاءَ عِبادَةٍ (وَهُوَ التَّعَبُّدُ بِالثَّناءِ والذِّكرِ)؛ وكِلاهُما عِبادَةٌ لَا يُصرَفُ إلَّا لِلَّهِ، فمَن صرَفَ شيئًا منهُما لِغيرِهِ فقَد أشرَكَ.(١)

وبِهذا يتبَيَّنُ أنَّ مَن نادىٰ ميِّتًا أو غائبًا «يا فُلانُ» طالِبًا منهُ النَّفعَ أيَّ نفعٍ، فقَد أتَىٰ بِشَطرَيِ الدُّعاءِ: نِدائهِ وطلَبِهِ، فوَقَعَ فِي صميمِ الشركِ.

---

(١) **قَالَ مُحَمَّدُ بنُ إبرَاهِيمَ فِي «شَرحِ كِتَابِ التَّوحِيدِ» (٢/ ٦٢-٦٣)**: وَالدُّعاءُ عَلَىٰ قِسمَينِ: دُعاءُ عِبادَةٍ، وَدُعاءُ مَسأَلَةٍ.

فَدُعَاءُ العِبَادَةِ: أَلفَاظُ الثَّناءِ عَلَىٰ الرَّبِّ سُبحَانَهُ وَتَعظِيمِهِ وَإِجلالِهِ؛ مِن «التَّهلِيلِ» وَ«الحَوقَلَةِ» وَ«سُبحَانَ اللهِ» وَ«الحَمدِ لِلهِ» وَغَيرِ ذَلِكَ، هَذَا يُسَمَّىٰ: دُعاءَ عِبادَةٍ.

وَالثَّانِي: دُعاءُ المَسأَلَةِ، وَهُوَ الَّذِي بِصِيغَةِ طَلَبٍ؛ «اغفِر لِي»، «ارحَمنِي»، «لَا تُزِغ قَلبِي»، «لَا تُؤَاخِذنِي»، هَذَا يُقَالُ لَهُ: دُعاءُ مَسأَلَةٍ.

وَدُعاءُ العِبادَةِ مُستَلزِمٌ لِدُعاءِ المَسأَلَةِ؛ المَعنَىٰ: أَنَّهُ سَائِلٌ فِي المَعنَىٰ، فَإِنَّهُ مَا قَالَهُ إلَّا وَهُوَ يَطلُبُ مِنَ اللهِ مَا يُطلَبُ - مِن رِضوَانِهِ، وَعَفوِهِ، وَدُخُولِ جَنَّتِهِ، وَنَحوِ هَذَا -.

وَاعلَم أنَّ الدُّعاءَ عِبادَةٌ بِنَصِّ القُرآنِ والسُّنَّةِ:

الدُّعاءُ عِبادَةٌ لِلَّهِ بِنَصِّ القُرآنِ والسُّنَّةِ، قالَ تَعَالَىٰ حاكيًا عَن إبراهيمَ قولَهُ لِلمُشرِكينَ: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩﴾ [سورة مريم:٤٨-٤٩].

فانظُر إلَىٰ قولِهِ ﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾ [سورة مريم:٤٨] فذكَرَ الدُّعاءَ، ثمَّ قالَ ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فذكَرَ فِي الموضِعِ الثَّاني العِبادَةَ بدَلَ الدُّعاءِ؛ لِأنَّ الدُّعاءَ هُوَ العِبادَةُ، كَمَا قالَ -ﷺ-.

وقالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ٦﴾ [سورة الأحقاف:٥-٦].

فانظُر قولَهُ فِي أوَّلِ الآيَةِ ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقالَ فِي آخِرِها عَن صرفِهِم لِلدُّعاءِ ﴿بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [سورة الأحقاف:٦]، فسَمَّىٰ الدُّعاءَ عِبادَةً، وسمَّىٰ فِعلَ المُشرِكينَ -وَهُوَ صرفُ الدُّعاءِ لِغيرِهِ- شِركًا منهُم.

وقالَ تَعالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر:٦٠]، وهذِهِ الآيَةُ صريحَةٌ فِي دلالَتِها علَىٰ أنَّ الدُّعاءَ عِبادَةٌ لِلَّهِ.

وقالَ تَعالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [سورة الجن:١٨]، وهذِهِ الآيَةُ عامَّةٌ، فَلَو كانَ فِي الدُّعاءِ والطَّلَبِ استِثناءٌ -كطَلَبِ المُشرِكينَ مِنَ الأمواتِ دفعَ المضارِّ

وجلبَ المنافِعِ- لاستَثنىٰ القُرآنُ ذلكَ.

قلتُ: وتأمَّل بَديعَ الحُجَّةِ فِي تنويعِ القُرآنِ لِلَّفظِ بينَ «الدُّعاءِ» و«العِبادَةِ» فِي الآيَتَينِ: فَفِي آيَةِ مريمَ بدَأَ إبراهيمُ بِالدُّعاءِ ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي﴾ [سورة مريم:٤٨] ثمَّ عبَّرَ عنهُ بِالعِبادَةِ ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ [سورة مريم:٤٩]؛ وَفِي آيَةِ الأحقافِ بدَأَ بِالدُّعاءِ ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ثمَّ ختمَ بِالعِبادَةِ ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾.

فجاءَ اللَّفظانِ مُتَعاقِبَينِ فِي موضِعٍ واحِدٍ، أحَدُهُما مكانَ الآخَرِ؛ وَهَذَا أبلَغُ مَا يكونُ فِي تقريرِ أنَّهُما حقيقَةٌ واحِدَةٌ، إذِ التَّعبيرُ بِأحَدِ اللَّفظَينِ عنِ الآخَرِ دليلُ تَرادُفِهِما فِي الْمَعنَىٰ، فثبَتَ بِنصِّ القُرآنِ -لَا بِمُجَرَّدِ الاستِنباطِ- أنَّ الدُّعاءَ عِبادَةٌ؛ فمَن صرَفَهُ لِغيرِ اللهِ فَقَد صرَفَ العِبادَةَ لِغيرِهِ، وَهُوَ الشِّركُ بِعَينِهِ.

وأمَّا عُمومُ آيَةِ الجنِّ ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن:١٨]، ففيهِ نُكتَةٌ: أنَّ لفظَ ﴿أَحَدًا﴾ نكِرَةٌ فِي سياقِ النَّهيِ، فتَعُمُّ كلَّ مدعوٍّ، حيًّا أو ميِّتًا، نبيًّا أو وليًّا أو ملكًا؛ فَلَو كانَ ثَمَّ مُستَثنًى لبَيَّنَهُ اللهُ، إذ تأخيرُ البيانِ عَن وقتِ الحاجَةِ مُمتَنِعٌ.

وَاعلَم أنَّ النَّهيَ عامٌّ لَا يُستَثنىٰ منهُ أحَدٌ:

فَلَو قالَ قائلٌ: لَا يجوزُ دُعاءُ أيِّ أحَدٍ إلَّا الأنبياءَ، مَاذَا نقولُ؟ نقولُ: هَذَا باطِلٌ، لِأنَّ اللهَ نَهىٰ عَن دُعاءِ كلِّ أحَدٍ فقالَ ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن:١٨]، ومنِ استَثنىٰ أحَدًا فعليهِ الدَّليلُ.

إذًا: لَا يجوزُ أن يُدعىٰ ملَكٌ، وَلَا نبيٌّ، وَلَا وليٌّ، وَلَا شجَرٌ وَلَا حجَرٌ وَلَا شمسٌ وَلَا قمَرٌ.

فسؤالُ الميِّتِ والغائبِ -نبيًّا كانَ أو غيرَهُ- لَم يأمُرِ اللهُ بِهِ وَلَا رسولُهُ، وَلَا فعَلَهُ

أَحَدٌ مِنَ الصَّحابةِ وَلَا التَّابِعينَ لهُم بإِحسانٍ، وَلَا استَحَبَّهُ أَحَدٌ مِن أئمَّةِ المُسلِمينَ.

٢٣٣- **قالَ ابنُ تيميةَ فِي «الرَّدِّ عَلَىٰ البَكريِّ» (١/٤٨٨):** وَهَذَا ممَّا يُعلَمُ بِالاضطِرارِ مِن دينِ المُسلِمينَ، أَنَّ أَحدًا منهُم مَا كانَ يقولُ -إِذَا نزَلَت بِهِ نازِلَةٌ أَو عرَضَت لهُ حاجَةٌ- لِمَيِّتٍ: يَا سيِّدي فُلانُ، أَنَا فِي حَسَبِكَ، أَوِ اقضِ حاجَتي، كَمَا يقولُ بعضُ هؤلاءِ المُشرِكينَ لِمَن يدعونَهُم مِنَ الموتىٰ والغائبينَ؛ وَلَا أَحَدٌ مِنَ الصَّحابةِ استَغاثَ بِالنَّبيِّ -ﷺ- بعدَ موتِهِ، وَلَا بِغَيرِهِ مِنَ الأنبياءِ، لَا عندَ قُبورِهِم وَلَا إِذَا بعُدوا عَنهَا؛ وَقَد كَانُوا يقِفونَ تلكَ المواقِفَ العِظامَ فِي مُقابَلَةِ المُشرِكينَ فِي القِتالِ، ويشتَدُّ البأسُ بِهِم ويظُنُّونَ الظُّنونَ، وَمَعَ هَذَا لَم يستَغِث أَحَدٌ منهُم بِنَبيٍّ وَلَا غيرِهِ مِنَ المخلوقينَ.

٢٣٤- **وقالَ حمدُ بنُ ناصِرٍ آلُ معمَرٍ فِي «الفواكِهِ العِذابِ» (ص٥٩):** أَمَّا مَن قالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ، وَهُوَ مُقيمٌ عَلَىٰ شِركِهِ يَدعُو الْمَوتَىٰ ويسأَلُهُم قضاءَ الحاجاتِ وتفريجَ الكُرُباتِ، فَهَذَا كافِرٌ مُشرِكٌ حلالُ المالِ والدَّمِ، وَإِن قالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ وصلَّىٰ وصامَ وزعَمَ أَنَّهُ مُسلِمٌ.

قلتُ: ووجهُ الاحتِجاجِ بِعَمَلِ الصَّحابةِ -لَا بِالآيَةِ فَقَط- أَنَّ المقامَ مقامُ شِدَّةٍ وكُربَةٍ، وَهُوَ أحوَجُ مَا يكونُ فيهِ العبدُ إِلَىٰ الاستِغاثَةِ؛ فَلَو كانَت الاستِغاثَةُ بِالأمواتِ والغائبينَ مشروعَةً لكانَ الصَّحابةُ أَوَّلَ مَن يفعَلُها، إِذ هُم أحرَصُ النَّاسِ عَلَىٰ الخيرِ، وأَشَدُّهُم حُبًّا لِلنَّبيِّ -ﷺ-، وَقد لقُوا مِنَ الشَّدائدِ مَا لقُوا.

ولَم يُنقَل عَن وَاحِدٍ مِن أَصحَابِهِ -رِضوَانُ اللهِ عَلَيهِم- أَنَّهُ وَقَفَ عِندَ قَبرِهِ يَطلُبُ مِنهُ حَاجَةً أَو يَستَغِيثُ بِهِ عِندَ كَربٍ، مَعَ أَنَّ اللهَ لَم يَترُك فِي هَذِهِ الأُمَّةِ بَعدَهُ أَفضَلَ مِن أَبِي

بَكرٍ، ثُمَّ عُمَرَ، ثُمَّ عُثمَانَ رِضوَانُ اللهِ عَلَيهِم؛ وَهُم أَشَدُّ الأُمَّةِ حُبًّا لَهُ، وَأَعلَمُهَا بِحَقِّهِ، وَأَقرَبُهَا مِن قَبرِهِ الشَّرِيفِ.

فَلَو كَانَتِ الِاستِغَاثَةُ بِهِ بَعدَ مَوتِهِ مَشرُوعَةً، لَكَانُوا أَحرَصَ النَّاسِ عَلَيهَا فِي نَوَازِلِهِم وَكُرُبَاتِهِم؛ وَقَد جَاءَتهُم نَوَازِلُ عِظَامٌ -كَعَامِ الرَّمَادَةِ وَالقَحطِ الشَّدِيدِ- فَمَا وَقَفُوا عِندَ قَبرِهِ يَستَسقُونَ بِهِ، بَل استَسقَىٰ عُمَرُ بِالعَبَّاسِ حَيًّا حَاضِرًا يَدعُو، لَا بِذَاتِ النَّبِيِّ المَقبُورَةِ.

فَترَكُهُمُ الأَعلَمُ الأَورَعُ لِهَذَا الفِعلِ، مَعَ توَفُّرِ الدَّاعِي وَشِدَّةِ الحَاجَةِ، دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَىٰ أَنَّهُم فَهِمُوا مِن هَديِهِ - تَحرِيمَ ذَلِكَ.

فلمَّا لَم يُنقَل عنهُم -مَعَ تواتُرِ الدَّواعي- أَنَّهُمُ استَغاثوا بِهِ -ﷺ- بعدَ موتِهِ، عُلِمَ بِالضَّرورَةِ أَنَّ ذلكَ ليسَ مِنَ الدِّينِ؛ إِذِ العادَةُ تُحيلُ أَن يترُكوا أمرًا تتَوافَرُ الدَّواعي عَلَىٰ فِعلِهِ لَو كانَ مشروعًا.

وَقَد يَحتَجُّ بَعضُ القُبُورِيِّينَ بِأَنَّ هَذَا الفِعلَ لَم يُنكِرهُ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ، وَإِنَّمَا أَنكَرَهُ المُتَأَخِّرُونَ.

وَجَوَابُ هَذِهِ الشُّبهَةِ مِن وَجهَينِ:

الأَوَّلُ: أَنَّ هَذَا البَاطِلَ لَم يَكُن مَوجُودًا أَصلًا فِي عَصرِ القُرُونِ المُفَضَّلَةِ حَتَّىٰ يُتَصَوَّرَ إِنكَارُهُم لَهُ، فَكَيفَ يُستَدَلُّ بِسُكُوتِ قَومٍ عَن أَمرٍ لَم يَقَع بَينَهُم؟

الثَّانِي وَهُوَ الأَهَمُّ: أَنَّ تَركَ النَّبِيِّ لِلَّجُوءِ إِلَىٰ قَبرٍ فِي حَاجَةٍ طَوَالَ حَيَاتِهِ، وَتَركَ أَصحَابِهِ لِذَلِكَ عِندَ قُبُورِ خِيَارِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِن بَعدِهِ -مَعَ قِيَامِ الحَاجَةِ وَتَوَفُّرِ الدَّاعِي، إِذ فِيهِم مَن كَانَ يَبتَلِيهِ الفَقرُ وَالمَرَضُ وَالكَربُ- هُوَ بِنَفسِهِ نَصٌّ فِي المَنعِ، لَا مُجَرَّدَ

سُكُوتٍ يَحتَمِلُ الإِقرارَ؛ فَإِنَّ عَمَلَ الإِجماعِ -وَهُوَ هُنَا إِجماعُهُم عَلَىٰ التَّركِ مَعَ قِيَامِ المُقتَضِي- كَنَصِّهِ فِي الحُجِّيَّةِ.

فَمَن زَعَمَ أَنَّ هَذِهِ البِدعَةَ لَم يُنكِرهَا أَحَدٌ قَبلَ ابنِ تَيمِيَّةَ، فَقَد قَلَبَ الحُجَّةَ عَلَىٰ نَفسِهِ مِن حَيثُ لَا يَشعُرُ؛ إِذ عَدَمُ وُجُودِهَا أَصلًا هُوَ الحُجَّةُ عَلَيهِ، لَا لَهُ.

فدَلالَةُ التَّركِ هاهُنا حُجَّةٌ قاطِعَةٌ، تنضَمُّ إِلَىٰ دلالَةِ النَّصِّ.

ولأنهم علموا عَلَىٰ وجه اليقين أنَّ النَّفعَ والضَّرَّ بِيَدِ اللهِ وحدَهُ:

قالَ تعالَىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النمل:٦٢]، فَلَا كاشِفَ لِلسُّوءِ، وَلَا مُجيبَ لِلمُضطَرِّ إِلَّا اللهُ؛ فمَن طلَبَ مِنَ الأمواتِ ذلك فَقَد أنزَلَهُم منزِلَةَ الآلِهَةِ.

٢٣٥ - **رَوَىٰ البُخاريُّ (رقم ١٥٩٧)** عَن عمرَ أَنَّهُ جاءَ إِلَىٰ الحجَرِ الأَسوَدِ فقبَّلَهُ، فقالَ: «إنِّي أعلَمُ أنَّكَ حجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تنفَعُ، ولولا أنِّي رأيتُ النَّبيَّ -ﷺ- يُقبِّلُكَ مَا قبَّلتُكَ».

قلتُ: ووجهُ أثَرِ عمرَ فِي هَذَا المقامِ أنَّهُ أصلٌ فِي أنَّ التَّعظيمَ والتَّقرُّبَ لَا يكونانِ إِلَّا بِما شرَعَهُ اللهُ، لَا بِما تستَحسِنُهُ النُّفوسُ؛ فعُمَرُ قبَّلَ الحجَرَ اتِّباعًا لَا ابتِداعًا، وصرَّحَ بِأنَّهُ لَا يضُرُّ وَلَا ينفَعُ، قطعًا لِتوَهُّمِ مَن يظُنُّ أنَّ فِي الحجَرِ نفعًا ذاتيًّا.

فَإِذَا كانَ هَذَا فِي الحجَرِ الأسوَدِ -وَهُوَ مِن أعظَمِ شعائرِ اللهِ- فكيفَ بِمَن يتَمَسَّحُ بِالقُبورِ ويطلُبُ مِنهَا النَّفعَ ودفعَ الضُّرِّ؟

فأثَرُ عمرَ حُجَّةٌ عَلَىٰ أنَّ المخلوقَ -وَلَو عظُمَت حُرمَتُهُ- لَا يملِكُ ضرًّا وَلَا نفعًا، وأنَّ غايَةَ مَا يُشرَعُ فيهِ الاتِّباعُ، لَا التَّعَلُّقُ بِهِ رجاءً ودُعاءً.

وَقد بيَّنَ سُبحانَهُ فِي آياتٍ كثيرَةٍ أنَّ دُعاءَ غيرِهِ هُوَ رأسُ الضَّلالِ، فقالَ: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [سورة الحج:١٢]، وقالَ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [سورة الشعراء:٢١٣]، وهذهِ الآيَةُ فِيهَا التَّوعُّدُ بِالعَذابِ والهلاكِ لِمَن دَعَا غيرَ اللهِ.

وقالَ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون:١١٧].

وقالَ تعالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة الأحقاف:٥]؛ يَعنِي أنَّهُ لَا أحَدَ أضَلُّ ممَّن يدعُو غيرَ اللهِ، فإنَّ دُعاءَ غيرِ اللهِ رأسُ الضَّلالِ والكُفرِ؛ فالأمواتُ الَّذينَ يُدعَونَ مِن دونِ اللهِ لَا يشُكُّ عاقِلٌ أنَّهُم لَا يستَجيبونَ لِمَن سألَهُم، لِأنَّهُم لَا يملِكونَ لِأنفُسِهِم شيئًا، فكيفَ يقدِرونَ عَلَىٰ نفعِ غيرِهِم؟ فمَن دعاهُم مِن دونِ اللهِ وطلَبَ منهُم قضاءَ الحوائجِ ودفعَ المضارِّ، فَهُوَ داخِلٌ فِي هذهِ الآيَةِ، بَل الآيَةُ تتَناوَلُهُ وَهِيَ عليهِ، فَهُوَ مِن أضَلِّ النَّاسِ وأكفَرِهِم وأكثَرِهِم ضلالًا.

وقالَ فِي خِتامِها ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة الأحقاف:٥]، وَلَا يشُكُّ عاقِلٌ أنَّ الأمواتَ فِي غَفلَةٍ عَن دُعاءِ مَن دعاهُم.

وقالَ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [سورة الأحقاف:٦]؛ فالنَّاسُ كلُّهُم -ومنهُمُ الأنبياءُ والأولياءُ والصَّالِحونَ- إِذَا بُعِثوا يومَ القِيامَةِ تبَرَّؤوا مِن عابِديهِم، وكفَروا بِشِركِ مَن دعاهُم مِن دونِ اللهِ.

قلتُ: ووجهُ كونِ دُعاءِ غيرِ اللهِ رأسَ الضَّلالِ أنَّ الضَّلالَ هُوَ العُدولُ عنِ الطَّريقِ

المُوصِلِ إِلَىٰ المقصودِ؛ والدَّاعي غيرَ اللهِ قَد عدَلَ عنِ القادِرِ النَّافِعِ الضَّارِّ إِلَىٰ عاجِزٍ لَا يملِكُ لِنَفسِهِ نفعًا وَلَا ضرًّا، بَل لَا يسمَعُ دُعاءَهُ وَلَا يشعُرُ بهِ؛ فأيُّ ضلالٍ أعظَمُ مِن أن يدَعَ العبدُ ربَّهُ القريبَ المُجيبَ، ويتَوجَّهَ إِلَىٰ ميِّتٍ غافِلٍ لَا يملِكُ شيئًا؟

ولِهذا جاءَ التَّعبيرُ بِصيغَةِ التَّفضيلِ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾، نفيًا لِأن يكونَ فِي الوُجودِ أضَلُّ منهُ، وتأمَّل كيفَ ضمَّ اللهُ إِلَىٰ ضلالِهِ فِي الدُّنيا خِزيَهُ فِي الآخِرَةِ: أنَّ معبوداتِهِ تنقَلِبُ عليهِ أعداءً، وتكفُرُ بِعِبادَتِهِ؛ فخَسِرَ فِي الدُّنيا بِتَعَلُّقِهِ بِما لَا ينفَعُ، وخَسِرَ فِي الآخِرَةِ بِعَداوَةِ مَن تعَلَّقَ بِهِ.

وقالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة الأعراف:١٩٤]، ومِثلُهُ كثيرٌ.

والظُّلمُ المذكورُ فِي قولِهِ تَعالَىٰ ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة يونس:١٠٦] هُوَ الظُّلمُ الأكبَرُ، وَهُوَ الشِّركُ الأكبَرُ، كَمَا قالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة لقمان:١٣].

وقولُهُ ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [سورة يونس:١٠٦] عُمومٌ لَا مُخَصِّصَ لهُ، ينطَبِقُ عَلَىٰ كلِّ مَا سِوىٰ اللهِ، فإنَّ النَّفعَ والضَّرَّ بِيَدِهِ سُبحانَهُ؛ فَلَا فرقَ بينَ دُعاءِ الأمواتِ مِنَ الأنبياءِ والأولياءِ، والشَّجَرِ والحجَرِ والأصنامِ، لِأنَّهُم كلَّهُم ينطَبِقُ عليهِم ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [سورة يونس:١٠٦].

فإنَّهُ سُبحانَهُ هُوَ الَّذي يُعطي ويمنَعُ، ويضُرُّ وينفَعُ؛ ولِذا قالَ بعدَها: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة يونس:١٠٧].

فكشفُ الضُّرِّ لَا يقدِرُ عليهِ الأمواتُ وَلَا الأصنامُ، وَلَا الأنبياءُ والصَّالِحونَ فِي قُبورِهِم، إنَّما هُوَ لِلَّهِ؛ فمَن طلَبَ ذلكَ مِن غيرِ اللهِ فَقَد أشرَكَ.

فالمدعوُّ لَا بُدَّ أَن يكونَ قادِرًا عَلَىٰ جلبِ النَّفعِ أَو دفعِ الضَّرِّ، وإلَّا فدُعاءُ مَن لَا يملِكُ ذلكَ ضربٌ مِنَ الجُنونِ؛ قالَ تعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [سورة الإسراء:٥٦].

٢٣٦- **وَرَوَىٰ ابنُ عبَّاسٍ فِي قولِهِ** ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ﴾ [سورة الإسراء:٥٦] **قالَ:** عِيسَىٰ، وأُمُّهُ، وعُزَيرٌ؛ فعيسىٰ وأُمُّهُ وعُزَيرٌ لَا يملِكونَ كشفَ الضُّرِّ عَن أحَدٍ وَلَا جلبَ النَّفعِ لِأحَدٍ، فغيرُهُم مِنَ الأمواتِ مِن بابٍ أَولَىٰ.

قُلتُ: بينما دعاء الْمَوتَىٰ من شعائر المشركين؛

٢٣٧- **كَمَا قَالَ مجاهد فِي «سنن سعيد بن منصور» (٧/ ٤٥٦):** كَانَ "اللاتُّ" رجلًا يَلُتُّ لَهُم السَّوِيقَ؛ فلمَّا ماتَ عَكَفُوا عَلَىٰ بيتِهِ.»

٢٣٨- **وَرَوَىٰ البُخاريُّ (رقم ٤٤٩٧) عنِ ابنِ مسعودٍ عنِ النَّبيِّ -ﷺ- قالَ:** «مَن ماتَ وَهُوَ يَدعُو لِلَّهِ نِدًّا دخَلَ النَّارَ».

٢٣٩- **وقالَ ابنُ رجَبٍ فِي «نورِ الاقتِباسِ» (٣/ ١٢٤):** «إنَّ سؤالَ اللهِ عُبوديَّةٌ عظيمَةٌ؛ لِأنَّها إظهارٌ لِلافتِقارِ إليهِ، واعتِرافٌ بِقُدرَتِهِ عَلَىٰ قضاءِ الحوائجِ؛ وَفِي سؤالِ المخلوقِ ظُلمٌ، لِأنَّ المخلوقَ عاجِزٌ عَن جلبِ النَّفعِ لِنَفسِهِ ودفعِ الضَّرِّ عنهَا، فكيفَ يقدِرُ عَلَىٰ ذلكَ لِغَيرِهِ؟ وسؤالُهُ إقامَةٌ لهُ مقامَ مَن يقدِرُ، وليسَ هُوَ بِقادِرٍ».

قلتُ: ووجهُ تخصيصِ ابنِ عبَّاسٍ الآيَةَ بِعيسىٰ وأُمِّهِ وعُزَيرٍ أنَّ هؤلاءِ أعظَمُ مَن عُبِدَ مِن دونِ اللهِ مِنَ الصَّالِحينَ؛ فعيسىٰ وعُزَيرٌ عبَدَتهُمُ النَّصارىٰ واليهودُ، ومريمُ

عظَّمَتها النَّصارىٰ؛ فنبَّهَ اللهُ بِأنَّ هؤلاءِ -عَلَىٰ عُلُوِّ منزِلَتِهِم- لَا يملِكونَ كشفَ الضُّرِّ، فدلَّ عَلَىٰ أنَّ مَن دونَهُم مِنَ الأولياءِ والصَّالِحينَ أعجزُ وأعجزُ.

وَهَذَا مِن أبلَغِ الاحتِجاجِ: الاستِدلالُ بِأعلىٰ مَا يُتوَهَّمُ فيهِ النَّفعُ عَلَىٰ مَا دونَهُ؛ فَإِذَا كانَ المسيحُ -وَهُوَ كلِمَةُ اللهِ وروحُهُ- لَا يملِكُ كشفَ الضُّرِّ، فكيفَ بِمَن يُدعىٰ مِنَ الأمواتِ فِي زمانِنا ممَّن لَا يبلُغُ معشارَ منزِلَتِهِ؟

وَفِي كلامِ ابنِ رجَبٍ بَيانُ سِرِّ كونِ الدُّعاءِ عِبادَةً: أنَّهُ إظهارٌ لِلافتِقارِ والذُّلِّ، واعتِرافٌ بِالقُدرَةِ؛ فمَن صرَفَهُ لِمَخلوقٍ فقَد أظهَرَ الذُّلَّ لِغيرِ أهلِهِ، وأقامَ العاجِزَ مقامَ القادِرِ، وذلكَ عينُ الظُّلمِ الَّذي هُوَ وضعُ الشَّيءِ فِي غيرِ موضِعِهِ.

الآياتُ المُتَتابِعَةُ فِي أنَّ دُعاءَ غيرِ اللهِ شِركٌ:

الآيَةُ الأولىٰ: قالَ تعالَىٰ: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [سورة فاطر:١٤].

بيَّنَتِ الآيَةُ أنَّ مَن دَعَا غيرَ اللهِ فَقَد أشرَكَ وكفَرَ؛ قالَ ﴿يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ [سورة فاطر:١٤]، فسَمَّاهُ شِركًا، مَعَ أنَّهُ سُبحانَهُ قالَ ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ﴾ [سورة فاطر:١٤]، فسَمعُهُم سمعٌ مُقيَّدٌ.

وأخبرَ سُبحانَهُ أنَّهُم لَا يستَجيبونَ لِمَن دعاهُم فِي شيءٍ، وَهَذَا عُمومٌ محفوظٌ لَا يُستَثنىٰ منهُ كبيرٌ وَلَا صغيرٌ؛ فمَن طلَبَ مِنَ الأمواتِ الشَّفاعَةَ والدُّعاءَ كمَن طلَبَ منهُمُ الخلقَ والنَّصرَ ومغفِرَةَ الذُّنوبِ، لَا فرقَ بينَ هذهِ الأشياءِ.

٢٤٠ - **وَرَوَىٰ ابنُ جريرٍ (١٩/ ٣٥١)** عَن قتادَةَ -مِن طريقِ سعيدٍ- فِي قولِهِ ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾ [سورة فاطر:١٤]: أَي: مَا قبِلوا ذلكَ

منكُم، وَلَا نفعوكُم فيهِ، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [سورة فاطر:١٤] إيَّاهُم، وَلَا يرضونَ وَلَا يُقِرُّونَ بِهِ، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [سورة فاطر:١٤] واللهُ هُوَ الخبيرُ أنَّهُ سيكونُ هَذَا مِن أمرِهِم يومَ القِيامَةِ.

٢٤١ - **وعلَّقَ يَحيَىٰ بنُ سلَّامٍ (٢/ ٧٨٢):** ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ [سورة فاطر:١٤] يَعنِي تُنادوهُم ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ [سورة فاطر:١٤] نِداءَكُم، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [سورة فاطر:١٤] بِعِبادَتِكُم إيَّاهُم، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [سورة فاطر:١٤] وَهُوَ اللهُ.

٢٤٢ - **وقالَ الطَّبَرِيُّ فِي «التَّفسيرِ» (١٩/ ٣٥٠):** «يقولُ تَعالَىٰ ذِكرُهُ: إن تَدعُوا أيُّها النَّاسُ هؤلاءِ الآلِهَةَ الَّتِي تعبُدونَها مِن دونِ اللهِ، لَا يسمَعوا دُعاءَكُم؛ لِأَنَّها جمادٌ لَا تفهَمُ عنكُم مَا تقولونَ، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [سورة فاطر:١٤]؛ لِأنَّها ليسَت ناطِقَةً، وليسَ كلُّ سامِعٍ قولًا مُتيَسِّرًا لهُ الجوابُ عنهُ... فكيفَ تعبُدونَ مِن دُونِي مَا كَانَت هذهِ صِفَتَهُ، وَهُوَ لَا نفعَ لكُم عندَهُ، وَلَا قُدرَةَ لهُ عَلَىٰ ضَرِّكُم، وتدعونَ عِبادَةَ الَّذي بِيَدِهِ نفعُكُم وضَرُّكُم، وَهُوَ الَّذي خلقَكُم وأنعَمَ عليكُم؟!».

قلتُ: ووجهُ الدلالَةِ مِن آيَةِ فاطِرٍ أنَّها أبطلَت دُعاءَ غيرِ اللهِ بِثَلاثِ مراتِبَ مُتَدَرِّجَةٍ، كلُّ واحِدَةٍ مِنهَا كافيَةٌ فِي الإبطالِ: الأولىٰ: أنَّهُم ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ [سورة فاطر:١٤]، فانتَفىٰ السَّماعُ الَّذِي هُوَ سَمعَ إجابةٍ أصلًا؛ والثَّانيَةُ: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [سورة فاطر:١٤]، لَم يقدِروا عَلَىٰ الإجابَةِ؛ والثَّالثَةُ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾، أي يتبَرَّؤونَ من الشرك الَّذِي فعلتموه ويُنكِرونَهُ.

فتدَرَّجَتِ الآيَةُ مِن نفيِ السَّماعِ النافعِ، إِلَىٰ نفيِ الاستِجابَةِ، إِلَىٰ التَّبَرُّؤِ يومَ القِيامَةِ؛ فسَدَّت كلَّ بابٍ يتعَلَّقُ بهِ الدَّاعي.

وتأمَّل تسميةَ اللهِ فِعلَهُم «شِركًا» صريحًا ﴿بِشِرْكِكُمْ﴾ [سورة فاطر:١٤]، فَهُوَ نصٌّ -لَا استِنباطٌ- فِي أنَّ دُعاءَ غيرِ اللهِ شِركٌ.

الآيَةُ الثَّانيَةُ: قالَ تعالَىٰ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [سورة الرعد:١٤].

٢٤٣ - **رَوَىٰ ابنُ جريرٍ (١٣/ ٤٨٨)** عَن عليِّ بنِ أَبِي طالِبٍ -مِن طريقِ أَبِي أيُّوبَ- فِي قولِهِ ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ [سورة الرعد:١٤] قالَ: كالرَّجُلِ العطشانِ، يمُدُّ يدَهُ إِلَىٰ البِئرِ لِيرتَفِعَ الماءُ إليهِ، ومَا هُوَ ببالِغِهِ.

٢٤٤ - **ورَوَىٰ (١٣/ ٤٨٨)** عَن مُجاهِدٍ -مِن طريقِ الأعرَجِ- فِي قولِهِ ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ [سورة الرعد:١٤] قالَ: يدعوهُ لِيأتيَهُ، ومَا هُوَ بِآتيهِ، كذلكَ لَا يستَجيبُ مَن هُوَ دونَهُ.

٢٤٥ - **ورَوَىٰ (١٣/ ٤٩٠)** عَن قتادَةَ -مِن طريقِ سعيدٍ-: وليسَ ببالِغِهِ حتَّىٰ يتمَزَّعَ عُنُقُهُ ويهلِكَ عطَشًا؛ فَهَذَا مثَلٌ ضرَبَهُ اللهُ: إنَّ هَذَا الَّذي يدعونَ مِن دونِ اللهِ -هَذَا الوثَنَ وَهَذَا الحجَرَ- لَا يستَجيبُ لهُ بِشيءٍ فِي الدُّنيا، ولَا يسوقُ إليهِ خيرًا، ولَا يدفَعُ عنهُ سوءًا حتَّىٰ يأتيَهُ الموتُ.

٢٤٦ - **وقالَ الطَّبَرِيُّ**: «﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ [سورة الرعد:١٤]، يقولُ: لَا تُجيبُ هذهِ الآلِهَةُ الَّتي يدعوها هؤلاءِ المُشرِكونَ بِشيءٍ يُريدونَهُ، مِن نفعٍ أَو دفعِ ضُرٍّ، ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ [سورة الرعد:١٤]، يقولُ: لَا ينفَعُ داعيَ الآلِهَةِ دُعاؤُهُ إيَّاها، إلَّا كَمَا ينفَعُ باسِطَ كفَّيهِ إِلَىٰ الماءِ بسطُهُ إيَّاهُما إليهِ»، ثمَّ أنشَدَ:

فـإنِّي وإيَّـاكُم وشـوقًا إلـيكُمُ   كقـابِضِ مـاءٍ لَـم تَسِقهُ أنامِلُـه

قلتُ: ووجهُ بَلاغةِ هَذَا المثَلِ أنَّ اللهَ شبَّهَ الدَّاعيَ غيرَهُ بِرَجُلٍ عطشانَ عَلَىٰ شفيرِ

بئرٍ، يبسُطُ كفَّيهِ إِلَىٰ الماءِ ويُشيرُ إليهِ لِيَرتَفِعَ إِلَىٰ فيهِ بِنَفسِهِ -مِن غيرِ أَن يتناوَلَهُ بِيَدِهِ أَو إناءٍ-؛ فَهُوَ واقِفٌ يستَدعي الماءَ بِالإشارَةِ، والماءُ جمادٌ لَا يستَجيبُ، حتَّىٰ يموتَ عطَشًا والماءُ أمامَهُ، فكذلكَ الدَّاعي غيرَ اللهِ: حاجَتُهُ ماثِلَةٌ، ومدعوُّهُ حاضِرٌ فِي زعمِهِ، لكنَّهُ لَا يُجيبُهُ بِشيءٍ، فيَهلِكُ فِي حاجَتِهِ وَلَم يظفَر مِنهَا بِشيءٍ.

وَهَذَا أبلَغُ فِي تصويرِ خَيبَةِ المُشرِكِ مِن أَن يُقالَ «لَا يُستَجابُ لهُ»؛ إِذِ المثَلُ يُجَسِّدُ الْمَعنَىٰ ويُقَرِّبُهُ، فيَرىٰ السَّامِعُ بِعَينِ قلبِهِ عطشانَ يموتُ والماءُ أمامَهُ لَا يبلُغُهُ.

الثَّالثَةُ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الأنعام:٤٠-٤١]؛ سمَّىٰ اللهُ دُعاءَ غيرِهِ شِركًا في قولِهِ ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [سورة الأنعام:٤١]، وبيَّنَ أنَّهُ لا كاشِفَ لِلضُّرِّ -كبيرِهِ وصغيرِهِ- إلَّا هو، وأطلَقَ كشفَ الضُّرِّ ولم يُفرِّق بينَ يسيرِهِ وكثيرِهِ، وسمَّىٰ دُعاءَهُم غيرَهُ لِكَشفِ الضُّرِّ شِركًا.

الرَّابِعَةُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة الأحقاف:٥]؛ أي: لا ضلالَ أعظَمُ مِن دُعاءِ غيرِ اللهِ، فإنَّ الأمواتَ والأصنامَ لا يستَجيبونَ بِشيءٍ.

الخامِسَةُ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [سورة فاطر:١٣].

السَّادِسَةُ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [سورة الإسراء:٥٦].

٢٤٧ - **رَوَىٰ الطَّبَرِيُّ (١٧/ ٤٧١)** عنِ ابنِ عبَّاسٍ: كانَ أهلُ الشِّركِ يقولونَ: نعبُدُ الملائكَةَ وعُزَيرًا، وهمُ الَّذينَ يدعونَ، يَعنِي الملائكَةَ والمسيحَ وعُزَيرًا.

٢٤٨ - **ورَوَىٰ (٧/ ٤٨٧)** عنهُ -مِن طريقِ الضَّحَّاكِ- فِي ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾ [سورة النساء:١١٧] قالَ: مَوتَىٰ.

السَّابِعَةُ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [سورة الجن:١٩]، وبعدَها ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [سورة الجن:٢٠]؛ فبَيَّنَتِ المُقابَلَةَ بينَ دُعاءِ اللهِ والشِّركِ بِهِ، فالمُقابِلُ لِقَولِهِ ﴿أَدۡعُواْ رَبِّي﴾ [سورة الجن:٢٠] أَن يدعوَ معهُ غيرَهُ، فَهَذَا هُوَ الشِّركُ.

الثَّامِنَةُ: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر:٦٠].

التَّاسِعَةُ: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ [سورة فاطر:١٤] — وَقَد تقدَّمَ تفصيلُها.

العاشِرَةُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ۝٢١﴾ [سورة النحل:٢٠-٢١].

الحاديَةَ عشرَةَ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [سورة الزمر:٤٥]، وقولُهُ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [سورة الزمر:٨].

الثَّانيَةَ عشرَةَ: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [سورة غافر:١٤].

الثَّالثَةَ عشرَةَ: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون:١١٧].

قلتُ: تأمَّل كيفَ تنوَّعت هذهِ الآياتُ فِي وجوهِ إبطالِ الشِّركِ: فَمِنهَا مَا نَفَىٰ عنِ المعبوداتِ السَّماعَ النافع، وَمِنهَا مَا نَفَىٰ الاستِجابَةَ، وَمِنهَا مَا نَفَىٰ المُلكَ وَلَو قِطميرًا، وَمِنهَا مَا نَفَىٰ الخلقَ، وَمِنهَا مَا أخبرَ بِأنَّها أمواتٌ، وَمِنهَا مَا أخبرَ بِتبرُّئها يومَ القِيامَةِ، وَمِنهَا مَا سمَّىٰ الفِعلَ شِركًا وضلالًا وكُفرًا.

فاجتَمَعَ مِن هذهِ الآياتِ بُرهانٌ قاطِعٌ، لَا يَبقَىٰ معهُ لِمُتَعَلِّقٍ بِغَيرِ اللهِ شُبهَةٌ.

خلاصَةُ أنواعِ الأدِلَّةِ عَلَىٰ أنَّ دُعاءَ غيرِ اللهِ شِركٌ:

فنستَدِلُّ عَلَىٰ أنَّ دُعاءَ غيرِ اللهِ شِركٌ بِنوعَينِ مِنَ الأدِلَّةِ:

أوَّلًا: بِالأدِلَّةِ الَّتي نصَّت علىٰ أنَّ دُعاءَ غيرِ اللهِ شِركٌ.

وثانيًا: بِالأدِلَّةِ الَّتي دلَّت عَلَىٰ أنَّ الدُّعاءَ عِبادَةٌ، فنَفهَمُ أنَّ دُعاءَ غيرِهِ شِركٌ؛ لِأنَّ القاعِدَةَ: كلُّ مَا ثبتَ أنَّهُ عِبادَةٌ فصَرفُهُ لِغيرِ اللهِ شِركٌ.

وخلاصَةُ أنواعِ الأدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ عِبادَةِ الدُّعاءِ، وأنَّ دُعاءَ غيرِهِ شِركٌ وضلالٌ:

الأوَّلُ: الأدِلَّةُ الَّتي وصَفَت دُعاءَ غيرِ اللهِ بِأنَّهُ شِركٌ وكُفرٌ.

الثَّاني: الأدِلَّةُ الَّتي دلَّت عَلَىٰ أنَّ الدُّعاءَ عِبادَةٌ.

الثَّالثُ: الأدِلَّةُ الَّتي جعَلَتِ الدُّعاءَ مِنَ الدِّينِ، والدِّينُ هُوَ العِبادَةُ.

الرَّابعُ: الأدِلَّةُ الَّتي وصَفَت دُعاءَ غيرِ اللهِ بِأنَّهُ ظُلمٌ.

الخامِسُ: الأدِلَّةُ الَّتي وصَفَتهُ بِأنَّهُ شططٌ (مُبالَغَةٌ فِي البُطلانِ).

السَّادِسُ: الأدِلَّةُ الَّتي وصَفَتهُ بِأنَّهُ ضلالٌ.

السَّابعُ: الأدِلَّةُ الَّتي توَعَّدَتِ الدَّاعينَ لِغيرِ اللهِ بِالعَذابِ والهلاكِ.

الثَّامِنُ: الأدِلَّةُ الَّتي فِيهَا الأمرُ بِدُعاءِ اللهِ وحدَهُ.

التَّاسِعُ: الأدِلَّةُ الَّتي فِيهَا النَّهيُ عَن دُعاءِ غيرِ اللهِ.

العاشِرُ: الأدِلَّةُ الَّتي أثبَتَت أنَّ اللهَ وحدَهُ هُوَ الجديرُ بِالدُّعاءِ.

قلتُ: ووجهُ انتِظامِ هذهِ الأنواعِ العشرَةِ أنَّها ترجعُ إِلَىٰ مسلكَينِ فِي الاستِدلالِ: مسلَكِ المنطوقِ الصَّريحِ، ومسلَكِ اللَّازِمِ.

فالأوَّلُ مَا نصَّ عَلَىٰ الحُكمِ صراحَةً، كوَصفِ الدُّعاءِ بِأنَّهُ شِركٌ أَو كُفرٌ أَو ظُلمٌ أَو ضلالٌ، أوِ الأمرِ بإفرادِهِ، أوِ النَّهيِ عَن صرفِهِ؛ والثَّاني مَا دلَّ بِاللُّزومِ، كالأدِلَّةِ الَّتي سمَّتِ الدُّعاءَ عِبادَةً أَو دينًا، فيَلزَمُ منها -بِضَميمَةِ القاعِدَةِ: «كلُّ عِبادَةٍ صُرِفَت لِغَيرِ اللهِ شِركٌ»- أنَّ صرفَ الدُّعاءِ لِغَيرِهِ شِركٌ.

وبِاجتِماعِ المسلكَينِ تكامَلَ البُرهانُ: فمَن لَم يكفِهِ النَّصُّ الصَّريحُ عَلَىٰ التَّسميَةِ بِالشِّركِ، كفاهُ لُزومُ ذلكَ مِن كونِ الدُّعاءِ عِبادَةً؛ فانسَدَّت مذاهِبُ المشركين مِن كلِّ جِهَةٍ.

وصُوَرُ الدُّعاءِ الشِّركيِّ كثيرَةٌ، مِنهَا:

الأولىٰ: دُعاءُ الأمواتِ مِنَ الأولياءِ والأنبياءِ، كقولِ النَّصارىٰ: يا عيسىٰ اشفَع لنا عندَ اللهِ، وكقولِ المُشرِكينَ المُنتَسِبينَ لِهذهِ الأمَّةِ: يا نبيَّ اللهِ اشفَع لنا عندَ اللهِ، والشَّفاعَةَ يا محمدُ، أوِ اغِثني يا رسولَ اللهِ؛ ومِثلُهُ دُعاءُ أصحابِ القُبورِ، فكلُّ دُعاءِ الأمواتِ هو مِنَ الشِّركِ الأكبَرِ المُخرِجِ مِنَ المِلَّةِ، قالَ تعالىٰ: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ [سورة فاطر:١٤].

الثَّانيَةُ: قولُ القائلِ: يا نبيَّ اللهِ اغفِر لي وارزُقني وأنزِلِ المطَرَ وانصُرنا علىٰ

الأعداءِ.

الثَّالثَةُ: قولُ القائلِ: يا نبيَّ اللهِ ادعُ اللهَ لي، أوِ استَغفِر لي عندَ اللهِ (مِنَ الميِّتِ أوِ الغائبِ).

الرَّابِعَةُ: دُعاءُ الجِنِّ والملائكَةِ، فيقولُ: يا جِنُّ افعَلوا واترُكوا، ويا ملائكَةَ السَّماءِ ارفَعي فُلانًا واخسِفي بِفُلانٍ.

الخامِسَةُ: دُعاءُ الإنسانِ الحيِّ الغائبِ الَّذي ليسَ بِحاضِرٍ، فيما يقدِرُ علىٰ فِعلِهِ لو كانَ حاضِرًا، كقولِ: يا فُلانُ أنقِذني مِنَ الغرَقِ (وهو غائبٌ لا يسمَعُ).

السَّادِسَةُ: دُعاءُ الحيِّ الحاضِرِ فِيمَا لَا يقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ، كَأَنَّ يُقالَ: يَا فُلانُ أنزِلِ المطَرَ، ونلتَمِسُ منكَ الرِّزقَ، ورُدَّ الموتَ عنَّا.

وأمَّا سؤالُ الحيِّ الحاضِرِ القادِرِ شيئًا يستَطيعُهُ، فَلَا بأسَ بهِ.

قلتُ: ووجهُ ضبطِ هذهِ الصُّوَرِ أنَّ مدارَ التَّفريقِ بينَ الدُّعاءِ الجائزِ والشِّركيِّ عَلَىٰ أمرَينِ: حالِ المدعوِّ (حيٌّ حاضِرٌ، أَو ميِّتٌ، أَو غائبٌ)، ونوعِ المطلوبِ (مقدورٌ لِلمَخلوقِ، أَو مختَصٌّ بِاللهِ).

فاجتِماعُ الجوازِ لَا يكونُ إلَّا فِي صورَةٍ واحِدَةٍ: حيٌّ حاضِرٌ، فِيمَا يقدِرُ عليهِ؛ كقولِكَ لِحاضِرٍ: أعِنِّي عَلَىٰ حملِ هَذَا، أوِ ادعُ اللهَ لِي.

وَمَا عَدَاهَا شِركٌ: فَإِنَّ كانَ المدعوُّ ميِّتًا أَو غائبًا فَهُوَ شِركٌ وَلَو كانَ المطلوبُ ممَّا يقدِرُ عليهِ الحيُّ، لِأنَّ الميِّتَ والغائبَ لَا يسمَعانِ سَمعَ إجابة وَلَا يقدِرانِ؛ وَإِن كانَ المطلوبُ ممَّا يختَصُّ بِاللهِ -كإنزالِ المطَرِ وشِفاءِ المرَضِ وغُفرانِ الذَّنبِ- فَهُوَ شِركٌ وَلَو كانَ المدعوُّ حيًّا حاضِرًا، لِأَنَّهُ طلَبٌ لِما لَا يقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ.

فبهذينِ الضَّابِطَينِ تنفَصِلُ الصُّوَرُ، ويُعرَفُ الجائزُ مِنَ الشِّركيِّ.

فحَذارِ يَا عبدَ اللهِ، اتَّقِ اللهَ؛ فرُبَّ كلِمَةٍ يقولُها العبدُ لَا يُلقي لَهَا بالًا يهوي بِها فِي النَّارِ أبعَدَ مَا بينَ المشرِقِ والمغرِبِ.

فَهَذَا الَّذي إِذَا جاءَتهُ النَّائبَةُ أوِ المُصيبَةُ نادىٰ بِالمَقبورينَ، أَو نادىٰ بالأنبياءِ: يَا سيِّدَ فُلانٍ المدَدَ، أَو يَا شيخي فُلانٌ أغِثني، أَو يَا رسولَ اللهِ ضاقَت بِيَ الحِيَلُ؛ عليهِ أَن يعلَمَ أنَّهُ قَد سقَطَ فِي هُوَّةٍ عظيمَةٍ مِنَ الشِّركِ، ووَقَعَ عليهِ كلُّ مَا يترَتَّبُ عَلَىٰ الشِّركِ مِنَ الأحكامِ -عِياذًا باللهِ-.

قلتُ: وخِتامُ القولِ فِي هَذَا الفصلِ أنَّ المُصَنِّفَ صدَّرَ أنواعَ العِبادَةِ بِالدُّعاءِ، لِأنَّهُ -كَمَا تقدَّمَ- أصلُ شِركِ العالَمِ وأوسَعُ أبوابِهِ؛ فمَن حقَّقَ إفرادَ اللهِ بِالدُّعاءِ فَقَد حقَّقَ عمودَ التَّوحيدِ، إذِ الدُّعاءُ هُوَ العِبادَةُ.

وَمَا أحوجَ المُسلِمَ فِي هَذَا الزَّمانِ -الَّذي فشا فيهِ التَّعَلُّقُ بِالقُبورِ والأضرِحَةِ- إِلَىٰ أَن يُمحِّصَ توحيدَهُ فِي هَذَا البابِ خاصَّةً؛ فيَجعَلَ دُعاءَهُ كلَّهُ لِلَّهِ، رغَبًا ورهَبًا، فِي الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، مُمتَثِلًا قولَهُ -ﷺ- لِابنِ عبَّاسٍ: «إِذَا سألتَ فاسأَلِ اللهَ، وَإِذَا استَعَنتَ فاستَعِن بِاللهِ»؛ فمَن أفرَدَ اللهَ بِالدُّعاءِ نَجا، ومَن أشرَكَ فيهِ غيرَهُ هلَكَ، ولَا واسِطَةَ بينَ العبدِ وربِّهِ، بَل ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [سورة غافر: ٦٠].

قال المؤلف -رحمه الله-:

وَدَلِيلُ الخَوفِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٥]،

وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف: ١١٠].

العِبادَةُ الثَّانيةُ والثَّالثَةُ هُمَا: الخوفُ والرَّجاءُ، وسيَكونُ الكلامُ عليهِما معًا لِما بينَهُما مِن ارتِباطٍ وثيقٍ؛ فالخوفُ والرَّجاءُ جناحا العبدِ اللَّذانِ يمضي بِهِما إِلَىٰ ربِّهِ.

فالرَّجاءُ يُطيِّبُ النَّفسَ ويحُثُّها عَلَىٰ طاعَةِ اللهِ، والخوفُ سوطٌ يُلَيِّنُ القاسيَ وَيَدعُو إِلَىٰ البُعدِ عَن مساخِطِ اللهِ.

وهاتانِ العِبادَتانِ -مَعَ المحَبَّةِ- هِيَ أصولُ الأعمالِ القلبيَّةِ؛ فالمحَبَّةُ والخوفُ والرَّجاءُ هِيَ أركانُ العِباداتِ القلبيَّةِ، وَلَا يستَقيمُ سيرُ العبدِ إِلَىٰ ربِّهِ إِلَّا بِاجتِماعِهِما فِي قلبِهِ.

واعلَم -يَا رعاكَ اللهُ- أنَّهُ لَن يكونَ خوفُكَ خوفًا شرعيًّا، وَلَا رجاؤُكَ رجاءً شرعيًّا، إِلَّا إِذَا اقترَنَ أحَدُهُما بِالآخَرِ؛ فالواجِبُ أَن تخافَ خوفًا مشوبًا بِالرَّجاءِ، وَأَن ترجوَ رجاءً مشوبًا بِالخوفِ.

والنَّاظِرُ فِي النُّصوصِ يجِدُ اجتِماعَ الخوفِ والرَّجاءِ فِيهَا دائمًا؛ ومِن ذلكَ قولُهُ تَعالَىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

[سورة الحجر:٤٩-٥٠]، وتجدُ ذِكرَ مَا يكونُ فِي الآخِرَةِ ممَّا يوجِبُ الخوفَ والرَّجاءَ معًا، كقولِهِ تَعالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨﴾ [سورة القارعة:٦-٨]، فَلَو وُزِنَ خوفُ المؤمِنِ ورجاؤُهُ لاعتَدَلا.

ووجهُ كونِ الخوفِ والرَّجاءِ جناحَينِ لَا يستَقيمُ السَّيرُ إلَّا بِهِما أنَّ العبدَ لَو خلا قلبُهُ مِنَ الرَّجاءِ لأفضىٰ بِهِ خوفُهُ إِلَىٰ القُنوطِ واليأسِ، وَهُوَ حالُ مَن قنَطَ مِن رحمَةِ اللهِ؛ وَلَو خلا مِنَ الخوفِ لأفضىٰ بِهِ رجاؤُهُ إِلَىٰ الأمنِ والاغتِرارِ، وَهُوَ حالُ مَن أمِنَ مكرَ اللهِ، وقدِ اجتمَعَ ذمُّ الطَّرَفينِ فِي القُرآنِ: فذُمَّ اليأسُ فِي قولِهِ ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [سورة يوسف:٨٧]، وذُمَّ الأمنُ فِي قولِهِ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [سورة الأعراف:٩٩]؛ فدلَّ أنَّ المطلوبَ التَّوَسُّطُ بينَهُما، وذلكَ بِاجتِماعِ الجناحَينِ.

وَفِي قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [سورة الحجر:٤٩-٥٠]، شاهِدٌ عَلَىٰ هَذَا الاقتِرانِ فِي خِطابِ اللهِ نفسِهِ؛ فَلَم يذكُرِ المغفِرَةَ مُجرَّدَةً، وَلَا العَذابَ مُجرَّدًا، بَل قرَنَ بينَهُما لِيَجتَمِعَ فِي قلبِ العبدِ الخوفُ والرَّجاءُ.

آثارُ السَّلَفِ فِي استِواءِ الخوفِ والرَّجاءِ:

٢٤٩ - **قالَ شُعبةُ بنُ الحجَّاجِ -كَمَا فِي «شُعَبِ الإيمانِ» (٢/ ١٢)-:** «لَو وُزِنَ خوفُ المؤمِنِ ورجاؤُهُ، مَا زادَ خوفُهُ عَلَىٰ رجائِهِ، وَلَا رجاؤُهُ عَلَىٰ خوفِهِ».

٢٥٠ - **وقالَ مُطَرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ -كَمَا فِي «حِليَةِ الأولياءِ» (٢/ ٢٠٨)-:** «لَو وُزِنَ خوفُ المؤمِنِ ورجاؤُهُ لوُجِدا سواءً، لَا يزيدُ أحَدُهُما عَلَىٰ صاحِبِهِ».

مسألة: أيُّهما يُغلَّبُ؟

الأصلُ استِواءُ الخوفِ والرَّجاءِ؛ لِظاهِرِ النُّصوصِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [سورة الإسراء:٥٧].

وأمَّا حديثُ: «لَا يموتَنَّ أحَدُكُم إلَّا وَهُوَ يُحسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ»، فليسَ فيهِ ذِكرُ تغليبِ الرَّجاءِ عَلَىٰ حِسابِ الخوفِ، بَل فيهِ النَّهيُ عَن سوءِ الظَّنِّ.

ويشهَدُ لهُ حديثُ التِّرمِذيِّ: أنَّ النَّبيَّ -ﷺ- قالَ لِرَجُلٍ فِي السِّياقِ: «مَا اجتَمَعا فِي قلبِ عبدٍ فِي مِثلِ هَذَا الموطِنِ إلَّا أعطاهُ اللهُ مَا يرجو، وآمَنَهُ ممَّا يخافُ».

٢٥١ - **وَرَوَىٰ يَحيَىٰ بنُ أَبِي كثيرٍ عَن عمرَ بنِ الخطَّابِ -كَمَا فِي «الحِليَةِ» (١/ ٧٣)- قالَ:** «لَو نادىٰ مُنادٍ مِنَ السَّماءِ: أيُّها النَّاسُ، إنَّكُم داخِلونَ الجنَّةَ كلُّكُم أجمَعونَ إلَّا رجُلًا واحِدًا، لخِفتُ أَن أكونَ هُوَ؛ وَلَو نادىٰ مُنادٍ: أيُّها النَّاسُ، إنَّكم داخِلونَ النَّارَ إلَّا رجُلًا واحِدًا، لرَجَوتُ أَن أكونَ هُوَ».

٢٥٢ - **وقالَ لُقمانُ لِابنِهِ -كَمَا فِي «بَهجَةِ المجالِسِ» (ص٨٢)-:** «يَا بُنَيَّ، ارجُ اللهَ رجاءً لَا تأمَنُ فيهِ مكرَهُ، وخَفِ اللهَ مخافَةً لَا تيأَسُ فِيهَا مِن رحمَتِهِ»، فقالَ: كيفَ أستَطيعُ ذلكَ، وإنَّما لِي قلبٌ؟ قالَ: «يَا بُنَيَّ، إنَّ المؤمِنَ كذي قلبَينِ: قلبٌ يخافُ بِهِ، وقلبٌ يَرجُو بِهِ».

٢٥٣ - **وقالَ الحسَنُ البَصريُّ -كَمَا فِي «الزُّهدِ» لِأحمَدَ (٤٥٢)-:** «الرَّجاءُ والخوفُ مطيَّتا المؤمِنِ».

٢٥٤ - **وقالَ الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ -كَمَا فِي «السِّيَرِ» (٢/ ٧٧٧)-:** «الخوفُ أفضَلُ مِنَ الرَّجاءِ مَا دامَ الرَّجُلُ صحيحًا، فَإِذَا نزَلَ بِهِ الموتُ فالرَّجاءُ أفضَلُ».

فالقلبُ فِي سيرِهِ إِلَىٰ اللهِ بِمَنزِلَةِ الطَّائِرِ: فالمحَبَّةُ رأسُهُ، والخوفُ والرَّجاءُ جناحاهُ؛ فمَتىٰ سلِمَ الرَّأسُ والجناحانِ كانَ الطَّائِرُ جيِّدَ الطَّيَرانِ، ومَتىٰ قُطِعَ الرَّأسُ ماتَ، ومَتىٰ فُقِدَ الجناحانِ صارَ عُرضَةً لِكُلِّ صائدٍ وكاسِرٍ؛ وكانَ السَّلَفُ يستَحِبُّونَ تقويَةَ جناحِ الخوفِ فِي حالِ الصِّحَّةِ، وتقويَةَ جناحِ الرَّجاءِ عندَ سِياقِ الموتِ.(١)

فمَن عبَدَ اللهَ بِالرَّجاءِ وحدَهُ فَهُوَ مُرجِئٌ، ومَن عبَدَهُ بِالخوفِ وحدَهُ فَهُوَ حَروريٌّ كحالِ الخوارِجِ، ومَن عبَدَهُ بِالحُبِّ وحدَهُ فَهُوَ زنديقٌ كحالِ غُلاةِ الصُّوفيَّةِ، ولكنَّ المُوَحِّدَ مَن عبَدَ اللهَ بِالمحَبَّةِ والخوفِ والرَّجاءِ.

إذًا: الأصلُ استِواءُ الخوفِ والرَّجاءِ، لكنَّ العبدَ طبيبُ نفسِهِ: فَإِنَّ وجَدَ فِي نفسِهِ ميلًا إِلَىٰ الْمَعَاصِي فليُكثِر مِن نُصوصِ الخوفِ تغليبًا مؤقَّتًا، وَإِن وجَدَ قُنوطًا ويأسًا فليُكثِر مِن نُصوصِ الرَّجاءِ تغليبًا مؤقَّتًا، كَمَا قالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء:٩٠].

إذاً: العِبادَةَ تقومُ عَلَىٰ ثلاثِ دعائمَ: المحبَّةِ والخوفِ والرَّجاءِ؛ فمَن أخَلَّ بِواحِدَةٍ وانفرَدَ بِأُخرىٰ وقَعَ فِي بِدعَةٍ بِقَدرِ إخلالِهِ.

فالمُرجِئُ غلَّبَ الرَّجاءَ حتَّىٰ أمِنَ، فأفضىٰ بِهِ إِلَىٰ التَّهاوُنِ بِالعَمَلِ؛ والحَروريُّ غلَّبَ الخوفَ حتَّىٰ قنَطَ، فأفضىٰ بِهِ إِلَىٰ تكفيرِ المُسلِمينَ بِالذُّنوبِ؛ والزِّنديقُ مِن غُلاةِ المُتَصَوِّفَةِ ادَّعىٰ المحبَّةَ المُجَرَّدَةَ حتَّىٰ رفَعَ التَّكاليفَ، فزَعَمَ أنَّ المُحِبَّ لَا يُؤاخَذُ.

فالتَّوحيدِ فِي جمعِ الثَّلاثِ، لَا فِي إفرادِ واحِدَةٍ؛ ولِذا جمَعَها اللهُ فِي قولِهِ عَن أنبيائِهِ ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾ [سورة الأنبياء:٩٠] -وَهُوَ الرَّجاءُ والخوفُ- ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا

(١) **انظُر:** فِي «مدارِجِ السَّالِكينَ» (٢/ ١٤٥).

﴿خَٰشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء:٩٠] -وَهُوَ ثمرَةُ المحبَّةِ والتَّعظيم-.

مسألة: أسبابُ الخوفِ مِنَ اللهِ تعالى:

مِن أعظَمِها: معرِفَةُ أسماءِ اللهِ وصِفاتِهِ، والتَّزَوُّدُ مِنهَا عِلمًا وإدراكًا وإيمانًا ويقينًا؛ وبِقَدرِ نقصِ هذهِ المعرِفَةِ يكونُ النَّقصُ فِي الخوفِ، فأعرَفُ النَّاسِ باللهِ أخشاهُم لِلَّهِ، وكذلكَ النَّظَرُ فِي نُصوصِ الآخِرَةِ، قالَ تعَالَىٰ: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا﴾ [سورة المزمل:١٢]، وقالَ: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ [سورة الحج:١].

والنَّظَرُ فِي آياتِ التَّخويفِ: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [سورة الإسراء:٥٩]، وقالَ -ﷺ- عندَ كُسوفِ الشَّمسِ: «يُخَوِّفُ اللهُ بِهِما عبادَهُ»، ومُطالَعَةُ تقصيرِ النَّفسِ؛ فمَن رَأَىٰ تقصيرَهُ فِي الطَّاعاتِ وكثرَةَ سيِّئاتِهِ أورَثَهُ ذلكَ خوفًا صادِقًا.

فبِهذِهِ الأمورِ يتِمُّ لهُ الخوفُ، وبِحَسَبِ قُوَّتِها وضَعفِها تكونُ قُوَّةُ الخوفِ وضَعفُهُ.(١)

قلتُ: فالخوفَ ثمرَةُ العِلمِ بالمَخوفِ، كَمَا قالَ تعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [سورة فاطر:٢٨]؛ فمَن عرَفَ اللهَ بِعِزَّتِهِ وجَبَروتِهِ وشِدَّةِ بطشِهِ، وأنَّهُ ذو انتِقامٍ، خافَهُ حقَّ خوفِهِ، فالخشيَةُ عَلَىٰ قَدرِ المعرِفَةِ، طردًا وعكسًا؛ ولِذا كانَ أعلَمُ الخلقِ بِاللهِ -وَهُوَ النَّبيُّ -ﷺ- أخشاهُم لهُ، كَمَا قالَ: «إنِّي أتقاكُم لِلَّهِ وأشَدُّكُم لهُ خشيَةً».

فلَيسَ الخوفُ المحمودُ خوفًا عَن جهلٍ، بَل خوفًا عَن عِلمٍ ومعرِفَةٍ، يحمِلُ عَلَىٰ الطَّاعَةِ ويحجُزُ عنِ المعصيَةِ.

---

(١) انظُر: «طريقِ الهِجرَتَينِ» (ص٢٨٣).

مسألة: الآياتُ الدالَّةُ على عِبادةِ الخوفِ:

مِنَ الآياتِ الَّتي فِيهَا الدَّلالَةُ عَلَىٰ عِبادَةِ الخوفِ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران:١٧٥]، وقولُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة العنكبوت:١٠]، وقولُهُ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [سورة الرحمن:٤٦]، وقولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [سورة إبراهيم:١٤]، وقالَ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [سورة المائدة:٤٤]، وقالَ: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [سورة البقرة:٤٠]، وقالَ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [سورة الأعراف:٢٠٥].

وأثنىٰ عَلَىٰ ملائكتِهِ لِخوفِهِم منهُ فقالَ: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء:٢٨]، ومدَحَ أنبياءَهُ وأولياءَهُ بِمِثلِ ذلك فقالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء:٩٠]، وقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة الرعد:٢١].

وعاتَبَ الكُفَّارَ عَلَىٰ غفلَتِهِم فقالَ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [سورة نوح:١٣]، فقيلَ فِي التَّفسيرِ: مَا لكُم لَا تخافونَ عظمَةَ اللهِ، وذمَّهُم فِي آيَةٍ أُخرىٰ فقالَ: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [سورة الفرقان:٢١]، فقيلَ أرادَ بِهِ: لَا يخافونَ.

قلتُ: فقوله تَعالَىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [سورة آل عمران:١٧٥] -هُوَ عُمدَةُ البابِ ودليلُ المتنِ- أنَّ اللهَ نَهَىٰ عنِ الخوفِ مِن أولياءِ الشَّيطانِ ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ [سورة آل عمران:١٧٥]، ثمَّ أمَرَ بِالخوفِ منهُ ﴿وَخَافُونِ﴾ [سورة آل عمران:١٧٥]؛ فدلَّ النَّهيُ والأمرُ معًا عَلَىٰ أنَّ الخوفَ عِبادَةٌ يجِبُ إفرادُ اللهِ بِها.

وَفِي تقديمِ المعمولِ فِي قولِهِ: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [سورة البقرة:٤٠] ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة البقرة:٤١]، إفادَةُ الحصرِ، أَي: ارهَبوني لَا غيري؛ فَهَذَا نظيرُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [سورة الفاتحة:٥] فِي إفادَةِ القصرِ.

ثمَّ تأمَّل كيفَ علَّقَ اللهُ الجزاءَ الأعظَمَ -وَهُوَ الجنَّتانِ- عَلَىٰ الخوفِ فِي قولِهِ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [سورة الرحمن:٤٦]؛ فَلَو لَم يكُنِ الخوفُ عِبادَةً محبوبَةً لهُ لَم يرتِّب عليهِ هَذَا الثَّوابَ العظيمَ.

الأحاديثُ فِي عِبادَةِ الخوفِ:

مِنَ الأحاديثِ فِي هَذَا البابِ:

٢٥٥ - **مَا رواهُ البُخاريُّ (رقم ٦٤٨٠)** عَن حُذَيفَةَ عنِ النَّبيِّ -ﷺ- قالَ: «كانَ رجُلٌ ممَّن كانَ قبلَكُم يُسيءُ الظَّنَّ بِعَمَلِهِ، فقالَ لِأهلِهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فخُذوني فذَرُّوني فِي البحرِ فِي يومٍ صائفٍ، ففعَلوا بهِ، فجَمَعَهُ اللهُ ثمَّ قالَ: مَا حمَلَكَ عَلَىٰ الَّذي صنَعتَ؟ قالَ: مَا حمَلَني إلَّا مخافَتُكَ، فغفَرَ لهُ»، فأنجاهُ توحيدُهُ المقرونُ بِالخوفِ مِنَ اللهِ.

٢٥٦ - **وَفِي «سُنَنِ التِّرمِذيِّ» (رقم ٣١٧٥) و«ابنِ ماجَه» (رقم ٤١٩٨)** عَن عائشَةَ قالت: قلتُ: يَا رسولَ اللهِ، قولُ اللهِ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [سورة المؤمنون:٦٠]، أَهُوَ الَّذي يَزني ويشرَبُ الخمرَ ويسرِقُ؟ قالَ: «لَا يَا ابنَةَ الصِّدِّيقِ، ولكنَّهُ الرَّجُلُ يصومُ ويُصَلِّي ويتَصَدَّقُ، ويخافُ ألَّا يُقبَلَ منهُ».

وقالَ -ﷺ-: «إنِّي أتقاكُم لِلَّهِ وأشَدُّكُم لهُ خشيَةً».

٢٥٧ - **وقالَ ابنُ بطَّةَ فِي «الإبانَةِ الصُّغرىٰ»:** «وأجمَعَتِ العُلَماءُ لَا خِلافَ بينَهُم: أنَّ اللهَ قَد افترَضَ عَلَىٰ الخلقِ الخوفَ والرَّجاءَ، وأنَّهُ دَعَا عبادَهُ إليهِ بِالرَّغبَةِ والرَّهبَةِ».

فدَلَّت هذهِ الأدِلَّةُ عَلَىٰ أنَّ الخوفَ مِن غيرِ اللهِ منهيٌّ عنهُ، وأنَّ الخوفَ مِنَ اللهِ مأمورٌ بهِ؛ قالَ تعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ [سورة آل عمران:١٧٥] نهيٌ عنِ الخوفِ مِن غيرِ اللهِ، ثمَّ قالَ: ﴿وَخَافُونِ﴾ [سورة آل عمران:١٧٥]، وَهُوَ أمرٌ بالخوفِ مِنَ اللهِ؛ وَمَا دامَ أنَّ اللهَ أمَرَ بالخوفِ منهُ، دلَّ ذلكَ عَلَىٰ أنَّ هَذَا الخوفَ محبوبٌ لهُ مرضيٌّ عندَهُ، فيَدخُلُ حينَئذٍ فِي تعريفِ العِبادَةِ؛ لِأنَّ العِبادَةَ اسمٌ جامعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاهُ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ.

أنواعُ الخوفِ — القسمُ الأوَّلُ: خوفُ العِبادَةِ (خوفُ السِّرِّ):

قالَ المُصَنِّفُ في «الرَّسائلِ الشَّخصيَّةِ» (المطبوعِ ضمنَ مؤلَّفاتِهِ، الجزءِ السَّادِسِ، ص٤٧): «ولا يُخافُ خوفُ السِّرِّ إلَّا منهُ».(١)

ومعناهُ: أن يخافَ أَن يُصيبَهُ هَذَا المخوفُ منهُ بِشيءٍ فِي نفسِ ذلكَ الخائفِ، كَمَا يُصيبُ اللهُ بِأنواعِ المصيباتِ مِن غيرِ أسبابٍ ظاهِرَةٍ وَلَا شيءٍ يُدرِكُهُ العبدُ؛ ذلكَ أنَّ هَذَا النَّوعَ مِنَ الخوفِ لَا يُمكِنُ الاحتِرازُ منهُ، فإنَّ اللهَ لهُ الملَكوتُ كلُّهُ، ولهُ المُلكُ، وَهُوَ عَلَىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، بِيَدِهِ تصريفُ الأمورِ، يُرسِلُ مَا يشاءُ مِنَ الخيرِ، ويُمسِكُ مَا يشاءُ منهُ، ويُرسِلُ المصائبَ، وكلُّ ذلكَ دونَ أسبابٍ يعلَمُها العبدُ، وَإِن كانَ لِبَعضِها أسبابٌ، فَهِيَ فِي الجملَةِ ممَّا لَا يُدرِكُهُ العبدُ.

فيَموتُ هَذَا، وينقَضي عُمُرُ هَذَا، ويموتُ ذلكَ صغيرًا وَهَذَا كبيرًا، ويُصابُ هَذَا بِمَرَضٍ وذلكَ بِبَلاءٍ فِي مالِهِ، ونحوِ ذلكَ؛ فالَّذي يفعَلُ هذهِ الأمورَ كلَّها هُوَ اللهُ، فيُخافُ مِنَ اللهِ خوفُ السِّرِّ: أَن يُصيبَ العبدَ بِشيءٍ مِنَ العَذابِ فِي الدُّنيا أوِ الآخِرَةِ.

---

(١) وانظُر «مجموعَ الفتاوىٰ» (١/ ٥٧)، و«تيسيرَ العزيزِ الحميدِ» (ص٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦)، و«الدُّرَرَ السَّنيَّةَ» (١/ ٥٦٧).

والمُشرِكونَ يخافونَ آلِهَتَهُم خوفَ السِّرِّ: أَن يُصيبَهُم ذلكَ الإلَهُ أوِ السَّيِّدُ أوِ الوليُّ كَمَا يُصيبُهُمُ اللهُ، فيَقَعُ فِي قلوبِهِمُ الخوفُ مِن تلكَ الآلِهَةِ مِن جِنسِ الخوفِ الَّذي يكونُ مِنَ اللهِ، ولِذلكَ فعُبَّادُ القُبورِ والأضرِحَةِ والأولياءِ يخافونَ أشَدَّ الخوفِ مِنَ الوليِّ أَن يُصيبَهُم بِشيءٍ إِذَا تنَقَّصوهُ أَو لَم يُقيموا لهُ حقَّهُ.

وَقَد وقَعَ هَذَا الخوفُ مِنَ المُشرِكينَ قديمًا وحديثًا؛ فتارَةً يزعُمونَ أنَّ لِلوَليِّ قُدرَةً يُؤَثِّرُ بِها فِي القلوبِ أوِ الأبدانِ أوِ الأموالِ، وتارَةً يجعَلونَ ذلكَ مِن بابِ الشَّفاعَةِ، فيَعتَقِدونَ أنَّ الوليَّ يطلُبُ مِن ربِّهِ الإضرارَ بِمَن خالَفَهُ فيُصيبُهُ بِذلكَ؛ وكلُّ ذلكَ شِركٌ أكبَرُ، لِأَنَّهُ مبنيٌّ عَلَىٰ صرفِ عِبادَةِ الخوفِ لِغيرِ اللهِ، وجعلِ المخلوقِ نِدًّا لِلَّهِ فِي خصائصِ رُبوبيَّتِهِ.

قلتُ: ووجهُ كونِ خوفِ السِّرِّ شِركًا أكبَرَ أنَّهُ خوفٌ مِن تصَرُّفٍ غيبيٍّ خفيٍّ لَا يقدِرُ عليهِ إِلَّا اللهُ؛ فإنَّ الخائفَ مِنَ الوليِّ -أَن يُصيبَهُ بِمَرَضٍ أَو بَلاءٍ بِقُدرَةٍ خفيَّةٍ- قَد أثبَتَ لهُ نوعًا مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الكونِ هُوَ مِن خصائصِ الرُّبوبيَّةِ؛ فكانَ خوفُهُ منهُ عِبادَةً صرَفَها لِغَيرِ اللهِ، والفارِقُ بينَهُ وبينَ الخوفِ الطَّبيعيِّ -الآتي- أنَّ الطَّبيعيَّ خوفٌ مِن سبَبٍ ظاهِرٍ محسوسٍ (كالسَّبُعِ والنَّارِ)، وأمَّا خوفُ السِّرِّ فخَوفٌ مِن تأثيرٍ غيبيٍّ خفيٍّ لَا سبَبَ لهُ ظاهِرٌ؛ فالأوَّلُ مِن دواعي الفِطرَةِ، والثَّاني مِن صميمِ العِبادَةِ القلبيَّةِ الَّتي لَا تُصرَفُ إِلَّا لِلَّهِ.

وَقَد أخبَرَ اللهُ عَن حالِ المُشرِكينَ أنَّهُم كَانُوا يُخَوِّفونَ الأنبياءَ بِآلِهَتِهِم، كَمَا فِي قِصَّةِ إبراهيمَ؛ إِذ بيَّنَ اللهُ موقِفَ إمامِ الحُنَفاءِ حينَ خوَّفَهُ قومُهُ بِآلِهَتِهِم، فقالَ: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ

سُلْطَٰنًاۚ﴾ [سورة الأنعام: ٨٠-٨١]، إِلَىٰ قولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٨٢].

فهذهِ الآياتُ أصلٌ فِي هَذَا البابِ؛ إِذ نفىٰ الخليلُ الخوفَ عَن آلِهَتِهِم نفيًا مُطلَقًا، وبيَّنَ أنَّها لَا تملِكُ ضرًّا وَلَا نفعًا، ثمَّ ردَّ الأمرَ إِلَىٰ مشيئَةِ اللهِ وحدَهُ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذي يُخافُ ويُرجىٰ.

فقولُهُ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۚ﴾ [سورة الأنعام: ٨٠] استِثناءٌ مُنقَطِعٌ؛ أَي: لَا أخافُ آلِهَتكُمُ البتَّةَ، وَلَكِن إِن شاءَ اللهُ أَن يُصيبَني بِشيءٍ فَلَا رادَّ لِقَضائِهِ؛ فالمشيئَةُ لهُ وحدَهُ، والعِلمُ التَّامُّ لهُ وحدَهُ، لَا لِآلِهَتِكُمُ الَّتي لَا تعلَمُ وَلَا تشاءُ.

ثمَّ احتجَّ عليهِم بِحُجَّةٍ قاطِعَةٍ فقالَ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ [سورة الأنعام: ٨١]؛ أَي: كيفَ أخافُ مَا لَا يملِكُ لِنَفسِهِ نفعًا وَلَا ضرًّا؟ ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ [سورة الأنعام: ٨١] مَعَ عظَمَةِ جريمَةِ الشِّركِ؟!

فدلَّ ذلكَ عَلَىٰ أنَّ الأمنَ والهِدايَةَ إنَّما هما لِأهلِ التَّوحيدِ الَّذينَ لَم يلبِسوا إيمانَهُم بِشِركٍ.

وكذلكَ قالَ قومُ هودٍ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ﴾ [سورة هود: ٥٤]، فصَرَّحوا بِأنَّ آلِهَتَهُم تُصيبُ مَن خالَفَها، فأجابَهُم هودٌ بِالتَّبَرُّؤِ مِن شِركِهِم، والتَّوَكُّلِ عَلَىٰ اللهِ وحدَهُ، وتحَدَّاهُم أَن يكيدوهُ هُوَ ومعبوداتِهِم جميعًا.

وكذلكَ قالَ تعَالَىٰ فِي حقِّ نبيِّنا -ﷺ-: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [سورة الزمر: ٣٦]؛ فدلَّ عَلَىٰ أنَّ تخويفَ المُوَحِّدينَ بِالأولياءِ والأصنامِ سُنَّةٌ ماضِيَةٌ لِلمُشرِكينَ فِي كلِّ زمانٍ.

فَلَا يجوزُ لِلعَبدِ أَن يخافَ غائبًا عنهُ هَذَا الخوفَ؛ فَلَا يخافُ ميِّتًا، وَلَا وليًّا فِي قبرِهِ،

وَلَا جِنيًّا، وَلَا غائبًا يظُنُّ أنَّهُ يطَّلِعُ عَلَىٰ سريرَتِهِ، وَلَا أحَدًا يعتَقِدُ أنَّهُ يملِكُ لهُ ضرًّا أَو نفعًا فِي أمرٍ لَا يقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ.

فمَن خافَ ميِّتًا أَن يُنزِلَ بِهِ مرَضًا، أَو يُصيبَهُ بِبَلاءٍ إن لَم يتقَرَّب إليهِ أَو ترَكَ عِبادَتَهُ، فَقَد جعَلَ لهُ نوعَ تصرُّفٍ غيبيٍّ مِن خصائصِ الرُّبوبيَّةِ، وَهَذَا شِركٌ أكبَرُ؛ لِأَنَّ الخوفَ هُنَا عِبادَةٌ قلبيَّةٌ صُرِفَت لِغَيرِ اللهِ.

والميِّتُ لَا يملِكُ لِنَفسِهِ نفعًا وَلَا ضرًّا، فكيفَ يملِكُهُ لِغَيرِهِ؟!

قالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [سورة فاطر:١٣]،

وقالَ: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ [سورة الجن:٢١].

فمَنِ اعتَقَدَ فِي مخلوقٍ تصرُّفًا غيبيًّا مُطلَقًا، أَو خافَهُ خوفَ تعَبُّدٍ فِي أمرٍ لَا يقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ، فَقَد ناقَضَ توحيدَ الرُّبوبيَّةِ والأُلوهيَّةِ معًا؛ فمَن وقَعَ فِي شيءٍ مِن ذلكَ فَقَد عبَدَ ذلكَ المخوفَ مِن دونِ اللهِ، لِأنَّ الخوفَ عِبادَةٌ قلبيَّةٌ لَا يجوزُ صرفُها إلَّا لِلَّهِ وحدَهُ.

فاللهُ سُبحانَهُ هُوَ العليمُ بِذاتِ الصُّدورِ، الَّذي لَا يَخفَىٰ عليهِ شيءٌ فِي الأرضِ وَلَا فِي السَّماءِ، الَّذي هُوَ مَعَ عبادِهِ بِعلمِهِ وإحاطَتِهِ أينَما كَانُوا، الَّذي بِيَدِهِ الضَّرُّ والنَّفعُ والعَطاءُ والمنعُ؛ وهذهِ الخصائصُ مِن لوازِمِ رُبوبيَّتِهِ وأُلوهيَّتِهِ، لَا يُشارِكُهُ فِيهَا أحَدٌ مِن خلقِهِ.

فمَن جعَلَ لِمَخلوقٍ شيئًا مِن ذلكَ -بِأن خافَهُ خوفًا غيبيًّا، أوِ اعتَقَدَ فيهِ تصرُّفًا خفيًّا مُطلَقًا- فَقَد جعَلَهُ نِدًّا لِلَّهِ، وَهَذَا مِنَ الشِّركِ الأكبَرِ المُناقِضِ لِأصلِ التَّوحيدِ؛ فهذهِ عِبادَةٌ محضَةٌ يجِبُ إفرادُ اللهِ بِها، وصرفُها لِغَيرِهِ شِركٌ أكبَرُ.

ووجهُ آياتِ إبراهيمَ أصلًا فِي البابِ أنَّها فرَّقَت بينَ مقامَينِ: مقامِ نفيِ الخوفِ عنِ

الآلِهَةِ نفيًا مُطلَقًا ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ [سورة الأنعام: ٨٠]، ومقام إثباتِ المشيئَةِ لِلَّهِ وحدَهُ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [سورة الأنعام: ٨٠].

فالاستِثناءُ مُنقَطِعٌ، فإنَّ المنفيَّ خوفُ الآلِهَةِ، والمُثبَتَ مشيئَةُ اللهِ، وهذانِ أمرانِ مُختَلِفانِ.

فكَأنَّ إبراهيمَ قالَ: لَا أخافُ آلِهَتكُم ألبتَّةَ، لَكِن لَا أَنفِي أَن يُصيبَني اللهُ بِشيءٍ بِمَشيئَتِهِ، وَفِي هَذَا أعظَمُ تحقيقٍ لِلتَّوحيدِ: أَنَّهُ نَفَىٰ الخوفَ عمَّا سِوىٰ اللهِ، وأثبَتَهُ لِلَّهِ وحدَهُ؛ فاجتَمَعَ فِي كلامِهِ النَّفيُ والإثباتُ، كَمَا هُوَ شأنُ كلِمَةِ التَّوحيدِ.

ثمَّ تأمَّلِ الحُجَّةَ البالِغَةَ فِي قولِهِ ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٨١]؛ فقَلَبَ عليهِمُ الأمرَ: أَنَا أحَقُّ بالأمنِ، إذ خَوفِي مِن قادِرٍ؛ وأنتُم أحَقُّ بالخوفِ، إذ أشرَكتُم باللهِ.

فبيَّنَ أنَّ الأمنَ الحقيقيَّ لِلمُوَحِّدِ، والخوفَ الحقيقيَّ عَلَىٰ المُشرِكِ، عكسَ مَا توَهَّموا.

مسألة: تجلّي خوفِ السِّرِّ في واقعِ عُبّادِ القُبورِ:

هَذَا القِسمُ هُوَ الَّذي شاعَ فِي طوائفَ مِن عُبَّادِ القُبورِ، حتَّىٰ صارَ المخوفُ عندَهُم مِنَ الأولياءِ المدفونينَ أوِ الطَّواغيتِ أعظَمَ فِي قلوبِهِم مِنَ الخوفِ مِنَ اللهِ؛ بَل قَد يبلُغُ بِهِمُ الأمرُ أَن يَخافُوا المخلوقَ أشَدَّ مِن خوفِهِم لِرَبِّهِم.

ومِن دلائلِ ذلكَ: أنَّكَ لوِ استَحلَفتَ أحَدَهُم بِاللهِ تجَرَّأَ عَلَىٰ اليمينِ -صادِقًا أَو كاذِبًا- غيرَ هَيَّابٍ، فَإِذَا قيلَ لهُ: احلِف بِصاحِبِ القبرِ الفُلانيِّ، أَو بِصاحِبِ التُّربَةِ، ارتَعَدَ وتوَقَّفَ، وَلَم يجرُؤ عَلَىٰ الكذِبِ؛ لِأنَّ المخوفَ المدفونَ فِي التُّرابِ أعظَمُ فِي قلبِهِ مِن

ربِّ العالمينَ، وَهَذَا قلبٌ لِحَقيقَةِ التَّوحيدِ، وإشراكٌ فِي الخوفِ الَّذي هُوَ مِن خصائصِ الإلَهيَّةِ.

وَهَذَا لَم يبلُغهُ شِركُ الأوَّلينَ؛ فإنَّهُم كَانُوا يُعَظِّمونَ الأيمانَ بِاللهِ ويجتَهِدونَ فِيهَا، كَمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [سورة الأنعام:١٠٩]؛ أمَّا هؤلاءِ فقدِ انعَكَسَ ميزانُ التَّعظيمِ فِي قلوبِهِم.

وكذلكَ إِذَا نزَلَ بِأحَدِهِم ظُلمٌ أَو ضررٌ، لَم يفزَع إِلَىٰ اللهِ بِالدُّعاءِ والاستِغاثَةِ، بَل قصَدَ القُبورَ وطلَبَ كشفَ الكربِ مِن أهلِها.

وَإِذَا أرادَ أحَدٌ أَن يتَّقيَ ظُلمَ ظالِمٍ، لَم يرَ لِلاعتِصامِ بِاللهِ حُرمَةً فِي قلوبِ النَّاسِ، وَلَكِن إنِ استَعاذَ بِصاحِبِ قبرٍ أَوِ احتَمىٰ بِتُربَتِهِ، هابَهُ النَّاسُ وترَكوهُ؛ لِما استَقَرَّ فِي قلوبِهِم مِن خوفِ سِرٍّ لِذلكَ المدفونِ.

فدلَّ أنَّ تعظيمَ المخلوقِ فِي قلوبِهم فاقَ تعظيمَ الخالِقِ، وَهَذَا انعِكاسٌ تامٌّ لِميزانِ التَّوحيدِ؛ إذِ التَّعظيمُ الأكبَرُ حقُّ اللهِ وحدَهُ، فمَن جعلَهُ لِمَخلوقٍ -بِأن خافَهُ فِي الكذِبِ مَا لَم يخَفِ اللهَ- فَقَد سوَّىٰ المخلوقَ بِالخالِقِ، بَل قدَّمَهُ عليهِ فِي التَّعظيمِ، وذلكَ غايَةُ الشِّركِ فِي عِبادَةِ الخوفِ.

وَاعلَم أنَّ أصل ضَلَالِ القَبريَّةِ أَنَّهُم يُعَامِلُونَ المَيِّتَ مُعَامَلَةَ الإِلَهِ؛ إِذ أَثبَتُوا لَهُ مِن خَصَائِصِ الرُّبُوبيَّةِ مَا لَا يَقدِرُ عَلَيهِ حَيٌّ وَلَا مَيِّتٌ:

وَتَأَمَّل مَعِي بَيَانَ ذَلِكَ فِي مَسَائِلَ:

المَسأَلَةُ الأُولَىٰ: أَنَّ الحَيَّ لَا يَتَّسِعُ سَمعُهُ لِلأَصوَاتِ كُلِّهَا فِي آنٍ وَاحِدٍ، بَل يَشغَلُهُ صَوتٌ عَن صَوتٍ.

فَهَل كَانَ الحُسَينُ وَالبَدَوِيُّ - فِي حَيَاتِهِمَا - يُنَادِيهِمَا العَشَرَاتُ فِي وَقتٍ وَاحِدٍ فَلَا يَشغَلُهُمَا نِدَاءٌ عَن نِدَاءٍ، فَضلًا عَنِ الأُلُوفِ الَّذِينَ يَهتِفُونَ بِهِمَا اليَومَ حَولَ أَضرِحَتِهِمَا؟

الجَوَابُ قَطعًا: لَا.

فَأَيَّةُ قُوَّةٍ خَارِقَةٍ استَفَادُوهَا بَعدَ المَوتِ، حَتَّىٰ صَارُوا لَا يَشغَلُهُم نِدَاءُ مُستَغِيثٍ عَن نِدَاءِ آخَرَ؟

نَدَعُ الجَوَابَ لِلقَبرِيَّةِ، لَعَلَّ عِندَهُم مَا يَقُولُونَ.

المَسأَلَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الحَيَّ لَا يَسمَعُ مِنَ البُعدِ كَسَمَاعِهِ مِنَ القُربِ.

فَهَل كَانَ الحُسَينُ وَالبَدَوِيُّ وَالجِيلَانِيُّ - فِي حَيَاتِهِم - يَسمَعُونَ كُلَّ مَن يُنَادِيهِم أَو يَتَحَدَّثُ عَنهُم عَلَىٰ البُعدِ؟

الجَوَابُ: لَا.

فَمَا تِلكَ القُوَّةُ الخَارِقَةُ الَّتِي طَرَأَت عَلَيهِم بَعدَ المَمَاتِ، حَتَّىٰ صَارَ الرَّافِضِيُّ فِي مَخدَعِهِ بِالنَّجَفِ يُنَادِي الحُسَينَ المَدفُونَ بِكَربَلَاءَ، ثُمَّ يَظُنُّ أَنَّهُ يَسمَعُهُ؟

نَدَعُ الجَوَابَ لِلقَبرِيَّةِ، لَعَلَّهُم يَجِدُونَهُ.

المَسأَلَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الحَيَّ لَا يَسمَعُ الصَّوتَ الخَفِيَّ مِن بَعِيدٍ.

فَهَل كَانَت فَاطِمَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنهَا- وَالجِيلَانِيُّ - فِي حَيَاتِهِم - يَسمَعُونَ مُنَاجَاةَ النَّاسِ بِالصَّوتِ المُنخَفِضِ مِنَ البُعدِ؟

الجَوَابُ: لَا.

فَمَا تِلكَ القُوَّةُ الخَارِقَةُ الَّتِي أَتَتهُم عَقِبَ مَوتِهِم، حَتَّىٰ صَارَ القَبرِيُّ يُنَادِيهِم بِصَوتٍ لَا يَسمَعُهُ مَن يُضَاجِعُهُ فِي حُجرَتِهِ، ثُمَّ يَزعُمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ المَوتَىٰ يَسمَعُونَهُ فِي قُبُورِهِم؟

نَدَعُ الجوَابَ لِلقبريَّةِ، فَهلَّا أَتوا بِبَيَانٍ مُبِينٍ؟

المَسأَلَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الحَيَّ لَا يَطَّلِعُ عَلَىٰ مَا فِي الصُّدُورِ.

فَهَل كَانَ أَبُو الفَضلِ العَبَّاسُ وَأُمُّ البَنِينَ وَالقنَاوِيُّ - فِي حَيَاتِهِم - يَعلَمُونَ مَا تُكِنُّهُ نُفُوسُ النَّاسِ؟

الجوَابُ: لَا.

فَمَا تِلكَ القُوَّةُ الخَارِقَةُ الَّتِي حَصَلَت لَهُم تَحتَ التُّرَابِ، حَتَّىٰ صَارُوا يَعلَمُونَ مَا فِي صَدرِ المُستَغِيثِ إِذَا نَادَاهُم؟

نَدَعُ الجوَابَ لِلقَبرِيَّةِ.

المَسأَلَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ الحَيَّ لَا يُحِيطُ بِتَفَاصِيلِ المُستَقبَلِ.

فَهَل كَانَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ - وَهُوَ مِمَّن تَتَعَلَّقُ بِهِمُ القَبرِيَّةُ - عَالِمًا بِمُستَقبَلِ كُلِّ مَن يَسأَلُهُ حَاجَةً؟

الجوَابُ قَطعًا: لَا.

فَمَا تِلكَ الطَّفرَةُ الخَارِقَةُ الَّتِي طَرَأَت عَلَيهِم لَمَّا وَارَاهُمُ النَّاسُ فِي قُبُورِهِم، حَتَّىٰ أَحَاطُوا عِلمًا بِمَا يَنفَعُ المُستَغِيثَ فِي مُستَقبَلِهِ؟

الجوَابُ: هُوَ أَنَّ مَظَاهِرَ الوَثَنِيَّةِ عِندَ القُبُورِيَّةِ مَا هِيَ إِلَّا امتِدَادٌ لِلوَثَنِيَّةِ الفِرعَونِيَّةِ، وَالفَلسَفَةِ التَّعطِيلِيَّةِ، وَاعتِقَادِهِم فِي الأَموَاتِ: فَقَد ذَكَرَ بليكر فِي كِتَابِهِ «المِهرَجَانَاتُ الدِّينِيَّةُ»: أَنَّ المِصرِيِّينَ القُدَامَىٰ لَا يَرَونَ فَرقًا كَبِيرًا بَينَ الإِلَهِ وَالإِنسَانِ، وَيَعتَقِدُونَ أَنَّ الإِنسَانَ إِذَا مَاتَ حَصَلَ عَلَىٰ شَيءٍ كَبِيرٍ مِنَ القُوَّةِ؛ وَأَكَّدَ أَنَّهُ لَا يَرَىٰ فَرقًا بَينَ الِاعتِقَادِ الشَّعبِيِّ المُعَاصِرِ فِي الأَولِيَاءِ - وَمَا لَهُم مِنَ القُدرَةِ وَالتَّصَرُّفِ فِي الكَونِ - وَبَينَ مَا كَانَ

يَعتَقِدُهُ المِصرِيُّونَ القُدَامَىٰ فِي أَموَاتِهِم.[(١)]

وَذَكَرَ الرَّازِيُّ، كَمَا فِي «المَطَالِبِ العَالِيَةِ» (٧/ ٢٢٨): أَنَّ بَعضَ اليُونَانِ كَانُوا يَجعَلُونَ القُبُورَ مَحَلًّا لِلتَّبَرُّكِ وَتَحصِيلِ الخَيرِ، حَيثُ يَقُولُ: «سَمِعتُ أَنَّ أَصحَابَ أَرسطُو كُلَّمَا أَشكَلَ عَلَيهِم بَحث مَوضُوعٍ ذَهَبُوا إِلَىٰ قَبرِهِ وَبَحَثُوا فِي تِلكَ المَسأَلَةِ، فَكَانَتِ المَسأَلَةُ تَنفَكُّ وَالإِشكَالُ يَزُولُ».

وَالفَلَاسِفَةُ لَدَيهِم أُصُولٌ تُوجِبُ الغُلُوَّ فِي القُبُورِ، فَهُم يَعتَقِدُونَ أَنَّ الأَروَاحَ تَفِيضُ عَلَىٰ الأَحيَاءِ بِأُمُورٍ نَافِعَةٍ لَهُم.

وَكَانَتِ القُبُورِيَّةُ مُنتَشِرَةً فِي بِلَادِ الهِندِ وَمَا حَولَهَا.

لَكِنَّ الَّذِي يعتقدهُ الموحدُ المسلمُ يَقِينًا: أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي لَا يَشغَلُهُ صَوتٌ عَن صَوتٍ، وَسِعَ سَمعُهُ الأَصوَاتَ، يَسمَعُ مِنَ القُربِ كَمَا يَسمَعُ مِنَ البُعدِ، وَيَسمَعُ السِّرَّ وَأَخفَىٰ، وَيَعلَمُ مَا تُكِنُّهُ الصُّدُورُ، وَيَعلَمُ الغيبَ فَلَا يَعزُبُ عَنهُ شَيءٌ.

فَهَذِهِ خَصَائِصُ الرُّبُوبِيَّةِ، صَرَفَتهَا القَبرِيَّةُ لِمَوتَاهَا، فَعَبَدُوهُم مِن دُونِ اللهِ.

سُبحَانَكَ رَبَّنَا، لَا نُشرِكُ بِكَ شَيئًا.

قلتُ: ولمَّا كانَ الغُلُوُّ فِي القُبورِ أوّلَ مَداخِلِ الشِّركِ، شدَّدَ الشَّارِعُ فِي سدِّ هَذَا البابِ بِكلِّ وسيلَةٍ؛ فَنَهَىٰ عنِ البناءِ عَلَىٰ القُبورِ وتجصيصِها ورفعِها، وأمَرَ بِتَسوِيَةِ المُشرِفِ مِنهَا وطمسِ التَّماثيلِ، كَمَا فِي حديثِ عليٍّ - أَنَّ النَّبِيَّ - بعثَهُ: «أَن لَا تدَعَ تِمثالًا إِلَّا طمَستَهُ، وَلَا قبرًا مُشرِفًا إِلَّا سوَّيتَهُ»؛ وَنَهَىٰ عنِ اتِّخاذِها مساجِدَ، ولعَنَ فاعِلَ ذلكَ، كَمَا فِي حديثِ عائشَةَ -: «لعَنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارىٰ، اتَّخذوا قُبورَ أنبيائِهِم

---

(١) انظُر: «دمعةٌ عَلَىٰ التوحيدِ» (١١٤).

مساجِدَ»، تُحَذِّرُ مَا صنَعوا.

بَل بلَغَ مِن سدِّ الذَّريعَةِ أَن نُهِيَ عَن قصدِ العِبادَةِ المشروعَةِ -كالصَّلاةِ والدُّعاءِ لِلَّهِ- عندَ القبرِ؛ إذِ اتِّخاذُ القبرِ موضِعًا لِلتَّعَبُّدِ ذريعَةٌ إِلَىٰ تعظيمِهِ، ثمَّ إِلَىٰ الاستِغاثَةِ بِصاحِبِهِ، فعِبادَةُ اللهِ عندَ القبرِ مرتَبَةٌ تُفضي إِلَىٰ عِبادَةِ القبرِ نفسِهِ؛ ولِهذا قيلَ: إِذَا نُهِيَ عَن عِبادَةِ اللهِ عندَ القبرِ سدًّا لِلذَّريعَةِ، فكيفَ بِمَن عبَدَ القبرَ ذاتَهُ؟!

فاجتَمَعَ فِي هَذَا البابِ تحريمُ الشِّركِ وتحريمُ وسائِلِهِ جميعًا.

ولَيسَتِ القُبُورِيَّةُ بِدعَةً طَارِئَةً، بَل هِيَ أَقدَمُ ضَلَالَاتِ بَنِي آدَمَ.

فَأَوَّلُ شِركٍ وَقَعَ فِي الأَرضِ إِنَّمَا كَانَ بِالغُلُوِّ فِي الصَّالِحِينَ: عَكَفَ قَومُ نُوحٍ عَلَىٰ صُوَرِ «وَدٍّ وَسُوَاعٍ وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسرٍ» -وَكَانُوا رِجَالًا صَالِحِينَ- فَلَمَّا طَالَ الأَمَدُ عُبِدُوا مِن دُونِ اللهِ. فَكَانَ مَنشَأُ الشِّركِ الأَوَّلِ غُلُوًّا فِي صَالِحٍ -أَو مَن يُظَنُّ صَلَاحُهُ- أَفضَىٰ إِلَىٰ صَرفِ العِبَادَةِ لَهُ.

ثُمَّ سَرَىٰ هَذَا الدَّاءُ فِي الأُمَمِ: حَضَرَ فِي مِصرَ القَدِيمَةِ حَتَّىٰ مَا كَادُوا يُفَرِّقُونَ بَينَ الإِلَهِ وَالإِنسَانِ، وَزَعَمُوا أَنَّ المَيِّتَ يَنَالُ قُوَّةً عَظِيمَةً؛ وَحضَرَ عِندَ اليُونَانِ حَتَّىٰ كَانَ أَصحَابُ أَرِسطُو إِذَا أَعيَاهُم بَحثٌ ذَهَبُوا إِلَىٰ قَبرِهِ يَلتَمِسُونَ عِندَهُ الفَتحَ؛ وَأَصَّلَ لَهُ الفَلَاسِفَةُ بِخُرَافَةِ «الفَيضِ»، زَعَمُوا أَنَّ الرَّحمَةَ تَفِيضُ عَلَىٰ النُّفُوسِ الفَاضِلَةِ كَانعِكَاسِ الشُّعَاعِ عَلَىٰ المِرآةِ، فَتُجدِي زِيَارَةُ قُبُورِهِم.

وَكَانَ مُستَشرِيًا فِي بِلَادِ الهِندِ، وَفِي جَزِيرَةِ العَرَبِ أَيَّامَ الجَاهِلِيَّةِ، حَتَّىٰ جَاءَ الإِسلَامُ فَأَعلَنَ الحَربَ عَلَيهِ.

فَحَاصِلُ الأمرِ عَلَىٰ وجه التحقيق: أَنَّ النَّذرَ لِلمَيِّتِ، وَالنَّحرَ عِندَ قَبرِهِ، وَالتَّوَسُّلَ

بِهِ، وَطَلَبَ الحَاجَاتِ مِنهُ، هُوَ بِعَينِهِ فِعلُ الجَاهِلِيَّةِ؛ غَيرَ أَنَّهُم سَمَّوهُ «وَثَنًا وَصَنَمًا»، وَسَمَّاهُ القُبُورِيُّونَ «وَلِيًّا وَقَبرًا وَمَشهَدًا»؛ وَالأَسمَاءُ لَا تُغَيِّرُ الحَقَائِقَ.

فَاحفَظ هَذَا الأَصلَ، فَإِنَّهُ مِفتَاحُ البَابِ.

وأُمَّةُ الإِسلَامِ بَقِيتُ دَهرًا طَوِيلًا عَلَىٰ نَقَاءِ هَذَا التَّوحِيدِ؛ فَلَم يُعرَف فِي أَوَّلِ تَارِيخِهَا مَشهَدٌ وَلَا قُبَّةٌ وَلَا مَسجِدٌ مَبنِيٌّ عَلَىٰ قَبرٍ، لَا فِي عَهدِ الصَّحَابَةِ وَلَا التَّابِعِينَ، لَا فِي الحِجَازِ وَلَا الشَّامِ وَلَا العِرَاقِ وَلَا مِصرَ وَلَا خُرَاسَانَ.

بَل كَانَ الوُلَاةُ وَالعُلَمَاءُ يَهدِمُونَ مَا يُبنَىٰ، يَقُولُ الشَّافِعِيُّ: «وَقَد رَأَيتُ مِنَ الوُلَاةِ مَن يَهدِمُ بِمَكَّةَ مَا يُبنَىٰ فِيهَا، فَلَم أَرَ الفُقَهَاءَ يَعِيبُونَ ذَلِكَ».

وَيُعَلِّلُ السَّمهُودِيُّ خَفَاءَ مَوضِعِ قَبرِ فَاطِمَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا- بِأَنَّ السَّلَفَ كَانُوا عَلَىٰ تَركِ البِنَاءِ عَلَىٰ القُبُورِ وَتَجصِيصِهَا؛ فَتِلكَ النَّظَافَةُ التَّوحِيدِيَّةُ هِيَ الَّتِي طَمَسَت مَعَالِمَ القُبُورِ صِيَانَةً لَهَا أَن تُعبَدَ.

ثُمَّ كَانَتِ الثَّغرَةُ الأُولَىٰ فِي أَوَاخِرِ القَرنِ الثَّالِثِ، حِينَ ضَعُفَتِ الخِلَافَةُ وَتَفَرَّقَتِ الأُمَّةُ وَدَخَلَ الزَّنَادِقَةُ المُلَبِّسُونَ عَلَىٰ المُسلِمِينَ، وأَوَّلُ مَن أَحدَثَ الغُلُوَّ فِي القُبُورِ وَجَعَلَهُ مَسلَكًا تَعَبُّدِيًّا مُنحَرِفًا كَانَ مِن مُنحَرِفِي الطَّوَائِفِ.

وَأَقدَمُ ضَرِيحٍ صَرِيحٍ عُرِفَ فِي تَارِيخِ الإِسلَامِ -كَمَا قَرَّرَتهُ عَالِمَةُ الآثَارِ الدُّكتُورَةُ سُعَادُ مَاهِر- قُبَّةٌ بُنِيَت بِسَامَرَّاءَ تُعرَفُ بِـ«قُبَّةِ الصُّلَيبِيَّةِ» سَنَةَ أَربَعٍ وَثَمَانِينَ وَمِائَتَينِ، اِستَأذَنَت فِي بِنَائِهَا أُمُّ خَلِيفَةٍ عَبَّاسِيٍّ لِوَلَدِهَا؛ وَتُعَدُّ أَوَّلَ قُبَّةٍ فِي الإِسلَامِ.

فَمِن تِلكَ القُبَّةِ الوَاحِدَةِ انفَتَحَ البَابُ الَّذِي أَوصَدَهُ الشَّارِعُ، وَصَدَقَ مَن قَالَ: إِنَّ البِنَاءَ عَلَىٰ القُبُورِ هُوَ المِعوَلُ الأَوَّلُ الَّذِي هُدِمَ بِهِ ذَلِكَ السُّورُ.

فَلَمَّا انفتَحَ البَابُ، وَغَلَبَ الجَهلُ، وَفرَّطَ كَثِيرٌ مِن أَهلِ العِلمِ فِي الدَّعوَةِ وَالتَّعلِيمِ، طَمَىٰ السَّيلُ حَتَّىٰ كَادَ لَا يَخلُو مِصرٌ وَلَا قَريَةٌ مِن أَضرِحَةٍ يَتَعَلَّقُ بِهَا النَّاسُ، يَصرِفُونَ عِندَهَا أَنوَاعًا مِنَ العِبَادَاتِ.

فَفِي مِصرَ نَحوُ سِتَّةِ آلَافِ قَريَةٍ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مَركَزٌ لِإِقَامَةِ المَوَالِدِ، حَتَّىٰ عَزَّ أَن تَجِدَ يَومًا فِي السَّنَةِ لَا احتِفَالَ فِيهِ بِمَولِدِ وَلِيٍّ فِي مَكَانٍ مَا؛ بَل أَصبَحَتِ القُرَىٰ الَّتِي تَخلُو مِنَ الأَضرِحَةِ مَثَارَ تَنَدُّرٍ وَتَهَكُّمٍ.

وَذَكَرَ عَلِيٌّ بَاشَا مُبَارَك أَنَّ بِالقَاهِرَةِ وَحدَهَا فِي زَمَنِهِ أَربَعَةً وَتِسعِينَ وَمِائَتَي ضَرِيحٍ، أَشهَرُهَا أَضرِحَةٌ بُنِيَت عَلَيهَا الجَوَامِعُ.

وَأَحصَىٰ أَحَدُهُم بِدِمَشقَ وَحدَهَا أَربَعَةً وَتِسعِينَ وَمِائَةَ ضَرِيحٍ وَمَزَارٍ، عِدَّةٌ مِنهَا تُنسَبُ لِلصَّحَابَةِ.

وَفِي الآستَانَةِ -عَاصِمَةِ الدَّولَةِ العُثمَانِيَّةِ- أَحَدٌ وَثَمَانُونَ وَأَربَعُمِائَةِ جَامِعٍ، لَا يَكَادُ يَخلُو جَامِعٌ مِن ضَرِيحٍ.

وَفِي الهِندِ أَكثَرُ مِن خَمسِينَ وَمِائَةِ ضَرِيحٍ مَشهُورٍ، يَؤُمُّهَا الأُلُوفُ.

وَفِي المَوصِلِ وَحدَهَا أَكثَرُ مِن سِتَّةٍ وَسَبعِينَ ضَرِيحًا، كُلُّهَا دَاخِلَ الجَوَامِعِ.

فَتَأَمَّل كَيفَ صَارَتِ الذَّرِيعَةُ الَّتِي سُدَّت بِالأَمسِ بَحرًا لَا سَاحِلَ لَهُ.

قُلتُ: وَمِن عَجَائِبِ هَذَا البَابِ أَنَّ أَكثَرَ تِلكَ القُبُورِ الَّتِي تُعظَّمُ وَيُطَافُ بِهَا كَذِبٌ وَتَزوِيرٌ، لَا يَصِحُّ نِسبَتُهَا إِلَىٰ مَن نُسِبَت إِلَيهِ.

وَقَد قَسَّمَ ابنُ تَيمِيَّةَ القُبُورَ ثَلَاثَةَ أَقسَامٍ: قِسمٌ حَقٌّ لَا رَيبَ فِيهِ، كَقَبرِ النَّبِيِّ -ﷺ- وَصَاحِبَيهِ أَبِي بَكرٍ وَعُمَرَ، وَهُوَ مَنقُولٌ بِالتَّوَاتُرِ؛ وَقِسمٌ كَذِبٌ بِلَا رَيبٍ؛ وَقِسمٌ مُختَلَفٌ

فِيهِ يُرَجَّحُ بِالنَّقلِ.

وَأَمَّا المَكذُوبُ فَكَثِيرٌ: مِنهُ القَبرُ المَنسُوبُ إِلَىٰ أُبَيِّ بنِ كَعبٍ شَرقِيَّ دِمَشقَ، وَالنَّاسُ مُتَّفِقُونَ أَنَّهُ مَاتَ بِالمَدِينَةِ؛ وَالقَبرُ المَنسُوبُ إِلَىٰ أُوَيسٍ القَرَنِيِّ، وَإِنَّمَا ذَهَبَ إِلَىٰ العِرَاقِ لَا الشَّامِ؛ وَالقَبرُ المَنسُوبُ إِلَىٰ نَبِيِّ اللهِ هُودٍ بِجَامِعِ دِمَشقَ، وَهُوَ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهلِ العِلمِ؛ وَقَبرُ نُوحٍ بِبَعلَبَكَّ، ظَهَرَ مِن مُدَّةٍ قَرِيبَةٍ وَلَا أَصلَ لَهُ.

وَأَعجَبُ مِن ذَلِكَ «مَشهَدُ الرَّأسِ» بِالقَاهِرَةِ، يَنسُبُونَهُ إِلَىٰ الحُسَينِ، وَبَدَنُهُ الشَّرِيفُ بِكَربَلَاءَ بِاتِّفَاقٍ، وَالمَشهَدُ نَفسُهُ بُنِيَ بَعدَ مَقتَلِهِ بِنَحوِ خَمسِمِائَةِ عَامٍ.

وَكَذَا قُبُورُ بَنَاتِ النَّبِيِّ -ﷺ- وَأُمَّهَاتِ المُؤمِنِينَ المُفَرَّقَةُ فِي الأَمصَارِ، وَإِنَّمَا قَضَينَ بِالمَدِينَةِ.

وَأَكبَرُ سَبَبَينِ لِهَذَا الكَذِبِ: اشتِرَاكُ الأَسمَاءِ -فَيُدفَنُ رَجُلٌ اسمُهُ كَاسمِ صَحَابِيٍّ فَيَظُنُّ الجُهَّالُ أَنَّهُ هُوَ-؛ وَالاعتِمَادُ عَلَىٰ الرُّؤَىٰ وَالمَنَامَاتِ فِي تَحدِيدِهَا، حَتَّىٰ نَشَأَ مَا يُسَمَّىٰ «أَضرِحَةَ الرُّؤيَا»: يَرَىٰ أَحَدُهُم فِي مَنَامِهِ أَن يَبنِيَ ضَرِيحًا لِفُلَانٍ، فَيَبنِيهِ بِاسمِهِ، فَيُتَّخَذُ مَعبَدًا!

وَمِن ذَلِكَ أَنَّ أَبَا المَوَاهِبِ الشَّاذِلِيَّ يَقُولُ: (رَأَيتُ رَسُولَ اللهِ -ﷺ-، قَالَ لِي: إِذَا كَانَت لَكَ حَاجَةٌ وَأَردتَ قَضَاءَهَا فَانذُر لِنَفِيسَةَ الطَّاهِرَةِ وَلَو فَلسًا؛ فَإِنَّ حَاجَتَكَ تُقضَىٰ).

فَانظُر كَيفَ بُنِيَ دِينُ القَومِ عَلَىٰ المَنَامَاتِ، وَهُدِمَ بِهَا التَّوحِيدُ الَّذِي بُنِيَ عَلَىٰ الوَحيِ.

وَهَا هُنَا تَبلُغُ الفِتنَةُ مُنتَهَاهَا؛ فَإِنَّ القَومَ صَارُوا يَفعَلُونَ عِندَ القُبُورِ مَا أَمَرَ اللهُ أَن يُفعَلَ لَهُ: يَذبَحُونَ وَيَنذِرُونَ، وَيَطُوفُونَ وَيُصَلُّونَ، وَيُنَادُونَ وَيَستَغِيثُونَ، وَيُنزِلُونَ بِالأَموَاتِ

كُرُبَهُم وَشَدَائِدَهُمُ الَّتِي لَا يُنزِلُهَا العَبدُ إِلَّا بِاللهِ.

حَتَّىٰ بَلَغَ بِهِمُ الغُلُوُّ أَن وَضَعُوا لِلقُبُورِ مَنَاسِكَ، وَصَنَّفَ بَعضُهُم كِتَابًا سَمَّاهُ «مَنَاسِكَ حَجِّ المَشَاهِدِ» مُضَاهَاةً لِحَجِّ البَيتِ الحَرَامِ؛ وَلَا يَخفَىٰ عَلَىٰ عاقلٍ أَنَّ هَذَا مُفَارَقَةٌ لِأَصلِ الإِسلَامِ، وَدُخُولٌ فِي دِينِ عُبَّادِ الأَصنَامِ.

وَيَكفِيكَ بُرهَانًا قَاطِعًا: أَنَّ الوَاحِدَ مِنهُم يَحلِفُ بِاللهِ كَاذِبًا غَيرَ مُبَالٍ، فَإِذَا قِيلَ لَهُ: احلِف بِشَيخِكَ وَمُعتَقَدِكَ الوَلِيِّ الفُلَانِيِّ، تَلَعثَمَ وَأَبَىٰ وَاعتَرَفَ بِالحَقِّ، وَهَذَا مِن أَبيَنِ الأَدِلَّةِ عَلَىٰ أَنَّ شِركَهُم قَد بَلَغَ فَوقَ شِركِ مَن قَالَ: إِنَّ اللهَ ثَانِي اثنَينِ أَو ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ.

وَوَصَفَ المَقرِيزِيُّ بَعضَ المَشَاهِدِ بِأَنَّهَا صَارَت كَالأَنصَابِ الَّتِي كَانَ يَتَّخِذُهَا مُشرِكُو العَرَبِ، يَلجَأُ إِلَيهَا العَامَّةُ وَالنِّسَاءُ فِي الشَّدَائِدِ.

بَل اعتَرَفَ أَحمَدُ الغُمَارِيُّ -وَهُوَ مِنَ المُدَافِعِينَ- بِوُقُوعِ الكُفرِ الصَّرِيحِ عِندَ القُبُورِ، وَأَنَّ مِنهُم مَن يَقُولُ عِندَ نُزُولِ المَطَرِ: «يَا مَولَانَا عَبدَ السَّلَامِ! اُلطُف بِعِبَادِكَ»، قَالَ: وَهَذَا كُفرٌ.

فَإِذَا كَانَ خَصمُكَ يَشهَدُ عَلَيكَ، فَأَيُّ بَيَانٍ بَعدَ هَذَا البَيَانِ؟

وَلَم يَقِف الأَمرُ عِندَ فَسَادِ العَقِيدَةِ -وَكَفَىٰ بِهِ قُبحًا- حَتَّىٰ جَاوَزَهُ إِلَىٰ فَسَادِ الأَخلَاقِ؛ فَإِنَّ الشِّركَ بَابٌ لِكُلِّ شَرٍّ.

وَصَفَ الجَبَرتِيُّ مَولِدًا مِن هَذِهِ المَوَالِدِ، فَذَكَرَ أَنَّهُم نَصَبُوا الخِيَامَ وَالمَطَابِخَ، وَاجتَمَعَ خَلِيطٌ مِنَ النَّاسِ وَأَربَابِ المَلَاهِي وَالمَلَاعِبِ وَالبَغَايَا، فَمَلَؤُوا الصَّحرَاءَ، يَطَؤُونَ القُبُورَ وَيُوقِدُونَ عَلَيهَا النِّيرَانَ، وَيَشرَبُونَ الخَمرَ وَيَرقُصُونَ وَيَزنُونَ وَيَضرِبُونَ بِالطُّبُولِ لَيلًا وَنَهَارًا، يَستَمِرُّ ذَلِكَ عَشرَةَ أَيَّامٍ أَو أَكثَرَ -يَجتَمِعُ فِيهِ الفُقَهَاءُ وَالعُلَمَاءُ

وَالأُمَرَاءُ مِن غَيرِ نكيرٍ - ثُمَّ يَعتَقِدُونَ ذَلِكَ كُلَّهُ قُربَةً وَعِبَادَةً!

فَهَل رَأَيت أَعجَبَ مِن قَومٍ سَمَّوا الفُجُور قُربَةً، وَجَعَلُوا انتِهَاكَ الحُرُمَاتِ عَلَىٰ القُبُورِ تَوَسُّلًا إِلَىٰ رَبِّ الأَرضِ وَالسَّمَاوَاتِ؟[1]

---

(١) **قَالَ ابنُ تَيمِيَّةَ ، كَمَا فِي «مَجمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (٢٧/ ٤٦٥)**: «خِلَافَةُ بَنِي العَبَّاسِ فِي أَوَائِلِهَا وَفِي حَالِ استِقَامَتِهَا، فَإِنَّهُم حِينَئِذٍ لَم يَكُونُوا يُعَظِّمُونَ المَشَاهِدَ - سَوَاءٌ مِنهَا مَا كَانَ صِدقًا أَو كَذِبًا - كَمَا حَدَثَ فِيمَا بَعدُ؛ لِأَنَّ الإِسلَامَ كَانَ حِينَئِذٍ مَا يَزَالُ فِي قُوَّتِهِ وَعُنفُوَانِهِ.

وَلَم يَكُن عَلَىٰ عَهدِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِم مِن ذَلِكَ شَيءٌ فِي بِلَادِ الإِسلَامِ: لَا فِي الحِجَازِ، وَلَا اليَمَنِ، وَلَا الشَّامِ، وَلَا العِرَاقِ، وَلَا مِصرَ، وَلَا خُرَاسَانَ، وَلَا المَغرِبِ؛ وَلَم يَكُن قَد أُحدِثَ مَشهَدٌ - لَا عَلَىٰ قَبرِ نَبِيٍّ، وَلَا صَاحِبٍ، وَلَا أَحَدٍ مِن أَهلِ البَيتِ، وَلَا صَالِحٍ - أَصلًا؛ بَل عَامَّةُ هَذِهِ المَشَاهِدِ مُحدَثَةٌ بَعدَ ذَلِكَ.

وَكَانَ ظُهُورُهَا وَانتِشَارُهَا حِينَ ضَعُفَت خِلَافَةُ بَنِي العَبَّاسِ، وَتَفَرَّقَتِ الأُمَّةُ، وَكَثُرَ فِيهِمُ الزَّنَادِقَةُ المُلَبِّسُونَ عَلَىٰ المُسلِمِينَ، وَفَشَت فِيهِم كَلِمَةُ أَهلِ البِدَعِ؛ وَذَلِكَ مِن دَولَةِ المُقتَدِرِ فِي أَوَاخِرِ المِائَةِ الثَّالِثَةِ، فَإِنَّهُ إِذ ذَاكَ ظَهَرَتِ القَرَامِطَةُ العُبَيدِيَّةُ القَدَّاحِيَّةُ بِأَرضِ المَغرِبِ، ثُمَّ جَاءُوا بَعدَ ذَلِكَ إِلَىٰ أَرضِ مِصرَ.

وَيُقَالُ: إِنَّهُ حَدَثَ قَرِيبًا مِن ذَلِكَ المُكُوسُ فِي الإِسلَامِ. وَقَرِيبًا مِن ذَلِكَ ظَهَرَ بَنُو بُويهٍ، وَكَانَ فِي كَثِيرٍ مِنهُم زَندَقَةٌ وَبِدَعٌ قَوِيَّةٌ.

وَفِي دَولَتِهِم قَوِيَ بَنُو عُبَيدٍ القَدَّاحُ بِأَرضِ مِصرَ، وَفِي دَولَتِهِم أُظهِرَ المَشهَدُ المَنسُوبُ إِلَىٰ عَلِيٍّ بِنَاحِيَةِ النَّجَفِ؛ وَإِلَّا فَقَبلَ ذَلِكَ لَم يَكُن أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّ قَبرَ عَلِيٍّ هُنَاكَ، وَإِنَّمَا دُفِنَ عَلِيٌّ ﵁ بِقَصرِ الإِمَارَةِ بِالكُوفَةِ.

وَإِنَّمَا ذَكَرُوا أَنَّ بَعضَهُم حَكَىٰ عَنِ الرَّشِيدِ أَنَّهُ جَاءَ إِلَىٰ بُقعَةٍ هُنَاكَ وَجَعَلَ يَعتَذِرُ إِلَىٰ المَدفُونِ فِيهَا، فَقَالُوا: إِنَّهُ عَلِيٌّ، وَأَنَّهُ اعتَذَرَ إِلَيهِ مِمَّا فَعَلَ بِوَلَدِهِ، فَقَالُوا: هَذَا قَبرُ عَلِيٍّ؛ وَقَد قَالَ قَومٌ: إِنَّهُ قَبرُ المُغِيرَةِ بنِ شُعبَةَ.

وَالكَلَامُ عَلَيهِ مَبسُوطٌ فِي غَيرِ هَذَا المَوضِعِ.

فَإِذَا كَانَ بَنُو بُويهٍ وَبَنُو عُبَيدٍ - مَعَ مَا كَانَ فِي الطَّائِفَتَينِ مِنَ الغُلُوِّ فِي التَّشَيُّعِ، حَتَّىٰ إِنَّهُم كَانُوا يُظهِرُونَ فِي دَولَتِهِم بِبَغدَادَ يَومَ عَاشُورَاءَ مِن شِعَارِ الرَّافِضَةِ مَا لَم يَظهَر مِثلُهُ، مِثلَ تَعلِيقِ المُسُوحِ عَلَىٰ الأَبوَابِ، وَإِخرَاجِ النَّوَائِحِ بِالأَسوَاقِ، وَكَانَ الأَمرُ يُفضِي فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَوقَاتِ إِلَىٰ قِتَالٍ تَعجِزُ المُلُوكُ عَن دَفعِهِ، وَبِسَبَبِ ذَلِكَ

القسمُ الثَّاني: الخوفُ المُحَرَّمُ:

هُوَ أَن يخافَ العبدُ مخلوقًا خوفًا يحمِلُهُ عَلَىٰ تركِ واجِبٍ أوجَبَهُ اللهُ، أَو فِعلِ مُحَرَّمٍ حرَّمَهُ اللهُ، مِن غيرِ عُذرٍ شرعيٍّ معتبَرٍ.

فمَتىٰ كانَ الخوفُ سببًا فِي الإخلالِ بِأمرِ اللهِ أوِ الوُقوعِ فِي نهيِهِ، كانَ خوفًا مُحَرَّمًا.

وصُورُهُ متعَدِّدَةٌ، مِنهَا: أَن يدَعَ الأمرَ بِالمعروفِ والنَّهيَ عنِ المُنكَرِ خشيَةَ الملامَةِ أَو فقدِ الجاهِ؛ وَأَن يتَخَلَّفَ عنِ الجِهادِ الواجِبِ إِذَا استُنفِرَ خوفًا مِنَ النَّاسِ؛ وَأَن يفِرَّ مِنَ الزَّحفِ بِغَيرِ عُذرٍ شرعيٍّ.

فَهَذَا كلُّهُ داخِلٌ فِي الخوفِ المُحَرَّمِ؛ لِأَنَّهُ قدَّمَ خوفَ المخلوقِ عَلَىٰ خوفِ

خَرَجَ الخِرَقِيُّ صَاحِبُ «المُختَصَرِ» فِي الفِقهِ - مِن بَغدَادَ لَمَّا ظَهَرَ بِهَا سَبُّ السَّلَفِ.

وَبَلَغَ مِن أَمرِ القَرَامِطَةِ الَّذِينَ كَانُوا بِالمَشرِقِ فِي تِلكَ الأَوقَاتِ أَنَّهُم أَخَذُوا الحَجَرَ الأَسوَدَ فَبَقِيَ مَعَهُم مُدَّةً، وَأَنَّهُم قَتَلُوا الحُجَّاجَ وَأَلقَوهُم بِبِئرِ زَمزَمَ -.

فَإِذَا كَانَ مَعَ كُلِّ هَذَا لَم يَظهَر حَتَّىٰ مَشهَدٌ لِلحُسَينِ بِعَسقَلَانَ، مَعَ العِلمِ بِأَنَّهُ لَو كَانَ رَأسُهُ بِعَسقَلَانَ لَكَانَ المُتَقَدِّمُونَ مِن هَؤُلَاءِ أَعلَمَ بِذَلِكَ مِنَ المُتَأَخِّرِينَ - فَإِذَا كَانَ مَعَ تَوَفُّرِ الهِمَمِ وَالدَّوَاعِي وَالتَّمَكُّنِ وَالقُدرَةِ لَم يَظهَر ذَلِكَ، عُلِمَ أَنَّهُ بَاطِلٌ مَكذُوبٌ، مِثلُ مَن يَدَّعِي أَنَّهُ شَرِيفٌ عَلَوِيٌّ وَقَد عُلِمَ أَنَّهُ لَم يَدَّعِ هَذَا أَحَدٌ مِن أَجدَادِهِ - مَعَ حِرصِهِم عَلَىٰ ذَلِكَ لَو كَانَ صَحِيحًا - فَإِنَّهُ بِهَذَا يُعلَمُ كَذِبُ هَذَا المُدَّعِي.

وَانظُر: التَّارِيخُ الإِسلَامِيُّ، لِمَحمُودِ شَاكِرٍ (٦/ ٩١-١٠٧)، (٦/ ١٤٩)، وَالأَضرِحَةُ وَشِركُ الِاعتِقَادِ (٦٩)، وَكِتَابُ: شَهرٌ فِي دِمَشقَ (٦٧)، وَالصُّوفِيَّةُ وَالسِّيَاسَةُ فِي مِصرَ (٨٨)، وَالفِكرُ الصُّوفِيُّ فِي ضَوءِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لِعَبدِ الرَّحمَنِ بنِ خَالِقٍ (٤٢٧)، وَمَسَاجِدُ مِصرَ (١/ ١٠٢-١٠٣)، وَكِتَابُ مَوَالِدِ مِصرَ، لِعَرفَةَ عَبدُهُ (٧١)، وَالطُّرُقُ الصُّوفِيَّةُ بَينَ السَّاسَةِ وَالسِّيَاسَةِ فِي مِصرَ المُعَاصِرَةِ (١٢٥)، وَالِانحِرَافَاتُ العَقَدِيَّةُ (٢٩٩-٣٠٠)، وَانظُر: «دَمعَةٌ عَلَىٰ التَّوحِيدِ» كَامِلًا، فَهُوَ كِتَابٌ مُفِيدٌ فِي الجُملَةِ فِي كَشفِ كَثِيرٍ مِنَ الحَقَائِقِ حَولَ الأَضرِحَةِ وَالقُبُورِ.

الخالِقِ، واللهُ تَعالَىٰ أَحَقُّ أن يُخشىٰ.

وَقد دلَّ عَلَىٰ ذلك قولُهُ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران:١٧٥]، فبيَّنَ سُبحانَهُ أنَّ التَّخويفَ مِنَ الكُفَّارِ مِن نفثِ الشَّيطانِ، وأمَرَ بإفرادِهِ بالخوفِ.

وَفِي قِصَّةِ حمراءِ الأسَدِ لمَّا خوَّفَ المُشرِكونَ المؤمِنينَ بِجُموعِهِم، قالَ الصَّحابةُ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [سورة آل عمران:١٧٣]، فزادَهُم ذلكَ إيمانًا، وَلَم يحمِلهُمُ الخوفُ عَلَىٰ تركِ مَا أُمِروا بِهِ.

وكذلكَ قولُهُ تَعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [سورة التغابن:١٤]، أَي: لَا يحمِلَنَّكُمُ الخوفُ عليهِم أَو منهُم عَلَىٰ تركِ مَا أوجَبَ اللهُ عليكُم.

وَفِي الحديثِ: أنَّ اللهَ تَعالَىٰ يقولُ لِلعَبدِ يومَ القِيامَةِ: «أَلَم ترَ مُنكَرًا فَلَم تُغَيِّرهُ؟» فيَقولُ: يَا ربِّ، خشيتُ النَّاسَ، فيَقولُ: «إِيَّايَ كنتَ أَحَقَّ أَن تَخشَىٰ».

وَهَذَا الخوفُ لَا يبلُغُ حدَّ الشِّركِ الأكبَرِ مَا لَم يتَضَمَّنِ اعتِقادًا فاسِدًا فِي المخلوقِ عَلَىٰ الضَّابِطِ الَّذي سبَقَ فِي الخوفِ الشِّركيِّ، لكنَّهُ معصيَةٌ عظِيمَةٌ ونقصٌ فِي الإيمانِ؛ لِأَنَّهُ تقديمٌ لِخَوفِ النَّاسِ عَلَىٰ خوفِ اللهِ.

ويصيرُ شِركًا إِذَا صارَ خوفُهُ مِنَ المخلوقِ أعظَمَ مِن خوفِهِ مِنَ اللهِ.

فَهُوَ دونَ خوفِ السِّرِّ الشِّركيِّ، لكنَّهُ بابٌ خطيرٌ يُفضي إِلَىٰ ضَعفِ التَّوحيدِ، ورُبَّما جرَّ إِلَىٰ مَا هُوَ نقضُهُ.

القسمُ الثَّالثُ: الخوفُ الطَّبيعيُّ:

وَهُوَ الخوفُ الَّذي جُبِلَ عليهِ الإنسانُ، ويقَعُ عندَ وُجودِ سببٍ ظاهِرٍ يُخشىٰ منهُ الضَّرَرُ عادَةً؛ كخَوفِهِ مِن عدُوٍّ، أَو سبُعٍ، أَو حريقٍ، أَو غرَقٍ، أَو سُقوطِ جِدارٍ، ونحوِ ذلكَ مِنَ الأسبابِ المحسوسَةِ المؤذِيَةِ.

فَهَذَا خوفٌ فِطريٌّ لَا يُذَمُّ، وَلَا يُنافِي كمالَ التَّوحيدِ، مَا لَم يترَتَّب عليهِ تركُ واجِبٍ أَو فِعلُ مُحَرَّمٍ.

وَقَد دلَّ عليهِ قولُهُ تَعَالَىٰ فِي شأنِ مُوسَىٰ: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾ [سورة القصص:٢١]، فَهَذَا خوفٌ مِن بطشِ عدُوٍّ قادِرٍ ظاهِرٍ، وَهُوَ خوفٌ طبيعيٌّ لَا قدحَ فيهِ، وَقَد وقَعَ مِن نبيٍّ كريمٍ مِن أُولِي العزمِ.

٢٥٨ - **قالَ الكَرَجيُّ فِي «النُّكَتِ» (٢/ ٢٨٦):** قولُهُ ﴿قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ﴾ [سورة طه:٢١] دليلٌ عَلَىٰ اختِصارِ الكلامِ؛ لِأَنَّ ذِكرَ الخوفِ لَم يتقَدَّم فِي اللَّفظِ، فدلَّ قولُهُ ﴿وَلَا تَخَفۡۖ﴾ عَلَىٰ أَنَّهُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لمَّا رَأَىٰ عصاهُ تحَوَّلَت حيَّةً فرِقَ مِنهَا، وفيهِ دليلٌ عَلَىٰ أَنَّ أنفُسَ البشَرِ مجبولَةٌ عَلَىٰ الخوفِ مِنَ المؤذِياتِ، وأَنَّ الخوفَ اللَّاحِقَ بِها عندَ رؤيَتِها لَا يحُطُّ مِن درجَةِ التَّوَكُّلِ شيئًا، ومِثلُهُ قولُهُ تعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ﴾ [سورة القصص:٧].

والخوفُ الطَّبيعيُّ لَا يتَضَمَّنُ تألُّهًا لِلمَخوفِ، وَلَا تعظيمًا تعبُّديًّا لهُ، وَلَا اعتِقادًا أَنَّهُ يتَصَرَّفُ بِمَشيئَتِهِ وقُدرَتِهِ استِقلالًا، وإِنَّما هُوَ انفِعالٌ جِبِلِّيٌّ عندَ توَقُّعِ الْأَذَىٰ مِن سببٍ ظاهِرٍ، فَهُوَ مُتعَلِّقٌ بِالأسبابِ، لَا بِالمشيئَةِ المُستَقِلَّةِ؛ ولِهذا لَا يُنقِصُ الإيمانَ، لِأَنَّهُ ليسَ مِن أعمالِ القلوبِ التَّعَبُّدِيَّةِ، بَل مِن دواعِي الفِطرَةِ البشَرِيَّةِ.

وَلَو قيلَ لِلنَّاسِ: إِنَّ مُجَرَّدَ خوفِكُم مِن سبُعٍ أَو عدُوٍّ شِركٌ، لكانَ تكليفًا بِما لَا

يُطاقُ.

والخوفُ الطَّبيعيُّ نوعانِ باعتِبارِ آثارِه: الأوَّلُ محمودٌ أَو مُباحٌ، إِذَا كانَ باعِثًا عَلَىٰ التَّحَرُّزِ المشروعِ، كاجتِنابِ المهالِكِ، واتِّخاذِ الأسبابِ، والفِرارِ مِنَ العدُوِّ عندَ العجزِ، ونحوِ ذلكَ، والثَّاني مذمومٌ مِن جِهَةِ السُّلوكِ، إِذَا انقلَبَ إِلَىٰ جُبنٍ مذمومٍ، أَو إِلَىٰ أوهامٍ لَا حقيقَةَ لَهَا، أَو إِلَىٰ تهوُّرٍ مُخالِفٍ لِلشَّرعِ بِدَعوىٰ التَّوكُّلِ، كمَن يُلقي بِنَفسِهِ فِي المهالِكِ ويقولُ: لَا أخافُ إِلَّا اللهَ؛ فَهَذَا ليسَ توكُّلًا، بَل مُخالَفَةٌ لِلشَّرعِ، فإِنَّ اللهَ أمَرَ بِاجتِنابِ أسبابِ الهلاكِ، ونهىٰ عَن إلقاءِ النَّفسِ إِلَىٰ التَّهلُكَةِ.

ووجهُ كونِ الخوفِ الطَّبيعيِّ لَا يقدَحُ فِي التَّوحيدِ أنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِسَبَبٍ ظاهِرٍ معلومٍ، لَا بِتَأثيرٍ غيبيٍّ خفيٍّ؛ فالخائفُ مِنَ السَّبُعِ يخافُ افتِراسَهُ بِنابِهِ ومخلَبِهِ -وَهُوَ سببٌ مشاهَدٌ-، لَا يعتَقِدُ فيهِ تصرُّفًا فِي الكونِ بِمَشيئَةٍ مُستَقِلَّةٍ.

وَهَذَا هُوَ الفارِقُ الجامِعُ بينَ الأقسامِ الثَّلاثَةِ: فخَوفُ السِّرِّ تعلَّقَ بِتَأثيرٍ غيبيٍّ، فكانَ شِركًا أكبَرَ؛ والخوفُ المُحَرَّمُ تعلَّقَ بِسَبَبٍ ظاهِرٍ لكنَّهُ حمَلَ عَلَىٰ معصيَةٍ، فكانَ مَحظورًا؛ والخوفُ الطَّبيعيُّ تعلَّقَ بِسَبَبٍ ظاهِرٍ وَلَم يحمِل عَلَىٰ معصيَةٍ، فكانَ مُباحًا.

ولِذا كانَ خوفُ مُوسَىٰ -وَهُوَ نبيٌّ مِن أُولِي العزمِ- لَا يقدَحُ فِي توحيدِهِ وَلَا توَكُّلِهِ؛ إِذ هُوَ خوفٌ مِن سبَبٍ ظاهِرٍ (بطشِ فِرعونَ)، لَا خوفُ تعبُّدٍ.

مَعنَىٰ آيَةِ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ [سورة آل عمران:١٧٥]، أَي: يُعظِّمُ أولياءَهُ فِي صُدورِكُم، ويُهَوِّلُ شأنَهُم، لِيَمنَعَكُم مِنَ الجِهادِ والأمرِ بِالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المُنكَرِ؛ فَنَهىٰ اللهُ عنِ الخوفِ الَّذي يصُدُّ عَن طاعَتِهِ، وأمَرَ بِإخلاصِ الخوفِ لهُ وحدَهُ.

فكلَّما قويَ إيمانُ العبدِ ضعُفَ خوفُهُ مِن أولياءِ الشَّيطانِ، وكلَّما ضعُفَ إيمانُهُ

عظُمَ خوفُهُ منهُم.

فالخوفُ الطَّبيعيُّ مُباحٌ لَا يقدَحُ فِي التَّوحيدِ، فَإِذَا حمَلَ عَلَىٰ تركِ واجِبٍ أَو فِعلِ مُحَرَّمٍ صارَ خوفًا مُحَرَّمًا.

وكمالُ الإيمانِ أَن يكونَ خوفُ العبدِ مِنَ اللهِ أعظَمَ مِن خوفِهِ مِن كلِّ مخلوقٍ، وَأَن يعلَمَ أَنَّ الأسبابَ لَا تضُرُّ وَلَا تنفَعُ إِلَّا بِإِذنِ اللهِ، كَمَا قالَ -ﷺ-: «واعلَم أَنَّ الأُمَّةَ لوِ اجتَمَعوا عَلَىٰ أَن يضُرُّوكَ بِشيءٍ لَم يضُرُّوكَ إِلَّا بِشيءٍ قَد كتَبَهُ اللهُ عليكَ...».

مسألة: حدُّ الخوفِ الواجِبِ:

الخوفُ المحمودُ الصَّادِقُ: مَا حالَ بينَ صاحِبِهِ وبينَ محارِمِ اللهِ، فَإِذَا تجاوَزَ ذلكَ خِيفَ منهُ اليأسُ والقُنوطُ؛ فالخوفُ المحمودُ مَا حجَزَكَ عَن محارِمِ اللهِ.[1]

٢٥٩ - **قالَ ابنُ رجَبٍ فِي «التَّخويفِ مِنَ النَّارِ» (ص٢١):** «وَلَا نُنكِرُ أَنَّ خشيَةَ اللهِ وهَيبَتَهُ وعظَمَتَهُ فِي الصُّدورِ وإجلالَهُ مقصودٌ أيضًا، ولكنَّ القَدرَ النَّافِعَ مِن ذلكَ مَا كانَ عونًا عَلَىٰ التَّقرُّبِ إِلَىٰ اللهِ بِفِعلِ مَا يُحِبُّهُ وتركِ مَا يكرَهُ، ومَتىٰ صارَ الخوفُ مانِعًا ذلكَ وقاطِعًا، فقدِ انعَكَسَ المقصودُ منهُ، وَلَكِن إِذَا حصَلَ ذلكَ عَن غلَبَةٍ كانَ صاحِبُهُ معذورًا»، وقالَ قبلَ ذلكَ: «والقَدرُ الواجِبُ مِنَ الخوفِ مَا حمَلَ عَلَىٰ أداءِ الفرائضِ واجتِنابِ المحارِمِ، فَإِنَّ زادَ عَلَىٰ ذلكَ بِحَيثُ صارَ باعِثًا لِلنُّفوسِ عَلَىٰ التَّشميرِ فِي نوافِلِ الطَّاعاتِ، والانكِفافِ عَن دقائقِ المكروهاتِ، والتَّبَسُّطِ فِي فُضولِ الحاجاتِ، كانَ ذلكَ فضلًا محمودًا، فَإِنَّ تزايَدَ عَلَىٰ ذلكَ بِأن أورَثَ مرَضًا أَو موتًا، أَو هَمًّا لازِمًا، بِحَيثُ يقطَعُ عنِ السَّعيِ فِي اكتِسابِ الفضائلِ المطلوبَةِ المحبوبَةِ لِلَّهِ، لَم يكُن ذلكَ

---

(١) انظُر: «طريقَ الهِجرَتَينِ» (ص٢٨٣)، و«مدارِجَ السَّالِكينَ» (١/ ٥١١).

محمودًا، ولِهذا كانَ السَّلَفُ يخافونَ عَلَىٰ عطاءٍ السُّلَميِّ مِن شِدَّةِ خوفِهِ الَّذي أنساهُ القُرآنَ وصارَ صاحِبَ فِراشٍ؛ وذلكَ لِأنَّ خوفَ العِقابِ ليسَ مقصودًا لِذاتِهِ، إنَّما هُوَ سوطٌ يُساقُ بِهِ المُتَواني عنِ الطَّاعَةِ إِلَيهَا، ومِن هُنَا كانتِ النَّارُ مِن جُملَةِ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ عبادِهِ الَّذينَ خافوهُ واتَّقَوهُ، ولِهذا الْمَعنَىٰ عدَّها اللهُ مِن جُملَةِ آلائهِ عَلَىٰ الثَّقَلَينِ فِي سورَةِ الرَّحمَنِ».

قلتُ: ووجهُ ضبطِ ابنِ رجَبٍ لِلخَوفِ المحمودِ أنَّ الخوفَ ليسَ مقصودًا لِذاتِهِ، بَل لِغايَتِهِ؛ وَهِيَ حملُ العبدِ عَلَىٰ الطَّاعَةِ وحجزُهُ عنِ المعصيَةِ.

فالخوفُ كالسَّوطِ لِلدَّابَّةِ، إنَّما يُرادُ لِيَسوقَها إِلَىٰ المقصودِ، لَا لِيُهلِكَها؛ فَإِذَا بلَغَ بِصاحِبِهِ حدَّ القُنوطِ أوِ المرَضِ أوِ القُعودِ عنِ الطَّاعَةِ، انقلَبَ مِن نِعمَةٍ إِلَىٰ نِقمَةٍ، وفاتَ المقصودُ منهُ.

يَقُولُ أَبُو حَفصٍ الحَدَّادُ -كَمَا فِي «المَدارِجِ» (٢/ ١٨٢): «الخَوفُ سَوطُ اللهِ، يُقَوِّمُ بِهِ الشّارِدَ عَن بابِهِ».

ولطافَةُ مَا ختَمَ بِهِ ابنُ رجَبٍ -أنَّ النَّارَ مِن نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ عبادِهِ المتَّقينَ- بَديعَةٌ؛ إِذِ النَّارُ فِي ذاتِها عَذابٌ، لكنَّ ذِكرَها وتخويفَها نِعمَةٌ، لِأنَّها سوطٌ يسوقُ العاصيَ إِلَىٰ التَّوبَةِ، والغافِلَ إِلَىٰ اليَقظَةِ؛ ولِذا عدَّها اللهُ فِي آلائهِ فِي سورَةِ الرَّحمَنِ، حيثُ قالَ بعدَ ذِكرِ جهَنَّمَ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [سورة الرحمن:١٣].(١)

---

(١) **مِن أحوالِ السَّلَفِ فِي عِبادَةِ الخوفِ**

قالَ أَبُو بكرٍ الصِّدِّيقُ: «ليتَني كنتُ شجَرَةً تُعضَدُ ثمَّ تُؤكَلُ» [موسوعة ابن أبي الدنيا ٢/ ٥٣٨].

وقالَ أيضًا: «لوَدِدتُ أنِّي شعرَةٌ فِي جنبِ عبدٍ مؤمِنٍ» [المنتظم ٤/ ٦٣].

وَعَن قيسٍ قالَ: رأيتُ أَبَا بكرٍ آخِذًا بِطَرَفِ لِسانِهِ وَهُوَ يقولُ: «هَذَا أوردَني الموارِدَ» [المنتظم ٤/ ٦٣].

وَعَن عبدِ اللهِ بنِ عِيسَىٰ قالَ: كانَ فِي وجهِ عمرَ خطَّانِ أسودانِ مِنَ البُكاءِ [الحلية ١/ ٧١].

وعنِ المِسوَرِ بنِ مخرَمَةَ قالَ: لمَّا طُعِنَ عمرُ جعَلَ يألَمُ، فقالَ لهُ ابنُ عبَّاسٍ -وكأنَّهُ يُجزِّعُهُ-: يَا أميرَ المؤمِنينَ، ولَئِن كانَ ذاكَ لَقَد صحِبتَ رسولَ اللهِ -ﷺ- فأحسَنتَ صُحبَتَهُ، ثمَّ فارَقتَهُ وَهُوَ عنكَ راضٍ، ثمَّ صحِبتَ أَبَا بكرٍ فأحسَنتَ صُحبَتَهُ ثمَّ فارَقتَهُ وَهُوَ عنكَ راضٍ، ثمَّ صحِبتَهُم فأحسَنتَ صُحبَتَهُم، ولَئِن فارَقتَهُم لتُفارِقَنَّهُم وَهُم عنكَ راضونَ، قالَ: أمَّا مَا ذكَرتَ مِن صُحبَةِ رسولِ اللهِ -ﷺ- ورِضاهُ فإنَّما ذاكَ مِن مَنِّ اللهِ منَّ بهِ عليَّ، وأمَّا مَا ذكَرتَ مِن صُحبَةِ أَبِي بكرٍ ورِضاهُ فإنَّما ذاكَ مِن مَنِّ اللهِ منَّ بهِ عليَّ، وأمَّا مَا تَرَىٰ مِن جزَعي فَهُوَ مِن أجلِكَ وأجلِ أصحابِكَ؛ واللهِ لَو أنَّ لِي طِلاعَ الأرضِ ذهَبًا لافتَدَيتُ بهِ مِن عَذابِ اللهِ قبلَ أَن أراهُ [رواه البخاري ٣٤١٦].

وَعَن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ قالَ: لمَّا طُعِنَ عمرُ دخَلتُ عليهِ فقلتُ لهُ: أبشِر يَا أميرَ المؤمِنينَ، فإنَّ اللهَ قَد مصَّرَ بِكَ الأمصارَ، ودفَعَ بِكَ النِّفاقَ، وَأَفشَىٰ بِكَ الرِّزقَ. قالَ: أَفِي الإمارَةِ تُثني عليَّ يَا ابنَ عبَّاسٍ؟ فقلتُ: وَفِي غيرِها، قالَ: والَّذي نَفسِي بِيَدِهِ لوَدِدتُ أنِّي خرَجتُ مِنهَا كَمَا دخَلتُ فِيهَا لَا أجرَ وَلَا وِزرَ [الحلية ١/ ٧٢].

وعنِ الشَّعبيِّ قالَ: لمَّا شرِبَ عمرُ اللَّبَنَ فخَرَجَ مِن طعنَتِهِ قالَ: اللهُ أكبَرُ، وعندَهُ رِجالٌ يُثنونَ عليهِ، فنَظَرَ إليهِم فقالَ: إنَّ مَن غرَرتُموهُ لمَغرورٌ، لوَدِدتُ أنِّي خرَجتُ مِنهَا كَمَا دخَلتُ فِيهَا، لَو كانَ لِي اليومَ مَا طلَعَت عليهِ الشَّمسُ وَمَا غرَبَت لافتَدَيتُ بهِ مِن هولِ المطَّلَعِ [موسوعة ابن أبي الدنيا ٢/ ٥٣٩].

وقالَ عثمانُ بنُ عفَّانَ: «لَو وقفتُ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ، فخُيِّرتُ بينَ أَن أصيرَ رمادًا أَو أُخيَّرَ إِلَىٰ أيِّ الدَّارَينِ أصيرُ، لاختَرتُ أَن أكونَ رمادًا» [موسوعة ابن أبي الدنيا ٢/ ٥٤٩].

وَعَن أَبِي ذرٍّ قالَ: «وَدِدتُ أنَّ اللهَ خلَقَني يومَ خلَقَني شجَرَةً تُعضَدُ» [موسوعة ابن أبي الدنيا ٢/ ٥٤٠].

وقالَ عِمرانُ بنُ حُصَينٍ: «وَدِدتُ أنِّي رمادًا تَذرُونِي الرِّياحُ» [الزهد للإمام أحمد ٢٧٧].

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ: «وَدِدتُ أنَّ اللهَ غفَرَ لِي خطيئَةً مِن خطاياي، وأنَّهُ لَم يُعرَف نسَبي» [موسوعة ابن أبي الدنيا ٢/ ٥٣٩].

وقالَ حُذَيفَةُ بنُ اليَمانِ: كانَ النَّاسُ يسألونَ رسولَ اللهِ -ﷺ- عنِ الخيرِ، وكنتُ أسألُهُ عنِ الشَّرِّ مخافَةَ

أن يُدرِكَني [رواه البخاري ٣٣٣٨].

ولمَّا نزَلَ بِهِ الموتُ جزِعَ جزَعًا شديدًا، فقيلَ لهُ: مَا يُبكيكَ؟ قالَ: مَا أبكِي أسَفًا عَلَىٰ الدُّنيا، بَل الموتُ أحَبُّ إليَّ، ولكنِّي لَا أدرِي عَلَىٰ مَا أقدِمُ: عَلَىٰ الرِّضا أم عَلَىٰ سخَطٍ؟ [موسوعة ابن أبي الدنيا ٥/ ٣٤٣].

وَبَكَىٰ أَبُو هريرَةَ فِي مرَضِهِ، فقيلَ لهُ: مَا يُبكيكَ؟ فقالَ: مَا أبكِي عَلَىٰ دُنياكُم هذهِ، وَلَكِن أبكِي عَلَىٰ بُعدِ سفَرِي، وقِلَّةِ زَادِي، فإنِّي أمسَيتُ فِي صعودٍ مهبِطُهُ عَلَىٰ جنَّةٍ ونارٍ، وَلَا أَدرِي أيَّتَهُما يُؤخَذُ بِي [موسوعة ابن أبي الدنيا ٥/ ٣٤٤].

وَعَن ذكوانَ -حاجِبِ عائشَةَ- أنَّهُ جاءَ عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ يستَأذِنُ عَلَىٰ عائشَةَ، وعندَ رأسِها ابنُ أَخِيهَا عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرَّحمَنِ، فقالَ: هَذَا عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ يستَأذِنُ، وَهِيَ تموتُ، فَقَالَت: دَعني مِن ابنِ عبَّاسٍ. فقالَ: يَا أُمَّتاهُ، إنَّ ابنَ عبَّاسٍ مِن صالِحي بنيكِ، يُسَلِّمُ عليكِ ويُوَدِّعُكِ، فَقَالَت: ائذَن لهُ إن شئتَ. فلمَّا جلَسَ قالَ: أبشِري، فواللهِ مَا بينَكِ وبينَ أن تلقَي محمدًا -ﷺ- والأحِبَّةَ إلَّا أن تخرُجَ الرُّوحُ مِنَ الجسَدِ، كنتِ أحَبَّ نِساءِ رسولِ اللهِ -ﷺ- إليهِ، وَلَم يكُن يُحِبُّ إلَّا طيِّبًا، وأنزَلَ اللهُ بَراءَتَكِ مِن فوقِ سبعِ سماواتٍ، جاءَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ، فأصبَحَ ليسَ مسجِدٌ مِن مساجِدِ اللهِ يُذكَرُ فيهِ اللهُ إلَّا يُتلىٰ فيهِ شأنُكِ آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ، فَقَالَت: دَعني منكَ يَا ابنَ عبَّاسٍ، والَّذي نَفسِي بِيَدِهِ لوَدِدتُ أنِّي كنتُ نسيًا منسيًّا [رواه الإمام أحمد ٢٤٩٦].

وَعَن شدَّادِ بنِ أوسٍ الأنصاريِّ أنَّهُ كانَ إذَا دخَلَ الفِراشَ يتَقَلَّبُ، لَا يأتيهِ النَّومُ، فيَقولُ: اللهمَّ إنَّ النَّارَ أذهَبَت مِنِّي النَّومَ، فيقومُ فيُصَلِّي حتَّىٰ يُصبِحَ [الحلية ١/ ٢٠٢].

وَعَن أَبِي رجاءٍ العُطارِديِّ قالَ: رأيتُ ابنَ عبَّاسٍ وأسفَلَ مِن عينيهِ مِثلَ الشِّراكِ الْبَالِي مِنَ الدُّموعِ [الزهد للإمام أحمد ٢٧١].

وَعَن نافِعٍ قالَ: دخَلَ ابنُ عمرَ الكعبَةَ فَسَمِعتُهُ وَهُوَ ساجِدٌ يقولُ: قَد تعلَمُ مَا يمنَعُني مِن مُزاحَمَةِ قُرَيشٍ عَلَىٰ هذهِ الدُّنيا إلَّا خوفُكَ [الحلية ١/ ٢١٠].

وَعَن سميرٍ الرِّياحيِّ عَن أبيهِ قالَ: شرِبَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ ماءً مُبَرَّدًا فَبَكَىٰ، فاشتَدَّ بُكاؤُهُ، فقيلَ لهُ: مَا يُبكيكَ؟ فقالَ: ذكَرتُ آيَةً فِي كِتابِ اللهِ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سورة سبأ:٥٤]، فعرَفتُ أنَّ أهلَ النَّارِ لَا يشتَهونَ شيئًا، شهوَتُهُمُ الماءُ، وَقَد قالَ اللهُ ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة الأعراف:٥٠] [صفة الصفوة ١/ ٢٧٤].

وَعَن نافِعٍ قالَ: كانَ ابنُ عمرَ إِذَا قرَأَ ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الحديد:١٦] بَكَىٰ حتَّىٰ يغلِبَهُ البُكاءُ [صفة الصفوة ١/ ٢٧٤].

وقالَ كعبُ الأحبارِ: «لَأَن أبكيَ مِن خشيَةِ اللهِ فتَسيلَ دُمُوعِي عَلَىٰ وجنَتيَّ أحَبُّ إليَّ مِن أن أتصَدَّقَ بِوَزني ذهَبًا» [الحلية ٢/ ٢٤٦].

وعنِ ابنَةٍ لِلرَّبيعِ بنِ خُثَيمٍ قَالَت: كنتُ أقولُ: يَا أبَتاهُ، أَلَا تنامُ؟ فيَقولُ: كيفَ ينامُ مَن يخافُ البَياتَ [السير ٣/ ٤٣].

وقالَ سفيانُ: بلَغَنا أنَّ أُمَّ الرَّبيعِ بنِ خُثَيمٍ كَانَت تُنادي فتَقولُ: يَا بُنَيَّ يَا ربيعُ، أَلَا تنامُ؟ فيَقولُ: يَا أُمَّاهُ، مَن جنَّ عليهِ اللَّيلُ وَهُوَ يخافُ البَياتَ حُقَّ لهُ أَلَّا ينامَ. قالَ: فلمَّا بلَغَ وَرَأَت مَا يَلقَىٰ مِنَ البُكاءِ والسَّهرِ نادَتهُ فَقَالَت: يَا بُنَيَّ لعلَّكَ قتَلتَ قتيلًا؟ فقالَ: نعَم يَا والِدَةُ، قتَلتُ قتيلًا. فَقَالَت: ومَن هَذَا القتيلُ يَا بُنَيَّ نتَحَمَّلُ عَلَىٰ أهلِهِ فيُعفُوكَ، واللهِ لَو علِموا مَا تَلقَىٰ مِنَ البُكاءِ والسَّهَرِ لَرَحِموكَ. فيَقولُ: يَا والِدَتي هيَ نَفسِي [صفة الصفوة ٣/ ٤٣].

وقالَ سفيانُ الثَّوريُّ: «وَدِدتُ أن أنجوَ مِن هَذَا الأمرِ كَفافًا، لَا عليَّ وَلَا لِي» [الحلية ٢/ ٣٦٣].

وقالَ أيضًا: «كنتُ إِذَا رأيتُ الرِّجالَ يجتَمِعونَ إِلَىٰ أحدٍ غبَطتُهُ، فلمَّا ابتُليتُ بِها وَدِدتُ أنِّي نجَوتُ منهُم كَفافًا، لَا عليَّ وَلَا لِي» [الحلية ٢/ ٣٨٧].

وقالَ أيضًا: «مَا أطاقَ أحَدٌ العِبادَةَ، وَلَا قويَ عَلَيها، إلَّا بِشِدَّةِ الخوفِ» [الحلية ٢/ ٣٦٢].

وقالَ عطاءٌ الخفَّافُ: مَا لقيتُ سفيانَ الثَّوريَّ إلَّا باكيًا، فقلتُ: مَا شأنُكَ؟ قالَ: أتخَوَّفُ أن أكونَ فِي أُمِّ الكِتابِ شقيًّا [السير ٢/ ٦٩٨].

وقالَ أبُو نُعَيمٍ: كانَ سفيانُ الثَّوريُّ إِذَا ذكَرَ الموتَ لَم يُنتَفَع بِهِ أيَّامًا [السير ٢/ ٧٠٠].

وَعَن وهبِ بنِ مُنَبِّهٍ قالَ: «البُكاءُ مِن خشيَةِ اللهِ مثاقيلُ بِرٍّ، ليسَ ثوابُهُ وزنًا، إنَّما يُعطىٰ الْباكِي مِن خشيَةِ اللهِ والصَّابِرُ عَلَىٰ طاعَةِ اللهِ أجرَهُم بِغَيرِ حِسابٍ» [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ١٧٢].

وَعَن جعفَرِ بنِ سُليمانَ قالَ: وعَظَ مالِكُ بنُ دينارٍ يومًا فتَكَلَّمَ فَبَكَىٰ حوشَبٌ، فضرَبَ مالِكٌ بِيَدِهِ عَلَىٰ منكِبِهِ وقالَ: ابكِ يَا أَبَا بِشرٍ، فإنَّهُ بلَغَني أنَّ العبدَ لَا يزالُ يَبكِي حتَّىٰ يرحَمَهُ سيِّدُهُ فيُعتِقَهُ مِنَ النَّارِ [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ١٧٣].

وقالَ أيضًا: «البُكاءُ عَلَىٰ الخطيئَةِ يحُطُّ الذُّنوبَ كَمَا تحُطُّ الرِّيحُ الورَقَ اليابِسَ» [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ١٧٤].

وقالَ عمرُ بنُ ذرٍّ: «مَا رأيتُ باكيًا قطُّ إلَّا خُيِّلَ إليَّ أنَّ الرَّحمَةَ قد تنزَّلَت عليهِ» [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ١٧٥].

وقالَ أَبُو حازِمٍ: «بلَغَنا أنَّ البُكاءَ مِن خشيَةِ اللهِ مفتاحٌ لِرَحمَتِهِ» [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ١٧٥].

وَعَن أَبِي عِمرانَ الجَونيِّ قالَ: «لِكُلِّ أعمالِ البِرِّ جزاءٌ، وَفِي كلِّها خيرٌ، إلَّا الدَّمعَةَ تخرُجُ مِن عينِ العبدِ، فليسَ لَهَا كيلٌ وَلَا وزنٌ حتَّىٰ يُطفَأَ بِها بِحارٌ مِنَ النِّيرانِ» [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ١٧٧].

وَبَكَىٰ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ فبكَت فاطِمَةُ فَبَكَىٰ أهلُ الدَّارِ، لَا يَدرِي هؤلاءِ مَا أَبكَىٰ هؤلاءِ، فلمَّا تجَلَّىٰ عنهُمُ العَبرُ قَالَت فاطِمَةُ: بِأبي أنتَ يَا أميرَ المؤمِنينَ، ممَّ بكيتَ؟ قالَ: ذكَرتُ يَا فاطِمَةُ مُنصَرَفَ القومِ مِن بينِ يدَي اللهِ، فريقٌ فِي الجنَّةِ وفريقٌ فِي السَّعيرِ [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ١٨١].

وَعَن سفيانَ قالَ: كانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يومًا ساكِتًا وأصحابُهُ يتَحدَّثونَ، فَقَالُوا لهُ: مَا لكَ لَا تتكَلَّمُ يَا أميرَ المؤمِنينَ؟ قالَ: كنتُ مُفكِّرًا فِي أهلِ الجنَّةِ كيفَ يتَزاوَرونَ فِيهَا، وَفِي أهلِ النَّارِ كيفَ يصطَرِخونَ فِيهَا، ثمَّ بَكَىٰ [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ١٨٢].

وقيلَ لهُ: مَا كانَ بدوُّ إنابَتِكَ؟ قالَ: أردتُ ضربَ غُلامٍ لِي، فقالَ: يَا عمرُ اذكُر ليلَةً صبيحَتُها يومُ القِيامَةِ [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ٢٣٠].

وكانَ الضَّحَّاكُ بنُ مُزاحِمٍ إِذَا أَمسَىٰ بَكَىٰ، فقيلَ لهُ: مَا يُبكيكَ؟ قالَ: لَا أَدرِي مَا صعِدَ اليومَ مِن عمَلي [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ٢٠٤].

وَعَن صالِحٍ المُرِّيِّ قالَ: قالَ يزيدُ الرَّقاشيُّ: إِذَا أنتَ لَم تبكِ عَلَىٰ ذنبِكَ فمَن يَبكِي لكَ عليهِ بعدَكَ؟ ثمَّ يَبكِي صالِحٌ ويقولُ: يَا إخوَتاهُ، ابكُوا عَلَىٰ الذُّنوبِ؛ فإنَّها ترينُ القلوبَ حتَّىٰ تنطَمِسَ، فَلَا يصِلُ إِلَيهَا مِن خيرِ الموعِظَةِ شيءٌ [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ٢٠٦].

واشتكَىٰ ثابِتٌ البُنانيُّ عينَهُ، فقالَ لهُ الطَّبيبُ: اضمَن لِي خصلَةً تبرأ عينُكَ، قالَ: وَمَا هِيَ؟ قالَ: لَا تبكِ، قالَ: وَمَا خيرٌ فِي عينٍ لَا تَبكِي؟ [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ٢١٠].

وعنِ الرَّبيعِ بنِ خُثَيمٍ أنَّهُ كانَ يَبكِي حتَّىٰ تبُلَّ لِحيَتَهُ مِن دموعِهِ، ثمَّ يقولُ: أدرَكنا أقوامًا كنَّا فِي جُنوبِهِم

لُصوصًا [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ٢١١].

وَعَن يونُسَ قالَ: مَا رأيتُ أحَدًا أطوَلَ حُزنًا مِنَ الحسَنِ، وكانَ يقولُ: نضحَكُ وَلَا نَدرِي، لعلَّ اللهَ قدِ اطَّلَعَ عَلَىٰ بعضِ أعمالِنا فقالَ: لَا أقبَلُ منكُم شيئًا [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ٢٦٨].

وعنِ الحسَنِ قالَ: «حقٌّ لِامرِئٍ الموتُ موردُهُ، والسَّاعَةُ موعِدُهُ، والوُقوفُ بينَ يدَيِ اللهِ مشهَدُهُ، أَن يطولَ حُزنُهُ» [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ٢١١].

وقالَ أيضًا: «مَن عرَفَ ربَّهُ أحَبَّهُ، ومَن أبصَرَ الدُّنيا زهِدَ فِيهَا، والمؤمِنُ لَا يَلهُو حتَّىٰ يغفُلَ، وَإِذَا تفكَّرَ حزِنَ» [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ٢١١].

وَعَن سفيانَ بنِ عُيَينَةَ قالَ: قيلَ لِلحَسَنِ: إنَّ عندَنا قومًا يكونَ لَيسُوا بِذاكَ، وَنرَىٰ قومًا أفضَلَ منهُم لَا يبكونَ؟ فقالَ الحسَنُ: أولئكَ تَبكِي قلوبُهُم [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ٢٨٤].

وَعَن مالِكِ بنِ ضيغَمٍ قالَ: حدَّثَني الحكَمُ بنُ نوحٍ قالَ: بَكَىٰ أبوكَ ليلَةً مِن أوَّلِ اللَّيلِ إِلَىٰ آخِرِهِ، وَلَم يسجُد فِيهَا سجدَةً وَلَم يركَع فِيهَا ركعَةً، ونحنُ معهُ فِي البحرِ، فلمَّا أصبَحنا قلتُ: يَا أَبَا مالِكٍ لَقَد طالَت ليلَتُكَ لَا مُصَلِّيًا وَلَا داعِيًا، فَبَكَىٰ ثمَّ قالَ: لَو يعلَمُ الخلائقُ مَاذَا يستَقبِلونَ غدًا مَا لَذُّوا بِعَيشٍ أبدًا؛ إنِّي واللهِ لمَّا رأيتُ اللَّيلَ وهَولَهُ وشِدَّةَ سوادِهِ ذكَرتُ بِهِ الموقِفَ وشِدَّةَ الأمرِ هناكَ، وكلُّ امرِئٍ يومَئِذٍ تهُمُّهُ نفسُهُ، لَا يُغني والِدٌ عَن ولَدِهِ، وَلَا مولودٌ هُوَ جازٍ عَن والِدِهِ شيئًا [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ٢٢٧].

وعنهُ عَن أبيهِ قالَ: كانَ يُقالُ: إنَّ كثرَةَ الدُّموعِ وقِلَّتَها عَلَىٰ قدرِ احتِراقِ القلبِ، فَإِذَا احترَقَ القلبُ كلُّهُ لَم يشَأِ الحزينُ أَن يبكِيَ إِلَّا بَكَىٰ، والقليلُ مِنَ التَّذكِرَةِ تحزِنُهُ [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ٢٨٠].

وَعَن محمدِ بنِ راهَوَيهِ قالَ: قلتُ لِسُفيانَ بنِ عُيَينَةَ: أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ أَبِي عليٍّ -يَعنِي فُضَيلًا- لَا تكادُ تجِفُّ لهُ دمعَةٌ؟ فقالَ سفيانُ: إِذَا فرِحَ القلبُ نزَفَتِ العينانِ، ثمَّ تنفَّسَ سفيانُ تنَفُّسًا مُنكَرًا [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ٢٨٠].

وَعَن صالِحٍ المُرِّيِّ قالَ: لمَّا ماتَ عطاءُ بنُ السُّلَيميِّ حزِنتُ عليهِ حُزنًا شديدًا، فرَأيتُهُ فِي مَنَامِي فقلتُ: يَا أَبَا محمدٍ ألستَ فِي زُمرَةِ الْمَوتَىٰ؟ قالَ: بَلَىٰ، قلتُ: فَمَاذَا صِرتَ إليهِ بعدَ الموتِ؟ قالَ: صِرتُ واللهِ إِلَىٰ خيرٍ كثيرٍ، وربٍّ غفورٍ شكورٍ. قلتُ: أَمَا واللهِ لَقَد كنتَ طويلَ الحُزنِ فِي دارِ الدُّنيا، قالَ: فتَبَسَّمَ وقالَ: أَمَا واللهِ يَا أَبَا بِشرٍ لَقَد أعقَبَنِي ذلكَ راحَةً طويلَةً وفرَحًا دائمًا. قلتُ: فَفِي أيِّ الدَّرَجاتِ أنتَ؟ قالَ: أَنَا مَعَ الَّذينَ أنعَمَ

اللهُ عليهِم مَعَ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالِحينَ، وحسُنَ أولئكَ رفيقًا [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ٢٨٥].

وَعَن عبدِ الرَّحمَنِ بنِ زيدِ بنِ أسلَمَ أنَّهُ ذكَرَ عمرَ وَأبَا بكرٍ ابنَي المُنكَدِرِ، قالَ: لمَّا حضَرَ أحَدَهُمُ الموتُ بَكَىٰ، فقيلَ لهُ: مَا يُبكيكَ؟ إن كنَّا لنَغبِطُكَ بهذا اليومِ! قالَ: أمَا واللهِ مَا أبكِي أن أكونَ ركِبتُ شيئًا مِن مَعَاصِي اللهِ اجترِاءً عَلَىٰ اللهِ، ولكنِّي أخافُ أن أكونَ أتيتُ شيئًا هَيِّنًا وَهُوَ عندَ اللهِ عظيمٌ. وَبكَىٰ الآخَرُ عندَ الموتِ، فقيلَ لهُ مِثلُ ذلكَ، فقالَ: إنِّي سمِعتُ اللهَ يقولُ لِقومٍ ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ [سورة الزمر:٤٧]، فَأنَا أنتَظِرُ مَا ترَونَ، واللهِ مَا أدرِي مَا يَبدُو لِي [موسوعة ابن أبي الدنيا ٥/ ٣٥٨].

وقيلَ لِعامِرِ بنِ عبدِ قيسٍ: إنَّكَ تبيتُ خارِجًا، أمَا تخافُ الأسَدَ؟ قالَ: إنِّي لأستَحيي مِن ربِّي أن أخافَ شيئًا دونَهُ [السير ١/ ٤٣٤].

وَعَن شقيقٍ قالَ: خرَجنا فِي ليلَةٍ مخوفَةٍ، فمَرَرنا بِأجَمَةٍ فِيهَا رجُلٌ نائمٌ، وَقَد قيَّدَ فرَسَهُ وَهِيَ ترعَىٰ عندَ رأسِهِ، فأيقَظناهُ فَقُلنَا لهُ: تنامُ فِي مِثلِ هَذَا المكانِ؟ فرَفَعَ رأسَهُ فقالَ: إنِّي لأستَحيي مِن ذِي العرشِ أن يعلَمَ أنِّي أخافُ شيئًا دونَهُ، ثمَّ وضَعَ رأسَهُ فنامَ [الحلية ٢/ ٥٩].

وقالَ المُغيرَةُ بنُ حبيبٍ -خَتَنُ مالِكِ بنِ دينارٍ-: قلتُ لِنَفسي: يموتُ مالِكٌ وَأنَا معهُ فِي الدَّارِ، وَلَا أعلَمُ مَا أعمَلُهُ. قالَ: فصَلَّيتُ معهُ عِشاءَ الآخِرَةِ، ثمَّ جئتُ فلبِستُ قطيفَةً فِي أطوَلِ مَا يكونُ مِنَ اللَّيلِ، وجاءَ مالِكٌ فدَخَلَ فقرَّبَ رغيفَهُ فأكَلَ، ثمَّ قامَ إِلَىٰ الصَّلاةِ فاستَفتَحَ، ثمَّ أخَذَ بِلِحيَتِهِ فجَعَلَ يقولُ: يَا ربِّ إِذَا جمَعتَ الأوَّلينَ والآخِرينَ فحَرِّم شيبَةَ مالِكٍ عَلَىٰ النَّارِ، قالَ: فواللهِ مَا زالَ كذلكَ حتَّىٰ غلَبَتني عَيني، ثمَّ انتبَهتُ فَإِذَا هُوَ عَلَىٰ تلكَ الحالِ يُقَدِّمُ رِجلًا ويُؤَخِّرُ رجلًا ويقولُ: يَا ربِّ إِذَا جمَعتَ الأوَّلينَ والآخِرينَ فحَرِّم شيبَةَ مالِكٍ عَلَىٰ النَّارِ، فَمَا زالَ كذلكَ حتَّىٰ طلَعَ الفجرُ [موسوعة ابن أبي الدنيا ١/ ٣٣١].

وَعَن ضمرَةَ بنِ ربيعَةَ قالَ: جاءَ مؤذِّنُ الجُنَيدِ بنِ عبدِ الرَّحمَنِ إليهِ فِي مرَضِهِ الَّذي ماتَ فيهِ، فسَلَّمَ عليهِ بِالإمرَةِ، فقالَ: يَا ليتَها لَم تُقَل لَنَا [موسوعة ابن أبي الدنيا ٢/ ٥٤٦].

وَعَن صالِحٍ المُرِّيِّ قالَ: قلتُ لِعطاءٍ السُّلَيميِّ: مَا تشتَهي؟ فَبَكَىٰ ثمَّ قالَ: أشتَهي واللهِ يَا أبَا بِشرٍ أن أكونَ رمادًا لَا يجتَمِعُ منهُ سُفَّةٌ أبدًا، فِي الدُّنيا وَلَا فِي الآخِرَةِ، قالَ: فَأبكَانِي واللهِ، وعلِمتُ أنَّهُ إنَّما أرادَ النَّجاةَ مِن عُسرِ يومِ الحِسابِ [موسوعة ابن أبي الدنيا ٢/ ٥٤٨].

وعنِ المُعافَىٰ قالَ: سمِعتُ سفيانَ الثَّوريَّ يقولُ: لوَدِدتُ أنَّ كلَّ حديثٍ فِي صَدرِي نُسِخَ مِن صَدرِي، فقلتُ: يَا أَبَا عبدِ اللهِ، هَذَا العِلمُ الصَّحيحُ، وهذهِ السُّنَّةُ الواضِحَةُ، تتَمَنَّىٰ أَن تُنسَخَ مِن صدرِكَ؟ قالَ: اسكُت! أتريدُ أَن أُوقفَ يومَ القِيامَةِ حتَّىٰ أُسأَلَ عَن كلِّ مجلِسٍ جلَستُهُ، وَعَن كلِّ حديثٍ حدَّثتُهُ: أيَّ شيءٍ أردتَ بهِ؟ [موسوعة ابن أبي الدنيا ٢/ ٥٥٥-٥٥٦].

وعنِ المُعَلَّىٰ بنِ زيادٍ قالَ: كانَ هَرِمُ بنُ حَيَّانَ يخرُجُ فِي بعضِ اللَّيلِ ويُنادي بِأعلىٰ صوتِهِ: عجِبتُ مِنَ الجنَّةِ كيفَ نامَ طالِبُها؟ وعجِبتُ مِنَ النَّارِ كيفَ نامَ هارِبُها؟ ثمَّ يقولُ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا﴾ [سورة الأعراف:٩٧] [السير ١/ ٤٤٠].

وقالَ فضالَةُ: «لَأَن أعلَمَ أنَّ اللهَ تقبَّلَ مِنِّي مثقالَ حبَّةٍ أحبُّ إليَّ مِنَ الدُّنيا وَمَا فِيهَا، لِأنَّهُ تَعالَىٰ يقولُ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [سورة المائدة:٢٧]» وكانَ سعيدُ بنُ المُسَيِّبِ يُكثِرُ أَن يقولَ فِي مجلِسِهِ: اللهمَّ سلِّم سلِّم [السير ١/ ٤٨٢].

وعنِ الحسَنِ البَصريِّ قالَ: إنَّ الرَّجُلَ يُذنِبُ فَمَا ينساهُ، وَمَا يزالُ مُتَخَوِّفًا منهُ حتَّىٰ يدخُلَ الجنَّةَ [الزهد للإمام أحمد ٤٦٩].

وقالَ إبراهيمُ بنُ عِيسَىٰ اليَشكُريُّ: مَا رأيتُ أحَدًا أطوَلَ حُزنًا مِنَ الحسَنِ البَصريِّ، مَا رأيتُهُ إلَّا حسِبتُهُ حديثَ عهدٍ بِمُصيبَةٍ [السير ٢/ ٥٦٠].

وَعَن حكيمِ بنِ جعفرٍ قالَ: قالَ لِي مِسمَعٌ: لَو رأيتَ الحسَنَ البَصريَّ لقلتَ قَد بُثَّ عليهِ حُزنُ الخلائقِ مِن طولِ تلكَ الدَّمعَةِ وكثرَةِ ذلكَ التَّشَنُّجِ [المنتظم ٧/ ١٣٦].

وَعَن حفصِ بنِ عمرَ قالَ: بَكَىٰ الحسَنُ البَصريُّ، فقيلَ لهُ: مَا يُبكيكَ؟ قالَ: أخافُ أَن يطرَحَني غدًا فِي النَّارِ وَلَا يُبالي [المنتظم ٧/ ١٣٧].

وقالَ علقَمَةُ بنُ مرثَدٍ: قامَ المُغيرَةُ بنُ مخادِشٍ ذاتَ يومٍ إِلَىٰ الحسَنِ البَصريِّ فقالَ: كيفَ نصنَعُ بِأقوامٍ يُخَوِّفونَنا حتَّىٰ تكادَ قلوبُنا تطيرُ؟ فقالَ الحسَنُ: واللهِ لَأَن تصحَبَ أقوامًا يُخَوِّفونَكَ حتَّىٰ يُدرِكَكَ الأمنُ، خيرٌ لكَ مِن أَن تصحَبَ أقوامًا يُؤَمِّنونَكَ حتَّىٰ يلحَقَكَ الخوفُ [الحلية ١/ ٣٣٦].

وَعَن أَبِي إسحاقَ قالَ: أَوَىٰ أَبُو ميسَرَةَ عمرُو بنُ شُرَحبيلَ إِلَىٰ فِراشِهِ، فقالَ: يَا ليتَ أُمِّي لَم تلدني، فَقَالَت لهُ امرَأَتُهُ: أَبَا ميسَرَةَ، أليسَ قَد أحسَنَ اللهُ إليكَ؟ هداكَ لِلإسلامِ، وفعَلَ بِكَ كَذَا. قالَ: بَلَىٰ، ولكنَّ اللهَ

أخبرَنا أنَّا وارِدونَ عَلَىٰ النَّارِ، وَلَم يُبيِّن لَنَا أنَّا صادِرونَ عَنهَا [الحلية ٢/ ٧٠].

وَعَن عبدِ الأَعلَىٰ التَّيميِّ قالَ: مَن أُوتيَ مِنَ العِلمِ مَا لَا يُبكيهِ لخَليقٌ ألَّا يكونَ أُوتيَ عِلمًا ينفعُهُ، لِأنَّ اللهَ نعتَ العُلَماءَ فقالَ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا﴾ [سورة الإسراء:١٠٧] [الحلية ٢/ ١٤٩].

وعنِ الحسَنِ بنِ عليٍّ قالَ: كانَ لِأبي بكرِ بنِ أَبي مريَمَ فِي خدَّيهِ مسلَكانِ مِنَ الدُّموعِ [الحلية ٢/ ٢٧١].

وَعَن عبدِ اللهِ الشَّاميِّ قالَ: أتيتُ طاوسًا، فخَرَجَ إليَّ ابنُهُ شيخٌ كبيرٌ، فقلتُ: أنتَ طاوسٌ؟ فقالَ: أَنَا ابنُهُ، قلتُ: فَإنَّ كنتَ ابنَهُ فإنَّ الشَّيخَ قَد خرِفَ. فقالَ: إنَّ العالِمَ لَا يخرَفُ، فدَخَلتُ عليهِ فقالَ لِي طاوسٌ: سَل وأوجِز. قلتُ: إن أوجَزتَ أوجَزتُ لكَ. قالَ: تريدُ أن أجمَعَ لكَ فِي مجلِسي هَذَا التَّوراةَ والإنجيلَ والزَّبورَ والفُرقانَ؟ قلتُ: نعَم. قالَ: خَفِ اللهَ مخافَةً لَا يكونُ عندَكَ شيءٌ أخوَفَ منهُ، وارجُهُ رجاءً هُوَ أشَدُّ مِن خوفِكَ إيَّاهُ، وأحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تحِبُّ لِنَفسِكَ [الحلية ١/ ٣٠].

وَعَن يَحيَىٰ بنِ أَبي عمرٍو قالَ: قالَ لَنَا ابنُ محيريزٍ: يقولونَ: أخبَرَنا ابنُ محيريزٍ! إنِّي أَخشَىٰ اللهَ أَن يصرَعَني ذلكَ مصرَعًا يسوؤُني [الحلية ٢/ ١٦٧].

وقالَ مريجُ بنُ مسروقٍ: المخافَةُ قبلَ الرَّجاءِ، فإنَّ اللهَ خلَقَ جنَّةً ونارًا، فَلَن تَخُوضُوا إِلَىٰ الجنَّةِ حتَّىٰ تمُرُّوا عَلَىٰ النَّارِ [الحلية «تهذيبه» ٢/ ١٧٢].

وَعَن وهيبِ بنِ الوردِ قالَ: اجتَمَعَ بَنُو مروانَ عَلَىٰ بابِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، وجاءَ عبدُ الملِكِ بنُ عمرَ لِيَدخُلَ عَلَىٰ أبيهِ، فَقَالُوا لهُ: إمَّا أن تستأذِنَ لَنَا، وإمَّا أن تُبَلِّغَ أميرَ المؤمنينَ عنَّا الرِّسالَةَ. قالَ: قُولُوا. فَقَالُوا: إنَّ مَن كانَ قبلَهُ مِنَ الخُلَفاءِ كانَ يُعطينا ويعرِفُ لَنَا موضِعَنا، وإنَّ أباكَ قَد حرَمَنا مَا فِي يدَيهِ، فدَخَلَ عَلَىٰ أبيهِ فأخبَرَهُ عنهُم، فقالَ لهُ عمرُ: قُل لهُم إنَّ أَبي يقولُ لكُم: إنِّي أخافُ إن عصَيتُ ربِّي عَذابَ يومٍ عظيمٍ [الحلية ٢/ ٢٠٣].

وَعَن عطاءِ بنِ أَبي رَباحٍ قالَ: حدَّثَتني فاطِمَةُ امرَأةُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ أنَّها دخلَت عليهِ، فَإذَا هُوَ فِي مُصلَّاهُ يدُهُ عَلَىٰ خدِّهِ سائلَةٌ دموعُهُ، فقلتُ: يَا أميرَ المؤمِنينَ، أَلِشيءٍ حدَثَ؟ قالَ: يَا فاطِمَةُ، إنِّي تقلَّدتُ أمرَ أُمَّةِ محمدٍ -ﷺ-، فتفَكَّرتُ فِي الفقيرِ الجائعِ، والمريضِ الضَّائعِ، وَالْعَارِي المجهودِ، والمظلومِ المقهورِ،

والغريبِ المأسورِ، والكبيرِ، وَذِي العِيالِ فِي أقطارِ الأرضِ، فعَلِمتُ أنَّ ربِّي سيَسألُني عنهُم، وأنَّ خصمَهُم دونَهُم محمدٌ -ﷺ-، فخشيتُ ألَّا تثبُتَ لِي حُجَّةٌ عندَ خُصومَتِهِ، فرَحِمتُ نفسِي فبَكيتُ [السير ٢/ ٥٨٩].

وقالَ أَبُو عبدِ الرَّحمَنِ الأسَديُّ: قلتُ لِسَعيدِ بنِ عبدِ العزيزِ: مَا هَذَا البُكاءُ الَّذِي يعرِضُ لكَ فِي الصَّلاةِ؟ فقالَ: يَا ابنَ أَخِي، وَمَا سؤالُكَ عَن ذلكَ؟ قلتُ: لعلَّ اللهَ أَن ينفَعَني بِهِ، فقالَ: مَا قمتُ إِلَىٰ صلاةٍ إلَّا مُثِّلَت لِي جهَنَّمُ [السير ٢/ ٧٢٣].

وعنِ العلاءِ بنِ محمدٍ قالَ: دخلتُ عَلَىٰ عطاءٍ السُّلَيميِّ وَقَد غُشِيَ عليهِ، فقلتُ لِامرَأتِهِ أُمِّ جعفرٍ: مَا شأنُ عطاءٍ؟ فَقَالَت: سجَرَت جارَتُنا التَّنُّورَ فنظَرَ إِلَيهَا فخَرَّ مغشيًّا عليهِ [الحلية ٢/ ٣٢٠].

وَعَن إبراهيمَ بنِ شيبانَ قالَ: الخوفُ إِذَا سكَنَ القلبَ أحرَقَ مواضِعَ الشَّهَواتِ فيهِ، وطَرَدَ عنهُ رغبَةَ الدُّنيا [المنتظم ١٤/ ١١٩].

وَعَن جعفرِ بنِ عبدِ الرَّحمَنِ قالَ: أتيتُ مِسعَرَ بنَ كِدامٍ لأسمَعَ منهُ، فكَأنَّهُ رجُلٌ قَد أُقيمَ عَلَىٰ شفيرِ جهَنَّمَ لِيُلقىٰ فِيهَا [المنتظم ٨/ ١٥٩-١٦٠].

وَعَن عقبَةَ بنِ فضالَةَ قالَ: سمِعتُ أبَا عُبيدَةَ الخوَّاصَ بعدَما كبِرَ وَهُوَ آخِذٌ بِلِحيَتِهِ يَبكِي ويقولُ: قَد كبِرتُ فأعتِقني [المنتظم ٨/ ٢٥٩].

وَعَن جعفرٍ قالَ: كانتِ الغُيومُ تجيءُ وتذهَبُ وَلَا تمطُرُ، فيَقولُ مالِكُ بنُ دينارٍ: أنتُم تستَبطِئونَ المطَرَ وَأنَا أستَبطِئُ الحِجارَةَ؛ إِن لَم تمطُر حِجارَةً فنحنُ بخَيرٍ [الزهد للإمام أحمد ٥٤٣].

وَعَن جعفرِ بنِ سُليمانَ قالَ: بَكَىٰ ثابِتٌ البُنانيُّ حتَّىٰ كادَت عينُهُ تذهَبُ، فَجَاؤُوا برَجُلٍ يُعالِجُها، فقالَ: أُعالِجُها عَلَىٰ أَن تُطيعَني، قالَ: وأيُّ شيءٍ؟ قالَ: عَلَىٰ ألَّا تبكِيَ، قالَ: وَمَا خيرُهُما إِن لَم تبكِيا؟ وَأَبَىٰ أَن يتعالَجَ [الحلية ١/ ٤٠٥].

وقالَ الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: «مَن خافَ اللهَ لَم يضُرَّهُ أحَدٌ، ومَن خافَ غيرَ اللهِ لَم ينفَعهُ أحَدٌ» [السير ٢/ ٧٧٣].

قلتُ: وَفِي خِتامِ هذهِ الآثارِ تتجَلَّىٰ ثمرَةُ الخوفِ الصَّادِقِ: أنَّهُ لَم يكُن خوفًا يُقعِدُ عنِ العمَلِ، بَل خوفًا يبعَثُ عليهِ؛ فهؤلاءِ السَّادَةُ مَعَ شِدَّةِ خوفِهِم كَانُوا أعمَرَ النَّاسِ لِلَّيلِ بِالصَّلاةِ، وأقوَمَهُم بِالطَّاعَةِ. وتأمَّل كلِمَةَ طاوسٍ الجامِعَةَ -الَّتِي زعَمَ أنَّها تجمَعُ الكُتُبَ الأربعَةَ-: «خَفِ اللهَ مخافَةً لَا يكونُ عندَكَ شيءٌ أخوَفَ منهُ،

قلتُ: هَذِهِ الآثار والأحوال الماضية فِي الحاشية تبين بِالمِثالِ الحيِّ كيفَ كانَ الخوفُ عِبادَةً عمَليَّةً قائمَةً فِي قلوبِهِم، لَا مُجَرَّدَ كلامٍ نظريٍّ؛ فترىٰ الصِّدِّيقَ -وَهُوَ أفضَلُ الأمَّةِ بعدَ نبيِّها- يتَمَنَّىٰ أَن يكونَ شجَرَةً تُؤكَلُ، والفاروقَ يتَمَنَّىٰ الخُروجَ مِنَ الخِلافَةِ كَفافًا، وَهُم المُبَشَّرونَ بِالجنَّةِ.

فدلَّ أنَّ الخوفَ لَا يُنافي الرَّجاءَ وَلَا اليقينَ بِالنَّجاةِ، بَل هُوَ مِن تمامِ المعرِفَةِ بِاللهِ؛ وكلَّما عظُمَتِ المعرِفَةُ عظُمَ الخوفُ، كَمَا تقَدَّمَ.

وَفِي هذهِ الآثارِ ردٌّ عمَليٌّ عَلَىٰ المُرجِئَةِ الَّذينَ هوَّنوا أمرَ الخوفِ، وَعَلَىٰ المُغتَرِّينَ الَّذينَ أمِنوا مكرَ اللهِ؛ فإنَّ هؤلاءِ السَّادَةَ -عَلَىٰ عُلُوِّ مقامِهِم- لَم يأمَنوا، فكيفَ بِمَن دونَهُم.

ومن أهَمِّ الفوائِدِ المُستَنبَطَةِ مِن أقوالِ السَّلَفِ فِي الخوفِ والخشيَةِ والمُراقبَةِ:

الأولىٰ: شِدَّةُ خوفِ السَّلَفِ مِن سوءِ الخاتِمَةِ وعدَمِ القَبولِ، مع عُلُوِّ مقامِهِم وكثرَةِ عمَلِهِم.

الثَّانِيَةُ: تحقيرُ النَّفسِ وعدَمُ الاغتِرارِ بِالعَمَلِ؛ فيَرَونَ نجاتَهُم فضلًا ومِنَّةً، لا بِاستِحقاقٍ ودَعوىٰ.

الثَّالثَةُ: خوفُهُم مِن آثامِ اللِّسانِ وخطَرِهِ؛ لِأَنَّهُ أكثَرُ موارِدِ الهلاكِ، وأسرَعُها إلىٰ

وارجُهُ رجاءً هُوَ أشَدُّ مِن خوفِكَ إيَّاهُ، وأحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تحِبُّ لِنَفسِكَ»؛ فجَمَعَ فِيهَا بينَ الخوفِ والرَّجاءِ والمحبَّةِ -أصولِ العِبادَةِ القلبيَّةِ الثَّلاثَةِ-، وزادَ النُّصحَ لِلخَلقِ، فكَانَت جامِعَةً لِحَقِّ اللهِ وحَقِّ العبادِ. وأمَّا كلِمَةُ الفُضَيلِ ختامًا -«مَن خافَ اللهَ لَم يضُرَّهُ أحَدٌ، ومَن خافَ غيرَ اللهِ لَم ينفَعهُ أحَدٌ»- فَهِيَ بُرهانٌ عَلَىٰ أنَّ إفرادَ اللهِ بِالخوفِ عِزٌّ وأمنٌ، وأنَّ صرفَهُ لِغَيرِهِ ذُلٌّ وخِذلانٌ؛ فمَن خافَ اللهَ وحدَهُ كفاهُ اللهُ كلَّ مَا سِواهُ، ومَن خافَ المخلوقَ تخَلَّىٰ عنهُ اللهُ ووكَلَهُ إِلَىٰ مَن خافَ.

الإفسادِ.

الرَّابِعَةُ: البُكاءُ مِن خشيَةِ اللهِ علامَةُ حياةِ القلبِ، وأنَّ دمعَةَ الخشيَةِ مِن أعظَمِ أسبابِ الرَّحمَةِ والعِتقِ مِنَ النَّارِ.

الخامِسَةُ: أنَّ طولَ الحُزنِ وقِلَّةَ الضَّحِكِ مِن ثِمارِ المعرِفَةِ؛ لِأنَّ مَن عرَفَ المصيرَ والموقِفَ هانَت عليهِ الدُّنيا.

السَّادِسَةُ: أنَّ أفضَلَ الخلقِ أشَدُّهُم خوفًا مِنَ اللهِ؛ فَلَا يدُلُّ الخوفُ عَلَىٰ نُقصانٍ، بَل عَلَىٰ تمامِ الإيمانِ وقُوَّةِ المعرِفَةِ.

السَّابِعَةُ: أنَّ تذَكُّرَ الموتِ وهَولِ المطَّلَعِ مِن أقوىٰ دواعي الإنابَةِ، وأنَّهُ يقطَعُ داعيَ الغُرورِ والأمَلِ.

الثَّامِنَةُ: أنَّ خوفَ العبدِ مِن أَن يكونَ الذَّنبُ هَيِّنًا وَهُوَ عندَ اللهِ عظيمٌ مِن أعظَمِ فِقهِ القلوبِ، وَهُوَ بابٌ لِسَلامَةِ الدِّينِ.

التَّاسِعَةُ: أنَّ الاشتِغالَ بِسؤالِ الشَّرِّ لِاتِّقائهِ محمودٌ، وَهُوَ مِنَ الفِقهِ والحِفظِ لِلدِّينِ.

العاشِرَةُ: أنَّ الخوفَ الَّذي يحمِلُ عَلَىٰ العمَلِ أنفعُ مِن خوفٍ يورِثُ القُنوطَ؛ فالمقصودُ خوفٌ مُصاحَبٌ لِلرَّجاءِ.

الحاديَةَ عشرَةَ: أنَّ البُكاءَ عَلَىٰ الخطيئَةِ مِن أعظَمِ أسبابِ تكفيرِها، وأنَّهُ يستَدعي رحمَةَ اللهِ ومغفِرَتَهُ.

الثَّانيَةَ عشرَةَ: أنَّ العِلمَ النَّافِعَ يورِثُ الخشيَةَ؛ فمَن أُوتيَ عِلمًا لَا يُبكيهِ فَقَد يُحرَمُ برَكَتَهُ، أَو يكونُ عِلمُهُ قليلَ الأثَرِ.

الثَّالثَةَ عشرَةَ: أنَّ خوفَ اللهِ يطرُدُ خوفَ المخلوقِ؛ فمَن خافَ اللهَ لَم يضُرَّهُ أحَدٌ،

ومَن خافَ غيرَ اللهِ لَم ينفَعهُ أحَدٌ.

الرَّابِعَةَ عشرَةَ: أنَّ تولِّي المسؤوليَّاتِ العُظمىٰ يزيدُ الخوفَ والمُراقبَةَ؛ لِأنَّ الحِسابَ يعظُمُ بِقَدرِ الوِلايَةِ والأمانَةِ.

الخامِسَةَ عشرَةَ: أنَّ الخوفَ إِذَا سكَنَ القلبَ أحرَقَ مواضِعَ الشَّهواتِ، وطرَدَ رغبَةَ الدُّنيا، وقوَّىٰ داعيَ الزُّهدِ.

السَّادِسَةَ عشرَةَ: أنَّ صُحبَةَ أهلِ الخوفِ والموعِظَةِ أنفَعُ لِلقَلبِ مِن صُحبَةِ أهلِ التَّأمينِ والغَفلَةِ؛ لِأنَّ الخوفَ يُؤَدِّي إِلَىٰ الأمنِ، والتَّأمينُ يُفضي إِلَىٰ الخوفِ.

قلتُ: وهذهِ الفوائدُ السِّتَّ عشرةَ خُلاصَةٌ نافِعَةٌ لِأحوالِ السَّلَفِ، تجمَعُ فِقهَ البابِ فِي كلِماتٍ؛ وأجمَعُها وأنفَعُها الفائدَةُ العاشِرَةُ: «أنَّ الخوفَ الَّذي يحمِلُ عَلَىٰ العمَلِ أنفَعُ مِن خوفٍ يورِثُ القُنوطَ»؛ فإنَّها ترُدُّ الخوفَ إِلَىٰ مقصودِهِ الشَّرعيِّ، وتُميِّزُ بينَ خوفِ السَّلَفِ المحمودِ -الَّذي بعَثَهُم عَلَىٰ قِيامِ اللَّيلِ والبُكاءِ والإنابَةِ- وبينَ خوفٍ مذمومٍ يُقعِدُ عنِ العمَلِ ويُفضي إِلَىٰ اليأسِ؛ وَهَذَا هُوَ الفارِقُ الَّذي نبَّهَ عليهِ ابنُ رجَبٍ فِي حدِّ الخوفِ الواجِبِ، كَمَا تقدَّمَ.

مسألة: عِبادَةُ الرّجاءِ:

مَعنَىٰ الرَّجاءِ: «هُوَ الاستِبشارُ بِجودِ وفضلِ الرَّبِّ، والارتياحُ لِمُطالَعَةِ كرَمِهِ سُبحانَهُ»، وقيلَ: «هُوَ الثِّقَةُ بِجودِ الرَّبِّ تعَالَىٰ»، فالرَّجاءُ الشَّرعيُّ ليسَ مُجَرَّدَ تمَنٍّ قلبيٍّ، بَل هُوَ تعَلُّقُ القلبِ بِاللهِ مَعَ سعيِ الجوارِحِ فِي طاعَتِهِ؛ إِذ لَولَا رجاءُ العبدِ لِثَوابِ اللهِ وجَنَّتِهِ ومغفِرَتِهِ ورِضوانِهِ لما نشِطَ لِلعَمَلِ وَلَا أقبَلَ عَلَىٰ العِبادَةِ.

ولِهذا كانَ الرَّجاءُ ناشِئًا عَن حُسنِ الظَّنِّ بِاللهِ، المبنيِّ عَلَىٰ معرِفَةِ أسمائهِ الحُسنىٰ

وصِفاتِهِ العُلىٰ؛ فمَن علِمَ أنَّهُ الكريمُ الغفورُ الرَّحيمُ أحسَنَ الظَّنَّ بهِ ورَجا فضلَهُ، فسارَ إلَىٰ ربِّهِ راجيًا عامِلًا، قالَ تعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [سورة الكهف:١١٠].

هذهِ الآيَةُ أصلٌ فِي بَيانِ أنَّ الرَّجاءَ عِبادَةٌ قلبيَّةٌ عظيمَةٌ، لَا تصِحُّ إلَّا مُقترِنَةً بالإخلاصِ والعمَلِ الصَّالِحِ؛ وَقد جعَلَ اللهُ الرَّجاءَ سببًا لِلعَمَلِ، ونهىٰ أن يُشرَكَ معهُ غيرُهُ فِي هذهِ العِبادَةِ، وَمعنَىٰ لِقاءِ اللهِ: رؤيَتُهُ سُبحانَهُ، وَهُوَ الَّذي تتشَوَّقُ إليهِ نُفوسُ المؤمِنينَ.

أدِلَّةُ القُرآنِ والسُّنَّةِ عَلَىٰ عِبادَةِ الرَّجاءِ:

قالَ تَعالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [سورة الإسراء:٥٧]، وقالَ تعَالَىٰ: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الأعراف:٥٦]، وقالَ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [سورة الزمر:٥٣]، وقولُهُ تعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [سورة النساء:٤٨].

وَفِي السُّنَّةِ:

٢٦٠ - **رُوِيَ عَن أَبِي هريرَةَ أنَّ رسولَ اللهِ - ﷺ - قالَ:** «لَو يعلَمُ المؤمِنُ مَا عندَ اللهِ مِنَ العُقوبَةِ مَا طمِعَ بِجنَّتِهِ أحَدٌ، وَلَو يعلَمُ الكافِرُ مَا عندَ اللهِ مِنَ الرَّحمَةِ مَا قنَطَ مِن جنَّتِهِ أحَدٌ» (١)

---

(١) البخاري (٦٤٦٩)، ومسلم (٢٧٥٥).

٢٦١ - **وَفِي صحيحِ مسلمٍ عَن جابِرٍ:** «لَا يموتَنَّ أحَدُكُم إلَّا وَهُوَ يُحسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ»[1]

٢٦٢ - **وَفِي الصَّحيحَينِ عَن أَبِي هريرَةَ، قالَ اللهُ تَعَالَىٰ:** «أَنَا عندَ ظنِّ عبدِي بِي، وأنا معهُ حينَ يذكُرُني...»[2]

٢٦٣ - **وَعَن أَنَسِ بنِ مالِكٍ قالَ:** سمِعتُ رسولَ اللهِ -ﷺ- يقولُ: «قالَ اللهُ تَعالَىٰ: يَا ابنَ آدَمَ، إنَّكَ مَا دعوتَني ورَجَوتَني غفَرتُ لكَ عَلَىٰ مَا كانَ فيكَ وَلَا أُبالي...»[3]

قلتُ: ووجهُ اقترانِ الرَّجاءِ بِالخوفِ فِي عامَّةِ هذهِ الآياتِ -كقولِهِ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [سورة الإسراء:٥٧]، و﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [سورة الأعراف:٥٦]- تقريرٌ لِما تقدَّمَ: أنَّهما جناحانِ لَا يُفرَدُ أحَدُهُما عنِ الآخَرِ.

وتأمَّل حديثَ «أَنَا عندَ ظنِّ عبدِي بِي»؛ فإنَّ معناهُ أنَّ اللهَ يُعامِلُ العبدَ عَلَىٰ حسَبِ ظنِّهِ بهِ: فمَن أحسَنَ الظَّنَّ -مَعَ العمَلِ- وجَدَ مَا يرجو، ومَن أساءَ الظَّنَّ خابَ.

وليسَ المرادُ بِهِ حُسنَ الظَّنِّ المُجَرَّدَ عنِ العمَلِ، بَل حُسنُ الظَّنِّ الباعِثُ عَلَىٰ الطَّاعَةِ؛ بِدَليلِ حديثِ أنَسٍ «مَا دعوتَني ورَجَوتَني»، فقَرَنَ الرَّجاءَ بِالدُّعاءِ والعمَلِ.

وَفِي حديثِ أَبِي هريرَةَ «لَو يعلَمُ المؤمِنُ... وَلَو يعلَمُ الكافِرُ...» جمعٌ بَديعٌ بينَ مقتَضىٰ الخوفِ والرَّجاءِ فِي نَفَسٍ واحِدٍ، تنبيهًا عَلَىٰ وُجوبِ الجمعِ بينَهُما.

---

(١) مسلم (٢٨٧٧).

(٢) البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٣) الترمذي (٣٥٤٠).

مسألة: الرّجاءُ المحمودُ والرّجاءُ المذمومُ:

الرَّجاءُ المحمودُ: مَا كانَ مُقترِنًا بِالطَّاعَةِ، مُصاحِبًا لِلعَمَلِ الصَّالِحِ؛ «أجمَعَ العُقَلاءُ عَلَىٰ أنَّ الرَّجاءَ لَا يصِحُّ إلَّا مَعَ العمَلِ».

وأمَّا الرَّجاءُ المذمومُ فهُوَ رجاءُ الغُرورِ، وَهُوَ أن يُقيمَ العبدُ عَلَىٰ الْمَعَاصِي ويُتابعَ التَّفريطَ، ثمَّ يرجوَ المغفِرَةَ وأعلىٰ الدَّرَجاتِ بِلا توبَةٍ وَلَا إنابَةٍ؛ فَهَذَا تمَنٍّ باطِلٌ، وخِداعٌ لِلنَّفسِ، وَقَد جمَعَ بينَ الأمنِ مِن مكرِ اللهِ والإصرارِ عَلَىٰ الذَّنبِ.

فالرَّجاءُ الصَّادِقُ يحمِلُ عَلَىٰ الطَّاعَةِ، والكاذِبُ يُقعِدُ عنِ العمَلِ.

قلتُ: ووجهُ التَّفريقِ بينَ الرَّجاءِ والتَّمنِّي -وَهُوَ الفارِقُ الجامِعُ فِي هَذَا البابِ- أنَّ الرَّجاءَ يصحَبُهُ عمَلٌ وسعيٌ، والتَّمنِّيَ خُلُوٌّ مِنَ العمَلِ؛ فالرَّاجي كالزَّارِعِ الَّذي يحرُثُ ويبذُرُ ثمَّ يرجو الحصادَ، والمُتَمَنِّي كمَن ينتَظِرُ الزَّرعَ بِلا حرثٍ وَلَا بَذرٍ.

٢٦٤ - **ولِذا قالَ الحسَنُ البَصريُّ:** «إنَّ قومًا ألهَتهُم أمانيُّ المغفِرَةِ حتَّىٰ خرَجوا مِنَ الدُّنيا بِغَيرِ توبَةٍ، يقولُ أحَدُهُم: إنِّي أُحسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّي، وكذَبَ، لَو أحسَنَ الظَّنَّ لأحسَنَ العمَلَ»، فعَلامَةُ الرَّجاءِ الصَّادِقِ العمَلُ؛ فمَن رجا شيئًا طلَبَهُ بِأسبابِهِ، ومَن خافَ شيئًا هرَبَ منهُ.

مسألة: أقسامُ الرّجاءِ بِحَسَبِ مُتَعلَّقِهِ:

الأوَّلُ: الرَّجاءُ الطَّبيعيُّ الجائزُ؛ كرَجاءِ الإنسانِ مِن غيرِهِ أمرًا يقدِرُ عليهِ عادَةً، كالعَطاءِ أوِ النُّصرَةِ، فَهَذَا مِنَ الأسبابِ الجارِيَةِ، وليسَ مِنَ العِبادَةِ.

الثَّاني: رجاءُ السَّبَبِ مَعَ تعلُّقِ القلبِ بِاللهِ؛ كرَجاءِ نفعِ الدَّواءِ مَعَ الاعتِقادِ أنَّ الشِّفاءَ مِنَ اللهِ وحدَهُ، فَهَذَا توَكُّلٌ صحيحٌ.

الثَّالثُ: الرَّجاءُ الشِّركيُّ؛ وَهُوَ رجاءُ المخلوقاتِ فِيمَا لَا يقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ، أو

كرَجاءِ الْموتَىٰ والغائبينَ فِي قضاءِ الحاجاتِ وتفريجِ الكُرُباتِ.

ورَجاءُ العِبادَةِ، وَهُوَ أَن يطمَعَ العبدُ فِي شيءٍ لَا يملِكُهُ إِلَّا اللهُ؛ كَأَنَّ يطمَعَ فِي شِفائهِ مِن مرَضٍ، أَو يرجوَ أَن يدخُلَ الجنَّةَ وينجوَ مِنَ النَّارِ، أَو يرجوَ أَلَّا يُصابَ بِمُصيبَةٍ، ونحوَ ذلكَ، فهذهِ أنواعٌ مِنَ الرَّجاءِ لَا يُمكِنُ أَن ترجىٰ وَلَا تُطلَبَ وَلَا تُؤَمَّلَ إِلَّا مِنَ اللهِ وحدَهُ، وَهَذَا هُوَ مَعنَىٰ رجاءِ العِبادَةِ؛ فصَرفُ هَذَا الرَّجاءِ لِغَيرِ اللهِ شِركٌ أكبَرُ مُخرِجٌ مِنَ المِلَّةِ.

والشِّركُ الأصغَرُ فِي الرَّجاءِ: أَن يعتَمِدَ العبدُ عَلَىٰ الأسبابِ الدُّنيويَّةِ، وينسِبَ النِّعَمَ إِلَيها دونَ اللهِ.

قلتُ: ووجهُ ضبطِ هذهِ الأقسامِ أنَّ مدارَ التَّفريقِ عَلَىٰ المرجوِّ ومَن يُرجىٰ منهُ، كَمَا تقَدَّمَ نظيرُهُ فِي الخوفِ: فَإِنَّ رَجا مِن حيٍّ قادرٍ مَا يقدِرُ عليهِ، فَهُوَ رجاءٌ طبيعيٌّ جائزٌ؛ وَإِن رَجا نفعَ سبَبٍ مَعَ تعليقِ القلبِ بِاللهِ، فَهُوَ توَكُّلٌ صحيحٌ؛ وَإِن رَجا مِن مخلوقٍ مَا لَا يقدِرُ عليهِ إِلَّا اللهُ -كشِفاءِ المرَضِ وغُفرانِ الذَّنبِ ودُخولِ الجنَّةِ- فَهُوَ الشِّركُ الأكبَرُ، إذ صرَفَ عِبادَةَ الرَّجاءِ لِغَيرِ اللهِ.

فالميزانُ فِي الرَّجاءِ كالميزانِ فِي الخوفِ والدُّعاءِ: حالُ المرجوِّ ونوعُ المرجوِّ فيهِ.

مسألة: أسبابُ الرّجاءِ في اللهِ تعالى:

مِنهَا: مُطالَعَةُ أسماءِ اللهِ وصِفاتِهِ؛ كالغفورِ، والرَّحيمِ، والوَدودِ، والشَّكورِ.

ومِنهَا: النَّظَرُ فِي نُصوصِ الوَعدِ، كقولِهِ تعَالَىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [سورة الأحزاب:٤٧].

قلتُ: ووجهُ كونِ مُطالَعَةِ الأسماءِ والصِّفاتِ سببًا لِلرَّجاءِ -كَمَا كَانَت سببًا

لِلخَوفِ- أنَّ الرَّجاءَ ثمرَةُ معرِفَةِ أسماءِ الفضلِ والرَّحمَةِ (كالغَفورِ والرَّحيمِ والوَدودِ)، كَمَا أنَّ الخوفَ ثمرَةُ معرِفَةِ أسماءِ العَدلِ والعِزَّةِ (كالعزيزِ ذِي الانتِقامِ).

فمَن عرَفَ اللهَ بِأسمائهِ كلِّها اعتَدَلَ خوفُهُ ورجاؤُهُ؛ إذ نظَرَ بعَينِ الجمعِ بينَ صِفاتِ الجلالِ وصِفاتِ الجمالِ، وَهَذا سِرُّ كونِ معرِفَةِ الأسماءِ والصِّفاتِ أصلًا لِلعِباداتِ القلبيَّةِ كلِّها: المحبَّةِ والخوفِ والرَّجاءِ؛ فمِنها تنبَعُ، وبِقَدرِها تَقوَىٰ وتضعُفُ.(١)

---

(١) **مِن أحوالِ السَّلَفِ فِي عِبادَةِ الرَّجاءِ:**

رُوِيَ عَن محمدِ بنِ سيرينَ قالَ: قالَ عليٌّ: أيُّ آيَةٍ فِي القُرآنِ أوسَعُ؟ فجعَلوا يذكُرونَ آياتٍ مِنَ القُرآنِ: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [سورة النساء:١١٠] أو نحوَها، فقالَ عليٌّ: مَا فِي القُرآنِ آيَةٌ أوسعُ مِن ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [سورة الزمر:٥٣] [موسوعة ابن أبي الدنيا ١/ ٨٤-٨٥].

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ: «ليَغفِرَنَّ اللهُ يومَ القِيامَةِ مغفِرَةً لَم تخطُر عَلَىٰ قلبِ بشَرٍ» [موسوعة ابن أبي الدنيا ١/ ٨٣].

وقالَ أيضًا: «والَّذي لَا إلَهَ غيرُهُ، مَا أُعطِيَ عبدٌ شيئًا خيرًا مِن حُسنِ الظَّنِّ باللهِ، والَّذي لَا إلَهَ غيرُهُ مَا يُحسِنُ عبدٌ الظَّنَّ باللهِ إلَّا أعطاهُ اللهُ ظنَّهُ ذلكَ، فإنَّ الخيرَ بيَدِهِ» [موسوعة ابن أبي الدنيا ١/ ٩٤].

وَعَن أَبِي هريرَةَ قالَ: «يُدني اللهُ العبدَ يومَ القِيامَةِ، فيَضَعُ عليهِ كنَفَهُ فيَستُرُهُ مِنَ الخلائقِ كلِّها، ويدفَعُ إليهِ كِتابَهُ فِي ذلكَ السِّترِ...» ثمَّ ذكَرَ حديثًا طويلًا فِي سترِ اللهِ وغُفرانِهِ، وسُجودِ العبدِ عندَ قَبولِ الحسَناتِ ومغفِرَةِ السَّيِّئاتِ، حتَّىٰ يظُنَّ الخلائقُ أنَّهُ مَا عَصَىٰ اللهَ قطُّ [الزهد للإمام أحمد ٣١٦].

وَعَن جُندُبِ بنِ عبدِ اللهِ قالَ: «قالَ رجُلٌ فيمَن مَضَىٰ: واللهِ لَا يغفِرُ اللهُ لِفُلانٍ أبَدًا، فأوحىٰ اللهُ إلَىٰ نبيٍّ فِي زمانِهِ أن أخبِرهُ أنِّي قَد غفَرتُ لهُ، وأحبَطتُ عمَلَكَ عَلَىٰ تألِّيكَ» [الزهد للإمام أحمد ٣٦٠].

وَعَن حَيَّانَ أَبِي النَّضرِ: أنَّ واثِلَةَ بنَ الأسقَعِ دخَلَ عَلَىٰ يزيدَ بنِ الأسوَدِ وَهُوَ فِي النَّزعِ وَقَد ذهَبَ عقلُهُ، فقالَ لهُ: كيفَ ظنُّكَ باللهِ؟ فقالَ: «أغرَقَتني ذُنُوبِي، وأشفَيتُ عَلَىٰ هَلَكَةٍ، وَلَكِن أَرجُو رحمَةَ اللهِ»، فكبَّرَ واثِلَةُ وقالَ: سمِعتُ رسولَ اللهِ -ﷺ- يقولُ: «أنَا عندَ ظنِّ عَبدِي، فليَظُنَّ بِي مَا شاءَ» [موسوعة ابن أبي الدنيا

٥/ ٣٠٦].

وَعَن أَبِي غالِبٍ: ذكَرَ قِصَّةَ الْفَتَىٰ القيسيِّ الَّذي قالَ عندَ الموتِ: «فواللهِ، للهُ أرحَمُ بِي مِن والِدَتِي»، فلمَّا قُبِضَ دخَلَ عمُّهُ قبرَهُ، فرأَىٰ القبرَ قَد مُلِئَ نورًا وفُسِحَ فيهِ [موسوعة ابن أبي الدنيا ٥/ ٣٠٧].

وَعَن حُمَيدٍ: قِصَّةُ ابنِ أختٍ كانَ مُرهَقًا، فلمَّا مرِضَ قالَ: «أليسَ إنَّما ترحَمُني؟ فإنَّ اللهَ أرحَمُ بِي مِنهَا»، فلمَّا ماتَ ورآهُ فِي اللَّحدِ قالَ: «فإذَا هُوَ مدَّ بصري... فظَنَنتُ أنَّهُ بِالكَلِمَةِ الَّتي قالَها» [موسوعة ابن أبي الدنيا ٥/ ٣٠٨].

وقِصَّةُ الْفَتَىٰ الَّذي قالَ عندَ موتِهِ لِأُمِّهِ: «لَا تسلُبيني خاتَمي فإنَّ فيهِ ذِكرَ اللهِ، لعلَّ اللهَ أن يرحَمَني»، فرُئِيَ بعدَ موتِهِ فقالَ: «أخبِروا أُمِّي أنَّ الكَلِمَةَ قَد نفعَتني» [موسوعة ابن أبي الدنيا ٥/ ٣٠٨].

ومرِضَ أعرابيٌّ فقيلَ لهُ: إنَّكَ تموتُ، قالَ: «إِلَىٰ أينَ يُذهَبُ بِي؟» قالُوا: إِلَىٰ اللهِ، قالَ: «فَمَا كراهَتي أَن أذهَبَ إِلَىٰ مَن لَا أرىٰ الخيرَ إلَّا منهُ؟» [موسوعة ابن أبي الدنيا ٥/ ٣٠٩].

وعنِ المُعتَمِرِ بنِ سُليمانَ قالَ: قالَ أَبِي عندَ موتِهِ: «يَا مُعتَمِرُ، حدِّثني بِالرُّخَصِ، لعلِّي ألقىٰ اللهَ وَأَنَا أُحسِنُ الظَّنَّ بهِ» [موسوعة ابن أبي الدنيا ٥/ ٣٠٩].

وَعَن إبراهيمَ قالَ: «كَانُوا يستَحِبُّونَ أَن يُلَقَّنَ العبدُ محاسِنَ عمَلِهِ عندَ موتِهِ، لِكَي يُحسِنَ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ» [موسوعة ابن أبي الدنيا ٥/ ٣٠٩].

وعنِ الأعمَشِ قالَ: قالَ لِي مُطَرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ: «وجَدتُ الغَفلَةَ الَّتي ألقاها اللهُ فِي قلوبِ الصِّدِّيقينَ مِن خلقِهِ رحمَةً رحِمَهُم بها، وَلَو ألقىٰ فِي قلوبِهِمُ الخوفَ عَلَىٰ قَدرِ معرِفَتِهِم بهِ مَا هنَّأَهُمُ العيشُ» [صفة الصفوة ٣/ ١٥٩].

وقالَ أَبُو عِمرانَ الجَونيُّ: «مَا نظَرَ اللهُ إِلَىٰ شيءٍ إلَّا رحِمَهُ، وَلَو نظَرَ إِلَىٰ أهلِ النَّارِ لرَحِمَهُم، ولكنَّهُ قضىٰ عليهِم ألَّا ينظُرَ إليهِم» [موسوعة ابن أبي الدنيا ٦/ ٤٥٦].

وَعَن سفيانَ قالَ: صُلِّيَ ابنُ المُنكَدِرِ عَلَىٰ رجُلٍ، فقيلَ لهُ: تُصَلِّي عَلَىٰ فُلانٍ؟ قالَ: «إنِّي لأستَحيي مِنَ اللهِ أن يعلَمَ مِنِّي أنَّ رحمَتَهُ تعجِزُ عَن أحَدٍ مِن خلقِهِ» [الحلية ١/ ٤٩٤].

وَعَن إسحاقَ بنِ سُوَيدٍ قالَ: صحِبتُ مُسلِمَ بنَ يسارٍ عامًا إِلَىٰ مكَّةَ، فَلَم أسمَعهُ تكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ حتَّىٰ بلَغنا ذاتَ عِرقٍ، ثمَّ حدَّثَنا فقالَ: «بلَغَني أنَّهُ يُؤتىٰ بِالعَبدِ يومَ القِيامَةِ فيوقَفُ بينَ يدَي اللهِ، فيُقالُ: انظُروا فِي حسَناتِهِ،

فَلَا يوجَدُ لهُ حسَنَةٌ، فيُقالُ: انظُروا فِي سيِّئاتِهِ، فتوجَدُ لهُ سيِّئاتٌ كثيرَةٌ، فيُؤمَرُ بهِ إِلَىٰ النَّارِ، فيَذهَبُ وَهُوَ يلتَفِتُ، فيَقولُ اللهُ: رُدُّوهُ، إِلَىٰ مَا تلتَفِتُ؟ فيَقولُ: أَي ربِّ، لَم يكُن هَذَا ظنِّي، فيَقولُ: وَمَا كانَ ظنُّكَ بِي؟ فيَقولُ: كانَ ظنِّي أَن تغفِرَ لِي، فيَقولُ: قَد غفَرتُ لكَ» [الحلية ١/ ٣٩٦].

وَعَن معاذِ بنِ معاذٍ قالَ: «مَا رأيتُ أحدًا أعظَمَ رجاءً لِأهلِ الإسلامِ مِن ابنِ عونٍ...» ثمَّ ذكَرَ أنَّهُ كانَ يستَغفِرُ لِلحَجَّاجِ، وكانَ يقولُ إِذَا ذُكِرَ رجُلٌ بِعَيبٍ: «إنَّ اللهَ رحيمٌ» [الحلية ١/ ٤٤٤].

وعنِ الزِّبرِقانِ قالَ: كنتُ عندَ أَبِي وائلٍ فجَعَلتُ أسُبُّ الحَجَّاجَ وأذكُرُ مساوِئَهُ، فقالَ: «لَا تسُبَّهُ، وَمَا يُدريكَ؟ لعلَّهُ قالَ: اللهمَّ اغفِر لِي، فغَفَرَ لهُ» [الحلية ٢/ ٦٠].

وَعَن مُجاهِدٍ قالَ: «يُؤمَرُ بالعبدِ إِلَىٰ النَّارِ يومَ القِيامَةِ، فيَقولُ: مَا كانَ هَذَا ظنِّي! فيُقالُ: وَمَا كانَ ظنُّكَ؟ فيَقولُ: أَن تغفِرَ لِي، فيُقالُ: خلُّوا سبيلَهُ» [الحلية ٢/ ١٢].

وَعَن عمرِو بنِ مالِكٍ النُّكريِّ قالَ: كانَ أَبُو الجَوزاءِ يقولُ: «لَو أنَّ قومًا مِن فُقَهائكُم وأغنيائكُمُ انطَلَقوا إِلَىٰ رجُلٍ فقيهٍ غنيٍّ فسَألوهُ كوزًا مِن ماءٍ، أكانَ يمنَعُهُم؟» قَالُوا: لَا، قالَ: «فواللهِ، لَاللهُ أجوَدُ بِجَنَّتِهِ مِن ذلكَ الرَّجُلِ بِذلكَ الكوزِ» [الحلية ١/ ٤٥٨].

وقالَ بعضُهُم:

وإِنِّي لأَرجو اللهَ حتَّىٰ كأنَّني... أرىٰ بِجَميلِ الظَّنِّ مَا اللهُ صانِعُ

[عيون الأخبار ١/ ٧٨]

وقالَ بعضُهُم:

فَــلَا تفــرَحَنَّ بِــأمرٍ قَــد تــدَنَّىٰ ... وَلَا تيأَسَــنَّ مِــنَ الأمــرِ السَّــحيقِ

فــإنَّ القُــربَ يبعُــدُ بعــدَ قُــربٍ... ويــدنو البُعــدُ بالقَــدَرِ المَســوقِ

ومَــن لَــم يتَّــقِ الضَّحضــاحَ زلَّــت الــ ... ــبِهِ قــدَماهُ فِــي البحــرِ العميــقِ

[عيون الأخبار ١/ ٧٨]

وَعَن بِلالِ بنِ سعدٍ قالَ: «إنَّ لكُم ربًّا ليسَ إِلَىٰ عِقابِ أحدِكُم بِسَريعٍ، يُقيلُ العَثرَةَ، ويقبَلُ التَّوبَةَ، ويقبَلُ مِنَ المُقبِلِ، ويعطِفُ عَلَىٰ المُدبِرِ» [الحلية ٢/ ١٩٠].

وذكَرَ أيضًا حديثَ الرَّجُلَينِ اللَّذينِ يُخرَجانِ مِنَ النَّارِ ثمَّ يُرَدَّانِ، فيَمضي أحدُهُما مُقتَحِمًا النَّارَ،

ويذهَبُ الآخرُ مُلتفِتًا، فيَسألُهما ربُّهما عَن سببِ فِعلِهما... ثمَّ يقولُ لِلثَّاني الَّذي أحسَنَ الظَّنَّ: «إنِّي عندَ ظنِّكَ بِي»، ويُصرَفانِ كِلاهُما إِلَىٰ الجنَّةِ [الحلية ٢/ ١٩١].

وقالَ عمرُو بنُ ميمونَ: «مَا يسُرُّني أنَّ أمري يومَ القِيامَةِ إِلَىٰ أبَوَيَّ» [الحلية ٢/ ٧٢].

وَعَن محمدِ بنِ إسماعيلَ البُخاريِّ قالَ: سمِعتُ بعضَ أصحابِنا يقولُ: عادَ حمَّادُ بنُ سلَمَةَ سفيانَ الثَّوريَّ، فقالَ سفيانُ: «يَا أَبَا سلَمَةَ، أَتَرَىٰ يغفِرُ اللهُ لِمِثلي؟» فقالَ حمَّادٌ: «واللهِ لَو خُيِّرتُ بينَ محاسَبَةِ اللهِ لِي وبينَ محاسَبَةِ أبَوَيَّ لاختَرتُ محاسَبَةَ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ أرحَمُ بِي مِن أبَوَيَّ» [الحلية ٢/ ٣٣٦].

وقالَ الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: «وعِزَّتِهِ، لَو أدخَلَني النَّارَ فصِرتُ فِيهَا مَا أيِستُ» [الحلية ٣/ ٨].

وقالَ مالِكُ بنُ دينارٍ: «إنَّما هُوَ طاعَةُ اللهِ أوِ النَّارُ»، فقالَ محمدُ بنُ واسِعٍ: «إنَّما هُوَ عفوُ اللهِ أوِ النَّارُ» [الحلية ١/ ٤١٣].

وَعَن ثابتٍ البُنانيِّ: قِصَّةُ الشَّابِّ الَّذي رهَقَتهُ الذُّنوبُ فنَزَلَ بِهِ الموتُ، فقالَ: «إنَّ لِي ربًّا كثيرَ المعروفِ، وإنِّي لأرجو ألَّا يعدِمَني اليومَ بعضَ معروفِ ربِّي...» [الزهد للإمام أحمد ٥١٧].

وَعَن بِشرِ بنِ المُفَضَّلِ قالَ: رأيتُ بِشرَ بنَ منصورٍ فِي المنامِ، فقلتُ: مَا صنَعَ اللهُ بِكَ؟ قالَ: «وجَدتُ الأمرَ أهونَ ممَّا كنتُ أحمِلُ نَفسِي» [الزهد للإمام أحمد ٥٣٣-٥٣٤].

وقالَ يَحيَىٰ بنُ معاذٍ: «لَولَا أنَّ العفوَ مِن أحَبِّ الأشياءِ إليهِ مَا ابتَلَىٰ بِالذَّنبِ أكرَمَ الخلقِ عليهِ» [صفة الصفوة ٤/ ٣٤١].

وَعَن سفيانَ الثَّوريِّ قالَ: «مَا كانَ اللهُ لِيُنعِمَ عَلَىٰ عبدٍ فِي الدُّنيا فيَفضَحَهُ فِي الآخِرَةِ، وحقٌّ عَلَىٰ المُنعِمِ أن يتِمَّ عَلَىٰ مَن أنعَمَ عليهِ» [موسوعة ابن أبي الدنيا ١/ ٥١١].

وَعَن حفصٍ الصَّيرَفيِّ قالَ: بلَغَني أنَّ عمرَ بنَ ذرٍّ كانَ إذَا تَلَا ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [سورة النحل:٣٨] قالَ: «ونحنُ نُقسِمُ بِاللهِ جهدَ أيمانِنا ليَبعَثَنَّ مَن يموتُ...» ثمَّ يَبكِي [موسوعة ابن أبي الدنيا ١/ ٥٤].

وقالَ سفيانُ الثَّوريُّ: «مَا أحبُّ أنَّ حسابي جُعِلَ إِلَىٰ والِدَتي؛ ربِّي خيرٌ لِي مِن والِدَتي» [موسوعة ابن أبي الدنيا ٥/ ٣٠٨].

وَعَن عبدِ اللهِ المروَزيِّ قالَ: مرِضَ أعرابيٌّ فقيلَ لهُ: إنَّكَ تموتُ، قالَ: «وأينَ أذهَبُ؟» قَالُوا: إِلَىٰ اللهِ،

قالَ: «فَمَا كراهَتي أَن أذهَبَ إِلَىٰ مَن لَا أرىٰ الخيرَ إِلَّا منهُ!» [موسوعة ابن أبي الدنيا ١/ ٦٧].

ولمَّا احتُضِرَ بِشرُ بنُ منصورٍ ضحِكَ وقالَ: «أخرُجُ مِن بينَ ظَهرانَي مَن أخافُ فِتنَتَهُ، وأقدِمُ عَلَىٰ مَن لَا أشُكُّ فِي رحمَتِهِ» [موسوعة ابن أبي الدنيا ١/ ١٠٠].

وَعَن سلَمَةَ بنِ الهَزَّالِ قالَ: سمِعتُ الحسَنَ فِي جِنازَةٍ فِيهَا الفرَزدَقُ، والنَّاسُ يتَذاكَرونَ الموتَ، فقالَ الحسَنُ: «يَا أَبَا فِراسٍ، مَا أعدَدتَ لِهذا اليومِ؟» قالَ الفرَزدَقُ: لَا واللهِ، مَا أعدَدتُ لهُ إِلَّا شهادَةَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ منذُ ثمانينَ سنَةً، فقالَ الحسَنُ: «أثبِت عَلَيهَا وأبشِر، نِعمَ العُدَّةُ، نِعمَ العُدَّةُ» [موسوعة ابن أبي الدنيا ١/ ١٠٢].

وَعَن محمدِ بنِ المُنكَدِرِ قالَ: كانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يُبغِضُ الحَجَّاجَ، فنَفَّسَ عليهِ بِكَلِمَةٍ قالَها عندَ الموتِ: «اللهمَّ اغفِر لِي، فإِنَّهُم زعَموا أنَّكَ لَا تفعَلُ»، فبَلَغَ ذلكَ الحسَنَ البَصريَّ فقالَ: «أقالَها؟» قيلَ: نعَم، قالَ: «عسىٰ» [موسوعة ابن أبي الدنيا ١/ ١٠٨].

وَعَن أَبِي قِلابَةَ قالَ: «التقىٰ رجُلانِ فِي السُّوقِ، فقالَ أحَدُهُما لِلآخَرِ: يَا أَخِي، تعالَ حتَّىٰ ندعوَ اللهَ فِي غَفلَةِ النَّاسِ. ففعَلا، ثمَّ ماتَ أحَدُهُما، فأتاهُ الآخَرُ فِي المنامِ، فقالَ: يَا أَخِي، عَلِمتَ أنَّ اللهَ غفَرَ لَنَا عشيَّةَ التَقَينا فِي السُّوقِ!» [موسوعة ابن أبي الدنيا ١/ ١١١].

وَعَن أَبِي عُثمانَ النَّهديِّ قالَ: «إِنَّما جُعِلَتِ الرَّحمَةُ لِلذُّنوبِ» [موسوعة ابن أبي الدنيا ١/ ١١٢].

وَعَن مالِكِ بنِ دينارٍ قالَ: «رأيتُ مُسلِمَ بنَ يسارٍ فِي مَنامِي بعدَ موتِهِ بِسَنَةٍ، فسَلَّمتُ عليهِ فلَم يرُدَّ عليَّ، فقلتُ: لِمَ لَا ترُدُّ؟ فقالَ: أَنَا ميِّتٌ، وكيفَ أرُدُّ عليكَ السَّلامَ؟ فقلتُ: فَمَا لقيتَ بعدَ الموتِ؟ قالَ: لَقَد لقيتُ -واللهِ- أهوالًا وزلازِلَ عِظامًا شِدادًا، قلتُ: ثمَّ مَاذَا؟ قالَ: وَمَا تراهُ يكونُ مِنَ الكريمِ! قبِلَ مِنَّا الحسَناتِ، وعفا عنِ السَّيِّئاتِ، وتحَمَّلَ عنَّا التَّبِعاتِ»، قالَ مالِكٌ: ثمَّ شهِقَ شهقَةً فخَرَّ مغشيًّا عليهِ، فبَقِيَ أيَّامًا مريضًا [موسوعة ابن أبي الدنيا ١/ ١١٥].

وَعَن عونِ بنِ عبدِ اللهِ فِي قولِهِ تعَالَىٰ: ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾ [سورة آل عمران:١٠٣] قالَ: «إِنِّي لأرجو أَلَّا يُعيدَكُمُ اللهُ فِيهَا بعدَ أَن أنقَذَكُم مِنهَا» [موسوعة ابن أبي الدنيا ١/ ١٢٠].

قلتُ: وَفِي هذهِ الآثارِ ميزانُ الرَّجاءِ الصَّحيحِ: أَنَّهُ ظهَرَ أجلىٰ مَا ظهَرَ عندَ الموتِ، حيثُ يفرُغُ العبدُ مِنَ الدُّنيا ويُقبِلُ عَلَىٰ اللهِ؛ فتَراهُمُ اشتَدَّ خوفُهُم فِي الصِّحَّةِ، وقويَ رجاؤُهُم عندَ الموتِ، كَمَا تقَدَّمَ عنِ الفُضَيلِ.

أَهَمُّ الفوائِدِ المُستَنبَطَةِ فِي عِبادَةِ الرَّجاءِ:

الأولىٰ: أوسَعُ آياتِ الرَّجاءِ أعظَمُها جمعًا لِرَحمَةِ اللهِ ونهيًا عنِ القُنوطِ؛ فالأصلُ في التَّائبِ أن يُحسِنَ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ ويتَعَلَّقَ بِمَغفِرَتِهِ.

الثَّانيَةُ: الرَّجاءُ عِبادَةٌ قلبيَّةٌ مبناها علىٰ معرِفَةِ سعَةِ رحمَةِ اللهِ وكرَمِهِ، لا علىٰ تمَنٍّ مُجَرَّدٍ خالٍ مِن عمَلٍ.

الثَّالثَةُ: حُسنُ الظَّنِّ بِاللهِ أفضَلُ ما يُعطاهُ العبدُ في بابِ الرَّجاءِ؛ لِأَنَّهُ يجمَعُ معرِفَةَ اللهِ والثِّقَةَ بِوَعدِهِ وحُسنَ التَّعَلُّقِ بهِ.

الرَّابِعَةُ: التَّأَلِّي علىٰ اللهِ والقطعُ بِحِرمانِ مُعَيَّنٍ مِنَ المغفِرَةِ مُحَرَّمٌ، وقد يكونُ سببًا لِإحباطِ العمَلِ؛ لِما فيهِ مِن سوءِ الأدَبِ مع الرَّبِّ.

الخامِسَةُ: مِن أعظَمِ أسبابِ الرَّجاءِ استِحضارُ سترِ اللهِ وعفوِهِ يومَ القِيامَةِ، وأنَّ اللهَ يستُرُ عبدَهُ ويُقَرِّبُهُ ويُقرِّرُهُ ذنوبَهُ ثُمَّ يعفو عنهُ.

السَّادِسَةُ: الرَّجاءُ الصَّادِقُ يظهَرُ أجلىٰ مَا يظهَرُ عندَ الموتِ؛ لِأنَّ العبدَ يفرُغُ مِنَ الدُّنيا ويُقبِلُ عَلَىٰ اللهِ بِقَلبٍ مُنكَسِرٍ مُؤَمِّلٍ.

السَّابِعَةُ: تلقينُ المُحتَضَرِ محاسِنَ عمَلِهِ والرُّخَصَ الشَّرعيَّةَ مقصودُهُ تقويَةُ رجائِهِ وحُسنِ ظنِّهِ، لَا تزكيَتُهُ عَلَىٰ سبيلِ العُجبِ.

الثَّامِنَةُ: مَعنَىٰ قولِهِ -ﷺ- «أَنَا عندَ ظنِّ عبدي» أنَّ حُسنَ الظَّنِّ بِاللهِ سببٌ لِنَيلِ فضلِهِ، وسوءُ الظَّنِّ سبَبٌ لِلحِرمانِ والخِذلانِ.

التَّاسِعَةُ: الرَّجاءُ لَا يصِحُّ مَعَ الإصرارِ عَلَىٰ المعصيَةِ؛ ففَرقٌ بينَ رجاءٍ يُصاحِبُهُ توبَةٌ وإنابَةٌ، وبينَ تمَنٍّ يُصاحِبُهُ تفريطٌ وغُرورٌ.

العاشِرَةُ: الرَّجاءُ يحمِلُ عَلَىٰ الرِّفقِ بِالنَّاسِ وتركِ القَسوَةِ فِي الحُكمِ عليهِم؛ لِأَنَّ الرَّاحِمَ يرجو رحمَةَ اللهِ، ويستَحيي أَن يضيقَ بِما وسِعَت بهِ رحمَةُ اللهِ.

الحادِيَةَ عشرَةَ: مِن فِقهِ الرَّجاءِ أَن يَرَىٰ العبدُ ربَّهُ أرحَمَ بهِ مِن أقرَبِ النَّاسِ إليهِ؛ فمُحاسَبَةُ اللهِ أرحَمُ مِن محاسَبَةِ الخلقِ.

الثَّانيَةَ عشرَةَ: الرَّجاءُ يُثمِرُ حُسنَ الظَّنِّ بِدَوامِ الإنعامِ وإتمامِ الفضلِ؛ فمِن حُسنِ الظَّنِّ أَن يرجوَ العبدُ أَلَّا يفضَحَهُ اللهُ فِي الآخِرَةِ بعدَ سترِهِ فِي الدُّنيا.

الثَّالثَةَ عشرَةَ: الرَّجاءُ الصَّحيحُ يقتَرِنُ بِالخوفِ؛ فالمؤمِنُ يجمَعُ بينَ خوفِ العَدلِ ورَجاءِ الفضلِ، وبِهذا تستَقيمُ القلوبُ والأعمالُ.

الرَّابِعَةَ عشرَةَ: الرَّحمَةُ وُضِعَت لِلتَّوبَةِ ومُدافَعَةِ آثارِ الذُّنوبِ؛ فمَن أذنَبَ ففَزِعَ إِلَىٰ اللهِ فقَد أَتَىٰ بابَ الرَّجاءِ مِن أوسَعِ أبوابِهِ.

الخامِسَةَ عشرَةَ: مِن أثَرِ الرَّجاءِ تسكينُ القلبِ عندَ الشِّدَّةِ وهَولِ الموتِ؛ لِأَنَّهُ يَرَىٰ أَنَّ المصيرَ إِلَىٰ مَن لَا يُرىٰ الخيرُ إِلَّا مِن عندِهِ.

السَّادِسَةَ عشرَةَ: مِن مقاصِدِ الشَّرعِ فِي الجَنائزِ تقويَةُ الرَّجاءِ والتَّثبيتُ عَلَىٰ التَّوحيدِ.

قلتُ: وأجمَعُ هذهِ الفوائدِ الفائدَةُ التَّاسِعَةُ والثَّالثَةَ عشرَةَ معًا: أَنَّ الرَّجاءَ لَا يصِحُّ مَعَ الإصرارِ عَلَىٰ المعصيَةِ، وأنَّهُ لَا بُدَّ أَن يقتَرِنَ بِالخوفِ؛ فبِهاتَينِ الفائدَتَينِ يتَمَيَّزُ الرَّجاءُ الشَّرعيُّ مِن رجاءِ الغُرورِ.

فمَن جمَعَ بينَ الخوفِ والرَّجاءِ -خوفِ العَدلِ ورَجاءِ الفضلِ- مَعَ العمَلِ الصَّالِحِ، فقَد حقَّقَ العِبادَةَ القلبيَّةَ عَلَىٰ وجهِها؛ ومَن رجا بِلا خوفٍ ولَا عمَلٍ، فإنَّما هُوَ

مُغترٌّ مُتمَنٍّ.

مسألة: ما الَّذي نخافُه؟ وما الَّذي نرجوه؟

أوَّلًا: نخافُ مِنَ اللهِ؛ قالَ تعالىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾ [سورة المائدة:٢٨].

ثانيًا: نخافُ مِن عَذابِهِ؛ قالَ تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ [سورة الزمر:١٦]، وفي الصَّحيحَينِ: «لو تعلَمونَ ما أعلَمُ لضَحِكتُم قليلًا ولبَكَيتُم كثيرًا...».

ثالثًا: نخافُ مِن عدمِ قَبولِ العمَلِ؛ فسَّرَ النَّبيُّ -ﷺ- قولَ اللهِ ﴿وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ [سورة المؤمنون:٦٠] بِأنَّهُ الرَّجُلُ يعمَلُ الطَّاعَةَ ثمَّ يخشىٰ ألَّا تُقبَلَ منهُ.

رابعًا: نخافُ سوءَ الخاتِمَةِ؛ وكانَ السَّلَفُ يخافونَ النِّفاقَ علىٰ أنفُسِهِم.

٢٦٥ - **قالَ أَبُو جعفَرٍ الرَّازيُّ:** «كانَ الثَّوريُّ يَأتِي إبراهيمَ بنَ أدهَمَ فيَقولُ: ادعُ اللهَ أَن يقبِضَنا عَلَىٰ التَّوحيدِ»، وقالَ ابنُ مسعودٍ: «إنَّما مثَلُ ابنِ آدَمَ كالشَّيءِ المُلقىٰ بينَ يدَي اللهِ وبينَ الشَّيطانِ؛ فَإِنْ كانَ لِلَّهِ فيهِ حاجَةٌ حازَهُ مِنَ الشَّيطانِ، وَإِن لَم يكُن لِلَّهِ فيهِ حاجَةٌ خلَّىٰ بينَهُ وبينَ الشَّيطانِ».

٢٦٦ - **وقالَ الحارِثُ بنُ معاوِيَةَ:** «إنِّي لجالِسٌ فِي حلقَةٍ وَفِيها أَبُو الدَّرداءِ، وَهُوَ يومَئذٍ يُحَذِّرُنا الدَّجَّالَ، فقلتُ: واللهِ لغَيرُ الدَّجَّالِ أخوَفُ عَلَىٰ نَفسِي مِنَ الدَّجَّالِ، قالَ: وَمَا الَّذي أخوَفُ فِي نفسِكَ مِنَ الدَّجَّالِ؟ قلتُ: إنِّي أخافُ أَن يُسلَبَ مِنِّي إيمَانِي وَلَا أَدرِي، قالَ: لِلَّهِ أُمُّكَ يَا ابنَ الكِنديَّةِ! أَترَىٰ فِي النَّاسِ مِائَةً يتخَوَّفونَ مِثلَ مَا تتَخَوَّفُ؟ لِلَّهِ أُمُّكَ! أَترَىٰ فِي النَّاسِ خمسينَ؟ لِلَّهِ أُمُّكَ! أَترَىٰ فِي النَّاسِ عشَرَةً؟ لِلَّهِ أُمُّكَ! أَترَىٰ فِي النَّاسِ ثلاثَةً؟ واللهِ مَا أمِنَ رجُلٌ قطُّ أَن يُسلَبَ إيمانَهُ إلَّا سُلِبَهُ، وَمَا سُلِبَهُ فوَجَدَ فقدَهُ».

٢٦٧ - **وَرَوَىٰ عَن زُهَيرِ بنِ نُعَيمٍ البابيِّ قالَ:** «مَا أكبَرَ همِّي ذنوبي، إنَّما أخافُ مَا هُوَ أعظَمُ عليَّ مِنَ الذُّنوبِ، وَهُوَ أن أُسلَبَ التَّوحيدَ، وأموتَ عَلَىٰ غيرِهِ»، وقالَ مُجيبُ بنُ مُوسَىٰ الأصبَهانيُّ: «كنتُ عديدَ سفيانَ الثَّوريِّ إِلَىٰ مكَّةَ، فرَأيتُهُ يُكثِرُ البُكاءَ، فقلتُ: يَا أَبَا عبدِ اللهِ، بُكاؤُكَ هَذَا خوفًا مِنَ الذُّنوبِ؟ فأخَذَ عودًا مِنَ المحَلِّ فرَمىٰ بهِ وقالَ: إنَّ ذنوبي أهوَنُ عليَّ مِن هَذَا، ولكنِّي أخافُ أَن أُسلَبَ التَّوحيدَ».

٢٦٨ - **ولِذلكَ كانَ الأمرُ كَمَا قالَ سُليمانُ لِابنِهِ:** «يَا بُنَيَّ، لَا تعجَب ممَّن هلَكَ كيفَ هلَكَ، ولكنِ اعجَب ممَّن نَجَا كيفَ نَجَا».

قلتُ: وَفِي تخصيصِ السَّلَفِ خوفَهُم بِسَلبِ التَّوحيدِ وسوءِ الخاتِمَةِ -حتَّىٰ قدَّموهُ عَلَىٰ خوفِ الذُّنوبِ- نُكتَةٌ عظيمَةٌ فِي فِقهِ هَذَا البابِ: أنَّ أعظَمَ مَا يُخافُ هُوَ الموتُ عَلَىٰ غيرِ التَّوحيدِ؛ فإنَّ الذَّنبَ دونَ الشِّركِ قَد يُغفَرُ، وأمَّا الشِّركُ فَلَا يُغفَرُ، كَمَا قالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [سورة النساء:٤٨]، فكانَ خوفُهُم عَلَىٰ أصلِ توحيدِهِم أعظَمَ مِن خوفِهِم عَلَىٰ فروعِ أعمالِهِم؛ وَهَذَا هُوَ عينُ مَا تدورُ عليهِ هذهِ الرِّسالَةُ كلُّها: تحقيقُ التَّوحيدِ، والخوفُ مِن نواقِضِهِ.

ولِذا كانَ دُعاءُ الثَّوريِّ «ادعُ اللهَ أَن يقبِضَنا عَلَىٰ التَّوحيدِ» جامِعًا لِأشرَفِ المطالِبِ.

مسألة: مقاما العبدِ مع الخوفِ، ومُتَعَلَّقُ الرّجاءِ

مقاما العبدِ مَعَ الخوفِ: الأوَّلُ مقامُ المُقصِّرِ؛ يخافُ العُقوبَةَ، وخوفُهُ ناشِئٌ عَن معرِفَتِهِ بِجِنايَتِهِ وقُبحِها، وتصديقِ الوعيدِ، وخوفِهِ أَن يُحالَ بينَهُ وبينَ التَّوبَةِ.

والثَّاني مقامُ المُستَقيمِ؛ يخافُ دوامًا، لِعِلمِهِ أنَّ اللهَ مُقَلِّبُ القلوبِ.

وأمَّا الرَّجاءُ فمُتَعَلِّقٌ بِأربَعَةِ أمورٍ: اللهِ تَعَالَىٰ وصِفاتِهِ الواسِعَةِ الرَّحيمَةِ، ونعيمِ

الجنَّةِ، وقَبولِ الطَّاعاتِ، ومغفِرَةِ السَّيِّئاتِ.

قلتُ: ووجهُ التَّفريقِ بينَ مقامَي المُقَصِّرِ والمُستَقيمِ فِي الخوفِ أنَّ خوفَ المُقَصِّرِ خوفُ عُقوبَةٍ عَلَىٰ مَا اقترَفَ، وخوفَ المُستَقيمِ خوفُ زوالٍ عمَّا هُوَ فيهِ مِنَ الاستِقامَةِ؛ فالأوَّلُ يخافُ ذنبَهُ، والثَّاني يخافُ سوءَ خاتِمَتِهِ مَعَ استِقامَتِهِ، لِعِلمِهِ أنَّ القلوبَ بينَ أصبُعَينِ مِن أصابعِ الرَّحمَنِ يُقَلِّبُها كيفَ يشاءُ.

وَهَذَا أرفَعُ المقامَينِ؛ ولِذا كانَ خوفُ الأنبياءِ والصَّالِحينَ مِن هَذَا الجِنسِ، لَا مِن خوفِ العُقوبَةِ عَلَىٰ ذنبٍ فحَسبُ.

مسألة: علاماتُ الخوفِ والرَّجاءِ الصَّحيحَينِ:

الخوفُ الصَّحيحُ: مَا أثمَرَ طاعَةً، قالَ تَعالَىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة النحل: ٥٠].

والرَّجاءُ الصَّحيحُ: مَا أثمَرَ طاعَةً، قالَ تَعالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [سورة الكهف: ١١٠].

فأعظَمُ ثمَراتِ الرَّجاءِ: إظهارُ العُبوديَّةِ والفاقَةِ والحاجَةِ، ودوامُ التَّعَلُّقِ بِذِكرِ اللهِ ومُلاحَظَةِ أسمائِهِ وصِفاتِهِ.

أمَّا رجاءٌ بِلا عملٍ فهُوَ دَعوَىٰ كاذِبَةٌ، وأمنٌ مِن مكرِ اللهِ، لَا رجاءٌ.

إِذَا انقَطَعَت أطماعُ عبدٍ عنِ ... تعَلَّقَ بِالرَّبِّ الكريمِ رجاؤُهُ
فأصبَحَ حُرًّا عِزَّةً وقناعَةً ... عَلَىٰ وجهِهِ أنوارُهُ وضِياؤُهُ
وَإِن علِقَت بِالخَلقِ أطماعُ نفسِهِ ... تباعَدَ مَا يرجو وطالَ عناؤُهُ
فلَا ترجُ إِلَّا اللهَ لِلخَطبِ وحدَهُ ... وَلَو صحَّ فِي خِلِّ الصَّفاءِ

وَعَلَىٰ العبدِ أن يحذَرَ مِن تعَلُّقِ القلبِ بِالمَخلوقينَ؛ فإنَّ هَذَا يصرِفُ قلبَهُ عنِ

العُبوديَّةِ لِلَّهِ، ويصيرُ عبدًا لِغَيرِهِ بِقَدرِ مَا قامَ فِي قلبِهِ مِنَ التَّعَلُّقِ بِهِم والرَّجاءِ لهُم، فيَذِلُّ لِغَيرِ اللهِ ويخضَعُ، وَفِي «المُسنَدِ» مِن حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عُكَيمٍ أنَّ الرَّسولَ -ﷺ- قالَ: «مَن تعَلَّقَ شيئًا وُكِلَ إليهِ».

فالرَّجاءُ محمودٌ، وَهُوَ رجاءُ الطَّاعَةِ، وَهُوَ رجاءُ مَن عمِلَ بِطاعَةِ اللهِ عَلَىٰ نورٍ مِنَ اللهِ يَرجُو ثوابَهُ، وكذلكَ مَن أذنَبَ ثمَّ تابَ فَهُوَ راجٍ لِمَغفِرَتِهِ، وكذلكَ مَن نزَلَت بِهِ مُصيبَةٌ فأنزَلَ حاجَتَهُ بِاللهِ والتَجأَ إليهِ، فَهُوَ راجٍ أَن تُكشَفَ كُربَتُهُ وتُسَدَّ فاقَتُهُ؛ فَهَذَا رجاءٌ صحيحٌ محمودٌ، فعَلامَةُ صِحَّةِ الرَّجاءِ: حُسنُ التَّوبَةِ وحُسنُ الطَّاعَةِ، ورَجاءٌ مذمومٌ، وَهُوَ رجاءُ مَن تَمادَىٰ فِي التَّفريطِ والخطايا وَلَم يتُب، فَهُوَ يَرجُو الرَّحمَةَ؛ فَهَذَا غُرورٌ، كَمَا قالَ بعضُ السَّلَفِ: يقولُ أحَدُهُم وَهُوَ مُقيمٌ عَلَىٰ الذَّنبِ: إنِّي حسَنُ الظَّنِّ بِرَبِّي، كذَبَ واللهِ، لَو أحسَنَ الظَّنَّ لأحسَنَ العمَلَ.

واعلَم أنَّ رجاءَ مَا عندَ اللهِ مِن أعظَمِ مُحَرِّكاتِ القلبِ إِلَىٰ اللهِ وطاعَتِهِ، ولِلرَّغبَةِ فِيمَا عندَهُ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ؛ فأعظَمُ مُحَرِّكاتِ القلوبِ إِلَىٰ اللهِ ثلاثَةٌ: المحَبَّةُ، والخوفُ، والرَّجاءُ.

قلتُ: وبِهذِهِ الخلاصَةِ يتِمُّ مقصودُ البابِ: أنَّ العِبادَةَ القلبِيَّةَ تقومُ عَلَىٰ ثلاثِ دعائمَ -المحَبَّةِ والخوفِ والرَّجاءِ-؛ فالمحَبَّةُ تبعَثُ عَلَىٰ طلَبِ المحبوبِ، والرَّجاءُ يَحدُو إليهِ، والخوفُ يزجُرُ عَن مساخِطِهِ.

فَهِيَ كالطَّائرِ -كَمَا تقَدَّمَ-: المحَبَّةُ رأسُهُ، والخوفُ والرَّجاءُ جناحاهُ؛ لَا يطيرُ إِلَىٰ ربِّهِ إلَّا بِهِما مجتَمِعَةً.

وحديثُ «مَن تعَلَّقَ شيئًا وُكِلَ إليهِ» أصلٌ جامِعٌ فِي هَذَا البابِ: فمَن علَّقَ رجاءَهُ

بِاللهِ وحدَهُ كفاهُ اللهُ وأغناهُ، ومَن علَّقَهُ بِمَخلوقٍ وكَلَهُ اللهُ إِلَىٰ ذلكَ المخلوقِ وخذَلَهُ؛ فكانَ فِي تعليقِ الرَّجاءِ بِاللهِ وحدَهُ عِزُّ العبدِ وحُرِّيَّتُهُ، كَمَا فِي الأبياتِ: «إِذَا انقَطَعَت أطماعُ عبدٍ عنِ الورىٰ... فأصبَحَ حُرًّا».

فمَن أفرَدَ اللهَ بِالخوفِ والرَّجاءِ -كَمَا أفرَدَهُ بِالدُّعاءِ- فَقَد حقَّقَ توحيدَ العِبادَةِ القلبيَّةِ، وَهُوَ لُبُّ مَا تدورُ عليهِ هذهِ الأصولُ.

عبادة التوكل

دليل التوكُّل:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [سورة المائدة:٢٣]، وَقَالَ سُبحَانَهُ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [سورة الطلاق:٣].

انتقَلَ المُؤَلِّفُ إِلَىٰ مَسألَةِ التَّوكُّلِ، وَهِيَ مِن أَوسَعِ المَقَامَاتِ الإِيمَانِيَّةِ اتِّسَاعًا مِن جِهَةِ تَعَلُّقِهَا بِصِفَاتِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-؛ فَإِنَّ صِفَاتِ الرَّبِّ سُبحَانَهُ يُورِثُ تَعظِيمُهَا وَحُضُورُهَا فِي القَلبِ عُبُودِيَّةَ التَّوكُّلِ.

فَمَن اعتَقَدَ أَنَّ اللهَ الرَّحِيمُ، القَدِيرُ، القَوِيُّ، العَزِيزُ، الَّذِي يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيهِ... أَورَثَهُ ذلِكَ كُلُّهُ تَوكُّلًا صَادِقًا عَلَيهِ -جَلَّ وَعَلَا-.

كَمَا أَنَّ التَّوَكُّلَ مِن أَكثَرِ المَقَامَاتِ وُقُوعًا؛ فَهُوَ يَقَعُ مِنَ المُؤمِنِ، وَيَقَعُ مِنَ الكَافِرِ، وَيَكُونُ مِنَ الإِنسِ وَمِنَ الجِنِّ، وَيَظهَرُ فِي الحَيَوَانَاتِ وَالطُّيُورِ.

٢٦٩ - **قَالَ النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: «لَو أَنَّكُم تَتَوَكَّلُونَ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُم كَمَا يَرزُقُ الطَّيرَ؛ تَغدُو خِمَاصًا وَتَعُودُ بِطَانًا».

وَالتَّوَكُّلُ الوَاقِعُ مِنَ الكَافِرِ تَوَكُّلٌ طَبعِيٌّ، وَهُوَ اعتِمَادُ القَلبِ عَلَىٰ سَبَبٍ يَرجُوهُ؛ وهذَا يَقَعُ مِن كُلِّ ذِي رُوحٍ بِمُقتَضَىٰ فِطرَتِهِ، وَلَا يَنفَعُ صَاحِبَهُ وَلَا يُثَابُ عَلَيهِ، بَل هُوَ مُنقَطِعٌ مُنقَلِبٌ عَلَيهِ بِالخَيبَةِ مَتَىٰ عَلَّقَهُ بِغَيرِ اللهِ.

وَأَمَّا التَّوَكُّلُ العِبَادِيُّ الَّذِي هُوَ مَقصُودُ البَابِ - وَهُوَ تَفوِيضُ الأَمرِ إِلَىٰ اللهِ وَحدَهُ

مَعَ صِدقِ الاعتِمَادِ عَلَيهِ ـ فَلَا يَكُونُ إِلَّا مِن مُوَحِّدٍ عَرفَ رَبَّهُ؛ فَبِهذَا يَرتَفِعُ الإِشكَالُ فِي كَونِ التَّوكُّلِ عِبَادَةً مَعَ وُقُوعِهِ مِنَ الكَافِرِ: فَإِنَّ الوَاقِعَ مِنهُ جِبلَّةٌ، وَالمَطلُوبَ شَرعًا عِبَادَةٌ، وَبَينَهُمَا مَا بَينَ الطَّبعِ وَالتَّعَبُّدِ.

وَهُوَ أَصلٌ لِجمِيعِ مقاماتِ الإيمانِ والإحسانِ، ومنزلتُه مِنهَا كمنزلةِ البدنِ من الرأسِ، فَكَمَا لَا يقومُ الرأسُ إِلَّا عَلَىٰ البدنِ، كَذَلِكَ لَا تقومُ سائرُ المقاماتِ إِلَّا عَلَىٰ ساقِ التوكُّلِ.

إِذًا: شَأنُ التَّوَكُّلِ عَظِيمٌ، حَتَّىٰ جَعَلَهُ اللهُ شَرطًا فِي تَحقِيقِ الإِيمَانِ الوَاجِبِ، كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [سورة المائدة:٢٣]؛ فَجَعَلَ التَّوَكُّلَ شَرطًا فِي الإِيمَانِ، فَدَلَّ عَلَىٰ انتِفَاءِ الإِيمَانِ عِندَ انتِفَاءِ التَّوَكُّلِ.

وَفِي الآيَةِ الأُخرَىٰ: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [سورة يونس:٨٤]؛ فَجَعَلَ دَلِيلَ صِحَّةِ الإِسلَامِ التَّوَكُّلَ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٢٢﴾ [سورة آل عمران:١٢٢]، وَذِكرُ اسمِ الإِيمَانِ هَاهُنَا دُونَ سَائِرِ أَسمَائِهِم دَلِيلٌ عَلَىٰ استِدعَاءِ الإِيمَانِ لِلتَّوَكُّلِ، وَأَنَّ قُوَّةَ التَّوَكُّلِ وَضَعفَهُ بِحَسَبِ قُوَّةِ الإِيمَانِ وَضَعفِهِ؛ وَكُلَّمَا قَوِيَ إِيمَانُ العَبدِ كَانَ تَوَكُّلُهُ أَقوَىٰ، وَإِذَا ضَعُفَ الإِيمَانُ ضَعُفَ التَّوَكُّلُ، وَإِذَا كَانَ التَّوَكُّلُ ضَعِيفًا فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَىٰ ضَعفِ الإِيمَانِ وَلَا بُدَّ.(١)

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾ [سورة التغابن:١٣]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ [سورة الطلاق:٣]؛ فَجَعَلَ اللهُ تَعَالَىٰ لِكُلِّ عَمَلٍ

---

(١) طَرِيقُ الهِجرَتَينِ (٢٥٥/ ٢٥٨).

جَزاءً مِن جِنسِهِ، وجَعَلَ جَزاءَ التَّوكُّلِ عَلَيهِ نَفسَ كِفَايَتِهِ لِعَبدِهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [سورة الطلاق:٣]، وَلَم يَقُل: نُؤتِهِ كَذَا وَكَذَا مِنَ الأَجرِ كَمَا قَالَ فِي الأَعمَالِ، بَل جَعَلَ نَفسَهُ سُبحَانَهُ كَافِي عَبدِهِ المُتَوَكِّلِ عَلَيهِ، وَحَسبَهُ وَوَاقِيَهُ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنفال:٦٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [سورة الأنفال:٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [سورة هود:١٢٣]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [سورة النساء:٨١].

وَمَعنَىٰ اسمِ اللهِ الوَكِيلِ بِالمَعنَىٰ الخَاصِّ المُتَعَلِّقِ بِالإِلَهِيَّةِ: أَي أَنَّ اللهَ -جَلَّ وَعَلَا- هُوَ القَائِمُ عَلَىٰ رِعَايَةِ عِبَادِهِ المُؤمِنِينَ، وَمِنَ الأَسمَاءِ المُتَعَلِّقَةِ بِهَذَا البَابِ: اسمُ الرَّبِّ، وَالحَسِيبِ، وَالكَافِي، وَالرَّزَّاقِ.

وَمِنَ الأَسمَاءِ المُتَعَلِّقَةِ بِالتَّوَكُّلِ: الرَّحمَنُ وَالرَّحِيمُ، وَالعَزِيزُ، وَالحَكِيمُ، وَاسمُ اللهِ الجَامِعُ لِلأَسمَاءِ الحُسنَىٰ وَالصِّفَاتِ العُلَىٰ.

وَكُلُّ اسمٍ مِن هَذِهِ الأَسمَاءِ يَستَدعِي مِنَ القَلبِ تَوَكُّلًا يُنَاسِبُهُ؛ فَمَن عَرَفَ أَنَّهُ «الرَّزَّاقُ» تَوَكَّلَ عَلَيهِ فِي رِزقِهِ، وَمَن عَرَفَ أَنَّهُ «الحَفِيظُ» تَوَكَّلَ عَلَيهِ فِي حِفظِهِ، وَمَن عَرَفَ أَنَّهُ «الحَكَمُ العَدلُ» سَكَنَ إِلَىٰ قَضَائِهِ وَرَضِيَ بِحُكمِهِ.

فَكُلَّمَا كَانَ العَبدُ بِأَسمَاءِ رَبِّهِ وَصِفَاتِهِ أَعرَفَ، كَانَ تَوَكُّلُهُ عَلَيهِ أَتَمَّ وَأَصدَقَ؛ إِذِ التَّوَكُّلُ فَرعٌ عَنِ المَعرِفَةِ، وَعَلَىٰ قَدرِ العِلمِ بِالمَتوَكَّلِ عَلَيهِ تَكُونُ قُوَّةُ الاعتِمَادِ عَلَيهِ، وَلِهَذَا كَانَ أَكمَلَ النَّاسِ تَوَكُّلًا أَعرَفُهُم بِاللهِ.

٢٧٠- **قَالَ ابنُ أَبِي الدُّنيَا فِي «التَّوَكُّل» (ص٧٤):** حَدَّثَنَا عَبدُ اللهِ، حَدَّثَنِي عَلِيٌّ، عَن مُحَمَّدِ بنِ الحُسَينِ، حَدَّثَنِي إِبرَاهِيمُ بنُ زَكَرِيَّا القُرَشِيُّ، قَالَ: سَمِعتُ هَدَّابًا البَصرِيَّ، يَقُولُ: قَالَ لِي قَائِلٌ فِي مَنَامِي: يَا هَدَّابُ: «تَوَكَّل عَلَىٰ مَن تَوَكَّلَ عَلَيهِ المُتَوَكِّلُونَ قَبلَكَ؛ فَإِنَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَا يَكِلُ مَن تَوَكَّلَ عَلَيهِ إِلَىٰ غَيرِهِ».

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [سورة الفرقان:٥٨].

٢٧١- **رُوِيَ عَن سُلَيمَانَ الخَوَّاصِ -مِن طَرِيقِ أَبِي قُدَامَةَ الرَّملِيِّ- أَنَّهُ قُرِئَت عِندَهُ هَذِهِ الآيَةُ:** ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [سورة الفرقان:٥٨]، فَقَالَ: مَا يَنبَغِي لِعَبدٍ بَعدَ هَٰذِهِ الآيَةِ أَن يَلجَأَ إِلَىٰ أَحَدٍ غَيرِ اللهِ فِي أَمرِهِ.

ثُمَّ قَالَ: اُنظُر كَيفَ قَالَ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [سورة الفرقان:٥٨]؛ فَأَعلَمَكَ أَنَّهُ لَا يَمُوتُ، وَأَنَّ جَمِيعَ خَلقِهِ يَمُوتُونَ، ثُمَّ أَمَرَكَ بِعِبَادَتِهِ، فَقَالَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الفرقان:٥٨]، ثُمَّ أَخبَرَكَ بِأَنَّهُ خَبِيرٌ بَصِيرٌ.

ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ يَا أَبَا قُدَامَةَ، لَو عَامَلَ عَبدٌ اللهَ بِحُسنِ التَّوَكُّلِ، وَصِدقِ النِّيَّةِ لَهُ بِطَاعَتِهِ؛ لَاحتَاجَت إِلَيهِ الأُمَرَاءُ فَمَن دُونَهُم، فَكَيفَ يَكُونُ هَٰذَا مُحتَاجًا، وَمُؤَمَّلُهُ وَمَلجَؤُهُ إِلَىٰ الغَنِيِّ الحَمِيدِ؟!(١)

قَولُهُ: (فَأَعلَمَكَ أَنَّهُ لَا يَمُوتُ وَأَنَّ جَمِيعَ خَلقِهِ يَمُوتُونَ ثُمَّ أَمَرَكَ بِعِبَادَتِهِ).

وَقَولُهُ: (مَا يَنبَغِي لِعَبدٍ بَعدَ هذِهِ الآيَةِ أَن يَلجَأَ إِلَىٰ أَحَدٍ غَيرِ اللهِ فِي أَمرِهِ).

هذِهِ التَّقرِيرَاتُ كَافِيَةٌ لِهَدمِ شِركِ القُبُورِيَّةِ فِي دُعَائِهِمُ الأَموَاتَ مِن دُونِ اللهِ، وهذَا مِنَ القَدرِ الفَارِقِ بَينَ اللهِ وَعِبَادِهِ: أَنَّهُم يَمُوتُونَ وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَالمَيِّتُ لَا يَجُوزُ

(١) أَخرَجَهُ ابنُ أَبِي الدُّنيَا فِي «التَّوَكُّل» -انظُر: مَوسُوعَةَ ابنِ أَبِي الدُّنيَا ١/ ١٥٣-١٥٤ (٣٦).

دُعَاؤُهُ بِحَالٍ؛ لِأَنَّهُ شِركٌ.

وَقد أَخبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ بِنَصِّ القُرآنِ أَنَّ الدُّعَاءَ وَالتَّوَكُّلَ وَالطَّلَبَ إِنَّمَا يَكُونُ لِلَّذِي لَا يَمُوتُ، وهذَا خَاصٌّ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَفِي الأَثَرِ قَد رَبَطَ بَينَ هذَا وَبَينَ العِبَادَةِ، فَقَالَ: فَأَعلَمَكَ أَنَّهُ لَا يَمُوتُ... ثُمَّ أَمَرَكَ بِعِبَادَتِهِ.

وَالآيَةُ فِيهَا نَقضٌ لِزَندَقَةِ الأَقطَابِ وَالأَولِيَاءِ عِندَ القُبُورِيَّةِ فِي زَعمِهِم أَنَّهُم مُوَكَّلُونَ، وَيَعلَمُونَ الذُّنُوبَ وَيَغفِرُونَهَا؛ فَقَد قَالَ سُبحَانَهُ: وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا؛ فَقَد تَفَرَّدَ سُبحَانَهُ بِهذَا، وَلَم يَستَثنِ أَحَدًا، وَلَم يُخبِر أَنَّهُ أَطلَعَ بَعضَ عِبَادِهِ عَلَىٰ ذلِكَ، وَلَا أَعطَاهُم خَاصِّيَّةَ المَغفِرَةِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [سورة آل عمران:١٧٣].

٢٧٢ - **رُوِيَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ** - رضي الله عنهما - **قَالَ:** ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [سورة آل عمران:١٧٣] قَالَهَا إِبرَاهِيمُ - عليه السلام - حِينَ أُلقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ - صلى الله عليه وسلم - حِينَ قِيلَ لَهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [سورة آل عمران:١٧٣]،

وَ«الحَسبُ» هُوَ الكِفَايَةُ، وَهِيَ ثَمَرَةُ التَّوَكُّلِ وَلَازِمُهُ لَا عَينُهُ؛ فَإِنَّ التَّوَكُّلَ فِعلُ العَبدِ وَعَمَلُ قَلبِهِ، وَالكِفَايَةُ فِعلُ الرَّبِّ وَجَزَاؤُهُ.

فَجَمَعَ القَومُ فِي قَولِهِم: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [سورة آل عمران:١٧٣] بَينَ المَقَامَينِ: تَوكِيلِهِم رَبَّهُم وَتَفوِيضِهِم إِلَيهِ بِقَولِهِم: «وَنِعمَ الوَكِيلُ»، وَيَقِينِهِم بِكِفَايَتِهِ إِيَّاهُم بِقَولِهِم: «حَسبُنَا اللهُ».

فَمَن صَحَّ تَوَكُّلُهُ صَارَ اللهُ حَسبَهُ، وَمَن كَانَ اللهُ حَسبَهُ فَقَد كُفِيَ كُلَّ مَا أَهَمَّهُ؛ فَالتَّوَكُّلُ بَابٌ، وَالكِفَايَةُ مَا يُفضِي إِلَيهِ البَابُ.

والقرآن مملوء بالآيات الدالة عَلَىٰ فضل ومنزلة التوكل، فَقَد ذكر الله -وَجَلَّ عَزَّ- التوكل فِي القرآن فِي اثنين وستين موضعـًا ثمانية وثلاثون موضعـًا بِلَفظِ (توكل)، وأربعة وعشرون موضعـًا بِلَفظِ (وكيل) مجموعهما اثنان وستون موضعـًا.

٢٧٣ - **وَرَوَىٰ البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠) عَن ابن عَبَّاسٍ** -رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا- **قَالَ:** قالَ رَسُولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: "عُرِضَت عَلَيَّ الأُمَمُ فَجعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُم الرَّهطُ، وَالنَّبِيُّ لَيسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّىٰ وَقَع فِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟

قِيلَ: بَل هَذَا مُوسَىٰ وَقَومُهُ، قِيلَ: انظُر إِلَىٰ الأُفُقِ.

فَإِذَا سَوَادٌ يملأُ الأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انظُر هَا هُنَا وَهَا هُنَا، فِي آفَاقِ السَّمَاءِ.

فَإِذَا سَوَادٌ قَد مَلأَ الأُفُقَ.

قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدخُلُ الجَنَّةَ مِن هَؤُلَاءِ سَبعُونَ أَلفًا بِغَيرِ حِسَابٍ، ثُمَّ دَخَلَ وَلَم يُبَيِّن لَهُم، فَأَفَاضَ القَومُ وَقَالُوا: نَحنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِالله وَاتَّبَعنَا رَسُولَهُ فَنَحنُ هُم، أَو أَولَادُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسلَامِ، فَإِنَّا وُلِدنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ.

فَبَلَغَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فَخَرَجَ فَقَالَ: «هُم الَّذِينَ لَا يَستَرقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكتَوُونَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ».

فَقَالَ عُكَّاشَةُ بنُ مِحصَنٍ: أَمِنهُم أَنَا يَا رَسُولَ الله؟

قَالَ: "نَعَم".

فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنهُم أَنَا؟ قَالَ: "سَبقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ".

٢٧٤ - **وَعَن عمر بن الخطاب** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- **قَالَ:** قَالَ رَسُولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "لَو أَنَّكُم تَوَكَّلتُم عَلَىٰ الله حق توكله لَرَزَقكُم كَمَا يرزُقُ الطير تَغدُو خماصًا وَتَرُوحُ بطانًا".(١)

٢٧٥ - **وَرَوَىٰ مسلم (٢٧١٧) ابن عباس** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: أَن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ لَكَ أَسلَمتُ، وَبِكَ آمَنتُ، وَعَلَيكَ تَوَكَّلتُ، وَإِلَيكَ أَنبتُ، وَبِكَ خَاصَمتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بعزتك، لَا إله إِلَّا أَنتَ - أَن تُضِلَّنِي، أَنتَ الحي الَّذِي لَا يَمُوتُ، والجن والإنس يَمُوتُونَ".

٢٧٦ - **وَرَوَىٰ الترمذي فِي «السنن» (٥/ ٤٩٠):** عَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: " مَن قَالَ - يَعنِي - إِذَا خَرَجَ مِن بَيتِهِ: بِسمِ اللهِ، تَوَكَّلتُ عَلَىٰ اللهِ، لَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، يُقَالُ لَهُ: كُفِيتَ، وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّىٰ عَنهُ الشَّيطَانُ ".

٢٧٧ - **وَقَالَ سعيد بن جُبير:** التوكُّل عَلَىٰ الله جِماعُ الإيمان، وَكَانَ يَدعُو: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ صدقَ التوكُّل عَلَيكَ، وحُسنَ الظنِّ بِكَ.(٢)

٢٧٨ - **قَالَ الخلال:** أَخبَرَنَا أَبُو بَكرٍ المَرُّوذِيُّ، قَالَ: قِيلَ لِأَبِي عَبدِ اللهِ: أَيُّ شَيءٍ صِدقُ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-؟ فَقَالَ: «أَن يَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ، وَلَا يَكُونَ فِي قَلبِهِ أَحَدٌ مِنَ الآدَمِيِّينَ يَطمَعُ أَن يَجِيئَهُ بِشَيءٍ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ اللهُ يَرزُقُهُ، وَكَانَ مُتَوَكِّلًا»()

٢٧٩ - **وَرَوَىٰ الخلال عَن سُفيَانَ بنَ عُيَينَةَ قَالَ:** «جِمَاعُ الإِيمَانِ التَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ،

---

(١) أَخرَجَهُ الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤) قَالَ الترمذي حديث حسن صحيح لَا نعرفه إِلَّا من هَذَا الوجه.

(٢) السير ٢/ ٥٠٥.

وَتَفسِيرُ التَّوَكُّلِ أَن يَرضَىٰ بِمَا فُعِلَ بِهِ»[(١)]

٢٨٠ - **وَقَالَ الفضيل بن عياض:** التوكل قوام العبادة.[(٢)]

٢٨١ - **وجَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ وَهبِ بنِ مُنَبِّهٍ، فَقَالَ:** عَلِّمنِي شَيئًا يَنفَعُنِي اللهُ بِهِ، قَالَ: " أَكثِر مِن ذِكرِ المَوتِ، وَأَقصِر أَمَلَكَ، وَخَصلَةٌ ثَالِثَةٌ، إِن أَنتَ أَصَبتَهَا بَلَغتَ الغَايَةَ القُصوَىٰ، وَظَفِرتَ بِالعِبَادَةِ، قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: التَّوَكُّلُ ".[(٣)]

٢٨٢ - **وَرُوِيَ عَن سعيد بن المسيب أَنَّ سلمان وعبد الله بن سلام التقيا، فَقَالَ أحدهما لصاحبه:** إِن لَقِيتُ ربك فَأَخبِرنِي مَاذَا لَقِيتُ مِنهُ؟ وَإِن لَقِيتُهُ قَبلَكَ (لَقِيتُكَ) فَأَخبَرتُكَ، فَتُوُفِّيَ أحدهما فَلَقِيَهُ، صاحبه فِي المنام، فَقَالَ: توكل وأبشر، فإني لَم أر مثل التوكل قط–قَالَهَا ثلاث مرات.[(٤)]

٢٨٣ - **وَقَالَ صَالِحٌ البَرَّادُ:** رَأَيتُ زُرَارَةَ بنَ أَوفَىٰ بَعدَ مَوتِهِ فِي مَنَامِي، فَقُلتُ: أَيُّ الأَعمَالِ أَبلَغُ فِيمَا عِندَكُم؟ قَالَ: «التَّوَكُّلُ، وَقِصَرُ الأَمَلِ».[(٥)]

٢٨٤ - **وَقَالَ وهب كَمَا فِي الزهد لأحمد:** «يَقُولُ الرب –تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ–: إِذَا توكل علي عَبدِي، لَو كَادَتهُ السماوات والأرض، جَعَلتُ لَهُ من بَينَ ذَلِكَ المخرج».

فَالتَّوَكُّلُ عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ، وَقَد جَاءَ الأَمرُ بِهَا وَالحَثُّ عَلَيهَا فِي نُصُوصٍ كَثِيرَةٍ مِن

---

(١) «الحث عَلَىٰ الصناعة» ١٢٤.

(٢) «شعب الإيمان» (٢/ ٤٧٤ ط الرشد).

(٣) «التوكل عَلَىٰ الله لابن أَبِي الدنيا» (ص٧٥).

(٤) «مصنف ابن أَبِي شيبة» (١٩/ ٣٧٢ ت الشثري).

(٥) «قصر الأمل لابن أَبِي الدنيا» (ص٤١).

الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَهِيَ مِنَ الأَعمَالِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللهُ وَيَرضَاهَا.

وَكَونُهُ عَمَلًا مَأمُورًا بِهِ يَدفَعُ تَوَهُّمَ مَن ظَنَّهُ حَالًا تَهجُمُ عَلَىٰ القَلبِ بِلَا علم وعمل ومجاهدو ومصابرة، فَلَا يُؤمَرُ بِهَا وَلَا تُكتَسَبُ؛ بَل جَاءَ الأَمرُ بِهِ صَرِيحًا فِي قَولِهِ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ [سورة المائدة:٢٣]، ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [سورة الفرقان:٥٨]، وَالأَمرُ إِنَّمَا يَتَوَجَّهُ إِلَىٰ مَقدُورٍ مُكتَسَبٍ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ عَمَلٌ قَلبِيٌّ يُتَعَلَّمُ وَيُعَالَجُ وَيُتَدَرَّجُ فِيهِ، وَيَزِيدُ بِالمُجَاهَدَةِ وَيَنقُصُ بِالتَّفرِيطِ؛ فَمَن أَعرَضَ عَن تَعَلُّمِهِ وَتَعَاهُدِهِ بِحُجَّةِ أَنَّهُ مَوهِبَةٌ مَحضَةٌ فَقَد عَطَّلَ أَمرَ اللهِ بِهِ، وَأَسقَطَ عَن نَفسِهِ مَا كَلَّفَهُ اللهُ إِيَّاهُ.

لِذلِكَ فَإِنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ التَّوَكُّلُ مِن فَيلَسُوفٍ، وَلَا مِنَ القَدَرِيَّةِ النُّفَاةِ، وَلَا مِنَ الجَهمِيَّةِ المُعَطِّلَةِ لِصِفَاتِ الرَّبِّ؛ لِأَنَّ التَّوَكُّلَ لَا يُمكِنُ أَن يَكُونَ فِي القَلبِ إِلَّا إِذَا كَانَ القَلبُ صَافِيًا فِي تَوحِيدِ اللهِ.

فَإِذَا أَخلَصَ التَّوحِيدَ، وَأَيقَنَ أَن لَا خَالِقَ فِي هذَا الكَونِ وَلَا رَازِقَ إِلَّا اللهُ، لَم يَطلُبِ الرِّزقَ مِن غَيرِ اللهِ، وَإِذَا أَيقَنَ أَنَّ القُوَّةَ لِلَّهِ، لَم يَخشَ وَلَم يَخَف إِلَّا اللهَ.

فَكُلَّمَا كَانَ الرَّجُلُ بِاللهِ وَصِفَاتِهِ أَعرَفَ، كَانَ تَوَكُّلُهُ أَصَحَّ وَأَقوَىٰ، وَلِذلِكَ لَو تَأَمَّلتَ -مَثَلًا- فِي قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [سورة الفرقان:٥٨]، لَرَأَيتَ كَيفَ كَانَ التَّوَكُّلُ عَلَىٰ هذَا الرَّبِّ العَظِيمِ الَّذِي وَصفُهُ أَنَّهُ لَا يَمُوتُ؛ فَكُلَّمَا عَظُمَ هذَا التَّوحِيدُ فِي قَلبِكَ، كَانَ التَّوَكُّلُ عِندَكَ عَظِيمًا، وَالعَكسُ بِالعَكسِ.(١)

---

(١) **قال المُعَلِّمِيّ**: «لَعَلَّ السَّبَبَ فِي إِهمَالِ المُتَكَلِّمِينَ الكَلَامَ عَلَىٰ تَوحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ الحَقِيقِيِّ أَنَّهُم لَم يَجِدُوا لِلفَلَاسِفَةِ كَلَامًا فِيهِ؛ كَيفَ، وَعَامَّةُ الفَلَاسِفَةِ مُشرِكُونَ يَعبُدُونَ الأَروَاحَ وَالكَوَاكِبَ وَالأَوثَانَ؟ وَظَنَّ المُتَكَلِّمُونَ -كَمَا صَرَّحَ بِهِ بَعضُهُم، وَتَقَدَّمَ فِي آخِرِ مَا نَقَلنَاهُ عَن شَرحِ المَقَاصِدِ- أَنَّ وَحدَانِيَّةَ استِحقَاقِ

وهذِهِ العِبَادَةُ تَحقِيقٌ لِتوحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ؛ وذلِكَ لِمَا يَقُومُ بِقَلبِ الإِنسَانِ مِن حُسنِ الظَّنِّ بِاللهِ -جَلَّ وَعَلَا-، وَالثِّقَةِ بِهِ، وَالتَّفوِيضِ إِلَيهِ، وَالاعتِمَادِ عَلَيهِ.

وهذِهِ عِبَادَةٌ جَلِيلَةٌ، وهذَا هُوَ التَّوحِيدُ العَمَلِيُّ، فَاقتَرَنَ الأَمرَانِ فِي هذِهِ العِبَادَةِ: عِبَادَةُ التَّوكُّلِ وَحَقِيقَةُ التَّوحِيدِ.

وَمِن أَبيَنِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ هذَا الاقتِرَانِ أَنَّ اللهَ قَرَنَ بَينَ العِبَادَةِ وَالتَّوكُّلِ فِي غَيرِ مَوضِعٍ، كَقَولِهِ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [سورة هود:١٢٣]، وَقَولِهِ: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [سورة هود:٨٨]؛ وَجَمَعَ بَينَهُمَا فِي فَاتِحَةِ الكِتَابِ الَّتِي يُرَدِّدُهَا العَبدُ فِي كُلِّ رَكعَةٍ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ

العِبَادَةِ لَا يَدُلُّ عَلَيهَا العَقلُ، وَإِنَّمَا هِيَ شَرعِيَّةٌ مَحضَةٌ.

فَتَقصِيرُ المُتَكَلِّمِينَ فِي هَذِهِ المَسأَلَةِ مِن أَعظَمِ أَسبَابِ الِاشتِبَاهِ فِيهَا؛ لِأَنَّ مَن أَرَادَ البَحثَ عَنهَا فَزِعَ إِلَىٰ مَا سَمَّوهُ عِلمَ التَّوحِيدِ، لِاعتِقَادِهِ أَنَّهُ مُتَكَفِّلٌ بِمَسَائِلِ العَقَائِدِ، وَلَا سِيَّمَا مَسأَلَةُ التَّوحِيدِ؛ فَوَجَدَ فِيهِ الكَلَامَ فِي وَحدَانِيَّةِ وُجُوبِ الوُجُودِ مُعنوَنَةً بِوَحدَانِيَّةِ الأُلُوهِيَّةِ، وَوَجَدَ بَعضَهُم قَد صَرَّحَ بِأَنَّ مَعنَىٰ الإِلَهِ هُوَ مَعنَىٰ وَاجِبِ الوُجُودِ أَو نَحوِهِ، فَظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ مَعنَىٰ الإِلَهِ حَقِيقَةً.

فَإِن شَكَّكَهُ فِي ذَلِكَ قَولُ بَعضِهِم: إِنَّ مَعنَىٰ الإِلَهِ هُوَ المُستَحِقُّ لِلعِبَادَةِ، تَوَهَّمَ أَنَّ العَمَلَ لَا يَكُونُ عِبَادَةً إِلَّا مَعَ اعتِقَادِ أَنَّ المَعبُودَ وَاجِبُ الوُجُودِ أَو نَحوِ ذَلِكَ، وَإِلَّا لَمَا أَهمَلَ عُلَمَاءُ التَّوحِيدِ الكَلَامَ عَلَيهَا.

وَمِنَ العَجَائِبِ أَنَّكَ تَجِدُ فِي هَذَا العَصرِ كَثِيرًا مِن طَلَبَةِ العِلمِ -إِن لَم أَقُل مِنَ العُلَمَاءِ- يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ المُشرِكِينَ يَعتَقِدُونَ فِي الأَصنَامِ -مِن أَشجَارٍ وَأَحجَارٍ وَغَيرِهَا- أَنَّهَا وَاجِبَةُ الوُجُودِ، قَادِرَةٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ، خَالِقَةٌ رَازِقَةٌ مُدَبِّرَةٌ لِلعَالَمِ.

وَلَقَد كَلَّمتُ بَعضَهُم فِي شَأنِ الوَثَنِيِّينَ مِن أَهلِ الهِندِ وَقَولِهِم فِي الأَصنَامِ، فَقَالَ: إِذَا كَانَ هَذَا قَولَهُم فِي الأَصنَامِ فَلَيسُوا بِمُشرِكِينَ! وَحُجَّتُهُ أَنَّهُم لَم يُخَالِفُوا التَّوحِيدَ الَّذِي حَقَّقَهُ عُلَمَاءُ التَّوحِيدِ. وَهَكَذَا غَلَبَ الجَهلُ بِمَعنَىٰ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَالغَلَطُ فِيهِ وَفِي حَقِيقَةِ الشِّركِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ رُسُلَهُ لِإِبطَالِهِ؛ فَإِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ». «آثَارُ المُعَلِّمِيِّ» (٢/ ٣٤١-٣٤٢).

نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة:٥]؛ فَفِي «إِيَّاكَ نَعبُدُ» تَوحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ، وَفِي «إِيَّاكَ نَستَعِينُ» حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ، فَلَا تَصِحُّ العِبَادَةُ إِلَّا بِالتَّوَكُّلِ، وَلَا يَصِحُّ التَّوَكُّلُ إِلَّا بِأَن يَكُونَ عِبَادَةً لِلَّهِ وَحدَهُ؛ فَهُمَا مُتَلَازِمَانِ لَا يَنفَكُّ أَحَدُهُمَا عَنِ الآخَرِ، وَبِهذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ مَدَارَ الدِّينِ عَلَيهِمَا.

وَلِذلِكَ لَم تَكُن هذِهِ العِبَادَةُ تُؤَدَّىٰ عَلَىٰ وَجهِهَا الكَامِلِ إِلَّا مِنَ المُحَقِّقِينَ فِي الإِيمَانِ.

كَمَا أَنَّ بَينَ التَّوَكُّلِ وَالإِيمَانِ بِالقَدَرِ ارتِبَاطًا وَثِيقًا؛ فَكِلَاهُمَا نِظَامُ التَّوحِيدِ وَجِمَاعُ الأَمرِ، فَمَن حَسُنَ تَوَكُّلُهُ زَادَ إِيمَانُهُ بِالقَدَرِ، وَالعَكسُ بِالعَكسِ.

فَقَد جَمَعَ اللهُ بَينَهُمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [سورة الطلاق:٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة التوبة:٥١]

تَعرِيفُ التَّوَكُّلِ:

التَّوَكُّلُ: اعتِمَادٌ عَلَىٰ اللهِ، وَثِقَةٌ بِهِ، وَإِظهَارُ العَبدِ عَجزَهُ لِلَّهِ، وَالاعتِمَادُ عَلَيهِ.

٢٨٥ - **قَالَ مُسلِمُ بنُ يَسَارٍ** - رَحِمَهُ اللهُ -: «اِعمَل عَمَلَ رَجُلٍ لَا يُنجِيهِ إِلَّا عَمَلُهُ، وَتَوَكَّل تَوَكُّلَ رَجُلٍ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لَهُ».(١)

٢٨٦ - **وَسُئِلَ الحَسَنُ** - رَحِمَهُ اللهُ - **عَنِ التَّوَكُّلِ فَقَالَ**: «الرِّضَا عَنِ اللهِ».(٢)

---

(١) الحِليَة ١/ ٣٩٤.

(٢) موسُوعَةُ ابنِ أَبِي الدُّنيَا ١/ ١٤٤.

٢٨٧ - **وَقَالَ الحَسَنُ:** «تَوَكُّلُ العَبدِ عَلَىٰ رَبِّهِ: أَن يَعلَمَ أَنَّ اللهَ هُوَ ثِقَتُهُ».(١)

وَقِيلَ لَهُ: مَا التَّوَكُّلُ؟

قَالَ: «أَن لَا يَكُونَ شَيءٌ أَوثَقَ فِي قَلبِ العَبدِ مِن رَبِّهِ».(٢)

وَسُئِلَ عَبدُ اللهِ بنُ دَاوُدَ - رَحِمَهُ اللهُ - عَنِ التَّوَكُّلِ؟

فَقَالَ: «أَرَىٰ التَّوَكُّلَ حُسنَ الظَّنِّ».(٣)

٢٨٨ - **وَقَالَ القَاضِي أَبُو يَعلَىٰ فِي «التَّوَكُّل» (١/ ٨٣):** سُئِلَ أَحمَدُ بنُ حَنبَلٍ - رَحِمَهُ اللهُ - عَنِ التَّوَكُّلِ؟ فَقَالَ: «هُوَ قَطعُ الاستِشرَافِ بِالإِيَاسِ مِنَ الخَلقِ».

وَاستَدَلَّ بِقِصَّةِ إِبرَاهِيمَ - عَلَيهِ السَّلَامُ - لَمَّا عُرِضَ عَلَيهِ جِبرِيلُ فَقَالَ: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قَالَ: «أَمَّا إِلَيكَ فَلَا».(٤)

٢٨٩ - **وَقَالَ أَبُو بكرٍ ابنُ الأنباريِّ فِي «الزاهر فِي معاني كلمات الناس» (١/ ٤):** مَعنَىٰ قَولُهُم «حَسبُنا الله» أَي كافِينا الله، ومن ذَلِكَ قولُه - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة الأنفال:٦٤] أَي يَا أيها النبيُّ كافِيكَ اللهُ ومَنِ اتّبعكَ من المؤمنين، وَمِنهُ قولُ الشاعر «إِذَا كانتِ الهيجاءُ وانشقّتِ العصا ... فحَسبُكَ

---

(١) جَامِعُ العُلُومِ وَالحِكَم ص ٤٠٩.

(٢) الفُنُون لِابنِ عَقِيل ١/ ٤٠.

(٣) مَوسُوعَةُ ابنِ أَبِي الدُّنيَا ١/ ١٥١.

(٤) «**قَالَ أَبُو بَكرٍ وَبَلَغَنِي، عَن بَعضِ الحُكَمَاءِ، قَالَ:** " التَّوَكُّلُ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ: أُولَاهَا تَركُ الشِّكَايَةِ، وَالثَّانِيَةُ الرِّضَا، وَالثَّالِثَةُ المَحَبَّةُ، فَتَركُ الشِّكَايَةِ دَرَجَةُ الصَّبرِ، وَالرِّضَا سُكُونُ القَلبِ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَهُ، وَهِيَ أَرفَعُ مِنَ الأُولَىٰ، وَالمَحَبَّةُ أَن يَكُونَ حُبُّهُ لِمَا يَصنَعُ اللهُ بِهِ، فَالأُولَىٰ لِلزَّاهِدِينَ، وَالثَّانِيَةُ لِلصَّادِقِينَ، وَالثَّالِثَةُ لِلمُرسَلِينَ"»

والضحّاكَ سيفٌ مُهنَّدُ» أي يكفيك ويكفي الضحّاك، وَمِنهُ قولُ امرئِ القيس «فتملأُ بيتَنا أَقِطًا وسَمنًا ... وحَسبُكَ من غِنًىٰ شِبَعٌ ورِيُّ» أَي يكفيكَ الشِّبَعُ والرِّيُّ، وَمِنهُ قولُه -وَجَلَّ- ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [سورة النبأ:٣٦] معناه عطاءً كافيًا، يقال أَحسَبَني الطعامُ يُحسِبُني إحسابًا إِذَا كفاني، قَالَ الشاعر «وَإِذ لَا تَرَىٰ فِي الناسِ حُسنًا يفوقُها ... وفيهنَّ حُسنٌ لَو تأمّلتَ مُحسِبُ».(١)

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٠/ ٢٠٣):

«قَالَ ابن الأَنبَارِي: وقيلَ: الوكِيلُ: الحافِظُ، وقيلَ: الوَكيلُ: الكَفيلُ، فَنِعمَ الكفيلُ اللهُ بأرزَاقِنا.

وَقَالَ أَبُو إِسحاقَ: الوكيلُ فِي صِفةِ الله جلّ وعزّ: الَّذِي توكَّل بالقِيَامِ بِجَمِيعِ مَا خَلَق.

وَقَالَ اللحياني: رجُلٌ وَكَلٌ إِذا كانَ ضَعيفـًا ليس بنَافِذٍ.

وَيُقَال: رَجُلٌ مُوَاكِلٌ أَي لَا تَجِدُهُ خفيفـًا، بِغَير هَمزٍ.

وَيُقَال: فِيهِ وَكَالٌ أَي بُطءٌ وبَلادَةٌ.

وَيُقَال: قدِ اتَّكلَ فُلانٌ عَلَيك، وأَوكَل عليك فلانٌ بمعنًىٰ واحدٍ.

ويقالُ: قَد أوكلتَ عَلَىٰ أخِيكَ العَمَلَ: خلَّيتَه كلَّهُ عَلَيهِ.

ورجُلٌ وُكَلَةٌ إِذا كَانَ يَكِلُ أمرَه إِلَىٰ النّاسِ.

ورجُلٌ تُكَلَة إِذا كانَ يَتَّكِلُ عَلَىٰ غيرِه.

وَقَالَ غيره: المتوَكِّلُ عَلَىٰ الله: الَّذِي يعلمُ أَن الله كافِلُ رزقِهِ وأَمرِه فاطمَأَنَّ قلبُه عَلَىٰ ذَلِك، وَلم يَتوَكل عَلَىٰ غيره.

وغُرفةُ موكَل: موضعٌ باليَمَنِ ذَكَرَه لبيد فَقَالَ:

وغَلَبنَ أَبرَهَةَ الَّذِي أَلفَينَهُ

قَد كَانَ خُلِّدَ فوق غُرفَةِ مَوكَلِ

وجاءَ موكَلٌ عَلَىٰ مَفعَلٍ نَادِراً فِي بابِه، والقِياسُ: مَوكِلٌ.

(أَبُو عبيد): وَاكَلَتِ الدَّابَّةُ وِكالاً إِذا أساءَت السَّيرَ.

٢٩٠ - **وَقَالَ ابنُ رَجَبٍ:** «هُوَ صِدقُ اعتِمَادِ القَلبِ عَلَىٰ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي استِجلَابِ المَصَالِحِ وَدَفعِ المَضَارِّ مِن أُمُورِ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ كُلِّهَا، وَتَفوِيضُ الأُمُورِ كُلِّهَا إِلَيهِ، وَتَحقِيقُ الإِيمَانِ بِأَنَّهُ لَا يُعطِي وَلَا يَمنَعُ وَلَا يَضُرُّ وَلَا يَنفَعُ سِوَاهُ».(1)

٢٩١ - **وَقَالَ أَيضًا:** «التَّوَكُّلُ قَطعُ الاستِشرَافِ بِالإِيَاسِ مِنَ المَخلُوقِينَ».

وَقِيلَ: «التَّوَكُّلُ عَمَلُ القَلبِ وَعُبُودِيَّتُهُ، اعتِمَادًا عَلَىٰ اللهِ، وَثِقَةً بِهِ، وَالتِجَاءً إِلَيهِ، وَتَفوِيضًا إِلَيهِ، وَرِضًا بِمَا يَقضِيهِ، مَعَ القِيَامِ بِالأَسبَابِ المَأمُورِ بِهَا».

٢٩٢ - **وَقَالَ الشَّيخُ عَبدُ اللهِ بنُ مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ الوَهَّابِ:** «هُوَ إِسنَادُ العَبدِ أَمرَهُ إِلَىٰ اللهِ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنيَوِيَّةِ».

وَهُوَ مُرَكَّبٌ مِن رُكنَينِ عَظِيمَينِ:

أولاً: اعتِمَادٌ قَلبِيٌّ صَادِقٌ.

ثانيًا: عَمَلٌ بِالأَسبَابِ المَشرُوعَةِ.

فَلَا يَكُونُ التَّوَكُّلُ شَرعِيًّا إِلَّا بِالجَمعِ بَينَهُمَا.

أَوَّلًا: اعتِمَادُ القَلبِ عَلَىٰ اللهِ:

فَالمُتَوَكِّلُ كَالطِّفلِ؛ فَالطِّفلُ لَا يَسكُنُ إِلَّا إِلَىٰ أُمِّهِ، فَكَذلِكَ المُؤمِنُ الصَّادِقُ لَا

قَالَ وَقَالَ أَبُو عَمرو: المُوَاكِلُ من الخَيلِ: الَّذِي يَتَّكِلُ عَلَىٰ صاحِبِهِ فِي العَدوِ.

وَكِيلُ الرَّجُلِ: الَّذِي يقومُ بأمره، سُمِّيَ وَكِيلاً، لأنَّ مُوَكِّلَه بِهِ قَد وَكَلَ إِلَيهِ القِيَامَ بأمره فَهُوَ مَوكُولٌ إِلَيهِ الأمرُ، والوَكِيلُ عَلَىٰ هَذَا المعنَىٰ: فَعِيلٌ بِمَعنَىٰ مَفعُولٍ.

ويُقالُ: اللَّهُمَّ لَا تكِلنَا إِلَىٰ أنفُسنَا طرفَةَ عينٍ.»

وانظر المفردات للراغب (٥٤٦)، والمدارج (٢/ ١٤٥)، (٢/ ١٤٩)، (٢/ ٣٤٩-٣٦٩).

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٩٧)

يَسكُنُ قَلبُهُ إِلَّا إِلَىٰ رَبِّهِ الرَّحمٰنِ -جَلَّ-.

٢٩٣- **قَالَ الفَيضُ بنُ إِسحَاقَ:** قُلتُ لِلفُضَيلِ -رَحِمَهُ اللهُ-: تَحُدُّ لِي التَّوَكُّلَ؟

قَالَ: آه، كَيفَ تَتَوَكَّلُ عَلَيهِ وَأَنتَ يَختَارُ لَكَ فَتَسخَطُ قَضَاءَهُ؟

أَرَأَيتَ لَو دَخَلتَ بَيتَكَ، فَوَجَدتَ امرَأَتَكَ قَد عَمِيَت، وَابنَتَكَ قَد أُقعِدَت، وَأَنتَ قَد أَصَابَكَ الفَالِجُ، كَيفَ كَانَ رِضَاكَ بِقَضَائِهِ؟

قُلتُ: كُنتُ أَخَافُ أَلَّا أَصبِرَ.

قَالَ: فَكَيفَ لَا، حَتَّىٰ يَكُونَ عِندَكَ وَاحِدًا، تَرضَىٰ بِكُلِّ مَا صَنَعَ فِي العَافِيَةِ وَالبَلَاءِ.(١)

٢٩٤- **وَقَالَ المَروَزِيُّ:** قِيلَ لِأَبِي عَبدِ اللهِ -رَحِمَهُ اللهُ-: أَيُّ شَيءٍ صِدقُ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ اللهِ؟

قَالَ: أَن يَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ، وَلَا يَكُونَ فِي قَلبِهِ أَحَدٌ مِنَ الآدَمِيِّينَ يَطمَعُ أَن يُجِيبَهُ بِشَيءٍ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ اللهُ يَرزُقُهُ، وَكَانَ مُتَوَكِّلًا.(٢)

وَقِيلَ: «فَالقَلبُ لَا يَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَىٰ مَن يَرجُوهُ؛ فَمَن رَجَا قُوَّتَهُ، أَو عَمَلَهُ، أَو عِلمَهُ، أَو حَالَهُ، أَو صَدِيقَهُ، أَو قَرَابَتَهُ، أَو شَيخَهُ، أَو مِلكَهُ، أَو مَالَهُ، غَيرَ نَاظِرٍ إِلَىٰ اللهِ؛ كَانَ فِيهِ نَوعُ تَوَكُّلٍ عَلَىٰ ذلِكَ السَّبَبِ، وَمَا رَجَا أَحَدٌ مَخلُوقًا أَو تَوَكَّلَ عَلَيهِ إِلَّا خَابَ ظَنُّهُ فِيهِ، فَإِنَّهُ مُشرِكٌ».

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ

(١) موسوعة ابن أبي الدُّنيا ١/ ١٤٢-١٤٣.

(٢) جامع العُلوم والحِكَم/ ٥٧٠.

﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [سورة الحج:٣١].(١)

ثَانِيًا: فِعلُ الأَسبَابِ:

لَا بُدَّ مِنَ الأَسبَابِ المَشرُوعَةِ الَّتِي أَذِنَ اللهُ بِهَا، أَمَّا الأَسبَابُ المُحَرَّمَةُ فَلَيسَت مِنَ التَّوَكُّلِ، بَل هِيَ مَعصِيَةٌ.

فَالتَّوَكُّلُ أَن تَعمَلَ بِالأَسبَابِ، ثُمَّ لَا تَعتَمِدَ عَلَيهَا، بَل تَصرِفَ اعتِمَادَكَ إِلَىٰ المُسَبِّبِ سُبحَانَهُ.

وَالنَّاسُ فِي التَّوَكُّلِ عَلَىٰ اللهِ طَرَفَانِ وَوَسَطٌ: فَطَرَفٌ لَا يَعتَمِدُ عَلَىٰ رَبِّهِ، بَل يَكُونُ اعتِمَادُهُ عَلَىٰ جُهدِهِ وَبَذلِهِ، أَو عَلَىٰ عَبدٍ مِن خَلقِهِ؛ فَفِي الرِّزقِ قَلبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَخلُوقِ، وَفِي الشِّفَاءِ قَلبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِالطَّبِيبِ وَالدَّوَاءِ، وَفِي الامتِحَانِ قَلبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِاجتِهَادِهِ وَبِمَا وُهِبَ مِنَ الذَّكَاءِ؛ وَمَا العَقلُ، وَمَا الدَّوَاءُ، وَمَا الطَّبِيبُ، وَمَا الخَلقُ، إِلَّا مِنَ اللهِ، فَمَن الَّذِي سَخَّرَ وَدَبَّرَ هؤُلَاءِ؟

وَبِضِدِّ هؤُلَاءِ قَومٌ ظَنُّوا أَنَّهُم مُتَوَكِّلُونَ، فَزَادُوا الكَيلَ فَصَارُوا مُتَوَاكِلِينَ؛ يَعتَمِدُ أَحَدُهُم عَلَىٰ اللهِ وَلَا يَفعَلُ الأَسبَابَ؛ فَقَد أَحسَنَ مِن جِهَةٍ إِذ عَلَّقَ قَلبَهُ بِاللهِ، وَأَسَاءَ مِن جِهَةٍ أُخرَىٰ؛ لِأَنَّ التَّوَكُّلَ لَا بُدَّ فِيهِ مِن فِعلِ الأَسبَابِ.

وَلَو كَانَ الأَمرُ كَذلِكَ، لَتَرَكَ النَّبِيُّ -ﷺ- فِعلَ الأَسبَابِ، فَمَا تَدَاوَىٰ، وَلَا تَزَوَّجَ، وَلَا بَاعَ، وَلَا اشتَرَىٰ، بَل وَلَا تَحَرَّكَ، وَلَا دَعَا، وَلَمَكَثَ فِي بَيتِهِ، تُسَاقُ إِلَيهِ الأُمُورُ؛ لِأَنَّهُ مُتَوَكِّلٌ عَلَىٰ اللهِ!

وَبَينَ هذَينِ الطَّرَفَينِ وَسَطٌ مَحمُودٌ، وَهُوَ: أَن يَعتَمِدَ العَبدُ عَلَىٰ رَبِّهِ بِقَلبِهِ، وَيَفعَلَ

---

(١) مَجمُوعُ الفَتَاوَىٰ ١٠/ ٢٥٧.

الأَسبَابَ بِجَوارِحِهِ، ولَا يركَنَ إِليهَا، بَل يَكُونَ رُكُونُهُ إِلَىٰ المُدبِّرِ وهُوَ اللهُ.

٢٩٥ - وَيُمَثِّلُ ذلِكَ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- أَنَّهُ قَالَ لِمَن جَاءَهُ وَمَعَهُ نَاقَتُهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَأَعقِلُهَا وَأَتوَكَّلُ، أَم أُطلِقُهَا وَأَتوَكَّلُ؟

قَالَ: «اعقِلهَا وَتوَكَّل».

ومِمَّا يُذكَرُ أَنَّ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- رَأَىٰ إِبِلًا جربَاءَ، فَسَأَلَهُم: مَاذَا تَصنَعُونَ لِعِلَاجِهَا؟

قَالُوا: عِندَنَا عَجُوزٌ صَالِحَةٌ نَذهَبُ إِلَيهَا فَتَدعُو لَهَا.

فَقَالَ: اجعَلُوا مَعَ دُعَاءِ العَجُوزِ شَيئًا مِنَ القِطرَانِ.

وَلَيسَ الدُّعَاءُ وَالطَّلَبُ مِنَ اللهِ قَادِحًا فِي التَّوَكُّلِ، بَل هُوَ مِن أَجَلِّ أَسبَابِهِ وَأَصدَقِ بَرَاهِينِهِ؛ فَإِنَّ سُؤَالَ العَبدِ رَبَّهُ عَينُ الافتِقَارِ إِلَيهِ وَالاعتِمَادِ عَلَيهِ، وَهذَا هُوَ لُبُّ التَّوَكُّلِ.

وَإِنَّمَا يَقدَحُ فِيهِ سُؤَالُ المَخلُوقِينَ وَالاستِشرَافُ إِلَىٰ مَا فِي أَيدِيهِم؛ فَالطَّلَبُ مِنَ اللهِ تَوَكُّلٌ وَتَوحِيدٌ، وَالطَّلَبُ مِنَ الخَلقِ ذُلٌّ وَانقِطَاعٌ.

وَلِذلِكَ كَانَ أَصدَقُ المُتَوَكِّلِينَ أَكثَرَهُم دُعَاءً وَتَضَرُّعًا وَإِلحَاحًا عَلَىٰ رَبِّهِم، وَهُم مَعَ ذلِكَ آخِذُونَ بِالأَسبَابِ المَشرُوعَةِ، لَا يَرَونَ سُؤَالَ اللهِ مُغنِيًا عَنِ السَّعيِ، وَلَا السَّعيَ مُغنِيًا عَن سُؤَالِهِ.

فَفِعلُ الأَسبَابِ مَأمُورٌ بِهِ شَرعًا، وَهُوَ جُزءٌ مِن حَقِيقَةِ التَّوَكُّلِ، إِلَّا أَنَّ السَّبَبَ لَا يُنتِجُ المَرَادَ بِذَاتِهِ، وَلَا يَستَقِلُّ بِالتَّأثِيرِ، بَل حُصُولُ المَرَادِ مُتَوَقِّفٌ عَلَىٰ اجتِمَاعِ أُمُورٍ: وُجُودِ السَّبَبِ، وَصَلَاحِيَّةِ المَحَلِّ، وَخُلُوِّهِ مِنَ المَانِعِ، وَفَوقَ ذلِكَ كُلِّهِ مَشِيئَةُ اللهِ وَإِذنُهُ.

فَالِالتِفَاتُ إِلَىٰ الأَسبَابِ وَالِاعتِمَادُ عَلَيهَا قَدحٌ فِي التَّوَكُّلِ وَالتَّوحِيدِ، وَنَفيُ الأَسبَابِ أَو تَركُهَا بِالكُلِّيَّةِ قَدحٌ فِي الشَّرعِ وَالعَقلِ، وَالحَقُّ هُوَ الجَمعُ بَينَ الأَمرَينِ.

وَالمَناطُ فِي هذَا القَدحِ إِنَّمَا هُوَ اعتِمَادُ القَلبِ عَلَىٰ السَّبَبِ، لَا مُبَاشَرَةُ الجوارح لَهُ؛ فَإِنَّ العَبدَ قَد تَعمَلُ يَدُهُ فِي السَّبَبِ وَقَلبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمُسَبِّبِ سُبحَانَهُ، فَهذَا هُوَ المُتَوَكِّلُ حَقًّا؛ وَقَد تَكُفُّ يَدُهُ عَنِ السَّبَبِ وَقَلبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِهِ، فَهذَا قَد جَمَعَ بَينَ تَركِ المَأمُورِ وَفَسَادِ المَحَلِّ.

فَالعِبرَةُ بِمَا قَامَ بِالقَلبِ مِنَ الاعتِمَادِ، لَا بِمَا قَامَ بِالجَوَارِحِ مِنَ الحَرَكَةِ؛ وَلِذلِكَ لَم يَقدَح فِي تَوَكُّلِ الأَنبِيَاءِ مُبَاشَرَتُهُمُ الأَسبَابَ، إِذ كَانَت قُلُوبُهُم مُعَلَّقَةً بِاللهِ وَحدَهُ دُونَ مَا عَالَجَتهُ أَيدِيهِم.

وَلِذلِكَ فَالتَّوَكُّلُ حَقِيقَتُهُ: عَمَلُ الجَوَارِحِ بِالأَسبَابِ، وَتَعَلُّقُ القَلبِ بِاللهِ وَحدَهُ، وَمَن فَوَّضَ أَمرَهُ إِلَىٰ غَيرِ اللهِ فَقَد صَرَفَ عِبَادَةً قَلبِيَّةً لِغَيرِ اللهِ، وَهذَا مِن حَقَائِقِ الشِّركِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ المُشرِكُونَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

ومَن قَصَدَ التَّوَكُّلَ بِلِحاظِ الكِفايةِ لَم يَفهَم حقيقةَ التَّوَكُّلِ؛ لأَنَّه جَعَلَ تحصيلَ الكِفايةِ الدُّنيويَّةَ باعثًا وغايةً للتَّوكُّلِ، فدَخَلَ فِي قَصدِ الدُّنيا بعملِ الآخرةِ، وناقَضَ مفهومَ التَّوكُّلِ.

٢٩٦ - **فعنِ ابنِ مسعودٍ** - رضي الله عنه - **أنَّه قَالَ:** «لَيسَ المُتَوَكِّلُ الَّذِي يَقُولُ: يَقضِي حَاجَتِي».

٢٩٧ - **وَقَالَ بِشرُ بنُ الحارِثِ:** «المُتَوَكِّلُ كُلُّهُ لَا يَتَوَكَّلُ عَلَىٰ اللهِ لِتَكفِيَهُ، لَو حَلَّت هذِهِ العِلَّةُ فِي قُلُوبِ المُتَوَكِّلَةِ لَضَجُّوا إِلَىٰ اللهِ بِالنَّدَمِ وَالتَّوبَةِ، ولكِنَّ المُتَوَكِّلَ تَحُلُّ بِقَلبِهِ الكِفَايَةُ مِنَ اللهِ - عز وجل -، فَيَصدُقُ اللهَ فِيمَا يَضمَنُ».

فَتَبَيَّنَ أَنَّ تحصيلَ الكِفايةِ مِن آثارِ ولوازمِ التَّوكُّلِ، وليسَ باعثًا وَلَا غايةً لَهُ

فباعثُه: معرفةُ العبدِ ربَّه، ويقينُه بِهِ؛ لِذَلِكَ ذَكَرَ ابنُ القيِّمِ أنَّ حقيقتَه «توحيدُ القلبِ»، وأنَّه يَجمَعُ أصلَينِ: علمَ القلبِ (يقينَه)، وعملَه (سكونَه وطمأنينتَه وتفويضَه)، لِذَا جاءَ عنِ السَّلَفِ تعريفُ التَّوكُّلِ باليقينِ والثِّقةِ باللهِ، وحُسنِ الظنِّ بِهِ، وَمَا يَنتُجُ عَن ذَلِكَ مِن تسليمٍ وطمأنينةٍ وتفويضٍ.

٢٩٨ - **ومِن ذَلِكَ قولُ ابنِ عبَّاسٍ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: «التَّوكُّلُ هُوَ: الثِّقَةُ باللهِ، وصِدقُ التَّوكُّلِ أَن تَثِقَ فِي اللهِ، وَفِيمَا عندَ اللهِ، فإنَّه أعظمُ وَأبقَىٰ مِمَّا لَدَيكَ فِي دُنياكَ».

٢٩٩ - **وَقَالَ الإمامُ أحمدُ:** «وجُملَةُ التَّوكُّلِ: تَفويضُ الأمرِ إِلَىٰ اللهِ جلَّ ثناؤُه، والثِّقةُ بِهِ».

وغايتُه: نَيلُ مَحبَّةِ اللهِ ورِضاه؛ كَمَا قَالَ تَعالَىٰ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران:١٥٩].

وَلِذَلِكَ كَانَ أعظمُ مَا يكونُ التَّوكُّلُ فِي الأمورِ الدِّينيَّةِ، وَقَد غَبِنَ مَن ظَنَّ أنَّه فِي الأمورِ الدُّنيويَّةِ فَقَط، بَل يَشمَلُ الدُّنيا والآخرةَ، وَهُوَ فِي أمورِ الدِّينِ أعظمُ.

٣٠٠ - **يقولُ ابنُ تيميَّةَ:** «فإنَّ التَّوكُّلَ أعظمُ مِنَ التَّوكُّلِ فِي مصالحِ الدُّنيا، فإنَّ المُتوكِّلَ يَتَوكَّلُ عَلَىٰ اللهِ فِي صلاحِ قلبِه ودِينِه، وحِفظِ لسانِه وإرادتِه، وَهَذَا أهمُّ الأمورِ إِلَيهِ، وَلِهَذَا يُناجي ربَّه فِي كلِّ صلاةٍ بقولِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة:٥]، كَمَا فِي قولِه تعالَىٰ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ﴾ [سورة هود:١٢٣]».

وَقَالَ: «فالَّذي ظَنَّ أنَّ التَّوكُّلَ مِنَ المقاماتِ العامَّاتِ ظنَّ أنَّ التَّوكُّلَ لَا يُطلَبُ بِهِ إلَّا حُظوظُ الدُّنيا، وَهُوَ غَلَطٌ، بَل التَّوكُّلُ فِي الأمورِ الدِّينيَّةِ أعظمُ».

وَمِن ثَمَرَاتِ التَّوَكُّلِ:

مَن حقَّقَ التَّوكُّلَ حقًّا فليُبشِر؛ قالَ تعالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [سورة الطلاق:٣].

حَسبُهُ: أَي كَافِيهِ، يَتولَّىٰ أَمرَهُ، ويَحفظُهُ، وَيكفِيهِ الشُّرُورَ.

وَيقُولُ تعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة الأنفال:٤٩].

فَإِذَا توكَّلتَ علَىٰ العَزِيزِ الحكِيمِ، نَالَكَ مِنَ العِزَّةِ مَا كَتبَ اللهُ لَكَ، وَوَصلَكَ الخيرُ مِن أَحسَنِ الطُّرُقِ وَفِي أَفضَلِ الأَوقَاتِ.

٣٠١ - **قَالَ الحَسَنُ** -رَحِمَهُ اللهُ-: إِنَّ العِزَّ وَالغِنَىٰ يَجُولَانِ فِي طَلَبِ التَّوكُّلِ، فَإِذَا ظَفِرَا أَوطَنَا،

وَأَنشَدَ:

يَجُولُ الغِنَىٰ وَالعِزُّ فِي كُلِّ ... لِيَستَوطِنَا قَلبَ امرِئٍ إِن تَوكَّلَا
وَمَن يَتَوكَّلْ كَانَ مَولَاهُ حَسبَهُ ... وَكَانَ لَهُ فِيمَا يُحَاوِلُ مَعقِلَا
إِذَا رَضِيَت نَفسِي بِمَقدُورِ ... تَعَالَت وَكَانَت أَفضَلَ النَّاسِ(١)

وَفِي جَعلِ الجَزَاءِ نَفسَ الكِفَايَةِ - دُونَ تقدِيرٍ بِكَذَا وَكَذَا - سِرٌّ لَطِيفٌ: أَنَّ المُتوكِّلَ فَوَّضَ أَمرَهُ كُلَّهُ إِلَىٰ رَبِّهِ بِلَا حَدٍّ، فَكَانَ جَزَاؤُهُ كِفَايَةً بِلَا حَدٍّ، جَزَاءً وِفَاقًا؛ إِذ مَن أَسلَمَ نَفسَهُ كُلَّهَا تَوَلَّاهُ اللهُ كُلَّهُ، وَلِذلِكَ كَانَت كِفَايَةُ المُتَوكِّلِ أَوسَعَ مِن كُلِّ أَجرٍ مَحدُودٍ؛ لِأَنَّ مَن كَانَ اللهُ حَسبَهُ فَقَد كَفَاهُ مَا أَهَمَّهُ مِن أَمرِ دِينِهِ وَدُنيَاهُ، وَمَن طَلَبَ مَعَ اللهِ غَيرَهُ وُكِلَ إِلَىٰ مَن طَلَبَ، فَخَابَ وَخَسِرَ.

وَمِن أَجَلِّ ثَمَرَاتِهِ: أَنَّهُ يُورِثُ العَبدَ عِزًّا وَغِنًى عَنِ الخَلقِ؛ فَإِنَّ مَن عَلِمَ أَنَّ النَّفعَ

---

(١) موسوعة ابن أَبِي الدنيا ١/ ١٤٢، الحلية ٢/ ٣٤٨.

وَالضَّرَّ وَالعطَاءَ وَالمَنعَ بِيَدِ اللهِ وَحدَهُ، انقطَعَ رَجاؤُهُ مِمَّا فِي أَيدِي النَّاسِ، فَاستَغنَىٰ بِرَبِّهِ عَنهُم، وَعَزَّ عَلَيهِم، وَمَن عَلَّقَ قَلبَهُ بِالمَخلُوقِينَ ذَلَّ لَهُم وَافتَقَرَ إِلَيهِم، وَكَانَ أَسِيرًا فِي أَيدِيهِم؛ إِذِ القُلُوبُ مَجبُولَةٌ عَلَىٰ الذُّلِّ لِمَن تَرجُوهُ وَتَخَافُهُ.

فَالتَّوَكُّلُ يُحَرِّرُ القَلبَ مِن رِقِّ الأَسبَابِ وَعُبُودِيَّةِ الخَلقِ، وَيَرُدُّهُ إِلَىٰ عُبُودِيَّةِ رَبِّهِ وَحدَهُ، وَهَذَا غَايَةُ العِزِّ وَكَمَالُ الحُرِّيَّةِ.

مسألة: العِلَلُ وَالأَخطَاءُ فِي التَّوَكُّلِ:

○ التَّوَكُّلُ الشِّركِيُّ:

وَهُوَ أَعظَمُ الأَخطَاءِ وَأَشنَعُهَا، وَهُوَ أَن يَعتَمِدَ الإِنسَانُ عَلَىٰ غَيرِ اللهِ فِيمَا لَا يَقدِرُ عَلَيهِ إِلَّا اللهُ.

وهذَا شِركٌ أَكبَرُ، كَمَا يَقَعُ مِن كَثِيرٍ مِن عُبَّادِ القُبُورِ الَّذِينَ يَتَوَجَّهُونَ فِي حَاجَاتِهِم إِلَىٰ الأَموَاتِ وَالصَّالِحِينَ.

وَيَقُولُ أَحَدُهُم:

إِن نَابَ أَمرٌ فِي البِلَادِ نَزِيلُ ... قُل يَا وَلِيَّ اللهِ إِسمَاعِيلُ

وَلَم يَقُل: قُل يَا اللهُ.

وهذَا استِبدَالٌ لِحَقِّ اللهِ بِحَقِّ غَيرِهِ!

وَاللهُ يَقُولُ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [سورة النمل:٦٢].

وَيَقُولُ سُبحَانَهُ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة الأنعام:١٧].

فَمَن اعتَقَدَ أَنَّ غَيرَ اللهِ يَملِكُ كَشفَ الضُّرِّ فَقَد كَذَّبَ رَبَّهُ، وَوَقَعَ فِي الشِّركِ الأَكبَرِ.

وَأَخبَرَ اللهُ أَنَّ مَن مَاتَ عَلَىٰ الشِّركِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [سورة النساء:٤٨].

وَلَا حُجَّةَ لَهُم فِي أَنَّ القُرآنَ أَضَافَ التَّوكُّلَ إِلَىٰ العِبَادِ فِي مِثلِ قَولِهِ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [سورة التوبة:٥١]؛ فَإِنَّ هٰذَا توكِيدٌ لِلحَصرِ لَا فتحٌ لِلشَّرِكَةِ، إِذ قَدَّمَ المَعمُولَ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ عَلَىٰ عَامِلِهِ، وَتَقدِيمُ المَعمُولِ يُفِيدُ الاختِصَاصَ فِي لِسَانِ العَرَبِ؛ فَالمَعنَىٰ: عَلَىٰ اللهِ وَحدَهُ فَليَتَوكَّلُوا لَا عَلَىٰ سِوَاهُ.

فَجَاءَتِ الآيَةُ نَفسُهَا حُجَّةً عَلَيهِم لَا لَهُم، وهكَذَا كُلُّ مَوضِعٍ أُضِيفَ فِيهِ التَّوكُّلُ إِلَىٰ اللهِ فِي التَّنزِيلِ، إِنَّمَا سِيقَ لِقَصرِهِ عَلَيهِ وَقَطعِ تَعَلُّقِ القَلبِ بِمَا سِوَاهُ.

وَأَصلُ هذَا الشِّركِ تَعلِيقُ القَلبِ بِمَا لَا يَملِكُ نَفعًا وَلَا ضَرًّا؛ فَإِنَّ المُشرِكِينَ لَم يَعتَقِدُوا فِي آلِهَتِهِم أَنَّهَا تَخلُقُ وَتَرزُقُ، بَل أَقَرُّوا أَنَّ اللهَ وَحدَهُ الخَالِقُ الرَّازِقُ، كَمَا حَكَىٰ سُبحَانَهُ عَنهُم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [سورة الزخرف:٨٧]؛ وَإِنَّمَا عَلَّقُوا قُلُوبَهُم بِهَا رَجَاءً وَتَوكُّلًا وَطَلَبًا لِلشَّفَاعَةِ.

فَكَانَ مَنَاطُ شِركِهِم صَرفَ التَعَلُّقِ إِلَىٰ غَيرِ اللهِ، لَا إِنكَارَ رُبُوبِيَّتِهِ؛ وهذَا هُوَ بِعَينِهِ مَا وَقَعَ فِيهِ عُبَّادُ القُبُورِ، فَإِنَّهُم يُقِرُّونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الخَالِقُ، ثُمَّ يُعَلِّقُونَ قُلُوبَهُم بِالأَمواتِ تَوكُّلًا وَرَجَاءً؛ فَجَمَعُوا شِركَ الأَوَّلِينَ وَزَادُوا عَلَيهِ.

وَكَمَا أَنَّ هؤُلَاءِ المَدعُوِّينَ مِن دُونِ اللهِ لَا يَملِكُونَ كَشفَ الضُّرِّ فِي الدُّنيَا، فَإِنَّهُم يَتبَرَّؤُونَ مِن عَابِدِيهِم يَومَ القِيَامَةِ أَحوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيهِم؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢﴾ [سورة القصص:٦٢].

وَكَمَا أَنَّ هؤُلَاءِ المَدعُوِّينَ مِن دُونِ اللهِ لَا يَملِكُونَ كَشفَ الضُّرِّ فِي الدُّنيَا، فَإِنَّهُم يَتبَرَّؤُونَ مِن عَابِدِيهِم يَومَ القِيَامَةِ أَحوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيهِم؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢﴾.

٣٠٢ - **قَالَ ابنُ جَرِيرِ الطَّبَرِيُّ فِي «تَفسِيرِهِ» (١٢/ ٤١٥ ط التربية والتراث)** «(قَالُوا أَينَ مَا كُنتُم تَدعُونَ مِن دُونَ اللهِ)، يَقُولُ: قَالَتِ الرُّسُلُ: أَينَ الَّذِينَ كُنتُم تَدعُونَهُم أَولِيَاءَ مِن دُونَ اللهِ وتعبدونهم، لَا يَدفَعُونَ عَنكُم مَا قَد جَاءَكُم مِن أَمرِ اللهِ الَّذِي هُوَ خَالِقُكُم وَخَالِقُهُم، وَمَا قَد نَزَلَ بِسَاحَتِكُم مِن عَظِيمِ الْبَلَاءِ؟ **وَهَلَّا يُغِيثُونَكُم مِن كَربِ مَا أَنتُم فِيهِ فَيُنقِذُونَكُم مِنهُ؟** فَأَجَابَهُم الْأَشقِيَاءُ فَقَالُوا: ضَلَّ عَنَّا أَولِيَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدعُو مِن دُونَ اللهِ، يَعنِي بِقَولِهِ: (ضَلُّوا)، جَارُوا وَأَخَذُوا غَير طَرِيقِنَا، وَتَرَكُونَا عِندَ حَاجَتِنَا إِلَيهِم فَلَم يَنفَعُونَا، يَقُولُ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَشَهِدَ الْقَومُ حِينَئِذٍ عَلَىٰ أَنفُسِهِم أَنَّهُم كَانُوا كَافِرِينَ بِاللهِ، جَاحِدِينَ وَحدَانِيَّتَهُ.»

○ الظَّنُّ بِأَنَّ التَّوَكُّلَ مَقَامُ العَامَّةِ:

وهذَا خطَأٌ؛ فَالتَّوَكُّلُ مِن أَجَلِّ مَقَامَاتِ الإِيمَانِ، وَهُوَ مِن أَعمَالِ الأَنبِيَاءِ وَالمُرسَلِينَ.

○ الِالتِفَاتُ إِلَىٰ الأَسبَابِ:

وَهُوَ أَن يَعتَمِدَ القَلبُ عَلَىٰ السَّبَبِ، وَيُعَلِّقَ عَلَيهِ حُصُولَ المَقصُودِ.

وهذَا مُحَرَّمٌ، وَقَد يَكُونُ مِنَ الشِّركِ الأَصغَرِ، وَقَد يُفضِي إِلَىٰ الأَكبَرِ.

○ تَركُ الأَسبَابِ بِالكُلِّيَّةِ:

يَقُولُ بَعضُهُم: أَنَا مُتَوَكِّلٌ عَلَىٰ اللهِ، ثُمَّ لَا يَعمَلُ شَيئًا؛ فَهذَا خطَأٌ بَيِّنٌ؛ إِذ تَركُ الأَسبَابِ لَيسَ تَوَكُّلًا، بَل تَوَاكُلٌ وَتَوَهُّمٌ.

إِذًا: تَركُ الأَسبَابِ قَادِحٌ فِي التَّوَكُّلِ.

فَالنَّبِيُّ -ﷺ- -وَهُوَ سَيِّدُ المُتَوَكِّلِينَ- كَانَ يَلبَسُ الدِّرعَينِ، وَيَحفَظُ قُوتَ سَنَةٍ

لِأَهلِهِ، وَاستَأجَرَ دَلِيلًا مُشرِكًا عَلَىٰ دِينِ قَومِهِ لِيَدُلَّهُ عَلَىٰ الطَّرِيقِ يَومَ الهِجرَةِ، وَكَانَ إِذَا سَافَرَ فِي جِهَادٍ أَو حَجٍّ أَو عُمرَةٍ حَمَلَ الزَّادَ وَالمِزَادَ، وَحَمَلَ أَصحَابُهُ مَعَهُ، فَكَانُوا يَأخُذُونَ بِالأَسبَابِ كُلِّهَا.[(١)]

٣٠٣- **وَقَالَ** -ﷺ-: «وَاستَعِن بِاللهِ وَلَا تَعجِز».

بَل حَتَّىٰ الَّذِي يُسَافِرُ بِلَا زَادٍ بِحُجَّةِ التَّوَكُّلِ إِنَّمَا يَتَنَاقَضُ؛ فَإِنَّهُ مَعَ ذلِكَ يَحمِلُ المَاءَ وَالخَيطَ وَالإِبرَةَ!

وَكَالهُرُوبِ مِنَ الزِّلزَالِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ، بَل هُوَ مِن فِعلِ الأَسبَابِ.

٣٠٤- **قَالَ ابنُ رَجَبٍ:** «وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالزِّلزِلَةِ: هَل يَجُوزُ الخُرُوجُ مِنهَا وَالهَرَبُ إِلَىٰ الصَّحرَاءِ؟

٣٠٥- **قَالَ الأَوزَاعِيُّ:** لَا بَأسَ بِهِ؛ كُلٌّ يَعلَمُ أَنَّهُ لَيسَ يَسبِقُ قَدَرَ اللهِ، مَن فَرَّ وَمَن جَلَسَ، قَالَ: وَالجُلُوسُ أَحَبُّ إِلَيَّ!».

خَرَّجَهُ حَربٌ، مِن رِوَايَةِ الوَلِيدِ بنِ مُسلِمٍ، عَنهُ.

٣٠٦- **قَالَ حَربٌ:** وَسَأَلتُ إِسحَاقَ بنَ رَاهَوَيهِ، عَنِ الرَّجُلِ يَكُونُ فِي بَيتِهِ فَتُصِيبُهُ الزِّلزِلَةُ: هَل يَقُومُ فَيَخرُجُ مِنَ البَيتِ؟ قَالَ: إِن فَعَلَ فَهُوَ أَحسَنُ.

وَقَد صَنَّفَ فِي هذِهِ المَسأَلَةِ أَبُو القَاسِمِ ابنُ عَسَاكِرَ الحَافِظُ الدِّمَشقِيُّ مُصَنَّفًا...» إِلَىٰ آخِرِ كَلَامِهِ.[(٢)]

---

(١) انظر: بَعضَ أَخبَارِهِم فِي الِاكتِسَابِ وَاتِّخَاذِ الأَسبَابِ: تَلبِيسُ إِبلِيسَ (٢٨٢)، مَدَارِجُ السَّالِكِينَ (٢/ ١٣٤-١٣٥دَارِ الفِكرِ).

(٢) «الفَتحُ لِابنِ رَجَبٍ» (٩/ ٢٥٢).

وَأَجمَعَ السَّلَفُ أَنَّ التَّوَكُّل لَا يُنَافِي القِيَامَ بِالأَسبَابِ.

٣٠٧- **رُوِيَ عَن مُعَاوِيَةَ بنِ قُرَّةَ:** أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- لَقِيَ نَاسًا مِن أَهلِ اليَمَنِ، فَقَالَ: مَن أَنتُم؟ قَالُوا: نَحنُ المُتَوَكِّلُونَ، فَقَالَ: بَل أَنتُمُ المُتَّكِلُونَ، إِنَّمَا المُتَوَكِّلُ الَّذِي يُلقِي حَبَّةً فِي الأَرضِ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَىٰ اللهِ.(١)

٣٠٨- **وَسَأَلَ رَجُلٌ الحَسَنَ فَقَالَ:** يَا أَبَا سَعِيدٍ، أَفتَحُ مُصحَفِي فَأَقرَؤُهُ حَتَّىٰ أُمسِي؟ قَالَ الحَسَنُ: «اقرَأهُ بِالغَدَاةِ وَاقرَأهُ بِالعَشِيِّ، وَكُن سَائِرَ نَهَارِكَ فِي صَنعَتِكَ وَمَا يُصلِحُكُم».(٢)

٣٠٩- **لِذلِكَ قَالَ النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: «اليَدُ العُليَا خَيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفلَىٰ...» وَفِي لَفظٍ: «وَمَن يَستَغنِ يُغنِهِ اللهُ».(٣)

٣١٠- **وَرَوَىٰ أَحمَدُ (١٠٩٨٩) عَن أَبِي سَعِيدٍ:** أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَنصَارِ كَانَت بِهِ حَاجَةٌ، فَقَالَ لَهُ أَهلُهُ: ائتِ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فَاسأَلهُ.

فَأَتَاهُ وَهُوَ يَخطُبُ وَهُوَ يَقُولُ: «مَنِ استَعفَفَ أَعَفَّهُ اللهُ، وَمَنِ استَغنَىٰ أَغنَاهُ اللهُ، وَمَن سَأَلَنَا فَوَجَدنَا لَهُ أَعطَينَاهُ».

قَالَ: فَذَهَبَ وَلَم يَسأَل.

وَقَد أَخبَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ عَن مَريَمَ عَلَيهَا السَّلَامُ: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [سورة مريم:٢٥].

---

(١) مَوسُوعَةُ ابنِ أَبِي الدُّنيَا (١/ ١٤٠).

(٢) شُعَبُ الإِيمَانِ (١٢٥٩) (٢/ ٩٤).

(٣) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (١٤٢٧) وَمُسلِمٌ (٩٤).

وَهذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ -وَجَلَّ- يَأمُرُ بِاتِّخَاذِ الأَسبَابِ، كَمَا دَلَّ عَلَىٰ ذلِكَ قَولُهُ ﴿وَهُزِّيٓ﴾ [سورة مريم:٢٥].

وَفِي ذلِكَ يَقُولُ بَعضُهُم:

أَلَم تَرَ أَنَّ اللهَ قَالَ لِمَريَمَ ... فَهُزِّي إِلَيكِ الجِذعَ يُسَّاقِطُ
وَلَو شَاءَ أَن تَجنِيهِ مِن غَيرِ هَزِّهَا ... جَنَتهُ وَلكِن كُلُّ شَيءٍ لَهُ سَبَبُ

٣١١- **وَقَالَ الكَرَجِيُّ فِي تَفسِيرِ قَولِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ [سورة الأنبياء:٨٠]: «دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الِاحتِرَازَاتِ لَيسَت تَنقُصُ فِي التَّوَكُّلِ... لَمَّا كَانَ ذلِكَ كَذلِكَ؛ فَالمَكَاسِبُ كُلُّهَا، وَإِعدَادُ الأَقوَاتِ غَيرُ مُؤَثِّرٍ فِي الثِّقَةِ بِالخَالِقِ، وَلَا مَعدُودٌ فِي عِدَادِ خَوفِ فَوتِ الرِّزقِ»[1].

٣١٢- **وَرَوَىٰ الخَلَّالُ فِي «الحَثِّ عَلَىٰ التِّجَارَةِ» (١٥) عَن أَشعَثَ بنِ شُعبَةَ قَالَ:** قُلتُ لِإِبرَاهِيمَ بنِ أَدهَمَ: أُكرِي نَفسِي فِي السُّوقِ وَتَفُوتُنِي الصَّلَاةُ فِي الجَمَاعَةِ؟

قَالَ: «أَكرِ نَفسَكَ إِلَىٰ حِينٍ، وَاستَغنِ عَنِ النَّاسِ، وَصَلِّ الصَّلَوَاتِ لِلوَقتِ».

٣١٣- **وَرَوَىٰ الخَلَّالُ (٢١) عَن أَبِي الفَتحِ قَالَ:** «عَابَ سُفيَانُ عَلَىٰ هؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَرَونَ العَمَلَ».

وَقَالَ: «وَرَأَىٰ أَبُو بَكرٍ -يَعنِي الصِّدِّيقَ- شَابًّا يَسأَلُ، فَوَاجَرَهُ نَفسَهُ».

٣١٤- **وَرَوَىٰ الخَلَّالُ (٢٢) عَن مُحَمَّدِ بنِ ثَورٍ قَالَ:** كَانَ سُفيَانُ الثَّورِيُّ يَمُرُّ بِنَا وَنَحنُ جُلُوسٌ فِي المَسجِدِ الحَرَامِ، فَيَقُولُ: «مَا يُجلِسُكُم؟»

فَنَقُولُ: فَمَا نَصنَعُ؟

---

(١) النُّكتُ (٢/ ٣١١).

فَيَقُولُ: «اطلُبُوا مِن فَضلِ اللهِ، وَلَا تَكُونُوا عِيَالًا عَلَىٰ المُسلِمِينَ».

٣١٥- **وَرَوَىٰ الخَلَّالُ (٢٧) عَن بَقِيَّةَ قَالَ:** كَانَ إِبرَاهِيمُ بنُ أَدهَمَ إِذَا قِيلَ لَهُ: كَيفَ أَنتَ؟

قَالَ: «بِخَيرٍ مَا لَم يَتَحَمَّل مُؤنَتِي غَيرِي».

٣١٦- **وَرَوَىٰ الخَلَّالُ (٢٩) عَنِ الفَيضِ بنِ إِسحَاقَ قَالَ:** سَأَلتُ الفُضَيلَ بنَ عِيَاضٍ، قُلتُ: أَرَأَيتَ رَجُلًا قَعَدَ فِي بَيتِهِ يَزعُمُ أَنَّهُ يَثِقُ بِاللهِ فَيَأتِيهِ بِرِزقِهِ؟

قَالَ: «يَعنِي: إِذَا وَثِقَ بِهِ حَتَّىٰ يَعلَمَ أَنَّهُ قَد وَثِقَ بِهِ، لَم يَمنَعهُ شَيءٌ أَرَادَهُ.

ولكِن لَم يَفعَل هذَا الأَنبِيَاءُ وَلَا غَيرُهُم، وَقَد كَانَتِ الأَنبِيَاءُ تُؤَاجِرُ أَنفُسَهَا، وَكَانَ النَّبِيُّ -ﷺ- آجَرَ نَفسَهُ، وَأَبُو بَكرٍ وَعُمَرُ، وَلَم يَقُولُوا: نَقعُدُ حَتَّىٰ يَرزُقَنَا اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-.

وَقَد قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الجمعة:١٠]، فَلَا بُدَّ مِن طَلَبِ المَعِيشَةِ».

٣١٧- **وَقَالَ أَيُّوبُ السَّختِيَانِيُّ:** «الزَمِ السُّوقَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَزَالُ كَرِيمًا عَلَىٰ أَصحَابِكَ مَا لَم تَحتَج إِلَيهِم».(١)

٣١٨- **وَفِي رِوَايَةٍ:** «الزَم سُوقَكَ؛ فَإِنَّ فِيهِ غِنًىٰ عَنِ النَّاسِ وَصَلَاحًا فِي الدِّينِ».(٢)

٣١٩- **وَرَوَىٰ الخَلَّالُ فِي «الحَثِّ عَلَىٰ التِّجَارَةِ» (٣٧) عَن أَبِي وَائِلٍ قَالَ:** «دِرهَمٌ مِن تِجَارَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن عَشَرَةٍ مِن عَطَاءٍ».

٣٢٠- **وَسُئِلَ الإِمَامُ أَحمَدُ** -رَحِمَهُ اللهُ-: أَيَخرُجُ إِلَىٰ مَكَّةَ مُتَوَكِّلًا لَا يَحمِلُ مَعَهُ شَيئًا؟

قَالَ: «لَا يُعجِبُنِي، فَمِن أَينَ يَأكُلُ؟»

---

(١) الرَّوضَةُ لِابنِ حِبَّانَ (ص٢٦٦)، وَالحِليَة (٣/ ١١).

(٢) رَوَاهَا البَيهَقِيُّ فِي «الشُّعَبِ» (١/ ١٠٩/ ١)، وَ«الجَامِعُ» لِابنِ عَبدِ البَرِّ (٢/ ١٤).

قَالَ: يَتَوَكَّلُ فَيُعطِيهِ النَّاسُ.

قَالَ: «وَإِذَا لَم يُعطُوهُ؟ أَلَيسَ يَستَشرِفُ لَهُم حَتَّىٰ يُعطُوهُ؟ لَا يُعجِبُنِي هذَا، لَم يَبلُغنِي أَنَّ أَحَدًا مِن أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- وَالتَّابِعِينَ فَعَلَ هذَا، ولكِن يَعمَلُ وَيَطلُبُ وَيَتَحَرَّىٰ».[١]

٣٢١- **وَكَانَ الإِمَامُ أَحمَدُ يَأمُرُ بِالسُّوقِ، وَيَقُولُ:** «مَا أَحسَنَ الِاستِغنَاءَ عَنِ النَّاسِ».[٢]

وَسُئِلَ عَن قَومٍ لَا يَعمَلُونَ وَيَقُولُونَ نَحنُ مُتَوَكِّلُونَ، فَقَالَ: «هؤُلَاءِ مُبتَدِعَةٌ».[٣]

٣٢٢- **وَرَوَىٰ الخَلَّالُ فِي «الحَثِّ عَلَىٰ التِّجَارَةِ» (٧) عَنِ المَيمُونِيِّ:** أَنَّ أَبَا عَبدِ اللهِ -يَعنِي الإِمَامَ أَحمَدَ- قِيلَ لَهُ: قَالَ رَجُلٌ لِلسَّرِيِّ بنِ يَحيَىٰ وَكَانَ يَتَّجِرُ فِي البَحرِ: تَركَبُ البَحرَ فِي طَلَبِ الدُّنيَا؟

قَالَ: «أُحِبُّ أَن أَستَغنِيَ عَن ضَربِكَ مِنَ النَّاسِ».

٣٢٣- **وَرَوَىٰ الخَلَّالُ (١٠) عَنِ المَيمُونِيِّ قَالَ:** وَقَالَ أَبُو عَبدِ اللهِ يَومًا مُبتَدِئًا: «يَا أَبَا الحَسَنِ، استَغنِ عَنِ النَّاسِ بِجُهدِكَ؛ فَمَا رَأَيتُ مِثلَ الغِنَىٰ عَنِ النَّاسِ»،

قُلتُ: وَلِمَ ابتَدَأتَنِي بِهذَا؟

قَالَ: «لِأَنَّهُ إِن كَانَ لَكَ شَيءٌ تُصلِحُهُ وَتَكُونُ فِيهِ وَتَستَغنِي بِهِ عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّ الغِنَىٰ مِنَ العَافِيَةِ».

---

(١) المَسَائِلُ وَالرَّسَائِلُ المَروِيَّةُ عَنِ الإِمَامِ أَحمَد (٢/ ٢٣٦).

(٢) المَصدَرُ السَّابِق (٢/ ٢٣٤).

(٣) المَصدَرُ السَّابِق (٢/ ٢٣٨).

فَحَثَّنِي غيرَ مَرَّةٍ عَلَىٰ الإِصلَاحِ، وَالِاستِغنَاءِ بِإِصلَاحِ مَا رُزِقتُ عَنِ النَّاسِ، وَأَقبَلَ يُغَلِّظُ الحَاجَةَ إِلَىٰ النَّاسِ.

٣٢٤ - **وَرَوَىٰ ابنُ أَبِي الدُّنيَا فِي «إِصلَاحِ المَالِ» (٣١٢)** عَن مَالِكِ بنِ دِينَارٍ قَالَ: «قَرَأتُ فِي التَّورَاةِ: إِنَّ الَّذِي يَعمَلُ بِيَدِهِ وَيَأكُلُ؛ طُوبَىٰ لِمَحيَاهُ وَمَمَاتِهِ».

٣٢٥ - **وَقَالَ الكِرمَانِيُّ فِي «السُّنَّةِ» (٨٥):** «فَالرَّجُلُ يَنبَغِي أَن يَعمَلَ عَلَىٰ نَفسِهِ وَعِيَالِهِ وَيَبتَغِي مِن فَضلِ رَبِّهِ، فَإِن تَرَكَ ذلِكَ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَرَىٰ الكَسبَ فَهُوَ مُخَالِفٌ».

٣٢٦ - **وَقَالَ أَبُو عَبدِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ خَفِيفٍ:** «وَمِمَّا نَعتَقِدُهُ: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَبَاحَ المَكَاسِبَ وَالتِّجَارَاتِ وَالصَّنَائِعَ، وَإِنَّمَا حَرَّمَ اللهُ الغِشَّ وَالظُّلمَ...» إِلَىٰ آخِرِ كَلَامِهِ.[1]

٣٢٧ - **وَقَالَ سَهلُ التُّستَرِيُّ:** مَن طَعَنَ فِي الحَرَكَةِ -يَعنِي فِي السَّعيِ وَالكَسبِ- فَقَد طَعَنَ فِي السُّنَّةِ، وَمَن طَعَنَ فِي التَّوَكُّلِ فَقَد طَعَنَ فِي الإِيمَانِ؛ فَالتَّوَكُّلُ حَالُ النَّبِيِّ -ﷺ-، وَالكَسبُ سُنَّتُهُ، فَمَن عَمِلَ عَلَىٰ حَالِهِ فَلَا يَترُكَنَّ سُنَّتَهُ.

ثُمَّ إِنَّ الأَعمَالَ الَّتِي يَعمَلُهَا العَبدُ ثَلَاثَةُ أَقسَامٍ:

أَحَدُهَا: الطَّاعَاتُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ عِبَادَهُ بِهَا...

الثَّانِي: مَا أَجرَىٰ اللهُ العَادَةَ بِهِ فِي الدُّنيَا...

الثَّالِثُ: مَا أَجرَىٰ اللهُ العَادَةَ بِهِ فِي الدُّنيَا فِي الأَعَمِّ الأَغلَبِ... (إِلَىٰ آخِرِ كَلَامِهِ).[2]

---

(١) الحَموِيَّة (ص٤٥٧-٤٥٨).

(٢) وَانظُر لِلمَزِيدِ فِي «الجَامِعِ» لِلخَطِيبِ: ذِكرُ مَا يَجِبُ عَلَىٰ طَالِبِ الحَدِيثِ مِنَ الِاحتِرَافِ لِلعِيَالِ وَاكتِسَابِ الحَلَالِ.

٣٢٨ - **وَقَالَ ابنُ رَجَبٍ:** «وَاعلَم أَنَّ تَحقِيقَ التَّوَكُّلِ لَا يُنَافِي السَّعيَ فِي الأَسبَابِ الَّتِي قَدَّرَ اللهُ - ﷻ - المَقدُورَاتِ بِهَا...» إِلَىٰ آخِرِ كَلَامِهِ.

وَالحَقِيقَةُ أَنَّهُ لَا أَحَدَ يُمكِنُهُ تَركُ الأَسبَابِ كُلًّا؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ سَبَبٌ، وَالأَكلَ سَبَبٌ، وَالمَشيَ سَبَبٌ... فَهُوَ وَاقِعٌ فِي الأَسبَابِ شَاءَ أَم أَبَىٰ.

مَسأَلَةٌ: الفَرقُ بَينَ التَّوَكُّلِ وَالتَّوكِيلِ، وَحُكمُ قَولِ القَائِلِ: «أَنَا مُتَوَكِّلٌ عَلَيكَ»

يَجرِي عَلَىٰ أَلسِنَةِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَلفَاظٌ تَتَعَلَّقُ بِمَقَامِ التَّوَكُّلِ، تَحتَاجُ إِلَىٰ تَحرِيرٍ وَبَيَانٍ؛ لِأَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِأَصلٍ عَظِيمٍ مِن أُصُولِ الدِّينِ، وَهُوَ: إِفرَادُ اللهِ سُبحَانَهُ بِالِاعتِمَادِ وَالتَّفوِيضِ.

وَمِن تِلكَ الأَلفَاظِ ثَلَاثُ صِيَغٍ مَشهُورَةٍ:

قَولُ الإِنسَانِ: «أَنَا مُتَوَكِّلٌ عَلَيكَ».

قَولُ الإِنسَانِ: «أَنَا مُتَوَكِّلٌ عَلَىٰ اللهِ ثُمَّ عَلَيكَ».

قَولُ الإِنسَانِ: «أَنَا مُتَوَكِّلٌ عَلَىٰ اللهِ وَعَلَيكَ».

وَبَيَانُ حُكمِ هَٰذِهِ الأَلفَاظِ وَمَا يَصِحُّ مِنهَا وَمَا لَا يَصِحُّ، يَقتَضِي أَوَّلًا: التَّفرِيقَ بَينَ التَّوَكُّلِ وَالتَّوكِيلِ، ثُمَّ النَّظَرَ فِي استِعمَالَاتِ النَّاسِ وَمَا يَقَعُ فِيهَا مِن خَطَإٍ.

حُكمُ الأَلفَاظِ الثَّلَاثَةِ:

قَولُ الإِنسَانِ: «أَنَا مُتَوَكِّلٌ عَلَىٰ اللهِ وَعَلَيكَ»

هَٰذَا اللَّفظُ لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّهُ تَسوِيَةٌ بَينَ الخَالِقِ وَالمَخلُوقِ فِي بَابٍ مِن أَبوَابِ العِبَادَةِ، وَالتَّوَكُّلُ عِبَادَةٌ قَلبِيَّةٌ لَا تُصرَفُ لِغَيرِ اللهِ أَبَدًا.

قَولُ الإِنسَانِ: «أَنَا مُتَوَكِّلٌ عَلَىٰ اللهِ ثُمَّ عَلَيكَ»

هذَا اللَّفظُ خطأٌ، ويُنهَىٰ عنهُ؛ لِأَنَّ التَّوكُّل عِبادَةٌ، ولَا يَجُوزُ أن تُسنَدَ إِلَىٰ غيرِ اللهِ، ولو علَىٰ سَبيلِ اللَّفظِ.

قَولُ الإِنسَانِ: «أَنَا مُتَوكِّلٌ علَيكَ»

هذَا أَيضًا لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ ظَاهِرَ اللَّفظِ يَقتَضِي صَرفَ عِبادَةِ التَّوكُّلِ لِغيرِ اللهِ.

ولِهذَا يُقَالُ لَهُ: قُل: «أَنَا مُتَوكِّلٌ علَىٰ اللهِ، ووَكَّلتُكَ فِي هذَا الأَمرِ»، أَو: «أَنَا أُوَكِّلُكَ»، أَو: «أَنتَ وَكِيلِي فِي كَذَا».

فَالتَّوكِيلُ غيرُ التَّوكُّلِ.

الفَرقُ بَينَ التَّوَكُّلِ وَالتَّوكِيلِ:

○ حَقِيقَةُ التَّوكُّلِ:

التَّوكُّلُ: اعتِمَادٌ قَلبِيٌّ مَحضٌ، لَا يَجُوزُ أَن يَتَوجَّهَ بِهِ العَبدُ لِغيرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-؛ لِأَنَّهُ عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ، أَصلُهَا تَفوِيضُ القَلبِ واعتِمَادُهُ علَىٰ اللهِ وَحدَهُ.

٣٢٩ - **رُوِيَ عَن عُقبَةَ بنِ أَبِي زَينَبَ، قَالَ: مَكتُوبٌ فِي التَّورَاةِ:** «لَا تَتَوكَّل علَىٰ ابنِ آدَمَ؛ فَإِنَّ ابنَ آدَمَ لَيسَ لَهُ قِوَامٌ، ولكِن تَوكَّل علَىٰ اللهِ الحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ».(١)

٣٣٠ - **ورُوِيَ عَن أَبِي العَالِيَةِ، قَالَ:** اجتَمَعَ إِلَيَّ أَصحَابُ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالُوا: «يَا أَبَا العَالِيَةِ، لَا تَعمَل عَمَلًا تُرِيدُ بِهِ غيرَ اللهِ؛ فَيَجعَلَ اللهُ ثَوَابَكَ علَىٰ مَا أَرَدتَ».

قَالَ: واجتَمَعَ إِلَيَّ أَصحَابُ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالُوا: «يَا أَبَا العَالِيَةِ، لَا تَتَّكِل علَىٰ غيرِ اللهِ؛ فَيَكِلَكَ اللهُ إِلَىٰ مَنِ اتَّكَلتَ عَلَيهِ».(٢)

---

(١) «التَّوكُّلُ عَلَىٰ اللهِ» لِابنِ أَبِي الدُّنيَا (٥٨).

(٢) «التَّوكُّلُ عَلَىٰ اللهِ» لِابنِ أَبِي الدُّنيَا (ص٦٥).

○ حَقِيقَةُ التَّوكِيلِ:

التَّوكِيلُ: تَفوِيضٌ بَشَرِيٌّ، وَهُوَ أَن يُقِيمَ الإِنسَانُ غَيرَهُ مَقَامَهُ فِي أَمرٍ مِنَ الأُمُورِ.

وَهُوَ أَمرٌ جَائِزٌ، بَل قَد فَعَلَهُ النَّبِيُّ -ﷺ-؛ فَقَد وَكَّلَ عَلِيًّا -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- فِي ذَبحِ بَقِيَّةِ الهَدِي، وَوَكَّلَ عُروَةَ بنَ الجَعدِ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- فِي شِرَاءِ شَاةٍ.

وَهذَا كُلُّهُ تَفوِيضٌ جَائِزٌ لَا شُبهَةَ فِيهِ، وَلَا تَعَلُّقَ لَهُ بِبَابِ العِبَادَةِ.

وَالفَرقُ بَينَهُمَا يَرجِعُ إِلَىٰ أَصلٍ جَامِعٍ: أَنَّ التَّوَكُّلَ تَعَلُّقُ القَلبِ وَطُمَأنِينَتُهُ وَتَفوِيضُهُ، وهذَا لَا يَصلُحُ إِلَّا لِمَن أَحَاطَ عِلمُهُ وَتَمَّت قُدرَتُهُ وَكَمُلَت رَحمَتُهُ، وَلَيسَ ذلِكَ إِلَّا اللهَ وَحدَهُ؛ وَأَمَّا التَّوكِيلُ فَإِقَامَةُ الغَيرِ مَقَامَ المُوَكِّلِ فِي تَصَرُّفٍ مَقدُورٍ مَحدُودٍ، وَالمَخلُوقُ يَقدِرُ عَلَىٰ التَّصَرُّفِ المَحدُودِ وَلَا يَقدِرُ عَلَىٰ الكِفَايَةِ المُطلَقَةِ، فَمَن وَكَّلَ مَخلُوقًا فِي بَيعٍ أَو خُصُومَةٍ فَقَد أَنزَلَهُ مَنزِلَتَهُ هُوَ، وَمَن تَوَكَّلَ عَلَىٰ مَخلُوقٍ فَقَد أَنزَلَهُ مَنزِلَةَ الرَّبِّ؛ فَافتَرَقَا غَايَةَ الافتِرَاقِ: هذَا تَفوِيضُ عَاجِزٍ إِلَىٰ عَاجِزٍ فِيمَا يَقدِرُ عَلَيهِ، وَذَاكَ تَفوِيضُ عَاجِزٍ إِلَىٰ قَادِرٍ فِيمَا لَا يَقدِرُ عَلَيهِ سِوَاهُ.

ثُبُوتُ التَّوَكُّلِ وَالتَّوكِيلِ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَى:

التَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ:

هُوَ اعتِمَادُ القَلبِ عَلَىٰ اللهِ، وَإِفرَادُهُ بِالتَّفوِيضِ، وَالثِّقَةُ بِوَعدِهِ، وَالإِيمَانُ بِأَنَّهُ وَحدَهُ المُدَبِّرُ وَالمُصَرِّفُ.

التَّوكِيلُ إِلَىٰ اللهِ:

هُوَ تَفوِيضُ العَبدِ أَمرَهُ كُلَّهُ لِرَبِّهِ، وَهُوَ مِن تَمَامِ العُبُودِيَّةِ وَالافتِقَارِ؛ إِذ يَعلَمُ العَبدُ أَنَّ:

اللهَ أعلَمُ بِمَصلَحَتِهِ، وَأَقدَرُ عَلَىٰ تَدبِيرِه، وَأَرحَمُ بِهِ مِن نَفسِهِ، وَأَنَّ خِيرَةَ اللهِ لَهُ خَيرٌ مِن خِيرَتِهِ لِنَفسِهِ.

وَلِتَقرِيبِ ذلِكَ: فَحَالُ العَبدِ مَعَ رَبِّهِ فِي تَفوِيضِ الأَمرِ أَعظَمُ بِكَثِيرٍ مِن حَالِ الطِّفلِ الَّذِي يُفَوِّضُ أَمرَهُ إِلَىٰ أَبِيهِ فِي أَرضِ الخَوفِ.

التَّوكِيلُ مِنَ الجِهَتَينِ:

العَبدُ يُوَكِّلُ رَبَّهُ:

وهذَا تَوكِيلٌ قَائِمٌ عَلَىٰ الذُّلِّ وَالِافتِقَارِ وَالعُبُودِيَّةِ، وَهُوَ تَفوِيضٌ كَامِلٌ يُعَبِّرُ عَن تَمَامِ الإِيمَانِ.

اللهُ يُوَكِّلُ عَبدَهُ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [سورة الأنعام:٨٩].

فَتوكِيلُ اللهِ لِعَبدِهِ لَيسَ لِحَاجَةٍ —حَاشَاهُ سُبحَانَهُ— وَإِنَّمَا هُوَ: تَكلِيفٌ، وَتَشرِيفٌ، وَإِقَامَةٌ فِي مَقَامِ عِبَادَةٍ وَأَدَاءٍ لِلأَمَانَةِ.

وَكَمَا فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللهَ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا...».

الخُلَاصَةُ:

التَّوَكُّلُ عِبَادَةٌ قَلبِيَّةٌ لَا يَجُوزُ صَرفُهَا لِغَيرِ اللهِ أَصلًا.

التَّوكِيلُ تَفوِيضٌ بَشَرِيٌّ جَائِزٌ شَرعًا.

كُلُّ لَفظٍ يُشعِرُ بِالتَّسوِيَةِ، أَو يُوهِمُ صَرفَ التَّوَكُّلِ لِغَيرِ اللهِ، يَجِبُ مَنعُهُ وَالنَّهيُ عَنهُ.

وَيُقَالُ لِمَن أَرَادَ تَفوِيضَ إِنسَانٍ: «أَنَا مُتَوَكِّلٌ عَلَىٰ اللهِ، وَوَكَّلتُكَ فِي هذَا الأَمرِ».

مَسأَلَةٌ: أَنوَاعُ الشِّركِ فِي الشَّرِيعَةِ

الشِّركُ فِي الشَّرِيعَةِ خَمسَةُ أَنوَاعٍ:

الأَوَّلُ: شِركُ العِبَادَةِ

وَهُوَ: صَرفُ شَيءٍ مِنَ العِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ لِغَيرِ اللهِ؛ كَصَرفِ النَّذرِ، وَالذَّبحِ، وَالطَّوَافِ، وَغَيرِ ذَلِكَ مِنَ العِبَادَاتِ.(١)

---

(١) قُلتُ: مَا زالَ أهلُ الباطِلِ يُلبِّسونَ عَلَىٰ العامَّةِ ويُلقونَ الشُّبَهَ؛ وكُلَّما قَرُبَتِ الشُّبهَةُ مِن أصلِ الدِّينِ عَظُمَ خطَرُها، فكَيفَ إِذَا كانَت فِي أصلِ الأُصولِ: تَوحيدِ اللهِ وإفرادِهِ بالعِبادَةِ؟!

ومِن ذلكَ مَا أُثيرَ مِن أنَّ الطَّوافَ حَولَ القُبورِ ليسَ شِركًا، بَل هُوَ مُحَرَّمٌ فَحَسْبُ، واستَدَلَّ قائِلُهُ بأمرَينِ: أنَّه لَا دَليلَ عَلَىٰ أنَّ الطَّوافَ عِبادَةٌ، وأنَّه لَو كانَ عِبادَةً لكُنّا كُلُّنا مُشرِكينَ؛ إذ نَطوفُ حَولَ الكَعبَةِ.

الرَّدُّ عَلَىٰ دَعوىٰ أنَّ الطَّوافَ ليسَ عِبادَةً:

الوَجهُ الأَوَّلُ: الأدِلَّةُ عَلَىٰ أنَّه عِبادَةٌ:

قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [سورة البقرة:١٢٥]؛ فبَدَأَ بالطَّوافِ وقَرَنَهُ بأجَلِّ العِباداتِ: الاعتِكافِ والصَّلاةِ.

وَفِي سُنَنِ التِّرمِذيِّ (٩٦٠) مَرفوعًا: «الطَّوافُ حَولَ البَيتِ مِثلُ الصَّلاةِ، إلّا أنَّكُم تتكَلَّمونَ فيهِ»؛ ولِذا وجب لَهُ الطَّهارَةُ، فهَل أوضَحُ مِن جَعلِهِ كالصَّلاةِ دَليلًا عَلَىٰ كَونِهِ عِبادَةً؟

وأخرَجَ التِّرمِذيُّ (٨٦٨) والنَّسائيُّ (٥٨٥) وابنُ ماجه (١٢٥٤) مَرفوعًا: «يَا بَني عَبدِ مَنافٍ، لَا تَمنَعوا أحَدًا طافَ بهٰذا البَيتِ وصَلّىٰ أيَّةَ ساعَةٍ شاءَ»؛ وَهُوَ نَصٌّ فِي كَونِ الطَّوافِ عِبادَةً مُستَقِلَّةً تُفعَلُ فِي كُلِّ وَقتٍ، لَا نُسُكًا مَقصورًا عَلَىٰ الحَجِّ والعُمرَةِ كَمَا زَعَمَ المُعتَرِضُ.

الوَجهُ الثّاني: مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ الطَّوافَ بالأضرِحَةِ شِركٌ:

فِي الصَّحيحَينِ (البخاري ٧١١٦، مسلم ٢٩٠٦): «لَا تَقومُ السّاعَةُ حتّىٰ تَضطَرِبَ ألَياتُ نِساءِ دَوسٍ عَلَىٰ ذِي الخَلَصَةِ»، وَهُوَ طاغِيَةُ دَوسٍ الَّتي كَانُوا يَعبُدونَ فِي الجاهِليَّةِ.

الرَّدُّ عَلَىٰ دَعوىٰ أنَّنا نَطوفُ بالكَعبَةِ وَهُوَ كفعلهم عِندَ أوثانِهِم:

لَو صَحَّ هٰذا الفَهمُ المُعوَجُّ لكانَ المُصَلّي عِندَ الكَعبَةِ مُتَوَجِّهًا إلَيها مُشرِكًا!

فالمَسألَةِ: أنَّنا نُصَلّي تَقَرُّبًا للهِ نَحوَ الكَعبَةِ كَمَا أمَرَ، فهِيَ جِهَةُ الصَّلاةِ لَا مَعبودُها، وَكَذَا الطَّوافُ بِهَا تَقَرُّبٌ للهِ فِي الجِهَةِ المَأمورِ بِهَا؛ فمَن طافَ مُتَقَرِّبًا لِغَيرِ اللهِ أشرَكَ، كَمَا يُشرِكُ مَن صَلّىٰ لِغَيرِهِ؛ فَلَا فَرقَ.

وَهُوَ الغَالِبُ فِي إِطلَاقِ الشَّرِيعَةِ؛ فَقَد أَطبَقَ العُلَمَاءُ عَلَىٰ تَعرِيفِ الشِّركِ بِأَنَّهُ: (اتِّخَاذُ مَعَ اللهِ مَعبُودًا)، أَو (عِبَادَةُ غَيرِ اللهِ)، أَو (صَرفُ العِبَادَةِ لِغَيرِ اللهِ).

وهذَا شِركٌ أَكبَرُ بِالِاتِّفَاقِ، وَلَا يُشتَرَطُ فِيهِ تَقيِيدُهُ بِمَنَاطٍ قَلبِيٍّ؛ كَقَصدِ التَّعَبُّدِ، أَو غَايَةِ الذُّلِّ وَنِهَايَةِ الخُضُوعِ، أَو نِسبَةِ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ لِلمَخلُوقِ.

وَمِن أَخطَرِ مَا أَحدَثَهُ المُبتَدِعَةُ تَقيِيدُهُمُ العِبَادَةَ بِاعتِقَادِ الاستِقلَالِ وَالتَّأثِيرِ فِي المَعبُودِ؛ فَزَعَمُوا أَنَّ الأَقوَالَ وَالأَفعَالَ الصَّادِرَةَ مِن قَلبٍ لَا يَعتَقِدُ فِي مَدعُوِّهِ تَأثِيرًا لَيسَت شِركًا، وَبَنَوا عَلَىٰ ذَلِكَ تَجوِيزَ دُعَاءِ المَوتَىٰ وَالاستِغَاثَةِ بِهِم.

وَهَذَا التَّقيِيدُ بَاطِلٌ، يَكفِي فِي رَدِّهِ أَنَّ مُشرِكِي العَرَبِ كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّ اللهَ وَحدَهُ الخَالِقُ الرَّازِقُ المُدَبِّرُ، وَمَا عَبَدُوا آلِهَتَهُم إِلَّا لِلزُّلفَىٰ وَالشَّفَاعَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ كَفَّرَهُمُ اللهُ وَقَاتَلَهُم نَبِيُّهُ -ﷺ-.

فَلَو كَانَتِ العِبَادَةُ لَا تَنعَقِدُ إِلَّا بِاعتِقَادِ التَّأثِيرِ لَمَا كَانُوا مُشرِكِينَ؛ فَدَلَّ أَنَّ حَقِيقَةَ الشرك فِي العِبَادَةِ هُوَ صَرفها ظاهراً لِلمَدعُوِّ، اعتَقَدَ فِيهِ تَأثِيرًا أَو لَم يَعتَقِد.

الثَّانِي: شِركُ الِاعتِقَادِ

وَهُوَ: اعتِقَادُ شَيءٍ مِن خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ فِي غَيرِ اللهِ؛ كَاعتِقَادِ النَّفعِ وَالضَّرِّ المُطلَقِ، أَو وَصفِ المَخلُوقِ بِالكَمَالِ المُختَصِّ بِهِ سُبحَانَهُ.

وهذَا شِركٌ أَكبَرُ بِالِاتِّفَاقِ.

الثَّالِثُ: شِركُ المَعَانِي

وَهُوَ: الشِّركُ الوَاقِعُ فِي أَعمَالِ القُلُوبِ؛ كَالخَوفِ، وَالمَحَبَّةِ، وَنَحوِهَا.

وَقَد أُفرِدَ هذَا النَّوعُ عَنِ النَّوعِ الأَوَّلِ؛ لِجَرَيَانِ التَّفصِيلِ فِيهِ؛ فَلَيسَت كُلُّ مَحَبَّةٍ لِغَيرِ

اللهِ شِركًا، وَلَا كُلُّ خوفٍ مِن غَيرِ اللهِ شِركًا.

وَإِنَّمَا يُقَالُ: مَن سَوَّىٰ بَينَ اللهِ وَغَيرِهِ فِي المَحَبَّةِ فَقَد أَشرَكَ.

فَهذَا النَّوعُ يَجرِي فِيهِ التَّفصِيلُ.

وَقَد يَكُونُ مِن هذِهِ المَعَانِي مَا يَختَصُّ اللهُ بِهِ؛ كَالتَّوَكُّلِ، فَهُوَ مَعنًىٰ قَلبِيٌّ عِبَادِيٌّ خَالِصٌ.

وَالفَرقُ بَينَ هذَا وَبَينَ قَولِ: «أَعُوذُ بِاللهِ ثُمَّ بِكَ»؛ أَنَّهُ تَجُوزُ الِاستِعَاذَةُ بِالمَخلُوقِ مُفرَدًا فِيمَا يَقدِرُ عَلَيهِ، بِخِلَافِ التَّوَكُّلِ؛ فَإِنَّهُ كُلُّهُ عِبَادَةٌ.

كَمَا لَا يَجُوزُ: «أَسجُدُ لِلهِ ثُمَّ لَكَ»، أَو: «أَعبُدُ اللهَ ثُمَّ أَعبُدُكَ».(١)

وَالضَّابِطُ فِي التَّفرِيقِ: أَنَّ مِن أَعمَالِ القُلُوبِ مَا يَقبَلُ التَّبعِيضَ، فَيَكُونُ بَعضُهُ لِلَّهِ وَبَعضُهُ لِلمَخلُوقِ بِحَسَبِهِ، كَالمَحَبَّةِ وَالخَوفِ وَالرَّجَاءِ؛ فَتُحَبُّ الأَنبِيَاءُ وَالصَّالِحُونَ مَحَبَّةً تَبَعِيَّةً لَا تُنَافِي التَّوحِيدَ، وَيُخَافُ العَدُوُّ خَوفًا طَبِيعِيًّا، وَمِنهَا مَا لَا يَقبَلُ التَّبعِيضَ بِحَالٍ، بَل هُوَ خَالِصُ حَقِّ اللهِ، مَتَىٰ صُرِفَ مِنهُ شَيءٌ لِغَيرِهِ كَانَ شِركًا؛ وَالتَّوَكُّلُ مِن هٰذَا القِسمِ، إِذ حَقِيقَتُهُ تَفوِيضُ الأَمرِ كُلِّهِ وَالاعتِمَادُ التَّامُّ، وَلَا يَستَحِقُّ ذٰلِكَ إِلَّا مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيءٍ.

وَبِهذَا يُعلَمُ أَنَّ مَن قَالَ: «المَحَبَّةُ تَجُوزُ لِغَيرِ اللهِ فَكَذلِكَ التَّوَكُّلُ» فَقَد سَوَّىٰ بَينَ مَا يَقبَلُ التَّبعِيضَ وَمَا لَا يَقبَلُهُ، وَهذَا أَصلُ غَلَطِ القُبُورِيَّةِ.

الرَّابِعُ: شِركُ الأَسبَابِ

وَهُوَ: جَعلُ مَا لَيسَ سَبَبًا شَرعًا أَو قَدَرًا سَبَبًا؛

---

(١) **انظُر:** فتاوىٰ محمد بن إبراهيم (١/ ١٧٠).

كَلُبسِ التَّمَائِمِ، وَالطِّيَرَةِ، وَنِسبَةِ المَطَرِ إِلَىٰ النَّجمِ، وَنَحوِ ذَلِكَ.

فَإِن كَانَ ذَلِكَ نَاتِجًا عَن اعتِقَادِ التَّأثِيرِ بِالذَّاتِ لَا السَّبَبِيَّةِ؛ أُلحِقَ بِشِركِ الِاعتِقَادِ، فَيَكُونُ شِركًا أَكبَرَ.

وَإِلَّا فَهُوَ شِركٌ أَصغَرُ.

الخَامِسُ: شِركُ الأَلفَاظِ

وَهُوَ: مَا يَقَعُ فِي الأَلفَاظِ؛ كَالحَلِفِ بِغَيرِ اللهِ، وَالتَّشرِيكِ بِوَاوِ العَطفِ، وَقَولِ القَائِلِ: «لَولَا فُلَانٌ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا».

وَالأَصلُ فِيهِ أَنَّهُ مِن جِنسِ الشِّركِ الأَصغَرِ، إِلَّا إِذَا تَضَمَّنَ تَعظِيمًا خَاصًّا لَا يَكُونُ إِلَّا لِلهِ؛ فَيَكُونُ شِركًا أَكبَرَ.

وَمِن حِمَايَةِ التَّوحِيدِ: العِنَايَةُ بِالأَلفَاظِ، وَالنَّهيُ عَمَّا يُوهِمُ التَّسوِيَةَ بَينَ اللهِ وَخَلقِهِ؛ فَإِنَّ اللَّفظَ قَد يَجُرُّ إِلَىٰ الاعتِقَادِ الفَاسِدِ.

٣٣١ - **فَنَهَىٰ النَّبِيُّ** - ﷺ - **عَن قَولِ القَائِلِ:** «مَا شَاءَ اللهُ وَشِئتَ»، وَقَالَ: «أَجَعَلتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ بَل مَا شَاءَ اللهُ وَحدَهُ»؛ لِأَنَّ الوَاوَ تَقتَضِي التَّسوِيَةَ وَالتَّشرِيكَ، فَأَرشَدَ إِلَىٰ «ثُمَّ» الَّتِي تَقتَضِي التَّرتِيبَ وَالتَّبَعِيَّةَ، فَيُقَالُ: «مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئتَ».

قلتُ: وَفِي إرشادِ النَّبيِّ - إِلَىٰ قولِ «مَا شاءَ اللهُ ثمَّ شِئتَ» بدَلَ «مَا شاءَ اللهُ وشِئتَ» نُكتَةٌ لغويَّةٌ عظيمَةُ الأثَرِ فِي بابِ التَّوحيدِ؛ وذلكَ أنَّ «الواوَ» تقتَضي مُطلَقَ الجمعِ والتَّشريكِ والمَعيَّةِ مِن غيرِ ترتيبٍ، فَإِذَا قيلَ: «مَا شاءَ اللهُ وشِئتَ» سُوِّيَت مشيئَةُ العبدِ بِمَشيئَةِ الرَّبِّ، وذلكَ مِنَ التَّنديدِ المُحرَّمِ؛ وأمَّا «ثمَّ» فتقتَضي التَّرتيبَ والتَّراخيَ والتَّبعيَّةَ، فَإِذَا قيلَ: «مَا شاءَ اللهُ ثمَّ شِئتَ» جُعِلَت مشيئَةُ العبدِ تابعَةً لِمَشيئَةِ اللهِ، لاحِقَةً

لَها لَا مُساوِيَةً؛ فبدَّلَ الشَّارِعُ حرفًا واحِدًا فاستَقامَ التَّوحيدُ بعدَ أَن كادَ يُخدَشُ بِالتَّسويَةِ.

وَعَلَىٰ هَذَا، فكلُّ مَا عُطِفَ فيهِ المخلوقُ عَلَىٰ الخالِقِ بِالواوِ فِي مقامِ المشيئَةِ أَوِ الفِعلِ -كقولِ بعضِهِم: «لَولَا اللهُ وفلانٌ»، و«مَا لِي إِلَّا اللهُ وأنتَ»- فَممنوعٌ، ويُستبدَلُ بهِ «ثمَّ»؛ صيانَةً لِجَنابِ التَّوحيدِ عَن مُشارَكَةِ المخلوقِ لِلخالِقِ.

٣٣٢- **وَكَذلِكَ نَهَىٰ عَنِ الحَلِفِ بِغَيرِ اللهِ، وَقَالَ:** «مَن حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَد كَفَرَ أَو أَشرَكَ»؛ لِأَنَّ الحَلِفَ تَعظِيمٌ، وَالتَّعظِيمُ بِالقَسَمِ حَقٌّ لِلَّهِ وَحدَهُ.

فَدَلَّ ذلِكَ عَلَىٰ أَنَّ المُوَحِّدَ يَتعاهَدُ لِسانَهُ كَمَا يَتعاهَدُ قَلبَهُ، إِذِ اللِّسَانُ تَرجُمَانُ الجَنَانِ، وَبَابُ الشِّركِ قَد يُؤتَىٰ مِن قِبَلِ الكَلِمَةِ المُوهِمَةِ.(١)

---

(١) **ومِن دَلَالَاتِ أَو عَلَامَاتِ التَّمييزِ بَينَ الشِّركِ الأَصغَرِ وَالأَكبَرِ:**

• أَن يَأتِيَ مُنكَّرًا غَيرَ مُعَرَّفٍ، كَقَولِهِ -ﷺ-: «الطِّيَرَةُ شِركٌ».

• الثَّانِي: النَّصُّ عَلَيهِ، وَمِثَالُهُ قَولُهُ -ﷺ-: «أَخوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيكُمُ الشِّركَ الأَصغَرَ». قَالُوا: وَمَا الشِّركُ الأَصغَرُ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ».

• أَو أَن يَفهَمَ الصَّحَابِيُّ مِن نَصٍّ مُعَيَّنٍ أَنَّ هَذَا الفِعلَ يَندَرِجُ تَحتَ الشِّركِ الأَصغَرِ.

وَمِثَالُهُ مَا أَخرَجَهُ أَحمَدُ وَالتِّرمِذِيُّ بِإِسنَادٍ حَسَنٍ، أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- قَالَ: «الطِّيَرَةُ شِركٌ».

قَالَ ابنُ مَسعُودٍ -رَاوِي هَذَا الحَدِيثِ-: «وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللهَ يُذهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ».

فَلَا نَعتَقِدُ أَنَّ ابنَ مَسعُودٍ كَانَ يَقصِدُ بِإِشَارَتِهِ الوُقُوعَ فِي الشِّركِ الأَكبَرِ.

وَكَذَلِكَ مَا أَخرَجَهُ التِّرمِذِيُّ بِإِسنَادٍ حَسَنٍ، أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- قَالَ: «مَن حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَد أَشرَكَ».

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي تَفسِيرِهِ: «الحَلِفُ بِغَيرِ اللهِ مِنَ الشِّركِ الخَفِيِّ».

وقَالَ الضَّحَّاكُ بنُ قَيسٍ، كَمَا فِي «مُصَنَّفِ ابنِ أَبِي شَيبَةَ» (١٩/ ٤١٨ ت الشَّثرِيِّ): «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اعمَلُوا أَعمَالَكُم لِلهِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَقبَلُ إِلَّا عَمَلًا خَالِصًا.

قلتُ: ومِنَ الشِّركِ فِي الألفاظِ تعبيدُ الاسمِ لِغيرِ اللهِ، كَأَنَّ يُسَمَّىٰ المرءُ «عبدَ الكعبَةِ» أَو «عبدَ النَّبيِّ» أَو «عبدَ الحُسَينِ» أَو «عبدَ المسيحِ»؛ ووجهُ المنعِ أَنَّ لفظَ «العبدِ» إِذَا أُضيفَ إضافَةَ تعبيدٍ أفادَ العُبوديَّةَ المُطلَقَةَ، وَلَا تكونُ إِلَّا لِلَّهِ وحدَهُ؛ فمَن عبَّدَ اسمَهُ لِمَخلوقٍ فَقَد أضافَ خالِصَ حقِّ اللهِ إِلَىٰ غيرِه، وَإِن لَم يقصِدِ العِبادَةَ بِقلبِهِ.

ولِهذا كانَ أَحبَّ الأسماءِ إِلَىٰ اللهِ مَا عُبِّدَ لهُ، كـ«عبدِ اللهِ» و«عبدِ الرَّحمنِ»؛ وأخبرَ النَّبيُّ - أنَّ «أصدَقَ الأسماءِ حارِثٌ وهَمَّامٌ»، إِذ كلُّ أَحَدٍ حارِثٌ -أَي كاسِبٌ عامِلٌ-، وهَمَّامٌ -أَي ذو هَمٍّ وإرادَةٍ-، فهُما وصفانِ صادِقانِ عَلَىٰ كلِّ آدَميٍّ؛ فالواجِبُ تنزيهُ الأسماءِ عَن كلِّ تعبيدٍ لِسِوىٰ اللهِ، صيانَةً لِلتَّوحيدِ حتَّىٰ فِي مُجَرَّدِ اللَّفظِ.

ومَن صَدَقَ تَوكُّلُهُ عَلَىٰ اللهِ فِي حُصُولِ شَيءٍ نَالَهُ، كَمَا أَنَّ اعتِمَادَ العَبدِ عَلَىٰ المَخلُوقِ، وَتَوكُّلَهُ عَلَيهِ، يُوجِبُ لَهُ الضَّرَرَ مِن جِهَتِهِ، وَيَكُونُ عَلَىٰ خِلَافِ مَا أَمَّلَ مِنهُ.

فَقَد جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ عَمَلٍ جَزَاءً مِن جِنسِهِ، وَجَعَلَ جَزَاءَ التَّوَكُّلِ عَلَيهِ نَفسَ كِفَايَتِهِ لِعَبدِهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [سورة الطلاق:٣].

لَا يَعفُو أَحَدٌ مِنكُم عَن مَظلَمَةٍ فَيَقُولُ: هَذَا لِلهِ وَلِوُجُوهِكُم، فَلَيسَ لِلهِ، إِنَّمَا هِيَ لِوُجُوهِهِم. وَلَا يَصِلُ أَحَدٌ مِنكُم رَحِمَهُ فَيَقُولُ: هَذَا لِلهِ وَلِلرَّحِمِ، إِنَّمَا هُوَ لِلرَّحِمِ.

وَمَن عَمِلَ عَمَلًا فَيَجعَلُهُ لِلهِ، وَلَا يُشرِكُ فِيهِ شَيئًا، فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ يَومَ القِيَامَةِ: مَن أَشرَكَ بِي شَيئًا فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ فَهُوَ لِشَرِيكِهِ، لَيسَ لِي مِنهُ شَيءٌ».

قَالَ ابنُ القَيِّمِ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (١/ ٥٣٠): «وَأَمَّا الشِّركُ الأَصغَرُ، فَكَيَسِيرِ الرِّيَاءِ، وَالتَّصَنُّعِ لِلخَلقِ، وَالحَلِفِ بِغَيرِ اللهِ، كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- أَنَّهُ قَالَ: "مَن حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَد أَشرَكَ"، وَقَولِ الرَّجُلِ لِلرَّجُلِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئتَ، وَهَذَا مِنَ اللهِ وَمِنكَ، وَإِنَّا بِاللهِ وَبِكَ، وَمَا لِي إِلَّا اللهُ وَأَنتَ، وَأَنَا مُتَوَكِّلٌ عَلَىٰ اللهِ وَعَلَيكَ، وَلَولَا أَنتَ لَم يَكُن كَذَا وَكَذَا. وَقَد يَكُونُ هَذَا شِركًا أَكبَرَ بِحَسَبِ حَالِ قَائِلِهِ وَمَقصِدِهِ».

فَمَن أَرَادَ أَن يَعرِفَ مَا هِيَ الطُّمَأنِينَةُ، وَمَا هِيَ السَّكِينَةُ، وَمَا هُوَ رَاحَةُ البَالِ؛ فَليُجَرِّبِ التَّوَكُّلَ.

٣٣٣- **قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ** -رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا-: «مَن سَرَّهُ أَن يَكُونَ أَقوَىٰ النَّاسِ فَليَتَوَكَّل عَلَىٰ اللهِ».

٣٣٤- **وَقَالَ سُفيَانُ الثَّورِيُّ فِي وَصِيَّتِهِ لِعَلِيِّ بنِ الحَسَنِ:** «تَوَكَّل عَلَىٰ اللهِ تَكُن قَوِيًّا».

٣٣٥- **وَرُوِيَ فِي «الزهد والرقائق - ابن المبارك - ت الأعظمي» (الملحق/٣٤):** عَنِ ابنِ مَسعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: «مَن أَصَابَتهُ فاقة، فَأَنزَلَهَا بِالنَّاسِ، لَم تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَن أَنزَلَهَا بِاللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- أَوشَكَ اللهُ لَهُ بِالغِنَىٰ، إِمَّا مَوتًا عَاجِلًا أَو غِنًىٰ آجِلًا».

فمن احتَاجَ إِلَىٰ الناس فَليَبدَأ بربه فَإِنَّ بركة الرزق بمقدار التوكل.

٣٣٦- **قَالَ ابن أَبِي الدنيا فِي «التوكل» (ص٧٣):** «حَدَّثَنَا عَبدُ اللهِ، قَالَ: وَحَدَّثَنِي عَلِيُّ بنُ أَبِي مَريَمَ، عَن مُحَمَّدِ بنِ الحُسَينِ، حَدَّثَنِي أَحمَدُ بنُ سَهلٍ الأُردُنِّيُّ، قَالَ: سَمِعتُ أَبَا فَروَةَ الزَّاهِدَ، يَقُولُ: قَالَ لِي رَجُلٌ فِي مَنَامِي: أَمَا عَلِمتَ أَنَّ المُتَوَكِّلِينَ هُمُ المُستَرِيحُونَ؟ قُلتُ: يَرحَمُكَ اللهُ، مِمَّ ذَا؟ قَالَ: مِن هُمُومِ الدُّنيَا، وَعُسرِ الحِسَابِ غَدًا قَالَ أَبُو فَروَةَ: فَوَاللهِ مَا اكتَرَثتُ بَعدَ ذَلِكَ بِإِبطَاءِ رِزقٍ وَلَا سُرعَتِهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ " مَن أَجمَعَ التَّوَكُّلَ عَلَيهِ كَفَاهُ مَا هَمَّهُ، وَسَاقَ الرِّزقَ وَالخَيرَ لَهُ، وَقَد قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ [سورة الطلاق:٣] ".

وَإِذَا طلبت الشفاء، فَافعَل الأسباب، وَلَكِن علّق قلبك بالله، فإنَّه لَا يَقدِرُ طبيب — مَهمَا بلغ حذقه— أَن يَرفَعُ عَنكَ داءً إِلّا إِن كتب الله ذَلِكَ.

وَلو أجمَعَ الأطباء كلُّهم عَلَىٰ استحالة الشفاء، ثُمَّ أَرَادَ الله زوال الداء، فَلَيسَ لأمره رادّ، وَاذكُر حديث النبي -ﷺ-: «مَا أَنزَلَ الله من داءٍ إلّا أَنزَلَ لَهُ دواء؛ عَلِمَهُ من عَلِمَهُ، وجهله من جَهِلَهُ».

٣٣٧- **وَرَوَىٰ ابن أَبِي الدنيا فِي «التوكل» (ص٧٤):** عَن أَبِي الجَلدِ، قَالَ: لَقِيَنِي رَجُلٌ مِنَ العَجَمِ، فَشَكَا إِلَيَّ سُلطَانَهُ وَمَا يَلقَىٰ مِنَ الظُّلمِ، فَقُلتُ لَهُ: أَلَا " أَدُلُّك عَلَىٰ أَمرٍ إِن أَخَذتَ بِهِ وَتَرَكتَ مَا سِوَاهُ كُفِيتَ أَمرَ السُّلطَانِ وَغَيرِهِ؟ قَالَ: بَلَىٰ، قُلتُ: ارجع إِلَىٰ أَهلِكَ، وَتَوَكَّل عَلَىٰ اللهِ فِي أَمرِكَ كُلِّهِ؛ فَإِنَّكَ إِن تَفعَل تَجِد مَا أَقُولُ لَكَ، قَالَ: فَلَقِيَنِي بَعدَ ذَلِكَ، فَجَعَلَ يَتَشَكَّرُ لِي وَيَقُولُ: إِنِّي وَاللهِ رَجَعتُ يَومَئِذٍ إِلَىٰ أَهلِي، وَتَوَكَّلتُ عَلَىٰ اللهِ، فَلَم أَلبَث إِلَّا أَن جَاءَنِي مَا أحب ".

فَإِذَا بَلَغتَ هذِهِ المَنزِلَةَ، وَعَلِمَ قَلبُكَ هذَا المَعنَىٰ حَقَّ العِلمِ، فَاعلَم أَنَّ التَّوَكُّلَ قَد حَطَّ رِحَالَهُ فِي قَلبِكَ، فَهَنِيئًا لَكَ كَرَامَةَ اللهِ؛ فَإِنَّ التَّوَكُّلَ صِفَةُ مَن يَدخُلُونَ الجَنَّةَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ.

٣٣٨- **قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ- فِي وَصفِهِم:** «هُمُ الَّذِينَ لَا يَستَرقُونَ، وَلَا يَكتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ».

فَالمُؤمِنُ يَفعَلُ الأَسبَابَ كَمَا كَانَ رَسُولُهُ -ﷺ- يَفعَلُ؛ فَهُوَ -ﷺ- الَّذِي أَمَرَ بِإِيكَاءِ الأَسقِيَةِ، وَإِطفَاءِ السُّرُجِ، وَإِغلَاقِ الأَبوَابِ، وَهُوَ الَّذِي لَبِسَ الدِّرعَ حِينَ قَاتَلَ.

وَيُوسُفُ -عليه السلام- —وَفِي قِصَّتِهِ أُسوَةٌ— قَالَ لِلَّذِي ظَنَّ نَجَاتَهُ مِنَ السِّجنِ: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [سورة يوسف:٤٢]، وهذَا كُلُّهُ مِن تَعَاطِي الأَسبَابِ المَشرُوعَةِ.

فَيَكُونُ المُؤمِنُ كَالمُزَارِعِ، يُلقِي بَذرَهُ، وَيَتَضَرَّعُ إِلَىٰ رَبِّهِ أَن يُبَارِكَ فِي زَرعِهِ

وَيُسَلِّمَهُ.

وَيَكُونُ كَحَالِ الطَّيرِ؛ مُتَوَكِّلَةً عَلَىٰ رَبِّهَا، قَائِمَةً بِالأَسبَابِ بِجُهدِهَا، كَمَا وَصَفَهَا النَّبِيُّ -ﷺ- بِقَولِهِ: «تَغدُو خِمَاصًا (أَي: جَائِعَةً)، وَتَرُوحُ بِطَانًا».

فَهِيَ لَا تَدرِي أَينَ رِزقُهَا، وَلَم تَجلِس فِي أَعشَاشِهَا تَنتَظِرُ، بَل سَعَت، وَبَذَلَتِ السَّبَبَ، وَتَوَكَّلَت.

وَفِي ضَربِ النَّبِيِّ -ﷺ- الطَّيرَ مَثَلًا لِلتَّوَكُّلِ حُجَّةٌ قَائِمَةٌ عَلَىٰ مَن قَعَدَ عَنِ السَّعيِ مُحتَجًّا بِالتَّوَكُّلِ؛ فَإِنَّهُ -ﷺ- لَم يَجعَلهَا مِثَالًا لِلتَّوَكُّلِ وَهِيَ وَادِعَةٌ فِي أَوكَارِهَا، بَل وَهِيَ تَغدُو وَتَرُوحُ فِي طَلَبِ رِزقِهَا؛ فَدَلَّ المَثَلُ نَفسُهُ عَلَىٰ أَنَّ التَّوَكُّلَ مَقرُونٌ بِالسَّعيِ لَا مُنَافٍ لَهُ.

فَالَّذِي يَترُكُ الكَسبَ وَيَزعُمُ أَنَّهُ مُتَوَكِّلٌ كَالطَّيرِ قَد خَالَفَ مَا بِهِ استَدَلَّ؛ إِذِ الطَّيرُ إِنَّمَا رُزِقَت بِالغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ، لَا بِالقُعُودِ وَالانتِظَارِ.

وكَذلِكَ المُؤمِنُ الحَقُّ الصَّادِقُ فِي تَوَكُّلِهِ عَلَىٰ اللهِ؛ يَتَوَكَّلُ عَلَىٰ اللهِ فِي عِبَادَتِهِ، وَيَعتَمِدُ عَلَيهِ فِي أَن يُعِينَهُ عَلَىٰ طَاعَتِهِ وَتَركِ مَعصِيَتِهِ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَيهِ فِي أَمرِ دُنيَاهُ وَسَائِرِ شُؤُونِهِ.

فَأَقوَىٰ النَّاسِ حَقًّا هُم أَهلُ التَّوَكُّلِ.

اللَّهُمَّ املأْ قُلُوبَنَا تَوَكُّلًا عَلَيكَ، وَامنَحنَا صِدقَ الِاعتِمَادِ عَلَيكَ فِي كُلِّ أَمرٍ.

خُلَاصَةُ التَّوَكُّلِ:

صِدقُ اعتِمَادِ القَلبِ عَلَىٰ اللهِ فِي جَلبِ النَّفعِ وَدَفعِ الضُّرِّ، مَعَ فِعلِ الأَسبَابِ،

كَيفَ أَتَوَكَّلُ عَلَىٰ اللهِ؟

إِنَّ التَّوَكُّلَ يَجمَعُ أَصلَينِ:

عِلمَ القَلبِ،

عَمَلَ القَلبِ.

فَأَمَّا عِلمُهُ: فَيَقِينُهُ بِكِفَايَةِ وَكِيلِهِ، وَكَمَالِ قِيَامِهِ بِمَا وُكِّلَ إِلَيهِ، وَأَنَّ غَيرَهُ لَا يَقُومُ مَقَامَهُ فِي ذلِكَ.

وَأَمَّا عَمَلُهُ: فَسُكُونُهُ إِلَىٰ وَكِيلِهِ، وَطُمَأنِينَتُهُ إِلَيهِ، وَتَفوِيضُهُ وَتَسلِيمُهُ أَمرَهُ إِلَيهِ، وَرِضَاهُ بِتَصَرُّفِهِ لَهُ فَوقَ رِضَاهُ بِتَصَرُّفِهِ هُوَ لِنَفسِهِ.[(١)]

وَمِيزَانُ صِدقِ التَّوَكُّلِ يَظهَرُ عِندَ فَوَاتِ المَطلُوبِ أَو حُلُولِ المَكرُوهِ؛ فَإِنَّ المُتَوَكِّلَ الصَّادِقَ تَسكُنُ نَفسُهُ وَتَطمَئِنُّ، لِعِلمِهِ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَم يَكُن لِيُخطِئَهُ، وَأَنَّ اختِيَارَ اللهِ لَهُ خَيرٌ مِن اختِيَارِهِ لِنَفسِهِ؛ فَلَا يَلحَقُهُ جَزَعٌ وَلَا سَخَطٌ، وَأَمَّا مَن كَانَ تَوَكُّلُهُ بِاللِّسَانِ دُونَ القَلبِ، فَإِذَا فَاتَهُ مُرَادُهُ اضطَرَبَ وَتَسَخَّطَ، وَظَهَرَ أَنَّ اعتِمَادَهُ كَانَ عَلَىٰ السَّبَبِ لَا عَلَىٰ المُسَبِّبِ، وَلِذَلِكَ قَالَ الفُضَيلُ لِمَن سَأَلَهُ عَنِ التَّوَكُّلِ: «كَيفَ تَتَوَكَّلُ عَلَيهِ وَأَنتَ تَسخَطُ قَضَاءَهُ؟»؛ فَجَعَلَ الرِّضَا بِالقَضَاءِ عَلَامَةَ صِدقِ التَّوَكُّلِ، وَالسَّخَطَ عَلَامَةَ بُطلَانِ دَعوَاهُ.

أَصنَافُ النَّاسِ تُجَاهَ التَّوَكُّلِ:

قَومٌ تَعَلَّقُوا بِالأَسبَابِ، وَنَسُوا التَّوَكُّلَ عَلَىٰ اللهِ.

قَومٌ تَعَلَّقُوا بِاللهِ، وَلَم يَفعَلُوا الأَسبَابَ.

التَّوَسُّطُ المَحمُودُ: فِعلُ الأَسبَابِ مَعَ تَعَلُّقِ القَلبِ بِاللهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ فِي قِصَّةِ يَعقُوبَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٢٥٧).

مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [سورة يوسف:٦٧].

فقد بذَلَ السَّبَبَ، مع تعلُّقِ قلبِهِ باللهِ، واعتقَدَ أنَّ السَّببَ لا ينفعُ إلَّا بإرادةِ اللهِ.

وفي هذا أدبٌ نفيسٌ: أنَّ يعقوبَ -عليه السلام- أمَرَ بنيهِ بالسَّببِ - وهو دُخولُهم من أبوابٍ مُتفرِّقةٍ - ثُمَّ أعقبَهُ بالتبرِّي من نفعِ السَّببِ بذاتِهِ، فقال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [سورة يوسف:٦٧]، ثُمَّ ردَّ الأمرَ كُلَّهُ إلى اللهِ، فقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [سورة يوسف:٦٧].

فَجمعَ في آيةٍ واحدةٍ بينَ الأمرِ بالسَّببِ، ونفي استقلالِهِ بالتَّأثيرِ، وإفرادِ اللهِ بالتَّوكُّلِ؛ فكانَ توكُّلُهُ بعدَ بذلِ السَّببِ أكملَ من توكُّلِ من عطَّلَ السَّببَ وزعمَ أنَّهُ مُفوِّضٌ، إذِ الأوَّلُ جمعَ بينَ امتثالِ الأمرِ وتحقيقِ التَّوحيدِ، والثَّاني فرَّطَ في الأمرِ وظنَّ أنَّهُ مُحقِّقٌ للتَّوحيدِ.

أقسامُ التَّوكُّلِ على غيرِ اللهِ:

شركٌ أكبرُ: بأن يتوكَّلَ على أحدٍ من الخلقِ فيما لا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ.

شركٌ أصغرُ: وهو الاعتمادُ على الأسبابِ، كالاعتمادِ على:

السَّلاطينِ في الرِّزقِ وغيرِه.

المُذاكرةِ في التَّفوُّقِ والنَّجاحِ.

الطَّبيبِ في حُصولِ الشِّفاءِ.

من فضائلِ التَّوكُّلِ على اللهِ:

- الدُّخولُ في زُمرةِ الَّذينَ يدخلونَ الجنَّةَ بلا حسابٍ ولا عذابٍ.

○ أَنَّ مَن تَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ كَانَ اللهُ حَسبَهُ وَكَافِيَهُ.

○ أَنَّ التَّوَكُّلَ عَلَىٰ اللهِ مَنجَاةٌ.(١)

فوائد وخلاصات في باب التوكل:

○ التَّوَكُّلُ الصَّحِيحُ يَقطَعُ وِسوَاسَ الشَّيطَانِ فِي الرِّزقِ؛ لِأَنَّ مَن أَيقَنَ أَنَّ الرِّزقَ مُقَدَّرٌ لَا يَملِكُهُ غَيرُ اللهِ، زَالَ عَنهُ القَلَقُ وَالِاضطِرَابُ.

○ الطُّمَأنِينَةُ فِي الرِّزقِ ثَمَرَةُ العِلمِ بِتَقدِيرِ اللهِ، لَا بِكَثرَةِ الأَسبَابِ وَلَا بِقُوَّتِهَا.

○ انشِغَالُ العَبدِ بِعَمَلِهِ أَصلٌ فِي صِدقِ التَّوَكُّلِ؛ لِأَنَّ العَمَلَ مَوكُولٌ إِلَىٰ العَبدِ، وَأَمَّا الرِّزقُ فَمَضمُونٌ مِنَ اللهِ.

○ استِحضَارُ قُربِ المَوتِ يُورِثُ المُسَارَعَةَ وَقِلَّةَ الاغتِرَارِ بِالأَمَلِ، وَهُوَ مِن أَعظَمِ مَا يُعِينُ عَلَىٰ صِحَّةِ التَّوَكُّلِ.

○ مُرَاقَبَةُ نَظَرِ اللهِ إِلَىٰ العَبدِ مِن أَقوَىٰ دَوَافِعِ الِاستِقَامَةِ، وَهِيَ رُكنٌ قَلبِيٌّ عَظِيمٌ فِي التَّوَكُّلِ.

○ وُصُولُ الرِّزقِ إِلَىٰ العَبدِ فِي جَمِيعِ أَطوَارِهِ دُونَ كَدٍّ مِنهُ، دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الرِّزقَ لَيسَ مَوقُوفًا عَلَىٰ قُدرَةِ العَبدِ، بَل عَلَىٰ فَضلِ اللهِ.

○ غَلَاءُ الأَسعَارِ لَا يُغَيِّرُ حَقِيقَةَ الرِّزقِ؛ فَالرَّازِقُ فِي الرُّخصِ هُوَ الرَّازِقُ فِي الغَلَاءِ.

○ حُسنُ عَاقِبَةِ الأَولَادِ مِن ثِمَارِ صِدقِ تَوَكُّلِ الآبَاءِ؛ لِأَنَّ الجَزَاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ.

○ الِاستِغنَاءُ بِاللهِ أَصلٌ فِي قَضَاءِ الحَوَائِجِ؛ فَمَن قَصَدَ اللهَ كَفَاهُ، وَمَن ظَاهَرَ الخَلقَ

---

(١) **أُنظُرْ:** «التَّوَكُّل» لِابنِ أَبِي الدُّنيَا، وَ«الفَرَجُ بَعدَ الشِّدَّةِ» لِابنِ أَبِي الدُّنيَا، وَ«حُسنُ الظَّنِّ بِاللهِ» لِابنِ أَبِي الدُّنيَا، وَ«التَّوَكُّلُ» لِلقَاضِي أَبِي يَعلَىٰ، وَ«التَّوَكُّلُ» لِعَبدِ الغَنِيِّ المَقدِسِيِّ.

انقَطَعَ بِهِ السَّبَبُ.

○ الرِّزقُ مَكتُوبٌ لَا يَمنَعُهُ مَانِعٌ وَلَا يَحجُبُهُ مَوضِعٌ، وَلَو كَانَ فِي أَعمَاقِ البِحَارِ أَو بَينَ طِبَاقِ السَّمَاوَاتِ.

○ الِالتِفَاتُ إِلَىٰ الأَسبَابِ نَوعُ استِروَاحٍ زَائِلٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا سِوَىٰ اللهِ يَنقَطِعُ، وَيَبقَىٰ التَّوَكُّلُ عَلَىٰ الحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ.

○ حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ: قَطعُ التَّعَلُّقِ بِالمَخلُوقِ مَعَ فِعلِ السَّبَبِ المَشرُوعِ.

قال المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ -:

وَدَلِيلُ الرَّغبَةِ، وَالرَّهبَةِ، وَالخُشُوعِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٠].

سَاقَ المُؤَلِّفُ هُنَا ثَلَاثَ عِبَادَاتٍ قَلبِيَّةٍ يَجِبُ عَلَىٰ العَبدِ أَن يُوَحِّدَ اللهَ تَعَالَىٰ بِهَا، وَأَن يَتَجَنَّبَ الشِّركَ فِيهَا، وَقَد جَمَعَهَا قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٠].

وَقَدِ اختَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي الضَّمِيرِ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ﴾ عَلَىٰ قَولَينِ:

القَولُ الأَوَّلُ: أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ عَلَىٰ جَمِيعِ الأَنبِيَاءِ وَالمُرسَلِينَ المَذكُورِينَ قَبلَ هَٰذِهِ الآيَةِ فِي سُورَةِ الأَنبِيَاءِ؛ لِأَنَّ اللهَ سَاقَ أَخبَارَ جَمَاعَةٍ مِنهُم فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ.

القَولُ الثَّانِي: أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ إِلَىٰ زَكَرِيَّا وَيَحيَىٰ وَزَوجِ زَكَرِيَّا؛ لِقَولِهِ تَعَالَىٰ قَبلَهَا: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٩]، ثُمَّ قَالَ بَعدَهَا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٠].

وَعَلَىٰ كِلَا القَولَينِ، فَالآيَةُ ثَنَاءٌ مِنَ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ بِقِيَامِهِم بِهَٰذِهِ العِبَادَاتِ الثَّلَاثِ:

الرَّغبَةِ، وَالرَّهبَةِ، وَالخُشُوعِ.

٣٣٩ - **وَرُوِيَ عَن عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ زَيدِ بنِ أَسلَمَ -مِن طَرِيقِ ابنِ وَهبٍ- فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ:**

﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ [سورة الأنبياء:٩٠]، قَالَ: خَوفًا وَطَمَعًا، وَلَيسَ يَنبَغِي لِأَحَدِهِمَا أَن يُفَارِقَ الآخَرَ.(١)

٣٤٠ - **وَقَالَ عَبدُ اللهِ بنُ حَكِيمٍ:** خَطَبَنَا أَبُو بَكرٍ الصِّدِّيقُ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ-، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثنَىٰ عَلَيهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعدُ، فَإِنِّي أُوصِيكُم بِتَقوَىٰ اللهِ، وَأَن تُثنُوا عَلَيهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهلٌ، وَأَن تَخلِطُوا الرَّغبَةَ بِالرَّهبَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ أَثنَىٰ عَلَىٰ زَكَرِيَّا وَأَهلِ بَيتِهِ فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾».(٢)

أَوَّلًا: الرَّغبَةُ:

الرَّغبَةُ وَالرَّجَاءُ بَينَهُمَا تَقَارُبٌ؛ وَلِذَلِكَ يَستَدِلُّ العُلَمَاءُ فِي بَابِ الرَّجَاءِ أَحيَانًا بِأَدِلَّةِ الرَّغبَةِ، وَالعَكسُ.

لَكِن إِذَا اجتَمَعَ اللَّفظَانِ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ، فَبَينَهُمَا فَرقٌ دَقِيقٌ:

الرَّجَاءُ: طَمَعٌ فِي تَحصِيلِ مَحبُوبٍ.

الرَّغبَةُ: طَلَبٌ وَبَذلُ سَبَبٍ لِتَحصِيلِ ذَلِكَ المَحبُوبِ.

فَالفَرقُ بَينَهُمَا أَنَّ الرَّجَاءَ طَمَعٌ، وَالرَّغبَةَ طَلَبٌ؛ فَهِيَ ثَمَرَةُ الرَّجَاءِ، أَو رجاء خاص، فَإِنَّهُ إِذَا رَجَا الشَّيءَ طَلَبَهُ، وَرَغِبَ فِيهِ، وَالرَّغبَةُ مِنَ الرَّجَاءِ كَالهَرَبِ مِنَ الخَوفِ؛

---

(١) أَخرَجَهُ ابنُ جَرِيرٍ (١٦/ ٣٩٠).

(٢) أَخرَجَهُ ابنُ أَبِي شَيبَةَ (١٣/ ٢٥٨) مُطَوَّلًا، وَابنُ أَبِي حَاتِمٍ -كَمَا فِي تَفسِيرِ ابنِ كَثِيرٍ (٥/ ٣٦٥)-، وَأَبُو نُعَيمٍ فِي الحِليَةِ (١/ ٣٥)، وَالحَاكِمُ (٢/ ٣٨٣-٣٨٤)، وَالبَيهَقِيُّ فِي شُعَبِ الإِيمَانِ (١٠٥٩٣، ١٠٥٩٤).

فَمَن رَجا شَيئًا طَلَبَهُ وَرَغِبَ فِيهِ، وَمَن خافَ شَيئًا هَرَبَ مِنهُ.(١)

٣٤١ - **وَقَالَ ابنُ رَجَبٍ:** «الرَّغبَةُ فِي الشَّيءِ هِيَ مَيلُ النَّفسِ إِلَيهِ لِاعتِقَادِ نَفعِهِ».(٢)

٣٤٢ - **وَقَالَ يَحيَىٰ بنُ سَلَّامٍ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [سورة الأنبياء:٩٠]،

قَالَ: الأَعمَالُ الصَّالِحَةُ، ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا﴾ [سورة الأنبياء:٩٠]، قَالَ: طَمَعًا.(٣)

وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾ [سورة الشرح:٧-٨].

فَدَلَّ ذلِكَ عَلَىٰ أَنَّ الرَّغبَةَ يَجِبُ أَن تَكُونَ إِلَيهِ دُونَ سِوَاهُ.

فَالرَّغبَةُ ثَمَرَةُ الرَّجَاءِ؛ فَمَن رَجَا اللهَ رَغِبَ إِلَيهِ، وَسَعَىٰ، وَبَذَلَ السَّبَبَ.

وَقَد عَبَّرَ القُرآنُ عَن تَوحِيدِ الرَّغبَةِ بِقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [سورة التوبة:٥٩].

وَتَقدِيمُ الجَارِّ وَالمَجرُورِ يُفِيدُ الحَصرَ؛ أَي: لَا نَرغَبُ إِلَّا إِلَىٰ اللهِ.

٣٤٣ - **وَرُوِيَ عَنِ البَرَاءِ بنِ عَازِبٍ قَالَ:** كَانَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ نَامَ عَلَىٰ شِقِّهِ الأَيمَنِ ثُمَّ قَالَ: "اللَّهُمَّ أَسلَمتُ نَفسِي إِلَيكَ وَوَجَّهتُ وَجهِي إِلَيكَ وَفَوَّضتُ أَمرِي إِلَيكَ وَأَلجَأتُ ظَهرِي إِلَيكَ **رَغبَةً وَرَهبَةً إِلَيكَ** لَا مَلجَأَ وَلَا مَنجَا مِنكَ إِلَّا إِلَيكَ آمَنتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنزَلتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرسَلتَ" وَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: "مَن قَالَهُنَّ ثُمَّ مَاتَ تَحتَ لَيلَتِهِ مَاتَ عَلَىٰ الفِطرَةِ".(٤)

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٥٨).

(٢) جامع العلوم والحكم (مادة: رغ ب).

(٣) تفسير يَحيَىٰ بن سلّام (١/ ٣٣٩).

(٤) البخاري (٦٣١٥).

وَالأَدِلَّةُ عَلَىٰ الحَثِّ عَلَيهِ كَثِيرَةٌ، وَهذَا يَدُلُّ عَلَىٰ مَحَبَّةِ اللهِ لِهذِهِ العِبَادَةِ أَن تَكُونَ فِي قَلبِ العَبدِ، وَأَن يَتَقَرَّبَ إِلَىٰ اللهِ بِهَا؛ لِأَنَّهَا دَلِيلٌ عَلَىٰ مَحَبَّةِ العَبدِ لِرَبِّهِ، وَرَغبَتِهِ فِيمَا عِندَهُ، وَزُهدِهِ عَمَّا فِي أَيدِي النَّاسِ، وَطُمَأنِينَتِهِ إِلَىٰ الدَّارِ الآخِرَةِ.

فَعَلَىٰ العَبدِ أَن يُقبِلَ عَلَىٰ اللهِ وَطَاعَتِهِ رَاغِبًا، لِيَنَالَ الفَوزَ وَالفَلَاحَ، وَلِيَطَّلِعَ عَلَىٰ رَحمَةِ اللهِ وَعَظِيمِ فَضلِهِ، وَكَثرَةِ ثَوَابِهِ لِلطَّائِعِينَ، وَإِنعَامِهِ عَلَىٰ المُقبِلِينَ؛ مِمَّا يَجعَلُهُ يُقبِلُ عَلَيهِ رَاغِبًا، رَاجِيًا، طَامِعًا، مُستَشرِفًا لِمَا عِندَ مَولَاهُ.

ثانيًا: الرَّهبَة:

الرَّهبَةُ قَرِيبَةٌ مِنَ الخَوفِ، لَكِن بَينَهُمَا فَرقٌ دَقِيقٌ عِندَ اجتِمَاعِهِمَا:

الخَوفُ: خَوفٌ مُجَرَّدٌ.

الرَّهبَةُ: خَوفٌ مَعَ تَحَرُّزٍ وَهَرَبٍ مِنَ المَكرُوهِ، فالرهبة خوف خاص.

٣٤٤- رُوِيَ عَنِ الحَسَنِ البَصرِيِّ -مِن طَرِيقِ سُفيَانَ، عَن رَجُلٍ- فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء:٩٠]، قَالَ: الخَوفُ الدَّائِمُ فِي القَلبِ.[1]

٣٤٥- وَرُوِيَ عَنِ الحَسَنِ البَصرِيِّ أَيضًا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ [سورة الأنبياء:٩٠]، قَالَ: دَامَ خَوفُهُم رَبَّهُم فَلَم يُفَارِق خَوفُهُ قُلُوبَهُم؛ إِن نَزَلَت بِهِم رَغبَةٌ خَافُوا أَن يَكُونَ ذَلِكَ استِدرَاجًا مِنَ اللهِ لَهُم، وَإِن نَزَلَت بِهِم رَهبَةٌ خَافُوا أَن يَكُونَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- قَد أَمَرَ بِأَخذِهِم لِبَعضِ مَا سَلَفَ مِنهُم.

وَلِذَلِكَ يُوجَدُ تَقَارُبٌ بَينَ لَفظِ الرَّهبِ وَالهَرَبِ؛ فَمَن رَهِبَ شَيئًا هَرَبَ مِنهُ.

---

(١) أَخرَجَهُ ابنُ المُبَارَكِ فِي الزُّهد (١٦٨)

وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [سورة البقرة:٤٠].

فَتقدِيمُ المَفعُولِ يُفِيدُ الحَصرَ؛ أَي: لَا تُرهَبُوا إِلَّا اللهَ، أَو: إِن نَالَكُمُ الخَوفُ فَارهَبُونِي أَنَا دُونَ سِوَايَ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [سورة النمل:١٢]

٣٤٦ - **قَالَ عَبدُ الرَّحمَنِ بنُ زَيدِ بنِ أَسلَمَ -مِن طَرِيقِ ابنِ وَهبٍ- فِي قَولِهِ:** ﴿مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ [سورة القصص:٣٢]:

مِمَّا دَخلَهُ مِنَ الفَرَقِ مِنَ الحَيَّةِ وَالخَوفِ، وَقَرأَ قَولَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾، قَالَ: خَوفًا وَطَمَعًا.(١)

فَمَن رَهِبَ غَيرَ اللهِ رَهبَةَ السِّرِّ اعتِقَادًا بِتَصرُّفٍ غَيبِيٍّ مِنهُ، فَقَد أَشرَكَ شِركًا أَكبَرَ؛ كَالَّذِي يَعتَقِدُ أَنَّ لِشَيخِهِ أَو لِوَلِيٍّ مَيِّتٍ سُلطَانًا غَيبِيًّا يَضُرُّهُ أَو يَطَّلِعُ عَلَىٰ قَلبِهِ، وَهٰذَا عَينُ الشِّركِ.

٣٤٧ - **وَقَالَ ابنُ بَطَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي الإبانة الصغرى:** «وَأَجمَعَتِ العُلَمَاءُ لَا خِلَافَ بَينَهُم: أَنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- قَدِ افتَرَضَ عَلَىٰ الخَلقِ الخَوفَ وَالرَّجَاءَ، وَأَنَّهُ دَعَا عِبَادَهُ إِلَيهِ بِـ الرَّغبَةِ وَالرَّهبَةِ».

فالرهبة خَوفٌ مَقرُونٌ بِعَمَلٍ، وهذَا المَقَامُ عَلَىٰ العَبدِ؛ فَيَكُونُ مُطِيعًا لِلَّهِ، تَارِكًا لِمَعَاصِيهِ خَوفًا وَخَشيَةً مِنَ اللهِ، ولِذلِكَ قَالَ سُبحَانَهُ: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [سورة النحل:٥١].

فَالخَوفُ الحَقِيقِيُّ وَالرَّهبَةُ الكَامِلَةُ هِيَ الرَّهبَةُ مِنَ اللهِ؛ فَيَعبُدُ العَبدُ رَبَّهُ رَاغِبًا فِيمَا

---

(١) أَخرَجَهُ ابنُ جَرِيرٍ (١٨/ ٢٤٦)، وَابنُ أَبِي حَاتِمٍ (٩/ ٢٩٧٦) مِن طَرِيقِ أَصبَغَ.

عِندَهُ، رَاهِبًا مِمَّا عِندَهُ، وَيُقبِلُ عَلَيهِ وَيَدعُوهُ رَاغِبًا رَاهِبًا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء:٩٠].

٣٤٨ - **وَكَانَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- مِن دُعَائِهِ:** «وَأَلجَأتُ ظَهرِي إِلَيكَ، رَغبَةً وَرَهبَةً إِلَيكَ...» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

٣٤٩ - **وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [سورة فاطر:٢٨]: **كَانَ يُقَالُ:** كَفَىٰ بِالرَّهبَةِ عِلمًا.

فَالرَّهبَةُ خَشيَةٌ تَكُونُ فِي قَلبِ العَبدِ، تَحفَظُهُ مِن رَدِيءِ الخَوَاطِرِ وَالأَفكَارِ، وَهِيَ: إِمَّا خَشيَةٌ مِن عَذَابِ اللهِ، وَإِمَّا خَشيَةٌ مِن جَلَالِ اللهِ، وَهِيَ الأَكمَلُ؛ أَن يَستَشعِرَ عَظَمَةَ اللهِ وَجَلَالَهُ، فَيَمتَلِئَ قَلبُهُ رَهبَةً وَخَشيَةً أَن يُخَالِفَ أَمرَهُ.

وَمَن كَانَ خَوفُهُ وَرَهبَتُهُ فِي الدُّنيَا أَشَدَّ، كَانَ أَمنُهُ فِي الآخِرَةِ أَتَمَّ.

وَسَيِّدُ الرَّاهِبِينَ هُوَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-؛ فَقَد مَلَأَتِ الرَّهبَةُ قَلبَهُ، حَتَّىٰ قَالَ: «وَاللهِ، إِنِّي لَأَرجُو أَن أَكُونَ أَخشَاكُم لِلَّهِ، وَأَعلَمَكُم بِمَا أَتَّقِي».

فَعَلَىٰ العَبدِ أَن يَحرِصَ عَلَىٰ هَذِهِ العِبَادَةِ، وَليُفَتِّش فِي قَلبِهِ: أَهِيَ مَوجُودَةٌ أَم لَا؟ فَإِنَّهَا دَلِيلٌ عَلَىٰ كَمَالِ إِسلَامِ العَبدِ، وَسَبَبٌ لِأَمنِهِ مِنَ الفَزَعِ الأَكبَرِ، وَطَرِيقٌ إِلَىٰ مَحَبَّةِ اللهِ وَخَشيَتِهِ، وَعُنوَانٌ عَلَىٰ صَلَاحِ العَبدِ وَاستِقَامَتِهِ، وَليَحذَر مِن صَرفِهَا لِغَيرِ اللهِ.

وَأَمَّا الرَّهبَةُ مِنَ المَخلُوقِينَ فَهِيَ أَنوَاعٌ:

فَرَهبَةُ الأَضرِحَةِ وَالأَصنَامِ شِركٌ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ أَموَاتٌ، وَمَا وُجِدَتِ الرَّهبَةُ إِلَّا لِاعتِقَادِ أَنَّهُم يَملِكُونَ الضُّرَّ وَالنَّفعَ، وهذَا حَالُ عُبَّادِ القُبُورِ وَالمُعَظِّمِينَ لِلأَضرِحَةِ

وَالأَوثَانِ.

وَرَهبَةُ مَن يَقدِرُ عَلَىٰ إِنفَاذِ مَا تَوعَّدَ بِهِ لَا تُحرِّمُ؛ فَالإِنسَانُ مَجبُولٌ عَلَىٰ الخَوفِ مِمَّا يُتَوَقَّعُ شَرُّهُ، ولكِن لَا يَزِيدُ فِيهَا عَلَىٰ الحَدِّ حَتَّىٰ تَمنعَهُ مِن وَاجِبٍ أَو تُوقِعَهُ فِي حَرَامٍ.

ثَالِثًا: الخُشُوعُ:

الخُشُوعُ فِي اللُّغَةِ: الخُضُوعُ وَالسُّكُونُ.

وَفِي الشَّرعِ: ذُلٌّ وَخُضُوعٌ مَعَ المَحبَّةِ وَالتَّعظِيمِ.

فَالخُشُوعُ تَذَلُّلُ القُلُوبِ لِعَلَّامِ الغُيُوبِ، وَيَكُونُ بِالبَدَنِ، وَالبَصَرِ، وَالصَّوتِ، وَالجَوَارِحِ.

٣٥٠ - **وَفِي صحيح مسلم أَنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ:** «خَشَعَ لَكَ سَمعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي، وَعَظمِي، وَعَصَبِي».

وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَىٰ استِسلَامِ العَبدِ لِرَبِّهِ، وَمُرَاقَبَتِهِ لَهُ، وَتَقدِيرِهِ لِهَيبَتِهِ، وَعِلمِهِ بِاطِّلَاعِهِ عَلَيهِ، وَمَظهَرٌ مِن مَظَاهِرِ صَلَاحِ القَلبِ وَصِحَّةِ الإِيمَانِ.

وَاللهُ يُحِبُّ مِنَ العَبدِ أَن يُقبِلَ عَلَىٰ طَاعَتِهِ خَاشِعًا خَاضِعًا؛ بَل هُوَ لُبُّ الطَّاعَةِ وَرُوحُهَا.

وَقَد يَخضَعُ الإِنسَانُ لِظَالِمٍ يُبغِضُهُ، أَمَّا الخُشُوعُ لِلهِ فَيَجمَعُ بَينَ الخُضُوعِ وَالمَحبَّةِ وَالتَّعظِيمِ، وهذَا هُوَ شَأنُ المُؤمِنِينَ، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٠].

٣٥١ - **وَرُوِيَ عَن مُجَاهِدِ بنِ جَبرٍ -مِن طَرِيقِ ابنِ أَبِي نَجِيحٍ- فِي قَولِهِ:** ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٠]، قَالَ: مُتَوَاضِعِينَ.(١)

---

(١) أَخرَجَهُ يَحيَىٰ بنُ سَلَّامٍ (١/ ٣٣٩).

٣٥٢ - وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ -مِن طَرِيقِ ابنِ جُرَيجٍ- فِي قَولِهِ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾ [سورة الأنبياء:٩٠]، قَالَ: مُتَوَاضِعِينَ، هُدَاةً.[1]

٣٥٣ - وَرُوِيَ عَنِ الضَّحَّاكِ بنِ مُزَاحِمٍ -مِن طَرِيقِ جُوَيبِرٍ- فِي قَولِهِ: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء:٩٠]، قَالَ: الذِّلَّةُ لِلهِ.[2]

٣٥٤ - وَرُوِيَ عَنِ الحَسَنِ البَصرِيِّ -مِن طَرِيقِ مَالِكِ بنِ مَغُولٍ- فِي قِصَّةِ زَكَرِيَّا: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [سورة الأنبياء:٩٠]، قَالَ: ذُلُلًا لِأَمرِ اللهِ جَلَّ اسمُهُ.[3]

٣٥٥ - وَقَالَ قَتَادَةُ بنُ دِعَامَةَ فِي قَولِهِ: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء:٩٠]: أَذِلَّاءُ.

٣٥٦ - وَقَالَ مُقَاتِلُ بنُ سُلَيمَانَ: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء:٩٠]، أَي: لِلهِ سُبحَانَهُ مُتَوَاضِعِينَ.[4]

٣٥٧ - وَرُوِيَ عَن سُفيَانَ الثَّورِيِّ -مِن طَرِيقِ بِشرِ بنِ مَنصُورٍ- فِي قَولِهِ: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء:٩٠]، قَالَ: الخَوفُ الدَّائِمُ فِي القَلبِ.[5]

٣٥٨ - وَرُوِيَ عَن سُفيَانَ بنِ عُيَينَةَ -مِن طَرِيقِ ضَمرَةَ- فِي قَولِهِ: ﴿وَكَانُوا لَنَا

---

(١) أَخرَجَهُ إِسحَاقُ البُستِيُّ فِي تَفسِيرِهِ (ص ٣٢٠).

(٢) أَخرَجَهُ ابنُ أَبِي شَيبَةَ (١٣/ ٥٨٠).

(٣) أَخرَجَهُ إِسحَاقُ البُستِيُّ (ص ٣٢٠).

(٤) تفسير مقاتل (٣/ ٩١).

(٥) أَخرَجَهُ أَبُو نُعَيمٍ فِي حِليَةِ الأَولِيَاءِ (٧/ ٧٨).

﴿خَٰشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء:٩٠]، قَالَ: الحُزنُ الذَّائِعُ فِي القَلبِ.(١)

وَقدِ اتَّفقَ العُلَمَاءُ عَلَىٰ أَنَّ مَحَلَّ الخُشُوعِ القَلبُ، وَلَكِن أَثَرهُ يَظهَرُ عَلَىٰ الجوَارِحِ؛ ولِذلِكَ قِيلَ: إِذَا خَشعَ القَلبُ، خَشعَتِ الجوَارِحُ؛ لِأَنَّ القَلبَ مَلِكُ البَدَنِ، وَأَمِيرُ الأَعضَاءِ.

فَالخُشُوعُ عِبَادَةٌ قَلبِيَّةٌ يَجِبُ صَرفُهَا لِلهِ وَحدَهُ.

إِذاً: اللهَ تَعَالَىٰ أَثنَىٰ عَلَىٰ أُولَئِكَ الأَنبِيَاءِ وَالمُرسَلِينَ؛ لِكَونِهِم ذَوِي رَغَبٍ، وَذَوِي رَهَبٍ، وَذَوِي خُشُوعٍ لِلَّهِ، وهذَا بِالدَّلِيلِ العَامِّ.

وَزَادَ عَلَىٰ ذلِكَ دَلِيلًا خَاصًّا فِي الخُشُوعِ وَحدَهُ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء:٩٠].

والجَارَّ وَالمَجرُورَ هُنَا قُدِّمَ عَلَىٰ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ، وَهُوَ اسمُ الفَاعِلِ (خَاشِعِينَ)؛ لِأَنَّ الجَارَّ وَالمَجرُورَ يَتَعَلَّقُ بِالفِعلِ، أَو بِمَا فِيهِ مَعنَىٰ الفِعلِ، كَاسمِ الفَاعِلِ، أَوِ اسمِ المَفعُولِ، أَوِ المَصدَرِ، وَنَحوِ ذلِكَ.

وَهُنَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء:٩٠]، وَأَصلُ سِيَاقِ الكَلَامِ: كَانُوا خَاشِعِينَ لَنَا، فَلَمَّا قُدِّمَ مَا حَقُّهُ التَّأخِيرُ، كَانَ ذلِكَ مُفِيدًا لِلِاختِصَاصِ، وَلِلحَصرِ، وَلِلقَصرِ.

فَيَكُونُ المَعنَىٰ: أَنَّهُم لَا يَخشَعُونَ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يَصرِفُونَ هذِهِ العِبَادَةَ القَلبِيَّةَ العَظِيمَةَ إِلَّا لَهُ وَحدَهُ، وهذَا غَايَةُ التَّوحِيدِ وَكَمَالُ الإِخلَاصِ.

---

(١) أَخرَجَهُ ابنُ أَبِي الدُّنيَا فِي الهَمِّ وَالحُزنِ، وَإِسحَاقُ البُستِيُّ فِي تَفسِيرِهِ.

أَنواعُ الخُشُوعِ:

خُشُوعٌ عَامٌّ: حَالٌ دَائِمٌ لِلمُؤمِنِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، يُثمِرُ الاِنقِيَادَ لِحُكمِ اللهِ الشَّرعِيِّ وَالكَونِيِّ.

خُشُوعٌ خَاصٌّ: عِندَ تِلَاوَةِ القُرآنِ وَذِكرِ اللهِ، كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الحديد:١٦].

خُشُوعٌ فِي الصَّلَاةِ: كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ① ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ②﴾ [سورة المؤمنون:١-٢].

بينما لَو تَأَمَّلتَ – أَو رَأَيتَ – حَالَ المُشرِكِينَ عِندَ آلِهَتِهِم، أَو حَالَ عُبَّادِ القُبُورِ – مَثَلًا – عِندَ أَوثَانِهِم، لَوَجَدتَ أَنَّهُم فِي خُشُوعٍ لَيسُوا عَلَيهِ فِي مَسَاجِدِ اللهِ الَّتِي لَيسَ فِيهَا قَبرٌ وَلَا قُبَّةٌ، وهذَا أَمرٌ مُشَاهَدٌ، فَإِنَّهُ يَكُونُ عِندَهُم وَجَلٌ خَاصٌّ، وَرَهبَةٌ، وَمَزِيدُ رَجَاءٍ وَهُوَ الرَّغبَةُ، وَخُشُوعٌ، وتَطَامُنٌ، وَقِلَّةُ حَرَكَةٍ، وَسُكُونٌ فِي الجَوَارِحِ وَالأَنفَاسِ، بَل حَتَّىٰ فِي الأَلحَاظِ – وَهِيَ النَّظَرُ –؛ وهذَا كُلُّهُ مِمَّا لَا يَسُوغُ أَن يَكُونَ إِلَّا للهِ تَعَالَىٰ.

فَعَلَىٰ المُسلِمِ أَن يَحرِصَ عَلَىٰ جَلبِ الخُشُوعِ لِقَلبِهِ وَجَوَارِحِهِ فِي صَلَاتِهِ، وَقِرَاءَتِهِ، وَدُعَائِهِ، وَأَخلَاقِهِ؛ لِيَعظُمَ أَجرُهُ، وَيَلِينَ قَلبُهُ، وَيَرضَىٰ عَنهُ رَبُّهُ.

وَمِن أَعظَمِ مَا يُعِينُ عَلَىٰ استِجلَابِ الخُشُوعِ: أَن يُوقِنَ أَنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عَلَيهِ، يَعلَمُ مَا يَدُورُ فِي صَدرِهِ، وَيَنظُرُ إِلَىٰ عَلَانِيَتِهِ وَسِرِّهِ، فَلَا تَخفَىٰ عَلَيهِ خَافِيَةٌ، وَيُوقِنَ أَنَّ اللهَ يَرَاهُ إِذَا عَمِلَ، وَيَسمَعُهُ إِذَا قَرَأَ وَدَعَاهُ وَسَأَلَهُ، فَإِن أَقبَلتَ عَلَيهِ بِقَلبِكَ أَقبَلَ عَلَيكَ، وَإِن تَغَافَلتَ عَنهُ صَرَفَ وَجهَهُ عَنكَ.

وَكُلَّمَا كَانَ العَبدُ أَشَدَّ استِحضَارًا لِهذَا، كَانَ أَشَدَّ خُشُوعًا، وَإِنَّمَا يُفَارِقُ الخُشُوعُ

القَلبَ إِذَا غَفَلَ عَن اطِّلَاعِ اللهِ عَلَيهِ.

٣٥٩ - **وَكَانَ علي بن الحسين - رَحِمَهُ اللهُ -، إِذَا تَوَضَّأَ اصفَرَّ وَتَغَيَّرَ، فَيُقَالُ لَهُ:** مَا لَكَ؟ فَيَقُولُ:

«أَتَدرُونَ بَينَ يَدَي مَن أُرِيدُ أَن أَقُومَ؟».

٣٦٠ - **وَقَالَ الحسن البصري:** «كَانَ خُشُوعُهُم فِي قُلُوبِهِم، فَغَضُّوا بِذلِكَ البَصَرَ، وَخَفَضُوا بِهِ الجَنَاحَ».

٣٦١ - **قَالَ مجاهد بن جبر فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [سورة الفتح:٢٩]: «هُوَ الخُشُوعُ وَالتَّوَاضُعُ».

خُلَاصَةُ المَسأَلَةِ:

الرَّغبَةُ: طَلَبُ مَا عِندَ اللهِ.

الرَّجَاءُ: طَمَعٌ فِي فَضلِهِ.

الرَّهبَةُ: خَوفٌ مَعَ هُرُوبٍ مِنَ العِقَابِ.

الخُشُوعُ: ذُلٌّ وَانكِسَارٌ مَعَ مَحَبَّةٍ وَتعظِيمٍ.

وَكُلُّهَا عِبَادَاتٌ قَلبِيَّةٌ عَظِيمَةٌ، لَا يَجُوزُ صَرفُ شَيءٍ مِنهَا لِغَيرِ اللهِ، وَمَن صَرَفَ مِنهَا شَيئًا لِغَيرِهِ فَقَد جَعَلَ لِلهِ نِدًّا.

قال المؤلف -رحمه الله-:

دليل الخشية قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ [سورة البقرة:١٥٠].

الخَشيَةُ قَرِيبَةٌ فِي مَعنَاهَا مِنَ الخَوفِ، إِلَّا أَنَّهَا أَخَصُّ مِنهُ وَأَعلَىٰ مَقَامًا؛ فَالخَشيَةُ خَوفٌ مَبنِيٌّ عَلَىٰ مَعرِفَةٍ وَتَعظِيمٍ، وَلَيسَ مُجَرَّدَ فَزَعٍ أَو هَيبَةٍ، فَقَد يَخَافُ الإِنسَانُ مِمَّن لَا يَعرِفُهُ عَلَىٰ وَجهِ الدِّقَّةِ، أَو مِمَّن بَلَغَهُ عَنهُ خَبَرٌ مُجمَلٌ؛ أَمَّا الخَشيَةُ فَلَا تَكُونُ إِلَّا عَن عِلمٍ بِالمَخشِيِّ، وَإِدرَاكٍ لِعَظَمَتِهِ، وَاستِحضَارٍ لِجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ.

وَلِهَذَا خَصَّ اللهُ تَعَالَىٰ بِالخَشيَةِ أَهلَ العِلمِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [سورة فاطر:٢٨]؛ لِأَنَّهُم أَعرَفُ النَّاسِ بِاللهِ، وَأَعلَمُهُم بِأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَبِمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ.

٣٦٢ - **وَقَد قَالَ النَّبِيُّ** -ﷺ-: «وَاللهِ، إِنِّي لَأَعلَمُكُم بِاللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَلَأَخشَاكُم لَهُ».

فَالخَشيَةُ أَعلَىٰ دَرَجَةً مِنَ الخَوفِ؛ لِأَنَّهَا مَقرُونَةٌ بِمَعرِفَةِ اللهِ، وَصَاحِبُهَا يَلتَجِئُ إِلَىٰ اللهِ، وَيَعتَصِمُ بِهِ، وَيَستَسلِمُ لِأَمرِهِ.

وَعَلَىٰ قَدرِ عِلمِ العَبدِ بِرَبِّهِ وَمَعرِفَتِهِ بِهِ، تَكُونُ خَشيَتُهُ لَهُ.

وَاللهُ تَعَالَىٰ لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ مَا يُوجِبُ الخَوفَ وَالخَشيَةَ؛ فَهُوَ العَزِيزُ، الجَبَّارُ، شَدِيدُ العِقَابِ، ذُو الانتِقَامِ، لَا يُرَدُّ بَأسُهُ عَنِ القَومِ الظَّالِمِينَ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ رَبٌّ رَحِيمٌ، حَلِيمٌ،

غَفُورٌ.

وَمَعَ مُلَاحَظَةِ هذِهِ الصِّفَاتِ العَظِيمَةِ، يَجتَمِعُ أَصلٌ آخَرُ هُوَ أَسَاسُ الخَشيَةِ، وَهُوَ: مُلَاحَظَةُ تَقصِيرِ النَّفسِ وَذَنبِهَا.

فَالخَوفُ مِنَ اللهِ لَا يَتَحَقَّقُ بِمُجَرَّدِ العِلمِ بِصِفَاتِهِ، بَل بِانضِمَامِ العِلمِ بِتَقصِيرِ العَبدِ وَتَفرِيطِهِ؛ وَلِهذَا قِيلَ عَن عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ-: «لَا يَرجُونَّ عَبدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَخَافَنَّ إِلَّا ذَنبَهُ»، لِأَنَّ سَبَبَ الغَضَبِ وَالعِقَابِ إِنَّمَا هُوَ الذَّنبُ وَالتَّقصِيرُ.

وَالخَشيَةُ مِن أَعلَىٰ صِفَاتِ أَهلِ الإِيمَانِ، وَمِن أَجَلِّ أَوصَافِ أَهلِ الجَنَّةِ وَالرِّضوَانِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [سورة المؤمنون:٥٧]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [سورة الملك:١٢]، وَقَالَ: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [سورة البينة:٨].

٣٦٣ - وَقَد بَيَّنَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عُلُوَّ مَنزِلَةِ الخَشيَةِ، وَأَنَّ العِبَادَةَ الَّتِي تُقَارِنُهَا الخَشيَةُ أَعظَمُ قَدرًا وَأَرفَعُ أَجرًا، فَقَالَ: «لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَىٰ مِن خَشيَةِ اللهِ حَتَّىٰ يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرعِ»، وَفِي الحَدِيثِ: أَنَّ رَجُلًا بَكَىٰ خَالِيًا مِن خَشيَةِ اللهِ، فَغَفَرَ اللهُ لَهُ.

فَحَرِيٌّ بِالمُسلِمِ أَن يَتَعَرَّفَ عَلَىٰ رَبِّهِ، وَأَن يَتَفَقَّهَ فِي أَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، حَتَّىٰ تَمتَلِئَ قَلبُهُ خَشيَةً لَهُ؛ فَالمُؤمِنُ الحَقُّ هُوَ الَّذِي يَجمَعُ بَينَ العِلمِ وَالعَمَلِ وَالخَشيَةِ، وَأَصلُ العِلمِ وَثَمَرَتُهُ: خَشيَةُ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا-.

وَمِن أَعظَمِ الخَلَلِ فِي الإِيمَانِ أَن يُصرَفَ مَقَامُ الخَشيَةِ لِغَيرِ اللهِ؛ فَالخَشيَةُ لَا تَكُونُ

إِلَّا لِلَّهِ وَحدَهُ، لِأَنَّهَا مَقَامُ تَعظِيمٍ وَإِجلَالٍ، وَلَا يَستَحِقُّ ذلِكَ إِلَّا الخَالِقُ سُبحَانَهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [سورة المائدة:٤٤]، وَقَالَ مُنكِرًا عَلَىٰ مَن قَدَّمَ خَشيَةَ المَخلُوقِ: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة التوبة:١٣].

وَمَدَحَ اللهُ أَهلَ الثَّبَاتِ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ دِينَهُ، وَلَا يَخشَونَ فِي اللهِ لَومَةَ لَائِمٍ، فَقَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [سورة الأحزاب:٣٩]، فَعَلَىٰ المُسلِمِ أَن تَكُونَ خَشيَتُهُ لِلَّهِ وَحدَهُ، وَأَلَّا يَترُكَ طَاعَتَهُ، وَلَا تَبلِيغَ دِينِهِ، خَشيَةَ أَحَدٍ مِنَ المَخلُوقِينَ؛ فَمَن قَدَّمَ خَشيَةَ المَخلُوقِ عَلَىٰ خَشيَةِ الخَالِقِ، فَقَد قَدَّمَ الضَّعِيفَ عَلَىٰ العَظِيمِ، وَنَقَصَ مِن تَوحِيدِهِ بِقَدرِ ذلِكَ.

قال المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ -:

دليل الإنابة قَولُهُ تعَالَىٰ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [سورة الزمر:٥٤].

الإِنَابَةُ عِبَادَةٌ قَلبيَّةٌ عَظِيمَةٌ يَجِبُ عَلَىٰ العَبدِ أَن يُوحِّدَ اللهَ بِهَا، كَمَا قَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾ [سورة الممتحنة:٤]، **وَتَقدِيمُ الجَارِّ وَالمَجرُورِ:** (إِلَيكَ) يُفِيدُ الحَصرَ؛ أَي: لَا نُنِيبُ إِلَّا إِلَىٰ اللهِ.

حَقِيقَةُ الإِنَابَةِ:

الإِنَابَةُ فِي اللُّغَةِ: الرُّجُوعُ.

وَأَمَّا فِي الشَّرعِ فَهِيَ أَوسَعُ مِن مُجَرَّدِ الرُّجُوعِ، وَلَا يَكُونُ العَبدُ مُنِيبًا حَقًّا حَتَّىٰ يَجمَعَ أَربَعَ خِصَالٍ:

- مَحَبَّةُ اللهِ.
- الخُضُوعُ لَهُ سُبحَانَهُ.
- الإِقبَالُ عَلَيهِ.
- الإِعرَاضُ عَمَّا سِوَاهُ.

فَإِذَا اكتَمَلَت هَذِهِ الأَربَعُ اكتَمَلَ مَعنَىٰ الإِنَابَةِ، «فَحَقِيقَةُ الإِنَابَةِ عُكُوفُ القَلبِ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ وَالإِقبَالِ عَلَيهِ».

أَو: رُجُوعُ القَلبِ إِلَىٰ اللهِ مَحَبَّةً وَخَوفًا وَرَجَاءً.

الفَرقُ بَينَ الإنَابَةِ وَالتَّوبَةِ:

كَمَا أَنَّ بينَ الرَّغبَةِ وَالرَّجاءِ، وَبَينَ الرَّهبَةِ وَالخَوفِ تَقَارُبًا؛ فَكَذَلِكَ بَينَ الإنابَةِ وَالتَّوبَةِ:

التَّوبَةُ: رُجُوعٌ عَنِ الذَّنبِ.

الإِنَابَةُ: رُجُوعٌ إِلَىٰ اللهِ مَعَ اجتِمَاعِ المَحَبَّةِ وَالخُضُوعِ وَالإِقبَالِ وَالإِعرَاضِ عَمَّا سِوَاهُ.

فَالإِنَابَةُ أَوسَعُ وَأَعلَىٰ دَرَجَةً، وَهِيَ أَخَصُّ مِنَ التَّوبَةِ.

فَضلُ المُنِيبِينَ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [سورة الزمر:١٧].

٣٦٤ - **رُوِيَ عَن قَتَادَةَ بنِ دِعَامَةَ - مِن طَرِيقِ سَعِيدٍ - فِي قَولِهِ:** ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [سورة الزمر:١٧]، قَالَ: أَقبَلُوا إِلَىٰ اللهِ.(١)

٣٦٥ - **وَرُوِيَ عَن إِسمَاعِيلَ السُّدِّيِّ - مِن طَرِيقِ أَسبَاطٍ - فِي قَولِهِ:** ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة الزمر:١٧]، قَالَ: أَجَابُوا إِلَيهِ.(٢)

٣٦٦ - **وَقَالَ مُقَاتِلُ بنُ سُلَيمَانَ:** ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة الزمر:١٧] يَعنِي: وَرَجَعُوا مِن عِبَادَةِ الأَوثَانِ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ يَعنِي: الجَنَّةَ؛ ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [سورة الزمر:١٧] فَبَشِّر عِبَادِي بِالجَنَّةِ.(٣)

---

(١) أَخرَجَهُ ابنُ جَرِيرٍ ٢٠/ ١٨٤، وَعَزَاهُ السُّيُوطِيُّ إِلَىٰ عَبدِ بنِ حُمَيدٍ.

(٢) أَخرَجَهُ ابنُ جَرِيرٍ ٢٠/ ١٨٤.

(٣) تَفسِيرُ مُقَاتِلِ بنِ سُلَيمَانَ ٣/ ٦٧٣.

أَبشِر بِالخَيرِ أَيُّهَا المُنِيبُ إِلَىٰ اللهِ؛ فَالمُبَشِّرُ هُوَ الكَرِيمُ الَّذِي لَا يُخلِفُ المِيعَادَ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [سورة الزمر:٥٤].

٣٦٧ - **رُوِيَ عَن قَتَادَةَ بنِ دِعَامَةَ - مِن طَرِيقِ سَعِيدٍ - فِي قَولِهِ:** ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ [سورة الزمر:٥٤]، قَالَ: أَقبِلُوا إِلَىٰ رَبِّكُم.(١)

٣٦٨ - **وَرُوِيَ عَن إِسمَاعِيلَ السُّدِّيِّ - مِن طَرِيقِ أَسبَاطٍ - فِي قَولِهِ:** ﴿وَأَنِيبُوٓاْ﴾ [سورة الزمر:٥٤]، قَالَ: أَجِيبُوا.(٢)

٣٦٩ - **وَقَالَ مُقَاتِلُ بنُ سُلَيمَانَ:** ثُمَّ دَعَاهُم إِلَىٰ التَّوبَةِ، فَقَالَ سُبحَانَهُ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ [سورة الزمر:٥٤] يَقُولُ: وَارجِعُوا مِنَ الذُّنُوبِ إِلَىٰ اللهِ، ﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [سورة الزمر:٥٤] يَعنِي: وَأَخلِصُوا لَهُ بِالتَّوحِيدِ، ثُمَّ خَوَّفَهُم فَقَالَ: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [سورة الزمر:٥٤] يَعنِي: لَا تُمنَعُونَ مِنَ العَذَابِ.(٣)

٣٧٠ - **وَعَن عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ زَيدِ بنِ أَسلَمَ - مِن طَرِيقِ ابنِ وَهبٍ - فِي قَولِهِ:** ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ [سورة الزمر:٥٤]، قَالَ: الإِنَابَةُ: الرُّجُوعُ إِلَىٰ الطَّاعَةِ، وَالنُّزُوعُ عَمَّا كَانُوا عَلَيهِ، أَلَا تَرَاهُ يَقُولُ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ [سورة الروم:٣١] ؟!(٤)

٣٧١ - **وَرُوِيَ عَن عُبَيدِ بنِ تِعلَىٰ، قَالَ:** الإِنَابَةُ: الدُّعَاءُ.

وَقَولُهُ حِكَايَةً عَن شُعَيبٍ أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾

---

(١) أَخرَجَهُ ابنُ جَرِيرٍ ٢٠/ ٢٣١، وَعَزَاهُ السُّيُوطِيُّ إِلَىٰ عَبدِ بنِ حُمَيدٍ.

(٢) أَخرَجَهُ ابنُ جَرِيرٍ ٢٠/ ٢٣١.

(٣) تَفسِيرُ مُقَاتِلِ بنِ سُلَيمَانَ ٣/ ٦٨٣.

(٤) أَخرَجَهُ ابنُ جَرِيرٍ ٢٠/ ٢٣١.

إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [سورة هود:٨٨].

٣٧٢ - **رُوِيَ عَن مُجَاهِدِ بنِ جَبرٍ - مِن طَرِيقِ ابنِ أَبِي نَجِيحٍ - فِي قَولِهِ:** ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، قَالَ: أَرجِعُ.(١)

٣٧٣ - **وَعَن عُبَيدِ بنِ تِعلَىٰ - مِن طَرِيقِ يَحيَىٰ بنِ حَسَّانَ - قَالَ:** الإِنَابَةُ: الدُّعَاءُ.(٢)

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [سورة الروم:٣١].

٣٧٤ - **قَالَ عَبدُ الرَّحمَنِ بنُ زَيدِ بنِ أَسلَمَ - مِن طَرِيقِ ابنِ وَهبٍ - فِي قَولِهِ:** ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾، قَالَ: المُنِيبُ إِلَىٰ اللهِ: المُطِيعُ لِلهِ، الَّذِي أَنَابَ إِلَىٰ طَاعَةِ اللهِ وَأَمرِهِ، وَرَجَعَ عَنِ الأُمُورِ الَّتِي كَانَ عَلَيهَا قَبلَ ذَلِكَ؛ كَانَ القَومُ كُفَّارًا، فَنَزَعُوا وَرَجَعُوا إِلَىٰ الإِسلَامِ.(٣)

٣٧٥ - **قَالَ يَحيَىٰ بنُ سَلَّامٍ:** ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ مُقبِلِينَ إِلَيهِ بِالإِخلَاصِ، مُخلِصِينَ لَهُ، وَهَذَا تَبَعٌ لِلكَلَامِ الأَوَّلِ، ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [سورة الروم:٣١] المَفرُوضَةَ.(٤)

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سورة ق:٨].

٣٧٦ - **رُوِيَ عَن قَتَادَةَ بنِ دِعَامَةَ - مِن طَرِيقِ سَعِيدٍ - فِي قَولِهِ:** ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [سورة ق:٨]، قَالَ: المُنِيبُ: المُقبِلُ بِقَلبِهِ إِلَىٰ اللهِ.(٥)

---

(١) تَفسِيرُ مُجَاهِدٍ ص ٣٩٠، وَأَخرَجَهُ ابنُ جَرِيرٍ ١٢/ ٥٤٩-٥٥٠، وَابنُ أَبِي حَاتِمٍ ٦/ ٢٠٧٤.

(٢) أَخرَجَهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ ٦/ ٢٠٧٤.

(٣) أَخرَجَهُ ابنُ جَرِيرٍ ١٨/ ٤٩٧.

(٤) تَفسِيرُ يَحيَىٰ بنِ سَلَّامٍ ٢/ ٦٥٩.

(٥) أَخرَجَهُ ابنُ جَرِيرٍ ٢١/ ٤١٠، وَعَزَاهُ السُّيُوطِيُّ إِلَىٰ عَبدِ بنِ حُمَيدٍ.

٣٧٧ - قَالَ مُقَاتِلُ بنُ سُلَيمَانَ: ﴿لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾، يَعنِي: مُخلِصُ القَلبِ بِالتَّوحِيدِ.(١)

٣٧٨ - وَعَن سُفيَانَ بنِ عُيَينَةَ - مِن طَرِيقِ ابنِ أَبِي عُمَرَ - فِي قَولِهِ: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ [سورة ق:٨]، قَالَ: رَاجِعٌ، قَالَ سُفيَانُ: وَالإِنَابَةُ: الإِقبَالُ.(٢)

وَالرُّجُوعُ إِلَىٰ اللهِ وَالإِنَابَةُ إِلَيهِ عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ مِن سُنَنِ الأَنبِيَاءِ وَالمُرسَلِينَ؛ قَالَ - جَلَّ وَعَلَا - عَن دَاوُودَ - عَلَيهِ السَّلَامُ -: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ﴾ [سورة ص:٢٤].

وَقَالَ عَن سُلَيمَانَ - عَلَيهِ السَّلَامُ -: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [سورة ص:٣٤].

وَقَالَ شُعَيبٌ - عَلَيهِ السَّلَامُ -: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [سورة هود:٨٨].

وَقَالَ عَن خَلِيلِهِ إِبرَاهِيمَ - عَلَيهِ السَّلَامُ -: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾ [سورة هود:٧٥].

وَمِن دُعَائِهِ - عَلَيهِ السَّلَامُ -: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾ [سورة الممتحنة:٤].

وَالمُنِيبُونَ إِلَىٰ اللهِ هُم خَيرُ مَن يُصَاحِبُهُمُ المَرءُ فِي حَيَاتِهِ؛ يَقُولُ سُبحَانَهُ: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ [سورة لقمان:١٥].

وَالإِنَابَةُ إِلَىٰ اللهِ مِفتَاحُ السَّعَادَةِ وَالهِدَايَةِ؛ قَالَ سُبحَانَهُ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ [سورة الرعد:٢٧].

وَالبِشَارَةُ كَذَلِكَ لِأَهلِ الإِنَابَةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ

---

(١) تَفسِيرُ مُقَاتِلِ بنِ سُلَيمَانَ ٤/ ١١١.

(٢) أَخرَجَهُ إِسحَاقُ البُستِيُّ ص ٤٠٢.

﴿ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [سورة الزمر:١٧].

هَذِهِ الآيَةُ فِيهَا الدَّلَالَةُ عَلَىٰ أَنَّ العَبدَ لَا تَتحَقَّقُ لَهُ عُبُودِيَّةُ الإِنَابَةِ التَّامَّةُ لِلهِ إِلَّا بِالإِعرَاضِ عَن كُلِّ مَعبُودٍ سِوَىٰ اللهِ.

وَلَا يَعتَبِرُ بِالآيَاتِ وَلَا يَتَّعِظُ بِالعِبَرِ إِلَّا مَن أَنَابَ إِلَىٰ رَبِّهِ؛ قَالَ -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سورة ق:٨].

وَالمُنِيبُ هُوَ المُتَذَكِّرُ حَالَ نُزُولِ النِّعَمِ: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [سورة غافر:١٣].

وَالإِنَابَةُ إِلَىٰ اللهِ مَانِعَةٌ مِن عَذَابِ اللهِ: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [سورة الزمر:٥٤].

وَهَذِهِ الآيَةُ فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَىٰ وُجُوبِ الإِنَابَةِ؛ لأَنَّهَا بِصِيغَةِ الأَمرِ، وَالأَمرُ يَقتَضِي الوُجُوبَ.

وَالجَنَّةُ نُزُلٌ لِلقُلُوبِ الخَاشِعَةِ المُنِيبَةِ؛ يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة ق:٣١-٣٣].

وَأَمَرَ اللهُ جَمِيعَ الخَلقِ بِالإِنَابَةِ إِلَيهِ، قَالَ سُبحَانَهُ: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الروم:٣١].

فَعَلَىٰ المُسلِمِ أَن يُجَاهِدَ نَفسَهُ أَن يَكُونَ مِن أَهلِ الإِنَابَةِ؛ لِيَفُوزَ بِالثَّوَابِ العَظِيمِ وَالسَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ.

٣٧٩ - **وَقَد رَوَىٰ الإِمَامُ أَحمَدُ فِي المسند أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:** «وَإِنَّ مِنَ

السَّعَادَةِ أَن يَطُولَ عُمرُ العَبدِ، وَيَرزُقَهُ اللهُ الإِنَابَةَ».[(١)]

(١) مسند الإمام أحمد (١٤٥٦٤).

قال المؤلف - رحمه الله -:

وَدَلِيلُ الِاسْتِعَانَةِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة:٥]
وَفِي الحَدِيثِ: «وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ».

ذَكَرَ المُؤَلِّفُ هُنَا عِبَادَةَ الِاستِعَانَةِ، وَالدِّينُ كُلُّهُ قَائِمٌ عَلَىٰ عِبَادَةٍ وَاستِعَانَةٍ؛ فَاللهُ سُبحَانَهُ قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة:٥]، فالِاستِعَانَةُ عِبَادَةٌ مَأمُورٌ بِهَا، يُحِبُّهَا اللهُ، وَيَشرَعُهَا لِعِبَادِهِ؛ فَهِيَ عِبَادَةٌ يَجِبُ إِخلَاصُهَا لِلَّهِ وَحدَهُ، قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [سورة الفاتحة:٥]؛ أَي: لَا نَعبُدُ إِلَّا أَنتَ، ثُمَّ قَالَ بَعدَهَا - وَهُوَ مَرَادُ الشَّيخِ بِالِاستِدلَالِ -: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة:٥]، وهذِهِ الآيَةُ مِن سُورَةِ الفَاتِحَةِ، السُّورَةِ العَظِيمَةِ الَّتِي هِيَ أُمُّ القُرآنِ، وَالَّتِي يُرَدِّدُهَا المُسلِمُونَ فِي صَلَوَاتِهِم فِي كُلِّ يَومٍ وَلَيلَةٍ؛ فِيهَا إِفرَادُ اللهِ تَعَالَىٰ بِالعِبَادَةِ، وَعَقدُ العَهدِ، وَالإِقرَارُ عَلَىٰ النَّفسِ بِأَنَّ القَائِلَ لِهذِهِ الكَلِمَاتِ لَا يَعبُدُ إِلَّا اللهَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة:٥]؛ أَي: لَا نَستَعِينُ إِلَّا بِاللهِ.

وَوَجهُ الِاستِدلَالِ: أَنَّهُ قَدَّمَ الضَّمِيرَ المُنفَصِلَ، وَهُوَ فِي مَحَلِّ نَصبٍ مَفعُولٍ بِهِ، عَلَىٰ الفِعلِ الَّذِي هُوَ العَامِلُ فِيهِ، وَتَقدِيمُ المَعمُولِ عَلَىٰ العَامِلِ يُفِيدُ الِاختِصَاصَ، أَوِ الحَصرَ وَالقَصرَ؛ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي عِلمِ المَعَانِي.

فَيَكُونُ المَعنَىٰ: أَنَّ العِبَادَةَ مَخصُوصَةٌ بِاللهِ وَحدَهُ، وَأَنَّ الِاستِعَانَةَ - وَهِيَ عِبَادَةٌ -

لَا تُصرفُ إِلَّا لَهُ.

وبِذلِكَ أَثبَتَتِ الآيَةُ أَنَّ الِاستِعَانَةَ عِبَادَةٌ، وَأَثبَتَت أَنَّهُ لَا يَجُوزُ صَرفُهَا لِغَيرِ اللهِ، بَل هِيَ مُختَصَّةٌ بِهِ سُبحَانَهُ، فَمَن صَرفَهَا لِغَيرِهِ فَقَد وَقَعَ فِي الشِّركِ الأَكبَرِ.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ [سورة الأعراف:١٢٨].

وَقَالَ سُبحَانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [سورة يوسف:١٨].

٣٨٠ - **وَرُوِيَ عَن ابنِ عَبَّاسٍ** - رضي الله عنهما - **قَالَ: كُنتُ رِدفَ النَّبِيِّ** - صلى الله عليه وسلم - **فَقَالَ لِي:** «يَا غُلَامُ، إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا: احفَظِ اللهَ يَحفَظكَ، احفَظِ اللهَ تَجِدهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلتَ فَاسأَلِ اللهَ، وَإِذَا استَعَنتَ فَاستَعِن بِاللهِ؛ فَقَد رُفِعَتِ الأَقلَامُ وَجَفَّتِ الكُتُبُ، فَلَوِ اجتَمَعَتِ الأُمَّةُ عَلَىٰ أَن يَنفَعُوكَ بِشَيءٍ لَم يَكتُبهُ اللهُ لَكَ لَم يَستَطِيعُوا، وَلَوِ اجتَمَعُوا عَلَىٰ أَن يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَم يَكتُبهُ اللهُ عَلَيكَ لَم يَستَطِيعُوا»(١).

٣٨١ - **وَفِي صَحِيحِ مُسلِمٍ:** «وَاستَعِن بِاللهِ وَلَا تَعجِز».

٣٨٢ - **وَفِي دُعَاءِ الِاستِخَارَةِ:** «وَأَستَعِينُكَ بِقُدرَتِكَ».

فَعَلَىٰ المُسلِمِ أَن يَستَعِينَ بِاللهِ فِي كُلِّ أُمُورِهِ وَجَمِيعِ حَاجَاتِهِ، وَأَن يُظهِرَ الِافتِقَارَ إِلَيهِ، وَالذُّلَّ بَينَ يَدَيهِ؛ فَإِنَّهُ لَا حَولَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

حَقِيقَةُ الِاستِعَانَةِ: الِاستِعَانَةُ قَرِيبَةُ المَعنَىٰ مِنَ التَّوَكُّلِ؛ وَلِذَلِكَ يَضَعُ العُلَمَاءُ كُلًّا مِنهُمَا مَوضِعَ الآخَرِ إِذَا انفَرَدَت إِحدَىٰ العِبَادَتَينِ بِالذِّكرِ؛ لِقُربِ المَعنَىٰ بَينَهُمَا.

لَكِن بَينَهُمَا فَرقٌ مِن جِهَةِ الدِّقَّةِ:

الِاستِعَانَةُ: مُرَكَّبَةٌ مِن ثِقَةٍ وَاعتِمَادٍ.

---

(١) أَخرَجَهُ الإِمَامُ أَحمَدُ (٢٧٦٣)، (٢٦٦٩)، (٢٨٠٤).

التَّوَكُّلُ: أَعَمُّ، وَهُوَ اعتِمَادُ القَلبِ كُلِّهِ عَلَىٰ اللهِ مَعَ تَفوِيضِ الأَمرِ إِلَيهِ.

فَقَد تَثِقُ بِمَن لَا تَعتَمِدُ عَلَيهِ، وَقَد تَعتَمِدُ عَلَىٰ مَن لَا تَثِقُ بِهِ بِسَبَبِ الحَاجَةِ.

أَمَّا اللهُ تَعَالَىٰ فَيَجمَعُ العَبدُ فِي قَلبِهِ الثِّقَةَ الكَامِلَةَ بِاللهِ وَالِاعتِمَادَ التَّامَّ عَلَيهِ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة:٥].

الِاستِعَانَةُ بِالمَخلُوقِ: الكَلَامُ فِي الِاستِعَانَةِ بِالمَخلُوقِ يَجرِي مَجرَىٰ الكَلَامِ فِي التَّوَكُّلِ، إِلَّا أَنَّ التَّوَكُّلَ أَعلَىٰ دَرَجَةً مِنَ الِاستِعَانَةِ.

وَلِهَذَا: وَرَدَتِ الِاستِعَانَةُ بِالمَخلُوقِ فِي النُّصُوصِ الشَّرعِيَّةِ فِيمَا يَقدِرُ عَلَيهِ، وَلَم يَرِد فِي الكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ التَّوَكُّلُ عَلَىٰ المَخلُوقِ مُطلَقًا.

حَدُّ الجَوَازِ: يَجُوزُ الِاستِعَانَةُ بِالمَخلُوقِ إِذَا تَحَقَّقَت شُرُوطٌ ثَلَاثَةٌ: أَن يَكُونَ حَيًّا، وَأَن يَكُونَ حَاضِرًا، وَأَن يَكُونَ قَادِرًا عَلَىٰ الفِعلِ.

فَإِنِ اختَلَّ شَرطٌ مِن هَذِهِ الشُّرُوطِ كَانَتِ الِاستِعَانَةُ شِركًا أَكبَرَ.

أَمثِلَةُ الشِّركِ:

الِاستِعَانَةُ بِمَيِّتٍ مطلقًا: «يَا سَيِّدِي فُلَانُ، أَعِنِّي»؛ وَهَذَا شِركٌ أَكبَرُ.

الِاستِعَانَةُ بِحَاضِرٍ لَا يَقدِرُ عَلَىٰ المَطلُوبِ: «أَعِنِّي عَلَىٰ إِحيَاءِ وَالِدِي المَيِّتِ»؛ وَهَذَا شِركٌ أَكبَرُ.

الِاستِعَانَةُ بِغَائِبٍ: «يَا فُلَانُ، أَدرِكنِي» وَهُوَ لَا يَسمَعُ وَلَا يَقدِرُ؛ وَهَذَا شِركٌ أَكبَرُ.

قال المؤلف -رحمه الله-:

ودليل الاستعاذة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [سورة الفلق:١].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [سورة الناس:١].

الِاستِعَاذَةُ: طَلَبُ العَوذِ أو طَلَبُ العِيَاذِ، وَالعَوذُ وَالعِيَاذُ هُوَ: الِالتِجَاءُ، وَالتَّحَصُّنُ، وَالتَّحَرُّزُ، وَالِاعتِصَامُ.

وَعَلَيهِ: فَالِاستِعَاذَةُ طَلَبُ التَّحَصُّنِ وَالِالتِجَاءِ.

وَالأَصلُ فِي هَذَا البَابِ: أَنَّ استِعَاذَةَ المُسلِمِ إِنَّمَا تَكُونُ بِاللهِ -سبحانه وتعالى-؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ سُبحَانَهُ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيءٍ، وَهُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ كُلَّ شَيءٍ، وَهُوَ الَّذِي عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ.

وَعَلَيهِ: فَهُوَ القَادِرُ سُبحَانَهُ عَلَىٰ أَن يُنَجِّيَ الإِنسَانَ مِمَّا يَخَافُ مِنهُ.

فَاللهُ -جل وعلا- هُوَ الرَّبُّ الَّذِي يُرَبِّي العِبَادَ وَيُدَبِّرُ شُؤُونَهُم، فَلِمَن يَكُونُ الِالتِجَاءُ إِن لَم يَكُن إِلَيهِ؟!

وَاللهُ -عز وجل- هُوَ المَالِكُ لِعِبَادِهِ -جل وعلا-، وَالعِبَادُ كُلُّهُم عَبِيدٌ مَملُوكُونَ لَهُ، فَإِلَىٰ أَينَ يَهرُبُونَ وَيَلجَؤُونَ إِن لَم يَكُن لِمَالِكِهِم -سبحانه وتعالى-؟!

كَمَا أَنَّ اللهَ -عز وجل- هُوَ الإِلَهُ الحَقُّ الَّذِي يَألَهُهُ العِبَادُ، وَيَفتَقِرُونَ إِلَيهِ سُبحَانَهُ مِن جِهَةِ كَونِهِ مَولَاهُم وَمَحبُوبَهُم وَمَعبُودَهُم -جل وعلا-؛ هُوَ الَّذِي يَرجُونَهُ، وَهُوَ الَّذِي

يَطلُبُونَهُ، وَهُوَ الَّذِي يَقصِدُونَهُ، فَبِمَن يَلجَؤُونَ؟ وَإِلَىٰ مَن يَعُوذُونَ إِذَا لَم يَكُن ذَلِكَ بِإِلَهِهِم -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-؟!

إِذًا: لَمَّا كَانَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا- هُوَ الرَّبَّ، وَالإِلَهَ، وَالمَلِكَ جَلَّ فِي عُلَاهُ، استَحَقَّ أَن يَكُونَ مَعَاذَ المُسلِمِينَ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [سورة الفلق:١]، **وَقَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس:١]، جَاءَتِ الِاستِعَاذَةُ فِي هَاتَينِ السُّورَتَينِ بِاسمِ الرَّبِّ وَالمَلِكِ وَالإِلَهِ، وَجَاءَتِ الرُّبُوبِيَّةُ فِيهِمَا مُضَافَةً إِلَىٰ الفَلَقِ وَإِلَىٰ النَّاسِ، وَلَابُدَّ أَن يَكُونَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ — سُبحَانَهُ — فِي هَاتَينِ السُّورَتَينِ يُنَاسِبُ الِاستِعَاذَةَ المَطلُوبَةَ، وَيَقتَضِي دَفعَ الشَّرِّ المُستَعَاذَ مِنهُ أَعظَمَ مُنَاسَبَةٍ وَأَبيَنَهَا.(١)

فَالِاستِعَاذَةُ عِبَادَةٌ يَتَقَرَّبُ بِهَا المُسلِمُ إِلَىٰ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

وَقَولُ القَائِلِ: «أَعُوذُ بِاللهِ»: أَستَجِيرُ بِاللهِ، أَحتَمِي بِاللهِ، أَعتَصِمُ بِاللهِ.

وَكُلَّمَا كَانَ تَوحِيدُ العَبدِ لِلَّهِ أَكمَلَ كَانَ حِفظُ اللهِ لَهُ أَتَمَّ؛ فَالتَّوحِيدُ حِصنُ اللهِ الأَعظَمُ الَّذِي مَن دَخَلَهُ كَانَ مِنَ الآمِنِينَ.

٣٨٣ - **قَالَ بَعضُ السَّلَفِ:** مَن خَافَ اللهَ خَافَهُ كُلُّ شَيءٍ، وَمَن لَم يَخَفِ اللهَ أَخَافَهُ اللهُ مِن كُلِّ شَيءٍ.

وَوَجهُ كَونِهَا عِبَادَةً مِن جِهَتَينِ:

أَوَّلًا: مِن جِهَةِ الأَمرِ بِهَا فِي كِتَابِ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا- وَفِي سُنَّةِ نَبِيِّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-؛ أَلَم يَقُلِ اللهُ سُبحَانَهُ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [سورة الفلق:١]، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس:١]،

---

(١) «بدائع الفوائد - ط عطاءات العلم» (٢/ ٧٠٩).

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ﴾ [سورة الأعراف:٢٠٠].

وَقد مَرَّ مَعَنَا أَنَّ الأَمرَ الشَّرعِيَّ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ المَأمُورَ بِهِ عِبَادَةٌ؛ لِأَنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- لَا يَأمُرُ شَرعًا إِلَّا بِمَا يُحِبُّهُ، وَمَا أَحَبَّهُ سُبحَانَهُ وَرَضِيَهُ لِعِبَادِهِ فَهُوَ العِبَادَةُ.

أَلَيسَتِ العِبَادَةُ: اسمًا جَامِعًا لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ ويرضَاهُ مِنَ الأَقوَالِ وَالأَعمَالِ؟

إِذًا: الِاستِعَاذَةُ بِاللهِ عِبَادَةٌ.

ثَانِيًا: أَنَّ الِاستِعَاذَةَ طَلَبُ العَوذِ، وَالطَّلَبُ دُعَاءٌ وَاستِغَاثَةٌ؛ فَهِيَ نَوعٌ مِن أَنوَاعِ الدُّعَاءِ.

وَقَد قَرَّرَ أَهلُ العِلمِ أَنَّ الِاستِعَاذَةَ نَوعٌ مِنَ الدُّعَاءِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ فِيهَا جَانِبَينِ:

جَانِبًا ظَاهِرًا: وَهُوَ السُّؤَالُ وَالطَّلَبُ وَالدُّعَاءُ.

وَجَانِبًا بَاطِنًا: وَهُوَ لُجُوءُ القَلبِ وَرُكُونُهُ وَطُمَأنِينَتُهُ بِالمَعَاذِ المُستَعَاذِ بِهِ.

فَلَمَّا كَانَتِ الِاستِعَاذَةُ مُشتَمِلَةً عَلَىٰ الطَّلَبِ الظَّاهِرِ وَالتَّعَلُّقِ البَاطِنِ، كَانَت عِبَادَةً دَاخِلَةً فِي عُمُومِ أَدِلَّةِ الدُّعَاءِ.

وَعَلَيهِ: فَمَتَىٰ مَا كَانَتِ الِاستِعَاذَةُ عِبَادَةً فَإِنَّ صَرفَهَا لِغَيرِ اللهِ شِركٌ.

وَهَذَا الَّذِي أَرَادَ المُؤَلِّفُ التَّنبِيهَ عَلَيهِ.

وَالِاستِعَاذَةُ بِاللهِ أَمرٌ وَاجِبٌ، وَهِيَ مِمَّا أَمَرَ اللهُ بِهِ نَبِيَّهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وَأُمَّتَهُ، كَقَولِهِ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأعراف:٢٠٠]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [سورة النحل:٩٨]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سورة فصلت:٣٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [سورة غافر:٥٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ حكايةً عَن

مُوسَىٰ -عليه السلام-: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [سورة غافر:٢٧]، وَقَالَ أيضًا: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [سورة الدخان:٢٠]، وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي قصة يوسف -عليه السلام-: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة يوسف:٢٣]، وَقَالَ أيضًا: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ [سورة يوسف:٧٩]،وقال تَعَالَىٰ عَن مريم عَلَيهَا السلام: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [سورة مريم:١٨]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [سورة آل عمران:٣٦].

٣٨٤ - **رُوِيَ فِي «صَحِيحِ مُسلِمٍ» (٧/ ٩٦):** عَن أَبِي هُرَيرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «مَا مِن مَولُودٍ يُولَدُ إِلَّا نَخَسَهُ الشَّيطَانُ، فَيَستَهِلُّ صَارِخًا مِن نَخسَةِ الشَّيطَانِ، إِلَّا ابنَ مَريَمَ وَأُمَّهُ».

وَمِنَ السُّنَّةِ:

٣٨٥ - **رُوِيَ عَن خَولَةَ بِنتِ حَكِيمٍ قَالَت: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ:** «مَن نَزَلَ مَنزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ، لَم يَضُرَّهُ شَيءٌ حَتَّىٰ يَرتَحِلَ مِن مَنزِلِهِ ذَلِكَ». (١)

٣٨٦ - **وَرُوِيَ عَنِ ابنِ المُبَارَكِ، عَن حَيوَةَ بنِ شُرَيحٍ، قَالَ:** لَقِيتُ عُقبَةَ بنَ مُسلِمٍ فَقُلتُ لَهُ: بَلَغَنِي أَنَّكَ حَدَّثتَ عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو: عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ

---

(١) أَخرَجَهُ مُسلِمٌ (٢٧٠٨).

المَسجِدَ قَالَ: «أَعُوذُ بِاللهِ العَظِيمِ، وَبِوَجهِهِ الكَرِيمِ، وَسُلطَانِهِ القَدِيمِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ»، فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ قَالَ الشَّيطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ اليَوم.[(١)]

٣٨٧- **وَرُوِيَ عَنِ ابنِ مَسعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ-، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ:** «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيطَانِ؛ مِن هَمزِهِ وَنَفثِهِ وَنَفخِهِ»، قَالَ: فَهَمزُهُ: المُوتَةُ، وَنَفثُهُ: الشِّعرُ، وَنَفخُهُ: الكِبرِيَاءُ.[(٢)]

٣٨٨- **وَرُوِيَ عَن عُثمَانَ بنِ أَبِي العَاصِ الثَّقَفِيِّ:** «أَنَّهُ شَكَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنذُ أَسلَمَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: ضَع يَدَكَ عَلَىٰ الَّذِي تَأَلَّمَ مِن جَسَدِكَ، وَقُل: بِاسمِ اللهِ—ثَلَاثًا، وَقُل سَبعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدرَتِهِ مِن شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ».[(٣)]

فَالعَبدُ المُستَعِيذُ بِاللهِ -تبارك وتعالى- يَستَعِيذُ مِن شَيءٍ قَد وَقَعَ أَو نَزَلَ أَو وُجِدَ.

وَكَانَ النَّبِيُّ -ﷺ- دَائِمَ الِاستِعَاذَةِ؛ فَاستَعَاذَ -ﷺ- مِنَ الجُذَامِ وَالبَرَصِ وَالجُنُونِ وَالعَاهَاتِ وَسَيِّئِ الأَسقَامِ وَغَيرِ ذَلِكَ.

أولًا: أحوال تكون فيها الاستعاذةُ بغير الله شِركًا أكبَر:

بيَّن العلماء أنّ الأصل فِي الاستعاذة بِغَير الله أنّها شركٌ أكبر، وَذَلِكَ فِي أربع حالات واضحة:

---

(١) أَخرَجَهُ أَبُو دَاوُد (٤٦٦).

(٢) أَخرَجَهُ أَحمَدُ ٦/ ٣٧٨ (٣٨٢٨)، وَ٦/ ٣٨٠ (٣٨٣٠)، وَابنُ مَاجَه ٢/ ٩ (٨٠٨)، وَابنُ خُزَيمَةَ ١/ ٥٣٣ (٤٧٢)، وَالحَاكِمُ ١/ ٣٢٥ (٧٤٩).

(٣) «صَحِيحُ مُسلِمٍ» (٧/ ٢٠).

○ **أَن تكون الاستعاذةُ الباطنةُ مُعَلَّقَةً بِغَير الله:**

أَي: يَركَنُ القَلبُ، وَيَعتَمِدُ، وَيَطمَئِنُّ لِغَيرِ اللهِ.

سَوَاءٌ اقتَرَنَ بِذَلِكَ طَلَبٌ بِاللِّسَانِ أَم لَم يَقتَرِن.

فَمَتَىٰ مَا كَانَ مُعَوَّلُ القَلبِ عَلَىٰ غَيرِ اللهِ، فَهَذَا شِركٌ أَكبَرُ.

كَمَا أَنَّ الِاستِعَاذَةَ تَكُونُ لَفظًا وَمَعنًىٰ، فَلَيسَ شَرطًا أَن تَكُونَ مِنَ المُشرِكِ لَفظًا.

○ **أَن تكون الاستعاذةُ بميت:**

سَوَاءٌ كَانَتِ استِعَاذَةً ظَاهِرَةً بِاللِّسَانِ فَقَط، أَو بَاطِنَةً بِالقَلبِ، أَو بِهِمَا مَعًا.

فَإِذَا أَتَىٰ إِنسَانٌ قَبرَ مَيِّتٍ فَقَالَ: «يَا سَيِّدِي فُلَانُ، أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَدُوِّ الفُلَانِيِّ»، أَو قَالَ: «أَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ»، فَهَذَا شِركٌ أَكبَرُ بِلَا خِلَافٍ؛ لِأَنَّ الِاستِعَاذَةَ مِن جِنسِ الدُّعَاءِ، وَقَد صُرِفَت لِغَيرِ اللهِ، وَالمَيِّتُ لَا يَملِكُ لِنَفسِهِ فَضلًا عَن غَيرِهِ.

○ **أَن تكون الاستعاذةُ بغائبٍ لَا يُرىٰ وَلَا يُسمَع:**

كَأَن يُخَاطِبَ وَلِيًّا بَعِيدًا فِي بَلَدٍ أُخرَىٰ فَيَقُولَ: «يَا سَيِّدِي فُلَانُ، أَنتَ مَعَاذِي، وَبِكَ أَعُوذُ».

فَهَذَا كَذَلِكَ شِركٌ أَكبَرُ؛ لِأَنَّهُ اعتِقَادٌ لِقُدرَةٍ غَيبِيَّةٍ لَا يَملِكُهَا إِلَّا اللهُ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [سورة الجن:٦].

هَذِهِ الآيَةُ ذَكَرَهَا الجِنُّ المُؤمِنُونَ عِندَمَا أَسلَمُوا، فَعَدَّدُوا جُملَةً مِن أَنوَاعِ الشِّركِ الَّتِي كَانَ يَقَعُ فِيهَا الإِنسُ قَبلَ الإِسلَامِ، وَمِنهَا الِاستِعَاذَةُ بِغَيرِ اللهِ.

وَفِي سُورَةِ الجِنِّ، ذَكَرَ الجِنُّ عِدَّةَ أُمُورٍ كَانُوا عَلَيهَا قَبلَ إِيمَانِهِم، مِنهَا:

نَفيُ الزَّوجَةِ وَالوَلَدِ عَنِ اللهِ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [سورة الجن:٣]

إِقرَارُهُم بِأَنَّ سَفِيهَهُم كَانَ يَقُولُ عَلَىٰ اللهِ شَطَطًا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ [سورة الجن:٤]

ظَنُّهُم أَنَّ اللهَ لَن يَبعَثَ أَحدًا: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ [سورة الجن:٧]

استِعَاذَةُ الإِنسِ بِالجِنِّ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [سورة الجن:٦]

وَهَذَا النَّوعُ الأَخِيرُ هُوَ الَّذِي يُبَيِّنُ أَنَّ الاِستِعَاذَةَ بِغَيرِ اللهِ مِن أَعظَمِ الشِّركِ.

٣٨٩ - **عَن عِكرِمَةَ مَولَىٰ ابنِ عَبَّاسٍ، قَالَ:** إِنَّ نَاسًا فِي الجَاهِلِيَّةِ كَانُوا إِذَا أَتَوا وَادِيَ الجِنِّ نَادَىٰ مُنَادِي الإِنسِ إِلَىٰ خِيَارِ الجِنِّ: أَنِ احبِسُوا عَنَّا سُفَهَاءَكُم، فَلَم يُغنِهِم مَا وُعِظُوا بِهِ، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [سورة الجن:٦].(١)

وَمِثلُهُ رُوِيَ عَنِ ابنِ قَتَادَةَ وَالحَسَنِ وَالرَّبِيعِ وَمُقَاتِلٍ وَعَبدِ الرَّحمَنِ بنِ زَيدِ بنِ أَسلَمَ وَمُحَمَّدِ بنِ إِسحَاقَ.

فَلَمَّا رَأَتِ الجِنُّ أَنَّ الإِنسَ يَخَافُونَهُم وَيَستَعِيذُونَ بِهِم: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [سورة الجن:٦]

٣٩٠ - **رُوِيَ عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ -مِن طَرِيقِ عَطِيَّةَ العَوفِيِّ- فِي قَولِهِ:** ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [سورة الجن:٦]، قَالَ: إِثمًا.(٢)

٣٩١ - **وَعَن عَبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ القَومُ فِي الجَاهِلِيَّةِ إِذَا نَزَلُوا بِالوَادِي قَالُوا:** نَعُوذُ بِسَيِّدِ هَذَا الوَادِي مِن شَرِّ مَا فِيهِ، فَلَا يَكُونُونَ بِشَيءٍ أَشَدَّ وَلَعًا مِنهُم بِهِم، فَذَلِكَ قَولُهُ: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [سورة الجن:٦].(٣)

---

(١) عزاه السيوطي إِلَىٰ عبد بن حميد.

(٢) أَخرَجَهُ ابن جرير ٢٣/ ٣٢٤. وعزاه السيوطي إِلَىٰ ابن مردويه.

(٣) عزاه السيوطي إِلَىٰ ابن مردويه.

٣٩٢ - وَعَن مُجَاهِدِ بنِ جَبرٍ -مِن طَرِيقِ ابنِ أَبِي نَجِيحٍ- فِي قَولِهِ: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [سورة الجن:٦]، قَالَ: زَادُوا الكُفَّارَ طُغيَانًا.(١)

٣٩٣ - وَقَالَ الحَسَنُ البَصرِيُّ: ﴿رَهَقًا﴾ شَرًّا.(٢)

٣٩٤ - وَعَن قَتَادَةَ بنِ دَعَامَةَ -مِن طَرِيقِ مَعمَرٍ- فِي قَولِهِ: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [سورة الجن:٦]، يَقُولُ: خَطِيئَةً وَإِثمًا.(٣)

٣٩٥ - وَعَنِ الرَّبِيعِ بنِ أَنَسٍ -مِن طَرِيقِ أَبِي جَعفَرٍ-: ﴿رَهَقًا﴾، أَي: خَوفًا.(٤)

٣٩٦ - وَقَالَ مُقَاتِلُ بنُ سُلَيمَانَ: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [سورة الجن:٦]، يَقُولُ: إِنَّ الإِنسَ زَادَتِ الجِنَّ رَهَقًا، يَعنِي: غَيًّا؛ لِتَعَوُّذِهِم بِهِم، فَزَادُوا الجِنَّ فَخرًا فِي قَومِهِم.(٥)

٣٩٧ - وَعَن عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ زَيدِ بنِ أَسلَمَ -مِن طَرِيقِ ابنِ وَهبٍ- فِي قَولِهِ: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [سورة الجن:٦]، قَالَ: زَادَهُمُ الجِنُّ خوفًا.(٦)

كَانَ الإنسي إِذَا نزل بالوادي يَقُولُ: أَعُوذُ بعظيم هَذَا الوادي من سفهائه، فيبيت فِي أمن وجوار حَتَّىٰ يصبح ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [سورة الجن:٦] يَعنِي الإنسي للجن، باستعاذتهم بِهِم،

---

(١) أَخرَجَهُ ابن جرير ٢٣/ ٣٢٥. وعزاه السيوطي إِلَىٰ عبد بن حميد، وابن المنذر.

(٢) تفسير الثعلبي ١٠/ ٥١، وتفسير البغوي ٨/ ٢٣٩.

(٣) أَخرَجَهُ عبد الرزاق ٢/ ٣٢١، وابن جرير ٢٣/ ٣٢٤. وعزاه السيوطي إِلَىٰ عبد بن حميد. وينظر: تفسير الثعلبي ١٠/ ٥١.

(٤) أَخرَجَهُ ابن جرير ٢٣/ ٣٢٤.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٤٦٢.

(٦) أَخرَجَهُ ابن جرير ٢٣/ ٣٢٦.

رهقًا: أي إثمًا وطغيانًا وخسرانًا وشرًا وشركًا، وَذَلِكَ أَنَّهُم قَالُوا: قَد سدنا الجن والإنس فالجن تعاظم فِي أنفسها وتزداد كفرًا إِذَا عاملتها الإنس بِهَذِهِ المعاملة، وَقَد قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة سبأ: ٤٠-٤١]، فهؤلاء الَّذِينَ يزعمون أَنَّهُم يدعون الملائكة ويخاطبونهم بِهَذِهِ العزائم، وَأَنَّهَا تنزل عَلَيهِم ضالون، وإنما ينزل عَلَيهِم الشياطين".

فَهَذَا الِاستِعَاذَةُ بِالجِـنِّ بِغَائِبٍ مِن شَرِّ غَائِبٍ وَهِيَ مِن أَنوَاعِ الشِّركِ الأَكبَرِ.

زَادُوهُم تَوَهُّمًا بِأَنَّ الجِنَّ تَملِكُ الضُّرَّ وَالنَّفعَ، وَزَادُوهُم شِركًا وَإِثمًا.

وَهَذَا مِنَ العُقُوبَاتِ الإِلَهِيَّةِ؛ فَمَن لَجَأَ إِلَىٰ غَيرِ اللهِ أُوكِلَ إِلَيهِ، وَمَن تَوَكَّلَ عَلَىٰ الجِنِّ سُلِّطَ عَلَيهِ الجِنُّ.

فَالآيَةُ بَيَّنَت أَنَّ مِن أَخلَاقِ المُشرِكِينَ الِاستِعَاذَةَ بِالجِنِّ، وَأَنَّ هَذَا مِن أُصُولِ الشِّركِ الأَكبَرِ.

فَالجِنُّ غَائِبُونَ عَنِ الإِنسِ، وَالِاستِعَاذَةُ بِالغَائِبِ شِركٌ أَكبَرُ بِإِجمَاعِ أَهلِ التَّوحِيدِ.

تَطبِيقُ الآيَةِ عَلَىٰ وَاقِعِ النَّاسِ اليَومَ:

مَا زَالَ فِي زَمَانِنَا مَن يَقَعُ فِي هَذَا الشِّركِ نَفسِهِ: يَخَافُ الجِنَّ، يَظُنُّ أَنَّهُم يَملِكُونَ الضُّرَّ وَالنَّفعَ، فَيَستَعِيذُ بِهِم عِندَ دُخُولِ البُيُوتِ أَوِ الأَمَاكِنِ المُظلِمَةِ، يَلبَسُ التَّمَائِمَ الَّتِي فِيهَا استِعَاذَاتٌ شِركِيَّةٌ، وَهَؤُلَاءِ يُوَافِقُونَ تَمَامًا مَا كَانَ عَلَيهِ مُشرِكُو العَرَبِ.

٣٩٨ - **جَاءَ فِي الجَامِعِ لِأَحكَامِ القُرآنِ (١٩/ ١٠):** وَلَا خَفَاءَ أَنَّ الِاستِعَاذَةَ بِالجِنِّ دُونَ الِاستِعَاذَةِ بِاللهِ كُفرٌ وَشِركٌ.

مَسأَلَةٌ مُهِمّةٌ: هَل حُصُولُ المَطلُوبِ يدُلُّ عَلَى جوازِ الفِعلِ؟

الجَوَابُ: لَا.

فَقَد يَستَعِينُ الجَاهِلُ بِالجِنِّ فَيُقضَىٰ لَهُ بَعضُ الحَاجَاتِ، وَقَد يَتَدَاوَىٰ بِالسِّحرِ فَيُشفَىٰ،

وَقَد يَسرِقُ فَيَحصُلُ عَلَىٰ المَالَ، لَكِنَّ ذَلِكَ لَا يُبِيحُ الفِعلَ المُحَرَّمَ.

بَل هُوَ مِنَ الفِتنَةِ الَّتِي يُعَاقِبُ اللهُ بِهَا مَن تَعَلَّقَت قُلُوبُهُم بِغَيرِهِ.

٣٩٩ - **رُوِيَ عَن مُعَاوِيَةَ بنِ قُرَّةَ، عَن أَبِيهِ، قَالَ:** ذَهَبتُ لِأُسلِمَ حِينَ بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا مَعَ رَجُلَينِ أَو ثَلَاثَةٍ فِي الإِسلَامِ، فَأَتَيتُ المَاءَ حَيثُ يَجتَمِعُ النَّاسُ، فَإِذَا النَّاسُ بِرَاعِي القَريَةِ الَّذِي يَرعَىٰ لَهُم أَغنَامَهُم، فَقَالَ: لَا أَرعَىٰ لَكُم أَغنَامَكُم، قَالُوا: لِمَ؟ قَالَ: يَجِيءُ الذِّئبُ كُلَّ لَيلَةٍ يَأخُذُ شَاةً، وَصَنَمُكُم هَذَا رَاقِدٌ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنفَعُ، وَلَا يُغَيِّرُ وَلَا يُنكِرُ! قَالَ: فَذَهَبُوا وَأَنَا أَرجُو أَن يُسلِمُوا، فَلَمَّا أَصبَحنَا جَاءَ الرَّاعِي يَشتَدُّ يَقُولُ: البُشرَىٰ، البُشرَىٰ، قَد جِيءَ بِالذِّئبِ وَهُوَ مَقمُوطٌ بَينَ يَدَيِ الصَّنَمِ بِغَيرِ قِمَاطٍ، فَذَهَبُوا وَذَهَبتُ مَعَهُم، فَقَبَّلُوهُ وَسَجَدُوا لَهُ، وَقَالُوا: هَكَذَا فَاصنَع، فَدَخَلتُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ - ﷺ -، فَحَدَّثتُهُ هَذَا الحَدِيثَ، فَقَالَ: «لَعِبَ بِهِمُ الشَّيطَانُ».(١)

---

(١) أَخرَجَهُ الْبَزَّارُ ٨/ ٢٥٣ - ٢٥٥ (٣٣١٨)، وَأَبُو نُعَيمٍ فِي الْحِليَةِ ٢/ ٣٠٣.

قَالَ أَبُو نُعَيمٍ: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لَم نَكتُبهُ إِلَّا مِن حَدِيثِ شَبِيبِ بنِ مُحَمَّدٍ، وتفرَّدَ بِهِ عَنهُ الْأَزهَرُ.» وَقَالَ ابنُ عَدِيٍّ فِي الْكَامِلِ ٢/ ١٤٢: «وَلِأَزهَرَ بنِ سِنَانٍ غَيرَ مَا ذَكرتُ أَحَادِيثُ، وَلَيسَ بِالْكَثِيرِ، وَأَحَادِيثُهُ صَالِحَةٌ لَيسَت بِالْمُنكَرَةِ جِدًّا، وَأَرجُو أَنَّهُ لَا بَأسَ بِهِ.» وَقَالَ الْهَيثَمِيُّ فِي الْمَجمَعِ ١/ ١١٤ - ١١٥ (٤٤٨): «رَوَاهُ الْبَزَّارُ، وَمَدَارُهُ عَلَىٰ أَزهَرَ بنِ سِنَانٍ، ضَعّفه ابنُ مَعِينٍ، وَقَالَ ابنُ عَدِيٍّ: أَحَادِيثُهُ صَالِحَةٌ، لَيسَت بِالْمُنكَرَةِ جِدًّا».

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾ [سورة النساء:١١٧].

عَن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ -مِن طَرِيقِ أَبِي العَالِيَةِ- ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾ [سورة النساء:١١٧]، قَالَ: مَعَ كُلِّ صَنَمٍ جِنِّيَّةٌ.

وَالبَدِيلُ الشَّرعِيُّ لِمَا يَفعَلُهُ أَهلُ الشِّركِ:

٤٠٠- **مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ خَولَةَ بِنتِ حَكِيمٍ** -رَضِيَ اللهُ عَنهَا-: «مَن نَزَلَ مَنزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ، لَم يَضُرَّهُ شَيءٌ حَتَّىٰ يَرحَلَ مِن مَنزِلِهِ ذلك»(١)

٤٠١- **وَرُوِيَ عَن عُقبَةَ بنِ عَامِرٍ، قَالَ:** بَينَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- فِيمَا بَينَ الجُحفَةِ وَالأَبوَاءِ إِذ غَشِيَنَا رِيحٌ وَظُلمَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- يَتَعَوَّذُ بِـ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾ [سورة الفلق:١]، وَ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾ [سورة الناس:١]، وَيَقُولُ: «يَا عُقبَةُ، تَعَوَّذ بِهِمَا، فَمَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثلِهِمَا»، قَالَ: وَسَمِعتُهُ يَؤُمُّنَا بِهِمَا فِي الصلاة.(٢)

٤٠٢- **وَرُوِيَ عَن سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ، قَالَ:** كَانَ ابنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسأَلُكَ بِنُورِ وَجهِكَ الَّذِي أَشرَقَت لَهُ السَّمَوَاتُ وَالأَرضُ أَن تَجعَلَنِي فِي حِرزِكَ، وَحِفظِكَ، وَجِوَارِكَ، وَتَحتَ كنفك.(٣)

---

(١) أَخرَجَهُ مسلم (٢٧٠٨).

(٢) أَخرَجَهُ أَبُو داود ٢/ ٥٩١ (١٤٦٣).

قَالَ ابن القطان فِي بيان الوهم والإيهام ٤/ ٦٢١ (٢١٧٧): «وسكت عَنهُ -أَبُو داود-، وَلَم يبين أَنَّهُ من رواية ابن إسحاق».

(٣) أَخرَجَهُ ابن أَبِي شيبة [٣١٥١٦] حدثنا الفضل بن دكين حدثنا يونس بن أَبِي إسحاق عَن المنهال بن عمرو عَن سعيد بن جبير عَن ابن عباس، والطبراني [١٠٦٠٠].

٤٠٣- **وَحَلَفَ كَعبُ الأَحبَارُ بِالَّذِي فَرَقَ البَحرَ لِمُوسَىٰ،** أَنَّ فِي التَّورَاةِ لَثَلَاثَ كَلِمَاتٍ، يُفَرِّجُ بِهِنَّ رَبُّ العَالَمِينَ عَن كُلِّ مَكرُوبٍ إِذَا أَخلَصَهُنَّ العَبدُ إِلَىٰ رَبِّهِ، يَقُولُ إِذَا خَافَ بَغيًا أَو رَهَقًا مِن سُلطَانٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الحَلِيمُ الكَرِيمُ، سُبحَانَ اللهِ رَبِّ العَرشِ العَظِيمِ، وَالحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ العالمين.[(١)]

قَد يَقُولُ قَائِلٌ: مَا الفَرقُ بَينَ الِاستِعَاذَةِ بِالمَخلُوقِ الحَيِّ الحَاضِرِ فِيمَا يَستَطِيعُهُ وَالجِنِّ الحَاضِرِ فِيمَا يَستَطِيعُهُ؟

---

(١) الْجَامِعُ لِابنِ وَهبٍ (١١١٩).

قَالَ الإِمَامُ نُعَيمُ بنُ حَمَّادٍ الخُزَاعِيُّ (ت: ٢٢٨هـ): دَلَّت هَذِهِ الأَحَادِيثُ ... عَلَىٰ أَنَّ القُرآنَ غَيرُ مَخلُوقٍ، إِذ لَو كَانَ مَخلُوقًا لَم يُستَعَذ بِهَا، إِذ لَا يُستَعَاذُ بِمَخلُوقٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾، وَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «وَإِذَا استَعَذتَ فَاستَعِذ بِاللهِ».

وَقَالَ أَيضًا: "لَا يُستَعَاذُ بِالمَخلُوقِ وَلا بِكَلامِ العِبَادِ وَالجِنِّ وَالإِنسِ وَالمَلائِكَةِ وَفِي هَذَا دَلِيلٌ أَنَّ كَلامَ اللهِ غَيرُ مَخلُوقٍ وَأَنَّ سِوَاهُ خَلقٌ".

وَقَالَ الإِمَامُ أَحمَدُ بنُ حَنبَلٍ (ت:٢٤١هـ): "وَلَا يَجُوزُ أَن يُقَالُ: أُعِيذُكَ بِالنَّبِيِّ، أَو بِالْجِبَالِ، أَو بِالْأَنبِيَاءِ، أَو بِالْمَلَائِكَةِ، أَو بِالْعَرشِ، أَو بِالْأَرضِ، أَو بِشَيءٍ مِمَّا خَلَقَ اللهُ، لَا يَتَعَوَّذُ إِلَّا بِالله أَو بِكَلِمَاتِهِ".

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ (ت:٢٥٦هـ): "بَابُ مَا كَانَ النَّبِيُّ -ﷺ- يَستَعِيذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ لَا بِكَلامِ غَيرِهِ وَقَالَ نُعَيمٌ: لَا يُستَعَاذُ بِالمَخلُوقِ وَلا بِكَلامِ العِبَادِ وَالجِنِّ وَالإِنسِ وَالمَلائِكَةِ وَفِي هَذَا دَلِيلٌ أَنَّ كَلامَ اللهِ غَيرُ مَخلُوقٍ وَأَنَّ سِوَاهُ خَلقٌ".

وَقَالَ الْإِمَامُ عُثمَانُ الدَّارِمِيُّ (ت:٢٨٠هـ): "لَا يَجُوزُ أَن يُستَعَاذَ بِوَجهِ شَيءٍ غَيرَ وَجهِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَبِكَلِمَاتِهِ، لَا يُستَعَاذُ بِوَجهِ مَخلُوقٍ ".

وَقَالَ ابنُ خُزيمة (ت: ٣١١هـ): "هَل سمعتُم عالِمًا يجيزُ أَن يقولَ الدَّاعي: أعوذُ بالكعبةِ مِن شَرِّ خَلقِ اللهِ؟ أو يجيزُ أَن يقولَ: أعوذُ بالصَّفا وَالْمروةِ، أَو أعوذُ بعرفات ومِنًىٰ مِن شَرِّ مَا خَلقَ؟ هَذَا لَا يقولُه وَلَا يجيزُ القولَ بِهِ مُسلِمٌ يعرِفُ دينَ اللهِ، محالٌ أَن يستعيذَ مسلمٌ بخلقِ اللهِ مِن شَرِّ خَلقِه".

أَنَّ المَخلُوقَ الحَيَّ حَاضِرٌ فِعلًا أَمَّا الجِنُّ فَإِنَّهُ غَائِبٌ مَعَ حُضُورِهِ فَلَا تَرَاهُ فَأَشبَهَ الغَائِبَ، وَالِاستِعَاذَةُ لَا تَكُونُ غَالِبًا إِلَّا لِاعتِقَادِهِ أَنَّ لَهُ تَصَرُّفًا خَفِيًّا.

أَنَّ الِاستِعَاذَةَ بِالحَيِّ الحَاضِرِ مَشرُوعَةٌ أَمَّا الِاستِعَاذَةُ بِالجِنِّ الحَيِّ الحَاضِرِ فَلَيسَ عَلَيهِ دَلِيلٌ بَل وَرَدَ النَّهيُ عَنهُ.

○ **أَن تَكُونَ الِاستِعَاذَةُ بِغَيرِ اللهِ فِيمَا لَا يَقدِرُ عَلَيهِ إِلَّا اللهُ:**

كَأَن يَقُولَ لِرَجُلٍ حَاضِرٍ: "أَعِذنِي مِنَ النَّارِ" أَو: "أَعِذنِي مِنَ المَرَضِ" بِمَعنَىٰ دَفعِهِ رَفعًا مُطلَقًا، أَو: "أَعِذنِي مِنَ الشَّقَاءِ".

فَهَذِهِ الأُمُورُ لَا يَقدِرُ عَلَيهَا إِلَّا اللهُ، وَصَرفُهَا لِغَيرِهِ شِركٌ أَكبَرُ.

ثَانِيًا: مَتَىٰ تَكُونُ الِاستِعَاذَةُ شِركًا أَصغَرَ؟

قَد تَكُونُ شِركًا أَصغَرَ لَا أَكبَرَ، وَذَلِكَ فِي حَالَا وَمِنهَا:

التَّسوِيَةُ بَينَ اللهِ وَغَيرِهِ فِي عِبَارَةِ الِاستِعَاذَةِ:

مِثلَ أَن يَقُولَ: "أَعُوذُ بِاللهِ وَبِكَ" أَو: "مَعَاذِي اللهُ وَأَنتَ" أَو: "أَعُوذُ بِكَ كَمَا أُعِيذُ بِاللهِ".

فَهَذَا شِركٌ أَصغَرُ مِن جِنسِ قَولِ: "مَا شَاءَ اللهُ وَشِئتَ".

ثَالِثًا: مَتَىٰ تَكُونُ الِاستِعَاذَةُ بِغَيرِ اللهِ جَائِزَةً؟

تَكُونُ جَائِزَةً إِذَا تَوَفَّرَتِ الشُّرُوطُ الأَربَعَةُ التَّالِيَةُ:

- **أَن تَكُونَ استِعَاذَةً ظَاهِرَةً بِاللِّسَانِ وَلَيسَ بِالقَلبِ.**

أَي: الطَّلَبُ فَقَط، وَالقَلبُ مُعتَمِدٌ عَلَىٰ اللهِ دُونَ غَيرِهِ.

- **أَن تَكُونَ بِحَيٍّ لَا بِمَيِّتٍ.**

أَن يَكُونَ حَيًّا حَاضِرًا لَا غَائِبًا.

أَن يَكُونَ قَادِرًا عَلَىٰ فِعلِ الشَّيءِ المُستَعَاذِ بِهِ.

أَي: الِاستِعَاذَةُ فِي مَقدُورِهِ البَشَرِيِّ:

كَأَن تَقُولَ لِشَخصٍ: "أَعِذنِي مِن هَذَا الرَّجُلِ"،

أَو: "أَلجِئنِي فِي هَذَا المَكَانِ"، أَو: "أَحتَمِي بِكَ".

فَهَذَا جَائِزٌ إِذَا تَحَقَّقَتِ الضَّوَابِطُ.

وَقَد دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ جُملَةٌ مِنَ الأَدِلَّةِ الصَّحِيحَةِ:

الدَّلِيلُ الأَوَّلُ: استِعَاذَةُ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنهَا- بِالنَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-

٤٠٤ - **رُوِيَ فِي مُسنَدِ الإِمَامِ أَحمَدَ:** أَنَّ صَفِيَّةَ -رَضِيَ اللهُ عَنهَا- بَعَثَت طَعَامًا لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ فِي بَيتِ عَائِشَةَ، فَأَخَذَتِ الغَيرَةُ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنهَا- فَكَسَرَتِ القَصعَةَ.

٤٠٥ - **قَالَت عَائِشَةُ:** "فَعَرَفتُ فِي وَجهِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الغَضَبَ، فَقُلتُ: أَعُوذُ بِرَسُولِ اللهِ أَن يَلعَنَنِي اليَوم."(١)

وَهَذِهِ استِعَاذَةٌ: بِـحَيٍّ حَاضِرٍ قَادِرٍ وَفِي أَمرٍ مَقدُورٍ لَهُ: أَلَّا يَلعَنَهَا.

---

(١) أخرَجَهُ أَحمَدُ (٢٥٦٧٠) قَالَ: حَدَّثَنَا عَبدُ الرَّحمَنِ، عَن سُفيَانَ. وَفِي (٦/ ٢٧٧) (٢٦٨٩٨) قَالَ: حَدَّثَنَا سُرَيجُ بنُ النُّعمَانِ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبدُ الوَاحِدِ. وَ«أَبُو دَاوُدَ» (٣٥٦٨) قَالَ: حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَحيَىٰ، عَن سُفيَانَ. وَ«النَّسَائِيُّ» (٧/ ٧١)، وَفِي «الكُبرَىٰ» (٨٨٥٥) قَالَ: أَخبَرَنَا مُحَمَّدُ بنُ المُثَنَّىٰ، عَن عَبدِ الرَّحمَنِ، عَن سُفيَانَ.

كِلَاهُمَا (سُفيَانُ بنُ سَعِيدٍ الثَّورِيُّ، وَعَبدُ الوَاحِدِ بنُ زِيَادٍ) عَن فُلَيتٍ العَامِرِيِّ، عَن جَسرَةَ بِنتِ دِجَاجَةَ، فَذَكَرَتهُ.

وَلَم يُنكِر عَلَيهَا النَّبِيُّ -ﷺ-.

الدَّلِيلُ الثَّانِي: استِعَاذَةُ الغُلَامِ بِرَسُولِ اللهِ -ﷺ-

٤٠٦- **وَفِي «صَحِيحِ مُسلِمٍ» (٥/ ٩٢):** عَن أَبِي مَسعُودٍ « أَنَّهُ كَانَ يَضرِبُ غُلَامَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: أَعُوذُ بِاللهِ، قَالَ: فَجَعَلَ يَضرِبُهُ، فَقَالَ: أَعُوذُ بِرَسُولِ اللهِ، فَتَرَكَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: وَاللهِ لَلَّهُ أَقدَرُ عَلَيكَ مِنكَ عَلَيهِ، قَالَ: فَأَعتَقَهُ ».

هَذَا دَلِيلٌ صَرِيحٌ عَلَىٰ جَوَازِ الِاستِعَاذَةِ بِالمَخلُوقِ الحَاضِرِ القَادِرِ فِيمَا يَقدِرُ عَلَيهِ.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: استِعَاذَةُ المَرأَةِ المَخزُومِيَّةِ بِأُمِّ سَلَمَةَ

٤٠٧- **رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ عَن جَابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ أَنَّ امرَأَةً مِن بَنِي مَخزُومٍ سَرَقَت فَأُتِيَ بِهَا إِلَىٰ النَّبِيِّ -ﷺ- فَعَاذَت بِأُمِّ سَلَمَةَ زَوجِ النَّبِيِّ -ﷺ- فَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-:** "لَو كَانَت فَاطِمَةَ لَقَطَعتُ يَدَهَا" فقطعت.[(١)]

وَهَذَا أَيضًا: استِعَاذَةٌ بِحَيٍّ حَاضِرٍ قَادِرٍ وَفِي أَمرٍ مَقدُورٍ عَلَيهِ.

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: الحَدِيثُ الصَّحِيحُ فِي الفِتَنِ

٤٠٨- **وَمَا رُوِيَ عَن أَبِي هُرَيرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-:** «سَتَكُونُ فِتَنٌ، القَاعِدُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ القَائِمِ

وَالقَائِمُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيرٌ مِنَ السَّاعِي، وَمَن يُشرِف لَهَا تَستَشرِفهُ، وَمَن وَجَدَ مَلجأً أَو مَعَاذًا فَليَعُذ به».[(٢)]

---

(١) أخرجَهُ مسلم (١٦٨٩).

(٢) البخاري (٣٦٠١) ومسلم (٢٨٨٦).

وانظُر للاستِفادَة: رِسالَةِ مَروِيَّاتِ الِاستِعَاذَةِ بِالنَّبِيِّ وَبِغَيرِهِ مِنَ الآدَمِيِّينَ لِعَلِيِّ بنِ فَهدِ بنِ عَبدِ اللهِ أَبَا بُطَينٍ.

وَهَذَا تَصرِيحٌ بِجَوَازِ الِاستِعَاذَةِ بِالمَخلُوقِ فِي حُدُودِ قُدرَتِهِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ [سورة التوبة:٦]

فَالإِجَارَةُ وَالِاستِعَاذَةُ فِي أَشيَاءَ يَقدِرُ عَلَيهَا العَبدُ وَهُوَ حَيٌّ جَائِزَةٌ.

فَالِاستِعَاذَةُ لَهَا أَربَعَةُ أَركَانٍ:

المُستَعِيذُ: العَبدُ

المُستَعَاذُ بِهِ: وَهُوَ اللهُ وَصِفَاتُهُ

المُستَعَاذُ مِنهُ، مِثلُ: شَيطَانِ الإِنسِ وَالجِنِّ، وَمِن شَرِّ كُلِّ مَخلُوقٍ، وَمِنَ النَّارِ، وَالكُفرِ، وَالفَقرِ، وَالجَهلِ وَالسَّفَهِ، وَالفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنهَا وَمَا بَطَنَ فِتنَةِ المَحيَا وَالمَمَاتِ وَفِتنَةِ الدُّنيَا وَفِتنَةِ الشَّيطَانِ وَفِتنَةِ الفَقرِ وَفِتنَةِ الدَّجَّالِ وَفِتنَةِ المَشرِقِ وَالمَغرِبِ وَفِتَنِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَفِتنَةِ القَبرِ وَفِتنَةِ النَّارِ، مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَمِن جَارِ السُّوءِ، وَمِنَ الزَّوجَةِ السُّوءِ الَّتِي تَشِيبُ قَبلَ المَشِيبِ، وَمِنَ الوَلَدِ السُّوءِ، وَمِنَ المَالِ الَّذِي يَكُونُ عَذَابًا، وَمِنَ الخَلِيلِ المَاكِرِ، وَمِن شَرِّ النَّفسِ، وَمِن سَيِّئَاتِ الأَعمَالِ، وَمِنَ الزِّنَا، وَمِنَ الفُحشِ وَالتَّفَحُّشِ وَالفَحشَاءِ، وَمِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ.

وَمِن مَوَاطِنِ الِاستِعَاذَةِ: عِندَ قِرَاءَةِ القُرآنِ، عِندَ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَنَزَغَاتِهِم، عِندَ مُوَاجَهَةِ الجَاهِلِينَ، عِندَ الخَوفِ مِنَ الضَّرَرِ.

الصِّيغَةُ، مِثلُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ، أَو أَعُوذُ بِاللهِ، أَو أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ.

ثَمَرَاتُ الِاستِعَاذَةِ: حِفظُ النَّفسِ وَالمَالِ وَالدِّينِ مِن تَسَلُّطِ الشَّيَاطِينِ، الهِدَايَةُ إِلَىٰ الحَقِّ، الوِقَايَةُ مِنَ الوُقُوعِ فِي الفِعلِ القَبِيحِ، حِفظُ الأَجرِ وَالبَرَكَةِ فِي العَمَلِ.

قال المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ -:

وَدَلِيلُ الِاستِغَاثَةِ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [سورة الأنفال:٩].

هَذَا البَابُ بَابٌ مُهِمٌّ، بَل فِي غَايَةِ الأَهَمِّيَّةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا النَّوعَ مِنَ الشِّركِ - وَهُوَ دُعَاءُ غَيرِ اللهِ أَوِ الاِستِغَاثَةُ بِغَيرِ اللهِ - أَعظَمُ شِركٍ لِلمُتَقَدِّمِينَ، وَأَكثَرُ شِركٍ لِلمُتَأَخِّرِينَ.

كَمَا قِيلَ: «إِنَّهُ أَصلُ شِركِ العَالَمِ»، وَلِذَلِكَ نَجِدُ أَنَّ الأَدِلَّةَ الَّتِي جَاءَت فِي النَّهيِ عَن دُعَاءِ غَيرِ اللهِ أَعظَمُ بِكَثِيرٍ مِنَ الأَدِلَّةِ الَّتِي نَهَت عَنِ السُّجُودِ لِغَيرِ اللهِ، أَوِ الرُّكُوعِ لِغَيرِ اللهِ، أَوِ الذَّبحِ لِغَيرِ اللهِ.

وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الشِّركِ فِيهِ مِنَ الخُطُورَةِ وَالاِنتِشَارِ وَالشُّبَهِ مَا فِيهِ؛ حَيثُ إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَن يَتَوَرَّعُ عَن أَن يَذبَحَ لِغَيرِ اللهِ، أَو يَسجُدَ لِغَيرِ اللهِ، لَكِنَّهُ لَا يَتَوَرَّعُ عَن أَن يَدعُوَ غَيرَ اللهِ!

وَشَأنُ هَذَا المَوضُوعِ شَأنٌ عَظِيمٌ، وَعَلَى طَالِبِ العِلمِ - بَل عَلَى كُلِّ مُسلِمٍ - أَن يَعتَنِيَ بِهِ؛ لِكَثرَةِ الاِنحِرَافِ فِي هَذَا البَابِ، وَلِكَثرَةِ الشُّبَهِ الَّتِي يَطرَحُهَا المُشرِكُونَ.

الِاستِغَاثَةُ: طَلَبُ الغَوثِ.

وَالأَلِفُ وَالسِّينُ وَالتَّاءُ لِلطَّلَبِ.

وَالغَوثُ: إِزَالَةُ الشِّدَّةِ.

وَبِالتَّالِي فَالِاستِغَاثَةُ: طَلَبُ إِزَالَةِ الشِّدَّةِ.

وَالكَلَامُ فِي الِاستِغَاثَةِ مِن جِنسِ الكَلَامِ فِي الدُّعَاءِ؛ لِأَنَّ الِاستِغَاثَةَ مِن أَنوَاعِ الدُّعَاءِ.

العَلَاقَةُ بَينَ الدُّعَاءِ وَالِاستِغَاثَةِ:

العَلَاقَةُ بَينَهُمَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مُطلَقٌ:

كُلُّ استِغَاثَةٍ دُعَاءٌ.

وَلَيسَ كُلُّ دُعَاءٍ استِغَاثَةً.

وَذَلِكَ أَنَّ الِاستِغَاثَةَ هِيَ دُعَاءٌ خَاصٌّ بِحَالِ الشِّدَّةِ وَالكَربِ، أَمَّا الدُّعَاءُ فِي حَالِ الرَّخَاءِ فَلَا يُسَمَّىٰ استِغَاثَةً.

وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي وَصفِ حَالِ المُؤمِنِينَ يَومَ بَدرٍ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾.

فَالحَالُ كَانَت حَالَ شِدَّةٍ وَاضطِرَارٍ؛ المُسلِمُونَ أَقَلُّ عَدَدًا وَعُدَّةً مِنَ الكُفَّارِ، فَدَعَوا رَبَّهُم دُعَاءً مُلِحًّا مُتَضَرِّعًا، فَسُمِّيَ هَذَا الدُّعَاءُ استِغَاثَةً.

وَوَجهُ كَونِهَا عِبَادَةً: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ هُنَا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [سورة الأنفال:٩].

وَوَجهُ الِاستِدلَالِ: أَنَّهُ أَتَىٰ بِهَا فِي مَعرِضِ الثَّنَاءِ عَلَيهِم، وَأَنَّهُ رَتَّبَ عَلَيهَا الإِجَابَةَ؛ وَمَا دَامَ اللهُ تَعَالَىٰ قَد رَتَّبَ عَلَىٰ استِغَاثَتِهِم بِهِ إِجَابَتَهُ، دَلَّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ أَنَّهُ يُحِبُّهَا، وَأَنَّهُ رَضِيَهَا مِنهُم.

وَإِذَا أَحَبَّ اللهُ عَمَلًا وَرَضِيَهُ، كَانَ ذَٰلِكَ عِبَادَةً شَرعِيَّةً؛ فَنَتَجَ مِن ذَٰلِكَ أَنَّ الِاستِغَاثَةَ بِاللهِ عِبَادَةٌ، لَا يَجُوزُ صَرفُهَا لِغَيرِهِ سُبحَانَهُ.

وَتَكَاثَرَتِ الأَدِلَّةُ عَلَىٰ وُجُوبِ إِخلَاصِ الدُّعَاءِ لِلَّهِ سُبحَانَهُ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ

لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة غافر:١٤].

وَهَذَا هُوَ دَأبُ أَهلِ التَّوحِيدِ: ﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾ [سورة الكهف:١٤].

وَإِذَا نَزَلَتِ النَّوَازِلُ وَادلَهَمَّتِ الخُطُوبُ، فَإِنَّ المُوَحِّدَ الصَّادِقَ لَا يَلجَأُ إِلَّا إِلَىٰ اللهِ العَظِيمِ سُبحَانَهُ: ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ [سورة الأنبياء:٨٣].

نَادَىٰ رَبَّهُ، مَا نَادَىٰ شَجَرًا وَلَا حَجَرًا، وَلَا وَلِيًّا وَلَا نَبِيًّا، وَلَا مَلَكًا وَلَا جِنِّيًّا.

نَادَىٰ رَبَّهُ، هَذَا هُوَ التَّوحِيدُ، وَهَذَا لُبُّ العِبَادَةِ.

فَالِاستِغَاثَةُ بِاللهِ عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ، لَا يَجُوزُ صَرفُهَا لِغَيرِهِ بِحَالٍ؛ فَمَن استَغَاثَ بِاللهِ فَقَد حَقَّقَ التَّوحِيدَ، وَهَذَا هُوَ دِينُ مُحَمَّدٍ -ﷺ- الَّذِي قَالَ: «إِذَا سَأَلتَ فَاسأَلِ اللهَ».

حُكمُ الِاستِغَاثَةِ بِغَيرِ اللهِ:

أَوَّلًا: الِاستِغَاثَةُ بِالأَموَاتِ

مَنِ استَغَاثَ بِمَيِّتٍ عِندَ قَبرِهِ أَو غَابَ عَنهُ فَقَالَ: يَا سَيِّدِي البَدَوِيَّ أَو يَا سَيِّدِي العَيدَرُوسَ.

أَو يَا ابنَ عَلوَانَ أَو يَا سَيِّدِي العَمُودِيَّ أَو يَا سَيِّدِي عَبدَ القَادِرِ، أَغِثنِي، المَدَدَ المَدَدَ...

فَهَذَا — وَالعِيَاذُ بِاللهِ — دِينُ أَبِي لَهَبٍ وَأَبِي جَهلٍ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَهُوَ عَينُ مَا كَانَ عَلَيهِ أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ وَسَائِرُ المُشرِكِينَ.

وَهُوَ شِركٌ أَكبَرُ مُخرِجٌ مِنَ المِلَّةِ؛ لِأَنَّهُ صَرفُ عِبَادَةٍ لِغَيرِ اللهِ.

فَمَنِ استَغَاثَ بِغَيرِ اللهِ فَقَد وَقَعَ فِي الشِّركِ العَظِيمِ؛ أَشرَكَ مَعَ اللهِ وَكَفرَ بِاللهِ، وَإِذَا لَم يَكُن هَذَا هُوَ الشِّركَ، فَلَيسَ عَلَىٰ وَجهِ الأَرضِ شِركٌ!

وَلَو تَأَمَّلتَ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ -ﷺ- لَوَجدتَ الأَدِلَّةَ مُتَضَافِرَةً عَلَىٰ الأَمرِ بِدُعَاءِ اللهِ وَحدَهُ، وَالنَّهيِ عَن دُعَاءِ غَيرِهِ، وَوَصفِ دُعَاءِ غَيرِ اللهِ بِأَنَّهُ ضَلَالٌ، بَل شِركٌ وَكُفرٌ؛ وَالأَدِلَّةُ فِي ذَلِكَ بِالعَشَرَاتِ، بَلِ المِئَاتِ، وَسَبَقَ ذِكرُ كَثِيرٍ مِنهَا فِي عِبَادَةِ الدُّعَاءِ.

٤٠٩- **«قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ فِي الفَرقِ بَينَ عِبَادَاتِ أَهلِ الإِسلَامِ وَالإِيمَانِ وَعِبَادَاتِ أَهلِ الشِّركِ وَالنِّفَاقِ» (ص١٢٠)**: «وَأَيضًا فَلَو شُرِعَ أَن يُطلَبَ مِنَ المَيِّتِ الدُّعَاءُ، وَالشَّفَاعَةُ، كَمَا كَانَ يُطلَبُ مِنهُ فِي حَيَاتِهِ؛ كَانَ ذَلِكَ مَشرُوعًا فِي حَقِّ الأَنبِيَاءِ، وَالصَّالِحِينَ، فَكَانَ يُسَنُّ أَن يَأتِيَ الرَّجُلُ قَبرَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، نَبِيًّا كَانَ، أَو غَيرَهُ، فَيَقُولُ ادعُ لِي بِالمَغفِرَةِ، وَالنَّصرِ، وَالهُدَىٰ، وَالرِّزقِ، اشفَع لِي إِلَىٰ رَبِّكَ، فَيَتَّخِذُ الرَّجُلَ الصَّالِحَ شَفِيعًا بَعدَ المَوتِ، كَمَا يَفعَلُ ذَلِكَ النَّصَارَىٰ، وَكَمَا تَفعَلُ كَثِيرٌ مِن مُبتَدِعَةِ المُسلِمِينَ، وَإِذَا جَازَ طَلَبُ هَذَا مِنهُ، جَازَ أَن يُطلَبَ ذَلِكَ مِنَ المَلَائِكَةِ، فَيُقَالَ: يَا جِبرِيلُ، يَا مِيكَائِيلُ، اشفَع لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، ادعُ لَنَا.

وَمَعلُومٌ أَنَّ هَذَا لَيسَ مِن دِينِ المُسلِمِينَ، وَلَا دِينِ أَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ، لَم يَسُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنبِيَاءِ لِلخَلقِ أَن يَطلُبُوا مِنَ الصَّالِحِينَ المَوتَىٰ، وَالغَائِبِينَ، وَالمَلَائِكَةِ، دُعَاءً، وَلَا شَفَاعَةً، بَل هَذَا أَصلُ الشِّركِ، فَإِنَّ المُشرِكِينَ إِنَّمَا اتَّخَذُوهُم شُفَعَاءَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [سورة يونس:١٨].

وَقَالَ: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [سورة الأنعام:٩٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة النجم:٢٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة سبأ:٢٢-٢٣].

وَقَالَ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [سورة الأنعام:٥١].....

٤١٠- **وَقَالَ ابنُ تَيمِيَة:** فَنوعٌ مِنهُ يَتَّخِذُونَهُم شُفَعَاءَ يَطلُبُونَ مِنهُمُ الشَّفَاعَةَ وَالدُّعَاءَ مِنَ المَوتَىٰ وَالغَائِبِينَ وَمِن تَمَاثِيلِهِم......... ثُمَّ قَالَ: وَهَذِهِ الأَنوَاعُ الثَّلَاثَةُ كَانَت فِي مُشرِكِي العَرَبِ وَغَيرِهِم مِمَّن يُقِرُّ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَأَنَّهُمَا مُحدَثَتَانِ لَيسَتَا قَدِيمَتَين.(١)

---

(١) **جاء في «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» (١/ ٥٢٨ ط عَطَاءَاتِ العِلمِ):** «فَالمُشرِكُ إِنَّمَا يَتَّخِذُ مَعبُودَهُ لِمَا يَحصُلُ لَهُ بِهِ مِنَ النَّفعِ، وَالنَّفعُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِمَّن فِيهِ خَصلَةٌ مِن هَذِهِ الأَربَع: إِمَّا مَالِكٌ لِمَا يُرِيدُ عَابِدُهُ مِنهُ، فَإِن لَم يَكُن مَالِكًا كَانَ شَرِيكًا لِلمَالِكِ، فَإِن لَم يَكُن شَرِيكًا لَهُ كَانَ مُعِينًا لَهُ وَظَهِيرًا، فَإِن لَم يَكُن مُعِينًا وَلَا ظَهِيرًا كَانَ شَفِيعًا عِندَهُ. فَنَفَىٰ سُبحَانَهُ المَرَاتِبَ الأَربَعَ نَفيًا مُتَرَتِّبًا مُنتَقِلًا مِنَ الأَعلَىٰ إِلَىٰ مَا دُونَهُ، فَنَفَىٰ المِلكَ، وَالشِّركَةَ، وَالمُظَاهَرَةَ، وَالشَّفَاعَةَ الَّتِي يَطلُبُهَا المُشرِكُ؛ وَأَثبَتَ شَفَاعَةً لَا نَصِيبَ فِيهَا لِمُشرِكٍ، وَهِيَ الشَّفَاعَةُ بِإِذنِهِ.

قُلتُ: زَعَمَ مُشرِكِي زَمَانِنَا أَنَّ بينَهُم وبَينَ مُشرِكِي الجَاهِلِيَّةِ فُرقَانًا، فَقَالُوا: أُولَئِكَ اعتَقَدُوا فِي مَعبُودَاتِهِمُ النَّفعَ وَالضَّرَّ بِذَاتِهَا، وَنحنُ لَا نَعتَقِدُ فِي الأَولِيَاءِ إِلَّا الشَّفَاعَةَ وَالتَّقرِيبَ، لَا نَفعًا وَلَا ضَرًّا.(١)

فَكَفَىٰ بِهَذِهِ الآيَةِ نُورًا وَبُرهَانًا وَنَجَاةً، وَتَجرِيدًا لِلتَّوحِيدِ، وَقَطعًا لِأُصُولِ الشِّركِ وَمَوَادِّهِ لِمَن عَقَلَهَا! وَالقُرآنُ مَملُوءٌ مِن أَمثَالِهَا وَنَظَائِرِهَا، وَلَكِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لَا يَشعُرُ بِدُخُولِ الوَاقِعِ تَحتَهُ وَتَضَمُّنِهِ لَهُ، وَيَظُنُّهُ فِي نَوعٍ وَقَومٍ قَد خَلَوا مِن قَبلُ وَلَم يُعقِبُوا وَارِثًا! وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحُولُ بَينَ القَلبِ وَبَينَ فَهمِ القُرآنِ.

وَلَعَمرُ اللهِ، إِن كَانَ أُولَئِكَ قَد خَلَوا، فَقَد وَرِثَهُم مَن هُوَ مِثلُهُم، وَشَرٌّ مِنهُم، وَدُونَهُم. وَتَنَاوُلُ القُرآنِ لَهُم كَتَنَاوُلِهِ لِأُولَئِكَ، وَلَكِنَّ الأَمرَ كَمَا قَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: إِنَّمَا تُنقَضُ عُرَىٰ الإِسلَامِ عُروَةً عُروَةً، إِذَا نَشَأَ فِي الإِسلَامِ مَن لَم يَعرِفِ الجَاهِلِيَّةَ.

وَهَذَا لِأَنَّهُ إِذَا لَم يَعرِفِ الجَاهِلِيَّةَ وَالشِّركَ وَمَا عَابَهُ القُرآنُ وَذَمَّهُ وَقَعَ فِيهِ وَأَقَرَّهُ، وَدَعَا إِلَيهِ، وَصَوَّبَهُ وَحَسَّنَهُ، وَهُوَ لَا يَعرِفُ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَانَ عَلَيهِ الجَاهِلِيَّةُ، أَو نَظِيرُهُ، أَو أَشَرَّ مِنهُ، أَو دُونَهُ؛ فَينتَقِضُ بِذَلِكَ عُرَىٰ الإِسلَامِ، وَيَعُودُ المَعرُوفُ مُنكَرًا وَالمُنكَرُ مَعرُوفًا، وَالبِدعَةُ سُنَّةً وَالسُّنَّةُ بِدعَةً؛ وَيُكَفَّرُ الرَّجُلُ بِمَحضِ الإِيمَانِ وَتَجرِيدِ التَّوحِيدِ، وَيُبَدَّعُ بِتَجرِيدِ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ وَمُفَارَقَةِ الأَهوَاءِ وَالبِدَعِ. وَمَن لَهُ بَصِيرَةٌ وَقَلبٌ حَيٌّ يَرَىٰ ذَلِكَ عِيَانًا! فَاللهُ المُستَعَانُ.»

(١) وَلَا بُدَّ أَن تَعلَمَ أَنَّ شِركَ مُتَأَخِّرِي هَذِهِ الأُمَّةِ أَغلَظُ مِن شِركِ الأَوَّلِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمُ النَّبِيُّ -ﷺ-، مِن وَجهَينِ:

الأَوَّلُ: أَنَّ أُولَئِكَ كَانُوا يُشرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، فَإِذَا نَزَلَت بِهِمُ الشَّدَائِدُ أَخلَصُوا الدُّعَاءَ لِلهِ وَحدَهُ وَنَسُوا سَادَتَهُم، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [سورة العنكبوت:٦٥]، وقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة لقمان:٣٢]؛ فَكَانَ تَوحِيدُهُم عِندَ الاضطِرَارِ حُجَّةً عَلَيهِم.

وَأَمَّا مُشرِكُو زَمَانِنَا فَيَدعُونَ غَيرَ اللهِ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ جَمِيعًا، فَهُم أَعظَمُ شِركًا.

وَالوَجهُ الثَّانِي: أَنَّ الأَوَّلِينَ كَانُوا يَدعُونَ مَعَ اللهِ مَن لَهُم مَنزِلَةٌ — نَبِيًّا أَو مَلَكًا أَو وَلِيًّا صَالِحًا، أَو أَشجَارًا

ووَجبَ كشفُ هَذِهِ الشُّبهَةِ لِيَتبَيَّنَ أَن لَا فرق؛ فَإِنَّ الأَوَّلَ دَعا صَنمًا وَهُوَ يعلَمُ أَنَّهُ حَجَرٌ لَا يَملِكُ لِنَفسِهِ شَيئًا، وَالآخِرَ دَعا مَيتًا فِي ضَرِيحٍ وَهُوَ يُقِرُّ أَنَّهُ تُرابٌ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنفَعُ.

بَيانُ أَصلِ مَعبُودَاتِهِم: مَا عُبِدَتِ الأَصنامُ ابتِدَاءً إِلَّا وَهِيَ رُمُوزٌ لِصَالِحِينَ.

فَـ«وَدٌّ وَسُوَاعٌ وَيَغُوثُ وَيَعُوقُ وَنَسرٌ» كَانُوا رِجَالًا صَالِحِينَ فِي قَومِ نُوحٍ، فَلَمَّا مَاتُوا عَكَفَ النَّاسُ عَلَىٰ قُبُورِهِم، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُم، ثُمَّ عَبَدُوهَا لَمَّا استَحكَمَ الجَهلُ — كَمَا صَحَّ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ.

وَمُشرِكُو العَرَبِ صَوَّرُوا المَلَائِكَةَ وَزَعَمُوهُم بَنَاتِ اللهِ، وَشَقُّوا أَسمَاءَ آلِهَتِهِم مِن أَسمَاءِ الرَّبِّ: فَاللَّاتُ مِن «اللهِ»، وَالعُزَّىٰ مِنَ «العَزِيزِ»، فَاختَلَفَتِ الصُّوَرُ وَاتَّفَقَت عَلَىٰ أَصلَينِ:

الأَصلُ الأَوَّلُ: أَنَّ مَعبُودَاتِهِم فِي الحَقِيقَةِ عِبَادٌ صَالِحُونَ لِلَّهِ، وَالأَصنامُ رُمُوزٌ لَهُم لَا أَكثَرُ، وَلِذَلِكَ قَالَ اللهُ فِي الَّذِينَ دَعَوهُم مِنَ المَلَائِكَةِ وَعِيسَىٰ وَعُزَيرٍ: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [سورة الإسراء:٥٧] — فَالمَدعُوُّونَ أَنفُسُهُم عِبَادٌ يَبتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِم.

الأَصلُ الثَّانِي: أَنَّهُم لَم يَعتَقِدُوا فِي تِلكَ المَعبُودَاتِ نَفعًا وَلَا ضَرًّا بِذَاتِهَا، بَل أَسنَدُوا التَّدبِيرَ كُلَّهُ إِلَىٰ اللهِ، فَأَقَرُّوا: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ [سورة يونس:٣١].

وَأَحجَارًا لَا تَعصِي اللهَ —؛ وَكَثِيرٌ مِن مُتَأَخِّرِينَا يَدعُونَ مَن يُعرَفُ بِالفِسقِ وَالفُجُورِ وَالزَّندَقَةِ، فَالَّذِي يَعتَقِدُ النَّفعَ فِيمَن يُشَاهَدُ فِسقُهُ أَعظَمُ جُرمًا مِمَّن يَعتَقِدُهُ فِي صَالِحٍ أَو فِي جَمَادٍ لَا يَعصِي. وَفِي تَقرِيرِ هَذَا قَطعٌ لِشُبهَةِ مَن ظَنَّ أَنَّ الشِّركَ إِنَّمَا كَانَ فِي الأُمَمِ الخَالِيَةِ وَلَا يَقَعُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ.

وَلَمَّا قَالُوا لِهُودٍ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [سورة هود:٥٤] أَرَادُوا إِصَابَتَهَا لَهُ بِإِذنِ اللهِ، لَا بِذَاتِهَا.

حَتَّىٰ إِنَّهُم فِي تَلبِيَتِهِم يَقُولُونَ: «لَبَّيكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَملِكُهُ وَمَا مَلَكَ».

فَأَينَ الفَرقُ؟ تَسأَلُ العَائِدَ مِن قَبرِ البَدَوِيِّ: أَينَ كُنتَ؟ فَيَقُولُ: عِندَ البَدَوِيِّ — وَمَا رَآهُ، وَمَا جَالَسَهُ، وَإِنَّمَا تَمَسَّحَ بِحَجَرٍ صَارَ رَمزًا لِسَاكِنِهِ.

فَلَا فَرقَ بَينَ تَعظِيمِ الصَّنَمِ وَتَعظِيمِ الضَّرِيحِ؛ كِلَاهُمَا رَمزٌ.

ثُمَّ زَعَمُوا فَرقًا ثَانِيًا: أَنَّ الأَوَّلَ سَمَّىٰ مَعبُودَهُ إِلَهًا، وَهُم لَا يُسَمُّونَ الوَلِيَّ إِلَهًا.

فَالجَوَابُ: مَن صَرَفَ العِبَادَةَ لِغَيرِ اللهِ فَقَدِ اتَّخَذَهُ إِلَهًا، سَمَّاهُ أَو لَم يُسَمِّهِ، فَبَانَ أَن لَا فُرقَانَ بَينَ القُبُورِيِّ وَالوَثَنِيِّ؛ يَجمَعُهُمَا أَمرَانِ: صَرفُ العِبَادَةِ لِغَيرِ اللهِ، وَاعتِقَادُ أَنَّ المَصرُوفَ لَهُ لَا يَنفَعُ وَلَا يَضُرُّ بِذَاتِهِ، وَاللهُ الموفّق.(١)

وَكَمَا أَنَّ هٰؤُلَاءِ المَدعُوِّينَ مِن دُونِ اللهِ لَا يَملِكُونَ كَشفَ الضُّرِّ فِي الدُّنيَا، فَإِنَّهُم

---

(١) **قَالَ حَمَدُ بنُ عَتِيقٍ، كَمَا فِي «الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ» (٩/ ٢٥٨)**: «فَيَا عِبَادَ اللهِ أَينَ عُقُولُكُم؟ فَإِنَّ النِّزَاعَ بَينَنَا وَبَينَ هٰؤُلَاءِ لَيسَ هُوَ فِي الصَّلَاةِ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي تَقرِيرِ التَّوحِيدِ وَالأَمرِ بِهِ، وَتَقبِيحِ الشِّركِ وَالنَّهيِ عَنهُ، وَالتَّصرِيحِ بِذَلِكَ؛ كَمَا قَالَ إِمَامُ الدَّعوَةِ:

أَصلُ دِينِ الإِسلَامِ وَقَاعِدَتُهُ أَمرَانِ:

الأَوَّلُ: الأَمرُ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالتَّحرِيضُ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَالمُوَالَاةُ فِيهِ، وَتَكفِيرُ مَن تَرَكَهُ.

الأَمرُ الثَّانِي: الإِنذَارُ عَنِ الشِّركِ فِي عِبَادَةِ اللهِ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالتَّغلِيظُ فِي ذَلِكَ، وَالمُعَادَاةُ فِيهِ، وَتَكفِيرُ مَن فَعَلَهُ».

يَتبرَّؤُونَ مِن عَابِدِيهِم يومَ القِيامَةِ أَحوجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيهِم؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ۝٦٢﴾ [سورة القصص:٦٢]،

٤١١ - **قَالَ ابنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ فِي «تَفسِيرِهِ» (١٢/ ٤١٥ ط التَّربِيَةِ وَالتُّرَاثِ)** «(قَالُوا أَينَ مَا كُنتُم تَدعُونَ مِن دُونِ اللهِ)، يَقُولُ: قَالَتِ الرُّسُلُ: أَينَ الَّذِينَ كُنتُم تَدعُونَهُم أَولِيَاءَ مِن دُونِ اللهِ وَتَعبُدُونَهُم، لَا يَدفَعُونَ عَنكُم مَا قَد جَاءَكُم مِن أَمرِ اللهِ الَّذِي هُوَ خَالِقُكُم وَخَالِقُهُم، وَمَا قَد نَزَلَ بِسَاحَتِكُم مِن عَظِيمِ البَلَاءِ؟ **وَهَلَّا يُغِيثُونَكُم مِن كَربِ مَا أَنتُم فِيهِ فَيُنقِذُونَكُم مِنهُ؟** فَأَجَابَهُمُ الأَشقِيَاءُ فَقَالُوا: ضَلَّ عَنَّا أَولِيَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدعُو مِن دُونِ اللهِ، يَعنِي بِقَولِهِ: (ضَلُّوا)، جَارُوا وَأَخَذُوا غَيرَ طَرِيقِنَا، وَتَرَكُونَا عِندَ حَاجَتِنَا إِلَيهِم فَلَم يَنفَعُونَا، يَقُولُ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَشَهِدَ القَومُ حِينَئِذٍ عَلَىٰ أَنفُسِهِم أَنَّهُم كَانُوا كَافِرِينَ بِاللهِ، جَاحِدِينَ وحدانيته.»(١)

---

(١) **قَالَ ابنُ تَيمِيَّةَ فِي «مَجمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (١/ ١٢٤)**: «فَمَن جَعَلَ المَلَائِكَةَ وَالأَنبِيَاءَ وَسَائِطَ يَدعُوهُم وَيَتَوَكَّلُ عَلَيهِم وَيَسأَلُهُم جَلبَ المَنَافِعِ وَدَفعَ المَضَارِّ، مِثلَ أَن يَسأَلَهُم غُفرَانَ الذَّنبِ وَهِدَايَةَ القُلُوبِ وَتَفرِيجَ الكُرُوبِ وَسَدَّ الفَاقَاتِ: فَهُوَ كَافِرٌ بِإِجمَاعِ المُسلِمِينَ».

وَقَالَ ابنُ عَبدِ الهَادِي الحَنبَلِيُّ فِي «الصَّارِمِ المُنكِي» (ص ٤٣٦): «وَلَو جَاءَ إِنسَانٌ إِلَىٰ سَرِيرِ المَيِّتِ يَدعُوهُ مِن دُونِ اللهِ وَيَستَغِيثُ بِهِ، كَانَ هَذَا شِركًا مُحَرَّمًا بِإِجمَاعِ المُسلِمِينَ».

وَقَالَ ابنُ مُفلِحٍ الحَنبَلِيُّ فِي «الفُرُوعِ» (١٠/ ١٨٨) فِي بَابِ حُكمِ المُرتَدِّ: «قَالَ: أَو جَعَلَ بَينَهُ وَبَينَ اللهِ وَسَائِطَ يَتَوَكَّلُ عَلَيهِم وَيَدعُوهُم وَيَسأَلُهُم».

وَانظُر: «الإِنصَافُ» (٢٧/ ١٠٨)، «الإِقنَاعُ» (٤/ ٢٩٧)، «الإِعلَامُ بِقَوَاطِعِ الإِسلَامِ» (١/ ٢١٣)، «غَايَةُ المُنتَهَىٰ» (٢/ ٤٩٨)، «كَشَّافُ القِنَاعِ» (٦/ ١٦٨) فِي بَابِ حُكمِ المُرتَدِّ، «مَطَالِبُ أُولِي النُّهَىٰ» (٦/ ٢٧٩) فِي بَابِ حُكمِ المُرتَدِّ، «عَقَائِدُ التَّوحِيدِ» (ص ٤٣)، «الصَّوَاعِقُ فِي أَجوِبَةِ أُنمُوذَجِ الحَقَائِقِ»، «فَصلُ

ثَانِيًا: الِاستِغَاثَةُ بِحَاضِرٍ لَا يَقدِرُ إِلَّا اللهُ:

وَكَذَلِكَ مَنِ استَغَاثَ بِآدَمِيٍّ حَيٍّ حَاضِرٍ فِي شَيءٍ لَا يَقدِرُ عَلَيهِ إِلَّا اللهُ، كَأَن يَقُولَ:

"أَغِثنِي مِنَ النَّارِ"

"أَغِثنِي بِالشِّفَاءِ"

"أَغِثنِي بِالوَلَدِ"

"أَغِثنِي بِالمَغفِرَةِ"

فَهَذَا أَيضًا شِركٌ أَكبَرُ؛ لِأَنَّ هَذَا لَا يَقدِرُ عَلَيهِ المَخلُوقُ.

ثَالِثًا: الِاستِغَاثَةُ بِآدَمِيٍّ حَيٍّ غَائِبٍ لَا يَسمَعُ

وَكَذَلِكَ مَن نَادَىٰ حَيًّا بَعِيدًا لَا يَسمَعُهُ، يَطلُبُ مِنهُ الغَوثَ، فَهَذَا الشَّيءُ هُوَ مِنهُ

المَقَالِ» (ص ١٣٧).

وَمِن شُبَهِهِم -مُشرِكِي زَمَانِنَا- قَولُهُم: قَد ثَبَتَ أَنَّ النَّاسَ يَومَ القِيَامَةِ يَستَغِيثُونَ بِالأَنبِيَاءِ — يَأتُونَ آدَمَ ثُمَّ نُوحًا ثُمَّ إِبرَاهِيمَ ثُمَّ مُوسَىٰ ثُمَّ عِيسَىٰ حَتَّىٰ يَنتَهُوا إِلَىٰ نَبِيِّنَا -ﷺ- —، فَإِذَا جَازَتِ الِاستِغَاثَةُ بِهِم فِي الآخِرَةِ فَمِن بَابِ أَولَىٰ أَن تَجُوزَ فِي الدُّنيَا.

وَالجَوَابُ أَنَّ هَذَا قِيَاسٌ بَاطِلٌ مِن أَصلِهِ؛ فَإِنَّ تِلكَ استِغَاثَةٌ بِحَيٍّ حَاضِرٍ فِيمَا يَقدِرُ عَلَيهِ: إِذ يَطلُبُونَ مِنَ الأَنبِيَاءِ أَن يَسأَلُوا اللهَ وَيَشفَعُوا، وَهُم أَحيَاءٌ حَاضِرُونَ سَامِعُونَ، وَالمَطلُوبُ مِنهُم مَقدُورٌ لَهُم وَهُوَ الدُّعَاءُ وَالشَّفَاعَةُ بِإِذنِ اللهِ؛ وَهَذَا كَاستِغَاثَةِ الَّذِي مِن شِيعَةِ مُوسَىٰ بِهِ وَهُوَ حَاضِرٌ: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [سورة القصص:١٥]، وَكَاستِغَاثَةِ المَرءِ بِأَصحَابِهِ فِي الحَربِ فِيمَا يَقدِرُونَ عَلَيهِ، وَذَلِكَ جَائِزٌ بِالإِجمَاعِ.

وَإِنَّمَا المُنكَرُ الِاستِغَاثَةُ عِندَ القُبُورِ وَفِي غَيبَتِهِم، فَبَطَلَ قِيَاسُهُم لِافتِرَاقِ الصُّورَتَينِ فِي الحَيَاةِ وَالحُضُورِ وَالمَقدُورِ.

إِثْبَاتٌ لِهَذَا المُنَادَىٰ:

سَمعًا مُحِيطًا.

قُدرَةً غَيبِيَّةً.

تَأثِيرًا مُستَقِلًّا.

تَصَرُّفًا فِي الكَونِ.

فَهَذَا تَسوِيَةٌ لِلمَخلُوقِ بِرَبِّ العَالَمِينَ، وَهُوَ مِنَ الشِّركِ الأَكبَرِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنِ المُشرِكِينَ: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [سورة الشعراء:٩٧-٩٨].

خُلَاصَةُ الأَمرِ: الِاستِغَاثَةُ عِبَادَةٌ لَا تَجُوزُ إِلَّا لِلَّهِ وَحدَهُ.

وَمَا كَانَ لِغَيرِ اللهِ فَهُوَ: شِركٌ أَكبَرُ إِذَا كَانَ فِي أَمرٍ لَا يَقدِرُ عَلَيهِ إِلَّا اللهُ، أَو كَانَ استِغَاثَةً بِمَيِّتٍ أَو غَائِبٍ أَو حَاضِرٍ عَاجِزٍ، أَمَّا الِاستِغَاثَةُ بِالمَخلُوقِ الحَيِّ الحَاضِرِ القَادِرِ فِي الأُمُورِ الَّتِي يَقدِرُ عَلَيهَا — فَهِيَ مِن جِنسِ الِاستِعَانَةِ — وَلَا حَرَجَ فِيهَا.(١)

---

(١) وَقَبلَ تَفصِيلِ صُوَرِ الِاستِغَاثَةِ، لَا بُدَّ مِن تَحرِيرِ فَرقٍ يَقَعُ فِيهِ خَلطٌ كَثِيرٌ عِندَ المُحتَجِّينَ لِلقُبُورِيَّةِ، وَهُوَ الفَرقُ بَينَ «التَّوَسُّلِ» وَ«الِاستِغَاثَةِ»؛ فَإِنَّ المُستَغِيثَ بِشَيءٍ طَالِبٌ مِنهُ، سَائِلٌ لَهُ، فَهُوَ المَدعُوُّ حَقِيقَةً؛ أَمَّا المُتَوَسَّلُ بِهِ فَلَا يُدعَىٰ وَلَا يُسأَلُ وَلَا يُطلَبُ مِنهُ شَيءٌ، وَإِنَّمَا يُطلَبُ اللهُ بِهِ؛ فَقَولُ القَائِلِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ بِحَقِّ نَبِيِّكَ» سُؤَالٌ لِلَّهِ وَحدَهُ، لَا لِنَبِيِّهِ، بِخِلَافِ قَولِ القَائِلِ: «يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثنِي»، فَهَذَا استِغَاثَةٌ بِغَيرِ اللهِ.

وَمِن هُنَا يَتَبَيَّنُ خَطَأُ مَن يَحتَجُّ بِحَدِيثِ الأَعمَىٰ -الَّذِي عَلَّمَهُ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ- أَن يَقُولَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَتَوَجَّهُ إِلَيكَ بِنَبِيِّكَ... اللَّهُمَّ فَشَفِّعهُ فِيَّ»- عَلَىٰ جَوَازِ الِاستِغَاثَةِ بِهِ ﷺ بَعدَ مَوتِهِ؛ فَإِنَّ غَايَةَ مَا فِي الحَدِيثِ -عَلَىٰ القَولِ الَّذِي عَلَيهِ جُمهُورُ أَهلِ العِلمِ- تَوَسُّلُ الأَعمَىٰ بِدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَشَفَاعَتِهِ حَالَ حَيَاتِهِ وَحُضُورِهِ، لَا التَّوَسُّلُ بِذَاتِهِ المُجَرَّدَةِ فَضلًا عَنِ الِاستِغَاثَةِ بِهِ بَعدَ وَفَاتِهِ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ صَنِيعُ الصَّحَابَةِ أَنفُسِهِم: فَلَمَّا أَجدَبَ النَّاسُ

قال المؤلف - رحمه الله -:

وَدَلِيلُ الذَّبحِ، قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [سورة الأنعام:١٦٢-١٦٣].

وَمِنَ السُّنَّةِ قَولُهُ - ﷺ -: «لَعَنَ اللهُ مَن ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ».

الذَّبحُ بِالفَتحِ: قَطعُ الحُلقُومِ مِن بَاطِنٍ عِندَ النَّحرِ.

وَالذِّبحُ بِالكَسرِ: اسمُ مَا يُذبَحُ مِنَ الحَيَوَانِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الصافات:١٠٧].

وَالحَيَوَانُ إِن كَانَ مَقدُورًا عَلَيهِ فَذَكَاتُهُ تَكُونُ بِذَبحِهِ فِي حَلقِهِ أَو فِي لَبَّتِهِ، وَهِيَ الثُّغرَةُ بَينَ التَّرقُوَتَينِ أَسفَلَ العُنُقِ، وَالأَفضَلُ أَن يَختَصَّ النَّحرُ بِالإِبِلِ وَكُلِّ مَا طَالَ عُنُقُهُ

فِي زَمَنِ عُمَرَ بَعدَ وَفَاتِهِ، لَم يَتَوَسَّلُوا بِذَاتِهِ كَمَا كَانُوا يَفعَلُونَ فِي حَيَاتِهِ، بَل عَدَلَ عُمَرُ إِلَىٰ التَّوَسُّلِ بِدُعَاءِ العَبَّاسِ -عَمِّهِ الحَيِّ الحَاضِرِ- فَاستَسقَىٰ بِهِ؛ فَلَو كَانَ التَّوَسُّلُ بِذَاتِهِ - بَعدَ مَوتِهِ مَشرُوعًا، لَكَانَ أَولَىٰ مِنَ العُدُولِ عَنهُ إِلَىٰ العَبَّاسِ.

فَتَبَيَّنَ أَنَّ حَقِيقَةَ التَّوَسُّلِ المَشرُوعِ إِنَّمَا هُوَ التَّوَسُّلُ بِدُعَاءِ الحَيِّ الحَاضِرِ لَا بِذَاتِ الغَائِبِ أَوِ المَيِّتِ، فَضلًا عَنِ الاستِغَاثَةِ بِهِ.

مِنَ الحَيَوَانَاتِ مَأكُولَةِ اللَّحمِ، بَينَمَا يَختَصُّ الذَّبحُ بِمَا قَصُرَ عُنُقُهُ منها.[(١)]

وَإِن لَم يَكُن مَقدُورًا عَلَيهِ كَالصَّيدِ فَذَكَاتُهُ تَحصُلُ بِالعَقرِ، وَهُوَ مَا يُسَمَّىٰ بِذَكَاةِ الضَّرُورَةِ، أَي: جَرحُ الحَيَوَانِ جَرحًا مُزهِقًا لِلرُّوحِ فِي أَيِّ جِهَةٍ مِن جِسمِهِ، وَإِذَا أُزهِقَت رُوحُ الحَيَوَانِ بِغَيرِ مَا ذُكِرَ كَانَ مَيتَةً لَا يَجُوزُ أَكلُ لَحمِهِ.

وَالذَّبحُ عِبَادَةٌ مِن أَعظَمِ العِبَادَاتِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللهُ -عَجَّلَ-، وَشَرَعَهَا لِعِبَادِهِ، فَوَجَبَ أَن يَتَقَرَّبَ بِهَا العَبدُ إِلَىٰ اللهِ وَحدَهُ، وَلَا يَجُوزُ صَرفُهَا لِغَيرِهِ سُبحَانَهُ.

فَالذَّبحُ لِلَّهِ عِبَادَةٌ، وَقَد أَمَرَ اللهُ بِهَا فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الشَّرعِ، كَسُنَّةِ الأُضحِيَةِ،

---

(١) **«العين» (٣/ ٢٠٢)**: «الذَّبح: قَطع الحُلقُوم من باطن عِندَ النَّصيل، ومَوضِعُه المَذبَح.»

«غريب الحديث - إبراهيم الحربي» (٢/ ٤٤٣): «فَالإِبِلُ تُنحَرُ وَلَا تُذبَحُ، وَالبَقَرُ تُذبَحُ وَتُنحَرُ، وَالغَنَمُ تُذبَحُ».

تَنبيهٌ فِي منهَجِ التَّعريفاتِ: جرَت عادَةُ كثيرٍ مِنَ الشَّارِحينَ أَن يَقِفوا عندَ كلِّ لفظٍ فيَطلُبوا لَهُ حَدًّا، حتَّىٰ لَا يكادَ يَمُرُّ بِهِم معنًىٰ إلَّا قالُوا: تعريفُهُ كَذَا؛ وأصلُ هَذَا مَأخوذٌ مِنَ المنطقِ الأرسطيِّ القائِلِ: إنَّ الأشياءَ لَا تُعرَفُ إلَّا بالحَدِّ.

وَهِيَ دَعوَىٰ مُنتَقَدَةٌ، فإنَّ مِنَ المعلوماتِ مَا هُوَ معروفٌ بالبَداهَةِ والفِطرَةِ لَا يَفتَقِرُ إِلَىٰ حَدٍّ، بَل قَد يكونُ المُعَرَّفُ أجلىٰ فِي النَّفسِ مِن حَدِّهِ، كَما لَو طُلِبَ حَدُّ «الإنسانِ» بأنَّه «حَيوانٌ ناطِقٌ»، والإنسانُ فِي نفسِهِ أعرَفُ عندَكَ مِن لَفظِ «الحَيَوانِ».

وإنَّما تَظهَرُ فائِدَةُ التَّعريفِ فِي موضِعَينِ: أَحَدُهما عندَ اشتِباهِ الشَّيءِ بما يُشابِهُهُ، فيُؤتىٰ بالحَدِّ لِيُمَيِّزَ بِهِ أحَدُهما عنِ الآخرِ؛ والثَّاني عندَ إرادَةِ بيانِ ثَمَرَتِهِ ومَقصودِهِ.

فأمَّا تكَلُّفُ الحُدودِ لكلِّ مَعلومٍ ظاهِرٍ، وإثقالُ المُتَعَلِّمِ بدَقائِقَ لَا يَحتاجُها، فمَسلَكٌ كلاميٌّ يَصُدُّ عنِ المَقصودِ ولَا يَزيدُ فِي العِلمِ النَّافِعِ.

وَالهَدي، وَالعَقِيقَةِ، وَالنَّذرِ، وَالفِديَةِ، فَمَن قَامَ بِهَا يُرِيدُ وَجهَ اللهِ فَقَد عَبَدَهُ حَقًّا.

قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾.

وَالنُّسُكُ عِندَ ابنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَجَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ: الذَّبحُ.

وَبَعضُ العُلَمَاءِ يَرَىٰ أَنَّ النُّسُكَ أَوسَعُ، يَشمَلُ جَمِيعَ العِبَادَاتِ، وَعَلَىٰ هَذَا فَيَصِحُّ الِاستِدلَالُ بِالآيَةِ عَلَىٰ وُجُوبِ إِخلَاصِ الذَّبحِ لِلَّهِ؛ لِأَنَّهُ دَاخِلٌ فِي عُمُومِ النُّسُكِ.

لَكِنَّ الأَقرَبَ — وَاللهُ أَعلَمُ — أَنَّ النُّسُكَ فِي الآيَةِ هُوَ الذَّبحُ خُصُوصًا، بِدَلِيلِ قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ﴾ [سورة البقرة:١٩٦].

وَالنُّسُكُ هُنَا بِالإِجمَاعِ: الذَّبحُ.

وَقَد فَسَّرَهُ النَّبِيُّ -ﷺ- فِي حَدِيثِ كَعبِ بنِ عَجرَةَ فِي الفِديَةِ: ذَبحُ شَاةٍ أَو صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أَو إِطعَامُ سِتَّةِ مَسَاكِينَ.

وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ النُّسُكَ هُوَ الذَّبحُ.

﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾ [سورة الأنعام:١٦٢-١٦٣].

قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ اللَّامُ لَامُ الِاختِصَاصِ وَالِاستِحقَاقِ، أَي: أَنَّ جَمِيعَ مَا تَقَدَّمَ ذِكرُهُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالنُّسُكِ وَالحَيَاةِ وَالمَمَاتِ خَالِصٌ لِلَّهِ وَحدَهُ، لَا يَستَحِقُّهُ سِوَاهُ، وَلَا يَجُوزُ صَرفُ شَيءٍ مِنهُ لِغَيرِهِ.

فَقَولُهُ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [سورة الأنعام:١٦٢] يَتَضَمَّنُ إِفرَادَ اللهِ بِجَمِيعِ العِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، وَيَدخُلُ فِي النُّسُكِ الذَّبحُ؛ لِأَنَّهُ مِن أَعظَمِ القُرَبِ.

فَمَن ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ مُتَقَرِّبًا إِلَيهِ فَقَد أَشرَكَ شِركًا أَكبَرَ؛ لِأَنَّهُ صَرَفَ عِبَادَةً مَحضَةً لِغَيرِ

اللهِ، وَاللهُ قَد جَعَلَهَا حقًّا خَالِصًا لَهُ.

ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا الأَصلَ بِقَولِهِ: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [سورة الأنعام:١٦٣]، وَهُوَ نَفيٌ عَامٌّ لِكُلِّ شَرِيكٍ فِي العِبَادَةِ، وَفِيهِ البَرَاءَةُ مِنَ الشِّركِ قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ.

وَقَولُهُ: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾ [سورة الأنعام:١٦٣] **أَي:** أُمِرتُ بِإِخلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ، وَتَحقِيقِ التَّوحِيدِ قَولًا وَاعتِقَادًا وَعَمَلًا؛ فَالتَّوحِيدُ مَأمُورٌ بِهِ أَمرَ إِيجَابٍ.

وَقَولُهُ: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [سورة الأنعام:١٦٣] أَي: أَوَّلُ المُبَادِرِينَ إِلَىٰ الِامتِثَالِ وَالِانقِيَادِ، إِمَّا أَوَّلُ المُسلِمِينَ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ، أَو أَوَّلُ مَنِ استَسلَمَ لِلَّهِ فِي هَذَا المَقَامِ، وَفِيهِ بَيَانُ كَمَالِ تَحقِيقِهِ -ﷺ- لِلتَّوحِيدِ، وَأَنَّهُ قَدَّمَ نَفسَهُ فِي الِامتِثَالِ قَبلَ دَعوَةِ غَيرِهِ.

فَالآيَةُ أَصلٌ فِي وُجُوبِ إِفرَادِ اللهِ بِجَمِيعِ أَنوَاعِ العِبَادَةِ، وَتَحرِيمِ صَرفِ شَيءٍ مِنهَا لِغَيرِهِ، وَأَنَّ مَن أَشرَكَ فِي عِبَادَةٍ فَقَد نَقَضَ أَصلَ التَّوحِيدِ الَّذِي أُمِرَ بِهِ العِبَادُ.

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ [سورة الكوثر:٢].

وَجهُ الِاستِدلَالِ مِن جِهَتَينِ:

الأَمرُ: (انحَر) فِعلُ أَمرٍ، وَمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ عِبَادَةٌ.

وَقَد جَمَعَ تَعَالَىٰ بَينَ هَاتَينِ العِبَادَتَينِ، اللَّتَينِ هُمَا أَفضَلُ العِبَادَاتِ وَأَفضَلُ القُربَاتِ لِلَّهِ، فَفِي قَولِهِ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ [سورة الكوثر:٢] أَي: أَخلِص لِرَبِّكَ الصَّلَاةَ، وَنَحرَ البُدنِ وَنَحوِهَا، عَلَىٰ اسمِهِ وَحدَهُ.

فَالصَّلَاةُ: أَفضَلُ العِبَادَاتِ البَدَنِيَّةِ، وَالذَّبحُ أَفضَلُ العِبَادَاتِ المَالِيَّةِ.

وَإِنَّمَا كَانَ الذَّبحُ أَفضَلَهَا، لِأَنَّهُ يَجتَمِعُ فِيهِ أَمرَانِ: الأَوَّلُ: أَنَّهُ طَاعَةٌ لِلَّهِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ بَذَلَ مَالَهُ وَطَابَت نَفسُهُ، وَالبَذلُ مُشتَرَكٌ فِي جِنسِ المَالِ، لَكِن زَادَ

الذَّبحُ عَلَىٰ غَيرِهِ، مِن حَيثُ أَنَّ الحَيَوَانَاتِ مَحبُوبَةٌ لِأَربَابِهَا، يُوجَدُ لِذَبحِهَا أَلَمٌ فِي النُّفُوسِ مِن شِدَّةِ مَحَبَّتِهَا، فَإِذَا بَذَلَهُ لِلَّهِ، وَسَمَحَت نَفسُهُ بِإيذَاقِ الحَيَوَانَ المَوتَ، صَارَ أَفضَلَ مِن مُطلَقِ العِبَادَاتِ المَالِيَّةِ، وَكَذَلِكَ مَا يَجتَمِعُ لَهُ عِندَ النَّحرِ، إِذَا قَارَنَهُ الإِيمَانُ وَالإِخلَاصُ، مِن قُوَّةِ اليَقِينِ، وَحُسنِ الظَّنِّ بِاللهِ أَمرٌ عَجِيبٌ، فَصَرفُهُ لِغَيرِ اللهِ شِركٌ أَكبَرُ.

٤١٢ - **رَوَىٰ الطَّبَرِيُّ (٢٤/ ٦٥٤ ط التَّربِيَةِ وَالتُّرَاثِ):** عَن مُحَمَّدِ بنِ كَعبٍ القُرَظِيِّ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي هَذِهِ الآيَةِ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾ [سورة الكوثر:١-٢]، يَقُولُ: إِنَّ نَاسًا كَانُوا يُصَلُّونَ لِغَيرِ اللهِ، وَيَنحَرُونَ لِغَيرِ اللهِ، فَإِذَا أَعطَينَاكَ الكَوثَرَ يَا مُحَمَّدُ، فَلَا تَكُن صَلَاتُكَ وَنَحرُكَ إِلَّا لِي.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ [سورة الحج:٣٦].

٤١٣ - **رُوِيَ عَنِ الحَسَنِ البَصرِيِّ -مِن طَرِيقِ جَرِيرِ بنِ حَازِمٍ- أَنَّهُ كَانَ يَقرَأُهَا:** (صَوَافِيَ).

قَالَ: خَالِصَةً لِلَّهِ تَعَالَىٰ.

قَالَ: كَانُوا يَذبَحُونَهَا لِأَصنامِهِم.(١)

٤١٤ - **عَنِ ابنِ لَهِيعَةَ:** أَنَّهُ سَمِعَ رَبِيعَةَ (بنَ أَبِي عَبدِ الرحمن) يَقُولُ: (صَوَافِيَ)، قَالَ: خَالِصَةً لِلَّهِ.(٢)

٤١٥ - **عَن عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ زَيدِ بنِ أَسلَمَ، أَنَّهُ قَرَأَ:** (فَاذكُرُوا اسمَ اللهِ عَلَيهَا صَوَافِيَ)

---

(١) أَخرَجَهُ عبد الله بن وهب فِي الجامع ٣/ ٥٣ (١١٤) دُونَ قَولِهِ: كَانُوا يذبحونها لأصنامهم.

(٢) أَخرَجَهُ عبد الله بن وهب فِي الجامع ٣/ ٥٣ (١١٥).

بِاليَاءِ مُنتَصِبَةً، وَقَالَ: خَالِصَةً لِلَّهِ مِنَ الشِّركِ؛ لِأَنَّهُم كَانُوا يُشرِكُونَ فِي الجَاهِلِيَّةِ إِذَا نَحَرُوهَا.

عَزَاهُ السُّيُوطِيُّ إِلَىٰ أَبِي عُبَيدٍ، وَابنِ المُنذِرِ، وَابنِ أَبِي حَاتِمٍ.

٤١٦ - عَن شَقِيقِ الضَّبِّيِّ - مِن طَرِيقِ قَيسِ بنِ مُسلِمٍ -: ﴿فاذكُرُوا اسمَ اللهِ عَلَيهَا صَوَافِيَ﴾، قَالَ: خَالِصَةٌ.(١)

٤١٧ - عَنِ ابنِ لَهِيعَةَ، قَالَ: سَمِعتُ رَبِيعَةَ بنَ أَبِي عَبدِ الرَّحمَنِ يَقُولُ: كَانَ أَهلُ الجَاهِلِيَّةِ إِذَا نَحَرُوا بُدنَهُم أَشرَكُوا فِيهَا؛ فَأَنزَلَ اللهُ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ [سورة الحج:٣٦]، فَقَالَ رَبِيعَةُ: خَالِصَةٌ مِنَ الشِّركِ.(٢)

٤١٨ - وَرُوِيَ ذَلِكَ عَن مُجَاهِدٍ وَطَاوُوسَ.

٤١٩ - وَرُوِيَ عَن عَلِيٍّ - رَضِيَ اللهُ عَنهُ - **قَالَ: "حَدَّثَنِي** رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ - بِأَربَعِ كَلِمَاتٍ: لَعَنَ اللهُ مَن ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَن لَعَنَ وَالِدَيهِ، لَعَنَ اللهُ مَن آوَىٰ مُحدِثًا، لَعَنَ اللهُ مَن غَيَّرَ مَنَارَ الأَرضِ".(٣)

٤٢٠ - وَعَن طَارِقِ بنِ شِهَابٍ عَن سَلمَانَ الفَارِسِيِّ قَالَ: "دَخَلَ رَجُلٌ الجَنَّةَ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، قَالُوا: وَكَيفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: مَرَّ رَجُلَانِ عَلَىٰ قَومٍ لَهُم صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّىٰ يُقَرِّبَ لَهُ شَيئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّب قَالَ: لَيسَ عِندِي شَيءٌ، فَقَالُوا لَهُ: قَرِّب وَلَو ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ، وَقَالُوا

---

(١) أَخرَجَهُ ابن جرير ١٦/ ٥٥٨.

(٢) أَخرَجَهُ عبد الله بن وهب فِي الجامع - تفسير القرآن ٢/ ٥٨ (١١٥) مرسلًا.

(٣) أَخرَجَهُ مسلم (١٩٧٨).

لِلآخَرِ: قَرِّب ذُبَابًا، قَالَ: مَا كُنتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيئًا مِن دُونِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَدَخَلَ الجنة".(١)

٤٢١- رَوَى البُخَارِيُّ (٥/ ٤٠): عَن عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا-: «أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لَقِيَ زَيدَ بنَ عَمرِو بنِ نُفَيلٍ بِأَسفَلِ بَلدَحٍ، قَبلَ أَن يَنزِلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- الوَحيُ، فَقُدِّمَت إِلَىٰ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- سُفرَةٌ، فَأَبَىٰ أَن يَأكُلَ مِنهَا، ثُمَّ قَالَ زَيدٌ: إِنِّي لَستُ آكُلُ مِمَّا تَذبَحُونَ عَلَىٰ أَنصَابِكُم، وَلَا آكُلُ إِلَّا مَا ذُكِرَ اسمُ اللهِ عَلَيهِ، وَأَنَّ زَيدَ بنَ عَمرٍو كَانَ يَعِيبُ عَلَىٰ قُرَيشٍ ذَبَائِحَهُم، وَيَقُولُ: الشَّاةُ خَلَقَهَا اللهُ، وَأَنزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ المَاءَ، وَأَنبَتَ لَهَا مِنَ الأَرضِ، ثُمَّ تَذبَحُونَهَا عَلَىٰ غَيرِ اسمِ اللهِ، إِنكَارًا لِذَلِكَ وَإِعظَامًا لَهُ».

٤٢٢- وَرَوَى ابنُ سَعدٍ فِي الطَّبَقَاتِ (٢/ ٤٣) عَن مَوهَبٍ مَولَىٰ الحَارِثِ أَنَّهُم جَعَلُوا خُبَيبًا عِندَهُ، فَكَأَنَّهُ كَانَ زَوجَ مَاوِيَّةَ، قَالَت مَاوِيَةُ كَمَا عِندَ مُحَمَّدِ بنِ عُمَرَ، وَمَوهَبٌ كَمَا عِندَ ابنِ سَعدٍ أَنَّهُمَا قَالَا لِخُبَيبٍ: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ فَقَالَ: نَعَم لَا تَسقُونِي إِلَّا

---

(١) أخرجَهُ أحمد فِي الزهد (٨٤).

وَفِي هَذَا الخبرِ فوائدُ جليلَةٌ: مِنهَا أنَّ الشِّركَ لَا يُستصغَرُ منهُ شيءٌ، فإنَّ هَذَا دخلَ النَّارَ فِي ذُبابٍ لَا يُتقرَّبُ بِمِثلِهِ؛ إذِ العِبرَةُ بالمُتقرَّبِ إليهِ لَا بِحقارَةِ المُتقرَّبِ بهِ.

وَمنهَا أنَّ الدَّاخِلَ النَّارَ كانَ مُسلِمًا فِي الأصلِ، إذ لَو كانَ كافِرًا أصليًّا لَم يكُن لِذِكرِ الذُّبابِ معنًىٰ؛ فدلَّ عَلَىٰ أنَّ المُوحِّدَ يُحبطُ توحيدَهُ بِفِعلٍ يسيرٍ مِنَ الشِّركِ الأكبرِ.

والقومَ لَم يطلُبوا منهُ اعتِقادًا، بَل عمَلًا ظاهِرًا حقيرًا، فأبَىٰ وبذَلَ نفسَهُ، لِعِلمِهِ أنَّ صرفَ أدنَىٰ عِبادَةٍ لِغيرِ اللهِ مُهلِكٌ.

وَمنهَا عِظَمُ قَدرِ التَّوحيدِ فِي قلبِ المُوحِّدِ، إذ آثَرَ القتلَ عَلَىٰ أن يأتِيَ بِصورَةِ الشِّركِ وَلَو لَم يقصِدها بِقلبِهِ.

العَذَابَ وَلَا تُطعِمُونِي مَا ذُبِحَ عَلَىٰ النُّصُبِ وَتُخبِرُونِي إِذَا أَرَادُوا قَتلِيٰ.

٤٢٣- **وَقَالَ بنُ قُتَيبَةَ فِي المَعَارِفِ (١/ ٢٢٣):** آبِي اللَّحمِ لُقِّبَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ يَأبَىٰ أَن يَأكُلَ لَحمًا ذُبِحَ عَلَىٰ النُّصُبِ.

٤٢٤- **قَالَ حَنبَلٌ:** قُلتُ لِأَبِي عَبدِ اللهِ يَعنِي أَحمَدَ: مَن زَعَمَ أَنَّ النَّبِيَّ كَانَ عَلَىٰ دِينِ قَومِهِ قَبلَ أَن يُبعَثَ؟ قَالَ: هَذَا قَولُ سَوءٍ يَنبَغِي لِصَاحِبِ هَذِهِ المَقَالَةِ أَن يُحذَرَ كَلَامُهُ وَلَا يُجَالَسَ... وَذَكَرَ أَنَّ أُمَّهُ حِينَ وَلَدَت رَأَت نُورًا أَضَاءَ لَهُ قُصُورَ الشَّامِ أَو لَيسَ هَذَا عِندَمَا وَلَدَت رَأَت هَذَا وَقَبلَ أَن يُبعَثَ كَانَ طَاهِرًا مُطَهَّرًا مِنَ الأَوثَانِ أَوَلَيسَ **كَانَ لَا يَأكُلُ لِمَا ذُبِحَ عَلَىٰ النُّصُبِ.**

٤٢٥- **وَجَاءَ فِي سِيرَةِ ابنِ هِشَامٍ (١/ ٢٢٥) قَالَ ابنُ إِسحَاقَ:** وَأَمَّا زَيدُ بنُ عَمرِو بنِ نُفَيلٍ فَوَقَفَ فَلَم يَدخُل فِي يَهُودِيَّةٍ وَلَا نَصرَانِيَّةٍ، وَفَارَقَ دِينَ قَومِهِ، فَاعتَزَلَ الأَوثَانَ وَالمَيتَةَ وَالدَّمَ وَالذَّبَائِحَ الَّتِي تُذبَحُ عَلَىٰ الأَوثَانِ وَنَهَىٰ عَن قَتلِ المَوءُودَةِ، وَقَالَ: أَعبُدُ رَبَّ إِبرَاهِيمَ، وَبَادَىٰ قَومَهُ بِعَيبِ مَا هُم عَلَيهِ.

٤٢٦- **وَرَوَىٰ ابنُ أَبِي خَيثَمَةَ فِي التَّارِيخِ الكَبِيرِ (٤٠٤٦) وَأَبُو نُعَيمٍ فِي مَعرِفَةِ الصَّحَابَةِ (٥٥٠)** مِن طَرِيقِ المَسعُودِيِّ عَن نُفَيلِ بنِ هِشَامِ بنِ سَعِيدِ بنِ زَيدٍ عَن أَبِيهِ، عَن جَدِّهِ؛ قَالَ:.... وَمَرَّ بِالنَّبِيِّ وَزَيدِ بنِ حَارِثَةَ وَهُمَا يَأكُلَانِ مِن سُفرَةٍ لَهُمَا فَدَعَوَاهُ إِلَيهِمَا، فَقَالَ: لَستُ آكُلُ مَا ذُبِحَ عَلَىٰ النُّصُبِ.

٤٢٧- **وَرَوَىٰ ابن سعد (٣/ ٢٩٠):** كَانَ زَيد بن عَمرو بن نفيل يطلب الدّين وقدم الشّام فسأل اليهود والنصارىٰ عَن العلم والدين فَلَم يعجبه دينهم، فَقَالَ لَهُ رَجُل من النصارىٰ: أَنتَ تلتمس دين إبرَاهِيم، فقَالَ زَيد: وَمَا دين إبرَاهِيم؟ قَالَ: كَانَ حنيفًا لَا

يعبد إلّا الله وَحدَهُ لَا شريك لَهُ، وَكَانَ يعادي من عَبد من دُونَ الله شيئًا، وَلَا يأكل مَا ذبح عَلَىٰ الأصنام، فَقَالَ زَيد بن عَمرو: وَهَذَا الَّذِي أعرف وَأَنَا عَلَىٰ هَذَا الدّين، فأما عُبَادة حجر أَو خشبة أنحتها بيدي فَهَذَا ليس بشيء، فرجع زيد إِلَىٰ مكّة وَهُو عَلَىٰ دين إبرَاهِيمَ، قَالَ: أَخبَرنَا مُحَمَّدُ بنُ عُمَرَ قَالَ: حَدَّثَنِي عَلِيُّ بنُ عِيسَىٰ الحَكَمِيُّ عَن أَبِيهِ عَن عَامِرِ بنِ رَبِيعَةَ قَالَ: كَانَ زَيدُ بنُ عَمرِو بنِ نُفَيلٍ يَطلُبُ الدِّينَ وَكَرِهَ النَّصرَانِيَّةَ وَاليَهُودِيَّةَ وَعِبَادَةَ الأَوثَانِ وَالحِجَارَةِ، وَأَظهَرَ خِلافَ قَومِهِ وَاعتِزَالَ آلِهَتِهِم وَمَا كَانَ يَعبُدُ آبَاؤُهُم وَلا يَأكُلُ ذَبَائِحَهُم.

فَالذَّبحُ عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ، لَهَا أَثَرٌ عَجِيبٌ فِي تَقوِيَةِ الإِيمَانِ وَتَعظِيمِ اللهِ، وَفِيهَا تَوَكُّلٌ وَتَعظِيمٌ وَحُسنُ ظَنٍّ وَإِنفَاقٌ.

أَحوَالُ الذّبح:

الذَّبحُ لَا يَخرُجُ عَن خَمسِ حَالَاتٍ:

الحَالُ الأُولَىٰ: أَن يَكُونَ الذَّبحُ بِاسمِ اللهِ، أَي: أَن يُهِلَّ بِاسمِ اللهِ عِندَ الذَّبحِ فَيَقُولُ: بِسمِ اللهِ، وَيَقصِدُ التَّقَرُّبَ إِلَىٰ اللهِ؛ هَذَا تَوحِيدٌ بِلَا شَكٍّ، اجتَمَعَ فِيهِ العِبَادَةُ وَالِاستِعَانَةُ، وَهَذِهِ هِيَ العِبَادَةُ الخَالِصَةُ، وَهِيَ تَحقِيقُ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة:٥].

وَمِثلُ قَولِهِ -ﷺ- فِي الأُضحِيَةِ: " اللَّهُمَّ هَذَا مِنكَ وَلَكَ "، فَإِنَّ قَولَهُ: " مِنكَ " هُوَ مَعنَىٰ التَّوَكُّلِ وَالِاستِعَانَةِ، وَقَولُهُ: " لَكَ " هُوَ مَعنَىٰ العِبَادَةِ، وَمِثلُ قَولِهِ فِي قِيَامِهِ مِنَ اللَّيلِ: " لَكَ أَسلَمتُ، وَبِكَ آمَنتُ، وَعَلَيكَ تَوَكَّلتُ، وَإِلَيكَ أَنَبتُ، وَبِكَ خَاصَمتُ، وَإِلَيكَ حَاكَمتُ، أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ أَن تُضِلَّنِي، أَنتَ الحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ،

وَالجِنُّ وَالإِنسُ يَمُوتُونَ ".[(١)]

فَمَن ذَبَحَ لِلَّهِ، يُرِيدُ وَجهَهُ، وَيُسَمِّي اللهَ عَلَىٰ ذَبِيحَتِهِ، فَقَد وَحَّدَ رَبَّهُ وَأَخلَصَ لَهُ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ فِي: الأُضحِيَةِ أَوِ العَقِيقَةِ أَوِ الهَدي أَوِ الفِديَةِ أَوِ النَّذرِ.

وَالذَّبحُ التَّعَبُّدِيُّ يَكُونُ فِي أَربَعَةِ أَشيَاءَ: الأُضحِيَةُ، وَالعَقِيقَةُ، وَالهَديُ، وَالإِيفَاءُ بِالنَّذرِ وَهَذَا القِسمُ نَوعَانِ:

أ - ذَبحٌ وَاجِبٌ كَالإِيفَاءِ بِالنَّذرِ.

ب - وَذَبحٌ مُستَحَبٌّ كَالأُضحِيَةِ.

وَالأُضحِيَةُ عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ، وَمِنَ الخَطَأِ أَن يَزهَدَ النَّاسُ فِيهَا وَيَقُولُوا: "اللَّحمُ كَثِيرٌ"، أَوِ "التَّصَدُّقُ بِالمَالِ خَيرٌ".

فَالغَايَةُ الأَعظَمُ لَيسَتِ اللَّحمَ، بَل إِرَاقَةُ الدَّمِ تَقَرُّبًا إِلَىٰ اللهِ.

وَمَن كَانَ قَادِرًا فَلَا يَنبَغِي لَهُ التَّفرِيطُ فِي هَذِهِ الشَّعِيرَةِ.

الحَالُ الثَّانِيَةُ: أَن يَذبَحَ بِاسمِ اللهِ لِغَيرِ اللهِ؛ فَيَقُولُ: بِسمِ اللهِ، لَكِن يَقصِدُ التَّقَرُّبَ لِغَيرِ اللهِ؛ لِوَلِيٍّ، أَو صَنَمٍ، أَو لِعِيسَىٰ - عليه السلام -، أَو لِلحُسَينِ، أَو لِفَاطِمَةَ، أَو لِلجِنِّ، أَو لِغَيرِ ذَلِكَ؛ فَهَذَا شِركٌ أَكبَرُ فِي العِبَادَةِ.

فَهُوَ يَقُولُ عِندَ الذَّبحِ: بِسمِ اللهِ.

لَكِنِ النِّيَّةُ: التَّقَرُّبُ لِغَيرِ اللهِ، كَوَلِيٍّ أَو قَبرٍ أَو جِنِّيٍّ.

فَهُنَا حَصَلَ: شِركٌ فِي العِبَادَةِ، لِأَنَّ القَصدَ لِغَيرِ اللهِ.

وَلَو سَمَّىٰ اللهَ، لِأَنَّ الأَعمَالَ بِالنِّيَّاتِ.

---

(١) «قاعدة جامعة فِي توحيد الله وإخلاص الوجه والعمل لَهُ عبادة واستعانة» (ص٦١).

وَقد قَالَ -ﷺ-: «لَعَنَ اللهُ مَن ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ»[(١)]

فَهَذَا الفِعلُ شِركٌ أَكبَرُ.

٤٢٨- **قَالَ الطَّبَرِيُّ فِي تَفسِيرِهِ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ عَمرٍو، قَالَ:** ثنا أَبُو عَاصِمٍ، قَالَ: ثنا عِيسَىٰ، وَحَدَّثَنِي الحَارِثُ، قَالَ: ثنا الحَسَنُ، قَالَ: ثنا وَرقَاءُ، جَمِيعًا عَنِ ابنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَن مُجَاهِدٍ، فِي قَولِهِ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر:٣] قَالَ: «قُرَيشٌ تَقُولُهُ لِلأَوثَانِ، وَمَن قَبلَهُم يَقُولُهُ لِلمَلَائِكَةِ وَلِعِيسَىٰ ابنِ مَريَمَ وَلِعُزَيرٍ»

٤٢٩- **رَوَىٰ أَبُو عُبَيدٍ فِي الإِيمَانِ (٢٩) عَن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ قَالَ:** لَا يَبلُغُ بِعَبدٍ كُفرًا وَلَا شِركًا حَتَّىٰ يَذبَحَ لِغَيرِ اللهِ أَو يُصَلِّيَ لِغَيرِهِ".

٤٣٠- **وَقَالَ البَربَهَارِيُّ شَيخُ الحَنَابِلَةِ فِي وَقتِهِ فِي شَرحِ السُّنَّةِ:** وَلَا نُخرِجُ أَحَدًا مِن أَهلِ القِبلَةِ مِنَ الإِسلَامِ حَتَّىٰ يَرُدَّ آيَةً مِن كِتَابِ اللهِ، أَو يَرُدَّ شَيئًا مِن آثَارِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-، أَو يَذبَحَ لِغَيرِ اللهِ، أَو يُصَلِّيَ لِغَيرِ اللهِ، فَإِذَا فَعَلَ شَيئًا مِن ذَلِكَ فَقَد وَجَبَ عَلَيكَ أَن تُخرِجَهُ مِنَ الإِسلَامِ.

٤٣١- **قَالَ أَبُو عَوَانَةَ فِي مُستَخرَجِهِ:** بَيَانُ وُجُوبِ اللَّعنَةِ عَلَىٰ مَن نَسَكَ لِغَيرِ اللهِ، وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّ مَن ضَحَّىٰ، يُرِيدُ بِهِ رِيَاءً وَسُمعَةً، وَلَا يُرِيدُ بِشَيءٍ مِنهُ وَجهَ اللهِ، أَنَّ اللَّعنَةَ تَحِلُّ بِهِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ ذَبِيحَةٍ تُذبَحُ لِغَيرِ اللهِ تَعَالَىٰ.

٤٣٢- **وَقَالَ أَبُو بَكرٍ الخَفَّافُ:** «وَلَا يُذبَحُ لِغَيرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-».

وَمِن صُوَرِ ذَلِكَ:

مَن يَذبَحُ لِلجِنِّ عِندَ بِنَاءِ بَيتٍ جَدِيدٍ.

---

(١) أَخرَجَهُ مسلم (١٩٧٨).

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ﴾ [سورة الأنعام:١٠٠]

كَانُوا قَدِيمًا يَذبَحُونَ فِي مَكَّةَ لِلجِنِّ وَفِي غَيرِ مَكَّةَ يُسَمَّىٰ (الزَّارَ) وَفَاعِلُهَا مُشرِكٌ.

٤٣٣ - **قَالَ أَبُو عُبَيدٍ:** وَأَمَّا ذَبَائِحُ الجِنِّ أَن تَشتَرِيَ الدَّارَ وَتَستَخرِجَ العَينَ وَمَا أَشبَهَ ذَلِكَ فَتَذبَحَ لَهَا ذَبِيحَةً لِلطِّيَرَةِ.

وَقَالَ: مَعنَاهُ أَنَّهُم يَتَطَيَّرُونَ إِلَىٰ هَذَا الفِعلِ مَخَافَةَ أَن يُصِيبَهُم فِيهَا شَيءٌ مِنَ الجِنِّ يُؤذِيهِم، فَأَبطَلَ النَّبِيُّ -ﷺ- ذَلِكَ، وَاللهُ أَعلَمُ.

٤٣٤ - **سُئِلَ الشَّيخُ سَعدُ بنُ حَمدِ بنِ عَتِيقٍ عَنِ الذَّبحِ عِندَ المَرِيضِ، فَأَجَابَ:** لَا رَيبَ أَنَّ التَّقَرُّبَ إِلَىٰ اللهِ بِالنُّسُكِ مِن أَفضَلِ القُربَاتِ، وَأَعظَمِ الطَّاعَاتِ، وَمِن أَشرَفِ الحَسَنَاتِ، وَأَفضَلِ النَّفَقَاتِ لِلمُسلِمِ، إِذَا حَسُنَ قَصدُهُ فِي ذَلِكَ، وَتَجَرَّدَ مِنَ الشَّوَائِبِ وَالأَسبَابِ الَّتِي تُوجِبُ حُبُوطَ العَمَلِ، وَعَدَمَ الِانتِفَاعِ بِهِ، أَو لُحُوقِهِ بِالمَعَاصِي الَّتِي يُعَاقَبُ عَلَيهَا.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنعام:١٦٢]

وَقَالَ سُبحَانَهُ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ [سورة الكوثر:٢].

فَمَا يَتَقَرَّبُ بِهِ المُسلِمُ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الهَدَايَا، وَالأَضَاحِي، وَغَيرِ ذَلِكَ مِنَ النُّسُكِ المَأمُورِ بِهِ شَرعًا، كُلُّ ذَلِكَ مِنَ العِبَادَاتِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ؛ فَمَن فَعَلَ مِن ذَلِكَ شَيئًا لِغَيرِ اللهِ فَهُوَ مُشرِكٌ.

وَقَد كَانَ المُشرِكُونَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَىٰ مَعبُودَاتِهِم بِأَنوَاعٍ مِنَ القُربَاتِ، كَالهَدَايَا وَالنُّذُورِ وَغَيرِ ذَلِكَ؛ وَهَذَا مِنَ الشِّركِ الَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [سورة النساء:٤٨].

وَقَالَ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ [سورة المائدة:٧٢]

٤٣٥- **وَفِي صَحِيحِ مُسلِمٍ عَن عَلِيٍّ** -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- **قَالَ:** حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِأَربَعِ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اللهُ مَن ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ» الحَدِيثَ.

٤٣٦- **وَسَاقَ حَدِيثَ طَارِقٍ:** «دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ» الحَدِيثَ.

وَمِنَ الشِّركِ: مَا يَقَعُ فِي كَثِيرٍ مِنَ المُدُنِ وَالبَوَادِي وَالقُرَىٰ وَالأَمصَارِ، مِمَّن يَنتَسِبُ إِلَىٰ الإِسلَامِ، مِمَّن قَلَّ نَصِيبُهُ مِنَ الدِّينِ، وَخَالَفَ سَبِيلَ المُؤمِنِينَ، وَسَلَكَ طَرِيقَ المَغضُوبِ عَلَيهِم وَالضَّالِّينَ، مِنَ الذَّبحِ لِلجِنِّ، وَاتِّخَاذِهِم أَولِيَاءَ مِن دُونِ اللهِ؛ مُضَاهَاةً لِإِخوَانِهِم مِنَ المُشرِكِينَ الأَوَّلِينَ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأعراف:٣٠]، وَقَالَ: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ [سورة سبأ:٤١].

وَقَد كَانُوا يَجعَلُونَ الجِنَّ شُرَكَاءَ لِلَّهِ فِي عِبَادَتِهِ، فَيَذبَحُونَ لَهُم، وَيَنذِرُونَ لَهُم، وَيَستَعِيذُونَ بِهِم، وَيَفزَعُونَ إِلَيهِم عِندَ النَّوَائِبِ؛ وَكَانَ مِنهُم مَن يَفعَلُ ذَلِكَ خَوفًا مِن شَرِّهِم، وَتَخَلُّصًا مِن أَذَاهُم.

فَالِاستِعَاذَةُ بِاللهِ مِن أَفضَلِ مَقَامَاتِ العُبُودِيَّةِ، مِثلَ الدُّعَاءِ، وَالخَوفِ، وَالرَّجَاءِ، وَالذَّبحِ، وَالتَّوَكُّلِ؛ فَمَن صَرَفَ مِنهَا شَيئًا لِغَيرِ اللهِ فَهُوَ مُشرِكٌ.

٤٣٧- **وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ:** وَمَن ذَبَحَ لِلشَّيطَانِ، وَدَعَاهُ، وَاستَعَاذَ بِهِ، وَتَقَرَّبَ إِلَيهِ بِمَا يُحِبُّ؛ فَقَد عَبَدَهُ، وَإِن لَم يُسَمِّ ذَلِكَ عِبَادَةً، أَو سَمَّاهُ استِخدَامًا، وَصَدَقَ؛ هُوَ استِخدَامٌ مِنَ الشَّيطَانِ لَهُ، فَيَصِيرُ مِن خَدَمِ الشَّيطَانِ وَعَابِدِيهِ، وَبِذَلِكَ يَخدِمُهُ الشَّيطَانُ.

وَالذَّبحُ لِلجِنِّ يَفعَلُهُ كَثِيرٌ مِن أَهلِ الجَهلِ وَالضَّلَالِ، إِذَا مَرِضَ الشَّخصُ أَو أَصَابَهُ جُنُونٌ أَو دَاءٌ مُزمِنٌ، ذَبَحُوا عِندَهُ كَبشًا أَو غَيرَهُ؛ وَكَثِيرٌ مِنهُم يُصَرِّحُونَ بِأَنَّهُم ذَبَحُوهُ

لِلجِنِّ، وَيَزعُمُونَ أَنَّ الجِنَّ أَصَابَتهُ بِسَبَبِ حَدَثٍ مِنهُ، فَيَذبَحُونَ عِندَهُ ذَبِيحَةً لِلجِنِّ، يَقصِدُونَ تَخلِيصَهُ مِمَّا أَصَابَهُ مِن ذَلِكَ الدَّاءِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الجِنَّ قَد تَتَعَرَّضُ لِبَعضِ الإِنسِ بِأَنوَاعٍ مِنَ الأَذَىٰ، كَالصَّرَعِ وَغَيرِهِ، لِأَسبَابٍ يَفعَلُهَا الإِنسِيُّ يَتَأَذَّونَ بِهَا؛ فَإِذَا ابتُلِيَ الإِنسَانُ بِشَيءٍ مِن ذَلِكَ، فَالوَاجِبُ عَلَيهِ الفَزَعُ إِلَىٰ اللهِ، وَالِاستِعَاذَةُ بِهِ، وَالِالتِجَاءُ إِلَيهِ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيهِ.

وَمِن هَذَا القَبِيلِ مَا يُذبَحُ لِاستِخرَاجِ الجِنِّيِّ مِنَ الإِنسِ، وَمَا يُسَمُّونَهُ بِالزَّردَةِ الصُّوفِيَّةِ، كُلُّ هَذَا رِدَّةٌ وَكُفرٌ بِاللهِ.

يَذكُرُ مُبَارَكٌ المِيلِيُّ عَن وَاقِعِ أُولَئِكَ النَّاسِ الَّذِينَ يَذبَحُونَ لِغَيرِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَيُبَيِّنُ أَنَّهُم إِنَّمَا يَفعَلُونَ ذَلِكَ عَنِ اعتِقَادٍ وَطَلَبٍ لِلقُربَىٰ مِن تِلكَ المَعبُودَاتِ، فَكَانَ مِمَّا قَالَهُ -رَحِمَهُ اللهُ-: (إِنَّ كُلَّ مَن خَالَطَ العَامَّةَ، يَجزِمُ بِأَنَّ قَصدَهُم بِذَبَائِحِ الزَّردَةِ التَّقَرُّبُ مِن صَاحِبِ المَزَارِ، وَيَكشِفُ عَن ذَلِكَ أَشيَاءُ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُم يُضِيفُونَ الزَّردَةَ إِلَىٰ صَاحِبِ المَزَارِ، فَيَقُولُونَ: زَردَةُ سَيِّدِي فُلَانٍ، أَو طَعَامُ سَيِّدِي عَبدِ القَادِرِ مَثَلًا:

ثَانِيهَا: أَنَّهُم يَفعَلُونَهَا عِندَ قَبرِهِ، وَفِي جِوَارِهِ، وَلَا يَرضَونَ لَهَا مَكَانًا آخَرَ.

ثَالِثُهَا: أَنَّهُم إِن نَزَلَ المَطَرُ إِثرَهَا، نَسَبُوهُ إِلَىٰ سِرِّ المَذبُوحِ لَهُ، وَقَوِيَ اعتِقَادُهُم فِيهِ، وَتَعوِيلُهُم عَلَيهِ.

رَابِعُهَا: أَنَّهُم لَو تَرَكُوهَا فَأُصِيبُوا بِمُصِيبَةٍ، نُكِسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِم، وَقَالُوا: إِنَّ وَلِيَّهُم غَضِبَ عَلَيهِم، لِتَقصِيرِهِم فِي جَانِبِهِ).

وَمِن صُوَرِ الذَّبحِ لِغَيرِ اللهِ الَّتِي لَا خِلَافَ بَينَ أَهلِ العِلمِ فِي كَونِهَا شِركًا أَكبَرَ

مُخرِجًا مِنَ المِلَّةِ: الذَّبحُ لِلجِنِّ، أَوِ التَّقَرُّبُ إِلَيهِم، أَو دَفعُ أَذَاهُم، أَو طَلَبُ نَفعِهِم.

فَإِنَّ هَذَا العَمَلَ يَجتَمِعُ فِيهِ صَرفُ عِبَادَةِ الذَّبحِ لِغَيرِ اللهِ، مَعَ التَّعَلُّقِ بِالغَيبِ، وَمَعَ الِاستِعَانَةِ بِغَيرِ اللهِ فِيمَا لَا يَقدِرُ عَلَيهِ إِلَّا اللهُ.

وَقَد نَصَّ أَهلُ العِلمِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا عَلَىٰ أَنَّ الذَّبحَ لِلجِنِّ شِركٌ أَكبَرُ، سَوَاءٌ صَرَّحَ الفَاعِلُ بِنِيَّتِهِ أَم لَم يُصَرِّح، وَسَوَاءٌ زَعَمَ أَنَّهُ يَفعَلُ ذَلِكَ خَوفًا أَو رَجَاءً.

بَعضَ النَّاسِ إِذَا ابتَنَىٰ بَيتًا جَدِيدًا، رُبَّمَا أَتَاهُ شَيطَانٌ مِن شَيَاطِينِ الجِنِّ، أَو شَيطَانٌ مِن شَيَاطِينِ الإِنسِ، فَيُخَوِّفُهُ وَيَقُولُ لَهُ: انتَبِه!

إِنَّ الجِنَّ يُؤذُونَ مَن يَسكُنُ هَذَا البَيتَ، وَلَا يُنَجِّيكَ مِنهُم إِلَّا أَن تَأخُذَ شَاةً سَودَاءَ، أَو دِيكًا أَسوَدَ، فَتَذبَحَهُ لِلجِنِّ عَلَىٰ عَتَبَةِ البَابِ، وَتُلَطِّخَ بِدَمِهِ جُدرَانَ البَيتِ، أَو تَذبَحَهُ عِندَ وَضعِ أَسَاسَاتِ البِنَاءِ، وَتَجعَلَ دَمَهُ فِي الأَسَاسَاتِ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ - بِزَعمِهِم - أَمَانًا لَكَ مِن أَذَىٰ الجِنِّ.

فَيَستَجِيبُ لِهَذَا التَّخوِيفِ، وَيَتَقَرَّبُ إِلَىٰ الجِنِّ بِالذَّبحِ، وَيَجعَلُ هَذِهِ الذَّبِيحَةَ لَهُم دَفعًا لِشَرِّهِم، أَوِ استِرضَاءً لَهُم، أَو طَلَبًا لِسَلَامَةِ البَيتِ وَسَاكِنِيهِ.

وَهَذَا الفِعلُ شِركٌ أَكبَرُ بِاللهِ -ﷻ-؛ لِأَنَّ الذَّبحَ عِبَادَةٌ لَا تُصرَفُ إِلَّا لِلَّهِ وَحدَهُ، فَمَن صَرَفَهَا لِغَيرِهِ - جِنًّا كَانَ أَو إِنسًا - فَقَد أَشرَكَ بِاللهِ، وَوَقَعَ فِي نَاقِضٍ مِن نَوَاقِضِ الإِسلَامِ، وَخَرَجَ مِن دِينِ الإِسلَامِ، نَسأَلُ اللهَ العَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.

وَهَذِهِ أَعمَالٌ جَاهِلِيَّةٌ، يَفعَلُهَا المُشرِكُونَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

وَمِن أَعظَمِ الغَلَطِ أَن يُقَالَ:

إِنَّ الذَّبحَ لِلكَوَاكِبِ شِركٌ، وَالذَّبحَ لِلأَولِيَاءِ لَيسَ شِركًا، أَو أَنَّ الذَّبحَ لِلصَّنَمِ شِركٌ،

وَأَمَّا الذَّبحُ لِلقبرِ فَلَيسَ كَذَلِكَ.

فَهَذَا تَفرِيقٌ بَاطِلٌ، لَم يُعرَف عَنِ السَّلَفِ، بَل هُوَ مُخَالِفٌ لِصَرِيحِ القُرآنِ وَالسُّنَّةِ، وَلِمَا عَلَيهِ أَهلُ العِلمِ فِي جَمِيعِ الأَعصَارِ.

فَإِنَّ الشِّركَ حَقِيقَتُهُ وَاحِدَةٌ، وَإِنِ اختَلَفَت صُورُهُ وَأَسمَاؤُهُ.

وَقَد ثَبَتَ أَنَّ أَصلَ الشِّركِ فِي بَنِي آدَمَ كَانَ فِي الصَّالِحِينَ، كَمَا فِي قِصَّةِ قَومِ نُوحٍ، حَيثُ غَلَوا فِي الصَّالِحِينَ، ثُمَّ صَوَّرُوا لَهُمُ التَّمَاثِيلَ، ثُمَّ عَبَدُوهُم مِن دُونِ اللهِ.

فَكَيفَ يُقَالُ بَعدَ ذَلِكَ: إِنَّ مَن ذَبَحَ لِوَلِيٍّ أَو لِصَالِحٍ لَا يُحكَمُ عَلَيهِ بِالشِّركِ حَتَّىٰ يُصَرِّحَ بِنِيَّتِهِ؟

شُبهَةٌ وَجَوَابُهَا:

٤٣٨ - **قَالَ عَبدُ اللهِ بنُ أَحمَدَ فِي مَسَائِلِهِ (٩٨٤–٩٨٥):** «سَأَلتُ أَبِي عَمَّن ذَبَحَ لِلزُّهَرَةِ؟

قَالَ: لَا يُعجِبُنِي.

قُلتُ لِأَبِي: أَحَرَامٌ أَكلُهُ؟

قَالَ: لَا أَقُولُ حَرَامٌ، وَلَكِن لَا يُعجِبُنِي.

وَقَالَ: قُلتُ لِأَبِي: فَرَجُلٌ يَذبَحُ لِلكَوكَبِ؟

قَالَ: لَا يُعجِبُنِي، أَكرَهُ كُلَّ شَيءٍ يُذبَحُ لِغَيرِ اللهِ، وَقَد كَرِهَ بَعضُهُم مَا ذُبِحَ لِلكَنِيسَةِ».

فَفَهِمَ بَعضُ مَن أَسَاءَ الفَهمَ، وَقَلَّ حَظُّهُ مِنَ العِلمِ:

أَنَّ الإِمَامَ أَحمَدَ لَا يُكَفِّرُ مَن ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ!

أَوَّلًا: تَحرِيرُ مَحَلِّ النِّزَاعِ فِي كَلَامِ الإِمَامِ أَحمَدَ

أَمَّا كَلَامُ أَحمَدَ السَّابِقُ، فَالسُّؤَالُ كَانَ عَنِ الذَّبِيحَةِ، لَا عَنِ الذَّابِحِ.

وَإِلَّا فَأَهلُ العِلمِ لَا يَختَلِفُونَ فِي أَنَّ المُسلِمَ لَو ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ، أَو ذَبَحَ بِاسمِ غَيرِ اللهِ، كَفَرَ، كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ.

وَالسُّؤَالُ أَيضًا كَانَ عَن ذَبِيحَةِ الكِتَابِيِّ، لَا المُسلِمِ.

فَإِذَا ذَبَحَ الكِتَابِيُّ: سَوَاءٌ ذَبَحَ لِلَّحمِ، أَو لِلمَوتَىٰ، أَو لِلكَنِيسَةِ، وَذَكَرَ غَيرَ اللهِ، كَالزُّهَرَةِ، وَالمَسِيحِ، وَغَيرِ ذَلِكَ، فَعَنِ الإِمَامِ أَحمَدَ رِوَايَتَانِ:

الكَرَاهَةُ:

وَهَذَا مَعنَىٰ قَولِهِ -كَمَا فِي رِوَايَةِ عَبدِ اللهِ-: «لَا أَقُولُ حَرَامٌ، وَلَكِن لَا يُعجِبُنِي».

التَّحرِيمُ:

وَهِيَ أَصَحُّ الرِّوَايَتَينِ عَنهُ.

وَكَلَامُهُ هَذَا مَبنِيٌّ عَلَىٰ الخِلَافِ المَشهُورِ فِي المَسأَلَةِ، وَهُوَ خِلَافٌ قَدِيمٌ سَابِقٌ عَلَىٰ أَحمَدَ.

٤٣٩- **قَالَ إِسمَاعِيلُ القَاضِي فِي أَحكَامِ القُرآنِ:** اختَلَفَ النَّاسُ فِيمَا ذَبَحَ النَّصَارَىٰ لِأَعيَادِهِم، أَو ذَبَحُوا بِاسمِ المَسِيحِ؛ فَكَرِهَهُ قَومٌ، لِأَنَّهُم أَخلَصُوا الكُفرَ عِندَ تِلكَ الذَّبِيحَةِ، فَصَارَت مِمَّا أُهِلَّ بِهِ لِغَيرِ اللهِ.

وَرَخَّصَ فِي ذَلِكَ قَومٌ، عَلَىٰ الأَصلِ الَّذِي أُبِيحَ مِن ذَبَائِحِهِم.

مَن قَالَ بِالرُّخصَةِ:

٤٤٠- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بنُ عَبدِ اللهِ، ثنا عَبدُ الرَّحمَنِ بنُ مَهدِيٍّ، ثنا مُعَاوِيَةُ بنُ صَالِحٍ، عَن أَبِي الزَّاهِرِيَّةِ، عَن عُمَيرِ بنِ الأَسوَدِ السَّكُونِيِّ، قَالَ:

أَتيتُ أَهلِي، فَإِذَا كَتِفُ شَاةٍ مَطبُوخَةٍ، قُلتُ: مِن أَينَ هَذَا؟

قَالُوا: جِيرَانُنَا مِنَ النَّصَارَىٰ ذَبَحُوا كَبشًا لِكَنِيسَةِ جرجِسَ، قَلَّدُوهُ عِمَامَةً، وَتَلَقَّوا دَمَهُ فِي طَستٍ، ثُمَّ طَبَخُوا، وَأَهدَوا إِلَينَا وَإِلَىٰ جِيرَانِنَا.

قَالَ: قُلتُ: ارفَعُوا هَذَا.

ثُمَّ هَبَطتُ إِلَىٰ أَبِي الدَّردَاءِ، فَسَأَلتُهُ وَذَكَرتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ:

اللَّهُمَّ غُفرًا، هُم أَهلُ الكِتَابِ، طَعَامُهُم لَنَا حِلٌّ، وَطَعَامُنَا لَهُم حِلٌّ.

سَأَلتُ عُبَادَةَ بنَ الصَّامِتِ عَن ذَبَائِحِ النَّصَارَىٰ لِمَوتَاهُم؟ قَالَ: لَا بَأسَ بِهِ.

قَالَ الأَوزَاعِيُّ عَن مَكحُولٍ فِي ذَبَائِحِ أَعيَادِهِم: كُلهُ، قَد عَلِمَ اللهُ مَا يَقُولُونَ، وَأَحَلَّ ذَبَائِحَهُم.

٤٤١ - **قَالَ القَاسِمُ بنُ مُخَيمِرَةَ:** كُلهَا، وَلَو سَمِعتَهُ يَقُولُ: عَلَىٰ اسمِ جرجِسَ لَأَكَلتُهَا.

٤٤٢ - **عَن أَبِيهِ قَالَ:** كُلهَا.

٤٤٣ - **قَالَ العِربَاضُ بنُ سَارِيَةَ:** كُلهُ.

٤٤٤ - **قَالَ عَطَاءٌ فِي النَّصرَانِيِّ يَذبَحُ وَيَذكُرُ اسمَ المَسِيحِ:** كُلهُ، (وَرُوِيَ عَنهُ مِثلُهُ).

٤٤٥ - **قَالَ إِبرَاهِيمُ:** إِذَا تَوَارَىٰ عَنكَ، فَكُل.

٤٤٦ - **قَالَ حَيوَةُ بنُ شُرَيحٍ:** حَلَّ لَنَا مَا يُذبَحُ لِعِيدِ الكَنَائِسِ، وَمَا أُهدِيَ مِن خُبزٍ أَو لَحمٍ.

٤٤٧ - **قَالَ الشَّعبِيُّ:** كُل وَأَطعِمنِي.

مَن قَالَ بِالكَرَاهَةِ أَوِ المَنعِ:

٤٤٨ - **عَن عَلِيٍّ** -رَضِيَ اللهُ عَنهُ-: إِذَا سَمِعتَ النَّصرَانِيَّ يَقُولُ: بِاسمِ المَسِيحِ، فَلَا تَأكُل.

٤٤٩- **عَن عَائِشَةَ:** أَمَّا مَا ذُبِحَ لِذَلِكَ اليَومِ فَلَا تَأكُلُوا مِنهُ.

٤٥٠- **عَنِ ابنِ عُمَرَ:** مَا ذُبِحَ لِلكَنِيسَةِ فَلَا تَأكُلهُ.

٤٥١- **قَالَ حَمَّادٌ:** كُل مَا لَم تَسمعهُم أَهَلُّوا بِهِ لِغَيرِ اللهِ.

٤٥٢- وَكَرِهَهُ مُجَاهِدٌ، وَطَاوُوسٌ، وَمَيمُونُ بنُ مِهرَانَ.

٤٥٣- وَكَانَ مَالِكٌ يَكرَهُ ذَلِكَ مِن غَيرِ إِيجَابٍ تحريم.[١]

٤٥٤- **وَقَالَ ابنُ قُدَامَةَ فِي المُغنِي (٧٧٥٠):** فَصلٌ: فَأَمَّا مَا ذَبَحُوهُ لِكَنَائِسِهِم وَأَعيَادِهِم، فَنَنظُرُ فِيهِ... وَإِن عُلِمَ أَنَّهُ ذُكِرَ اسمُ غَيرِ اللهِ عَلَيهَا، أَو تُرِكَ التَّسمِيَةُ عَمدًا، لَم تَحِلَّ.

وَقَالَ فِي مَوضِعٍ: يَدعُونَ التَّسمِيَةَ عَلَىٰ عَمدٍ، إِنَّمَا يَذبَحُونَ لِلمَسِيحِ.

وَرُوِيت عَن أَحمَدَ الكَرَاهَةُ، وَرُوِيَ عَنهُ الإِبَاحَةُ.

وَهُوَ قَولُ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، لِعُمُومِ قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [سورة المائدة:٥]، وَقَد ذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ فِي أَحكَامِ أَهلِ الذِّمَّةِ أَدِلَّةَ الفَرِيقَينِ، وَنَزَعَ إِلَىٰ أَنَّ التَّحرِيمَ هُوَ الأَقوَىٰ دَلِيلًا، فَقَالَ: تَحرِيمُ مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيرِ اللهِ عَامٌّ فِي الوَثَنِيِّ وَالكِتَابِيِّ.

وَإِبَاحَةُ ذَبَائِحِ أَهلِ الكِتَابِ مُقَيَّدَةٌ بِمَا لَم يُهَلَّ بِهِ لِغَيرِ اللهِ.

وَالمُطلَقُ يُحمَلُ عَلَىٰ المُقَيَّدِ، لَا العَكسِ.

ثُمَّ سَاقَ ثَمَانِيَةَ أَوجُهٍ قَوِيَّةٍ، وَخَتَمَ بِقَولِهِ: وَبَابُ الذَّبَائِحِ عَلَىٰ التَّحرِيمِ، إِلَّا مَا أَبَاحَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ،

---

(١) **انظر:** أحكام أهل الذمة لابن القيم ١/ ٥١٧-٥٢٦.

وَإِذَا تَعَارَضَ دَلِيلُ الحَظرِ وَالإِبَاحَةِ، فَدَلِيلُ الحَظرِ أَولَىٰ.

٤٥٥ - **وَقَالَ الشَّافِعِيُّ فِي «الأُمِّ» (٢/ ٢٥٤ ط الفِكرِ):** أَحَلَّ اللهُ طَعَامَ أَهلِ الكِتَابِ وَكَانَ طَعَامُهُم عِندَ بَعضِ مَن حَفِظتُ عَنهُ مِن أَهلِ التَّفسِيرِ ذَبَائِحَهُم وَكَانَتِ الآثَارُ تَدُلُّ عَلَىٰ إِحلَالِ ذَبَائِحِهِم فَإِن كَانَت ذَبَائِحُهُم يُسَمُّونَهَا لِلَّهِ تَعَالَىٰ فَهِيَ حَلَالٌ وَإِن كَانَ لَهُم ذَبحٌ آخَرُ يُسَمُّونَ عَلَيهِ غَيرَ اسمِ اللهِ تَعَالَىٰ مِثلَ اسمِ المَسِيحِ أَو يَذبَحُونَهُ بِاسمٍ دُونَ اللهِ تَعَالَىٰ لَم يَحِلَّ هَذَا مِن ذَبَائِحِهِم وَلَا أُثبِتُ أَنَّ ذَبَائِحَهُم هكذا».(١)

الحَالُ الثَّالِثَةُ: أَن يَذبَحَ لِلَّهِ لَكِنَّهُ يُسَمِّي غَيرَ اللهِ.

أَن يَقُولَ عِندَ الذَّبحِ: "بِاسمِ المَسِيحِ"، "بِاسمِ الزُّهَرَةِ"، "بِاسمِ فَاطِمَةَ"، أَو غَيرِهَا.

وَلَو كَانَ يَقصِدُ وَجهَ اللهِ؛ فَهَذَا لَا يُتَصَوَّرُ عَادَةً، لَكِنَّهُ لَو وَقَعَ فَهُوَ: شِركٌ فِي الِاستِعَانَةِ؛ لِأَنَّهُ استَعَانَ بِغَيرِ اللهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾

[سورة البقرة:١٧٣].

---

(١) **تنبيه:** أَهلُ الْكِتَابِ – وَهُم الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ – سُمّوا بِذَلِكَ لِأَنَّ اللهَ -ﷻ- أَنزَلَ عَلَيهِم التَّورَاةَ وَالْإِنجِيلَ، وَلَيسَ فِي هَذِهِ التَّسمِيَةِ مدحٌ لَهُم، وَإِنَّمَا هِيَ تَسمِيَةُ اختِصَاصٍ؛ لِاختِصَاصِهِم بِبَعضِ الْأَحكَامِ الشَّرعِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْمُسلِمِينَ، كَإِقرَارِهِم عَلَىٰ دِينِهِم بِدَفعِ الْجِزيَةِ، وَجَوَازِ نِكَاحِ الْمُحصَنَاتِ مِن نِسَائِهِم، وحِلّ ذَبَائِحِهِم بِالشُّرُوطِ المبيّنة فِي كُتُبِ الْفِقهِ، وَإِلَّا فَإِنَّ اللهَ -ﷻ- قَد قَرَنَ هَذِهِ التَّسمِيَةَ فِي الْقُرآنِ الْكَرِيمِ بِكُفرِهِم، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [سورة البينة:١]، وَقَد أَجمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَىٰ كُفرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، وَعَلَىٰ كُفرِ مَن شَكَّ فِي كُفرِهِم، أَو صَحَّحَ مَذهَبَهُم، أَو اعتَقَدَ صِحَّةَ دِينِهِم بَعدَ بَعثَةِ النَّبِيِّ -ﷺ-.

انظُر: شَرحَ كِتَابِ التَّوحِيدِ لِأَبِي الْعَلَا.

٤٥٦ - رُوِيَ عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ -مِن طَرِيقِ ابنِ جُرَيجٍ- فِي قَولِهِ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ﴾، قَالَ: ذُبِحَ.(١)

٤٥٧ - رُوِيَ عَن أَبِي العَالِيَةِ -مِن طَرِيقِ الرَّبِيعِ بنِ أَنَسٍ- ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة:١٧٣]، يَقُولُ: مَا ذُكِرَ عَلَيهِ اسمُ غَيرِ الله.(٢)

٤٥٨ - عَن عَطَاءِ بنِ أَبِي رَبَاحٍ -مِن طَرِيقِ عَبدِ المَلِكِ بنِ أَبِي سُلَيمَانَ، أَو مَن سَمِعَهُ يُحَدِّثُ عَن عَطَاءٍ- فِي قَولِهِ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ [سورة البقرة:١٧٣]، قَالَ: يَقُولُ: بِاسمِ المسيح.(٣)

٤٥٩ - وَرُوِيَ ذَلِكَ عَن مُحَمَّدِ ابنِ شِهَابٍ الزُّهرِيِّ -مِن طَرِيقِ مَعمَرٍ- قَالَ: الإِهلَالُ: أَن يَقُولَ: بِاسمِ المسيح.(٤)

٤٦٠ - وَرُوِيَ عَن قَتَادَةَ بنِ دِعَامَةَ -مِن طَرِيقِ مَعمَرٍ- ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة:١٧٣]، قَالَ: مَا ذُبِحَ لِغَيرِ اللهِ مِمَّا لَم يُسَمَّ عَلَيهِ.(٥)

٤٦١ - وَرُوِيَ عَن عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ زَيدِ بنِ أَسلَمَ -مِن طَرِيقِ ابنِ وَهبٍ- أَنَّهُ سُئِلَ عَن قَولِ اللهِ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة:١٧٣].

---

(١) أَخرَجَهُ ابن جرير ٣/ ٥٦.

(٢) أَخرَجَهُ ابن أَبِي حاتم ١/ ٢٨٣.

(٣) أَخرَجَهُ عبد الرزاق فِي مصنّفه ٦/ ١١٨ (١٠١٨٠).

(٤) تفسير عبد الرزاق ١/ ٦٥.

(٥) تفسير عبد الرزاق ١/ ٦٥، وابن جرير ٣/ ٥٦، وَرَوَىٰ أيضًا من طريق سعيد بِلَفظِ: مَا ذُبِحَ لِغَير الله. وعلّقه ابن أَبِي حاتم ١/ ٢٨٣.

قَالَ: مَا يُذبَحُ لِآلِهَتِهِم؛ الأَنصَابُ الَّتِي يَعبُدُونَهَا، وَيُسَمُّونَ أَسمَاءَهَا عَلَيهَا، قَالَ: يَقُولُونَ: بِاسمِ فُلَانٍ، كَمَا تَقُولُ أَنتَ: بِاسمِ اللهِ، قَالَ: فَذَلِكَ قَولُهُ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [سورة البقرة:١٧٣]. (١)

٤٦٢ - **قَالَ الطَّبَرِيُّ فِي «تَفسِيرِهِ» (٣/ ٥٥):** «وَأَمَّا قَولُهُ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [سورة البقرة:١٧٣].

فَإِنَّهُ يَعنِي بِهِ: وَمَا ذُبِحَ لِلآلِهَةِ وَالأَوثَانِ، فَسُمِّيَ عَلَيهِ غَيرُ اسمِهِ، أَو قُصِدَ بِهِ غَيرُهُ مِنَ الأَصنَامِ.

وَإِنَّمَا قِيلَ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ﴾ [سورة البقرة:١٧٣] لِأَنَّهُم كَانُوا إِذَا أَرَادُوا ذَبحَ مَا قَرَّبُوهُ لِآلِهَتِهِم، سَمَّوُا اسمَ آلِهَتِهِمُ الَّتِي قَرَّبُوا ذَلِكَ لَهَا، وَجَهَرُوا بِذَلِكَ أَصوَاتَهُم، فَجَرَىٰ ذَلِكَ مِن أَمرِهِم عَلَىٰ ذَلِكَ، حَتَّىٰ قِيلَ لِكُلِّ ذَابِحٍ ذَبحٍ، سَمَّىٰ أَو لَم يُسَمِّ، جَهَرَ بِالتَّسمِيَةِ أَو لَم يَجهَر: مُهِلٌّ، فَرَفعُهُم أَصوَاتَهُم بِذَلِكَ هُوَ الإِهلَالُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ -جَلَّ ثَنَاؤُهُ- فَقَالَ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [سورة البقرة:١٧٣]

حَدَّثَنِي يُونُسُ، قَالَ: أَخبَرَنَا ابنُ وَهبٍ، قَالَ: قَالَ ابنُ زَيدٍ - وَسَأَلتُهُ عَن قَولِ اللهِ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [سورة البقرة:١٧٣] - قَالَ: مَا يُذبَحُ لِآلِهَتِهِم، الأَنصَابُ الَّتِي يَعبُدُونَهَا، وَيُسَمُّونَ أَسمَاءَهَا عَلَيهَا.

قَالَ: يَقُولُونَ: بِاسمِ فُلَانٍ، كَمَا تَقُولُ أَنتَ: بِاسمِ اللهِ، قَالَ: فَذَلِكَ مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيرِ اللهِ.

---

(١) أَخرَجَهُ ابن جرير ٣/ ٥٧.

وَرُوِيَ ذَلِكَ عَن عقبة بن مسلم التُّجيبي وقيس بن رافع الأشجعي والربيع بن أنس والحسن.

قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ ظَاهِرُهُ أَنَّهُ مَا ذُبِحَ لِغَيرِ اللهِ تَعالَىٰ، مِثلَ أَن يُقَالَ: هَذِهِ ذَبِيحَةٌ لِكَذَا، وَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ المَقصُودَ، فَسَوَاءٌ لَفَظَ بِهِ أَو لَم يَلفِظ، وَتَحرِيمُ هَذَا أَظهَرُ مِن تَحرِيمِ مَا ذَبَحَهُ لِلَّحمِ وَقَالَ فِيهِ: بِاسمِ المَسِيحِ وَنَحوِهِ، كَمَا أَنَّ مَا ذَبَحنَاهُ نَحنُ، مُتَقَرِّبِينَ إِلَىٰ اللهِ سُبحَانَهُ، كَانَ أَزكَىٰ وَأَعظَمَ مِمَّا ذَبَحنَاهُ لِلَّحمِ، وَقُلنَا عَلَيهِ: بِاسمِ اللهِ، فَإِنَّ عِبَادَةَ اللهِ سُبحَانَهُ بِالصَّلَاةِ لَهُ، وَالنُّسُكِ لَهُ، أَعظَمُ مِنَ الِاستِعَانَةِ بِاسمِهِ فِي فَوَاتِحِ الأُمُورِ، فَإِذَا حُرِّمَ مَا قِيلَ فِيهِ بِاسمِ المَسِيحِ أَوِ الزُّهَرَةِ، فَلَأَن يُحَرَّمَ مَا قِيلَ فِيهِ لِأَجلِ المَسِيحِ وَالزُّهَرَةِ أَو قُصِدَ بِهِ ذَلِكَ أَولَىٰ، وَهَذَا يُبَيِّنُ لَكَ ضَعفَ قَولِ مَن حَرَّمَ مَا ذُبِحَ بِاسمِ غَيرِ اللهِ، وَلَم يُحَرِّم مَا ذُبِحَ لِغَيرِ اللهِ، بَل لَو قِيلَ بِالعَكسِ كَانَ أَوجَهَ، فَإِنَّ العِبَادَةَ لِغَيرِ اللهِ أَعظَمُ كُفرًا مِنَ الِاستِعَانَةِ بِغَيرِ اللهِ، وَعَلَىٰ هَذَا فَلَو ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ مُتَقَرِّبًا بِهِ إِلَيهِ لَحُومٌ، وَإِن قَالَ فِيهِ بِاسمِ اللهِ، كَمَا قَد يَفعَلُهُ طَائِفَةٌ مِن مُشرِكِي هَذِهِ الأُمَّةِ الَّذِينَ قَد يَتَقَرَّبُونَ إِلَىٰ الكَوَاكِبِ، بِالذَّبحِ وَالبَخُورِ وَنَحوِ ذَلِكَ، وَإِن كَانَ هَؤُلَاءِ مُرتَدِّينَ لَا تُبَاحُ ذَبِيحَتُهُم بِحَالٍ، لَكِن يَجتَمِعُ فِي الذَّبِيحَةِ مَانِعَانِ).

٤٦٣- **جَاءَ فِي «المَبسُوطِ» لِلسَّرَخسِيِّ (١١/ ٢٤٦):** قَالَ أَصحَابُ الشَّافِعِيِّ -رَحِمَهُمُ اللهُ- يَقُولُونَ: المُسلِمُ إِذَا ذَبَحَ بِغَيرِ اسمِ اللهِ تَعَالَىٰ يَصِيرُ مُرتَدًّا، وَإِنَّمَا لَا يُؤكَلُ بِرِدَّتِهِ.

٤٦٤- **وَقَالَ ابنُ عَبدِ الهَادِي فِي «الصَّارِمِ المُنكِي» (ص٣٣٤):** «فَإِنَّ الحَلِفَ بِهِ تَعظِيمٌ لَهُ، فَقُولُوا: يَجِبُ عَلَىٰ الحَالِفِ أَن يَحلِفَ بِهِ، لِأَنَّهُ تَعظِيمٌ لَهُ وَتَعظِيمُهُ وَاجِبٌ، وَكَذَلِكَ تَسبِيحُهُ وَتَكبِيرُهُ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيهِ وَالذَّبحُ بِاسمِهِ،كُلُّ هَذَا تَعظِيمٌ لَهُ، مَعلُومٌ أَنَّ إِيجَابَ هَذَا مِثلُ إِيجَابِ الحَجِّ إِلَيهِ بِالزِّيَارَةِ عَلَىٰ م استَطَاعَ إِلَيهِ سَبِيلًا، وَلَا فَرقَ بَينَهُمَا».

٤٦٥- **وَجَاءَ فِي «بَدَائِعِ الفَوَائِدِ - ط عَطَاءَاتِ العِلمِ» (٢/ ٧٦٠):** وَقَلَّمَا يَتَأَتَّىٰ السِّحرُ بِدُونِ عِبَادَةٍ لِلشَّيطَانِ، وَتَقَرُّبٍ إِلَيهِ؛ إِمَّا بِذَبحٍ بِاسمِهِ، أَو بِذَبحٍ يُقصَدُ بِهِ هُوَ، فَيَكُونُ ذَبحًا لِغَيرِ اللهِ، وَبِغَيرِ ذَلِكَ مِن أَنوَاعِ الشِّركِ وَالفُسُوقِ.

وَالسَّاحِرُ وَإِن لَم يُسَمِّ هَذَا عِبَادَةً لِلشَّيطَانِ فَهُوَ عِبَادَةٌ لَهُ، وَإِن سَمَّاهُ بِمَا سَمَّاهُ بِهِ، فَإِنَّ الشِّركَ وَالكُفرَ هُوَ شِركٌ وَكُفرٌ لِحَقِيقَتِهِ وَمَعنَاهُ لَا لِاسمِهِ وَلَفظِهِ، فَمَن سَجَدَ لِمَخلُوقٍ وَقَالَ: لَيسَ هَذَا بِسُجُودٍ لَهُ هَذَا خُضُوعٌ وَتَقبِيلُ الأَرضِ بِالجَبهَةِ كَمَا أُقَبِّلُهَا بِالنِّعَمِ، أَو هَذَا إِكرَامٌ، لَم يَخرُج بِهَذِهِ الأَلفَاظِ عَن كَونِهِ سُجُودًا لِغَيرِ اللهِ فَلْيُسَمِّهِ بِمَا شَاءَ، وَكَذَلِكَ مَن ذَبَحَ لِلشَّيطَانِ وَدَعَاهُ، وَاستَعَاذَ بِهِ وَتَقَرَّبَ إِلَيهِ بِمَا يُحِبُّ فَقَد عَبَدَهُ، وَإِن لَم يُسَمِّ ذَلِكَ عِبَادَةً بَل يُسَمِّيهِ استِخدَامًا مَا، وَصَدَقَ هُوَ استِخدَامٌ مِنَ الشَّيطَانِ لَهُ، فَيَصِيرُ مِن خَدَمِ الشَّيطَانِ وَعَابِدِيهِ، وَبِذَلِكَ يَخدِمُهُ الشَّيطَانُ، لَكِن خِدمَةُ الشَّيطَانِ لَهُ لَيسَت خِدمَةَ عِبَادَةٍ، فَإِنَّ الشَّيطَانَ لَا يَخضَعُ لَهُ وَيَعبُدُهُ كَمَا يَفعَلُ هُوَ بِهِ.»

٤٦٦- **قَالَ الصَّنعَانِيُّ:** فَإِن قَالَ: إِنَّمَا نَحَرتُ لِلَّهِ، وَذَكَرتُ اسمَ اللهِ عَلَيهِ، فَقُل: إِن كَانَ النَّحرُ لِلَّهِ فَلِأَيِّ شَيءٍ قَرَّبتَ مَا تَنحَرُهُ مِن بَابِ مَشهَدٍ مَن تُفَضِّلُهُ وَتَعتَقِدُ فِيهِ؟ هَل أَرَدتَ بِذَلِكَ تَعظِيمَهُ؟ إِن قَالَ: نَعَم، فَقُل لَهُ: هَذَا النَّحرُ لِغَيرِ اللهِ تَعَالَىٰ، بَل أَشرَكتَ مَعَ اللهِ تَعَالَىٰ غَيرَهُ، وَإِن لَم تُرِد تَعظِيمَهُ فَهَل أَرَدتَ تَوسِيخَ بَابِ المَشهَدِ وَتَنجِيسَ الدَّاخِلِينَ إِلَيهِ؟ أَنتَ تَعلَمُ يَقِينًا أَنَّكَ مَا أَرَدتَ ذَلِكَ أَصلًا، وَلَا أَرَدتَ إِلَّا الأَوَّلَ، وَلَا خَرَجتَ مِن بَيتِكَ إِلَّا قَصدًا لَهُ).

الحَالُ الرَّابِعَةُ: أَن يَذبَحَ لِغَيرِ اللهِ وَبِاسمِ غَيرِ اللهِ.

وَهَذِهِ الحَالُ أَشَدُّ الحَالَاتِ وَأَظلَمُهَا: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ [سورة النور: ٤٠].

جَمَعَ بَينَ:

الشِّركِ فِي العِبَادَةِ، وَالشِّركِ فِي الِاستِعَانَةِ، وَنَقضِ مُفَادِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة:٥].

وَهَذَا شِركٌ أَكبَرُ بِإِجمَاعِ أَهلِ العِلمِ.

إِذًا: صُوَرُ الذَّبحِ لِغَيرِ اللهِ وَالَّتِي هِيَ شِركٌ أَكبَرُ مُخرِجٌ مِنَ المِلَّةِ:

شِركٌ مِن جِهَةِ العِبَادَةِ: كَمَن يَذبَحُ لِغَيرِ اللهِ فَيَتَوَجَّهُ بِالذَّبحِ لِلبَدَوِيِّ أَوِ المَسِيحِ، فَمَن ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ تَقَرُّبًا أَو تَعظِيمًا فَهُوَ مُشرِكٌ شِركًا أَكبَرَ مُخرِجٌ مِنَ المِلَّةِ.

شِركٌ مِن جِهَةِ الِاستِعَانَةِ: وَذَلِكَ إِذَا ذَكَرَ عِندَ الذَّبحِ غَيرَ اسمِ اللهِ.

شِركٌ فِي الِاستِعَانَةِ وَالعِبَادَةِ: وَذَلِكَ إِذَا ذَبَحَ بِاسمِ غَيرِ اللهِ لِغَيرِ اللهِ، وَمِثَالُ ذَلِكَ أَن يَذبَحَ بِاسمِ البَدَوِيِّ لِلبَدَوِيِّ أَو بِاسمِ عِيسَىٰ لِعِيسَىٰ.

فَالذَّبحُ لِغَيرِ اللهِ تَقَرُّبًا أَو تَعظِيمًا كُلُّهُ شِركٌ أَكبَرُ.

وَقَد ذَكَرنَا أَنَّ حَدَّ الشِّركِ الأَكبَرِ هُوَ: أَن يَصرِفَ العَبدُ نَوعًا أَو فَردًا مِن أَفرَادِ العِبَادَةِ لِغَيرِ اللهِ، فَكُلُّ اعتِقَادٍ أَو قَولٍ أَو عَمَلٍ ثَبَتَ أَنَّهُ مَأمُورٌ بِهِ فِي الشَّرعِ فَصَرفُهُ اللهِ وَحدَهُ عِبَادَةٌ وَتَوحِيدٌ، وَصَرفُهُ لِغَيرِهِ شِركٌ وَكُفرٌ وَتَندِيدٌ.

وَالقَاعِدَةُ المُتَقَرِّرَةُ عِندَ أَهلِ السُّنَّةِ: كُلُّ عِبَادَةٍ ثَبَتَ كَونُهَا عِبَادَةً، فَإِنَّ صَرفَهَا لِغَيرِ اللهِ شِركٌ.

وَالذَّبحُ عِبَادَةٌ بِالنَّصِّ وَالإِجمَاعِ، فَمَن صَرَفَهُ لِغَيرِ اللهِ فَقَد أَشرَكَ، سَوَاءٌ صَرَّحَ بِالقَصدِ أَو لَم يُصَرِّح.

وَمِنَ القُيُودِ البَاطِلَةِ المُنتَشِرَةِ فِي تَأصِيلَاتِ كَثِيرٍ مِن أَهلِ زَمَانِنَا:

جَعلُهُمُ الأَصلَ فِي أَفعَالِ الذَّبحِ لِغَيرِ اللهِ الإِبَاحَةَ حَتَّىٰ يَثبُتَ قَصدُ التَّعَبُّدِ.

تَوسِيعُ دَائِرَةِ الِاحتِمَالِ حَتَّىٰ تُلغَىٰ دَلَالَةُ الأَلفَاظِ الشَّرعِيَّةِ.

وَالسَّلَفُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- لَم يَكُونُوا يُفَتِّشُونَ عَنِ النِّيَّاتِ الخَفِيَّةِ فِي أَبوَابِ الشِّركِ الظَّاهِرِ، بَل كَانُوا يَحكُمُونَ بِالظَّاهِرِ المُستَفِيضِ.

فَالذَّبحُ عِندَ القُبُورِ، أَو لِلأَولِيَاءِ، أَو لِلجِنِّ، أَو لِدَفعِ البَلَاءِ، أَو لِجَلبِ النَّفعِ، كُلُّ ذَلِكَ عِندَهُم مِنَ الشِّركِ الأَكبَرِ.(١)

الحَالُ الخَامِسَةُ: الذَّبحُ بِاسمِ اللهِ لِغَرَضٍ مُبَاحٍ (غَيرِ التَّعَبُّدِ)

مِثلُ: ذَبحُ شَاةٍ لِإِكرَامِ الضَّيفِ.

أَو لِأَهلِ البَيتِ أَو لِلانتِفَاعِ بِاللَّحمِ أَوِ الصَّدَقَةِ عَلَىٰ الفُقَرَاءِ فَهُنَا: المَقصُودُ اللَّحمُ، وَالذَّبحُ وَسِيلَةٌ لَا مَقصُودٌ وَهَذَا جَائِزٌ، وَقَد يَكُونُ مُستَحَبًّا بِحَسَبِ النِّيَّةِ.

الفَرقُ بَينَ الذَّبحِ العِبَادِيِّ وَالذَّبحِ المُبَاحِ:

---

(١) **قَالَ عَبدُ اللهِ أَبَا بُطَينٍ:** وَأَمَّا مَن جَعَلَ سَبِيلَ الكُفَّارِ أَهدَىٰ مِن سَبِيلِ المُؤمِنِينَ، فَإِن كَانَ مُرَادُهُ: حَالَ أَهلِ الزَّمَانِ اليَومَ، كَأَن يَقُولَ: إِنَّ فِعلَ مُشرِكِي الزَّمَانِ عِندَ القُبُورِ وَغَيرِهَا، أَحسَنُ مِمَّن لَا يَدعُو إِلَّا اللهَ وَلَا يَدعُو غَيرَهُ؛ فَهَذَا كَافِرٌ بِلَا شَكٍّ.

وَكَذَا قَولُنَا: إِنَّ فِعلَ مُشرِكِي الزَّمَانِ عِندَ القُبُورِ مِن: دُعَاءِ أَهلِ القُبُورِ، وَسُؤَالِهِم قَضَاءَ الحَاجَاتِ، وَتَفرِيجَ الكُرُبَاتِ، وَالذَّبحِ، وَالنَّذرِ لَهُم، وَقَولُنَا: إِنَّ هَذَا شِركٌ أَكبَرُ، وَأَنَّ مَن فَعَلَهُ فَهُوَ كَافِرٌ، وَالَّذِينَ يَفعَلُونَ هَذِهِ العِبَادَاتِ عِندَ القُبُورِ كُفَّارٌ بِلَا شَكٍّ.

وَقَولُ الجُهَّالِ: إِنَّكُم تُكَفِّرُونَ المُسلِمِينَ، فَهَذَا مَا عَرَفَ الإِسلَامَ وَلَا التَّوحِيدَ. وَالظَّاهِرُ: عَدَمُ صِحَّةِ إِسلَامِ هَذَا القَائِلِ، فَإِن لَم يُنكِر هَذِهِ الأُمُورَ الَّتِي يَفعَلُهَا المُشرِكُونَ اليَومَ، وَلَا يَرَاهَا شَيئًا فَلَيسَ بِمُسلِمٍ.

«مَجمُوعَةُ الرَّسَائِلِ وَالمَسَائِلِ» (١/ ٦٥٤)

فِي العِبَادَاتِ: الذَّبحُ هُوَ المَقصُودُ، وَاللَّحمُ تَبَعٌ.

فِي المُبَاحَاتِ: اللَّحمُ هُوَ المَقصُودُ، وَالذَّبحُ تَبَعٌ.

فَلَو ذَبَحَ الهَدْيَ وَرَمَىٰ اللَّحمَ — وَهُوَ إِسرَافٌ مُحَرَّمٌ — فَقَد أَتَىٰ بِالعِبَادَةِ، لِأَنَّ المَقصُودَ هُوَ إِرَاقَةُ الدَّمِ لِلَّهِ.

أَمَّا لَو أَرَادَ إِكرَامَ الضَّيفِ، فَيَصِحُّ أَن يَشتَرِيَ اللَّحمَ جَاهِزًا أَو يَذبَحَ بِنَفسِهِ؛ لِأَنَّ المَقصُودَ اللَّحمُ لَا الذَّبحُ.

وَليُعلَم أَنَّ عِبَادَةَ الذَّبحِ مِن أَكثَرِ العِبَادَاتِ الَّتِي يَنبَغِي التَّحَرُّزُ وَالِاحتِيَاطُ فِيهَا، وَعَدَمُ التَّسَاهُلِ فِيهَا لِأَيِّ مُنَاسَبَةٍ مِنَ المُنَاسَبَاتِ، أَو سَبَبٍ مِنَ الأَسبَابِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهَا كَانَت أَكثَرَ عِبَادَةٍ يَستَعمِلُهَا المُشرِكُونَ فِي الجَاهِلِيَّةِ لِأَصنَامِهِم، وَكَانَت عَلَامَةَ حُبٍّ وَخُضُوعٍ وَتَذَلُّلٍ.

وَلِذَلِكَ لَا يَجُوزُ التَّوَسُّعُ فِيهَا مَعَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ، بَل يُقتَصَرُ فِيهَا عَلَىٰ مَا جَاءَ فِيهِ الدَّلِيلُ فَحَسبُ، **وَمِن ذَلِكَ:**

- النِّكَاحُ، كَمَا فِي قَولِهِ -ﷺ-: «أَولِم وَلَو بِشَاةٍ».
- وَعَقِيقَةُ المَولُودِ.
- وَختمُ الوَلَدِ لِلقُرآنِ،

٤٦٧- **كَمَا رَوَىٰ ابنُ أَبِي الدُّنيَا فِي كِتَابِ العِيَالِ (١/ ٤٨٩) عَن يُونُسَ، قَالَ:** حَذَقَ ابنٌ لِعَبدِ اللهِ بنِ الحَسَنِ ابنِ أَبِي الحَسَنِ البَصرِيِّ، فَقَالَ عَبدُ اللهِ: إِنَّ فُلَانًا قَد حَذَقَ، فَقَالَ الحَسَنُ البَصرِيُّ: كَانَ الغُلَامُ إِذَا حَذَقَ قَبلَ اليَومِ؛ نَحَرُوا جَزُورًا، وَصَنَعُوا طَعَامًا لِلنَّاسِ.

٤٦٨ - **وَرُوِيَ عَنِ ابنِ عُمَرَ قَالَ:** تَعَلَّمَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- البَقَرَةَ فِي اثنَتَي عَشرَةَ سَنَةً، فَلَمَّا خَتَمَهَا نَحَرَ جَزُورًا؛ شُكرًا لِلَّهِ.

○ **وَعَتِيرَةُ رَجَبٍ:** تُذبَحُ فِي رَجَبٍ وَتُوَزَّعُ عَلَىٰ الفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ، كَمَا جَاءَ عَنِ السَّلَفِ، فَقَد رَوَىٰ ابنُ أَبِي شَيبَةَ عَن مُعَاذٍ، عَنِ ابنِ عَونٍ، عَن مُحَمَّدِ بنِ سِيرِينَ قَالَ: كَانَ يَذبَحُ فِي كُلِّ رَجَبٍ.

قَالَ مُعَاذٌ: وَرَأَيتُ عَتِيرَةَ ابنِ عَونٍ.

وَغَيرُ ذَلِكَ مِنَ الصُّوَرِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا إِبَاحَةُ الذَّبحِ أَوِ استِحبَابُهُ.

وَمِنَ الصُّوَرِ المَمنُوعَةِ فِي الذَّبحِ:

○ **ذَبِيحَةُ القِمَارِ وَالمُعَاقَرَةِ:**

٤٦٩ - **رُوِيَ عَن أَنَسٍ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- **قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا إِسعَادَ فِي الإِسلَامِ، وَلَا شِغَارَ، وَلَا عَقرَ فِي الإِسلَامِ».(١)

٤٧٠ - **وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، **عَنِ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- **أَنَّهُ:** «نَهَىٰ عَن مُعَاقَرَةِ الأَعرَابِ».(٢)

---

(١) رَوَاهُ عَبدُ الرَّزَّاقِ (٦٦٩٠)، وَأَحمَدُ فِي «مُسنَدِهِ» (١٣٠٣٢)، وَعَبدُ بنُ حُمَيدٍ (١٢٥٣)، وَأَبُو دَاوُدَ (٣٢٢٢)، وَالتِّرمِذِيُّ (١٦٠١)، وَالنَّسَائِيُّ (٤/ ١٦).

(٢) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (١٩٣٥٠)، وَالبَيهَقِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (١٩٣٥٠)، وَالضِّيَاءُ فِي «المُختَارَةِ» (١٢٤).

قَالَ أَبُو دَاوُدَ: غُندَرٌ أَوقَفَهُ عَلَىٰ ابنِ عَبَّاسٍ.

وَأَخرَجَ أَبُو بَكرِ بنُ أَبِي شَيبَةَ فِي «تَفسِيرِهِ»، كَمَا فِي كِتَابِ «اقتِضَاءِ الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ» لِابنِ تَيمِيَّةَ (ص ٢٦٠)، عَن وَكِيعٍ، عَن أَصحَابِهِ، عَن عَوفٍ الأَعرَابِيِّ، عَن أَبِي رَيحَانَةَ قَالَ:

سُئِلَ ابنُ عَبَّاسٍ عَن مُعَاقَرَةِ الأَعرَابِ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ أَن تَكُونَ مِمَّا أُهِلَّ لِغَيرِ اللهِ بِهِ.

تَفسِيرُ العَقرِ والمُعَاقَرَةِ عِندَ السَّلَفِ:

٤٧١ - **قَالَ أَبُو زَكَرِيَّا يَحيَىٰ بنُ مَعِينٍ:** العَقرُ: يَعنِي الأَعرَابَ عِندَ المَاءِ، يَعقِرُ هَذَا وَيَعقِرُ هَذَا، فَيَأكُلُونَ لِغَيرِ اللهِ وَرَسُولِهِ.

٤٧٢ - **وَجَاءَ فِي غَرِيبِ الحَدِيثِ لِابنِ قُتَيبَةَ (٢/ ٣٥٨) قَالَ:** فِي حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ:

لَا تَأكُلُوا مِن تَعَاقُرِ الأَعرَابِ؛ فَإِنِّي لَا آمَنُ أَن يَكُونَ مِمَّا أُهِلَّ بِهِ لِغَيرِ اللهِ.

يَروِيهِ مُعَاذٌ عَن عَوفٍ عَن أَبِي رَيحَانَةَ.

وَتَعَاقُرُ الأَعرَابِ: عَقرُهُمُ الإِبِلَ، وَذَلِكَ أَن يَتَبَارَىٰ الرَّجُلَانِ، وَيَتَجَاوَرَا، فَيَعقِرُ هَذَا وَيَعقِرُ هَذَا، حَتَّىٰ يَعجِزَ أَحَدُهُمَا أَو يَبخَلَ، وَيَكُونُ ذَلِكَ لِلنَّاسِ.

فَنَهَىٰ ابنُ عَبَّاسٍ عَن أَكلِهِ؛ إِذ كَانَ رِيَاءً وَسُمعَةً، لَم يُرِدِ اللهُ بِشَيءٍ مِنهُ.

وَشَبَّهَهُ بِمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيرِ اللهِ؛ أَي: أُرِيدَ بِهِ غَيرُهُ.

ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ غَالِبٍ أَبِي الفَرَزدَقِ وَسُحَيمِ بنِ وَثِيلٍ الرِّيَاحِيِّ، وَفَخرِ الفَرَزدَقِ بِذَلِكَ عَلَىٰ جَرِيرٍ، فَقَالَ جَرِيرٌ لِتَمِيمٍ: دَعُوا المَجدَ إِلَّا أَن تَسُوقُوا كُزُومَكُم وَقَينًا عِرَاقِيًّا وَقَينًا يَمَانِيًا.

الكُزُومُ: النَّاقَةُ المُسِنَّةُ.

يُرِيدُ: أَن تَفخَرُوا بِنَاقَةٍ مُسِنَّةٍ عَقَرَهَا غَالِبٌ حِينَ عَاقَرَهُ سُحَيمٌ.

وَقَينًا عِرَاقِيًا: يَعنِي البُعَيثَ.

هَكَذَا جَعَلَهُ مَوقُوفًا، وَهُوَ الأَصَحُّ.

وَقِينًا يَمَانِيًا: يَعنِي الفَرَزدَق.

ثُمَّ قَالَ: وَقَد نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- عَن طَعَامِ المُتَبَارِيَينِ أَن يُؤكَلَ.

٤٧٣- **جَاءَ فِي شَرحِ السُّنَّةِ (١١/ ٢٢٦):** وَأَرَادَ بِمُعَاقَرَةِ الأَعرَابِ: أَن يَتَبَارَىٰ الرَّجُلَانِ، فَيَعقِرُ هَذَا عَدَدًا مِن إِبِلِهِ، وَيَعقِرُ صَاحِبُهُ، فَأَيُّهُمَا كَانَ أَكثَرَ عَقرًا غَلَبَ صَاحِبَهُ، فَكُرِهَ لُحُومُهَا؛ لِئَلَّا تَكُونَ مِمَّا أُهِلَّ بِهِ لِغَيرِ اللهِ -سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-.

فَسَّرَ أَحمَدُ وَعَبدُ الرَّزَّاقِ العَقرَ بِالعَقرِ عَلَىٰ المَيِّتِ عِندَ القَبرِ، وَإِن كَانَ لِوَجهِ اللهِ؛ لِأَنَّ الأَمرَ مُحدَثٌ، أَو يَجُرُّ إِلَىٰ الشِّركِ.

٤٧٤- **رَوَىٰ عَبدُ الرَّزَّاقِ (٨٥٦١) عَن مَعمَرٍ، عَن رَجُلٍ، عَن عِكرِمَةَ:** أَنَّهُ كَانَ يَكرَهُ أَن تُؤكَلَ ذَبِيحَةُ الأَعرَابِ الَّتِي تُعقَرُ عَلَىٰ قُبُورِهِم.

وَقَالَ عَبدُ الرَّزَّاقِ عَقِبَ إِخرَاجِهِ الأَثَرَ: كَانُوا يَعقِرُونَ عِندَ القَبرِ بَقَرَةً أَو شَاةً.

٤٧٥- **وَجَاءَ فِي الفُرُوعِ لِابنِ مُفلِحٍ (٣/ ٤٨):** وَكَرِهَ أَحمَدُ الذَّبحَ عِندَ القَبرِ، وَأَكلَ ذَلِكَ، لِخَبَرِ أَنَسٍ: «لَا عَقرَ فِي الإِسلَامِ».

٤٧٦- **وَقَالَ أَحمَدُ فِي رِوَايَةِ المَرُّوذِيِّ:** كَانُوا إِذَا مَاتَ لَهُمُ المَيِّتُ نَحَرُوا جَزُورًا، فَنَهَىٰ -عَلَيهِ السَّلَامُ- عَن ذَلِكَ.

وَقَالَ جَمَاعَةٌ: وَفِي مَعنَىٰ الذَّبحِ عِندَ القَبرِ الصَّدَقَةُ عِندَهُ؛ فَإِنَّهُ مُحدَثٌ، وَفِيهِ رِيَاءٌ.

وَنَقَلَ أَبُو طَالِبٍ عَنهُ: لَم أَسمَع فِيهَا بِشَيءٍ، وَأَكرَهُ أَن أَنهَىٰ عَنِ الصَّدَقَةِ، وَحَرَّمَ شَيخُنَا الذَّبحَ وَالتَّضحِيَةَ عِندَهُ.

٤٧٧- **جَاءَ فِي اقتِضَاءِ الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ (ص ١٨٢):** وَأَمَّا الذَّبحُ هُنَاكَ - يَعنِي عِندَ القُبُورِ - فَمَنهِيٌّ عَنهُ مُطلَقًا، ذَكَرَهُ أَصحَابُنَا وَغَيرُهُم لِهَذَا الحَدِيثِ.

٤٧٨- **قَالَ أَحمَدُ فِي رِوَايَةِ المَرُّوذِيِّ:** قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «لَا عَقرَ فِي الإِسلَامِ».

كَانُوا إِذَا مَاتَ لَهُمُ المَيِّتُ نَحَرُوا جَزُورًا عَلَىٰ قَبرِهِ، فَنَهَىٰ النَّبِيُّ -ﷺ- عَن ذَلِكَ، وَكَرِهَ أَبُو عَبدِ اللهِ أَكلَ لَحمِهِ.

قَالَ أَصحَابُنَا: وَفِي مَعنَىٰ هَذَا مَا يَفعَلُهُ كَثِيرٌ مِن أَهلِ زَمَانِنَا فِي التَّصَدُّقِ عِندَ القَبرِ بِخُبزٍ أَو نَحوِهِ.

٤٧٩- **قَالَ أَيضًا:** "وَكَرِهَ العُلَمَاءُ الأَكلَ مِن تِلكَ الذَّبِيحَةِ، فَإِنَّهَا شِبهُ مَا ذُبِحَ لِغَيرِ اللهِ".[(١)]

٤٨٠- **وَقَالَ أَيضًا:** "وَلَا يُذبَحُ عِندَ القَبرِ أُضحِيَةٌ وَلَا غَيرُهَا، فَإِنَّ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ-: "أَنَّهُ نَهَىٰ عَنِ العَقرِ عِندَ القَبرِ" حَتَّىٰ كَرِهَ أَحمَدُ الأَكلَ مِمَّا يُذبَحُ عِندَ القَبرِ؛ لِأَنَّهُ يُشبِهُ مَا يُذبَحُ عَلَىٰ النُّصُبِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- قَالَ: "لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ" يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا، وَثَبَتَ عَنهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ: "لَا تَجلِسُوا عَلَىٰ القُبُورِ، وَلَا تُصَلُّوا إِلَيهَا"، وَقَالَ: "الأَرضُ كُلُّهَا مَسجِدٌ إِلَّا المَقبَرَةَ، وَالحَمَّامَ" فَنَهَىٰ عَنِ الصَّلَاةِ عِندَهَا؛ لِئَلَّا يُشبِهَ مَن يُصَلِّي لَهَا، وَكَذَلِكَ الذَّبحُ عِندَهَا يُشبِهُ مَن ذَبَحَ لَهَا.

وَكَانَ المُشرِكُونَ يَذبَحُونَ لِلقُبُورِ، وَيُقَرِّبُونَ لَهَا القَرَابِينَ، وَكَانُوا فِي الجَاهِلِيَّةِ إِذَا مَاتَ لَهُم عَظِيمٌ ذَبَحُوا عِندَ قَبرِهِ الخَيلَ، وَالإِبِلَ، وَغَيرَ ذَلِكَ، تَعظِيمًا لِلمَيِّتِ فَنَهَىٰ النَّبِيُّ -ﷺ- عَن ذَلِكَ كله".[(٢)]

---

(١) الاستغاثة ٢/ ٤٣١.

(٢) مجموع الفتاوىٰ ٢٦/ ٣٠٦.

٤٨١ - **وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ إِبرَاهِيمَ:** "وَقَد صَرَّحَ العُلَمَاءُ بِتَحرِيمِ الذَّبحِ فِي المَقبَرَةِ لِمَا فِيهِ مِن مُشَابَهَةِ المُشرِكِينَ، وَلِأَنَّهُ وَسِيلَةٌ إِلَىٰ الشِّركِ بِالذَّبحِ لِلمَوتَىٰ وَالتَّقَرُّبِ إِليهِم".(١)

وَفِي البَابِ عَن عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- مَوقُوفًا، عِندَ أَبِي إِسحَاقَ إِبرَاهِيمَ بنِ عَبدِ الرَّحمَنِ دُحَيمٍ فِي تَفسِيرِهِ، كَمَا فِي اقتِضَاءِ الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ (ص ٢٦٠)، وَرَوَاهُ مُسَدَّدٌ فِي مُسنَدِهِ (٢٣٥٦) عَنِ الجَارُودِ بنِ أَبِي سَبرَةَ قَالَ: كَانَ مِن بَنِي رَبَاحٍ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: ابنُ وَثِيلٍ شَاعِرًا، نَافَرَ أَبَا الفَرَزدَقِ غَالِبًا الشَّاعِرَ، بِمَاءٍ بِظَهرِ الكُوفَةِ، عَلَىٰ أَن يَعقِرَ هَذَا مِئَةً مِن إِبِلِهِ، وَهَذَا مِئَةً مِن إِبِلِهِ.

فَلَمَّا وَرَدَتِ الإِبِلُ المَاءَ، قَامَا إِلَيهَا بِأَسيَافِهِمَا، فَجَعَلَا يَنسِفَانِ عَرَاقِيبَهَا.

فَخَرَجَ النَّاسُ عَلَىٰ الحُمُرِ وَالبِغَالِ يُرِيدُونَ اللَّحمَ، وَعَلِيٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- بِالكُوفَةِ، فَخَرَجَ عَلَىٰ بَغلَةِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- البَيضَاءِ، وَهُوَ يُنَادِي: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَأكُلُوا مِن لُحُومِهَا؛ فَإِنَّهَا أُهِلَّ بِهَا لِغَيرِ اللهِ تَعَالَىٰ.

التَّفرِيقُ بَينَ القُبُورِ المَعبُودَةِ وَالقُبُورِ غَيرِ المَعبُودَةِ:

ثَمَّةَ فَرقٌ جَوهَرِيٌّ بَينَ:

القُبُورِ الَّتِي نُصِبَت لِلعِبَادَةِ مِن دُونِ اللهِ.

وَبَينَ القُبُورِ الَّتِي لَم تُنصَب لِلعِبَادَةِ، بَل هِيَ قُبُورُ دَفنٍ كَسَائِرِ مَوتَىٰ المُسلِمِينَ.

فَالقَبرُ قَد يَكُونُ وَثَنًا يُعبَدُ، وَهَذَا لَم يَتَفَطَّن لَهُ الكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ حِينَ سَوَّوا بَينَ جَمِيعِ القُبُورِ دُونَ تَميِيزٍ، فَوَقَعَ فِي الخَلَلِ وَالزَّلَلِ.

---

(١) فتاوىٰ محمد بن إبراهيم ١/ ١٢٤.

٤٨٢ - **رَوَىٰ مَالِكٌ فِي المُوَطَّأِ عَن زَيدِ بنِ أَسلَمَ، عَن عَطَاءِ بنِ يَسَارٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ:** «اللَّهُمَّ لَا تجعَل قَبرِي وَثَنًا يُعبَدُ، اشتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَومٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ».

٤٨٣ - **وَرَوَىٰ ابنُ أَبِي شَيبَةَ فِي المُصَنَّفِ عَن زَيدِ بنِ أَسلَمَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-**: «اللَّهُمَّ لَا تجعَل قَبرِي وَثَنًا يُصَلَّىٰ لَهُ...».

فَالقَبرُ المَعبُودُ وَثَنٌ تَجرِي عَلَيهِ أَحكَامُ الأَوثَانِ، بِخِلَافِ القُبُورِ الَّتِي لَم تُعبَد، وَهِيَ الأَصلُ، فَتُشرَعُ زِيَارَتُهَا وَالدُّعَاءُ لِأَهلِهَا.

أَمَّا الأَضرِحَةُ المَعبُودَةُ - كَضَرِيحِ البَدَوِيِّ وَالرِّفَاعِيِّ وَنَحوِهِمَا - فَلَا يَجُوزُ إِتيَانُهَا وَلَا قُربَانُهَا مُطلَقًا.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [سورة الفرقان: ٧٢]

٤٨٤ - **جَاءَ فِي زَادِ المَسِيرِ (٣/ ٣٣١):** ذُكِرَت فِي مَعنَىٰ الزُّورِ ثَمَانِيَةُ أَقوَالٍ، مِنهَا: أَنَّهُ الصَّنَمُ وَقِيلَ الشِّركُ وَقِيلَ أَعيَادُ المُشرِكِينَ وَغَيرُ ذَلِكَ.

وَهَذِهِ المَعَانِي كُلُّهَا مُجتَمِعَةٌ عِندَ الأَضرِحَةِ وَالمَشَاهِدِ المَعبُودَةِ، فَهِيَ أَمَاكِنُ بَاطِلٍ وَشِركٍ لَا يَجُوزُ حُضُورُهَا وَلَا التَّوَاجُدُ فِيهَا بِأَيِّ حَالٍ.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [سورة المدثر: ٥]

٤٨٥ - **قَالَ الطَّبَرِيُّ:** الرِّجزُ هُوَ الأَوثَانُ، وَأَمرَ النَّبِيُّ -ﷺ- بِهَجرِهَا وَاجتِنَابِهَا وَعَدَمِ قُربَانِهَا.

إِذًا: مَشهَدُ البَدَوِيِّ وَنَحوِهِ حُكمُهُ حُكمُ ضَرِيحِ اللَّاتِ، الَّذِي عَكَفَ المُشرِكُونَ عَلَىٰ قَبرِهِ، وَلَا يُسَوَّىٰ بِالقُبُورِ الَّتِي لَم تُنصَب لِلعِبَادَةِ.

٤٨٦- **رَوَىٰ البُخَارِيُّ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ [سورة النجم:١٩]

قَالَ: كَانَ اللَّاتُ رَجُلًا يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلحَاجِّ، فَلَمَّا مَاتَ عَكَفُوا عَلَىٰ قَبرِهِ فَعَبَدُوهُ.

قَالَ الطَّبَرِيُّ: صَارَ قَبرُهُ وَثَنًا يُصَلَّىٰ لَهُ وَيُعبَدُ.

٤٨٧- **قَالَ ابنُ عَبدِ البَرِّ فِي التَّمهِيدِ (٥/ ٤٥):** «كُلُّ مَا عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ فَهُوَ وَثَنٌ، صَنَمًا كَانَ أَو غَيرَ صَنَمٍ... وَكَانَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- يُحَذِّرُ أُمَّتَهُ مِنَ اتِّخَاذِ القُبُورِ أَوثَانًا، وَذَلِكَ هُوَ الشِّركُ الأَكبَرُ».

٤٨٨- **وَجَاءَ فِي مَجمُوعِ الفَتَاوَىٰ (٢٧/ ٣٥٣):** «صَارَ قَبرُهُ وَثَنًا يُحَجُّ إِلَيهِ وَيُدعَىٰ مِن دُونِ اللهِ».

وَفِي حَدِيثِ جَرِيرِ بنِ عَبدِ اللهِ البَجَلِيِّ -رضي الله عنه- قَالَ: «... فَكَسَرنَا ذَا الخَلَصَةِ، وَقَتَلنَا مَن وَجَدنَا عِندَهُ».

وَجهُ الدَّلَالَةِ:

لَفظٌ عَامٌّ شَمِلَ كُلَّ مَن وُجِدَ عِندَ الوَثَنِ، دُونَ استِفصَالٍ عَن حَالِهِ؛ لِأَنَّ الأَصلَ فِيهِمُ الشِّركُ، فَلَا يُعرَضُ بِالِاحتِمَالَاتِ النَّادِرَةِ.

لَوَازِمُ فَاسِدَةٌ تَلزَمُ دَعوَىٰ التَّفصِيلِ

يَلزَمُ مِن قَولِ مَن قَالَ بِالتَّفصِيلِ أَن يَكُونَ الأَصلُ فِي زُوَّارِ الأَضرِحَةِ الإِسلَامُ، وَهَذَا بَاطِلٌ.

لِأَنَّ مُوجِبَاتِ الحُكمِ بِالشِّركِ مُتَحَقِّقَةٌ مُشَاهَدَةٌ، وَمِنهَا: الصَّلَاةُ وَالسُّجُودُ وَالطَّوَافُ وَالذَّبحُ وَالنَّذرُ

وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ لَا يُكَفِّرُ عِندَهُ أَحَدٌ إِلَّا إِذَا صَرَّحَ بِقَصدِهِ، وَهَذَا تَعطِيلٌ لِحَقِيقَةِ الشِّركِ الظَّاهِرِ.(١)

النَّتِيجَةُ: يَلزَمُ مِن قَولِهِ أَن لَا يَجُوزَ إِطلَاقُ الشِّركِ عَلَىٰ مَلَايِينِ النَّاسِ عِندَ أَضرِحَةٍ كَوَثَنِ البَدَوِيِّ وَنَحوِهِ، بِحُجَّةِ الِاحتِمَالِ، وَهَذَا ضَلَالٌ بَيِّنٌ.

فَالأَصلُ فِي الأَضرِحَةِ المَعبُودَةِ هُوَ الشِّركُ، لَا الإِسلَامُ.

وَالتَّفصِيلُ فِي أَحوَالِ مَن أَظهَرَ أَفعَالَ الشِّركِ نَقضٌ لِمَنهَجِ السَّلَفِ، وَمُصَادَمَةٌ لِلنُّصُوصِ، وَفَتحٌ لِبَابِ تَعطِيلِ التَّوحِيدِ بِاسمِ الشُّبُهَاتِ.

○ **ذَبِيحَةُ القِمَارِ وَالمُبَاهَاةِ:**

٤٨٩ - **رَوَىٰ عَبدُ الرَّزَّاقِ (٨٥٤٣)** قَالَ: أَخبَرَنَا مَعمَرٌ عَمَّن سَمِعَ عِكرِمَةَ يَقُولُ: لَا تُؤكَلُ ذَبِيحَةٌ ذَبَحَهَا الشُّعَرَاءُ فَخرًا وَلَا ذَبِيحَةُ قُمَارٍ».

٤٩٠ - **وَجَاءَ فِي مَعَالِمِ السُّنَنِ:** وَفِي مَعنَاهُ مَا جَرَت بِهِ عَادَةُ النَّاسِ مِن ذَبحِ الحَيَوَانِ عِندَ قُدُومِ المَملُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ، وَأَوَانِ حُدُوثِ نِعمَةٍ تَتَجَدَّدُ لَهُم فِي نَحوِ ذَلِكَ مِنَ الأُمُورِ.

---

(١) **قَالَ أَبُو إِسحَاقَ:** لَيسَ هُوَ المَذهَبَ؛ لِأَنَّا لَا نُكَفِّرُ بِالذُّنُوبِ، وَلَم يُوقِف الإِجمَاعُ أَنَّ تَركَهَا عَلَمًا عَلَىٰ الكُفرِ، كَالسُّجُودِ لِلصَّنَمِ وَشِبهِ ذَلِكَ، فَمَا جُعِلَ عَلَمًا عَلَىٰ الكُفرِ فَإِنَّهُ لَا يُوجَدُ إِلَّا مِن كَافِرٍ. «الجَامِعُ لِمَسَائِلِ المُدَوَّنَةِ» (٢/ ٤٠٤).

وَقَالَ القَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ (وَأَبُو عَلِيٍّ) الحُسَينُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ أَحمَدَ المَروَرُّوذِيُّ الشَّافِعِيُّ (المُتَوَفَّىٰ: ٤٦٢هـ):

فَأَمَّا المُسلِمُ إِذَا سَجَدَ لِلصَّنَمِ أَو عَظَّمَهُ فِي دَارِ الحَربِ، نُظِرَ فِيهِ: إِن كَانَ حَوَالَيهِ كُفَّارٌ يَحمِلُونَهُ عَلَيهِ، أَو كَانَ أَسِيرًا، يُشبِهُ أَن يَكُونَ مَكرُوهًا عَلَىٰ مَا يَتَعَاطَاهُ مِنَ المَحظُورَاتِ فِي الإِسلَامِ، لَم يُحكَم بِكُفرِهِ، وَإِن عُدِمَت إِمَارَةُ الإِكرَاهِ أَو كَانَ نَاجٍ، حُكِمَ بِكُفرِهِ.

«التَّعلِيقَةُ» لِلقَاضِي حُسَينٍ (٢/ ١٠٣٧)

وَهَذَا يَحدُثُ اليَومَ كَثِيرًا.

٤٩١ - **جَاءَ فِي كِتَابِ تَيسِيرِ العَزِيزِ الحَمِيدِ (١/ ١٥٥) وَقَد ذَكَرَ عَن بَعضِ الشَّافِعِيَّةِ أَنَّهُ قَالَ:** أَنَّ مَا ذُبِحَ عِندَ استِقبَالِ السُّلطَانِ تَقَرُّبًا إِلَيهِ أَفتَىٰ أَهلُ بُخَارَىٰ بِتَحرِيمِهِ لِأَنَّهُ مِمَّا أُهِلَّ بِهِ لِغَيرِ اللهِ، قَالَ الرَّافِعِيُّ: هَذَا إِنَّمَا يَذبَحُونَهُ استِبشَارًا بِقُدُومِهِ، فَهُوَ كَذَبحِ العَقِيقَةِ لِولَادَةِ المَولُودِ، قُلتُ: إِن كَانُوا يَذبَحُونَ استِبشَارًا كَمَا ذَكَرَ الرَّافِعِيُّ فَلَا يَدخُلُ فِي ذَلِكَ، وَإِن كَانُوا يَذبَحُونَهُ تَقَرُّبًا، إِلَيهِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الحَدِيثِ).

○ **النَّهيُ عَن طَعَامِ المُتَبَارِيَينِ:**

٤٩٢ - **رُوِيَ عَن عِكرِمَةَ قَالَ: كَانَ ابنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ:** إِنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - نَهَىٰ عَن طَعَامِ المُتَبَارِيَينِ أَن يُؤكَلَ.(١)

○ **الذبح للهِ تَعَالَىٰ بِمَكَانٍ يُذبَحُ فِيهِ لِغَيرِ اللهِ:**

لَا يَجُوزُ الذَّبحُ فِي المَكَانِ الَّذِي فِيهِ وَثَنٌ لِلمُشرِكِينَ أَو عِيدٌ مِن أَعيَادِهِم لِأُمُورٍ:

أَوَّلًا: حَدِيثُ ثَابِتِ بنِ الضَّحَّاكِ أَنَّ رَجُلًا نَذَرَ أَن يَنحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ فَسَأَلَ النَّبِيَّ - ﷺ - فَقَالَ: "هَل كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِن أَوثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعبَدُ؟ " قَالُوا: لَا.

قَالَ: "هَل كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِن أَعيَادِهِم؟ " قَالُوا: لَا.

فَقَالَ: "أَوفِ بِنَذرِكَ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذرٍ فِي مَعصِيَةِ اللهِ وَلَا فِيمَا لَا يَملِكُ ابنُ آدم".(٢)

ثَانِيًا: لِقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [سورة التوبة:١٠٨] وَوَجهُ الدَّلَالَةِ: إِذَا مَنَعَ النَّبِيُّ - ﷺ - عَنِ القِيَامِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ فِي مَسجِدِ الضِّرَارِ مَعَ أَنَّهُ لَا يَقُومُ فِيهِ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، فَكَذَلِكَ

---

(١) مستفاد بتصرف.

(٢) أَخرَجَهُ أَبُو داود (٣٣١٣).

المَوَاضِعُ المُعَدَّةُ لِلذَّبحِ لِغَيرِ اللهِ تَعَالَىٰ لَا يَذبَحُ فِيهَا المُوَحِّدُ لِلَّهِ؛ لِأَنَّهَا قَد أُسِّسَت عَلَىٰ مَعصِيَةِ اللهِ وَالشِّركِ بِهِ.

ثَالِثًا: أَنَّهُ وَسِيلَةٌ إِلَىٰ عِبَادَةِ غَيرِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَفِيهِ تَعظِيمٌ لِتِلكَ الأَمَاكِنِ الَّتِي يُذبَحُ فِيهَا لِغَيرِ اللهِ تَعَالَىٰ، كَمَا أَنَّ فِيهِ تَلبِيسٌ عَلَىٰ النَّاسِ، فَإِذَا رَأَىٰ بَعضُ العَامَّةِ مَن يَذبَحُ فِي ذَلِكَ المَكَانِ الَّذِي عُرِفَ أَنَّهُ مَكَانٌ يُذبَحُ فِيهِ لِغَيرِ اللهِ أَن يَفعَلُوا مِثلَ فِعلِهِ.

قلتُ: ومِن أعظَمِ مَا حُمِيَ بِهِ جنابُ التَّوحيدِ قاعِدَةُ «سدِّ الذَّرائعِ»، وأصلُها أنَّ الوَسائلَ لَهَا أحكامُ المقاصِدِ؛ فَمَا أَفضَىٰ إِلَىٰ الحرامِ فَهُوَ حرامٌ، وَمَا كانَ ذريعَةً إِلَىٰ الشِّركِ مُنِعَ وَإِن لَم يكُن شِركًا فِي نفسِهِ؛ إِذِ الشَّارِعُ كَمَا حرَّمَ الشِّركَ حرَّمَ الطُّرُقَ المُوصِلَةَ إليهِ، سدًّا لِلبابِ قبلَ أَن يُفتَحَ.

ولِهذا نَهَىٰ النَّبيُّ -ﷺ- أَن يُذبَحَ لِلَّهِ بِمَكانٍ يُذبَحُ فيهِ لِغيرِ اللهِ، معَ أَنَّ الذَّابِحَ إِنَّما يذبَحُ لِلَّهِ، لكنَّهُ لمَّا كانَ فِي مكانٍ تُعظَّمُ فيهِ الأوثانُ، أَو يُقامُ فيهِ عيدٌ مِن أعيادِ الجاهليَّةِ، خِيفَ أَن يُفضِيَ إِلَىٰ مُشارَكَةِ المُشرِكينَ أَو التَّشبُّهِ بِهم؛ كَمَا فِي حديثِ ثابتِ بنِ الضَّحَّاكِ، فلمَّا انتفَىٰ ذلكَ أذِنَ لهُ بِالوفاءِ؛ فعُلِمَ أنَّ مُجرَّدَ مُقارَنَةِ العِبادَةِ لِمَواطِنِ الشِّركِ أَو أعيادِهِ مَمنوعٌ، وَإِن سلِمَتِ النِّيَّةُ.

وَعَلَىٰ هَذَا الأصلِ ينبَني النَّهيُ عنِ البناءِ عَلَىٰ القُبورِ، والذَّبحِ عندَها، واتِّخاذِها مساجِدَ وأعيادًا، والغُلُوِّ فِي الصَّالِحينَ؛ فإنَّها وَسائلُ أفضَت بِالأُمَمِ قبلَنا إِلَىٰ عِبادَةِ غيرِ اللهِ.

ومِن دقيقِ هَذَا البابِ أنَّ الشَّارِعَ قَد يُغلِّظُ بِاللَّعنِ عَلَىٰ الذَّريعَةِ تهديدًا وَإِن لَم تقَع بعدُ، كَمَا لعَنَ مَن لعَنَ والِدَيهِ، وفسَّرَهُ بِأن يسُبَّ الرَّجُلُ والِدَي غيرِهِ فيسُبَّ ذاكَ والِدَيهِ؛

فجعَلَ التَّسَبُّبَ فِي الشَّتمِ كالشَّتمِ، تنبيهًا عَلَىٰ أنَّ مَا أَفضَىٰ إِلَىٰ المُحَرَّمِ آخِذٌ حُكمَهُ.

خَاتِمَةُ الفَصلِ: فَالذَّبحُ عِبَادَةٌ جَلِيلَةٌ، يَجِبُ إِخلَاصُهَا لِلَّهِ وَحدَهُ، وَلَا يَجُوزُ صَرفُهَا لِغَيرِهِ بِحَالٍ، وَمَن صَرَفَ شَيئًا مِنهَا لِغَيرِ اللهِ فَقَد وَقَعَ فِي الشِّركِ الأَكبَرِ، وَلَو قَالَ بِلِسَانِهِ: «إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ»، وَالسَّلَفُ الصَّالِحُ لَم يُفَرِّقُوا بَينَ مَن ذَبَحَ لِلجِنِّ خَوفًا، أَو ذَبَحَ لِلأَولِيَاءِ تَعظِيمًا، أَو ذَبَحَ لِلكَوَاكِبِ تَقَرُّبًا، بَل جَعَلُوا الجَمِيعَ دَاخِلًا فِي مُسَمَّىٰ الشِّركِ.

قال المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ -:

وَدَلِيلُ النَّذرِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [سورة الإنسان:٧].

انتقَلَ المُؤَلِّفُ إِلَىٰ ذِكرِ العِبَادَةِ الأَخِيرَةِ الَّتِي أَورَدَهَا ضِمنَ مَا أَورَدَ مِن أَفرَادِ العِبَادَةِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللهُ وَشَرَعَهَا لِعِبَادِهِ، وَأَمَرَ بتوحِيدِهِ فِيهَا، وَنَهَىٰ عَن إِشرَاكِ غَيرِهِ مَعَهُ فِيهَا، ذَكَرَ جُملَةً مِنَ العِبَادَاتِ قَبلَ هَذا، ثُمَّ خَتَمَ بِعِبَادَةِ النَّذرِ، وَخَتَمَ بِهَذَا - أَيضًا - الكَلَامَ عَنِ الأَصلِ الأَوَّلِ وَهُوَ مَعرِفَةُ اللهِ.

والنذر يُقرَنُ بالذبحِ فِي الحكمِ، فإنه عبادةٌ كالذبحِ سواءً بسواءٍ؛ والدليلُ عَلَىٰ كونه عبادةً أنَّ اللهَ أثنىٰ عَلَىٰ الموفينَ بِهِ فجعلَه من صفاتِ الأبرارِ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [سورة الإنسان:٧]، وأمرَ بالوفاءِ بِهِ: ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾ [سورة الحج:٢٩]، وَقَالَ النبيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «من نذرَ أَن يُطيعَ اللهَ فليُطِعْه»؛ فمن صرفَ النذرَ لغيرِ اللهِ — كالناذرينَ للقبورِ والأولياءِ والجنِّ تقرُّبًا — فقَد أشركَ الشركَ الأكبرَ المخرِجَ من المِلَّةِ، وَهَذِهِ النذورُ باطلةٌ لَا يجوزُ الوفاءُ بِهَا، بَل يجبُ المنعُ مِنهَا والتحذيرُ.

وَصَاحِبُهَا مَأجُورٌ قَائِمٌ بالتَّوحِيدِ، وَمَن أَشرَكَ اللهَ فِي هَذِهِ العِبَادَةِ فَإِنَّهُ قَد وَقَعَ فِي حَمأَةِ الشِّركِ، فَمَن عَقَدَ النَّذرَ أَو وَفَّىٰ بِالنَّذرِ لِغَيرِ اللهِ فَإِنَّهُ أَشرَكَ مَعَ اللهِ، وَمَن عَقَدَ النَّذرَ وَوَفَّىٰ بِالنَّذرِ لِلَّهِ فَهَذَا هُوَ المُوَحِّدُ العَابِدُ لِلَّهِ، وَالَّذِي يَنذِرُ مَا نَذَرَ إِلَّا وَهُوَ يُحِبُّ اللهَ وَيُرِيدُ الخَيرَ، وَيُرِيدُ مَا عِندَ اللهِ، وَهُوَ عَلَىٰ ثِقَةٍ وَيَقِينٍ مِن أَنَّ اللهَ يُعطِيهِ الخَيرَ وَيُنِيلُهُ مُبتَغَاهُ،

وَلِأَجلِ هَذَا نَذَرَ.

إِذًا: هَذَا النَّذرُ وَالوَفَاءُ بِهِ عِبَادَةٌ يُحِبُّهَا اللهُ، وَلِذَا أَثنَىٰ عَلَىٰ أَهلِهَا فَقَالَ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [سورة الإنسان:٧].

إِذًا: الوَفَاءُ بِالنَّذرِ يُحِبُّهُ اللهُ، فَهُوَ عِبَادَةٌ، وَصَرفُهُ لِلَّهِ تَوحِيدٌ، وَصَرفُهُ لِغَيرِهِ شِركٌ بِاللهِ، وَهَذِهِ حَالُ المُشرِكِينَ المَخذُولِينَ مِن عُبَّادِ القُبُورِ وَأَضرَابِهِمُ الَّذِينَ يَنذِرُونَ لِلأَولِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، يَأتِي أَحَدُهُم إِلَىٰ عَتَبَاتِ الشَّيخِ وَالمَشهَدِ وَالمَقَامِ يَتَمَسَّحُ وَيَتَضَرَّعُ وَيَقُولُ بِضَرَاعَةٍ وَسُكُونٍ: يَا سَيِّدِي فُلَانُ، إِن عَادَ ابنِي مِنَ السَّفَرِ، أَو شُفِيَ أَبِي، نَذرٌ عَلَيَّ لَكَ أَن أَذبَحَ وَأُوَزِّعَ لِلفُقَرَاءِ عِندَ قَبرِكَ!

هَذَا شِركٌ بِاللهِ، وَصَاحِبُهُ وَاقِعٌ فِي أَعظَمِ مَعصِيَةٍ عُصِيَ اللهُ بِهَا.

إِذًا: النَّذرُ يَجِبُ أَن يَكُونَ لِلَّهِ عَقدًا وَوَفَاءً، إِنشَاؤُهُ يَجِبُ أَن يَكُونَ لِلَّهِ، وَالوَفَاءُ بِهِ يَجِبُ أَن يَكُونَ لِلَّهِ، وَهَكَذَا يَكُونُ الإِنسَانُ عَابِدًا لِلَّهِ.

النَّذرُ الكَلَامُ فِيهِ يَحتَاجُ إِلَىٰ شَيءٍ مِنَ التَّفصِيلِ:

تَعرِيفُ النَّذرِ.

النَّذرُ هُوَ: أَن يُوجِبَ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفسِهِ مَا لَم يَجِب، بِصِيغَةٍ مَخصُوصَةٍ، كَأَن تَقُولَ:

نَذرٌ عَلَيَّ أَن أَفعَلَ كَذَا وَكَذَا، أَو: لِلَّهِ عَلَيَّ نَذرٌ أَن أَفعَلَ كَذَا وَكَذَا، أَو: لِلَّهِ عَلَيَّ أَن أَفعَلَ كَذَا وَكَذَا.

وَيَتَعَلَّقُ بِهِ أَحكَامٌ:

أَوَّلًا: النَّذرُ المُطلَقُ:

إِذَا كَانَ النَّذرُ نَذرًا مُطلقًا بِمَعنَىٰ أَنَّهُ لَم يُسَمَّ المَنذُورُ، كَأَن يَقُولَ الإِنسَانُ: لِلَّهِ عَلَيَّ نَذرٌ وَيسكُتُ، فَمَا الوَاجِبُ؟

الوَاجِبُ أَن يُكَفِّرَ كَفَّارَةَ يَمِينٍ.

وَكَفَّارَةُ اليَمِينِ بَيَّنَهَا اللهُ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ﴾ [سورة المائدة: ٨٩].

وَالدَّلِيلُ قَولُ النَّبِيِّ -ﷺ- فِيمَا أَخرَجَهُ مُسلِمٌ: «كَفَّارَةُ النَّذرِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ».

إِذًا: هَذَا النَّذرُ المُطلَقُ الَّذِي لَم يُسَمَّ يَجِبُ فِيهِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ.

ثَانِيًا: نَذرُ المَعصِيَةِ:

مَن نَذَرَ نَذرًا مَعصِيَةً، كَأَن يَقُولَ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-: نَذرٌ عَلَيَّ أَن أَشرَبَ الخَمرَ!

فَمَاذَا يَفعَلُ؟

نَقُولُ:

لَا يَجُوزُ لَكَ -يَا عَبدَ اللهِ- أَن تَفِيَ بِنَذرِكَ، هَذَا مُنكَرٌ وَلَا يَجُوزُ.

أَنتَ آثِمٌ بِعَقدِ هَذَا النَّذرِ، وَلَو وَفَيتَ بِهِ أَثِمتَ إِثمًا آخَرَ.

لِقَولِ النَّبِيِّ -ﷺ-: «لَا نَذرَ فِي مَعصِيَةٍ».

هَل يُكَفِّرُ كَفَّارَةَ يَمِينٍ؟

الجُمهُورُ: لَا كَفَّارَةَ.

مَذهَبُ الإِمَامِ أَحمَدَ: يُكَفِّرُ، لِحَدِيثِ: «لَا نَذرَ فِي مَعصِيَةٍ، وَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ».

وَالأَحوَطُ أَن يُكَفِّرَ مَعَ التَّوبَةِ.

ثَالِثًا: نَذرُ المُبَاحِ:

كَأَن يَقُولَ: لِلَّهِ عَلَيَّ أَن أَذهَبَ إِلَىٰ السُّوقِ، أَو: لِلَّهِ عَلَيَّ أَن أَشرَبَ مَاءً، أَو: نَذرٌ عَلَيَّ أَلَّا أَزُورَ فُلَانًا.

فَهَذَا نَذرٌ مُبَاحٌ، وَحُكمُهُ:

يُخَيَّرُ النَّاذِرُ بَينَ أَمرَينِ:

إِمَّا أَن يَفِيَ بِنَذرِهِ، وَإِمَّا أَن يُكَفِّرَ كَفَّارَةَ يَمِينٍ.

رَابِعًا: نَذرُ الطَّاعَةِ:

وَلَهُ صُورَتَانِ:

النَّذرُ المُنَجَّزُ: وَهُوَ الَّذِي لَا يُعَلَّقُ عَلَىٰ شَيءٍ، كَأَن يَقُولَ: نَذرٌ عَلَيَّ أَن أَصُومَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ.

هَذَا نَذرُ طَاعَةٍ مُنَجَّزٌ.

الحُكمُ: يَجِبُ الوَفَاءُ بِهِ، وَلَا خِيَارَ؛ لِقَولِهِ -ﷺ-: «مَن نَذَرَ أَن يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعهُ».

وَصِيغَةُ (فَليُطِعهُ) لِلوُجُوبِ.

النَّذرُ المُعَلَّقُ: كَأَن يَقُولَ: إِن نَجَحتُ فِي الِامتِحَانِ فَلِلَّهِ عَلَيَّ أَن أَتَصَدَّقَ بِأَلفِ رِيَالٍ.

الحُكمُ:

إِن لَم يَنجَح لَيسَ عَلَيهِ شَيءٌ.

إِن نَجَحَ وَجَبَ عَلَيهِ الوَفَاءُ.

وَهُنَا وَقفَةٌ مُهِمَّةٌ: بَعضُ النَّاسِ قَد يَتَحَمَّسُ فَيَمرَضُ قَرِيبٌ لَهُ، فَتَقُولُ: يَا اللهُ، نَذرٌ عَلَيَّ إِن شَفَىٰ اللهُ فُلَانًا أَن أَصُومَ يَومًا وَأُفطِرَ يَومًا إِلَىٰ أَن أَمُوتَ!

فَلَمَّا شُفِيَ قَرِيبُهَا، صَارَ الوَاجِبُ: أَن تَصُومَ يومًا وَتُفطِرَ يومًا إِلَىٰ أَن تَمُوتَ.

ثُمَّ إِذَا صَعُبَ الأَمرُ بَدَأَت تَبحَثُ عَن مَخَارِجَ!

وَمَن أَوقَعَهَا؟ هِيَ الَّتِي أَوقَعَت نَفسَهَا.

وَلِذَلِكَ نَهَىٰ النَّبِيُّ -ﷺ- عَنِ النَّذرِ، وَقَالَ: «إِنَّهُ لَا يَأتِي بِخَيرٍ، وَإِنَّمَا يُستَخرَجُ بِهِ مِنَ البَخِيلِ».

خُلَاصَةُ البَابِ: النَّذرُ عِبَادَةٌ يُحِبُّهَا اللهُ، فَوَاجِبٌ أَن يُخلَصَ لِلَّهِ، وَلَا يَجُوزُ أَن يُنذَرَ أَو يُوفَىٰ بِهِ لِغَيرِ اللهِ، فَهَذَا مِنَ الشرك.[1]

---

(١) شبهة: النَّذرَ مَكرُوهٌ، وَقَد قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ- فِي النَّذرِ: «إِنَّ النَّذرَ لَا يُقَدِّمُ شَيئًا وَلَا يُؤَخِّرُ، وَإِنَّمَا يُستَخرَجُ بِالنَّذرِ مِنَ البَخِيلِ»، فَيَقُولُونَ: معلُومٌ أَنَّ العِبَادَةَ يُحِبُّهَا اللهُ تَعَالَىٰ، وَالنَّذرُ قَد يَكُونُ مَكرُوهًا كَمَا دَلَّ عَلَيهِ هذا الحَدِيثُ، فَإِذَا كَانَ مَكرُوهًا فَكَيفَ يَكُونُ عِبَادَةً؟ وَهذَا الاستِشكَالُ غَيرُ وَارِدٍ أَصلًا؛ لِأَنَّ النَّذرَ يَنقَسِمُ إِلَىٰ قِسمَينِ:

نَذرٍ مُطلَقٍ، وَنَذرٍ مُقَيَّدٍ.

أَوَّلًا: النَّذرُ المُطلَقُ

وَهُوَ الَّذِي لَا يَكُونُ عَن مُقَابَلَةٍ، وَهذَا غَيرُ مَكرُوهٍ، بَل هُوَ مَحمُودٌ؛ لِأَنَّهُ إِيجَابُ المَرءِ عَلَىٰ نَفسِهِ عِبَادَةً لِلَّهِ تَعَالَىٰ مِن غَيرِ أَن يُقَابِلَهَا شَيءٌ.

فَمِثلُ أَن يَقُولَ قَائِلٌ: «لِلَّهِ عَلَيَّ نَذرٌ أَن أُصَلِّيَ اللَّيلَةَ عَشرَ رَكَعَاتٍ طِوَالًا»، دُونَ أَن يَربِطَ ذَٰلِكَ بِحُصُولِ أَمرٍ مُعَيَّنٍ، فَهذَا إِيجَابٌ لِعِبَادَةٍ لَم تَكُن وَاجِبَةً عَلَيهِ، دُونَ مُقَابَلَةٍ، وَهذَا النَّوعُ مُطلَقٌ مَحمُودٌ.

ثَانِيًا: النَّذرُ المُقَيَّدُ (وَهُوَ المَكرُوهُ)

وَهُوَ مَا كَانَ عَن مُقَابَلَةٍ؛ وَذَلِكَ أَن يَقُولَ قَائِلٌ مَثَلًا: «إِن شَفَىٰ اللهُ مَرِيضِي صُمتُ يَومًا»، أَو: «إِن نَجَحتُ فِي الِاختِبَارِ صَلَّيتُ رَكعَتَينِ»، أَو: «إِن تَزَوَّجتُ هذِهِ المَرأَةَ تَصَدَّقتُ بِخَمسِينَ رِيَالًا» - مَثَلًا - أَو بِمِائَةٍ.

فَهذَا يُوجِبُ عِبَادَةً عَلَىٰ نَفسِهِ مَشرُوطَةً بِحُصُولِ شَيءٍ يَقَعُ قَدَرًا.

ومن لطائفِ هَذَا البابِ: أنَّ من اعتقدَ أنَّ حاجاتِه لَا تُقضىٰ إِلَّا بالنذرِ فَقَد أساءَ الظنَّ بربِّه؛ إِذ جعلَه كأنه لَا يُعطي إِلَّا بعوَضٍ، واللهُ هُوَ المتفضِّلُ المنعِمُ ابتداءً، يُعطي بِلَا مقابلٍ؛ وَلِهَذَا جاءَ فِي الحديثِ أنَّ النذرَ لَا يَأتي بخيرٍ، وإنما يُستخرَجُ بِهِ من البخيلِ، تنبيهًا عَلَىٰ أنَّ المنذورَ مقدورٌ بقضاءِ اللهِ، لَا بسببِ النذرِ.

وَالسُّؤَالُ: مَن الَّذِي يُحدِثُ هذَا الشَّيءَ وَيجعَلُهُ كَائِنًا؟

وَالجَوابُ: هُوَ اللهُ تَعَالَىٰ.

فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِن أَعطَيتَنِي هذِهِ الزَّوجَةَ، وَإِن يَسَّرتَ لِي الزَّوَاجَ بِهَا صَلَّيتُ لَكَ رَكعَتَينِ، وَإِن أَنجَحتَنِي فِي الِاختِبَارِ صُمتُ يومًا، وَنَحوَ ذلِكَ، وَهذَا هُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ -ﷺ-: «إِنَّمَا يُستَخرَجُ بِالنَّذرِ مِنَ البَخِيلِ»؛ لِأَنَّ المُؤمِنَ المُقبِلَ عَلَىٰ رَبِّهِ لَا يَعبُدُ اللهَ بِالمُقَايَضَةِ، وَلَا يَجعَلُ عِبَادَتَهُ مُعَلَّقَةً عَلَىٰ حُصُولِ حَظٍّ دُنيَوِيٍّ، بَل يَعبُدُ اللهَ وَيَتَقَرَّبُ إِلَيهِ لِأَنَّهُ سُبحَانَهُ مُستَحِقٌّ لِلعِبَادَةِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ.

فَهذَا النَّوعُ مَكرُوهٌ، لَا لِذَاتِ النَّذرِ، وَلكِن لِهذِهِ الصِّفَةِ وَهِيَ التَّعلِيقُ عَلَىٰ المُقَابَلَةِ.

وَقَد يَجِدُ الطَّالِبُ مَن يَستَدِلُّ بِعِبَارَةٍ لِابنِ رَجَبٍ الحَنبَلِيِّ فِي عَدِّهِ صُوَرًا مِنَ الشِّركِ الأَصغَرِ، ذَاكِرًا فِيهَا «النَّذرَ» فِي سِيَاقِ الحَلِفِ بِغَيرِ اللهِ، لِيَستَنتِجَ أَنَّ النَّذرَ لِغَيرِ اللهِ عِندَهُ شِركٌ أَصغَرُ لَا يُخرِجُ مِنَ المِلَّةِ.

وَهَذَا استِنبَاطٌ مَدخُولٌ؛ فَإِنَّ عِبَارَةَ ابنِ رَجَبٍ هَذِهِ إِنَّمَا هِيَ نَقلٌ بِالمَعنَىٰ مِن كَلَامِ ابنِ القَيِّمِ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ»، وَابنُ القَيِّمِ هُنَاكَ صَرَّحَ بِأَنَّ النَّذرَ لِغَيرِ اللهِ مِن أَنوَاعِ الشِّركِ الأَكبَرِ، بَل قَالَ بِنَصِّهِ: «وَهُوَ أَعظَمُ مِنَ الحَلِفِ بِغَيرِ اللهِ؛ فَإِذَا كَانَ مَن حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ قَد أَشرَكَ، فَكَيفَ بِمَن نَذَرَ لِغَيرِ اللهِ؟».

فَإِن كَانَ الأَصلُ الَّذِي نَقَلَ عَنهُ ابنُ رَجَبٍ يُصَرِّحُ بِتَغلِيظِ حُكمِ النَّذرِ عَلَىٰ الحَلِفِ، فَكَيفَ يُستَنتَجُ مِن نَقلِ التِّلمِيذِ المُختَصَرِ تَسوِيَتُهُ بِهِ؟!

وَقَد صَرَّحَ ابنُ تَيمِيَّةَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِن «مَجمُوعِ الفَتَاوَىٰ» وَ«مِنهَاجِ السُّنَّةِ» أَنَّ النَّذرَ لِلمَوتَىٰ مِنَ الأَنبِيَاءِ وَالمَشَايِخِ أَو لِقُبُورِهِم «نَذرُ شِركٍ وَمَعصِيَةٌ لِلَّهِ تَعَالَىٰ»، وَأَنَّ العُلَمَاءَ «اتَّفَقُوا عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَن يَنذُرَ لِغَيرِ اللهِ».

قال المؤلف - رحمه الله -:

الأَصلُ الثَّانِي: مَعرِفَةُ دِينِ الإِسلَامِ بِالأَدِلَّةِ، وَهُوَ: الِاستِسلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوحِيدِ، وَالِانقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّركِ وَأَهلِهِ.

وَهُوَ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ: الإِسلَامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحسَانُ.

وَكُلُّ مَرتَبَةٍ لَهَا أَركَانٌ.

فَأَركَانُ الإِسلَامِ خَمسَةٌ: شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَومُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيتِ اللهِ الحَرَامِ.

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران:١٨].

وَمَعنَاهَا: لَا مَعبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ.

«لَا إِلَهَ»: نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ.

«إِلَّا اللهُ»: مُثبِتًا العِبَادَةَ لِلَّهِ وَحدَهُ.

لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلكِهِ.

وَتَفسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [سورة الزخرف:٢٦-٢٧]، وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران:٦٤].

وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة:١٢٨].

وَمَعنَىٰ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصدِيقُهُ فِيمَا أَخبَرَ، وَاجتِنَابُ مَا عَنهُ نَهَىٰ وَزَجَرَ، وَأَلَّا يُعبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ.

وَدَلِيلُ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفسِيرِ التَّوحِيدِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [سورة البينة:٥].

وَدَلِيلُ الصِّيَامِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة:١٨٣].

وَدَلِيلُ الحَجِّ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران:٩٧].

المَرتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ؛ وَهُوَ: بِضعٌ وَسَبعُونَ شُعبَةً، أَعلَاهَا قَولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ.

وَأَركَانُهُ سِتَّةٌ: أَن تُؤمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ هَذِهِ الأَركَانِ السِّتَّةِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [سورة البقرة:١٧٧].

وَدَلِيلُ القَدَرِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر:٤٩].

المَرتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإحسَانُ - رُكنٌ وَاحِدٌ -، وَهُوَ: أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [سورة النحل:١٢٨].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾ [سورة الشعراء:٢١٧-٢١٩].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُوا۟ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [سورة يونس:٦١] الآيَةَ.

وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبرِيلَ المَشهُورُ، عَن عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- قَالَ: «بَينَمَا نَحنُ عِندَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- ذَاتَ يَومٍ، إِذ طَلَعَ عَلَينَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعرِ، لَا يُرَىٰ عَلَيهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، فَأَسنَدَ رُكبَتَيهِ إِلَىٰ رُكبَتَيهِ، وَوَضَعَ كَفَّيهِ عَلَىٰ فَخِذَيهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ!

أَخبِرنِي عَنِ الإِسلَامِ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: الإِسلَامُ: أَن تَشهَدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيتَ إِنِ استَطَعتَ إِلَيهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقتَ - فَعَجِبنَا لَهُ، يَسأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ -.

قَالَ: فَأَخبِرنِي عَنِ الإِيمَانِ؟

قَالَ: أَن تُؤمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ، وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقتَ.

قَالَ: فَأَخبِرنِي عَنِ الإِحسَانِ؟

قَالَ: أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

قَالَ: فَأَخبِرنِي عَنِ السَّاعَةِ؟

قَالَ: مَا المَسؤُولُ عَنهَا بِأَعلَمَ مِنَ السَّائِلِ.

قَالَ: فَأَخبِرنِي عَن أَمَارَاتِهَا؟

قَالَ: أَن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَن تَرَىٰ الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ، يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنيَانِ.

قَالَ: ثُمَّ انطَلَقَ فَلَبِثتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا عُمَرُ! أَتَدرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبرِيلُ، أَتَاكُم يُعَلِّمُكُم دِينَكُم».

أَوَّلًا: قال المؤلف -رَحِمَهُ اللهُ-: مَعرِفَةُ دِينِ الإِسلَامِ بِالأَدِلَّةِ، وَهُوَ: الِاستِسلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوحِيدِ، وَالِانقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّركِ وَأَهلِهِ.

وَهُوَ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ: الإِسلَامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحسَانُ.

إِنَّ هَذَا البَابَ لَجَدِيرٌ أَن تُنفَقَ فِيهِ السَّاعَاتُ وَالأَعمَارُ؛ إِذ يَنبَغِي لِلإِنسَانِ أَن يَحرِصَ عَلَىٰ تَعَلُّمِ هَذَا الدِّينِ الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ -ﷺ-: مَا هُوَ الإِسلَامُ الصَّافِي الَّذِي أَوحَاهُ اللهُ إِلَىٰ نَبِيِّهِ دُونَ أَن يَتَخَلَّلَهُ كَدَرٌ أَو تَشوِيهٌ؟ فَإِنَّ هَذَا الزَّمَانَ زَمَانُ غُربَةٍ؛ وَقَد قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «بَدَأَ الإِسلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ».

وَمِن أَعظَمِ مَا تَظهَرُ فِيهِ غُربَةُ الإِسلَامِ: غُربَةُ مَعرِفَتِهِ عِندَ كَثِيرٍ مِنَ المُنتَسِبِينَ إِلَيهِ؛

إذ - مَعَ الأَسَفِ الشَّدِيدِ - ثَمَّةَ أُنَاسٌ يَعرِفُونَ مِنَ الإِسلَامِ مَا هُوَ ضِدُّهُ! فَالَّذِي يَتعَبَّدُونَ بِهِ وَيَتَقَرَّبُونَ بِهِ ضِدُّ مَا جَاءَ بِهِ الإِسلَامُ: جَاءَ الإِسلَامُ بِالتَّوحِيدِ، وَهُم يَتعَبَّدُونَ بِالشِّركِ؛ وَجَاءَ بِالِاتِّبَاعِ، وَهُم يَتَعَبَّدُونَ بِالِابتِدَاعِ.

فَهَذَا مَقَامٌ حَرِيٌّ أَن يُولِيَهُ كُلُّ مُسلِمٍ حَرِيصٍ عَلَىٰ نَجَاتِهِ غَايَةَ الِاهتِمَامِ: أَن يَعرِفَ حَقِيقَةَ هَذَا الدِّينِ الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ -ﷺ- عَن رَبِّهِ.

قال المؤلف -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وَهُوَ: الِاستِسلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوحِيدِ، وَالِانقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّركِ وَأَهلِهِ.

وَمَا أَحسَنَ هَذَا التَّعرِيفَ لِدِينِ الإِسلَامِ!

فَقَد جَمَعَ أُصُولَهُ الكِبَارَ فِي أَلفَاظٍ مُوجَزَةٍ جَامِعَةٍ: الِاستِسلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوحِيدِ، وَالِانقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّركِ وَأَهلِهِ.

أَوَّلًا: الِاستِسلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوحِيدِ:

قَولُهُ: «الِاستِسلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوحِيدِ»: أَيِ الذُّلُّ وَالخُضُوعُ وَالتَّأَلُّهُ وَالتَّعَبُّدُ لِلَّهِ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ وَحَضَّ عَلَيهِ، فَقَالَ سُبحَانَهُ: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [سورة الحج:٣٤] (١).

---

(١) الإِسلَامُ مُشتَقٌّ مِنَ الفِعلِ: سَلِمَ يَسلَمُ إِسلَامًا وَتَسلِيمًا وَاستِسلَامًا وَمُسَالَمَةً.

وَفِعلُ سَلِمَ فِي اللُّغَةِ يَدُورُ عَلَىٰ مَعنَيَينِ:

بَرِئَ وَنَجَا وَوُقِيَ وَخَلَصَ؛ وَمِن هَذَا المَعنَىٰ اسمُ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا-: السَّلَامُ، فَهُوَ المُبَرَّأُ السَّالِمُ الخَالِصُ مِنَ العُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ، وَالمُسَلِّمُ لِغَيرِهِ: المُخَلِّصُ وَالوَاقِي وَالمُنجِّي. وَسُمِّيَتِ الجَنَّةُ دَارَ السَّلَامِ لِسَلَامَتِهَا وَخُلُوصِهَا مِنَ الآفَاتِ.

وَقَولُهُ: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ [سورة الحج:٣٤] قَدَّمَ المَعمُولَ عَلَىٰ العَامِلِ لِإِفَادَةِ الحَصرِ وَالتَّخصِيصِ؛ أَي: لَهُ لَا لِغَيرِهِ، أَسلِمُوا.

وَخَصَّ المُخبِتِينَ بِالبِشَارَةِ، وَهُمُ الَّذِينَ يُخبِتُونَ إِلَىٰ اللهِ وَيَتَوَاضَعُونَ لَهُ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ كَذَلِكَ: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ [سورة لقمان:٢٢].

وَالعُروَةُ الوُثقَىٰ هِيَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ مِفتَاحُ هَذَا الدِّينِ وَلُبُّهُ، وَظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ.

وَالنَّاسُ فِي هَذَا المَقَامِ ثَلَاثَةُ أَضرُبٍ:

الضَّربُ الأَوَّلُ: مَنِ استَسلَمَ لِلَّهِ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ ذَلَّ وَخَضَعَ وَأَذعَنَ وَتَأَلَّهَ لِلَّهِ وَحدَهُ، فَهَؤُلَاءِ أَهلُ السَّعَادَةِ وَالتَّوفِيقِ وَالنَّجَاةِ، امتَثَلُوا قَولَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ [سورة الحج:٣٤].

الضَّربُ الثَّانِي: مَن أَشرَكَ مَعَ اللهِ فِي الِاستِسلَامِ؛ بِمَعنَىٰ أَنَّهُ أَسلَمَ لِلَّهِ وَلِغَيرِهِ أَيضًا، فَلَم يُوَحِّدِ اللهَ بِالِاستِسلَامِ، وَلَم يُفرِدِ اللهَ بِالعِبَادَةِ.

وَهَؤُلَاءِ هُم أَصنَافُ المُشرِكِينَ عَلَىٰ اختِلَافِ أَجنَاسِهِم.

وَقَولُكَ: سَلَّمَكَ اللهُ؛ أَي: وَقَاكَ وَنَجَّاكَ.

انقَادَ وَأَذعَنَ وَأَطَاعَ وَالتَزَمَ وَامتَثَلَ وَأَخَذَ؛ وَمِن هَذَا الإِسلَامُ: وَهُوَ الِانقِيَادُ وَالطَّاعَةُ لِلَّهِ وَامتِثَالُ أَمرِهِ وَالِالتِزَامُ بِهِ وَالإِذعَانُ لَهُ وَإِظهَارُ الخُضُوعِ وَالقَبُولِ، وَإِظهَارُ الشَّرِيعَةِ وَالِالتِزَامُ بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ -ﷺ-؛ وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحقِنُ الدَّمَ، فَإِن كَانَ مَعَهُ تَصدِيقٌ وَمَحَبَّةٌ وَإِقرَارٌ بِالقَلبِ سُمِّيَ إِيمَانًا.

وَهَذَا المَعنَىٰ -أَعنِي الإِذعَانَ وَالِانقِيَادَ- يَرجِعُ فِي النِّهَايَةِ إِلَىٰ المَعنَىٰ الأَوَّلِ؛ فَالإِسلَامُ الَّذِي هُوَ الِانقِيَادُ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِبَرَاءَتِهِ مِنَ الِامتِنَاعِ، وَلِأَنَّهُ يُسَلِّمُ وَيَخلُصُ مِنَ الإِبَاءِ وَالتَّركِ وَالِاستِكبَارِ. ذَكَرَ ذَلِكَ الأَزهَرِيُّ وَغَيرُهُ مِن أَئِمَّةِ اللُّغَةِ.

وَقد عَنَاهُمُ اللهُ بِقَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [سورة المائدة:٧٢].

وَأَصحَابُ هَذَا الضَّربِ فِي عَنَاءٍ وَنَصَبٍ وَشَرٍّ وَتَعَاسَةٍ؛ لِأَنَّ القَلبَ لَا يَصلُحُ إِلَّا إِذَا كَانَ مُستَسلِمًا لِوَاحِدٍ هُوَ خَالِقُهُ وَرَبُّهُ وَمَحبُوبُهُ وَمَعبُودُهُ، فَإِذَا تَوَجَّهَ مَعَ ذَلِكَ إِلَىٰ غَيرِهِ أَصَابَتهُ الحَيرَةُ وَالتَّعَاسَةُ، وَأَظلَمَ القَلبُ فَلَم يَعرِفِ الخَيرَ.

وَلِهَذَا ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا بَلِيغًا فَقَالَ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة الزمر:٢٩].

فَعَبدٌ لَهُ سَادَةٌ مُتَشَاكِسُونَ: هَذَا يَأمُرُهُ بِمَا يَغِيظُ ذَاكَ، وَهَذَا يَقُولُ: أَقبِل، وَالآخَرُ يَقُولُ: أَدبِر، وَهَذَا يَقُولُ: افعَل، وَالآخَرُ يَقُولُ: لَا تَفعَل... فَبِاللهِ مَا حَالُ هَذَا العَبدِ؟ وَأَيُّ شَقَاءٍ يَعِيشُ؟ هَكَذَا حَالُ المُشرِكِينَ الَّذِينَ لَم يُسلِمُوا لِلَّهِ وَحدَهُ؛ قُلُوبُهُم مُوَزَّعَةٌ بَينَ شُرَكَاءَ مُتَشَاكِسِينَ، فَفَقَدُوا الرَّاحَةَ وَالطُّمَأنِينَةَ وَالسَّكِينَةَ وَالسَّعَادَةَ.

وَأَمَّا المُوَحِّدُ فَمَثَلُهُ كَرَجُلٍ سَلَمٍ لِرَجُلٍ؛ أَي: خَالِصٌ لِسَيِّدٍ وَاحِدٍ، يَعرِفُهُ وَيَعرِفُ مَا يُطلَبُ مِنهُ، فَيَخدِمُهُ وَيُطِيعُهُ فَتَتَحَقَّقُ لَهُ الطُّمَأنِينَةُ وَالسَّكِينَةُ، وَهَذِهِ حَالُ أَهلِ التَّوحِيدِ: لَا يَستَسلِمُونَ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يَعبُدُونَ إِلَّا اللهَ.

ثُمَّ شَبَّهَ اللهُ حَالَ المُشرِكِ بِحَالٍ مُهلِكَةٍ فَقَالَ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [سورة الحج:٣١].

الضَّربُ الثَّالِثُ: مَنِ استَكبَرَ عَنِ الاستِسلَامِ لِلَّهِ.

وَهَذَا الضَّربُ صِنفَانِ:

الصِّنفُ الأَوَّلُ: مُمتَنِعٌ لَا يَدِينُ لِلَّهِ بِدِينٍ، يَستَكبِرُ وَيَأبَىٰ أَن يُطِيعَ اللهَ أَصلًا؛ وَهَذِهِ

حَالُ اللَّادِينيِّينَ وَالمَلَاحِدَةِ وَأَشبَاهِهِم.

الصِّنفُ الثَّانِي: مُنَازِعٌ يُنَازِعُ اللهَ؛ أَبَىٰ الِانقِيَادَ وَالِاستِسلَامَ لِأَنَّ عِندَهُ مُنَازَعَةً فِي الأَمرِ الكَونِيِّ وَالشَّرعِيِّ:

يُنَازِعُ فِي الأَمرِ الكَونِيِّ؛ فَيَعتَرِضُ عَلَىٰ قَدَرِ اللهِ وَيَزعُمُ أَنَّهُ مُنَافٍ لِلعَدلِ.

أَو يُنَازِعُ فِي الأَمرِ الشَّرعِيِّ؛ فَيَزعُمُ أَنَّ شَرِيعَةَ اللهِ مُنَافِيَةٌ لِلحِكمَةِ.

وَهَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ لَم يُسلِمُوا لِلَّهِ، وَلَم يَنقَادُوا لَهُ، وَلَم يُذعِنُوا لَهُ؛ فَفَقَدُوا الفَلَاحَ وَالنَّجَاحَ وَالسَّعَادَةَ.

فَهَذِهِ الأَضرُبُ الثَّلَاثَةُ: صِنفٌ وَاحِدٌ مِنهَا أَهلُ التَّوفِيقِ وَالسَّعَادَةِ وَهُوَ الصِّنفُ الأَوَّلُ الَّذِينَ أَسلَمُوا لِلَّهِ وَحدَهُ، وَأَمَّا الصِّنفُ الثَّانِي وَالثَّالِثُ فَضَالُّونَ مُنحَرِفُونَ عَنِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ، لَهُمُ الشَّقَاءُ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ؛ عَافَانَا اللهُ وَإِيَّاكُم.

ثَانِيًا: الِانقِيَادُ لِلَّهِ بِالطَّاعَةِ:

وَقَولُهُ: «وَالِانقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ» هُوَ الرُّكنُ الثَّانِي فِي التَّعرِيفِ، أَن يَكُونَ مُنقَادًا غَيرَ مُعَانِدٍ وَلَا مُتَوَلٍّ عَن طَاعَةِ اللهِ، وَهُوَ الرُّكنُ الثَّانِي لِلإِسلَامِ، وَمَعنَاهُ: فِعلُ الوَاجِبَاتِ وَالأَوَامِرِ، وَتَركُ المُحَرَّمَاتِ وَالنَّوَاهِي، وَبِعِبَارَةٍ جَامِعَةٍ: عِبَادَةُ اللهِ بِفِعلِ كُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرضَاهُ مِنَ الأَقوَالِ وَالأَعمَالِ، وَالِانقِيَادُ هُوَ الخُضُوعُ وَالِامتِثَالُ، لَا مُجَرَّدُ القَبُولِ وَالإِقرَارِ.

فَمَن وَحَّدَ اللهَ وَاعتَقَدَ رُبُوبِيَّتَهُ وَأُلُوهِيَّتَهُ لَزِمَ مِن ذَلِكَ أَن تَنبَعِثَ جَوَارِحُهُ بِطَاعَةِ اللهِ.

وَهَذَا يَظهَرُ فِي أَمرَينِ:

التِزَامُ الطَّاعَةِ: أَيِ اعتِقَادُ التَّكلِيفِ، بِأَن يَعتَقِدَ أَنَّهُ مُلزَمٌ وَمُخَاطَبٌ وَمَأمُورٌ بِمَا أَمَرَ

اللهُ بِهِ، وَأَنَّهُ مُنضَوٍ تَحتَ لِوَاءِ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ -ﷺ-، لَا يَخرُجُ عَنهَا قِيدَ شِبرٍ.

تَحقِيقُ الطَّاعَةِ فِي الجُملَةِ: فَإِنَّ المَقصُودَ أَن يُطِيعَ اللهَ تَعَالَىٰ طَاعَةً ظَاهِرَةً فِي أَصلِ الدِّينِ، وَهَذِهِ خُلَاصَةُ دَعَوَاتِ الرُّسُلِ وَغَايَةُ بِعثَتِهِم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [سورة النساء:٦٤].

فَمَن وَحَّدَ اللهَ ثُمَّ قَعَدَ عَن طَاعَتِهِ بِالكُلِّيَّةِ، فَلَا يُصَلِّي وَلَا يَصُومُ وَلَا يُزَكِّي وَلَا يَحُجُّ وَلَا يَفعَلُ شَيئًا مِمَّا أَوجَبَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَأَيُّ إِسلَامٍ هَذَا؟!

بَل هَذَا هُوَ التَّوَلِّي وَالإِعرَاضُ المُكَفِّرُ.

وَتَأَمَّل قَولَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة النور:٤٧].

فَهَؤُلَاءِ أَتَوا بِالقَولِ، ثُمَّ تَوَلَّوا عَنِ الطَّاعَةِ، فَحَكَمَ اللهُ عَلَيهِم بِقَولِهِ: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وَالكَلَامُ هُنَا عَن تَركِ الطَّاعَةِ بِالكُلِّيَّةِ، أَمَّا مَن يُطِيعُ وَيَعصِي، وَيَفعَلُ بَعضَ الأَوَامِرِ وَيَترُكُ بَعضًا، فَهَذَا قَد حَصَلَ مِنهُ أَصلُ الِانقِيَادِ، وَإِنَّمَا الكَلَامُ فِيمَن يَتَخَلَّفُ عَن رَكبِ الطَّاعَةِ بِالكُلِّيَّةِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي حَصَلَ مِنهُ التَّوَلِّي وَالإِعرَاضُ.

ثَالِثًا: البَرَاءَةُ مِنَ الشِّركِ وَأَهلِهِ:

وَقَولُهُ: «وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّركِ وَأَهلِهِ»: تَنبِيهٌ مُهِمٌّ هُنَا: فَقَد وَرَدَ فِي بَعضِ نُسَخِ «ثَلَاثَةِ الأُصُولِ» بَدَلَ هَذِهِ العِبَارَةِ: «وَالخُلُوصُ مِنَ الشِّركِ»، وَهَذِهِ الكَلِمَةُ مُقحَمَةٌ، وَالنُّسخَةُ المُعتَمَدَةُ الَّتِي تَصِحُّ نِسبَتُهَا إِلَىٰ المُؤَلِّفِ هِيَ: «وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّركِ وَأَهلِهِ»، لَا «الخُلُوصُ مِنَ الشِّركِ».

وَوَجهُ ذَلِكَ أَنَّ «الخُلُوص» يَدُلُّ عَلَىٰ مُجَرَّدِ التَّركِ، وَهَذَا لَا يَكفِي؛ بَل لَا بُدَّ مِن بَرَاءَةٍ، وَهٰذَا هُوَ الَّذِي يُناسِبُ الِاستِدلَالَ الَّذِي استَدَلَّ بِهِ الشَّيخُ، وَهُوَ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [سورة الزخرف:٢٦-٢٧]، فَذَكَرَ البَرَاءَةَ، وَهُوَ الَّذِي يُنَاسِبُ هٰذَا التَّعرِيفَ.

وَقَد سَبَقَ تَقرِيرُ هَذَا المَعنَىٰ فِي الرِّسَالَةِ؛ وَأَنَّ مَن وَحَّدَ اللهَ وَأَطَاعَ رَسُولَهُ -ﷺ- لَا يَجُوزُ لَهُ أَن يُوَادَّ أَو يُوَالِيَ مَن حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَمِن أَعظَمِ أَدِلَّةِ ذَلِكَ قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي شَأنِ إِبرَاهِيمَ -عليه السلام- وَالَّذِينَ مَعَهُ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [سورة الممتحنة:٤].

فَمِن مُقتَضَيَاتِ التَّوحِيدِ وَالِاستِسلَامِ لِلَّهِ: البَرَاءَةُ مِنَ الشِّركِ وَأَهلِهِ.

وَمَعنَىٰ ذَلِكَ: اعتِقَادُ بُطلَانِ عِبَادَةِ غَيرِ اللهِ، وَبُغضُهَا، وَتَكفِيرُ أَهلِهَا، وَمُعَادَاتُهُم؛ وَهَذِهِ مَعَانٍ لَا يَقُومُ الإِسلَامُ إِلَّا بِهَا عَلَىٰ وَجهِهِ الصَّحِيحِ.

وأُنَبِّهُ هَاهُنَا إِلَىٰ أَنَّ كَلِمَةَ (الإِسلَامِ) قَد جَاءَت لَهَا إِطلَاقَاتٌ فِي نُصُوصِ الوَحيِ:

الإِطلَاقُ الأَوَّلُ: الإِسلَامُ بِمَعنَىٰ الدِّينِ العَامِّ:

فَقَد يُطلَقُ الإِسلَامُ عَلَىٰ الدِّينِ العَامِّ الَّذِي هُوَ التَّوحِيدُ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ جَمِيعَ أَنبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، فَهَذَا يُسَمَّىٰ إِسلَامًا؛ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة البقرة:١٣٣].

فَهَذَا الإِسلَامُ هُوَ الدِّينُ العَامُّ لِجَمِيعِ الأَنبِيَاءِ وَالمُرسَلِينَ.

وَتَأَمَّل – مَثَلًا – قَولَ بِلقِيسَ مَلِكَةِ سَبَأٍ: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة النمل:٤٤].

قَالَ -سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- حِكَايَةً عَن مُوسَىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [سورة يونس:٨٤].

وَقَالَ سُبحَانَهُ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة آل عمران:٦٧].

فَهَذِهِ النُّصُوصُ تَدُلُّ عَلَىٰ الإِسلَامِ بِمَعنَاهُ العَامِّ، وَهُوَ: الِاستِسلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوحِيدِ، وَالِانقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّركِ وَأَهلِهِ.

فَكُلُّ نَبِيٍّ جَاءَ بِالإِسلَامِ بِهَذَا المَعنَىٰ، وَإِنِ اختَلَفَت شَرَائِعُهُمُ التَّفصِيلِيَّةُ؛ لِأَنَّ أَصلَ دَعوَتِهِم وَاحِدٌ، وَهُوَ تَوحِيدُ اللهِ وَإِفرَادُهُ بِالعِبَادَةِ.

وَلِهَذَا كَانَ إِبرَاهِيمُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- مُسلِمًا حَنِيفًا، وَكَانَ مُوسَىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- يَدعُو قَومَهُ إِلَىٰ الإِسلَامِ، وَكَانَ يَعقُوبُ وَبَنُوهُ عَلَىٰ الإِسلَامِ، أَي عَلَىٰ إِخلَاصِ العِبَادَةِ لِلَّهِ وَحدَهُ.

فَالإِسلَامُ هُنَا لَيسَ مَقصُورًا عَلَىٰ الشَّرِيعَةِ الخَاتِمَةِ فَقَط، بَل هُوَ الدِّينُ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ جَمِيعَ الأَنبِيَاءِ مِن حَيثُ أَصلُهُ وَأَسَاسُهُ، وَهُوَ تَوحِيدُ اللهِ وَإِفرَادُهُ بِالعِبَادَةِ، وَالِانقِيَادُ لَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

فَهَذَا كُلُّهُ مِن إِطلَاقِ الإِسلَامِ عَلَىٰ الدِّينِ العَامِّ.

الإِطلَاقُ الثَّانِي: الإِسلَامُ بِمَعنَىٰ الدِّينِ الخَاصِّ (شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-)

إِطلَاقٌ خَاصٌّ؛ وَهُوَ إِطلَاقُ الإِسلَامِ عَلَىٰ الدِّينِ الَّذِي جَاءَ بِهِ خَاتَمُ الأَنبِيَاءِ وَالمُرسَلِينَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَالَّذِي وَجَبَ عَلَىٰ جَمِيعِ الثَّقَلَينِ: الإِنسِ وَالجِنِّ، مُنذُ بُعِثَ النَّبِيُّ

-ﷺ- إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ.

مُنذُ بَعثَةِ مُحَمَّدٍ -ﷺ- صَارَ المَقصُودُ بِالإِسلَامِ الَّذِي طُلِبَ مِنَ النَّاسِ أَن يَدِينُوا بِهِ، وَأَن يَعتَقِدُوهُ، هُوَ الإِسلَامُ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ -ﷺ-، وَهُوَ دِينُ الإِسلَامِ الخَاصُّ، حَتَّىٰ صَارَ الإِطلَاقُ إِذَا أُطلِقَ الإِسلَامُ لَا يُرَادُ بِهِ إِلَّا دِينُ الإِسلَامِ الَّذِي بُعِثَ بِهِ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ -ﷺ-؛ الَّذِي يَشمَلُ عَقِيدَةَ الإِسلَامِ وَشَرِيعَةَ الإِسلَامِ.

هَذَا هُوَ الإِسلَامُ بِالمَعنَىٰ الخَاصِّ، وَقَد بَيَّنَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي قَولِهِ: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [سورة آل عمران:٢٠].

فَالهِدَايَةُ مُرتَبِطَةٌ بِالِالتِزَامِ بِهَذَا الإِسلَامِ الخَاصِّ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا -ﷺ-.

وَهُوَ المُرَادُ أَيضًا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران:٨٥].

وَهَذَا مَعلُومٌ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ: أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ مِنَ الإِنسِ وَالجِنِّ بَعدَ بِعثَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ اللهِ -ﷺ- مُطَالَبٌ وَمُلزَمٌ بِالِاستِجَابَةِ لِهَذَا الإِسلَامِ وَالدُّخُولِ فِيهِ؛ فَمَن أَعرَضَ عَنهُ وَلَم يَتَّبِعِ الرَّسُولَ -ﷺ- فَهُوَ كَافِرٌ فِي الدُّنيَا، خَاسِرٌ فِي الآخِرَةِ، وَهَذَا أَمرٌ قَطعِيٌّ.

فَمَن بَلَغَتهُ رِسَالَةُ الإِسلَامِ فَأَبَىٰ وَأَعرَضَ، فَهُوَ عِندَ اللهِ خَاسِرٌ، وَلَا أَمَلَ لَهُ فِي النَّجَاةِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة العنكبوت:٢٣].

وَقَالَ سُبحَانَهُ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ

﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران:٨٥].

وَقَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا﴾ [سورة الفتح:١٣]، فَلَو قَالَ قَائِلٌ: "أَنَا أَعبُدُ اللهَ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَكِنَّنِي لَا أَتَّبِعُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-"، قِيلَ لَهُ: لَا يَنفَعُهُ ذَلِكَ، وَهُوَ عِندَ اللهِ مِنَ الكَافِرِينَ، لِعُمُومِ قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا﴾ [سورة الفتح:١٣].

وَاسمَع كَلَامَ نَبِيِّكَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَد قَالَ -كَمَا فِي صَحِيحِ مُسلِمٍ-: «وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، لَا يَسمَعُ بِي أَحَدٌ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ وَلَا نَصرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَم يُؤمِن بِالَّذِي أُرسِلتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِن أَصحَابِ النَّارِ».

فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي حَقِّ اليَهُودِيِّ أَوِ النَّصرَانِيِّ -وَهُمَا عَلَىٰ إِرثٍ مِن إِرثِ السَّمَاءِ فِي أَصلِ الدِّينِ قَبلَ نَسخِهِ وَتَحرِيفِهِ- وَمَعَ ذَلِكَ يَكُونُ مِن أَصحَابِ النَّارِ إِذَا لَم يُؤمِن بِمَا أُرسِلَ بِهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ فَكَيفَ بِمَن دُونَهُم مِنَ الوَثَنِيِّينَ وَالمَلَاحِدَةِ وَغَيرِهِم؟

فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّ مَن لَم يُؤمِن بِالنَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَعدَ بَعثَتِهِ، وَلَم يَتَّبِعهُ، فَلَيسَ بِمُسلِمٍ شَرعًا، وَإِنِ انتَسَبَ إِلَىٰ دِينٍ سَابِقٍ، فَلَو قَالَ يَهُودِيٌّ أَو نَصرَانِيٌّ: "أَنَا مُسلِمٌ مُتَّبِعٌ لِمُوسَىٰ أَو عِيسَىٰ، وَلَا أُؤمِنُ بِمُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-"، لَم يَكُن مُسلِمًا؛ لِأَنَّ الإِيمَانَ بِالأَنبِيَاءِ جَمِيعًا يَقتَضِي الإِيمَانَ بِخَاتَمِهِم -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَاتِّبَاعَهُ، إِذ هُوَ المُصَدِّقُ لَهُم، وَالنَّاسِخُ لِشَرَائِعِهِم.

فَهَذَا أَمرٌ قَطعِيٌّ يَجِبُ اعتِقَادُهُ وَيَجِبُ العِلمُ بِهِ: أَنَّ دِينَ اللهِ المَقبُولَ هُوَ الإِسلَامُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [سورة آل عمران:١٩].

الإِطلَاقُ الثَّالِثُ: الإِسلَامُ مُقَابِلَ الإِيمَانِ وَالإِحسَانِ.

وَهَذَا إِطلَاقٌ ثَالِثٌ أَخَصُّ: وَهُوَ إِطلَاقُ الإِسلَامِ مُقَابِلَ الإِيمَانِ وَالإِحسَانِ،

وَسَيَأْتِي الكَلَامُ عَلَيهِ – إِن شَاءَ اللهُ – فِي مَوضِعِهِ.

وَفِي الجُملَةِ: كَلِمَتَا (الإِسلَامِ) وَ(الإِيمَانِ) مِنَ الأَلفَاظِ الَّتِي: إِذَا اجتَمَعَتِ افتَرَقَت، وَإِذَا افتَرَقَتِ اجتَمَعَت.

فَإِذَا ذُكِرَ الإِسلَامُ وَحدَهُ، دَخَلَ فِيهِ مَعنَىٰ الإِيمَانِ.

وَإِذَا ذُكِرَ الإِيمَانُ وَحدَهُ، دَخَلَ فِيهِ مَعنَىٰ الإِسلَامِ.

أَمَّا إِذَا ذُكِرَا مَعًا فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ؛ فَالإِسلَامُ يُرَادُ بِهِ غَالِبًا الدِّينُ الظَّاهِرُ: كَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّومِ وَالحَجِّ وَالعُمرَةِ وَنَحوِ ذَلِكَ.

وَالإِيمَانُ يُرَادُ بِهِ غَالِبًا الدِّينُ البَاطِنُ: كَمَحَبَّةِ اللهِ، وَخَوفِهِ، وَالرَّجَاءِ فِيهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيهِ، وَالإِنَابَةِ إِلَيهِ... إِلَىٰ آخِرِ ذَلِكَ.

وَعَلَيهِ: فَتَعرِيفُ الإِسلَامِ بِأَنَّهُ: الِاستِسلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوحِيدِ، وَالِانقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّركِ وَأَهلِهِ تَعرِيفٌ جَامِعٌ، لَا يُغنِي بَعضُهُ عَن بَعضٍ، بَل لَا بُدَّ مِنِ اجتِمَاعِ هَذِهِ الأُصُولِ كُلِّهَا.

خَصَائِصُ الإِسلَامِ وَمَزَايَاهُ:

- أَنَّهُ دِينٌ عَالَمِيٌّ لِلعَرَبِ وَالعَجَمِ، وَلِلإِنسِ وَالجِنِّ.
- أَنَّ اللهَ تَعَهَّدَ بِحِفظِهِ، وَبِنُصرَةِ أَتبَاعِهِ، وَاصطِفَاءِ صَحَابَةِ نَبِيِّهِ – ﷺ –.
- أَنَّهُ نَاسِخٌ لِجَمِيعِ الأَديَانِ قَبلَهُ.
- أَنَّهُ دِينُ يُسرٍ وَسَمَاحَةٍ، مُوَافِقٌ لِلفِطرَةِ، صَالِحٌ لِكُلِّ الأَحوَالِ وَالأَزمَانِ.
- أَنَّهُ دِينُ التَّوحِيدِ وَالجِهَادِ، لَا يَقُومُ إِلَّا بِالكُفرِ بِالطَّاغُوتِ، وَالبَرَاءَةِ مِنَ الكُفَّارِ، وَمُوَالَاةِ المُؤمِنِينَ.

- أَنَّهُ دِينٌ حَنِيفٌ بَرِيءٌ مِنَ الشِّركِ، وَلَا يَصِحُّ إِلَّا بِالكُفرِ بِالطَّاغُوتِ.
- أَنَّهُ لَا يَصِحُّ إِلَّا بِالعَمَلِ وَالِانقِيَادِ، فَلَيسَ مُجَرَّدَ دَعوَىٰ أَوِ اعتِقَادٍ.
- أَنَّ اللهَ شَهِدَ أَنَّهُ الدِّينُ الَّذِي عِندَهُ، وَرَضِيَهُ لِعِبَادِهِ، وَأَتَمَّهُ وَأَكمَلَهُ.
- أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي سَمَّانَا مُسلِمِينَ، وَالدُّخُولُ فِيهِ اجتِبَاءٌ وَفَضلٌ مِنَ اللهِ.
- أَنَّ أَهلَ الإِسلَامِ شُهَدَاءُ عَلَىٰ الأُمَمِ يومَ القِيَامَةِ.
- أَنَّ اللهَ جَعَلَ الإِسلَامَ هُوَ العُروَةَ الوُثقَىٰ كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [سورة البقرة:٢٥٦].

قال المؤلف -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

وَكُلُّ مَرتَبَةٍ لَهَا أَركَانٌ.

قَولُهُ: وَكُلُّ مَرتَبَةٍ لَهَا أَركَانٌ، أَي: لِكُلِّ مَرتَبَةٍ أَعمِدَةٌ تَقُومُ عَلَيهَا، وَهَذِهِ الأَركَانُ هِيَ أُمَّهَاتُ تِلكَ المَرتَبَةِ، وَأَهَمُّ مَا فِيهَا، وَمَا سِوَاهَا فَهُوَ دُونَهَا فِي الرُّتبَةِ وَالأَهَمِّيَّةِ.

«وَالبَيتُ لَا يُبتَنَىٰ إِلَّا لَهُ عَمَدٌ ... وَلَا عِمَادَ إِذَا لَم تُرسَ أَوتَادُ»

أَمَّا مَرتَبَةُ الإِسلَامِ، فَإِنَّ أَركَانَهَا خَمسَةٌ؛

٤٩٣- كَمَا دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ حَدِيثُ ابنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنهُمَا- فِي الصَّحِيحَينِ وَغَيرِهِمَا، أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «بُنِيَ الإِسلَامُ عَلَىٰ خَمسٍ».

٤٩٤- **وَفِي رِوَايَةِ مُحَمَّدِ بنِ نَصرٍ المَروَزِيِّ فِي تَعظِيمِ قَدرِ الصَّلَاةِ جَاءَ اللَّفظُ:** «بُنِيَ الإِسلَامُ عَلَىٰ خَمسِ دَعَائِمَ: شَهَادَةِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَومِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ بَيتِ اللهِ الحَرَامِ لِمَنِ استَطَاعَ إِلَيهِ سَبِيلًا».

فَهَذِهِ هِيَ أَركَانُ الإِسلَامِ الخَمسَةُ، وَهِيَ الأَسَاسُ الَّذِي يَقُومُ عَلَيهِ هَذَا الدِّينُ فِي ظَاهِرِهِ، وَلَا يَقُومُ إِسلَامُ عَبدٍ إِلَّا بِهَا.

قال المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ -:

فَأَرْكَانُ الإِسلَامِ خَمسَةٌ: شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَومُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيتِ اللهِ الحَرَامِ.

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران:١٨].

بَيَانُ الرُّكنِ الأَوَّلِ مِن أَركَانِ الإِسلَامِ: الشَّهَادَتَانِ.

بَدَأَ المُؤَلِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِبَيَانِ الرُّكنِ الأَوَّلِ مِن أَركَانِ الإِسلَامِ، وَهُوَ الشَّهَادَتَانِ: شَهَادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَشَهَادَةُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

شَهَادَةُ التَّوحِيدِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،

وَشَهَادَةُ الرِّسَالَةِ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ.

وَهَذِهِ الشَّهَادَةُ هِيَ أَحسَنُ الكَلَامِ، وَأَعظَمُ المَعَانِي، وَهِيَ الدِّينُ كُلُّهُ: أَصلُهُ وَفَرعُهُ، وَبَاطِنُهُ وَظَاهِرُهُ.

وَهِيَ الَّتِي لِأَجلِهَا خَلَقَ اللهُ الخَلقَ، وَلِأَجلِهَا أَنزَلَ الكُتُبَ، وَلِأَجلِهَا أَرسَلَ الرُّسُلَ، وَلِأَجلِهَا خَلَقَ الجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَلِأَجلِهَا انقَسَمَ النَّاسُ إِلَىٰ أَهلِ سَعَادَةٍ وَأَهلِ شَقَاوَةٍ.

وَهِيَ مِفتَاحُ الإِسلَامِ، وَهِيَ مِفتَاحُ دَارِ السَّلَامِ.

فَإِذَن؛ الخَيرُ كُلُّهُ مَجمُوعٌ فِي هَذِهِ الشَّهَادَةِ: شَهَادَةِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا

رَسُولُ اللهِ -ﷺ-.

تَلَازُمُ الشَّهَادَتَينِ:

انتَبِه إِلَىٰ أَنَّ الشَّهَادَتَينِ مُتَلَازِمَتَانِ تَلَازُمًا تَامًّا، فَلَا تَنفَكُّ إِحدَاهُمَا عَنِ الأُخرَىٰ.

وَلِهَذَا تَجِدُ فِي النُّصُوصِ الشَّرعِيَّةِ أَحيَانًا ذِكرَ إِحدَاهُمَا دُونَ الأُخرَىٰ، وَلَيسَ ذَلِكَ لِعَدَمِ اعتِبَارِ الثَّانِيَةِ، وَإِنَّمَا لِأَنَّ إِحدَاهُمَا تَدُلُّ عَلَىٰ الأُخرَىٰ.

فَإِذَا قِيلَ فِي النُّصُوصِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فَالمُرَادُ بِذَلِكَ مَعَ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ -ﷺ-.

وَإِذَا ذُكِرَت شَهَادَةُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ -ﷺ-، فَإِنَّ ذَلِكَ يَستَلزِمُ شَهَادَةَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

أَمَّا مَن أَتَىٰ بِإِحدَاهُمَا وَأَبَىٰ الإِتيَانَ بِالأُخرَىٰ، فَلَا تَنفَعُهُ الأُولَىٰ.

فَلَو قَالَ قَائِلٌ: «أَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» عَشَرَاتِ الآلَافِ مِنَ المَرَّاتِ، ثُمَّ قَالَ: لَا أَستَطِيعُ وَلَا يُمكِنُ أَن أَقُولَ: أَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ؛ نَقُولُ: وَاللهِ لَا تَنفَعُهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَو كَرَّرَهَا بِعَدَدِ الأَنفَاسِ.

إِذًا: هَذِهِ قَاعِدَةٌ مُحكَمَةٌ: الشَّهَادَتَانِ مُتَلَازِمَتَانِ، وَلَا تُغنِي إِحدَاهُمَا عَنِ الأُخرَىٰ.

مَعنَىٰ الشَّهَادَةِ:

إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ فِي دِينِ الإِسلَامِ قَالَ: أَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

وَإِذَا أَذَّنَ المُؤَذِّنُ قَالَ: أَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وَإِذَا صَلَّىٰ المُصَلِّي قَالَ فِي التَّشَهُّدِ: أَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

فَمَا مَعنَىٰ كَلِمَةِ (الشَّهَادَةِ)؟

وَمَا مَعنَىٰ قَولِ الإِنسَانِ: (أَشهَدُ)؟

الشَّهَادَةُ هِيَ: نُطقٌ عَن عِلمٍ وَيَقِينٍ.

فَإِذَا قَالَ القَائِلُ: أَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَعنَاهُ: أَنطِقُ بِمَا أَعلَمُ، وَأَتيَقَّنُ، وَأَجزِمُ، أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

أَركَانُ الشَّهَادَةِ الثَّلَاثَةُ:

لَابُدَّ لِلشَّهَادَةِ مِن ثَلَاثَةِ أُمُورٍ، هِيَ عِمَادُهَا وَأَسَاسُهَا، وَبِفَقدِ وَاحِدٍ مِنهَا – أَو أَكثَرَ – لَا تَكُونُ الشَّهَادَةُ شَهَادَةً، وَلَا تَنفَعُ صَاحِبَهَا.

أَوَّلًا: النُّطقُ

لَابُدَّ مِنَ النُّطقِ بِالشَّهَادَةِ عِندَ القُدرَةِ.

فَالشَّهَادَةُ قَولٌ، وَلَا تَكُونُ شَهَادَةً مَعَ الصَّمتِ.

أَرَأَيتَ شَاهِدًا يَشهَدُ عِندَ القَاضِي وَهُوَ صَامِتٌ؟

لَا يُقبَلُ ذَلِكَ.

فَكَذَلِكَ هُنَا: لَابُدَّ مِن قَولِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ عِندَ الإِمكَانِ.

أَمَّا مَن كَانَ عَاجِزًا عَنِ النُّطقِ عَجزًا حَقِيقِيًّا، فَيَسقُطُ عَنهُ هَذَا الشَّرطُ.

وَأَمَّا مَن كَانَ قَادِرًا عَلَىٰ الكَلَامِ، ثُمَّ أَبَىٰ التَّلَفُّظَ بِالشَّهَادَتَينِ، وَامتَنَعَ عَن قَولِ هَذِهِ الكَلِمَةِ، فَإِنَّهُ كَافِرٌ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، كَمَا هُوَ مَعلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِن دِينِ الإِسلَامِ.

لَا يَنفَعُهُ اعتِقَادٌ، وَلَا يَنفَعُهُ عَمَلٌ، مَا لَم يَأتِ بِالشَّهَادَةِ نُطقًا.

ثَانِيًا: العِلمُ

لَابُدَّ أَن يَكُونَ النُّطقُ بِالشَّهَادَةِ عَن عِلمٍ.

فَالشَّهَادَةُ لَا تَصِحُّ مَعَ الجَهلِ.

أَرَأَيت مَن يَشهَدُ عِندَ القَاضِي فِي أَمرٍ يَجهَلُهُ؟

هَل تُقبَلُ شَهَادَتُهُ؟

كَلَّا، بَل لَابُدَّ أَن يَشهَدَ بِمَا يَعلَمُ عِلمًا يَقِينِيًّا كَعِلمِهِ بِالشَّمسِ.

وَعَلَيهِ؛ لَابُدَّ مِنَ العِلمِ بِمَعنَىٰ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَمَعرِفَةِ مَدلُولِهَا، وَفَهمِ مُقتَضَاهَا.

أَمَّا مَن يُرَدِّدُ هَذِهِ الكَلِمَةَ كَثِيرًا، وَهُوَ جَاهِلٌ بِمَعنَاهَا، لَا يَدرِي مَاذَا تُثبِتُ، وَلَا مَاذَا تَنفِي، فَإِنَّهَا لَا تَنفَعُهُ، وَلَا تُعتَبَرُ فِي حَقِّهِ شَهَادَةً.

٤٩٥ - **قَالَ أَبُو بَكرٍ الخَلَّالُ: (٤٧٨)** وَأَخبَرَنَا الحَسَنُ بنُ عَبدِ الوَهَّابِ، قَالَ: ثَنَا أَبُو بَكرِ بنُ حَمَّادٍ المُقرِيُّ، أَنَّهُ سَأَلَ أَبَا عَبدِ اللهِ فِي هَذِهِ المَسأَلَةِ قَالَ: تُفَرِّقُ بَينَ العِلمِ وَبَينَ الشَّهَادَةِ ؟

قَالَ: لَا إِذَا قُلتُ أَعلَمُ فَأَنَا أَشهَدُ قَالَ اللهُ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزخرف:٨٦]

وَقَالَ: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [سورة يوسف:٨١].(١)

وَقَالَ: وَأَخبَرَنِي أَحمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ مَطَرٍ، وَأَبُو يَحيَىٰ، أَنَّ أَبَا طَالِبٍ حَدَّثَهُم فِي هَذِهِ المَسأَلَةِ، قَالَ: العِلمُ الشَّهَادَةُ ؟ فَقَالَ أَبُو عَبدِ اللهِ: نَعَم.(٢)

٤٩٦ - **وَقَالَ اللُّغَوِيُّ أَحمَدُ بنُ فَارِسٍ القَزوِينِيُّ الرَّازِيُّ:** "الشَّهَادَةُ إِخبَارٌ عَن

---

(١) السنة (٤٧٨).

(٢) السنة (٤٨٠).

علم".[(١)]

٤٩٧- **وَقَالَ أَبُو بَكرٍ مُحَمَّدُ بنُ القَاسِمِ الأَنبَارِيُّ:** "وَقولُهم أَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ: مَعنَاهُ أَعلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ".[(٢)]

٤٩٨- **وَقَالَ الإِمَامُ سُفيَانُ بنُ عُيَينَةَ:** "أَلَم تَسمَع إِلَى قَولِهِ حِينَ بَدَأَ بِهِ فَقَالَ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة محمد:١٩] ثُمَّ أَمَرَهُ بِالعَمَلِ فَقَالَ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [سورة محمد:١٩] وَهُوَ شَهَادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ".[(٣)]

---

(١) مجمل اللغة (٥١٤).

(٢) الزَّاهِرُ (١/ ٣٢).

(٣) الحِليَةُ (٧/ ٢٨٥).

وَقَالَ عَبدُ اللَّطِيفِ بنُ عَبدِ الرَّحمَنِ آلِ الشَّيخِ: وَمَا قَرَّرَهُ كَافَّةُ الرَّاسِخِينَ مِنَ العُلَمَاءِ، وَأَجمَعَ عَلَيهِ المُوَافِقُ وَالمُخَالِفُ مِنَ الجُمهُورِ وَالدَّهمَاءِ، وَنَصَّ عَلَيهِ الأَكَابِرُ وَالخَوَاصُّ، مِن اشتِرَاطِ العِلمِ وَالعَمَلِ فِي الإِتيَانِ بِكَلِمَةِ الإِخلَاصِ.

«مِصبَاحُ الظَّلَامِ» (١٥).

وقَالَ ابنُ قُتَيبَةَ: «أَصلُ التَّوحِيدِ لَا يَجُوزُ لِلنَّاسِ أَن يَجهَلُوهُ».

«الرَّدُّ عَلَى الجَهمِيَّةِ» (٦٢).

وَقَالَ عَبدُ اللَّطِيفِ بنُ عَبدِ الرَّحمَنِ: هَذَا الرَّجُلُ مِن أَبعَدِ الخَلقِ عَنِ الفِقهِ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَمَعرِفَةِ مُرَادِهِ؛ وَحَقَائِقِ أَحكَامِهِ، وَمِن أَجهَلِ خَلقِ اللهِ بِأَقوَالِ أَهلِ العِلمِ وَمَدَارِكِ الأَحكَامِ، وَكُلُّ مَن عَقَلَ عَنِ اللهِ يَعلَمُ عِلمًا ضَرُورِيًّا أَنَّ المَقصُودَ مِنَ الشَّهَادَتَينِ مَا دَلَّتَا عَلَيهِ مِنَ الحَقِيقَةِ وَالمَعنَى، وَمَا اشتَمَلَتَا عَلَيهِ مِنَ العِلمِ وَالعَمَلِ، وَأَمَّا مُجَرَّدُ اللَّفظِ مِن غَيرِ عِلمٍ بِمَعنَاهُمَا وَلَا اعتِقَادٍ لِحَقِيقَتِهِمَا فَهَذَا لَا يُفِيدُ العَبدَ شَيئًا، وَلَا يُخَلِّصُهُ مِن شُعَبِ الشِّركِ وَفُرُوعِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة الزخرف:٨٦]، فَالإِيمَانُ بِمَعنَاهُمَا وَالِانقِيَادُ لَهُ لَا يُتَصَوَّرُ وَلَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بَعدَ العِلمِ، وَالحُكمُ عَلَى الشَّيءِ فَرعٌ عَن

إِذًا: لَابُدَّ مِن عِلمٍ يُنَافِي الجَهلَ.

ثَالِثًا: اليَقِينُ

لَابُدَّ مِنَ اليَقِينِ الَّذِي يُنَافِي الشَّكَّ وَالرَّيبَ.

فَلَو شَهِدَ إِنسَانٌ بِشَهَادَةٍ وَهُوَ مُتَرَدِّدٌ فِيهَا، شَاكٌّ فِي مَضمُونِهَا،

هَل تُقبَلُ شَهَادَتُهُ؟

كَلَّا.

وَكَذَلِكَ شَهَادَةُ التَّوحِيدِ: لَابُدَّ أَن يَكُونَ قَائِلُهَا مُتَيَقِّنًا جَازِمًا فِي قَلبِهِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ -ﷺ-.

فَحِينَ يَقُولُ: أَشهَدُ، فَهُوَ يَقُولُ: أَعلَمُ وَأُوقِنُ وَأَجزِمُ.

إِذًا: فَلَا تُعتَبَرُ الشَّهَادَةُ شَهَادَةً حَقِيقَةً إِلَّا إِذَا اشتَمَلَت عَلَىٰ ثَلَاثِ مَرَاتِبَ:

- العِلمُ بِهَا، وَمَعرِفَتُهَا، وَاعتِقَادُ صِحَّةِ مَا شَهِدَ بِهِ.
- النُّطقُ بِهَا وَالتَّكَلُّمُ بِهَا.
- الِالتِزَامُ بِمُقتَضَاهَا وَالحُكمُ بِهَا وَالأَمرُ بِهَا.

وَلَا يَكفِي مُجَرَّدُ النُّطقِ بِقَولِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

تَصَوُّرِهِ؛ فَإِذَا لَم يَعلَم وَلَم يَتَصَوَّر فَهُوَ كَالهَاذِي وَكَالنَّائِمِ وَأَمثَالِهِمَا مِمَّن لَا يَعقِلُ مَا يَقُولُ.

«الدُّرَرُ السَّنِيَّةُ» (٢/ ٤٧).

وَيَقُولُ عَبدُ اللهِ أَبَا بُطَينٍ:

فَأَينَ هَذَا مِنَ الوَاقِعِ مِن أَهلِ الزَّمَانِ؟ جَعَلُوا التَّلَفُّظَ بِهَا عَادَةً وَهَذَيَانًا؛ وَالقَعقَعَةَ بِحُرُوفِهَا، فَهِيَ عِندَهُمُ الإِسلَامُ وَالإِيمَانُ، مَعَ مَا هَدَمُوهُ مِنَ التَّوحِيدِ الَّذِي هُوَ حَقٌّ لِلهِ.

«أَسبَابُ نَجَاةِ السُّؤُولِ» (١٦٦-١٦٧).

فَدُعَاءُ الأَموَاتِ وَالغَائِبِينَ، وَالذَّبحُ لِغَيرِ اللهِ، وَالنَّذرُ لِغَيرِ اللهِ، وَطَاعَةُ العُلَمَاءِ وَالأُمَرَاءِ فِي تَحرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ أَو تَحلِيلِ مَا حَرَّمَ اللهُ؛ **وَكَذَلِكَ:** الِاستِعَاذَةُ وَالِاستِعَانَةُ بِغَيرِ اللهِ، وَجَعلُ الوَسَائِطِ بَينَ العَبدِ وَبَينَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، يَدعُوهُم وَيَتَوَكَّلُ عَلَيهِم، وَغَيرُ ذَلِكَ مِن أَنوَاعِ الشِّركِ.

فَمَن قَالَ هَذِهِ الكَلِمَةَ، عَالِمًا بِمَعنَاهَا، عَامِلًا بِمُقتَضَاهَا، مِن نَفيِ الشِّركِ، وَإِثبَاتِ الوَحدَانِيَّةِ لِلَّهِ، مَعَ الِاعتِقَادِ الجَازِمِ بِمَا تَضَمَّنَتهُ، وَالعَمَلِ بِذَلِكَ؛ فَهُوَ المُؤمِنُ حَقًّا.

وَمَن قَالَهَا وَعَمِلَ بِظَاهِرِهَا مِن غَيرِ اعتِقَادٍ، فَهُوَ المُنَافِقُ.

وَمَن عَمِلَ بِخِلَافِهَا، فَوَقَعَ فِي الشِّركِ، فَهُوَ المُشرِكُ الكَافِرُ، وَلَو نَطَقَ بِهَا بِلِسَانِهِ.

وَمِن هُنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ مُجَرَّدَ النُّطقِ بِهَذِهِ الكَلِمَةِ العَظِيمَةِ لَا يَكفِي؛ بَل لَا بُدَّ مِنَ العِلمِ بِهَا، وَالعَمَلِ بِمُقتَضَاهَا.

وَقَدِ اتَّفَقَ العُلَمَاءُ عَلَىٰ أَنَّ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» لَا تَنفَعُ قَائِلَهَا مَا لَم يَجتَنِب نَوَاقِضَهَا.

فَقَد كَانَ المُنَافِقُونَ يَقُولُونَهَا، وَهُم فِي الدَّركِ الأَسفَلِ مِنَ النَّارِ؛ لِأَنَّهُم لَم يُؤمِنُوا بِهَا قَولًا وَعَمَلًا، وَلَم يَعمَلُوا بِشُرُوطِهَا نَفيًا وَإِثبَاتًا.

٤٩٩ - **قَالَ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ الوَهَّابِ:** «فَمَن قَالَ: إِنَّ التَّلَفُّظَ بِالشَّهَادَتَينِ لَا يَضُرُّ مَعَهُمَا شَيءٌ، أَو قَالَ: مَن أَتَىٰ بِالشَّهَادَتَينِ وَصَلَّىٰ وَصَامَ لَا يَجُوزُ تَكفِيرُهُ، وَإِن عَبَدَ غَيرَ اللهِ، فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَن شَكَّ فِي كُفرِهِ فَهُوَ كَافِرٌ لِأَنَّ قَائِلَ هَذَا القَولِ مُكَذِّبٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِجمَاعِ المُسلِمِينَ كَمَا قَدَّمنَا، وَنُصُوصُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، مَعَ الإِجمَاعِ القَطعِيِّ، الَّذِي لَا يَستَرِيبُ فِيهِ مَن لَهُ أَدنَىٰ نَظَرٍ فِي كَلَامِ العُلَمَاءِ، لَكِنَّ التَّقلِيدَ وَالهَوَىٰ

يُعمِي وَيُصِمُّ ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [سورة النور: ٤٠] »(١)

نَقَلَ سُليمَانُ بنُ سَحمَانَ فِي كِتَابِهِ الضِّيَاءِ الشَّارِقِ (ص٣٥٢-٣٥٣) الإِجماعَ عَلَىٰ أَنَّ مَن أَشرَكَ بِاللهِ فِي عِبَادَتِهِ غَيرَهُ كَانَ مُشرِكًا، وَإِن تَلَفَّظَ بِالشَّهادَتَينِ.

وَقَالَ: مَن كَانَت رِدَّتُهُ بِالشِّركِ بِاللهِ فَتوبَتُهُ الإِقلَاعُ عَن هَذَا الشِّركِ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ المُشرِكِينَ اليومَ يَشهَدُونَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَهُم مَعَ ذَلِكَ يَدعُونَ الحَسَنَ وَالحُسَينَ مَعَ اللهِ، وَكَذَلِكَ عُبَّادُ القُبُورِ يَشهَدُونَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَدعُونَ عَبدَ القَادِرِ، وَأَحمَدَ البَدَوِيَّ وَغيرَهُمَا، وَيَستَغِيثُونَ بِهِم فِي الشَّدَائِدِ وَالمُلِمَّاتِ، وَيَرغَبُونَ إِلَيهِم فِي جَمِيعِ الحَاجَاتِ، وَكَشفِ الكُرُبَاتِ، وَإِغَاثَةِ اللَّهَفَاتِ.

٥٠٠- **وَقَالَ الشَّيخُ مُحَمَّدُ بنُ إِبرَاهِيمَ فِي مَعنَىٰ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ:** أَن يَكُونَ عَالِمًا بِمَعنَاهَا عَامِلًا بِمُقتَضَاهَا؛ بَاطِنًا وَظَاهِرًا

فَـ الشَّهَادَةُ تَقتَضِي: العِلمَ بِالمَشهُودِ بِهِ؛ فَلَو كَانَ عَن جَهلٍ لَم تَكُن شَهَادَةً، وَتَقتَضِي اليَقِينَ؛ فَلَو كَانَت عَن شَكٍّ لَم تَكُن شَهَادَةً

وَتَقتَضِي الصِّدقَ؛ وَلِهَذَا الأَعمَالُ مِنَ العَامِلِينَ تَختَلِفُ اختِلَافًا عَظِيمًا بِحَسَبِ مَا فِي القَلبِ، فَمَن كَانَت أَعمَالُهُ أَنقَصَ فَذَلِكَ عَلَىٰ حَسَبِ نَقصِ تَصدِيقِهِ،

وَتَقتَضِي العَمَلَ: العَمَلُ بِذَلِكَ؛ فَالَّذِي لَا يَعمَلُ مَا شَهِدَ

يَعنِي: مَا يَتَصَوَّرُ فِي قَلبِهِ، فَتَخَلُّفُهُ عَنِ العَمَلِ شَاهِدٌ بِأَنَّهُ مَا شَهِدَ بِقَلبِهِ، فَلَو شَهِدَ حَقِيقَةً مَا تَخَلَّفَ أَبَدًا ضَرُورَةً

---

(١) الدرر السنية: (١٠/ ٢٥٠).

ثُمَّ قَالَ الشَّيخُ: فَالمُشرِكُونَ يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَلسِنتُهُم وَفِعَالُهُم تَقُولُ: فُلَانٌ الإِلَهُ، فَهُم عَمَدُوا إِلَىٰ رُوحِ الدِّينِ وَأَسَاسِهِ فَنَقَضُوهُ، وَقَالُوا: نَحنُ نُصَلِّي وَنَصُومُ، وَنَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَذَا وَكَذَا، وَخَالَفُوا أَصلَ الدِّينِ.

فَمَن أَقَرَّ بِهَا لَفظًا وَجَحَدَهَا مَعنًىٰ، بِأَن كَانَ مُخَالِفًا لَهَا -فَهُوَ مُرتَدٌّ-، وَهُوَ أَعظَمُ مِنَ الكَافِرِ الأَصلِيِّ، فَالقُبُورِيُّونَ فِي هَذِهِ الأَزمَانِ كُفَّارٌ مُرتَدُّونَ؛ لِكَونِهِم عَرَفُوا (يَعنِي لَفظًا)، وَجَحَدُوا مَدلُولَهَا، فَتَبَيَّنَ بِهَذَا: أَنَّهُ لَابُدَّ مِنَ العِلمِ بِهَا، وَالعَمَلِ، وَالصِّدقُ: فَبِالعِلمِ يَنجُو مِن طَرِيقَةِ النَّصَارَىٰ -وَهِيَ الضَّلَالُ- وَبِالعَمَلِ يَنجُو مِن طَرِيقَةِ اليَهُودِ، وَبِالصِّدقِ يَنجُو مِن طَرِيقَةِ المنافقين).[(١)]

وَهَكَذَا تَكُونُ الشَّهَادَةُ شَهَادَةً صَحِيحَةً نَافِعَةً، وَهَكَذَا يَدخُلُ العَبدُ فِي دِينِ الإِسلَامِ دُخُولًا صحيحًا.[(٢)]

---

(١) انظُر: شرح كتاب التوحيد للشيخ محمد بن إبراهيم (ج١) (٢٢١-٢٢٢ص)

(٢) وانظر: شروط لَا إله إِلَّا الله فِي كتاب إعانة الداعية المفيد فصل فِي شروط لَا إله إِلَّا الله.

قال المؤلف -رحمه الله-:

وَمَعناهَا: لَا مَعبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ.

«لَا إِلَهَ» نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ.

«إِلَّا اللهُ» مُثبِتًا العِبَادَةَ لِلَّهِ وَحدَهُ.

لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلكِهِ.

وَتَفسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [سورة الزخرف:٢٦-٢٧]،

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران:٦٤].

اعلَم أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ هِيَ الكَلِمَةُ الفَارِقَةُ بَينَ الكُفرِ وَالإِسلَامِ وَالشِّركِ وَالتَّوحِيدِ وَهِيَ كَلِمَةُ التَّقوَىٰ وَالعُروَةُ الوُثقَىٰ وَالدِّينُ الوَاصِبُ وَهِيَ المَعرُوفُ الأَكبَرُ وَهِيَ كَلِمَةُ الإِخلَاصِ وَالكَلِمَةُ السَّوَاءُ وَالكَلِمَةُ العُليَا وَالحَنِيفِيَّةُ وَهِيَ الحُسنَىٰ وَالعَدلُ وَالحَسَنَةُ وَهِيَ الكَلِمَةُ الصَّوَابُ وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ وَهِيَ الإِيمَانُ وَالنِّعمَةُ الكُبرَىٰ وَهِيَ الشَّهَادَةُ وَهِيَ الإِحسَانُ وَهِيَ كَلِمَةُ الحَقِّ وَالكَلِمَةُ الصَّوَابُ وَهِيَ العَهدُ وَالمِيثَاقُ وَهِيَ دَعوَةُ الحَقِّ وَالقَولُ الثَّابِتُ وَهِيَ المَثَلُ الأَعلَىٰ وَالكَلِمَةُ البَاقِيَةُ وَالدِّينُ الخَالِصُ وَهِيَ الصِّدقُ

وَالذِّكرُ وَهِيَ شَهَادَةُ الحَقِّ وَهِيَ الصِّرَاطُ المُستَقِيمُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء:٢٥]

٥٠١ - **وَقَالَ رَسُولُ اللهِ** -ﷺ-: «أَفضَلُ الذِّكرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

٥٠٢ - **وَقَالَ رَسُولُ اللهِ** -ﷺ-: «إِنَّ نَبِيَّ اللهِ نُوحًا -ﷺ- لَمَّا حَضَرَتهُ الوَفَاةُ قَالَ لِابنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيكَ الوَصِيَّةَ، آمُرُكَ بِاثنَتَينِ، وَأَنهَاكَ عَنِ اثنَتَينِ: آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبعَ وَالأَرَضِينَ السَّبعَ، لَو وُضِعنَ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَت لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ لَرَجَحَت بِهِنَّ، وَلَو أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبعَ وَالأَرَضِينَ السَّبعَ كُنَّ حَلقَةً مُبهَمَةً لَقَصَمَتهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَسُبحَانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ، فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيءٍ، وَبِهَا يُرزَقُ كُلُّ شَيءٍ، وَأَنهَاكَ عَنِ الشِّركِ وَالكِبرِ».

٥٠٣ - **قَالَ رَسُولُ اللهِ** -ﷺ-: «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِن أُمَّتِي عَلَىٰ رُؤُوسِ الخَلَائِقِ يَومَ القِيَامَةِ فَيَنشُرُ عَلَيهِ تِسعَةً وَتِسعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنكِرُ مِن هَذَا شَيئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ يَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَىٰ، إِنَّ لَكَ عِندَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلمَ عَلَيكَ اليَومَ، فَتَخرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: «أَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ»، فَيَقُولُ: احضُر وَزنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَقَالَ: فَإِنَّكَ لَا تُظلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، وَلَا يَثقُلُ مَعَ اسمِ اللهِ شَيءٌ».

٥٠٤ - **وَرُوِيَ عَن سُفيَانَ بنِ عُيَينَةَ، قَالَ:** «مَا أَنعَمَ اللهُ عَلَىٰ العِبَادِ نِعمَةً أَفضَلَ مِن أَن

عَرَّفَهُم أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: وَإِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لَهُم فِي الآخِرَةِ كَالمَاءِ فِي الدُّنيَا».

٥٠٥ - **وَقَالَ كَمَا فِي «الحِليَةِ»:** يُقَالُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي الآخِرَةِ بِمَنزِلَةِ المَاءِ فِي الدُّنيَا، لَا يَحيَىٰ شَيءٌ فِي الدُّنيَا إِلَّا عَلَىٰ المَاءِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: (وَجَعَلنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤمِنُونَ) فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ بِمَنزِلَةِ المَاءِ فِي الدُّنيَا، مَن لَم تَكُن مَعَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَهُوَ مَيِّتٌ، وَمَن كَانَت مَعَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَهُوَ حَيٌّ.

كَلِمَةُ التَّوحِيدِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ لِأَجلِهَا نُصِبَتِ المَوَازِينُ، وَوُضِعَتِ الدَّوَاوِينُ، وَقَامَ سُوقُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ.

وَبِهَا انقَسَمَتِ الخَلِيقَةُ إِلَىٰ: مُؤمِنِينَ وَكُفَّارٍ، وَأَبرَارٍ وَفُجَّارٍ، وَهِيَ الحَقُّ الَّذِي خُلِقَت لَهُ الخَلِيقَةُ؛ فَهِيَ مَنشَأُ الخَلقِ وَالأَمرِ، وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ، وَعَنهَا وَعَن حُقُوقِهَا يَكُونُ السُّؤَالُ وَالحِسَابُ.

وَعَلَيهَا نُصِبَتِ القِبلَةُ، وَعَلَيهَا أُسِّسَتِ المِلَّةُ، وَلِأَجلِهَا جُرِّدَت سُيُوفُ الجِهَادِ، وَهِيَ حَقُّ اللهِ عَلَىٰ جَمِيعِ العِبَادِ؛ فَهِيَ كَلِمَةُ الإِسلَامِ، وَمِفتَاحُ دَارِ السَّلَامِ، وَعَنهَا يُسأَلُ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ.

وَهِيَ أَسَاسُ الدِّينِ وَحِصنُهُ الحَصِينُ، وَطَرِيقُهُ القَوِيمُ، وَصِرَاطُهُ المُستَقِيمُ؛ فَهِيَ أَوَّلُ رُكنٍ مِن أَركَانِ الإِسلَامِ، وَأَعلَىٰ شُعبَةٍ مِن شُعَبِ الإِيمَانِ، وَهِيَ أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَىٰ المُكَلَّفِ، وَآخِرُ وَاجِبٍ عَلَيهِ، وَقَبُولُ الأَعمَالِ مُتَوَقِّفٌ عَلَىٰ النُّطقِ بِهَا، وَالعَمَلِ بِهَا، وَالعَمَلِ بِمُقتَضَاهَا.

فَبِهَا تُؤخَذُ الكُتُبُ بِاليَمِينِ أَو بِالشِّمَالِ، وَبِهَا يَثقُلُ المِيزَانُ أَو يَخِفُّ، وَعَلَيهَا يَكُونُ السُّؤَالُ وَالمُحَاسَبَةُ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

[سورة الحجر:٩٢-٩٣].

وَهِيَ الأَمَانُ مِن وَحشَةِ القُبُورِ وَهَولِ المَحشَرِ، وَسَبَبُ النَّجَاةِ مِنَ النَّارِ بَعدَ الوُرُودِ؛ لِمَن حَقَّقَهَا وَقَامَ بِمُقتَضَاهَا.

هِيَ كَلِمَةُ التَّوحِيدِ، وَالتَّوحِيدُ هُوَ السَّبَبُ الأَعظَمُ لِنَيلِ رِضَا اللهِ وَثَوَابِهِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة:١٦٣].

وَهِيَ مِفتَاحُ دَعوَةِ الرُّسُلِ كُلِّهِم؛ فَكُلُّهُم يَقُولُ لِقَومِهِ: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

وَهِيَ الَّتِي لِأَجلِهَا أُرسِلَتِ الرُّسُلُ، وَأُنزِلَتِ الكُتُبُ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء:٢٥].

وَلِأَجلِهَا جُرِّدَت سُيُوفُ الجِهَادِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [سورة الأنفال:٣٩].

٥٠٦- **جَاءَ فِي حَدِيثِ مُعَاذٍ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- لَمَّا بَعَثَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- إِلَىٰ اليَمَنِ أَنَّهُ قَالَ:** «فَلْيَكُن أَوَّلَ مَا تَدعُوهُم إِلَيهِ شَهَادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

٥٠٧- **وَجَاءَ فِي حَدِيثِ مُعَاذٍ أَيضًا:** «مَن كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ»، فَهِيَ أَعظَمُ نِعمَةٍ أَنعَمَ اللهُ بِهَا عَلَىٰ عِبَادِهِ؛ إِذ هَدَاهُم إِلَيهَا، وَقَد قَدَّمَهَا فِي سُورَةِ النِّعَمِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [سورة النحل:٢].

وَهِيَ العُروَةُ الوُثقَىٰ؛ كَمَا قَالَ سَعِيدُ بنُ جُبَيرٍ وَالضَّحَّاكُ: إِنَّهَا هِيَ العُروَةُ الوُثقَىٰ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا

ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [سورة البقرة:٢٥٦].

٥٠٨ – **وَهِيَ أَفضَلُ مَا ذُكِرَ اللهُ بِهِ؛ قَالَ** –ﷺ–: «أَفضَلُ مَا قُلتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِن قَبلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ».

٥٠٩ – **وَجَاءَ فِي «المُسنَدِ» عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو** –رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا– **عَنِ النَّبِيِّ** –ﷺ–: أَنَّ نُوحًا –عَلَيهِ السَّلَامُ– قَالَ لِابنِهِ عِندَ موتِهِ: «آمُرُكَ بِـ(لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبعَ وَالأَرَضِينَ السَّبعَ لَو وُضِعَت فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَت (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) فِي كِفَّةٍ، لَرَجَحَت بِهِنَّ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَلَو أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبعَ وَالأَرَضِينَ السَّبعَ كُنَّ حَلَقَةً مُبهَمَةً، لَقَصَمَتهُنَّ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)».

وَهِيَ تَهدِمُ الذُّنُوبَ وَتَمحُوهَا مَحوًا، وَتُبطِلُ الشِّركَ كُلَّهُ دِقَّهُ وَجُلَّهُ—لِمَن أَتَىٰ بِهَا صِدقًا وَيَقِينًا وَحَقَّقَ مَعنَاهَا.

فَهِيَ أَعظَمُ سَبَبٍ لِلتَّحَرُّرِ مِن رِقِّ المَخلُوقِينَ؛ فَلَا يَتَعَلَّقُ العَبدُ بِهِم، وَلَا يَخَافُهُم، وَلَا يَرجُوهُم، وَلَا يَعمَلُ لِأَجلِهِم؛ وَهَذَا هُوَ العِزُّ الحَقِيقِيُّ وَالشَّرَفُ العَالِي.

وَهِيَ سَبَبٌ لِلفَتحِ وَالنَّصرِ فِي الدُّنيَا، وَلِحُصُولِ الهِدَايَةِ، وَالتَّيسِيرِ لِليُسرَىٰ، وَإِصلَاحِ الأَحوَالِ، وَالتَّسدِيدِ فِي الأَقوَالِ وَالأَفعَالِ، وَهِيَ مِن أَعظَمِ أَسبَابِ حُسنِ الخُلُقِ، وَلِينِ الجَانِبِ، وَكَرَمِ النَّفسِ.

وَهِيَ سَبَبٌ لِلشَّجَاعَةِ وَالإِقدَامِ فِي الحَقِّ؛ فَكُلَّمَا ازدَادَ العَبدُ عِلمًا بِهَا وَعَمَلًا بِمُقتَضَاهَا ازدَادَ ثَبَاتًا وَشَجَاعَةً، وَأَقدَمَ عَلَىٰ الحَقِّ غَيرَ هَيَّابٍ؛ كَمَا هُوَ شَأنُ الأَنبِيَاءِ وَأَتبَاعِهِم مِنَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

وَسَيُسأَلُ العِبَادُ كُلُّهُم عَن هَذِهِ الكَلِمَةِ العَظِيمَةِ وَمَعنَاهَا وَمَا دَلَّت عَلَيهِ:

٥١٠ - رُوِيَ عَنِ ابنِ عُمَرَ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الحجر:٩٢]، قَالَ: عَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الخيرَ وَالفَضلَ لِأَهلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لَا يَتَحقَّقُ إِلَّا بَعدَ العِلمِ بِمَعنَاهَا، وَعَلَيهِ فَمَن لَم يَعلَم مَعنَاهَا وَيَتَصَوَّرهُ فَهُوَ كَالهَاذِي أَوِ النَّائِمِ الَّذِي لَا يَعقِلُ مَا يَقُولُ.

فَيَجِبُ عَلَينَا أَن نَتَعَلَّمَ مَعنَاهَا وَنَعلَمَ مَعنَاهَا وَنُعَلِّمَ ذَلِكَ أَولَادَنَا حَتَّىٰ يَكُونُوا عَلَىٰ بَصِيرَةٍ وَبَيِّنَةٍ بِمَعنَىٰ هَذِهِ الكَلِمَةِ العَظِيمَةِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزخرف:٨٦]

٥١١ - قَالَ الطَّبَرِيُّ: «الَّذِينَ شَهِدُوا بِالحَقِّ، فَأَقَرُّوا بِهِ، وَهُم يَعلَمُونَ حَقِيقَةَ مَا شَهِدُوا بِهِ».

فَمِن آكَدِ مَا يَجِبُ عَلَىٰ المُسلِمِ هُوَ العِنَايَةُ بِمَدلُولِ هَذِهِ الكَلِمَةِ العَظِيمَةِ الَّتِي شَهِدَ بِهَا وَفَهمِهَا وَمَعرِفَةِ مَدلُولِهَا مَعرِفَةً صَحِيحَةً فَأَيُّ عِلمٍ يَنفَعُهُ بَعدُ إِذ جَهِلَ مَعنَىٰ مَا بِهِ نَجَاتُهُ وَفَلَاحُهُ.

وَتَتَأَكَّدُ الأَهَمِّيَّةُ هَذِهِ حِينَمَا يَفحُشُ الِانحِرَافُ فِي فَهمِهَا وَيَكثُرُ الجُنُوحُ عَنِ الجَادَّةِ فِي شَرحِهَا وَبَيَانِهَا فَكَم هِيَ تِلكَ التَّفسِيرَاتُ الخَاطِئَةُ الَّتِي حُشِيَت بِهَا المُؤَلَّفَاتُ وَصَاحُوا بِهَا فِي المُحَاضَرَاتِ وَنَطَقَ بِهَا كَثِيرٌ مِن أَهلِ البِدَعِ وَكَم تَرَتَّبَ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنِ انحِرَافَاتٍ عَظِيمَةٍ عَصَفَت بِدِينِ أَقوَامٍ.

وَاعلَمُوا رَحِمَكُمُ اللهُ أَنَّ المُصِيبَةَ الكُبرَىٰ الَّتِي حَلَّت بِالنَّاسِ اليَومَ وَأَشَدَّهَا وَقعًا فِي أَحوَالِهِم وَأَخلَاقِهِم وَأَعمَالِهِم وَمُعَامَلَاتِهِم هُوَ الجَهلُ بِمَعنَىٰ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) وَالجَهلُ وَالخِلَافُ فِي مَعنَىٰ هَذِهِ الكَلِمَةِ الَّتِي أُسِّسَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرضُ عَلَيهَا

خِلَافٌ مَركَزِيٌّ أَسَاسِيٌّ لَا يَنبَغِي إِهمَالُهُ وَتَحجِيمُهُ أَو تَقدِيمُ شَيءٍ عَلَيهِ فَإِنَّ ذَهَابَهُ يَعنِي ذَهَابَ الدِّينِ والإسلام.»(١)

المَسأَلَةُ الأُولَىٰ: (أَركَانُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ).

اعلَمُوا رَحِمَكُمُ اللهُ أَنَّ لِهَذِهِ الكَلِمَةِ رُكنَانِ: وَهُمَا النَّفيُ وَالإِثبَاتُ، فَالنَّفيُ: وَهُوَ الرُّكنُ الأَوَّلُ هُوَ (لَا إِلَهَ): وَهُوَ نَفيُ الإِلَهِيَّةِ عَمَّا سِوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ مِنَ المَخلُوقَاتِ وَالكُفرُ بِالطَّوَاغِيتِ الَّتِي تُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ تَعَالَىٰ وَبِكُلِّ دِينٍ غَيرِ مِلَّةِ الإِسلَامِ الحَنِيفِ وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّركِ وَأَهلِهِ.

٥١٢ - **رُوِيَ عَن يُوسُفَ بنِ عَبدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ، عَن أَبِيهِ قَالَ:** بَينَمَا نَحنُ نَسِيرُ مَعَ

---

(١) **نَقَلَ الوَنشَرِيسِيُّ أَبُو العَبَّاسِ أَحمَدُ بنُ يَحيَىٰ بنُ مُحَمَّدٍ المَالِكِيُّ (المُتَوَفَّىٰ ٩١٤هـ) عَن أَحمَدَ بنِ عِيسَىٰ البِجَائِيِّ (ت ٧٦٢هـ):**

«مَن نَشَأَ بَينَ أَظهُرِ المُسلِمِينَ وَهُوَ يَنطِقُ بِكَلِمَةِ التَّوحِيدِ، مَعَ شَهَادَةِ الرَّسُولِ -ﷺ-، وَيَصُومُ وَيُصَلِّي، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعرِفُ المَعنَىٰ الَّذِي انطَوَت عَلَيهِ الكَلِمَةُ الكَرِيمَةُ.. لَا يُضرَبُ لَهُ فِي التَّوحِيدِ بِسَهمٍ، وَلَا يَفُوزُ مِنهُ بِنَصِيبٍ، وَلَا يُنسَبُ إِلَىٰ إِيمَانٍ وَلَا إِسلَامٍ، بَل هُوَ مِن جُملَةِ الهَالِكِينَ وَزُمرَةِ الكَافِرِينَ، وَحُكمُهُ حُكمُ المَجُوسِ فِي جَمِيعِ أَحكَامِهِ، إِلَّا فِي القَتلِ، فَإِنَّهُ لَا يُقتَلُ إِلَّا إِذَا امتَنَعَ مِنَ التَّعلِيمِ».

«كِتَابُ المِعيَارِ المُعرِبِ وَالجَامِعِ المُغرِبِ عَن فَتَاوَىٰ أَهلِ إِفرِيقِيَّةَ وَالأَندَلُسِ وَالمَغرِبِ» (٢/ ٣٨٣)

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ أَحمَدُ بنُ الحَسَنِ بنِ عَرضُونِ المَالِكِيُّ (المُتَوَفَّىٰ ٩٢٢هـ) فِي تَحرِيمِ نِكَاحِ الكَافِرَاتِ:

«وَيَدخُلُ فِي ذَلِكَ مَن نَشَأَت بَينَ أَظهُرِ المُسلِمِينَ، وَهِيَ تَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-، وَتُصَلِّي وَتَصُومُ وَتَفعَلُ جُملَةً مِن شَعَائِرِ الدِّينِ، غَيرَ أَنَّهَا لَا تَعرِفُ مَا انطَوَت عَلَيهِ كَلِمَتَا الشَّهَادَةِ، وَلَا تَدرِي مَا اللهُ وَلَا رَسُولُهُ، وَرُبَّمَا تَتَوَهَّمُ أَنَّ الرَّسُولَ نَظِيرُ الإِلَهِ، وَتَقُولُ: سَمِعتُ النَّاسَ يَقُولُونَ هَذِهِ الكَلِمَةَ فَقُلتُهَا وَلَا أَدرِي مَعنَاهَا بِوَجهٍ وَلَا بِحَالٍ. إِذ لَا خِلَافَ أَنَّ هَذِهِ مِن جُملَةِ الكَفَرَةِ اللِّئَامِ».

«مُقنِعُ المُحتَاجِ فِي آدَابِ الأَزوَاجِ» (١/ ٢٢٠).

رَسُولِ اللهِ -ﷺ- إِذ سَمِعَ القَومُ وَهُم يَقُولُونَ: أَيُّ الأَعمَالِ أَفضَلُ يَا رَسُولَ اللهِ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَحَجٌّ مَبرُورٌ ثُمَّ سَمِعَ نِدَاءً فِي الوَادِي يَقُولُ: أَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «وَأَنَا أَشهَدُ، وَأَشهَدُ أَن لَا يَشهَدُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا بَرِئَ مِنَ الشِّركِ».

وَالإِثبَاتُ: وَهُوَ الرُّكنُ الثَّانِي مِن أَركَانِهَا (إِلَّا اللهُ): هُوَ إِثبَاتُ الإِلَهِيَّةِ لِلَّهِ وَحدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ فَهُوَ المُستَحِقُّ لِلعِبَادَةِ وَحدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ.

فَرُوحُ هَذِهِ الكَلِمَةِ وَسِرُّهَا: إِفرَادُ الرَّبِّ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَتَقَدَّسَت أَسمَاؤُهُ، وَتَبَارَكَ اسمُهُ، وَتَعَالَىٰ جَدُّهُ، وَلَا إِلَهَ غَيرُهُ - بِالمَحَبَّةِ وَالإِجلَالِ وَالتَّعظِيمِ وَالخَوفِ وَالرَّجَاءِ وَتَوَابِعِ ذَلِكَ: مِنَ التَّوَكُّلِ وَالإِنَابَةِ وَالرَّغبَةِ وَالرَّهبَةِ، فَلَا يُحِبُّ سِوَاهُ، وَكُلُّ مَا كَانَ يُحِبُّ غَيرَهُ فَإِنَّمَا يُحِبُّ تَبَعًا لِمَحَبَّتِهِ، وَكَونِهِ وَسِيلَةً إِلَىٰ زِيَادَةِ مَحَبَّتِهِ، وَلَا يَخَافُ سِوَاهُ، وَلَا يُرجَىٰ سِوَاهُ، وَلَا يُتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيهِ، وَلَا يُرغَبُ إِلَّا إِلَيهِ، وَلَا يُرهَبُ إِلَّا مِنهُ، وَلَا يُحلَفُ إِلَّا بِاسمِهِ، وَلَا يُنظَرُ إِلَّا لَهُ، وَلَا يُتَابُ إِلَّا إِلَيهِ، وَلَا يُطَاعُ إِلَّا أَمرُهُ، وَلَا يُتَحَسَّبُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يُستَغَاثُ فِي الشَّدَائِدِ إِلَّا بِهِ، وَلَا يُلتَجَأُ إِلَّا إِلَيهِ، وَلَا يُسجَدُ إِلَّا لَهُ، وَلَا يُذبَحُ إِلَّا لَهُ وَبِاسمِهِ، وَيَجتَمِعُ ذَلِكَ فِي حَرفٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ: أَن لَا يُعبَدَ إِلَّا إِيَّاهُ بِجَمِيعِ أَنوَاعِ العِبَادَةِ، فَهَذَا هُوَ تَحقِيقُ شَهَادَةِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وَكُن عَلَىٰ يَقِينٍ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ إِسلَامُ أَحَدٍ إِلَّا بِتَحقِيقِ هَذَينِ الرُّكنَينِ وَلَابُدَّ مِن تَحقِيقِ الأَمرَينِ النَّفيِ وَالإِثبَاتِ فَإِنَّ التَّوحِيدَ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِهِمَا.

فَيَجِبُ عَلَيكَ أَن تَعتَقِدَ أَنَّ العِبَادَةَ حَقٌّ لِلَّهِ، وَأَن تُؤَدِّيَهَا لَهُ وَحدَهُ، وَأَن تَعتَقِدَ أَنَّ صَرفَهَا لِغَيرِهِ شِركٌ وَضَلَالٌ، هَذَا هُوَ الإِفرَادُ وَهُوَ الجَمعُ بَينَ النَّفيِ وَالإِثبَاتِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة:٢٥٦]

وَ(مَن) أَدَاةُ شرطٍ وَجوَابُ الشَّرطِ: (فَقَدِ استمسَكَ بِالعُروَةِ الوُثقَىٰ)، فَالمَعنَىٰ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ إِسلَامُ أَحدٍ إِلَّا بِتَحقِيقِ الكُفرِ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانِ بِاللهِ، فَإِذَا اختَلَّ الشَّرطُ انتَقَضَتِ العِبَادَةُ كَالطَّهَارَةِ وَاستِقبَالِ القِبلَةِ وَغَيرِهِمَا مِن شُرُوطِ صِحَّةِ الصَّلَاةِ فَإِن نَقَصَ أَحَدُهَا أَوِ اختَلَّ بَطَلَتِ الصَّلَاةُ.

٥١٣- **وَرَوَىٰ مُسلِمٌ فِي صَحِيحِهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ-، يَقُولُ:** «مَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ، وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ».

فَلَا يَكُونُ التَّلَفُّظُ بِهَا عَاصِمًا لِلدَّمِ وَالمَالِ إِلَّا بِتَحقِيقِ الكُفرِ بِمَا يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ.

فَمَن قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلَم يَكفُر بِالأَديَانِ الأُخرَىٰ وَيُكَفِّر عَابِدِيهَا لَا يَصِحُّ إِسلَامُهُ وَلَا تَنفَعُهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وَمَعنَىٰ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ: لَا مَعبُودَ حَقَّ إِلَّا اللهُ، فَاللهُ هُوَ المَعبُودُ بِحَقٍّ وَكُلُّ مَا سِوَاهُ بَاطِلٌ وَهَذَا يَقتَضِي بُطلَانَ آلِهَةِ المُشرِكِينَ الَّتِي يَعبُدُونَهَا مِن دُونِ اللهِ وَالبَرَاءَةَ وَتَكفِيرَ مَن عَبَدَهَا.

وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ- لِأَهلِ مَكَّةَ: قُولُوا " لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ " فَقَامُوا فَقَالُوا: أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟»[١].

---

(١) «مُسنَدُ أَحمَدَ» (٣/ ٤٥٨ ط الرِّسَالَةِ).

جاء في «مِنهَاجُ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ» (٣/ ٤٩٠): «حَقِيقَةُ التَّوحِيدِ أَن نَعبُدَ اللهَ وَحدَهُ، فَلَا يُدعَىٰ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُخشَىٰ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُتَّقَىٰ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيهِ، وَلَا يَكُونُ الدِّينُ إِلَّا لَهُ، لَا لِأَحَدٍ مِنَ الخَلقِ».

(لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ) لَيسَت مُجَرَّدَ جُملَةٍ خَبَرِيَّةٍ، بَل هِيَ عَقدُ تَوحِيدٍ يَقُومُ عَلَىٰ رُكنَينِ:

النَّفيُ: نَفيُ استِحقَاقِ العِبَادَةِ عَن كُلِّ مَا سِوَىٰ اللهِ.

الإِثبَاتُ: إِثبَاتُ العِبَادَةِ لِلَّهِ وَحدَهُ.

فَالمَعنَىٰ المُحَرَّرُ: لَا مَعبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ؛ لِأَنَّ المَعبُودَاتِ قَد تَكُونُ كَثِيرَةً وُجُودًا، لَكِنَّ الحَقَّ فِي العِبَادَةِ وَاحِدٌ.

قلتُ: وَفِي صياغَةِ النَّفيِ مِن كلِمَةِ التَّوحيدِ نُكتَةٌ لغويَّةٌ بِها يتِمُّ استِغراقُ النَّفيِ؛ فإنَّ «لَا» فِي «لَا إلَهَ» هِيَ النَّافيَةُ لِلجنسِ، و«إلَهَ» اسمُها مبنيٌّ عَلَىٰ الفتحِ، وَهُوَ نكِرَةٌ فِي سِياقِ النَّفيِ، والنَّكِرَةُ فِي سِياقِ النَّفيِ تعُمُّ بِاتِّفاقِ أهلِ اللُّغَةِ والأُصولِ؛ فأفادَ التَّركيبُ نفيَ استِحقاقِ العِبادَةِ عَن كلِّ مَا سِوىٰ اللهِ، لَا عَن إلَهٍ واحِدٍ أَو بعضِ الآلِهَةِ، فَلَا يَبقَىٰ معبودٌ بِحَقٍّ البتَّةَ إِلَّا اللهُ.

وَلَو رُفِعَ الاسمُ فقيلَ: «لَا إلَهٌ» لَاحتَمَلَ نفيَ الواحِدِ دونَ الجِنسِ، فجاءَ بناؤُهُ عَلَىٰ الفتحِ مَعَ «لَا» النَّافيَةِ لِلجِنسِ لِيُفيدَ الاستِغراقَ القاطِعَ؛ وَهَذَا مِن بديعِ التَّعبيرِ، إِذ حصَلَ بِأوجَزِ لفظٍ نفيُ جميعِ المعبوداتِ الباطِلَةِ، ثمَّ أُفرِدَ الحقُّ بِالإثباتِ فِي «إِلَّا اللهُ».

وَالإِلَهُ فِي لُغَةِ العَرَبِ هُوَ المَعبُودُ (فَعِيلٌ/ فَعَّالٌ بِمَعنَىٰ مَألُوهٍ)، وَأَصلُ الِاشتِقَاقِ يَدُلُّ عَلَىٰ العِبَادَةِ مَعَ مَعَانِي الذُّلِّ وَالخُضُوعِ وَالمَحَبَّةِ وَالخَوفِ وَالرَّجَاءِ؛ فَكُلُّ مَن تَعَلَّقَ بِهِ القَلبُ بِهَذِهِ المَعَانِي فَقَدِ اتُّخِذَ إِلَهًا.

وَلِهَذَا فتفسير "الإله" بِـ"الرب" أَوِ "القادر عَلَىٰ الاختراع" لَيسَ تَفسِيرًا مُطَابِقًا لِلِسَانِ العَرَبِ وَلَا لِمَدلُولِ النُّصُوصِ.

القُرآنُ نَفسُهُ فَسَّرَ مَضمُونَ الكَلِمَةِ بِتَوحِيدِ العِبَادَةِ؛ كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ

﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [سورة هود:٢]، وَقولِهِ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾؛ فَجعَلَ "الإله"مقابِلًا لِلعِبَادَةِ، مِمَّا يُثبِتُ أَنَّ المُرَادَ: لَا تُعبَدُ إِلَّا اللهُ.

يُنبِّهُ النَّصُّ إِلَىٰ أَنَّ خَبرَ (لَا) فِي (لَا إِلَهَ) مَحذُوفٌ؛ لِأَنَّ العَرَبَ تَحذِفُ الخَبَرَ إِذَا كَانَ المُرَادُ وَاضِحًا.

وَلَا يَصِحُّ تَقدِيرُهُ بِـ"موجود"؛ لِأَنَّ المُشرِكِينَ لَم يُنَازِعُوا فِي وُجُودِ آلِهَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِي زَعمِهِم، وَإِنَّمَا نَازَعُوا فِي إِفرَادِ اللهِ بِالعِبَادَةِ.

لِذَلِكَ كَانَ التَّقدِيرُ المُنَاسِبُ: لَا إِلَهَ حَقٌّ أَو لَا إِلَهَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ، أَي: لَا مَعبُودَ يَستَحِقُّ العِبَادَةَ حَقِيقَةً إِلَّا اللهُ.

وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [سورة لقمان:٣٠]؛ فَعِبَادَةُ اللهِ حَقٌّ، وَعِبَادَةُ غَيرِهِ بَاطِلٌ.

فَالرُّكنُ الأَوَّلُ: النَّفيُ

وَهُوَ قَولُهُ: لَا إِلَهَ.

وَيَعنِي:

نَفيَ الأُلُوهِيَّةِ وَالعِبَادَةِ عَن كُلِّ مَا سِوَىٰ اللهِ.

وَهَذَا هُوَ الكُفرُ بِالطَّاغُوتِ.

وَلَيسَ النَّفيُ مُتَعَلِّقًا بِالوُجُودِ، بَل بِالِاستِحقَاقِ.

فَاللهُ لَا يَنفِي وُجُودَ الآلِهَةِ الَّتِي تُعبَدُ، بَل يَنفِي استِحقَاقَهَا لِلعِبَادَةِ.

وَلِهَذَا سَمَّىٰ اللهُ:

الأَصنَامَ آلِهَةً

وَالهَوَىٰ إِلَهًا

وَعِيسَىٰ وَأُمَّهُ إِلَهَينِ

لِكَونِهِم مَعبُودِينَ، وَلَكِن بِغَيرِ حَقٍّ.

وَجَاءَت كَلِمَةُ التَّوحِيدِ لِنَفيِ عِبَادَةِ جَمِيعِ هَذِهِ المَعبُودَاتِ.

وَلَا يَدخُلُ العَبدُ فِي الإِسلَامِ إِلَّا بِهَذَا الرُّكنِ.

الرُّكنُ الثَّانِي: الإِثبَاتُ

وَهُوَ قَولُهُ:

إِلَّا اللهُ

وَمَعنَاهُ:

إِثبَاتُ العِبَادَةِ لِلَّهِ وَحدَهُ.

فَيَجِبُ:

عِبَادَتُهُ وَحدَهُ

الِانقِيَادُ لِأَمرِهِ

مَحَبَّتُهُ وَوِلَايَتُهُ

وَتَركُ الِاستِكبَارِ عَن عِبَادَتِهِ

صِيَغُ التَّوحِيدِ فِي النُّصُوصِ

وَرَدَ مَعنَى النّفيِ وَالإِثبَاتِ فِي النُّصُوصِ بِعِدّةِ صِيَغٍ، مِنهَا:

- لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ
- اعبُدُوا اللهَ وَلَا تُشرِكُوا بِهِ شَيئًا

- الإِخلَاصُ لِلَّهِ وَترَكُ الشِّركِ
- الإِيمَانُ بِاللهِ وَالكُفرُ بِالطَّاغُوتِ
- مَن قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ
- تَوحِيدُ اللهِ
- عِبَادَةُ اللهِ
- الإِيمَانُ بِاللهِ
- الإِخلَاصُ لِلَّهِ
- شَهَادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ
- الإِيمَانُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ
- الوَلَاءُ وَالبَرَاءُ

وَيَنقُضُهَا أَمرَانِ:

- **تَركُ عِبَادَةِ اللهِ**

أَو نَفيُ استِحقَاقِهَا عَنهُ.

وَهَذَا كُفرٌ.

- **صَرفُ شَيءٍ مِنَ العِبَادَةِ لِغَيرِ اللهِ**

وَهَذَا شِركٌ.

فَكُلُّ قَولٍ أَو فِعلٍ أَوِ اعتِقَادٍ يَتَضَمَّنُ أَحَدَ هَذَينِ الأَمرَينِ يُوقِعُ صَاحِبَهُ فِي الرِّدَّةِ.

وَقَدِ انحَرَفَ فِي تَفسِيرِ مَعنَىٰ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ جَمَاعَاتٌ وَفِرَقٌ وَقَد تَرَتَّبَ عَلَىٰ هَذَا الخَطَأِ فِي الفَهمِ انحِرَافَاتٌ عَظِيمَةٌ فِي الِاعتِقَادِ، بَلِ الوُقُوعُ فِيمَا يُنَاقِضُ مَعنَاهَا، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَن يُرَدِّدُهَا بِلِسَانِهِ، لَكِنَّهُ يَقَعُ فِيمَا مَنَعَتهُ مِنَ الشِّركِ بِأَعمَالِهِ، وَيُنكِرُ مَا دَلَّت عَلَيهِ

مِنَ الإِخلَاصِ بِقَلبِهِ، فَأَثبَتَ مَا نَفتهُ، وَاعتَقَدَ خِلَافَ مَا قَامَت عَلَيهِ.

وَإِذَا أَردتَ مِصدَاقَ ذَلِكَ، فَدُونَكَ تِلكَ المَقَامَاتِ الشَّاهِقَةَ، وَالقُبُورَ المُزَخرَفَةَ، وَانظُر إِلَىٰ العَاكِفِينَ عَلَيهَا وَالسَّاجِدِينَ لَهَا وَالطَّائِفِينَ وَالمُتَمَسِّحِينَ بِهَا، وَاستَمِع إِلَىٰ تِلكَ الهُتَافَاتِ وَالِاستِغَاثَاتِ وَالدَّعَوَاتِ لِأَصحَابِهَا وَمِن أَعظَمِ أَسبَابِ هَذِهِ المُنكَرَاتِ العَظِيمَةِ الخَطَأُ فِي فَهمِهَا وَتَفسِيرِ مَعنَاهَا وَلَو أَنَّهُم فَهِمُوهَا حَقًّا وَاعتَقَدُوا مَدلُولَهَا صِدقًا لَم تَقَع فِي كَثِيرٍ مِن تِلكَ الأَعمَالِ الضَّالَّةِ.

إِذًا: مَتَىٰ تَنفَعُ الكَلِمَةُ صَاحِبَهَا: لَا تَنفَعُ هَذِهِ الكَلِمَةُ العَظِيمَةُ صَاحِبَهَا إِلَّا إِذَا قَالَهَا بِلِسَانِهِ وَالتَزَمَ بِمَا دَلَّت عَلَيهِ مِن عِبَادَةِ اللهِ وَحدَهُ وَطَاعَتِهِ وَالإِذعَانِ لِأَمرِهِ وَالِانقِيَادِ لِشَرعِهِ وَالتَّسلِيمِ لِرَسُولِهِ وَالكُفرِ بِعِبَادَةِ كُلِّ مَا سِوَاهُ وَتَركِ كُلِّ العِبَادَاتِ المُبتَدَعَةِ وَعَدَمِ صَرفِ شَيءٍ مِنَ العِبَادَاتِ لِغَيرِ اللهِ وَالبَرَاءَةِ مِنَ المُشرِكِينَ وَالكُفَّارِ وَمَعبُودَاتِهِم وَكُفرِهِم.

الأَوَّلُ: العَمَلُ بِأَركَانِهَا: الإِيمَانُ بِاللهِ وَالكُفرُ الطَّاغُوتِ وَتَركُ الشِّركِ قَصدًا.

الثَّانِي: الإِتيَانُ بِشُرُوطِهَا السَّبعَةِ.

الثَّالِثُ: عَدَمُ الإِخلَالِ بِهَا وَلَا الإِتيَانُ بِنَاقِضٍ مِن نَوَاقِضِهَا.

فَـ"لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ" تَعنِي:

نَفيُ جَمِيعِ المَعبُودَاتِ البَاطِلَةِ.

إِثبَاتُ العِبَادَةِ لِلَّهِ وَحدَهُ.

وَهِيَ أَسَاسُ الإِسلَامِ، وَلَا يَصِحُّ تَوحِيدُ العَبدِ إِلَّا بِهَا، قَولًا وَاعتِقَادًا وَعَمَلًا.

قال المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ -:

وَتفسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [سورة الزخرف:٢٦-٢٧]، وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران:٦٤].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [سورة الزخرف:٢٦-٢٧]

فَكَلِمَةُ إِبرَاهِيمَ اشتَمَلَت عَلَىٰ: النَّفيِ وَالبَرَاءَةِ وَالبُغضِ: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [سورة الزخرف:٢٦]، أَي: تَبَرُّؤٌ مِن كُلِّ مَعبُودٍ سِوَىٰ اللهِ، وَنَفيٌ لِاستِحقَاقِهِ العِبَادَةَ، وَالبَرَاءَةُ هُنَا تَتَضَمَّنُ البُغضَ وَالعَدَاوَةَ العَقدِيَّةَ.

الإِثبَاتُ وَالوَلَاءُ وَالمَحَبَّةُ: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [سورة الزخرف:٢٧]، إِثبَاتُ العِبَادَةِ لِلَّهِ وَحدَهُ، مَعَ مَا يَتَضَمَّنُهُ ذَلِكَ مِنَ المَحَبَّةِ وَالرَّجَاءِ وَالتَّعَلُّقِ بِهِ.

وَفِي قَولِهِ: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [سورة الزخرف:٢٧] مَا يُبَيِّنُ بُطلَانَ دَعوَةِ غَيرِ اللهِ؛ فَإِنَّ غَيرَ اللهِ لَا فَطَرُوا وَلَا رَزَقُوا، وَلَا جَلَبُوا نَفعًا وَلَا حَصَلَ مِنهُم دَفعُ ضُرٍّ، فَالمُستَحِقُّ هُوَ المُتَفَرِّدُ بِالخَلقِ وَالإِيجَادِ، الَّذِي فَطَرَ الخَلَائِقَ، وَهُوَ اللهُ وَحدَهُ، فَهَذَا يَدخُلُ فِي الِاستِدلَالِ بِالرُّبُوبِيَّةِ عَلَىٰ الأُلُوهِيَّةِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ رَدَّ عَلَىٰ المُشرِكِينَ بِمَا أَقَرُّوا بِهِ عَلَىٰ مَا جَحَدُوهُ فِي

آياتٍ عَدِيدَةٍ، وَذَلِكَ أَنَّ تَوحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ هُوَ الدَّلِيلُ عَلَىٰ تَوحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ هُوَ المُتَفَرِّدَ بِالخَلقِ وَالإِيجَادِ وَالتَّدبِيرِ، وَالخَلقُ كُلُّهُم لَيسَ لَدَيهِم مِن ذَلِكَ شَيءٌ؛ تَبَيَّنَ أَنَّهُ المُستَحِقُّ لِلعِبَادَةِ دُونَ الخَلقِ.(١)

فَكَانَت هَذِهِ الكَلِمَةُ جَامِعَةً لِمَعنَىٰ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ إِذ جَمَعَت بَينَ: نَفيِ العِبَادَةِ عَمَّا سِوَىٰ اللهِ، وَإِثبَاتِ العِبَادَةِ لِلَّهِ وَحدَهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾ [سورة الزخرف:٢٨]، أَي: جَعَلَ اللهُ هَذِهِ الكَلِمَةَ – كَلِمَةَ التَّوحِيدِ – بَاقِيَةً فِي ذُرِّيَّةِ إِبرَاهِيمَ، يَتَوَارَثُهَا الأَنبِيَاءُ مِن بَعدِهِ، وَجَاءُوا جَمِيعًا لِتَقرِيرِهَا وَالدَّعوَةِ إِلَيهَا.

ثَانِيًا: تَفسِيرُهَا بِآيَةِ الكَلِمَةِ السَّوَاءِ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [سورة آل عمران:٦٤]، فَفَسَّرَ اللهُ هَذِهِ الكَلِمَةَ السَّوَاءَ بِقَولِهِ: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [سورة آل عمران:٦٤]، وَهَذَا نَصٌّ صَرِيحٌ فِي أَنَّ حَقِيقَةَ كَلِمَةِ التَّوحِيدِ هِيَ إِفرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ، وَنَفيُ الشِّركِ عَنهُ.

ثُمَّ زَادَ البَيَانَ تَأكِيدًا فَقَالَ: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ [سورة آل عمران:٦٤]، أَي: لَا نُطِيعُ أَحَدًا طَاعَةً تَعَبُّدِيَّةً، وَلَا نَرفَعُهُ إِلَىٰ مَقَامِ التَّشرِيعِ وَالتَّحلِيلِ وَالتَّحرِيمِ مِن دُونِ اللهِ؛ فَالمُرَادُ بِالرَّبِّ هُنَا الإِلَهُ المَعبُودُ بِالطَّاعَةِ وَالانقِيَادِ، لَا مُجَرَّدُ الخَلقِ وَالرِّزقِ.

ثَالِثًا: دَلَالَةُ الآيَةِ عَلَىٰ أَنَّ التَّوحِيدَ شَرطُ الإِسلَامِ

قَالَ تَعَالَىٰ فِي خِتَامِ الآيَةِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران:٦٤]،

---

(١) شرح كتاب التوحيد لمحمد بن إبراهيم التميمي النجدي (١ / ٣٢٨ - ٣٢٩).

فَدَلَّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ أَن: مَن أَعرَضَ عَن هَذِهِ الكَلِمَةِ السَّوَاءِ، وَلَم يُذعِن لِإِفرَادِ اللهِ بِالعِبَادَةِ وَنَفيِ الشِّركِ، فَلَيسَ مِن أَهلِ الإِسلَامِ، وَلَو أَقَرَّ بِبَعضِ مَعَانِي الرُّبُوبِيَّةِ.

فَكَلِمَةُ التَّوحِيدِ كَمَا فَسَّرَهَا القُرآنُ:

نَفيٌ وَإِثبَاتٌ.

بَرَاءَةٌ وَوَلَاءٌ.

بُغضٌ لِلشِّركِ وَأَهلِهِ، وَمَحَبَّةٌ لِلَّهِ وَحدَهُ.

إِفرَادٌ لِلَّهِ بِالعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ وَالِانقِيَادِ.

وَلَيسَت مُجَرَّدَ الإِقرَارِ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الخَالِقُ أَوِ الرَّازِقُ، بَل هِيَ الِاستِسلَامُ لَهُ بِالعِبَادَةِ، وَالبَرَاءَةُ مِن كُلِّ مَا يُعبَدُ مِن دُونِهِ.

فَـ«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» هَذِهِ الكَلِمَةُ العَظِيمَةُ، مِفتَاحُ دَارِ السَّلَامِ، وَأَحسَنُ الحَسَنَاتِ، الَّتِي بِهَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرَضُونَ ـ مَبنِيَّةٌ عَلَىٰ رُكنَينِ:

أَحَدُهُمَا: النَّفيُ، وَهُوَ قَولُكَ: «لَا إِلَهَ».

وَالثَّانِي: الإِثبَاتُ، وَهُوَ قَولُكَ: «إِلَّا اللهُ».

فَلَا تَتِمُّ الكَلِمَةُ إِلَّا بِالجَمعِ بَينَهُمَا؛ فَلَيسَت نَفيًا مَحضًا، وَلَا إِثبَاتًا مَحضًا.

أَي: لَيسَت نَفيًا مَحضًا لِلإِلَهِيَّةِ عَن كُلِّ شَيءٍ كَقَولِ المُعَطِّلَةِ، وَلَا إِثبَاتًا لِلإِلَهِيَّةِ فِي كُلِّ شَيءٍ كَقَولِ الحُلُولِيَّةِ وَعُبَّادِ العِبَادِ؛ بَل هِيَ نَفيُ استِحقَاقِ العِبَادَةِ عَن كُلِّ مَا سِوَىٰ اللهِ، وَإِثبَاتُهَا لَهُ وَحدَهُ.

الخُلَاصَةُ لِجَمِيعِ مَا سَبَقَ:

يَنبَغِي لِطَالِبِ العِلمِ أَلَّا تَغِيبَ عَنهُ فِي هَذِهِ الكَلِمَةِ سَبعُ مَسَائِلَ، تَدُورُ عَلَيهَا أَركَانُهَا،

وَتنحلُّ بِهَا إِشكَالَاتُهَا، وَتَستَبِينُ بِهَا لِلمُتَأَمِّلِ مَحَجَّةُ السَّلَفِ فِي تَقرِيرِهَا.

المَسأَلَةُ الأُولَىٰ: أَنَّ كَلِمَةَ التَّوحِيدِ لَم تَأتِ لِمُجَرَّدِ إِثبَاتِ الإِلَهِيَّةِ لِلَّهِ ـ سُبحَانَهُ ـ وَهَذَا أَصلٌ عَظِيمٌ يَجِبُ ضَبطُهُ.

فَلَو كَانَ مَقصُودُهَا مُجَرَّدَ الإِثبَاتِ، لَكَانَ الكَافِي فِي ذَلِكَ أَن يُقَالَ: «اللهُ إِلَهٌ»، أَو «اللهُ حَقٌّ»، وَلَكِنَّ التَّوحِيدَ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ الرُّسُلَ، وَأَنزَلَ بِهِ الكُتُبَ، أَعظَمُ مِن ذَلِكَ وَأَشمَلُ، فَإِنَّهُ يَجمَعُ بَينَ رُكنَينِ لَا يَستَقِيمُ التَّوحِيدُ إِلَّا بِهِمَا: نَفيٍ وَإِثبَاتٍ، نَفيِ العِبَادَةِ عَمَّا سِوَىٰ اللهِ ـ تَعَالَىٰ ـ، وَإِثبَاتِهَا لَهُ ـ سُبحَانَهُ ـ وَحدَهُ.

وَلَوِ اقتُصِرَ عَلَىٰ الإِثبَاتِ المَحضِ لَمَا حَصَلَ المَقصُودُ، إِذ هُوَ لَا يَمنَعُ المُشَارَكَةَ، فَيَكُونُ اللهُ ـ تَعَالَىٰ ـ إِلَهًا، وَيَكُونُ غَيرُهُ إِلَهًا مَعَهُ، وَهَذَا مِن أَبطَلِ البَاطِلِ، وَأَفسَدِ الفَاسِدِ، وَعَينِ الشِّركِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ الأَنبِيَاءَ بِإِبطَالِهِ وَمُحَارَبَتِهِ.

وَمِن أَوضَحِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ هَذَا الأَصلِ قَولُهُ ـ تَعَالَىٰ ـ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [سورة البقرة:٢٥٦].

فَقَدَّمَ ـ سُبحَانَهُ ـ الكُفرَ بِالطَّاغُوتِ عَلَىٰ الإِيمَانِ بِهِ، تَنبِيهًا عَلَىٰ أَنَّ المَدَارَ عَلَىٰ هَذَينِ الرُّكنَينِ مَعًا، لَا يَنفَعُ أَحَدُهُمَا دُونَ الآخَرِ، فَمَن عَبَدَ اللهَ ـ تَعَالَىٰ ـ، وَاعتَقَدَهُ مُستَحِقًّا لِلعِبَادَةِ، وَلَم يَكفُر بِمَا يُعبَدُ مِن دُونِهِ، وَلَم يَعتَقِد بُطلَانَ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، وَلَم يَرَ أَنَّ مَن عَبَدَ غَيرَ اللهِ فَقَد كَفَرَ وَخَسِرَ خُسرَانًا مُبِينًا ـ فَمَا حَقَّقَ التَّوحِيدَ، وَلَا قَامَ بِهِ عَلَىٰ وَجهِهِ، فَالعِبرَةُ فِي تَحقِيقِ هَذِهِ الكَلِمَةِ بِالجَمعِ بَينَ الأَمرَينِ مَعًا: عِبَادَةِ اللهِ وَحدَهُ، وَتَكفِيرِ مَا سِوَاهُ ـ كَائِنًا مَن كَانَ ـ مِمَّن عُبِدَ مِن دُونِهِ.

وَمَا أَكثَرَ الغَلَطَ فِي هَذَا المَقَامِ، وَمَا أَشَدَّ مَا تَزِلُّ فِيهِ الأَقدَامُ.

المَسأَلَةُ الثَّانِيَةُ: فِي تَحقِيقِ مَعنَىٰ لَفظَةِ «الإِلَهِ» فِي كَلِمَةِ التَّوحِيدِ

وَهَذَا أَصلٌ آخَرُ، عَلَيهِ مَدَارُ الفَهمِ السَّلِيمِ لِكَلِمَةِ التَّوحِيدِ، وَبِسَبَبِ الخَلَلِ فِيهِ ضَلَّت طَوَائِفُ مِنَ المُنتَسِبِينَ إِلَىٰ المِلَّةِ.

فَالإِلَهُ فِي لُغَةِ العَرَبِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا القُرآنُ هُوَ: المَعبُودُ، لَا غَيرُ.

وَلَيسَ الإِلَهُ هُوَ الرَّبَّ، وَلَا الخَالِقَ، وَلَا القَادِرَ عَلَىٰ الِاختِرَاعِ، وَلَا المُستَغنِيَ عَمَّا سِوَاهُ المُفتَقِرَ إِلَيهِ كُلُّ مَا عَدَاهُ.

فَكُلُّ هَذِهِ التَّفَاسِيرِ الَّتِي قِيلَت فِي تَفسِيرِ «الإِلَهِ» فِي كَلِمَةِ التَّوحِيدِ غَيرُ صَحِيحَةٍ، وَقَد جَرَّت عَلَىٰ أَصحَابِهَا وَلَوَازِمِهَا اعتِقَادَاتٍ فَاسِدَةً وَمَذَاهِبَ مُنحَرِفَةً.

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ المُشرِكِينَ الأَوَّلِينَ كَانُوا يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ ـ تَعَالَىٰ ـ هُوَ الخَالِقُ الرَّازِقُ المُحيِي المُمِيتُ المُدَبِّرُ، كَمَا قَالَ ـ سُبحَانَهُ ـ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِن كِتَابِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [سورة لقمان:٢٥].

فَلَو كَانَ مَعنَىٰ «الإِلَهِ» هُوَ الخَالِقَ القَادِرَ، لَكَانُوا مُوَحِّدِينَ بِإِقرَارِهِم!

وَلَكِنَّ اللهَ ـ تَعَالَىٰ ـ حَكَمَ عَلَيهِم بِالشِّركِ وَالكُفرِ، وَوَصَفَهُم بِأَقبَحِ الأَوصَافِ، لِأَنَّهُم كَانُوا يَعبُدُونَ مَعَ اللهِ غَيرَهُ، وَيَصرِفُونَ شَيئًا مِنَ العِبَادَةِ لِسِوَاهُ ـ سُبحَانَهُ ـ، فَدَلَّ ذَلِكَ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَىٰ أَنَّ مَعنَىٰ «الإِلَهِ» هُوَ المَعبُودُ بِحَقٍّ، لَا الخَالِقُ وَلَا الرَّبُّ وَلَا القَادِرُ.

المَسأَلَةُ الثَّالِثَةُ: فِي تَحقِيقِ خَبَرِ «لَا» فِي كَلِمَةِ التَّوحِيدِ

«لَا» فِي قَولِنَا «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» نَافِيَةٌ لِلجِنسِ، عَامِلَةٌ عَمَلَ «إِنَّ»، تَنصِبُ الِاسمَ وَتَرفَعُ الخَبَرَ، وَخَبَرُهَا مَحذُوفٌ، قَد حَصَلَ فِي تَقدِيرِهِ خَلَلٌ كَبِيرٌ عِندَ جَمَاعَةٍ مِنَ المُتَكَلِّمِينَ وَمَن نَحَا نَحوَهُم.

فَظَنَّ بَعضُهُم أَنَّ التَّقدِيرَ: «لَا إِلَهَ مَوجُودٌ إِلَّا اللهُ»، وَظَنَّ بَعضُهُم أَنَّ التَّقدِيرَ: «لَا إِلَهَ مُمكِنٌ إِلَّا اللهُ»، وَكُلُّ هَذِهِ التَّقدِيرَاتِ تَلزَمُهَا لَوَازِمُ فَاسِدَةٌ، تُخرِجُ كَلِمَةَ التَّوحِيدِ عَن مَقصُودِهَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ الرُّسُلَ.

فَإِنَّ تَقدِيرَ الخَبَرِ بـ«مَوجودٍ» بَاطِلٌ بِضَرُورَةِ المُشَاهَدَةِ، إِذِ المَوجُودَاتُ المَعبُودَةُ مِن دُونِ اللهِ كَثِيرَةٌ - مِنَ الأَصنَامِ وَالقُبُورِ وَالأَحجَارِ وَالكَوَاكِبِ وَغَيرِهَا - يُقِرُّ بِوُجُودِهَا كُلُّ مَن لَهُ بَصَرٌ يَرَى وَعَقلٌ يَعقِلُ، فَلَو كَانَ التَّقدِيرُ كَذَلِكَ، لَكَانَ الإِقرَارُ بِهَذِهِ الكَلِمَةِ تَكذِيبًا لِلوَاقِعِ المَحسُوسِ!

وَإِنَّمَا الحَقُّ الَّذِي دَلَّت عَلَيهِ الأَدِلَّةُ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: أَنَّ الخَبَرَ المُقَدَّرَ هُوَ «حَقٌّ»، أَو «بِحَقٍّ» - فَإِن شِئتَ قَدَّرتَهُ مُفرَدًا وَإِن شِئتَ قَدَّرتَهُ شِبهَ جُملَةٍ -، فَيَكُونُ المَعنَىٰ: «لَا مَعبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ».

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَولُهُ - تَعَالَىٰ -: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [سورة الحج:٦٢]، وَمِثلُهَا فِي سُورَةِ لُقمَانَ، فَأَثبَتَ اللهُ - سُبحَانَهُ - لِنَفسِهِ الحَقَّ عَلَىٰ وَجهِ الحَصرِ، وَنَفَىٰ عَنِ المَعبُودَاتِ مِن دُونِهِ الحَقِّيَّةَ، وَوَصَفَهَا بِالبُطلَانِ المَحضِ، فَالمَعبُودَاتُ مِن دُونِ اللهِ مَوجُودَةٌ فِي الوَاقِعِ، وَلَكِنَّهَا بَاطِلَةٌ فِي حَقِّيَّةِ العِبَادَةِ، فَعِبَادَةُ غَيرِ اللهِ - تَعَالَىٰ - بَاطِلَةٌ، وَأُلُوهِيَّةُ مَا سِوَاهُ بَاطِلَةٌ، وَإِن وُجِدَت فِي الخَارِجِ صُورَتُهَا وَأَسمَاؤُهَا.

وَهَذَا هُوَ التَّحقِيقُ الَّذِي عَلَيهِ أَئِمَّةُ السَّلَفِ وَمُحَقِّقُو الأُمَّةِ.

المَسأَلَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ القُرآنَ وَالسُّنَّةَ أَعظَمُ مَا فُسِّرَت بِهِ كَلِمَةُ التَّوحِيدِ

وَمَعنَاهَا وَاضِحٌ جَلِيٌّ لِكُلِّ مَن تَأَمَّلَ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ - ﷺ -، لَا خَفَاءَ فِيهِ

وَلَا غُمُوضَ، بَل أَقُولُ ـ مُتيَقِّنًا ـ: إِنَّ مَن أَحسَنَ النَّظَرَ وَالتَّأَمُّلَ فِي الوَحيَينِ لَم يَحتَج مَعَهُمَا إِلَىٰ زِيَادَةٍ فِي تَقرِيرِ مَعنَىٰ هَذِهِ الكَلِمَةِ، فَقَد جَاءَ بَيَانُهَا فِي عَشَرَاتِ الأَدِلَّةِ المُتَكَاثِرَةِ، الدَّالَّةِ عَلَىٰ رُكنَيهَا مِنَ النَّفيِ وَالإِثبَاتِ، وَعَلَىٰ نَفيِ العِبَادَةِ عَمَّا سِوَىٰ اللهِ ـ سُبحَانَهُ ـ، وَإِثبَاتِهَا لَهُ وَحدَهُ ـ تَعَالَىٰ ـ.

ثُمَّ يَا لِلَّهِ العَجَبُ مِن حَالِ أَقوَامٍ يَحفَظُونَ القُرآنَ، بَل رُبَّمَا حَفِظُوهُ بِقِرَاءَاتِهِ المُتَوَاتِرَةِ، وَرُبَّمَا زَادُوا عَلَىٰ ذَلِكَ شَيئًا مِنَ الشَّوَاذِّ، وَمَعَ هَذَا فَهُم مِن أَجهَلِ النَّاسِ بِمَعنَىٰ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»! يَقرَؤُونَ القُرآنَ وَيَتَغَنَّونَ بِهِ وَيُحَبِّرُونَهُ تَحبِيرًا، ثُمَّ يَأتُونَ بِمَا يُنَاقِضُهُ وَيُبطِلُهُ!

بَل لَرُبَّمَا رَأَيتَ مِن أَحوَالِ بَعضِهِم أَنَّهُ يَتلُو آيَاتِ التَّوحِيدِ فِي مَحَلٍّ يُشرِكُ فِيهِ بِاللهِ ـ تَعَالَىٰ ـ! يُقرَأُ القُرآنُ فِي المَقَابِرِ وَالمَشَاهِدِ، وَمِن جُملَةِ مَا يُقرَأُ آيَاتٌ تَنهَىٰ عَمَّا يَفعَلُهُ القَارِئُ نَفسُهُ! وَيَستَغِيثُ النَّاسُ بِصَاحِبِ القَبرِ، وَيَطُوفُونَ بِهِ، وَيَتَمَسَّحُونَ بِجُدرَانِهِ، وَذَلِكَ يَتلُو هَذِهِ الآيَاتِ وَلَا يَتَفَطَّنُ لِمَعنَاهَا!

وَلَا عُذرَ ـ وَاللهِ ـ لِهَؤُلَاءِ البَتَّةَ.

فَمَا الَّذِي مَنَعَهُ مِن تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ وَقَد أُمِرَ بِهِ أَمرًا مُؤَكَّدًا، وَأَخبَرَ ـ سُبحَانَهُ ـ أَنَّ تِلكَ هِيَ الغَايَةُ مِن إِنزَالِهِ؟

قَالَ ـ تَعَالَىٰ ـ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [سورة ص:٢٩]، فَالقُرآنُ مَا أُنزِلَ لِيَتَغَنَّىٰ بِهِ الإِنسَانُ، وَلَا لِيَتَكَسَّبَ مِن وَرَائِهِ، وَلَا لِيُجعَلَ زِينَةً فِي المَجَالِسِ، وَإِنَّمَا أُنزِلَ لِيُتَدَبَّرَ وَيُعمَلَ بِهِ.

المَسأَلَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ الخِلَافَ مَعَ المُشرِكِينَ الأَوَّلِينَ لَم يَكُن فِي تَفسِيرِ هَذِهِ

الكَلِمَةِ

بَل كَانَ المَعنَىٰ مَحَلَّ اتِّفَاقٍ بَينَ النَّبِيِّ -ﷺ- وَأَصحَابِهِ وَبَينَ المُشرِكِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ.

فَهُم كَانُوا يَفهَمُونَ مَا تَعنِيهِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَيَعلَمُونَ مَا تَستَلزِمُهُ مِن تَركِ عِبَادَةِ آلِهَتِهِم، وَالبَرَاءَةِ مِنهَا، وَإِفرَادِ اللهِ - تَعَالَىٰ - بِالعِبَادَةِ.

وَإِنَّمَا كَانَ النِّزَاعُ فِي الِالتِزَامِ بِمُقتَضَاهَا، وَالعَمَلِ بِمَدلُولِهَا، وَالرُّضُوخِ لِمَا تَدعُو إِلَيهِ.

فَعَرَفُوا المَعنَىٰ وَأَبَوا قَبُولَهُ، عَرَفُوا الحَقَّ وَكَفَرُوا بِهِ استِكبَارًا.

وَلِفِطنَتِهِم لِمَعنَاهَا قَالُوا حِينَ دُعُوا إِلَيهَا مَا حَكَاهُ اللهُ عَنهُم فِي كِتَابِهِ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة ص:٥].

فَعَلِمُوا - بِفَهمِهِمُ العَرَبِيِّ السَّلِيمِ - أَنَّ مُقتَضَىٰ هَذِهِ الكَلِمَةِ نَبذُ آلِهَتِهِم، وَترَكُ مَا كَانَ عَلَيهِ آبَاؤُهُم، وَإِفرَادُ اللهِ - تَعَالَىٰ - بِالعِبَادَة.

فَاستَعظَمُوا ذَلِكَ وَاستَكبَرُوا عَنهُ.

وَمَعَ الأَسَفِ الشَّدِيدِ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ المُنتَسِبِينَ إِلَىٰ الإِسلَامِ فِي هَذِهِ الأَزمِنَةِ لَم يَفهَمُوا مَا فَهِمَهُ أَبُو جَهلٍ وَأَبُو لَهَبٍ!

فَتَعسًا لِمَن كَانَ أَبُو جَهلٍ أَعرَفَ مِنهُ بِأَصلِ الدِّينِ، إِي وَاللهِ تَعسًا لَهُ، فَإِنَّ المُشرِكَ الَّذِي عَرَفَ مَعنَىٰ الكَلِمَةِ وَرَفَضَ الِالتِزَامَ بِهَا أَهوَنُ شَأنًا مِنَ المُسلِمِ الَّذِي يَنطِقُ بِهَا صَبَاحًا وَمَسَاءً وَلَا يَعرِفُ مَعنَاهَا، وَلَا يُحَقِّقُ مُقتَضَاهَا.

وَبِهَذَا تَعلَمُ أَنَّ مَعرِفَةَ مَعنَىٰ هَذِهِ الكَلِمَةِ فَرضُ عَينٍ عَلَىٰ كُلِّ مُسلِمٍ، لَا يَسَعُ أَحَدًا

الجَهلُ بِهَا، وَلَا التَّقَاعُسُ عَن تَحصِيلِهَا، فَإِنَّهَا مِفتَاحُ الإِسلَامِ، وَلَا يُتَصَوَّرُ صِحَّةُ إِسلَامِ مَن جَهِلَ مِفتَاحَهُ.

المَسأَلَةُ السَّادِسَةُ: فِي عِظَمِ المُصَابِ بِصَيرُورَةِ مَعنَىٰ التَّوحِيدِ غَرِيبًا فِي زَمَانِنَا

إِنَّ مِن أَعظَمِ الدَّوَاهِي الَّتِي أُصِيبَت بِهَا الأُمَّةُ فِي هَذِهِ الأَعصَارِ المُتَأَخِّرَةِ: أَن صَارَ مَعنَىٰ كَلِمَةِ التَّوحِيدِ شَيئًا غَرِيبًا، إِلَّا عِندَ مَن شَاءَ اللهُ - تَعَالَىٰ - مِن أَهلِ السُّنَّةِ المُحَقِّقِينَ.

وَلَو فَتَّشتَ فِي حَالِ النَّاسِ، وَحَرَّكتَ سَاكِنَهُم لِتَعلَمَ مَا عِندَهُم، لَرَأَيتَ مِنَ الجَهلِ مَا تَقشَعِرُّ مِنهُ الجُلُودُ، وَتَستَفظِعُهُ القُلُوبُ.

وَهَذَا - يَا طَالِبَ العِلمِ - يَنبَغِي أَن يُحَرِّكَ فِيكَ سُكُونَكَ، وَيَستَنهِضَ هِمَّتَكَ، وَيَجعَلَكَ تَتَفَطَّنُ إِلَىٰ وَاجِبٍ عَظِيمٍ مُلقًى عَلَىٰ عَاتِقِ كُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ - تَعَالَىٰ -، أَلَا وَهُوَ: البَيَانُ وَالبَلَاغُ وَالدَّعوَةُ.

بَيَانُ مَعنَىٰ كَلِمَةِ التَّوحِيدِ، وَتَوضِيحُ رُكنَيهَا وَشُرُوطِهَا وَنَوَاقِضِهَا، فَإِنَّ هَذَا - وَاللهِ - أَهَمُّ مِن أَشيَاءَ كَثِيرَةٍ يَشتَغِلُ بِهَا الدُّعَاةُ، وَأَولَىٰ مِن أُمُورٍ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا.

فَأَنتَ إِن كُنتَ دَاعِيًا إِلَىٰ اللهِ - تَعَالَىٰ -، فَلَا تَتَشَاغَل عَن هَذَا الأَصلِ بِفُرُوعٍ هِيَ دُونَهُ فِي المَنزِلَةِ وَالأَهَمِّيَّةِ.

فَاللهَ اللهَ فِي الجِدِّ وَالتَّشمِيرِ فِي تَوضِيحِ مَعنَىٰ هَذِهِ الكَلِمَةِ، وَبَيَانِ مَا تَستَلزِمُهُ، وَتَحذِيرِ النَّاسِ مِمَّا يُنَاقِضُهَا، فَمَا أَكثَرَ الجَهلَ فِي هَذَا البَابِ، وَمَا أَشَدَّ الحَاجَةَ إِلَىٰ مَن يَنهَضُ بِبَيَانِهِ، وَاللهُ المُستَعَانُ، وَعَلَيهِ التُّكلَانُ.

المَسأَلَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ وَظِيفَةَ العَبدِ المُسلِمِ وَالأُمَّةِ المُسلِمَةِ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ تَدُورُ عَلَىٰ كَلِمَةِ التَّوحِيدِ

وَالقِيَامُ بِهَذِهِ الوَظِيفَةِ يَكُونُ مِن خِلَالِ أَربَعَةِ أُمُورٍ، لَا يَتَحَقَّقُ التَّوحِيدُ عَلَىٰ وَجهِ الكَمَالِ إِلَّا بِمَجمُوعِهَا:

الأَوَّلُ: أَن يَفهَمَ العَبدُ مَعنَاهَا عَلَىٰ مَا تَقَدَّمَ تَقرِيرُهُ مِنَ اشتِمَالِهَا عَلَىٰ رُكنَيِ النَّفيِ وَالإِثبَاتِ.

الثَّانِي: أَن يَعمَلَ بِمُقتَضَاهَا، فَيُفرِدَ اللهَ ـ تَعَالَىٰ ـ بِالعِبَادَةِ، وَيَبرَأَ مِن كُلِّ مَا يُعبَدُ مِن دُونِهِ.

الثَّالِثُ: أَن يَحذَرَ وَيَجتَنِبَ مَا يُنَاقِضُهَا مِن نَوَاقِضِ التَّوحِيدِ وَمُبطِلَاتِ الإِسلَامِ، فَإِنَّ مَعرِفَةَ الشَّيءِ بِضِدِّهِ، وَلَا يَتِمُّ التَّوحِيدُ إِلَّا بِمَعرِفَةِ مَا يُضَادُّهُ وَيُبطِلُهُ.

الرَّابِعُ: أَن يُجَاهِدَ طِيلَةَ حَيَاتِهِ شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالجِنِّ فِي الثَّبَاتِ عَلَيهَا، وَيُجَاهِدَ نَفسَهُ فِي أَن يَنطِقَ بِهَا فِي آخِرِ لَحظَةٍ مِن حَيَاتِهِ، فَإِنَّ مَن ثَبَتَ هَذَا الثَّبَاتَ، وَوُفِّقَ هَذَا التَّوفِيقَ، فَقَد فَازَ بِالجَائِزَةِ الكُبرَىٰ، وَغَنِمَ الغَنِيمَةَ العُظمَىٰ، وَفِي صَحِيحِ السُّنَّةِ: «مَن كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ».

نَسأَلُ اللهَ ـ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ ـ أَن يَرزُقَنَا هَذِهِ النِّعمَةَ العَظِيمَةَ، وَأَن يَختِمَ لَنَا بِهَا، وَأَن يُحيِينَا عَلَيهَا، وَيُمِيتَنَا عَلَيهَا، وَيَبعَثَنَا عَلَيهَا يَومَ نَلقَاهُ ـ سُبحَانَهُ ـ، وَالحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

قال المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ -:

وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة:١٢٨].

وَمَعنَىٰ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصدِيقُهُ فِيمَا أَخبَرَ، وَاجتِنَابُ مَا عَنهُ نَهَىٰ وَزَجَرَ، وَأَلَّا يُعبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ.

قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [سورة التوبة:١٢٨]، اللَّامُ فِي قَولِهِ (لَقَد) هِيَ اللَّامُ المُوطِّئَةُ لِلقَسَمِ، وَهِيَ مُلَازِمَةٌ لـ«قَد»، وَتَدُلُّ عَلَىٰ وُجُودِ قَسَمٍ مَحذُوفٍ تَقدِيرُهُ: وَاللهِ لَقَد جَاءَكُم.

فَالمُقسِمُ هُوَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَالمُقسَمُ عَلَيهِ مَجِيءُ الرَّسُولِ - ﷺ -، وَهَذَا الأُسلُوبُ يُفِيدُ غَايَةَ التَّأكِيدِ وَالتَّعظِيمِ فِي نَفسِ السَّامِعِ.

وَقَولُهُ: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أَي: مِن جِنسِكُم وَبَشَرِيَّتِكُم، عَرَبِيٌّ مِثلُكُم، يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِكُم، وَتَفهَمُونَ عَنهُ، وَلَيسَ غَرِيبًا عَنكُم لَا فِي نَسَبِهِ وَلَا فِي لُغَتِهِ وَلَا فِي حَالِهِ.

تَدُلُّ الآيَةُ دَلَالَةً صَرِيحَةً عَلَىٰ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ - ﷺ -؛ لِأَنَّ مَعنَاهَا: الإِقرَارُ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي أَرسَلَهُ، وَأَنَّ رِسَالَتَهُ حَقٌّ، وَأَنَّ هَذَا الاعتِقَادَ يَجِبُ أَن يَكُونَ اعتِقَادًا جَازِمًا يُصَدِّقُهُ القَولُ وَالإِقرَارُ

فَفِي الآيَةِ: قَسَمٌ إِلَهِيٌّ عَلَىٰ صِدقِ الرِّسَالَةِ، وَتَأْكِيدٌ عَلَىٰ أَنَّ الرَّسُولَ مُرسَلٌ مِنَ اللهِ، وَبَيَانٌ لِعِلَّةِ قَبُولِ الرِّسَالَةِ، وَهِيَ كَونُهُ مِنَ البَشَرِ الَّذِينَ يُعقَلُ عَنهُم وَيُفهَمُ خِطَابُهُم

وَهِيَ مِن أَوضَحِ الأَدِلَّةِ القُرآنِيَّةِ عَلَىٰ مَعنَىٰ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

مَعنَى شَهَادَةِ أَنّ مُحمّدًا رَسولُ اللَّه:

أَرْكَانُ هَذِهِ الشَّهَادَةِ كَمَا يُستَفَادُ مِن مَضمُونِهَا:

الإِيمَانُ بِنُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ:

لَا بُدَّ لِمَن نَطَقَ بِهَذِهِ الشَّهَادَةِ أَن يُؤمِنَ بِأَنَّ مُحَمَّدًا هُوَ رَسُولٌ مِن عِندِ اللهِ، اختَارَهُ مِن بَينِ خَلقِهِ، وَأَوحَىٰ إِلَيهِ بِشَرِيعَتِهِ، وَاصطَفَاهُ لِتَبلِيغِهَا إِلَىٰ العَالَمِينَ، وَقَد جَاءَ تَأْكِيدُ هَذَا المَعنَىٰ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، مِثلَ قَولِهِ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [سورة الفتح:٢٩]، وَقَولِهِ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [سورة آل عمران:١٤٤].

وَهَذِهِ الأَدِلَّةُ وَغَيرُهَا تُوَضِّحُ أَنَّ الرِّسَالَةَ المُحَمَّدِيَّةَ مِن عِندِ اللهِ، وَهِيَ ثَابِتَةٌ ثُبُوتًا قَطعِيًّا لَا مَجَالَ لِلشَّكِّ فِيهِ.

عُمُومُ رِسَالَتِهِ لِلإِنسِ وَالجِنِّ:

مُحَمَّدٌ -ﷺ- لَم يُبعَث إِلَىٰ قَومِهِ فَقَط كَمَا كَانَ الحَالُ فِي الأَنبِيَاءِ مِن قَبلِهِ، بَل أُرسِلَ بِرِسَالَةٍ شَامِلَةٍ إِلَىٰ البَشَرِ وَالجِنِّ عَلَىٰ حَدٍّ سَوَاءٍ، عَلَىٰ اختِلَافِ أَجنَاسِهِم وَأَلوَانِهِم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [سورة الأعراف:١٥٨].

تَأَمَّل فِي التَّعبِيرِ الإِلَهِيِّ: "النَّاسُ" وَ"جَمِيعًا"، فَهَذَانِ اللَّفظَانِ يَدُلَّانِ عَلَىٰ شُمُولِيَّةِ الدَّعوَةِ.

وَقَد أَكَّدَ النَّبِيُّ -ﷺ- بِنَفسِهِ أَنَّهُ: «بُعِثتُ إِلَىٰ الأَحمَرِ وَالأَسوَدِ»، أَي إِلَىٰ جَمِيعِ

بَنِي الإِنسَانِ دُونَ استِثنَاءٍ، حَتَّىٰ مَن أُوتُوا الكِتَابَ وَمَن لَا كِتَابَ لَهُم.

وَقد شَمِلَ ذَلِكَ الجِنَّ أَيضًا، كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [سورة الفرقان:١]، وَقَد فَسَّرَ ابنُ عَبَّاسٍ "العَالَمِينَ" بِأَنَّهُمُ الجِنُّ وَالإِنسُ مَعًا.

وَمِن أَوضَحِ الأَدِلَّةِ عَلَىٰ إِيمَانِ الجِنِّ بِرِسَالَتِهِ -ﷺ- مَا جَاءَ فِي سُورَةِ الأَحقَافِ، حَيثُ يَقُولُ الجِنُّ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأحقاف:٣١].

فَهُم يَعتَرِفُونَ بِنُبُوَّتِهِ وَيَحُثُّونَ أَقوَامَهُم عَلَىٰ الِاستِجَابَةِ لِدَعوَتِهِ.

الإِيمَانُ بِأَنَّهُ خَاتَمُ الأَنبِيَاءِ:

مِن لَوَازِمِ الشَّهَادَةِ أَن نَعتَقِدَ اعتِقَادًا جَازِمًا بِأَن لَا نَبِيَّ بَعدَ مُحَمَّدٍ -ﷺ-، فَقَد أَكمَلَ اللهُ بِهِ الرِّسَالَاتِ وَختَمَ بِهِ النُّبُوَّةَ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [سورة الأحزاب:٤٠].

وَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعدِي».

لَوَازِمُ الشَّهَادَةِ:

إِنَّ لِهَذِهِ الشَّهَادَةِ آثَارًا عَمَلِيَّةً لَا يَصِحُّ الإِيمَانُ بِدُونِهَا، وَهِيَ أَربَعٌ:

○ أَوَّلًا: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ:

فَمِن مُقتَضَيَاتِ الإِيمَانِ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ -ﷺ- أَن يُطَاعَ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِن أَوَامِرَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء:٦٤]، فَالرُّسُلَ إِنَّمَا أُرسِلُوا لِيُطَاعُوا، فَحَقِيقَةُ الرِّسَالَةِ لَيسَت مُجَرَّدَ الإِخبَارِ، بَلِ الطَّاعَةُ وَالِانقِيَادُ وَالتَّحَاكُمُ وَالتَّسلِيمُ، فَلَا يُعقَلُ أَن يَشهَدَ المَرءُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ثُمَّ يُعرِضَ عَن طَاعَتِهِ، وَمَن

أَبَىٰ الطَّاعَةَ استِكبَارًا فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَن عَصَىٰ مَعَ الإِقرَارِ فَهُوَ مُذنِبٌ، وَمَن أَطَاعَهُ فَقَد نَجَا.

وَقَد قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «كُلُّ أُمَّتِي يَدخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن أَبَىٰ».

قِيلَ: وَمَن يَأبَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَن أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن عَصَانِي فَقَد أَبَىٰ».

فَشَهَادَةُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ -ﷺ- تَقتَضِي الإِيمَانَ الجَازِمَ بِأَنَّهُ مُرسَلٌ مِن عِندِ اللهِ، وَأَنَّهُ لَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَىٰ، فَمَا جَاءَ بِهِ فَحُكمُهُ حُكمُ اللهِ، وَأَمرُهُ أَمرُ اللهِ، وَنَهيُهُ نَهيُ اللهِ؛ كَمَا دَلَّ عَلَيهِ الحَدِيثُ الصَّحِيحُ: «أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- مِثلُ مَا حَرَّمَ اللهُ»[(١)].

وَعَلَيهِ؛ فَمَا حَكَمَ بِهِ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- فَحُكمُهُ حُكمُ اللهِ، وَمَا أَمَرَ بِهِ فَأَمرُهُ أَمرُ اللهِ، وَمَا نَهَىٰ عَنهُ فَنَهيُهُ نَهيُ اللهِ؛ إِذ لَا فَرقَ فِي لُزُومِ الِامتِثَالِ بَينَ أَمرٍ وَرَدَ فِي القُرآنِ وَأَمرٍ صَحَّ عَن رَسُولِ اللهِ -ﷺ-.

○ ثَانِيًا: تَصدِيقُهُ فِيمَا أَخبَرَ:

كُلُّ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ -ﷺ- مِن أَخبَارِ المَاضِي وَالحَاضِرِ وَالمُستَقبَلِ يَجِبُ التَّصدِيقُ بِهِ، حَتَّىٰ وَإِن خَالَفَ مَا تَعَارَفَ عَلَيهِ النَّاسُ أَوِ استَغرَبَتهُ العُقُولُ، فَقَد أَخبَرَ النَّبِيُّ -ﷺ- عَن وَقَائِعَ عَجِيبَةٍ، مِنهَا مَا رَوَاهُ فِي «الصَّحِيحَينِ»: أَنَّ بَقَرَةً تَكَلَّمَت، وَذِئبًا نَطَقَ، فَلَمَّا تَعَجَّبَ الصَّحَابَةُ قَالَ: «أَنَا أُؤمِنُ بِذَلِكَ، وَأَبُو بَكرٍ وَعُمَرُ»، فَمُقتَضَىٰ شَهَادَةِ أَنَّ

---

(١) أخرَجهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٦٠٤) بِنحوِهِ، وَالتِّرمِذِيُّ (٢٦٦٤)، وَابنُ مَاجه (١٢)، وَالدَّارِمِيُّ (٥٨٦)، وَأَحمَدُ فِي «المُسنَدِ» (٤/ ١٣٢)، وَالدَّارَقُطنِيُّ (٤/ ٢٨٦)، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «الكَبِيرِ» (٦٤٩)، وَالحَاكِمُ فِي «المُستَدرَكِ» (١/ ١٩١)، وَالبَيهَقِيُّ فِي «الكُبرَىٰ» (٦/ ٣٣١)، مِن حَدِيثِ المِقدَامِ.

مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ -ﷺ- أَن يُصَدَّقَ تَصدِيقًا جَازِمًا فِيمَا أَخبَرَ، وَأَلَّا يُدَاخِلَ القَلبَ شَكٌّ وَلَا رَيبٌ فِي صِدقِ خَبَرِهِ، بَل يُعتَقَدَ أَنَّ كُلَّ مَا أَخبَرَ بِهِ حَقٌّ عَلَىٰ وَجهِ القَطعِ، سَوَاءٌ أَدرَكَهُ العَقلُ أَو لَم يُدرِكهُ، وَسَوَاءٌ شَاهَدَهُ الإِنسَانُ أَو غَابَ عَنهُ.

وَلِهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ -رضي الله عنهم- يُوقِنُونَ بِصِدقِ أَخبَارِ النَّبِيِّ -ﷺ-، وَيُسَلِّمُونَ لَهَا تَسلِيمًا كَامِلًا، كَمَا ثَبَتَ عَن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ -رضي الله عنه- أَنَّهُ قَالَ: «حَدَّثَنِي الصَّادِقُ المَصدُوقُ» يَعنِي رَسُولَ اللهِ -ﷺ-.(١)

فَالمُؤمِنُ يُصَدِّقُ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- فِي كُلِّ مَا أَخبَرَ بِهِ، لَا يُعَلِّقُ تَصدِيقَهُ عَلَىٰ الفَهمِ أَوِ الإِدرَاكِ الحِسِّيِّ، بَل يَجعَلُهُ تَابِعًا لِثُبُوتِ الخَبَرِ عَنِ المَعصُومِ -ﷺ-، فَهَذَا هُوَ التَّصدِيقُ الحَقُّ: تَصدِيقٌ جَازِمٌ لَا تَشُوبُهُ شُبهَةٌ، وَلَا يَعتَرِيهِ تَرَدُّدٌ، قَائِمٌ عَلَىٰ الإِيمَانِ الجَازِمِ بِرِسَالَةِ النَّبِيِّ -ﷺ-، وَأَنَّ كُلَّ خَبَرٍ أَخبَرَ بِهِ فَهُوَ حَقٌّ بِلَا شَكٍّ وَلَا رَيبٍ.

○ ثَالِثًا: اجتِنَابُ مَا نَهَىٰ عَنهُ وَزَجَرَ:

مِن مُقتَضَيَاتِ الشَّهَادَةِ أَيضًا أَن يَنكَفَّ المُسلِمُ عَنِ المُحَرَّمَاتِ الَّتِي نَهَىٰ عَنهَا النَّبِيُّ -ﷺ-.

وَالأَصلُ فِي النَّهيِ وَالزَّجرِ التَّحرِيمُ، لِأَنَّ النَّهيَ زَاجِرٌ مَانِعٌ، كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي أُصُولِ الفِقهِ؛ فَكُلُّ مَا نَهَىٰ عَنهُ النَّبِيُّ -ﷺ-، أَو زَجَرَ عَنهُ، أَو حَرَّمَهُ، وَجَبَ اجتِنَابُهُ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَطَاعَةً لِرَسُولِهِ -ﷺ-.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ

(١) أخرجهُ البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

﴿ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [سورة الحشر:٧]، فـ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [سورة الحشر:٧] يَشمَلُ الأَوَامِرَ وَالأَخبَارَ: فَيُؤخَذُ الأَمرُ امتِثَالًا، وَيُصَدَّقُ الخَبَرُ تَصدِيقًا، و﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [سورة الحشر:٧] يُوجِبُ الكَفَّ وَالتَّركَ عَمَّا نَهَىٰ عَنهُ النَّبِيُّ -ﷺ-، طَاعَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ.

وَبِنَاءً عَلَىٰ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ مَن لَم يَجتَنِب مَا نَهَىٰ عَنهُ الرَّسُولُ -ﷺ- وَزَجَرَ عَنهُ اعتِقَادًا أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيهِ الِانتِهَاءُ، أَو أَنَّهُ غَيرُ مُخَاطَبٍ بِهَذِهِ النَّوَاهِي، فَقَد قَدَحَ فِي حَقِيقَةِ شَهَادَتِهِ، وَلَم يُحَقِّق شَهَادَةَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِن نَطَقَ بِهَا بِلِسَانِهِ؛ لِأَنَّ لَازِمَ الشَّهَادَةِ الِانقِيَادُ وَالطَّاعَةُ.

أَمَّا مَن أَقَرَّ وَاعتَقَدَ وُجُوبَ اجتِنَابِ مَا نَهَىٰ عَنهُ النَّبِيُّ -ﷺ-، وَالتَزَمَ بِذَلِكَ أَصلًا، لَكِنَّهُ خَالَفَ أَحيَانًا لِغَلَبَةِ هَوًى أَو ضَعفِ نَفسٍ—قَلَّتِ المُخَالَفَةُ أَو كَثُرَت—فَإِنَّ هَذِهِ المُخَالَفَةَ تَكُونُ نَقصًا فِي تَحقِيقِ الشَّهَادَةِ، وَمَعصِيَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، لَا نَقضًا لِأَصلِهَا.

فَالشَّهَادَةُ تَقتَضِي أَصلَ الِالتِزَامِ وَالِانقِيَادِ، وَيَقَعُ التَّفَاوُتُ بَينَ النَّاسِ فِي كَمَالِهَا وَنَقصِهَا بِحَسَبِ الِامتِثَالِ وَالمُخَالَفَةِ.

وَقَد وَرَدَت فِي ذَلِكَ قِصَّةُ الرَّجُلِ الَّذِي أَكَلَ بِشِمَالِهِ فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ -ﷺ- أَن يَأكُلَ بِيَمِينِهِ، فَقَالَ: لَا أَستَطِيعُ – تَكَبُّرًا – فَدَعَا عَلَيهِ النَّبِيُّ: «لَا استَطَعتَ»، فَشُلَّت يده.(١)

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ خُطُورَةِ مُخَالَفَةِ أَمرِهِ -ﷺ- عَمدًا وَاستِكبَارًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [سورة النور:٦٣].

○ رَابِعًا: أَن لَا يُعبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ:

---

(١) أَخرَجَهُ مسلم (٢٠٢١).

لَا يُقبَلُ مِنَ العَبدِ أَيُّ عِبادَةٍ أَو طَاعَةٍ إِلَّا إِذَا كَانَت عَلَىٰ وَفقِ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ -ﷺ- فَالبِدعَةُ مَردُودَةٌ، وَالعَمَلُ غَيرُ المَشرُوعِ لَا يُثَابُ عَلَيهِ بَل يُؤثَمُ عَلَيهِ.

٥١٤ - **قَالَ النَّبِيُّ** -ﷺ-: «مَن عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيهِ أَمرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

٥١٥ - **وَقَالَ** -ﷺ-: «وَشَرُّ الأُمُورِ مُحدَثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وَكُلُّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النارِ».(١)

فَلَا يُتَقَرَّبُ إِلَىٰ اللهِ إِلَّا بِمَا دَلَّ عَلَيهِ الشَّرعُ، وَأَيُّ عِبَادَةٍ لَم يُشرِعهَا رَسُولُ اللهِ -ﷺ- فَهِيَ مَردُودَةٌ عَلَىٰ صَاحِبِهَا وَإِن حَسُنَت نِيَّتُهَا، فَلَيسَ بَعدَ هَديِهِ -ﷺ- هَديٌ، وَلَا بَعدَ طَرِيقِهِ طَرِيقٌ.

وَاعلَم أَنَّ العِبَادَةَ لَا تَكُونُ عِبَادَةً مَقبُولَةً مَرضِيَّةً عِندَ اللهِ -عَجَلَّ- إِلَّا إِذَا وَافَقَتِ الشَّرعَ فِي سِتَّةِ أُمُورٍ، فَمَن أَخَلَّ بِوَاحِدٍ مِنهَا كَانَ عَمَلُهُ مَردُودًا غَيرَ مَقبُولٍ:

الأَوَّلُ: السَّبَبُ:

أَن يَكُونَ سَبَبُ العِبَادَةِ مِمَّا شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

---

(١) **«جَامِعُ العُلُومِ وَالحِكَمِ» (ص ١٥٦ ت الفَحلِ)**: وَكَانَ -ﷺ- يَقُولُ فِي خُطبَتِهِ: «أَصدَقُ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيرُ الهَديِ هَديُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحدَثَاتُهَا» وَسَنُؤَخِّرُ الكَلَامَ عَلَىٰ المُحدَثَاتِ إِلَىٰ ذِكرِ حَدِيثِ العِربَاضِ المُشَارِ إِلَيهِ، وَنَتَكَلَّمُ هَاهُنَا عَلَىٰ الأَعمَالِ الَّتِي لَيسَ عَلَيهَا أَمرُ الشَّارِعِ وَرَدِّهَا.

فَهَذَا الحَدِيثُ يَدُلُّ بِمَنطُوقِهِ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ لَيسَ عَلَيهِ أَمرُ الشَّارِعِ، فَهُوَ مَردُودٌ، وَيَدُلُّ بِمَفهُومِهِ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ عَلَيهِ أَمرُهُ، فَهُوَ غَيرُ مَردُودٍ، وَالمُرَادُ بِأَمرِهِ هَاهُنَا: دِينُهُ وَشَرعُهُ، كَالمُرَادِ بِقَولِهِ فِي الرِّوَايَةِ الأُخرَىٰ: «مَن أَحدَثَ فِي أَمرِنَا هَذَا مَا لَيسَ مِنهُ فَهُوَ رَدٌّ».

فَمَن تَعَبَّدَ اللهَ بِسَبَبٍ لَم يَجعَلهُ اللهُ سَبَبًا، فَقَد أَحدَثَ فِي الدِّينِ، وَوَقَعَ فِي البِدعَةِ، وَعَمَلُهُ مَردُودٌ.

مِثَالُ ذَلِكَ: مَن جَعَلَ مَولِدَ النَّبِيِّ -ﷺ- سَبَبًا لِلتَّقَرُّبِ إِلَىٰ اللهِ بِالِاحتِفَالِ، فَقَد أَحدَثَ سَبَبًا لَم يَشرَعهُ اللهُ، وَلَم يَفعَلهُ النَّبِيُّ -ﷺ-، وَلَا الصَّحَابَةُ، وَلَا القُرُونُ المُفَضَّلَةُ، فَكَانَ عَمَلُهُ بَاطِلًا مَردُودًا.

الثَّانِي: الجِنسُ:

أَن تَكُونَ العِبَادَةُ مِنَ الجِنسِ الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ.

فَإِذَا خَالَفَ العَبدُ الشَّرعَ فِي جِنسِ العِبَادَةِ كَانَ عَمَلُهُ مَردُودًا.

مِثَالُ ذَلِكَ: مَن ضَحَّىٰ بِفَرَسٍ، فَعَمَلُهُ مَردُودٌ؛ لِأَنَّهُ خَالَفَ الجِنسَ المَشرُوعَ، فَإِنَّ الأُضحِيَّةَ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنَ الإِبِلِ أَوِ البَقَرِ أَوِ الغَنَمِ.

الثَّالِثُ: القَدرُ:

أَن تَكُونَ العِبَادَةُ عَلَىٰ القَدرِ الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ، دُونَ زِيَادَةٍ وَلَا نُقصَانٍ.

فَمَن زَادَ عَلَىٰ المَشرُوعِ فَقَدِ ابتَدَعَ، وَعَمَلُهُ مَردُودٌ.

مِثَالُ ذَلِكَ: مَن صَلَّىٰ صَلَاةَ العِشَاءِ سِتَّ رَكَعَاتٍ، فَعَمَلُهُ مَردُودٌ؛ لِمُخَالَفَتِهِ القَدرَ المَشرُوعَ.

الرَّابِعُ: الكَيفِيَّةُ:

أَن تُؤَدَّىٰ العِبَادَةُ عَلَىٰ الكَيفِيَّةِ الَّتِي جَاءَت بِهَا الشَّرِيعَةُ.

فَمَن خَالَفَ الكَيفِيَّةَ الشَّرعِيَّةَ كَانَ عَمَلُهُ مَردُودًا.

مِثَالُ ذَلِكَ: مَن سَجَدَ قَبلَ أَن يَركَعَ فِي الصَّلَاةِ.

وَمَن تَوضَّأَ فَبَدَأَ بِغَسلِ الرِّجلَينِ، ثُمَّ اليَدَينِ، ثُمَّ الوَجهِ، ثُمَّ مَسَحَ الرَّأسَ.

الخَامِسُ: الزَّمَانُ:

أَن تُؤَدَّىٰ العِبَادَةُ فِي الزَّمَنِ الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ.

فَمَن تَعَبَّدَ اللهَ فِي غَيرِ وَقتِ العِبَادَةِ، لَم تُقبَل مِنهُ.

مِثَالُ ذَلِكَ:

مَن حَجَّ فِي رَبِيعٍ الأَوَّلِ، فَعَمَلُهُ مَردُودٌ؛ لِأَنَّهُ أَتَىٰ بِالعِبَادَةِ فِي غَيرِ زَمَنِهَا.

السَّادِسُ: المَكَانُ:

أَن تُؤَدَّىٰ العِبَادَةُ فِي المَكَانِ الَّذِي عَيَّنَهُ الشَّارِعُ.

فَمَن خَصَّصَ عِبَادَةً بِمَكَانٍ لَم يُخَصِّصهُ اللهُ بِهَا، فَعَمَلُهُ غَيرُ صَحِيحٍ.

مِثَالُ ذَلِكَ:

مَنِ اعتَكَفَ فِي مَدرَسَةٍ أَو تَحتَ شَجَرَةٍ، فَاعتِكَافُهُ غَيرُ صَحِيحٍ؛ لِقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [سورة البقرة:١٨٧].

فَهَذِهِ السِّتَّةُ هِيَ مِيزَانُ قَبُولِ العِبَادَاتِ، وَبِهَا يُعرَفُ الِاتِّبَاعُ مِنَ الِابتِدَاعِ، وَالسُّنَّةُ مِنَ البِدعَةِ، وَالعَمَلُ المَقبُولُ مِنَ المَردُودِ.

فَالمُتَابَعَةُ هِيَ: أَن يَمتَثِلَ العَبدُ أَمرَ النَّبِيِّ -ﷺ-، وَأَن يَفعَلَ العَمَلَ عَلَىٰ الوَجهِ الَّذِي شَرَعَهُ، مِن غَيرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقصٍ.

وَتَتَحَقَّقُ المُتَابَعَةُ بِأُمُورٍ:

الإِذعَانُ لِأَمرِهِ.

الِالتِزَامُ بِطَاعَتِهِ.

عَدَمُ التَّوَلِّي عَنهُ.

اتِّبَاعُ مَا جَاءَ بِهِ.

العَمَلُ بِسُنَّتِهِ وَهَديِهِ.

الرِّضَا وَالتَّسلِيمُ لِأَمرِهِ وَحُكمِهِ.

أَلَّا يُعبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَهُ رَسُولُهُ -ﷺ-.

وَمِن ثَمَرَاتِ اتِّبَاعِ السُّنَّةِ:

بَرَكَةُ لُزُومِ الشَّرعِ.

رِضَا الرَّبِّ تَعَالَىٰ.

رَفعُ الدَّرَجَاتِ.

رَاحَةُ القَلبِ وَدعَةُ البَدَنِ.

تَرغِيمُ الشَّيطَانِ.

سُلُوكُ الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ.

نَوَاقِضُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ:

مِن أَعظَمِ نَوَاقِضِهَا:

- تَكذِيبُهُ أَوِ الشَّكُّ فِي رِسَالَتِهِ.
- عَدَمُ اعتِقَادِ خَتمِ النُّبُوَّةِ بِهِ.
- تَفضِيلُ هَدي غَيرِهِ عَلَىٰ هَديِهِ.
- اعتِقَادُ جَوَازِ الخُرُوجِ عَن شَرِيعَتِهِ.
- الِاستِهزَاءُ بِهِ أَو بِسُنَّتِهِ أَوِ الطَّعنُ فِيهِ.
- بُغضُهُ أَو بُغضُ شَيءٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ.

○ صَدُّ النَّاسِ عَنِ اتِّبَاعِهِ.

○ الغُلُوُّ فِيهِ حَتَّىٰ يُعبَدَ أَو يُستَغَاثَ بِهِ أَو تُطلَبَ مِنهُ الشَّفَاعَةُ بَعدَ مَوتِهِ.

○ مُوَالَاةُ أَعدَائِهِ مِنَ الكَافِرِينَ بِهِ عَلَىٰ دِينِهِم.

○ اعتِقَادُ أَنَّ النُّبُوَّةَ تُسلَبُ مِنهُ بَعدَ مَوتِهِ لِأَنَّهَا عَرَضٌ.

انقِسَامُ النَّاسِ فِي النَّبِيِّ -ﷺ- إِلَى طَرَفَينِ وَوَسَطٍ:

النَّاسُ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقسَامٍ:

قَومٌ غَلَوا فِيهِ حَتَّىٰ رَفَعُوهُ فَوقَ مَنزِلَتِهِ، فَوَقَعُوا فِي الشِّركِ بِهِ.

وَقَومٌ جَفَوا فِيهِ، فَأَنكَرُوا خَصَائِصَهُ أَو قَدَّمُوا غَيرَهُ عَلَيهِ.

وَأَهلُ السُّنَّةِ: آمَنُوا بِأَنَّهُ عَبدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَلَا غُلُوَّ وَلَا جَفَاءَ.

وَالجَهمِيَّةُ وَالأَشَاعِرَةُ نَقَضُوا التَّسلِيمَ وَالِانقِيَادَ لِشَهَادَةِ أَن مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ مِن جِهَتَينِ:

الأُولَىٰ: اشتِرَاطُهُم فِي الإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ مَا يُنَافِي الِانقِيَادَ.

فَمَن لَم يَقبَل خَبَرَ الرَّسُولِ فِي الصِّفَاتِ حَتَّىٰ يُقِيمَ عَلَيهِ دَلِيلًا عَقلِيًّا، فَقَد أَشبَهَ مَن قَالَ اللهُ فِيهِم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ [سورة الأنعام:١٢٤].

٥١٦- **قَالَ ابنُ تَيمِيَةَ:** إِنَّ تَصدِيقَ المُسلِمِ بِمَا أَخبَرَ اللهُ وَرَسُولُهُ لَيسَ مَوقُوفًا عَلَىٰ قِيَامِ دَلِيلٍ عَقلِيٍّ عَلَىٰ عَينِ تِلكَ الصِّفَةِ، فَمَن سَلَكَ هَذَا السَّبِيلَ فَهُوَ فِي الحَقِيقَةِ غَيرُ مُؤمِنٍ بِالرَّسُولِ، وَلَا مُتَلَقٍّ عَنهُ؛ إِذ لَا فَرقَ عِندَهُ بَينَ أَن يُخبِرَ أَو لَا يُخبِرَ، فَمَا لَم يَعلَمهُ بِعَقلِهِ لَم يُصَدِّق بِهِ، بَل تَأَوَّلَهُ أَو فَوَّضَه.(١)

(١) شرح الأصفهانية ص(٤٤).

الثَّانِيَةُ: سُوءُ الأَدَبِ وَالتَّقدِيمُ بينَ يَدَيهِ، وَذلِكَ أَن يُعَارَضَ خَبرُهُ بِخَيَالٍ يُسَمَّىٰ مَعقُولًا، أَو بِآرَاءِ الرِّجَالِ.

٥١٧- **قَالَ ابنُ القَيِّمِ:** رَأسُ الأَدَبِ مَعَهُ كَمَالُ التَّسلِيمِ وَالِانقِيَادِ لِأَمرِهِ، وَتَلَقِّي خَبَرِهِ بِالقَبُولِ وَالتَّصدِيقِ، دُونَ أَن يُحَمِّلَ مُعَارَضَةَ خَيَالٍ بَاطِلٍ يُسَمَّىٰ مَعقُولًا، أَو تُقَدَّمَ عَلَيهِ آرَاءُ الرِّجَالِ وَزُبَالَاتُ أَذهَانِهِم.[(١)]

٥١٨- **وَقَالَ ابنُ تَيمِيَةَ:** إِنَّ أَصلَ البِدعَةِ رَدُّ بَعضِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، أَو مُعَارَضَةُ قَولِهِ بِمَا يُجعَلُ نَظِيرًا لَهُ مِن رَأيٍ أَو كَشفٍ ونحوِه.[(٢)]

قُلتُ: وَالجَامِعُ بَينَ أَصنَافِ المُخَالِفِينَ عَلَىٰ اختِلَافِ أَحوَالِهِم أَنَّهُم آمَنُوا بِبَعضِ مَا جَاءَ بِهِ -ﷺ- وَكَفَرُوا بِبَعضٍ؛ فَمِنهُم مَن رَدَّ طَاعَتَهُ وَاتِّبَاعَهُ وَزَعَمَ أَنَّ لَهُ أَن يَحتكِمَ إِلَىٰ غَيرِ شَرعِهِ، وَمِنهُم مَن غَلَا فِي مَحَبَّتِهِ حَتَّىٰ رَفَعَهُ فَوقَ مَنزِلَةِ العُبُودِيَّةِ، وَمِنهُم مَنِ استَهزَأَ بِسُنَّتِهِ وَهَديِهِ فَتَنَقَّصَ مَقَامَهُ.

وَكُلُّ هَؤُلَاءِ دَاخِلُونَ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾ [سورة البقرة:٨٥]؛ فَإِنَّ الإِيمَانَ بِالرَّسُولِ لَا يَتَجزَّأُ، بَل هُوَ تَصدِيقٌ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ، وَانقِيَادٌ لِكُلِّ مَا أَمَرَ بِهِ، وَتَعظِيمٌ يَلِيقُ بِمَقَامِهِ مِن غَيرِ غُلُوٍّ وَلَا جَفَاءٍ».

وَقَد ابتُلِيَ النَّاسُ فِي هَذَا الأَصلِ بِصُورَتَينِ مِنَ الخَلَلِ تُنَاقِضَانِ تَحقِيقَ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِن لَم يَتَلَفَّظ صَاحِبُهُمَا بِالتَّكذِيبِ:

الأُولَىٰ: مَن يُحَاكِمُ سُنَّةَ النَّبِيِّ -ﷺ- إِلَىٰ النَّظَرِيَّاتِ السِّيَاسِيَّةِ والاقتِصَادِيَّةِ

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٦٥).

(٢) الفتاوىٰ (٤/ ٧٨).

والاجتماعيَّةِ الوافِدَةِ، فيَجعَلُها هي الأصلَ، فما وافقَها مِنَ السُّنَّةِ قَبلَهُ، وما خالَفَها رَدَّهُ بزَعمِ أنَّه يُخالِفُ العقلَ؛ وإنَّما يُخالِفُ عقلًا صِيغَ علىٰ تلكَ النَّظَرِيَّاتِ التي بُنِيَت أصلًا علىٰ استِبعادِ الدِّينِ، فلا غَروَ أن يُصادِمَ الوَحيَ.

والثَّانيةُ: مَن يُؤمِنُ بالرِّسالَةِ إيمانًا اسميًّا لَا أثَرَ لَهُ فِي عمَلِهِ وَلَا حُكمِهِ، فيُعَظِّمُ النَّبيَّ -ﷺ- ويُثني عَلَيهِ، ثمَّ لَا يَطلُبُ حُكمَهُ وَلَا يَرضىٰ بقَضائِهِ وَلَا يُحاكِمُ نفسَهُ إِلَيهِ؛ بَل يَحكُمُ بغيرِ حُكمِهِ ويُقَدِّمُهُ ويُحَسِّنُهُ.

وَهَذا فِي حقيقَتِهِ شَبيهٌ بإيمانِ مَن يُعَظِّمُ نبيًّا مِنَ الأنبياءِ تعظيمًا مُجَرَّدًا عنِ الاتِّباعِ؛ فإنَّ الإيمانَ بالرَّسولِ ليسَ كلِمَةً تُقالُ، بَل تَصديقٌ فِي الخبَرِ وطاعَةٌ فِي الأمرِ واحتِكامٌ إِلَىٰ الشَّرعِ.

وَفِي قولِ المُصَنِّفِ: «وَلَم يَترُكنا هَمَلًا» رَدٌّ عَلَىٰ مَن زَعَمَ أنَّ القضايا الكُبرىٰ مَوكولَةٌ إِلَىٰ تَراضي النَّاسِ واجتِهادِهِم، يَجتَمِعونَ فيُقَرِّرونَ مَا شاؤوا؛ فإنَّ اللهَ لَم يَترُك عِبادَهُ سُدًىٰ بِلَا حُكمٍ، بَل أرسَلَ إِلَيهِم رسولًا وبيَّنَ لهمُ الثَّوابِتَ.

فأمَّا أمورُ المَصالِحِ الجُزئيَّةِ الَّتِي لَا نَصَّ فِيهَا فيُنظَرُ فِيهَا بالمَصلَحَةِ، وأمَّا الأصولُ والثَّوابِتُ فَقَد كُفِينا النَّظَرَ فِيهَا بحُكمِ الرَّسولِ -ﷺ-؛ ومَن سَوَّىٰ بينَ البابَينِ فَقَد جعَلَ نفسَهُ هَمَلًا فِيمَا كُفِيَهُ، ورَدَّ عَلَىٰ الشَّارِعِ حُكمَهُ.

قال المؤلف -رحمه الله-:

وَدَلِيلُ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفسِيرِ التَّوحِيدِ؛ قَولُهُ تعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [سورة البينة:٥].

أَوَّلًا: تَفسِيرُ التَّوحِيدِ فِي الآيَةِ:

جَاءَ فِي صَدرِ الآيَةِ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة البينة:٥]، وَهَذَا الجُزءُ يُمَثِّلُ جَانِبَ الإِثبَاتِ فِي شَهَادَةِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَي أَنَّ العِبَادَةَ لَا تَصِحُّ وَلَا تُقبَلُ إِلَّا إِذَا كَانَت خَالِصَةً لِلَّهِ وَحدَهُ، خَالِيَةً مِن أَيِّ نَوعٍ مِن أَنوَاعِ الشِّركِ أَوِ الرِّيَاءِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿حُنَفَآءَ﴾ [سورة البينة:٥]، وَهَذِهِ الكَلِمَةُ تَعنِي: الِاستِقَامَةَ، فَهُم قَدِ انصَرَفُوا عَن عِبَادَةِ غَيرِ اللهِ، وَأَقبَلُوا عَلَىٰ تَوحِيدِهِ وَحدَهُ دُونَ سِوَاهُ، فَكَانُوا حُنَفَاءَ، أَي مُوَحِّدِينَ، وَبِهَذَا يَتَحَقَّقُ الجَانِبُ الآخَرُ مِنَ الشَّهَادَةِ، وَهُوَ النَّفيُ، أَي نَفيُ استِحقَاقِ العِبَادَةِ عَن كُلِّ مَا سِوَىٰ اللهِ.

فَالآيَةُ تُفَسِّرُ الشَّهَادَةَ تَفسِيرًا دَقِيقًا: إِثبَاتًا لِلعِبَادَةِ الخَالِصَةِ لِلَّهِ، وَنَفيًا لِكُلِّ صُوَرِ الشِّركِ.

ثَانِيًا: إِقَامَةُ الصَّلَاةِ:

ثُمَّ جَاءَ فِي الآيَةِ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [سورة البينة:٥]، الصَّلَاةَ عِمَادُ الدِّينِ،

وَالصِّلَةُ بَينَ العَبدِ وَرَبِّهِ، وَهِيَ أَعظَمُ أَركَانِ الإِسلَامِ بَعدَ الشَّهَادَتَينِ، وَأَحَبُّ الأَعمَالِ إِلَىٰ اللهِ، وَأَفضَلُهَا.

هِيَ نُورٌ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ، يُنِيرُ لِلمُسلِمِ فِي حَيَاتِهِ وَقَبرِهِ وَعَرَصَاتِ القِيَامَةِ وَجَنَّاتِ النَّعِيمِ.

الصَّلَاةُ عِبَادَةٌ جَلِيلَةٌ، وَمِن أَهَمِّ مَا يَجِبُ عَلَىٰ المُسلِمِ الِاعتِنَاءُ بِهِ، بَل هِيَ عَلَامَةُ الإِيمَانِ، فَلَا إِسلَامَ لِمَن لَا يُقِيمُهَا، جَعَلَهَا اللهُ مِفتَاحَ دِيوَانِ العِبَادِ وَرَأسَ مَالِهِ، فَلَا بَقَاءَ لِربِحٍ بِلَا رَأسِ مَالٍ، شَهِدَ بِكُفرِ تَارِكِهَا الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجمَاعُ الصَّحَابَةِ وَمَن بَعدَهُم مِن أَئِمَّةِ الهُدَىٰ.

كَانَ أَبُو بَكرٍ وَعُمَرُ يُعَلِّمَانِ الرَّجُلَ إِذَا دَخَلَ فِي الإِسلَامِ فَيَقُولَانِ: "تَعبُدُ اللهَ وَلَا تُشرِكُ بِهِ شَيئًا، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ الَّتِي افتَرَضَهَا اللهُ عَلَيكَ فِي مِيقَاتِهَا، فَإِنَّ التَّفرِيطَ فِيهَا هَلَاكٌ".

الصَّلَاةُ أَشهَرُ الفَرَائِضِ، وَمَنَارُ الدِّينِ، وَمَعلَمٌ يَمِيزُ المُسلِمِينَ عَنِ المُشرِكِينَ، فَلَا يَستَحِقُّ الدَّاخِلُ فِي الإِسلَامِ مُشَارَكَةَ أَهلِهِ وَمُبَايَنَةَ أَهلِ الكُفرِ إِلَّا بِإِقَامَتِهَا، أَمَرَ اللهُ بِالنِّدَاءِ إِلَيهَا لِإِقَامَتِهَا جَمَاعَةً، فَإِن تُرِكَتهَا العَامَّةُ انطَمَسَ مَنَارُ الدِّينِ، فَلَا يَبقَىٰ لِلدِّينِ رَسمٌ وَلَا عِلمٌ يُعرَفُ بِهِ، هِيَ عِمَادُ الدِّينِ الَّذِي لَا يَقُومُ إِلَّا بِهِ، فَإِذَا تُرِكَت سَقَطَ الدِّينُ، هِيَ أَوَّلُ مَا أَوجَبَهُ اللهُ مِنَ العِبَادَاتِ، وَأَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ عَلَيهِ العَبدُ، فَإِن قُبِلَت قُبِلَ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإِلَّا حَبِطَ.

الصَّلَاةُ أَصرَحُ الأَركَانِ فِي تَجَلِّي تَوحِيدِ العَبدِ لِرَبِّهِ، وَقَد نَفَتِ الشَّرِيعَةُ الإِسلَامَ عَن تَارِكِهَا، صَلَاحُ الأَعمَالِ مَربُوطٌ بِصَلَاحِهَا، وَفَسَادُهَا مِن فَسَادِهَا، تَارِكُهَا يَلحَقُهُ

الخُسرَانُ المُبِينُ، لِأَنَّهَا عَمُودُ البِنَاءِ، فَبِتَركِهَا يَنهَدِمُ البِنَاءُ، قَالَ لُقمَانُ الحَكِيمُ وَهُوَ يَعِظُ ابنَهُ: "يَا بُنَيَّ، أَقِمِ الصَّلَاةَ، فَإِنَّ مَثَلَهَا فِي دِينِ اللهِ كَمَثَلِ عَمُودِ فُسطَاطٍ، إِنِ استَقَامَ العَمُودُ نَفَعَتِ الأَوتَادُ وَالأَطنَابُ وَالظِّلَالُ، وَإِذَا مَالَ العَمُودُ أَو تَغَيَّرَ لَم يَنفَع وَتَدٌ وَلَا طُنُبٌ وَلَا ظِلَالٌ".

تَارِكُ الصَّلَاةِ يُحشَرُ مَعَ أَئِمَّةِ الكُفرِ فِي النَّارِ، وَيَمُوتُ عَلَىٰ غَيرِ الفِطرَةِ وَالمِلَّةِ، عَدَّهُ اللهُ بِالغَيِّ وَالوَيلِ وَبِسَقَرَ، وَهُوَ مِنَ المُتَوَلِّينَ، وَقَد بَرِئَت مِنهُ ذِمَّةُ اللهِ، دَمُهُ وَمَالُهُ لَا يَحرُمَانِ إِلَّا إِذَا كَانَ مِن أَهلِهَا، هِيَ العَلَامَةُ الَّتِي يَعرِفُ بِهَا النَّبِيُّ أُمَّتَهُ عَلَىٰ الحَوضِ، وَحَرَّمَ اللهُ عَلَىٰ النَّارِ أَن تَأكُلَ مَوَاطِنَ السُّجُودِ مِن ابنِ آدَمَ إِذَا دَخَلَ النَّارَ، هِيَ الفُرقَانُ بَينَ المُؤمِنِينَ وَالمُنَافِقِينَ يَومَ القِيَامَةِ، فَمَن تَرَكَهَا فَهُوَ خَائِنٌ لِلعَهدِ، أَبَاحَ اللهُ قَتلَهُ وَقِتَالَهُ، لِأَنَّهُ مِنَ المُجرِمِينَ فِي حَقِّ رَبِّ العَالَمِينَ، لَا تَنَالُهُ أُخُوَّةُ الدِّينِ، وَلَا ذِمَّةٌ عِندَ رَبِّ العَالَمِينَ، فَهُوَ مُشرِكٌ كَافِرٌ مُكَذِّبٌ مُتَوَلٍّ مُعرِضٌ هَالِكٌ مَغضُوبٌ عَلَيهِ مَردُودٌ عَمَلُهُ، كَمَا قَالَ رَبُّ العَالَمِينَ وَرَسُولُهُ الأَمِينُ -ﷺ-، فَلَيسَ مِن أَهلِ الدِّينِ وَالمِلَّةِ، وَلَا مِن أَهلِ التَّصدِيقِ وَالعَهدِ وَالفِطرَةِ، وَلَا تَنَالُهُ الشَّفَاعَةُ وَالأُخُوَّةُ، وَلَيسَ لَهُ حَظٌّ فِي الإِيمَانِ أَوِ الإِسلَامِ، بَل هُوَ مَنكُوسُ الفِطرَةِ، قِيلَ: مَن لَم يُصَلِّ فَلَا دِينَ لَهُ.

مَلعُونٌ تَارِكُهَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرضِ، يَلعَنُهُ كُلُّ شَيءٍ حَتَّىٰ الحِيتَانُ فِي البَحرِ، وَهُوَ أَشَرُّ مِنَ الزَّانِي وَالمُرَابِي وَالقَاتِلِ.

الصَّلَاةُ آخِرُ مَا أَوصَىٰ بِهِ النَّبِيُّ أُمَّتَهُ عِندَ فِرَاقِ الدُّنيَا.

٥١٩- **قَالَ الإِمَامُ أَحمَدُ:** وَبِالصَّلَاةِ أَوصَىٰ النَّبِيُّ -ﷺ- عِندَ خُرُوجِهِ مِنَ الدُّنيَا فَقَالَ: «اللهَ اللهَ فِي الصَّلَاةِ وَفِيمَا مَا مَلَكَت أَيمَانُكُم» فِي آخِرِ وَصِيَّتِهِ إِيَّاهُم، وَجَاءَ

الحَدِيثُ «أَنَّهَا آخِرُ وَصِيَّةِ كُلِّ نَبِيٍّ لِأُمَّتِهِ، وَآخِرُ عَهدِهِ إِلَيهِم عِندَ خُرُوجِهِ مِنَ الدُّنيَا».

٥٢٠ - **وَجَاءَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَجُودُ بِنَفسِهِ وَيَقُولُ:** «الصَّلَاةَ، الصَّلَاةَ، الصَّلَاةَ».

وَوَاللهِ لَن يَستَقِيمَ حَالُ الإِنسَانِ إِلَّا إِذَا استَقَامَت صَلَاتُهُ، لَو تَفَكَّرَ تَارِكُ الصَّلَاةِ فِي أَنَّ اللهَ لَم يَعُد يُحِبُّ لِقَاءَهُ وَأَنَّهُ أَعرَضَ عَنهُ، لَكَفَىٰ بِذَلِكَ ذُلًّا وَكَمَدًا وَقَهرًا، كَيفَ يَهنِئُ لِلعَاقِلِ عَيشٌ دُونَ تِلكَ اللَّحَظَاتِ الَّتِي يَخلُو بِهَا مَعَ اللهِ وَيَنكَسِرُ بَينَ يَدَيهِ

مَاذَا يَبقَىٰ إِذَا تَرَكتَ الصَّلَاةَ؟

٥٢١ - **قَالَ الإِمَامُ أَحمَدُ فِي رِسَالَتِهِ الصَّلَاةِ:** فَكُلُّ مُستَخِفٍّ بِالصَّلَاةِ مُستَهِينٍ بِهَا هُوَ مُستَخِفٌّ بِالإِسلَامِ مُستَهِينٌ بِهِ، وَإِنَّمَا حَظُّهُم مِنَ الإِسلَامِ عَلَىٰ قَدرِ حَظِّهِم مِنَ الصَّلَاةِ، وَرَغبَتُهُم فِي الإِسلَامِ عَلَىٰ قَدرِ رَغبَتِهِم فِي الصَّلَاةِ، فَاعرِف نَفسَكَ يَا عَبدَ اللهِ، وَاعلَم أَنَّ حَظَّكَ مِنَ الإِسلَامِ وَقَدرَ الإِسلَامِ عِندَكَ بِقَدرِ حَظِّكَ مِنَ الصَّلَاةِ وَقَدرِهَا عِندَكَ، وَاحذَر أَن تَلقَىٰ اللهَ وَلَا قَدرَ لِلإِسلَامِ عِندَكَ، فَإِنَّ قَدرَ الإِسلَامِ فِي قَلبِكَ كَقَدرِ الصَّلَاةِ فِي قَلبِكَ، وَقَد جَاءَ الحَدِيثُ عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- أَنَّهُ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَمُودُ الإِسلَامِ» أَلَستَ تَعلَمُ أَنَّ الفُسطَاطَ إِذَا سَقَطَ عَمُودُهُ سَقَطَ الفُسطَاطُ وَلَم يُنتَفَع بِالطُّنُبِ وَلَا بِالأَوتَادِ، وَإِذَا قَامَ عَمُودُ الفُسطَاطِ انتُفِعَت بِالطُّنُبِ وَالأَوتَادِ؟! فَكَذَلِكَ الصَّلَاةُ مِنَ الإِسلَامِ.

فَانظُرُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ- وَاعقِلُوا، وَأَحكِمُوا الصَّلَاةَ، وَاتَّقُوا اللهَ فِيهَا، وَتَعَاوَنُوا عَلَيهَا، وَتَنَاصَحُوا فِيهَا بِالتَّعلِيمِ مِن بَعضِكُم لِبَعضٍ، وَالتَّذكِيرِ مِن بَعضِكُم لِبَعضٍ مِنَ الغَفلَةِ وَالنِّسيَانِ، فَإِنَّ اللهَ -ﷻ- قَد أَمَرَكُم أَن تَعَاوَنُوا عَلَىٰ البِرِّ وَالتَّقوَىٰ، وَالصَّلَاةُ أَفضَلُ

البِرِّ......

٥٢٢ - **رُوِيَ فِي «السُّنَّةِ لِأَبِي بَكرِ بنِ الخَلَّالِ» (٤/ ١٢٧):** عَن أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ، عَن رَسُولِ اللهِ -ﷺ-: لَتُنقَضَنَّ عُرَىٰ الإِسلَامِ عُروَةً عُروَةً، فَكُلَّمَا انتَقَضَت عُروَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا، فَأَوَّلُهُنَّ نَقضًا الحُكمُ، وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ.

٥٢٣ - **وَرُوِيَ فِي «الفِتَنِ لِنُعَيمِ بنِ حَمَّادٍ» (٢/ ٦٠٣):** عَن عَبدِ العَزِيزِ بنِ رُفَيعٍ، سَمِعَ شَدَّادَ بنَ مَعقِلٍ، يَقُولُ: سَمِعتُ ابنَ مَسعُودٍ، يَقُولُ: «إِنَّ» أَوَّلَ مَا تَفقِدُونَ مِن دِينِكُمُ الأَمَانَةُ، وَآخِرُ مَا يَبقَىٰ الصَّلَاةُ.

٥٢٤ - **وَرَوَىٰ أَبُو نُعَيمٍ فِي حِليَةِ الأَولِيَاءِ (٢٨١/ ١):** عَن عَبدِ العَزِيزِ ابنِ أَخٍ لِحُذَيفَةَ قَالَ: سَمِعتُهُ مِن حُذَيفَةَ مُنذُ خَمسٍ وَأَربَعِينَ سَنَةً قَالَ: قَالَ حُذَيفَةُ: أَوَّلُ مَا تَفقِدُونَ مِن دِينِكُمُ: الخُشُوعُ، وَآخِرُ مَا تَفقِدُونَ مِن دِينِكُمُ: الصَّلَاةُ.

فَصَلَاتُنَا آخِرُ دِينِنَا، وَهِيَ أَوَّلُ مَا نُسأَلُ عَنهُ غَدًا مِن أَعمَالِنَا، فَلَيسَ بَعدَ ذَهَابِ الصَّلَاةِ إِسلَامٌ وَلَا دِينٌ، فَإِذَا صَارَتِ الصَّلَاةُ آخِرَ مَا يَذهَبُ مِنَ الإِسلَامِ، فَكُلُّ شَيءٍ يَذهَبُ آخِرُهُ: فَقَد ذَهَبَ جَمِيعُهُ.

وَهِيَ خَيرُ أَعمَالِنَا، وَهِيَ قُرَّةُ أَعيُنِ المُوَحِّدِينَ وَفِيهَا رَاحَتُهُم مِن عَنَاءِ الدُّنيَا، وَهِيَ مَفزَعُ الأَنبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي حَيَاتِهِم وَبَعدَ مَمَاتِهِم، لِأَنَّهَا نُسُكٌ وَقُربَانٌ وَأَجرٌ وَكَفَّارَةٌ وَمِفتَاحُ كُلِّ خَيرٍ وَمِغلَاقُ كُلِّ شَرٍّ.

وَمِمَّا يُمَيِّزُ الصَّلَاةَ عَن سَائِرِ الفَرَائِضِ أَنَّ مَن تَرَكَهَا - عَلَىٰ خِلَافِ غَيرِهَا - قَد وَقَعَ فِي الكُفرِ، سَوَاءٌ تَرَكَهَا جُحُودًا لِوُجُوبِهَا أَو تَهَاوُنًا فِي أَدَائِهَا.

٥٢٥ - **وَرَوَىٰ مُسلِمٌ بِسَنَدِهِ عَن جَابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ -رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا- قَالَ:** - سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ

- ﷺ - يقُولُ: «إِنَّ بَينَ الرَّجُلِ وَبَينَ الشِّركِ وَالكُفرِ ترَكَ الصلاة».[١]

٥٢٦ - **وَفِي رِوَايَةٍ:** «بَينَ العَبدِ وَبَينَ الكُفرِ، ترَكُ الصلاة».[٢]

٥٢٧ - **وَفِي رِوَايَةٍ:** «بَينَ الرَّجُلِ، وَبَينَ الشِّركِ، أَوِ الكُفرِ، ترَكُ الصَّلَاةِ».

٥٢٨ - **وَفِي رِوَايَةٍ قِيلَ لَهُ:** أَكُنتُم تَعُدُّونَ الذُّنُوبَ شِركًا؟ قَالَ: مَعَاذَ الله.[٣]

٥٢٩ - **وَفِي رِوَايَةٍ:** «لَيسَ بَينَ العَبدِ وَبَينَ الكُفرِ، أَو قَالَ: الشِّركِ، إِلَّا أَن يَدَعَ صَلَاةً مكتوبة».[٤]

٥٣٠ - **وَفِي رِوَايَةٍ:** «ترَكُ الصَّلَاةِ شرك».[٥]

فَجعَلَ النَّبِيُّ - ﷺ - الحَدَّ بَينَ الإِسلَامِ وَالكُفرِ تَركَ الصَّلَاةِ، فَمَن أَدَّىٰ الصَّلَاةَ فَهُوَ مُسلِمٌ، وَمَن تَركَهَا فَهُوَ كَافِرٌ، **وَرُوِيَ عَن بُرَيدَةَ بنِ الحُصَيبِ** - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «العَهدُ الَّذِي بَينَنَا وَبَينَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَن تَركَهَا فَقَد كَفَرَ».[٦]

الَّذِي رُوِيَ عَن أَصحَابِ النَّبِيِّ - ﷺ - هُوَ إِكفَارُ تَارِكِ الصَّلَاةِ وَلَم يَأتِي عَن وَاحِدٍ مِنهُم مُخَالَفَةُ ذَلِكَ، وَإِجمَاعُهُم ثَابِتٌ لَا شَكَّ فِيهِ.

---

(١) أَخرَجَهُ مسلم فِي "صحيحه" (١ / ٦١) برقم: (٨٢)(١ / ٦٢)، وانظر تعظيم قدر الصلاة للمروزي فإنه قَد استوفى طرقه وألفاظه (٢/ ٨٧٧-٨٧٣) ح ٨٦٦-٨٩٢.

(٢) اللفظ لابن أَبِي شيبة.

(٣)اللفظ لأحمد.

(٤) اللفظ لعَبد بن حُميد.

(٥) اللفظ لعبد الرزاق (٥٠٠٩)

(٦) رَوَاهُ أحمد فِي مسنده (٥/ ٣٥٥) والترمذي (٢٦٢١) والنسائي فِي سننه (١/ ٥٤).

الإِجمَاعُ الَّذِي نُقِلَ عَن عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: عَن سُلَيمَانَ بنِ يَسَارٍ قَالَ: أَنَّ المِسوَرَ بنَ مَخرَمَةَ أَخبَرَهُ أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- **إِذ** طُعِنَ، دَخَلَ عَلَيهِ هُوَ وَابنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- فَلَمَّا أَصبَحَ مِن غَدٍ، فَزَّعُوهُ، فَقَالُوا: الصَّلَاةَ، فَفَزِعَ، فَقَالَ: نَعَم، لَا حَظَّ فِي الإِسلَامِ لِمَن تَرَكَ الصَّلَاةَ فَصَلَّىٰ وَالجُرحُ يَثعَبُ دَمًا.(١)

فَقَالَ هَذَا بِمَحضَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَم يُنكِرُوهُ عَلَيهِ.

٥٣١ - **وَعَن أَبِي المَلِيحِ، قَالَ:** سَمِعتُ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يَقُولُ: لَا إِسلَامَ لِمَن لَم يُصَلِّ، قِيلَ لِشَرِيكٍ: عَلَىٰ المِنبَرِ؟

قَالَ: نعم.(٢)

وَهَذَا مِن أَصرَحِ الأَلفَاظِ فِي تَكفِيرِ تَارِكِ الصَّلَاةِ وَخُرُوجِهِ مِنَ المِلَّةِ، وَهُوَ إِجمَاعٌ بِاعتِبَارِ أَنَّ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ ذَلِكَ بِمَحضَرٍ مِن أَصحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُم جَمِيعٌ مُتَوَافِرُونَ، وَلَم يُنكِر ذَلِكَ أَحَدٌ مِنهُم.

جابر بن عبد الله -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-:

٥٣٢ - **سَأَلَهُ مُجَاهِدُ بنُ جَبرٍ:** مَا كَانَ يُفَرِّقُ بَينَ الكُفرِ وَالإِيمَانِ عِندَكُم مِنَ الأَعمَالِ

---

(١) رَوَاهُ مالك فِي الموطأ (١/ ٤٠)، وعبد الرزاق فِي (المصنف) (١/ ١٥٠)، وابن أَبي شيبة فِي (المصنف) (٦/ ١٦٤) واستوفىٰ طرقه محمد بن نصر فِي تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٨٩٦-٨٩٢) ح ٩٢٣-٩٢٩.

(٢) رَوَاهُ محمد بن نصر المروزي فِي تعظيم قدر الصلاة (٩٣٠).

عَلَىٰ عَهدِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-؟ **قَالَ: الصلاة.**(١)

٥٣٣- **وَرُوِيَ عَن أَبِي الزُّبَيرِ قَالَ:** سَأَلتُ جَابِرًا أَو سَأَلَهُ رَجُلٌ: «أَكُنتُم **تَعُدُّونَ** الذَّنبَ شِركًا؟» قَالَ: " لَا، وَسُئِلَ: «مَا بَينَ العَبدِ وَالكُفرِ؟»، فَقَالَ: «تَركُ الصَّلَاةِ»(٢)

وَجَابِرٌ هُوَ رَاوِيَةُ حَدِيثِ تَكفِيرِ تَارِكِ الصَّلَاةِ الَّذِي سَبَقَ فِي أَدِلَّةِ السُّنَّةِ.

٥٣٤- **رُوِيَ عَن أَبِي الزُّبَيرِ، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بنَ عَبدِ اللهِ يَقُولُ:** سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- يَقُولُ: بَينَ الرَّجُلِ، وَبَينَ الشِّركِ وَالكُفرِ، تَركُ الصلاة.(٣)

أبي هريرة -رضي الله عنه-:

٥٣٥- **رَوَىٰ عَبدُ اللهِ بنُ شَقِيقٍ عَن أَبِي هُرَيرَةَ قَالَ:** كَانَ أَصحَابُ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- لَا يَرَونَ شَيئًا مِنَ الأَعمَالِ تَركُهُ كُفرًا غَيرَ الصلاة.(٤)

---

(١) رواه ابن بطة في (الإبانة) (٢/ ٦٧٢)، ومحمد بن نصر في (تعظيم قدر الصلاة) (٢/ ٨٧٧)، واللالكائي (٤/ ٩١٠).

(٢) «مُسنَدُ ابنِ الجَعدِ» (ص ٣٨٥).

(٣) اللَّفظ لِمُسلِمٍ.

(٤) رَوَاهُ الحَاكِمُ (١/ ٤٨) وَقَالَ: إِنَّهُ عَلَىٰ شَرطِ الشَّيخَينِ، فَإِنَّهُ ذَكَرَ حَدِيثَ بُرَيدَةَ: «العَهدُ الَّذِي بَينَنَا وَبَينَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَن تَرَكَهَا فَقَد كَفَرَ» ثُمَّ قَالَ: وَلِهَذَا الحَدِيثِ شَاهِدٌ صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرطِهِمَا جَمِيعًا، ثُمَّ سَاقَهُ. وَكَأَنَّ الذَّهَبِيَّ لَم يَنتَبِه لِكَلَامِ الحَاكِمِ المُتَقَدِّمِ فَقَالَ: (لَم يَتَكَلَّم عَلَيهِ، وَإِسنَادُهُ صَالِحٌ).

وَهَؤُلَاءِ بَعضُ مَنِ استَدَلَّ بِهَذَا الأَثَرِ أَو صَحَّحَهُ:

١- ابنُ أَبِي شَيبَةَ رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «الإِيمَانِ»

٢- أَحمَدُ بنُ حَنبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي رِسَالَةِ عَبدُوسٍ العَطَّارِ

٣- عَلِيُّ بنُ المَدِينِيِّ رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «السُّنَّةِ» لِلَّالَكَائِيِّ

الحسن البصري -رحمه الله-:

٥٣٦- **قَالَ الحَسَنُ البَصرِيُّ:** بَلَغَنِي أَنَّ أَصحَابَ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- كَانُوا يَقُولُونَ: بَينَ العَبدِ وَبَينَ أَن يُشرِكَ فَيَكفُرَ أَن يَدَعَ الصَّلَاةَ مِن غَيرِ عذر.(١)

٤- التِّرمِذِيُّ إِذ أَخرَجَ فِي «جَامِعِهِ» تَحتَ بَابِ «بَابُ مَا جَاءَ فِي تَركِ الصَّلَاةِ»

٥- مُحَمَّدُ بنُ نَصرٍ المَروَزِيُّ إِذ ذَكَرَهُ تَحتَ بَابِ «بَابُ ذِكرِ إِكفَارِ تَارِكِ الصَّلَاةِ»

٦- الخَلَّالُ رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «السُّنَّةِ».

٧- الحَاكِمُ إِذ صَحَّحَهُ مَوقُوفًا عَلَىٰ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ فِي «مُستَدرَكِهِ».

وَقَد تَلَقَّىٰ أَهلُ السُّنَّةِ هَذَا الأَثَرَ بِالقَبُولِ وَالِاحتِجَاجِ وَالرَّدِّ عَلَىٰ المُرجِئَةِ فِي تَركِهِم تَكفِيرَ تَارِكِ الصَّلَاةِ، وَقَد اعتَرَضَ بَعضُ المُرجِئَةِ المُعَاصِرِينَ عَلَىٰ هَذَا الأَثَرِ بِالإِنكَارِ وَالرَّدِّ وَالطَّعنِ فِي سَنَدِهِ وَمَتنِهِ، فَأَتَىٰ بِمَا لَم يُسبَق إِلَيهِ، بَل تَمَادَىٰ فِي تَعَالُمِهِ وَغُرُورِهِ، بِأَنَّهُ ادَّعَىٰ أَنَّهُ لَم يَسبِقهُ أَحَدٌ مِن أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَالحَدِيثِ إِلَىٰ هَذَا التَّحقِيقِ، ثُمَّ زَعَمَ أَنَّهُم لَو اطَّلَعُوا عَلَيهِ لَأَخَذُوا بِهِ وَلَم يُخَالِفُوهُ.

كُلُّ ذَلِكَ انتِصَارًا لِلمُرجِئَةِ فِي إِسقَاطِ رُكنِيَّةِ العَمَلِ مِنَ الإِيمَانِ، وَتَصحِيحًا لِإِيمَانِ العَبدِ دُونَ عَمَلٍ، وَنَقضًا لِإِجمَاعِ الصَّحَابَةِ عَلَىٰ تَكفِيرِ تَارِكِ الصَّلَاةِ.

رَوَاهُ ابنُ بَطَّةَ (٢/ ٦٧٣)، وَاللَّالَكَائِيُّ (٤/ ٩١٠).

وَإِسنَادُهُ صَحِيحٌ، وَالحَسَنُ البَصرِيُّ إِمَامٌ مِن أَئِمَّةِ التَّابِعِينَ الَّذِينَ أَدرَكُوا الكَثِيرَ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَقَولُهُ هَذَا مِن عَالِمٍ أَدرَكَ مَن نُقِلَ عَنهُم هَذَا القَولُ، وَلَم يَسمَع مِن أَحَدِهِم مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ، فَنَقلُهُ مُعتَبَرٌ، وَقَد قَبِلَ أَهلُ العِلمِ حِكَايَةَ الإِجمَاعِ فِي كَثِيرٍ مِنَ المَسَائِلِ مِمَّن هُوَ أَقَلُّ عِلمًا وَحِفظًا وَصِدقًا وَأَدنَىٰ طَبَقَةً مِنَ الحَسَنِ البَصرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ (٢٦٢٢)، وَابنُ أَبِي شَيبَةَ فِي «المُصَنَّفِ» (٦/ ١٧٢)، وَمُحَمَّدُ بنُ نَصرٍ فِي «تَعظِيمِ قَدرِ الصَّلَاةِ» (٢/ ٩٠٤).

(١) رَوَاهُ ابنُ بَطَّةَ (٢/ ٦٧٣)، وَاللَّالَكَائِيُّ (٤/ ٩١٠).

وَإِسنَادُهُ صَحِيحٌ، وَالحَسَنُ البَصرِيُّ إِمَامٌ مِن أَئِمَّةِ التَّابِعِينَ الَّذِينَ أَدرَكُوا الكَثِيرَ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَقَولُهُ هَذَا

عبد الله بن شقيق -رَحِمَهُ اللهُ-:

٥٣٧- **عَبدُ اللهِ بنُ شَقِيقٍ:** قَالَ: لَم يَكُن أَصحَابُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- يَرَونَ شَيئًا مِنَ الأَعمَالِ تَركُهُ كُفرٌ غَيرَ الصلاة.[1]

أيوب السختِيَاني -رَحِمَهُ اللهُ-:

٥٣٨- **أَيُّوبُ السِّختِيَانِيُّ:** قَالَ: تَركُ الصَّلَاةِ كُفرٌ لَا يَختَلِفُ فيه.[2]

مَسرُوق -رَحِمَهُ اللهُ-:

٥٣٩- **قَالَ مَسرُوقٌ:** كَانُوا لَا يَرونَ شَيئًا تَركُهُ كُفرٌ إِلَّا الصَّلَاةَ.

وَقَالَ: «مَن شَرِبَ الخَمرَ فَقَد كَفَرَ، **وَكُفرُهُ أَن لَيسَ لَهُ صَلَاةٌ.**»[3]

وَمَن أَرَادَ الإِسلَامَ حَقًّا، وَجَبَ عَلَيهِ أَن يَتَمَسَّكَ بِالصَّلَاةِ، وَيُؤَدِّيَهَا عَلَىٰ وَقتِهَا، وَيُقِيمَهَا كَمَا أَمَرَ اللهُ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ عَلَىٰ خَطَرٍ عَظِيمٍ، وَدِينُهُ فِي مِيزَانِ الهلاك.[4]

ثَالِثًا: الزَّكَاةُ:

١) حُكمُ الزَّكَاةِ وَمَكَانَتُهَا:

مِن عَالِمٍ أَدرَكَ مَن نُقِلَ عَنهُم هَذَا القَولُ، وَلَم يَسمَع مِن أَحَدِهِم مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ، فَنَقلُهُ مُعتَبَرٌ، وَقَد قَبِلَ أَهلُ العِلمِ حِكَايَةَ الإِجمَاعِ فِي كَثِيرٍ مِنَ المَسَائِلِ مِمَّن هُوَ أَقَلُّ عِلمًا وَحِفظًا وَصِدقًا وَأَدنَىٰ طَبَقَةً مِنَ الحَسَنِ البَصرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

(١) رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ (٢٦٢٢)، وَابنُ أَبِي شَيبَةَ فِي «المُصَنَّفِ» (٦/ ١٧٢)، وَمُحَمَّدُ بنُ نَصرٍ فِي «تَعظِيمِ قَدرِ الصَّلَاةِ» (٢/ ٩٠٤).

(٢) رَوَاهُ مُحَمَّدُ بنُ نَصرٍ فِي «تَعظِيمِ قَدرِ الصَّلَاةِ» (٢/ ٩٢٥).

(٣) سُنَنُ النَّسَائِيِّ (٨/ ٣١٥).

(٤) انظُر لِلاستِفَادَةِ: «نَاقِضُ تَركِ الصَّلَاةِ» مِن كِتَابِ «دُرَّةِ البَيَانِ فِي شَرحِ نَوَاقِضِ الإِسلَامِ».

الزَّكَاةُ فَرِيضَةٌ مُحكَمَةٌ وَرُكنٌ مِن أَركَانِ الإِسلَامِ بِالإِجمَاعِ؛ دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجمَاعُ المُسلِمِينَ، وَهِيَ حَقٌّ وَاجِبٌ فِي الأَموَالِ، تُؤخَذُ مِنَ الأَغنِيَاءِ وَتُرَدُّ عَلَىٰ الفُقَرَاءِ.

ومَن تَرَكَ الزَّكَاةَ جَاحِدًا لِوُجُوبِهَا وَهُوَ عَالِمٌ بِهِ: كَفَرَ بِالإِجمَاعِ؛ لِأَنَّهُ مُكَذِّبٌ لِأَدِلَّةٍ ظَاهِرَةٍ مِنَ الدِّينِ.

مَن جَحَدَهَا جَهلًا: إِن كَانَ حَدِيثَ عَهدٍ بِإِسلَامٍ أَو نَاشِئًا بِبَادِيَةٍ بَعِيدَةٍ: يُعَرَّفُ وَيُعَلَّمُ وَلَا يُكَفَّرُ حَتَّىٰ تَقُومَ عَلَيهِ الحُجَّةُ.

أَمَّا مَن كَانَ بَينَ المُسلِمِينَ حَيثُ يُعلَمُ ذَلِكَ بِالضَّرُورَةِ: فَلَا يُقبَلُ مِنهُ ادِّعَاءُ الجَهلِ، وَيُحكَمُ عَلَيهِ بِمَا يَقتَضِيهِ حَالُهُ بَعدَ البَيَانِ.

وإِذَا امتَنَعَ صَاحِبُ المَالِ مِن أَدَاءِ الزَّكَاةِ:

فَلِلإِمَامِ أَخذُهَا قَهرًا بِاتِّفَاقٍ، وَيُعَزِّرُ المُمتَنِعَ.

الجُمهُورُ: يَأخُذُ الزَّكَاةَ فَقَط دُونَ زِيَادَةٍ عَلَيهَا.

ومَنِ امتَنَعَ مِنَ الزَّكَاةِ وَمُقَاتَلَةُ الإِمَامِ: يُقَاتَلُ قِتَالَ المُرتَدِّينَ

وشُرُوطُ وُجُوبِ الزَّكَاةِ (أَهَمُّهَا):

الإِسلَامُ.

الحُرِّيَّةُ (فَلَا زَكَاةَ عَلَىٰ العَبدِ لِعَدَمِ تَمَامِ المُلكِ).

تَمَامُ المُلكِ وَاستِقرَارُهُ.

مِلكُ النِّصَابِ.

مُضِيُّ الحَولِ فِيمَا يُشتَرَطُ لَهُ الحَولُ (كَالنَّقدَينِ وَعُرُوضِ التِّجَارَةِ وَالسَّائِمَةِ).

وَتَجِبُ الزَّكَاةُ فِي مَالِ اليَتِيمِ وَالصَّغِيرِ وَالمَجنُونِ عِندَ جُمهُورٍ؛ لِأَنَّهَا حَقٌّ مُتَعَلِّقٌ بِالمَالِ.

والمُعتبَرُ فِي الحَولِ: الحَولُ القَمَرِيُّ (الهِجرِيُّ).

لَا يُشتَرَطُ الحَولُ فِي: الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ (تَجِبُ يومَ الحَصَادِ/ بَدوِ الصَّلَاحِ).

المَعَادِنِ (عِندَ الِاستِخرَاجِ).

الرِّكَازِ (عِندَ الوِجدَانِ، وَفِيهِ الخُمُسُ).

رِبح التِّجَارَةِ وَنِتَاجِ السَّائِمَةِ: حَولُهُمَا حَولُ الأَصلِ.

والدَّينُ عَلَىٰ مَلِيءٍ بَاذِلٍ:

عِندَ طَائِفَةٍ: تُزَكَّىٰ كُلَّ سَنَةٍ؛ لِأَنَّهُ مَقدُورٌ عَلَىٰ أَخذِهِ.

وَعِندَ آخَرِينَ: لَا تُخرَجُ زَكَاتُهُ حَتَّىٰ يُقبَضَ، ثُمَّ يُزَكَّىٰ لِمَا مَضَىٰ أَو لِعَامٍ وَاحِدٍ حَسَبَ الخِلَافِ.

الدَّينُ عَلَىٰ مُعسِرٍ/ مُمَاطِلٍ/ جَاحِدٍ: لَا زَكَاةَ فِيهِ حَتَّىٰ يُقبَضَ، ثُمَّ يَبتَدِئُ لَهُ حَولٌ (وَعِندَ مَن يُوجِبُ: يُزَكِّيهِ عِندَ القَبضِ عَلَىٰ تَفصِيلٍ).

والدَّينُ يَمنَعُ الزَّكَاةَ فِي الأَموَالِ البَاطِنَةِ عِندَ كَثِيرٍ إِذَا أَنقَصَ النِّصَابَ، وَلَا يَمنَعُهَا فِي الأَموَالِ الظَّاهِرَةِ عِندَ جَمَاعَةٍ.

ولَا زَكَاةَ فِي المَالِ المُحَرَّمِ، وَلَا تَبرَأُ الذِّمَّةُ إِلَّا بِالتَّخَلُّصِ مِنهُ وَصَرفِهِ فِي وُجُوهِ الخَيرِ دُونَ احتِسَابِهِ زَكَاةً.

ومَن مَاتَ وَعَلَيهِ زَكَاةٌ وَاجِبَةٌ: تُخرَجُ مِن تَرِكَتِهِ قَبلَ القِسمَةِ؛ لِأَنَّهَا دَينٌ لِلَّهِ وَحَقٌّ لِلفُقَرَاءِ لَا يَسقُطُ بِالمَوتِ.

وتَجِبُ فِي السَّائِمَةِ مِنَ: الإِبِلِ وَالبَقَرِ وَالغَنَمِ، بِشَرطِ:

أَن تَكُونَ سَائِمَةً أَكثَرَ الحَولِ.

وَأَن تَكُونَ لِلدَّرِّ وَالنَّسلِ وَالتَّسمِينِ لَا لِلعَمَلِ (العَوَامِلُ لَا زَكَاةَ فِيهَا عِندَ جُمهُورٍ).

وَتَفصِيلُ الأَنصِبَةِ وَالفَرَائِضِ فِي الإِبِلِ وَالبَقَرِ وَالغَنَمِ ثَابِتٌ بِالأَحَادِيثِ المَشهُورَةِ، وَأَصلُهُ كِتَابُ الصَّدَقَاتِ.

وتَجِبُ إِذَا بَلَغَت نِصَابَ خَمسَةِ أَوسُقٍ.

لَا حَولَ فِيهَا، وَتَجِبُ عِندَ بُدُوِّ الصَّلَاحِ/ اشتِدَادِ الحَبِّ.

المِقدَارُ:

العُشرُ (١٠٪) فِيمَا سُقِيَ بِلَا كُلفَةٍ.

نِصفُ العُشرِ (٥٪) فِيمَا سُقِيَ بِكُلفَةٍ.

وَثَلَاثَةُ أَربَاعِ العُشرِ (٧.٥٪) إِنِ اختَلَطَ السَّقيُ نِصفًا بِنِصفٍ.

وَلَا يُضَمُّ جِنسٌ إِلَىٰ جِنسٍ لِتَكمِيلِ النِّصَابِ، وَتُضَمُّ أَنوَاعُ الجِنسِ الوَاحِدِ.

والرِّكَازُ: فِيهِ الخُمُسُ فَورًا بِلَا نِصَابٍ وَلَا حَولَ.

المَعَادِنُ: تَجِبُ فِيهَا الزَّكَاةُ عِندَ استِخرَاجِهَا، وَالأَشهَرُ أَنَّهَا رُبُعُ العُشرِ (٢.٥٪) مَعَ اشتِرَاطِ بُلُوغِ النِّصَابِ.

والذَّهَبُ وَالفِضَّةُ: تَجِبُ الزَّكَاةُ إِذَا بَلَغَا النِّصَابَ وَحَالَ الحَولُ، وَالوَاجِبُ رُبُعُ العُشرِ (٢.٥٪).

والأَورَاقُ النَّقدِيَّةُ المُعَاصِرَةُ: فِي حُكمِ النَّقدَينِ، وَتَقدِيرُ نِصَابِهَا:

إِمَّا بِنِصَابِ الفِضَّةِ (الأَقَلِّ) عِندَ كَثِيرٍ.

أَو بِنِصَابِ الذَّهَبِ عِندَ آخرِينَ؛ مُرَاعَاةً لِمَعنَىٰ الغِنَىٰ وَتَغَيُّرِ قِيمَةِ الفِضَّةِ.

والحُلِيُّ المُبَاحُ المُعَدُّ لِلاستِعمَالِ: لَا زَكَاةَ فِيهِ عِندَ الجُمهُورِ.

وَيَجِبُ فِي الحُلِيِّ المُعَدِّ لِلإِجَارَةِ أَوِ الادِّخَارِ.

وتَجِبُ فِي كُلِّ مَا أُعِدَّ لِلبَيعِ وَالرِّبحِ إِذَا بَلَغَ النِّصَابَ وَحَالَ الحَولُ:

تُقَوَّمُ البِضَاعَةُ بِسِعرِهَا يومَ الوُجُوبِ.

يُضَمُّ إِلَيهَا النَّقدُ وَالدُّيُونُ المَرجُوَّةُ.

وَيُطرَحُ مَا عَلَىٰ التَّاجِرِ مِن دُيُونٍ.

ثُمَّ يُخرَجُ ٢.٥٪ مِنَ الصَّافِي.

ولَا تُدفَعُ إِلَّا لِلأَصنَافِ الثَّمَانِيَةِ المَنصُوصِ عَلَيهَا.

وَيَجُوزُ دَفعُهَا لِصِنفٍ وَاحِدٍ.

ولَا تُدفَعُ لِلكَافِرِ، وَلَا لِآلِ البَيتِ عِندَ جُمهُورٍ (مَعَ تَفصِيلٍ فِي حَالِ مَنعِ الخُمُسِ).

ولَا يَدفَعُ الرَّجُلُ زَكَاتَهُ لِزَوجَتِهِ، وَيَجُوزُ لِلزَّوجَةِ دَفعُ زَكَاتِهَا لِزَوجِهَا.

ولَا تُعطَىٰ لِلأُصُولِ وَالفُرُوعِ (الوَالِدَينِ وَالأَولَادِ) لِوُجُوبِ النَّفَقَةِ، وَيُستَثنَىٰ مَا كَانَ مِن بَابِ الغُرمِ أَو عِندَ العَجزِ عَنِ النَّفَقَةِ عَلَىٰ تَفصِيلٍ.

والزَّكَاةُ لَا تَصِحُّ إِلَّا بِنِيَّةٍ عِندَ الأَدَاءِ.

وَمَن دَفَعَهَا لِمَن ظَنَّهُ أَهلًا لَهَا بَعدَ تَحَرٍّ ثُمَّ بَانَ خِلَافُ ذَلِكَ: أَجزَأَت.

قال المؤلف - رحمه الله -:

وَدَلِيلُ الصِّيَامِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة:١٨٣].

وَدَلِيلُ الحَجِّ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران:٩٧].

أَمَّا الرُّكنُ الرَّابعُ مِن أَركَانِ الإِسلَامِ، فَهُوَ صِيامُ شَهرِ رَمَضَانَ، وَهُوَ عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ فَرَضَهَا اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبادِهِ، وَذَكَرَهَا فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ بِقَولِهِ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [سورة البقرة:١٨٥].

وَشَهرُ رَمَضَانَ إِمَّا أَن يَكُونَ تِسعَةً وَعِشرِينَ يومًا أَو ثَلَاثِينَ يومًا، حَسَبَ رُؤيَةِ الهِلَالِ، وَيَجِبُ عَلَىٰ المُسلِمِ صِيَامُهُ كَامِلًا فِي كُلِّ عَامٍ، إِلَّا مَن كَانَ لَهُ عُذرٌ شَرعِيٌّ مُعتَبَرٌ كَالسَّفَرِ أَوِ المَرَضِ أَوِ الحَيضِ أَوِ النِّفَاسِ.

مَا هُوَ الصِّيَامُ؟

فُرِضَ الصِّيَامُ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الهِجرَةِ.

الصِّيَامُ فِي الشَّرعِ هُوَ الِامتِنَاعُ التَّامُّ عَنِ: الأَكلِ وَالشُّربِ وَالجِمَاعِ ووكل مَا يُفسِدُ الصَّومَ أَو نَهَىٰ اللهُ عَنهُ.

وَذَلِكَ مِن طُلُوعِ الفَجرِ الصَّادِقِ إِلَىٰ غُرُوبِ الشَّمسِ، بِنِيَّةِ التَّعَبُّدِ لِلَّهِ وَحدَهُ،

وَاستِجَابَةً لِأَمرِهِ.

وَلِلصَّومِ مَكَانَةٌ عَظِيمَةٌ فِي الدِّينِ، إِذ هُوَ عِبَادَةٌ تُزَكِّي النَّفسَ وَتُهَذِّبُ السُّلُوكَ، وَتُقَرِّبُ العَبدَ مِن رَبِّهِ، وَقَد وَعَدَ اللهُ الصَّائِمِينَ أَجرًا عَظِيمًا لَا يُقَاسُ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ القُدسِيِّ:

"كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّومَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجزِي بِهِ".

أَصلُ الوُجُوبِ وَدَلِيلُهُ

صَومُ رَمَضَانَ فَرضٌ دَلَّ عَلَيهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالإِجمَاعُ؛ فَأَمَّا الكِتَابُ فَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ......﴾ [سورة البقرة:١٨٣]، وَأَمَّا السُّنَّةُ فَحَدِيثُ «بُنِيَ الإِسلَامُ عَلَىٰ خَمسٍ... وَصَومِ رَمَضَانَ»، وَنَقَلَ ابنُ قُدَامَةَ إِجمَاعَ المُسلِمِينَ عَلَىٰ وُجُوبِهِ.

ويَثبُتُ دُخُولُ رَمَضَانَ بِأَحَدِ أَمرَينِ:

رُؤيَةُ هِلَالِ رَمَضَانَ.

إِكمَالُ شَعبَانَ ثَلَاثِينَ يَومًا عِندَ عَدَمِ الرُّؤيَةِ.

وإِذَا لَم يُرَ الهِلَالُ لَيلَةَ الثَّلَاثِينَ مَعَ صَفَاءِ السَّمَاءِ فَالغَالِبُ أَنَّهُ يَومُ شَكٍّ، وَالأَكثَرُ عَلَىٰ النَّهيِ عَن صِيَامِهِ؛ لِقَولِ عَمَّارٍ: «مَن صَامَ هَذَا اليَومَ فَقَد عَصَىٰ أَبَا القَاسِمِ -ﷺ-»، وَعَلَيهِ عَمَلُ جُمهُورِ أَهلِ العِلمِ.

ويَكفِي فِي دُخُولِ رَمَضَانَ عِندَ الحَنَابِلَةِ وَالشَّافِعِيَّةِ عَدلٌ وَاحِدٌ، وَعِندَ مَالِكٍ وَطَائِفَةٍ: لَا بُدَّ مِن عَدلَينِ.

وَيُشتَرَطُ فِي الرَّائِي: الإِسلَامُ وَالعَدَالَةُ وَالتَّكلِيفُ، وَلَا يُشتَرَطُ الذُّكُورَةُ وَلَا الحُرِّيَّةُ

عَلَىٰ قولٍ (فتُقبَلُ رُؤيَةُ المَرأَةِ وَالعَبدِ) لِكَونِهَا مِن بَابِ الإخبَارِ عِندَ مَن قَبِلَهَا.

ومَن رَأَىٰ هِلَالَ رَمَضَانَ وَحدَهُ: يَصُومُ.

مَن رَأَىٰ هِلَالَ شَوَّالٍ وَحدَهُ ورُدَّ قولُهُ: لَا يُفطِرُ إِلَّا مَعَ الجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ الخُرُوجَ مِن رَمَضَانَ أَحوَطُ وَأَشَدُّ تثبُّتًا.

وشُرُوطُ صِحَّةِ الصِّيَامِ:

الإِسلَامُ، النِّيَّةُ، العَقلُ، التَّمييزُ، وَالطَّهَارَةُ مِنَ الحَيضِ وَالنِّفَاسِ.

وشُرُوطُ وُجُوبِ الصِّيَامِ: البُلُوغُ، الإِقَامَةُ (فَالمُسَافِرُ لَا يَجِبُ عَلَيهِ)، القُدرَةُ (فَالمَرِيضُ لَا يَجِبُ عَلَيهِ مَعَ صِحَّةِ صَومِهِ إِن صَامَ).

الرُّكنُ الخَامِسُ: حَجُّ بَيتِ اللهِ الحَرَامِ

يَجِبُ الحَجُّ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي العُمُرِ عَلَىٰ كُلِّ مُسلِمٍ تَوفَّرَت فِيهِ الِاستِطَاعَةُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ [سورة آل عمران:٩٧]، وَقَد تَيَسَّرَت سُبُلُ الحَجِّ فِي هَذَا العَصرِ، وَسَهَّلَ اللهُ أَسبَابَهُ.

وَالحَجُّ فُرِضَ فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ مِنَ الهِجرَةِ.

وَالحَجُّ عِبَادَةٌ مُمَيَّزَةٌ، لَهَا شَعَائِرُ مُتَعَدِّدَةٌ، مُوَزَّعَةٌ عَلَىٰ أَمَاكِنَ وَأَزمِنَةٍ خَاصَّةٍ، وَمِن أَبرَزِ مَحَطَّاتِهِ:

الطَّوَافُ بِالبَيتِ الحَرَامِ: وَهُوَ مِن أَوَّلِ الشَّعَائِرِ الَّتِي يُؤَدِّيهَا الحَاجُّ.

السَّعيُ بَينَ الصَّفَا وَالمَروَةِ: وَهُوَ تَذكِرَةٌ بِمَوقِفِ أُمِّ إِسمَاعِيلَ عَلَيهَا السَّلَامُ، وَيُمَثِّلُ رَمزًا لِلتَّوَكُّلِ وَالأَخذِ بِالأَسبَابِ.

الوُقُوفُ بِعَرَفَةَ: وَهُوَ أَعظَمُ أَركَانِ الحَجِّ؛ لِقَولِ النَّبِيِّ -ﷺ-: «الحَجُّ عَرَفَةٌ».

المَبيتُ بِمُزدَلِفَةَ وَمِنًى، وَرَميُ الجَمَرَاتِ، وَذَبحُ الهَديِ، وَغَيرُ ذَلِكَ مِنَ الشَّعَائِرِ.

وَلِكُلِّ شَعِيرَةٍ مِن شَعَائِرِ الحَجِّ أَحكَامٌ وَضَوَابِطُ يَنبَغِي مَعرِفَتُهَا وَالِالتِزَامُ بِهَا؛ سَوَاءٌ مَا يَتَعَلَّقُ بِالمَكَانِ أَوِ الزَّمَانِ أَوِ النِّيَّةِ، وَلِهَذَا يَجِبُ عَلَى مَن نَوَى الحَجَّ أَن يَتَفَقَّهَ فِي مَنَاسِكِهِ؛ لِيُؤَدِّيَهَا كَمَا أَمَرَ اللهُ وَرَسُولُهُ -ﷺ-.

قال المؤلف -رحمه الله-:

المَرتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ؛ وَهُوَ: بِضعٌ وَسَبعُونَ شُعبَةً، أَعلَاهَا قَولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ.

وَأَركَانُهُ سِتَّةٌ: أَن تُؤمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ.

وَدَلِيلُ القَدَرِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر:٤٩].

بَعدَ أَنِ انتَهَىٰ المُصَنِّفُ -رحمه الله- مِنَ الحَدِيثِ عَنِ المَرتَبَةِ الأُولَىٰ مِن مَرَاتِبِ الدِّينِ وَهِيَ الإِسلَامُ، انتَقَلَ إِلَىٰ المَرتَبَةِ الثَّانِيَةِ، وَهِيَ الإِيمَانُ، وَالَّتِي تُعَدُّ مِنَ الأُسُسِ الكُبرَىٰ الَّتِي يَنبَنِي عَلَيهَا الدِّينُ، وَقَد ثَبَتَت مَرَاتِبُ الدِّينِ الثَّلَاثَةُ: الإِسلَامُ، الإِيمَانُ، وَالإِحسَانُ فِي الحَدِيثِ المَشهُورِ المَعرُوفِ بِحَدِيثِ جِبرِيلَ، وَالَّذِي سَيَأتِي ذِكرُهُ لَاحِقًا بِإِذنِ اللهِ.

المَسأَلَةُ الأُولَىٰ: تَعرِيفُ الإِيمَانِ:

الإِيمَانُ فِي اصطِلَاحِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ لَيسَ مُجَرَّدَ اعتِقَادٍ قَلبِيٍّ، وَلَا هُوَ قَولٌ بِاللِّسَانِ فَقَط، بَل هُوَ حَقِيقَةٌ مُرَكَّبَةٌ مِن ثَلَاثَةِ أَجزَاءٍ أَسَاسِيَّةٍ:

قَولٌ بِاللِّسَانِ: أَيِ النُّطقُ بِشَهَادَةِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَهَذَا لَا يُعذَرُ بِتَركِهِ إِلَّا مَن كَانَ عَاجِزًا عَنِ النُّطقِ عَجزًا حَقِيقِيًّا، أَمَّا مَن كَانَ قَادِرًا عَلَىٰ النُّطقِ وَلَم يَنطِق بِالشَّهَادَتَينِ، فَلَا يُعَدُّ مُسلِمًا وَلَا مُؤمِنًا.

اعتِقَادٌ بِالقَلْبِ: وَيَشمَلُ التَّوَكُّلَ، وَالخوفَ، وَالرَّجاءَ، وَالمَحبَّةَ، وَالخُضُوعَ، وَالإِنَابَةَ، وَالإِخلَاصَ، وَسَائِرَ أَعمَالِ القَلبِ الَّتِي جَاءَت بِهَا النُّصُوصُ الشَّرعِيَّةُ، فَالقَلبُ هُوَ مَركَزُ الإِيمَانِ، وَأَصلُ الإِذعَانِ، وَمَصدَرُ التَّوَجُّهِ الصَّادِقِ إِلَىٰ اللهِ.

وَعَمَلٌ بِالجَوَارِحِ: فَلَا يَتِمُّ الإِيمَانُ إِلَّا إِذَا اقتَرَنَ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ الظَّاهِرِ، كَالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالحَجِّ، وَالجِهَادِ، وَالأَمرِ بِالمَعرُوفِ وَالنَّهيِ عَنِ المُنكَرِ، وَغَيرِهَا مِنَ العِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ صِدقِ مَا فِي القَلبِ.

إِذًا: فَالإِيمَانُ مِن حَيثُ حَقِيقَتُهُ يَقُومُ عَلَىٰ أَربَعَةِ أَركَانٍ:

قَولُ القَلبِ: وَهُوَ المَعرِفَةُ وَالتَّصدِيقُ.

عَمَلُ القَلبِ: كَالِانقِيَادِ وَالمَحَبَّةِ وَالخُضُوعِ وَالقَبُولِ.

قَولُ اللِّسَانِ: كَالنُّطقِ بِالشَّهَادَتَينِ وَالإِقرَارِ.

عَمَلُ الجَوَارِحِ: كَالطَّاعَةِ وَالِاتِّبَاعِ وَفِعلِ الفَرَائِضِ وَتَركِ المَحَارِمِ.

فَعَمَلُ الجَوَارِحِ رُكنٌ فِي الإِيمَانِ عِندَ أَهلِ السُّنَّةِ، وَمِن هُنَا ضَلَّتِ المُرجِئَةُ حِينَ أَخرَجَتِ الأَعمَالَ مِن مُسَمَّىٰ الإِيمَانِ.

وَالإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنقُصُ.

فَيَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَالعِلمِ وَاليَقِينِ، وَيَنقُصُ بِالمَعصِيَةِ وَالغَفلَةِ وَالتَّقصِيرِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ﴾ [سورة الفتح: ٤].

وَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «أَكمَلُ المُؤمِنِينَ إِيمَانًا أَحسَنُهُم خُلُقًا».

فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّ الإِيمَانَ مُتَفَاضِلٌ، وَأَنَّ أَهلَهُ لَيسُوا فِيهِ عَلَىٰ دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ.

وَالإِيمَانُ مُرَكَّبٌ مِن شُعَبٍ:

دَلَّ حَدِيثُ: «الإِيمَانُ بِضعٌ وَسَبعُونَ شُعبَةً...»

عَلَىٰ أُمُورٍ عَظِيمَةٍ: أَنَّ الإِيمَانَ مُركَّبٌ مِن شُعَبٍ، وَأَنَّ شُعَبَهُ مُتَفَاوِتَةٌ، فَمِنهَا الأَعلَىٰ وَمِنهَا الأَدنَىٰ، وَأَنَّهُ يَشمَلُ القَولَ وَالعَمَلَ وَالِاعتِقَادَ.

فَأَعلَىٰ شُعَبِهِ: كَلِمَةُ التَّوحِيدِ.

وَأَدنَاهَا: إِمَاطَةُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ.

وَمِنهُ: الحَيَاءُ، وَهُوَ مِن أَعمَالِ القُلُوبِ.

فَالإِيمَانُ لَيسَ شَيئًا وَاحِدًا، بَل يَتَفَرَّعُ إِلَىٰ شُعَبٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فَجَمِيعُ خِصَالِ الخَيرِ الَّتِي جَاءَت بِهَا الشَّرِيعَةُ، سَوَاءٌ كَانَت وَاجِبَةً أَو مُستَحَبَّةً، تَرجِعُ فِي حَقِيقَتِهَا إِلَىٰ هَذِهِ الشُّعَبِ، وَهِيَ تَتَنَوَّعُ بَينَ مَا يَكُونُ: فِي القَلبِ: كَالنِّيَّةِ، وَالتَّوَكُّلِ، وَالخَشيَةِ.

وَعَلَىٰ الجَوَارِحِ: كَالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ، وَبِرِّ الوَالِدَينِ.

وَعَلَىٰ اللِّسَانِ: كَالتَّسبِيحِ، وَالذِّكرِ، وَالأَمرِ بِالمَعرُوفِ وَالنَّهيِ عَنِ المُنكَرِ.

وَمِن بَينِ هَذِهِ الشُّعَبِ الكَثِيرَةِ، هُنَاكَ سِتُّ شُعَبٍ عَظِيمَةٍ تُعَدُّ بِمَثَابَةِ الأَسَاسِ لِكُلِّ مَا سِوَاهَا، وَهِيَ مَا يُعرَفُ بِـ أَركَانُ الإِيمَانِ، وَقَد وَرَدَ ذُكِرَت فِي نُصُوصٍ كَثِيرَةٍ، أَهَمُّهَا حَدِيثُ جِبرِيلَ، وَهِيَ:

الإِيمَانُ بِاللهِ: إِيمَانًا بِوُجُودِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَأُلُوهِيَّتِهِ، وَأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِهِ.

وَالإِيمَانُ بِمَلَائِكَتِهِ: أَنَّهُم عِبَادٌ مُكرَمُونَ، لَا يَعصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُم، وَيَفعَلُونَ مَا يُؤمَرُونَ.

وَالإِيمَانُ بِكُتُبِهِ: المُنَزَّلَةِ عَلَىٰ أَنبِيَائِهِ، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا القُرآنُ الكَرِيمُ، خَاتَمُ الكُتُبِ.

وَالإِيمَانُ بِرُسُلِهِ: الَّذِينَ أَرسَلَهُمُ اللهُ لِهِدَايَةِ الخَلقِ، وَخَاتَمُهُم مُحَمَّدٌ -ﷺ-.

وَالإِيمَانُ بِاليَومِ الآخِرِ: بِمَا فِيهِ مِن بَعثٍ، وَحِسَابٍ، وَجَنَّةٍ، وَنَارٍ.

وَالإِيمَانُ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ: أَي أَنَّ كُلَّ مَا يَقَعُ فِي هَذَا الكَونِ مِن خَيرٍ وَشَرٍّ فَهُوَ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، مَعَ إِثبَاتِ العَدلِ وَالحِكمَةِ فِي تدبيره.(١)

العَلَاقَةُ بَينَ شُعَبِ الإِيمَانِ وَأَركَانِهِ:

قَد يَتَسَاءَلُ البَعضُ عَنِ العَلَاقَةِ بَينَ شُعَبِ الإِيمَانِ الكَثِيرَةِ وَبَينَ أَركَانِهِ السِّتَّةِ، وَالجَوَابُ أَنَّ العَلَاقَةَ بَينَهُمَا عَلَاقَةُ عُمُومٍ وَخُصُوصٍ مُطلَقٍ:

كُلُّ رُكنٍ مِن أَركَانِ الإِيمَانِ هُوَ مِن شُعَبِ الإِيمَانِ.

لَكِن لَيسَت كُلُّ شُعبَةٍ مِن شُعَبِ الإِيمَانِ تُعَدُّ رُكنًا.

فَالأَركَانُ هِيَ أَعظَمُ شُعَبِ الإِيمَانِ، وَهِيَ الَّتِي لَا يَصِحُّ الإِيمَانُ إِلَّا بِهَا، أَمَّا سَائِرُ الشُّعَبِ فَهِيَ تَتَفَاوَتُ فِي مَرَاتِبِهَا، وَتُكَمِّلُ الإِيمَانَ وَتُقَوِّيهِ.

وَأَصلُ ضَلَالِ الفِرَقِ فِي هَذَا البَابِ أَنَّهُم جَعَلُوا الإِيمَانَ شَيئًا وَاحِدًا لَا يَتَبَعَّضُ:

فَالمُرجِئَةُ قَالُوا: إِذَا وُجِدَ أَصلُهُ ثَبَتَ كُلُّهُ، فَلَا تَضُرُّ مَعَهُ الأَعمَالُ.

وَالخَوَارِجُ وَالمُعتَزِلَةُ قَالُوا: إِذَا ذَهَبَ بَعضُهُ ذَهَبَ كُلُّهُ.

وَأَمَّا أَهلُ السُّنَّةِ فَقَالُوا: الإِيمَانُ شُعَبٌ وَأَجزَاءٌ، يَبقَىٰ بَعضُهُ مَعَ ذَهَابِ بَعضِهِ، وَيَكمُلُ وَيَنقُصُ، وَيَزُولُ أَصلُهُ بِنَوَاقِضِهِ.

وَأَهلُ السُّنَّةِ يَعتَقِدُونَ أَنَّ هُنَاكَ تَلَازُمًا بَينَ البَاطِنِ وَالظَّاهِرِ:

فَلَا يُتَصَوَّرُ إِيمَانٌ صَحِيحٌ فِي البَاطِنِ مَعَ انتِفَاءِ جِنسِ العَمَلِ الظَّاهِرِ بِالكُلِّيَّةِ.

---

(١) **وانظر:** كتاب الإيضاح والبيان فِي شرح أركان الإيمان، عَلَىٰ قناة زاد المسلم.

فَمَن يَزعُمُ أَنَّ فِي قَلبِهِ إِيمَانًا بَينَمَا لَا يَظهَرُ فِي جَوَارِحِهِ أَيُّ أَثَرٍ لِذَلِكَ، فَهُوَ غَيرُ صَادِقٍ فِي دَعوَاهُ، وَقَد دَلَّ عَلَىٰ هَذَا المَعنَىٰ الحَدِيثُ المَعرُوفُ: "أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضغَةً، إِذَا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلبُ."

فَصَلَاحُ القَلبِ يَظهَرُ أَثَرُهُ عَلَىٰ الجَوَارِحِ، وَفَسَادُهُ يَتَجَلَّىٰ فِي التَّصَرُّفَاتِ وَالأَفعَالِ.

أَهلُ السُّنَّةِ يَستَثنُونَ فِي الإِيمَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُم:

أَنَا مُؤمِنٌ إِن شَاءَ اللهُ.

وَهَذَا لِوَجهَينِ:

نَفيًا لِلتَّزكِيَةِ.

لِأَنَّ الإِيمَانَ المُطلَقَ يَشمَلُ جَمِيعَ الوَاجِبَاتِ وَالتَّركِ لِجَمِيعِ المَحَارِمِ، وَالعَبدُ يَخشَىٰ التَّقصِيرَ.

أَمَّا أَصلُ الإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَهَذَا لَا يَدخُلُهُ الشَّكُّ.

مُرتَكِبُ الكَبِيرَةِ عِندَ أَهلِ السُّنَّةِ:

مُؤمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ، فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ.

فَلَا يُعطَىٰ الإِيمَانَ الكَامِلَ، وَلَا يُسلَبُ أَصلَ الإِيمَانِ.

وَأَمَّا:

المُرجِئَةُ: فَيَجعَلُونَهُ مُؤمِنًا كَامِلَ الإِيمَانِ.

الخَوَارِجُ: فَيَجعَلُونَهُ كَافِرًا.

المُعتَزِلَةُ: فَيَجعَلُونَهُ فِي مَنزِلَةٍ بَينَ المَنزِلَتَينِ.

قال المؤلف - رحمه الله - :

المَرتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحسَانُ - رُكنٌ وَاحِدٌ -، وَهُوَ: أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [سورة النحل:١٢٨].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾ [سورة الشعراء:٢١٧-٢١٩].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [سورة يونس:٦١] الآيَةَ.

وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبرِيلَ المَشهُورُ، عَن عُمَرَ - رضي الله عنه - قَالَ: «بَينَمَا نَحنُ عِندَ رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - ذَاتَ يَومٍ، إِذ طَلَعَ عَلَينَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعرِ، لَا يُرَىٰ عَلَيهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم -، فَأَسنَدَ رُكبَتَيهِ إِلَىٰ رُكبَتَيهِ، وَوَضَعَ كَفَّيهِ عَلَىٰ فَخِذَيهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ!

أَخبِرنِي عَنِ الإِسلَامِ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: الإِسلَامُ: أَن تَشهَدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيتَ إِنِ استَطَعتَ إِلَيهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقتَ - فَعَجِبنَا لَهُ، يَسأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ -.

قَالَ: فَأَخبِرنِي عَنِ الإِيمَانِ؟

قَالَ: أَن تُؤمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ، وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقتَ.

قَالَ: فَأَخبِرنِي عَنِ الإِحسَانِ؟

قَالَ: أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

قَالَ: فَأَخبِرنِي عَنِ السَّاعَةِ؟

قَالَ: مَا المَسؤُولُ عَنهَا بِأَعلَمَ مِنَ السَّائِلِ.

قَالَ: فَأَخبِرنِي عَن أَمَارَاتِهَا؟

قَالَ: أَن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَن تَرَىٰ الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ، يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنيَانِ.

قَالَ: ثُمَّ انطَلَقَ فَلَبِثتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا عُمَرُ! أَتَدرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبرِيلُ، أَتَاكُم يُعَلِّمُكُم دِينَكُم».

المَرتَبَةُ الثَّالِثَةُ مِن مَرَاتِبِ الدِّينِ، وَهِيَ الإِحسَانُ، الَّتِي يُعَدُّ بُلُوغُهَا غَايَةَ المُقَرَّبِينَ، وَذِروَةَ سَنَامِ العُبُودِيَّةِ، وَأَعلَىٰ مَا يُرجَىٰ مِنَ المَقَامَاتِ.

الإِحسَانُ فِي اللُّغَةِ مِنَ الحُسنِ، وَهُوَ الجَمَالُ وَالإِتقَانُ.

وَفِي الشَّرعِ: إِتقَانُ العِبَادَةِ وَتَكمِيلُهَا بِالإِخلَاصِ وَمُرَاقَبَةِ اللهِ.

وَمَرتَبَةُ الإِحسَانِ تَقُومُ عَلَىٰ رُكنٍ وَاحِدٍ بَيَّنَهُ النَّبِيُّ -ﷺ-: «أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

وَمَعنَاهُ: أَن يَكُونَ العَبدُ فِي عِبَادَتِهِ مُخلِصًا لِلَّهِ، مُتَّبِعًا لِلسُّنَّةِ، حَاضِرَ القَلبِ، مُستَحضِرًا عَظَمَةَ رَبِّهِ؛ فَيَعبُدُ اللهَ عَلَىٰ حَالٍ كَأَنَّهُ يُشَاهِدُ رَبَّهُ بِعَينِ قَلبِهِ، فَإِن لَم يَبلُغ هَذِهِ المَرتَبَةَ فَليَستَحضِر يَقِينًا أَنَّ اللهَ يَرَاهُ وَيَطَّلِعُ عَلَيهِ: يَعلَمُ ظَاهِرَ عَمَلِهِ وَبَاطِنَهُ، وَيَعلَمُ خَفَايَا صَدرِهِ وَحَرَكَاتِ جَوَارِحِهِ.

وَبِقَدرِ قُوَّةِ هَذَا الِاستِحضَارِ تَقوَىٰ المُرَاقَبَةُ، وَبِقَدرِ ضَعفِهِ تَضعُفُ؛ وَلِذَلِكَ تَعظُمُ مَرتَبَةُ الإِحسَانِ بِعِظَمِ مُرَاقَبَةِ اللهِ، وَتَضعُفُ بِضَعفِهَا، وَمِن ثَمَّ يُحسِنُ العَبدُ عَمَلَهُ وَيَكمُلُ خُشُوعُهُ وَإِتقَانُهُ.

وَالإِحسَانُ أَعلَىٰ مَرَاتِبِ الدِّينِ وَأَكمَلُ مَقَامَاتِ العُبُودِيَّةِ.

وَيَدخُلُ فِيهِ مَقَامَاتٌ عَظِيمَةٌ، مِنهَا: التَّقوَىٰ-الإِخلَاص-اليَقِين-الرِّضَا-المَحَبَّة-الخُشُوع-الخَشيَة-الصَّبر.

وَأَهلُ هَذِهِ المَرتَبَةِ قَلِيلٌ، وَقَد سَمَّاهُمُ اللهُ:

السَّابِقِينَ

المُقَرَّبِينَ

المُخبِتِينَ.

وَمِن أَعظَمِ مَا يُرَبِّي العَبدَ عَلَىٰ الإِحسَانِ:

استِشعَارُ مَعِيَّةِ اللهِ.

استِحضَارُ رِقَابَتِهِ وَشَهَادَتِهِ.

الإِيمَانُ بِعِلمِهِ وَسَمعِهِ وَبَصَرِهِ.

فَإِذَا استَحضَرَ العَبدُ ذَلِكَ أَحسَنَ العَمَلَ وَأَتقَنَ العِبَادَةَ.

وَاستُدِلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ بِآيَاتٍ تُثبِتُ مُرَاقَبَةَ اللهِ وَمَعِيَّتَهُ وَرُؤيَتَهُ وَشَهَادَتَهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [سورة النحل:١٢٨]، فَالمَعِيَّةُ هُنَا خَاصَّةٌ بِالمُؤمِنِينَ، وَتَتَضَمَّنُ أَمرَينِ:

إِحَاطَةُ العِلمِ وَالاطِّلَاعِ بِأَحوَالِهِم.

مَعِيَّةُ النَّصرِ وَالتَّأيِيدِ وَالتَّوفِيقِ لِلمُحسِنِينَ، وَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي المَعِيَّةِ الخَاصَّةِ.

قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾ [سورة الشعراء:٢١٧-٢١٩]، وَفِيهَا إِثبَاتُ أَنَّ اللهَ يَرَىٰ عَبدَهُ حَالَ قِيَامِهِ وَتَقَلُّبِهِ فِي عِبَادَتِهِ، وَهَذَا يُوَافِقُ شَطرَ الحَدِيثِ: «فَإِن لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [سورة يونس:٦١]، وَفِيهَا أَنَّ اللهَ شَهِيدٌ عَلَىٰ أَعمَالِ العِبَادِ فِي كُلِّ شَأنٍ وَتِلَاوَةٍ وَعَمَلٍ، وَشَهَادَتُهُ تَتَضَمَّنُ اطِّلَاعَهُ وَرُؤيَتَهُ وَإِحَاطَتَهُ، وَهُوَ دَلِيلٌ بَيِّنٌ عَلَىٰ حَقِيقَةِ المُرَاقَبَةِ الَّتِي هِيَ لُبُّ الإِحسَانِ.

وَمَن وَفَّقَهُ اللهُ إِلَىٰ بُلُوغِ هَذَا المَقَامِ، فَقَد نَالَ خَيرًا عَظِيمًا، وَارتَقَىٰ إِلَىٰ أَعلَىٰ مَرَاتِبِ الدِّينِ؛ لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ يَكُونُ مِنَ الَّذِينَ شَمِلَتهُم مَعِيَّةُ اللهِ الخَاصَّةُ، كَمَا قَالَ -عَلَّ-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [سورة النحل:١٢٨].

فَاللهُ -جَلَّ جَلَالُهُ- مَعَ جَمِيعِ خَلقِهِ بِعِلمِهِ، وَقُدرَتِهِ، وَسَمعِهِ، وَبَصَرِهِ، وَإِحَاطَتِهِ، لَكِن أَهلُ الإِحسَانِ لَهُم مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ، تَتَجَلَّىٰ فِي التَّوفِيقِ وَالنَّصرِ وَالهِدَايَةِ وَالرِّعَايَةِ، فَطُوبَىٰ لِمَن نَالَهَا، وَسَعِدَ بِهَا فِي دُنيَاهُ وَآخِرَتِهِ.

وَالإِحسَانُ لَيسَ مُجَرَّدَ كَلِمَةٍ تُقَالُ أَو وَصفٍ يُدَّعَىٰ، بَل هُوَ حَقِيقَةٌ سَامِيَةٌ لَا تُنَالُ إِلَّا

بِمُجَاهَدَةِ النَّفسِ، وَمُدَاوَمَةِ العَمَلِ، وَشِدَّةِ الإِخلَاصِ، وَكَمَالِ المَحَبَّةِ لِلَّهِ.

فَالإِحسَانُ هُوَ تَاجُ المَرَاتِبِ الثَّلَاثِ، وَهُوَ ثَمَرَةُ الإِسلَامِ وَالإِيمَانِ، وَلَا يُوَفَّقُ لَهُ إِلَّا مَن خَلَصَت نِيَّتُهُ، وَصَدَقَ قَلبُهُ، وَجَاهَدَ نَفسَهُ.

مَحَلُّ الإِحسَانِ:

الإِحسَانُ يَكُونُ فِي:

القَلبِ: كَالإِخلَاصِ وَالمُرَاقَبَةِ.

اللِّسَانِ: كَحُسنِ القَولِ وَالذِّكرِ.

الجَوَارِحِ: كَإِتقَانِ العِبَادَةِ وَالأَعمَالِ.

قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ».

فَيَدخُلُ فِيهِ الإِحسَانُ فِي:

العِبَادَةِ

المُعَامَلَاتِ

البُيُوعِ

وَبَذلِ المَنَافِعِ لِلنَّاسِ.

فَالإِحسَانُ يَكُونُ فِي مَوضِعَينِ:

الإِحسَانُ مَعَ اللهِ: بِإِتقَانِ عِبَادَتِهِ.

الإِحسَانُ مَعَ الخَلقِ: بِحُسنِ المُعَامَلَةِ وَالبِرِّ.

فَنَسأَلُ اللهَ الكَرِيمَ مِن فَضلِهِ، أَن يَجعَلَنَا مِن أَهلِ هَذِهِ المَرتَبَةِ، وَأَن يُعِينَنَا عَلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ كَأَنَّنَا نَرَاهُ، فَإِن لَم نَكُن نَرَاهُ، فَلِيَقِينُنَا.

قَالَ المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ -:

الأَصلُ الثَّالِثُ: مَعرِفَةُ نَبِيِّكُم مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَهُوَ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ بنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِن قُرَيشٍ، وَقُرَيشٌ مِنَ العَرَبِ، وَالعَرَبُ مِن ذُرِّيَّةِ إِسمَاعِيلَ بنِ إِبرَاهِيمَ الخَلِيلِ - عَلَيهِ وَعَلَىٰ نَبِيِّنَا أَفضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ -.

يَنتَقِلُ المُؤَلِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي هَذَا الأَصلِ إِلَىٰ الحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ الكَرِيمِ مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَيُعَدُّ هَذَا الأَصلُ مِن أَعمِدَةِ العَقِيدَةِ، وَأَسَاسًا لَا غِنَىٰ عَنهُ فِي دِينِ المُسلِمِ، إِذ لَا يَتِمُّ الإِيمَانُ إِلَّا بِهِ.

لِأَنَّهُ الوَاسِطَةُ بَينَنَا وَبَينَ اللهِ فِي بَلَاغِ دِينِهِ وَشَرعِهِ، فَلَا يُمكِنُ مَعرِفَةُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَمَا يَشرَعُهُ إِلَّا بِوَاسِطَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ فَهُوَ المُبَيِّنُ عَن رَبِّ العَالَمِينَ، وَالمُبَلِّغُ عَنهُ أَمرَهُ وَنَهيَهُ.

فَعِلمُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ مِن أَشرَفِ العُلُومِ وَأَجَلِّهَا قَدرًا؛ إِذ هُوَ تَفصِيلُ مَعرِفَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الَّتِي هِيَ الأَصلُ الثَّانِي مِنَ الأُصُولِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي يُسأَلُ عَنهَا العَبدُ فِي قَبرِهِ، وَبِهِ تُعرَفُ شَمَائِلُهُ وَهَديُهُ وَسُنَّتُهُ، وَتُقتَفَىٰ آثَارُهُ، وَيُمَيَّزُ الحَقُّ مِنَ البَاطِلِ بِعَرضِ الأَقوَالِ وَالأَعمَالِ عَلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ، وَقَد عُنِيَ السَّلَفُ بِهَذَا العِلمِ عِنَايَتَهُم بِالقُرآنِ، وَوَرَدَ فِي تَعظِيمِهِ وَالحَضِّ عَلَيهِ آثَارٌ، مِنهَا:

٥٤٠ - **قَالَ عَلِيُّ بنُ الحُسَينِ بنِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ:** «كُنَّا نُعَلَّمُ مَغَازِيَ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا نُعَلَّمُ السُّورَةَ مِنَ القُرآنِ».

٥٤١ - **وَقَالَ إِسمَاعِيلُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ سَعدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ:** «كَانَ أَبِي يُعَلِّمُنَا المَغَازِيَ وَيَعُدُّهَا عَلَينَا، وَيَقُولُ: يَا بَنِيَّ، هَذِهِ مَآثِرُ آبَائِكُم فَلَا تُضَيِّعُوهَا».

٥٤٢ - **وَقَالَ الزُّهرِيُّ:** «فِي عِلمِ المَغَازِي عِلمُ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ».

٥٤٣ - **وَقَالَ سُفيَانُ بنُ عُيَينَةَ:** «إِنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- هُوَ المِيزَانُ الأَكبَرُ، فَعَلَيهِ تُعرَضُ الأَشيَاءُ؛ عَلَىٰ خُلُقِهِ وَسِيرَتِهِ وَهَديِهِ، فَمَا وَافَقَهَا فَهُوَ الحَقُّ، وَمَا خَالَفَهَا فَهُوَ البَاطِلُ».

قُلتُ: وَفِي هَذِهِ الآثَارِ تَنبِيهٌ عَلَىٰ أَنَّ السِّيرَةَ لَيسَت أَخبَارًا تُروَىٰ لِلتَّسلِيَةِ، بَل عِلمٌ يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَىٰ اللهِ؛ فَهِيَ تَفصِيلُ مَعرِفَةِ النَّبِيِّ -ﷺ- الَّذِي تَجِبُ مَحَبَّتُهُ وَتَعظِيمُهُ وَطَاعَتُهُ وَاتِّبَاعُهُ، وَبِهَا يُعرَفُ الهَديُ الَّذِي تُعرَضُ عَلَيهِ سَائِرُ الأَقوَالِ وَالأَعمَالِ، وَلِذَلِكَ جَعَلَهَا السَّلَفُ بِمَنزِلَةِ القُرآنِ فِي التَّعلِيمِ، وَأَورَثُوهَا أَبنَاءَهُم مَآثِرَ يُحَذِّرُونَ مِن تَضيِيعِهَا؛ فَمَن جَهِلَ سِيرَةَ نَبِيِّهِ فَاتَهُ مِن تَحقِيقِ الأَصلِ الثَّانِي بِقَدرِ جَهلِهِ بِهَا.

وَلِذَلِكَ كَانَ الِاطِّلَاعُ عَلَىٰ سِيرَةِ مُحَمَّدٍ -ﷺ-، وَمَعرِفَةُ مَنَاقِبِهِ، وَحَيَاتِهِ، وَهَديِهِ، وَمَغَازِيهِ، مِن أَعظَمِ العُلُومِ، وَأَجَلِّهَا نَفعًا؛ لِأَنَّهَا تُعِينُ عَلَىٰ تَحقِيقِ الِاقتِدَاءِ بِهِ، وَتُرَسِّخُ مَحَبَّتَهُ فِي القُلُوبِ.

وَلِذَلِكَ كَانَ السَّلَفُ الَّذِينَ اطَّلَعُوا عَلَىٰ سِيرَتِهِ وَفَضَائِلِهِ، وَامتَلَأَت قُلُوبُهُم بِمَحَبَّتِهِ، أَشَدَّ النَّاسِ شَوقًا لَهُ، وَأَعظَمَهُم تَفَانِيًا فِي طَاعَتِهِ، وَأَكمَلَهُم امتِثَالًا لِشَرعِهِ وَأَوَامِرِهِ.

بَل إِنَّ الجَمَادَاتِ الَّتِي آنَسَت بِهِ -ﷺ- كَانَت تَحِنُّ إِلَيهِ وَتَبكِي لِفِرَاقِهِ؛ فَقَد ثَبَتَ أَنَّهُ لَمَّا صُنِعَ لَهُ المِنبَرُ، وَخَطَبَ عَلَيهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَكَانَ قَبلَ ذَلِكَ يَخطُبُ مُستَنِدًا إِلَىٰ جِذعٍ فِي قِبلَةِ المَسجِدِ، حَنَّ ذَلِكَ الجِذعُ إِلَيهِ حَنِينَ العِشَارِ، حَتَّىٰ جَاءَ النَّبِيُّ -ﷺ- فَوَضَعَ

يَدَهُ عَلَيهِ فَسَكَن.

٥٤٤- وَقَالَ الحَسَنُ البَصرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: «يَا مَعشَرَ المُسلِمِينَ، الخَشَبَةُ تَحِنُّ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- شَوقًا إِلَيهِ، أَفَلَيسَ الرِّجَالُ الَّذِينَ يَرجُونَ لِقَاءَهُ أَحَقَّ أَن يَشتَاقُوا إِلَيهِ؟».

٥٤٥- قَالَ أَبُو مُوسَىٰ المَدِينِيُّ: «وَأَولَىٰ مَا يُعنَىٰ بِهِ صَاحِبُ الحَدِيثِ مَعرِفَةُ صِفَاتِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وَفَهمُ مَعَانِيهَا، فَأَقبِح بِهِ إِذَا سُئِلَ عَن شَيءٍ جَهِلَهُ، أَو عُرِضَ عَلَيهِ لَم يعرفه».(١)

مَسأَلَةٌ: حُكمُ تَعَلُّمِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

تَعَلُّمُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ يَنقَسِمُ بِاعتِبَارِ الحُكمِ إِلَىٰ قِسمَينِ: فَرضِ عَينٍ، وَفَرضِ كِفَايَةٍ، فَأَمَّا فَرضُ العَينِ فَهُوَ القَدرُ الَّذِي لَا يَسَعُ المُكَلَّفَ جَهلُهُ؛ إِذ هُوَ تَحقِيقُ الأَصلِ الثَّانِي الَّذِي يُسأَلُ عَنهُ العَبدُ فِي قَبرِهِ، وَهُوَ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ:

- مَعرِفَةُ اسمِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وَهُوَ مُحَمَّدٌ،
- مَعرِفَةُ أَنَّهُ عَبدُ اللهِ وَرَسُولُهُ؛ فَلَا يُغلَىٰ فِيهِ فَيُرفَعَ فَوقَ مَنزِلَةِ العُبُودِيَّةِ، وَلَا يُجفَىٰ فَتُجحَدَ رِسَالَتُهُ.
- مَعرِفَةُ أَنَّ الَّذِي دَلَّ عَلَىٰ صِدقِهِ هُوَ القُرآنُ.

وَأَمَّا مَا زَادَ عَلَىٰ هَذَا القَدرِ - مِن تَفَاصِيلِ نَسَبِهِ وَمَولِدِهِ وَمَغَازِيهِ وَشَمَائِلِهِ وَأَخبَارِ دَعوَتِهِ - فَهُوَ فَرضُ كِفَايَةٍ، إِذَا قَامَ بِهِ مَن يَكفِي سَقَطَ الإِثمُ عَنِ البَاقِينَ، وَبَقِيَ فِي حَقِّ الآحَادِ مَندُوبًا مُستَحَبًّا تَكمُلُ بِهِ مَحَبَّةُ العَبدِ لِنَبِيِّهِ وَاتِّبَاعُهُ لَهُ.

(١) الطوالات (١/ ١٨٨).

ومعرفة النَّبي -ﷺ- تشمل أربعة مباحث:

- الإيمانُ بِرسَالَتِهِ (شَهَادَةُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ).
- تَوحِيدُ المُتَابعَةِ لَهُ.
- بَابُ النُّبُوَّاتِ مِن أبوابِ العَقِيدَةِ.
- السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ وَمَعرِفَةُ أَحوَالِهِ وَخِصَالِهِ.(١)

وَمَعرِفَةُ النَّبِيِّ -ﷺ- تَنتَظِمُ فِي شِقَّينِ لَا يَصِحُّ أَحَدُهُمَا إِلَّا بِالآخَرِ: شِقٌّ مَعرِفِيٌّ، وَثَمرَتُهُ التَّصدِيقُ بِكُلِّ مَا أَخبَرَ بِهِ مِن أَمرِ الغَيبِ وَالشَّرعِ؛ وَشِقٌّ عَمَلِيٌّ، وَثَمرَتُهُ الطَّاعَةُ وَالانقِيَادُ وَالاتِّبَاعُ.

فَمَن صَدَّقَ بِنُبُوَّتِهِ وَلَم يَنقَد لِشَرِيعَتِهِ فَقَد كَذَّبَ بِلِسَانِ الحَالِ مَا أَقَرَّ بِهِ بِلِسَانِ المَقَالِ؛ وَلِذَلِكَ جَعَلَ اللهُ الإِيمَانَ مَقرُونًا بِالاتِّبَاعِ فِي قَولِهِ: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ﴾ [سورة الأعراف:١٥٨]؛ فَقَرَنَ بَينَ الإِيمَانِ وَالاتِّبَاعِ، إذ لَا يَتِمُّ الأَوَّلُ إِلَّا بِالثَّانِي».

وَمَحَبَّتُهُ -ﷺ- لَيسَت دَعوَىٰ تُدَّعَىٰ بِاللِّسَانِ، بَل تَعظِيمُهُ لَهُ ثَلَاثَةُ مَحَالَّ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهَا: القَلبُ، وَاللِّسَانُ، وَالجَوَارِحُ.

فَتَعظِيمُ القَلبِ: اعتِقَادُ عُلُوِّ قَدرِهِ وَرِفعَةِ مَنزِلَتِهِ عِندَ رَبِّهِ، وَتَقدِيمُ مَحَبَّتِهِ عَلَىٰ النَّفسِ وَالوَلَدِ وَالنَّاسِ أَجمَعِينَ.

وَتَعظِيمُ اللِّسَانِ: الثَّنَاءُ عَلَيهِ بِمَا هُوَ أَهلُهُ مِن غَيرِ غُلُوٍّ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَيهِ، وَالذَّبُّ عَن سُنَّتِهِ، وَرَدُّ مَا أُلصِقَ بِهِ مِنَ الكَذِبِ.

---

(١) تَشمَلُ السِّيرَةُ: نَسَبَهُ -ﷺ- أَهلَ بَيتِهِ، صِفَاتِهِ وَشَمَائِلَهُ، حَيَاتَهُ وَأَخلَاقَهُ، جِهَادَهُ وَمَغَازِيَهُ، دَعوَتَهُ وَهَديَهُ.

وَتَعظِيمُ الجَوَارِحِ: امتِثَالُ أَمرِهِ، وَاجتِنَابُ نَهيِهِ، وَنَصرُ شَرِيعَتِهِ، وَإِيثَارُ هَديِهِ عَلَىٰ هَدي مَن سِوَاهُ.

فَمَن وَفَّىٰ هَذِهِ المَحَالَّ الثَّلَاثَةَ حَقَّهَا فَقَد عَظَّمَهُ التَّعظِيمَ المَأمُورَ بِهِ؛ وَمَن زَعَمَ تَعظِيمَهُ بِقَلبِهِ وَلِسَانِهِ ثُمَّ خَالَفَ سُنَّتَهُ بِجَوَارِحِهِ، فَدَعوَاهُ مُكَذَّبَةٌ بِفِعلِهِ.

قَالَ: (وَهُوَ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ).

مُحَمَّدٌ هَذَا اسمُ نَبِيِّنَا -ﷺ-، وَقَد ذُكِرَ فِي القُرآنِ فِي أَربَعَةِ مَوَاضِعَ، وَمُحَمَّدٌ: أَي الَّذِي يُحمَدُ عَلَىٰ صِفَاتِهِ وَمَحَامِدِهِ، -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، لِأَنَّ المُحَمَّدَ هُوَ الَّذِي يَتَّصِفُ بِخَالِ الخَيرِ الكَثِيرَةِ، سُمِّيَ بِذَلِكَ عَلَىٰ رَجَاءِ أَن يَكُونَ مِن أَهلِ خِصَالِ الخَيرِ الَّتِي يَكثُرُ مِن أَجلِهَا حَمدُ النَّاسِ لَهُ، فَسُمِّيَ بِذَلِكَ تَيَمُّنًا،

وَمِن أَسمَائِهِ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: أَحمَدُ وَمُحَمَّدٌ، وَهُمَا مِن أَشهَرِ أَسمَائِهِ.

فَأَحمَدُ: أَي أَكثَرُ النَّاسِ حَمدًا لِرَبِّهِ، وَأَعظَمُهُم شُكرًا لَهُ سُبحَانَهُ، -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

وَمِن أَسمَائِهِ: المَاحِي وَالحَاشِرُ وَالعَاقِبُ

قَالَ -ﷺ-: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحمَدُ، وَأَنَا المَاحِي، وَأَنَا الحَاشِرُ، وَأَنَا العَاقِبُ».

قَالَ: (ابنُ عَبدِ اللهِ).

وَعَبدُ اللهِ هُوَ وَالِدُ النَّبِيِّ -ﷺ-، وَقَد تُوُفِّيَ قَبلَ وِلَادَتِهِ، وَالنَّبِيُّ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- حَملٌ فِي بَطنِ أُمِّهِ.

قَالَ: (ابنُ عَبدِ المُطَّلِبِ).

وَعَبدُ المُطَّلِبِ هُوَ جَدُّ النَّبِيِّ -ﷺ-، وَاسمُهُ شَيبَةُ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ عَبدَ المُطَّلِبِ لِأَنَّ عَمَّهُ المُطَّلِبَ جَاءَ بِهِ مِنَ المَدِينَةِ إِلَىٰ مَكَّةَ وَهُوَ صَغِيرٌ، فَرَآهُ النَّاسُ وَقَد تَغَيَّرَ لَونُهُ لِأَثَرِ

السَّفَرِ وَالشَّمسِ، فَظَنُّوهُ عَبدًا لِلمُطَّلِبِ، فَغَلَبَ عَلَيهِ هٰذَا الِاسمُ، وَاشتُهِرَ بِهِ.

قَالَ: (ابنُ هَاشِمٍ).

وَهَاشِمٌ أَحَدُ أَجدَادِ النَّبِيِّ -ﷺ-، وَاسمُهُ عَمرٌو، وَإِنَّمَا سُمِّيَ هَاشِمًا لِأَنَّهُ كَانَ يَهشِمُ الثَّرِيدَ لِقَومِهِ، فَاشتُهِرَ بِالكَرَمِ وَالسَّخَاءِ.

وَإِلَيهِ تُنسَبُ الرِّحلَتَانِ: رِحلَةُ الشِّتَاءِ وَرِحلَةُ الصَّيفِ، وَقَد قِيلَ فِيهِ:

«عَمرٌو الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَومِهِ وَإِلَيهِ نِسبَةُ الرِّحلَتَينِ».

٥٤٦ - **رُوِيَ عَن وَاثِلَةَ بنِ الأَسقَعِ، قَالَ:** قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «إِنَّ اللهَ اصطَفَىٰ كِنَانَةَ مِن وَلَدِ إِسمَاعِيلَ، وَاصطَفَىٰ قُرَيشًا مِن كِنَانَةَ، وَاصطَفَىٰ مِن قُرَيشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصطَفَانِي مِن بَنِي هاشم».(١)

قَالَ: (مِن قُرَيشٍ، وَقُرَيشٌ مِنَ العَرَبِ).

ثَبَتَتِ النُّصُوصُ الصَّحِيحَةُ وَالمُستَفِيضَةُ عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- فِي فَضلِ قُرَيشٍ وَاصطِفَائِهَا، وَأَنَّ ذَلِكَ فَضلٌ شَرعِيٌّ قَدَرِيٌّ، لَا يَقتَضِي عِصمَتَهَا، وَلَا يُسَوِّغُ الظُّلمَ، وَلَا يَرفَعُ عَنهَا التَّكلِيفَ وَالمُؤَاخَذَةَ.

فَقَد أَخبَرَ النَّبِيُّ -ﷺ- أَنَّ اللهَ اصطَفَىٰ كِنَانَةَ مِن وَلَدِ إِسمَاعِيلَ، وَاصطَفَىٰ قُرَيشًا مِن كِنَانَةَ، وَجَعَلَ فِيهَا النُّبُوَّةَ، وَمِنهَا خَرَجَ خَاتَمُ المُرسَلِينَ -ﷺ-، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ شَرَفِ النَّسَبِ مُقتَرِنًا بِشَرَفِ الرِّسَالَةِ، لَا مُجَرَّدَ دَعوَىٰ نَسَبٍ أَو تَعَصُّبٍ جَاهِلِيٍّ.

وَمِن خَصَائِصِ قُرَيشٍ الَّتِي دَلَّت عَلَيهَا السُّنَّةُ: أَنَّ الإِمَامَةَ العُظمَىٰ فِيهِم مَا بَقِيَ مِنَ النَّاسِ اثنَانِ، وَأَنَّ النَّاسَ تَبَعٌ لَهُم فِي الخَيرِ وَالشَّرِّ، وَأَنَّ لَهُم قُوَّةً فِي الرَّأيِ وَنُبلًا فِي العَقلِ

(١) أخرجهُ مسلم ٤/ ١٧٨٢ (٢٢٧٦)

وَالتَّدبِيرِ، وَلِذَا جُعِلَ لِلقُرَشِيِّ قُوَّةُ الرَّجُلَينِ مِن غَيرِهِ فِي الرَّأيِ، لَا فِي القُوَّةِ البَدَنِيَّةِ.

وَقد قَرَنَ النَّبِيُّ -ﷺ- هَذَا الفَضلَ بِقُيُودٍ شَرعِيَّةٍ ظَاهِرَةٍ، فَجَعَلَ حَقَّهُم مَقرُونًا بِالعَدلِ وَالرَّحمَةِ وَالوَفَاءِ بِالعُهُودِ، وَتَوَعَّدَ مَن لَم يَقُم بِذَلِكَ مِنهُم بِلَعنَةِ اللهِ وَالمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجمَعِينَ، وَفِي هَذَا بَيَانٌ أَصلِيٌّ أَنَّ الِاصطِفَاءَ لَا يُنَافِي المُحَاسَبَةَ، وَلَا يَسقُطُ التَّكلِيفَ.

كَمَا نَهَىٰ النَّبِيُّ -ﷺ- عَن سَبِّ قُرَيشٍ وَالطَّعنِ فِيهِم، وَبَيَّنَ أَنَّ فِي ذَلِكَ مَفسَدَةً دِينِيَّةً وَاجتِمَاعِيَّةً، لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيهِ مِن إِضعَافِ جَمَاعَةِ المُسلِمِينَ وَنَقضِ نِظَامِهِمُ العَامِّ، وَأَنَّ إِرَادَةَ هَوَانِهِم سَبَبٌ لِلهَوَانِ.

وَأَمَّا سَبَبُ تَسمِيَتِهِم بِقُرَيشٍ، فَقَد وَرَدَت فِيهِ أَقوَالٌ مَشهُورَةٌ: فَقِيلَ: سُمُّوا بِذَلِكَ لِاجتِمَاعِهِم بَعدَ تَفَرُّقِهِم عِندَ الحَرَمِ، مِنَ التَّقَرُّشِ، وَقِيلَ: تَشبِيهًا لَهُم بِـ القِرشِ؛ دَابَّةِ البَحرِ القَوِيَّةِ الَّتِي تَغلِبُ مَا تَمُرُّ بِهِ، وَقِيلَ: إِنَّ أَوَّلَ مَن لُقِّبَ بِالقُرَشِيِّ هُوَ قُصَيُّ بنُ كِلَابٍ لَمَّا جَمَعَهُم وَغَلَبَ عَلَىٰ الحَرَمِ، وَهَذِهِ الأَقوَالُ لَا تَتَعَارَضُ، لِاجتِمَاعِهَا عَلَىٰ مَعَانِي القُوَّةِ وَالِاجتِمَاعِ وَالغَلَبَةِ.

قَالَ: (وَالعَرَبُ مِن ذُرِّيَّةِ إِسمَاعِيلَ).

إِسمَاعِيلُ -عليه السلام- هُوَ أَبُو العَرَبِ المُستَعرِبَةِ، وَهُوَ ابنُ إِبرَاهِيمَ -عليه السلام-.[(١)]

---

(١) نَسَبُ النَّبِيِّ -ﷺ-: هُوَ: مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ (شَيبَة) بنِ هَاشِمٍ (عَمرُو) بنِ عَبدِ مَنَافٍ بنِ قُصَيٍّ بنِ كِلَابٍ بنِ مُرَّة بنِ كَعب بنِ لُؤَيّ بنِ غَالِب بنِ فِهر بنِ مَالِك بنِ النَّضر بنِ كِنَانَة بنِ خُزَيمَة بنِ مُدرِكَة بنِ إِليَاس بنِ مُضَر بنِ نِزَار بنِ مَعَدّ بنِ عَدنَان.

وَمَا بَعدَ عَدنَانَ فِيهِ اختِلَافٌ.

قَالَ: (ابنِ إِبرَاهِيمَ الخَلِيلِ).

أَي أَنَّ نَسَبَ النَّبِيِّ -ﷺ- يَنتَهِي إِلَىٰ إِبرَاهِيمَ الخَلِيلِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، الَّذِي اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلًا، عَلَيهِ وَعَلَىٰ نَبِيِّنَا أَفضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ.

فَنَسَبُهُ -ﷺ- أَفضَلُ الأَنسَابِ وَأَشرَفُهَا، وَهُوَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ.

٥٤٧ - **وَقَد رَوَىٰ صَحِيحُ مُسلِمٍ (٢٢٧٦)** عَن وَاثِلَةَ بنِ الأَسقَعِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ: «إِنَّ اللهَ اصطَفَىٰ كِنَانَةَ مِن وَلَدِ إِسمَاعِيلَ، وَاصطَفَىٰ قُرَيشًا مِن كِنَانَةَ، وَاصطَفَىٰ مِن قُرَيشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصطَفَانِي مِن بَنِي هَاشِمٍ».

أَهلُ بَيتِهِ -ﷺ-

أَهلُ بَيتِهِ هُم:

زَوجَاتُهُ وَبَنَاتُهُ وَآلُ عَلِيٍّ وَآلُ جَعفَرٍ وَآلُ عَقِيلٍ وَآلُ العَبَّاسِ، وَلَيسُوا مَحصُورِينَ فِي ذُرِّيَّةِ الحَسَنِ وَالحُسَينِ فَقَط.

وَقَد بُنِيَت هَذِهِ الرِّسَالَةُ عَلَىٰ التَّهيِئَةِ لِلأَسئِلَةِ الثَّلَاثَةِ العَظِيمَةِ الَّتِي سَيُسأَلُ عَنهَا كُلُّ إِنسَانٍ فِي قَبرِهِ بَعدَ وَفَاتِهِ، وَهِيَ:

مَن رَبُّكَ؟

مَا دِينُكَ؟

مَن نَبِيُّكَ؟

هَذِهِ الأَسئِلَةُ تُعَدُّ امتِحَانًا حَقِيقِيًّا، لَكِنَّهُ لَيسَ كَالِامتِحَانِ الَّذِي يُجَابُ عَنهُ بِالحِفظِ وَالتَّكرَارِ، بَل لَا يُفلِحُ فِيهِ إِلَّا مَن عَرَفَ الجَوَابَ عِلمًا، وَصَدَّقَهُ عَمَلًا وَاعتِقَادًا، فَكَم مِن شَخصٍ يَحفَظُ الجَوَابَ عَلَىٰ ظَهرِ قَلبٍ، لَكِنَّهُ يَفشَلُ فِيهِ عِندَ السُّؤَالِ، لِأَنَّهُ لَم يَعمَل

بِمُقتَضَاهُ فِي حَيَاتِهِ، وَلَم يَصدُق فِي التِزَامِهِ بِهِ.

لِذَلِكَ حَرَصَ المُؤَلِّفُ عَلَىٰ تَلخِيصِ الجَوَابِ الصَّحِيحِ لِهَذَا السُّؤَالِ، بِطَرِيقَةٍ مَنهَجِيَّةٍ مُختَصَرَةٍ وَوَاضِحَةٍ، لِيُعطِيَ المُسلِمَ الأَسَاسَ الَّذِي يُمكِنُ أَن يَبنِيَ عَلَيهِ اليَقِينَ، وَيَثبُتَ بِهِ يَومَ يَلقَىٰ السُّؤَالَ فِي قَبرِهِ.

وَمَعرِفَةُ النَّبِيِّ -ﷺ- لَيسَت مُجَرَّدَ مَعلُومَةٍ تَارِيخِيَّةٍ، بَل هِيَ مِن أَعظَمِ النِّعَمِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي مَنَّ اللهُ بِهَا عَلَىٰ عِبَادِهِ، كَمَا قَالَ سُبحَانَهُ: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [سورة آل عمران:١٦٤].

فَتَأَمَّل هَذَا الامتِنَانَ الإِلَهِيَّ؛ فَالبَشَرُ جَمِيعًا كَانُوا فِي ظُلمَةٍ وَجَهَالَةٍ وَضَيَاعٍ، حَتَّىٰ أَشرَقَت عَلَيهِم شَمسُ النُّبُوَّةِ، فَأَنَارَت لَهُمُ الطَّرِيقَ، وَبَيَّنَت لَهُمُ الحَقَّ، وَزَكَّت نُفُوسَهُم، وَعَلَّمَتهُمُ الكِتَابَ وَالحِكمَةَ.

إِنَّ حَاجَةَ الخَلقِ إِلَىٰ النَّبِيِّ -ﷺ- أَشَدُّ مِن حَاجَتِهِم إِلَىٰ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالنَّفَسِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الأَشيَاءَ إِنَّمَا تَحفَظُ حَيَاةَ الجَسَدِ، أَمَّا حَيَاةُ القَلبِ وَالرُّوحِ فَلَا تَكُونُ إِلَّا بِاتِّبَاعِ النَّبِيِّ -ﷺ-.

وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [سورة الأنفال:٢٤].

فَالحَيَاةُ الحَقِيقِيَّةُ، الَّتِي تَنفَعُ صَاحِبَهَا فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، إِنَّمَا تَكُونُ بِالإِيمَانِ بِرَسُولِ اللهِ -ﷺ- وَاتِّبَاعِهِ وَالِاستِجَابَةِ لَهُ، فَمَن أَعرَضَ عَن رِسَالَتِهِ، فَإِنَّهُ حَيُّ الجَسَدِ مَيِّتُ القَلبِ، ضَالٌّ مَهمَا بَدَا لَهُ مِنَ النَّعِيمِ الظَّاهِرِ.

مُنذُ أن بُعِثَ مُحَمَّدٌ -ﷺ- وَإِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ، لَا نَجَاةَ لِأَحَدٍ إِلَّا بِأَن يَكُونَ مِن أَتبَاعِهِ، يَسِيرُ خَلفَ هَديِهِ، وَيَتَمَسَّكُ بِسُنَّتِهِ، وَيُعَظِّمُ أَمرَهُ وَنَهيَهُ.

فَهُوَ -ﷺ- القَائِلُ: "مَن أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن عَصَانِي فَقَد أَبَىٰ."

فَلَا خَلَاصَ مِن عَذَابِ اللهِ إِلَّا بِهِ، وَلَا طَرِيقَ إِلَىٰ رِضوَانِ اللهِ إِلَّا مِن خِلَالِهِ، وَلَا وُصُولَ إِلَىٰ الهِدَايَةِ إِلَّا بِهَديِهِ.

وَلَقَد أَيَّدَ اللهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا -ﷺ- بِأَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ، حَتَّىٰ قِيلَ: "إِنَّ دَلَائِلَ نُبُوَّتِهِ تَجَاوَزَتِ الأَلفَ دَلِيلٍ."

وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ رِسَالَتَهُ وَاضِحَةٌ، نُبُوَّتَهُ ثَابِتَةٌ، دَعوَتَهُ ظَاهِرَةٌ كَالشَّمسِ، لَا يَرُدُّهَا إِلَّا مُعَانِدٌ مُكَابِرٌ.

فَالسَّيرُ فِي طَرِيقِ الإِيمَانِ يَستَوجِبُ مَعرِفَةَ هَذَا النَّبِيِّ، وَاتِّبَاعَهُ، وَتَعظِيمَهُ، وَاتِّبَاعَ سُنَّتِهِ، وَالِاعتِرَافَ بِرِسَالَتِهِ، وَالدَّعوَةَ إِلَيهَا، وَالدِّفَاعَ عَنهَا.

إِذًا، فَمَعرِفَةُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ -ﷺ- لَيسَت خِيَارًا زَائِدًا فِي الدِّينِ، بَل هِيَ أَصلٌ رَاسِخٌ مِن أُصُولِ العَقِيدَةِ، لَا يُقبَلُ الإِيمَانُ بِدُونِهَا.

وَهِيَ مِفتَاحٌ لِلنَّجَاةِ فِي الآخِرَةِ، وَسَنَدٌ لِلهِدَايَةِ فِي الدُّنيَا، وَمَن ضَلَّ عَنهَا فَقَد ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا.

فَاللَّهُمَّ اجعَلنَا مِن أَتبَاعِ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ -ﷺ-، الظَّاهِرِينَ عَلَىٰ الحَقِّ، المُتَمَسِّكِينَ بِسُنَّتِهِ، الثَّابِتِينَ عَلَىٰ طَرِيقِهِ حَتَّىٰ نَلقَاكَ.

قال المؤلف -رَحِمَهُ اللهُ-:

وَلَهُ مِنَ العُمُرِ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً - مِنهَا أَربَعُونَ قَبلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلَاثٌ وَعِشرُونَ نَبِيًّا رَسُولًا.

تَنقَسِمُ حَيَاتُهُ إِلَىٰ ثَلَاثِ مَرَاحِلَ:

مِنَ الوِلَادَةِ إِلَىٰ البِعثَةِ: أَربعُونَ سَنَةً.

العَهدُ المَكِّيُّ: ثَلَاثَ عَشرَةَ سَنَةً.

العَهدُ المَدَنِيُّ: عَشرُ سِنِينَ.

أَي أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- حِينَ انتَقَلَ إِلَىٰ الرَّفِيقِ الأَعلَىٰ كَانَ عُمرُهُ الشَّرِيفُ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ سَنَةً، وَقَد تَوَاتَرَتِ الأَدِلَّةُ عَلَىٰ تَحدِيدِ هَذَا العُمُرِ، وَثَبَتَت مَعَالِمُ حَيَاتِهِ -ﷺ- بِدِقَّةٍ، وَمِنهَا مَا يَلِي:

سَنَةُ وِلَادَتِهِ:

وُلِدَ النَّبِيُّ -ﷺ- فِي عَامِ الفِيلِ، وَهُوَ العَامُ الَّذِي حَاوَلَ فِيهِ أَبرَهَةُ الحَبَشِيُّ غَزوَ مَكَّةَ لِهَدمِ الكَعبَةِ، فَأَهلَكَهُ اللهُ وَجَيشَهُ كَمَا وَرَدَ فِي سُورَةِ الفِيلِ.

وَيُقَابِلُ هَذَا العَامَ فِي التَّارِيخِ المِيلَادِيِّ: قِيلَ: إِنَّهُ سَنَةَ ٥٧٠م، وَقِيلَ: ٥٧١م، وَالرَّاجِحُ أَنَّ أَحَدَ هَذَينِ التَّارِيخَينِ هُوَ الأَقرَبُ لِلصَّوَابِ، وَهُوَ مَوضِعُ اتِّفَاقٍ عِندَ جُمهُورِ المُؤَرِّخِينَ.

🗎 **شَهرُ وِلَادَتِهِ:**

اتَّفقَ أَهلُ السِّيرَةِ عَلَىٰ أَنَّ مَولِدَهُ -ﷺ- كَانَ فِي شَهرِ رَبِيعِ الأَوَّلِ، وَهُوَ أَمرٌ ثَابِتٌ لَا خِلَافَ فِيهِ يُعتَدُّ بِهِ، إِلَّا قولًا شَاذًّا ضَعِيفًا لَا يُلتَفتُ إِلَيهِ، وَهُوَ أَنَّهُ وُلِدَ فِي شَهرِ رَمَضَانَ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ وُلِدَ فِي رَبِيعِ الأَوَّلِ بِلَا شَكٍّ.

🗎 **يَومُ الأُسبُوعِ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ:**

ثَبَتَ بِالنَّصِّ الصَّحِيحِ، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسلِمٍ، أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- قَالَ: "ذَلِكَ يَومٌ وُلِدتُ فِيهِ"، حِينَ سُئِلَ عَن صِيَامِ يَومِ الِاثنَينِ، فَيَتَأَكَّدُ بِذَلِكَ أَنَّ يَومَ وِلَادَتِهِ كَانَ يَومَ الِاثنَينِ.

🗎 **اليَومُ مِنَ الشَّهرِ:**

اختُلِفَ فِي تَحدِيدِ اليَومِ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ مِن رَبِيعٍ الأَوَّلِ، فَقِيلَ: فِي الثَّانِي مِنَ الشَّهرِ، وَقِيلَ: فِي الثَّامِنِ، وَقِيلَ: فِي العَاشِرِ، وَقِيلَ غَيرَ ذَلِكَ.

لَكِنِ الرَّاجِحُ وَالمَشهُورُ أَنَّ مَولِدَهُ كَانَ فِي الثَّانِي عَشَرَ مِن شَهرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ.

وَفَاتُهُ -ﷺ-:

أَمَّا وَفَاتُهُ -ﷺ-، فَقَد كَانَت كَمَا يَلِي: فِي السَّنَةِ الحَادِيَةِ عَشرَةَ مِنَ الهِجرَةِ، فِي شَهرِ رَبِيعِ الأَوَّلِ، فِي يَومِ الِاثنَينِ أَيضًا، وَهُوَ اليَومُ نَفسُهُ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ -ﷺ-، وَكَانَ ذَلِكَ فِي الثَّانِي عَشَرَ مِن شَهرِ رَبِيعِ الأَوَّلِ عَلَىٰ القَولِ الرَّاجِحِ، وَتُوُفِّيَ فِي بَيتِهِ، وَرَأسُهُ بَينَ سَحَرَاتِ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنهَا-، وَغُسِّلَ فِي اليَومِ التَّالِي: يَومِ الثُّلَاثَاءِ، وَدُفِنَ فِي آخِرِ لَيلِ الثُّلَاثَاءِ، قُبَيلَ فَجرِ الأَربعَاءِ، وَهُوَ مَا يُعرَفُ بِـ سَحَرِ لَيلَةِ الأَربعَاءِ.

وَبِهَذَا يَكُونُ قَد عَاشَ -ﷺ- ثَلَاثًا وَسِتِّينَ سَنَةً كَامِلَةً، وَهَذَا هُوَ عُمُرُهُ الشَّرِيفُ

بِاتِّفَاقِ العُلَمَاءِ، كَمَا قَالَت عَائِشَةُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: «تُوُفِّي رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ ابنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ».

وَلَمَّا بَلَغَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الأَربَعِينَ مِن عُمُرِهِ بُعِثَ إِلَيهِ جِبرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، كَمَا رُوِيَ عَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: «أُنزِلَ عَلَيهِ وَهُوَ ابنُ أَربَعِينَ».

وَقبلَ ذَلِكَ كَانَت لَهُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَحوَالٌ عَظِيمَةٌ؛ فَقَد حَمَاهُ اللهُ مِنَ الشِّركِ، وَنَشَأَ عَلَىٰ الأَخلَاقِ الفَاضِلَةِ، وَالصِّدقِ وَالأَمَانَةِ، وَحَفِظَهُ اللهُ مِن أَخلَاقِ الجَاهِلِيَّةِ الرَّدِيئَةِ.

وَأَمَّا المُدَّةُ الَّتِي قَضَاهَا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِن بَعثَتِهِ إِلَىٰ وَفَاتِهِ فَهِيَ ثَلَاثٌ وَعِشرُونَ سَنَةً، قَضَاهَا دَاعِيًا إِلَىٰ اللهِ، وَمُجَاهِدًا فِي سَبِيلِهِ، وَمُعَلِّمًا، وَمُبَلِّغًا عَن رَبِّ العَالَمِينَ.

قال المؤلف - رحمه الله - :

نُبِّئَ بِإقرَأ، وأُرسِلَ بِالمُدَّثِّرِ، وبَلَدُهُ مَكَّةُ.

وَيُقصَدُ بِهَذِهِ العِبَارَةِ بَيَانُ بِدَايَةِ الوَحيِ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ - صلى الله عليه وسلم -، وَمَرحَلَةِ تَكلِيفِهِ بِالرِّسَالَةِ، وَمَكَانِ نَشأَتِهِ المُبَارَكَةِ.

بَدَأَتِ الدَّعوَةُ:

سِرًّا ثَلَاثَ سِنِينَ.

ثُمَّ جَهرًا بِالدَّعوَةِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [سورة الشعراء:٢١٤].

ثُمَّ قَالَ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [سورة الحجر:٩٤].

أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الوَحيِ عَلَىٰ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - هُوَ صَدرُ سُورَةِ العَلَقِ، ابتِدَاءً مِن قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [سورة العلق:١] إِلَىٰ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق:٥].

وَقَد ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الحَدِيثِ المَشهُورِ فِي الصَّحِيحَينِ عَن أُمِّ المُؤمِنِينَ عَائِشَةَ - رضي الله عنها -، حِينَ وَصَفَت بِدَايَةَ نُزُولِ الوَحيِ عَلَىٰ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم -.

وَقَبلَ نُزُولِ الوَحيِ كَانَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - يَتَهَيَّأُ لِهَذَا الأَمرِ الجَلِيلِ، فَكَانَ يُحِبُّ الخَلوَةَ، وَيَتَحَنَّثُ فِي غَارِ حِرَاءَ - أَي يَتَعَبَّدُ - فَيَعتَكِفُ اللَّيَالِيَ الطَّوِيلَةَ مُتَأَمِّلًا مُتَفَكِّرًا فِي خَلقِ اللهِ.

وكَانت أُولَىٰ إرهَاصَاتِ النُّبُوَّةِ أَن يَرَىٰ الرُّؤيَا الصَّالِحَةَ، فَلَا يَرَىٰ رُؤيَا إِلَّا تَحقَّقت كَفَلَقِ الصُّبحِ، وَهُوَ تَمهِيدٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ لِهَذَا الحَدَثِ العَظِيمِ.

فَبينَمَا كَانَ النَّبِيُّ -ﷺ- فِي غَارِ حِرَاءَ، جَاءَهُ جِبرِيلُ -عَلَيهِ السَّلَامُ-، فَاحتَضَنَهُ ضَمًّا شَدِيدًا، وَقَالَ لَهُ: "اقرَأ".

فَقَالَ: "مَا أَنَا بِقَارِئٍ" - أَي لَا أُجِيدُ القِرَاءَةَ، لِأَنَّهُ كَانَ أُمِّيًّا.

ثُمَّ كَرَّرَ عَلَيهِ الأَمرَ مَرَّتَينِ أُخرَيَينِ، وَفِي المَرَّةِ الثَّالِثَةِ أَلقَىٰ عَلَيهِ جِبرِيلُ الآيَاتِ الخَمسَ الأُولَىٰ مِن سُورَةِ العَلَقِ، فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ نُزُولٍ لِلوَحيِ، وَبِهِ أَصبَحَ نبيًّا.(١)

---

(١) **«صحيح البخاري» (٤/ ٣٣٦ بترقيم الشاملة آليا):** حدَّثنا يَحيَىٰ: حدَّثنا اللَّيثُ، عَن عُقَيلٍ، عَن ابنِ شِهَابٍ.

حدثني سَعِيدُ بنُ مَروَانَ: حدَّثنا مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ العَزِيزِ بنِ أَبِي رِزمَةَ: أخبرَنا أَبُو صَالِحٍ سَلمُويَةُ: حدَّثني عَبدُ اللهِ، عَن يُونُسَ بنِ يَزِيدَ، أخبرَني ابنُ شِهَابٍ: أَنَّ عُروَةَ بنَ الزُّبَيرِ أخبرَهُ: أَنَّ عَائِشَةَ زوجَ النَّبِيِّ -ﷺ- قالَت: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- الرُّؤيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّومِ، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤيَا إِلَّا جَاءَت مِثلَ فَلَقِ الصُّبحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيهِ الخَلَاءُ، فَكَانَ يَلحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -قالَ: وَالتَّحَنُّثُ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِي ذَوَاتِ العَدَدِ قَبلَ أَن يَرجِعَ إِلَىٰ أَهلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ بِمِثلِهَا، حَتَّىٰ فَجِئَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فقالَ: اقرَأ. فقالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ». قالَ: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الجُهدَ، ثُمَّ أَرسَلَنِي فقالَ: اقرَأ. قُلتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الجُهدَ، ثُمَّ أَرسَلَنِي فقالَ: اقرَأ. قُلتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الجُهدَ، ثُمَّ أَرسَلَنِي فقالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ [سورة العلق:١-٤] الآيَاتِ إِلَىٰ قَولِهِ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق:٥] ». فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ -ﷺ- تَرجُفُ بَوَادِرُهُ، حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ، فقالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي».

فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنهُ الرَّوعُ. قالَ لِخَدِيجَةَ: «أَي خَدِيجَةُ، مَا لِي، لَقَد خَشِيتُ عَلَىٰ نَفسِي». فَأَخبَرَهَا

وَأُرسِلَ (بِالمُدَّثِّرِ):

قَد يَستَشكِلُ البَعضُ مَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ وَمُسلِمٍ مِن حَدِيثِ جَابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ-، أَنَّهُ قَالَ: "أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ القُرآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [سورة المدثر:١]".

وَيُجَابُ عَن هَذَا بِأَنَّ: حَدِيث عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنهَا- أَصَحُّ وَأَصرَحُ، وَفِيهِ بَيَانٌ وَاضِحٌ أَنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ هُوَ "اقرَأ".

أَمَّا حَدِيثُ جَابِرٍ، فَلَيسَ نَصًّا صَرِيحًا فِي أَنَّهُ أَوَّلُ نُزُولٍ مُطلَقٍ، بَل يُمكِنُ حَملُهُ عَلَىٰ أَنَّهُ أَوَّلُ مَا نَزَلَ بَعدَ انقِطَاعِ الوَحيِ المُؤَقَّتِ، المَعرُوفِ بِـ"فترة الوَحيِ".

وَقَد جَاءَ فِي الحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بَعدَ أَن نَزَلَ عَلَيهِ الوَحيُ بِـ"اقرأ"، مَرَّ بِفَترَةِ انقِطَاعٍ، ثُمَّ رَأَىٰ جِبرِيلَ مَرَّةً أُخرَىٰ جَالِسًا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ، فَخَافَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- وَرَجَعَ إِلَىٰ بَيتِهِ فَزِعًا، وَقَالَ لِخَدِيجَةَ: "دَثِّرُونِي"، فَأَنزَلَ اللهُ عَلَيهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ [سورة المدثر:١-٥].

٥٤٨- **رُوِيَ عَن يَحيَىٰ بنِ أَبِي كَثِيرٍ، قَالَ:** سَأَلتُ أَبَا سَلَمَةَ بنَ عَبدِ الرَّحمَنِ عَن أَوَّلِ

الخَبَرَ، قَالَت خَدِيجَةُ: كَلَّا، أَبشِر، فَوَاللهِ لَا يُخزِيكَ اللهُ أَبَدًا، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحمِلُ الكَلَّ، وَتَكسِبُ المَعدُومَ، وَتَقرِي الضَّيفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ فَانطَلَقَت بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّىٰ أَتَت بِهِ وَرَقَةَ بنَ نَوفَلٍ وَهُوَ ابنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكتُبُ الكِتَابَ العَرَبِيَّ، وَيَكتُبُ مِنَ الإِنجِيلِ بِالعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَن يَكتُبَ، وَكَانَ شَيخًا كَبِيرًا قَد عَمِيَ، فَقَالَت خَدِيجَةُ: يَا عَمِّ، اسمَع مِنِ ابنِ أَخِيكَ. قَالَ وَرَقَةُ: يَا ابنَ أَخِي، مَاذَا تَرَىٰ؟ فَأَخبَرَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- خَبَرَ مَا رَأَىٰ. فقالَ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنزِلَ عَلَىٰ مُوسَىٰ، لَيتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيتَنِي أَكُونُ حَيًّا، ذَكَرَ حَرفًا، قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: «أَوَمُخرِجِيَّ هُم؟». قَالَ وَرَقَةُ: نَعَم، لَم يَأتِ رَجُلٌ بِمَا جِئتَ بِهِ إِلَّا أُوذِيَ، وَإِن يُدرِكنِي يَومُكَ حَيًّا أَنصُركَ نَصرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَم يَنشَب وَرَقَةُ أَن تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحيُ فَترَةً، حَتَّىٰ حَزِنَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

مَا نَزَلَ مِنَ القُرآنِ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [سورة المدثر:١]، قُلتُ: يَقُولُونَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [سورة العلق:١]، فَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ: سَأَلتُ جَابِرَ بنَ عَبدِ اللهِ عَن ذَلِكَ، قُلتُ لَهُ مِثلَ مَا قُلتَ، قَالَ جَابِرٌ: لَا أُحَدِّثُكَ إِلَّا مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ -ﷺ-، قَالَ: «جَاوَرتُ بِحِرَاءَ، فَلَمَّا قَضَيتُ جِوَارِي هَبَطتُ، فَنُودِيتُ، فَنَظَرتُ عَن يَمِينِي، فَلَم أَرَ شَيئًا، وَنَظَرتُ عَن شِمَالِي، فَلَم أَرَ شَيئًا، وَنَظَرتُ خَلفِي، فَلَم أَرَ شَيئًا، فَرَفَعتُ رَأسِي فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءَ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرسِيٍّ بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ، فَجُئِثتُ مِنهُ رُعبًا، فَرَجَعتُ فَقُلتُ: دَثِّرُونِي، فَدَثَّرُونِي»، فَنَزَلَت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ إِلَىٰ قَولِهِ: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [سورة المدثر:٥].(١)

إِذًا، نَستَنتِجُ أَنَّ: أَوَّلَ مَا نَزَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ -ﷺ- مِنَ الوَحيِ، وَبِهِ صَارَ نَبِيًّا، هُوَ "اقرأ"،

وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ بَعدَ فَترَةِ التَّوَقُّفِ، وَبِهِ صَارَ رَسُولًا مُكَلَّفًا بِالدَّعوَةِ وَالإِنذَارِ، هُوَ "المُدَّثِّرُ".

بَلَدُهُ مَكَّةُ:

أَمَّا عَن بَلَدِهِ -ﷺ-، فَإِنَّهُ وُلِدَ وَنَشَأَ فِي مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ، تِلكَ البَلدَةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي لَهَا خُصُوصِيَّةٌ وَقَدَاسَةٌ فِي الإِسلَامِ، نُبِّئَ فِيهَا، وَأُرسِلَ فِيهَا، وَهِيَ الَّتِي بِهَا عَشِيرَتُهُ وَقَومُهُ وَأَهلُهُ وَقَرَابَتُهُ.

وَهِيَ أَحَبُّ البِلَادِ عَلَيهِ:

٥٤٩- **رُوِيَ عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَدِيٍّ بنِ حَمرَاءَ، قَالَ:** رَأَيتُ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- وَاقِفًا

(١) أخرجهُ البخاري ٦/ ١٦١ - ١٦٢ (٤٩٢٢ - ٤٩٢٤)، ومسلم ١/ ١٤٤ (١٦١)

عَلَىٰ الحَزوَرَةِ، فَقَالَ: "وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيرُ أَرضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرضِ اللهِ إِلَىٰ اللهِ، وَلَولَا أَنِّي أُخرِجتُ مِنكِ مَا خَرَجتُ".(١)

٥٥٠ - **رُوِيَ عَن جَابِرِ بنِ سَمُرَةَ قَالَ:** قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- "إِنِّي لَأَعرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبلَ أَن أُبعَثَ إِنِّي لَأَعرِفُهُ الآنَ".(٢)

كَانَت أَحجَارُ مَكَّةَ تُحِبُّهُ -ﷺ-.

وَهِيَ مَوطِنُ إِبرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، وَمَهبِطُ الوَحيِ، وَمَقَرُّ البَيتِ الحَرَامِ.

وَقَد عَاشَ النَّبِيُّ -ﷺ- فِيهَا ثَلَاثَ عَشرَةَ سَنَةً بَعدَ البِعثَةِ، يَدعُو النَّاسَ إِلَىٰ التَّوحِيدِ، ثُمَّ هَاجَرَ إِلَىٰ المَدِينَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَم يُعرَف عَنهُ بَعدَ البِعثَةِ أَنَّهُ عَادَ لِلتَّعَبُّدِ فِي غَارِ حِرَاءَ مَرَّةً أُخرَىٰ، رَغمَ أَنَّهُ كَانَ يَزُورُ مَكَّةَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ، وَفَتحِ مَكَّةَ، وَالعُمرَةِ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ العِبَادَةَ فِي غَارِ حِرَاءَ لَم تَكُن مِنَ الدِّينِ المَشرُوعِ بَعدَ البِعثَةِ، وَلِهَذَا لَم يُنقَل عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- أَنَّهُ صَلَّىٰ فِيهِ أَو تَمَسَّحَ بِهِ، كَمَا يَفعَلُ بَعضُ الجُهَّالِ اليَومَ.

إِذًا: نُبِّئَ النَّبِيُّ -ﷺ- بِـ"اقرأ": أَي أَنَّ أَوَّلَ مَا أُوحِيَ إِلَيهِ هُوَ صَدرُ سُورَةِ العَلَقِ، وَبِهِ صَارَ نَبِيًّا.

وَأُرسِلَ بِـ"المدثر": أَي أَنَّ الأَمرَ بِالدَّعوَةِ جَاءَ بَعدَهَا، وَبِهِ صَارَ رَسُولًا.

بَلَدُهُ مَكَّةُ: مَهدُ الرِّسَالَةِ، وَمُنطَلَقُ النُّورِ، وَمَقَامُ النُّبُوَّةِ.

---

(١) «سنن الترمذي» (٦/ ٤٢٠): هَذَا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٢) «صحيح مسلم» (٤/ ١٧٨٢ ت عبد الباقي).

قال المؤلف -رحمه الله-:

بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدعُو إِلَىٰ التَّوحِيدِ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [سورة المدثر: ١-٧].

وَمَعنَىٰ ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [سورة المدثر: ٢]: يُنذِرُ عَنِ الشِّركِ، وَيَدعُو إِلَىٰ التَّوحِيدِ.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [سورة المدثر: ٣] أَي: عَظِّمهُ بِالتَّوحِيدِ.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [سورة المدثر: ٤] أَي: طَهِّر أَعمَالَكَ عَنِ الشِّركِ.

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [سورة المدثر: ٥] الرُّجزُ: الأَصنَامُ.

وَهَجرُهَا: تَركُهَا، وَالبَرَاءَةُ مِنهَا وَأَهلِهَا.

هَذِهِ عِبارَةٌ مُوجَزَةٌ عَظِيمَةٌ، تُلَخِّصُ أَصلَ الرِّسَالَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَتُبَيِّنُ المَقصِدَ الأَسمَىٰ مِن بِعثَةِ خَيرِ الخَلقِ -ﷺ-، حَيثُ كَانَ أَعظَمُ مَا جَاءَ بِهِ هُوَ التَّحذِيرُ مِنَ الشِّركِ بِكُلِّ صُوَرِهِ، وَالدَّعوَةُ إِلَىٰ تَوحِيدِ اللهِ الخَالِصِ، الَّذِي لَا يُقبَلُ عَمَلٌ إِلَّا بِهِ، وَلَا تَتَحَقَّقُ النَّجَاةُ دُونَهُ.

فَلُبُّ دَعوَتِهِ تَعبِيدُ الخَلقِ لِلَّهِ بِتَحذِيرِهِم مِنَ الشِّركِ، وَتَحذِيرِهِم مِن مَعصِيَتِهِ، وَدَعوَتِهِم إِلَىٰ تَوحِيدِ اللهِ وَطَاعَتِهِ، فَأَعظَمُ أَمرٍ بُعِثَ بِهِ وَحَرَصَ عَلَيهِ وَاجتَهَدَ فِي تَبلِيغِهِ: الأَمرُ بِتَوحِيدِ اللهِ فِي كُلِّ العِبَادَاتِ مِنَ الأَقوَالِ وَالأَفعَالِ وَالِاعتِقَادَاتِ، أَن تُفعَلَ لِلَّهِ

وَحدَهُ، وَأَعظَمُ أَمرٍ نَهَىٰ عَنهُ وَحَذَّرَ مِنهُ: الشِّركُ بِاللهِ.

وَالتَّوحِيدُ الحَقُّ هُوَ الَّذِي يَقُومُ عَلَىٰ رُكنَينِ عَظِيمَينِ:

النَّفيُ: نَفيُ استِحقَاقِ العِبَادَةِ عَن كُلِّ مَا سِوَىٰ اللهِ – وَهَذَا فِي قَولِنَا: "لَا إِلَهَ".

الإِثبَاتُ: إِثبَاتُ أَنَّ العِبَادَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ وَحدَهُ – وَهَذَا فِي قَولِنَا: "إِلَّا اللهُ".

فَلَا يَصِحُّ التَّوحِيدُ إِلَّا بِجَمعِ هَذَينِ الأَصلَينِ، كَمَا قَالَ بَعضُ السَّلَفِ: «التَّوحِيدُ لَا يَقُومُ إِلَّا عَلَىٰ التَّجرِيدِ وَالتَّفرِيدِ».

وَالتَّجرِيدُ: هُوَ إِخلَاصُ القَلبِ لِلَّهِ، وَالتَّفرِيدُ: هُوَ إِفرَادُهُ بِالعِبَادَةِ دُونَ غَيرِهِ.

وَقَدِ استَمَرَّ النَّبِيُّ -ﷺ- مُنذُ أَوَّلِ يَومٍ فِي دَعوَتِهِ يُعَلِّمُ النَّاسَ التَّوحِيدَ، وَيُحَذِّرُهُم مِنَ الشِّركِ، وَيُجَدِّدُ فِي نُفُوسِهِمُ الفِطرَةَ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيهَا، فَظَلَّ يَدعُو لَيلًا وَنَهَارًا، سِرًّا وَعَلَانِيَةً، فِي مَكَّةَ ثُمَّ فِي المَدِينَةِ، فِي السِّلمِ وَالحَربِ، فِي الخُطَبِ وَالمَوَاعِظِ، فِي وَصَايَاهُ وَأَحكَامِهِ، حَتَّىٰ لَحظَةِ وَفَاتِهِ، مَا غَفَلَ عَنِ التَّوحِيدِ قَطُّ.

فِي مَكَّةَ: لَبِثَ -ﷺ- ثَلَاثَ عَشرَةَ سَنَةً، لَم يُفرَض عَلَيهِ فِيهَا مِنَ العِبَادَاتِ شَيءٌ سِوَىٰ الدَّعوَةِ إِلَىٰ التَّوحِيدِ، وَأَمرُ الصَّلَاةِ إِنَّمَا جَاءَ فِي أَوَاخِرِ المَرحَلَةِ المَكِّيَّةِ.

فِي المَدِينَةِ: أُضِيفَ إِلَىٰ دَعوَتِهِ التَّشرِيعَاتُ وَالمُعَامَلَاتُ، لَكِن مِحوَرُ دَعوَتِهِ ظَلَّ التَّوحِيدَ، فَبَقِيَ -ﷺ- يُؤَكِّدُهُ، وَيَغرِسُهُ فِي القُلُوبِ، وَيَهدِمُ مَا يُقَابِلُهُ مِنَ الشِّركِ، حَتَّىٰ قَالَ فِي مَرَضِ مَوتِهِ: "لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ"

قَالَ تَعَالَىٰ فِي أَوَائِلِ مَا نَزَلَ عَلَيهِ مِنَ القُرآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧﴾ [سورة المدثر:١-٧].

وَهَذِهِ الآيَاتُ عَظِيمَةٌ فِي بَابِ الدَّعوَةِ وَالتَّوحِيدِ، وَمِنهَا نَأخُذُ المَعَانِي التَّالِيَةَ:

﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [سورة المدثر:٢] – الدَّعوةُ لِلإنذَارِ مِنَ الشِّركِ.

أُمِرَ –ﷺ– بِأَن يُنذِرَ النَّاسَ، أَي يُحذِّرَهُم مِن عَاقِبَةِ الإشرَاكِ بِاللهِ، وَيُبيِّنَ لَهُمُ الحَقَّ، فَإِنذَارُهُم وَاجِبٌ قَبلَ إِصَابَتِهِم بِالعَذَابِ.

وَالنِّذَارَةُ فِي اللُّغَةِ هِيَ: الإِعلَامُ بِالخَوفِ وَالزَّجرِ عَنِ الشَّرِّ، إِعلَامٌ فِيهِ تَخوِيفٌ، وَهُوَ مَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ –ﷺ– بِدَعوَتِهِ النَّاسَ إِلَىٰ تَركِ عِبَادَةِ غَيرِ اللهِ، وَتَحذِيرِهِم مِنَ الأَصنَامِ وَالأَندَادِ وَالضَّلَالَاتِ العَقَدِيَّةِ.

٥٥١ – **رُوِيَ عَن قَتَادَةَ بنِ دِعَامَةَ –مِن طَرِيقِ سَعِيدٍ–** ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [سورة المدثر:٢]، **قَالَ:** أَنذِر عَذَابَ رَبِّكَ، وَوَقَائِعَهُ فِي الأُمَمِ، وَشِدَّةَ نِقمَتِهِ إِذَا انتقم.(١)

٥٥٢ – **وَقَالَ مُقَاتِلُ بنُ سُلَيمَانَ:** ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [سورة المدثر:٢] كُفَّارَ مَكَّةَ العَذَابَ إِن لَم يُوَحِّدُوا اللهَ تعالىٰ.(٢)

إِذًا؛ الإِنذَارُ يَكُونُ عَنِ الشِّركِ، وَعَمَّا يَكُونُ عِقَابًا لِأَهلِ الشِّركِ مِن أَنوَاعِ العُقُوبَاتِ فِي الدُّنيَا بِالهَلَاكِ وَالِاستِئصَالِ، وَفِي الآخِرَةِ بِالعَذَابِ وَالنَّكَالِ.

فَقَولُهُ: يَدعُو إِلَىٰ التَّوحِيدِ، وَيُنذِرُ عَنِ الشِّركِ: هُوَ مَعنَىٰ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، تَخلِيَةٌ وَتَحلِيَةٌ، وَالتَّخلِيَةُ قَبلَ التَّحلِيَةِ.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [سورة المدثر:٣] – تَعظِيمُ اللهِ بِالتَّوحِيدِ.

مَعنَىٰ الآيَةِ: عَظِّم رَبَّكَ بِتَوحِيدِهِ، وَاعتَرِف بِعَظَمَتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

---

(١) أخرجهُ ابن جرير ٢٣/ ٤٠٤.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٤٨٩ – ٤٩٠.

فـ"التكبير" يَعنِي: أَنَّ اللهَ أَعظَمُ مِن كُلِّ شَيءٍ، وَمِن كُلِّ مَن يُعبَدُ سِوَاهُ، فَيُجَرَّدُ القَلبُ مِنَ التَّعَلُّقِ بِغَيرِهِ.

وَيَنبَغِي عِندَ قَولِ "اللهُ أَكبَرُ" أَن نَستَحضِرَ:

أَنَّ اللهَ أَكبَرُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ: مُدَبِّرُ الأُمُورِ، مَالِكُ المُلكِ.

أَكبَرُ فِي أُلُوهِيَّتِهِ: لَا يُعبَدُ غَيرُهُ.

أَكبَرُ فِي صِفَاتِهِ وَأَسمَائِهِ: لَهُ الكَمَالُ المُطلَقُ.

أَكبَرُ فِي حُكمِهِ وَشَرعِهِ: فَلَا يُشرَعُ إِلَّا مَا شَرَعَهُ اللهُ.

أَكبَرُ فِي قَدَرِهِ: فَلَا يَخرُجُ شَيءٌ عَن حُكمِهِ وَعَدلِهِ.

وَأَكبَرُ مِن أَن يَكُونَ لَهُ نِدٌّ أَو شَبِيهٌ.

فَلَا يَكُونُ التَّعظِيمُ وَالتَّكبِيرُ بِاعتِقَادِ التَّوَسُّلِ البَاطِلِ وَالشَّفَاعَاتِ الشِّركِيَّةِ، وَالتَّعطِيلِ لِلأَسمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيهِ بِمَا لَم يُشرَع.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [سورة المدثر: ٤] — تَطهِيرُ الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ.

أَوَّلًا: طَهَارَةُ الثِّيَابِ بِمَعنَىٰ طَهَارَةِ العَمَلِ وَالقَلبِ مِنَ الإِثمِ وَالمَعَاصِي

وَهُوَ قَولُ جُمهُورِ السَّلَفِ، وَأَنَّ المُرَادَ تَزكِيَةُ العَمَلِ وَالبَاطِنِ: رُوِيَ عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ: مِنَ الإِثمِ، وَمِنَ الغَدرِ، وَلَا تَكُن غَدَّارًا، وَلَيسَت ثِيَابَهُ الَّتِي يَلبَسُ.

٥٥٣ - **وَعَن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ:** لَا تَلبَسهَا عَلَىٰ غَدرٍ وَلَا ظُلمٍ وَلَا إِثمٍ.

٥٥٤ - **وَعَن عِكرِمَةَ، إِبرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، مُجَاهِدِ بنِ جَبرٍ، الضَّحَّاكِ بنِ مُزَاحِمٍ:** مِنَ الإِثمِ، وَلَا تَلبَسهَا عَلَىٰ مَعصِيَةٍ، وَعَمَلَكَ فَأَصلِح.

٥٥٥ - **وَعَن قَتَادَةَ بنِ دِعَامَةَ:** طَهِّرهَا مِنَ المَعَاصِي، وَهُوَ تَعبِيرٌ عَرَبِيٌّ.

٥٥٦ - **وَعَن مُحَمَّدِ بنِ شِهَابٍ الزُّهرِيِّ**: نَفسَكَ فَطَهِّر عَنِ الذَّنبِ.

٥٥٧ - **وَعَن إِسمَاعِيلَ السُّدِّيِّ**: الصَّلَاحُ طَهَارَةُ ثِيَابٍ، وَالفُجُورُ خُبثُ ثِيَابٍ.

ثَانِيًا: طَهَارَةُ الخُلُقِ وَالسُّلُوكِ

٥٥٨ - **رُوِيَ عَنِ الحَسَنِ البَصرِيِّ وَمُحَمَّدِ بنِ كَعبٍ القُرَظِيِّ**: خُلُقَكَ فَحَسِّن.

٥٥٩ - **وَعَن أَبِي رَزِينٍ**: عَمَلَكَ فَأَصلِحهُ.

ثَالِثًا: البَرَاءَةُ مِن أَوصَافِ الجَاهِلِيَّةِ (الكَهَانَةِ وَالسِّحرِ)

٥٦٠ - **رُوِيَ عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدِ بنِ جَبرٍ**: لَستَ بِكَاهِنٍ وَلَا سَاحِرٍ.

رَابِعًا: الطَّهَارَةُ الحِسِّيَّةُ لِلثِّيَابِ

٥٦١ - **رُوِيَ عَن مُحَمَّدِ بنِ سِيرِينَ وَعَبدِ الرَّحمَنِ بنِ زَيدِ بنِ أَسلَمَ**: اغسِلهَا بِالمَاءِ، وَأُمِرَ بِالتَّطَهُّرِ.

خَامِسًا: تَقصِيرُ الثِّيَابِ

٥٦٢ - **رُوِيَ عَن طَاوُوسِ بنِ كَيسَانَ**: وَثِيَابَكَ فَقَصِّر.

وَكَمَا أَوصَىٰ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ الشَّابَّ وَهُوَ عَلَىٰ فِرَاشِ المَوتِ، فَقَالَ لَهُ: "ارفَع ثَوبَكَ، فَإِنَّهُ أَتقَىٰ لِرَبِّكَ، وَأَنقَىٰ لِثَوبِكَ".

وَكُلُّ هَذِهِ المَعَانِي صَحِيحَةٌ وَلَا تَتَعَارَضُ، فَيَجُوزُ حَملُ الآيَةِ عَلَيهَا جَمِيعًا.

أَكثَرُ أَقوَالِ السَّلَفِ عَلَىٰ أَنَّ المُرَادَ بِالآيَةِ طَهَارَةُ العَمَلِ وَالقَلبِ مِنَ الشِّركِ وَالمَعَاصِي وَأَخلَاقِ الجَاهِلِيَّةِ، وَدَخَلَتِ الطَّهَارَةُ الحِسِّيَّةُ تَبَعًا لَا استِقلَالًا، وَاللَّفظُ يَتَّسِعُ لِلمَعنَيَينِ، مَعَ تَقدِيمِ طَهَارَةِ البَاطِنِ.

﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [سورة المدثر:٥]:

أَوَّلًا: القِرَاءَاتُ الوَارِدَةُ فِي الآيَةِ:

قُرِئَت بِالضَّمِّ (الرُّجْزَ): رُوِيَ عَن جَابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ، وَعَبدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ بِسَنَدٍ مُتَّصِلٍ (الأَعمَشُ ← يَحيَىٰ بنُ وَثَّابٍ ← عَلقَمَةُ ← ابنِ مَسعُودٍ ← النَّبِيِّ -ﷺ-)، وَهِيَ قِرَاءَةُ الحَسَنِ البَصرِيِّ.

وَقُرِئَت بِالكَسرِ (الرِّجز): رُوِيَت عَن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ.

فَالآيَةُ قُرِئَت بِالضَّمِّ وَالكَسرِ، وَكِلتَاهُمَا قِرَاءَةٌ مَأثُورَةٌ صَحِيحَةٌ.

ثَانِيًا: أَقوَالُ السَّلَفِ فِي تَفسِيرِ ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [سورة المدثر:٥]

١) الرُّجْزُ = الأَوثَانُ (وَهُوَ قَولُ الجُمهُورِ)

رُوِيَ عَن جَابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ (مَرفُوعًا)، وَعَبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدِ بنِ جَبرٍ، وَعِكرِمَةَ، وَالحَسَنِ البَصرِيِّ، وَالزُّهرِيِّ، وَعَطَاءٍ الخُرَاسَانِيِّ، وَعَبدِ الرَّحمَنِ بنِ زَيدِ بنِ أَسلَمَ.

٢) الرُّجْزُ = الشِّركُ

٥٦٣- رُوِيَ عَنِ الضَّحَّاكِ بنِ مُزَاحِمٍ، وَعَن أَبِي مَالِكٍ الغِفَارِيِّ.

٣) الرُّجْزُ = الإِثمُ وَالمَعَاصِي

٥٦٤- رُوِيَ عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ، وَإِبرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، وَالضَّحَّاكِ بنِ مُزَاحِمٍ.

٤) التَّفرِيقُ بَينَ الضَّمِّ وَالكَسرِ

رُوِيَ عَن أَبِي العَالِيَةِ وَالرَّبِيعِ بنِ أَنَسٍ:

بِالضَّمِّ: الصَّنَمُ.

بِالكَسرِ: النَّجَاسَةُ وَالمَعصِيَةُ.

فَكُلُّ هَذِهِ المَعَانِي صَحِيحَةٌ، وَهِيَ تَعُودُ إِلَىٰ أَصلِ الطَّهَارَةِ مِنَ الشِّركِ، وَالإِخلَاصُ لِلَّهِ.

قال المؤلف -رحمه الله-:

أَخذَ علَىٰ هَذَا عَشرَ سِنِينَ يَدعُو إِلَىٰ التَّوحِيدِ، وبَعدَ العَشرِ عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، وَفُرِضَت علَيهِ الصَّلَوَاتُ الخَمسُ، وَصَلَّىٰ فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ سِنِينَ.

مَكَثَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ عَشرَةَ سَنَةً، وَكَانَت دَعوَتُهُ فِي هَذِهِ المُدَّةِ قَائِمَةً عَلَىٰ أَصلٍ عَظِيمٍ، وَهُوَ الدَّعوَةُ إِلَىٰ تَوحِيدِ اللهِ -سبحانه وتعالى-، فَلَم يَكُن يَدعُو النَّاسَ ابتِدَاءً إِلَّا إِلَىٰ إِخلَاصِ العِبَادَةِ لِلَّهِ وَحدَهُ، وَنَبذِ الشِّركِ بِجَمِيعِ صُوَرِهِ.

وَفِي أَوَاخِرِ مُقَامِهِ بِمَكَّةَ فُرِضَت عَلَيهِ الصَّلَاةُ، وَكَانَت فَرضِيَّتُهَا لَيلَةَ الإِسرَاءِ وَالمِعرَاجِ بِاتِّفَاقِ أَهلِ العِلمِ.

وَالإِسرَاءُ: هُوَ المَسِيرُ لَيلًا، وَالمُرَادُ بِهِ ذَهَابُ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- مِن مَكَّةَ إِلَىٰ المَسجِدِ الأَقصَىٰ بِبَيتِ المَقدِسِ.

وَالمِعرَاجُ: هُوَ صُعُودُ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- مِنَ الأَرضِ إِلَىٰ السَّمَاوَاتِ.

وَكَانَ الإِسرَاءُ وَالمِعرَاجُ فِي لَيلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَأُسرِيَ بِالنَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- عَلَىٰ دَابَّةِ البُرَاقِ، وَكَانَ الإِسرَاءُ وَالمِعرَاجُ بِالرُّوحِ وَالجَسَدِ جَمِيعًا، وَلَيسَ بِالرُّوحِ فَقَط، وَلَا كَانَ مَنَامًا.

وَذُكِرَ الإِسرَاءُ فِي سُورَةِ الإِسرَاءِ، وَذُكِرَ المِعرَاجُ فِي سُورَةِ النَّجمِ، وَلَم يُذكَرَا فِي مَوضِعٍ وَاحِدٍ.

وَصَلَّىٰ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- بِالأَنبِيَاءِ فِي المَسجِدِ الأَقصَىٰ إِظهَارًا لِفَضلِهِ وَإِمَامَتِهِ لَهُم.

لَقِيَ -ﷺ-: فِي السَّمَاءِ الدُّنيَا: آدَمَ، **وَفِي** الثَّانِيَةِ: عِيسَىٰ وَيَحيَىٰ، **وَفِي** الثَّالِثَةِ: يُوسُفَ، **وَفِي** الرَّابِعَةِ: إِدرِيسَ، **وَفِي** الخَامِسَةِ: هَارُونَ، **وَفِي** السَّادِسَةِ: مُوسَىٰ، **وَفِي** السَّابِعَةِ: إِبرَاهِيمَ -عَلَيهِمُ السَّلَامُ-.

وَرَأَىٰ -ﷺ- آيَاتٍ عِظَامًا، مِنهَا:

سِدرَةُ المُنتَهَىٰ

الجَنَّةُ وَالنَّارُ

جِبرِيلُ عَلَىٰ صُورَتِهِ

وَسَمِعَ صَرِيفَ الأَقلَامِ.

وَكَلَّمَهُ اللهُ حَقِيقَةً دُونَ أَن يَرَاهُ.

وَقَدِ اختُلِفَ فِي تَحدِيدِ زَمَنِ الإِسرَاءِ وَالمِعرَاجِ بِالنِّسبَةِ لِلهِجرَةِ: لَكِنِ الأَظهَرُ أَنَّهُ كَانَ بَعدَ عَامِ الحُزنِ، بَعدَ موتِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ وَزَوجِهِ خَدِيجَةَ، تَسلِيَةً لِلنَّبِيِّ -ﷺ-، وَالجُمهُورُ عَلَىٰ أَنَّ الإِسرَاءَ وَالمِعرَاجَ كَانَ قَبلَ الهِجرَةِ.

وَالمَقصُودُ أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- أُمِرَ بِالصَّلَاةِ فِي تِلكَ اللَّيلَةِ المُبَارَكَةِ، فَكَانَ يُصَلِّي فِي مَكَّةَ مِن حِينِ فُرِضَتِ الصَّلَاةُ إِلَىٰ أَن هَاجَرَ إِلَىٰ المَدِينَةِ، سَوَاءٌ كَانَت هَذِهِ المُدَّةُ سَنَةً، أَو ثَلَاثَ سِنِينَ، أَو أَكثَرَ مِن ذَلِكَ عَلَىٰ الخِلَافِ المَذكُورِ.

وَقد ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- كَانَ فِي صَلَاتِهِ يَستَقبِلُ بَيتَ المَقدِسِ، وَكَانَ يَجعَلُ الكَعبَةَ بَينَهُ وَبَينَ بَيتِ المَقدِسِ مَا دَامَ بِمَكَّةَ.

٥٦٥- **قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا- -كَمَا رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي المُستَدرَكِ-:** كَانَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- يَستَقبِلُ بَيتَ المَقدِسِ فِي صَلَاتِهِ، وَيَجعَلُ الكَعبَةَ بَينَهُ وَبَينَ بَيتِ المَقدِسِ.

وبَقِيَ النَّبِيُّ -ﷺ- وأَصحَابُهُ يستَقبِلُونَ بيتَ المَقدِسِ بَعدَ الهِجرَةِ أيضًا سِتَّةَ عَشَرَ شَهرًا أَو سَبعَةَ عَشَرَ شَهرًا، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ، وأُمِرُوا باستِقبَالِ الكَعبَةِ المُشَرَّفَةِ.

وَأَمَّا عَقِيدَةُ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ بِالإِسرَاءِ وَالمِعرَاجِ فَهِيَ الإِيمَانُ بِالإِسرَاءِ وَالمِعرَاجِ لِلنَّبِيِّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّمَ، خِلَافًا لِلزَّنَادِقَةِ مِنَ المُعتَزِلَةِ وَالجَهمِيَّةِ وَغَيرِهِم مِنَ العَقلَانِيِّينَ المُعَاصِرِينَ، مِمَّن أَنكَرُوا الحَادِثَةَ وَرَأَوا أَنَّهَا ضَعِيفَةٌ أَو مَدسُوسَةٌ فِي كُتُبِ الحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ!

وَبَعضُ المُعتَزِلَةِ وَالجَهمِيَّةِ يُثبِتُونَ الإِسرَاءَ وَيُنكِرُونَ المِعرَاجَ!

وَهَذَا غَبَاءٌ زِيَادَةً عَلَىٰ كُفرِهِم، أَمَّا أَهلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ يُؤمِنُونَ بِهَا وَيُصَدِّقُونَ بِالأَحَادِيثِ وَيُسَلِّمُونَ بِكُلِّ مَا وَرَدَ فِي أَحَادِيثِ الإِسرَاءِ وَالمِعرَاجِ مِن صِفَاتٍ وَأَخبَارٍ، وَهِيَ مُتَوَاتِرَةٌ، وَأَنَّهَا يَقظَةٌ وَرُؤيَا عَينٍ لَا مَنَامًا كَمَا يَزعُمُ الجَهمِيَّةُ.

٥٦٦ - **قَالَ البَربَهَارِيُّ** -رَحِمَهُ اللهُ-: وَالإِيمَانُ بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- أُسرِيَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَصَارَ إِلَىٰ العَرشِ وَكَلَّمَهُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، [وسمع كَلَامَ الله] وَدَخَلَ الجَنَّةَ وَاطَّلَعَ إِلَىٰ النَّارِ وَرَأَىٰ المَلَائِكَةَ وَنُشِرَت لَهُ الأَنبِيَاءُ، وَرَأَىٰ سُرَادِقَاتِ العَرشِ وَالكُرسِيِّ وَجَمِيعَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرَضِينَ فِي اليَقظَةِ، حَمَلَهُ جِبرِيلُ عَلَىٰ البُرَاقِ حَتَّىٰ أَدَارَهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفُرِضَت عَلَيهِ الصَّلَاةُ فِي تِلكَ اللَّيلَةِ وَرَجَعَ إِلَىٰ مَكَّةَ فِي تِلكَ اللَّيلَةِ وَذَلِكَ قَبلَ الهِجرَةِ.

والأحاديث الثابتة عَن النبي -ﷺ- فِي الإسراء والمعراج كلها حق وصدق ومن أنكر شيئًا مِمَّا جَاءَ فِيهَا وزعم أَنَّهَا خرافات وأوهام فَهُوَ كافر لِأَنَّهُ لَم يحقق الشهادة بالرسالة.

وَمِن تَحقِيقِهَا تَصدِيقُ مَا أَخبَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- مِن أَنبَاءِ الغَيبِ وَمَا وَقَعَ لَهُ فِي لَيلَةِ الإِسرَاءِ مِن:

- رُكُوبِ البُرَاقِ.
- وَرَبطِهِ بِالحَلقَةِ الَّتِي يَربِطُ بِهَا الأَنبِيَاءُ.
- وَعُرُوجِهِ مَعَ جِبرِيلَ إِلَىٰ السَّمَاوَاتِ السَّبعِ.
- وَمَا رَآهُ فِي السَّمَاوَاتِ السَّبعِ مِنَ الأَنبِيَاءِ.
- وَأَنَّهُ سَلَّمَ عَلَيهِم فَرَدُّوا -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَرَحَّبُوا بِهِ وَدَعَوا لَهُ بِخَيرٍ.
- وَأَنَّهُ رَأَىٰ البَيتَ المَعمُورَ وَرُفِعَ إِلَىٰ سِدرَةِ المُنتَهَىٰ.
- وَأَنَّهُ رَأَىٰ جِبرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ كُلُّ جَنَاحٍ مِنهَا قَد سَدَّ الأُفُقَ.
- وَأَنَّهُ رَأَىٰ الجَنَّةَ وَالنَّارَ.
- وَرَأَىٰ مَالِكًا صَاحِبَ النَّارِ.
- وَأَنَّ مَالِكًا سَلَّمَ عَلَيهِ.
- وَأَنَّهُ صَلَّىٰ بِالنَّبِيِّينَ فِي بَيتِ المَقدِسِ.

إِلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِمَّا أَخبَرَ النَّبِيُّ -ﷺ- أَنَّهُ رَآهُ فِي تِلكَ اللَّيلَةِ وَمَا أَخبَرَ بِهِ أَيضًا عَن رَفعِهِ فَوقَ السَّمَاوَاتِ السَّبعِ إِلَىٰ المُستَوَىٰ الَّذِي كَانَ يَسمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الأَقلَامِ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَوحَىٰ إِلَيهِ وَفَرَضَ عَلَيهِ وَعَلَىٰ أُمَّتِهِ خَمسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَومٍ وَلَيلَةٍ فَلَم يَزَل يَتَرَدَّدُ بَينَ رَبِّهِ وَبَينَ مُوسَىٰ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِي طَلَبِ التَّخفِيفِ لِأُمَّتِهِ حَتَّىٰ جَعَلَهَا اللهُ خَمسَ صَلَوَاتٍ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ هُنَّ خَمسُ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَومٍ وَلَيلَةٍ بِكُلِّ صَلَاةٍ عَشرٌ فَتِلكَ خَمسُونَ صَلَاةً وَفِي رِوَايَةٍ هِيَ خَمسٌ وَهِيَ خَمسُونَ لَا يُبَدَّلُ القَولُ لَدَيَّ.

فَكُلُّ ذَلِكَ حَقٌّ وَصِدقٌ.

وَحَدِيثُ الإِسرَاءِ حَدِيثٌ مُتَوَاتِرٌ رَوَاهُ مِنَ الصحابة:(١)

وَحَدِيثُ الإِسرَاءِ أَجمَعَ عَلَيهِ المُسلِمُونَ وَأَعرَضَ عَنهُ الزَّنَادِقَةُ وَالمُلحِدُونَ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ [سورة الصف:٨].

٥٦٧- **رَوَىٰ الخَلَّالُ فِي السُّنَّةِ (١/ ١٩٩)** عَنِ المَرُّوذِيِّ أَنَّهُ قَالَ سَأَلتُ أَبَا عَبدِ اللهِ عَنِ الأَحَادِيثِ الَّتِي تَرُدُّهَا الجَهمِيَّةُ فِي الصِّفَاتِ وَالرُّؤيَةِ وَالإِسرَاءِ وَقِصَّةِ العَرشِ فَقَالَ: تَلَتَقَّاهَا العُلَمَاءُ بِالقَبُولِ نُسَلِّمُ الأَخبَارَ كَمَا جَاءَت قَالَ فَقُلتُ لَهُ: إِنَّ رَجُلًا اعتَرَضَ فِي بَعضِ هَذِهِ الأَخبَارِ كَمَا جَاءَت فَقَالَ: يُجفَىٰ.

٥٦٨- **وَقَالَ عَبدُ الغَنِيِّ المَقدِسِيُّ فِي عَقِيدَتِهِ (١٣٥):** بَعدَ نَقلِهِ الإِجمَاعَ عَلَىٰ حَقِيقَةِ الإِسرَاءِ وَالمِعرَاجِ بِالرُّوحِ وَالجَسَدِ ثُمَّ قَالَ: وَمَن قَالَ إِنَّهُ مَنَامٌ وَلَم يُسرَ بِجَسَدِهِ فَقَد كَفَرَ.

٥٦٩- **وَرَوَىٰ أَبُو يَعلَىٰ فِي إِبطَالِ التَّأوِيلَاتِ (٨٧) وَقَالَ يَعقُوبُ بنُ بُختَانَ:** سَأَلتُ أَبَا عَبدِ اللهِ عَنِ المِعرَاجِ فَقَالَ: رُؤيَا الأَنبِيَاءِ وَحيٌ فَقَد أَثبَتَ لَيلَةَ الإِسرَاءِ وَأَنكَرَ قَولَ مَن قَالَ إِنَّهَا مَنَامٌ، وَقَولُهُ: رُؤيَا الأَنبِيَاءِ وَحيٌ مَعنَاهُ: أَنَّهَا لَو كَانَت مَنَامًا لَكَانَت وَحيًا لِأَنَّهُم أَعيُنُهُم تَنَامُ وَقُلُوبُهُم لَا تَنَامُ وَالدَّلَالَةُ عَلَىٰ صِحَّتِهِ وَإِثبَاتِهَا وُجُوهٌ أَحَدُهَا: قَولُهُ

---

(١) عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، وَعَلِيٌّ، وَابنُ مَسعُودٍ، وَأَبُو ذَرٍّ، وَأَنَسُ بنُ مَالِكٍ، وَأَبُو هُرَيرَةَ، وَأَبُو سَعِيدٍ، وَابنُ عَبَّاسٍ، وَشَدَّادُ بنُ أَوسٍ، وَأُبَيُّ بنُ كَعبٍ، وَعَبدُ الرَّحمَنِ بنُ قُرطٍ، وَأَبُو حَبَّةَ، وَأَبُو لَيلَىٰ الأَنصَارِيَّانِ، وَعَبدُ اللهِ بنُ عَمرٍو، وَجَابِرٌ، وَحُذَيفَةُ، وَبُرَيدَةُ، وَأَبُو أَيُّوبَ، وَأَبُو أُمَامَةَ، وَسَمُرَةُ بنُ جُندَبٍ، وَأَبُو الحَمرَاءِ، وَصُهَيبٌ الرُّومِيُّ، وَأُمُّ هَانِئٍ، وَعَائِشَةُ، وَأَسمَاءُ ابنَتَا أَبِي بَكرٍ الصِّدِّيقِ، رَضِيَ اللهُ عَنهُم أَجمَعِينَ.

تَعَالَىٰ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [سورة الإسراء: ١].

٥٧٠- **وَقَالَ أَبُو بَكرٍ المَرُّوذِيُّ كَمَا فِي «الروايتين والوجهين-مسائل العقيدة» (ص٥٨):** قُلتُ لِأَبِي عَبدِ اللهِ: يُحكَىٰ عَن مُوسَىٰ بنِ عُقبَةَ أَنَّهُ قَالَ: أَحَادِيثُ الإِسرَاءِ مَنَامٌ، فقَالَ: هَذَا كَلَامُ الجَهمِيَّةِ، وَقَالَ: مَنَامُ الأَنبِيَاءِ وَحيٌ.

٥٧١- **وَقَد بَوَّبَ الأَصبَهَانِيُّ فِي «الحجة» (١/ ٥٢٦)** فِيمَن أَنكَرَ المِعرَاجَ وَرَدَّ عَلَىٰ شُبُهَاتِ الزَّنَادِقَةِ.

٥٧٢- **وَقَالَ السِّجزِيُّ فِي «رسالته إِلَىٰ أهل زبيد فِي الرد عَلَىٰ من أنكر الحرف والصوت» (ص٢٠٤):** وَأَنكَرَت حَدِيثَ المِعرَاجِ وَقَالَ الأَشعَرِيُّ: إِنَّهُ ثَابِتٌ، ثُمَّ قَالَ: [الله لَا يَجُوزُ أَن يُوصَفَ أَنَّهُ فوق].

قُلتُ: حَدِيثُ الإِسرَاءِ وَالمِعرَاجِ مِن أَهَمِّ وَأَصرَحِ الأَدِلَّةِ عَلَىٰ صِفَةِ العُلُوِّ لِلَّهِ تَعَالَىٰ.

فَفِيهِ وَقَفَاتٌ مُهِمَّةٌ جِدًّا فِي إِثبَاتِ العُلُوِّ لِلرَّحمَنِ وَفِي الرَّدِّ عَلَىٰ أَهلِ التَّفوِيضِ فَقَد جَاءَ فِي الحَدِيثِ أَلفَاظٌ صَرِيحَةٌ فِي هَدمِ بَاطِلِهِم.

مِثلُ: [استفتاح جِبرِيلَ لِلسَّمَاوَاتِ السَّبعِ حَتَّىٰ وَصَلَ للسابعة].

وَمِثلُ: [تصريح النَّبِيِّ بِوُجُودِ الأَنبِيَاءِ فِي السَّمَاوَاتِ حَتَّىٰ وَجَدَ إِبرَاهِيمَ فِي السَّابِعَةِ عَلَىٰ رواية].

وَمِثلُ: [استخدام لَفظِ العروج].

وَمِثلُ: [أن النَّبِيِّ صَرَّحَ بِرُؤيَةِ رَبِّهِ فِي المِعرَاجِ عَلَىٰ اختِيَارِ جَمَاعَةٍ مِن أَهلِ العلم].

وَغيرُهَا الكَثِيرُ مِنَ الدَّلَائِلِ لَيسَ هَذَا مَكَانَ بَسطِهَا لَكِن هَذِهِ إِشَارَةٌ لِلطَّالِبِ القَارِئِ النَّبِيهِ لِاستِنبَاطِهَا.

وَخُلَاصَةُ المَقصُودِ مِن كَلَامِ المُؤَلِّفِ: أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- مَكَثَ يَدعُو إِلَىٰ التَّوحِيدِ زَمَنًا طَوِيلًا قَبلَ فَرضِ كَثِيرٍ مِنَ الشَّرَائِعِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ التَّوحِيدَ هُوَ أَصلُ الدِّينِ وَأَسَاسُهُ، وَأَنَّهُ مُقَدَّمٌ عَلَىٰ سَائِرِ الأَعمَالِ، وَأَنَّ الصَّلَاةَ – مَعَ عَظِيمِ شَأنِهَا – إِنَّمَا شُرِعَت بَعدَ تَقرِيرِ التَّوحِيدِ وَتَرسِيخِهِ فِي القُلُوبِ.

قال المؤلف -رحمه الله-:

وَبَعدَهَا أُمِرَ بِالهِجرَةِ إِلَىٰ المَدِينَةِ.

وَالهِجرَةُ: الِانتِقَالُ مِن بَلَدِ الشِّركِ إِلَىٰ بَلَدِ الإِسلَامِ.

وَالهِجرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ هَذِهِ الأُمَّةِ مِن بَلَدِ الشِّركِ إِلَىٰ بَلَدِ الإِسلَامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَىٰ أَن تَقُومَ السَّاعَةُ.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [سورة النساء:٩٧-٩٩].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [سورة العنكبوت:٥٦].

قَالَ البَغَوِيُّ: «سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ: فِي المُسلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَم يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسمِ الإِيمَانِ».

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ الهِجرَةِ مِنَ السُّنَّةِ؛ قَولُهُ -ﷺ-: «لَا تَنقَطِعُ الهِجرَةُ حَتَّىٰ تَنقَطِعَ التَّوبَةُ، وَلَا تَنقَطِعُ التَّوبَةُ حَتَّىٰ تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِهَا».

الهِجرَةُ النَّبَوِيَّةُ لَيسَت وَاقِعَةً تَارِيخِيَّةً تُذكَرُ لِلعِبرَةِ فَحَسبُ، وَلَا انتِقَالًا مَكَانِيًّا مُجَرَّدًا، بَل هِيَ أَصلٌ عَظِيمٌ مِن أُصُولِ هَذَا الدِّينِ، وَمَعلَمٌ فَارِقٌ انتَقَلَ بِهِ الإِسلَامُ مِن

حَالِ الِاستِضعَافِ إِلَىٰ طَورِ التَّمكِينِ، وَمِن دَعوَةٍ مُحَاصَرَةٍ إِلَىٰ إِقَامَةِ دَارِ إِسلَامٍ تُحَكِّمُ شَرِيعَةَ اللهِ، وَتُظهِرُ دِينَهُ، وَتَجمَعُ المُؤمِنِينَ عَلَىٰ رَابِطَةِ العَقِيدَةِ.

وَقَد كَانَت هِجرَةُ النَّبِيِّ -ﷺ- وَأَصحَابِهِ رِضوَانُ اللهِ عَلَيهِم تَطبِيقًا عَمَلِيًّا جَلِيًّا لِمَفهُومِ الوَلَاءِ وَالبَرَاءِ؛ إِذ تَخَلَّوا عَنِ الأَوطَانِ، وَالأَموَالِ، وَالعَشَائِرِ، وَقَطَعُوا كُلَّ رَابِطَةٍ تُعَارِضُ رَابِطَةَ الإِيمَانِ، فَكَانَ الوَلَاءُ خَالِصًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَالمُؤمِنِينَ، وَالبَرَاءُ صَرِيحًا مِنَ الشِّركِ وَأَهلِهِ، مَهمَا عَظُمَتِ التَّضحِيَّاتُ.

وَمِن أَظهَرِ مَا تُقَرِّرُهُ الهِجرَةُ أَنَّ وَطَنَ المُسلِمِ هُوَ المَوضِعُ الَّذِي يَأمَنُ فِيهِ عَلَىٰ دِينِهِ، وَيُظهِرُ فِيهِ تَوحِيدَهُ، وَيُقِيمُ شَعَائِرَ رَبِّهِ؛ لَا مُجَرَّدَ أَرضٍ وُلِدَ فِيهَا أَوِ انتَسَبَ إِلَيهَا.

وَلِهَذَا تَرَكَ النَّبِيُّ -ﷺ- أَحَبَّ البِلَادِ إِلَيهِ، وَقَالَ فِي شَأنِهَا: «وَاللهِ إِنَّكِ لَأَحَبُّ أَرضِ اللهِ إِلَيَّ، وَلَولَا أَنَّ قَومَكِ أَخرَجُونِي مِنكِ مَا خَرَجتُ».

وَفِي الهِجرَةِ تَجَلَّت أَسمَىٰ صُوَرِ الصُّحبَةِ الصَّادِقَةِ، كَمَا فِي مَوقِفِ الصِّدِّيقِ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- حِينَ قَالَ: «الصُّحبَةَ يَا رَسُولَ اللهِ»، فَكَانَت كَلِمَةً جَامِعَةً لِمَعَانِي الوَفَاءِ، وَالتَّضحِيَةِ، وَالبَذلِ، مَعَ نَبِيٍّ تَطلُبُهُ قُرَيشٌ حَيًّا أَو مَيِّتًا.

كَمَا ظَهَرَ مَعدِنُ الشَّبَابِ المُؤمِنِ فِي مَبِيتِ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- فِي فِرَاشِ النَّبِيِّ -ﷺ-، مُقَدِّمًا نَفسَهُ فِدَاءً لِلدَّعوَةِ، غَيرَ مُتَرَدِّدٍ وَلَا هَيَّابٍ.

وَفِي الهِجرَةِ بَيَانٌ لِكَمَالِ الأَخذِ بِالأَسبَابِ مَعَ صِدقِ التَّوَكُّلِ؛ فَقَد دَبَّرَ النَّبِيُّ -ﷺ- أَمرَهُ بِأَقصَىٰ دَرَجَاتِ الحِكمَةِ، فَاختَارَ الوَقتَ، وَأَخفَىٰ الخَبَرَ، وَسَلَكَ طَرِيقًا غَيرَ مَألُوفٍ، وَاستَأجَرَ دَلِيلًا خَبِيرًا بِالطَّرِيقِ، مَعَ كَونِهِ مُشرِكًا، لِمَا عُرِفَ بِهِ مِنَ الأَمَانَةِ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ جَوَازِ الِاستِعَانَةِ بِالكَافِرِ الأَمِينِ فِيمَا لَا وَلَايَةَ فِيهِ وَلَا تَمكِينَ.

كَمَا أَظهَرَتِ الهِجرَةُ الدَّورَ الشَّرعِيَّ لِلمَرأَةِ المُسلِمَةِ فِي نُصرَةِ الدِّينِ، كَمَا فِي مَوقِفِ أَسمَاءَ بِنتِ أَبِي بَكرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنهَا-، حِينَ صَبَرَت عَلَىٰ الأَذَىٰ، وَتَحَمَّلَتِ اللَّطمَةَ، وَحَفِظَتِ السِّرَّ، فَكَانَت مِثَالًا لِلثَّبَاتِ، وَالفِقهِ، وَتَحَمُّلِ المَسؤُولِيَّةِ.

وَتَكشِفُ الهِجرَةُ عَن حِكمَةِ القِيَادَةِ النَّبَوِيَّةِ وَبُعدِ نَظَرِهَا؛ إِذ تَوَقَّفَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- فِي غَارِ ثَورٍ حَتَّىٰ يَهدَأَ الطَّلَبُ، وَلَم يُعَرِّضِ الدَّعوَةَ لِلمُخَاطَرَةِ، وَفِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَىٰ مَن يَستَعجِلُ النَّتَائِجَ دُونَ مُرَاعَاةِ السُّنَنِ.

وَفِي الغَارِ ظَهَرَت قِمَّةُ الصُّحبَةِ، حِينَ سَدَّ الصِّدِّيقُ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- الثُّقُوبَ بِقَدَمَيهِ خَشيَةَ أَن يُؤذَىٰ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

ثُمَّ كَانَتِ الهِجرَةُ إِيذَانًا بِبَدءِ مَرحَلَةِ التَّأسِيسِ؛ فَجَمَعَ الإِسلَامُ القُرَشِيَّ وَالرُّومِيَّ وَالحَبَشِيَّ، وَسَقَطَتِ الفَوَارِقُ القَبَلِيَّةُ وَالعِرقِيَّةُ، وَقَامَت دَارُ الإِسلَامِ عَلَىٰ أَسَاسِ العَقِيدَةِ وَحدَهَا.

وَبَدَأَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- بِبِنَاءِ المَسجِدِ قَبلَ بِنَاءِ بُيُوتِهِ، لِيَكُونَ مَركَزَ العِبَادَةِ، وَالتَّربِيَةِ، وَالقِيَادَةِ، وَالجِهَادِ، وَالإِعلَامِ، وَفِي ذَلِكَ بَيَانٌ لِمَكَانَةِ المَسجِدِ فِي دَارِ الإِسلَامِ.

وَأَقَامَ المُؤَاخَاةَ بَينَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ، فَبَلَغَت حَدَّ التَّوَارُثِ، ثُمَّ نُسِخَ حُكمُهُ وَبَقِيَت مَعَانِيهِ وَمَقَاصِدُهُ.

وَفِي الهِجرَةِ دَلَائِلُ عَظِيمَةٌ عَلَىٰ صِدقِ اليَقِينِ بِوَعدِ اللهِ، كَمَا فِي وَعدِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لِسُرَاقَةَ بِسِوَارَي كِسرَىٰ زَمَنَ المُطَارَدَةِ، ثُمَّ تَحَقَّقَ الوَعدُ بَعدَ سِنِينَ.

وَظَهَرَ زُهدُ القَائِدِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-، وَإِيثَارُهُ لِأَصحَابِهِ، كَمَا فِي قِصَّةِ اللَّبَنِ عِندَ أُمِّ مَعبَدٍ، حَيثُ قَدَّمَهُم حَتَّىٰ ارتَوَوا.

وَلَم تكُنِ الهِجرَةُ طَلَبًا لِلأَمنِ أَوِ النَّجَاةِ فَحَسبُ، بَل كَانَت لِإِقَامَةِ دِينِ اللهِ فِي الأَرضِ، وَلِهَذَا سَمَّاهَا اللهُ نَصرًا، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [سورة التوبة:٤٠]، حَتَّىٰ تَحَقَّقَتِ الغَايَةُ العُظمَىٰ: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ [سورة التوبة:٤٠].

فَهَذِهِ الهِجرَةُ النَّبَوِيَّةُ أَصلٌ عَظِيمٌ فِي بَابِ التَّوحِيدِ، وَالِاتِّبَاعِ، وَبِنَاءِ الدُّوَلِ، وَمَعرِفَةِ سُنَنِ التَّمكِينِ، وَهِيَ شَاهِدٌ عَمَلِيٌّ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا الدِّينَ لَا يَقُومُ إِلَّا بِالصِّدقِ، وَالتَّضحِيَةِ، وَالحِكمَةِ، وَالثَّبَاتِ عَلَىٰ مَنهَجِ النُّبُوَّةِ.

أوَّلًا: تَعريفُ الهجرَةِ

لُغَةً: التَّركُ وَالمُفَارَقَةُ.

شَرعًا: الِانتِقَالُ مِن بَلَدِ الكُفرِ إِلَىٰ بَلَدِ الإِسلَامِ لِحِفظِ الدِّينِ.

أَنواعُ الهِجرَةِ

الهِجرَةُ نَوعَانِ:

أَوَّلًا: هِجرَةُ القُلُوبِ: وَهِيَ هَجرُ كُلِّ مَا حَرَّمَ اللهُ، وَالِانتِقَالُ بِالقَلبِ إِلَىٰ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرضَاهُ.

وَدَلِيلُهَا قَولُ النَّبِيِّ -ﷺ-: «وَالمُهَاجِرُ مَن هَجَرَ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنهُ».

وَهَذِهِ الهِجرَةُ فَرضُ عَينٍ عَلَىٰ كُلِّ مُسلِمٍ وَمُسلِمَةٍ إِلَىٰ أَن يَمُوتَ العَبدُ، وَهِيَ وَظِيفَةُ العُمُرِ، فَلَا يَجُوزُ التَّخَلِّي عَنهَا وَلَا التَّوَانِي فِيهَا.

ثَانِيًا: هِجرَةُ الأَبدَانِ: وَهِيَ الِانتِقَالُ مِن بَلَدِ الشِّركِ إِلَىٰ بَلَدِ الإِسلَامِ.

وَهَذِهِ هِيَ الهِجرَةُ الَّتِي تَعَلَّقَت بِهَا نُصُوصُ الوُجُوبِ وَالوَعِيدِ، وَهِيَ مِن أَعظَمِ وَاجِبَاتِ الإِسلَامِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَوَعَّدَ تَارِكَهَا مَعَ القُدرَةِ بِالنَّارِ، وَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ ظَالِمٌ لِنَفسِهِ.

حُكمُ تاركِ الهِجرةِ مَعَ القُدرةِ

تَارِكُ الهِجرَةِ مَعَ القُدرَةِ مُرتَكِبٌ لِكَبِيرَةٍ مِنَ الكَبَائِرِ، لَكِنَّهُ لَا يَكفُرُ بِذَلِكَ.

وَدَلِيلُ ذَلِكَ:

أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ فِي آيَةٍ أُخرَىٰ مُخَاطِبًا مَن لَم يُهَاجِر: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [سورة العنكبوت:٥٦]،

فَسَمَّاهُم مُؤمِنِينَ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ الظُّلمَ المَذكُورَ فِي قَولِهِ: ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [سورة النساء:٩٧] هُوَ ظُلمٌ أَصغَرُ، لَا شِركٌ أَكبَرُ.

وَأَمَّا قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ [سورة النساء:٩٧]، فَهَذَا وَعِيدٌ بِدُخُولِ النَّارِ دُخُولًا مُؤَقَّتًا تَحتَ المَشِيئَةِ، لَا دُخُولَ خُلُودٍ؛ لِأَنَّ نُصُوصَ الشَّرِيعَةِ مُتَوَاتِرَةٌ عَلَىٰ أَنَّ المُوَحِّدِينَ لَا يُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ.

الاستِثنَاءَاتُ مِن وُجُوبِ الهِجرَةِ

يُستَثنَىٰ مِنَ الوُجُوبِ صِنفَانِ:

الأَوَّلُ: العَاجِزُ عَنِ الهِجرَةِ، كَالمُستَضعَفِ، وَالمَحبُوسِ، وَمَن لَا يَملِكُ طَرِيقًا وَلَا قُدرَةً.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ [سورة النساء:٩٨]، يَلتَحِقُ بِحُكمِ المُستَضعَفِينَ مَن عَجَزَ عَنِ الهِجرَةِ فِي هَذَا الزَّمَنِ بِسَبَبِ المُعَوِّقَاتِ القَائِمَةِ، كَأَنوَاعِ التَّأشِيرَاتِ وَنَحوِهَا، إِذَا كَانَ صَادِقَ الرَّغبَةِ فِي تَركِ بَلَدِ الشِّركِ إِلَىٰ بَلَدِ الإِسلَامِ، لَكِنَّهُ لَا يَجِدُ سَبِيلًا إِلَىٰ ذَلِكَ، وَلَا يَستَطِيعُ حِيلَةً تُوصِلُهُ إِلَىٰ الهِجرَةِ.

فَمِثلُ هَذَا دَاخِلٌ فِي مَعنَىٰ العَجزِ المَذكُورِ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ

عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ﴿٩٩﴾ [سورة النساء:٩٨-٩٩].

فَالعِبرَةُ بِوُجُودِ العَجزِ الحَقِيقِيِّ مَعَ صِدقِ النِّيَّةِ وَالرَّغبَةِ فِي الِانتِقَالِ، لَا بِمُجَرَّدِ الإِقَامَةِ، فَإِذَا تَحقَّقَ العَجزُ سَقطَ الإِثمُ، وَكَانَ صَاحِبُهُ مَرجُوَّ العَفوِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ.

الثَّانِي: مَن كَانَ قَادِرًا عَلَىٰ إِظهَارِ دِينِهِ فِي بَلَدِ الكُفرِ، فَالهِجرَةُ فِي حَقِّهِ مُستَحَبَّةٌ لَا وَاجِبَةٌ.

هِجرَاتٌ تَابِعَةٌ:

وَمِنَ الهِجرَاتِ التَّابِعَةِ:

الهِجرَةُ مِن بَلَدِ الخَوفِ عَلَىٰ الدِّينِ إِلَىٰ بَلَدِ الأَمنِ، كَهِجرَةِ الحَبَشَةِ.

الهِجرَةُ مِن بِلَادِ الفِسقِ وَالبِدَعِ إِلَىٰ بِلَادِ الصَّلَاحِ وَالسُّنَّةِ.

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَىٰ ذَلِكَ هِجرَةُ الصَّحَابَةِ إِلَىٰ الحَبَشَةِ، مَعَ كَونِهَا بَلَدَ كُفرٍ، لَكِنَّهَا بَلَدُ أَمنٍ وَعَدلٍ.

الجَمعُ بَينَ الأَحَادِيثِ:

قَولُهُ -ﷺ-: «لَا هِجرَةَ بَعدَ الفَتحِ، وَلَكِن جِهَادٌ وَنِيَّةٌ».

المَقصُودُ بِهِ: الهِجرَةُ الخَاصَّةُ مِن مَكَّةَ إِلَىٰ المَدِينَةِ.

وَأَمَّا قَولُهُ -ﷺ-: «لَا تَنقَطِعُ الهِجرَةُ».

فَالمَقصُودُ بِهِ: الهِجرَةُ العَامَّةُ مِن بَلَدِ الكُفرِ إِلَىٰ بَلَدِ الإِسلَامِ.

فَلَا تَعَارُضَ بَينَ الحَدِيثَينِ.

وَكُلُّ وَعِيدٍ وَرَدَ فِي حَقِّ العُصَاةِ فَهُوَ تَحتَ المَشِيئَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [سورة النساء:٤٨]،

فَنُثبِتُ الوَعِيدَ، وَلَا نُكَفِّرُ، وَلَا نُؤَمِّنُ، بَل نَسلُكُ طَرِيقَ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ.

إِذًا: تَجِبُ الهِجرَةُ عَلَىٰ مَن:

قَدَرَ عَلَيهَا وَلَم يَستَطِع إِظهَارَ دِينِهِ.

وَتُستَحَبُّ لِمَن:

يَقدِرُ عَلَىٰ إِظهَارِ دِينِهِ.

وَتَسقُطُ عَنِ:

العَاجِزِ

المُستَضعَفِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ [سورة النساء:٩٨].

أَحوَالُ الإِقَامَةِ بَينَ الكُفَّارِ:

الحَالَةُ الأُولَىٰ: أَن يُقِيمَ بَينَهُم رِضًا بِدِينِهِم أَو مُوَالَاةً لَهُم عَلَىٰ دِينِهِم، فَهَذَا كُفرٌ.

الحَالَةُ الثَّانِيَةُ: أَن يُقِيمَ لِأَغرَاضٍ دُنيَوِيَّةٍ مَعَ عَدَمِ إِظهَارِ الدِّينِ مَعَ القُدرَةِ، فَهَذَا مُحَرَّمٌ وَمَعصِيَةٌ، إِن لَم تَكُن هُنَاكَ ضَرُورَةٌ حَقِيقِيَّةٌ.

الحَالَةُ الثَّالِثَةُ: أَن يُقِيمَ: وَهُوَ يُظهِرُ دِينَهُ، أَو مُستَضعَفٌ لَا يَقدِرُ عَلَىٰ الهِجرَةِ، فَهَذَا لَا حَرَجَ عَلَيهِ.

قال المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ -:

فَلَمَّا استقَرَّ بِالمَدِينَةِ؛ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائعِ الإِسلَامِ - مِثلُ: الزَّكَاةِ، وَالصَّومِ، وَالحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالجِهَادِ، وَالأَمرِ بِالمَعرُوفِ وَالنَّهيِ عَنِ المُنكَرِ - أَخَذَ عَلَىٰ هَذَا عَشرَ سِنِينَ.

وَتُوُفِّيَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَدِينُهُ بَاقٍ، وَهَذَا دِينُهُ، لَا خيرَ إِلَّا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا مِنهُ.

وَالخيرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيهِ: التَّوحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرضَاهُ.

وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنهُ: الشِّركُ، وَجَمِيعُ مَا يَكرَهُهُ اللهُ وَيَأبَاهُ.

بَعَثَهُ اللهُ إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً، وَافتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَىٰ جَمِيعِ الثَّقَلَينِ - الجِنِّ وَالإِنسِ -؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [سورة الأعراف:١٥٨].

وَأَكمَلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة:٣].

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ مَوتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾ [سورة الزمر:٣٠-٣١].

هَذِهِ الجُملَةُ تَضَمَّنَت أَربَعَ مَسَائِلَ كُبرَىٰ:

حَقِيقَةَ الدَّعوَةِ النَّبَوِيَّةِ.

عُمُومَ رِسَالَتِهِ -ﷺ-.

كَمَالَ دِينِهِ وَهَدْيِهِ.

مَوتَهُ -ﷺ-.

أَقَامَ النَّبِيُّ -ﷺ- فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ عَشرَةَ سَنَةً يَدعُو إِلَىٰ التَّوحِيدِ وَيُنذِرُ مِنَ الشِّركِ، ثُمَّ لَمَّا هَاجَرَ إِلَىٰ المَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسلَامِ، مِثلِ: الزَّكَاةِ وَالصَّومِ وَالحَجِّ وَالجِهَادِ وَالأَمرِ بِالمَعرُوفِ وَالنَّهيِ عَنِ المُنكَرِ وَأَحكَامِ البُيُوعِ وَالحُدُودِ وَالمَوَارِيثِ وَالنِّكَاحِ وَغَيرِهَا.

وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّ أَصلَ الدَّعوَةِ وَأَسَاسَهَا هُوَ التَّوحِيدُ، وَأَنَّ العِنَايَةَ بِهِ مُقَدَّمَةٌ عَلَىٰ غَيرِهِ.

أَعظَمُ الخَيرِ الَّذِي دَلَّت عَلَيهِ الدَّعوَةُ النَّبوِيَّةُ هُوَ: التَّوحِيدُ وَكُلُّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرضَاهُ.

وَأَعظَمُ الشَّرِّ الَّذِي حَذَّرَت مِنهُ هُوَ: الشِّركُ وَكُلُّ مَا يَكرَهُهُ اللهُ وَيَأبَاهُ.

بَلَّغَ النَّبِيُّ -ﷺ- الرِّسَالَةَ أَتَمَّ تَبلِيغٍ، فَلَا خَيرَ إِلَّا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا مِنهُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة:١٢٨].

فَنَشهَدُ أَنَّهُ -ﷺ-:

بَلَّغَ الرِّسَالَةَ

وَأَدَّىٰ الأَمَانَةَ

وَنَصَحَ الأُمَّةَ

وَجَاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ.

دِينُهُ -ﷺ- بَاقٍ، وَشَرِيعَتُهُ مَحفُوظَةٌ، لِقَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [سورة الحجر:٩].

وَلَا تَزَالُ مِن أُمَّتِهِ طَائِفَةٌ مَنصُورَةٌ، ظَاهِرَةٌ عَلَىٰ الحَقِّ، تَدفَعُ عَن دِينِ اللهِ، وَتُنَافِحُ عَن شَرِيعَتِهِ.

وَبُعِثَ مُحَمَّدٌ -ﷺ- إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً، بَل إِلَىٰ الجِنِّ وَالإِنسِ جَمِيعًا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [سورة الأعراف:١٥٨].

وَقَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سورة سبأ:٢٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [سورة الفرقان:١].

وَقَالَ -ﷺ-: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبعَثُ إِلَىٰ قَومِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثتُ إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً».

وَمِن ثَمَرَاتِ ذَلِكَ:

أَنَّهُ لَا يَسَعُ أَحَدًا بَعدَ بَعثَتِهِ إِلَّا اتِّبَاعُهُ.

وَلَو كَانَ مُوسَىٰ -عليه السلام- حَيًّا لَمَا وَسِعَهُ إِلَّا أَن يَتَّبِعَهُ.

وَعِيسَىٰ -عليه السلام- إِذَا نَزَلَ آخِرَ الزَّمَانِ فَإِنَّهُ يَحكُمُ بِشَرعِ مُحَمَّدٍ -ﷺ-.

وَهَذَا مِمَّا يُعلَمُ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرورَةِ.

وَقَد خَالَفَ فِي هَذَا الأَصلِ صِنفَانِ: صِنفٌ أَنكَرَ عَالَمِيَّةَ الدَّعوَةِ، فَزَعَمَ أَنَّ رِسالَتَهُ -ﷺ- خَاصَّةٌ بِالعَرَبِ أَو بِزَمَانِهِ؛ وَهَذَا قَولُ بَعضِ مَن تَلَبَّسَ بِالنِّفَاقِ مِنَ المُتَحَلِّلِينَ، وَهُوَ رَدٌّ صَرِيحٌ لِلنَّصِّ.

وَصِنفٌ زَعَمَ أَنَّ اليَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ -لِكَونِهِم أَهلَ كِتَابٍ- لَيسُوا دَاخِلِينَ فِي عُمُومِ

الدَّعوةِ، فلَا يلزَمُهُم اتِّباعُهُ -ﷺ-، ولَا يُحكَمُ بكُفرِهِم؛ وهَذَا باطِلٌ مُصادِمٌ للإجماعِ؛ فإنَّ تسميتَهُم «أهلَ الكتابِ» لَم تُخرِجهُم عَن وُجوبِ الإيمانِ بِهِ، بَل قرَنَ اللهُ هَذِهِ التَّسميَةَ بكُفرِهِم، وحذَّرَ مِن طاعَتِهِم؛ فثبَتَ أنَّ عُمومَ الرِّسالَةِ شامِلٌ لَهُم كشُمولِهِ لسائِرِ الأُمَمِ، وأنَّ مَن لَم يدخُل فِي طاعَتِهِ مِنهُم فهُوَ كافِرٌ، أُقِرَّ عَلَىٰ دينِهِ بالجِزيَةِ تبَعًا لأحكامٍ مخصوصَةٍ، لَا لأنَّه ناجٍ عَلَىٰ دينِهِ.

فَائِدَةٌ:

أُمَّةُ مُحمَّدٍ -ﷺ- تُطلَقُ عَلَىٰ معنَيينِ:

أُمَّةُ الإِجَابَةِ: وَهُم مَن آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

أُمَّةُ الدَّعوَةِ: وَهُم كُلُّ مَن بَلَغَتهُ دَعوَتُهُ مِن مُؤمِنٍ وَكَافِرٍ.[1]

---

(١) زَعَمَ بَعضُ المُتَأَخِّرِينَ أَنَّ الشِّركَ لَا يَقَعُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ، مُستَدِلِّينَ بِقَولِهِ -ﷺ-: "إِنِّي لَا أَخَافُ عَلَيكُم أَن تُشرِكُوا بَعدِي"، وَبِحَدِيثِ جَابِرٍ: "إِنَّ الشَّيطَانَ قَد أَيِسَ أَن يُعبَدَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ".

وَهَذَا اسْتِدلَالٌ سَاقِطٌ لَم يَقُل بِهِ أَحَدٌ أَهلِ الْعِلمِ الْمُعتَبَرِينَ، وَبَيَانُهُ مِن وُجُوهٍ:

أَوَّلًا: أَنَّ الخِطَابَ فِي الحَدِيثَينِ خَاصٌّ بِمَجمُوعِ الصَّحَابَةِ لَا بِآحَادِ الأُمَّةِ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ، " وَقَد وَقَعَتِ الرِّدَّةُ فِعلًا بَعدَ وَفَاتِهِ -ﷺ- فِي طَوَائِفَ مِنَ العَرَبِ، وَمِنهُم مَن رَجَعَ إِلَىٰ عِبَادَةِ الأَوثَانِ عَينِهَا.

ثَانِيًا: أَنَّ لَفظَ اليَأسِ وَالخَوفِ فِي الحَدِيثَينِ يُفِيدُ غَلَبَةَ ظَنٍّ لَا قَطعًا، بِدَلِيلِ وُرُودِهِ فِي القُرآنِ عَلَىٰ هَذَا المَعنَىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾ [سورة المائدة:٣]، وَلَم يُقطَع بِزَوَالِ فِتنَتِهِم مَعَ ذَلِكَ.

وَهُوَ نَظِيرُ قَولِهِ -ﷺ- لِأَهلِ بَدرٍ: "فَقَد غَفَرتُ لَكُم"، وَهُوَ خَاصٌّ بِعَينِهِم، لَا يَتَعَدَّاهُم إِلَىٰ غَيرِهِم.

ثَالِثًا: أَنَّ النُّصُوصَ الصَّحِيحَةَ صَرَّحَت بِوُقُوعِ ذَلِكَ صَرِيحًا؛ قَالَ -ﷺ-: "لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن كَانَ قَبلَكُم... حَتَّىٰ لَو دَخَلُوا جُحرَ ضَبٍّ لَدَخَلتُمُوهُ"، وَقَالَ: "لَا يَذهَبُ اللَّيلُ وَالنَّهَارُ حَتَّىٰ تُعبَدَ اللَّاتُ وَالعُزَّىٰ"، وَفِي الصَّحِيحَينِ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَضطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوسٍ عَلَىٰ ذِي الخَلَصَةِ»، وَهُوَ طَاغِيَةُ

دَوسٍ الَّتي كَانُوا يَعبُدونَ فِي الجاهِلِيَّةِ، وَرُوِيَ عَن أَبِي هريرة، عَن النبي -ﷺ-: اللَّهُمَّ لَا تجعل قبري وثنًا يعبد، لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

وَهَذَا مِن أَوضَحِ دَلَائِلِ الْحَدِيثِ؛ إِذ لَو كَانَ الشرك ممتنعًا فِي هَذِهِ الأمَّة كَمَا يَزعُمُ المتعلِّقون بِالْقُبُورِ، لَمَّا دَعَا النبيُّ -ﷺ- ربَّه أَن لَا يَجعَلَ قَبرَهُ وثنًا يُعبَدُ.

فَالنَّبِيُّ -ﷺ- لَا يَسأَلُ ربَّه أمورًا مستحيلةً، بَل يَسأَلُهُ مَا يُمكن وقوعُه، ويستعيذُ بِاللهِ مِنهُ، كَمَا فِي هَذَا الدُّعَاءِ الشَّرِيفِ، مِمَّا يدلّ عَلَىٰ أنَّ الشرك ممكنُ الْوُقُوعِ فِي الْأُمَّةِ، وَإِن كَانَ اللهُ عَصَمَهَا مِنَ الِاجتِمَاعِ عَلَيهِ.

وَلِهَذَا وَجَبَ عَلَىٰ الْمُسلِمِ أَن يَكُونَ عَلَىٰ حذرٍ دائمٍ مِن وَسَائِلِ الشِّركِ ومقدِّماته.

وَقَد أَنكَرَ عَلَىٰ أَصحَابِهِ مُجَرَّدَ مُشَابَهَتِهِمُ الكُفَّارَ فِي اتِّخَاذِ شَجَرَةٍ يُعَلِّقُونَ عَلَيهَا سِلَاحَهُم مِن غَيرِ عِبَادَةٍ لَهَا (حَدِيثُ ذَاتِ أَنوَاطٍ).

رَابِعًا: أَنَّهُ لَا فرقَ بَينَ شِركِ عِبَادَةِ الأَصنَامِ وَشِركِ عِبَادَةِ القُبُورِ؛ إِذ حَقِيقَةُ الشِّركِ وَاحِدَةٌ مهمَا اختَلَفَ المَعبُودُ، فَلَا فَرقَ بَينَ مَن يَعبُدُ الصَّنَمَ وَبَينَ مَن يَعبُدُ المَسِيحَ وَغَيرَهُ؛ لِأَنَّ الشِّركَ هُوَ أَن يُتَّخَذَ مَعَ اللهِ مَعبُودٌ".

قَالَ الشَّيخُ عَبدُ الرَّحمَنِ بنُ حَسَنٍ: فَإِذَا كَانَ الخَلِيلُ إِمَامُ الحُنَفَاءِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ أُمَّةً وَحدَهُ وَابتَلَاهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ، وَقَالَ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [سورة النجم:٣٧]، وَأُمِرَ بِذَبحِ وَلَدِهِ فَامتَثَلَ أَمرَ رَبِّهِ، وَكَسَرَ الأَصنَامَ وَاشتَدَّ نَكِيرُهُ عَلَىٰ أَهلِ الشِّركِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَخَافُ أَن يَقَعَ فِي الشِّركِ الَّذِي هُوَ عِبَادَةُ الأَصنَامِ لِعِلمِهِ أَنَّهُ لَا يَصرِفُهُ عَنهُ إِلَّا اللهُ بِهِدَايَتِهِ وَتَوفِيقِهِ لَا بِحَولِهِ هُوَ وَقُوَّتِهِ.

وَمَا أَحسَنَ مَا قَالَ إِبرَاهِيمُ التَّيمِيُّ: وَمَن يَأمَنُ البَلَاءَ بَعدَ إِبرَاهِيمَ؟ فَهَذَا أَمرٌ لَا يُؤمَنُ مِنَ الوُقُوعِ فِيهِ، وَقَد وَقَعَ فِيهِ الأَذكِيَاءُ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ بَعدَ القُرُونِ المُفَضَّلَةِ، فَاتَّخَذَتِ الأَوثَانَ وَعَبَدَتهَا، فَالَّذِي خَافَهُ عَلَيهِ السَّلَامُ عَلَىٰ نَفسِهِ وَبَنِيهِ وَقَعَ فِيهِ أَكثَرُ الأُمَّةِ بَعدَ القُرُونِ المُفَضَّلَةِ، فَبُنِيَتِ المَسَاجِدُ وَالمَشَاهِدُ عَلَىٰ القُبُورِ، وَصُرِفَت لَهَا العِبَادَاتُ بِأَنوَاعِهَا، وَاتُّخِذَ ذَلِكَ دِينًا، وَهِيَ أَوثَانٌ وَأَصنَامٌ كَأَصنَامِ قَومِ نُوحٍ وَاللَّاتِ وَالعُزَّىٰ وَمَنَاةَ وَأَصنَامِ العَرَبِ وَغَيرِهِم، فَمَا أَشبَهَ مَا وَقَعَ فِي آخِرِ هَذِهِ الأُمَّةِ بِحَالِ أَهلِ الجَاهِلِيَّةِ مِن مُشرِكِي العَرَبِ وَغَيرِهِم، بَل وَقَعَ مَا هُوَ أَعظَمُ مِنَ الشِّركِ فِي الإِلَهِيَّةِ مِن شِركِهِم فِي الرُّبُوبِيَّةِ مِمَّا يَطُولُ عَدُّهُ، فَذَكَرَ عَلَيهِ السَّلَامُ السَّبَبَ الَّذِي أَوجَبَ الخَوفَ عَلَيهِ وَعَلَىٰ ذُرِّيَّتِهِ بِقَولِهِ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة إبراهيم:٣٦]، وَقَد ضَلَّتِ الأُمَمُ بِعِبَادَةِ الأَصنَامِ فِي زَمَنِ الخَلِيلِ وَقَبلَهُ وَبَعدَهُ، فَمَن تَدَبَّرَ القُرآنَ عَرَفَ أَحوَالَ

وَشَرِيعَةُ مُحَمَّدٍ -ﷺ- أَكمَلُ الشَّرَائِعِ، وَهَديُهُ أَحسَنُ الهَديِ، وَطَرِيقَتُهُ أَتَمُّ الطُّرُقِ وَأَعدَلُهَا.

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [سورة المائدة:٣].

وَقَالَ تعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [سورة آل عمران:٨٥].

وَقَالَ -ﷺ-: «وَخيرُ الهَديِ هَديُ مُحَمَّدٍ -ﷺ-».

فَمَن فَضَّلَ هَديَ غَيرِهِ عَلَىٰ هَديِهِ، أَو زَعَمَ أَنَّ شَرعًا أَو مَنهَجًا أَو نِظَامًا أَكمَلُ مِن شَرعِهِ، فَقَد وَقَعَ فِي نَاقِضٍ عَظِيمٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ طَعنٌ فِي كَمَالِ الرِّسَالَةِ وَفِي تَمَامِ الدِّينِ.

وَبَيَّنَ المُؤَلِّفُ أَنَّ أَكثَرَ الأَحكَامِ التَّفصِيلِيَّةِ المُتَعَلِّقَةِ بِالعِبَادَاتِ وَالمُعَامَلَاتِ وَالحُدُودِ قَد شُرِعَت فِي المَدِينَةِ، بَعدَ استِقرَارِ النَّبِيِّ -ﷺ- فِيهَا، غَيرَ أَنَّ هَذَا لَا يَعنِي أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- تَرَكَ الدَّعوَةَ إِلَىٰ التَّوحِيدِ أَو خَفَّفَ مِن شَأنِهَا، بَل بَقِيَ مُجتَهِدًا فِي تَرسِيخِهِ، وَتَعلِيمِهِ، وَبَيَانِ ضِدِّهِ، وَالتَّحذِيرِ مِن كُلِّ مَا يُنَاقِضُهُ.

الخَلقِ وَمَا وَقَعُوا فِيهِ مِنَ الشِّركِ العَظِيمِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ أَنبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ بِالنَّهيِ عَنهُ، وَالوَعِيدِ عَلَىٰ فِعلِهِ، وَالثَّوَابِ عَلَىٰ تَركِهِ، وَقَد هَلَكَ مَن هَلَكَ بِإِعرَاضِهِ عَنِ القُرآنِ وَجَهلِهِ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَنَهَىٰ عَنهُ، نَسأَلُ اللهَ الثَّبَاتَ عَلَىٰ الإِسلَامِ وَالِاستِقَامَةَ عَلَىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ أَن نَلقَىٰ اللهَ عَلَىٰ التَّوحِيدِ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالقَادِرُ عَلَيهِ، وَلَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ.

وَالمُحَصَّلُ: أَنَّ خَوفَهُ -ﷺ- مِن وُقُوعِ الأُمَّةِ فِي الشِّركِ -كَمَا فِي وَصِيَّتِهِ بِتَسوِيَةِ القُبُورِ المُشرِفَةِ، وَنَهيِهِ عَنِ اتِّخَاذِهَا مَسَاجِدَ وَأَوثَانًا- خَوفٌ صَادِقٌ قَد تَحَقَّقَ وَاقِعُهُ، وَلَيسَ نَفيُهُ الخَوفَ عَن أَصحَابِهِ نَفيًا لِوُقُوعِ الشِّركِ فِي الأُمَّةِ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ؛ فَبَطَلَ بِهَذَا كُلِّهِ زَعمُ مَن يَنفِي وُقُوعَ الشِّركِ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ لِيُبَرِّرَ بِهِ عَدَمَ تَكفِيرِ عُبَّادِ القُبُورِ، وَاللهُ أَعلَمُ.

مَوتُ الرَّسُولِ -ﷺ-:

وَفَاةُ النَّبِيِّ -ﷺ- ثَابِتَةٌ بِالقُرآنِ الكَرِيمِ، وَبِإِجمَاعِ الصَّحَابَةِ وَالمُسلِمِينَ، لَا يَشُكُّ فِيهَا مُؤمِنٌ.

وَالنَّبِيُّ -ﷺ- مَاتَ كَمَا يَمُوتُ سَائِرُ البَشَرِ، وَلَا خُلدَ لِأَحَدٍ فِي الدُّنيَا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [سورة الزمر:٣٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [سورة آل عمران:١٤٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [سورة الأنبياء:٣٤].

٥٧٣- **وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ أَبَا بَكرٍ الصِّدِّيقَ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- لَمَّا دَخَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ -ﷺ- بَعدَ وَفَاتِهِ، قَبَّلَهُ وَقَالَ:** «طِبتَ حَيًّا وَمَيِّتًا يَا رَسُولَ اللهِ»، ثُمَّ خَرَجَ إِلَىٰ النَّاسِ وَخَطَبَ فِيهِم خُطبَتَهُ العَظِيمَةَ الَّتِي ثَبَّتَ اللهُ بِهَا الأُمَّةَ، فَقَالَ: «مَن كَانَ يَعبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَد مَاتَ، وَمَن كَانَ يَعبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ»، ثُمَّ تَلَا الآيَةَ الكَرِيمَةَ، فَاستَقَرَّتِ الحَقِيقَةُ فِي قُلُوبِ الصَّحَابَةِ، وَأَذعَنُوا لِحُكمِ اللهِ.

فَهَذَا أَصلٌ عَظِيمٌ فِي إِبطَالِ غُلُوِّ الغَالِينَ الَّذِينَ يَرفَعُونَ النَّبِيَّ -ﷺ- فَوقَ مَنزِلَتِهِ، وَيَتَوَجَّهُونَ إِلَيهِ بِالدُّعَاءِ وَالِاستِغَاثَةِ بَعدَ مَوتِهِ.

وَكَانَت وَفَاتُهُ أَعظَمَ مُصِيبَةٍ نَزَلَت بِهَذِهِ الأُمَّةِ؛ إِذ لَا مُصِيبَةَ بَعدَهَا أَعظَمُ مِنهَا، وَكُلُّ مَا سِوَاهَا فَهِيَ هَيِّنَةٌ بِالنِّسبَةِ لَهَا.

وَقَد وَصَفَ الصَّحَابِيُّ الجَلِيلُ أَنَسُ بنُ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- هَذَا الحَدَثَ العَظِيمَ بِقَولِهِ: «لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- المَدِينَةَ أَضَاءَ مِنهَا كُلُّ شَيءٍ، وَلَمَّا مَاتَ أَظلَمَ مِنهَا كُلُّ

شَيءٍ».

وَمَن ضَلَّ عَنِ الحَقِّ مِن أَهلِ الغُلُوِّ مَن زَعَمَ أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- حَيٌّ فِي قَبرِهِ حَيَاةً دُنيَوِيَّةً كَحَيَاتِهِ قَبلَ وَفَاتِهِ، فَإِنَّ قَولَهُ هَذَا بَاطِلٌ شَرعًا وَعَقلًا وَفِطرَةً، إِذ هُوَ مُصَادِمٌ لِنُصُوصِ الوَحيِ، وَمُستَلزِمٌ لِلَوَازِمَ فَاسِدَةٍ عَظِيمَةٍ.

فَإِن قَالُوا: إِنَّهُ لَم يَمُت، فَقَد كَذَّبُوا القُرآنَ.

وَإِن قَالُوا: بَل دُفِنَ وَهُوَ حَيٌّ حَيَاةً دُنيَوِيَّةً، لَزِمَ مِن ذَلِكَ تَكفِيرُ الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللهُ عَنهُم-، بَل تَكفِيرُ الأُمَّةِ كُلِّهَا، وَهَذَا مِن أَبطَلِ البَاطِلِ وَأَقبَحِ القَولِ.

فَالنَّبِيُّ -ﷺ- لَهُ حَقُّ التَّعظِيمِ وَالتَّوقِيرِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ بِمُخَالَفَتِهِ وَلَا بِالغُلُوِّ فِيهِ، وَإِنَّمَا بِاتِّبَاعِهِ وَالوُقُوفِ عِندَ حُدُودِهِ.(١)

---

(١) وَمِفتَاحُ البَابِ كُلِّهِ أَن يُفَرِّقَ العَبدُ بَينَ حَقٍّ اختَصَّ اللهُ بِهِ لَا يَشرَكُهُ فِيهِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرسَلٌ، وَبَينَ حَقٍّ أَوجَبَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ؛ فَإِنَّ الشَّهَادَتَينِ قَامَتَا عَلَىٰ هَذَينِ الأَصلَينِ: فَشَهَادَةُ «أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» مَعنَاهَا إِفرَادُ اللهِ بِأَنوَاعِ العِبَادَةِ كُلِّهَا؛ فَلَا يُدعَىٰ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُستَغَاثُ فِي كَشفِ الكَربِ إِلَّا بِهِ، وَلَا يُرجَىٰ وَلَا يُخَافُ إِلَّا مِنهُ؛ إِذِ التَّفَرُّدُ بِالنَّفعِ وَالضَّرِّ وَإِجَابَةِ الدَّاعِي وَهِدَايَةِ الضَّالِّ مِن خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ الَّتِي لَا يُشَارِكُ اللهُ فِيهَا.

وَشَهَادَةُ «أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ» مَعنَاهَا أَلَّا يُعبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَهُ عَلَىٰ لِسَانِهِ؛ فَهُوَ المُبَلِّغُ عَنِ اللهِ أَمرَهُ وَنَهيَهُ، وَالوَاسِطَةُ فِي التَّبلِيغِ لَا فِي التَّصرِيفِ؛ فَلَيسَ لَهُ - وَلَا لِأَحَدٍ مِنَ الخَلقِ وَسَاطَةٌ فِي إِجَابَةِ الدُّعَاءِ، وَلَا كَشفِ البَلَاءِ، وَلَا إِنزَالِ الرِّزقِ، وَلَا هِدَايَةِ القُلُوبِ. فَحَقُّهُ المَحَبَّةُ وَالطَّاعَةُ وَالنُّصرَةُ وَالتَّوقِيرُ وَالتَّسلِيمُ لِحُكمِهِ، وَحَقُّ اللهِ إِفرَادُهُ بِالعِبَادَةِ؛ فَمَن صَرَفَ مَا هُوَ مِن خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ إِلَىٰ النَّبِيِّ فَقَد أَنزَلَهُ مَنزِلَةَ الرَّبِّ، وَمَن جَفَا عَن طَاعَتِهِ فَقَد أَضَاعَ حَقَّهُ الَّذِي فَرَضَهُ اللهُ.

وَقَد جَاءَ الفَصلُ بَينَ الأَمرَينِ صَرِيحًا فِي قَولِهِ لَمَّا ذَكَرَ الغُلُولَ وَعَظَّمَ شَأنَهُ: «لَا أُلفِيَنَّ أَحَدَكُم يَومَ القِيَامَةِ ... يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثنِي، فَأَقُولُ: لَا أَملِكُ لَكَ شَيئًا، قَد أَبلَغتُكَ»؛ فَأَخبَرَ أَنَّهُ لَا يَملِكُ لِمَن أَبلَغَهُ

نَعَم، نَحنُ نُثبِتُ أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- حَيٌّ فِي قَبرِه، كَمَا نُثبِتُ حَيَاةَ الشُّهَدَاءِ وَسَائِرِ الأَموَاتِ، لَكِن هَذِهِ حَيَاةٌ بَرزَخِيَّةٌ، لَا تُشبِهُ الحَيَاةَ الدُّنيَوِيَّةَ، وَلَا تَجرِي عَلَيهَا أَحكَامُهَا، وَهِيَ حَيَاةٌ غَيبِيَّةٌ لَا نَعلَمُ كَيفِيَّتَهَا.

وَمِمَّا يَنبَغِي ضَبطُهُ فِي هَذَا البَابِ: أَنَّ الغُلُوَّ فِي فَهمِ حَيَاتِهِ - بَعدَ مَوتِهِ هُوَ أَحَدُ أَبوَابِ الشِّركِ بِهِ؛ فَلَيسَ الصَّوَابُ أَن تَكُونَ رُوحُهُ - مُقتَصِرَةً تَحتَ التُّرَابِ دَائِمًا، فَذَلِكَ خِلَافُ النَّقلِ وَالعَقلِ، وَلَيسَ الصَّوَابُ -فِي المُقَابِلِ- أَن يُظَنَّ أَنَّهُ - حَيٌّ فِي قَبرِهِ حَيَاةً دُنيَوِيَّةً تَامَّةً يَملِكُ مَعَهَا سَمعَ الدُّعَاءِ وَقَضَاءَ الحَاجَاتِ، فَيُتَّخَذَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً لِلِاستِغَاثَةِ بِهِ؛ بَل الحَقُّ -الَّذِي دَلَّت عَلَيهِ النُّصُوصُ مُجتَمِعَةً- أَنَّ رُوحَهُ - فِي الرَّفِيقِ الأَعلَىٰ، وَلَهَا اتِّصَالٌ بِجَسَدِهِ الشَّرِيفِ يَظهَرُ فِي رَدِّ السَّلَامِ عَلَىٰ مَن سَلَّمَ عَلَيهِ، وَهِيَ حَيَاةٌ بَرزَخِيَّةٌ أَشبَهُ بِانفِصَالِ رُوحِ النَّائِمِ عَنهُ ثُمَّ رُجُوعِهَا إِلَيهِ، لَا حَيَاةٌ دُنيَوِيَّةٌ تَامَّةٌ؛ وَلِهَذَا أَبَاحَ الشَّرعُ الزَّوَاجَ بِنِسَاءِ الشُّهَدَاءِ مَعَ كَونِهِم «أَحيَاءً عِندَ رَبِّهِم يُرزَقُونَ»، وَلَو كَانَت حَيَاتُهُمُ البَرزَخِيَّةُ كَحَيَاتِهِمُ الدُّنيَوِيَّةِ لَمَا حَلَّ ذَلِكَ.

شَيئًا يَومَ القِيَامَةِ، فَكَيفَ بِمَنِ استَغَاثَ بِهِ بَعدَ مَوتِهِ فِي قَضَاءِ الحَوَائِجِ وَتَفرِيجِ الكُرُوبِ؟!

وَهَذِهِ الأُمَّةُ وَسَطٌ فِي بَابِ الأَنبِيَاءِ كَمَا هِيَ وَسَطٌ فِي سَائِرِ أَبوَابِ الدِّينِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [سورة البقرة:١٤٣]، وَالوَسَطُ هُوَ الخِيَارُ العَدلُ.

فَالنَّاسُ فِي الرُّسُلِ طَرَفَانِ وَوَسَطٌ: طَرَفُ اليَهُودِ جَفَوا عَنِ الأَنبِيَاءِ فَكَذَّبُوهُم وَقَتَلُوهُم؛ وَطَرَفُ النَّصَارَىٰ غَلَوا فِيهِم حَتَّىٰ رَفَعُوهُم عَن مَنَازِلِ العُبُودِيَّةِ فَعَبَدُوهُم مِن دُونِ اللهِ فَكَفَرُوا؛ وَتَوَسَّطَت هَذِهِ الأُمَّةُ، فَآمَنَت بِالأَنبِيَاءِ وَصَدَّقَتهُم وَأَحَبَّتهُم وَنَصَرَتهُم، وَلَم تَتَّخِذهُم أَربَابًا مِن دُونِ اللهِ. فَالعَدلُ فِي حَقِّهِ أَن يُنزَلَ المَنزِلَةَ الَّتِي أَنزَلَهُ اللهُ إِيَّاهَا: عَبدًا لَا يُعبَدُ، وَرَسُولًا لَا يُكَذَّبُ، يُحَبُّ وَيُطَاعُ وَيُتَّبَعُ، وَلَا يُرفَعُ إِلَىٰ مَرتَبَةِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ فَمَن نَقَصَهُ حَقَّهُ ضَاهَىٰ اليَهُودَ، وَمَن غَلَا فِيهِ ضَاهَىٰ النَّصَارَىٰ، وَكِلَا الطَّرَفَينِ مَذمُومٌ.

وتَعَلُّقَ الرُّوحِ بِالبَدَنِ يَمُرُّ بِخَمسِ مَرَاحِلَ:

تَعَلُّقُهَا بِالبَدَنِ فِي بَطنِ الأُمِّ.

تَعَلُّقُهَا بِهِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا.

تَعَلُّقُهَا بِهِ حَالَ النَّومِ.

تَعَلُّقُهَا بِهِ فِي القَبرِ (الحَيَاةِ البرزَخِيَّةِ).

تَعَلُّقُهَا بِهِ يَومَ البَعثِ، وَهُوَ أَكمَلُ التَّعَلُّقَاتِ.

فَمَن تَوَهَّمَ أَنَّ الحَيَاةَ البَرزَخِيَّةَ كَالحَيَاةِ الدُّنيَوِيَّةِ فَقَد ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا.

٥٧٤ - **قَالَ سُلَيمَانُ بنُ سَحمَانَ فِي "الصَّوَاعِقِ المُرسَلَةِ الشِّهَابِيَّةِ عَلَىٰ الشُّبَهِ الدَّاحِضَةِ الشَّامِيَّةِ" (١/ ٨٢):** «وَمِنَ المَعلُومِ أَنَّهُ - ﷺ - لَم يَكُن حَيًّا فِي قَبرِهِ كَالحَيَاةِ الدُّنيَوِيَّةِ المَعهُودَةِ، الَّتِي تَقُومُ فِيهَا الرُّوحُ بِالبَدَنِ وَتُدَبِّرُهُ وَتُصَرِّفُهُ، وَيُحتَاجُ مَعَهَا إِلَىٰ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَاللِّبَاسِ وَالنِّكَاحِ وَغَيرِ ذَلِكَ؛ بَل حَيَاتُهُ - ﷺ - حَيَاةٌ بَرزَخِيَّةٌ، وَرُوحُهُ فِي الرَّفِيقِ الأَعلَىٰ».

٥٧٥ - **وَقَالَ عَبدُ الرَّحمَنِ بنُ حَسَنٍ فِي «كَشفِ مَا أَلقَاهُ إِبلِيسُ مِنَ البَهرَجِ وَالتَّلبِيسِ عَلَىٰ قَلبِ دَاوُدَ بنِ جِرجِيسَ» (ص٨٠):** وَأَمَّا قَولُهُ: (إِنَّ أَهلَ الكَرَامَاتِ حَالَهُم فِي المَمَاتِ كَحَالِهِم فِي الحَيَاةِ).

فَهَذَا يُبطِلُهُ مَا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِقَولِهِ: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [سورة فاطر:٢٢] فَلَم يَجعَلهُم تَعَالَىٰ سَوَاءً، بَل فَرَّقَ بَينَ الأَحيَاءِ وَالأَموَاتِ، وَشَبَّهَ بِهِم مَا لَم يَنتَفِع بِسَمَاعِ الهُدَىٰ. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ

﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾ [سورة النحل: ٢٠-٢١]، وَلَيست هَذِهِ الآيَةُ فِي الأَصنامِ كَمَا يَزعُمُهُ مَن لَم يَتَدبَّر؛ لِأَنَّ الأَصنامَ لَا يَحُلُّهَا الموتُ مِنَ الأَخشَابِ، وَالأَحجَارِ وَلَا شُعُورَ لَهَا، وَقَد قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾، فَهَذِهِ الآيَةُ فِيمَن.»

٥٧٦ - **وَقَالَ أَبَا بُطَينٍ فِي «تَأسِيسِ التَّقدِيسِ فِي كَشفِ تَلبِيسِ دَاوُدَ بنِ جرجِيسَ» (ص٨٥):** «وَمِنَ الفَرقِ بَينَ الحَيِّ وَالمَيِّتِ أَنَّ الِاستِغَاثَةَ بِالحَيِّ إِنَّمَا تَكُونُ فِي الأَسبَابِ الظَّاهِرَةِ [العادية مِنَ الأُمُورِ الحِسِّيَّةِ فِي قِتَالٍ أَو إِدرَاكِ عَدُوٍّ وَنَحوِ ذلك]، بِحَسَبِ الأَسبَابِ الظَّاهِرَةِ بِالفِعلِ، وَأَمَّا المَيِّتُ فَحَرَكَتُهُ مُنقَطِعَةٌ، وَإِنَّمَا يَزعُمُ الَّذِينَ يَدعُونَهُم أَنَّ نَفعَهُم بِالقُوَّةِ وَالتَّأثِيرِ الَّذِي يُسَمِّيهِ بَعضُهُمُ السِّرَّ، وَلَا يَشُكُّ عَاقِلٌ فِي انقِطَاعِ الحَرَكَةِ مِنَ المَيِّتِ المَعهُودَةِ مِنَ الحَيِّ.

قلتُ: فَبِهَذَا التَّوَسُّطِ يَنقَطِعُ الطَّرِيقُ عَلَىٰ مَن يَتَّخِذُ حَيَاتَهُ - البرزَخِيَّةَ ذَرِيعَةً لِصَرفِ العِبَادَةِ لَهُ، دُونَ أَن يُنكِرَ أَصلُ هَذِهِ الحَيَاةِ الَّتِي دَلَّت عَلَيهَا السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ.

قُلتُ: وَالاستِغَاثَةُ طَلَبُ الغَوثِ وَالتَّخلِيصِ مِنَ الشِّدَّةِ، وَضَابِطُهَا أَن يُنظَرَ إِلَىٰ المُستَغَاثِ بِهِ وَإِلَىٰ المَطلُوبِ: فَإِنِ استُغِيثَ بِحَيٍّ حَاضِرٍ قَادِرٍ فِيمَا يَقدِرُ عَلَيهِ مِنَ الأَسبَابِ الظَّاهِرَةِ — كَإِغَاثَةِ المَلهُوفِ وَإِطعَامِ الجَائِعِ وَنَصرِ المَظلُومِ — فَهَذَا جَائِزٌ مَشرُوعٌ.

وَإِنَّمَا المَمنُوعُ أَمرَانِ: أَن يُستَغَاثَ بِمَخلُوقٍ فِيمَا لَا يَقدِرُ عَلَيهِ إِلَّا اللهُ، وَأَن يُستَغَاثَ بِمَيِّتٍ أَو غَائِبٍ مُطلَقًا؛ إِذِ المَيِّتُ مُنقَطِعُ الحَرَكَةِ وَالتَّصَرُّفِ، فَلَا يُطلَبُ مِنهُ مَا يَقدِرُ عَلَيهِ الحَيُّ، فَضلًا عَمَّا لَا يَقدِرُ عَلَيهِ إِلَّا اللهُ.

وَأَمَّا استِغَاثَةُ الصَّحَابَةِ بالنبي - ﷺ - كَطَلَبِهِمُ الاستِسقَاءَ فَإِنَّمَا كَانَت طَلَبًا مِنهُ أَن

يَدعُوَ اللهَ لَهُم، لَا دُعاءَ لَهُ مَعَ اللهِ؛ وَلِهَذا لَمَّا مَاتَ عَدلُوا إِلَىٰ الاستِسقَاءِ بِدُعَاءِ العَبَّاسِ - لَا بِهِ، مَعَ أَنَّهُ أَفضَلُ مِنَ العَبَّاسِ؛ إِذ لَو جَازَ سُؤَالُهُ بَعدَ مَوتِهِ لَكَانَ أَولَىٰ.

فَبَانَ أَنَّ الاستِغَاثَةَ المَنهِيَّ عَنهَا هِيَ تَوَجُّهُ المُضطَرِّ إِلَىٰ المَيِّتِ يَطلُبُ مِنهُ كَشفَ الكَربِ، وَهُوَ عَينُ مَا أَبطَلَهُ الشَّيخُ أَبُو بُطَينٍ بِقَولِهِ.

فَإِن قِيلَ هَذِهِ الأَوثَانُ المَعرُوفَةُ لِلمُشرِكِينَ جَمادٌ كَاللَّاتِ وَمَنَاةَ وَالعُزَّىٰ وَالمَقبُورُ إِنسَانٌ فَمَا الجَامِعُ بَينَهُمَا.

قُلنَا نُصُوصُ القُرآنِ فِي النَّهيِ عَن دَعوَةِ غَيرِ اللهِ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَن دَعَا مِن «دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّ وَلَا يَنفَعُ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة يونس:١٠٦] وَقَالَ: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [سورة الجن:١٨]، وَقَالَ: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سورة الأنعام:٧١]، وقَالَ: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة الأحقاف:٥]......هذا إِنكَارٌ أَن يَكُونَ أَحَدٌ أَضَلَّ مِنَ المُشرِكِينَ حَيثُ تَرَكُوا عِبَادَةَ السَّمِيعِ المُجِيبِ القَادِرِ الخَبِيرِ إِلَىٰ عِبَادَةِ مَن لَا يَستَجِيبُ لَهُم لَو سَمِعَ دُعَاءَهُم فَضلًا عَن أَن يَعلَمَ سَرَائِرَهُم وَيُرَاعِيَ مَصَالِحَهُم وَهُم عَن دُعَائِهِم غَافِلُونَ، لِأَنَّهُم إِمَّا جَمَادَاتٌ وَإِمَّا عِبَادٌ مُسَخَّرُونَ مُشتَغِلُونَ بِأَحوَالِهِم، **وَقَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾ [سورة فاطر:١٣-١٤].

وَالذَّمُّ إِنَّمَا تَوَجَّهَ إِلَىٰ مَن دَعَا مَن هَذِهِ صِفَتُهُ سَوَاءٌ كَانَ بَشَرًا أَو مَلَكًا أَو صَنَمًا وَهُوَ مَن لَا يَنفَعُ مَن دَعَاهُ وَلَا يَضُرُّ مَن لَم يَدعُهُ، ومن دَعَا من لَا يسمع دعاءه أَو وَلَو سمعه

مَا استجاب لَهُ لاستحالة الإجابة مِنهُ، وَهَذِهِ صفة الميت، وَقَالَ سُبحَانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [سورة الأعراف:١٩٧]، وَهَذِهِ أيضا صفة الميت.

وفائِدَةُ هَذَا الأصلِ أنَّ إثباتَ موتِهِ -ﷺ- سَدٌّ لِبابِ مَن يَزعُمُ أنَّه حاضِرٌ يُرىٰ ويُستَغاثُ بِهِ، ويَفعَلُ ويَتَصَرَّفُ بعدَ موتِهِ؛ فإنَّ هؤلاءِ لَو أثبَتوا موتَهُ حقًّا لانقَطَعَت تلك الدَّعاوىٰ؛ فبَطَلَ بإثباتِ موتِهِ -ﷺ- شِركُ مَن يَدعوهُ، كَمَا بطَلَ بإثباتِ موتِ الأولياءِ شِركُ مَن يَدعوهُم.

وَمِن أَعظَمِ مَا يَجِبُ اعتِقَادُهُ أَنَّ الدِّينَ قَدِ اكتَمَلَ قَبلَ وَفَاةِ النَّبِيِّ -ﷺ-، فَلَا يَقبَلُ زِيَادَةً وَلَا نُقصَانًا، وَكُلُّ عِبَادَةٍ لَم يَفعَلهَا النَّبِيُّ -ﷺ- وَلَا أَصحَابُهُ، وَلَم يَدُلَّ عَلَيهَا دَلِيلٌ صَحِيحٌ، فَلَيسَت مِنَ الدِّينِ فِي شَيءٍ، مَهمَا حَسُنَ قَصدُ صَاحِبِهَا.

وَقَد قَالَ الإِمَامُ مَالِكٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ- كَلِمَةً عَظِيمَةً تُكتَبُ بِمَاءِ الذَّهَبِ: «مَا لَم يَكُن يَومَئِذٍ دِينًا، فَلَا يَكُونُ اليَومَ دِينًا».

فَالبِدعَةُ فِي حَقِيقَتِهَا اتِّهَامٌ لِلنَّبِيِّ -ﷺ-، إِمَّا بِعَدَمِ العِلمِ، أَو بِعَدَمِ البَلَاغِ، وَكِلَاهُمَا بَاطِلٌ.

وَبِعثَةُ النَّبِيِّ -ﷺ- عَامَّةٌ شَامِلَةٌ، لِلإِنسِ وَالجِنِّ، إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَهَذِهِ مِنَ المَعلُومِ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [سورة الأعراف:١٥٨]،

وَقَالَ -ﷺ-: «بُعِثتُ إِلَىٰ الأَحمَرِ وَالأَسوَدِ».

وَقَدِ استَمَعَ الجِنُّ إِلَىٰ النَّبِيِّ -ﷺ-، وَآمَنُوا بِهِ، وَدَعَوا أَقوَامَهُم إِلَىٰ اتِّبَاعِهِ، كَمَا

قَصَّ اللهُ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ.

فَهَذَا هُوَ الحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ: دِينٌ كَامِلٌ، وَرِسَالَةٌ عَامَّةٌ، وَنَبِيٌّ بَلَّغَ البَلَاغَ المُبِينَ، وَتَرَكَ الأُمَّةَ عَلَىٰ المَحَجَّةِ البَيْضَاءِ، لَا يَزِيغُ عَنهَا إِلَّا هَالِكٌ.

مَسأَلَةٌ: خَصَائِصُه -ﷺ-:

اختَصَّ اللهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا -ﷺ- بِخَصَائِصَ فَضَّلَهُ بِهَا عَلَىٰ سَائِرِ الأَنبِيَاءِ، مِنهَا:

- أَنَّهُ أَفضَلُ الخَلقِ وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَإِمَامُ الأَنبِيَاءِ.(١)
- أَنَّ اللهَ بَعَثَهُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمحَةِ، وَنَسَخَ بِشَرِيعَتِهِ جَمِيعَ الشَّرَائِعِ.
- أَنَّ اللهَ أَنزَلَ عَلَيهِ أَفضَلَ الكُتُبِ وَتَعَهَّدَ بِحِفظِهِ.

---

(١) قلتُ: اللهَ أَخَذَ المِيثَاقَ عَلَىٰ جَمِيعِ النَّبِيِّينَ: لَئِن بُعِثَ مُحَمَّدٌ - وَهُم أَحيَاءُ لَيُؤمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنصُرُنَّهُ، وَأَمَرَهُم أَن يَأخُذُوا ذَلِكَ عَلَىٰ أُمَمِهِم؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [سورة آل عمران: ٨١]،

قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيهِ المِيثَاقَ: لَئِن بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنصُرَنَّهُ».

وَسِيَادَتُهُ - ثَابِتَةٌ بِقَولِهِ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَومَ القِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَن يَنشَقُّ عَنهُ القَبرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ».

وَالسَّيِّدُ هو: مَنِ اتَّصَفَ بِالصِّفَاتِ العَلِيَّةِ وَالأَخلَاقِ السَّنِيَّةِ؛ فَلَمَّا كَانَ - أَكمَلَ الخَلقِ مَنقَبَةً وَخُلُقًا، كَانَ أَفضَلَهُم مَنزِلَةً وَدَرَجَةً.

وَلَيسَ فِي إِثبَاتِ هَذِهِ السِّيَادَةِ غُلُوٌّ؛ فَإِنَّهَا سِيَادَةُ فَضلٍ وَإِمَامَةٍ فِي العُبُودِيَّةِ، لَا سِيَادَةُ رُبُوبِيَّةٍ تُصرَفُ إِلَيهَا عِبَادَةٌ؛ بَل قَالَ حَسمًا لِمَادَّةِ الغُلُوِّ: «لَا تُطرُونِي كَمَا أَطرَتِ النَّصَارَىٰ عِيسَىٰ ابنَ مَريَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبدٌ، فَقُولُوا: عَبدُ اللهِ وَرَسُولُهُ».

فَجَمَعَ بَينَ إِثبَاتِ سُؤدَدِهِ وَنَفيِ الغُلُوِّ فِيهِ فِي نَفَسٍ وَاحِدٍ.

○ أَنَّهُ خَاتَمُ الأَنبِيَاءِ فَلَا نَبِيَّ بَعدَهُ.

○ أَنَّ اللهَ رَفَعَ ذِكرَهُ، فَقَرَنَ اسمَهُ بِاسمِهِ، وَجَعَلَ الأَجرَ العَظِيمَ لِمَن صَلَّىٰ عَلَيهِ.

○ أَنَّهُ صَاحِبُ الشَّفَاعَةِ العُظمَىٰ، وَلَهُ المَقَامُ المَحمُودُ وَالوَسِيلَةُ.

○ أَنَّ الجَنَّةَ لَا تُفتَحُ إِلَّا بَعدَ شَفَاعَتِهِ.

○ أُبِيحَت لَهُ الغَنَائِمُ، وَنُصِرَ بِالرُّعبِ، وَجُعِلَت لَهُ الأَرضُ مَسجِدًا وَطَهُورًا.

○ أَنَّهُ بُعِثَ لِلإِنسِ وَالجِنِّ وَالعَرَبِ وَالعَجَمِ.

○ أَنَّ لَهُ الحَوضَ وَالكَوثَرَ.

○ أَنَّ اللهَ اتَّخَذَهُ خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبرَاهِيمَ خَلِيلًا.

○ أَنَّ المِيثَاقَ أُخِذَ عَلَىٰ الأَنبِيَاءِ بِالإِيمَانِ بِهِ وَنُصرَتِهِ إِن أَدرَكُوهُ.

○ أَنَّ اللهَ أَبتَرَ شَانِئَهُ وَمُعَادِيَهُ وَكَفَاهُ المُستَهزِئِينَ.

○ أَنَّ أُمَّتَهُ خَيرُ الأُمَمِ وَأَكثَرُ أَهلِ الجَنَّةِ.

○ أَنَّ مِن أَسمَائِهِ: مُحَمَّدٌ، أَحمَدُ، المَاحِي، الحَاشِرُ، العَاقِبُ.

○ أَنَّ صَلَاةَ أُمَّتِهِ وَسَلَامَهُم يُبَلَّغُ إِلَيهِ بَعدَ مَوتِهِ.

○ أَنَّ الأَرضَ لَا تَأكُلُ جَسَدَهُ -ﷺ-.

○ أَنَّهُ شَاهِدٌ عَلَىٰ أُمَّتِهِ يَومَ القِيَامَةِ.

○ أَنَّ مَن رَآهُ فِي المَنَامِ فَقَد رَآهُ حَقًّا.(١)

---

(١) **قلت**: وَهَذِهِ الخَصِيصَةُ حَقٌّ؛ فَالرُّؤيَا الصَّحِيحَةُ لَهُ - ثَابِتَةٌ، وَالشَّيطَانُ لَا يَتَمَثَّلُ بِصُورَتِهِ، لَكِنَّهَا لَا تُثمِرُ مَا يَظُنُّهُ أَهلُ الغُلُوِّ، فَلْيُضبَط ذَلِكَ بِأُمُورٍ:

الأَوَّلُ: أَنَّ الرَّائِيَ إِنَّمَا يَرَىٰ مِثَالَ صُورَتِهِ الكَرِيمَةِ، لَا أَنَّ ذَاتَهُ خَرَجَت مِن قَبرِهِ فَجَالَسَتِ النَّائِمَ؛ فَإِنَّهُ -

○ أَنَّ مَن كَذَبَ عَلَيهِ مُتعَمِّدًا فَمُتوَعَّدٌ بِالنَّارِ.

○ أَنَّهُ أَعظَمُ النَّاسِ خُلقًا وَأَرحَمُهُم بِأُمَّتِهِ.

○ أَنَّهُ عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ فِي حَيَاتِهِ، وَلَم يَكُن ذَلِكَ لِغَيرِهِ مِنَ الرُّسُلِ.

وَلَهُ - ﷺ - آيَاتٌ كَثِيرَةٌ، مِنهَا:

○ انشِقَاقُ القَمَرِ.

فِي الرَّفِيقِ الأَعلَىٰ، وَحَيَاتُهُ بَرزَخِيَّةٌ.

الثَّانِي: أَنَّ الرُّؤيَا — وَإِن صَحَّت — لَا يُثبَتُ بِهَا حُكمٌ شَرعِيٌّ، وَلَا يُستَبَاحُ بِهَا مَحظُورٌ، وَلَا يُتَلَقَّىٰ عَنهَا تَشرِيعٌ زَائِدٌ عَلَىٰ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ إِذِ الدِّينُ قَدِ اكتَمَلَ قَبلَ وَفَاتِهِ، فَلَا يُزَادُ فِيهِ بَعدَهُ بِمَنَامٍ وَلَا غَيرِهِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ النَّائِمَ غَيرُ مَعصُومٍ فِيمَا يَنقُلُهُ، فَقَد يُخطِئُ فِي ضَبطِ المَرئِيِّ أَو تَأوِيلِهِ؛ فَكَيفَ يُعَارَضُ بِهِ المُحكَمُ مِنَ الوَحيِ؟

وَمِن هُنَا يُعلَمُ بُطلَانُ مَا يَحكِيهِ المُتَصَوِّفَةُ مِن أَنَّهُ أُمِرَ فِي مَنَامِهِ بِنَذرٍ لِمَيِّتٍ، أَوِ استُبِيحَ لَهُ مَا حَرَّمَهُ اللهُ، أَو تَلَقَّىٰ كِتَابًا بِإِذنِ النَّبِيِّ فِي النَّومِ؛ فَكُلُّ ذَلِكَ مَردُودٌ عَلَىٰ قَائِلِهِ، مُخَالِفٌ لِلشَّرِيعَةِ المُحكَمَةِ وَلَو صَحَّتِ الرُّؤيَا فِي نَفسِهَا؛ لِأَنَّ مِيزَانَ الحَقِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ يَقظَةً، لَا مَا يُرَىٰ فِي المَنَامِ.

وَأَشَدُّ مِن ذَلِكَ غُلُوًّا: دَعوَىٰ بَعضِهِم أَنَّهُ يَحضُرُ مَجَالِسَهُم بِذَاتِهِ، وَيُرَىٰ بِالعَينِ البَاصِرَةِ يَقظَةً؛ وَمَدَارُ هَذِهِ الدَّعوَىٰ عَلَىٰ أَصلٍ بَاطِلٍ، وَهُوَ زَعمُهُم أَنَّهُ حَيٌّ بِجَسَدِهِ وَرُوحِهِ حَيَاةً دُنيَوِيَّةً، يَخرُجُ مِن قَبرِهِ وَيَتَصَرَّفُ فِي المَلَكُوتِ حَيثُ شَاءَ، وَإِنَّمَا غُيِّبَ عَنِ الأَبصَارِ كَمَا تُغَيَّبُ المَلَائِكَةُ.

وَهَذَا مُصَادِمٌ لِلنُّصُوصِ القَاطِعَةِ فِي مَوتِهِ وَانتِقَالِهِ إِلَىٰ الرَّفِيقِ الأَعلَىٰ، مُستَلزِمٌ لِأَبطَلِ اللَّوَازِمِ كَمَا تَقَدَّمَ.

ثُمَّ هُم فِي حَقِيقَةِ هَذَا المَرئِيِّ مُضطَرِبُونَ مُختَلِفُونَ، وَكَفَىٰ بِالاختِلَافِ آيَةً عَلَىٰ البُطلَانِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [سورة النساء:٨٢].

وَإِنَّمَا حَمَلَهُم عَلَىٰ هَذِهِ الدَّعَاوَىٰ مَا أَرَادُوا تَصحِيحَهُ مِنَ التَّوَسُّلِ بِهِ وَالاستِغَاثَةِ وَطَلَبِ تَفرِيجِ الكُرُوبِ مِنهُ بَعدَ مَوتِهِ؛ فَلَمَّا لَم يَستَقِم لَهُم ذَلِكَ إِلَّا بِإِثبَاتِ حَيَاةٍ دُنيَوِيَّةٍ وَتَصَرُّفٍ، تَكَلَّفُوا هَذَا الغُلُوَّ الَّذِي يَهدِمُ التَّوحِيدَ مِن أَسَاسِهِ.

- نَبعُ المَاءِ مِن بَينِ أَصَابِعِهِ.
- وَغَيرُ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ.

وَخَصَائِصُه -ﷺ- كَثِيرَةٌ لَا يُحِيطُ بِهَا الحَصرُ، وَهِيَ أَنوَاعٌ:

- خَصَائِصُ اختُصَّ بِهَا عَن سَائِرِ الأَنبِيَاءِ.
- خَصَائِصُ اختُصَّ بِهَا عَن أُمَّتِهِ.

وَمِنهَا:

جَوَازُ الجَمعِ بَينَ تِسعِ زَوجَاتٍ.

طِيبُ عَرَقِهِ.

التَّبَرُّكُ بِآثَارِهِ.

إِسلَامُ قَرِينِهِ مِنَ الجِنِّ.

أَنَّ قَلبَهُ لَا يَنَامُ.

أَنَّهُ يَرَىٰ مِن خَلفِهِ كَمَا يَرَىٰ مِن أَمَامِهِ.

وَقد طعَنَ المُكَذِّبونَ فِي رسالَتِهِ -ﷺ- بكونِهِ بشَرًا يأكُلُ ويَشرَبُ ويَمشي فِي الأسواقِ، واقتَرَحوا أَن يكونَ مَلَكًا، أَو أَن يَنزِلَ معه مَلَكٌ؛ وَهِيَ شُبهَةٌ قديمَةٌ ردَّدَها المُشرِكونَ كَمَا ردَّدَها الأمَمُ قبلَهُم لرُسُلِهِم: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [سورة يس:١٥].

وَقَد ردَّ القرآنُ هَذِهِ الشُّبهَةَ وأبطَلَها مِن وُجوهٍ:

الأَوَّلُ: أنَّ سُنَّةَ اللهِ فِي رُسُلِهِ كلِّهِم أنَّهم بشَرٌ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ [سورة الأنبياء:٧]، ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [سورة الأنبياء:٨]؛ فالأكلُ والمَشيُ فِي الأسواقِ ليسَ نقصًا فِي الرِّسالَةِ، بَل هُوَ مُقتَضىٰ البشَرِيَّةِ الَّتِي بِهَا يَحصُلُ التَّأَسِّي.

الثَّاني: أنَّ الحِكمَةَ تَقتَضي أَن يكونَ الرَّسولُ مِن جِنسِ المُرسَلِ إِلَيهِم؛ إِذ لَو كانَ مَلَكًا لَما حصَلَ التَّفاهُمُ وَلَا التَّأَسِّي، ولَما أمكَنَ تكليفُهُم بالاقتِداءِ بِهِ؛ ولِذا قالَ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾ [سورة الإسراء:٩٥]؛ فالرَّسولُ البَشريُّ يُبيِّنُ شرعَ اللهِ بقولِهِ وفِعلِهِ وإقرارِهِ، فيكونُ قُدوَةً، والمَلَكيُّ لَا يُطمَعُ فِي تقليدِهِ.

الثَّالثُ: أنَّ إنزالَ المَلَكِ -لَو وقَعَ عَلَىٰ وَفقِ اقتِراحِهِم- لكانَ سبَبًا لهَلاكِهِمُ المُعَجَّلِ، إِذ جَرَت سُنَّةُ اللهِ أنَّ مَن طلَبَ آيَةً مُقتَرَحَةً ثمَّ لَم يُؤمِن أُهلِكَ: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾ [سورة الحجر:٨]، ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [سورة الأنعام:٨]؛ فكانَ عدَمُ إجابَتِهِم رحمةً بِهِم وإبقاءً عَلَيهِم، وكانَ اقتِراحُهُم فِي الحقيقَةِ سَعيًا إِلَىٰ حَتفِهِم.

وَفِي هَذَا تنبيهٌ عَلَىٰ أنَّ هَذِهِ الشُّبهَةَ -عَلَىٰ قِدَمِها- باقيَةٌ فِي كلِّ مَن جعَلَ مَألوفَ العادَةِ مِعيارًا للحقِّ، فرَدَّ مَا خالَفَ مَألوفَهُ؛ والقرآنُ يَرُدُّ هَذَا برَدِّ الأمرِ إِلَىٰ الحِكمَةِ، لَا إِلَىٰ مَا تَستَغرِبُهُ النُّفوسُ.

قال المؤلف -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبعَثُونَ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [سورة طه:٥٥]، **وَقَولُهُ تَعَالَىٰ:** ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾ [سورة نوح:١٧-١٨].

وَبَعدَ البَعثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجزِيُّونَ بِأَعمَالِهِم؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١﴾ [سورة النجم:٣١].

وَمَن كَذَّبَ بِالبَعثِ كَفَرَ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة التغابن:٧].

البَعثُ: هُوَ إِحيَاءُ اللهِ المَوتَىٰ وَإِخرَاجُهُم مِن قُبُورِهِم لِلحِسَابِ وَالجَزَاءِ، وَهَذِهِ المَسأَلَةُ مِن أُصُولِ الدِّينِ الكُبرَىٰ أَجمَعَ عَلَيهَا الرُّسُلُ وَأَتبَاعُهُم، وَأَدِلَّةُ هَذِهِ القَضِيَّةِ لَا تَكَادُ تُحصَىٰ مِن كَثرَتِهَا.

وَمِن أَدِلَّةِ الكِتَابِ:

٥٧٧ - **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة الحج:٥].

٥٧٨ - وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [سورة الحج:٦-٧].

٥٧٩ - وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [سورة الروم:٢٧].

٥٨٠ - وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [سورة الأنبياء:١٠٤]

٥٨١ - وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾ [سورة مريم:٦٦-٦٧].

٥٨٢ - وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [سورة يس:٧٨-٧٩].

٥٨٣ - وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الأحقاف:٣٣]

وَكُلُّ دَلِيلٍ يَتَعَلَّقُ بِيومِ القِيامَةِ وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ وَمَا إِلَىٰ هَذِهِ الأُمُورِ الأُخرَوِيَّةِ لَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ إِثْبَاتِ البَعثِ أَيضًا.

وَالعَقلُ السَّلِيمُ يَستَرشِدُ بِهَذِهِ الأَدِلَّةِ إِلَىٰ إِثبَاتِ البَعثِ وَإِثبَاتِ قُدرَةِ اللهِ عَلَىٰ الخَلقِ بَعدَ إِمَاتَتِهِ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، هَذَا مِمَّا تُدرِكُهُ العُقُولُ وَلَا يُنكِرُهُ إِلَّا كُلُّ مُشرِكٍ جَهُولٍ.

فَالقَادِرُ عَلَىٰ الخَلقِ مِنَ العَدَمِ قَادِرٌ عَلَىٰ الإِعَادَةِ، فَالَّذِي خَلَقَ الإِنسَانَ مِن عَدَمٍ وَلَم يَكُ شَيئًا قَادِرٌ سُبحَانَهُ عَلَىٰ أَن يُعِيدَهُ بَعدَ مَوتِهِ تَارَةً أُخرَىٰ،

وَالإِعَادَةُ أَهوَنُ مِنَ الِابتِدَاءِ، فَمِن ضَلَالِ المُشرِكِينَ أَنَّهُم أَقَرُّوا أَنَّ اللهَ خَلَقَهُم

وَأَنكَرُوا بَعثَهُم بَعدَ مَوتِهِم لِاستِشكَالِهِمُ الإِعَادَةَ بَعدَ المَوتِ، وَالإِعَادَةُ أَهوَنُ مِنَ الِابتِدَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [سورة الروم:٢٧]

وَالقَادِرُ عَلَىٰ خَلقِ مَا هُوَ مِنَ الإِنسَانِ لَا شَكَّ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ إِعَادَتِهِ بَعدَ وَفَاتِهِ وَبَعدَ أَنِ اضمَحَلَّ فِي الأَرضِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡىَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧىَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الأحقاف:٣٣]

وَمَن كَانَ قَادِرًا عَلَىٰ إِنبَاتِ النَّبَاتِ وَإِخرَاجِهِ مِنَ الأَرضِ، فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ إِعَادَةِ النَّاسِ وَإِخرَاجِهِم مِن قُبُورِهِم فَالأَمرُ فِي الحَالَتَينِ مُتَشَابِهٌ، وَقَد جَمَعَ اللهُ بَينَ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ الثَّلَاثِ فِي سُورَةِ يس.

٥٨٤ - **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡىِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ٨٠ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨١﴾ [سورة يس:٧٧-٨١].

فَهَذِهِ الآيَاتُ قَد جَمَعَت لَكَ الدَّلَالَاتِ العَقلِيَّةَ السَّمعِيَّةَ.

أَمَّا مِن جِهَةِ دَلَالَةِ الحِسِّ وَالعَقلِ وَالوَاقِعِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَد أَمَاتَ أُنَاسًا ثُمَّ أَحيَاهُم وَبَعَثَهُم مِن بَعدِ مَوتِهِم، وَهَذِهِ حَوَادِثُ كَثِيرَةٌ، فَأَيُّ استِبعَادٍ بَعدَ هَذَا أَن يُعِيدَ اللهُ الخَلقَ بَعدَ إِمَاتَتِهِم فِي الحَيَاةِ الآخِرَةِ.

٥٨٥ - **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٥ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٦﴾ [سورة البقرة:٥٥-٥٦].

٥٨٦ - **وَقَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة البقرة:٧٣].

٥٨٧ - **وَقِصَّةُ إِبرَاهِيمَ:** ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

[سورة البقرة:٢٦٠].

٥٨٨ - **وَمِثلُ ذَلِكَ قِصَّةُ عُزَيرٍ:** ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾

[سورة البقرة:٢٥٩].

فَهَذِهِ بَعضُ المَوَاضِعِ فِيهَا إِحيَاءُ النَّاسِ وَفِيهَا إِحيَاءُ الحَيَوَانِ، وَقَلَّ مِثلُهَا فِي إِحيَاءِ عِيسَىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- المَوتَىٰ بِإِذنِ اللهِ تَعَالَىٰ وَقِصَّةُ أَهلِ الكَهفِ.

فَهَذِهِ القَضِيَّةُ وَالمَسأَلَةُ يَقِينِيَّةٌ لَا شَكَّ فِيهَا البَتَّةَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ، ذَكَرَ مِن دَلَائِلِ المَعَادِ وَبَرَاهِينِهِ، مَا لَا يَقدِرُ أَحَدٌ عَلَىٰ أَن يَأتِيَ بِقَرِيبٍ مِنهُ، وَذَكَرَ فِيهِ مِن أَصنَافِ الحُجَجِ، مَا يَنتَفِعُ بِهِ عَامَّةُ الخَلقِ.

٥٨٩ - **قَالَ الرَّازِيَانِ** -رَحِمَهُمَا اللهُ-: وَالبَعثُ مِن بَعدِ المَوتِ حَقٌّ.

مَسألَةٌ: حُكمُ مَن كَذَّبَ بالبعث:

التَّكذِيبُ بِالبَعثِ كُفرٌ بِاللهِ تَعالَىٰ بِدَلالَةِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجماعِ المُسلِمِينَ.

٥٩٠- قَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧﴾ [سورة النمل:٦٧].

٥٩١- وَقَالَ تَعالَىٰ: ﴿۞وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾ [سورة الرعد:٥].

٥٩٢- وَقَالَ تَعالَىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [سورة التغابن:٧]

٥٩٣- وَقَالَ تَعالَىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [سورة التوبة:٢٩].

٥٩٤- وَقَالَ -ﷺ- كما فِي حَدِيثِ جِبرِيلَ المَشهُورِ-: «أَن تُؤمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَومِ الآخِرِ».(١)

وَمَن كَفَرَ بِهَذَا اليَومِ أَو بِشَيءٍ مِمَّا يَقَعُ فِيهِ، فَهُوَ كَافِرٌ خَارِجٌ عَن مِلَّةِ الإِسلَامِ.

٥٩٥- قَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [سورة النساء:١٣٦].

٥٩٦- وَقَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ

---

(١) رَوَاهُ مسلم.

وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الكهف:٣٥-٣٨].

٥٩٧ - **رُوِيَ عَن عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ زَيدِ بنِ أَسلَمَ -مِن طَرِيقِ ابنِ وَهبٍ- فِي قَولِهِ:** ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، قَالَ: شَكٌّ.(١)

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الكهف:٣٧-٣٨].

٥٩٨ - **قَالَ مُقَاتِلُ بنُ سُلَيمَانَ: يَقُولُ:** ﴿وَمَآ أَظُنُّ﴾ يَقُولُ: مَا أَحسَبُ ﴿ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ يَعنِي: القِيَامَةَ كَائِنَةً، ثُمَّ قَالَ الكَافِرُ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [سورة فصلت:٥٠] فِي الآخِرَةِ إِن كَانَت آخِرَةٌ ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة فصلت:٥٠] يَعنِي: الجَنَّةَ، كَمَا أُعطِيتُ فِي الدنيا.(٢)

قلتُ: فَيَظهَرُ مِنَ الآيَةِ وَفَهمِ السَّلَفِ لَهَا أَنَّ الشَّكَّ فِي البَعثِ كُفرٌ بِاللهِ تَعَالَىٰ وَكُفرٌ لَا يَحتَاجُ إِلَىٰ إِقَامَةِ الحُجَّةِ قَبلَ التَّكفِيرِ لِظُهُورِهِ كَمَا فِي نَصِّ الآيَةِ، فَقَد كَفَّرَهُ لِمُجَرَّدِ شَكِّهِ بِالبَعثِ، وَقَالَ لَهُ أَكَفَرتَ بِاللهِ فَيَتَبَيَّنُ مِن هَذَا أَنَّ الشَّكَّ فِي البَعثِ هُوَ شَكٌّ أَصلٌ مِن أُصُولِ الرُّبُوبِيَّةِ.

وَفِي الآيَةِ يَتَبَيَّنُ أَنَّ صَاحِبَهُ المُؤمِنَ كَفَّرَهُ بِعَينِهِ عِندَمَا شَكَّ فِي البَعثِ لِمُجَرَّدِ الظَّنِّ.

٥٩٩ - **وَرُوِيَ فِي** «صَحِيحِ البُخَارِيِّ» **(٦/ ٥٢٥): عَن أَبِي هُرَيرَةَ** -رَضِيَ اللهُ عَنهُ-، **عَنِ النَّبِيِّ** -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- **قَالَ:** «قَالَ اللهُ: **كَذَّبَنِي ابنُ آدَمَ وَلَم يَكُن لَهُ ذَلِكَ! وَشَتَمَنِي وَلَم يَكُن لَهُ ذَلِكَ! فَأَمَّا تَكذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَولُهُ: لَن يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيسَ أَوَّلُ الخَلقِ بِأَهوَنَ عَلَيَّ**

---

(١) أخرجَهُ ابن جرير ١٥/ ٢٦٣

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٧٤٨

مِن إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتمُهُ إِيَّايَ فَقولُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَم أَلِد وَلَم أُولَد، وَلَم يَكُن لِي كُفُأً أَحَدٌ»

وَالطَّوَائِفُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالبَعثِ يَرجِعُونَ إِلَىٰ مَا يَأتِي:

أَوَّلًا: مَن أَنكَرَ البَعثَ إِنكَارًا مُطلَقًا، وَأَظهَرُ أُولَئِكَ وَأَشهَرُهُم: المُشرِكُونَ الأَوَّلُونَ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمُ النَّبِيُّ، ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [سورة النحل:٣٨]، ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ [سورة التغابن:٧]، ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ [سورة السجدة:١٠]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [سورة النمل:٦٧].

إِلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِنَ الأَدِلَّةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُم كَانُوا أَعظَمَ مَا يَكُونُونَ فِي إِنكَارِ هَذَا الأَمرِ العَظِيمِ، وَلَيسَ عِندَهُم إِلَّا مُجَرَّدُ استِبعَادٍ، وَهَذَا مِن أَعجَبِ الأَشيَاءِ، هَذِهِ الحَمَاسَةُ وَهَذِهِ الشِّدَّةُ فِي الإِنكَارِ لَيسَ لَهَا مَا يَدعَمُهَا وَيَسنِدُهَا إِلَّا مُجَرَّدُ الِاستِبعَادِ فَقَط، يَستَبعِدُونَ أَن يُعِيدَ اللهُ لَهُ النَّاسَ تَارَةً أُخرَىٰ، وَهَذَا مِن ضَعفِ تَعظِيمِهِم لِلَّهِ، وَصَدَقَ اللهُ فِي وَصفِهِم: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [سورة الزمر:٦٧]، مَا قَدَرُوا عَظَمَةَ اللهِ وَقُدرَةَ اللهِ وَسُلطَانَهُ وَقُوَّتَهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، فَلِذَلِكَ استَبعَدُوا هَذَا الأَمرَ غَايَةَ الِاستِبعَادِ.

وَيَلحَقُ فِي رَكبِهِم وَسَارَ عَلَىٰ مِنهَاجِهِم طَائِفَةٌ مِنَ الفَلَاسِفَةِ الَّذِينَ أَنكَرُوا البَعثَ بِالكُلِّيَّةِ.

كَذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنَ اليَهُودِ كَانُوا مُنكِرِينَ لِلبَعثِ بِالكُلِّيَّةِ.

وَهُنَاكَ طَائِفَةٌ أَو ضَربٌ ثَانٍ مِنَ المُنكِرِينَ لِلبَعثِ وَهُمُ الَّذِينَ أَنكَرُوا البَعثَ الجَسمَانِيَّ، يَعنِي: أَنكَرُوا بَعثَ الأَجسَادِ وَأَثبَتُوا بَعضَ الأَروَاحِ فَقَط، يَعنِي: هَذِهِ الأَجسَادُ تَضمَحِلُّ وَتَتَلَاشَىٰ وَتَذهَبُ فِي الأَرضِ وَلَا يُمكِنُ أَن تُعَادَ، إِنَّمَا الأَروَاحُ فقط

هي التي تبعث يوم القِيَامَةِ، وَبِالتَّالِي هِيَ الَّتِي تُنَعَّمُ وَتُعَذَّبُ.

وَهَذَا قَولُ بَعضِ النَّصَارَىٰ، وَقَولُ طَائِفَةٍ مِنَ الفَلَاسِفَةِ.

وَهُنَاكَ صِنفٌ ثَالِثٌ مِن هَؤُلَاءِ المُنكِرِينَ، وَهُمُ الَّذِينَ قَالُوا بِتَنَاسُخِ الأَروَاحِ، فَالتَّنَاسُخِيَّةُ وَهُم فِئَةٌ مِن فَلَاسِفَةِ فَارِسَ وَالبُوذِيَّةِ وَالبَرَاهِمِيَّةِ، وَكَذَلِكَ النُّصَيرِيَّةُ وَالدُّرُوزُ، وَهَاتَانِ الطَّائِفَتَانِ لَا حَظَّ لَهُمَا فِي الإِسلَامِ وَلَا مِقدَارَ شَعرَةٍ، هَذِهِ مِلَلٌ مُخَالِفَةٌ لِلإِسلَامِ وَبَعِيدَةٌ عَنِ الإِسلَامِ كُلَّ البُعدِ بَل هِيَ أَكفَرُ مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ بِاتِّفَاقِ المُسلِمِينَ.

فَهَؤُلَاءِ تَنَاسُخِيَّةٌ، يَعنِي يَقُولُونَ بِتَنَاسُخِ الأَروَاحِ، فَإِنَّ الأَروَاحَ تَتَنَقَّلُ مِن شَخصٍ إِلَىٰ شَخصٍ، إِذَا مَاتَ الإِنسَانُ فَإِنَّ رُوحَهُ تَنتَقِلُ إِلَىٰ الآخَرِ، وَمِنَ الآخَرِ إِلَىٰ الثَّالِثِ، وَمِنَ الثَّالِثِ إِلَىٰ رَابِعٍ، وَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ تَصِلَ إِلَىٰ السَّعَادَةِ العُظمَىٰ، أَو كَمَا تَقُولُ البُوذِيَّةُ وَالبَرَاهِمِيَّةُ إِلَىٰ النِّيرغَانَا، أَو مَا يُسَمُّونَهُ الفَنَاءَ الأَعظَمَ، فتتحد بأعظم الأَشيَاءِ، وَبِالتَّالِي يَنتَهِي كُلُّ شَيءٍ فِي حَقِّهَا.

فَهَؤُلَاءِ فِي حَقِيقَةِ أَمرِهِم لَيسُوا مِنَ المُثبِتِينَ لِلبَعثِ، بَل هَؤُلَاءِ مِنَ المُنكِرِينَ لِلبَعثِ.

طَائِفَةٌ رَابِعَةٌ وَهُم بَعضُ الجَهمِيَّةِ كَالغَزَالِيِّ فَإِنَّهُم يَقُولُونَ: إِنَّ الَّذِي يُبعَثُ جَسَدٌ آخَرُ وَرُوحٌ أُخرَىٰ، وَلَيسَ الإِنسَانُ نَفسُهُ بِجَسَدِهِ وَرُوحٍ وَالَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا رَيبَ، وَهُوَ المَعقُولُ فِي العَقلِ، وَهُوَ المَدلُولُ عَلَيهِ فِي الشَّرعِ أَنَّ الإِنسَانَ نَفسَهُ هُوَ الَّذِي يَعُودُ، وَأَنَّ الَّذِي يَنبُتُ بَعدَ أَن أَصبَحَ تُرَابًا وَيَتَرَكَّبُ مَرَّةً أُخرَىٰ وَتَعُودُ فِيهِ الرُّوحُ مَرَّةً أُخرَىٰ هُوَ أَنتَ وَأَنَا وَجَمِيعُ النَّاسِ.

وَلِذَلِكَ تَجِدُ فِي القُرآنِ الدَّلَالَةَ عَلَىٰ هَذَا صَرِيحَةً، ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ

﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ [سورة النور:٢٤]، هُم أَنفُسُهُمُ الَّذِينَ عَادُوا وَهَذِهِ أَعضَاؤُهُم، إِنَّمَا الَّذِي يَحصُلُ انتِقَالُ الإِنسَانِ مِن طَورٍ إِلَىٰ طَورٍ، وَمِثلُ ذَلِكَ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝٤﴾ [سورة ق:٣-٤].

٦٠٠ - **وَرُوِيَ فِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ» (٤/ ٣٢٠): عَن أَبِي هُرَيرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- قَالَ:** قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «**مَا بَينَ النَّفخَتَينِ أَربعُونَ**»، قَالَ: أَربعُونَ يومًا؟ قَالَ: «أَبيتُ»، قَالَ: أَربعُونَ شَهرًا؟ قَالَ: «أَبيتُ»، قَالَ: أَربعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: «أَبيتُ»، قَالَ: «**ثُمَّ يُنزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنبُتُونَ كَمَا يَنبتُ البَقلُ، لَيسَ مِنَ الإِنسَانِ شَيءٌ إِلَّا يَبلَىٰ، إِلَّا عَظمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجبُ الذَّنَبِ، وَمِنهُ يُرَكَّبُ الخَلقُ يَومَ القِيَامَةِ**».

كَالإِنسَانِ إِذَا وُلِدَ فَيَكُونُ حَجمُهُ حجمًا صَغِيرًا، طُولُهُ وَعَرضُهُ وَوَزنُهُ شَيءٌ قَلِيلٌ، لَكِنَّهُ بَعدَ عِشرِينَ أَو ثَلَاثِينَ سَنَةً كَيفَ يَكُونُ؟

هل نَقُولُ أَصبَحَ شَخصًا آخَرَ، أَو نَقُولُ: انتقَلَ مِن طَورٍ إِلَىٰ طَورٍ؟

كَذَلِكَ إِذَا مَاتَ الإِنسَانُ وَاضمَحلَّت أَعضَاؤُهُ وَتَفَتَّتَت أَجزَاؤُهُ، فَإِنَّهُ إِذَا أُعِيدَ وَرُكِّبَ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي أُعِيدَ لَا غَيرُهُ، وَيَنتَقِلُ مِن طَورٍ إِلَىٰ طَورٍ آخَرَ، وَبِالتَّالِي فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُجَازَىٰ علىٰ ما كان عمل فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا، وَبِالتَّالِي فَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا قَولٌ بَاطِلٌ ضَالٌّ، وَحَاصِلُهُ إِنكَارُ البَعثِ، إِنكَارُ أَن يَبعَثَ اللهُ الأَجسَادَ الَّتِي مَاتَت، وَأَن يُعِيدَ فِيهَا الأَروَاحَ الَّتِي كَانَت فِيهَا، إِنَّمَا الَّذِي يُبعَث عِندَهُم شَيءٌ آخَرُ، أَجسَادٌ أُخرَىٰ وَأَروَاحٌ أُخرَىٰ، وَبِالتَّالِي فَيَكُونُ هَؤُلَاءِ مِنَ المُنكِرِينَ لِلبَعثِ.

فَهَذِهِ الأَقوَالُ الَّتِي يَرجِعُ إِلَيهَا القَائِلُونَ بِإِنكَارِ البَعثِ.

٦٠١ - **وَجَاءَ فِي «عُدَّةِ الصَّابِرِينَ وَذَخِيرَةِ الشَّاكِرِينَ» (ص٣١٣):** «وَذَلِكَ أَنَّ إِنكَارَ

المَعَادِ يَتضَمَّنُ إِنكَارَ قُدرةِ الرَّبِّ وَعِلمِهِ وَحِكمَتِهِ وَمُلكِهِ الحَقِّ وَرُبُوبِيَّتِهِ».

ولمَّا كانَ إنكارُ المُنكِرينَ للبعثِ مَبناهُ عَلَىٰ مَحضِ الاستِبعادِ -لَا عَلَىٰ بُرهانٍ-، تنوَّعَت طرائِقُ القرآنِ فِي إثباتِهِ ودَفعِ استِبعادِهِم، وَهِيَ ترجِعُ إِلَىٰ أنواعٍ:

أَوَّلُها: إخبارُ اللهِ الصَّادِقُ بأنَّه يُحيي المَوتىٰ، وَقَد وقَعَ فِي الدُّنيا نظيرُهُ، كإحياءِ قتيلِ بني إسرائيلَ، وَالَّذِينَ خرَجوا مِن دِيارِهِم فرارًا مِنَ الموتِ.

والثَّاني: لَفتُ أنظارِهِم إِلَىٰ الخَلقِ الأوَّلِ، وأنَّ مَن أنشأَ الخلقَ ابتِداءً أقدَرُ عَلَىٰ إعادَتِهِ: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [سورة يس:٧٩]، ﴿قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [سورة الإسراء:٥١]؛ بَل الإعادَةُ فِي مِيزانِ عُقولِهِم أهوَنُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [سورة الروم:٢٧].

والثَّالثُ: تذكيرُهُم بأطوارِ نشأتِهِم مِن تُرابٍ ثُمَّ نُطفَةٍ ثمَّ عَلَقَةٍ، فمَن نقَلَهُم فِي هَذِهِ الأطوارِ قادِرٌ عَلَىٰ نقلِهِم إِلَىٰ طَورِ البعثِ.

والرَّابعُ: لَفتُ أنظارِهِم إِلَىٰ مَا هُوَ أكبَرُ مِن خَلقِهِم: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة غافر:٥٧]؛ فمَن قدَرَ عَلَىٰ الأعظَمِ فهُوَ عَلَىٰ مَا دونَهُ أقدَرُ.

والخامسُ: الاستِدلالُ بإحياءِ الأرضِ بعدَ موتِها بالمطَرِ، وَهُوَ شاهِدٌ مَحسوسٌ عَلَىٰ الغائِبِ: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [سورة فاطر:٩].

والسَّادسُ: بيانُ حِكمَةِ الخلقِ، وأنَّه مَا خُلِقَ سُدًىٰ بِلَا بعثٍ وجزاءٍ: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾ [سورة المؤمنون:١١٥]، ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [سورة القلم:٣٥]؛ إذ لَو لَم يكُن بعثٌ لاستوىٰ المُحسِنُ والمُسيءُ، وذلكَ يُنافي حِكمَةَ الحكيمِ.

والسَّابعُ: التَّحدِّي عندَ إصرارِهِم: ﴿۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي

صُدُورِكُمْۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ [سورة الإسراء: ٥٠-٥١]؛ فأخبرَ أنَّهم لَو كَانُوا أبعَدَ شيءٍ عنِ الحياةِ لأعادَهُمُ اللهُ.

فَهَذِهِ الطُّرُقُ كلُّها بيانٌ وبُرهانٌ يَنقادُ لَهُ العقلُ، يُغني عَن جَدَلِ أهلِ الكلامِ.

قال المؤلف -رحمه الله-:

وَأرسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [سورة النساء:١٦٥].

وَأَوَّلُهُم نُوحٌ -عليه السلام-.

وَآخِرُهُم مُحَمَّدٌ -صلى الله عليه وسلم-، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعدَهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [سورة الأحزاب:٤٠].

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّ أَوَّلَهُم نُوحٌ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [سورة النساء:١٦٣].

الإِيمَانُ بِأَنبِيَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ وَرُسُلِهِ رُكنٌ مِن أَركَانِ الإِيمَانِ، وَأَصلٌ مِن أُصُولِهِ، لَا يَصِحُّ إِيمَانُ العَبدِ إِلَّا بِهِ، وَأَصلُ النُّبُوَّةِ عُمُومًا وَنُبُوَّتُهُ -صلى الله عليه وسلم- مِنَ العِلمِ العَامِّ الظَّاهِرِ المشهور.(١)

دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالإِجمَاعُ وَالعَقلُ:

(١) النَّبِيُّ: يُشتَقُّ مِنَ النَّبَإِ، وَهُوَ الخَبَرُ، وَيُشتَقُّ مِنَ النُّبُوَّةِ، وَهِيَ الرِّفعَةُ.

فَهُوَ مُخبِرٌ عَنِ اللهِ، رَفِيعُ المَنزِلَةِ، هَادٍ إِلَىٰ سَبِيلِ اللهِ.

وَالرَّسُولُ: مِنَ الرِّسَالَةِ وَالإِرسَالِ، أَي: البَعثِ وَالتَّوجِيهِ.

النَّبِيُّ وَالرَّسُولُ: مَن اصطَفَاهُ اللهُ وَأَوحَىٰ إِلَيهِ، وَجَعَلَهُ هَادِيًا لِخَلقِهِ.

أمّا الكِتَابُ:

٦٠٢ - قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [سورة البقرة:٢٨٥].

٦٠٣ - وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩﴾ [سورة آل عمران:١٧٩].

٦٠٤ - وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ﴾ [سورة النساء:١٧١].

٦٠٥ - وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [سورة البقرة:١٣٦].

٦٠٦ - وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠﴾ [سورة النساء:١٥٠].

٦٠٧ - وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ [سورة الحديد:١٩]

٦٠٨ - وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢﴾ [سورة النساء:١٥٢].

٦٠٩ - وَقَالَ تَعَالَى ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [سورة الحديد:٢١]

٦١٠ - وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ

﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ [سورة البقرة:١٧٧].

وَمِنَ السُّنَّةِ:

٦١١ - **حَدِيثُ جِبرِيلَ المُتَّفَقِ عَلَىٰ صِحَّتِهِ: رَوَىٰ «البُخَارِيُّ» (١/ ١٩ ط السُّلطَانِيَّةِ):** عَن أَبِي هُرَيرَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - بَارِزًا يَومًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «**الإِيمَانُ أَن تُؤمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤمِنَ بِالبَعثِ**».

٦١٢ - **وحديث ابن صياد: رُوِيَ فِي «صحيح البخاري» (٣/ ١١١٢ ت البغا) «عَنِ ابنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا - أَنَّهُ أَخبَرَهُ:** أَنَّ عُمَرَ انطَلَقَ فِي رَهطٍ مِن أَصحَابِ النَّبِيِّ - ﷺ - مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ - قِبَلَ ابنِ صَيَّادٍ، حَتَّىٰ وَجَدُوهُ يَلعَبُ مَعَ الغِلمَانِ، عِندَ أُطُمِ بَنِي مَغَالَةَ، وَقَد قَارَبَ يَومَئِذٍ ابنُ صَيَّادٍ يَحتَلِمُ، فَلَم يَشعُر حَتَّىٰ ضَرَبَ النَّبِيُّ - ﷺ - ظَهرَهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: «**أَتَشهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ**»، فَنَظَرَ إِلَيهِ ابنُ صَيَّادٍ، فَقَالَ: أَشهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الأُمِّيِّينَ، فَقَالَ ابنُ صَيَّادٍ لِلنَّبِيِّ - ﷺ -: أَتَشهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ - ﷺ -: «**آمَنتُ بِاللهِ وَرُسُلِهِ**».

٦١٣ - **وحديث الجارية: جَاءَ فِي «صحيح مسلم» (٢/ ٧٠ ط التركية):** عَن مُعَاوِيَةَ بنِ الحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: وَكَانَت لِي جَارِيَةٌ تَرعَىٰ غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعتُ ذَاتَ يَومٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَد ذَهَبَ بِشَاةٍ مِن غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِن بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأسَفُونَ لَكِنِّي صَكَكتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيتُ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُعتِقُهَا؟ قَالَ: «**ائتِنِي بِهَا**»، فَأَتَيتُهُ بِهَا فَقَالَ لَهَا: «**أَينَ اللهُ؟**» قَالَت: فِي السَّمَاءِ، **قَالَ:** «**مَن أَنَا؟**» قَالَت: أَنتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «**أَعتِقهَا فَإِنَّهَا مُؤمِنَةٌ**».

٦١٤- **وجاء في «صحيح البخاري» (١/ ١٢ ط السلطانية):** عَن أَبِي هُرَيرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «**فَوَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيهِ مِن وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ**».

٦١٥- **وَفِي الصَّحِيحِ مِن دُعَاءِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي صَلَاةِ اللَّيلِ:** «وَلَكَ الحَمدُ، **أَنتَ الحَقُّ وَوَعدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَولُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، النَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ** -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حق».[1]

ومن الآثار:

٦١٦- **رُوِيَ فِي «تَفسِيرِ ابنِ أَبِي حَاتِمٍ» (١/ ٢٤٢):** عَن أَبِي قِلَابَةَ فِي قَولِهِ: حَنِيفًا قَالَ: الحَنِيفُ: الَّذِي يُؤمِنُ بِالرُّسُلِ كُلِّهِم مِن أَوَّلِهِم إِلَىٰ آخِرِهِم.

٦١٧- **وَرُوِيَ عَن مُقَاتِلِ بنِ حَيَّانَ، قَولُهُ:** ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [سورة البقرة:٢٨٥] فَهَذَا قَولٌ، قَالَهُ اللهُ، وَقَولُ النَّبِيِّ، وَقَولُ المُؤمِنِينَ.

فَأَثنَىٰ اللهُ عَلَيهِم لِمَا عَلِمَ مِن إِيمَانِهِم بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ.

وَمِنَ العقل:

١- رُبُوبِيَّتُهُ وَعدلُهُ تَعَالَىٰ تَقتَضِيَانِ إِرسَالَ رُسُلٍ مِنهُ إِلَىٰ خَلقِهِ لِيُعَرِّفُوهُم بِرَبِّهِم، وَيُرشِدُوهُم إِلَىٰ مَا فِيهِ سَعَادَتُهُم فِي دُنيَاهُم وَأُخرَاهُم.

٢- خَلقُ اللهِ تَعَالَىٰ الخَلقَ لِعِبَادَتِهِ يَقتَضِي اصطِفَاءَ الرُّسُلِ وَإِرسَالَهُم؛ لِيُعَلِّمُوا العِبَادَ كَيفَ يَعبُدُونَهُ تَعَالَىٰ وَيُطِيعُونَهُ.

---

(١) رَوَاهُ البخاري (١١٢٠)

٣- مِن رَحمَةِ اللهِ العَامَّةِ وَإِحسَانِهِ وَعَدلِهِ فِي خَلقِهِ مَعَ استِحقَاقِهِمُ العَذَابَ لِشِركِهِم وَتَظَافُرِ الحُجَجِ عَلَيهِم، قَضَىٰ رَبُّنَا قَضَاءً بِأَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا حَتَّىٰ يُنذِرَهُ.

٦١٨ - **قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:** ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء:١٥]

٦١٩ - **وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:** ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [سورة هود:١١٧]

٦٢٠ - **وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:** ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [سورة القصص:٥٩]

٦٢١ - **وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:** ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ [سورة الشعراء:٢٠٨-٢٠٩]

وَجَاءَتِ الرُّسُلُ لِلتَّذكِيرِ بِاللهِ فَقَالَ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الغاشية:٢١]

٦٢٢ - **وَقَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة الذاريات:٥٥].

٦٢٣ - **وَقَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ [سورة طه:٢-٣].

٦٢٤ - **وَرُوِيَ عَنِ المُغِيرَةِ بنِ شُعبَةَ، قَالَ:** قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: «**لَا شَخصَ أَحَبَّ إِلَيهِ العُذرُ مِنَ اللهِ؛ وَلِذَلِكَ بَعَثَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَلَا شَخصَ أَحَبَّ إِلَيهِ المَدحُ مِنَ اللهِ؛ وَلِذَلِكَ وَعَدَ الجَنَّةَ**».(١)

وَالنُّبُوَّةُ هِيَ الوَاسِطَةُ بَينَ الخَالِقِ وَالمَخلُوقِ فِي تَبلِيغِ شَرعِهِ وَدَعوَةِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- لِخَلقِهِ؛ لِيُخرِجَهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ، وَيَنقُلَهُم مِن ضِيقِ الدُّنيَا

---

(١) أَخرَجَهُ البخاري ٨/ ١٧٣ (٦٨٤٦)، ٩/ ١٢٣ (٧٤١٦)، ومسلم ٢/ ١١٣٦ (١٤٩٩)

إِلَىٰ سَعَةِ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ.

٦٢٥ - **قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:** ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة آل عمران:١٦٤]

هَذَا فِي حَقِّ المُرسَلِ إِلَيهِم.

أَمَّا فِي حَقِّ المُرسَلِ نَفسِهِ، فَهِيَ امتِنَانٌ مِنَ اللهِ يَمُنُّ بِهَا عَلَيهِ، وَاصطِفَاءٌ مِنَ الرَّبِّ لَهُ مِن بَينِ سَائِرِ النَّاسِ، وَهِبَةٌ رَبَّانِيَّةٌ يَختَصُّهُ بِهَا مِن بَينِ الخَلقِ كُلِّهِم.

٦٢٦ - **كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة البقرة:١٠٥].

فَالنُّبُوَّةُ لَا تُنَالُ بِعِلمٍ وَلَا رِيَاضَةٍ، وَلَا تُدرَكُ بِكَثرَةِ طَاعَةٍ أَو عِبَادَةٍ، وَلَا تَأتِي بِتَجوِيعِ النَّفسِ أَو إِظمَائِهَا كَمَا يَظُنُّ مَن فِي عَقلِهِ بَلَادَةٌ فَلَيسَتِ النُّبُوَّةُ شَيءٌ مُكتَسَبٌ.

٦٢٧ - **قَالَ تَعَالَىٰ** ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [سورة الأنعام:٩٣]

وَإِنَّمَا هِيَ مَحضُ فَضلٍ إِلَهِيٍّ، وَمُجَرَّدُ اصطِفَاءٍ رَبَّانِيٍّ لَا غَيرُ.

٦٢٨ - **وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [سورة الحج:٧٥].

وَهَذَا الِاصطِفَاءُ انتَهَىٰ بِاصطِفَاءِ النَّبِيِّ -ﷺ- إِذ أَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ.

٦٢٩ - **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [سورة الأحزاب:٤٠]

٦٣٠ - **وَرُوِيَ فِي «صحيح مسلم» (٧/ ٦٤ ط التركية):** عَن أَبِي هُرَيرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - قَالَ: «**مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنبِيَاءِ مِن قَبلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَىٰ بُنيَانًا فَأَحسَنَهُ وَأَجمَلَهُ إِلَّا مَوضِعَ لَبِنَةٍ مِن زَاوِيَةٍ مِن زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَت هَذِهِ اللَّبِنَةُ! قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ**».

وَيَجِبُ أَن نَعتَقِدَ أَنَّهُم أَفضَلُ البَشَرِ عَلَىٰ الإِطلَاقِ وَلَا يُمكِنُ أَن يُدَانِيَهُم فِي الخَيرِيَّةِ أَحَدٌ.

٦٣١ - **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [سورة آل عمران:١٧٩]

وَالِاصطِفَاءُ الإِلَهِيُّ لِلأَنبِيَاءِ إِنَّمَا يَكُونُ لِخَيرِ النَّاسِ فِي زَمَانِهِم.

٦٣٢ - **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [سورة الأنعام:١٢٤]

٦٣٣ - **وَلِمَا رُوِيَ فِي «مُسنَدِ أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ» (١/ ١٩٩):** عَن عَبدِ اللهِ، قَالَ: إِنَّ اللهَ - ﷻ - نَظَرَ فِي قُلُوبِ العِبَادِ، فَاختَارَ مُحَمَّدًا، فَبَعَثَهُ بِرِسَالَاتِهِ، وَانتَخَبَهُ بِعِلمِهِ.

فَاللهُ تَعَالَىٰ إِنَّمَا يَصطَفِي خَيرَ النَّاسِ فِي مُجتَمَعَاتِهِم وَأُمَمِهِم فَهُم قَبلَ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ خِيَارُ النَّاسِ وَأُنَاسٌ يُعرَفُونَ بِالصَّلَاحِ وَحُسنِ الأَخلَاقِ

وَالإِيمَانُ بِالنُّبُوَّةِ أَصلُ النَّجَاةِ وَالسَّعَادَةِ:

فَمَن لَم يُحَقِّق هَذَا البَابَ اضطَرَبَ عَلَيهِ بَابُ الهُدَىٰ وَالضَّلَالِ، وَالإِيمَانِ وَالكُفرِ، وَلَم يُمَيِّز بَينَ الخَطَأِ وَالصَّوَابِ

فَإِنَّ حَاجَةَ العِبَادِ إِلَيهِم أَشَدُّ مِن حَاجَتِهِم إِلَىٰ الهَوَاءِ الَّذِي يَتَنَسَّمُونَهُ، وَإِلَىٰ الطَّعَامِ الَّذِي يَأكُلُونَهُ، وَإِلَىٰ الشَّرَابِ الَّذِي يَشرَبُونَهُ

فَإِنَّ اللهَ سُبحَانَهُ جَعَلَ الرُّسُلَ وَسَائِطَ بَينَهُ وَبَينَ عِبَادِهِ فِي تَعرِيفِهِم مَا يَنفَعُهُم وَمَا

يَضُرُّهُم، وَتكمِيلِ مَا يُصلِحُهُم فِي مَعَاشِهِم وَمَعَادِهِم، وَبُعِثُوا جَمِيعًا بِالدَّعوَةِ إِلَىٰ اللهِ، وَتَعرِيفِ الطَّرِيقِ المُوصِلِ إِلَيهِ

وَحَاجَةُ العَبدِ إِلَىٰ الرِّسَالَةِ أَعظَمُ بِكَثِيرٍ مِن حَاجَةِ المَرِيضِ إِلَىٰ الطِّبِّ؛ فَإِنَّ آخِرَ مَا يُقَدَّرُ بِعَدَمِ الطَّبِيبِ مَوتُ الأَبدَانِ، وَأَمَّا إِذَا لَم يَحصُل لِلعَبدِ نُورُ الرِّسَالَةِ وَحيَاتُها مَاتَ قَلبُهُ موتًا لَا تُرجَىٰ الحَيَاةُ مَعَهُ أَبدًا، أَو شَقِيَ شَقَاوَةً لَا سَعَادَةَ مَعَهَا أَبدًا.

فَلَا فَلَاحَ إِلَّا بِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ.

وَلَا ثَبَاتَ فِي هَذَا العَالَمِ إِلَّا بِآثَارِ النُّبُوَّةِ فَالدُّنيَا مَلعُونَةٌ وَالعُقُولُ ضَالَّةٌ وَالقُلُوبُ مُظلِمَةٌ إِلَّا مَا طَلَعَ عَلَيهِ شَمسُ الرِّسَالَةِ وَاستَنَارَ بِنُورِ النُّبُوَّةِ

فَحَاجَةُ العِبَادِ لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ هِيَ أَعظَمُ الحَاجَاتِ

أَمَّا إِذَا كَسَفَت شَمسُ النُّبُوَّةِ وَطُمِسَت أَعلَامُهَا وَاندَرَسَت أَعلَامُهَا مِنَ الأَرضِ هُنَا يَخرَبُ العَالَمُ تُكَوَّرُ الشَّمسُ وَيُخسَفُ بِالقَمَرِ وَتَتَشَقَّقُ السَّمَاءُ وَتَنتَثِرُ النُّجُومُ فَيَخرَبُ العَالَمُ لِذَلِكَ فَلَا بَقَاءَ لِهَذَا العَالَمِ إِلَّا بِبَقَاءِ آثَارِ النُّبُوَّةِ فِيهِ فَهِيَ نِعمَةٌ مِن أَعظَمِ النِّعَمِ وَمِنَّةٌ مِن أَعظَمِ المِنَنِ

٦٣٤ - **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [سورة آل عمران:١٦٤].

٦٣٥ - **وَلِذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ:** ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [سورة إبراهيم:١].

٦٣٦ - **وَقَالَ تَعَالَىٰ وَاصِفًا نَبِيَّهُ:** ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة

الأنبياء:١٠٧].

٦٣٧- **وَيقولُ لِمُوسَىٰ:** ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [سورة إبراهيم:٥].

فَالنَّاسُ فِي ظَلَامِ الضَّلَالِ وَالِانحِرَافِ وَالغَوَايَةِ إِلَّا مَن هَدَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِنُورِ النُّبُوَّةِ

٦٣٨- **كَمَا جَاءَ فِي «مُسندِ الدَّارِمِيِّ - ت الزَّهرَانِيِّ» (١/ ٥٠):** عَن أَبِي صَالِحٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ -ﷺ- يُنَادِيهِم: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحمَةٌ مُهدَاةٌ**».

وَالإِيمَانُ بِأَنبِيَاءِ اللهِ وَرُسُلِهِ: لَا يَتَحَقَّقُ حَتَّىٰ يُؤمِنَ العَبدُ بِجَمِيعِ الأَنبِيَاءِ، وَيُصَدِّقَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَرسَلَهُم لِهِدَايَةِ البَشَرِ، وَإِرشَادِ الخَلقِ، وَإِخرَاجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ، وَأَنَّهُم بَلَّغُوا مَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِن رَبِّهِمُ البَلَاغَ المُبِينَ.

وَأَن نُؤمِنَ بِمَن سَمَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ مِنهُم، وَالإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَرسَلَ رُسُلًا سِوَاهُم وَأَنبِيَاءَ لَا يَعلَمُ أَسمَاءَهُم وَعَدَدَهُم إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ الَّذِي أَرسَلَهُم.

فَعَلَينَا الإِيمَانُ بِهِم جُملَةً فِيمَن لَم يَرِد فِيهِم تَفصِيلٌ، وَتَفصِيلًا فِيمَن وَرَدَ بِهِ التَّفصِيلُ.

٦٣٩- **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [سورة النساء:١٦٤]

٦٤٠- **وَقَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [سورة غافر:٧٨]

٦٤١- **وَقَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [سورة النحل:٣٦]

٦٤٢- **وَقَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة فاطر:٢٤].

فالأَنبِيَاءُ كُثُرٌ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيهِم جَمِيعًا: وَقَد رُوِيَ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - «أَنَّ الأَنبِيَاءَ مِائَةُ أَلفِ نَبِيٍّ وَأَنَّ الرُّسُلَ مِنهُم ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ».[(١)]

٦٤٣ - **وَرُوِيَ عَن أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ:** قُلتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، كَمِ الأَنبِيَاءُ؟ قَالَ: «مِائَةُ أَلفٍ وَأَربَعَةٌ وَعِشرُونَ أَلفًا، الرُّسُلُ مِن ذَلِكَ ثَلَاثُمِائَةٍ وَخَمسَةَ عَشَرَ، جَمًّا غفيرًا».[(٢)]

وَالأَنبِيَاءُ الَّذِينَ جَاءَ ذِكرُهُم فِي القُرآنِ

إِبرَاهِيمُ – إِسحَاقُ – يَعقُوبُ – نُوحٌ – دَاوُدُ – سُلَيمَانُ – أَيُّوبُ – يُوسُفُ – مُوسَىٰ – هَارُونُ – زَكَرِيَّا – يَحيَىٰ – عِيسَىٰ – اليَاسُ – إِسمَاعِيلُ – اليَسَعُ – يُونُسُ – لُوطٌ – آدَمُ – هُودٌ – صَالِحٌ – شُعَيبٌ – ادرِيسُ – ذُو الكِفلِ – مُحَمَّدٌ – الأَسبَاطُ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيهِم أَجمَعِينَ.

وَلَا يَجُوزُ التَّفرِيقُ بَينَهُم:

٦٤٤ - **قَالَ اللهُ تَعَالَى:** ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢﴾ [سورة النساء:١٥٢].

٦٤٥ - **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ

---

(١) أَخرَجَهُ الحاكم ٢/ ٦٥٢ (٤١٦٦)، وابن حبان ٢/ ٧٦ - ٧٧ (٣٦١) مطولًا

(٢) أَخرَجَهُ أحمد ٣٦/ ٦١٨ - ٦١٩ (٢٢٢٨٨) مطولًا، وابن أَبِي حاتم ١/ ١٨٢ (٩٦٢)، ٢/ ٤٨٢ (٢٥٥٠)، ٤/ ١١١٨ (٦٢٨٣)، ٩/ ٢٩٨٣ (١٦٩٤٤)

وانظر للاستزادة من بعض الآثار المروية فِي هَذَا الْمَعنَىٰ أَبُو يعلىٰ ٧/ ١٥٩ (٤١٣٢)، وَأَبُو نعيم فِي الحلية ٣/ ٥٣ الحاكم ٢/ ٦٥٣ (٤١٧٠) ٢/ ٥٩٧ – ٥٩٨ ابن أَبِي حاتم ٤/ ١١١٩ مقاتل بن سليمان ١/ ٤٢٣.

بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [سورة البقرة:١٣٦].

٦٤٦ - وَقَالَ تَعَالَىٰ ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [سورة البقرة:٢٨٥].

٦٤٧ - رُوِيَ عَن مُقَاتِلِ بنِ حَيَّانَ، فِي قَولِ اللهِ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [سورة البقرة:٢٨٥] لَا نَكفُرُ بِمَا جَاءَت بِهِ الرُّسُلُ، وَلَا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِنهُم، وَلَا نُكَذِّبُ.

٦٤٨ - وَرُوِيَ فِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ» (٤/ ١٦٧ ط السُّلطَانِيَّةِ): عَن أَبِي هُرَيرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- «أَنَا أَولَى النَّاسِ بِعِيسَىٰ ابنِ مَريَمَ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ وَالأَنبِيَاءُ إِخوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُم شَتَّىٰ وَدِينُهُم وَاحِدٌ».(١)

---

(١) العَلّاتُ: أبناءُ الرَّجُلِ الواحِدِ مِن نِسوَةٍ شَتّىٰ؛ فشَبَّهَ الأنبياءَ بإخوَةٍ لأبٍ واحِدٍ وأُمَّهاتٍ مُختَلِفاتٍ، إشارَةً إلَىٰ اتِّفاقِهِم فِي أصلِ الدِّينِ واختِلافِهِم فِي الشَّرائِعِ.

ومَعنىٰ «ودينُهُم واحِدٌ»: أنَّ أصلَ دينِهِم جَميعًا واحِدٌ، وَهُوَ الإسلامُ المُتَضَمِّنُ تَوحيدَ اللهِ وإخلاصَ العِبادَةِ لَهُ ونَبذَ الشِّركِ؛ قالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [سورة آل عمران:١٩]، وأخبَرَ سُبحانَهُ أنَّ نوحًا وإبراهيمَ ويوسُفَ وموسىٰ وغيرَهُم كانُوا مُسلِمينَ، وأنَّ أصلَ دَعوَتِهِم واحِدٌ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [سورة النحل:٣٦].

وإنَّما وَقَعَ التَّفاوُتُ فِي الفُروعِ؛ قالَ تَعالَىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [سورة المائدة:٤٨].

قالَ مُجاهِدٌ كَمَا فِي جامِعِ البَيانِ للطَّبَرِيِّ (٢٥/ ١٥) فِي قَولِهِ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [سورة الشورى:١٣]: «أوصاكَ بِهِ يا مُحَمَّدُ وأنبياءَهُ كُلَّهُم بالإسلامِ دينًا واحِدًا».

وعَنِ ابنِ جُرَيجٍ فِي الآيَةِ: «ليسَ للهِ دينٌ غَيرُهُ».

ولَمّا كانَ الإلٰهُ المَعبودُ واحِدًا أحَدًا، كانَ الدِّينُ المُرتَضىٰ واحِدًا؛ إذ لَو تَعَدَّدَتِ الآلِهَةُ لَتَعَدَّدَتِ الأديانُ، وذَهَبَ كُلُّ إلٰهٍ بدينِهِ وعابِديهِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء:٢٢].

فالتَّوحيدُ قَرينُ الاجتِماعِ والائتِلافِ، والشِّركُ قَرينُ التَّفَرُّقِ والاختِلافِ، قالَ سُبحانَهُ: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ

وَهؤُلَاءِ الرُّسُلُ عَلَىٰ عُلُوِّ مَنزِلَتِهِم وَشَرَفِ مَرتَبَتِهِم إِلَّا أَنَّ بَعضَهُم أَفضَلُ مِن بَعضٍ:

٦٤٩ - **قَالَ تَعَالَىٰ** ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة:٢٥٣]

٦٥٠ - **وَقَالَ تَعَالَىٰ** ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة الإسراء:٥٥]

وَلَكِن لَا تَجوزُ المُفَاضَلَةُ بِمَا يَقتَضِي انتِقَاصَ المَفضُولِ وَنَهيُ النَّبِيِّ -ﷺ- عَنِ المُفَاضَلَةِ بَينَ الأَنبِيَاءِ إِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّفضِيلِ الَّذِي يَتَضَمَّنُ انتِقَاصَ المَفضُولِ.

وَإِنَّمَا الوَاجِبُ فِي حِينِ المُفَاضَلَةِ بَينَ الأَنبِيَاءِ أَن تُحفَظَ مَكَانَةُ المَفضُولِ.

فَالوَاحِدُ مِنَ الرُّسُلِ وَالأَنبِيَاءِ أَفضَلُ مِن جَمِيعِ الأَولِيَاءِ مَهمَا عَلَت رُتبَتُهُ، وَهَذَا إِجمَاعٌ لَا شَكَّ فِيهِ.

وَالرُّسُلُ أَفضَلُ مِنَ الأَنبِيَاءِ الَّذِينَ لَيسُوا رُسُلًا.

وَأَفضَلُ الرُّسُلِ أُولِي العَزمِ.

٦٥١ - **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [سورة الأحقاف:٣٥]

وَأُولُوا العَزمِ هُم نُوحٌ وَابرَاهِيمُ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمُحَمَّدٌ عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [سورة المؤمنون:٥٢]، وقالَ فِي أهلِ الشِّركِ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ [سورة الروم:٣٢].

الفائدةُ الثّانيةُ — مَن كَذَّبَ رَسولًا واحِدًا فقد كَذَّبَ الرُّسُلَ جَميعًا:

لأنَّ أصلَ دَعوتِهِم واحِدٌ؛ فمَن آمَنَ برَسولٍ لَزِمَهُ الإيمانُ بسائِرِهِم، ومَن جَحَدَ واحِدًا فقد جَحَدَ الكُلَّ، **قالَ تَعالَىٰ عَن قَومِ نوحٍ:** ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الشعراء:١٠٥]، فجَعَلَ تكذيبَهُم نوحًا وحدَهُ تكذيبًا لِلمُرسَلينَ كافَّةً، وقالَ فِي الَّذينَ يُفرِّقونَ: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [سورة النساء:١٥٠-١٥١]، وأخبَرَ عَن عِبادِهِ المُؤمِنينَ أنَّهُم يَقولونَ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [سورة البقرة:٢٨٥].

وَأَفضَلُهُم إِبرَاهِيمُ وَمُحَمَّدٌ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ-

وَفُضِّلَ نُوحٌ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بِأَنَّهُ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَىٰ أَهلِ الأَرضِ

وَفُضِّلَ إِبرَاهِيمُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بِأَنَّهُ النَّبِيُّ الإِمَامُ لِكُلِّ مَن بَعدَهُ وَهُوَ خَلِيلُ الرَّحمَنِ وَجعَلَ النُّبُوَّةَ فِي ذُرِّيَّتِهِ

وَفُضِّلَ مُوسَىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بِتكلِيمِ اللهِ إِيَّاهُ

وَفُضِّلَ عِيسَىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلقَاهَا إِلَىٰ مَريَمَ وَالكَلَامُ فِي المَهدِ وَرَفعُهُ لِلسَّمَاءِ وَنُزُولُهُ آخِرَ الزَّمَانِ

وَفُضِّلَ مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِأَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَأُرسِلَ لِلنَّاسِ عَامَّةً وَصَاحِبُ المَقَامِ المَحمُودِ وَرُؤيَةُ اللهِ تَعَالَىٰ وَقَسَمُ اللهِ بِهِ وَصَلَاةُ اللهِ وَمَلَائِكَتِهِ عَلَيهِ اختِصَاصُهُ بِالقُرآنِ.

وَيَجِبُ أَن يُصَدِّقَ المُسلِمُ بِالأَخبَارِ الثَّابِتَةِ الوَارِدَةِ فِي فَضلِهِم وَشَمَائِلِهِم جَمِيعًا وَمَن رَدَّهُ مَا ثَبتَ مِنهَا فَقَد كَفَرَ:

٦٥٢ - **قَالَ الخلال فِي «السنة» (١/ ٢٥٥):** حَدَّثَنَا أَبُو بَكرٍ، قَالَ: جَاءَنِي كِتَابُ عَلِيِّ بنِ سَهلٍ بِخَطِّهِ، وَفِيهِ حَدَّثَنَا هَارُونُ بنُ مَعرُوفٍ، وَخَلَّادُ بنُ أَسلَمَ، قَالَا: ثنَا مُحَمَّدُ بنُ فُضَيلٍ، عَن لَيثٍ، عَن مُجَاهِدٍ، فِي قَولِهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [سورة الإسراء:٧٩] قَالَ: «يُجلِسُهُ عَلَىٰ العَرشِ»، وَهَذِهِ فَضِيلَةٌ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- **فَمَن رَدَّ فَضِيلَةَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَهُوَ كَافِرٌ.**

٦٥٣ - **وَلَقَد قَالَ سَعِيدُ بنُ عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ أَبزَىٰ: قُلتُ لِأَبِي:** لَو رَأَيتُ رَجُلًا يَسُبُّ أَبَا بَكرٍ مَا كُنتَ صَانِعًا بِهِ؟ قَالَ: أَقتُلُهُ، قُلتُ: فَعُمَرَ، قَالَ: أَقتُلُهُ، فَهِيَ لِأَبِي بَكرٍ وَعُمَرَ، **فَكَيفَ بِمَن رَدَّ فَضَائِلَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-**

وَالرُّسُلُ جَمِيعًا - عليهم السلام - جَاءُوا بِدِينٍ وَاحِدٍ وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ، وَالِاخْتِلَافُ إِنَّمَا كَانَ فِي الشَّرَائِعِ:

٦٥٤ - **قَالَ تَعَالَى:** ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء:١٦٥]

٦٥٥ - **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [سورة النحل:٣٦]

٦٥٦ - **وَقَالَ تَعَالَى** ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [سورة المائدة:٤٨]

٦٥٧ - **رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ:** ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [سورة المائدة:٤٨] يَقُولُ: سَبِيلًا وَسُنَّةً، وَالسُّنَنُ مُختَلِفَةٌ، هِيَ فِي التَّورَاةِ شَرِيعَةٌ، وَالإِنجِيلِ شَرِيعَةٌ، وَالفُرقَانِ شَرِيعَةٌ، يُحِلُّ اللهُ فِيهَا مَا يَشَاءُ، وَيُحَرِّمُ مَا يَشَاءُ، لِيَعلَمَ مَن يُطِيعُهُ (مِمَّن يَعصِيهِ)، وَالدِّينُ الَّذِي لَا يَقبَلُ غَيرَهُ التَّوحِيدُ وَالإِخلَاصُ الَّذِي جَاءَت بِهِ الرُّسُلُ.

وَالأَنبِيَاءُ مُتَّفِقُونَ فِي أَربَعَةِ أُمُورٍ:

- أُصُولِ العَقَائِدِ.
- أُصُولِ العِبَادَاتِ.
- وَأُصُولِ الأَخلَاقِ.
- الحِفَاظِ عَلَى الضَّرُورِيَّاتِ.

هَذَا قَدرٌ مُشتَرَكٌ بَينَ الأَنبِيَاءِ عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمُختَلِفُونَ فِي تَفَاصِيلِ الشَّرَائِعِ.

وَوَظِيفَةُ الرُّسُلِ مَدَارُهَا عَلَى ثَلَاثِ أُمُورٍ:

خُلَاصَتُهَا هِيَ إِخرَاجُ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ، كَمَا قَالَ سُبحَانَهُ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [سورة إبراهيم: ١]

٦٥٨ - وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ [سورة إبراهيم: ٥]

أَوَّلًا: تَذكِيرُ الخَلقِ بِرَبِّهِم وَمَا لَهُ مِن حَقِّ العُبُودِيَّةِ عَلَيهِم وَمَا يَستَحِقُّهُ مِن صِفَاتِ الكَمَالِ وَنُعُوتِ الجَلَالِ، فَيُعَرِّفُونَ العِبَادَ بِرَبِّهِم وَإِلَهِهِم، وَمَا لَهُ مِن أَسمَاءَ وَصِفَاتٍ وَنُعُوتِ جَلَالٍ وَجَمَالٍ وَكَمَالٍ، فَالرُّسُلُ عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُعَرِّفُونَ النَّاسَ بِرَبِّهِم وَمَعبُودِهِم، وَيُحَبِّبُونَ رَبَّهُم إِلَيهِم، وَيَحُثُّونَهُم عَلَىٰ مَعرِفَتِهِ وَإِجلَالِهِ وَتَعظِيمِهِ وَالقِيَامِ بِمَا هُوَ حَقُّهُ عَلَيهِم.

ثَانِيًا: تَعرِيفُ العِبَادِ بِالطَّرِيقِ المُوصِلِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، كَيفَ يَعبُدُونَ رَبَّهُم فَيَرضَىٰ عَنهُم وَمَا هِيَ الأُمُورُ الَّتِي يُبغِضُهَا -سُبحَانَهُ وَتَعَالَى- حَتَّىٰ يَجتَنِبُونَهَا فَيَرضَىٰ عَنهُم -سُبحَانَهُ وَتَعَالَى-، فَيُعَرِّفُونَ العِبَادَ بِالطَّرِيقِ المُوصِلَةِ إِلَىٰ مَحَبَّةِ اللهِ وَرَحمَتِهِ وَرِضوَانِهِ؛ وَالَّتِي هِيَ العِبَادَةُ، فَيُعَلِّمُونَهُم مَا يُحِبُّهُ اللهُ، وَيُعَلِّمُونَهُم كَذَلِكَ ما يُبغِضُهُ؛ لِكَي يَجتَهِدَ أَهلُ الإِيمَانِ فِي القِيَامِ بِمَا يُحِبُّهُ اللهُ مما أمر به، وَيَنتَهُونَ عَمَّا نَهَاهُم عَنهُ؛ هَذَا شَيءٌ لَا سَبِيلَ إِلَىٰ العِلمِ بِهِ إِلَّا مِن طَرِيقِ الأَنبِيَاءِ عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَالنَّاسُ ضَالُّونَ تَائِهُونَ لَا سَبِيلَ لَهُم إِلَىٰ الوُصُولِ إِلَىٰ مَعرِفَةِ الحَقِّ إِلَّا مِن طَرِيقِ الأَنبِيَاءِ عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ثَالِثًا: تَعرِيفُهُم بِالجَزَاءِ مَا جَزَاءُ مَنِ استَجَابَ وَمَا جَزَاءُ مَن أَعرَضَ، فَيُعَرِّفُونَ العِبَادَ بِجَزَائِهِم إِن أَطَاعُوا وَإِن عَصَوا؛ إِن أَطَاعُوا فَمَا الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ ذَلِكَ؟

يَترَتَّبُ عَلَيهِ رَحمَةُ اللهِ سُبحَانَهُ لَهُم وَرِضوَانُهُ عَنهُم وَالإِنعَامُ عَلَيهِم بِالنَّعِيمِ المُقِيمِ، وَالضِّدُّ بِالضِّدِّ.

فَالرُّسُلُ أُرسِلُوا لِحِكَمٍ عَظِيمَةٍ، مِنهَا:

- تَبلِيغُ النَّاسِ مُرَادَ اللهِ.
- الدَّعوَةُ إِلَىٰ تَوحِيدِ اللهِ وَالكُفرِ بِالطَّاغُوتِ.
- التَّبشِيرُ وَالإِنذَارُ.
- إِقَامَةُ الحُجَّةِ وَقَطعُ العُذرِ.
- هِدَايَةُ النَّاسِ إِلَىٰ مَصَالِحِ دِينِهِم وَدُنيَاهُم.
- الصَّبرُ عَلَىٰ أَذَىٰ المُبطِلِينَ وَمُوَاجَهَةُ البَاطِلِ.

وَيَجِبُ أَن نَعتَقِدَ أَنَّ أَهلَ الكِتَابِ لَا يُعَدُّونَ مُؤمِنِينَ إِلَّا بِإِيمَانِهِم بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ -ﷺ- وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِن دِينِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

٦٥٩ - **رُوِيَ فِي «صحيح مسلم» (١/ ٩٣ ط التركية):** عَن أَبِي هُرَيرَةَ عَن رَسُولِ اللهِ -ﷺ- أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسمَعُ بِي أَحَدٌ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَم يُؤمِن بِالَّذِي أُرسِلتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِن أَصحَابِ النَّارِ**».

وَيَجِبُ أَن نَعتَقِدَ أَنَّ عِيسَىٰ عَلَيهِ السَّلَامُ كَانَ بِكَلِمَةِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- الَّتِي أَلقَاهَا إِلَىٰ مَريَمَ: كُن فَكَانَ.

٦٦٠ - **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ﴾ [سورة النساء:١٧١].

٦٦١- رُوِيَ عَن أحمد بن سنان الواسطي، قَالَ: سمعت شاذ بن يَحيَىٰ يقول فِي قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [سورة النساء:١٧١]، قَالَ: ليس الكلمة صارت عِيسَىٰ، وَلَكِن بالكلمة صار عيسىٰ.(١)

وَالنَّاسُ فِي شَأنِ الرُّسُلِ عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُنقَسِمُونَ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقسَامٍ:

القِسمُ الأَوَّلُ: مَن كَفَرَ بِهِم؛ وَهَؤُلَاءِ مِنهُم مَن كَفَرَ بِهِم جَمِيعًا وَمِنهُم مَن كَفَرَ بِبَعضِهِم.

وَالقِسمُ الثَّانِي: مَن غَلَا فِيهِم؛ فَأَعطَاهُم صِفَاتِ الإِلَهِيَّةِ أَو رُبَّمَا صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَذَلِكَ كَحَالِ النَّصَارَىٰ الَّذِينَ غَلَوا فِي عِيسَىٰ -عليه السلام-، أَوِ القُبُورِيُّونَ الَّذِينَ غَلَوا فِي شَأنِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ حَتَّىٰ جَعَلَهُمَا هَؤُلَاءِ إِلَهًا وَرَبًّا مَعَ اللهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا هُوَ الضَّلَالُ المُبِينُ، وَأَنتَ إِذَا تَأَمَّلتَ وَجَدتَ أَنَّ هَذَا الغُلُوَّ وَرَفعَ النَّبِيِّ عَن مَنزِلَتِهِ إِلَىٰ مَنزِلَةِ الإِلَهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ هُوَ فِي الحَقِيقَةِ مِن عَدَمِ الإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ وَأَنَّ هَؤُلَاءِ مُلحَقُونَ بِالَّذِينَ قَبلَهُم.

وَجهُ ذَلِكَ: أَنَّ الَّذِي أُمِرنَا بِهِ مَعشَرَ المُسلِمِينَ هُوَ أَن نُؤمِنَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

وَمَن مُحَمَّدٌ -عليه الصلاة والسلام-؟

هُوَ الَّذِي قَالَ عَن نَفسِهِ فِيمَا أَخبَرَنَا اللهُ بِهِ وَمَا أَمَرَهُ سُبحَانَهُ أَن يَقُولَهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ﴾ [سورة الكهف:١١٠].

فَهَذَا الَّذِي آمَنَ بِمُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم- الَّذِي لَهُ حَقٌّ فِي الأُلُوهِيَّةِ!

وَالَّذِي يَعلَمُ مَا يَعلَمُهُ اللهُ!

وَيَقدِرُ عَلَىٰ مَا يَقدِرُ عَلَيهِ اللهُ!

---

(١) أَخرَجَهُ ابن أَبِي حاتم ٤/ ١١٢٣.

وَالَّذِي يَفعَلُ مَا يَفعَلُهُ اللهُ!

إِلَىٰ آخِرِ هَذَا الغُلُوِّ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ أُولَئِكَ؛ حَقِيقَةُ هَذَا هُوَ أَنَّهُ مَا أَمَنُوا بِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- إِنَّمَا آمَنُوا بِخَيَالٍ فِي أَذهَانِهِم؛ زَعَمُوا أَنَّهُ مُحَمَّدٌ!

حَقِيقَةُ مَقَالَةِ هَؤُلَاءِ الغُلَاةِ هُوَ أَنَّهُم مَا آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- هُم آمَنُوا بِشَيءٍ آخَرَ، أَمَّا مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ القُرَشِيُّ الهَاشِمِيُّ الَّذِي هُوَ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِي هُوَ نَبِيُّ اللهِ الَّذِي هُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ فَهَذَا لَم يُؤمِنُوا بِهِ حَقِيقَةً، بَل بِخَيَالٍ قَامَ فِي خَيَالِهِم وَإِن زَعَمُوا الإِيمَانَ بِهِ، حَقِيقَةُ حَالِهِم أَنَّهُم آمَنُوا بشي فِي أَذهَانِهِم، وَالشَّيءُ الَّذِي أَوجَبَهُ اللهُ عَلَيهِم مَا قَامُوا بِهِ.

وَقُل مِثلَ هَذَا فِي حَقِّ النَّصَارَىٰ فِيمَا زَعَمُوا فِي عِيسَىٰ -عليه السلام-؛ هُم آمَنُوا بِعِيسَىٰ لَيسَ النَّبِيَّ وَالرَّسُولَ، وَإِنَّمَا آمَنُوا بِشَيءٍ تَوَهَّمُوهُ فِي أَذهَانِهِم وَسَوَّلَت لَهُمُ الشَّيَاطِينُ إِيَّاهُ، وَهُوَ عِيسَىٰ ابنُ اللهِ الَّذِي هُوَ وَاحِدٌ مِن ثَلَاثَةٍ، تَعَالَىٰ اللهُ عَمَّا يَقُولُ المُشرِكُونَ الظَّالِمُونَ

القِسمُ الثَّالِثُ: أُنَاسٌ آمَنُوا بِهِم عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، عَلَىٰ الصِّفَةِ الحَقِيقَةِ السَّلِيمَةِ، وَهَؤُلَاءِ هُم أَهلُ التَّوفِيقِ وَالسَّعَادَةِ وَهَؤُلَاءِ هُمُ المُؤمِنُونَ حَقًّا.[1]

---

(١) وَمِن نَوَاقِضِ الجَهمِيَّةِ وَأَتبَاعِهِم وَمُخَانِيثِهِم فِي بَابِ النُّبُوَّةِ:

- أَنكَرُوا الرُّؤيَةَ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ -ﷺ-.
- وَأَنكَرُوا الخُلَّةَ لِإِبرَاهِيمَ.
- وَأَنكَرُوا فَضِيلَةَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ.
- وَأَنكَرُوا أَنَّ اللهَ كَلَّمَ مُوسَىٰ بِصَوتِهِ.

فَالإِيمَانُ بِالنُّبُوَّاتِ وَالرُّسُلِ رُكنٌ عَظِيمٌ مِن أَركَانِ الإِيمَانِ، وَيَتَضَمَّنُ:

الإِيمَانَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ

وَاعتِقَادَ أَنَّ دَعوَتَهُم وَاحِدَةٌ فِي أَصلِهَا

وَأَنَّ اللهَ اصطَفَاهُم وَأَيَّدَهُم

- وَنَسَبُوا الرُّسُلَ لِلشَّكِّ فِي اللهِ وَالكُفرِ بِهِ.
- وَقَالُوا بِأَنَّ الأَنبِيَاءَ تُسلَبُ مِنهُمُ النُّبُوَّةُ بَعدَ مَوتِهِم.
- وَاستِهزَاؤُهم بِالأَنبِيَاءِ فِي كَثِيرٍ مِنَ المَوَاضِعِ.
- وَقَولُهُم إِنَّ بَعضَ الأَنبِيَاءِ مُشَبِّهَةٌ.
- وَأَنكَرُوا كَلَامَ اللهِ تَعَالَىٰ الَّذِي هُوَ أَصلُ وَحيِهِ لِرُسُلِهِ، وَهَذَا حَقِيقَةُ تَعطِيلِ جَمِيعِ الرِّسَالَاتِ.
- رَدُّهُم لِلأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ.
- تَقدِيمُهُم لِلعَقلِ عَلَىٰ النَّقلِ، وَعَرضُ الأَحَادِيثِ وَالأَخبَارِ عَلَىٰ فَلسَفَاتِهِمُ الأَرِسطِيَّةِ.
- وَأَنكَرُوا فَضِيلَةَ مُوسَىٰ بِقُربِهِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، كَمَا فِي قَولِهِ: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾ [سورة مريم:٥٢].
- وَأَنكَرُوا فَضِيلَةَ دَاوُدَ عَلَيهِ السَّلَامُ فِي القُربِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ وَالمَسِيسِ لَهُ سُبحَانَهُ، كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾ [سورة ص:٤٠].
- وَأَنكَرُوا فَضِيلَةَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ الإِجلَاس عَلَىٰ العَرشِ مَعَ رَبِّهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يومَ القِيَامَةِ.
- وَأَنكَرُوا شَفَاعَةَ النَّبِيِّ -ﷺ-.
- وَأَنكَرُوا الحَوضَ لِلأَنبِيَاءِ.
- وَأَنكَرُوا الكَوثَرَ.
- وَقَالُوا بِأَنَّ الأَنبِيَاءَ أَقَرُّوا أَصحَابَهُم عَلَىٰ التَّشبِيهِ وَالتَّجسِيمِ، وَأَنَّ أَصحَابَ النَّبِيِّ -ﷺ- مُجَسِّمَةٌ مُشَبِّهَةٌ، وَالطَّعنُ فِي الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنهُم هُوَ طَعنٌ فِي النَّبِيِّ -ﷺ-، كَمَا قَرَّرَ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ كَالإِمَامِ مَالِكٍ وَغَيرِهِ.
- إِنكَارُ كَرَامَاتِ الأَولِيَاءِ.
- إِنكَارُ الإِسرَاءِ وَالمِعرَاجِ.

وَأَنَّ مُحَمَّدًا -ﷺ- خَاتَمُهُم وَأَفضَلُهُم

وختمُ النُّبُوَّةِ أصلٌ مَعلومٌ مِنَ الدِّينِ بالضَّرورَةِ، أجمَعَت عَلَيهِ الأمَّةُ، فمَن جحدَهُ أَو ادَّعىٰ نُبُوَّةً بعدَ نبيِّنا -ﷺ- فهُوَ كافِرٌ بإجماعِ المسلِمينَ؛ وَقَد ابتُلِيَتِ الأمَّةُ فِي هَذَا الأصلِ بطوائفَ تَلتَفُّ عَلَيهِ التِفافًا، لَا تُصادِمُهُ تصريحًا لِظُهورِهِ، بَل تَتَسَلَّلُ إِلَيهِ بالتَّأويلِ:

فمِنهم مَن ادَّعىٰ نُبُوَّةً صريحَةً جديدَةً، كالقادِيانيَّةِ أتباعِ ميرزا غُلامَ، والبَهائيَّةِ أتباعِ البَهاءِ؛ وعِلَّتُهُمُ الجامِعَةُ أَنَّهُم ظنُّوا الإسلامَ قاصِرًا عَن مُجاراةِ مَا استَحدَثَهُ النَّاسُ مِن قِيَمٍ، فالتَمَسوا وحيًا جديدًا يُسَوِّغُ لهمُ الانحِرافَ؛ وَهَذَا مَردودٌ بأَنَّ اللهَ أكمَلَ الدِّينَ، فَلَا يَفتَقِرُ إِلَىٰ مَزيدٍ، ومَن زعَمَ افتِقارَهُ فَقَد كذَّبَ قولَهُ تعَالَىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [سورة المائدة:٣].

ومِنهم مَن لَم يُصَرِّح بدَعوىٰ النُّبُوَّةِ، بَل قالَ: «نحتاجُ قراءةً جديدَةً للنَّصِّ»؛ وَهَذِهِ حِيلَةٌ دبلوماسيَّةٌ عَلَىٰ إبطالِ خَتمِ النُّبُوَّةِ، إِذ يُرادُ بِهَا فِي الحقيقَةِ شَرعٌ جديدٌ يُنازِعُ شَرعَ المعصومِ، لَكِن فِي ثوبِ التَّأويلِ لَا فِي ثوبِ الوَحيِ.

ومِنهم مَن جعَلَ لأئمَّتِهِ حقَّ التَّشريعِ المُطلَقِ والنَّسخِ، كغُلاةِ الإماميَّةِ الَّذِينَ زعَموا أَنَّ إمامَهُم الغائِبَ سيأتي بأمرٍ جديدٍ؛ وحقيقَةُ هَذَا القولِ أَنَّ النَّبيَّ -ﷺ- لَم يُكمِلِ الدِّينَ، فَهُوَ فِي مآلِهِ التِفافٌ عَلَىٰ خَتمِ النُّبُوَّةِ كصَنيعِ مَن قبلَهُ.

فعُلِمَ أَنَّ هَذِهِ الطَّوائِفَ -عَلَىٰ تبايُنِها- تَلتَقي عندَ أصلٍ واحِدٍ: الطَّعنِ فِي كمالِ الدِّينِ وخَتمِ الرِّسالَةِ.

قال المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ - :

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيهَا رَسُولًا - مِن نُوحٍ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ - يَأمُرُهُم بِعِبَادَةِ اللهِ وَحدَهُ، وَينهَاهُم عَن عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قولُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [سورة النحل:٣٦].

وَافتَرَضَ اللهُ عَلَىٰ جَمِيعِ العِبَادِ: الكُفرَ بِالطَّاغُوتِ، وَالإِيمَانَ بِاللهِ.

قَالَ ابنُ القَيِّمِ: «مَعنَىٰ الطَّاغُوتِ: مَا تَجَاوَزَ بِهِ العَبدُ حَدَّهُ - مِن مَعبُودٍ، أَو مَتبُوعٍ، أَو مُطَاعٍ -».

وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرَةٌ، وَرُؤُوسُهُم خَمسَةٌ: إِبلِيسُ - لَعَنَهُ اللهُ -، وَمَن عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَن دَعَا النَّاسَ إِلَىٰ عِبَادَةِ نَفسِهِ، وَمَنِ ادَّعَىٰ شَيئًا مِن عِلمِ الغَيبِ، وَمَن حَكَمَ بِغَيرِ مَا أَنزَلَ اللهُ.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة:٢٥٦]، وَهَذَا مَعنَىٰ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَفِي الحَدِيثِ: «رَأسُ الأَمرِ: الإِسلَامُ، وَعَمُودُهُ: الصَّلَاةُ، وَذِروَةُ سَنَامِهِ: الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ».

كُن عَلَىٰ يَقِينٍ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ إِسلَامُ أَحَدٍ إِلَّا بِتَحقِيقِ هَذَينِ الرُّكنَينِ، وَلَابُدَّ مِن تَحقِيقِ الأَمرَينِ: النَّفيِ وَالإِثبَاتِ؛ فَإِنَّ التَّوحِيدَ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِهِمَا.

فَيَجِبُ عَلَيكَ أَن تَعتَقِدَ أَنَّ العِبَادَةَ حَقٌّ لِلَّهِ، وَأَن تُؤَدِّيَهَا لَهُ وَحدَهُ، وَأَن تَعتَقِدَ أَنَّ صَرفَهَا لِغَيرِهِ شِركٌ وَضَلَالٌ، هَذَا هُوَ الإِفرَادُ، وَهُوَ الجَمعُ بَينَ النَّفيِ وَالإِثبَاتِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة:٢٥٦].

وَ(مَن) أَدَاةُ شَرطٍ، وَجَوَابُ الشَّرطِ: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾.

فَالمَعنَىٰ: أَنَّهُ لَا يَصِحُّ إِسلَامُ أَحَدٍ إِلَّا بِتَحقِيقِ الكُفرِ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانِ بِاللهِ، فَإِذَا اختَلَّ الشَّرطُ انتَقَضَتِ العِبَادَةُ، كَالطَّهَارَةِ وَاستِقبَالِ القِبلَةِ وَغَيرِهِمَا مِن شُرُوطِ صِحَّةِ الصَّلَاةِ، فَإِن نَقَصَ أَحَدُهَا أَوِ اختَلَّ بَطَلَتِ الصَّلَاةُ.

٦٦٢ - **وَرَوَىٰ مُسلِمٌ فِي صَحِيحِهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - يَقُولُ:** «مَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ».

فَلَا يَكُونُ التَّلَفُّظُ بِهَا عَاصِمًا لِلدَّمِ وَالمَالِ إِلَّا بِتَحقِيقِ الكُفرِ بِمَا يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ، فَمَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَم يَكفُر بِالأَديَانِ الأُخرَىٰ، وَلَم يُكَفِّر عَابِدِيهَا، لَا يَصِحُّ إِسلَامُهُ، وَلَا تَنفَعُهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وَمَعنَىٰ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ: لَا مَعبُودَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ، فَاللهُ هُوَ المَعبُودُ بِحَقٍّ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ بَاطِلٌ، وَهَذَا يَقتَضِي بُطلَانَ آلِهَةِ المُشرِكِينَ الَّتِي يَعبُدُونَهَا مِن دُونِ اللهِ، وَالبَرَاءَةَ مِنهَا، وَتَكفِيرَ مَن عَبَدَهَا.

وَقَدِ انحَرَفَ فِي تَفسِيرِ مَعنَىٰ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ جَمَاعَاتٌ وَفِرَقٌ، وَتَرَتَّبَ عَلَىٰ هَذَا الخَطَأِ

فِي الفَهمِ انحِرَافَاتٌ عَظِيمَةٌ فِي الِاعتِقَادِ، بَلِ الوُقُوعُ فِيمَا يُنَاقِضُ مَعنَاهَا.

فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَن يُرَدِّدُهَا بِلِسَانِهِ، وَلَكِنَّهُ يَقَعُ فِيمَا مَنَعَتهُ مِنَ الشِّركِ بِأَعمَالِهِ، وَيُنكِرُ مَا دَلَّت عَلَيهِ مِنَ الإِخلَاصِ بِقَلبِهِ، فَأَثبَتَ مَا نَفَتهُ، وَاعتَقَدَ خِلَافَ مَا قَامَت عَلَيهِ.

وَإِذَا أَرَدتَ مِصدَاقَ ذَلِكَ فَدُونَكَ تِلكَ المَقَامَاتُ الشَّاهِقَةُ، وَالقُبُورُ المُزَخرَفَةُ، وَانظُر إِلَىٰ العَاكِفِينَ عَلَيهَا، وَالسَّاجِدِينَ لَهَا، وَالطَّائِفِينَ، وَالمُتَمَسِّحِينَ بِهَا، وَاستَمِع إِلَىٰ تِلكَ الهُتَافَاتِ، وَالِاستِغَاثَاتِ، وَالدَّعَوَاتِ لِأَصحَابِهَا.

وَمِن أَعظَمِ أَسبَابِ هَذِهِ المُنكَرَاتِ العَظِيمَةِ الخَطَأُ فِي فَهمِهَا وَتَفسِيرِ مَعنَاهَا، وَلَو أَنَّهُم فَهِمُوهَا حَقًّا، وَاعتَقَدُوا مَدلُولَهَا صِدقًا، لَمَا وَقَعُوا فِي كَثِيرٍ مِن تِلكَ الأَعمَالِ الضَّالَّةِ.

مَتَىٰ تَنفَعُ الكَلِمَةُ صَاحِبَهَا؟

لَا تَنفَعُ هَذِهِ الكَلِمَةُ العَظِيمَةُ صَاحِبَهَا إِلَّا إِذَا قَالَهَا بِلِسَانِهِ، وَالتَزَمَ بِمَا دَلَّت عَلَيهِ مِن عِبَادَةِ اللهِ وَحدَهُ، وَطَاعَتِهِ، وَالإِذعَانِ لِأَمرِهِ، وَالِانقِيَادِ لِشَرعِهِ، وَالتَّسلِيمِ لِرَسُولِهِ، وَالكُفرِ بِعِبَادَةِ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَتَركِ جَمِيعِ العِبَادَاتِ المُبتَدَعَةِ، وَعَدَمِ صَرفِ شَيءٍ مِنَ العِبَادَاتِ لِغَيرِ اللهِ، وَالبَرَاءَةِ مِنَ المُشرِكِينَ وَالكُفَّارِ وَمَعبُودَاتِهِم وَكُفرِهِم.

وَذَلِكَ يَتَحَقَّقُ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: العَمَلُ بِأَركَانِهَا: الإِيمَانُ بِاللهِ، وَالكُفرُ بِالطَّاغُوتِ، وَتَركُ الشِّركِ قَصدًا.

الثَّانِي: الإِتيَانُ بِشُرُوطِهَا السَّبعَةِ.

الثَّالِثُ: عَدَمُ الإِخلَالِ بِهَا، وَلَا الإِتيَانُ بِنَاقِضٍ مِن نَوَاقِضِهَا.

تَفسِيرُ الفِرَقِ الضَّالَّةِ لِلتَّوحِيدِ

بَينَمَا الفِرَقُ الضَّالَّةُ وَالمُنحَرِفَةُ فَسَّرَتِ التَّوحِيدَ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) بِمَا تَعتَقِدُ مِنَ البَاطِلِ:

فَـ الِاتِّحَادِيَّةُ وَالحُلُولِيَّةُ يَجعَلُونَ التَّوحِيدَ أَن يَكُونَ اللهُ عَينَ كُلِّ مَوجُودٍ.

وَالجَهمِيَّةُ بِفِرَقِهَا الأَشعَرِيَّةِ وَالمَاتُرِيدِيَّةِ المُعَطِّلَةُ يَجعَلُونَهُ فِي إِنكَارِ صِفَاتِ اللهِ، وَتَحرِيفُهَا؛ لِأَنَّ مَن أَثبَتَ الصِّفَاتِ عِندَهُم يَكُونُ مُشرِكًا، وَمَعنَاهَا عِندَهُم: لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ، أَو لَا قَادِرَ عَلَىٰ الِاختِرَاعِ إِلَّا اللهُ.

وَالتَّوحِيدُ عِندَ الصُّوفِيَّةِ وَأَهلِ الكَلَامِ: الِاعتِقَادُ أَنَّ اللهَ هُوَ الخَالِقُ فَقَط، أَو لَا قَادِرَ عَلَىٰ الِاختِرَاعِ إِلَّا اللهُ، وَالشِّركُ عِندَهُم يَكُونُ بِاعتِقَادِ أَن يَكُونَ لِلمَخلُوقِ تَأثِيرٌ وَاستِطَاعَةٌ.

وَالقَدَرِيَّةُ يَجعَلُونَهُ فِي إِنكَارِ قَدَرِ اللهِ وَخَلقِهِ لِأَفعَالِ العِبَادِ.

وَالجَبرِيَّةُ يَجعَلُونَهُ فِي إِنكَارِ تَأثِيرِ الأَسبَابِ وَفِعلِ العَبدِ.

وَالقُبُورِيَّةُ وَالرَّافِضَةُ يَجعَلُونَهُ مُجَرَّدَ الِاعتِقَادِ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الخَالِقُ.(١)

---

(١) أوجُهُ الالتِقاءِ والتَشابهِ بينَ الرّافِضَةِ والصُّوفِيَّةِ:

نِحلَتانِ دَخيلَتانِ نَبَتَتا مِن أصلٍ باطِنيٍّ واحِدٍ، تُناقِضانِ تَوحيدَ المُرسَلينَ وطَريقَةَ السَّلَفِ الأوَّلينَ:

١. حَصرُ الهِدايَةِ وفَهمِ الدِّينِ فِي أشخاصٍ مَعصومينَ مَزعومينَ:

وبَيانُ ذَلِكَ: أنَّهُما التَقتا عَلَىٰ حَجرِ الشَّريعَةِ وعَزلِ الأُمَّةِ عَن كِتابِها وسُنَّةِ نَبِيِّها؛ فالرّافِضَةُ يَزعُمونَ ألّا هِدايَةَ إلّا عبرَ الأئِمَّةِ الاثني عَشَرَ، والصُّوفِيَّةِ كَذَلِكَ يُعَلِّقونَ السُّلوكَ والذِّكرَ والعقائدَ بالشَّيخِ المُرَبّي؛ فأقاما واسِطَةً مُحدَثَةً بينَ العَبدِ ورَبِّهِ، ونَقَضا أصلَ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة:٥].

٢. مُنازَعَةُ التَّشريعِ بدَعوىٰ العِصمَةِ ووُجوبِ التَّسليمِ المُطلَقِ:

وبيانُ ذَلِكَ: أنَّهما أسقطا مُحاكَمَةَ الأقوالِ إِلَىٰ النَّصِّ بخَلعِ خَصائِصِ النُّبُوَّةِ عَلَىٰ رُؤوسِهِم؛ فالرّافِضَةُ يَدَّعونَ العِصمَةَ صَراحَةً لِأئِمَّتِهِم، والصوفيةُ يوجِبونَ الانقِيادَ الْأَعمَىٰ المطلَقَ لِلشَّيخِ ويُحَرِّمونَ الاعتِراضَ عَلَيهِ؛ فجَعَلوا أقوالَ أئمتهم تَشريعًا مُوازِيًا.

٣. اتِّخاذُ المَعابِدِ البِدعِيَّةِ المُوازِيَةِ لِبُيوتِ اللهِ:

وبيانُ ذَلِكَ: أنَّهما شَقّا عَصا جَماعَةِ المُسلِمينَ بإحداثِ مَحاضِنَ لَم يَعهدها السَّلَفُ؛ فأسَّسَ الرّافِضَةُ «الحُسَينِيّاتِ»، وأسَّسَتِ الصُّوفِيَّةُ «الزَّوايا والتَّكايا»، ليَعزِلوا الأتباعَ عَنِ المَساجِدِ الَّتِي قالَ اللهُ فِيهَا: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [سورة النور:٣٦].

٤. الغُلُوُّ فِي الأضرِحَةِ وإحياءُ مَواسِمِ الشِّركِ عِندَها:

وبيانُ ذَلِكَ: أنَّهما وَجهانِ لِعُملَةٍ واحِدَةٍ فِي هَدمِ تَوحيدِ العِبادَةِ؛ يَبنونَ المَشاهِدَ عَلَىٰ القُبورِ، ويُقيمونَ عِندَها المَوالِدَ والمَآتِمَ والاحتِفالاتِ السَّنَوِيَّةَ، فيُحَوِّلونَها أعيادًا بِدعِيَّةً تُمارَسُ فِيهَا طُقوسُ الشِّركِ؛ تَشَبُّهًا بأهلِ الكِتابِ الَّذينَ اتَّخَذوا قُبورَ أنبيائِهِم مَساجِدَ، وقَد لَعَنَهُم الله ورسوله -ﷺ- عَلَىٰ ذَلِكَ.

٥. شَدُّ الرِّحالِ إِلَىٰ القُبورِ والطَّوافُ بِهَا والاستِغاثَةُ بالأمواتِ:

وبيانُ ذَلِكَ: أنَّهما ارتكَبا عَينَ الشِّركِ الأكبَرِ الَّذي بُعِثَتِ الرُّسُلُ لِهَدمِهِ؛ فالرّافِضَةُ يَشُدّونَ الرِّحالَ إِلَىٰ المَشاهِدِ ويَطوفونَ بقُبورِ أئِمَّتِهِم، وكَذا غُلاةُ الصُّوفِيَّةِ بأضرِحَةِ أولِيائِهِم، يَدعونَ المَقبورينَ ويَطلُبونَ مِنهُمُ المَدَدَ؛ واللهُ يَقولُ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن:١٨]، وقالَ: لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَىٰ ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ.

٦. بِناءُ الدِّينِ عَلَىٰ الخُرافاتِ والمَوضوعاتِ والأساطيرِ:

وبيانُ ذَلِكَ: أنَّهما عَزَلا النَّصَّ الصَّحيحَ واعتَمَدا تَرسانَةً مِنَ الأكاذيبِ؛ فالرّافِضَةُ يَبنونَ مَذهَبَهُم عَلَىٰ مَروِيّاتٍ تالِفَةٍ مَكذوبَةٍ، والصُّوفِيَّةُ يَحتَجّونَ بالمَناماتِ والحِكاياتِ والكَراماتِ المُزَيَّفَةِ، حتّىٰ راجَ فِي أوساطِهِمُ السِّحرُ والشَّعوَذَةُ والتَّنجيمُ؛ والدِّينُ إنَّما يُبنىٰ عَلَىٰ المُحكَمِ الثّابِتِ لَا عَلَىٰ المَوهومِ.

٧. دَعوىٰ السَّنَدِ الرّوحِيِّ المُنحَصِرِ والانتِسابِ الباطِلِ إِلَىٰ عَلِيٍّ -رضي الله عنه-:

وبيانُ ذَلِكَ: أنَّهما زَوَّرا أسانيدَ التَّلَقّي لِتَمريرِ العَقائِدِ الدَّخيلَةِ؛ فالرّافِضَةُ يَحصُرونَ مَذهَبَهُم فِي سِلسِلَةٍ تَنتَهي إِلَىٰ عَلِيٍّ، وكَذا تَدَّعي الصُّوفِيَّةُ أنَّ «خِرقَتَهُم» وتَلقينَهُم يَنتَهي إِلَيهِ؛ تَلبيسًا عَلَىٰ العَوامِّ بشَرعِيَّةٍ مَوهومَةٍ،

وعَلِيٌّ ومَن انتَسَبوا إلَيهِ مِنهُم بُرَآءُ.

٨. التَّمَيُّزُ بالألبِسَةِ والشِّعاراتِ المُحدَثَةِ:

وبَيانُ ذَلِكَ: أنَّهُما فارَقا هَديَ المُسلِمينَ فِي المَلبَسِ ومَحاكاةِ الرَّهبَنَةِ؛ فالرّافِضَةُ يَختَصّونَ بأشكالٍ فارِقَةٍ لِفَرزِ أنفُسِهِم، والصُّوفِيَّةُ يَتَّخِذونَ الشِّعاراتِ والخِرَقَ المُرَقَّعَةَ عَلامَةً عَلَىٰ التَّمَيُّزِ الطُّرُقِيِّ؛ فصاروا أُمَّةً داخِلَ الأُمَّةِ، مُفارِقينَ فِي مَظهَرِهِم كَمَا فارَقوا فِي مَخبَرِهِم.

٩. هَيمَنَةُ الضَّوضاءِ والصَّخَبِ عَلَىٰ العِباداتِ:

وبَيانُ ذَلِكَ: أنَّهُما حَوَّلا عِبادَةَ اللهِ إلَىٰ مَظاهِرَ مَرذولَةٍ مِنَ الصَّخَبِ؛ فمَآتِمُ الرّافِضَةِ عَويلٌ ولَطمٌ وشَغَبٌ، وحَلقاتُ الصُّوفِيَّةِ رَقصٌ وضَجيجٌ؛ وَهَذَا مُضادٌّ لِما عَلَيهِ عِبادَةُ أهلِ السُّنَّةِ مِنَ السَّكينَةِ والخُشوعِ والوَقارِ.

١٠. الاستِعلاءُ العَقَدِيُّ بِقِسمَةِ الأُمَّةِ إلَىٰ «خاصَّةٍ» و«عامَّةٍ»:

وبَيانُ ذَلِكَ: أنَّهُما أسَّسا لِتَفتيتِ الأُمَّةِ باستِعلاءٍ أجوَفَ؛ فالرّافِضَةُ يُسَمّونَ أتباعَهُمُ «الخاصَّةَ» وجُمهورَ المُسلِمينَ «العامَّةَ» أوِ «النَّواصِبَ»، وَهُوَ عَينُ مَسلَكِ الصُّوفِيَّةِ فِي قِسمَةِ النّاسِ إلَىٰ «خاصَّةٍ وخاصَّةِ الخاصَّةِ»؛ تَرَفُّعًا عَلَىٰ سَوادِ المُسلِمينَ.

١١. اعتِمادُ الكِتمانِ والمُخادَعَةِ فِي العَقائِدِ:

وبَيانُ ذَلِكَ: أنَّهُما تَستَّرا بالنِّفاقِ العَقَدِيِّ عَجزًا عَن مُواجَهَةِ الحَقِّ؛ فالرّافِضَةُ يَتَّخِذونَ «التَّقِيَّةَ» — وَهِيَ الكَذِبُ الصُّراحُ — أصلًا، والصُّوفِيَّةُ يُمارِسونَ «السِّترَ والكِتمانَ» فِي تَلقينِ أورادِهِم؛ حِمايَةً لِعَوارِهِم مِنَ النَّقدِ الشَّرعِيِّ، ودينُ اللهِ ظاهِرٌ مُبينٌ لَا يُكتَمُ.

١٢. جَعلُ السَّنَدِ المختلقِ مِعيارَ قَبولِ الدِّينِ:

وبَيانُ ذَلِكَ: أنَّهُما عَطَّلا فِقهَ الأدِلَّةِ واعتَمَدا الاتِّصالَ الرِّجاليَّ المَوهومَ؛ فدينُ الرّافِضَةِ يَدورُ عَلَىٰ سِلسِلَةِ أئِمَّتِهِم، والصُّوفِيَّةُ يَجعَلونَ «سِلسِلَةَ الخِرقَةِ» أعظَمَ أُسُسِ الطَّريقِ؛ فقَدَّموا السِّلسِلَةَ المُحدَثَةَ عَلَىٰ النَّصِّ الصَّريحِ، والسَّنَدُ المُعتَبَرُ مَا اتَّصَلَ بالوَحيِ.

١٣. الغُلُوُّ العارِمُ فِي الرؤوس حتّىٰ مَنازِلِ النُّبُوَّةِ والرُّبوبِيَّةِ:

وبَيانُ ذَلِكَ: أنَّهُما تَعَدَّيا التَّوقيرَ إلَىٰ التَّقديسِ الجاهِلِيِّ؛ فالرّافِضَةُ يُثبِتونَ لِأئِمَّتِهِمُ التَّصَرُّفَ فِي الكَونِ،

والغُلاةُ يَرفَعونَ شُيوخَهُم إِلَىٰ مَنازِلِ الأنبياءِ، بَل يُضفونَ عَلَيهِم خصائِصَ الرُّبوبيَّةِ كعِلمِ الغَيبِ وإجابَةِ المُضطَرِّينَ؛ وقَد قالَ -ﷺ-: «لَا تُطروني كَمَا أطرَتِ النَّصارىٰ ابنَ مَريَمَ، فإنَّما أنَا عَبدُهُ، فقولوا: عَبدُ اللهِ ورَسولُهُ».

١٤. ادِّعاءُ «العِلمِ الباطِنِ» اللَّدُنّيِّ لِهَدمِ ظاهِرِ الشَّريعَةِ:

وبَيانُ ذَلِكَ: أَنَّهُما نَسَفا الأحكامَ الظّاهِرَةَ لِلكِتابِ والسُّنَّةِ؛ فالرّافِضَةُ يُثبِتونَ لِأئِمَّتِهِم عِلمًا باطِنًا مَستورًا، والصُّوفِيَّةُ يَدَّعونَ تَلَقّي «العِلمِ اللَّدُنّيِّ» والكَشفِ الَّذي يَفوقُ عِلمَ الشَّريعَةِ؛ ففَتَحا بابَ كُلِّ زَندَقَةٍ بدَعوىٰ الحَقيقَةِ الباطِنَةِ.

١٥. تَقديمُ الكَشفِ والإلهامِ ورَأيِ المَتبوعِ عَلَىٰ نُصوصِ الوَحيِ:

وبَيانُ ذَلِكَ: أَنَّهُما قَدَّما الخاطِرَ الباطِنِيَّ عَلَىٰ النَّقلِ الصَّحيحِ؛ فالرّافِضَةُ يَجعَلونَ قَولَ الإمامِ مَرجِعًا يَقضي عَلَىٰ النَّصِّ، والصوفية يُقَدِّمونَ كَشفَ الشَّيخِ وإلهامَهُ عَلَىٰ ظاهِرِ الوَحيِ؛ فهَدَما أصلَ الاستِدلالِ، واللهُ يَقولُ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة النساء:٦٥].

١٦. تَقسيمُ الدِّينِ إِلَىٰ «ظاهِرٍ» لِلشَّريعَةِ و«باطِنٍ» لِلحَقيقَةِ:

وبَيانُ ذَلِكَ: أَنَّهُما حاكَيا الفَلسَفاتِ الباطِنِيَّةَ القَديمَةَ الَّتي تُفَرِّغُ الإسلامَ مِن مَضمونِهِ؛ فالرّافِضَةُ يَعتَمِدونَ التَّأويلاتِ الباطِنِيَّةَ لِآياتِ القُرآنِ، والصُّوفِيَّةُ يُغرِقونَ فِي الإشاراتِ الرَّمزِيَّةِ وتَفاسيرِ الفَيضِ؛ فأخرَجوا النُّصوصَ عَن دَلالاتِها المَعهودَةِ لُغَةً وشَرعًا، وحَرَّفوا الكَلِمَ عَن مَواضِعِهِ.

١٧. شَرعَنَةُ المَناماتِ والرُّؤىٰ أدِلَّةً ومُستَنَداتٍ:

وبَيانُ ذَلِكَ: أَنَّهُما فَتَحا الدِّينَ لِكُلِّ دَجّالٍ؛ إذ يُكثِرُ الفَريقانِ مِن روايَةِ المَناماتِ لِإثباتِ الفَضائِلِ وتَعيينِ الأحكامِ وتَثبيتِ المُعتَقَداتِ؛ مُناقَضَةً لِأصلِ كَمالِ الدِّينِ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [سورة المائدة:٣]، فالمَنامُ لَا يُنصَبُ دَليلًا يُحَلِّلُ أو يُحَرِّمُ.

١٨. جَعلُ «الوِلايَةِ والقُطبِيَّةِ» أصلًا كَبيرًا يُوازي النُّبُوَّةَ:

وبَيانُ ذَلِكَ: أَنَّهُما صَنَعا هَرَمِيَّةً دينِيَّةً تُضاهي الكَهَنوتَ؛ فدينُ الرّافِضَةِ يَرتَكِزُ عَلَىٰ «الإمامَةِ والوِلايَةِ» أصلًا لَا يُقبَلُ عَمَلٌ دونَهُ، والصُّوفِيَّةُ يَدورُ مَذهَبُهُم عَلَىٰ «الوِلايَةِ والقُطبِيَّةِ والغَوثِيَّةِ والأبدالِ»؛ فابتَدَعوا رُكنًا لِلدِّينِ لَم يَشرَعهُ اللهُ، ونَقَضوا بِهِ أركانَ الإسلامِ.

وَأَمَّا أَهلُ السُّنَّةِ فَيُقَرِّرُونَ أَنَّ التَّوحِيدَ هُوَ إِفرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ، كَمَا قَالَ ابنُ سُرَيجٍ الشَّافِعِيُّ:

«التَّوحِيدُ عِندَ أَهلِ العِلمِ وَجَمَاعَةِ المُسلِمِينَ: أَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ».

فَبِذَلِكَ انقَلَبَتِ الحَقَائِقُ عِندَ هَؤُلَاءِ؛ فَجَعَلُوا الشِّركَ تَوحِيدًا، وَالتَّوحِيدَ شِركًا.

وَمِمَّا أَجمَعَت عَلَيهِ هَذِهِ الطَّوَائِفُ: الصَّدُّ عَنِ التَّوحِيدِ، وَحَربُ أَهلِهِ، وَمُعَادَاتُهُم.

وَسَبَبُ الخَلَلِ وَالضَّلَالِ الحَاصِلِ عِندَ الفِرَقِ رَاجِعٌ إِلَىٰ الخَطَإِ فِي تَفسِيرِ مَعنَىٰ الإِلَهِ، وَقَد سَبَقَ بَيَانُ مَعنَىٰ الإِلَهِ فِي مُقَدِّمَةِ الكِتَابِ.(١)

---

١٩. دَعوىٰ «أسرارٍ معرِفِيَّةٍ» مُغلَقَةٍ لَا يَنالُها عُمومُ المُسلِمينَ:

وبيانُ ذَلِكَ: أنَّهُما حَوَّلا الإسلامَ مِن دينٍ مُبينٍ لِلعالَمينَ إِلَىٰ جَمعِيَّةٍ سِرِّيَّةٍ مُغلَقَةٍ؛ فيُؤَكِّدُ الفَريقانِ أنَّ ثَمَّةَ مَعارِفَ مَحجوبَةً عَن عامَّةِ المُسلِمينَ، رَتَّبوا عَلَيها عَزلَ أتباعِهِم عَن جَماعَةِ المُسلِمينَ؛ والإسلامُ بَريءٌ مِن ذَلِكَ.

٢٠. التَّعظيمُ الْأَعمَىٰ لِلشُّخوصِ حتّىٰ يُخرِجَهُم عَن حَدِّ البَشَرِيَّةِ:

وبيانُ ذَلِكَ: أَن الرّافِضَة يغلون فِي أئمتهم مُبالَغَةً تَسلُبُ الدين، والصوفية يُعَظِّمونَ شُيوخَهُم حتّىٰ تَصيرَ أقوالُهُم — وَإِن خالَفَت صَريحَ الدِّينِ — مَرجِعًا لَا يُناقَشُ؛ فحَقَّقوا عَينَ مَا ذَمَّهُ اللهُ فِي قَومٍ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: ٣١].

(١) فَإِنَّ الإِلَهَ بِمَعنَىٰ المَألُوهِ المَعبُودِ، لَا بِمَعنَىٰ الآلِهِ كَمَا زَعَمُوا.

وَقَد بَيَّنَ خَطَأَهُم فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: (وَالإِلَهُ هُوَ بِمَعنَىٰ المَألُوهِ المَعبُودِ الَّذِي يَستَحِقُّ العِبَادَةَ، لَيسَ هُوَ الآلِهَ بِمَعنَىٰ القَادِرِ عَلَىٰ الخَلقِ. فَإِذَا فَسَّرَ المُفَسِّرُ الإِلَهَ بِمَعنَىٰ القَادِرِ عَلَىٰ الِاختِرَاعِ، وَاعتَقَدَ أَنَّ هَذَا أَخَصُّ وَصفِ الإِلَهِ، وَجَعَلَ إِثبَاتَ هَذَا التَّوحِيدِ هُوَ الغَايَةَ فِي التَّوحِيدِ، كَمَا يَفعَلُ ذَلِكَ مَن يَفعَلُهُ مِن مُتَكَلِّمَةِ الصِّفَاتِيَّةِ – وَهُوَ الَّذِي يَنقُلُونَهُ عَن أَبِي الحَسَنِ وَأَتبَاعِهِ – لَم يَعرِفُوا حَقِيقَةَ التَّوحِيدِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ؛ فَإِنَّ مُشرِكِي

العَرَبِ كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّ اللهَ وَحدَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ، وَكَانُوا مَعَ هَذَا مُشرِكِينَ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [سورة يوسف:١٠٦]، قَالَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ: تَسأَلُهُم مَن خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ، فَيَقُولُونَ: اللهُ، وَهُم مَعَ هَذَا يَعبُدُونَ غَيرَهُ..).

فَإِنَّ التَّوحِيدَ عِندَهُم نُقِضَ مِن أَصلِهِ؛ قَالَ ابنُ تَيمِيَّةَ: إِنَّ الجَهمِيَّةَ قَدَحُوا فِي حَقِيقَةِ التَّوحِيدِ الَّذِي هُوَ شَهَادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

انظُر: «الدَّرءُ» (١/ ٢٢٦-٢٢٧).

وَينظُر: أَيضًا (٣/ ٩٨-١٠٢) وَ«الرِّسَالَةُ التَّدمُرِيَّةُ» (ص ١٨٥-١٨٦)، وَ«مَجمُوعُ الفَتَاوَىٰ» (٨/ ٣٧٨)، وَ«شَرحُ الأَصفهَانِيَّةِ» (١/ ١٤٨)، «دَرءُ التَّعَارُضِ» (١/ ٢٢٦)، «بَيَانُ تَلبِيسِ الجَهمِيَّةِ» (٥/ ٤٠٥).

قُلتُ: وَفِي حَدِيثِ مُعَاذٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: «فَلْيَكُن أَوَّلُ مَا تَدعُوهُم إِلَيهِ: شَهَادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»... إِبطَالٌ لِشُبهَةٍ طَالَمَا تَعَلَّقَ بِهَا أَهلُ الشِّركِ وَالقُبُورِيَّةِ، وَهِيَ قَولُهُم: كَيفَ يُتَصَوَّرُ أَن يَجهَلَ التَّوحِيدَ أُنَاسٌ كُثُرٌ مِنَ العُلَمَاءِ وَالعُبَّادِ وَالمُنتَسِبِينَ إِلَىٰ العِلمِ، ثُمَّ لَا يَعرِفُهُ إِلَّا طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ؟!

وَهَذِهِ الشُّبهَةُ مِن أَفسَدِ الشُّبَهِ وَأَبطَلِهَا؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللهُ عَنهُ إِلَىٰ قَومٍ مِن أَهلِ الكِتَابِ، بِأَيدِيهِم بَقَايَا الوَحيِ، وَعِندَهُم آثَارُ النُّبُوَّاتِ، وَيَقرَؤُونَ التَّورَاةَ وَالإِنجِيلَ، وَمَعَ ذَلِكَ أُمِرَ أَن يَكُونَ أَوَّلَ مَا يَدعُوهُم إِلَيهِ تَوحِيدُ اللهِ وَشَهَادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّ وُجُودَ الكُتُبِ، وَكَثرَةَ المَعلُومَاتِ، وَانتِشَارَ التَّعَلُّمِ، لَا يَستَلزِمُ مَعرِفَةَ حَقِيقَةِ التَّوحِيدِ، وَلَا العَمَلَ بِمُقتَضَاهُ.

بَل قَد يَجتَمِعُ لِلعَبدِ مِن عُلُومِ الفُرُوعِ وَالآدَابِ وَالقَصَصِ وَالأَخبَارِ مَا يَجتَمِعُ، ثُمَّ يَكُونُ جَاهِلًا بِأَعظَمِ مَا خُلِقَ لَهُ، وَهُوَ إِفرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ، وَقَد يَعرِفُ الحَقَّ وَيَقُومُ الدَّلِيلُ عَلَيهِ، ثُمَّ يَحُولُ بَينَهُ وَبَينَ قَبُولِهِ اتِّبَاعُ الهَوَىٰ، أَو طَلَبُ الرِّئَاسَةِ، أَو مَحَبَّةُ الجَاهِ، أَو تَقلِيدُ الآبَاءِ وَالأَسلَافِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [سورة النمل:١٤].

وَلِهَذَا لَم يَكُن مِيزَانُ الحَقِّ فِي كَثرَةِ الأَتبَاعِ، وَلَا فِي شُهرَةِ الرِّجَالِ، وَلَا فِي انتِشَارِ المَدَارِسِ وَالمُصَنَّفَاتِ، وَإِنَّمَا المِيزَانُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ -ﷺ-؛ فَكَم مِن أُمَمٍ كَانَت أَكثَرَ عِلمًا مِن غَيرِهَا فِي أَبوَابٍ كَثِيرَةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ ضَلَّت فِي أَصلِ الدِّينِ، وَكَم مِن أَحبَارٍ وَرُهبَانٍ عَرَفُوا الحَقَّ ثُمَّ آثَرُوا عَلَيهِ الدُّنيَا وَالرِّئَاسَةَ.

فَإِذَا جَازَ أَن يَخفَىٰ التَّوحِيدُ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ جَمِيعَ الرُّسُلِ عَلَىٰ أَهلِ الكِتَابِ مَعَ مَا عِندَهُم مِن بَقَايَا

الوَحيِ، فَكَيفَ يُستبعَدُ أَن يَخفَىٰ عَلَىٰ طَوَائِفَ مِنَ المُنتَسِبينَ إِلَىٰ الإِسلامِ غَلَبَ عَلَيهِمُ التَّقليدُ، أَو استَحكَمَت فِيهِم عَوائِدُ الشِّركِ، أَو نَشَؤُوا عَلَىٰ تَعظِيمِ القُبُورِ وَالمَشَاهِدِ وَالاِستِغَاثَةِ بِغَيرِ اللهِ؟!

وَعَلَيهِ؛ فَلَيسَتِ العِبرَةُ بِكَثرَةِ المُنتَسِبينَ إِلَىٰ العِلمِ، وَإِنَّمَا العِبرَةُ بِمُوَافَقَةِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَفَهمِ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ فَمَن وَافَقَ الوَحيَ فِي تَوحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ فَهُوَ المُحِقُّ وَإِن قَلَّ أَتبَاعُهُ، وَمَن خَالَفَهُ فَهُوَ المُخطِئُ وَإِن مَلأَ ذِكرُهُ الآفَاقَ، فَإِنَّ الحَقَّ لَا يُعرَفُ بِالرِّجَالِ، وَلَكِنَّ الرِّجَالَ يُعرَفُونَ بِالحَقِّ.

وَقَد كَانَ المُشرِكُونَ الأَوَّلُونَ أَعلَمَ بِمَعنَىٰ «لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ» مِن كَثِيرٍ مِنَ المُتَأَخِّرِينَ؛ فَإِنَّهُم لَمَّا قِيلَ لَهُم: "قُولُوا لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ" عَلِمُوا أَنَّهَا تُبطِلُ عِبَادَةَ آلِهَتِهِم، فَأَبَوا وَاستَكبَرُوا؛ وَكَانُوا مَعَ ذَٰلِكَ يُخلِصُونَ لِلَّهِ فِي الشِّدَّةِ، فَإِذَا رَكِبُوا البَحرَ وَخَافُوا الغَرَقَ دَعَوُا اللهَ وَحدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة العنكبوت:٦٥].

وَأَمَّا كَثِيرٌ مِنَ المُتَأَخِّرِينَ فَجَهِلُوا مَعنَىٰ الكَلِمَةِ، فَيَصرِفُونَ أَنوَاعَ العِبَادَةِ لِغَيرِ اللهِ وَهُم يَحسَبُونَ أَنَّهُم عَلَىٰ تَوحِيدٍ، وَيُعَلِّقُونَ قُلُوبَهُم بِالأَموَاتِ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ جَمِيعًا. فَصَارَ شِركُهُم مِن هَٰذَا الوَجهِ أَطبَقَ وَأَعَمَّ، إِذ جَمَعُوا إِلَىٰ الجَهلِ بِالمَعنَىٰ دَوَامَ التَّعَلُّقِ بِغَيرِ اللهِ؛ فَكَانَ حَالُهُم أَشَدَّ، وَإِن كَانَ الجَمِيعُ شِركًا مُخرِجًا مِنَ المِلَّةِ.

قَالَ الشَّيخُ عَبدُ الرَّحمَنِ بنُ حَسَنٍ فِي «كِتَابِ التَّوحِيدِ وَقُرَّةِ عُيُونِ المُوَحِّدِينَ فِي تَحقِيقِ دَعوَةِ الأَنبِيَاءِ وَالمُرسَلِينَ» (ص٧):

وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الصافات:٣٥-٣٦].

عَلِمُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تَنفِي الشِّركَ الَّذِي وَقَعُوا فِيهِ، وَأَنكَرُوا التَّوحِيدَ الَّذِي دَلَّت عَلَيهِ، فَصَارَ أُولَئِكَ المُشرِكُونَ أَعلَمَ بِمَعنَىٰ هَذِهِ الكَلِمَةِ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ" مِن أَكثَرِ مُتَأَخِّرِي هَذِهِ الأُمَّةِ، لَا سِيَّمَا أَهلُ العِلمِ مِنهُمُ الَّذِينَ لَهُم دِرَايَةٌ فِي بَعضِ الأَحكَامِ وَعِلمِ الكَلَامِ، فَجَهِلُوا تَوحِيدَ العِبَادَةِ، فَوَقَعُوا فِي الشِّركِ المُنَافِي لَهُ وَزَيَّنُوهُ، وَجَهِلُوا تَوحِيدَ الأَسمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَأَنكَرُوهُ، فَوَقَعُوا فِي نَفيِهِ أَيضًا. وَصَنَّفُوا فِيهِ الكُتُبَ لِاعتِقَادِهِم أَنَّ ذَلِكَ حَقٌّ وَهُوَ بَاطِلٌ.

وَقَدِ اشتَدَّت غُربَةُ الإِسلَامِ حَتَّىٰ عَادَ المَعرُوفُ مُنكَرًا، وَالمُنكَرُ مَعرُوفًا، فَنَشَأَ عَلَىٰ هَذَا الصَّغِيرُ، وَهَرِمَ عَلَيهِ الكَبِيرُ، وَقَد قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «بَدَأَ الإِسلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ».

الطَّاغُوتُ وَصِفَةُ الكُفرِ بِهِ:

مَعنَىٰ الطَّاغُوتِ وَجِهَتَا الطُّغيَانِ:

لَفظُ الطَّاغُوتِ عَلَىٰ وَزنِ فَعلُوتَ، وَهُوَ مِن أَوزَانِ المُبَالَغَةِ، كَجَبَرُوت.[(١)]

---

(١) قَالَ الْفَرَاهِيدِيُّ فِي الْعَينِ (٤/ ٤٣٥): طَغَوَ، طَغَىٰ: الطُّغيَانُ؛ الواوُ لغةٌ فِيهِ، وَقَد طَغَوتُ وطَغَيتُ، وَالِاسمُ الطَّغوَىٰ.

وكلُّ شيءٍ يجاوزُ القدرَ فَقَد طَغَىٰ؛ مثلَ مَا طَغَىٰ الماءُ عَلَىٰ قومِ نوحٍ، وَكَمَا طَغَتِ الصيحةُ عَلَىٰ ثمودَ.

والطَّاغِيَةُ: الجبّارُ العنيدُ.

والطَّاغُوتُ عَلَىٰ أوجهٍ؛ [منها قوله تعالىٰ]: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [سورة النساء:٦٠]، فَهُوَ اسمُ الواحد.

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [سورة النحل:٣٦]، اسمُ تأنيثٍ؛ يَعنِي اللاتَ والعُزّىٰ.

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ [سورة البقرة:٢٥٦]، وتاؤه زائدةٌ، وَهُوَ مشتقٌّ من طَغَىٰ.

وَيُقَالُ: أَطغَاهُ اللهُ؛ فَهُوَ طَاغٍ، وَهُم طَاغُونَ.

والطَّغيَةُ: المكانُ المُشرِفُ من الجبل.

وَيُقَالُ: سمعتُ طَغيَهُ؛ أَي صوته، وَهِيَ لغةٌ هُذَلِيَّةٌ.

وَقَالَ الطَّبَرِيُّ (٥/ ٤١٩): وَأَرَىٰ أَن أصلَ «الطَّاغُوت» «الطَّغُووت» مِن قَولِ الْقَائِلِ: «طَغَا فلانٌ يطغُو»؛ إِذَا عَدَا قدرَه فتَجَاوَزَ حدَّه، كـ«الجَبَرُوت» مِن «التجبُّر»، و«الخَلَبُوت» مِن «الخَلَب»، ونحوِ ذَلِكَ مِن الْأَسمَاءِ الَّتِي تَأتِي عَلَىٰ تَقدِيرِ «فَعَلُوت» بِزِيَادَةِ الْوَاوِ وَالتَّاءِ.

ثُمَّ نُقِلَت لامُه — أَعنِي لَامَ «الطَّغُووت» — فجُعِلَت لَهُ عيناً، وحُوِّلَت عينُه فجُعِلَت مكانَ لامِه؛ كَمَا قِيلَ: «جَذَبَ وجَبَذَ»، و«جَاذِب وجَابِذ»، و«صَاعِقَةٌ وصَاقِعَةٌ»، وَمَا أَشبَهَ ذَلِكَ مِن الْأَسمَاءِ عَلَىٰ هَذَا الْمِثَالِ.

وَانظُر: الْمُحكَمَ لِابنِ سِيدَه (٦/ ٤٣).

وَقَالَ ذَاكَ الْعَسكَرِيُّ فِي الْفُرُوقِ اللُّغَوِيَّةِ (١/ ٢٤٧): الطَّاغُوتُ أَبلَغُ مِن الطَّاغِي لِفَخَامَةِ لَفظه وَلَكِن كَثُرَ استِعمَال الطَّاغُوتِ حَتَّىٰ سُمِّيَ كُلُّ مَا عُبِدَ مِن دُونَ اللهِ طَاغُوتًا وَسمي الشَّيطَان بِهِ لشدَّة طغيانه وَكُلُّ مَن

وَحَقِيقَةُ الطُّغيَانِ: مُجَاوَزَةُ الحَدِّ، وَهُوَ عَلَىٰ جِهَتَينِ:

١) مُجَاوَزَةُ الحَدِّ فِي قَدرِ المَخلُوقِينَ:

كَمَن يَتَكَبَّرُ عَلَىٰ النَّاسِ، وَيَستَضعِفُهُم بِالظُّلمِ وَالتَّشرِيدِ، وَيَعلُو عَلَيهِم بِمَا آتَاهُ اللهُ مِن سُلطَةٍ وَنُفُوذٍ، فَهَذَا يُسَمِّيهِ القُرآنُ طَاغِيًا، وَلَا يُسَمِّيهِ طَاغُوتًا.

وَعَلَىٰ هَذَا: فَلَا يَصِحُّ إِطلَاقُ لَفظِ الطَّاغُوتِ عَلَىٰ كُلِّ ظَالِمٍ أَو سَارِقٍ أَو مُتَعَدٍّ فِي حُقُوقِ الخَلقِ؛ بَل يُقَالُ: عَاصٍ مُتَكَبِّرٌ مُعتَدٍ، وَلَيسَ طَاغُوتًا.

٢) مُجَاوَزَةُ الحَدِّ تُجَاهَ الرَّبِّ فِيمَا اختَصَّ بِهِ:

وَهَذِهِ هِيَ جِهَةُ الطُّغيَانِ عَلَىٰ اللهِ: أَن يُنَدِّدَ العَبدُ نَفسَهُ بِاللهِ نِدًّا مِثلِيًّا، أَو يُنَدِّدَهُ غَيرُهُ فَيَرضَىٰ، فَيَتَجَاوَزُ حَدَّهُ مِن مَقَامِ العُبُودِيَّةِ إِلَىٰ مَقَامٍ مِن مَقَامَاتِ الإِلَهِيَّةِ؛ إِمَّا مِثلِيَّةً، أَو مِن وَجهٍ دُونَ وَجهٍ.

وَمِن ذَلِكَ: المُصَوِّرُ الَّذِي يُضَاهِي خَلقَ اللهِ؛ فَهَذَا لَا يُسَمَّىٰ طَاغُوتًا، وَلَكِنَّهُ مُشرِكٌ شِركًا أَصغَرَ؛ لِأَنَّهُ أَتَىٰ بِشِبهِ فِعلِ اللهِ مِن وَجهٍ، لَا بِحَقِيقَتِهِ مِن كُلِّ وَجهٍ.

فَلَا مُستَحِقَّ لِلعِبَادَةِ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ، فَيَأتِي الطَّاغُوتُ فَيَزعُمُ أَنَّهُ مُستَحِقٌّ لَهَا، أَو أَنَّهُ تُصرَفُ لَهُ العِبَادَةُ أَو جُزءٌ مِنهَا؛ كَالرُّكُوعِ أَوِ السُّجُودِ.

جَاوز الحَد فِي ضَربٍ أَو مَعصِيَّة مِن الشَّرّ وَالمَكرُوه فَقَد طَغَىٰ".

وَيُطلَقُ لَفظُ الطَّاغُوتِ عَلَىٰ:

المُفرَدِ وَالجَمعِ

المُذَكَّرِ وَالمُؤَنَّثِ

وَجمعُهُ: طَوَاغِيتُ.

فَمَعنَىٰ طَغَىٰ: تَعَدَّىٰ حَدَّهُ، وَارتَفَعَ فِي العِصيَانِ وَالكُفرِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سورة الحج:٦٢].

وَمِن أَبرَزِ أَمثِلَةِ الطَّاغُوتِ: النَّمرُودُ؛ إِذ زَعَمَ أَنَّهُ يُحيِي وَيُمِيتُ، فَنَازَعَ رَبَّهُ فِي حُكمٍ كَونِيٍّ مِن خَصَائِصِهِ.

وَلِذَلِكَ حَاجَّهُ إِبرَاهِيمُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بِقَولِ اللهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ [سورة البقرة:٢٥٨].

وَقَولُهُ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ [سورة البقرة:٢٥٨] أَي: سَكَتَ فَلَم يُجِب بِشَيءٍ.

تَعرِيفُ الطَّاغُوتِ: كُلُّ مَا عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، بِالعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ أَوِ البَاطِنَةِ أَوِ التَّشرِيعِ وَهُوَ رَاضٍ، أَوِ الَّذِي يُؤَسِّسُ وَيُشَرِّعُ الكُفرَ.

فَالطَّوَاغِيتُ نَوعَانِ:

طَاغُوتُ عِبَادَةٍ.

طَاغُوتُ طَاعَةٍ وَاتِّبَاعٍ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [سورة النحل:٣٥]

﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ [سورة النحل:٣٥] طَاغُوتُ العِبَادَةِ: وَهُوَ: كُلُّ مَا عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ.

﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ [سورة النحل:٣٥] طَاغُوتُ التَّشرِيعِ.

فَاتِّخَاذُ الطَّاغُوتِ يَكُونُ مِن جِهَاتٍ ثَلَاثٍ:

أَن يَجعَلَهُ مَعبُودًا.

أَو يَجعَلَهُ مَتبُوعًا: كَالكُهَّانِ وَالسَّحَرَةِ وَعُلَمَاءِ الضَّلَالِ وَأَئِمَّةِ البِدَعِ وَالإِفسَادِ.(١)

أَو يَجعَلَهُ مُطَاعًا طَاعَةً يَتَجَاوَزُ بِهَا الحَدَّ الشَّرعِيَّ.

وَهَذَا تَعرِيفٌ عَامٌّ، تَحتَهُ تَفصِيلٌ.

تنبيه:

لَيسَ كُلُّ كَافِرٍ طَاغُوتًا، كَمَا أَنَّ لَيسَ كُلُّ كُفرٍ يَبلُغُ دَرَجَةَ الطُّغيَانِ المُغَلَّظِ، فَالطَّاغُوتُ أَخَصُّ مِن مُطلَقِ الكَافِرِ؛ لِأَنَّهُ بَلَغَ فِي الكُفرِ وَالإِضلَالِ وَالمُنَازَعَةِ حَدًّا عَظِيمًا.

وَرَدَ ذِكرُ الطَّاغُوتِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ القُرآنِ، وَدَلَّتِ النُّصُوصُ عَلَىٰ:

- وُجُوبِ الكُفرِ بِهِ.
- وُجُوبِ اجتِنَابِهِ.
- كُفرِ مَن آمَنَ بِهِ أَو عَبَدَهُ.

---

(١) **مسألةٌ فِي حقيقةِ السِّحرِ وأقسامِه:** والسِّحرُ فِي الشرعِ ضربانِ: الأولُ: عُقَدٌ ورُقًىٰ وقراءاتٌ وطلاسمُ يتوصَّلُ بِهَا الساحرُ إِلَىٰ استخدامِ الشياطينِ فِي إضرارِ المسحورِ؛ والثاني: أدويةٌ وعقاقيرُ تؤثِّرُ فِي بدنِ المسحورِ وعقلِه وإرادتِه فتَصرِفُه أَو تَعطِفُه.

فالأولُ شركٌ وكفرٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يُتوصَّلُ إِلَيهِ إِلَّا بعبادةِ الشياطينِ والتقرُّبِ إِلَيهِم وطاعتِهم فِيمَا يُسخِطُ اللهَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [سورة البقرة:١٠٢]، فدلَّ عَلَىٰ أَنَّ تعلُّمَه كفر؛ وَلِذَلِكَ عدَّ العلماءُ الساحرَ من رؤوسِ الطواغيتِ. والثاني عُدوانٌ وفِسقٌ ومن المحرَّماتِ الَّتِي فِيهَا ظلمُ العبادِ، وَإِن لَم يبلُغْ رُتبةَ الكفرِ.

وَبِهَذَا يُعلَمُ أَنَّ السِّحرَ المتعلِّقَ بالشياطينِ من نواقضِ التوحيدِ، لتضمُّنِه صرفَ العبادةِ والتقرُّبِ لغيرِ اللهِ.

○ اجتِنَابِ التَّحَاكُمِ إِلَيهِ.

○ كُفرِ مَن تَوَلَّاهُ عَلَىٰ دِينِهِ.

○ كُفرِ مَن قَاتَلَ فِي سَبِيلِهِ.

فَالكُفرُ بِالطَّاغُوتِ لَيسَ مُجَرَّدَ مَعرِفَةٍ ذِهنِيَّةٍ، بَل هُوَ:

اعتِقَادُ بُطلَانِهِ.

تَركُهُ وَاجتِنَابُهُ

بُغضُهُ.

تَكفِيرُ أَهلِهِ.

مُعَادَاتُهُم.

وَالكُفرُ بِالطَّاغُوتِ يَكُونُ بِالقَلبِ وَاللِّسَانِ وَالجَوَارِحِ:

١. بِالقَلبِ:

كَـ:

بُغضِهِ.

كَرَاهَتِهِ.

اعتِقَادِ بُطلَانِهِ.

٢. بِاللِّسَانِ:

كَـ:

التَّصرِيحِ بِكُفرِهِ.

تَحذِيرِ النَّاسِ مِنهُ.

بَيَانِ ضَلَالِهِ.

٣. **بِالجَوَارِحِ:**

كَـ:

مُجَانبَتِهِ.

مُفَارَقتِهِ.

عَدَمِ التَّحَاكُمِ إِلَيهِ.

عَدَمِ طَاعَتِهِ.

وَالسَّعيِ فِي إِزَالَتِهِ حَسَبَ القُدرَةِ.(١)

مَسأَلَةٌ: أَبرَزُ الوُجُوهِ الَّتِي يَدُورُ عَلَيهَا الطَّاغُوتُ فِي القُرآنِ وَالأَثَرِ:

الأَوَّلُ: الشَّيطَانُ: إِبلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ رَأسُ الطَّوَاغِيتِ وَأَعظَمُهُم؛ فَهُوَ أَصلُ كُلِّ ضَلَالٍ، وَمِفتَاحُ كُلِّ شَرٍّ، وَمَادَّةُ كُلِّ فِتنَةٍ.

وَإِن كَانَ كَافِرًا بِاللهِ، فَإِنَّ كُفرَهُ لَيسَ كَكُفرِ غَيرِهِ؛ بَل هُوَ كُفرٌ عَظِيمٌ مَبنِيٌّ عَلَىٰ الِاستِكبَارِ وَالمُحَادَّةِ وَالإِبَاءِ.

وَمِن أَعظَمِ وُجُوهِ طُغيَانِهِ: أَنَّهُ زَيَّنَ عِبَادَةَ غَيرِ اللهِ، وَدَعَا إِلَىٰ الشِّركِ وَالكُفرِ، وَفَتَحَ أَبوَابَ المَعَاصِي، فَمَا وَقَعَ كُفرٌ وَلَا شِركٌ وَلَا مَعصِيَةٌ إِلَّا وَهُوَ الَّذِي زَيَّنَهَا وَحَسَّنَهَا وَدَعَا

---

(١) **قَالَ الشَّيخُ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ الوَهَّابِ، كَمَا فِي «الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ فِي الأَجوِبَةِ النَّجدِيَّةِ» (٢/ ١٢٤):** «لَا خِلَافَ بَينَ الأُمَّةِ أَنَّ التَّوحِيدَ: لَا بُدَّ أَن يَكُونَ بِالقَلبِ، الَّذِي هُوَ العِلمُ؛ وَاللِّسَانِ الَّذِي هُوَ القَولُ؛ وَالعَمَلِ الَّذِي هُوَ تَنفِيذُ الأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، فَإِن أَخَلَّ بِشَيءٍ مِن هَذَا، لَم يَكُنِ الرَّجُلُ مُسلِمًا. فَإِن أَقَرَّ بِالتَّوحِيدِ، وَلَم يَعمَل بِهِ، فَهُوَ كَافِرٌ مُعَانِدٌ، كَفِرعَونَ وَإِبلِيسَ. وَإِن عَمِلَ بِالتَّوحِيدِ ظَاهِرًا، وَهُوَ لَا يَعتَقِدُهُ بَاطِنًا، فَهُوَ مُنَافِقٌ خَالِصًا، أَشَرُّ مِنَ الكَافِرِ، وَاللهُ أَعلَمُ».

إِلَيهَا.

وَهُوَ أَجمَعُ مَا فُسِّرَ بِهِ الطَّاغُوتُ؛ لِأَنَّ كُلَّ عِبَادَةٍ وُجِّهَت لِغَيرِ اللهِ فَهِيَ فِي الحَقِيقَةِ عِبَادَةٌ لِلشَّيطَانِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَأمُرُ بِهَا وَيُزَيِّنُه، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾ [سورة النحل:٩٨-١٠٠].

٦٦٣ - **وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَولِهِ:** ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [سورة النحل:١٠٠]: الَّذِينَ يُطِيعُونَهُ وَيَعبُدُونَهُ.

٦٦٤ - **وَقَالَ الضَّحَّاكُ فِي قَولِهِ:** ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [سورة النحل:١٠٠]: عَدَلُوا إِبلِيسَ بِرَبِّهِم.

وَمِن وَصفِ الطَّاغُوتِ فِي هَذَا الوَجهِ: مَن دَعَا إِلَىٰ عِبَادَةِ نَفسِهِ، أَو عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩﴾ [سورة الأنبياء:٢٩].

وَقَد نُقِلَ عَن قَتَادَةَ وَالضَّحَّاكِ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ خَاصَّةٌ بِإِبلِيسَ؛ لِأَنَّهُ دَعَا إِلَىٰ عِبَادَةِ نَفسِهِ، وَشَرَعَ الكُفرَ.

صُوَرُ عِبَادَةِ الشَّيطَانِ:

تَكُونُ عِبَادَةُ الشَّيطَانِ عَلَىٰ صُورَتَينِ كُبرَيَينِ:

الصُّورَةُ الأُولَىٰ: العِبَادَةُ المُبَاشِرَةُ.

وَهِيَ أَن يُتَّخَذَ الشَّيطَانُ مَعبُودًا تُصرَفُ لَهُ أَنوَاعٌ مِنَ التَّعظِيمِ وَالخُضُوعِ، وَقَد وُجِدَ

هَذَا فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ.

الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ: عِبَادَتُهُ بِطَاعَتِهِ.

وَهِيَ أَن يُطَاعَ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ مِن الكُفرِ؛ فَطَاعَتُهُ فِي ذَلِكَ عِبَادَةٌ لَهُ، وَإِلَيهَا يُشِيرُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [سورة يس: ٦٠].

وَمِن دَقَائِقِ هَذَا البَابِ: أَنَّ إِبلِيسَ قَد يَكُونُ عِندَهُ بَقِيَّةُ إِقرَارٍ بِأَمرٍ مَا فِي خِطَابِهِ—مَعَ كُفرِهِ وَعِنَادِهِ—وَمَعَ ذَلِكَ يُزَيِّنُ لِبَعضِ بَنِي آدَمَ أَن يَبلُغُوا مِنَ الجُرأَةِ وَالطُّغيَانِ مَا لَم يَبلُغهُ هُوَ فِي بَعضِ التَّعبِيرَاتِ؛ فَهُوَ يَجمَعُ بَينَ كُفرٍ عَظِيمٍ وَبَينَ تَزيِينِ أَعظَمِ الكُفرِ وَأَقبَحِهِ لِغَيرِهِ.

فَخُلَاصَةُ هَذَا الرَّأسِ: أَنَّ إِبلِيسَ هُوَ أَوَّلُ الطَّوَاغِيتِ، وَمِنهُ تَتَشَعَّبُ أَكثَرُ أَنوَاعِهِ، فَيَجِبُ الكُفرُ بِهِ وَمُعَادَاتُهُ وَالحَذَرُ مِن مَدَاخِلِهِ.(١)

---

(١) قَالَ تَعَالَىٰ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء: ٧٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [سورة الزمر: ١٧].

رُوِيَ عَن عُمَرَ، وَابنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَالحَسَنِ، وَسَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ، وَزَيدِ بنِ أَسلَمَ، وَالشَّعبِيِّ، وَعَطَاءٍ، وَعِكرِمَةَ، وَالضَّحَّاكِ، وَقَتَادَةَ، وَأَبِي العَالِيَةِ، وَالسُّدِّيِّ، وَابنِ زَيدٍ، وَيَحيَىٰ بنِ سَلَامٍ، وَسَهلِ التُّستَرِيِّ، وَابنِ قُتَيبَةَ، وَالحَربِيِّ، وَالزَّجَّاجِ، وَالأَزهَرِيِّ، قَالُوا: الطَّاغُوتُ: الشَّيطَانُ.

انظُر: «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٥/ ٤١٨)، وَ«تَفسِيرُ ابنِ المُنذِرِ» (٢/ ٧٤٧)، وَ«تَفسِيرُ ابنِ أَبِي حَاتِمٍ» (٥٤٤٩)، وَ«التَّصَارِيفُ» لِيَحيَىٰ بنِ سَلَامٍ (ص ٢٧٥)، وَ«تَفسِيرُ التُّستَرِيِّ» (١/ ٣٦)، وَ«غَرِيبُ القُرآنِ» لِابنِ قُتَيبَةَ (١/ ١٢٩)، وَ«غَرِيبُ الحَربِيِّ» (٢/ ٦٤٣)، وَ«تَهذِيبُ اللُّغَةِ» (٢/ ١٣٨).

قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ

الثَّانِي: "كُلُّ مَا عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ".

أَمَّا المَعبُودُ: فَالأَصلُ أَنَّ كُلَّ عِبَادَةٍ لِغَيرِ اللهِ تَجَاوُزٌ لِلحَدِّ، لَكِنَّ إِطلَاقَ وَصفِ الطَّاغوتِ عَلَىٰ المَعبُودِ لَا يَكُونُ عَلَىٰ وَجهٍ مُطلَقٍ، بَل يَتَقَيَّدُ بِأَحوَالٍ:

الحَالَةُ الأُولَىٰ: الرِّضا بِالعِبادَةِ

فَإِذَا عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ بِأَن يُعبَدَ مِن دُونِ اللهِ؛ فَهَذَا يُسَمَّىٰ طَاغُوتًا.

وَمَعنَىٰ (مَن عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ): هُوَ الَّذِي تُصرَفُ لَهُ أَنواعٌ مِنَ العِبَادَةِ—كَالسُّجُودِ وَالرُّكُوعِ وَالدُّعَاءِ وَالخَوفِ وَالرَّجَاءِ وَمَحَبَّةِ التَّأَلُّهِ—فَيَكُونُ مِنهُ رِضًا وَسُرُورٌ وَقَبُولٌ وَإِقرَارٌ لِهَذَا الفِعلِ.

فَهَذَا طَاغُوتٌ؛ لِأَنَّهُ قَبِلَ أَن يُنَازِعَ اللهَ حَقَّهُ الأَعظَمَ.

الحَالَةُ الثَّانِيَةُ: التَّرَشُّحُ لِلعِبَادَةِ

وَمَعنَىٰ (مَن دَعَا النَّاسَ إِلَىٰ عِبَادَةِ نَفسِهِ): أَي تَرَشَّحَ لِلعِبَادَةِ وَادَّعَىٰ أَنَّهُ أَهلٌ لَهَا، فَدَعَا النَّاسَ أَن يَعبُدُوهُ، كَمَا حُكِيَ عَن فِرعَونَ فِي طُغيَانِهِ: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [سورة النازعات:٢٤].

وَهَذَا طَاغُوتٌ وَلَو لَم يَقَعَتِ العِبَادَةُ فِعلًا؛ لِأَنَّ دَعوَتَهُ نَفسَهَا مُنَازَعَةٌ لِلَّهِ فِي أَعظَمِ

يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ [سورة البقرة:٢٥٧]، رَوَىٰ الطبري (٩٧٧٠) وابن المنذر (١٨٧٩) بسند صحيح عَن مُجَاهِدٍ، فِي قَولِهِ: ﴿يُؤمِنُونَ بِالجِبتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] قَالَ: وَالطَّاغُوتُ: الشَّيطَانُ فِي صُورَةِ إِنسَانٍ يَتَحَاكَمُونَ إِلَيهِ، وَهُوَ صَاحِبُ أَمرِهِم».

رَوَىٰ ابن المنذر فِي تفسيره (٢٠٠٤) عَن قتادة «﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [سورة النساء:٧٦]، يَقُول: فِي سبيل الشيطان».

قَالَ مقاتل: (عبد الطاغوت) أَي: هُوَ الشيطان.

حَقٍّ.

قَاعِدَةٌ ضَابِطَةٌ:

مَن عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ فَهُوَ طَاغُوتٌ وَلَو لَم يَدعُ.

وَمَن دَعَا إِلَىٰ عِبَادَةِ نَفسِهِ فَهُوَ طَاغُوتٌ وَلَو لَم يُعبَد.

الحَالَةُ الثَّالِثَةُ: أَن يُعبَدَ وَهُوَ غيرُ رَاضٍ

أَمَّا إِذَا عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ وَهُوَ غَيرُ رَاضٍ؛ كَعِيسَىٰ -عليه السلام-، وَالمَلَائِكَةِ، وَالجِنِّ المُسلِمِينَ، وَالأَولِيَاءِ الصَّالِحِينَ؛ فَلَا يُسَمَّىٰ المَعبُودُ هُنَا طَاغُوتًا، وَإِنَّمَا يُقَالُ: إِنَّ العَابِدَ اتَّخَذَ طَاغُوتًا مَعَ اللهِ، أَمَّا ذَاتُ المَعبُودِ فَلَا يُطلَقُ عَلَيهِ اسمُ الطَّاغُوتِ فِي هَذِهِ الحَالَةِ.

فَخُلَاصَةُ أَحوَالِ المَعبُودِ ثَلَاثٌ: حَالَتَانِ يُطلَقُ فِيهِمَا عَلَيهِ (طَاغُوتٌ)، وَحَالَةٌ لَا يُطلَقُ فِيهَا ذَلِك.(١)

---

(١) قَالَ مَالِكٌ، وَأَبُو عُبَيدَةَ مَعمَرُ بنُ المُثَنَّىٰ، وَابنُ هِشَامٍ، وَالطَّبَرِيُّ، وَالنَّحَّاسُ، وَالزَّجَّاجُ، وَاختَارَهُ مَكِّيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، وَذَكَرَهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ كَأَحَدِ الوُجُوهِ، وَهُوَ مَذهَبُ جَمَاهِيرِ أَهلِ اللُّغَةِ، أَنَّ الطَّاغُوتَ عَامٌّ: فِي كُلِّ مَا عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ.

رَوَىٰ ابنُ وَهبٍ فِي جَامِعِهِ (٢٧٠)، وَابنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفسِيرِهِ (٥٤٥٦)، وَأَبُو جَعفَرٍ النَّحَّاسُ فِي «مَعَانِي القُرآنِ» (٢/ ٢١١)، قَالَ ابنُ وَهبٍ عَن مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: الطَّاغُوتُ مَا عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ سُبحَانَهُ، قَالَ اللهُ سُبحَانَهُ: ﴿ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ [سورة الزمر:١٧]، قَالَ: فَقُلتُ لِمَالِكٍ: وَمَا الجِبتُ؟ قَالَ: سَمِعتُ مَن يَقُولُ: هُوَ الشَّيطَانُ.

وَقَالَ أَبُو جَعفَرٍ النَّحَّاسُ فِي «مَعَانِي القُرآنِ» (١/ ٢٧١): وَقَالَ أَبُو عُبَيدَةَ: الجِبتُ وَالطَّاغُوتُ كُلُّ مَا عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ، قَالَ أَبُو جَعفَرٍ: وَهَذَا غَيرُ خَارِجٍ مِمَّا قُلنَا.

وَلَعَلَّهُ مَالِكٌ يَدُلُّ عَلَيهِ هَذَا الأَثَرُ عَن عُمَرَ.

رَوَىٰ ابنُ أَبِي شَيبَةَ (١٥٧٩٦)، وَالأَزرَقِيُّ فِي «أَخبَارِ مَكَّةَ» (١/ ٣٣٩)، وَ«أَخبَارُ مَكَّةَ» لِلفَاكِهِيِّ (٤٠)، عَن سَعِيدِ بنِ المُسَيِّبِ، أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ كَانَ يَقُولُ إِذَا كَبَّرَ لِاستِلَامِ الحَجَرِ: «بِسمِ اللهِ، وَاللهُ أَكبَرُ، عَلَىٰ مَا هَدَانَا اللهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، آمَنتُ بِاللهِ، وَكَفَرتُ بِالطَّاغُوتِ وَبِاللَّاتِ وَالعُزَّىٰ وَمَا يُدعَىٰ مِن دُونِ اللهِ، إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّىٰ الصَّالِحِينَ».

وَرَوَىٰ ابنُ سَعدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ» (٨/ ٣٠٣)، وَأَحمَدُ (٢٧٠٦٦)، وَالبُخَارِيُّ فِي «التَّارِيخِ الكَبِيرِ» (٣٣٢٣)، وَابنُ أَبِي خَيثَمَةَ فِي تَارِيخِهِ (٢/ ٨٤٦)، وَابنُ مَاجَه (٢١٣١)، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «المُعجَمِ الكَبِيرِ» (١٩/ ٤٢٦) وَ(٢٥/ ٧٣)، وَأَبُو نُعَيمٍ فِي «مَعرِفَةِ الصَّحَابَةِ» (٥٨٨٣) بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ مِن طَرِيقِ عَبدِ اللهِ بنِ عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ يَعلَىٰ بنِ كَعبٍ الثَّقَفِيِّ، عَن يَزِيدَ بنِ مِقسَمٍ، عَن مَيمُونَةَ بِنتِ كَردَمٍ؛ أَنَّهَا كَانَت رَدِيفَةَ أَبِيهَا فَسَمِعَت أَبَاهَا يَسأَلُ النَّبِيَّ -ﷺ- قَالَ: إِنِّي نَذَرتُ لِأَنحَرَ بِبُوَانَةَ؟ قَالَ: «هَل بِهَا وَثَنٌ أَو طَوَاغِيتُ تُعبَدُ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «أَوفِ بِقَولِكَ حَيثُ نَذَرتَ».

وَفِي لَفظٍ: «أَو طَاغِيَةٌ تُعبَدُ».

وَقَالَ ابنُ هِشَامٍ كَمَا فِي «السِّيرَةِ» (١/ ٥٦٢): الجِبتُ (عِندَ العَرَبِ): مَا عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ. وَالطَّاغُوتُ: كُلُّ مَا أَضَلَّ عَنِ الحَقِّ.

قَالَ أَبُو جَعفَرٍ النَّحَّاسُ فِي «إِعرَابِ القُرآنِ» (١/ ٢١٩): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، وَهُمَا كُلُّ مَا عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ جَلَّ وَعَزَّ، وَإِيمَانُهُم بِالجِبتِ وَالطَّاغُوتِ قَولُهُم لِمَن عَبَدَ الأَوثَانَ: هَؤُلَاءِ أَهدَىٰ مِنَ المُؤمِنِينَ المُوَحِّدِينَ. وَقَولُ ابنِ عَبَّاسٍ: الجِبتُ وَالطَّاغُوتُ كَعبُ بنُ الأَشرَفِ، وَحُيَيُّ بنُ أَخطَبَ، لَيسَ بِخَارِجٍ مِن ذَاكَ. وَإِنَّمَا هُوَ عَلَىٰ التَّمثِيلِ لَهُمَا بِالجِبتِ وَالطَّاغُوتِ لِأَنَّهُم أَطَاعُوهُمَا فِي تَكذِيبِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-. سَبِيلًا عَلَىٰ البَيَانِ.

وَذَكَرَ الأَزهَرِيُّ فِي «فِقهِ اللُّغَةِ» (٨/ ١٥٣): وَقَالَ أَبُو إِسحَاقَ: كُلُّ مَعبُودٍ مِن دُونِ اللهِ جِبتٌ وَطَاغُوتٌ.

وَنَسَبَهُ أَيضًا النَّحَّاسُ فِي إِعرَابِ القُرآنِ (١/ ٢٢) لَهُم جَمِيعًا، وَالوَاحِدِيُّ فِي «الوَسِيطِ» (١/ ٣٦٩)، وَكَثِيرٌ مِمَّن نَسَبَهُ لَهُم مِمَّن كَتَبَ فِي اللُّغَةِ وَالمَعَاجِمِ، يَذكُرُونَ هَذَا القَولَ العَامَّ، انظُر مَثَلًا: «المُحكَمُ» (٦/ ٤٣)، وَ«المُخَصَّصُ» (٤/ ٦٧)، وَ«الجَمهَرَةُ» (١/ ٢٥٢).

وَقَد عَدَّ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفسِيرِهِ هَذَا مِن وُجُوهِ تَفسِيرِ الطَّاغُوتِ فِي الآيَةِ.

الثَّالِثُ: السَّاحِرُ وَالكَاهِنُ وَمَن فِي مَعناهُم:

فَالسَّاحِرُ طَاغُوتٌ؛ لِأَنَّهُ يُنَازِعُ مَا اختَصَّ اللهُ بِهِ مِن دَعوَىٰ عِلمِ الغَيبِ المُطلَقِ، وَيَدَّعِي أَنَّهُ يَعلَمُ مَا يَقعُ غَدًا أَو بَعدَ سَنَةٍ، وَيَدخُلُ فِي مَعنَاهُ: الكَاهِنُ وَالعَرَّافُ وَالرَّمَّالُ وَأَصحَابُ الأَبرَاجِ، وَكُلُّ مَن يَدَّعِي عِلمَ الغَيبِ المُطلَقَ.

الغَيبُ: مَا غَابَ عَنِ الإِنسَانِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَمرٍ مَاضٍ لَا يَعلَمُهُ، أَو أَمرٍ مُستَقبَلٍ لَم يَقع بَعدُ. وَعِلمُ الغَيبِ مِمَّا استَأثَرَ اللهُ بِهِ، فَلَا يُشرِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ عَلَىٰ وَجهِ الِاستِقلَالِ.

وَقَد دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [سورة النمل:٦٥].

وَهَذَا أُسلُوبُ نَفيٍ وَإِثبَاتٍ، وَهُوَ مِن أَبلَغِ أَدَوَاتِ الحَصرِ؛ فَيَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ عِلمَ الغَيبِ مَحصُورٌ فِي اللهِ وَحدَهُ.

لِمَاذَا كَانَ مُدَّعِي الغَيبِ طَاغُوتًا؟

لِأَنَّهُ جَعَلَ نَفسَهُ نَظِيرًا لِلَّهِ فِي خَاصِّيَّةٍ مِن خَوَاصِّهِ، فَتَجَاوَزَ الحَدَّ، وَنَازَعَ الرَّبَّ سُبحَانَهُ مَا اختَصَّ بِهِ.

أَشهَرُ صُوَرِ ادِّعَاءِ الغَيبِ:

مِن صُوَرِ ذَلِكَ —قَدِيمًا وَحَدِيثًا— مَا يَكُونُ عِندَ الكُهَّانِ وَالعَرَّافِينَ، وَمَا يَتَفَرَّعُ عَنهُ مِن طُرُقٍ يَتَلَوَّنُ بِهَا البَاطِلُ، مِثلَ:

وَرَوَىٰ ابنُ أَبِي شَيبَةَ (٣٧٢٤٢)، وَالآجُرِّيُّ فِي «الشَّرِيعَةِ» (٨١)، وَأَبُو نُعَيمٍ فِي «الحِليَةِ» (٤/ ٢٨٠)، وَابنُ بَطَّةَ فِي «الإِبَانَةِ الكُبرَىٰ» (٧٦٩)، وَالدَّانِيُّ فِي كِتَابِهِ «الفِتَنِ» (٣٤) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَن سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ قَالَ: قَالَ لِي رَاهِبٌ: يَا سَعِيدُ، فِي الفِتنَةِ يَتَبَيَّنُ لَكَ مَن يَعبُدُ اللهَ تَعَالَىٰ، وَمَن يَعبُدُ الطَّاغُوتَ.

التَّكَهُّنِ وَالعِرَافَةِ وَالِاستِعَانَةِ بِالشَّيَاطِينِ.

ضَربِ الرَّملِ وَالخَطِّ فِي الأَرضِ.

قِرَاءَةِ الكَفِّ، وَالضَّربِ بِالحَصَىٰ، وَنَحوِ ذَلِكَ.

تَتَبُّعِ الأَبرَاجِ وَتَعلِيقِ المَصَائِرِ بِهَا.

مَا يُسَمَّىٰ بِقِرَاءَةِ الفِنجَانِ وَنَحوِهِ.

مَا يَبنُونَهُ عَلَىٰ حِسَابَاتٍ وَجَدَاوِلَ وَأَرقَامٍ يَزعُمُونَ أَنَّهَا تَكشِفُ المُستَقبَلَ.

وَالمَقصُودُ أَنَّ تِلكَ كُلَّهَا تَرجِعُ إِلَىٰ أَصلٍ وَاحِدٍ: ادِّعَاءُ مَا اختَصَّ اللهُ بِهِ.(١)

---

(١) **قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَابنُ سِيرِينَ:** الطَّاغُوتُ السَّاحِرُ.

انظُر الطَّبَرِيَّ (٥٨٤١).

وَفِي قَولِهُ تَعَالَىٰ (الْجِبتُ وَالطَّاغُوتُ) قَالَ سَعِيدُ بنُ جُبَيرٍ: الطَّاغُوتُ السَّاحِرُ.

وَرَوَىٰ ابن أَبِي حاتم (٥٤٥٤) عَن حَنَشِ بنِ الحَارِثِ، قَالَ: سَمِعتُ الشَّعبِيَّ يَقُولُ: الطَّاغُوتُ السَّاحِرُ.

رُوِيَ عَن جَابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: وَسُئِلَ عَنِ الطَّوَاغِيتِ الَّتِي كَانُوا يَتَحَاكَمُونَ إِلَيهَا، فَقَالَ: «كَانَ فِي جُهَينَةَ وَاحِدٌ، وَفِي أَسلَمَ وَاحِدٌ، وَفِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ، وَهِيَ كُهَّانٌ يَنزِلُ عَلَيهَا الشَّيطَانُ». [رواه الطبري (٥٨٤٥)].

وَرَوَىٰ الطبراني فِي الكبير (١٢٠٤٥) والضياء فِي المختارة (١٤١) بسند جيد عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «كَانَ أَبُو بَرزَةَ الأَسلَمِيُّ كَاهِنًا يَقضِي بَينَ اليَهُودِ فِيمَا يَتَنَافَرُونَ إِلَيهِ، فتنافرَ إِلَيهِ نَاسٌ مِنَ المُسلِمِينَ، فَأَنزَلَ اللهُ -ﷻ- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ [سورة النساء:٦٠]، إِلَىٰ قَولِهِ، ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا﴾ [سورة النساء:٦٢]».

وَرَوَىٰ ابنُ الْمُنذِرِ فِي تَفسِيرِهِ (١٨٨١) بِسَنَدٍ صَالِحٍ عَن عِكرِمَةَ مَولَىٰ ابنِ عَبَّاس: «﴿بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [سورة النساء:٥١] الطَّاغُوتُ: الْكَهَانَةُ».

وَرَوَىٰ ابن أَبِي حاتم (٥٤٥٢) بسند حسن عَن جَابِرَ بنَ عَبدِ اللهِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الطَّوَاغِيتِ، قَالَ: هُم كُهَّانٌ

تَنزِلُ عَلَيهِمْ شَيَاطِينُ.

وَرَوَىٰ ابن أَبِي حاتم (٥٤٥٣) عَنِ السُّدِّيِّ، عَن أَبِي مَالِكٍ قَالَ: الطَّاغُوتُ: الكَاهِنُ.

وَرُوِيَ عَنِ أَبِي العَالِيَةِ فِي إِحدَىٰ الرِّوَايَاتِ، وَعِكرِمَةَ فِي إِحدَىٰ الرِّوَايَاتِ، وَالشَّعبِيِّ فِي إِحدَىٰ الرِّوَايَاتِ وَسَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ نَحوُ ذَلِكَ.

فِي الطبري (٤/ ٥٥٨) عَنِ ابنِ جُرَيجٍ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ [سورة البقرة:٢٥٦] قَالَ: «كُهَّانٌ تَنزِلُ عَلَيهَا شَيَاطِينُ يُلقُونَ عَلَىٰ أَلسِنَتِهِم وَقُلُوبِهِم».

وَرَوَىٰ إبراهيم الحربي (٦٤٣/ ٢) بسند صحيح عَن سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ، قَالَ: «الطَّاغُوتُ: الكَاهِنُ».

وَرَوَىٰ ابنُ الْمُنذِرِ فِي تَفسِيرِهِ (١٩٤٧) عَن مُحَمَّدِ بنِ إِسحَاق،أَنَّ مُعتِبَ بنَ قُشَيرَةَ، وَرَافِعَ بنَ زَيدٍ، وَبَشِيرًا، كَانُوا يَدعُونَ بِالإِسلَامِ، دَعَاهُم قَومٌ مِنَ المُسلِمِينَ فِي خُصُومَةٍ كَانَت إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-، فَدَعَوهُم إِلَىٰ الْكُهَّانِ حُكَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَنزَلَ اللهُ جَلَّ وَعَزَّ فِيهِ: يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَىٰ الطَّاغُوتِ ".

لِهَذَا وَجَدنَا فِي بَعضِ الْآيَاتِ لِلَفظَةِ الطَّاغُوتِ أَن سَعِيدَ بنَ جُبَيرٍ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيَّ وَرُفَيعَ وَابنَ جُرَيجٍ وَبِهِ قَالَ الزَّجَّاجُ وَابنُ الْمُنذِرِ: الطَّاغُوتُ هُوَ الْكَاهِنُ.

رَاجِع تَفسِيرَ الطَّبَرِيِّ (٤١٨/ ٥) و (٤٦٨/ ٨) وَتَفسِيرَ بنِ الْمُنذِرِ (١٨٨٠) وَمَعَانِيَ الْقُرآنِ لِلزَّجَّاجِ (٦٨/ ٢) وَتَعظِيمَ قَدرِ الصَّلَاةِ (٧١١).

رَوَىٰ الطبري فِي تفسيره (٩٨٩١) عَن عَامِرٍ، فِي هَذِهِ الآيَةِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [سورة النساء:٦٠] قَالَ: «كَانَ بَينَ رَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ وَرَجُلٍ مِنَ المُنَافِقِينَ خُصُومَةٌ، فَكَانَ المُنَافِقُ يَدعُو إِلَىٰ اليَهُودِ لِأَنَّهُ يَعلَمُ أَنَّهُم يَقبَلُونَ الرِّشوَةَ، وَكَانَ اليَهُودِيُّ يَدعُو إِلَىٰ المُسلِمِينَ لِأَنَّهُ يَعلَمُ أَنَّهُم لَا يَقبَلُونَ الرِّشوَةَ، فَاصطَلَحَا أَن يَتَحَاكَمَا إِلَىٰ كَاهِنٍ مِن جُهَينَةَ، فَأَنزَلَ اللهُ فِيهِ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [سورة النساء:٦٠] حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة النساء:٦٥] ».

وَفِي لفظ آخر جَاءَ فِي آخره: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [سورة النساء:٦٠] يَقُولُ: «إِلَىٰ الكَاهِنِ ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [سورة النساء:٦٠] أَمَرَ هَذَا فِي كِتَابِهِ، وَأَمَرَ هَذَا فِي كِتَابِهِ أَن يُكفَرَ بِالكَاهِنِ».

وَنَفسُ السَّبَبِ فِي نُزُولِهَا ذَكَرَهُ سُلَيمَانُ التَّيمِيُّ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ.

الرَّابِعُ: كَعبُ بنُ الأَشرَفِ وَمَن شَابَهَهُ فِي شَرعِ الكُفرِ وَشِركِ الطَّاعَةِ:

وَيدخُلُ فِي هَذَا الوَجهِ: مَن شَرَعَ الكُفرَ لِلنَّاسِ، وَدعَا إِلَيهِ، وَنَصبَ نَفسَهُ مَرجِعًا فِي الطَّاعَةِ عَلَىٰ وَجهٍ يُنَازِعُ بِهِ حُكمَ اللهِ.(١)

وَرَوَىٰ الطَّبَرِيُّ (٩٧٧١) قَالَ مُجَاهِدٌ: الطَّاغُوتُ هُوَ الشَّيطَانُ وَالْكَاهِنُ.

(قُلتُ): فَجَمَعَ بَينَهُمَا فِي الْمَعنَىٰ وَهَذَا يُفِيدُ تَعَدُّدَ مَعنَىٰ الطَّاغُوتِ عِندَ السَّلَفِ.

رَوَىٰ الطبري (٩٧٧٧) عَن قَتَادَةَ: قَولَهُ: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [سورة النساء:٥١] كُنَّا نُحَدِّثُ أَنَّ الجِبتَ شَيطَانٌ، وَالطَّاغُوتَ الكَاهِنُ ".

(قُلتُ) الْمُلَاحَظُ فِي تَفسِيرَاتِ السَّلَفِ أَن مَعنَىٰ (الطَّاغُوتِ) يَتَغَيَّرُ عِندَهُم حَسَبَ السِّيَاقِ فَفِي مَوضِعٍ قَالُوا: هُنَا الشَّيطَانُ وَفِي آخَرَ يَقُولُونَ هُنَا السَّاحِرُ وَفِي آخَرَ قَالُوا الْكَاهِنُ وَمَرَّةً قَالُوا هُوَ: فُلَانٌ كَكَعبِ بنِ الْأَشرَفِ وَكُلُّ ذَلِكَ حَسَبَ سِيَاقِ الْآيَةِ وَسَبَبِ نُزُولِهَا.

(١) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [سورة البقرة:٢٥٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [سورة النساء:٦٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء:٥١].

وَقِيلَ فِي كُلِّ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّهَا نَزَلَت فِي كَعبِ بنِ الْأَشرَفِ فِي قَولِ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ كَابنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ وَالضَّحَّاكِ ويحي بنِ سَلَامٍ وَغَيرِهِم كَثِيرٌ.

جَاءَ فِي أَسبَابِ النُّزُولِ لِلوَاحِدِيِّ (ص٩٢): وَقَالَ الكَلبِيُّ، عَن أَبِي صَالِحٍ، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَت فِي رَجُلٍ مِنَ المُنَافِقِينَ كَانَ بَينَهُ وَبَينَ يَهُودِيٍّ خُصُومَةٌ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: انطَلِق بِنَا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، وَقَالَ المُنَافِقُ: بَل نَأتِي كَعبَ بنَ الأَشرَفِ- وَهُوَ الَّذِي سَمَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ الطَّاغُوتَ-....

وَأخرج ابنُ جَرِيرٍ وَابنُ أَبِي حَاتِمٍ مِن طَرِيقِ العَوفِيِّ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ فِي قَولِهِ: يُرِيدُونَ أَن يَتَحاكَمُوا إِلَىٰ الطَّاغُوتِ قَالَ: الطَّاغُوتُ: رَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ كَانَ يُقَالُ لَهُ كَعبُ بنُ الأَشرَفِ، وَكَانُوا إِذَا مَا دُعُوا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ لِيَحكُمَ بَينَهُم قَالُوا: بَل نُحَاكِمُكُم إِلَىٰ كَعبٍ، فَنَزَلَتِ الآيَةُ.

وَرَوَىٰ الطَّبَرِيُّ (٩٧٨٢) بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ، قَوْلُهُ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [سورة النساء:٥١] الطَّاغُوتُ: كَعبُ بنُ الأَشرَفِ، وَالجِبتُ: حُيَيُّ بنُ أَخطَبَ ".

وَرَوَىٰ عَن مُجَاهِدٍ والرَّبيع بنِ أَنَسٍ وَالضَّحَّاكِ وَمُقَاتِلٍ مِثلَ قَولِ ابنِ عَبَّاسٍ.

فِي تَفسِيرِ مُجَاهِدٍ (٢٨٥/ ١) عَنِ ابنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَن مُجَاهِدٍ، قَالَ: تَنَازَعَ رَجُلٌ مِنَ المُنَافِقِينَ وَرَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ فَقَالَ اليَهُودِيُّ: اذهَب بِنَا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، وَقَالَ المُنَافِقُ: اذهَب بِنَا إِلَىٰ كَعبِ بنِ الأَشرَفِ فَأَنزَلَ اللهُ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [سورة النساء:٦٠] «وَهُوَ كَعبُ بنُ الأَشرَفِ».

انظُر غَرِيبَ الْحَدِيثِ لِلحَربِيِّ (٦٤٤/ ٢).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [سورة المائدة:٦٠].

رَوَىٰ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ (٥٤٥٠) بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَولَهُ: الطَّاغُوتِ قَالَ: كَعبُ بنُ الأَشرَفِ. قَالَ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرُوِيَ عَن عَطِيَّةَ وَقَتَادَةَ نَحوُ ذَلِكَ.

نَقَلَ عَلِيُّ بنُ الْحَسَنِ الْهُنَائِيُّ فِي كِتَابِهِ الْمُنتَخَبِ مِن كَلَامِ الْعَرَبِ (٥٥/ ١): وَقَالَ الْخَلِيلُ تُقرأ هَذِهِ الْآيَةُ فِي كِتَابِ اللهِ سُبحَانَهُ عَلَىٰ سَبعَةِ أَوجُهٍ فَلِهَذَا قِيلَ الْقُرآنُ عَلَىٰ سَبعَةِ أَوجُهٍ؛ تُقرأُ: (وَعَبَدَ الطَّاغُوت) مَعنَاهُ أَنَّهُ عَبَدَ الطَّاغُوتَ مِن دُونَ اللهِ سُبحَانَهُ. (وعُبِدَ الطَّاغُوتُ) رَفعٌ كَمَا تَقُولُ: ضُرِبَ عَبدُ اللهِ (وعَبُدَ الطَّاغوتُ) مَعنَاهُ صَارَ الطَّاغُوتُ يُعبد كَمَا تَقُولُ فَقُهَ الرَّجُلُ، وظَرُفَ الرَّجُلُ (وعُبَّدَ الطَّاغُوتِ) مَعنَاهُ عُبَّاد الطَّاغُوتِ؛ جَمعٌ مِثلُ سُجَّد ورُكَّع، (وعَبَدَ الطَّاغِوتِ) أَرَادَ بِهِ: وعَبَدَةَ الطَّاغُوتِ مِثلُ كَفَرَةٍ وَفَجَرَةٍ فَطَرَحَ الْهَاءَ فِي الْهَاءِ فِي اللَّفظِ وَالْمَعنَىٰ فِي الْهَاءِ (وعَابِدَ الطَّاغُوتِ) كَمَا تَقُولُ: ضَارِبُ الرَّجُلِ (وعُبُدُ الطَّاغُوتِ) جَمَاعَةٌ؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ: عَابِدٌ وعُبُدٌ، ويُقَالُ لِلمُشرِكِينَ: هَؤُلَاءِ عَبَدَةُ الطَّاغُوتِ وَالْأَوثَانِ، ويُقَالُ لِلمُسلِمِينَ: عُبَّادٌ.

قَالَ الْفَرَّاءُ فِي مَعَانِي الْقُرآنِ (٣١٤/ ١): وَمَن عَبَدَ الطاغوتَ» وَهِيَ فِي قِرَاءَةِ أُبَيّ وعبد اللهِ (وَعَبَدُوا) عَلَىٰ الْجمعِ، وَكَانَ أَصحَابُ عَبدِ اللهِ يَقرَأُونَ «وَعَبَد الطاغوتِ» عَلَىٰ فَعل، ويضيفونها إِلَىٰ الطاغوت، ويفسّرونها: خَدمَة الطَّاغُوتِ. فَأَرَادَ قَومٌ هَذَا الْمَعنَىٰ، فَرَفَعُوا العَين فَقَالُوا: عُبُد الطاغوتِ مِثلَ ثِمَارٍ وثُمُر، يَكُونُ جَمعَ جَمع.

وَلَو قَرَأَ قَارِئٌ (وعَبَد الطاغوتِ) كَانَ صوابًا جيّدًا. يُرِيدُ عَبَدَةَ الطَّاغُوتِ فَيَحذِفُ الهَاء لِمَكَانِ الْإِضَافَةِ

كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

قام وُلاها فسقوها صَرخدًا يُرِيدُ: ولاتها.

وَأَمَّا قَولُهُ (وَعَبَدَ الطَّاغُوت) فَإِنَّ تكُن فِيهِ لُغَةٌ مِثْل حَذِر وحَذُر وَعَجُل فَهُوَ وَجهٌ، وَإِلَّا فإنَّه أَرَادَ- وَاللهُ أَعلَمُ- قَولَ الشَّاعِرِ:

أَبَنِـــــي لُبَيْنَـــــىٰ إنّ أَمَّكُـــــمُ أَمَـــــةٌ وإن أبـــــاكم عَبُـــــد

قَالَ الْأَزهَرِيُّ فِي فِقهِ اللُّغَةِ (٨/١٥٣) مُعَلِّلًا كَونَ دُخُولِ كَعبِ بنِ الْأَشرَفِ وَحُيَيِّ بنِ الْأَخطَبِ فِي مَعنَىٰ الطَّاغُوتِ فقَالَ: وَقيل فِي بَعضِ التَّفسِير: الْجِبتُ وَالطَّاغُوتُ: حُيَيُّ بنُ أخطب وَكَعب بنُ الأشرفِ اليهوديَّانِ وَهَذا غيرُ خَارج مِمَّا قَالَ أهلُ اللغةِ لأَنهم إِذا اتَّبعوا أَمرهمَا فَقَد أَطَاعُوهُمَا مِن دونِ اللهِ.

قَالَ ابنُ تَيمِيَّةَ فِي مَجمُوعِ الْفَتَاوَىٰ (١\٩٨): وَكَثِيرٌ مِن الْمُتَفَقِّهَةِ وَأَجنَادِ الْمُلُوكِ وَأَتبَاعِ الْقُضَاةِ وَالعَامَّةِ الْمُتَّبِعَةِ لِهَؤُلَاءِ يُشرِكُونَ شِركَ الطَّاعَةِ.

وَقَد قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ- لِعَدِيِّ بنِ حَاتِمٍ- لَمَّا قَرَأَ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [سورة التوبة:٣١]، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَبَدُوهُم !؟

فَقَالَ مَا عَبَدُوهُم وَلَكِن أَحلُّوا لَهُم الحَرَام فَأَطَاعُوهُم وَحَرَّمُوا عَلَيهِم الحَلَالَ فَأَطَاعُوهُم.

وَقَالَ أَبُو إِسحَاقَ الزَّجَّاجُ كَمَا فِي مَعَانِي الْقُرآنِ وَإِعرَابِهِ (٢/ ٢٨٧): ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ [سورة الأنعام:١٢١]، هَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا دَلِيلٌ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَحَلَّ شيئًا مِمَّا حرمَ اللهُ عَلَيهِ أوحرَّم شيئًا مِمَّا أحلَّ اللهُ لَهُ فَهُوَ مُشرِكٌ.

لَو أحلَّ مُحِل الْمَيتَة فِي غير اضطِرَارٍ، أَو أَحَلَّ الزِّنَا لَكان مُشركًا بِإجماع الأمَّةِ، وَإِن أَطَاعَ اللهَ فِي جَمِيعِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَإِنَّمَا سُمِّي مُشْركًا لِأَنَّهُ اتَّبَعَ غيرَ الله، فَأَشرَكَ بالله غيرَهُ.

وَرُوِيَ عَن إِسمَاعِيلَ السُّدِّيِّ -مِن طَرِيقِ أَسبَاطٍ- فِي الْآيَةِ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ [سورة البقرة:١٦٥] قَالَ: الأندادُ مِنَ الرِّجَالِ، يُطِيعُونَهُم كَمَا يُطِيعُونَ اللهَ، إِذَا أَمَرُوهُم أَطَاعُوهُم وَعَصَوا اللهَ. أَخرَجَهُ ابنُ جَرِيرٍ (٣/ ١٨).

وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا

﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [سورة التوبة:٣٧].

وَالنَّسِيءُ فِي أَصلِهِ: أَنَّ رَجُلًا مِن بَنِي كِنَانَةَ يُدعَىٰ حُذَيفَةَ، وَيُكنَىٰ القَلَمَّسَ، كَانَ يَتَوَلَّىٰ تَحدِيدَ الأَشهُرِ الحُرُمِ لِلعَرَبِ، فَإِذَا احتَاجَ إِلَىٰ الحَربِ فِي شَهرٍ مُحَرَّمٍ أَحَلَّهُ، وَأَبدَلَ حُرمَتَهُ بِشَهرٍ آخَرَ لِيُوَافِيَ العِدَّةَ الَّتِي حَرَّمَهَا اللهُ، وَكَانَت العَرَبُ تَتبَعُهُ فِي ذَلِكَ جِيلًا بَعدَ جِيلٍ.

وَمِمَّا يُنِيرُ حَقِيقَةَ هَذِهِ الجَرِيمَةِ العَظِيمَةِ اختِلَافُ القُرَّاءِ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يُضَلُّ﴾، فَقَرَأَ الجُمهُورُ بِفَتحِ اليَاءِ وَضَمِّ الضَّادِ: ﴿يَضِلُّ﴾، عَلَىٰ أَنَّ الكُفَّارَ أَنفُسَهُم هُم الضَّالُّونَ بِالنَّسِيءِ؛ وَقَرَأَ أَهلُ الكُوفَةِ وَغَيرُهُم: ﴿يُضَلُّ﴾ بِضَمِّ اليَاءِ وَفَتحِ الضَّادِ، عَلَىٰ أَنَّ كُبَرَاءَهُم يُضِلُّونَ بِهِ أَتبَاعَهُم وَمُقَلِّدِيهِم.

وَقَد فَسَّرَ السَّلَفُ هَذِهِ الآيَةَ بِمَا يُبَيِّنُ حَقِيقَةَ هَذَا الإِضلَالِ؛ فَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا- فِي القَلَمَّسِ: كَانَ يُنَادِي فِي المَوسِمِ: "أَلَا إِنَّ صَفَرَ العَامِ الأَوَّلِ العَامَ حَلَالٌ"، فَيُحِلُّهُ النَّاسُ.

وَقَالَ الزُّهرِيُّ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو وَائِلٍ وَالشَّعبِيُّ: كَانُوا رُبَّمَا أَخَّرُوا تَحرِيمَ المُحَرَّمِ إِلَىٰ صَفَرٍ فَيَقبَلُونَ مِنهُم.

وَقَالَ ابنُ مَسعُودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- فِي مَعنَىٰ الآيَةِ: يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ يَقبَلُونَ مِنَ الحُسَّابِ.

فَتَأَمَّل هَذِهِ العِبَارَاتِ: "فَيُحِلُّهُ النَّاسُ"، "فَيَقبَلُونَ مِنهُم"، "الَّذِينَ يَقبَلُونَ"؛ لَيسَ فِيهَا حَرفٌ وَاحِدٌ يَقتَضِي اعتِقَادَ الأَتبَاعِ بِأَنَّ لِلقَلَمَّسِ حَقًّا فِي التَّشرِيعِ، وَلَا أَنَّهُم اعتَقَدُوا فِيهِ رُبُوبِيَّةً أَو أُلُوهِيَّةً؛ وَإِنَّمَا غَايَةُ مَا فِيهَا أَنَّهُم اتَّبَعُوهُ وَقَبِلُوا مِنهُ وَاقتَدَوا بِهِ فِي تَحلِيلِ مَا حَرَّمَ اللهُ؛ وَمَعَ ذَلِكَ سَمَّىٰ اللهُ هَذِهِ المُوَافَقَةَ الظَّاهِرَةَ "زِيَادَةً فِي الكُفرِ"، وَجَعَلَ فَاعِلِيهَا مِنَ "القَومِ الكَافِرِينَ" الَّذِينَ لَا يَهدِيهِمُ اللهُ.

فَهَذَا نَصٌّ قَاطِعٌ فِي أَنَّ مُجَرَّدَ الِانقِيَادِ الظَّاهِرِ لِمَن يُحِلُّ وَيُحَرِّمُ مِن دُونِ اللهِ -وَلَو خَلَا القَلبُ مِن تَعظِيمِهِ اعتِقَادًا- كُفرٌ زَائِدٌ عَلَىٰ الكُفرِ الأَصلِيِّ؛ إِذ الحُكمُ تَعَلَّقَ بِذَاتِ الِاتِّبَاعِ وَالمُوَافَقَةِ، لَا بِمَا استَكَنَّ فِي القُلُوبِ مِن تَصدِيقٍ أَو تَكذِيبٍ.

وَهَذَا الأَصلُ بِعَينِهِ هُوَ الَّذِي قَرَّرَهُ اللهُ فِي شِركِ الطَّاعَةِ الأَكبَرِ، إِذ قَالَ سُبحَانَهُ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٣١﴾ [سورة التوبة:٣١]؛ وَلَم يَكُن أُولَئِكَ يَسجُدُونَ لِأَحبَارِهِم وَرُهبَانِهِم، وَلَا

الخامس: الأوثان والأصنام: مَا عُبد من دون الله، وَفِي الحديث: "ومن كَانَ يعبد الطواغيت فليتبع الطواغيت".(١)

يَعتَقِدُونَ فِيهِم رُبُوبِيَّةً مُسْتَقِلَّةً، وَإِنَّمَا كَانُوا يُطِيعُونَهُم فِيمَا يُحِلُّونَ وَيُحَرِّمُونَ مِن غَيرِ إِذنٍ مِنَ اللهِ؛ فَسَمَّىٰ اللهُ هَذِهِ الطَّاعَةَ اتِّخَاذًا لَهُم أَربَابًا، وَجَعَلَهَا شِركًا مُنَافِيًا لِتَوحِيدِ الإِلَهِ الوَاحِدِ.

وَالمُحَصَّلُ: أَنَّ النَّسِيءَ وَآيَةَ الأَحبَارِ وَالرُّهبَانِ أَصلَانِ مُتَّحِدَانِ فِي المَعنَىٰ، مُختَلِفَانِ فِي الصُّورَةِ؛ كِلَاهُمَا يُقَرِّرُ أَنَّ مُنَازَعَةَ اللهِ فِي حَقِّهِ الخَاصِّ بِالتَّشرِيعِ وَالتَّحلِيلِ وَالتَّحرِيمِ شِركٌ يَقَعُ بِذَاتِ الِانقِيَادِ وَالمُوَافَقَةِ الظَّاهِرَةِ لِلمُشَرِّعِ مِن دُونِ اللهِ، وَلَو لَم يَقتَرِن بِذَلِكَ اعتِقَادٌ قَلبِيٌّ بِرُبُوبِيَّتِهِ أَو أُلُوهِيَّتِهِ؛ وَهُوَ عَينُ مَا قَرَّرنَاهُ فِي بَابِ العِبَادَةِ مِن أَنَّ الحُكمَ الشَّرعِيَّ يَتَعَلَّقُ بِالِانقِيَادِ الظَّاهِرِ، لَا بِمَا وَرَاءَهُ مِن أَحوَالِ القُلُوبِ.

(١) **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [سورة النحل:٣٦].

فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ الْمَشهُورِ وَفِيهِ: مَن كَانَ يَعبُدُ شَيئًا فَليَتبَعهُ، فَيَتبَعُ مَن كَانَ يَعبُدُ القَمَرَ، وَمَن كَانَ يَعبُدُ الشَّمسَ، وَمَن كَانَ يَعبُدُ الطَّوَاغِيتَ.. [رواه البخاري (٦٥٧٣) مسلم (١٨٢)]

الطَّوَاغِيتُ هُنَا هِيَ: الأَصنَامُ وَالأَوثَانُ عُمُومًا.

وَرَوَىٰ الطبراني فِي الكبير (٩٩٧) والطحاوي فِي شرح معاني الآثار (٣٨٧٨) والشجري فِي أماليه (٦١٨) عَن عِيَاضِ بنِ حِمَارٍ المُجَاشِعِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- **قَالَ يَومًا:** «أَلَا أُحَدِّثُكُم مَا حَدَّثَنِي اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بِهِ فِي الكِتَابِ: إِنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- خَلَقَ آدَمَ وَبَنِيهِ حُنَفَاءَ مُسلِمِينَ، فَأَعطَاهُمُ المَالَ حَلَالًا لَا حَرَامَ فِيهِ، وَعَبَدُوا الطَّوَاغِيتَ..

رَوَىٰ البخاري (٣٠٢٠) ومسلم (٢٤٧٦) عَن جَرِيرٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- **قَالَ:** «يَا جَرِيرُ إِنَّهُ لَم يَبقَ مِن طَوَاغِيتِ الجَاهِلِيَّةِ إِلَّا بَيتُ ذِي الخَلَصَةِ فَاكفِنِيهِ.

رَوَىٰ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ (١٣٩٩٩) مِن طَرِيقِ مُوسَىٰ بنِ عُقبَةَ عَنِ ابنِ شِهَابٍ قَالَ وَذَكَرَ قِصَّةَ الْغَرَانِيقِ... وَقَالَ: فَلَمَّا أَنزَلَ اللهُ سورة النجم قَالَ: أَفَرَأَيتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخرَىٰ أَلقَىٰ الشَّيطَانُ، عِندَهَا كَلِمَاتٍ، وَحِينَ ذَكَرَ الطَّوَاغِيتَ فَقَالَ: وَإِنَّهُنَّ لَهُنَّ الْغَرَانِيقُ الْعُلَىٰ، وَإِن شَفَاعَتَهُنَّ لَهِيَ الَّتِي تُرتَجِي.. » أَي الأَصنَامُ الَّتِي عَبَدَتهَا قُرَيشٌ.

قَالَ تعَالَىٰ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ [سورة الزمر:١٧] قَالَ السُّدِّيُّ وَمُقَاتِلٌ ويحي بنُ سَلَامٍ: عِبَادَةُ الْأَوثَانِ.

وَرَوَىٰ الطبري (٩٧٦٤) عَن عِكرِمَةَ، أَنَّهُ قَالَ: الجِبتُ وَالطَّاغُوتُ: صَنَمَانِ ".

وَأَرجَعهَا يحي بنُ سَلَامٍ لِلشَّيطَانِ فِي تَفسِيرِهِ عِندَ هَذِهِ الْآيَةِ: وَالطَّاغُوتُ: الشَّيطَانُ هُوَ دَعَاهُم إِلَىٰ عِبَادَةِ الأَوثَانِ، مِثلُ قَولِهِ: ﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾ [سورة النساء:١١٧] قَالَ تعَالَىٰ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ [سورة الزمر:١٧] [وانظر كتابه التصاريف أيضا (ص٢٧٥)].

رَوَىٰ الطبري (٢٧٤/ ٢١) قَالَ ابنُ زَيدٍ، فِي قَولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ [سورة الزمر:١٧] الآيَتَينِ «حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّ هَاتَينِ الآيَتَينِ نَزَلَتَا فِي ثَلَاثَةِ نَفَرٍ كَانُوا فِي الجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ: زَيدِ بنِ عَمرٍو، وَأَبِي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ، وَسَلمَانَ الفَارِسِيِّ، نَزَلَ فِيهِم»: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ [سورة الزمر:١٧] فِي جَاهِلِيَّتِهِم ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ [سورة الزمر:١٧-١٨]. «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ بِغَيرِ كِتَابٍ وَلَا نَبِيٍّ» ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾.

(قُلتُ) أَي اجتَنَبُوا عِبَادَةَ الأَوثَانِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَقَالُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

رَوَىٰ الطبري (٣١٧/ ٢٣) قَالَ ابنُ زَيدٍ فِي قَولِ اللهِ -ﷻ-: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [سورة الممتحنة:٤] قَالَ: الَّذِينَ مَعَهُ الأَنبِيَاءُ، وَقَولُهُ: ﴿إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الممتحنة:٤] يَقُولُ: حِينَ قَالُوا لِقَومِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللهِ، وَعَبَدُوا الطَّاغُوتَ: أَيُّهَا القَومُ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُم، وَمِنَ الَّذِينَ تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مِنَ الآلِهَةِ وَالأَندَادِ.

انظُر: مَشَارِقَ الْأَنوَارِ (٣٢١/ ١) مَادَّة طَغَىٰ وَالْغَرِيبَينِ لِلهَرَوِيِّ (١١٧٣/ ٤) وَتُحفَةَ الْأَرِيبِ (٢١٤/ ١).

قَالَ مُحَمَّدُ بنُ إِسحَاقَ بنِ يَسَارٍ: مَارَجَ أَهلُ الإِنجِيلِ وَعَظُمَت فِيهِمُ الخَطَايَا وَطَغَت فِيهِمُ المُلُوكُ حَتَّىٰ عَبَدُوا الأَصنَامَ وَذَبَحُوا لِلطَّوَاغِيتِ وَفِيهِم بَقَايَا عَلَىٰ دِينِ المَسِيحِ مُتَمَسِّكِينَ بِعِبَادَةِ اللهِ وَتَوحِيدِهِ..)

تَفسِيرُ الْبَغَوِيِّ (١٣٧/ ٣).

وَقَد جَعَلَ النَّحَّاسُ فِي إِعرَابِ الْقُرآنِ (٢٢٢/ ١) قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [سورة النساء:٦٠] مِن احَدِ وُجُوهِ تَفسِيرِهَا أَنَّهَا الأَصنَامُ وَقَالَ: وَيُروَىٰ أَن تَحَاكُمَهُم إِلَىٰ الطَّاغُوتِ أَنَّهُم كَانُوا يُجِيلُونَ

السادس: سَدَنَة الأصنام(خَدَمَتها): الَّذِينَ "يعبرون عنهَا الكذب" ليضلوا الناس (أَي يقومون بالتضليل الديني لصالح الشرك).[1]

السَّابِعُ: مَرَدَةُ أَهلِ الكِتَابِ: إِذَا كَانُوا مَرجِعًا يُطَاعُ فِي الكُفرِ.

المَتبُوعُ وَالمُطَاعُ وَمَتَىٰ يَكُونَانِ طَاغُوتَينِ:

أَمَّا المَتبُوعُ: فَهُوَ – فِي الجُملَةِ – مَن يُتَّبَعُ قَولُهُ؛ كَالعَالِمِ وَنَحوِهِ.

وَأَمَّا المُطَاعُ: فَهُوَ مَن تُنَفَّذُ أَوَامِرُهُ وَيُطَاعُ؛ كَالأَمِيرِ وَذِي السُّلطَانِ.

وَإِنَّمَا يَصِيرُ كُلٌّ مِنهُمَا طَاغُوتًا فِي حَالَتَينِ جَامِعَتَينِ:

الْقِدَاحَ فَإِذَا أَخرَجَ الْقِدحُ الْمَكتُوبُ عَلَيهِ افعَل أَو لَا تَفعَل قَالُوا قَد حَكَمَ الطَّاغُوتُ عَلَينَا بِهَذَا يَفعَلُونَ هَذَا بَينَ يَدَي الْأَصنَامِ.

(١) رَوَىٰ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفسِيرِهِ (٥٤٥١) وَالطَّبَرِيُّ (٩٧٦٥) بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَولُهُ: الطَّاغُوتِ قَالَ: الطَّاغُوتُ الَّذِي يَكُونُ بَينَ يَدَيِ الأَصنَامِ، يُعَبِّرُونَ عَنهَا الكَذِبَ لِيَضِلُّوا النَّاسَ.

وَوَجهُ كَونِ خَدَمَةِ الْقُبُورِ وسندة آلِهَةِ الْمُشرِكِينَ الْبَاطِلَةِ، أَنَّهُم سُمُّوا طَوَاغِيتَ ذَلِكَ فِي إِضلَالِهِم النَّاسَ، وَمُسَاهَمَتِهِم فِي نَشرِ الشِّركِ وَالدَّعوَةِ إِلَيهِ، وَهَذَا مِن الطُّغيَانِ وَالْعُتُوِّ فَحَقَّ لَهُم أَن يُسَمَّوا بِالطَّوَاغِيتِ، وَقَد كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِكُلِّ صَنَمٍ سَدَنَةٌ وَخُدَّامٌ وَقَد فَصَّلَ فِيهِم الْكَلَامَ ابنُ إِسحَاقَ كَمَا فِي السِّيرَةِ لِابنِ هِشَامٍ (٨٣/ ١ – ٨٨) وَفِي كِتَابِ الْأَصنَامِ لِهِشَامٍ الْكَلبِيِّ تَفصِيلًا مُطَوَّلًا رَاجِعهُ هُنَاكَ.

وَلَعَلَّهُ مِن هَذَا الْبَابِ مَا رَوَاهُ الْعَدَنِيُّ فِي الْإِيمَانِ (٨٠) حَدَّثَنَا إِبرَاهِيمُ بنُ عُيَينَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبدُ الوَاحِدِ بنُ أَيمَنَ، قَالَ: كَانَ الحَسَنُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ الحَنَفِيَّةِ، يَأمُرُ: «أَن أَقرَأَ هَذَا الكِتَابَ عَلَىٰ النَّاسِ: أَمَّا بَعدُ: فَإِنَّا نُوصِيكُم بِتَقوَىٰ اللهِ... فَبَلَّغَ مُحَمَّدٌ الرِّسَالَةَ، وَنَصَحَ الأُمَّةَ، وَعَمِلَ بِالطَّاعَةِ... وانتَجَبَ لَهُ أَقوَامًا عَرَفُوا حَقَّ اللهِ، واعتَرَفُوا بِهِ، وبَذَلُوا لَهُ دِمَاءَهُم وأَموَالَهُم.... فأَيَّدَ اللهُ بِهِمُ الدِّينَ، ودَمَغَ الحَقُّ البَاطِلَ، وأُبطِلَت دَعوَةُ الطَّوَاغِيتِ، وكُسِرَتِ الأَزلَامُ، وتُرِكَت عِبَادَةُ الأَوثَانِ، وأُجِيبَ دَاعِي اللهِ وظَهَرَ دِينُ اللهِ، وَعَرَفَ النَّاسُ أَمرَ اللهِ – ﷻ –، واعتَرَفُوا بِقَضَاءِ اللهِ، وَشَهِدُوا بِالحَقِّ، وَقَالُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، وأَدَّوا فَرَائِضَ اللهِ..

أن يُحِلَّ مَا حَرَّمَ اللهُ أو يُحَرِّمَ مَا أَحَلَّ اللهُ عَلَىٰ وَجهٍ تَشرِيعِيٍّ مُنَازِعٍ لِحُكمِ اللهِ.

أَن يُجعَلَ قَولُهُ أَو حُكمُهُ مَرجِعًا فِي النِّزَاعِ مُنَزَّلًا مَنزِلَةَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي وُجُوبِ الرُّجُوعِ وَالإِذعَانِ.(١)

مَسأَلَةٌ: التَّشرِيعُ وَصفٌ خَاصٌّ لِلرَّبِّ - جَلَّ وَعَلَا -:

وَلَكِن لَيسَ كُلُّ مَن تَكَلَّمَ فِي التَّشرِيعِ أَوِ ادَّعَاهُ يَصِيرُ طَاغُوتًا عَلَىٰ الإِطلَاقِ؛ بَلِ الأَمرُ يَتَنَوَّعُ:

قَد يَكُونُ طَاغُوتًا.

وَقَد يَكُونُ مُبتَدِعًا بِدعَةً مُكَفِّرَةً.

وَقَد يَكُونُ مُبتَدِعًا بِدعَةٍ غَيرِ مُكَفِّرَةٍ.

مِثَالُ البِدعَةِ غَيرِ المُكَفِّرَةِ:

كَالذِّكرِ الجَمَاعِيِّ؛ فَهُوَ لَا يُبطِلُ أَصلًا مِن أُصُولِ الدِّينِ، وَلَكِنَّهُ يَستَدِلُّ عَلَىٰ بَاطِلِهِ

---

(١) **قَالَ الزَّجَّاجُ فِي مَعَانِي القُرآنِ (٣٣٩/ ١) وَمَعنَىٰ:** (فَمَن يَكفُر بِالطَّاغُوتِ).

قِيلَ الطَّاغُوتُ مَرَدَةُ أَهلِ الكِتَابِ.

وَذَكَرَ الأَزهَرِيُّ فِي فِقهِ اللُّغَةِ (٨/ ١١) وَرَوَىٰ أَبُو العَبَّاسِ، عَن ابنِ الأَعرَابِي: الجِبتُ: رَئِيسُ اليَهُودِ، وَالطَّاغُوتُ رَئِيسُ النَّصَارَىٰ.

وَانظُر: المُحكَمَ لِابنِ سِيدَه (٤٣/ ٦).

قَالَ مَكِّيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ فِي تَفسِيرِهِ الهِدَايَةِ (١٣٥٥/ ٢) وَكَذَلِكَ قَالَ الضَّحَّاكُ وَالفَرَّاءُ.

وَرَوَىٰ الطَّبَرِيُّ فِي تَفسِيرِهِ (١٣٤٧): عَن مُجَاهِدٍ: " فِي قَولِهِ، ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [سورة البقرة:٧٦] قَالَ: قَامَ النَّبِيُّ - ﷺ - يَومَ قُرَيظَةَ تَحتَ حُصُونِهِم، فَقَالَ: «يَا إِخوَانَ القِرَدَةِ وَيَا إِخوَانَ الخَنَازِيرِ وَيَا عَبَدَةَ الطَّاغُوتِ» فَقَالُوا: مَن أَخبَرَ هَذَا مُحَمَّدًا؟ مَا خَرَجَ هَذَا إِلَّا مِنكُم!!.

وَأَكثَرُ شَيءٍ عَبَدُوهُ هُم رُهبَانُهُم وَأَحبَارُهُم، فَهُم طَوَاغِيتُهُم الكُبرَىٰ.

بِتَأْوِيلِ النُّصُوصِ، فَتُسَمَّىٰ هَذِهِ شَرَائِعَ مُبتَدَعَةً مِن هَذَا الوَجهِ.

مِثَالُ الِاستِحلَالِ:

وَكَذَلِكَ مَن يَستَحِلُّ مَا حَرَّمَ اللهُ؛ كَمَن يُحَلِّلُ الخَمرَ، فَهَذَا كُفرٌ؛ لِأَنَّهُ شَرَعَ مَا لَم يَأْذَن بِهِ اللهُ.

وكأَن يَعتَقِدَ الحَاكِمُ أَنَّ الحُكمَ المُخَالِفَ لِشَرعِ اللهِ جَائِزٌ، أَو أَنَّهُ خَيرٌ مِن حُكمِ اللهِ وَأَولَىٰ بِالِاتِّبَاعِ.

فَمَن رَأَىٰ حُكمَ اللهِ هُوَ الحَقَّ، وَاعتَقَدَ بُطلَانَ مَا خَالَفَهُ، ثُمَّ حَكَمَ بِخِلَافِهِ لِهَوًىٰ أَو طَمَعًا أَو ظُلمًا، فَهَذَا صَاحِبُ كَبِيرَةٍ وَمَعصِيَةٍ، لَا كَافِرٌ خَارِجٌ عَنِ المِلَّةِ؛ وَأَمَّا مَن استَحَلَّ ذَلِكَ، أَو رَأَىٰ الحُكمَ المخالف أَحسَنَ مِن حُكمِ اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهَذَا هُوَ الكَافِرُ حَقًّا.

وَيَنبَغِي التَّنَبُّهُ إِلَىٰ أَنَّ لَفظَ التَّشرِيعِ فِيهِ اشتِرَاكٌ، فَلَا يُجعَلُ مُجَرَّدُهُ مُستَلزِمًا لِلتَّكفِيرِ، وَلَا يَلزَمُ مِنهُ تَكفِيرُ كُلِّ مُبتَدِعٍ فِي بِدعَةٍ غَيرِ مُكَفِّرَةٍ.

المُرَادُ بِالتَّشرِيعِ هُنَا: بَسطُ ذَلِكَ لِلنَّاسِ وَإِلزَامُهُم بِهِ، لَا مُجَرَّدُ الفِعلِ لِنَفسِهِ.

ثَالِثًا: الحُكمُ لِلَّهِ وَقِسمَاهُ:

ذَكَرَ اللهُ أَنَّ لَهُ الحُكمَ، وَهُوَ نَوعَانِ:

حُكمٌ كَونِيٌّ: كَالإِحيَاءِ وَالإِمَاتَةِ، وَالإِفقَارِ وَالإِغنَاءِ، وَتَصرِيفِ الأُمُورِ؛ يَفعَلُ مَا يَشَاءُ سُبحَانَهُ.

حُكمٌ شَرعِيٌّ: يَقضِي بِالحَقِّ، وَيَحكُمُ مَا يُرِيدُ.

وَدَخَلَ فِي البَابِ مَسأَلَةُ التَّحسِينِ وَالتَّقبِيحِ قَبلَ وُرُودِ الشَّرعِ، وَأَنَّ مِنَ الأَشيَاءِ مَا يَقبَلُهُ العَقلُ مِنَ الأُصُولِ كَتَوحِيدِ اللهِ وَقُبحِ أَضدَادِهِ، وَمِنهَا مَا لَا يُدرِكُ حُكمَهُ إِلَّا بَعد

وُرُودِ الشَّرعِ.

وَقَد نُقِلَ عَن سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ أَنَّهُ قَالَ: كَانُوا يُقِيمُونَ عَلَىٰ أُمُورِ الجَاهِلِيَّةِ حَتَّىٰ يَأتِيَ الأَمرُ وَالنَّهيُ مِنَ الشَّرعِ، فَإِذَا أَتَىٰ الأَمرُ وَالنَّهيُ انتَقَلُوا إِلَىٰ الشَّرعِ.

وَتُجمَعُ هٰذِهِ المَعَانِي بِأَنَّ ابتِدَاءَ الأَحكَامِ فِي تَسمِيَةِ الأَفعَالِ حَسَنًا وَقَبِيحًا، وَفِي تَسمِيَةِ الأَعيَانِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَالخَبَائِثِ، وَفِي تَحدِيدِ الفَرَائِضِ وَالحُدُودِ وَالحَلَالِ وَالحَرَامِ—هُوَ لِلَّهِ وَحدَهُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [سورة المائدة:٤٨].

وَيَنبَغِي التَّنبِيهُ إِلَىٰ أَنَّ مَفهُومَ تَحكِيمِ الشَّرِيعَةِ أَوسَعُ مِمَّا يَظُنُّهُ بَعضُ النَّاسِ؛ فَلَيسَ مَقصُورًا عَلَىٰ فَضِّ النِّزَاعَاتِ فِي الدُّنيَا فَحَسبُ، بَل يَشمَلُ أَن يَكُونَ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ هُمَا المَرجِعَ فِي:

العِبَادَاتِ وَصُوَرِهَا وَضَوَابِطِهَا.

التَّوحِيدِ وَالشِّركِ وَأَبوَابِ الأَسمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

المُعَامَلَاتِ وَالأُسرَةِ وَالأَموَالِ وَالسِّيَاسَاتِ وَالحُدُودِ.

فَكُلُّ مَسأَلَةٍ صَغُرَت أَو كَبُرَت لِلَّهِ وَرَسُولِهِ -ﷺ- فِيهَا حُكمٌ: إِمَّا بِنَصٍّ خَاصٍّ، أَو بِدَلِيلٍ عَامٍّ، أَو بِقَاعِدَةٍ شَرعِيَّةٍ، أَو مَقصِدٍ مُعتَبَرٍ.

وَإِنَّمَا تَكُونُ البَلِيَّةُ إِذَا تَصَدَّىٰ لِتَنزِيلِ الأَحكَامِ مَن لَيسَ لَهُ أَهلِيَّةٌ وَرُسُوخٌ.

رَابِعًا: مِمَّا يَدخُلُ فِي مُنَازَعَةِ اللهِ فِي التَّشرِيعِ:

إِنَّ الَّذِي يَبتَدِئُ الحَلَالَ وَالحَرَامَ وَالفَرَائِضَ وَالحُدُودَ هُوَ اللهُ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،

فَمَن دَعَىٰ أَنَّ لَهُ فِي شَيءٍ مِن ذَلِكَ حَقًّا—وَلَو ذَرَّةً—فَهُوَ طَاغُوتٌ يُكفَرُ بِهِ وَيُتَبَرَّأُ مِنهُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [سورة النساء:٥٩].

فَتكرَارُ الفِعلِ (أَطِيعُوا) مَعَ اللهِ وَالرَّسُولِ يُفِيدُ أَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ -ﷺ- وَاجِبَةٌ مُستقِلَّةٌ، وَأَمَّا أُولُو الأَمرِ فَلَم يُعَد مَعَهُمُ الفِعلُ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ طَاعَتَهُم تَابِعَةٌ لِلكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَلَا طَاعَةَ فِي مَعصِيَةٍ.

ثُمَّ قَالَ سُبحَانَهُ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [سورة النساء:٥٩].

وَقَد أَجمَعَ العُلَمَاءُ أَنَّ الرَّدَّ إِلَىٰ اللهِ هُوَ الرَّدُّ إِلَىٰ كِتَابِهِ، وَأَنَّ الرَّدَّ إِلَىٰ الرَّسُولِ بَعدَ وَفَاتِهِ هُوَ الرَّدُّ إِلَىٰ سُنَّتِهِ.

وَمِن أَبيَنِ مَوَاضِعِ الشَّاهِدِ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ﴾ [سورة النساء:٦٠].

فَالطَّاغُوتُ فِي بَابِ التَّنَازُعِ: كُلُّ مَا جُعِلَ عِدلًا لِلكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، أَو نُزِّلَ مَنزِلَتَهُمَا فِي وُجُوبِ الرُّجُوعِ وَالإِذعَانِ؛ سَوَاءٌ سُمِّيَ قَانُونًا، أَو دُستُورًا، أَو أَعرَافًا مُقَدَّمَةً عَلَىٰ حُكمِ اللهِ.

وَمِن صُوَرِ ذَلِكَ مَا ذُكِرَ مِن:

- تَحلِيلِ الحَرَامِ المُجمَعِ عَلَيهِ، وَتَحرِيمِ الحَلَالِ المُجمَعِ عَلَيهِ، عَلَىٰ وَجهِ الِاستِبَاحَةِ.
- تَحرِيمِ مَا أَحَلَّهُ اللهُ وَجَعلِهِ جَرِيمَةً.
- أَن يَرَىٰ أَنَّ حُكمَ اللهِ لَا يَصلُحُ لِهَذَا الزَّمَانِ، وَأَنَّ القَوَانِينَ الوَضعِيَّةَ أَصلَحُ.

○ أَو يَرَىٰ أَنَّ حُكمَ غَيرِ اللهِ أَحسَنُ وَأَعدَلُ مِن حُكمِهِ.

○ أَو يَجعَلَ الحُكمَينِ سَوَاءً: يَقُولُ إِنَّ الحُكمَ بِالشَّرِيعَةِ وَبِغَيرِهَا كِلَاهُمَا جَائِزٌ عَلَىٰ حَدٍّ سَوَاءٍ.

○ أَوِ استِحسَانِ الحَرَامِ وَتَسمِيَتِهِ حُرِّيَّةً شَخصِيَّةً.

○ رَدُّ الفَرَائِضِ بِالإِنكَارِ أَو بِالتَّجرِيمِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف:٣٣].

ثَامِنًا: ضَابِطٌ فِي مَا يُسَمَّىٰ شَرِيعَةً أَو قَانُونًا:

لَيسَ كُلُّ نِظَامٍ يُسَمَّىٰ «قَانُونًا» يُحكَمُ عَلَيهِ بِأَنَّهُ شَرِيعَةٌ مُنَازِعَةٌ لِلَّهِ؛ كَمَا يُذكَرُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِتَنظِيمِ الطُّرُقِ وَالمُرُورِ وَالأَورَاقِ وَنَحوِ ذَلِكَ؛ بَل يُنظَرُ فِي مَضمُونِهِ: فَقَد يَحتَوِي مَعَاصِيَ أَو رِبًا أَو جَهَالَةً وَنَحوَ ذَلِك، وَيَكُونُ فِيهِ مُخَالَفَةٌ، وَلَكِنَّهُ لَا يَلزَمُ أَن يَكُونَ ابتِدَاءً لِلحُكمِ مُنَازَعَةً لِلَّهِ فِي حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ وَحُدُودِهِ وَفَرَائِضِهِ.

وَقَد يُخطِئُ بَعضُ النَّاسِ فَيُكَفِّرُ بِدُونِ فَهمٍ، وَيَستَدِلُّ بِآيَاتِ اللهِ فِي غَيرِ مَوضِعِهَا.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ الطَّاغُوتَ لَيسَ مُقتَصَرًا عَلَىٰ صَنَمٍ يُعبَدُ، بَل يَدخُلُ فِيهِ كُلُّ مَا يُنَازِعُ الوَحيَ فِي مَقَامِ الِاتِّبَاعِ وَالطَّاعَةِ وَالتَّحَاكُمِ، وَأَنَّ أَصلَ الإِيمَانِ فِي هَذَا البَابِ هُوَ: تَحكِيمُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالرِّضَا بِحُكمِهِمَا وَالتَّسلِيمُ لَهُمَا، وَأَن يَكُونَ الرُّجُوعُ فِي التَّنَازُعِ إِلَىٰ اللهِ وَالرَّسُولِ -ﷺ-، لَا إِلَىٰ الطَّاغُوتِ.

صِفَةُ الكُفرِ بِالطَّاغُوتِ الَّتِي لَا يَتَحَقَّقُ الرُّكنُ الأَوَّلُ (وَهُوَ الكُفرُ بِالطَّاغُوتِ) إِلَّا بِتَحقِيقِهَا

🖹 اجتِنَابُ عِبَادَتِهِ وَتَركُهَا

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [سورة النحل:٣٦]

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [سورة الزمر:١٧]

أَي: لَهُمُ البُشرَىٰ فِي الدُّنيَا، وَبِالجَنَّةِ فِي الآخِرَةِ، فَمَن لَم يُحَقِّقِ اجتِنَابَ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ فَلَا بُشرَىٰ لَهُ بِالجَنَّةِ، وَمَأوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئسَ المَصِيرُ.

وَجهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الآيَتَينِ:

أَنَّ فِيهِمَا مَعنَىٰ النَّفيِ وَالإِثبَاتِ الَّذِي أَتَت بِهِ كَلِمَةُ التَّوحِيدِ؛ فَأَثبَتَ اللهُ التَّوحِيدَ لِمَن عَبَدَ اللهَ وَحدَهُ، وَاجتَنَبَ عِبَادَةَ مَا سِوَاهُ.

وَمِنهُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة النساء:٣٦]

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء:٢٣]

🖹 اعتِقَادُ بُطلَانِ عِبَادَةِ كُلِّ مَن عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ

سَوَاءٌ كَانَ:

صَلِيبًا، أَو قَبرًا، أَو وَثَنًا، بِجَمِيعِ العِبَادَاتِ البَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ.

أَو طَاغُوتًا مُشَرِّعًا عُبِدَ بِالتَّحَاكُمِ، أَو عَالِمَ سَوءٍ كَافِرًا مُتَّبَعًا.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سورة الحج:٦٢]

وَجهُ الدَّلَالَةِ: أَثبَتَ اللهُ أَنَّ عِبَادَتَهُ هِيَ الحَقُّ، وَأَثبَتَ أَنَّ عِبَادَةَ غَيرِهِ هِيَ البَاطِلُ، فَأَثبَتَ استِحقَاقَهُ لِلعِبَادَةِ، وَنَفَىٰ ذَلِكَ عَن غَيرِهِ.

بُغضُ الطَّاغُوتِ وَعُبَّادِهِ وَعَدَاوَتُهُم

وَإِنَّمَا قُرِنَ البُغضُ بِالعَدَاوَةِ لِأَنَّ أَصلَ العَدَاوَةِ فِي القَلبِ هُوَ البُغضُ، وَأَمَّا إِظهَارُ العَدَاوَةِ مِن تكفِيرٍ وَتَسفِيهٍ فَلَيسَ مِن أَصلِ الكُفرِ بِالطَّاغُوتِ، بَل مِن كَمَالِهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة الشعراء:٧٥-٧٧]

وَجهُ الدَّلَالَةِ: أَنَّ الآيَاتِ تَضَمَّنَتِ النَّفيَ وَالإِثبَاتَ؛ فَأَثبَتَ إِبرَاهِيمُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- عَدَاوَتَهُ لِمَعبُودَاتِ الكُفَّارِ، وَنَفَىٰ أَن يَكُونَ اللهُ عَدُوًّا لَهُ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [سورة المجادلة:٢٢]

فَمَن أَحَبَّ المُشرِكِينَ لِدِينِهِم فَمَحَبَّتُهُ لَهُم لِأَجلِ دِينِهِم دَلِيلٌ عَلَىٰ انتِفَاءِ إِيمَانِهِ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [سورة طه:٣٩]

وَفِي الحَدِيثِ القُدسِيِّ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَن عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَد آذَنتُهُ بِالحَربِ».

فَالإِيمَانُ الوَاجِبُ يَقتَضِي:

مَحَبَّةَ اللهِ.

وَمَحَبَّةَ مَا يُحِبُّهُ اللهُ.

وَبُغضَ مَا يُبغِضُهُ اللهُ.

وَلَا يَجُوزُ الجَمعُ بَينَ مَحَبَّةِ اللهِ وَمَحَبَّةِ أَعدَائِهِ عَلَىٰ دِينِهِم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [سورة الممتحنة:١]

وَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «أَوْثَقُ عُرَىٰ الإِيمَانِ الحُبُّ فِي اللهِ وَالبُغْضُ فِي اللهِ».

فَالبَرَاءَةُ مِنَ المُشرِكِينَ أَصلٌ وَاجِبٌ، وَمُخَالَفَتُهُ دَرَجَاتٌ:

مُوَالَاةٌ تَامَّةٌ = كُفرٌ أَكبَرُ.

مُوَالَاةٌ نَاقِصَةٌ = مَعصِيَةٌ عَظِيمَةٌ مُحَرَّمَةٌ.

وَمِن صُوَرِ المُوَالَاةِ الكُفرِيَّةِ:

الفَرَحُ بِعُلُوِّ دِينِ الكُفَّارِ.

مَحَبَّةُ الكَافِرِ لِأَجلِ كُفرِهِ.

وَمِنَ المُوَالَاةِ المُحَرَّمَةِ دُونَ الكُفرِ:

مَحَبَّتُهُم لِأَجلِ أَمرٍ دُنيَوِيٍّ.

وَمِن فُرُوعِ المُوَالَاةِ أَيضًا: التَّشَبُّهُ بِالكُفَّارِ فِي الهَيئَاتِ وَالعَادَاتِ.

قَالَ -ﷺ-: «مَن تَشَبَّهَ بِقَومٍ فَهُوَ مِنهُم».

البَرَاءَةُ مِنَ الطَّاغُوتِ وَعُبَّادِهِ

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الممتحنة:٤].

فَحَقِيقَةُ التَّوحِيدِ - أَيُّهَا المُسلِمُ - قَائِمَةٌ عَلَىٰ البَرَاءِ وَالوَلَاءِ: البَرَاءَةُ مِن عِبَادَةِ غَيرِ اللهِ، وَالوَلَاءُ لِلَّهِ وَحدَهُ.

كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الزخرف:٢٦-٢٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ [سورة الأنعام:٧٨-٧٩]

فَيَجِبُ عَلَىٰ المُسلِمِ أَن يَتَجَرَّدَ عَن عِبَادَةِ مَا سِوَىٰ العَزِيزِ الحَكِيمِ، وَيُفرِدَهُ بِالعِبَادَةِ؛ فَالتَّجرِيدُ نَفيٌ، وَالتَّفرِيدُ إِثبَاتٌ، وَمَجمُوعُهُمَا التَّوحِيدُ، وَهَذَا هُوَ التَّوحِيدُ المُنجِي الَّذِي تُنَالُ بِهِ السَّعَادَةُ.

٦٦٥ - **عَن جَرِيرِ بنِ عَبدِ اللهِ البَجَلِيِّ** - رضي الله عنه - **قَالَ:** قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اشتَرِط عَلَيَّ، فَقَالَ: «تَعبُدُ اللهَ وَلَا تُشرِكُ بِهِ شَيئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ المَكتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ المَفرُوضَةَ، وَتَنصَحُ لِلمُسلِمِ، وَتَبَرَّأُ مِنَ الكَافِرِ».

٦٦٦ - **وَفِي رِوَايَاتٍ عِندَ أَحمَدَ وَغَيرِهِ:** «وَعَلَىٰ فِرَاقِ المُشرِكِ»، وَ«وَيُفَارِقُ المُشرِكَ».

٦٦٧ - **وَبَوَّبَ لَهُ النَّسَائِيُّ بِقَولِهِ:** البَيعَةُ عَلَىٰ فِرَاقِ المُشرِكِ.

٥) تَكفِيرُ المُشرِكِينَ وَنَفيُ التَّوحِيدِ عَنهُم

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ [سورة غافر:٨٤].

وَجهُ الدَّلَالَةِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إِذَا ذَكَرَ الإِثبَاتَ وَالنَّفيَ فِي القُرآنِ جَعَلَ مَا يُقَابِلُ الإِيمَانَ بِهِ هُوَ الكُفرَ بِالطَّاغُوتِ، وَفِي هَذَا المَوضِعِ جَعَلَ مَا يُقَابِلُ الإِيمَانَ بِهِ تَكفِيرَ المُشرِكِينَ (شَهَادَتَهُم عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالشِّركِ).

وَالقَاعِدَةُ: أَنَّ الكُلَّ إِذَا عُبِّرَ عَنهُ بِالجُزءِ كَانَ ذَلِكَ الجُزءُ أَصلًا وَرُكنًا لَا يَصِحُّ ذَلِكَ الكُلُّ إِلَّا بِهِ، كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ [سورة البقرة:١٤٣]،

أَي: صَلَاتُكُم إِلَىٰ بَيتِ المَقدِسِ.

فَاحتَجَّ أَهلُ السُّنَّةِ بِهَذِهِ الآيَةِ عَلَىٰ أَنَّ الصَّلَاةَ مِنَ الإِيمَانِ.

فَدَلَّت آيَةُ غَافِرٍ عَلَىٰ أَنَّ الكُفرَ بِالطَّاغُوتِ لَا يَصِحُّ إِلَّا بِتَكفِيرِ المُشرِكِينَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ بَعدَهَا: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [سورة غافر: ٨٥].

فَسَمَّىٰ اللهُ دَعوَاهُمُ الإِيمَانَ بِهِ وَشَهَادَتَهُم عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالشِّركِ إِيمَانًا

فَمَن جَعَلَ المُشرِكِينَ مِن أَهلِ التَّوحِيدِ فَقَدِ انتَقَضَ عِندَهُ أَصلُ التَّوحِيدِ، وَهُوَ كَاذِبٌ فِي قَولِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وَيَجمَعُ البَرَاءَةَ مِنَ المُشرِكِينَ وَتَكفِيرَهُم وَبُغضَهُم قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [سورة الممتحنة: ٤].

فَهَذِهِ الآيَةُ تَضَمَّنَتِ النَّفيَ وَالإِثبَاتَ:

النَّفيُ: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ ... كَفَرْنَا بِكُمْ﴾

وَالإِثبَاتُ: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [سورة الممتحنة: ٤]

وَاعلَم أَنَّهُ لَم يَأتِ نَبِيٌّ إِلَّا بِتَكفِيرِ المُشرِكِينَ.

وَمَن زَعَمَ أَنَّ اللهَ لَم يَتَعَبَّدنَا بِتَكفِيرِ المُرتَدِّينَ، وَلَم يَسأَلنَا عَن تَكفِيرِ مَن وَقَعَ فِي الشِّركِ، فَقَد أَعظَمَ عَلَىٰ اللهِ الفِريَةَ.

تَقدِيمُ البَرَاءَةِ مِنَ العَابِدِينَ عَلَىٰ المَعبُودِينَ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الممتحنة: ٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [سورة الكهف: ١٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة مريم:٤٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة مريم:٤٩].

يَقُولُ الشَّيْخُ حَمَدُ بنُ عَتِيقٍ فِي «سَبِيلِ النَّجَاةِ وَالفِكَاكِ»: «وَهَاهُنَا نُكتَةٌ بَدِيعَةٌ، وَهِيَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدَّمَ البَرَاءَةَ مِنَ المُشرِكِينَ العَابِدِينَ غَيرَ اللهِ، عَلَىٰ البَرَاءَةِ مِنَ الأَوثَانِ المَعبُودَةِ مِن دُونِ اللهِ؛ لِأَنَّ الأَوَّلَ أَهَمُّ مِنَ الثَّانِي، فَإِنَّهُ إِن تَبَرَّأَ مِنَ الأَوثَانِ وَلَم يَتَبَرَّأ مِمَّن عَبَدَهَا لَا يَكُونُ آتِيًا بِالوَاجِبِ عَلَيهِ.

وَأَمَّا إِذَا تَبَرَّأَ مِنَ المُشرِكِينَ فَإِنَّ هَذَا يَستَلزِمُ البَرَاءَةَ مِن مَعبُودَاتِهِم...فَعَلَيكَ بِهَذِهِ النُّكتَةِ، فَإِنَّهَا تَفتَحُ لَكَ بَابًا إِلَىٰ عَدَاوَةِ أَعدَاءِ اللهِ. فَكَم مِن إِنسَانٍ لَا يَقَعُ مِنهُ الشِّركُ، وَلَكِنَّهُ لَا يُعَادِي أَهلَهُ، فَلَا يَكُونُ مُسلِمًا بِذَلِكَ؛ إِذ تَرَكَ دِينَ جَمِيعِ المُرسَلِينَ».

خُلَاصَةُ الكُفرِ بِالطَّاغُوتِ:

تَركُ عِبَادَتِهِ.

اعتِقَادُ بُطلَانِ عِبَادَتِهِ.

البَرَاءَةُ مِنهُ وَمِن عُبَّادِهِ.

تَكفِيرُهُم وَبُغضُهُم.

وَالكُفرُ بِالطَّاغُوتِ فِي التَّشرِيعِ: بِاعتِقَادِ بُطلَانِ الحُكمِ الكُفرِيِّ، وَتَركِ التَّحَاكُمِ إِلَيهِ، وَتَكفِيرِ مَن شَرَعَهُ وَتَحَاكَمَ إِلَيهِ وَمَن رَضِيَ بِهِ.(١)

---

(١) **قَالَ الشَّيخُ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِالوَهَّابِ:** فَالنَّهيُ عَنِ الشِّركِ يَستَلزِمُ الْكُفرَ بِالطَّاغُوتِ، و الْإِيمَانَ بِاللهِ، وَهَذَا وَإِن كَانَ مُتَلَازِمًا فَيُوَضِّحُهُ لَكُم الْوَاقِعُ، هُوَ أَن كثيراً مِنَ النَّاسِ يَقُولُ: لَا أَعبُدُ إِلَّا اللهَ، وَأَنَا أَشهَدُ بِكَذَا، وَأُقِرُّ بِكَذَا، وَيُكثِرُ الْكَلَامَ، فَإِذَا قِيلَ لَهُ: مَاتَقُولُ فِي فُلَانٍ وَفُلَانٍ إِذَا عَبَدَ أَو عُبِدَ مِن دُونَ اللهِ، قَالَ: مَا عَلَيَّ مِنَ النَّاسِ،

مَسَائِلُ مُتَفَرِّقَةٌ فِي الكُفرِ بِالطَّاغُوتِ

المَسأَلَةُ الأُولَىٰ: النَّهيُ عَنِ الحَلِفِ بِالطَّوَاغِيتِ

٦٦٨ - **رَوَىٰ مُسلِمٌ (١٦٤٨) عَن عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ سَمُرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنهُ - قَالَ:** قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ -: «لَا تَحلِفُوا بِالطَّوَاغِي وَلَا بِآبَائِكُم».

وَفِي لَفظٍ: «بِالطَّوَاغِيتِ».

٦٦٩ - **قَالَ الحَربِيُّ فِي غَرِيبِ الحَدِيثِ (٢/ ٦٤٢):** كَذَا قَالَ هِشَامٌ، وَأَسنَدَ الحَدِيثَ، وَأَرسَلَهُ أَصحَابُ الحَسَنِ: ابنُ عَونٍ، وَحُمَيدٌ، وَأَشعَثُ، وَيُونُسُ، وَأَبُو الأَشهَبِ، وَمُبَارَكٌ، وَعَوفٌ، وَعَمرُو بنُ عُبَيدٍ، وَقَالُوا: «وَلَا بِالطَّوَاغِيتِ».

قَالَ: وَهَذَا كُلُّهُ لَهُ وَجهٌ فِي النَّهيِ عَنِ الحَلِفِ بِالطَّوَاغِيتِ؛ لِأَنَّ وَاحِدَهَا طَاغُوتٌ، وَهُوَ الشَّيطَانُ؛ لِأَنَّ الشَّيطَانَ فِي قَولِ أَبِي عُبَيدَةَ: كُلُّ فَائِقٍ فِي الشَّرِّ، مُتَمَرِّدٍ فِيهِ، مِن إِنسَانٍ أَو دَابَّةٍ، فَكَأَنَّهُ نَهَاهُم أَن يَحلِفُوا بِعُظَمَائِهِم، وَبِمَن جَاوَزَ القَدرَ فِي الشَّرِّ وَتَمَرَّدَ، كَكَعبِ بنِ الأَشرَفِ، وَحُيَيِّ بنِ أَخطَبَ.

وَكَفَّارَةُ مَن حَلَفَ بِهَا مَا رَوَىٰ أَبُو هُرَيرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ -: «مَن حَلَفَ مِنكُم فَقَالَ فِي حَلِفِهِ بِاللَّاتِ، فَلْيَقُل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

المَسأَلَةُ الثَّانِيَةُ: المَوتُ عَلَىٰ الكُفرِ بِالطَّاغُوتِ

٦٧٠ - **رَوَىٰ الدَّارِمِيُّ فِي سُنَنِهِ (٣٢٢٨) عَن مَكحُولٍ حِينَ أَوصَىٰ، قَالَ:** «تَشهَدُ هَذَا - مَا شَهِدَ بِهِ -: نَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ،

اللهُ أَعلَمُ بِحَالِهِم، وَيَظُنُّ بِبَاطِنِهِ أَن ذَلِكَ لَا يَجِبُ عَلَيهِ.

الرَّسَائِلُ الشَّخصِيَّةُ (١٦٣).

وَيُؤمِنُ بِاللهِ وَيَكفُرُ بِالطَّاغُوتِ؛ عَلَىٰ ذَلِكَ يَحيَا إِن شَاءَ اللهُ، وَيَمُوتُ، وَيُبعَثُ».

٦٧١ - وَرَوَىٰ الطَّبَرِيُّ فِي تَفسِيرِهِ (٥٨٤٦) بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَن أَبِي الدَّردَاءِ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ-:

أَنَّهُ عَادَ مَرِيضًا مِن جِيرَتِهِ، فَوَجَدَهُ فِي السُّوقِ وَهُوَ يُغَرغِرُ، لَا يَفقَهُونَ مَا يُرِيدُ، فَسَأَلَهُم: «يُرِيدُ أَن يَنطِقَ؟» قَالُوا: نَعَم، يُرِيدُ أَن يَقُولَ: آمَنتُ بِاللهِ وَكَفَرتُ بِالطَّاغُوتِ.

فَقَالَ أَبُو الدَّردَاءِ: «أَفلَحَ صَاحِبُكُم»، ثُمَّ تَلَا قَولَهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [سورة البقرة:٢٥٦].

المَسأَلَةُ الثَّالِثَةُ: الذِّكرُ بِالكُفرِ بِالطَّاغُوتِ عِندَ النَّومِ

٦٧٢ - رَوَىٰ الطَّبَرَانِيُّ فِي الكَبِيرِ (٣٤٥٤) وَمُسنَدِ الشَّامِيِّينَ (١٦٧٦) بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَن أَبِي مَالِكٍ الأَشعَرِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: «لِيَقُل أَحَدُكُم حِينَ يُرِيدُ أَن يَنَامَ: آمَنتُ بِاللهِ وَكَفَرتُ بِالطَّاغُوتِ، وَعدُ اللهِ حَقٌّ، وَصَدَقَ المُرسَلُونَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن طَوَارِقِ هَذَا اللَّيلِ إِلَّا طَارِقًا يَطرُقُ بِخَيرٍ».

٦٧٣ - وَرَوَىٰ الطَّبَرَانِيُّ فِي الأَوسَطِ (٩٠١٧) وَالخَرَائِطِيُّ فِي مَكَارِمِ الأَخلَاقِ (٩٧٧) بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَن عَمرِو بنِ شُعَيبٍ، عَن أَبِيهِ، عَن جَدِّهِ قَالَ: «مَن قَالَ حِينَ يَتَحَرَّكُ مِنَ اللَّيلِ: بِسمِ اللهِ، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، تَوَكَّلتُ عَلَىٰ اللهِ، وَآمَنتُ بِاللهِ، وَكَفَرتُ بِالطَّاغُوتِ، عَشرَ مَرَّاتٍ؛ وُقِيَ كُلَّ شَيءٍ يَتَخَوَّفُهُ».

المَسأَلَةُ الرَّابِعَةُ: تَعلِيمُ الصِّغَارِ الكُفرَ بِالطَّاغُوتِ

٦٧٤ - رَوَىٰ ابنُ أَبِي شَيبَةَ (٣٤٩٩) عَن جَعفَرٍ، عَن أَبِيهِ قَالَ:

كَانَ عَلِيُّ بنُ الحُسَينِ يُعَلِّمُ وَلَدَهُ، يَقُولُ: «قُل: آمَنتُ بِاللهِ وَكَفَرتُ بِالطَّاغُوتِ».

المَسأَلَةُ الخَامِسَةُ: أَهلُ القِبلَةِ لَا يُسَمَّونَ طَوَاغِيت

٦٧٥- **رَوَىٰ الحَارِثُ فِي مُسنَدِهِ (٣٦)، وَمِن طَرِيقِهِ أَبُو نُعَيمٍ فِي صِفَةِ النِّفَاقِ، وَاللَّالَكَائِيُّ فِي السُّنَّةِ، عَن وَهبِ بنِ مُنَبِّهٍ قَالَ:** سَأَلتُ جَابِرًا: «هَل فِي المُصَلِّينَ مِن طَوَاغِيتَ؟» قَالَ: لَا، قُلتُ: «هَل مِنهُم مُشرِكٌ؟» قَالَ: لَا.

٦٧٦- **وَعَن سُلَيمَانَ بنِ قَيسٍ اليَشكُرِيِّ قَالَ: قُلتُ لِجَابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ:** «أَفِي أَهلِ القِبلَةِ طَوَاغِيتُ؟» قَالَ: لَا، قُلتُ: «أَكُنتُم تدعُونَ أَحَدًا مِن أَهلِ القِبلَةِ مُشرِكًا؟» قَالَ: لَا.

الفهرست

المقدمة ١
الفقرة الأولى ١٣
الفقرة الثانية ٢٠
مَسألَةٌ: مَعنَى البَسمَلَة: ٢٣
الفقرة الثالثة ٣٢
الفقرة الرابعة ٣٦
مسألة: أن الإيمان بالأصول لا بُدَّ لهُ مِن حَدٍّ وصِفَةٍ: ٤٠
مسألة: العلم المُستَحَب، والعُلوم الدُّنيَوِيَّةُ: ٤١
أولاً: معرفة الله: ٤٢
ثانيًا: معرفةُ النبيِّ - ﷺ -: ٥٣
ثالثًا: معرفةُ دين الإسلام بالأدلة: ٥٧
الفقرة الخامسة ٦١
الفقرة السادسة ٧٢
مسألة: أنَّ الدَّعوَةَ واجِبَةٌ عَلَى كلِّ مُسلِمٍ بِحسَبِ قُدرَتِه: ٧٣
مسألة: أنَّ الدَّعوَةَ ميراثُ النُّبُوَّة، وأنها لكلِّ أحَدٍ بِحسَبِه: ٧٤
مَسألَة: بَواعِثُ القيامِ بِالدَّعوَةِ إلَى الله: ٧٦
مسألة: ثمَراتُ الحِرصِ عَلَى الدَّعوَة: ٧٩
مسألة: الوَصايا المركَزِيَّةُ للدُّعاة: ٨٠
الفقرة السابعة ٨٩
مسألة: أقسامُ الصَّبرِ الثَّلاثَةُ: ٩١

مسألة: أنَّ الأذى سُنَّةٌ ماضيَةٌ في الأنبياء وأتباعِهم: ٩١
مسألة: أنَّ النبيَّ -ﷺ- أُوذيَ فصبرَ، فَهُوَ القُدوَةُ ٩٢
مسألة: ضرورَةُ الصَّبر في العلمِ: ٩٣
مسألة: ضرورَةُ الصَّبر في العمَلِ الصَّالِح: ٩٥
مسألة: أنَّ الصَّبرَ عُمدَةُ الطَّريقِ، وأنَّ جِهادَ النَّفسِ أربَعُ مراتِبَ: ٩٥
الفقرة الثامنة ٩٩
مسألة: القسم بِالعصر، وما يتعلق به: ٩٩
مسألة: أنَّ القَسَمَ بِالمخلوق خاصٌّ بِاللهِ: ١٠٠
مسألة: جواب القسم، ومؤكداته الثلاثة: ١٠٢
مسألة: المراد بالإنسان، وأنَّ الاستثناء معيار العموم: ١٠٣
مسألة: أنواع الخسارة: ١٠٣
مسألة: أنَّ سائر الخصال داخلة في العمل الصالح: ١٠٥
الفقرة التاسعة ١٠٨
مسألة: النَّهي عن القول والعمَل بلا علم: ١١٠
الفقرة العاشرة ١١٦
الفقرة الحادي عشر. ١٢٠
الفقرة الثاني عشر. ١٣٤
مسألة: معنى الشرك: ١٣٦
مسألة: خطورة الشرك: ١٣٩
مسألة: أضرار الشرك وأخطاره ومفاسده: ١٤٦
مسألة: أنَّ عبادة غير الله أشد من إنكار الرسالة: ١٤٨
مسألة: نوعا الدُّعاء في الآيَة: ١٥٤
الفقرة الثالثة عشر. ١٦٣
مسألة: قبح الشرك وبشاعته: ١٦٦

مسألة: فوائدُ الوَلاء والبَراء ١٧٠
مسألةٌ: أقسامُ المحَبَّة ١٧٩
مسألة: أقسام موالاة الكُفَّار ودرَجاتُها ١٨١
الفقرة الرابعة عشر ١٨٦
مسألة: حقيقَةُ الحنيفيَّة في الاصطلاحِ الشَّرعيِّ ١٨٨
مسألة: أنَّ الحنيفيَّةَ لا تتمُّ إلَّا بِعَمَلٍ ظاهِرٍ ١٩١
مسألة: معنى الملَّة في الاصطلاح الشَّرعي ١٩٣
مسألة: ميزان الإيمان الصَّحيح ١٩٨
الفقرة الخامسة عشر ٢٠٢
مسألة: أنَّ التَّوحيدَ يُنجي صاحِبَهُ ٢١٥
مسألة: فضائلُ التَّوحيد ٢١٥
مسألة: أقسامُ التَّوحيدِ الثَّلاثَةُ ٢١٦
مسألة: الأمران اللَّذان يقتَضيهِما إفرادُ الله بِالعبادَة ٢١٨
مسألة: أعظَمُ ما نهى اللهُ عنهُ: الشِّركُ ٢١٩
مسألة: انفِرادُ الشِّركِ عن سائرِ الكبائرِ بِثلاثَة أمورٍ ٢٢٠
مسألة: لِمَ كانَ الشِّركُ أعظَمَ الذُّنوبِ؟ ٢٢١
مسألة: عُمومُ النَّهيِ عنِ الشِّركِ، والاستدلالُ بِآيَة النِّساء ٢٢٢
مسألة: أنواعُ الشِّركِ ٢٣٠
الفقرة السادسة عشر ٢٣٤
الفقرة السابعة عشر ٢٤٠
مسألة: شرحُ الدَّليلِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [سورة الفاتحة:٢] ٢٤٥
مسألة: معنى اللَّامِ في «للهِ» ٢٤٥
مسألة: معنى «ربِّ العالمينَ» ٢٤٦
مسألة: تعريفُ توحيد الرُّبوبيَّة وأدلَّتُهُ ٢٤٧
مسألة: إطلاقُ لفظِ «الرَّبِّ» ٢٤٩

مسألة: معاني «الرَّبِّ» عندَ أهلِ اللُّغَة: ٢٥٠
مسألة: أفعالُ الرُّبوبيَّة، ومرجِعُها إلى التَّدبيرِ: ٢٥١
مسألة: أنواعُ رُبوبيَّة اللهِ تعالى: ٢٥٢
مسألَة: مخُالَفاتُ الرُّبوبيَّة والقوادحُ فيها ٢٥٢
مسألة: أقسامُ قوادِحِ الرُّبوبيَّة: ٢٥٣
مسألة: وُقوعُ الشِّركِ الأصغَرِ في الربوبيَّة: ٢٥٩
مسألة: أعظَمُ نواقِضِ الربوبيَّة: إنكارُ وُجودِ الرَّبِّ: ٢٦٠
مسألة: أسبابُ ظُهور نواقِضِ الربوبيَّة في العصرِ الحديثِ: ٢٦٢
مسألَة: أنواعُ الأدلَّة على إقرارِ المُشرِكينَ بِرُبوبيَّة اللهِ: ٢٦٦
الفقرة الثامنة عشر ٢٧٣
مسألة: أنَّ آياتِ الآفاقِ والأنفُسِ عِصمَةٌ مِنَ الشِّركِ: ٢٧٥
مسألة: التَّفَكُّرُ في السَّماءِ والأرضِ والنَّفسِ: ٢٧٩
الفقرة التاسعة عشر ٢٨٧
مسألة: المعبود لابد أن يكون خالقًا ٢٨٧
الفقرة العشرون ٢٩٤
مسألة عبادةُ الدُّعاء: أعظَمُ أنواعِ العبادَة ٢٩٨
الفقرة الواحد والعشرون ٣٠٤
الفقرة الثاني والعشرون ٣٢٣
مسألَة: أيُّهُما يُغَلَّبُ؟ ٣٢٥
مسألة: أسبابُ الخوفِ مِنَ اللهِ تعالى: ٣٢٧
مسألة: الآياتُ الدَّالَّة على عبادَة الخوفِ: ٣٢٨
مسألة: تجلِّي خوفِ السِّرِّ في واقِعِ عُبَّادِ القُبورِ: ٣٣٤
مسألة: حدُّ الخوفِ الواجِبِ: ٣٤٩
مسألة: عبادَةُ الرَّجاءِ: ٣٦٢

مسألة: الرَّجاءُ المحمودُ والرَّجاءُ المذمومُ: ٣٦٥
مسألة: أقسامُ الرَّجاء بِحَسَبِ مُتَعَلَّقِهِ: ٣٦٥
مسألة: أسبابُ الرَّجاء في الله تعالى: ٣٦٦
مسألة: ما الَّذي نخافُهُ؟ وما الَّذي نرجوهُ؟ ٣٧٤
مسألة: مقاما العبد مع الخوف، ومُتَعَلَّقُ الرَّجاء ٣٧٥
مسألة: علاماتُ الخوفِ والرَّجاء الصَّحيحَيْنِ: ٣٧٦
دليل التوكُّل: ٣٧٩
مسألة: العِلَلُ وَالأَخطَاءُ فِي التَّوَكُّلِ: ٣٩٩
مَسأَلَةٌ: الفَرقُ بَينَ التَّوَكُّلِ وَالتَّوكِيلِ، وَحُكمُ قَول القَائلِ: «أَنَا مُتَوَكِّلٌ عَلَيكَ» ٤٠٨
مَسأَلَةٌ: أَنوَاعُ الشِّركِ فِي الشَّرِيعَة ٤١١
الفقرة الثالث والعشرون ٤٢٥
الفقرة الرابع والعشرون ٤٣٦
الفقرة الخامس والعشرون ٤٣٩
الفقرة السادس والعشرون ٤٤٦
الفقرة السابع والعشرون ٤٤٩
مَسأَلَةٌ مُهِمَّةٌ: هَل حُصُولُ المَطلُوبِ يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ الفعلِ؟ ٤٥٨
الفقرة الثامن والعشرون ٤٦٥
الفقرة التاسع والعشرون ٤٧٦
الفقرة الثلاثون ٥١٤
الفقرة الواحد والثلاثون ٥٢٠
الفقرة الثاني والثلاثون ٥٣٥
الفقرة الثالث والثلاثون ٥٣٦
الفقرة الرابع والثلاثون ٥٤٥
الفقرة الخامس والثلاثون ٥٥٩

الفقرة السادس والثلاثون ٥٦٩
الفقرة السابع والثلاثون ٥٨٢
الفقرة الثامن والثلاثون ٥٩٦
الفقرة التاسع والثلاثون ٦٠٠
الفقرة الأربعون ٦٠٥
الفقرة الواحد والأربعون ٦١٠
مَسأَلَةٌ: حُكمُ تَعَلُّمِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ ٦١٢
الفقرة الثاني والأربعون ٦٢٠
الفقرة الثالث والأربعون ٦٢٣
الفقرة الرابع والأربعون ٦٢٨
الفقرة الخامس والأربعون ٦٣٥
الفقرة السادس والأربعون ٦٤٢
الفقرة السابع والأربعون ٦٤٩
مَسأَلَةٌ: خَصَائِصُهُ -ﷺ-: ٦٦٢
الفقرة الثامن والأربعون ٦٦٧
مَسأَلَةٌ: حُكمُ مَن كَذَّبَ بِالبَعثِ: ٦٧١
الفقرة التاسع والأربعون ٦٧٨
الفقرة الخمسون ٦٩٨
مَسأَلَةٌ: أَبرَزُ الوُجُوهِ الَّتِي يَدُورُ عَلَيهَا الطَّاغُوتُ فِي القُرآنِ وَالأَثَرِ: ٧١٣
مَسأَلَةٌ: التَّشرِيعُ وَصفٌ خَاصٌّ لِلرَّبِّ -جَلَّ-: ٧٢٩
مَسَائِلُ مُتَفَرِّقَةٌ فِي الكُفرِ بِالطَّاغُوتِ ٧٤٠